الموسوعة في سماحة الإسلام

المجلد الأول

بقلم
محمد الصادق عرجون
عميد كلية أصول الدين
بجامعة الأزهر سابقاً

الدار السعودية للنشر والتوزيع
SAUDI PUBLISHING & DISTRIBUTING HOUSE

بسم الله الرحمن الرحيم

فكرة البحث وبواعثها

الحمد لله رب العالمين ، خلق الإنسان علمه البيان ، ورفع شأن العقل فيه فجعله مناط الإساءة والإحسان ، وربط به التكليف فلم يتعبد أحداً إلا به ولم يعتدّ بعمل من الأعمال إلا إذا كان صادراً عن وزنه وتقديره ، وأطلق له عنان النظر فى عوالم الكون ، يكشف منها ما شاءت له قدرته الموهوبة والمكسوبة ، ويظهر من حقائقها وأسرارها ما يدل على عبوديتها لخالقها ، فهى مسخرة له بقهر قدرته ، مذللة لجلاله بقوة عظمته ، منقادة لمشيئته بزمام تدبيره ، خاضعة لعزته بسلطان حكمته « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم »[1] .

سبحانه كرم نوع الإنسان ، وفضله على كثير من خلقه ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض من عوالم ملكه وملكوته ، ليتخذ من ظواهر الطبيعة وعواملها معارج لرقيه وتقدمه ، حتى يحقق لنفسه خلافة الله فى الأرض ، إظهاراً لمكنون الغيب فى حقيقته الروحية العليا ، التى استأثر الله بعلمها فلم يكشف ذَرواً من مقدورها فى الحياة للملأ الأعلى ، حتى كان منهم العجب لخفاء السبب ، حينما ألقى عليهم النبأ العظيم « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون[2] » .

فكان هذا درساً إلهيا واقعيا من رب خالق عالم ، محيط علمه بكل شيء ، إلى مخلوق يتعلم محدود العلم ، قاس الغائب على الشاهد فعلم ما لم يكن يعلم ، وأشرقت له شمس الحقيقة من أفق الغيب ، فعرف أن العلم بأوسع معانيه

---

(١) سورة الإسراء آية (٤٤)

(٢) سورة البقرة آية (٣٠)

الموهوبة وأعمق صوره المكتسبة هو خصيصة الخلافة الإنسانية فى نوعها وجعل أنموذجها الأول المثل المضروب فى واقع الحياة عند بدء الخلق فى محافل الملكوت «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم» (١) .

ومن هنا كان العلم هو الدعامة الوطيدة التى يقوم عليها بناء الخلافة الإنسانية فى الأرض ، والعلم فى النوع الإنسانى وراثة روحية عن ذلك الأصل الكريم الذى كان محور ذلك الدرس العظيم ، والذى يرجع إليه الناس أمة واحدة مهما اختلفت أشكالهم وألوانهم والسنتهم ، ومواطنهم وازمانهم،وأفكارهم،وعاداتهم،وعقائدهم. فهم أشقة الأرومة إخوة الأصل ، سواسية المنبع «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساءاً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا» (٢) .

فهذا النداء لعامة البشر بعنوانهم الذى يشملهم سواسية دون أن يخص أمة دون أمة، أو جنسا دون جنس، أو فرداً دون فرد، إشارة إلى ما يجب من حق رعاية الإخاء الإنسانى وإلى ما يدعو إلى هذه الرعاية كسبب مباشر من الترابط الرحمى الذى يستمد عناصر وجوده من رحمة الله (أنا الرحمن وهى الرحم شققت لها اسما من اسمى ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته (*)) .

---

(١) سورة البقرة آيتى (٣١ ، ٣٢)   (٢) سورة النساء آية (١)

(*) رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف بلفظ (أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن يصلها أصله ومن يقطعها أقطعه)

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وآخر المرسلين الذى جدد الله به رسالة السماء بعد ما خلقت معالمها، وأحيا ببعثته سنة الأنبياء بعد ما درست بيناتها، ونشر بدعوته آيات الهداية، ومقاطع الحق بعد ماطمست منائرها، وأتم به وله مكارم الأخلاق ومحاسن الفضائل فوصل به ما انقطع من فيض السماء على أهل الأرض بفيض من تنزيله الحكيم وكتابه العربى المبين، وجعله الخاتم لا نبى بعده، ولا كتاب ينزل من السماء بعد كتابه، وجمع له فيه أصول شرائع إخوانه الأنبياء والمرسلين من قبله، وأمره بأخذ هداهم إلى هديه حتى يكون جامعا لأشتات الفضائل فى جميع شرائع السماء « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » (١).

وعلى آله وأصحابه وورثة هديه من العلماء العاملين بشريعته الذين فقههم الله فى دينه فلم يقفوا جامدين عند حرفية نصوصه وظاهر ألفاظه، بل تعمقوا أساليبه وآياته، وغاصوا على براهينه، ومحكم تشريعاته، ففهموا روحه وأسراره، وأدركوا مراميه وإشاراته، فدعوا إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فهدى الله بهم العباد، وفتح على أيديهم البلاد، واستنقذ بعد لهم الراسفين فى أغلال الاستبداد من أبناء الإنسانية المستضعفين فى الأرض، واستخلفهم فيها كما استخلف الذين من قبلهم ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وأظهره على الدين كله، وأعزهم، وأعز بهم، وجعلهم أئمة يهدون بالحق إلى الحق تحقيقا لسابق وعده « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » (٢) وتلطف بهم سبحانه — فضمن لهم — فى صورة من تأكيد

---

(١) سورة الأنعام آية (٩٠)　　(٢) سورة النور آية (٥٥)

الأسلوب — عزة النصر على من ناوأهم،وشرط أن ينصروه استجابة لسنته في خلقه ليكون ذلك مهيع من يخلفهم فى وراثة التبليغ فقال :

« ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »(١)،وقال « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض »(٢) .

فشكروا ربهم على ماهداهم إليه من هداية خلقه ، والشفقة على عباده وجعلوا مظهر شكرهم بذل أنفسهم فى الدعوة إلى الله ، وطهروا قلوبهم أن تنطوى على غل أو فتنة لاحد من إخوتهم فى الإيمان وأشقائهم فى الإنسانية أينما كانوا وحيثما حلوا من دنيا هذه الحياة ، شعارهم فى سماحة الإيمان أنهم «يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم »(٣) وشعارهم فى سماحة الطبيعة الإنسانية أنهم يقولون « ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم »(٤) .

أما بعد :فهذا بحث فى سماحة الإسلام ومعاملة غير المسلمين فى التشريع الإسلامى يبين حقوقهم فى الحياة ،وواجباتهم فى المجتمع الذى يعيشون فيه كراما بإنسانيتهم،أحراراً فى تصرفاتهم ،حرية لايقيدها إلا حق الآخرين فى العيش الكريم فى ظل المبادىء التشريعية النابعة من قواعد الإسلام وأصوله .

---

(١) سورة الحج آيتى (٤٠ — ٤١)

(٢) سورة القصص آية (٥)

(٣) سورة الحشر آية (١٠)

(٤) سورة الممتحنة آية (٥)

شرح الله صدرى لوضع هذا البحث ، إجابة لرغبة تدعو إلى الله ، وإلى التعريف بدينه الذى ارتضاه لكافة خلقه ، وإنى أرجو أن يتقبله الله بقبول حسن ، ويجعله خالصا لوجهه الكريم ، فهو باب من أبواب الدعوة إلى سبيل الله ، لايسع فيه التعلل بعسى أو لعل، بل هو (اليوم) الباب الذى لا باب سواه للدعوة إلى الله الحق ، وإلى دينه الحق ، لأن الدعوة إلى سبيل الله باللسان والقلم هى الدعامة الأصيلة والأصل الأول للجهاد فى الشريعة، شريعة الإسلام ، فهى واجب عينى على كل من يعلم أنه يستطيع أن يحمل رسالة الحق والخير ، ويؤديها إلى الناس كافة أداء رغيبا صالحا ، يدفع عنها الشبه والأباطيل وينقيها من الخرافات والأساطير.

ونحسب أن هذا الجهاد بالبرهان والحجة الذى جعل الله اللسان والقلم وسيلته وأداته هو المعنى فى قوله تعالى « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا » (١) لأن المعنى أن الله تعالى ينهى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم عن مهادنة الكافرين والإصغاء إلى مايعرضون عليه من الترهات والأباطيل ويطلب إليه أن يشمر عن عزيمته ، فيبذل أقصى مايستطيع من الجهد فى إبلاغهم دعوة الحق ، وعرض القرآن الحكيم عليهم، وقرع أسماعهم ببيناته حتى تقع براهينه وحججه على قلوبهم ، فتصدع أغلفتها المتحجرة وتفتح عقولهم المتبلدة، وتهز وجداناتهم المتجمدة، ليروا الحق الذى أنزله الله عليه، وصرفه بينهم وعداً ووعيدا ، وأمرا ونهيا ، وترغيبا وترهيبا ، وتشريعا وسياسة ، وحكمة وعلما ، ورحمة وعدلا ، وخلقا وأدبا ، فيعودوا إلى إنسانيتهم فيتذكروا فضل الله عليهم بما ميزهم به من الكرامة وبما أودع هذه الإنسانية من أسرار خلافته فى الأرض .

---

(١) سورة الفرقان آية (٥٢)

ولكن ما أصاب الفطرة البشرية من صدأ الضلالات الغاوية والجهالات الضالة صرف القلوب والعقول عن النظر فى آيات الله حتى توغلت فى العناد « فأبى أكثر الناس إلا كفورا » ، ولو شاء ربك لأعاد إليهم سنته برسالاته الخاصة فى كل قوم ، وبلد لينقلهم من هذا العناد البليد بطريق القسر المادى القاهر لعقولهم « ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا »[١] .

بيد أن الأمر فى الرسالة الخاتمة يختلف عن الرسالات السابقة ، لأن الرسالات السابقة كانت رسالات محدودة الزمان والمكان والتوجيه ، لأن مدارك العقل الإنسانى معها وفى عصورها كانت أيضاً محدودة ، أما الرسالة الخاتمة فهى رسالة الإنسانية كلها أينما كانت من أرض الله فى أى زمان ، وأى مكان ، وأى جيل ، لأن عقل الإنسانية قد شب عن الطوق ، وبلغ رشده ، وتهيأ للادراك والتهدى لما يهدى إليه من وحى السماء بأعم وأشمل ما ينزل لإصلاح الحياة .

ولهذا جاء الخطاب موجها إلى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم فى أول مراحل دعوته أن يوقظ العقل من سباته ، ويجاهد الكافرين بالقرآن الذى أنزله الله عليه حجة له ، وشريعة لكافة الناس ، ودستوراً تقوم على وثاقة دعائمه الحياة الفاضلة .

بما اشتمل عليه من أصول الديانات السماوية .

وبما اشتمل عليه من العلوم والمعارف التى لا تنفد آياتها وأسرارها .

وبما اشتمل عليه من سياسة الحياة بتربية الأفراد وتوجيه الجماعات .

---

(١) سورة الفرقان آيتى (٥٠ — ٥١)

وبما اشتمل عليه من البراهين العقلية والوجدانية وتحريك العواطف الإنسانية إلى الاستجابة لما يكملها .

وبما اشتمل عليه من حقائق الوجود ، وإيقاظ العقل وتوجيهه إلى النظر فيها .

وبما اشتمل عليه من دعائم الإخاء الإنسانى ، والإحسان والرحمة والعدل ، إلى كثير غير ذلك .

والجهاد بالقرآن هو بيانه للناس بيانا شافيا يعطفهم على النظر فيه نظراً يؤدى إلى الإيمان به وقبوله والانضواء تحت رايته .

إننا معشر دارسى الإسلام نحمل أمانة هى واجبنا الأول فى هذا العصر الذى ابتليت فيه الإنسانية بما أتلف أعصابها من تقدم مادى مظلم، وحضارة حمقاء مجنونة، إنفلت فيها زمام العقل، وطغت فى جنباتها ظلمات الإلحاد على نور الإيمان ، وانحسرت القيم الخلقية عن حياة الناس فلم تعد تتدخل فى شئونهم ، بعد أن كانت هى الفيصل بينهم .

فالإنسانية اليوم تعيش فى عصر مادى مظلم ، يتنكر للدين ومبادئه ، ويسخر من القيم الروحية والفضائل الخلقية .

عصر ملىء بالشبه الإلحادية، مفعم بالشحناء والبغضاء .

عصر يضم بين آفاقه أمما وشعوبا من البشر مثقلة كواهلها بالأزمات النفسية، والأزمات الفكرية، والأزمات المادية والاجتماعية ، يقودها ساسة مغرورون متغطرسون، وقادة خادعون مخدوعون، وحكام مستبدون يضحكون بالشعوب ، ويضحكون من الشعوب ، لا يستهدفون إلا مجداً زائفا لأنفسهم يبنونه من جماجم الأمم وأشلاء الشعوب .

والإسلام وهو دين الله الجامع لأصول شرائع الأنبياء والمرسلين أقدر النظم التشريعية على تقديم العلاج الإصلاحي لأمراض العالم وأسقام الإنسانية وشفائها من سرطانات الحضارة المخبولة .

وحملته مطالبون أشد المطالبة بالقيام بعمل جاد قوى لخدمة السلام بنشر مبادىء الإسلام ، وإتاحة الفرصة من جديد أمام العقل الإنسانى الحائر لفهم الإسلام فهماً صحيحا ، يعم مشارق الأرض ومغاربها بروح سمح (حنيفى) يقدر الواقع ، ويقف معه وجهاً لوجه يعالجه ولا يتهرب منه وراء جدل أجوف وأسلوب عي كسيح ، لا ينهض بشىء ولا ينهض به شىء ، أسلوب موروث عن مخلفات قرون الركود الفكرى فى تاريخ الإسلام إثر موجات مدمرة اجتاحت الحضارة الإسلامية المشرقة بأشعة الحرية الفكرية على أيدى برابرة الإنسانية من التتار وغيرهم ، أسلوب استعجمت ألفاظه ، وبهتت معانيه فلم يفد شيئاً سوى التخلف عن قافلة الحياة .

على حملة شريعة الإسلام أن يدرسوا الحياة العالمية ، وأن يعدوا أنفسهم لهذه الدراسة الواسعة العميقة ، ليتعرفوا مشاكلها وأسبابها ، وما جد فيها من مذاهب فلسفية ، يحاول أصحابها أن يقيموا بناء الحياة على ركائزها ، وليعرفوا من هذه المذاهب والفلسفات ما ينطوى منها على الخير فيضعوه موضعه من مبادىء الإسلام الذى يتسع لكل خير ينهض بالحياة والأحياء ، وما ينطوى منها على الشر والفساد يجب أن يبهرجوه ، ويظهروا زيفه بالحجة النيرة والبرهان الساطع حتى لا يقع فى حبائله الجاهلون المغرّرون .

وتبليغ دعوة الإسلام ، وبيان سماحتها وسمو مقاصدها واجب كل مؤمن بعامة ، وواجب العلماء بخاصة ، فإذا نهض للقيام بهذا

الواجب طائفة فقهت الإسلام وشرائعه وآدابه كان من أعظم واجبات المسلمين فى هذا العصر أن تتضافر جهودهم على إعانة القائمين به حتى تتاح الفرصة لبلوغ أفكارهم غاياتها من قلوب الناس وعقولهم ، تجديداً لإبلاغ الدعوة وأداء لحق الوراثة فى هذا التبليغ «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز»[١] .

(١) سورة الحج آية (٤٠)

مَنْهَجُ البَحْث

رجعت إلى ذاكرتى – حين خلوت بنفسى – استهديها مراجع البحث ومصادره، وأخذت أقرأ بعضها قراءة استيعاب واقرأ من بعضها الآخر مظان البحث، فلم يسعفنى ماجمعت وما قرأت إلا بشتيت من النصوص والتشريعات والحوادث الواقعة فى تطبيق الحياة من التاريخ الإسلامى، منثورة هنا وهناك، ولم أعثر قط على كتاب واحد، أو رسالة صغيرة أو بحث فى مقال يلم بأطراف الموضوع إلماما علميا ناضجا ويخصه بالنظر نظراً فاحصا، يجمع إلى النصوص استنباط الحكمة، حتى كاد ذلك يصرف همتى، ويثنى عزيمتى عن المضى قدما فى طريق البحث، وتوقفت قليلا متضرعا إلى الله تعالى أن يعزم لى ما يعلم أنه الخير والصلاح، وقلت فى نفسى ما على العامل إلا أن يعمل جهده والتوفيق بيد الله يمنحه من يشاء.

وقد عمدت إلى النصوص التشريعية والحوادث التطبيقية ولفتات الفقه الإسلامى فى اجتهاد الأئمة السابقين، ونظمت منها عقد البحث، وقد أردته بحثا علميا يعتمد على النصوص الواردة فى أصول التشريع الإسلامى والحوادث التطبيقية فى التشريع وحكمه، ولهذا يرى القارئ أنى أشغف بإيراد النصوص وتفسيرات القدامى من سلفنا الصالح الذين هدى الله بهم الإنسانية إلى مأمنها.

وقد يتكرر بعض النصوص فى مواضع لمناسبة تتطلب هذا التكرار،

ولا ضير فى ذلك لقلته ، ولمساعفة القارئ على اتساق الفهم دون معاناة الرجوع لما سبق .

وهذه طريقة سلفنا الصالح فى بحوثهم ومؤلفاتهم ، وحسبنا فى ذلك منهج الإمام البخارى فى صحيحه ، فإنه قد جرى على تقطيع بعض الأحاديث على حسب المناسبات ، وتكرير بعضها فى أبواب مختلفة المعانى ، لما يرى فى ذلك من لمحات الفقه ، والدلالة على فكرة فى موضع لم تكن تقتضيها المناسبة فى موضع آخر .

وقد قصدت هذا القصد تبيانا للناس ، أن الإسلام منذ أنزل قد فهمه المسلمون الأولون على أنه دين الله الذى بعث به رسله ، حتى إذا اكتمل للإنسانية رشدها وبلغ عقلها منزلة القيادة فى الكشف عن أسرار الكون ختم الله النبوة بخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه القرآن الحكيم ، دستوراً عاما شاملا خالداً بما اشتمل عليه من قواعد الأحكام وأصول العقائد ، ودعائم الأخلاق وأسس السياسة والاجتماع ، وأطلق فيما وراء ذلك للعقل الزمام يكشف ويستنبط .

والحياة بأحداثها وتجاريبها تهدى وتستهدى « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »(١) .

وقد استقر فى ضميرى بعد التأمل فى فقه النصوص التشريعية ، وفهم أسباب الحوادث التاريخية التى كانت مظهراً لتطبيق التشريع تطبيقا عمليا فى

---

(١) سورة الرعد آية (١٧)

شتى العصور ، أن البحث فى هذا الموضوع يقوم على أصول أساسية متماسكة أشد ما يكون التماسك، لا يستقل منها أصل عن أصل آخر، ولا يغنى منها أصل عن أصل سواه ، وهى بمجموعها تؤلف وحدة المعنى الجامع لحقيقة الإسلام الكبرى ، باعتباره دينا عاما خالدا، وشريعة كاملة وافية بحاجات الناس ، ومطالب الحياة على مدى العصور ، مستغنية بأصولها عن الحاجة إلى أصول تستعيرها من خارج حقيقتها التشريعية، ونظاما سياسيا واجتماعيا واقتصاديا يحقق للانسانية أسس أهدافها .

فاذا أراد باحث أن يفرد أصلا من تلك الأصول بالحديث والنظر كان عليه أن يحيط علما بوشائج الترابط الحسى والمعنوى بينه وبين سائر الأصول، ليظهر مقدار ما تأثرت به عناصره من عوامل انسربت إليه من عناصر الأصول الأخرى ، ولذلك كانت حقيقة الإسلام فى معناها الكلى العام وحدة لا تقبل التجزئة والتفريق، وكل عنصر منها يستمد وجوده من عناصر الحقيقة العظمى للإسلام ، وهذه الحقيقة هى النبع الذى تتشعب منه الجزئيات فى أودية التطبيق العملى محكومة بالحوادث الواقعة ، والأحداث الجارية فى مسارب التاريخ يوجهها وجهتها المستقيمة ميزان القوة الروحية ، وانطلاق العقل الإنسانى من أغلال التزمت والتقليد البليد ، إلى ميادين الحرية الفكرية الفسيحة فى ظل الحقيقة الإسلامية ، إلى جانب تعمق النصوص التشريعية العامة ومعرفة ما للقيم الخلقية من قـــداسة ، وما للفضائل الإنسانية من رعاية عند المسلمين (المكيفين) بروح الإسلام فى معارج التاريخ ومنحدراته .

وإنى أحب أن أتعجل التنبيه — فى هذا التمهيد إلى نقطة هامة فى الموضوع لأنها هى (المحور) الذى تنبثق منه أشعة البحث ، وبهذا

التنبيه نقيم للقارىء المستهدى معالم الطريق ، ليعرف طبيعة الأرض التى يسير عليها والهدف الذى إليه يقصد ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

ذلك أننا حين نتحدث عن (الإسلام) ونردد فى حديثنا كلمة (الإسلام) لانقصد إلى هذا الإسلام (الجغرافى) الذى يستظل بلوائه مئات الملايين فى الشرق بقارتيه العملاقتين ، وعشرات الملايين فى الغرب بعالميه القديم والجديد ، وهم فى كثرتهم الكاثرة يجهلون الحقيقة التشريعية للإسلام الصحيح ، ويجهلون مبادئه الفكرية ، وأصوله العقيدية ، وآدابه الخلقية ، ويعيشون فى أمشاج من الأساطير والخيالات صنعوها لأنفسهم بجهالتهم ، أو صنعت لهم لتباعد بينهم وبين الإسلام الصحيح ، حتى يستمرؤا الذل والضعف ، ويستوبؤا العزة والقوة ، وينزلوا طائعين عن إنسانيتهم ، ويبيعوا للطغاة حقهم فى الحرية والحياة الكريمة ، بفتات متعفن من بقايا موائد الحضارة المادية المظلمة ، وهذا هو ماحاق بهم فى أوطانهم فاستعبدتهم أمم لاتذكر معهم فى حساب العد والإحصاء .

كما لانقصد إلى هذا (الإسلام) المستحدث المنخلع — بتفسيراته التجددية المنحرفة — المستعارة من الشرق والغرب — عن قيود التشريع الإسلامى — المنزل من رب العالمين على سيدنا محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم تحت عنوان (التطوير والتجديد) والأخذ بالاجتهاد والتسامى عن التقليد .

وكذلك لانقصد إلى هذا (الإسلام) الذى — جمده القيمون على شريعته

بحكم (الصنعة) و (الاحتراف) فى عصور الجهالة فسدوا على الناس مهايع الرشاد ، والفقه فى الدين ، وأغلقوا بأقفال القصور والتقصير أبواب (الاجتهاد) فى الدين،والنظر فى رياض القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وأحالوا بهذه العقلية الجامدة أن يوجد فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم قيم بالاجتهاد فى فقه الإسلام ،فحجروا فضل الله وواسع رحمته ، وضيقوا على الناس ما وسعه الله لهم ، وألزموهم الحرج وقد رفعه الله عنهم وكلفوهم حبس عقولهم عند النظر فى كلام السابقين ، وقالوا بلسان حالهم ومقالهم « ماترك الأول للآخر شيئاً » وفتحوا بهذا الجمود باب العناد والعبث للعابثين من متعالمى الجهلة وجهلة المتعالمين المغررين والمغرورين أن يزعموا لأنفسهم المريضة أو يزعم لهم شياطينهم بلوغ مرتبة الاجتهاد . فأفتوا مراغمة للعلم والعقل ، فضلوا وأضلوا وكانوا أشد على دين الله — فى تحللهم وتهجمهم من أولئك الجامدين الذين ولدوهم على مهاد الجهل متناصفين فى قسمته بينهم وهم لا يشعرون .

إننا حين نقرر هذه الحقيقة من واقع الأصول الإسلامية بالتنبيه إلى أن الإسلام لم ولن يغلق باب الاجتهاد للقادرين عليه المتأهلين لحمل أعبائه لا نغمط السابقين من أئمتنا حقهم ، فهم أجل وأعظم فى تاريخ التشريع الإسلامى من أن يستطيع أحد ممن جاء بعدهم كائناً من كان أن يطفىء بنفخه فى كير الجحود نور إشراقهم فى آفاق الحياة الإسلامية بما بذلوه من أعمارهم فى سبيل الوصول إلى أسرار هذا التشريع بقدر ما سمحت وتسمح به طاقتهم البشرية فى حدود بيئتهم وعصورهم ومعارف تلك العصور ووسائل النشر فيها ، ووسائل الاتصال الفكرى والاجتماعى بين أقطار الإسلام الأصيلة والطارئة بالفتح ، وما كان لتلك الأقطار من آثار فى تشكيل العرف العام والخاص فى كل بيئة وكل قطر ، وما كان لتلك الأقطار من مذاهب

عقائدية ومعارف ثقافية ، وعادات متأصلة أو عارضة ، وأخلاق مجبولة أو مكتسبة ، كل ذلك كان له اعتباره فى نظر الأئمة الاجتهادى فى التشريع الإسلامى ، ويجب أن يكون له اعتباره فى كل تشريع اجتهادى وراء صريح النص من القرآن الكريم أو السنة المطهرة ، لأن المقصود بالتشريع إنما هو تحقيق العبودية لله الواحد الأحد وإقامة ميزان العدل بين أبناء البشرية قاطبة إقامة لا تميلها عن الصراط المستقيم محبة ولا عداوة « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين أن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا »(١) .

وإذا كان هذا شأن الأئمة فى اجتهادهم — وهم الأسوة الصالحة — فيجب أن يكون هو شأن غيرهم ممن جاء بعدهم فى سائر العصور .

فتجميد الفقه الإسلامى — بالوقوف به عند أنظار الأئمة السابقين مع ما تعورف عنهم من اعتبارهم لأحوال عصورهم فى تقرير الأحكام الاجتهادية — إهدار لكرامة العقل الإنسانى التى رفعها الإسلام وأقام منارها ، وإهدار لكافة المؤثرات الاجتماعية فى توجيه الحياة والناس سواء أكانت تلك المؤثرات من عملهم أو مما هو خارج عن إرادتهم .

وقد طرأت على الحياة أمور — اجتماعية وفكرية وتجريبية فى مدى القرون التى فصلت بين عصور الاجتهاد وعصور التقليد المتبلد والجمود المتحجر — غيرت وجه التاريخ ، بل غيرت الحياة كلها فظهرت مذاهب وأفكار وآراء وفلسفات وعلوم ، ومعارف ، وعادات ، وأخلاق وسلوك

---

(١) سورة النساء آية (١٣٥) .

وتربية صبغت بيئات البشرية فى جميع أوطانها بصبغات مختلفة، وباختلافها اختلفت أعراف الناس، واختلفت مواضعاتهم فى طرائق ووسائل العيش، فكما أخذ السابقون من أئمة الهدى ذلك كله فى اعتبار اجتهادهم فيجب أن يأخذ كل مجتهد مستكمل لوسائل الاجتهاد ذلك فى اجتهاده.

ومن البديهيات المتعالمة عند كافة المسلمين أن الاجتهاد لا يغير النص الصريح ولا يصادمه، فلايحل الاجتهاد ماحرم النص القطعى، ولا يحرم ماأحل، وهذا هو الفيصل بين الاجتهاد الصحيح، والاجتهاد المزور، الذى يخبط فيه العابثون بالشرائع تحت ستار (التجديد) خبط السائر فى فلاة مضلة قد اشتبهت عليه معالم الطريق، فهو يضرب هنا وهناك، حبيس الحيرة لايهتدى إلى سواء السبيل، ولا يريد أن يستهدى ليقف على معالم الطريق.

وإنما نقصد حين نتحدث عن (الإسلام) وتشريعاته التى يجب أن يقوم عليها أمر المسلمين فى حياتهم العامة والخاصة، والتى يجب أن يعامل بمقتضاها غير المسلمين، وفيها تبين حقوقهم وواجباتهم وحريتهم الدينية إلى (الإسلام) الحق الذى هو دين الله الموحد فى أصول العقائد وأصول التعبد لله وحده، وأصول الفضائل الخلقية.

(الإسلام) المنزل من عند الله بهذه الأصول الجامعة على جميع الأنبياء والمرسلين سواء منهم من قصه الله علينا فى كتابه الكريم وسماه باسمه ممن اشتهر فى تاريخ الإنسانية. كأول الرسل نوح، وأبى الأنبياء إبراهيم عليهما السلام، ومن كان من ذريتهما من أولى العزم كموسى وعيسى عليهما السلام، وغيرهما من أصحاب الأحداث الخالدة فى معالجة أمراض البشر الروحية والدعوة إلى الله الحى القيوم «شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى

أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »(١) .

أم من لم يقصصه علينا منهم لبعد عصره وخفاء معالم شريعته « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك »(٢) .

نعم نقصد إلى (الإسلام) الذى كمل الله به شرائعه العملية فى شريعته الخاتمة،ونظم به الحياة الإنسانية نظاما كاملا فى علائقها أفراداً وجماعات ، وأمماً وشعوباً وحاكمين . ومحكومين ، وأيقظ فى آياته العقل الإنسانى ليعرف حقيقته العليا ووطد له سلطانه على الطبيعة يسخرها ليكشف أسرارها استغلالا لظواهر الوجود كلها تحقيقاً لأكبر مصلحة للإنسانية فى حياتها على هذا الكوكب الصغير .

وهذا الكمال فى شرائع الإسلام العمليـــة ونظم الحياة مما لم يكن فى الأديان قبله ضرورة من ضروريات (التطور) الإنسانى ، اقتضته الأطوار التى مر بها الإنسان فى حياته التاريخيـة ، ويتجلى فى دراسة تاريخ الأديان الفروق النظامية والأحكام العملية التى كانت تقتضيها طبيعة الحياة بين كل نظام دينى وآخر أتى بعده ، مما يدل على أن النظم الدينية كانت تأتى مناسبة لأوضاع الإنسانية فىطفولتها ودرجات تقدمها ، إلىأن استوت الحياة على النهج الفكرى،واستطاع العقل أن يرشح لقيادتها وبلغت الإنسانية رشدها وأصبحت قادرة على أن تعتمد على العقل الإنسانى يهديها بعد أن يهتدى لها بما فى الشرائع الدينية من أصول ثابتة تنطوى علىأسباب وحكم تتداخل

---

(١) سورة الشورى آية (١٣)

(٢) سورة النساء آية (١٦٤)

بوساطتها الأحداث المتكاثرة فى إطار واحد يضفى عليها وحدة فى واقعها الوجودى تسكن إليه النفوس وتطمئن إليه الضمائر تمشياً مع سنة الترقى الإنسانى فى مدارج الكمال العقلى والروحى، وهذا هو الميزان التشريعى فيما وراء النص ، وهو شامل لكثير من الأصول والقواعد التأسيسية للتشريع وأظهرها ما يسمى فى عرف علماء أصول الفقه بالقياس .

وبهذه الصورة العامة الخالدة الواضحة نزل الإسلام نظاماً عاماً للحياة الإسلامية كلها خاتماً لوحى السماء على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم . وبهذه الصورة رضيه الله تعالى ديناً للإنسانية ، وامتن به عليها باعتباره نعمته العظمى على عباده « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً »[1] .

وبهذه الصورة بلغه خاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الأحمر والأسود ، ودعا إليه الناس قاطبة ، وعلمه أصحابه ، لتلاميذهم من التابعين فى أرجاء الأرض وأقطارها قرناً فقرنا ، وأخذه عنهم العجمى والعربى والقريب والبعيد ، وأقبلت عليه الإنسانية بفلذات أكبادها أينما حل عندها ، لأنها عرفت فيه دين الأنبياء والرسل من قبله ، وعرفت فيه نظام الحياة المتكامل بين طرفى العدل والرحمة ، وعلى دعائمه أنشأت الإنسانية حضارات لم يشهد التاريخ لها مثيلا فيما أضفته على البشرية من نعمة الأمن والسلام ورغد العيش فى ظل ظليل من العلوم والمعارف ، والفلسفات الحية والأفكار الحرة ، حتى انحرفت الحياة عن منهجها المستقيم لأسباب كثيرة تضمنها التاريخ فى سجلاته الواعية ، منذ فتح الطريق أمام

---

(١) سورة المائدة آية (٣)

الهمجية البربرية على أيدى أخابث اليهود ، ثم من بعدهم على أيدى سلائلهم من الزنادقة الباطنية والقرامطة. إلى أن حلت الطامة الكبرى على أيدى ربائب الشياطين من التتار غثاء الإنسانية كلها ، ثم تتابعت المحن وجوائح الأهواء السياسية التى فرقت كلمة المسلمين ، فصيرتهم شيعا وأحزابا ، وقسمتهم إلى دويلات هزيلة مستضعفة لا ينهض كاهلها بعبء الرسالة الإسلامية ، وانحسر المد الإسلامى ، ووقف تيار الحرية الفكرية الذى كان يدفع سفينة العقل الإسلامى إلى الانطلاق فى خضم الحيــاة . لا يتكاءدها شئ من العقبات ، شراعها الهادى القرآن الكريم، وسكانها الميمم السنة النبوية المطهرة ، تحمل إلى الناس فى مشارق الأرض ومغاربها ثمرات العقل الإسلامى المهذب فى التشريع ، والفلسفة وعلوم الطبيعة والرياضيات وغيرها مما لا يزال منبعاً يمد الحضارة الحديثة بالكثير من معارفها .

تلك الثمرات التى تجمعت فى مؤلفات علماء الإسلام وفلاسفته وأدبائه، فكانت منها ثروة من العلوم والمعارف لم يعرفها التاريخ كما وكيفا لأمة من الأمم ، وحديث الروايات التاريخية عن مكتباتها فى بغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق وغيرها من عواصم الإسلام حديث يحسبه الجاهل لضخامة ما تتحدث عنه وتصفه من التراث العلمى ضرباً من الخيــال الخصيب وهو فى حقيقته الوجودية حقيقة ليس للشك فيها نصيب .

هذا (الإسلام) هو الذى نتحدث عن شرائعه التى طبقها المسلمون الأولون فى حياتهم العملية التى عومل ، ويجب أن يعامل بها ، غير المسلمين فى ظل الإسلام، وهذه الشرائع هى الحجة على الناس فى كل عصر ومصر ، وليس حال المسلمين اليوم بواقعهم الذى يحيونه ويعيشون فيه ، ولا حال كل من انحرف سابقاً أو لاحقاً عن سمت الهداية الإسلامية حجة على شرائع الإسـلام .

هذه الشرائع التى تؤلف بمجموعها الموحد حقيقة الإسلام التشريعية والنظامية العملية هى — بشرط وحدتها — المنبع الذى تنبع منه الأصول والدعائم التى يقوم عليها بناء الحقيقة الإسلامية فى سماحة الإسلام وفى معاملة غير المسلمين ، وبيان حقوقهم وواجباتهم وما يتمتعون به من الحرية الدينية والمدنية فى ظله الظليل .

وقد أبرز الإسلام فى مصدريه العظيمين (القرآن الكريم) و (السنة النبوية) هذه الأصول بصورة تلفت النظر ، إظهاراً لوشائج الترابط بين كل أصل من هذه الأصول ، وبين التشريع الإسلامى المنظم لمعاملة غير المسلمين حتى كأن هذا التشريع ثمرة اشترك فى تكوين عناصرها وإنضاجها كل هؤلاء الأصول والدعائم .

ومن هنا كان لا بد لبحثنا من التعرض لهذه الأصول ، وبيان صلة كل أصل منها بالتشريع المنظم لمعاملة غير المسلمين، حتى يتبين أثر كل أصل فى ذلك التشريع ، بياناً يرجع به إلى المعنى العام للتشريع الإسلامى العام باعتباره نظاماً أنزل من السماء ليحقق للإنسانية كلها أعظم مصلحة فى هذه الحياة ، حتى يظهر أنه ليس تشريعاً خاصاً مستقلا استقلالا انفرادياً يفصمه عن حقيقة الإسلام ، ويصوره تشريعا طائفيا موضوعا لطائفة من الناس باعتبار وصفها الطبيعى الخاص دون أن يكون لها صلة بمجموع الأمة أو بمجموع البشرية التى هى فى واقعها جزء منها ، لأنه بهذه الصورة الانفرادية يكون تشريعاً طائفياً يمزق الوحدة الكبرى للإنسانية التى هى أساس التشريع فى الإسلام .

والإسلام لا يعرف الطائفية بين الأفراد ، ولا بين الجماعات والأمم والشعوب، ولا يعترف بها بأى مقياس من المقاييس .

نعم يعرف الإسلام التفاوت بين الأفراد والجماعات بمقدار إبراز كل فرد أو جماعة أو أمة أو شعب ما يملك باستعداده الفطرى من طاقة بشرية . تسدى إلى الإنسانية نفعا عاماً ينهض بها ويفتح أمامها آفاق الترقى فى مدارج الكمال .

وهذا المعنى فى التفاوت يملكه سائر البشر وكافة أبناء الإنسانية فى أرجاء الأرض وقد عبر عنه القرآن الكريم بأوجز لفظ وأكمل معنى ، وهو الذى سماه (التقوى) فى قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(١).

والتقوى كلمة واحدة تجمع كل ما يملك الإنسان من قوى دافعة وقوى عاملة ، وقوى مبدعة بشرط أن يكون ذلك كله مصروفا فى سبيل الخير والصالح العام الذى يعود على الإنسانية بالفلاح ، وهذه القوى مركوزة فى طبيعة الإنسان بمقتضى إنسانيته تبرز متى استقام لها الطريق ورفعت من أمامها الحواجز ، وأتيحت لها الفرصة للظهور والعمل .

فإذا قصر فى بلوغ المدى المقدر له مقصر بعد إتاحة الفرصة وهذا — ما يدفعه تاريخ الإنسانية فى انتفاضاتها الحضارية ، وتنقل الحضارة من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق بين الأجيال المتعاقبة فى كل قارة من القارات بقدر ما يتاح من فرص التكافؤ العقلى والتجارب العلمية والتوجيه الروحى والاجتماعى — لم يكن ذلك التقصير بمخرجه عن حقيقة الإنسانية واستعدادها الفطرى للرقى إلى أبعد درجات الكمال، ولا يخرجه ذلك أيضاً عن خصائص أبناء جنسه ليتميز بوصف الطائفية التى تقيمه وحيداً منبوذا،

---

(١) سورة الحجرات آية (١٣)

وذلك التقصير إذا لم يكن ناشئاً عن نقص فى طبيعة الإنسانية عند بعض الأفراد فلا بد أن يكون ناشئاً عن ظلم فادح وقع عليه ، فباعد بينه وبين الفرص الدافعة له إلى السير فى قافلة الحياة أو يكون ناشئاً عن أمراض اجتماعية أوهت عنده قوى المقاومة وأقعدته عن السير الجاد ليبلغ ما بلغه مشاركوه فى حقيقة الإنسانية .

ولنا البرهان الذى لايدفع فى يقظة الأمم التى كانت تعد فى القارة السوداء قطعاناً من متوحشى الحيوانات ، وليس لها فى نظر سجانيها من صفات الإنسانية سوى أنها تمشى على رجلين منتصبة القامة ، فلما أتيح لها معرفة الحياة ومعرفة حقيقة إنسانيتها وتيقظت فيها القوى الدافعة هبت تطالب بحق إنسانيتها وتأخذ مكانها فى الحياة .

وكذلك يتمثل هذا البرهان فى الشخصيات التى برزت وتبرز من بين زنوج أمريكا — ومنبوذى الهند ، فى صفوف القيادة الفكرية فى السياسة والاجتماع فى أوطانها .

ذلك برهان واضح على أن الإنسانية هى الإنسانية المستعدة بفطرتها فى أى لون وجنس وأى مكان أو زمان ، وأن توالى الصعود فى سلم الارتقاء الحضارى بغير توقف قانون إنسانى عام ، يأخذ كل إنسان منه حظه ، بقدر استعداده الفطرى والفرص المتاحة له فى مجال العمل والمعرفة .

وفى التاريخ شواهد على أن الإنسانية قد تغفو فى جنس من الأجناس إغفاءة تطول أو تقصر ، ويصحو منها فى أثناء هذه الإغفاءة شيطان القوى الحيوانية المتوحشة ، فتخرب وتدمر ، وتفتك وتهتك وترهب . فيظن من لا علم له بأطوار المد الإنسانى فى تاريخ المجتمع البشرى أن ذلك تجرد من معانى الإنسانية الفطرية ، وتجرد من الاستعداد للأخذ بأسباب الرقى والكمال

متى أتيحت فرصة التوجيه السليم وتيقظ العقل ، وصحا الضمير ، ولكن هذا الظن غلط فاحش ، وإهدار للسر الإلهى فى حقيقة الإنسانية التى كرمها الله فى جنسها لا فى أفرادها فحسب ، وإهدار لحقائق التاريخ فى توزيع الإبداع الحضارى على الأجيال دون تخصيص .

ومن براهين التاريخ على قضية استعداد الفطرة الإنسانية للنهوض والرقى الفكرى والروحى والاجتماعى أينما كانت ، وحيثما حلت إذا أتيحت لها الفرصة الملائمة ما ذكره التاريخ عن قبائل التتار وجحافلهم التى اكتسحت فى غاراتها الوحشية كل أثر للحضارة الإنسانية ، والتى أراقت من الدماء البشرية ما لم يصدقه خيال التاريخ، والتى ارتكبت من الفظائع والبشاعات ما يخجل التاريخ من حمل ثقله ، ولكن هذه الفظائع المدمرة لم تلبث إلا ريثما أتيحت لهذه القبائل فرصة الهداية الايمانية بعد أن اهتدت بهداية الإسلام على يد دعاته خلاصة الإنسانية المهذبة ، فأيقظوا فيهم الضمير الإنسانى ، ووجهوهم التوجيه الصالح الرشيد بعرض مبادئ الإسلام عرضاً جاذباً حتى أصبحت هذه القبائل المتوحشة فى سلائلها قوى من قوى الإنسانية الصالحة الهادية الرشيدة يستظل بظلها العلماء والصالحون والفلاسفة والمفكرون وشاركت فى إعادة بناء الحضارة وأعادت صلة الماضى بالحاضر ، وأقامت دولا عظمى ذات حضارة لها خصائصها فى العلوم والمعارف والفنون .

هذا الاستعداد الفطرى المركوز فى طبيعة الإنسانية قدره الإسلام أعظم تقدير ، واعتبره فى تشريعاته كل الاعتبار ، فنظر إلى الإنسانية نظرة واحدة باعتبار أبنائها إخوة ينبعون من أصل إنسانى واحد ولم ينس ما بين أفرادها وجماعاتها من تفاوت فيما يملكون من قوى دافعة مبدعة ، تظهر بقدر ما يتاح لها من الفرص الاجتماعية والفكرية والروحية .

وبهذا يتجلى أن الإسلام شرع لغير المسلمين كما شرع للمسلمين تشريعاً ينبع من أصوله الأصيلة على سواء .

على معنى أن الإسلام رأى أن كل إنسان بحق إنسانيته له فى الحياة حقوق يجب أن تؤدى إليه ، ويجب أن يحصل عليها ، وعليه واجبات يجب عليه أن يؤديها لنويها .

بيد أن هذه الحقوق ، وتلك الواجبات كان يمكن أن تتفق فتكون حقوقاً واحدة — وواجبات واحدة لكل إنسان فى الأرض — لو أن الناس جميعاً حققوا فى أنفسهم معنى الإنسانية الكامل من غير انحراف عقيدى أو اجتماعى ، وكان يمكن أن تختلف ، وهى فى الواقع الذى لا محيص عنه مختلفة لاختلاف أفراد الناس فيما حققوه من معانى الإنسانية مع الانحراف العقيدى أو الاجتماعى ، وذلك هو ما أشار القرآن الكريم إلى جانبى الإمكان فيه اتفاقاً واختلافاً مع بيان الواقع بوجود الاختلاف ، قال الله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » .(١)

فى إطار هذه الصورة التى رسمناها فى هذا التمهيد — نسير بالبحث فى الموضوع الذى نستهدفه .

والله ولى التوفيق ؟

---

(١) سورة هود آيتى (١١٨ — ١١٩) .

المصادر الأصلية للتشريع في الإسلام

نعنى بالمصدر الأصيل المصدر الذى تؤخذ منه حقيقة الإسلام، باعتباره دينا وشريعة ، ونظاما عملياً للناس والحياة ، دعا إلى تطبيق نظامه فى واقع الوجود على الأفراد والجماعات ، وطبق هذا النظام فى واقع الحوادث والأحداث ، وقامت على أساسه دولة موحدة الحكم والسياسة ، أو مجموعة من الدول مختلفة فى نظام الحكم وطرائق السياسة ، ولكنها تستظل مع هذا الاختلاف بظل الإسلام ، وتحكم باسمه وتدين بشريعته .

وتلك المصادر الأصيلة بهذا المعنى ترجع - فى رأينا - إلى ثلاثة مصادر ، مرتبة فى أصالة إفادتها موازين التشريع وقواعده ، ترتيباً يربط بينها ربطاً يردها فى الإجمال إلى أصلها الأول ، وهو القرآن الكريم باعتباره المصدر الأعلى ، الجامع لأصول التشريع جمعاً يرد إليه المصدرين الآخرين ، باستمدادهما الأصالة منه وتبيانهما مجمله وتفسيرهما لمبهمه وتكميلهما إشارته ، وتوضيحهما غامضه ، وتحقيقهما شرطه .

المَصْدَرُ الأوّل

القرآن الحكيم

ليس هذا البحث موضعاً لحديث مسهب فى بيان أن القرآن الكريم كتاب إلهى ، أوحاه الله تعالى إلى رسوله خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ونقل إلينا بطريق القطع الذى لا يداخله ريب فى كلمة أو حرف منه ، نقلا متواتراً ، لم تتخلله فترة من لحظات الزمن منذ أنزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وتلقاه عنه أصحابه ، وكتبوه وحفظوه فى صدورهم آية آية ، وسورة سورة ، على الوضع الذى هو فى صدور حفظته ، من عشرات الألوف من قراء الإسلام ، فى كل جيل وعصر ، ومصر من أمصار الإسلام ، وكما هو بين الدفتين مكتوباً برسمه الخاص ، ومطبوعاً على مقتضى هذا الرسم الخاص ، ومرتلا وملقناً لمئات الألوف من أطفال المسلمين فى جميع أقطار الإسلام .

لأن هذا النحو من البحث إنما يكون مع الذين يلحدون فى آيات الله عناداً للحق ومكابرة لواضح البرهان ، وقد أشبعه العلماء بحثاً ، وأطنبوا فيه حديثا ، حتى جعلوه لمن شرح الله صدره لقبول الحق مكان الشمس فى ضحوة النهار - ليس دونها سحاب .

وإنما نقصد إلى الحديث عن القرآن باعتباره منبع الهداية ، وموئل الحكمة ، ومبعث العدالة والرحمة ، والمصدر الأعلى للتشريع الإسلامى على ما جاء فى حديث الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم بأنه « كتاب الله ،

فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

والتاريخ الصادق لا يتردد فى تقرير أنه لم يعرف أن كتاباً إلهياً ، أو كتاباً بشرياً فى مدى حياة المجتمع الإنسانى عاصر أحداث تطور الإنسانية الفكرية والاجتماعية ، وعاصر المد الحضارى فى العصور المختلفة حظى بمثل ما حظى به القرآن من العناية فى تلقيه وحفظه وضبطه ونقله وروايته جيلا عن جيل ، وعصراً بعد عصر .

فهو الكتاب الفذ الذى حفظ فى صدور قرائه من جماهير المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وشمالها وجنوبها ، يحفظه ألوف الألوف ماهرين به فى حذق التلاوة لا يفوتهم منه حرف ، بله كلمة أو آية .

وهو الكتاب الفذ الذى كتب كله فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفقد منه حرف .

وهو الكتاب الفذ الذى أجمع المسلمون بجميع فرقهم وأعصرهم وبلدانهم على شرط التواتر القاطع فى نقله سورة سورة وآية آية ، وكلمة كلمة .

وهو الكتاب الفذ الذى انفرد فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم بالكتابة بأمره صلى الله عليه وسلم حتى ينفرد بالتعالم ويشتهر بالعرفان لدى الخاصة والعامة فلا يشتبه بغيره لأول وهلة، وإن كان بأسلوبه البيانى الخاص لايمكن فيه الاشتباه عند أدنى تأمل ، روى الأئمة وأخرجه مسلم من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتكتبوا عنى شيئاً غير القرآن » .

وهو الكتاب الفذ الذى دون تاريخه مرحلة مرحلة، فقد عرف متواتراً طريق نزوله وأمكنة نزول آياته وسوره ، وأزمنة نزولها، وحال نزولها ، وأسباب نزولها ، وعرف منه أول ما نزل ، وآخر ما نزل وما نزل، منه مفرقا ، وما نزل جمعاً ، وعرف عدد سوره وعدد كلماته ، وعدد آياته ، وعدد حروفه ، ولغاته ، وإعجازه ، وسائر خصائصه التى امتاز بها عن جميع الكلام .

ذلك لأن القرآن منذ نزوله آية آية ، وسورة سورة ، كان له تاريخ مشهود ، فى تلقيه ونقله بالتواتر القاطع، وحفظه فى الصدور ، وكتابته فى الصحف والمصاحف ، فلم يعرف التاريخ القرآنى أن وقتاً من الأوقات أو لحظة من لحظات الزمن فقد المسلمون سورة من سوره ، بل آية من آياته، بله القرآن كله ، وكانت خصيصة القرآن فى تلقيه ونقله التواتر القطعى ، فهو بهذا محفوظ حفظاً تاماً من التحريف أو التغيير أو التبديل .

والذى ينسب إلى بعض الشيعة من الزعم أن شيئاً من القرآن المنزل على خاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد ذهب فلم يعثر عليه ، ولم يعلم علمه ، كلام مكذوب على مؤمنيهم لايعرج عليه إلا مفتون فى دينه مغموز فى عقيدته، وقد رد أئمة الشيعة هذه الفرية وتبرءوا إلى الله من نسبتها إليهم ، وفى ذلك يقول الشيخ أبو جعفر محمد بن على بن بابويه — الذى يعد من

أعظم علماء الإمامية الاثنى عشرية — فى رسالته — الاعتقادية . «اعتقادنا فى القرآن أن القرآن الذى أنزل الله تعالى على نبيه هو مابين الدفتين ، وهو مابأيدى الناس ليس بأكثر من ذلك ، ومبلغ سوره عند الناس مائة وأربعة عشر سورة وعندنا — أى الشيعة — والضحى وألم نشرح سورة واحدة — ولإيلاف وألم تركيف سورة واحدة ، من نسب إلينا أنا نقول إنه أكثر من ذلك فهو كاذب » .

وفى تفسير مجمع البيان الذى هو من أجل التفاسير المعتبرة عند الشيعة ، « ذكر السيدالأجل – المرتضى علمالهدىذو المجد أبو القاسم على بن الحسين الموسوى أن القرآن كله كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجموعا مؤلفاً على ماهو الآن،واستدل على ذلك بأن القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه فى ذلك الزمان حتى عين جماعةمن الصحابه كعبد الله بن مسعود وأبى بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم عدة ختمات ، وكل ذلك بأدنى تأمل يدل على أنه كان مجموعاً مرتباً غير منشور ولا مبثوث ، وذكر أن من خالف من الإمامية والحشوية لايعتد بخلافهم . فإن الخلاف مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخباراً ضعيفة ظنوا صحتها لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته » .

وقال السيد المرتضى أيضاً : « إن العلم بصحة القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار ، والوقائع العظام المشهورة ، وأشعار العرب المسطورة ، فإن العناية اشتدت،والدواعى توافرت على نقله ، وبلغت إلى حد لم تبلغ إليه فيما ذكرناه ، لأن القرآن معجزة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا فى حفظه وعنايته الغاية حتى عرفوا كل شىء من إعرابه وقراءاته وحروفه وآياته ، فكيف يجوز أن يكون مغيراً أو منقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد » .

وكل ذلك يثبت أن الأمة تلقته من فم نبيها صلى الله عليه وسلم غضاً منيراً، لم يذهب عليها منه حرف واحد، وهذا أمر متعالم يعرفه الصديق والعدو، وإنكاره والمماراة فيه من باب قوله تعالى: «فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين»[1] وقوله تعالى: «قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون»[2].

والقرآن يحمل بين أحضانه برهان حفظه، فالله تعالى يقول فيه: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»[3].

والذين تمرسوا بأسلوب العربية البيانى، وأنسوا ببيان القرآن يقدرون أسلوب هذه الآية فى تأكيد المعنى المراد، فحفظ القرآن حفظ إلهى، تولاه الله بنفسه لم يكله إلى مخلوق.

بيد أن هذا الحفظ قد تختلف وسائله، وتتعدد طرائقه، وكان من أظهرها فى المتعارف بين الناس هو تيسير الأمة إلى العناية به عناية تفوق كل عناية.

وليس شأن القرآن فى هذا الشأن شأن غيره من الكتب المقدسة لأن غير القرآن من تلك الكتب فقدت منذ نزولها السند المتصل بأصحابها ففقدت الثقة بنصوصها وجاءت عليها الأحداث وأضاعتها جملة ولم يبق منها بيد أصحابها شىء يعتمد عليه ولم تكن محفوظة فى الصدور كالقرآن الحكيم، فالتوراة لم يعرف لها أثر منذ

---

(١) سورة النمل آيتى ١٣، ١٤.
(٢) سورة الأنعام آية ٣٣.
(٣) سورة الحجر آية ٩.

حادثة بختنصر فى تخريب بيت المقدس وتنكيله باليهود ، ومضى على فقدها فى بعض رواياتهم نحو خمسة قرون كما يقول دكتور « إسكندر كيدس» وفى بعضها ثلاثة قرون ، ثم جاء أحد أحبارهم بما زعم أنه توراة موسى فصدقوه فى بلاهة بليدة ، ولو أنهم تدبروا ما فيه من اختلاف وتناقض وقصص خبيثة تنسب إلى الأنبياء عليهم السلام أحط الجرائم لما صدقوا أن هذا هو توارة موسى الذى أنزله الله عليه هدى ونوراً .

يقول الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه (إظهار الحق) إن تواتر هذه التوراة منقطع قبل زمان يوشيا بن آمون ، والنسخة التى وجدت بعد ثمانى عشرة سنة من جلوسه على سرير السلطنة لا اعتماد عليها ، وقد ضاعت قبل حادثة بختنصر فى حادثة انعدام التوراة وسائر كتب العهد العتيق من صفحة العالم رأساً ، ولما كتب عزرا هذه الكتب — على زعمهم — ضاعت نسخها وأكثر نقولها فى حادثة أنتيوكس .

وأما كتب العهد الجديد وهى المعروفة عندهم بالأناجيل ؛ فهى كذلك لا سند لها يتصل بالمسيح عليه السلام ، وقد فقدت كما فقدت التوراة . يقول الشيخ رشيد فى تفسير المنار : « وما ظهرت هذه الأناجيل الأربعة المعتمدة عندهم الآن إلا بعد ثلاثة قرون من تاريخ المسيح... وهى متعارضة متناقضة مجهولة الأصل والتاريخ ، بل وقع الخلاف بينهم فى مؤلفيها واللغات التى ألفوا بها » . ثم نقل صاحب المنار عن دائرة المعارف الفرنسية ما ذكرته من الاختلاف فى أسماء من كتب الأناجيل الأربعة وفى أى زمان كتبت ، وبأى لغة كتبت ، وكيف فقدت نسخها الأصلية .

ثم نقل عن صاحب كتاب (مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين) وهو من أساطين علمائهم قوله : إن إنجيل متى كتب قبل أناجيل مرقس ولوقا

ويوحنا ، ومرقس ويوحنا كتبا إنجيليهما قبل خراب أورشليم ، ولكن لا يمكن الجزم فى أية سنة كتب كل منهم بعد صعود المخلص لأنه ليس عندنا نص إلهى على ذلك .

وقال صاحب ذخيرة الألباب وهو من المعتبرين عندهم : إن القديس متى كتب إنجيله فى سنة ٤١ للمسيح باللغة المتعارفة يومئذ فى فلسطين .. ثم ما عتم هذا الإنجيل أن ترجم إلى اليونانية ، ثم تغلب استعمال الترجمة على الأصل الذى لعبت به أيدى ، النساخ ، ومسخته بحيث أضحى ذلك الأصل هاملا ـ أى مهملا ـ وذلك منذ القرن الحادى عشر .

وبالتأمل فيما سقناه يظهر جلياً الفرق الكبير جداً بين القرآن الكريم الذى نقلته الأمة نقلا متواتراً قطعياً منذ اللحظة التى ابتدأ فيها نزوله على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، وبين غيره من الكتب المقدسة التى فقدت التواتر وضاعت أعيانها وفقدت من أيدى أصحابها فكانت عرضة للتغيير والتحوير والمسخ بأيدى النساخ العابثين .

وبهذه النظرة الفاحصة ، وهذا الاعتبار المشرق كان القرآن المرجع الأول لجميع مصادر التشريع فى الإسلام ، والدستور الجامع لتلك التشريعات نصاً وتفصيلا ، أو دلالة وتأصيلا ، وهذا عند جمهور المفسرين والفقهاء هو معنى العموم فى قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء »[1]. فالكتاب عندهم هو القرآن بدلالة قوله تعالى: «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء»[2] لأن المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تبياناً لكل شىء هو القرآن بلا نزاع ، ولا سبيل إلى القول بأن المراد بالكتاب فى هذه الآية كتاب غير القرآن .

---

(١) سورة الأنعام آية ٣٨ (٢) سورة النحل آية ٨٩ .

قال الزمخشري : معنى أن القرآن تبيان لكل شيء أنه بين فيه كل شيء من أمور الدين حيث كان نصاً فى بعضها ، وإحالة على السنة فى بعضها الآخر حيث أمر فيه باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعته ، وقال : «وما ينطق عن الهوى» [1] وحث على الإجماع فى قوله : « ويتبع غير سبيل المؤمنين» [2] فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيين الكتاب فمن ثم كان تبياناً لكل شيء .

وهذا المعنى هو الذى يجب أن يفهم من قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » فالكتاب هنا هو الكتاب هناك ، أى أن الكتاب الذى أنزله الله على رسوله محمد خاتم النبيين تبياناً لكل شيء وهو القرآن الكريم دون نزاع،هو نفسه الكتاب الذى أخبرنا الله بأنه ما فرط فيه من شيء ، ولا حاجة مطلقاً لتشتيت المعنى فى الآيتين ، وإبقائه فى آية التبيان على إرادة القرآن ، وحمله على إرادة اللوح المحفوظ فى آية نفى التفريط فيه من شيء كما ذهب إليه أبو جعفر الطبرى ، لأن آية التبيان موضع إجماع على إرادة القرآن فيها ، فيجب حمل الكتاب فى آية نفى التفريط على القرآن توحيداً للمعانى المتشاركة فى آياتها المتعددة ، وخير ما فسر القرآن هو القرآن .

وإلى ذلك ذهب جمهور المفسرين ، وشيده الفخر الرازى مبيناً أن الدلائل الأصلية مذكورة فى القرآن على أبلغ الوجوه ، وأما الدلائل الفرعية فهى مأخوذة من دلالة القرآن على حجية سائر الأدلة الشرعية المبينة فى أصول الفقه .

ورجح هذا الرأى أبو حيان فى البحر بأنه يقتضيه المعنى والسياق فى آية

---

(١) سورة النجم آية ٣ .

(٢) سورة النساء آية ١١٥ .

(ما فرطنا) ويقول الآلوسى فيها : أو المراد من الكتاب القرآن، لأنه ذكر فيه جميع ما يحتاج إليه من أمر الدين والدنيا إما مفصلا وإما مجملا .

وقال أبو إسحاق الشاطبي في الموافقات : فكتاب الله هو أصل الأصول، والغاية التي تنتهي إليها أنظار النظار ، ومدارك أهل الاجتهاد ، وليس وراءه مرمى ، لأنه كلام الله القديم : « وأن إلى ربك المنتهى »(١)، وقد قال تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ». وقال : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » .

وهذا ظاهر فى أن الشاطبي - وهو من أئمة الأصول الأعلام - أجرى آية نفي التفريط فى الكتاب من شيء مجرى آية تنزيل الكتاب تبياناً لكل شيء ، وأن المراد بالكتاب فيها هو القرآن الحكيم .

ثم قال الشاطبي : والقرآن هو كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة وآية الرسالة ، ونور الأبصار والبصائر ، وأنه لا طريق إلى الله سواه ، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه .

وقال الإمام الشافعى رحمه الله فى (الرسالة) : ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله تعالى الدليل على سبيل الهدى فيها، وأخرج عنه ابن جرير وابن حاتم أنه قال : أنزل الله فى هذا القرآن كل علم ، وبين فيه كل شيء ولكن علمنا يقصر عما بين لنا فى القرآن .

وهذا كلام يدل على نفاذ بصيرة وتعمق فى فهم القرآن ، وفقه معانيه ، لأن القرآن الحكيم هو المعجزة الخالدة للنبوة الخاتمة ، فلو لم يكن فيه من العلوم والمعارف ما تقصر العقول عن الإحاطة به فى عصر من العصور لما تحقق استمرار إعجازه والتحدى به على مر العصور والأجيال ، وإعجازه قائم لا تزال الأيام تكشف منه كل يوم جديداً .

(١) سورة النجم آية ٤٢ .

والتحدى به قائم يحمله فى أحضان آياته ، ولا يزال العلم وتطور الحياة، ورقى الفكر الإنسانى يكشف كل يوم أبواباً من أبواب التحدى بهذا القرآن العظيم .

وإلى ذلك يشير قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذى يرويه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه : « ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحياً أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

قال علماؤنا : معنى هذا الحديث أن القرآن معجزة مستمرة إلى يوم القيامة والتحدى به قائم لا ينقطع، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فى القرآن من مظاهر الإعجاز الفنى والعلمى ما لم يكن معروفاً فى الأعصر التى سبقت ذلك العصر ، تمشياً مع تقدم الفكر البشرى وتقدم العلوم والمعارف .

ومن ثم كان الإيمان به مستمراً ، وكل يوم يمر على الحياة يضيف إلى سجلات المؤمنين بالقرآن أعداداً لا تحصى .

وحسب الناظر أن يتأمل فى حال المسلمين اليوم وضعفهم المادى أمام غيرهم من الأمم مع سيرورة القرآن إلى قلوب المئات والألوف من البشر فى أقطار الأرض دون قوة مادية تحميه وتدفعه .

ولسوف تصدق رجوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقر الله عينه بأنه أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيامة .

المَصدَرُ الثّاني

السُنَّة النبويَّة

السنة بمعناها العام يراد بها فى مقام التشريع وبيان الأحكام ما يشمل أقوال النبي صلى الله عليه وسلم ، وأفعاله الاختيارية ، وإقرار ما يراه من الفعل يصدر من غيره أو يسمع به ، من كل ما يثبت صدوره عنه صلى الله عليه وسلم من هذه الأمور الثلاثة ثبوتاً بيناً بنقل الثقاة ، ولم يكن الفعل جارياً مجرى الجبلة والطبع أو العادة المحضة التى لا تحتاج إلى أدب شرعي يدخلها تحت طائلة الثواب والعقاب ، وشاهده امتناعه صلى الله عليه وسلم عن أكل لحم الضب وإقراره أصحابه على أكله ، وقوله : « لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه » .

حجية السنة

وقد صرح القرآن الكريم بحجية السنة بهذا المعنى العام لإثبات الأحكام الشرعية بما يثبت مصدريتها للتشريع الإسلامى ، فهى المصدر الثانى من مصادر التشريع ، وهى تالية للقرآن الكريم فى منزلة المصدرية ورتبتها ، وتجيء مبينة لمجمله ، مفسرة لمبهمه ، مخصصة لعمومه ، مقيدة لمطلقه . وقد تجيء مشرعة ابتداء لما لم ينزل به الكتاب ، فهى تابعة له فى ثبوت مصدريتها ، ومستمدة منه فى دلالتها على أصالة أحكامها ، وقد جاء ذلك فى القرآن الحكيم من وجوه .

(الوجه الأول)

طاعة الرسول طاعة الله

هذا الوجه يتحقق فى الآيات التى قرن الله تعالى فيها طاعة الرسول بطاعته ، وذلك لأنها تدل بتركيبها وأسلوبها ، وسياقها ، وفحوى خطابها على أن طاعة الله تكون بامتثال ما أمر به أو نهى عنه فى كتابه الكريم ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم تكون بمتابعته فيما أمر به أو نهى عنه مما لم ينص عليه فى القرآن ، لأن ذلك لو كان موجوداً فى القرآن لكان من طاعة الله تعالى ، ولم يكن هناك داع لذكر طاعة الرسول لأن من أطاع الرسول فيما بلغ عن الله تعالى فى القرآن فقد أطاع الله .

١ — قال الله تعالى : « قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين »(١) جاءت هذه الآية الكريمة بعد قوله تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم »(٢) فجعل عنوان محبة الله لعباده ورضائه عنهم هو اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ، والائتمار بأمره، والأخذ بسنته، والتسليم له فيما يثبت من قوله أو فعله أو إقراره ، سواء أكان ذلك مما ورد به نص فى القرآن أم لم يرد ، لأن الاتباع الذى هو عنوان محبة الله ذكر مطلقاً ، فهو يعم كل ما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا شمل بإطلاقه اتباعه فيما يبلغه من القرآن ، فهو كذلك يشمل ما يثبت عنه من السنة ولم يأت نص به فى القرآن .

فتعقيب آية المحبة بآية الأمر بطاعة الله ورسوله . وتفريع التولى على

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٢ .   (٢) سورة آل عمران آية ٣١ .

الطاعتين ، وجعل الجزاء واحداً لهما — فمن تولى وأعرض عن طاعة الله ، ومن تولى وأعرض عن طاعة الرسول فإن الله يبغضه لأنه كافر والله تعالى لا يحب الكافرين — بيان لمكان طاعة الرسول فيما يأتى به من السنة ووجوب متابعته فيها وطاعته بامتثال أوامره دون توقف على ورود ذلك فى الكتاب .

٢ — وقال تعالى : « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون »(١)

هذه الآية جاءت بعد آية تحريم ربا الجاهلية المضاعف أضعافاً ، وكان فيه من شناعة الظلم وتعنيت الفقراء ما يقتضى تفظيع أمره ؛ فنهى الله عنه أهل الإيمان فى قوله : «يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة»(٢)، وهذا وصف حال كانوا عليها ، وليس قيداً للنهى ، ثم أمرهم بتقوى الله تحذيراً من عقابه ووعدهم بالفلاح إن استجابوا وحققوا تقوى الله بتركهم ظلم الربا ، فقال : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » ثم هددهم بما ينتظر الظالمين من عذاب النار التى أعدها الله للكافرين ليعلموا أن ظلم العباد فى أرزاقهم ونهب أقواتهم فى صورة مداينة ظالمة يؤدى إلى ما يؤدى إليه الكفر من العذاب .

ثم جاءت بعد ذلك الآية الآمرة بطاعة الله والرسول فى قرن واحد لتبين أن طاعة الرسول طاعة لله، وأنهم إذا تركوا ظلم المراباة كانوا مهيئين لرحمة الله ، فالله تعالى حرم الربا تحريماً قاطعاً ، فتجب طاعته فى تركه والامتناع عن التعامل به ، والرسول ذكر ما يجرى فيه الربا صنفاً وقدراً وزمناً وعملا مما لم يذكر فى القرآن فيجب طاعته باتباع سنته .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٢ . (٢) سورة آل عمران آية ١٣٠ .

٣ — وقال عز شأنه : « تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم »(١) .

هذه الآية جاءت عقب تفصيل أحكام المواريث فى آيتيها والإشارة فيها عائدة إلى ما ذكر من تلك الأحكام قبلها ، وقد سمى الله تلك الأحكام حدود الله ، ثم قال : « ومن يطع الله ورسوله » الآية ، ولا شك أن ذلك مرتبط بصدر الآية المبدوء باسم الإشارة العائد على الأحكام المذكورة قبله ، فهى شاملة لطاعة الله بامتثال أمره فيما جاء نصاً فى الكتاب من الأحكام المتقدمة، وشاملة لما جاء فى السنة النبوية لما لم يرد فى القرآن من قضايا المواريث، وشاهد ذلك من السنة توريث الجدة ، فقد سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن نصيبها فى الميراث فقال : مالك فى كتاب الله من شىء ، ولكن اسأل الناس فسألهم فقام المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة فشهدا أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطاها السدس .

وكذلك ميراث المرأة من دية زوجها فقد توقف فى ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأنه لم يكن يعلم أن المرأة ترث من دية زوجها ، فكتب إليه الضحاك بن سفيان أمير رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعض البوادى يخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها .

٤ — وقال تبارك وتعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا »(٢) .

هـذه الآية من أهم الآيات التى قرنت فيها طاعة الرسول بطاعة الله ،

---

(١) سورة النساء آية ١٣ .

(٢) سورة النساء آية ٥٩ .

والتى تفيد مصدرية السنة النبوية للتشريع استقلالا لأنها جاءت بأسلوب يؤكد وجوب طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بامتثال جميع ماثبت عنه من السنة قولا أو فعلا أو تقريراً ، سواء أكان ذلك وارداً فى القرآن الكريم أم لم يكن وارداً فيه .

وقد عنى أعلام الأئمة بها ، فذكروا فى تأويلها ما هو صريح فى استقلال السنة بالتشريع .

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى فى كتاب (الرسالة) : أمر الله المؤمنين بطاعته استقلالا لأنه المستحق للطاعة استحقاقاً ذاتياً، ثم أمرهم أمراً مستقلا بطاعة الرسول — حيث أعاد ذكر الفعل متعلقاً بوصف الرسالة — فطاعته واجبة بوجوب وصف الرسالة ، ثم أمر بطاعة أولى الأمر طاعة مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله حيث عطف أولى الأمر على الرسول دون إعادة ذكر فعل الطاعة .

ثم أمر برد ما وقع فيه التنازع إلى الله ، أى إلى كتابه ، وإلى الرسول بسؤاله فى حياته وإلى ما يثبت عنه بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى من قول أو فعل أو تقرير .

وقال شمس الدين ابن القيم فى كتاب (أعلام الموقعين) : أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالا من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً ، سواء كان ما أمر به فى الكتاب أو لم يكن فيه . . فإنه أوتى الكتاب ومثله معه ، ولم يأمر بطاعة أولى الأمر استقلالا بل حذف الفعل ، وجعل طاعتهم فى ضمن طاعة الرسول إيذاناً بأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ، ومن أمر بخلاف ما جاء به

الرسول فلا سمع له ولا طاعة كما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وقال : « إنما الطاعة فى المعروف » .

ثم أمر تعالى برد ما تنازع المؤمنون فيه إلى الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ، وأخبرهم أن ذلك خير لهم فى العاجل وأحسن تأويلا فى العاقبة... وقوله : « فإن تنازعتم فى شىء » نكرة فى سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين ، دقه وجله ، جليه وخفيه ، وأجمع الناس على أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الرد إليه نفسه فى حياته ، وإلى سنته بعد وفاته ، وجعل الله تعالى هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه ، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه ، ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين ، وكل منهما ينتفى بانتفاء الآخر .

٥ — وقال عز شأنه : «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً »(١) .

هذه الآية جاءت بعد آيات نزلت فى شأن المنافقين الذين لم يرضوا بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخبر عنهم أنهم زائفو الإيمان لأنهم لم يستجيبوا لمقتضياته من التسليم والطاعة ، وبين لهم أنهم لو استجابوا لكان خيراً لهم وأجزل فى ثوابهم .

ثم عقب ذلك بذكر ما توجبه طاعة الله تعالى ، وما توجبه طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم والتسليم لحكمه دون توقف أو حرج ، مبيناً

---

(١) سورة النساء آية ٦٩ .

درجة هؤلاء الطائعين لله تعالى والطائعين لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ليكون ذلك فى مقابل العصيان الذى اتصف به المنافقون .

٦ — وقال سبحانه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً »(١) .

هذه الآية جاءت بعد الرد على المنافقين فى تعنتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إسناد ما يكرهون مما يصيبهم من الجدب والأمراض إليه ، يتشاءمون به ، وما يحبون من الخصب والأمن وصحة الأجسام إلى الله تعالى، فرد الله عليهم بقوله : « قل كل من عند الله » يخلق ما يشاء ، ثم قرر الله تعالى قاعدة عامة فى بيان أن الأمور الكونية التى تصيب العباد من نحو الخصب والرخاء ، والجدب والشدة إنما تصيبهم بخلق الله وإيجاده ، فالخير تفضل من الله على عباده ، والشرور بسبب أعمال العباد وكسبهم ، كما يبين ذلك قوله تعالى : «ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون»(٢) .

ثم بين أن وظيفة الرسول هى تبليغ رسالات الله إلى الناس ، وأن طاعته بوصف الرسالة هى طاعة لله تعالى ، قال القرطبى فى تفسيره : أعلم الله تعالى أن طاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم طاعة له . وفى صحيح مسلم عن أبى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن يعصنى فقد عصى الله) .

وهذا ظاهر فى أن المراد طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع ما ثبت عنه من السنة سواء كان مما جاء به النص فى القرآن أم لم يجئ به ، بل شرعته السنة ابتداء استقلالا .

---

(١) سورة النساء آية ٨٠ .　　(٢) سورة الروم آية ٤١ .

٧ — وقال عز وجل: «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين»(١).

هذه الآية من الآيات التى أعيد فيها ذكر فعل الطاعة بجانب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد عرفنا أن هذا الأسلوب يفيد أن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة استقلالا دون نظر إلى ورود ما أمر به أو نهى عنه فى القرآن أو عدم وروده ، بل بمجرد ثبوته عن الرسول صلى الله عليه وسلم يوجب طاعته فيه.

وفى هذه الآية زيادة تأكيد لهذا المعنى ، لأنها اشتملت على الأمر بالتحذير فى قوله تعالى : (واحذروا) والمقصود منه التحذير عن مخالفة طاعة الله استقلالا لاستحقاقه للطاعة استحقاقاً ذاتيا ، وعن مخالفة طاعة الرسول استقلالا لوجوبها بوصف الرسالة وقد ثبت حد الخمر بالسنة ، ولم يرد له ذكر فى الكتاب ، فهو تشريع بالسنة ابتداء.

٨ — وقال عز شأنه : «يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين»(٢).

هذه الآية أول سورة الأنفال ، نزلت لما نصر الله المسلمين فى غزوة بدر على جموع المشركين وغنم المسلمون منهم غنائم عظيمة ، وكانت تلك الغنائم أول مال رزقهم الله إياه من الغنائم ، فاختلفوا فى قسمته ، فجعل الله أمر الغنائم والأنفال إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى يتولى أمرها ، ويضعها فى مواضعها حسبما يوفقه الله تعالى ، قال عبادة ابن الصامت : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت

---

(١) سورة المائدة آية ٩٢ . (٢) سورة الأنفال آية ١ .

فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول ، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم على سواء .

ثم أمر الله تعالى المؤمنين بالتقوى وإصلاح ذات البين بإزالة ما وقع من التنازع فى شأن قسمة الأنفال ، ثم أمرهم بطاعة الله ورسوله ، وجعل ذلك من مستلزمات الإيمان .

٩ — وقال ربنا تبارك اسمه : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون »(١) .

ونكتة الامتياز فى هذه الآية — بعد إفادتها أن الأمر بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء قرين الأمر بطاعة الله فكلاهما واجبة الامتثال ، هذه بحق الألوهية ، وتلك بوصف الرسالة — أنها أفرد فيها الضمير فى قوله : (ولا تولوا عنه) لإفادة أن طاعة الرسول طاعة لله ، فكأنما هما أمر واحد فى الإيجاب .

١٠ — وقال عز وجل : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين »(٢) .

وهذه الآية كسابقتها فى الأسلوب التركيبى ، فقد قرنت فيها طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم بطاعة الله ، وعطف عليها النهى عن التنازع وبيان أثره السيء من الفشل وذهاب الريح الذى يأتى بالهزيمة ، وأمرهم الله بالصبر فى المواطن كلها ، ومن أجلها الصبر عن متابعة النفس فى الإسراع إلى الغنائم وترك الإثخان فى العدو وتحطيم دعائم قوته ووعدهم إذا هم حققوا الصبر فى مواطن البأس كان معهم بنصره وتأييده .

١١ — وقال تبارك وتعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٠ . (٢) سورة الأنفال آية ٤٦ .

أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم »[١] .

هذه الآية وردت مورد المدح للمؤمنين ، بذكر نعوت الفضل والكمال الإيمانى ، وختمت ذلك بذكر ما هو ذروة سنامها من الوصف الجامع لسائر ما ذكر من النعوت والصفات ، وما طوى من سوائها ، وهو قوله : (ويطيعون الله ورسوله) فلو لم تكن طاعة الرسول مستقلة بوجوب امتثالها لما كان فى ذكرها بمعرض الثناء والمدح كبير فائدة ، ولكان فى الاقتصار على ذكر طاعة الله وفاء بمقام المدح ، مؤهلا لهم لاستحقاق ماهو كالجزاء على وفائهم بحق الطاعة .

١٢ — وقال عز شأنه : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون »[٢] .

وردت هذه الآية فى مكانها من سورتها بعد أن سبقها ما يؤكد أن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى طاعة الله تعالى ، وأنها مطلوبة الامتثال استقلالا لمجرد ثبوت طلبها فى قول أو فعل أو تقرير — فقد سبقها موازنة بين حالى المؤمنين والمنافقين لبيان أن شأن المؤمنين المسارعة إلى امتثال طاعة الله ورسوله ، والإذعان والتسليم المطلق إلى أمرهما ، وأن شأن المنافقين التلكؤ والمراوغة ، والفرار من طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وفى هذه الموازنة يقول الله تعالى فى حق المنافقين : « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين .

---

(١) سورة التوبة آية ٧١ . (٢) سورة النور آية ٥٢ .

وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين. أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون»(١).

فقد وصفهم وصفاً يعمهم جميعاً بالكذب والخداع فى دعوى الإيمان بالله وبالرسول ودعوى الطاعة لهما ، ثم خص بالذكر منهم أصحاب القضايا التى تعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم فيها بما أراه الله تعالى فيأبون حكمه ويرفضون التسليم له ويتولون عنه وهم معرضون عن حكمه وطاعته فيما حكم فيه عليهم إذ كانوا هم الظالمين .

ثم وصفهم بأنهم متقلبون مع الهوى ، يعرضون إذا عرفوا أن الحق لغيرهم ، ويقبلون مذعنين يبذلون الرضا إذا عرفوا أن الحق لهم ، فهم لا يطلبون الحق ، ولكنهم يطلبون عاجل الدنيا لأنفسهم ، ثم سجل عليهم بأسلوب تقريرى لتقريعهم بأنهم مرضى القلوب بما استبطنوا من النفاق والشك واتهام الله ورسوله بالحيف فى قضاياهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، ثم دمغهم بأنهم هم أهل الظلم ، وهو صفتهم المتأصلة فى نفوسهم حتى كأنه لا يكون وصفاً لغيرهم من الناس ، لأنهم استحوذوا على أطرافه ، فاستقر بجملته وتفصيله بين جوانحهم .

وفى ذلك تعريض بتبرئة ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنزيه مقامه عن الحيف فى حكمه عليهم ، لأنه الأمين على وحى الله ورسالته .

ثم قال عز شأنه فى شأن المؤمنين : « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا

---

(١) سورة النور آية ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .

إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون »(١) .

فوصفهم بالطاعة الكاملة والتسليم المطلق إذ دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم وذلك فى مقابل إعراض المنافقين وإبائهم حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإعراضهم عن قبوله إذا كان الحكم عليهم والحق لغيرهم .

ثم سجل لهم بأسلوب الحصر البليغ ما يترتب على انصياعهم لأمر الله ورسوله بطاعة حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم هم المفلحون فى مقابل دمغ المنافقين بأنهم هم الظالمون .

وفى الجمع بين ذكر الله ورسوله فى الدعوتين ، دعوة المؤمنين ودعوة المنافقين إلى الله ورسوله ليحكم بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بيان لمن سمع له ومن أطاعه من المؤمنين وبيان لمن أعرض عنه من المنافقين ، وهو كالجمع بينهما فى طلب الطاعة فى الآيات التى قرنت فيها طاعة رسول الله بطاعة الله ، وفيه ترشيح لطلب طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم استقلالا ووجوب امتثالها كذلك .

بعد هذه الموازنة بين حالى المؤمنين والمنافقين جاءت الآية التى قرنت فيها طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاعة الله وعطف عليها خشية الله وتقواه بأسلوب الشرط الموحد بين الطاعتين فى الجزاء ، ثم عقب ذلك بما كشف عن طبيعة النفاق من الالتواء ، وخبث الطوية ، والروغ عن الجادة وخور العزيمة ورعدة الجبن ورعب الفزع ، والكذب المفضوح المؤكد بالأيمان

---

(١) سورة النور آية ٥١ .

الفاجرة : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون »[1] .

وذلك أنهم لما انكشف أمرهم وافتضح سرهم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون عن جريمتهم فى كراهيتهم لحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإبائهم طاعته ، ويقسمون بأبلغ ما يبلغ إليه جهدهم من مغاظ الأيمان ومحرجات القسم على أنهم يطيعونه ، ولو أمرهم بأشد ما تكرهه النفوس البشرية من الخروج عن ديارهم ومفارقة أولادهم ونسائهم ، وترك أموالهم مجاهدين معرضين أنفسهم للقتل وأموالهم للإنفاق ، فأكذبهم الله تعالى ورد عليهم قولهم ، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينهاهم عن الحلف زجراً لهم ، لأن أمرهم مفضوح، وسرهم مكشوف ، وأنهم لا يخدعونه ، وإنما يخدعون أنفسهم ، وهو عليم بهم بإنباء الله له بأحوالهم ، وأن طاعتهم التى يزعمونها معروفة لا تخفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها طاعة الكذب والتكذيب ، وهما ديدن المنافقين وجرثومة النفاق التى ينشأ منها .

ثم عقب الله تعالى ذلك بما يجرى على نسق ما أصلناه من أن قرن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاعة الله تعالى مما يفيد أن المقصود من قرن الطاعتين أن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع سنته أمر زائد على مجرد ما جاء من الأحكام فى القرآن فقال تعالى : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين»[2] .

---

(١) سورة النور آية ٥٣ .

(٢) سور النور آية ٥٤ .

وإعادة فعل الطاعة لتعليقه بالرسول تأكيد لوجوب طاعته باتباع سنته كما تجب طاعة الله بامتثال أمره فى كتابه ، وزاد ذلك تأكيداً تفريع حكم التولى والإعراض عن الامتثال ، فى جملة شرطية جاء جوابها مختصاً برسول الله صلى الله عليه وسلم فى تحمل مسئولية عمله فى مقابل تحمل المنافقين مسئولية عملهم سوقاً للكلام مساق الإنصاف والمعدلة وقد ترك بيان أثر المسئولية فى الجانبين اعتماداً على المتعالم المتعارف من أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الصادق الأمين ، وأن المنافقين هم الكاذبون .

ثم أفرد طاعة الرسول بالذكر ورتب على حصولها حصول الاهتداء إلى الحق ليدخل المهتدون ساحة أهل الإيمان الذين يطيعون الله ورسوله ويخشون الله ويتقونه ، فيفوزوا برحمة الله ورضوانه مما يؤكد أن طاعة الرسول بامتثال أمره واتباع سنته مستقلة بالإيجاب دون نظر إلى ورود ذلك فى القرآن أو عدم وروده .

ثم ختم القصة كلها بذكر واجب الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف رسالته ، فقال : (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) .

١٣ — وقال عز اسمه : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون »[١] هذه الآية نص فى إفادة وجوب طاعة الرسول استقلالا باتباع ما ثبت من سنته دون توقف أو عرض على القرآن ، لأنها أفردت طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذكر بعد الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهما الركنان المهمان فى شريعة الإسلام .

١٤ — وقال تبارك وتعالى : « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج

---

(١) سورة النور آية ٥٦ .

الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً »(١) .

هذه الآية الكريمة مما أدب الله به أمهات المؤمنين أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لأنهن فى مكانهن من النبي صلى الله عليه وسلم القدوة التى يقتدى بها نساء المؤمنين ، لكمال فضلهن وشرفهن ، فذكر طاعة الرسول مع طاعة الله فى هذا الموضع دليل بين على أن طاعة الرسول مستقلة بالطلب لمجرد وصف الرسالة فى جميع ما شرعت السنة النبوية ، ولو لم يكن ذلك مطلوباً طلباً استقلالياً لوصف الرسالة لكان يمكن ان يقتصر على ذكر طاعة الله تعالى ، وأن تذكر طاعة الرسول بوصفه زوجاً له عليهن من الحقوق والواجبات ما تجب طاعته فيه بوصف الزوجية ، وهى طاعة مستمدة من طاعة الله تعالى فى كتابه ، فذكره صلى الله عليه وسلم بوصف الرسالة فى إيجاب طاعته مقرونة بطاعة الله تعالى دليل قاطع على أن طاعته واجبة استقلالا بمقتضى وصف الرسالة .

١٥ — وقال عز شأنه : « يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا »(٢) .

هذه الآية تحكى حال الكفرة فى الدار الآخرة ، وتصور ما يقع منهم من الندم حين يلقون جزاء كفرهم فى النار ، فلا يجدون شفيعاً يشفع لهم ، ولا نصيراً ينقذهم من العذاب ، ويصيحون نادمين ياليتنا أطعنا الله بامتثال ما أمرنا به فى كتابه وياليتنا أطعنا الرسول بمتابعته فيما طلب منا من سنته ، فلا ينفعهم الندم ، فالندم على فوات طاعة الرسول كالندم على فوات طاعة

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٣ .
(٢) سورة الأحزاب آية ٦٦ .

الله تعالى ، لأن جعل كل منهما سبباً لما هم فيه من العذاب ، دليل على أن كلا من الطاعتين مطلوب استقلالا معذب على فواتها ومخالفتها .

١٦ — وقال سبحانه : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً. يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما »(١) .

هذه الآية تسبقها آية تنادى المؤمنين وتأمرهم بتقوى الله ، والتقوى فعل من أفعال القلوب تظهر آثاره على الجوارح ، وهذا الفعل القلبي يتمحض التوجه فيه إلى الله تعالى ، فلا ينبغي أن يشاركه فيه أحد ، ثم أتبعت الآية ذلك بأمر المؤمنين بالتزام الصدق والسداد ، مع الله ومع أنفسهم ، ومع جميع الناس أفراداً وجماعات ، حتى يكون ذلك عنواناً على تقواهم ، وليجمعوا بين خيرى الدنيا والآخرة ، ثم جاء ذكر الجزاء وهو دائماً من اختصاص الله سبحانه لا يقدر عليه غيره ، وقفاه بذكر ما هو الطريق الواضح لتحقق التقوى والصدق والسداد الذى يصلح الله به العمل ، ويغفر بسببه الذنوب ، ولا طريق لذلك إلا طاعة الله تعالى بامتثال أمره ونهيه ، وطاعة الرسول بمتابعته فى العمل بسنته لمجرد ثبوتها عنه بقول أو فعل أو تقرير ، وذكرت الطاعتان بأسلوب الشرط .

ثم رتب عليه جزاء يجمع إلى التوفيق للتقوى وسداد القول والتفضل بستر الذنوب أو محوها حتى لا يكون لها أثر يعيق المؤمنين عن الوصول إلى فضل الله وإنعامه ، وذلك هو الفوز العظيم الذى جعل جزاء لطاعة الله ورسوله .

فالجمع بين طاعة الله ورسوله فى الشرط وجعل الفوز العظيم جزاء لهما

---

(١) سورة الأحزاب آيتا ٧٠ ، ٧١ .

دليل على أن كلا من الطاعتين مطـــلوب استقلالا ، لايتحقق جزاؤهما إلا بوجودهما معاً .

١٧ — وقال عزوجل : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم »(١) .

وسبيل هذه الآية سبيل الآيات التى جمعت بين ذكر طاعة الله وطاعة رسوله وأعيد فيها ذكر فعل الطاعة بجانب الرسول ، وهذا يؤكد استقلال طاعة الرسول فيما شرعه ابتداء مما لم يرد به نص فى القرآن ، وسياق الآية يدل على ذلك ، لأنها جاءت تأمر المؤمنين أن يكونوا على حال يخالف حال الكافرين الذين ذكر الله حالهم فى الآية التى تسبق هذه الآية ، وذلك قوله تعالى : « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ماتبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم »(٢) .

عرضهم بعنوان الكفر ثم وصف حالهم بأنهم لايكتفون بكونهم شريرين فى أنفسهم ، وأنهم لخبث فطرتهم وسوء لخيزتهم يعدون شرهم إلى غيرهم بالصد عن سبيل الله ، لايهتدون ولا يحبون لغيرهم أن يهتدى ، وأنهم يقفون فى وجه الخير بمعاداة مصدره ، ومشاقة منبعه ، وهو الرسول الذى جاءهم بالهدى من عند الله ، وهم لا يقفون هذا الموقف جهلا ، ولكنهم يقفونه عناداً بعد ماتبين لهم الهدى ووضح أمام أعينهم الحق ، ووجوب متابعة الرسول ، فركبوا رؤوسهم وأصروا على الكفر واستكبروا عن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ومتابعته .

ثم بين أن شؤم ذلك إنما يعود عليهم ، وأنهم لن يضروا الله شيئاً بسبب كفرهم وعنادهم وسيحبط الله أعمالهم ويبطل أثرها فلا يجدونه إلا كما يجد الظمآن السراب .

(١) سورة محمد آية ٣٣ .

(٢) سورة محمد آية ٣٢ .

ثم طلب من المؤمنين أن يكونوا هم أهل طاعة الله بامتثال ما أمر به واجتناب مانهى عنه فى كتابه ، وأن يكونوا هم أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمتابعته فيما ثبت من سنته حتى يختلف حالهم مآلا وحالامع حال أولئك المعاندين الصادين عن سبيل الله المشاقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

١٨ — وقال جل جلاله : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً »(١) .

هذه آية بدأت ببيان حكم تشريعى يختص بالجهاد فى سبيل الله ، وقد جاءت بعد آية سجلت تعنيف قوم تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجاهدوا معه وإخبارهم بأن قبول توبتهم عن هذا التخلف مرتبط بدعوتهم إلى جهاد قوم أولى قوة وبأس شديد ، يقاتلونهم أو يسلمون (فإن تطيعوا) الداعى إلى هذا الجهاد يقبل الله توبتكم ويؤتكم أجراً حسناً على جهادكم ، وإن تتولوا وتعرضوا عن جهادهم وتتخلفوا عن الداعى لكم إلى قتال هؤلاء القوم كما توليتم من قبل عن دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إياكم عن الجهاد معه يعذبكم الله عذاباً أليما وذلك قوله تعالى. «قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً »(٢).

فهؤلاء قوم من الأعراب تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية فأجلهم الله تعالى ووعدهم بأنهم سيدعون إلى قتال قوم أشداء البأس أقوياء الشكيمة وهو بنو حنيفة فى قول أكثر المفسرين ، وهذا منقول عن بعض الصحابة فى تفسير الآية .

---

(١) سورة الفتح آية ١٧ .

(٢) سورة الفتح آية ١٦ .

قال رافع بن خديج : إننا والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى فلا نعلم من هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بنى حنيفة فعلمنا أنهم هم .

فلما قرأ آية المخلفين أهل الزمانة والعجز عن النفر للجهاد تأثموا وانكسرت قلوبهم وخافوا أن يلحقهم وعيدها ، فأنزل الله تعالى رفع الحرج عنهم وجبر كسر قلوبهم بفضله فى قوله تعالى : (ليس على الأعمى حرج) الآية .فطابت نفوسهم ورضوا لرضاء الله عنهم . ثم ذكرت الآية قاعدة الثواب المترتب على الطاعة مبينة من هو الذى تجب طاعته ، ويتحقق بتحققها ما رتب عليها من الثواب العظيم ، ثم ذكرت الآية قاعدة للعقاب المترتب على مخالفة الطاعة المذكورة وجاء ذلك فى جملتين شرطيتين بجواب مناسب لكل من الأمرين .

فسباق الآية وسياقها يبين أن طاعة الرسول بمتابعته بامتثال ما جاء فى سنته مطلوبة استقلالا ، ولو لم يرد بما جاءت به من أحكام نص من الكتاب ، كما يستفاد ذلك من ذكر الرسول فى حيز الشرط هنا وعدم ذكره فى قوله : (وإن تطيعوا) .

١٩ — وقال تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم »(١) .

هذه الآية تربط طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بحقيقة الإيمان الذى إذا وقر فى النفس ترتبت عليه آثاره الدنيوية والأخروية ، وتبين أن مجرد ادعاء الإيمان بالقول اللسانى دون أن يصحبه إذعان قلبى لا يكون إيماناً معتبراً ، وإنما الإيمان المعتبر عند الله هو ما كانت طاعة

---

(١) سورة الحجرات آية ١٤ .

الله تعالى وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تعبيراً عنه ،وتبياناً لصدقه فالله تعالى قدأ كذب أولئك الأعراب فى قولهم : (آمنا) ورد عليهم بأنهم أحرياء أن يقولوا: (أسلمنا) لأنهم كانوا منقادين مستسلمين لرغبة أو رهبة ، ولماتعمر قلوبهم بحقيقة الإيمان المعتبرة التى هى التصديق والإذعان المؤدى إلى الامتثال والطاعة لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم بين لهم أن طاعة الله ورسوله هى العنوان المعبر عن حقيقة الإيمان الذى تترتب عليه آثاره فقال : (وإن تطيعوا الله ورسوله) بامتثال أمر الله الذى نطق به كتابه ، وبمتابعة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كنتم مؤمنين حقاً وكان لكم ثواب أعمالكم كاملا . لا ينقصكم الله منه شيئاً لأنه غفور رحيم .

ثم أكد هذا المعنى فعقب ذلك ببيان أن المؤمنين حقاً هم الذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً منبعثاً عن يقين يملأ القلوب إخلاصاً فلا تتسع معه لشىء من الشك المريب . وهم الذين يعلنون عن إيمانهم بامتثال أوامر الله تعالى التى نطق بها كتابه وبمتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم مجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله لصدقهم فى إيمانهم ورسوخ يقينهم . وذلك فى قول الله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون»[1].

فالآية الأولى جعلت طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طاعة لله ورتبت عليهما أمراً واحداً وهو عدم نقص ثواب أعمال من يطع الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم . وطاعة الله بامتثال أمره فى كتابه . وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بمتابعته فيما ثبت من سنته .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٥ .

والآية الثانية أكدت هذا المعنى لأنها جعلت الإيمان بالله تعالى لا يتم إلا بالإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم، وجاءت رديفة للآية الأولى. مبينة لحقيقة الإيمان الذى هو أصل الطاعة التى جعلت عنواناً على حقيقة الإيمان المعتبر عند الله تعالى.

٢٠ — وقال عز وجل: «أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون»(١).

هذه الآية جاءت تخفيفاً من الله تعالى عن المؤمنين فى حكم مناجاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من تقديم صدقة من كل مناج بين يدى نجواه فى قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم»(٢).

وذلك أنهم لما أكثروا المناجاة وشغلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مهم أمره من تبليغ الدعوة والإعداد للجهاد وبيان التشريع والعبادة، وشغلوا أنفسهم عن مهام أمورهم، وشغلت قلوب فريق منهم بحديث النفس عمن ناجى ومن لم يناج، ومن أكثر مناجاة، ومن هو أقرب إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وله حظوة إطالة المناجاة أو تعداد مراتها، واهتبلها بعض المنافقين ليتستروا وراء المناجاة، شرع الله لهم تقديم صدقة قبل المناجاة ليكفوا عنها تكثراً ولغير غرض شرعى، فيوفروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقته ليشغله فى مهم الرسالة ويوفروا على أنفسهم

---

(١) سورة المجادلة آية ١٣.

(٢) سورة المجادلة آية ١٢.

وقتهم للتفرغ إلى ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم ، وهذا أدب إلهى أدب الله به أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلما شق ذلك على الجــادين فى المناجاة للمصلحة العامة ومهام أمور المسلمين أفراداً وجماعات ، وقد عجزوا عن تقديم الصدقة لكل مناجاة وكف الآخرون عنها تدارك الله بلطفه اهل الجد والإصلاح فخفف عنهم ذلك الحكم وذكر حالهم من الإشفاق والخوف على أنفسهم إن يكونوا عنتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمناجاة حتى شدد الله عليهم فيها وشرع لهم حكم الصدقة قبل الإقدام عليها ، ثم زادهم من فضله فبشرهم بتوبته عليهم ، وهى توبة تشريف لمن عجز عن الصدقة بين يدى نجوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوبة لطف من الله ورحمة لغيرهم ، ثم أمرهم بالتزام الطاعة ، وذروة سنامها إقامة الصلاة ركن الإخلاص فى عبادة الله ، وإيتاء الزكاة ، أمارة الطهارة من رذيلة الشح وركن المال وتحقيق العدالة بين الأغنياء والفقراء ، ثم ختم الآية بالأمر بما يحيط بجملة الطاعات وتفصيلها فقال : (وأطيعوا الله ورسوله) وطاعة الله بامتثال ما أمر به فى كتابه وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بمتابعته فيما شرعه فى سنته بقوله أو فعله أو تقريره .

٢١ — وقال عز اسمه : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين »(١) .

هذه الآية مما أعيد فيها ذكر فعل الطاعة بالنسبة للرسول بعد تأسيس طلبها لله تعالى فكانت الطاعة مطلوبة استقلالا ، لكل منهما ، فطاعة الله تعالى مطلوبة لأنه سبحانه يستحقها استحقاقاً ذاتياً بوصف الإلوهية .

---

(١) سورة التغابن آية ١٢ .

وطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مطلوبة لاستحقاقه لها بوصف الرسالة ، ثم فرع على طلب الطاعتين أنهم إن أعرضوا عن طاعة الله ورسوله فليس الرسول بمسيطر على قلوبهم يقسرها على الهداية وإنما وظيفته تبليغ رسالة ربه وترك أمر العباد فى الثواب والعقاب لربهم يفعل بهم مايريد ، وهو الذى يهدى قلوب المؤمنين ، ويوفقهم إلى تقبل ما ينزل من سماء قضائه وهو بكل شىء عليم ....

(الوجه الثانى)

معصية الرسول معصية الله

ويجرى هذا المجرى — فى إفادة أن السنة النبوية مصدر أصيل للتشريع الإسلامى قد يرد فيها ما لم يرد فى الكتاب — ما ورد من آيات القرآن الكريم التى قرنت فيها نكارة معصية الرسول صلى الله عليه وسلم بنكارة معصية الله تعالى ، وسيقت مساق النهى والتحذير مع ترتيب جزاء عقابى واحد على الأمرين، مما يدل بداهة على تساويهما فى وجوب الانصياع والتسليم باجتناب ما حذرا منه .

وذلك دليل واضح على أن اتباع موارد السنة النبوية بأنواعها ، القولية ، والفعلية والتقريرية واجب كوجوب اتباع موارد القرآن الكريم فى أوامره ونواهيه وسائر مضامينه فى الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد .

١ — قال تعالى : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين »[1] .

هذه الآية جاءت عقيب آية قرن طاعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم — بطاعة الله تعالى التى وردت بعد تفصيل حكم المواريث ، وتحديد نصيب كل وارث من النساء والرجال ، للحث على الاستجابة لحكم الله ، والتمسك بما حده وفصله فيها وبيان أن المستجيب لأمر الله ، المتمسك بطاعة الله

---

(١) سورة النساء آية ١٤ .

وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فى جميع ما أمر به أو نهى عنه ، كان له عند الله ذلك الجزاء الثوابى العظيم ويدخل فى ذلك دخولا أوليـاً أمر المواريث ، لأنها كانت موضع التنصيص ورفع الشك ، وقطع دابر ما كان عليه الجاهليون من ظلم فى المواريث . ومجيئها عقب آية المواريث لا يمنع العموم فى الجزاء .

ثم أكد ذلك المعنى بما هو رديفة ، كما هو سنة القرآن من اتباع الوعد بالوعيد،والترغيب بالترهيب ، خصوصاً فى الأمور التى كانت تصور مشاكل فى مجتمع نزول القرآن ، وقد كان للمواريث مكان الصدارة فى هذه المشاكل الجاهلية .

فذكر أن من يعصى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بمخالفة ما شرعاه فى الكتاب أوفى السنة كان حرياً بأشد أنواع الجزاء العقابى . وهو الخلود فى نار جهنم ، ذليلا مخذولا ، لمن كان خلافه جحوداً لأصل التشريع ، أوكان شكا فى أن الله فرض على هذا المخالف ما فرض على عباده سواء أكان ذلك التشريع فى المواريث أم غيرها .

وقدكان الشك ، بل الإنكار واقعاً من ملحدى المشركين ومنافقى الجاهلية فى تشريع قسمة المواريث ، قال أبو جعفر الطبرى : فإن قال قائل: أو مخلد فى النار من عصى الله ورسوله فى قسمة المواريث ؟ قيل : نعم ، إذا جمع إلى معصيتهما فى ذلك شكا فى أن الله فرض عليه ما فرض على عباده فى هاتين الآيتين ، أو علم ذلك فحاد الله ورسوله فى أمرهما على ما ذكر ابن عباس من قول من قال حين نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الله تبارك وتعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ

الأنثيين»[1] . إلى تمام الآيتين : أيورث من لا يركب الفرس ولا يقاتل العدو ولا يحوز الغنيمة ، نصف المال أو جميع المال ؟ استنكاراً منهم قسمة الله ما قسم لصغار ولد الميت ونسائه وإناث ولده ،ممن خالف قسمة الله ما قسم من ميراث أهل الميراث بينهم على ما قسمه فى كتابه ، وخالف حكمه فى ذلك وحكم رسوله ، واستنكاراً منه حكمهما كما استنكره الذين ذكرهم ابن عباس ممن كان بين أظهر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين الذين فيهم نزلت وفى أحكامهم هذه الآية فهو من أهل الخلود فى النار لأنه باستنكاره حكم الله فى تلك يصير بالله كافراً ، ومن ملة الإسلام خارجاً(ا هـ)

وقد كان عرف الجاهلية الجهلاء عدم توريث النساء ، وحرمانهن من أية حقوق مالية واجتماعية،فلما جاء الإسلام بإنصافهن على أسس من العدل أبت عنجهية النفاق والإلحاد التسليم لأمر الله فكان حقاً على هؤلاء المنافقين الملاحدة أن يكونوا من أهل الخلود فى النار لأنهم شاقوا الله ورسوله فيما شرعه رب العالمين من الحقوق والواجبات .

وهذا الحكم يعم كل من حاد الله فى استنكار ما شرعه الله من شرائعه . أو زعم أن الله تعالى لم يفرض ما اتفق المسلمون على فرضيته ، فمن نادى بالمساواة بين المرأة والرجل فى الميراث هو كمن نادى من قبل بعدم توريث المرأة ، كلاهما كافر بالله وخارج من ملة الإسلام .

والمقصود بيان أن أسلوب قرن معصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعصية الله فى جملة شرطية يجىء جوابها مصوراً للجزاء العقابى للمعصيتين بأمر واحد هما فيه سواء دليل على أنه كأسلوب قرن طاعة رسول الله صلى

(١) سورة النساء آية ١١ .

الله عليه وسلم بطاعة الله فى إفادة مصدرية السنة النبوية للتشريع استقلالا فيما لم يرد فيه نص من الكتاب الحكيم ويرشح ذلك أن معصية الله انفردت فى مجال لا مدخل فيه للرسول صلى الله عليه وسلم .

وذلك فى قوله تعالى ثناء على ملائكة النار بعد وصفهم بالغلظة والشدة على أعداء الله : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »(1) . فالثناء عليهم بعدم عصيان أمر الله وحده ومبادرتهم اطاعته بفعل ما يأمرهم به ، لأن المقام ليس مقام تشريع فلا مدخل هنا للرسول صلى الله عليه وسلم ، والأمر فيه لله وحده ، فذكر الرسول فى مقام التشريع مقروناً بذكر الله فى طاعته أومعصيته وترتيب جزاء واحد على الأمرين دليل على أن السنة النبوية قد تستقل بالتشريع .

وقد ثبت كما قدمنا أن السنة استقلت بالتشريع فى بعض مسائل المواريث ، كميراث الجدة وميراث الزوجة من دية زوجها ، بل إن الميراث بالولاء فى جميع مسائله لم يذكر فى القرآن إنما ثبت بالسنة .

وفى الحديث الذى يرويه الإمام مسلم من قوله صلى الله عليه وسلم : « ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقته الفرائض فلأولى عصبة ذكر » دلالة على أن مابقى بعد فرائض السهام مسكوت عنه فى القران وشرعه النبى صلى الله عليه وسلم ، قال القاضى ابن العربى : لما فرض الله تعالى فرائض السهام ، وبقيت بعد ذلك بقية من المال مسكوت عنها فى كتاب الله عز وجل بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال فى الحديث الصحيح وذكر حديث مسلم المتقدم .

---

(1) سورة التحريم آية ٦ .

٢ — وقال تعالى : « ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً »[١] وهذه الآية سبيلها سبيل آية النساء السابقة التى جاءت بعد آية المواريث فى قرن معصية الرسول صلى الله عليه وسلم بمعصية الله وترتيب جزاء واحد عليهما مما يدل على أنهما فى مرتبة واحدة من جهة وجوب اجتناب ما نهيا عنه فى الكتاب والسنة .

وذكر ما يفيد الجحود بذكر الخلود فى النار أبداً — مما يدل على أن المعصية هنا معصية كفر — لا يمنع أن قرن معصية الرسول بمعصية الله تعالى يعطيها الحكم المطلوب على معنى أن إنكار ما يثبت بالسنة القطعية كتعداد ركعات الصلاة يوجب الخلود فى النار استقلالا .

٣ — وقال تعالى : «ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً »[٢].

هذه الجملة خاتمة آية هى بجملتها وتفصيلها نص فى المطلوب ، لأن الله عز وجل يقول : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً »[٣] .

وصدر الآية يفيد أنه ليس لأحد من المؤمنين والمؤمنات أن يختار أمراً من الأمور فى حادثة بعد أن يكون الله ورسوله قد حكم بأمر بعينه فى نازلة من النوازل المماثلة لها .

وهذا ظاهر بمنطوقه ومفهومه أن حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم كحكم الله فى وجوب امتثاله والتسليم له ، سواء أكان ذلك الحكم منصوصاً

---

(١) سورة الجن آية ٢٣ .
(٢) سورة الأحزاب آية ٣٦ .
(٣) سورة الأحزاب آية ٣٦ .

فى آى القرآن أم لم يكن منصوصاً عليه فيها بما يشرعه النبى صلى الله عليه وسلم وحى من الله غير متلو فى الصلوات ولا متعبد بلفظه .

ولتأكيد هذا المعنى جاءت خاتمة الآية تقرن معصية الرسول بمعصية الله فى ترتيب الضلال المبين عليهما سواسية فقال تعالى : (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً) .

وقد ذكر المحدثون والمفسرون فى سبب نزول الآية ما يؤيد مذهبنا فى فهم نصها صدراً وخاتمة روى ابن كثير قال : قال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) الآية وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضى الله عنه فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضى الله عنها ، فخطبها فقالت : لست بناكحته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بلى فانكحيه » قالت : يا رسول الله أؤامر فى نفسى ؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً » الآية ، قالت : قد رضيته لى يا رسول الله منكحاً ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . نعم : قالت: إذن لا أعصى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنكحته نفسى .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت الآية فى أم كلثوم بنت عقبة ابن أبى معيط رضى الله عنها وكانت أول من هاجر من النساء بعد صلح الحديبية فوهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : «قد قبلت» فزوجها زيد بن حارثة رضى الله عنه ، فسخطت هى وأخوها ، وقالا : إنما أردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجنا عبده ، فنزل القرآن : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً) الآية وذكر أبو عمر ابن

عبد البر فى الاستيعاب أنها نزلت فى أمر جليبيب رجل من مساكين المسلمين وكان شجاعاً ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب إلى رجل من الأنصار ابنته ليزوجها من جليبيب فاستأمر الرجل أم الفتاة فامتنعت ، فقالت الفتاة : من خطبنى إليكم فأخبرتها أمها فقالت الفتاة : أتردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ؟ ادفعونى إليه فإنه لن يضيعنى ، فانطلق أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال شأنك بها ، فزوجها جليبيب ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة له فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه رضى الله عنهم هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : نفقد فلانا ، ونفقد فلانا ، قال صلى الله عليه وسلم : « انظروا هل تفقدون من أحد » قالوا : لا ، قال صلى الله عليه وسلم : « لكنى أفقد جليبيباً » ثم قال صلى الله عليه وسلم : « فاطلبوه فى القتلى » فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عليه ، فقال : « قتل سبعة وقتلوه ، هذا منى وأنا منه » مرتين أو ثلاثا ، ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ساعديه وحفر له ، ماله سرير إلا ساعد النبى صلى الله عليه وسلم ثم وضعه فى قبره .

فى رواية زينب بنت جحش رضى الله عنها أنها قالت فى نهاية مفاوضة رسول الله صلى الله عليه وسلم لها فى نكاح مولاه زيد بن حارثة بعد أن تثبتت من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رضيه لها زوجاً : إذاً لا أعصى رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلمها أن معصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أراه الله له بوحى السنة إثم كبير لمخالفته لتشريع واجب السمع والطاعة والامتثال .

وفى قصة أم كلثوم بنت عقبة أنها لما سخطت هى وأخوها وقالا ماقالا أنزل الله الآية : « ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً

أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) تنفى أن يكون لأحد من المؤمنين والمؤمنات اختيار مع حكم الله ورسوله ، فرضيا حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم ،وهذا الحكم وهو رضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزوج أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط من مولاه زيد بن حارثة لم يكن مما شرع فى القرآن الكريم ، ولكنه شرع بمحض السنة التى لم ينزل فى شأنها قرآن وإنما نزل القرآن بتأييد النبى صلى الله عليه وسلم فيما شرع .

وفى قصة جليبيب أن الفتاة التى خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم له فاستأمر أبوها أمها فسخطت الأم هذه الخطبة لما سمعت ما دار بين أبيها وأمها ، قالت : أتردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ تنكر عليهما عدم السمع والطاعة لما رضيه صلى الله عليه وسلم ، وفى رواية أنها قالت لهما : أتريدون أن تردوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه ، قال راوى الحديث : فكأنها جلت عن أبويها ، وقالا : صدقت ، أى أنها كشفت لهما ما كان غائباً عنهما من وجوب طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما شرعه بسنته ولو لم ينزل فى شأنه قرآن ، ولهذا استجاب أبوها وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : إن كنت رضيته فقد رضيناه . فزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم من جليبيب فكانت من أسعد نساء زمانها ببركة تسليمها لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٤ — وقال تعالى : «فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون»(١).

هذه الآية الكريمة جاءت عقيب قول الله تعالى :(وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين)وهذا إنذار لمنذر خاص بمنذر به عام ، وتخصيص المنذر هنا فى أول خطوات الدعوة إلى الله جاء

---

(١) سورة الشعراء آية ٢١٦ .

قطعاً لأطماع القرابة ، وحسما المداهنة فى أمر الله مع من يحسب أنه قد يكون له منفذ للخروج عن سبيل العامة بما له من منزلة القرابة ليستقر المبدأ العام الذى قام على أساسه الإسلام ودعوته من المساواة المطلقة بين الناس أجمعين فى الشفقة عليهم وزجرهم لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وإذا حسمت المداهنة مع أخص القرابة فقد حسمت مع الأجانب الأبعدين بطريق الإحساس الطبيعى فى الجبلة الإنسانية.

فالله تعالى يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخوف عشيرته الأقربين من عذاب الله ونكاله إن لم يسمعوا له ويطيعوا ويسلموا لأمره تسليما لا يجدون فى صدورهم حرجاً منه ، وروى مسلم فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزلت آية : (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا قريشاً فاجتمعوا فعم وخص ،فقال : «يابنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار، يابنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار يابنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار،يابنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة أنقذى نفسك من النار، فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها » وهذا الحديث يشرح المعنى المقصود من الآية ويبين أن القرب فى الأنساب لا يغنى مع البعد فى الأسباب .

ثم أمر الله تعالى رسوله —صلى الله عليه وسلم— أن يرفق بعامة المؤمنين ويلين لهم جانبه ، ويدنيهم من نفسه ، ويشاورهم فى أمورهم المرتبطة بأمره صلى الله عليه وسلم فى دعوته ورسالته،وفى هذا تأكيد لمبدأ المساواة المطلقة فى ظل الإخاء الإيمانى .

ثم عقب ذلك بقوله تعالى :

(فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون) أفرد هنا العصيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يقرن به عصيان الله تعالى ، لأن المقام مقام تأكيد منصب الرسالة ، ووجوب طاعة الرسول فيما أنذر به خاصة أقربائه حسما لمادة المداهنة فى نفوسهم ، وتوطيداً لأساس الدعوة للحق فى مبتدأ سيرها حتى يكون الناس على بصيرة من أمرها .

فالآية صريحة فى أن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة استقلالا ، بمقتضى منصب الرسالة ، وأن عصيانه موجب للعقاب فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه سواء أكان ذلك وارداً فى الكتاب أم مما لم يرد فيه بل استقلت السنة بتشريعه .

والسنة وحى من الله تعالى لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ، وإنما أمره كله فى رسالته وحى من الله يوحى إليه ، فعصيانه عصيان لله تعالى ، وهو صلى الله عليه وسلم برىء من عصيانهم لأمره ، لأن عصيانه فى أى أمر من أوامره عصيان لله تعالى ، لأنه صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا بما يرضاه الله تعالى،ومن تبرأ منه النبى صلى الله عليه وسلم فقد تبرأ الله منه .

٥— وقال تعالى : «ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ، يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول»(١) .

(١) سورة المجادلة آيتا ٨،٩ .

الآية الأولى من هاتين الآيتين نزلت فى اليهود والمنافقين ، كانوا إذا اجتمعوا تغامزوا على المؤمنين ، وتهامسوا بهم ليحزنوهم ، ويجعلوهم يظنون بأنفسهم وبمن غاب عنهم من إخوانهم الظنون فنزلت الآية تفضح المتناجين لإساءة المؤمنين وبينت أن مناجاتهم إنما كانت بالإثم والكذب والعدوان الظالم والبغى على المؤمنين ، ومخالفة أمر الرسول ونهيه عن هذه النجوى الخبيثة .

ثم بينت الآية أن هؤلاء اليهود معرقون فى الإجرام ، فإذا جاءوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم حيوه بلى ألسنتهم بالسوء وبما لم يحيه به الله تعالى من الإعظام والتوقير ، وكان الله حليماً بهم ، لايعاجلهم بالعقوبة ، فيقولون اغتراراً بحلم الله تعالى : (لولا يعذبنا الله بما نقول) فى تحيتنا لمحمد — صلى الله عليه وسلم — إذ لو كان نبياً ونحن نصنع معه هذا فى تحيته لعذبنا الله . وهذا إذا صح من المنافقين لجهالتهم بشأن الله فى عباده ما كان ينبغى أن يقع من أهل الكتاب الذين يعلمون أن الله تعالى لا يعجل على أعدائه بالعقوبة ، وأن الأنبياء قد ينالهم من أعدائهم أعداء الله تعالى ما يوجب العقوبة والنكال فيحلم الله عليهم ويمهلهم كما يشاء ، ولا يعاجلهم بالعقاب فى الدنيا ، ويتوعدهم بما أعده لهم من أليم العذاب فى جهنم وبئس المصير .

وقد أفردت معصية الرسول صلى الله عليه وسلم عن قرنها بمعصية الله تعالى إيذاناً بأنها بمفردها سبيل إلى غضب الله وعذابه ، وهذا يدل على أن أمر الرسول واجب الطاعة والتسليم ، وأن مخالفته موجبة للعقاب ، والمخالفة تشمل كل مخالفة فى أمر من أمور العقيدة والتشريع .

والآية الثانية نزلت لتعليم المؤمنين وتأديبهم أن يكونوا فى مناجاتهم

معتصمين بالبر والتقوى وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى السر والعلن، مخالفين فى ذلك شأن المنافقين واليهود أعداء الإسلام .

وتخصيص معصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالذكر مفردة عن قرنها بمعصية الله تعالى، إيذان بأنها مستقلة فى وجوب استحقاق العقاب على أى وجه ، وقعت فى التشريع ، والمؤمنون بمنجاة من المخالفات فى أصول العقيدة ، ولذلك جاء الأمر بالمناجاة بالبر والتقوى ، والأمر بتقوى الله بعد النهى عن المناجاة بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، كما تجىء التحلية بعد التخلية ، فالأول تطهير من أرجاس النفاق وخبث اليهودية ، والثانى تحقق بمعالى الأمور ومكارم الأخلاق .

٦ — وقال تعالى فى بيعة المؤمنات : « ولا يعصينك فى معروف »[1] .

هذا تقرير لشرط من شروط بيعة النساء وامتحانهن ، وكانت هذه البيعة للمهاجرات المؤمنات ، ثم عمت نساء مكة لما فتحتها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد جمعت الآية الكريمة ستة شروط كان يشترطها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيعتهن على ما أمره الله تعالى فى قوله : « يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم »[1] .

فقوله تعالى : (ولا يعصينك فى معروف) شرط لصحة الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد أفرد صلى الله عليه وسلم هنا بشرط

---

(١) سورة الممتحنة آية ١٢ .

عدم عصيانه ولم يقرن به عصيان الله تعالى وفسر الجمهور (المعروف) هنا بطاعة الله ورسوله ، وبكل أمر فيه رشدهن فهو عام فى كل معروف أمر به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد روى أن هنداً زوج أبى سفيان وأم معاوية رحمهم الله — وكانت فى المبايعات — قالت : ماجلسنا فى مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء .

وهذا دليل واضح على أن معصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم التسليم له فى جميع ما شرعه لأمته من سنته وجميع مايبلغه عن الله عز وجل ، سواء أكان مذكوراً فى القرآن أم غير مذكور تنقض بيعة من بايعه من نساء المؤمنين ، وفى حديث عبادة بن الصامت أنه قال : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخذ على النساء وفيه : « ولا تعصوا فى معروف أمركم به » .

وهذا يفيد العموم للرجال والنساء ، وإنما خص النساء فى الآية لأنهن ضعيفات يخضعن للعواطف ، وأكثر ما تقع هذه الصفات المشترطة منهن لضعفهن وسرعة لصوق العيب بهن ، فأراد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم التأكيد لحضهن على التسامى عن مزالق الشبهات حفظاً لهن وصوناً لحرماتهن .

(الوجه الثالث)

لا يتم الايمان بالله الا بالايمان بالرسول، وحكم الرسول حكم الله

وهذه آيات من الكتاب الكريم تجعل الإيمان بالله دون أن ينضم إليه الإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم غير محقق لتمام الإيمان المطلوب لله من العباد .

وتجعل حكم الرسول فى أمر من الأمور التشريعية هو الحكم الذى يجب اتباعه والتسليم له تسليماً مطلقاً ينفى شائبة الحرج عن قلوب المؤمنين ، فلا يعترضه توقف أو حرج ، ولا يصح معه اختيار ، وتجعل مشاقة الرسول ومخالفة أمره مزيلة لحقيقة الإيمان ، وتجعل محبة الله تعالى للعبد ، ومحبة العبد لله تعالى متوقفة على متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع ما يأمر به أو ينهى عنه .

وتجعل مبايعة المؤمنين للرسول مبايعة لله تعالى .

وتجعل مخالفة أمر الرسول سبباً لإصابتهم بالفتن والعذاب الأليم الذى لا يصيب إلا من خالف أمراً يناقض حقيقة الإيمان .

وتوجب الرد إلى الله ورسوله عند التنازع فى شىء من أمور الدين ، وتجعل ذلك شرطا لوجود حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر .

وتأمر بالإيمان بالله ورسوله ، ثم تفرد الرسول بوجوب المتابعة المحققة للهداية ، وتجعل التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء به فى سائر أحواله المتعلقة برسالته شرطاً فى تحقق الإيمان .

وتجعل دعاء المكلفين رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم دعاء إلى حكم الله .

وتنهى عن التقدم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أى عمل من الأعمال التشريعية .

١ — قال تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه »(١) .

يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه فى تأويل هذه الآية : جعل الله تعالى كمال ابتداء الإيمان الذى ما سواه تبع له الإيمان بالله ، ثم برسوله ، فلو آمن عبد بالله ، ولم يؤمن برسوله لم يقع عليه اسم كمال الإيمان أبداً حتى يؤمن برسوله معه .

ويقول أبو عبد الله القرطبى فى تفسيره : لا يتم ويكمل إيمان من آمن بالله ورسوله إلا بأن يكون من الرسول سامعاً غير معنت فى أن يكون الرسول يريد إكمال أمر فيريد هو إفساده بزواله وقت الجمع ونحو ذلك ، وبين تعالى فى أول السورة أنه أنزل آيات بينات وإنما النزول على محمد صلى الله عليه وسلم ، فختم السورة بتأكيد الأمر فى متابعته عليه السلام ليعلم أن أوامره كأوامر القرآن .

والمراد بالأمر الجامع ما كان للإمام به حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة من إقامة سنة فى الدين ، أو لترهيب عدو باجتماعهم أو تشاورهم فى أمر الحروب بالقتال .

قال تعالى : (وشاورهم فى الأمر) ، فإذا كان أمر يشملهم نفعه وضره جمعهم للتشاور فى ذلك .

---

(١) سورة النور آية ٦٢ .

والإمام الذى يترقب إذنه هو إمام الإمرة فلا يذهب أحد بعد جمعهم لعذر إلا بإذن الإمام ليرتفع عنه سوء الظن .

وظاهر الآية يقتضى أن يستأذن أمير الإمرة الذى هو فى مقعد النبوة ، فإنه ربما كان له رأى فى حبس ذلك الذى يستأذن فى الانصراف لأمر من الدين يقتضى حبسه وعدم الإذن له فى الانصراف إلا بتصرف خفيف .

وتوضيح كلام القرطبى أن معنى الآية لا يكمل إيمان من آمن بالله ورسوله إلا بالتسليم لأمر الرسول سامعاً مطيعاً ، ظاهراً وباطناً ، لا يحتال لإفساد أمر الإيمان إذا دعت مصلحة المسلمين لتشاور جماعى بالتخلف عن الاجتماع أو الخروج منه بعد الدخول فيه ، منتحلا المعاذير إلا إذا استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن له بهذا التخلف عن حضور الجمع أو الخروج منه بعد حضوره فيه .

ويكون المراد من الأمر الجامع ما يرى الإمام أنه فى حاجة إلى اجتماع الناس لإذاعة مصلحة من إقامة سنة فى الدين ، أو ترهيب عدو بإظهار القوة واجتماع الكلمة ، أو لتدبير أمر حرب وتعبية الجيوش ، أو عقد مصالحة أو معاهدة ، أو وضع خطة لغرض من أغراض الإسلام الدينية والاجتماعية مما تلزم فيه الشورى من مهمات الأمور .

فتخلف من يتخلف ، وخروج من يخرج من الجمع بغير عذر حقيقى يقدره الإمام إفساد لأمر المسلمين ومشاقة للرسول تنافى تمام الإيمان به ووجوب متابعته فى أوامره التى هى بمنزلة أوامر القرآن فى وجوب التسليم لها وامتثالها .

ويقول الإمام الرازى: وفى قوله تعالى : ﴿إذا كانوا معه على أمر جامع﴾ إشارة إلى أنه خطب جليل ، لابد للرسول صلى الله عليه وسلم من أرباب التجارب والآراء ليستعين بتجاربهم ، ولا شك أن تخلف أحـــد هؤلاء أو خروجه بعد عقد الاجتماع مما يشق على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم .

والآية تصور خبث النفاق ، وطبيعة المنافقين أينما وجدوا تعويقهم الأعمال الصالحة فى المجتمعات الإسلامية ، ومن شواهده مايجرى كثيراً فى المحافل الدولية أو المؤتمرات ومجالس النيابة ومجالس الإدارات فى المصالح والمرافق العامة ولجان الأعمـال التى تؤلف لدراسة نوع من المشاكل والموضوعات وندوات الشورى ، وأندية البحث فى مهام الأمور ، فإن من يزمع معارضة فكرة أو يرى أنه لوحضر الاجتماع لضاع صوته فى غمار الكثرة التى تريد تحقيق الفكرة ، لايجد أمامه إلا أن يجتمع بمن يكون على رأيه فى المعارضة ويتخلفوا عن الحضور أو ينسحبوا من الاجتماع ، أويهدروا أصواتهم لإحداث بلبلة وتشكيك فى الفكرة وإفساد إقرارها ، ولا يقع ذلك فى غير مقابل لمصلحة المسلمين إلا من منافق مفسد خبيث .

فالآية تقضى أن هذا الاستئذان الواجب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بوصف الرسالة هو واجب لأمير السياسة فى الدولة الإسلامية بوصف الوراثة لمقعد النبوة فى سياسة الأمة ، وبهذا الوصف يثبت له حق منع من تحدثه نفسه بإفساد أمر جماعة المسلمين بتخلفه عن اجتماعهم أو خروجه منه بعد عقده لإشاعة الإرجاف والأكاذيب من هذا التخلف أو الخروج ، حماية للمجتمع الإسلامى من أضرار الإرجاف والإشاعات .

٢ — وقال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما »(١) .

ذكر الأئمة فى سبب نزول هذه الآية روايتين إحداهما رواها البخارى ومسلم فى صحيحيهما، وأصحاب السنن والترمذى فى جامعه ، قال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا محمد بن جعفر ، أخبرنا معمر عن الزهرى عن عروة قال: خاصم الزبير رجلا من الأنصار فى شرج من شراج الحرة، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « اسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك ». فقال الأنصارى : يارسول الله أن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : (اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك) واستوعب النبى صلى الله عليه وسلم للزبير حقه فى صريح الحكم حين أحفظه الأنصارى ، وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة قال الزبير : فما أحسب هـذه الآية إلا نزلت فى ذلك : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) .

والرواية الثانية رواها الطبرى وغيره ، وقـد شيدها الطبرى وأيدها وجعلها هى السبب فى النزول،وأن الآية بعمومها تشمل حكم قصة الزبير مع أنه صدر برواية قصة الزبير كما رواها الأئمة .

قال أبو جعفر الطبرى بإسناده عن مجاهد فى قوله:(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما)هذا الرجل اليهودى والرجل المسلم اللذان تحاكما إلى كعب بن الأشرف.

ثم قال أبو جعفر: وهذا القول ـ أعنى قول من قال ـ عنى به المحتكمان إلى الطاغوت اللذان وصف الله شأنهما فى قوله : « ألم تر إلى الذين يزعمون

(١) سورة النساء آية ٦٥ .

أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك»(1). أولى بالصواب لأن قوله: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) فى سياق قصة الذين ابتدأ الله الخبر عنهم بقوله: (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) ولا دلالة على انقطاع قصتهم، فإلحاق بعض ذلك ببعض ما لم تأت دلالة على انقطاعه — أولى.

ثم قال أبو جعفر رحمه الله — يدفع الشبهة التى قد ترد عليه — : فإن ظن ظان أن فى الذى روى عن الزبير وابن الزبير من قصته وقصة الأنصارى فى شراج الحرة وقول من قال فى خبرهما، فنزل: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) ما ينبىء عن انقطاع حكم هذه الآيات وقصتها من قصة الآيات قبلها، فإنه غير مستحيل أن تكون الآية نزلت فى قصة المحتكمين إلى الطاغوت ويكون فيها بيان ما احتكم فيه الزبير وصاحبه الأنصارى، إذ كانت الآية دلالة دالة، وإذا كان ذلك غير مستحيل كان إلحاق معنى بعض ذلك ببعض أولى ما دام الكلام متسقة معانيه على سياق واحد، إلا أن تأتى دلالة على انقطاع بعض ذلك من بعض فيعدل به عن معنى ما قبله.

وقد مال القاضى أبو بكر ابن العربى إلى رأى الطبرى مشيراً إلى وجه ترجيحه ما رجحه فقال: اختار الطبرى أن يكون نزول الآية فى المنافق واليهودى، ثم تتناول بعمومها قصة الزبير، وهو الصحيح. وكل من اتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحكم فهو كافر، لكن الأنصارى زل زلة فأعرض عنه النبى صلى الله عليه وسلم، وأقال عثرته لعلمه بصحة يقينه، وأنها كانت فلتة، وليست لأحد بعد النبى صلى الله عليه وسلم، وكل من لم يرض بحكم الحاكم بعد فهو عاص آثم.

(1) سورة النساء آية ٦٠ .

وفقه الآية فيما نحن بسبيله من تقرير أن السنة النبوية مصدر أصيل فى التشريع الإسلامى هو ما ذكره ابن القيم فقال : ثم أقسم سبحانه بنفسه على نفى الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله فى كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل ، ولم يكتف فى إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينتفى عن صدورهم الحرج والضيق عن قضائه وحكمه ، ولم يكتف منهم أيضاً حتى يسلموا تسليماً وينقادوا انقياداً .

وظاهر أن حكم النبى صلى الله عليه وسلم فى قصة الزبير رضى الله عنه وصاحبه الأنصارى ، أو فى قصة اليهودى والمنافق لم يكن مما ذكر فى القرآن، وإنما هو وحى السنة ، وقد جعل الله الرضا به والتسليم له تسليماً لا يخالطه الضيق والحرج شرطاً من شرائط الإيمان ، وفى هـــذا دلالة قاطعة على أن الأحكام الثابتة بالسنة ثبوتاً مستقلا لها منزلة الأحكام الثابتة بالقرآن ، وأن أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم بالسنة كأوامر القرآن فى وجوب الطاعة لها ومتابعتها والتسليم لها .

٣ — وقال تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً »[١] .

أفرد الله تعالى فى هـــذه الآية مشاقة الرسول ومباينته فى عدم اتباع ما جاء به من الهدى والحق ، واتباع غير سبيل المؤمنين ، وسلوك مسالك الضلال ورتب على ذلك :

أن الله تعالى يتركه لمن اتبع سبلهم من أهل الضلالة والفساد وهم لا ينفعونه، فالعذاب واقع به وبهم ، ثم حكم عليه بأنه يصلى جنهم يحرق بها يوم القيامة ، وهذا واضح الدلالة على أن مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلوك

(١) سورة النساء آية ١١٥ .

سبيل غير سبيله التى هى سبيل المؤمنين موجب للعقاب ، سواء أكانت المخالفة فى أمر مما شرعه القرآن ونزل فيـــه ، أو فى أمر مما أوحاه الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم وحياً غير متلو فيثبت حكمه بالسنة كثبوت حكم القرآن .

ويفيد ذلك ما ورد فى سبب نزول الآية ، قال العلماء : إنها نزلت فى بنى أبيرق وكانوا ثلاثة إخوة ، نقبوا — أو أحدهم — مشربة لرفاعة بن زيد الأنصارى وسرقوا أدرعا له وطعاماً فشكاهم قتادة بن النعمان ابن أخى رفاعة إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — فجاء بعض قومهم وجادلوا عنهم دفعاً للتهمة عند رسول الله ﷺ حتى غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتادة بن النعمان وعمه رفاعة فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم قوله تعـالى : « إنا أنزلنا إليـــك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله »(١) .

فحكم النبى صلى الله عليه وسلم على ابن أبيرق السارق بالقطع فهرب إلى مكة مرتداً ، فأنزل الله تعـالى قوله : (ومن يشاقق الرسول) الآية فهى متصلة بالآيات قبلها ، وردت كلها فى قصة واحدة ، قال القرطبى : فى قوله تعالى : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) الآية — تشريف للنبى صلى الله عليه وسلم وتعظيم وتكريم وتفويض إليه ، وتقويم أيضاً على الجادة فى الحكم ، وقوله تعالى : (بما أراك الله) معناه على قوانين الشرع — إما بوحى ونص ، أو نظر جار على سنن الوحى ، وهذا أصل القياس — وهو يدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم إذا رأى شيئاً أصاب لأن الله تعالى أراه ذلك ، وقد ضمن الله تعالى لأنبيـائه العصمة ، ثم قال القرطبى : والآية وإن نزلت فى سارق الدرع أو غيره فهى عامة فى كل من خالف رسول الله صلى الله عليه

(١) سورة النساء آية ١٠٥ .

وسلم وخالف طريق المسلمين ، وهذا صريح فى أن مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشاقته موجبة للعقـــاب ، بل قد تكون موجبة للكفر والارتداد ، وهو أمر عام فى كل مخالفة سواء بما نزل فى القرآن ، أو كان بوحى السنة وتشريعها بما لم يرد فى القرآن ذكره ، لأن الآية صريحة فى أن النبى صلى الله عليه وسلم مفوض فى الحكم بين المؤمنين، بل بين الناس أجمعين ، وقد أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم فى حق اليهـود قوله تعالى : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم »[1]، فهذا صريح فى التفويض» . وقوله : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله أعم من قوله : فإن جاءوك فاحكم بينهم) لأنه خاص باليهود وهذا عام للناس جميعاً.

٤ — وقال تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله »[2].

وفى هذه الآية علق الله تعالى صدق محبة العباد له على اتباعهم لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ووصل بهذا الاتباع محبته تعالى لعباده ، فهو فى قوة شرط آخر ، وكأن المعنى إن اتبعتم رسول الله ﷺ فى جميع ما يأمركم به وينهاكم عنه متابعة صادقة أحبكم الله وغفر لكم ذنوبكم .

قال الإمام الرازى : كل واحد من فرق العقلاء يدعى أنه يحب الله ، ويطلب رضاه وطاعته فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم : قل إن كنتم صادقين فى ادعاء محبة الله تعالى فكونوا منقادين لأوامره ، محترزين عن مخالفته ، لأن من كان محباً لله تعالى لا بد وأن يكون فى غاية الحذر عما يوجب سخطه ، وإذا قامت الدلالة القاطعة على نبوة رسول الله ﷺ وجبت متابعته ، وهذا يدل على أن الله تعالى أوجب متابعة محمد رسول الله صلى الله

---

(١) سورة المائدة آية ٤٢ . (٢) سورة آل عمران آية ٣١ .

عليه وسلم فى جميع ما يشرعه فى سنته بياناً للقرآن أو تأسيساً لأحكام وتشريعات لم يأت بها القرآن، ولهذا عقب الله تعالى هذه الآية بقوله تعالى: (قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين)، وهذا صريح — كما قلنا سابقاً — فى أن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم مطلوبة مع طاعة الله تعالى، وأن الإعراض عنها ومخالفتها موجب للكفر وسخط الله وغضبه.

٥ — وقال تعالى: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم)(١).

هذه الآية من قبيل قول الله تعالى: (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) كما يقرره جمهور المفسرين.

بيد أن التعبير هنا فيه إشارة بتشريف مقام النبوة وتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكريمه لما فى المبايعة من الترابط والتعاقد، ولما فى ضمير الخطاب من رعاية لجناب رسول الله بشخصيته فى مبايعته لأصحابه، ويؤكد هذا قول الله تعالى: (يد الله فوق أيديهم) لما فيه من شدة التوثيق بين المبايع والمبايعين، وإظهار الاسم الكريم دون الإشارة إليه بالضمير فيه زيادة اهتمام بتأكيد ربح المبايعة وبشارة بعواقبها من النصر والتأييد، وفى هذه الآية من أسرار فقه القلوب لمعانى القرآن ماتعجز العبارة عن أدائه.

٦ — وقال تعالى: «لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم»(٢).

---

(١) سورة الفتح آية ١٠.

(٢) سورة النور آية ٦٣.

ينهى الله تعالى المؤمنين ويؤدبهم فى مخاطبتهم لرسول الله صلى عليه وسلم أن يجعلوا دعاءهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم كدعاء بعضهم بعضا ، فلا ينادى باسمه المجرد ، بل يخاطب بما خاطبه الله تعالى : (يأيها النبى) (يأيها الرسول) ،وفى هذا من توقير رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه ما فيه من السمو بمقامه فوق مقام سائر البشر ، ولذلك عاب الله على قوم لم يتأدبوا بهذا الأدب الرفيع ، فكانوا فى جفوتهم ينادون رسول الله صلى الله عليه وسلم باسمه المجرد فى جهالة منكرة ؛ فأنكر الله ذلك عليهم ووصفهم بعدم العقل ، لأن العقل من أول وسائل الأدب المهذب قال تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون »(١).

ومدح قوماً من المؤمنين أخذوا أنفسهم بهذا الأدب السامى فكانوا يخاطبون رسول الله صلى الله عليه وسلم مناجاة وسراراً فقال : « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم »(٢) .

ونهى قوماً من المؤمنين أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبى،وحذرهم عاقبة ذلك بأشدمايكون التحذير ، وجعل عاقبةالمخالفة إحباط العمل وضياع آثاره عند الله تعالى فقال : « يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون »(٣) .

ثم حذر الذين يخالفون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قل أو كثر أن تصيبهم عقوبة من ربهم فى الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة الحجرات آية ٤ .
(٢) سورة الحجرات آية ٣ .
(٣) سورة الحجرات آية ٢ .

وروى ابن العربى فى أحكامه أن الزبير بن بكار قال : سمعت سفيان ابن عيينة يقول : سمعت مالك بن أنس وأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الله ، من أين أحرم ؟

قال : من ذى الحليفة ، من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال الرجل : إنى أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر .

قال : لا تفعل فإنى أخشى عليك الفتنة .

قال : وأى فتنة فى هذا ؟ إنما هى أميال أزيدها .

قال مالك : وأى فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ إنى سمعت الله يقول : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم »[١] .

٧ — وقال تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى انزل معه أولئك هم المفلحون . قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذين يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون »[٢] .

وصف الله فى الآية الأولى المتقين الذين كتب لهم رحمته حقاً بما كسبوا من الإيمان الكامل والعمل الصالح ، ووسعت كل شىء فى الوجود تفضلا منه وإحساناً يعطيها من يشاء من عباده بمحض فضله فى غير مقابل عمل ، بأنهم

---

(١) سورة النور آية ٦٣.   (٢) سورة الاعراف آيتا ١٥٧ ، ١٥٨ .

الذين يتبعون الرسول ، الموصوف بهذه الخصائص التى تحدد شخصيته وتبين نعوته المحققة لذاتيته ، فهو الجامع بين وصفى النبوة والرسالة ، وهذا كالجنس بالنسبة لسائر الرسل ، وهو الأمى الذى أبقاه الله تعالى على فطرته التى جبله عليها ، وكذلك كانت دوحته التى تفرع عنها ، وأمته التى نشأ منها ، ومهد بين أحضانها أمة العرب ، فهم أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب فى مجموعها ووصفها العام .

وهذا الوصف كالبرهان على ثبوت الوصفين السابقين : وصفى النبوة والرسالة ، وذلك أن وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه (أمى) متفق عليه بين جميع من عرف حياته وعاشره ودرس تاريخه دراسة تحقيق صادق وهو مع ذلك الوصف قد أتى بكتاب من عند الله منظوما على طريقة خاصة، عرفت عند أتباعه ومخالفيه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ على الناس هذا الكتاب بنظمه الخاص مرة بعد أخرى من غير أن يبدل منه لفظاً ولا يغير فيه حرفاً ، ولا ينقص منه كلمة أو جملة ، ولا يزيد فيه شيئاً ، والمعهود المتعالم بين الكافة والخاصة أن أخطب الناس وأحفظهم وأزكاهم إذا تحدث أو خطب خصوصاً إذا أطال ، ثم أراد أن يعيد ما تحدث به ، لم يتيسر له أن يعيده كاملا بكلماته وجمله وحروفه ولا بد أن يزيد فيه وينقص ويغير ويبدل ، ولا يتأتى ذلك إلا من نبى رسول مؤيد من الله بالمعجزات ، فيكون ذلك من معجزات محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لو لم يكن صلى الله عليه وسلم أمياً ، بل كان كاتباً قارئا لقال القائلون من مخالفيه وخصومه إنه أتى بهذا الكتاب من حصائل قراءته وكتاباته وأخذه عن العلماء ، ولكن الله تعالى دفع هذا عن ساحته ونزهه صلى الله عليه وسلم بجعله أمياً على الفطرة الأولى .

وثم وصفه بأنه مكتوب فى التوراة والإنجيل باسمه وأوصافه التى منها أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحل ماطاب ولذى النفوس الكريمة ، ويحرم ماخبث واستقذر لذى الفطرة السليمة ، وأنه يخفف عنهم أثقالهم فيما شرع لهم رسلهم وأنبياؤهم بما يناسب طبائع أسلافهم ، ويفك عنهم القيود والأغلال التى كانت عليهم فيما كلفوه من الأعمال .

ثم أثنى على الذين اتبعوه تأكيداً لخصلة المتابعة لأنها هى محور الإيمان به ، وبغيرها لايتم الإيمان ولا يتحقق ، وأفرده فى هذا الثناء بالإيمان به وتوقيره ونصره على عدوه ، وخلع على شريعته اسم (النور) وأنها أنزلت معه ولم يكن كمالها فى أى شئ من الشرائع السابقة ، فكأنها مولودة معه ، وموجودة بوجوده ، ثم أضفى عليهم أجمع الأوصاف للخير والكمال البشرى لجعلها لهم دون غيرهم فقال : (أولئك هم المفلحون) ، ففى هذه الآية جاء وصف المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين على جهة المدح والثناء للذين تحلوا بهذا الوصف الكريم ، والمتابعة الممدوح بها عامة فى كل أمر جاء فى شريعته ، فلو وقعت المتابعة فى بعض الأمر دون بعضه لم تكن هى المتابعة التى أثنى الله بها على هؤلاء المفلحين ، وقد تأكد هذا المعنى باقراره بوصف الإيمان به الذى تأسس عليه سائر الأوصاف التى جاءت بعده فى قوله : (فالذين آمنوا به وعزروه) والإيمان به لايتم إلا إذا كان قائماً على متابعته متابعة كاملة بالتسليم والامتثال لجميع ما يأمر به أو ينهى عنه ، مما هو مذكور فى القرآن ومما لم يذكر فى القرآن ، بل جاء بوحى السنة قولا أو فعلا أو تقريراً .

وفى الآية الثانية أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ الناس قاطبة عموم رسالته إليهم ، ثم وصفت الآية الله تعالى بما هو أهله من نعوت

تخصه جل شأنه ولا يمكن أن تكون لغيره ، ثم فرع على ذلك طلب الإيمان منهم بالله المتصف بأكمل صفات الكمال ، وبرسوله النبي الأمى تأكيداً للأوصاف السابقة فى الآية الأولى وزاده هنا وصفاً كريماً فيه تشريف له وتعريض بمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه فقال : (الذى يؤمن بالله وكلماته) وكلمات الله هى جميع كتبه التى أنزلها على رسله جامعة لشرائعه وأسرار حكمته فى تدبير خلقه ، وذلك لأن الكلام في صدر الآية السابقة على الآيتين المذكورتين كان مع اليهود ، وهم الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض ، وكتموا ما فى توراتهم من نعوت محمد صلى الله عليه وسلم وأوصافه المحددة لشخصيته وبعثته إلى الناس كافة ، فكان هذا بمثابة الرد عليهم وتسفيه عقولهم فى كتمان الحق .

ولما استقامت الدلائل القاطعة على ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته أمر بمتابعته أمراً جازماً ليبين الطريق الذى يمكن به معرفة شريعته.

قال الإمام الرازى : واعلم أنه بعد أن ثبت بالدلائل القاهرة التى قررت بها الآية نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وجب أن يذكر عقبه الطريق الذى يمكن به معرفة شريعته على التفصيل وما ذاك إلا بالرجوع إلى أقواله وأفعاله وإليه الإشارة بقوله تعالى : (واتبعوه) .

ثم قال الرازى : واعلم أن المتابعة تتناول المتابعة فى القول وفى الفعل ، أما المتابعة فى القول فهو أن يمتثل المكلف كل ما يقوله فى طرفى الأمر والنهى والترغيب والترهيب، وأما المتابعة فى الفعل فهى عبارة عن الإتيان بمثل ما أتى المتبوع به سواء أكان فى طرف الفعل أم فى طرف الترك ، فثبت أن لفظ (واتبعوه) يتناول القسمين وثبت أن ظاهر الأمر للوجوب، فكان قوله تعالى (واتبعوه) دليلا على أنه يجب على المؤمنين الانقياد له فى كل أمر ونهى ، ويجب الاقتداء به فى كل ما فعله إلا ما خصه الدليل .

ووجوب المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم فى كل ما ثبت عنه من قول أو فعل يعم ما ثبت عنه تشريعاً مذكوراً فى القرآن أو تشريعاً جاءت به السنة وسكت عنه القرآن، وهذا هو معنى مصدرية السنة للتشريع فى الإسلام.

٨ — وقال تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »(١) .

هذا زجر فى طى أمر ، وتقدير الكلام : من كان يرجو الله واليوم الآخر : أى يؤمن بالله واليوم الآخر فلتكن له فى رسول الله أسوة حسنة ، قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله ، ولهذا أمر الناس بالتأسى به يوم الأحزاب فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل .

٩ — وقال تعالى : «وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون)(٢) . قال الإمام الشافعى رحمه الله تعالى : فأعلم الله الناس فى الآية أن دعاءهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم دعاء إلى حكم الله لأن الحاكم بينهم رسول الله فإنما سلموا لحكمه بفرض الله وأنه أعلمهم أن حكمه على معنى افتراضه حكمه ، وما سبق فى علمه جل ثناؤه من إسعاد بعصمته وتوفيقه ، وما شهد له به من هدايته واتباع أمره فأحكم فرضه بإلزام خلقه طاعة رسوله ، وأعلمهم أنهـا طاعته فجمع لهم أن أعلمهم أن الفرض عليهم اتباع أمره وأمر رسوله ، وأن طاعة رسوله طاعته، ثم أعلمهم أنه فرض على رسوله اتباع أمره جل ثناؤه .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢١.
(٢) سورة النور آية ٤٨.

١٠ — وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم »(١) .

للمفسرين فى تأويل هذه الآية وبيان معناها عبارات مختلفة :

قال القرطبى : اى لا تقدموا قولا ولا فعلا بين يدى الله وقول رسوله وفعله فيما سبيله أن تأخذوه عنه من الدين والدنيا ، ومن قدم قوله أو فعله على الرسول صلى الله عليه وسلم فقد قدمه على الله تعالى ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عز وجل .

وقال ابن كثير : هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول صلى الله عليه وسلم من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام فقال تبارك وتعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله » أى لاتسرعوا فى الأشياء قبله بل كونوا تبعاً له فى جميع الأمور .

ثم نقل ابن كثير عن بعض السلف أقوالا فى تأويل الآية فقال : قال مجاهد لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء حتى يقضى الله تعالى على لسانه .

وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم .

وقال ابن القيم : والقول الجامع فى معنى الآية : لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يفعل .

وقال القاضى أبو بكر بن العربى فى قوله تعالى : « لا تقدموا بين يدى الله ورسوله » .

---

(١) سورة الحجرات آية ١ .

أصل فى ترك التعرض لأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وإيجاب اتباعه والاقتداء به .

١١ — وجماع ذلك كله — فى وجهى بيان مصدرية السنة النبوية للتشريع فى الإسلام ، ما قرنت فيه طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاعة الله ومعصيته بمعصية الله ، والإيمان به بالإيمان بالله ، وما أفرد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوصاف ونعوت تجعل اتباعه فى جميع ما جاء به من قرآن أو سنة واجباً ، لا يكمل إيمان مؤمن إلا به — قول الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب »[1] .

قال أئمتنا فى تأويلها : ما أمركم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من طاعة الله فافعلوه ، وما نهاكم عنه من معصية الله فاجتنبوه .

وهذا بلا شك عام فى كل ما هو طاعة لله ، وكل ما هو معصية لله ، ما دام قد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر به أو نهى عنه ، فلا يجوز التوقف فى قبوله حتى يثبت أنه منصوص فى القرآن ، لأن أوامر النبى صلى الله عليه وسلم بوحى السنة ، ونواهيه بوحيها ، وبما أراه الله من الحكم ، هى كأوامر ونواهى القرآن يجب التسليم لها واتباعها .

قال القاضى : أبو بكر بن العربى : إذا أمر النبى صلى الله عليه وسلم بأمر كان شرعاً .

وقال القرطبى : قال المهدوى فى قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » هذا يوجب أن ما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة الحشر آية ٧ .

أمر من الله تعـالى ، والآية — وإن كانت فى الغنائم — فجميع أوامره صلى الله عليه وسلم ونواهيه داخل فيها .

وقال ابن جريج : وما اتاكم الرسول من طاعتى فافعلوه ، وما نهاكم عنه من معصيتى فاجتنبوه .

وقال المـاوردى : هو محمول على العموم فى جميع أوامره ونواهيه ، لا يأمر إلا بصلاح ولا ينهى إلا عن فساد .

ثم قال القرطبى: وقال الحـكم بن عمير — وكانت له صحبة — :قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن هذا القرآن صعب مستعصب ، وهو الحـكم ،فمن استمسك بحديثى وحفظه نجا مع القرآن،ومن تهاون بالقرآن وحديثى خسر الدنيا والآخرة ، وأمرتم أن تأخذوا بقولى وتـكتنفوا أمرى ، وتتبعوا سنتى ، فمن رضى بقولى فقد رضى بالقرآن ، ومن استهزأ بقولى فقد استهزأ بالقرآن ، قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وكذلك كان الراسخون فى العلم من الصحابة يفهمون عموم الآية فى كل ما أمر به أو نهى عنه النبى صلى الله عليه وسلم .

فقد روى أصحاب الصحيح والسنن أن عبدالله بن مسعود قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله» . فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها : أم يعقوب، فجاءت فقالت: بلغنى أنك لعنت كيت وكيت؟ فقال : ومالى لاألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى كتاب الله ؟ فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ماتقول . فقال : لئن كنت ر تيه لقد وجدتيه ؟ أما قرأت : «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» قالت : بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه.قالت : فلعله فى بعض أهلك ؟ . . .

قال : فادخلى فانظرى فدخلت فنظرت ، ثم خرجت فقالت : ما رأيت بأساً ؛ فقال لها : أما حفظت وصية العبد الصالح (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه)(١) .

وكان الإمام الشافعى رضى الله عنه ينزع بهذه الآية ويقول : سلونى عما شئتم أخبركم من كتاب الله تعالى .

وذكر القرطبى عن الفريابى أنه قال : سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول : سلونى عما شئتم أخبركم من كتاب الله تعالى وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم ؛ قال فقلت له : ما تقول — أصلحك الله — فى المحرم يقتل الزنبور ؟ قال : فقال بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا »،وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبدالملك ابن عمير ، عن ربعى بن خراش ؛ عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر »،حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام ، عن قيس بن مسلم ، عن طارق ابن شهاب ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه — أنه أمر بقتل الزنبور قال علماؤنا: وهذا جواب فى نهاية الحسن، أفتى بجواز قتل الزنبور فى الإحرام، وبين أنه يقتدى فيه بعمر ؛ وأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بالاقتداء به ، وأن الله سبحانه وتعالى أمر بقبول ما يقوله النبى صلى الله عليه وسلم ،فجواز قتله مستنبط من الكتاب والسنة .

وقال الإمام الشافعى . رضى الله عنه : وقد فرض الله فى كتابه طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والانتهاء إلى حكمه ، فمن قبل عن رسول الله صلى الله عليه وسام فبفرض الله قبل ، فلا يجوز أن يقال لقول فرض

---

(١) سورة هود آية ٨٨ .

إلا لكتاب الله ثم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم — لما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقروناً بالإيمان به . وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مبينة عن الله معنى ما أراد ودليلا على خاصه وعامه، ثم قرن الحكمة بها بكتابه فاتبعها إياه ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسوله .

وما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ليس لله حكم فيه فبحكم الله سنه ، وكذلك أخبرنا الله تعالى فى قوله : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله »(١) .

وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كتاب الله ، وسن فيما ليس فيه بعينه نص كتاب ، وكل ما سن فقد ألزمنا الله اتباعه ، وجعل فى اتباعه طاعته ، وفى العنود عن اتباع سنته معصيته التى لم يعذر بها خلقاً ، ولم يجعل له من اتباع سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم مخرجا ، فلم أعلم من أهل العلم مخالفاً أن سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثلاثة أوجه . . الوجه الثالث : ماسن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ليس فيه نص كتاب وقد جعل الله له بما افترض من طاعته وسبق فى علمه من توفيقه لرضاه أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب .

وروى عبد الرزاق بسنده عن أبى نضرة وأخرجه ابن عبد البر عنه قال : كنا عند عمران بن حصين . فكنا نتذاكر العلم . فقال رجل : لا تتحدثوا إلا بما فى القرآن . فقال : عمران بن حصين : إنك لأحمق ، أوجدت فى القرآن صلاة الظهر أربع ركعات لا يجهر بالقراءة فى شىء منها، والمغرب ثلاثة يجهر بالقراءة فى ركعتين ، ولا يجهر بالقراءة فى ركعة .

---

(١) سورة الشورى آية ٥٣ .

والفجر ركعتين يجهر بالقراءة فيهما؛ قال على بن زيد : ولم يكن الرجل الذى قال هذا صاحب هذى — ولكنها كانت منه زلة ، ثم قال عمران : ما نحن فيه يعدل القرآن .

أى أن ما ذكره عمران من أن بيان مجمل القرآن بالسنة يعدل القرآن فى وجوب اتباعه والأخذ به والتسليم له ، لأنه طاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهى طاعة الله تعالى بنص القرآن . وقال ابن عبد البر فى كتابيه (التمهيد وجامع بيان العلم): « ولا فرق بين ما حرم الله فى كتابه أو حرمه على لسان رسوله ». وقال ابن تيمية فى فتاويه نحو هذا ، وذكر حديث: « ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه » .

وقال الشاطبى فى الموافقات : قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : سن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، من عمل بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً .

ثم قال الشاطبى بعد أن أورد بعضاً من الآيات التى قرنت فيها طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاعة الله : وتكراره يدل على عموم الطاعة بما أتى به مما فى الكتاب ومما ليس فى الكتاب مما هو من سنته .

وقال ابن القيم . والسنة مع القرآن على ثلاثة أوجه :

أحدها: أن تكون موافقة له من كل وجه ، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها .

الثانى أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن وتفسيراً له .

الثالث : أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه ، أو محرمة لما سكت عن تحريمه ، ولا تخرج عن هذه الأقسام ، فلا تعارض القرآن بوجه ما ، فما كان منها زائداً على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي صلى الله عليه وآله وسلم تجب طاعته فيه ، ولا تحل معصيته. وليس هذا تقديماً لها على كتاب الله ، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يطاع فى هذا القسم لم يكن لطاعته معنى ، وسقطت طاعته المختصة به ، وأنه إذا لم تجب طاعته إلا فيما وافق القرآن ، لا فيما زاد عليه لم يكن له طاعة خاصة تختص به ، وقد قال تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وكيف يمكن أحد من أهل العلم ألا يقبل حديثاً زائداً على كتاب الله ، فلا يقبل حديث تحريم المرأة على عمتها ، ولا على خالتها ، ولا حديث التحريم بالرضاعة لكل ما يحرم من النسب . . . . .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن التوقف فى العمل بسنته سيقع من بعض المترفين ذوى البطنة والتفاهة الفكرية ، فقد روى أبو داود فى سننه والترمذى فى جامعه عن المقدام بن معد يكرب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته فيقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة مال المعاهد » وفى لفظ آخر : « يوشك أن يقعد الرجل على أريكته فيحدث بحديثى فيقول بينى وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراماً حرمناه وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله » .

وروى أبو داود عن أبى رافع عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« لا ألفين أحدكم متكأً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول : لا ندرى ماوجدنا فى كتاب الله اتبعناه » . وكما فى تمهيد ابن عبد البر قال: نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر فأمر منادياً ينادى أن اجتمعوا للصلاة،فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس وهو يقول : أيحسب أحدكم متكأً على أريكته وقد يظن أن الله لم يحرم شيئاً إلا ما فى هذا القرآن ألا وإنى والله قد أمرت ووعظت ، ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر » .

قال الإمام الخطابى فى بيان معنى هذه الأحاديث وقوله : « أوتيت القرآن ومثله معه » يحتمل وجهين من التأويل ، أحدهما أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو مثل الذى أعطى من الظاهر المتلو .

والثانى : قال بعض العلماء : معناه أنه أوتى الكتاب وحياً يتلى وأوتى من البيان مثله أى أذن له أن يبين الكتاب فيعم ويخص ، ويزيد عليه ويشرح ما فى الكتاب فيكون وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن .

ثم قال الخطابى : فأما ما رواه بعضهم منسوباً إلى النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا جاءكم الحديث فأعرضوه على كتاب الله ؛ فإن وافقه فخذوه ، وإن لم يوافقه فاتركوه » فإنه حديث باطل لا أصل له .

وقال القرطبي : البيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيان لمجمل ما فى الكتاب ، كبيانه الصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وبيانه لمقدار الزكاة ووقتها ونوع المال الذى تجب فيه ، وبيانه لمناسك الحج وقال إذ حج : (خذوا عنى مناسككم) وقال لهم : صلوا

كما رأيتموني أصلي) وبيان آخر وهو الزيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ... والقضاء بالشاهد واليمين .

ولو شئنا استقصاء الأحاديث النبوية التي شرعت أحكاماً زائدة على ما في القرآن مما ذكره الأئمة في كتبهم لطال الحديث وخرج بنا عن المقصود الذي أردنا تحقيقه من مصدرية السنة النبوية للتشريع في الإسلام ، وفيما ذكرناه كفاية وغناء لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

المَصدَرُ الثّالِثُ

العمل التطبيقي لنصوص الكتاب والسنة

ونقصد بالعمل التطبيقي العمل الذى جرى عليه الخلفاء الراشدون وعلماء الصحابة فى فتاواهم ، وأمراء الولايات من ذوى العلم وأمراء الجهاد والفتح فى سياستهم وأحكامهم ممن كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد الراشدين ، ومن استن سنتهم من الأئمة المجتهدين وصالحى ملوك الإسلام وأمرائهم وحكامهم وزعماء الإصلاح فى أمم الإسلام من أهل العلم والفقه فى الدين ، ومعرفة أهدافه ومراميه ، وحكمه وأحكامه .

وذلك باعتبار هذا العمل هو التطبيق الواقعى المستقيم لمقاصد الشريعة ، بوضع نصوصها الدستورية والبيانية موضع التنفيذ العملى الذى لا ينحرف عن الطريق الراشد الرشيد ، وإلى هذا يشير قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الثابت : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين » .

وسنة الخلفاء الراشدين هى الطريقة العملية فى تطبيق أحكام الشريعة وسياستها على الناس والحوادث تطبيقاً عادلا نافذاً ، يحقق مصالح العباد التى هى أهم مقاصد الشريعة .

لأنه ليس للخلفاء الراشدين ولا لغيرهم من الناس كائناً من كان سنة بالمعنى العام الأصولى الذى ينصب على التشريع بالقول والفعل والتقرير مما اختص به رسول الله صلى الله عليه وسلم بياناً للقرآن ، أو إنشاء لحكم سكت القرآن عنه ، وثبت له بمقتضى منصب النبوة والرسالة الذى جعل الله تعالى بسببه طاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم طاعة لله تعالى كما بسطناه فيما سبق ، وألممنا بكثير من الآيات الدالة عليه دلالة قاطعة .

وقد كمل التشريع البيانى لنصوص القرآن والتشريع الاستقلالى الذى كان من حق النبي صلى الله عليه وسلم أن يشرعه استقلالا فى حياته ﷺ ولم يبق لأحد بعده صلى الله عليه وآله وسلم أن يشرع ، قال الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً »(١) .

ذكر أبو جعفر الطبرى عن بعض أئمة السلف فى معناه : أن الله تعالى يقول : لعباده المؤمنين — اليوم أكملت لكم ، أيها المؤمنون ، فرائضى عليكم وحدودى وأمرى ونهيي ، وحلالى وحرامى ، وتنزلى من ذلك ما أنزلت منه فى كتابى وتبيانى ما بينت لكم منه بوحى على لسان رسولى والأدلة التى نصبتها لكم على جميع ما بكم الحاجة إليه من أمر دينكم — فأتممت لكم جميع ذلك فلا زيادة فيه بعد هذا اليوم .

قال العلماء : ولم ينزل بعد هذه الآية من آيات الأحكام إلا شيء قليل ، فالمراد بها معظم فرائض الدين وحدوده وأحكامه .

وحديث الراشدين وارد مورد الحث على الاقتداء بهم ، والتمسك بطريقتهم فى فهم الدين وتطبيقه مدحاً لهم ببيان أن طريقتهم فى التطبيق العملى لأحكام التشريع إنما هى اتباع لسنة النبى ﷺ ، وجرى على مناهجه وطريقته فى سنته المشرعة ، وهذا هو السر فى قرن سنتهم بسنته ﷺ فى الحث على التزامهما والتمسك بهما .

* * *

هذه المصادر الأصيلة لأخذ حقيقة الإسلام منها بمراتبها ترجع فى حقيقة

---

(١) سورة المائدة آية ٣ .

الواقع إلى أصل واحد هو القرآن الكريم ، لأنه الدستور الجامع والكتاب المنزل من عند الله المنقول إلى الأمة بالتواتر القاطع جيلا بعد جيل ، لا يختلف فى آياته وسوره - وحفظه حفظاً كاملا ، مصوناً عن التحريف والتغيير ، والتبديل والزيادة والنقص - أحد من العقلاء يعتد بقيمة إنسانيته ، ويعرف لنفسه قدرها الفكرى الذى جعله الله خصيصة للإنسان فى هذه الحياة .

وقد بينا أن مرتبة السنة النبوية فى التشريع الإسلامى ترجع إلى القرآن الكريم باعتبارها مبينة لمقاصده محررة لمعانيه ، مقررة لأحكامه ، فيما وردت به نصوصه أو منشئة بإذنه وتوجيهه لما سكت عنه على وفق أحكامه .

فالسنة تلى القرآن فى أنها أصل للتشريع الذى يستند إلى نصوص الدستور الجامع والكتاب المنزل ، بيد أنها لا تصل فى حرفية نصوصها إلى درجته فى القطع الذى ارتفع إليها بنصه ، لكنها تجرى معه فى قرن واحد عند الحاجة إليهما فى التأويل والاجتهاد وبيان المعنى واستنباط الأحكام ، فإذا أثبت من طريق السنة حكم كان له من وجوب الطاعة والتسليم والامتثال والقبول ما يكون للحكم الذى يثبت من طريق القرآن على نهج سواء .

مرتبة الاجتهاد والاستنباط

وتأتى بعد ذلك مرتبة الاجتهاد واستنباط الأحكام من تلك الأصول ومدارك التشريع ، وهى منصب الأئمة من علماء الأمة الذين بلغو شأواً من الإحاطة والتعمق فى علوم القرآن والسنة النبوية ، ومذاهب الصحابة ، ودلالات الألفاظ فى استعمالاتها المختلفة على المنهج العربى مما هو مفصل فى أصول الفقه ، بحيث يكون صاحب هذه المرتبة متأهلا للنظر فى نصوص التأصيل التشريعى لاستنباط أحكام الحوادث المتجددة والوقائع الحادثة

التى لم تكن الحياة تقتضى وقوعها من قبل، بما أصلوه من قواعد استندوا فيها إلى المقاصد الشرعية العامة .

مدارك الاحكام فى الشريعة الاسلامية

هذه المدارك هى الأصول التى ينظر فيها المجتهد ليبنى اجتهاده على أساسها فى استنباط أحكام الحوادث الطارئة ، وإعطاء الوقائع المتجددة بتجدد الأغراض والمقاصد وصفها من الطلب أو الترك .

وهذه المدارك كثيرة — ولكنها كلها ترجع فى غاياتها إلى تحقيق العدل بين الناس وتحقيق مصالح العباد بما يقتضيه « تطور المجتمع البشرى » فى ظل السماحة الإسلامية التى تعنون روح الإسلام وحقيقته فى عقيدته وتعبداته ، ونظمه الاجتماعية فى معاملاته، بين الأفراد والجماعات، ومع الأمم والشعوب، والدول والحكومات .

فكل مدرك يؤدى إلى حكم حادثة يحقق فيها العدل ومصلحة الكافة، فهو مدرك شرعى، وكل أصل يصل إلى تحقيق مصلحة شرعية فهو أصل مشروع ، يجب العمل به لمدركه .

يقول الإمام القرافى فى مقدمة كتابه (الزخيرة) : إن الله تعالى إنما بعث الرسل لتحصيل مصالح العباد ، عملا بالاستقراء فمهما وجدنا مصلحة غلب على الظن أنها مطلوبة للشرع .

ويقول ابن القيم فى كتابه (الطرق الحكمية) : فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأى طريق كان فثم شرع الله ودينه .

ويروى ابن القيم عن الإمام ابن عقيل أنه قال فى كتابه (الفنون) : السياسة ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد ، وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به وحى .

١ — القياس :

وأول هذه المدارك بعد الأصلين الأصيلين : القرآن والسنة ، هو القياس وهو أصل من أهم أصول التشريع فى الإسلام ، ثبت بالقرآن والسنة .

أما القرآن فقوله تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » ،والاعتبار هو النظر فيما قام من الوقائع أوفيماهو قائم ليتوصل بهذا النظر إلى حكم شبيهه فيما يقع،وهذا هو القياس .

وأما السنة فالعمدة فيها حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه حينما بعثه رسول الله ﷺ قاضياً إلى اليمن ، وقال له : « بم تقضى إن عرض لك قضاء ؟ » قال : بكتاب الله . قال : « فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ » . قال : فبسنة رسول الله . قال : « فإن لم تجد فى سنة رسول الله ؟ » . قال : أجتهد رأيي : فضرب رسول الله ﷺ صدر معاذ وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » .

وقد طعن بعض الناس فى سند هذا الحديث بأنه مروى عن مجهولين من أصحاب معاذ ، وقد رد ابن القيم هذا الطعن بوجوه كثيرة فى كتابه (أعلام الموقعين) ، وانتهى إلى أن الأمة قبلته واحتج به الأئمة وإن عدم تسمية أصحاب معاذ لايضر سند الحديث لأن أصحاب معاذ معروفون بالعدالة ، وأنهم من أهل الصلاح والثقة ، وحسب الحديث أنه من رواية شعبة الذى قيل فيه إذا جاء الحديث عن شعبة فشد عليه يديك .

وفى السنة الصحيحة الثابتة أحاديث كثيرة للدلالة على اعتبار القياس والعمل به ، ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ فى جواب من سأله عن الحج عن أبيه : (أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته) ومنها قوله ﷺ حين قال : (وفى بضع أحدكم صدقة) فقال له أصحابه : أيأتى أحدنا شهوته فتكون له صدقة . فقال : (أرأيتم إن وضعها فى محرم أ كان عليه وزر ؟). قالوا : نعم . قال : « فكذلك » .

والقياس فى حقيقته مظهر لحكم الفرع لامنشئ له ، وأظهر ما يقال فى حده أنه إلحاق فرع طارئ لم يصرح بحكمه بأصل ورد النص الخاص بحكمه ونبه الشارع على علة لهذا الحكم فى الأصل صالحة لبناء الحكم عليها دون معارض ، فيسرى حكم الأصل إلى الفرع بمقتضى وجود هذه العلة فيه، فهذا الإلحاق أظهر حكم الفرع بمساواته فيه مع حكم الأصل للتساوى فى وجود العلة الصالحة لترتبه عليها .

فحكم الفرع ثابت بالنص على حكم الأصل ، لكن حكم الأصل مصرح به فى النص ، وقرنت به علة صالحة لترتيب الحكم عليها ، وقد وجدت تلك العلة فى الفرع ، فأخذ حكم أصله بسببها ، فالعلة أمارة قوية على ثبوت الحكم للفرع لثبوته للأصل .

ومن أمثلته قول النبى ﷺ : «لا يقضى القاضى وهو غضبان » ؛ فالغضب علة النهى عن القضاء لأنه يمنع من استكمال الفهم لما يدلى به المتداعيان ، ومثله قطعاً كل ما يمنع من ذلك كالحقن بالبول ، أو اشتغال البال بأمر من الأمور المؤلمة ، فيتعدى النهى عن القضاء مع كل أمر يشغل بال القاضى ويمنعه من استكمال فهم ما يدلى به المتداعيان .

يقول الأستاذ عبد الرحمن تاج فى كتابه (السياسة الشرعية والفقه الإسلامى) : فالقياس فى الحقيقة أداة يكشف بها العموم المعنوى الذى يحمله نص من النصوص التى ظاهرها الخصوص ، وهذا ما يعنيه الأصوليون حين يقولون : «إن القياس مظهر لامثبت » أى أنه كاشف لجهة عموم النص الذى ورد مورداً خاصاً وتناوله لجميع المواطن التى هى من قبيل ماورد فيه .

ونحن نقول لعل هذا هو شبهة منكرى القياس من الظاهرية وغيرهم ، وهى شبهة لو تعمق الباحثون فيها لوجدوا الخلاف أقرب إلى أن يكون

خلافاً لفظياً ما كان يستحق هذه الطنطنة التى دار حولها ابن حزم فى توركه على أئمة الهدى وأعلام الفقهاء .

والذين نظروا إلى ظاهر الأمر من القياسيين ذهبوا فى إثبات القياس مذاهب من الاستدلال .

يقول الحفيد ابن رشد فى مقدمة كتابه (بداية المجتهد) : ودليل العقل يشهد بثبوت القياس ، وذلك أن الوقائع بين أشخاص الأناسى غير متناهية، والنصوص والأفعال والإقرارات متناهية ، ومحال أن يقابل ما لا يتناهى بما يتناهى .

والواقع أن عمومات النصوص شاملة لأحكام الحوادث المتشابهة ، والعلة المنصوص عليها فى الأصل تنبيه إلى وجود الحكم فى كل واقعة وجدت فيها العلة دون معارض .

٢ — استصحاب الاصل قبل ورود الشرع :

هذا المدرك هو المعبر عنه عند الأصوليين بـ « البراءة الأصلية — أو براءة الذمة »ويراد به – كما يقول القرافى — : استصحاب حكم العقل فى عدم الأحكام أى العمل بمقتضى الأصل قبل ورود الشرع بالتحليل والتحريم ، لأن الأصل فى الأشياء قبل ورود الشرع عدم الحظر أو الطلب أى خلوها من الحكم الشرعى الذى يترتب عليه الثواب والعقاب ، فلا عقاب على من فعل ، ولا على من ترك ، ولا ثوب لمن فعل ولا لمن ترك ، فإنه لا حكم للعقل فى الفروع قبل ورود الشرع ، خلافاً لمن قال بالتحسين والتقبيح من قبل العقل ، فأثبت للأشياء أحكاما تبعاً لهذا التحسين والتقبيح ، قال القرافى : المعتزلة بنوا على مسألة التحسين والتقبيح أن

كل ما هو ثابت بعد الشرع ثابت قبله بالفعل،والجمهور من أهل السنة على عدم الحكم إلا بعد البعثة . وأما الأبهرى وأبو الفرج وجماعة من الفقهاء فإنهم قالوا بالحظر مطلقاً ، وبالإباحة مطلقاً ، وليس ذلك موافقة منهم للمعتزلة فى تحكيم العقل ، بل قالوا ذلك لأدلة سمعية ؛ فمن الوارد بالحظر قوله تعالى : « يسألونك ماذا أحل لهم » ، وذلك يقتضى أن المتقدم التحريم على العموم ، ومثله قوله تعالى : « أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم » ، ومن الأدلة للإباحة قوله تعالى : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً »،وقوله تعالى : « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » .

٣ — المصالح المرسلة :

وهذا المدرك فسره الأصوليون بالمصلحة التى لم يشهد لها الشرع باعتبار ولا إلغاء ، وهى مصلحة تحقق منفعة خالصة ، ويخصص بها عموم النص ، ويقيد بها مطلقه ، وعبارات الأصوليين مختلفة فى نسبة هذا المدرك لمن يقول به من المذاهب .

يقول الآمدى فى كتاب (الأحكام) :

وقد اتفق الفقهاء من الشافعية والحنفية وغيرهم على امتناع التمسك به وهو الحق إلا ما نقل عن مالك أنه يقول به ، مع إنكار أصحابه لذلك عنه .

وهذا النقل عن مالك وأصحابه غريب جداً ، بل إن قطع القول بأن فقهاء الشافعية والحنفية وغيرهم متفقون على امتناع التمسك به أدخل فى الغرابة .

يقوم الإمام القرافى فى مقدمة (الزخيرة) وشرحها المسمى بالتنقيح : وأما المصلحة المرسلة فغيرنا — أى غير المالكية — يصرح بإنكارها ، ولكنهم عند التفريع تجدهم يعللون بمطلق المصلحة ، ولا يطالبون أنفسهم عند الفروق والجوامع بإبداء الشاهد لها بالاعتبار ، بل يعتمدون على مجرد المناسبة ، وهذا هو المصلحة المرسلة ، وهى عند مالك رحمه الله حجة. ويقول القرافى : إن المصلحة المرسلة موجودة فى جميع المذاهب عندالتحقيق لأنهم يقيسون ويفرقون بالمناسبات ولا يطلبون شاهداً بالاعتبار ، ولا نعنى بالمصلحة المرسلة إلا ذلك.

والغزالى وهو من أئمة الشافعيين يقول بالمصلحة المرسلة إن وقعت فى محل الضرورة بشرط أن تكون كلية قطعية ، ومثل لها بحال تترس الكفار بجماعة من المسلمين، فلو كففنا عنهم من أجل من تترسوا بهم لصدمونا واستولوا علينا وقتلوا المسلمين كافة ، ولو رميناهم لقتلنا الترس معهم ، وهو ماتقتضيه المصلحة ، وزعم الآمدى أن هذا التحديد هو الأشبه بالذى يقول به الإمام مالك إذا صح النقل عنه ، وقد عرفت من كلام القرافى — وهو أحد أئمة المذهب المالكى — أن المصلحة المرسلة التى لم يشهد لها من الشرع اعتبار ولا لغاء ، هى الحجة عند مالك وأصحابه ، ويقول القرافى : ومما يؤكد العمل بالمصلحة المرسلة أن الصحابة رضوان الله عليهم عملوا أموراً لمطلق المصلحة ، لا لتقدم شاهد بالاعتبار ، نحو كتابة المصحف ولم يتقدم فيه أمر ولا نظير ، وولاية العهد من أبى بكر لعمر رضى الله عنهما ، ولم يتقدم فيها أمر ولا نظير ، وكذلك ترك الخلافة شورى ، وتدوين الدواوين ، وعمل السكة للمسلمين ، واتخاذ السجن ، فعل ذلك عمر ، وهد الأوقاف التى بإزاء مسجد رسول ﷺ ، والتوسعة بها فى المسجد عند ضيقه ، فعل ذلك عثمان رضى الله عنه ، وتجديد الأذان فى الجمعة بالسوق ، وهو الأذان

الأول فعله عثمان رضى الله عنه ، وذلك كثير جداً لمطلق المصلحة ، ومن شواهدها إلزام الوالى بإرضاع الصغير وتربيته وشراء طعامه وكسائه .

ومن العمل بالمصلحة عند مالك رضى الله عنه قوله فى المرأة ذات الحسب التى نشأت فى دعة ونعمة : إنها لا تلزم بإرضاع ولدها ، وخصص بذلك من نظره عموم القرآن فى قوله تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن » . قال القاضى أبو بكر بن العربى : ولمالك فى المرأة الشريفة رأى خصص به الآية ، فقال :

إنها لا ترضع ، وهذا من باب المصلحة المرسلة . ثم قال ابن العربى: قال مالك كل أم يلزمها رضاع ولدها بما أخبر الله به من حكم الشريعة فيها ، إلا أن مالكا دون فقهاء الأمصار استثنى الحسيبة فقال : لا يلزمها رضاعه ، فأخرجها من الآية وخصها فيها بأصل من أصول الفقه ، وهو العمل بالمصلحة ، والأصل البديع فيه هو أن هذا الأمر كان فى الجاهلية فى ذوى الحسب وجاء الإسلام فلم يغيره ، وتمادى ذوو الثروة والأحساب على تفريغ الأمهات للمتعة بدفع الرضعاء إلى المراضع إلى زمان مالك ، فقال به ، وإلى زماننا فحققناه شرعاً .

ومن شواهد العمل بالمصلحة الضرب بالتهمة للإقرار بالسرقة أو غيرها من الحقوق إذا قويت الأمارات والقرائن ، وقد يكون مأخذ هذا الشاهد من إذن النبى ﷺ للزبير بن العوام فى ضرب سعية بن أخطب أخى حيي ابن أخطب أو ابن أبى الحقيق اليهودى ليستنطقه فى شأن مال حيي بن أخطب لما زعم أن النفقة أنفدته .

فقال النبى ﷺ : المال كثير والعهد قريب ، فأقر ابن أبى الحقيق أو سعيه لما مسه الزبير بشىء من عذاب .

ومن شواهد العمل بالمصلحة المرسلة ، توظيف الخراج على الأرضين، ومن شواهده صنيع عمر رضى الله عنه فى سواد العراق ، لم يقسمه بين المجاهدين ، واحتج لرأيه فقال : وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية ، يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين، المقاتلة والذرية ، ولمن يأتى من بعدهم ، أرأيتم هذه الثغور ؟ لابد لها من رجال يلزمونها .

أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لابد أن تشحن بالجيش وإدرار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج ؟

وقد وافقه جميع من شهده من الصحابة بعد أن سمعو احتجاجه ، وقالوا جميعاً : الرأى رأيك فنعم ماقلت ومارأيت ، إن لم تشحن هذه الثغوروهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم مايتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم .

ومن شواهد العمل بالمصلحة المرسلة عند مالك رضى الله عنه تخصيصه عموم حديث: «لايخطب أحدكم على خطبة أخيه» بما إذا وقع بين الخاطب والمخطوبة أو ولى أمرها ركون واتفاق على الصداق قال فى الموطأ : «وليس المراد فى الحديث إذا خطب الرجل المرأة فلم يوافقها أمره ولم تركن إليه ألا يخطبها أحد ، فهذا فساد يدخل على الناس» .

ومن شواهد العمل بالمصلحة عند مالك تخصيصه عموم قضاء النبى ﷺ باليمين على المدعى عليه ، بما إذا كان بين المدعى والمدعى عليه خلطة ، حذراً من أن يتجرأ السفهاء على أهل الفضل ، ويبتذلونهم بتحليفهم فى اليوم الواحد مراراً .

٤ — اعتبار العرف والعادة:

وقاعدة اعتبار العوائد والأعراف فى تغير الأحكام محل اتفاق بين فقهاء الأمصار فى الجملة ، ويقصد بالعرف الذى يعتد به فى مدارك الأحكام ما تعوده أهل العقول السليمة من عادات جرت بها أعرافهم وألفوها فى حياتهم دون أن تصادم نصاً أو قياساً أو اجتماعاً سابقاً، فلا اعتبار لعادات وأعراف فاسدة تهتك حجاب أمهات الفضائل الخلقية .

واعتبار العرف من أهم القواعد الأصولية التى يستند إليها الاجتهاد فى إعطاء بعض الوقائع أحكامها الشرعية ، يقول القرافى فى قواعده : إن الأحكام تجرى مع العرف والعادة ، وينتقل الفقيه بانتقالها ، ومن جهل المفتى جموده على المنصوص فى الكتب غير ملتفت إلى تغيير العرف ، فإن القاعدة المجمع عليها أن كل حكم مبنى على عادة إذا تغيرت العادة تغير الحكم .

والقول باختلاف الحكم عند تبدل الأحوال والعادات لا يستلزم القول بتغيره فى أصل وضعه والخطاب به كما توهمه بعضهم ، وإنما الأمر تدعو إليه الحاجة عند قوم أو عصر فيكون مصلحة، وتتناوله دلائل الطلب فإن لم تقتضه عاداتهم ولا تعلقت به مصلحتهم دخل تحت أصل من أصول الإباحة والتحريم .

ثم قال القرافى :

إن التوسعة على الحكام فى الأحكام السياسية ليس مخالفاً للشرع بل تشهد له القواعد ، ومن جملتها أن الفساد قد كثر وانتشر بخلاف حاله فى العصر الأول .

ومقتضى ذلك اختلاف الأحكام باختلاف العادات والأعراف بحيث لا تخرج عن مقاصد الشريعة .

وهذا يوافق ما روى عن عمر بن عبد العزيز من قوله : « تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور » ومثله قول عز الدين ابن عبد السلام : تحدث للناس أحكام بقدر ما يحدثون من السياسات والمعاملات .

وقد اشتهر من أقوال الفقهاء قولهم : « العادة محكمة » وقولهم : « الثابت بالعرف كالثابت بالنص » .

ومما أجمع عليه فقهاء الأمصار جواز الاستصناع ، وهو بمقتضى قواعد الشرع العامة غير جائز لأنه من قبيل بيع المعدوم وقت العقد ، لكنه لما كان مألوفاً وجرت العادة العامة فى البلاد به جاز العمل به .

وكذلك من قبيل ما جرى فيه الاحتكام إلى العادة والعرف دخول الحمام مع جهالة المبيع ، وهو الماء الذى يتفاوت الناس فى استهلاكه ، وقد ذكر القرافى فى قواعده جملة من ألفاظ كنايات الطلاق ، كلفظ (خلية) و (برية) و (بتة) و (حبلك على غاربك) ، وذكر اختلاف العلماء فيما يقع بها من الطلاق ، وكذلك ذكر لفظ (حرام) ، وقد اشتهر عند المالكية الحكم فيه بوقوع الطلاق الثلاث ، لكن القرافى قال : إنه لا يصح فيه الحكم بوقوع الثلاث إلا إذا كان عرف أهل البلد قد جرى بذلك ، ثم قال القرافى : وإياك أن تقول : إنا لا نفهم منه إلا الطلاق الثلاث لأن مالكاً رحمه الله قاله ، أو لأنه مسطور فى كتب الفقه ، لأن ذلك غلط ، بل لا بد أن يكون ذلك الفهم حاصلا لك من جهة الاستعمال والعادة كما يحصل لسائر العوام ، وإذا تقرر ذلك فيجب أن نعتقد أن مالكاً أو غيره من العلماء إنما أفتى فى هذه الألفاظ بهذه

الأحكام لأن زمانهم كان فيه عوائد اقتضت نقل هذه الألفاظ للمعانى التى أفتوا بها فيها، وإنا إذا وجدنا زماننا عريا عن ذلك وجب انتقال الأحكام، كما نقول فى النقود وغيرها .

فإننا نفتى فى زمان معين بأن المشترى تلزمه سكة معينة من النقود عند الإطلاق لأن تلك السكة هى التى جرت العادة بالمعاملة بها فى ذلك الزمان ، فإذا وجدنا بلداً آخر وزماناً آخــر يقع فيه التعامل بغير تلك السكة تغيرت الفتيا إلى السكة الثانية ، وحرمت الفتيا بالأولى لأجل تغير العادة .

وكذلك القول فى نفقات الزوجات والذرية والأقارب وقبض الصداق عند الدخول أو قبله أو بعده ، يفتى فى ذلك لـكل أهــل بلد بما تجرى به عادتهم، ومن أفتى بغير ذلك كان خارقاً للإجماع ، فإن الفتيا بغير مستند مجمع على تحريمها، وإجماع المسلمين على أنه إذا تغيرت العادة تغير الحـكم وحرمت الفتيا بالحـكم الأول .

ومن مسائل العمل بالعرف ما جاء فى كتاب الموازية — وهو من أمهات كتب فقه مذهب مالك — عن مالك وابن القاسم : «وإذا قال الوصى دفعت عن اليتيم العشر والمغارم والجعائل للشُّرط ونائب العامل ، فقال ابن زرب : إن كان ذلك معروفاً بالبلد وادعى ما يشبه أن يؤخذ منه صدق» .

٥ ـ الضرر يزال :

هذا المدرك يستمد دلالته من قول النبى ﷺ : «لاضرر ولا ضرار»، ومن مسائله نزع ملـكية خاصة لنفع عام كنزع عقار مملوك ملـكاً خاصاً لفرد أو جماعة لتوسيع المنافع العامة إذا ضاقت بالمسلمين ضيقاً يضارهم ، كتوسيع الطرقات والمساجد ، وقد نزع عمر رضى الله عنه بعض أملاك الصحابة لتوسيع المسجد الحرام ، ومن أبى منهم ألزمه ووضع له ثمن عقاره فى بيت المال .

ومن شواهد هذا المدرك ماذكره القرطبي فى تفسير آية مسجد الضرار فقال : قال علماؤنا : وإذا كان المسجد الذى يتخذ للعبادة ، وحض الشارع على بنائه فقال : « من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً فى الجنة » يهدم وينزع إذا كان فيه ضرر بغيره ، فماظنك بسواه ؟ بل هو أحرى أن يزال ويهدم حتى لا يدخل ضرر على الأقدم .

وذلك كمن بنى فرناً أو رحى ، أو حفر بئراً ، أو غير ذلك مما يدخل الضرر على الغير .

وضابط هذا الباب أن من أدخل على أخيه ضرراً منع ، فإن أدخل على أخيه ضرراً بفعل ما كان له ان يفعله فى ماله فأضر ذلك بجاره أو غير جاره نظر إلى ذلك الفعل فإن كان تركه أكبر ضرراً من الضرر الداخل على الفاعل قطع أكبر الضررين ، وأعظمهما حرمة فى الأصول ، مثال ذلك رجل فتح كوة من منزله يطلع منها على دار أخيه وفيها العيال والأهل ، ومن شأن النساء فى بيوتهن إلقاء بعض ثيابهن والانتشار فى حوائجهن ، ومعلوم أن الإطلاع على العورات محرم ، وقد ورد النهى فيه ، فلحرمة الاطلاع على العورات رأى العلماء أن يغلقوا على فاتح الباب والكوة مافتح مما له فيه منفعة وراحة وفى غلقه عليه ضرر ، لأنهم قصدوا إلى قطع أعظم الضررين إذا لم يكن بد من قطع أحدهما .

ثم قال القرطبي : ومن هذا الباب وجه آخر من الضرر منع العلماء منه كدخان الفرن والحمام وغبار الأندر — أى الموضع الذى تداس فيه الحبوب والغلال — والدود المتولد من الزبل المبسوط فى الرحاب ، وما كان مثل هذا ، فإنه يقطع منه ما بان ضرره وخشى تماديه .

٦ — الاستحسان :

هذا المدرك اختلف فيه الناظرون اختلافاً عريض الأطراف، اختلفوا فى حده وبيان حقيقته ، وفى جواز العمل به .

فأما حده وبيان حقيقته ، فقد قال فيه بعض الحنفية : إنه دليل ينقدح فى نفس المجتهد لا يقدر على إظهاره لعدم مساعدة العبارة عنه ، وعرفه الباجى من المالكية بأنه القول بأقوى الدليلين ، وقيل : إنه قياس خفى لا يتبادر إلى الأفهام وجهه فى مقابله قياس جلى ، وقيل : إنه العدول عن موجب قياس إلى قياس أقوى منه .

وقال أبو الحسن الكرخى من الحنفية ووافقه بعض الحنابلة: بأنه العدول فى مسألة عن مثل ما حكم به فى نظائرها إلى خلافه لوجه هو أقوى ، وعبر الحنابلة عن هذا بقولهم : أن يحكم على المسألة بحكم يخالف نظائرها لدليل شرعى ، إلى كثير من الحدود والتعريفات ، كما نقل القرافى عن أبى الحسين البصرى المعتزلى : أن الاستحسان هو ترك وجه من وجوه الاجتهاد غير شامل شمول الألفاظ لوجه آخر أقوى منه .

فأما حكمه وجواز العمل به ، فقد أنكره الإمام الشافعى إنكاراً شديداً ، وقال كما نقله الآمدى : من استحسن فقد شرع . وفى كتاب الرسالة للإمام يقول : إنه لا يجوز القول بغير خبر ولا قياس ، وإن الاستحسان فى مقابلة القياس كالاستحسان فى مقابلة الخبر ، لا يسوغ شىء منهما ، ويصرح الإمام الشافعى فى الرسالة بأن الاستحسان تعسف وتلذذ .

ونقل بعض من ألف فى أصول الفقه من أهل عصرنا عن الشيخ محيى الدين بن عربى فى الفتوحات أن الإمام الشافعى قال : من استحسن فقد تشرع ، قال: ومعناه : من استحسن فقد صار بمنزلة نبى ذى شريعة، فمقصود الإمام الشافعى بهذه الكلمة مدح المستحسن وأن أتباع الشافعى لم يفهموا كلامه .

وهذا كلام ما كان ينبغي أن ينقل فى كتب أصول الفقه .

ومن المنكرين للاستحسان الإمام ابن الحاجب الأصولى المالكى حيث يقول : ليس وراء الأدلة الشرعية المعتبرة حقيقة يصح أن تسمى بالاستحسان .

وقد شنع الغزالى على تعريف بعض الحنفية للاستحسان بأنه دليل ينقدح فى نفس المجتهد يعسر عليه التعبير عنه ، فقال : إن هذا هوس ، لأن ما لا يقدر عن التعبير عنه لا يدرى أنه وهم وخيال أو تحقيق ، ولا بد من ظهوره ليعتبر بأدلة الشريعة لتصححه الأدلة أو تزيفه ، أما الحكم بما لا يدرى ما هو فمن أين يعلم جوازه ؟ أبضرورة العقل أو نظره ، أو بسمع متواتر أو آحاد ؟ ولا وجه لدعوى شيء من ذلك .

وهذا التعريف الذى نال كثيراً من السخرية والنقد اللاذع — ولا سيما من علماء الشافعية الذين تابعوا الغزالى كالبيضاوى فى منهاجه وكابن السبكى والمحلى فى جمع الجوامع ، والآمدى فى الأحكام — هو من أقرب التعريفات بالنظر إلى مسائل الاستحسان التى صرح القائلون به فيها ، فإننا لم نعرف مسألة لإمام مجتهد قال فيها بالاستحسان إنه ذكر لها دليلا يمكن النظر فى اعتباره شرعاً ، وكانوا يكتفون بقولهم أرى ، وأحب ، وأكره ، وأستحسن .

ونقد الغزالى إنما هو منصب على مواقف المناظرة التى يجب فيها تحديد العبارات لتجرى على أساس تحديدها المناظرات — وكان الغزالى مناظراً ممتازاً بليغ العبارة ، بليل الريق — بخلاف مواقف النظر التى لا يلزم فيها مساعفة العبارة لتصوير مدركات الأحكام وراء الأدلة المجمع عليها .

وقد وقف الأستاذ عبدالرحمن تاج مع الغزالى وقفة أوضح فيها المنحى الذى لم يلحظه الغزالى أكمل توضيح فى كتابه (السياسة الشرعية والفقه الإسلامى) ولا يبعد من يقول بعد التأمل فى رد الأستاذ تاج نقد الغزالى ومن وافقه من الشافعية أن التأمل قد يرجح هذا التعريف ، وإن كان الأستاذ تاج قد صرح بأنه يميل إلى تعريف الكرخى من حيث إنه جامع لجميع أنواع الاستحسان .

يقول الأستاذ تاج فى تحقيق القول مع الغزالى : وما قرره الغزالى فى المنخول حق ، وهو تقرير له ، روعة وبلاغة ولكن من الحق أيضاً أن المعانى التى إذا لاحت فى العقول انطلقت بالتعبير عنها الألسنة هى المعانى الواضحة المتعينة تعيناً تاماً ، بحيث لا يتجاذب أطرافها اختلاف وجهات النظر ، ولا تتعارض فيها الأدلة الظنية التفصيلية مع العمومات القطعية كعمومات رفع الحرج ودفع الضرر ، والأخذ بما هو أعدل وأصلح وأنفع ، فأما إذا كان المعنى من ذلك النوع الذى تختلف فيه الأنظار ويقع فيه مثل ذلك التعارض كما هو حال جميع المواطن التى يعمل فيها الاستحسان فإنه لا يصل فى الوضوح وكمال التعيين إلى الحد الذى تنطلق فيه الألسنة بالتعبير عنه على وجه ينهض فى المناظرة والمدافعة ، لكن ذلك ليس بلازم فى صحة اجتهاد المجتهد الذى ينظر فى الأدلة المختلفة ، ليستنبط ما يرى أنه أشبه بحكم الله ورسوله وأحق بالاتباع فإنه واجب عليه أن يأخذ بما يؤدى إليه ظنه ، فأما نهوض ذلك فى المخاصمة والمناظرة فهو باب آخر غير باب الاجتهاد والاستنباط وتعرف الأحكام من مصادرها بقدر ما يصل إليه الجهد ويحصل به الاقتناع ، وكثيراً ما يقرر العلماء فى مثل هذا الموطن أن فرقاً بين موقف النظر وموقف المناظرة ، وأن ما لا ينهض فى الحالة الثانية لايلزم أن يكون مردوداً فى الحالة الأولى .

وقد ساق الأستاذ تاج بعد ذلك كلمة للعضد تؤيد أن نقد هذا التعريف نقد زائف ، وأنه ليس فى محل النزاع ، قال . العضد : إن كان المراد بانقداح الدليل فى نفس المجتهد أنه متحقق الثبوت عنده — وهذا هو المراد قطعاً — فإنه يكون واجباً عليه أن يعمل به اتفاقاً ، ولا أثر لعجزه عن التعبير عنه ، فإنه يختلف بالنسبة إلى الغير ، وأما بالنسبة إليه فلا ، وإن كان معنى ذلك أنه شاك فيه فهو مردود اتفاقاً ، إذ لا تثبت الأحكام بمجرد الاحتمال والشك ، وهذا الثانى غير مراد قطعاً فإن المجتهد لا يمكن أن يبنى حكما شرعياً على أمر مشكوك فيه .

وبالغ بعض العلماء فى اعتبار الاستحسان والاعتداد به حتى جعله تسعة أعشار العلم ، وفى ذلك يقول الشاطبى فى الموافقات : الاستحسان وهو فى مذهب مالك الأخذ بمصلحة جزئية فى مقابل دليل كلى ، ومقتضاه الرجوع إلى تقديم الاستدلال المرسل على القياس ، ومن شواهده فى الشريعة القرض فهو فى الأصل ربا لأنه الدرهم بالدرهم إلى أجل ، وأبيح للرفق بالناس ، وكذلك العرية بيعها بخرصها تمراً فهى بيع رطب بيابس .

ويقول القاضى أبو بكر بن العربى : الاستحسان إيثار ترك مقتضى الدليل على طريق الاستثناء والترخص لمعارضة ما يعارض به فى بعض مقتضياته . ويقول الاستحسان عندنا — المالكية — وعند الحنفية هو العمل بأقوى الدليلين .

ويقول الشاطبى فى الموافقات : الاستحسان فى العلم قد يكون أغلب من القياس . قال أصبغ : وقد سمعت ابن القاسم يقول أو يروى عن مالك أنه قال : تسعة أعشار العلم الاستحسان ، ويقول أصبغ : إن المغرق فى القياس يكاد يفارق السنة وإن ، الاستحسان عماد العلم .

وخلاصة القول فى هذا المدرك الشرعى أن جميع أئمة الاجتهاد قائلون به ، ولكل واحد منهم استحسانات تذكر فى مذهبه ، غير أن من نسب إلى مذهبهم إنكار الاستحسان كالشافعية يأبون أن يدخلوا المسائل التى قال فيها إمامهم بالاستحسان تحت هذا المدرك ، ويزعمون أنها من قبيل الإطلاق اللفظى ، وهى فى حقيقتها من مسائل الاستحسان الذى هو مدرك شرعى لاستنباط الأحكام .

يقول الآمدى : وهو شافعى ـ وأما الإطلاق ـ أى إطلاق لفظ استحسان ـ إطلاقا لغوياً فما نقل عن الأئمة من استحسان دخول الحمام من غير تقدير عوض للماء المستعمل ، ولا تقدير مدة الكون فيه وتقدير أجرته ، واستحسان شرب الماء من أيدى السقائين من غير تقدير فى الماء وعوضه ، وقد نقل عن الشافعى أنه قال : استحسن فى المتعة أن تكون ثلاثين درهما ، واستحسن ثبوت الشفعة للشفيع إلى ثلاثة أيام ، واستحسن ترك شىء للمكاتب من نجوم كتابته ، وقال فى السارق : إذا أخرج يده اليسرى بدل اليمنى فقطعت ، القياس أن تقطع يمناه ، والاستحسان ألا تقطع .

وهذه مسائل استحسن فيها الإمام الشافعى وأثبت لها أحكامها بهذا المدرك ، وقدمه على مقتضى القياس فى مسألة السارق ، فكيف تكون من قبيل الإطلاق اللفظى ؟ وعجيب أن يقول الآمدى هذا وهو العالم النظار الأصولى المتكلم ؟ !

وقد جمع الأستاذ عبد الرحمن تاج فى كتابه : (السياسة الشرعية والفقه الإسلامى) القول فى الاستحسان عرضاً وتحقيقاً بما لم نره لغيره من القدامى والمحدثين .

٧ - سد الذرائع

الذرائع هى الوسائل — فالذريعة هى الوسيلة للشىء — قال القرافى : ومعنى ذلك حسم مادة وسائل الفساد دفعاً له ، فمتى كان الفعل السالم من المفسدة وسيلة إلى المفسدة منعنا من ذلك الفعل وهو مذهب مالك رحمة الله عليه .

ثم قال : وأما الذرائع فقد أجمعت الأمة على أنها على ثلاثة أقسام ، أحدها معتبر إجماعاً كحفر الآبار فى طرق المسلمين ، وإلقاء السم فى أطعمتهم، وسب الأصنام عند من يعلم من حاله أنه يسب الله تعالى حينئذ ، وثانيها ملغى إجماعاً ، كزراعة العنب فإنه لا يمنع خشية الخمر ، والشركة فى سكنى الآدر — أى الدور ، وهو جمع غريب — خشية الزنى — وثالثها مختلف فيه كبيوع الآجال ، اعتبرنا نحن — أى المالكية — الذريعة فيها ، وخالفنا غيرنا — فأصل القضية أنا قلنا بسد الذرائع أكثر من غيرنا .

وأعلم أن الذرائع كما يجب سدها يجب فتحها — ويكره ، ويندب ، ويباح فإن الذريعة هى الوسيلة ، فكما أن وسيلة المحرم محرمة، فوسيلة الواجب واجبة كالسعى للجمعة والحج .

ثم قال القرافى : وينبه على اعتبار الوسائل قوله تعالى : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح) فأثابهم على الظمأ والنصب وإن لم يكونا من فعلهم لأنهما حصلا لهم بسبب التوسل إلى الجهاد الذى هو وسيلة لإعزاز الدين وصون المسلمين ، فالاستعداد وسيلة إلى الوسيلة .

* * *

وهناك مدارك شرعية أخرى عمل بها أئمة المسلمين خلفاً عن سلف ، كقاعدة « درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة » وقاعدة « رفع الحرج » اعتماداً على قول الله تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج »[١] وقوله عز شأنه : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »[٢]. وقول النبى ﷺ : (إن هذا الدين يسر لا عسر) وقوله ﷺ : (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فيسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا ، وسددوا وقاربوا) وكقاعدة : « الضرورات تبيح المحظورات » وغيرها مما يحقق العدل والمصلحة وهما هدف التشريع الإسلامى، فنى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : (إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات (ويحب العقل عند حلول الشهوات) .

يقول الإمام تقى الدين ابن تيمية فى كتاب (السياسة الشرعية) : فإن مدار الشريعة على قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم »[٣] المفسر لقوله تعالى : « اتقوا الله حق تقاته »[٤] وعلى قول النبى ﷺ : (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) أخرجاه فى الصحيحين — وعلى أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها وتبطيل المفاسد وتقليلها ، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناهما هو المشروع .

ومنزع هذه القواعد والمدركات اجتهادات الصحابة فيما عرض لهم من الوقائع التى لم ترد أحكامها فى القرآن ولا فى السنة ، يقول القاضى أبو بكر ابن العربى عند قوله تعالى : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله

(١) سورة الحج آية ٧٨ .
(٢) سورة البقرة آية ١٨٥ .
(٣) سورة التغابن آية ١٦ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٠٢ .

والرسول » ، قال علماؤنا ردوه إلى كتاب الله ، فإذا لم تجدوه فإلى سنة رسول الله ﷺ ، فإن لم تجدوه فكما قال على رضى الله عنه : ما عندنا إلا ما فى كتاب الله تعالى وما فى هذه الصحيفة أو فهم أوتيه رجل مسلم .

ومن أبدع الاجتهادات ما روى أن الصديق رضى الله عنه قال للأنصار فى مجتمع السقيفة للنظر فى الخلافة يحتج عليهم فى تقدم المهاجرين : إن الله جعلكم المفلحين ، وسمانا الصادقين ، فقال : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون »(١) ثم قال : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »(١) وقد أمركم أن تكونوا معنا حيث كنا فقال : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين »(٢). وقال النبى ﷺ : (أوصيكم بالأنصار خيراً) ولو كان لكم من الأمر شىء ما أوصى بكم . ومن ذلك موقفه فى حادث الردة ، حين احتج عمر على عدم قتال مانعى الزكاة بالحديث : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها) . فقال أبو بكر : الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عناقاً — أو عقالا — كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه .

ومن ذلك ما رآه عمر رضى الله عنه فى أمر الوباء بالشام — فقد شاور من حضره من الصحابة فلم يجد عند أحد منهم نصاً من كتاب أو سنة ،

---

(١) سورة الحشر آيتا ٨، ٩.
(٢) سورة التوبة آية ١١٩ .

وحكم عمر بما رأى من المصلحة ، ونازعه أبو عبيدة ، فاحتج عمر عليه بقوله : أرأيت لو كان لك إبل فهبطت بها وادياً له عدوتان ، إحداهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ، فحجه عمر ، وكان أبو عبيدة رضى الله عنه قد قال لعمر رضى الله عنه لما قرر عدم الدخول فى أرض الوباء : أفراراً من قدر الله ؟ فقال له عمر : لو غيرك قالها ؟ يريد لو أن — أحداً ليس فى منزلتك من الإسلام والفضل والفقه فى الدين قال هذه الكلمة لكان له عذر — ثم ضرب له المثل بنفسه وبالراعى والناس والإبل، والأرض الوبئة بالعدوة الجدبة ، والأرض السليمة بالعدوة الخصبة واختيار السلامة باختيار الخصب .

وأبين من ذلك موقف الشيخين — الصديق والفاروق — فى جمع القرآن الذى انتهى بإجماع الصحابة على رأيهما . روى البخارى فى صحيحه : أن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : أرسل إلى أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضى الله عنه : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هذا والله خير . فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت الذى رأى عمر .

قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ،

قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى .

وأصل ذلك اجتهاداتهم فى حياة رسول الله ﷺ بمشهد منه وكان يبلغه من اجتهاداتهم فيقرهم على صواب ما رأوا .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يحث أمراءه على الاجتهاد فى القضاء والأحكام فى ولاياتهم إذا لم يجدوا الحكم فى كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ، ومن ذلك حديث معاذ رضى الله عنه لما بعثه رسول الله ﷺ قاضياً إلى اليمن فقال له : (كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟) . قال : أقضى بما فى كتاب الله . قال : (فإن لم يكن فى كتاب الله ؟) . قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال : (فإن لم يكن فى سنة رسول الله ﷺ ؟) . قال : أجتهد رأيى لا آلو . قال فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صدرى ثم قال : (الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — لما يرضى رسول الله ﷺ) ،وقد قدمنا الكلام على هذا الحديث واعتبار الأمة له .

وقد أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه قاضيه شريحاً بما رضيه رسول الله ﷺ لقاضيه معاذ : وقد كان عمر عرض له خصومة مع رجل ، فقال له عمر : اجعل بينى وبينك رجلا ، فقال الرجل: إنى أرضى بشريح العراقى، وكان عمر قد أخذ من الرجل فرساً على سوم ، فحمل عليه فعطب ، فقال

شريح فى قضائه على عمر : أخذته صحيحاً سليماً فأنت له ضامن حتى ترده صحيحاً سليماً ، فأعجب عمر بشريح وقضائه ، فبعثه قاضياً ، وقال له : ما استبان لك من كتاب الله فلا تسأل عنه ، فإن لم يستبن فى كتاب الله فمن السنة ، فإن لم تجده فى السنة فاجتهد رأيك .

وأجمع ما فى هذا الباب رسالة عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى وهى رسالة مستفيضة الشهرة ، رواها الثقات ورضيها الأئمة كتب عمر إلى أبى موسى : أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، آس الناس فى مجلسك وفى وجهك وقضائك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على المدعى واليمين على من أنكر ،والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالا ، ومن ادعى حقاً غائباً أو بينة فاضرب له أمدا ينتهى إليه ، فإن أتى ببينته أعطيته بحقه ، وإن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية ، فإن ذلك هو أبلغ فى العذر وأجلى للعماء ،ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق ، فإن الحق قديم لا يبطله شىء ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجرباً عليه شهادة زور ، أو مجلوداً فى حد أو ظنيناً فى ولاء أو قرابة ، فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان .

ثم الفهم الفهم فيما أدلى إليك مما ورد عليك مما ليس فى قرآن ولا سنة . ثم قايس الأمور عند ذلك ، واعرف الأمثال ، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق .

وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر عند الخصومة،

فإن القضاء فى مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ويحسن به الذكر ، فمن خلصت نيته فى الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فى نفسه شانه الله فإن الله تعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً ، فما ظنك بثواب عند الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته ؟

والسلام عليك ورحمة الله

ونحن إذ ننتهى من تلخيص القول فى المدارك الشرعية التى يبنى عليها المجتهد اجتهاده فى استنباط الأحكام والوقائع التى لا يجد لها نصاً فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسول الله ﷺ ، نقول فى صراحة إن استعمال هذه المدارك ، يستوجب - إلى جانب شرائط الاجتهاد المفصلة فى كتب أصول الفقه — صدق الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ ، الإيمان الذى يجعل من الاجتهاد عبادة لا تغيب عنها رقابة الله تعالى الذى يعلم السر وأخفى ، وإنما الأعمال بالنيات ، كما يستوجب أن يكون مستعملها فقيه النفس، ونعنى بفقه النفس فطنة الإدراك لحكمة الله فى التشريع ، كما يستوجب العلم بالنصوص الفقهية المتقدمة ، والعلم بمصادر الوقائع ومواردها ، حتى لا يخبط الناظر فى عمياء لا منفذ لها ، وحتى لا يهجم الناظر فى غير تورع كالذين هجموا من قبل ، وكالذين يتسورون على الشريعة فيقولون على الله بغير علم .

والله تعالى ولى التوفيق

الاصول العامة للتشريع
في الاسلام

الأصل الأول

وحدة الإنسانية

والتشريع فى هذه المصادر يعتمد على أصول تجعله عاماً شاملا لكل أحداث الحياة ووقائعها المتصلة بالإنسان :

أولا : باعتبار إنسانيته .

ثانياً : باعتبار خصائص تلك الإنسانية فى التفكير والعمل .

ثالثاً : باعتبار مايحيط به من مؤثرات البيئة العامة والخاصة .

فإذا تحدثنا عن « الوحدة الإنسانية » فى الإسلام كأصل من الأصول التى تمد التشريع الإسلامى فى عمومه بروح الترابط الأخوى بين أبناء البشرية كلها جعلنا نصب أعيننا القرآن الكريم والسنة النبوية ، ونظرنا فيهما لنرى ماتعكسه مرآتهما السماوية الصافية من صور نصوصهما فى شأن هذه الوحدة الإنسانية لنعرف إلى أى حد ارتفع الإسلام بهذه الوحدة ولنعرض الخصائص التى امتاز بها فى إبرازها بصورة معبرة عن الرعاية التى أضفياها عليها حتى كانت واقعاً فى مجارى التاريخ الإسلامى بالعمل التطبيقى لهذه النصوص .

والوحدة الإنسانية حقيقة واقعة ، لاسبيل إلى إنكارها ، يعترف بها كافة المتدينين فى العالم أجمع من أى جنس وفى أى مكان ، وهؤلاء

المتدينون هم أصحاب الكثرة العددية فى أنحاء العالم أجمع سواء أكانوا يدينون بدين يمتد فى تاريخ الأديان إلى جذر سماوى ، أم يدينون بدين مواضعة تواضعوا عليه وراثة منحدرة عن الجهالة أوسقطة من سقطات العقل الإنسانى فى جموحه الإلحادى ، أو نكسة اجتماعية أصابت المجتمع نتيجة اضطراب الأعصاب من ثقل متاعب الحياة .

فالبشر كلهم — فى نظر المتدينين يرجعون إلى أصل إنسانى واحد — وجميع الكتب السماوية تذكر قصة آدم وحواء على اختلاف قريب أو بعيد فى سرد الحوادث والأسماء ، وسائر تواريخ الأمم القديمة وأساطير الأمم البعيدة العهد بالحياة على هذه الأرض تذكر هذه القصة فى أول فصول بدء الخليقة .

كما يعترف بهذه الوحدة الإنسانية من لا يدينون بدين — سواء أكانوا من القائلين باستقلال الأجناس فى أصول وجودها وخلقتها على مايقوله المتدينون . فيكون الإنسان فى نظرهم إنساناً منذ وجد كيفما وجد — وعلى أية طريقة وجد — أم كانو من الذين يقولون بتوالد الأجناس فيكون الإنسان فى نظرهم غير مستقل الجنس فى أصل خلقته ووجوده فليس أصل الإنسان إنسانا — وإنما أصله جنس من الأحياء وتوالد عنه هذا الجنس الذى نشاهده ، ونسميه الإنسان ، أم كانوا من القائلين بنظرية النشوء والارتقاء والانتخاب الطبيعى كما زعمه فريق من المتفلسفة القدامى والمحدثين .

فالبشر عند غير المتدينين يرجعون أيضاً إلى أصل واحد — سواء أكان حيواناً أم نباتاً أم شيئاً آخر — ولا نعلم أحداً قال بتعدد أصل الإنسان — على معنى أن يكون أصل هذا الجيل من البشر أو أصل تلك

الأمة من أمم الأرض وشعوبها حيواناً ، ويكون أصل ذاك الجيل الآخر أو أصل تلك الأمة من أمم الأرض وشعوبها نباتاً أو شيئاً آخر ، ولئن كان أحد قد ذهب إلى هذا النحو من الرأى فلن يضرنا لأننا إنما ذكرنا مذهب غير المتدينين إمعاناً فى التعميم لنظهر أن الوحدة الإنسانية حقيقة واقعة لاينكرها أحد من الناس .

وليس بمجرد الاعتراف بوحـــدة الإنسانية هو الذى نقصده من الحديث فى موضوع بحثنا ، لأن هـذا الاعتراف المجرد من الخصائص التى تضفى على الوحدة صفات تجعل لها مكاناً مرموقاً فى تاريخ الإخاء البشرى ، لايفيد تحقيق رابطة هذا الإخاء الإنسانى بين أبناء البشرية لأنه خال من الدوافع المعنوية التى تحرك الشعور فى الأفراد والجماعات بوشائج القربى ، وحينئذ يستوى الإسلام مع سائر النحل والمذاهب الدينية والاجتماعية التى تعترف بهذه الوحدة فى صورة جامدة لاتنبض بعاطفة ولا تثير فى النفس شعوراً برابطة أخوية .

وهذا وضع يسلب الإسلام اختصاصه فى الاحتفال بهذه الوحدة احتفالا جعلها صورة حية نابضة بأصالة الإخاء الإنسانى لكل من تظلهم الإنسانية بظلها وتجمعهم رابطتها .

فكرة الاسلام عن الوحدة الانسانية :

وإنما الذى نقصده هو إبراز فكرة الإسلام الخاصة به عن هذه الوحدة الإنسانية ، وبيان ما امتاز به من العناية البالغة فى الحديث عنها ، ونعنى بفكرة الإسلام أسلوبه وطريقته الخاصة فى تلوين خصائص الوحدة البشرية بلون المآخاة ، هذا اللون الذى يعتمد على وحدة الجنس باشتراك أفراده

جميعاً فى منبع الأبوة والأمومة الموحدة ، مهما أوغل الزمن فى السير بالحياة، ومهما نأت الديار ، وتباعدت الأوطان .

والذى يعتمد كذلك على إثارة عواطف هذه القربى فى داخل الوجدان .

والذى يعتمد على تحريك الضمير الإنسانى ليقيم من نفسه حارساً عليها ورعايتها أينما كانت لتقوم المحبة الأخوية بين الناس مقام القانون .

وذلك بما يبعثه فى النفس من تجديد الشعور الأخوى بتلك اللفتات القوية فى خطابه العام للناس جميعاً مقروناً بما ينمى الإحساس بتلاقى أفراد البشر فى جدول واحد ينبع من عين الآدمية الأولى .

وهذه اللفتات القوية الخالدة بخلود الشريعة الإسلامية ودستورها القرآن الحكيم هى إحدى تلك الخصائص التى امتاز بها الإسلام فى تصوير الوحدة الإنسانية ووضعها موضعها من الحياة .

ولأجل أن تتبين ذلك بصورة واضحة من النصوص الواردة فى المصدر الأصيل بمراتبه التى تحدثنا عنها ، لنتعرف :

أولا : إلى الصورة التى أبرزت فيها تلك النصوص الوحدة الإنسانية بخصائصها .

ثانياً : إلى الخصائص التى أضفتها تلك النصوص على هذه الوحدة .

ثالثاً : إلى اللفتات القوية التى تكررت فى تلك النصوص لترد دائماً الشعور الإنسانى إلى أصالة الرابطة الأخوية ووحدة المنبع .

رابعاً : إلى الآثار الواقعية فى حياة الناس التى قصد إليها الإسلام من الاحتفال بالوحدة الإنسانية ، وإلى أى حد تصل تلك الآثار بالنسبة لصلتها بالتشريع الإسلامى فى عمومه ، وهل كان لها مكان من الرعاية فى شىء من هذا التشريع ؟

أما الصورة التى أبرزت فيها النصوص الإسلامية الوحدة الإنسانية، فهى جلية فى كل نص تعرض لها ، ولعل مما يزيدها جلاء أن نعرض فى نظرة عابرة إلى شىء مما ذكر فى غير مصادر الإسلام عن هذه الوحدة قبل أن نعرض للنصوص الإسلامية، ليظهر فى شىء من الموازنة الفرق بين الفكرتين ، فكرة الإسلام عن الوحدة الإنسانية ، وفكرة غيره عنها حتى يتبين مكان هذه الوحدة فى الإسلام ، ومكانها فى غيره من النحل والمذاهب التى تدين بها الكثرة الغامرة من العالم الإنسانى المنتشر فى أرجاء الأرض .

فكرة التوراة عن الوحدة الانسانية :

التوراة فى أصلها كتاب سماوى ، عظمه القرآن بحسب ذلك الأصل ، وهى كتاب يقدسه ويدين به كافة الطوائف اليهودية ، وجميع المذاهب المسيحية ، وهى على ما هى عليه اليوم فى أيدى هؤلاء وأولئك — تعرض للوحدة الإنسانية فى سفر التكوين بصورة قصصية تحكى قصة خلق آدم وحواء أبوى البشر وما احتف بهذه القصة من حوادث وأحداث داخل جنة عدن وخارجها .

ثم تأخذ فى سرد أسماء سرداً تعدادياً لمن نسل من آدم وحواء مباشرة ، ولمن نسل من أولادهما وحفدتهما متنقلة من مرحلة تبدأ باسم ، وتنتهى

إلى اسم آخر تبدأ به مرحلة جديدة، دون أية لمحة إلى شيء من روابط الإخاء ووحدة المنبع المقتضية لشعور التعاطف والمودة بين أبناء الجنس الإنسانى .

جاء فى سفر التكوين :

« وأن الرب الإله جبل الإنسان تراباً ، ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار الإنسان نفساً حية ... وأما آدم فلم يوجد له عون بإزائه فأوقع الرب سباتاً على آدم فنام فاستل إحدى أضلاعه وسد مكانها بلحم ... وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة فأتى بها آدم ، فقال آدم هوذا هذه المرأة عظم من عظامى ولحم من لحمى هذه تسمى امرأة لأنها من امرئ أخذت . . . وعرف آدم حواء فحملت وولدت قابين (قابيل) ثم عادت فولدت أخاه (هابيل) ، ثم ذكرت التوراة قصة قابيل وقتله هابيل وذكرت ولادة أخنوخ من قابيل . واستمر السرد التناسلى مع ذكر تواريخ أعمار المتناسلين ثم رجعت إلى آدم وولادته شيئاً وابنه أنوش ...

استغرق هذا السرد أربعة فصول ، ثم جاءت فى الفصل الخامس وقالت: (هذا كتاب مواليد آدم يوم خلق الله الإنسان على مثال الله عمله ذكراً وأنثى ، خلقه وباركه وسماه آدم يوم خلق) .

وفى الفصل السادس قالت : (لما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرض وولد لهم بنات رأى بنو الله بنات الناس — تأمل — إنهن حسنات فاتخذوا لهم نساء من جميع من اختاروا ، فقال الرب : لا تحل روحى على الإنسان أبداً لأنه جسد) .

وهنا نقف مع القــارئ لنلفت نظره بعد التجاوز عن هذا السرد التعدادى العقيم الجاف الذى تعرى عن الحياة النابضة بالحس الواعى ، والشعور الدافق من وحدة المنبع الإنسانى ، إلى هذا الأسلوب الذى أبرز

فيه مكان المرأة من الحياة إلى جانب الرجل ، ومكانها من حقيقة إنسانيتها ، ومكانها فى صلتها بخالقها ، وحق عبوديتها لهذا الخالق العظيم ؛ فالرجال فى أسلوب هذه التوراة بنو الله ، والنساء بنات الناس ، لماذا هذه التفرقة بهذا الأسلوب العجيب الذى يختص المرأة بحرمانها من ملكوت الله ورحمته ؟ مع أن الواقع والحقيقة التى تقررها التوراة نفسها أن الرجال بنو الناس وأن النساء بنات الناس فهم وهن شقائق لافرق مطلقاً فى هذه الحقيقة ، لأن آدم عرف حواء أكثر من مرة فولدت له بنين وبنات ، لكن النساء فى تعبير هذه التوراة ولدن الجبابرة على الأرض فلا ينبغى أن يشرفن بنسبتهن إلى الله ، بل يجب أن يهبطن من درجة التشريف الروحى إلى درجة التدنس الحيوانى فينسبن إلى الإنسان الذى قال فيه الرب : « لاتحل روحى على الإنسان أبداً لأنه جسد » . وأى إنسان هذا الذى لاتحل عليه روح الله أبداً ؟ أهو بنو الله أم هو بنات الناس أم هو حقيقة تعمهما وهى حقيقة الإنسانية التى لايزيد فيها الرجل على المرأة شيئاً أى شىء ؟ ولكن التوراة تقول : « وكان على الأرض جبابرة فى تلك الأيام ، وأيضاً بعد أن دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً ، أولئك هم الجبابرة المذكورون منذ الدهر » .

وهكذا يمضى سفر التكوين فى خمسين فصلا على هذه الطريقة من الفكرة الجامدة والأسلوب المتحجر ، ويوشك ألا يكون للوحدة الإنسانية باعتبار وحدة الأصل والمنبع ذكر فى غير سفر التكوين من أسفار العهد العتيق يصورها بصورتها الإنسانية الحساسة ، بل إنك لواجد فى هذه التوراة أن الحياة كلها خلقت لبنى إسرائيل فقط ، فهم السادة الذين تخدمهم الأمم وتسجد لهم ، وأن الإله الرب الذى تتحدث عنه هذه التوراة هو إله الإسرائيليين وحدهم ، أعطاهم العهد على ألا يكون إلها لغيرهم من سائر البشر وها هو ذا قد سخط على الحياة وعلى الناس حين رآهم مجتمعين فى مكان واحد يتكلمون

لغة واحدة يتفاهمون بها . وقد شرعوا يبنون لهم مدينة واحدة تأويهم فأبى أن يتركهم يسعدون بوحدتهم .

« وقال الرب هوذا هم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة وهذا ما أخذوا يفعلونه ، والآن لا يكفون عما هموا به حتى يصنعوه ،هلم نهبط ونبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض،فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض كلها وكفوا عن بناء المدينة ولذلك سميت بابل ، لأن الرب هناك بلبل لغة الأرض كلها ومن هنا شتتهم الرب على كل وجهها » .

وفى هذا القدر غناء لمن تأمل بعقل سليم وفكر حر طليق ، وإذا جزنا التوراة ويتبعها الإنجيل على حالها ، لأنه يتأصلها وهما كتابان لهما أصل سماوى قريب العهد بالنسبة لغيرهما من كتب الديانات السالفة،وهذا الأصل اعتبره القرآن الكريم ، وميز من أجله بين معتنقى ديانتيهما — على حاليهما التى أدركهما عليها بتفسير الأحبار والرهبان وتحريف كلمهما عن مواضعه — وبين سائر الأمم التى لا تدين بالإسلام إذا جزنا ذلك رأينا غمرة الإنسانية فيما وراءه تدين بأديان — حاشا الإسلام طبعاً — هى أقرب إلى الوثنية الجاهلة البليدة — أو هى الوثنية بأرذل ، صورها ، وأحط معانيها .

وبعض هذه الشعوب الكثيرة العدد يسند ديانته إلى كتب يزعم لها حق الوحى وأنها كتب سماوية ، ونحن لا نستبعد أن يكون قد كان لبعضها أصل صحيح يصلها بالسماء ، ولكن هذا الأصل ذهب جميعه مع القرون الأولى ، وحلت الوثنية محل نصوصها الأصلية بمرور الأحقاب ، وبقيت هذه الوثنية فى الجاهلين التابعين بإغراء العابثين من المتبوعين ، ولعل هذا السبب من البعد السحيق واختفاء معالم الحق اختفاء كلياً من هذه الكتب هو الذى جعلها مهدرة منبوذة فى نظر الإسلام ، وجعل أممها وشعوبها أمماً وشعوباً

وثنية ، أهدرت كرامة العقل الإنسانى إهداراً سلب عنها الاعتبار الإنسانى ما أقامت على هذا الوضع الوضيع .

فكرة الديانة الهندية عن الوحدة الانسانية :

ومن أعظم هذه الشعوب كثرة عدد الشعب الهندى وأمره أعجب من العجب فى دياناته التى يأخذها عن كتبه المقدسة المحبوسة على تفكير الكهنة وسدنة المعابد تلك الكتب التى تصور النشأة الأولى للإنسانية تصويراً غريباً يفرق جمعها ويشتت شملها منذ خلقها ، ويقسمها إلى طوائف ، ويجعل لكل طائفة منها خصائص تميزها عن الطوائف الأخرى ، ويحرم على بعضها أن يحاول اكتساب خصائص الطوائف الأخرى ، ويكتب على بعضها وظائف فى الحياة تعيش فى حمأتها ولا تستطيع أن تتخطاها مع الاعتراف بوحدة المنشأ ، وأشهر كتبهم المقدسة هو كتاب (الفيدا) وله عندهم شروح وتفاسير قام بها بعض الكهنة ، لها منزلة (الفيدا) من الاحترام والتقديس ، ومن أهم شروحه شرح (منو) وقد جاء فى هذا الشرح عن أصل الإنسان ونشأته الأولى وتكاثره بشراً سوياً على ظهر الأرض « أراد الرب المولى تكاثر الجنس البشرى فخلق من فمه (البراهمة) ومن ذراعه (الأكشترية) ومن فخذه (الفيشيمية) ومن رجله (الشودرا) وأراد دوام الجنس فجعل لكل واحدة من هذه الطبقات أعمالا خاصة ، فعهد إلى البراهمة فى درس أسفار (الفيدا) وتعليمها وتقريب القربان وإدارة الضحايا الآخرين والعطاء والأخذ ، وفرض على (الأكشترية) حماية الشعب وممارسة الإحسان والتضحية ، وتلاوة الكتب المقدسة وعدم الانهماك فى الشهوات ، وخص (الفيشيمية) بتربية المواشى وإيتاء الزكاة والتضحية ودراسة الكتب المقدسة والتجارة والربا والحرث . . . وأوجب على (الشودرا) عملا واحداً فقط

وهو خدمة تلك الطبقات . . كل ما فى هذا العالم ملك البرهمى وللبرهمى حق على كل موجود بسبب النسب . . ولن يدنس البرهمى صاحب (الركيفيدا).. بذنب ولو قتل أهل العوالم الثلاثة ، وليتجنب الملك قتل برهمى ولو اقترف جميع الجرائم .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) : وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت فى الهند الحضارة البرهميه ، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندى ، وألف فيه قانون مدنى وسياسى اتفق عليه فى البلاد وأصبح قانوناً رسمياً ومرجعاً دينياً فى حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن (منو شاستر) يقسم هذا القانون الأهالى إلى أربع طبقـــات ممتازة وهى : (١) البراهمة طبقة الكهنة ورجال الدين ، (٢) شترى رجال الحرب ، (٣) ويشى رجال الزراعة والتجارة ، (٤) شودر رجال الخدمة . ويقول (منو) مؤلف هذا القانون : إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه ، وشترى من سواعده وويشى من أفخاذه، والشودر من أرجله، ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم فعلى البراهمة تعليم (ويد) أو تقديم النذور للآلهة وتعاطى الصدقات ، وعلى الشترى حراسة الناس والتصدق وتقديم النذور ودراسة (ويد) والعزوف عن الشهوات ، وعلى ويشى رعى السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة (ويد) والتجارة والزراعة وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث .

ومن العجيب فى نظر العقل الإنسانى أن هذا التقسيم الطبقى للإنسانية يقول به أعرق الفلاسفة فى العالم ، أبو الفلسفة ومعلمها الأول أرسطو ، غير أن أرسطو يذهب فى تقسيمه الطبقى مذهباً سياسياً لتوطيد دعائم الحكم الصالح فى نظره ولتحقيق المدينة الفاضلة ، وهو لا يبنيه على نشأة البشرية

الأولى كما يذهب إليه الهنود ومن دان بدياناتهم من الصينيين واليابانيين الوثنيين وهذا بلا شك سبب لا يبرر الحكم على الإنسانية بسبب إنسانيتها فى أكثر أفرادها وجماعاتها ، وحرمانها من فرصة النهوض والترقى المستعدة لها بفطرتها .

فكرة قدماء الفرس عن الوحدة الانسانية :

ويختلط بعض نظريات (الفيدا) بنظريات (الابستاق) كتاب قدماء الفرس المقدس ويذكر فيهما أسماء ومآثر الأمر الإيرانية القديمة ونظرية (الابستاق) فى نشأة الإنسان خليط من مذاهب (الفيدا) والتوراة ، يقول الأستاذ عبد الوهاب عزام رحمه الله فى تعليقاته على (الشاهنامه) :

البيشدادية لقب للأسرة الأولى من ملوك الشاهنامه ....

وهم أول من تعرفهم الأساطير الفارسية ، ويتبين فى أسمائهم وقصصهم بقايا الأساطير الآرية وآثار الدين الهندى والدين الإيرانى القديم ، وفى الفيدا والابستاق كثير من أسمائهم ومآثرهم .

ثم قال فى تعليقه على أول ملوك هذه الأسرة (كيومرت) وهو فى الابستاق (كيا) أو (كيامرتن) وهو الإنسان الأول أول من عبد أهرمزدا والذى نسلت منه الأمم الآرية ... وفى (بندهش) أن هرمزد خلق شيئين هما أصل الإنسان وأصل الحيوان والنبات وذانك (كيومرت) والثور الأول ، عاشا سعيدين فى ملك هرمزد ثلاثة آلاف سنة ، ثم ظهر أهرمن فقتلهما ... فنتج من الثور حين موته أصل الحيوان والنبات ، ومن (كيومرت) حين موته الزوجان الأولان (مشيا ومشيانه) ومعنى مشيا رجل مثل آدم ، ثم قال : وكيومرت عند جمهور مؤرخى الفرس كآدم عند الساميين .

وقد كان نظام الطبقات مستحكماً فى الفرس منذ القدم إلى مجىء الإسلام، وقد ذكر الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) نقلا عن البروفسور أوترسين مؤلف تاريخ (إيران فى عهد الساسانيين) قوله : « كان المجتمع الإيرانى مؤسساً على اعتبار النسب والحرف ، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة ، لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة ، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشترى أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير ، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذى منحه نسبه ولا يستشرف لما فوقه ، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التى خلقه الله لها ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً ، وكان لكل واحد مركز محدد فى المجتمع » .

قال الأستاذ الندوى : وكان فى هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للإنسانية يظهر جلياً فى مجالس الأمراء والأشراف حيث يقوم الناس على رؤوس الأمراء كأنهم جماد لا حراك بهم ، ويجلسون مزجر الكلب .

ثم ذكر ما رواه الطبرى فى قصة وفادة المغيرة بن شعبة عليهم لدعوتهم إلى الإسلام قال : عن أبى عثمان النهدى قال : لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس أجلسوه واستأذنوا رستم فى إجازته ، ولم يغيروا شيئاً من شارتهم تقوية لتهاونهم فأقبل المغيرة بن شعبة والقوم فى زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشى عليها غلوة ، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشى حتى جلس معه على سريره ووسادته فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه ، فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوماً أسفه منكم، وإنا معشر العرب سواء

لايستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه،ولم آتكم ولكن دعوتمونى،اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول .

تسامى الاسلام بفكرة الوحدة الانسانية :

هذه الأمم والشعوب التى عرضنا إلى كتبها المقدسة ونظريتها فى الإنسانية الأولى التى تعتمد على وحدة المنبع ، مهما اختلفت الأسماء والأقاصيص ، تلك الوحدة التى تقتضى بطبيعتها التآخى والتعاطف والحب الإنسانى والمساواة فى الحقوق والواجبات الإنسانية هى - إلى جانب الأمم والشعوب التى تدين بالإسلام - الكثرة الغامرة من أبناء البشرية فى العالم كله شرقه وغربه ، ولم يبق وراءها إلا قلة قليلة منتثرة هنا وهناك مغمورة فى هذه الكثرة الغامرة بما يفقدها كل الخصائص التى تمنحها وجوداً خاصاً بمذهب أو نحلة لها قيمة فى وزن المذاهب والنحل العالمية المعتبرة .

والذى عرضناه من نصوص كتبها المقدسة هو المحور الذى تدور عليه عندها نظرية الوحدة الإنسانية ، وقد يكون وراءها نصوص تتحدث عن هذه الوحدة ، ولكنها فى جملتها وتفصيلها لاتخرج عما ذكرناه ، ونرى أن فيه غنية للقارئ الذى يريد أن يفهم مكان الوحدة الإنسانية فى نظر الإسلام بالنسبة إلى مكانها فى نظر غيره من أشهر المذاهب والنحل ، وأكثرها ذيوعاً فى الأرض ، حينما نضع بين يديه نصوص الإسلام المستقاة من المصدر الأصيل فى هذا الموضوع ونبين مرامى تلك النصوص وأهدافها فى أسلوبها الذى أبرزت فيه ، وتعبيرها الذى أخرجت فى إطاره ، وإشارتها فى تخير

اللفظ المعبر عن المعنى المقصود من اتخاذ الوحدة الإنسانية وسيلة إلى تحقيق المساواة المطلقة فى الحقوق الإنسانية والواجبات الاجتماعية ، وإتاحة الفرصة الكاملة أمام كل فرد من أفراد الإنسان لينهض بعقله وروحه وجسمه إلى ذروة الكمال الإنسانى الممكن فى حدود الطاقة البشرية والاستعداد الفطرى برسم طريق السلوك الموصل إلى ذلك .

فإذا وقع التفاوت فى الحياة بين أفراد الإنسانية وجماعاتها فتخلف بعضهم لتقصير أو قصور فى استغلال وسائل الحياة الروحية أو العقلية أو الاجتماعية لم تغفله نظرية الإسلام فى نظرها إلى الوحدة الإنسانية ، ولكنها تقف مع هذا التفاوت لتتعرف إلى أسبابه وتنبه إلى نتائجه ، وتهيب بالمقصر أو القاصر أن يستعد ليلحق بالسابق المتقدم ، معتمدة على دعامة المساواة فى أصل النشأة واستعداد الفطرة ، مبينة أن التقصير والقصور عارض طارئ على الجبلة الأصيلة ، يمكن إزالته وإصلاحه ، وهى بذلك توقظ فى المتخلف من أبناء الإنسانية حمية الأنفة من عار التخلف عن الأنداد والأشباه ، وتفتح له باب العمل والنهوض بنفسه وتدنيه من الأمل فى بلوغ الغاية من حقيقة إنسانيته ، وتشعره بما عليه من الحقوق والواجبات للمجتمع الذى يعيش فيه ، وليبادله مصالح الحياة ، وتعرفه ماله قبل هذا المجتمع من حقوق وواجبات يجب عليه أن يتقاضاها ويحصل عليها مهما كان قائماً بما عليه من حقوق وواجبات .

ومن هنا كان فضل الشريعة الإسلامية على سائر الشرائع والقوانين لأنها إذ تقول إن وحدة الإنسانية فى نشأتها الأولى باعتبار المنبع حقيقة من حقائق الوجود الواقعة وتذكر قصة أبوى البشر آدم وحواء، وتجعلها المنبع الذى لا منبع سواه للبشرية كلها لا تقف عند هذا الحد ، ولكنها تتابع السير

مع هذه الوحدة فى منحدرات الزمن لتقيم دعائمها على أساس الحقيقة الكبرى لوجود الإنسان على الأرض ، وتلك الحقيقة هى خلافة الله على الأرض باقامة العدل ، والإصلاح لطرائق الحياة ، واستخراج كنوز الطبيعة واستثمار مظاهر الكون فى تحقيق أكبر قسط من الخير لتشعر الإنسان منذ اللحظة الأولى لوجوده أنه بحكم إنسانيته مخلوق كريم على خالقه ، مفضل على كثير من خلقه: «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا»(١) . وأنه بهذا التفضيل مختار لعمارة الكون وتسخير الطبيعة لينتفع بما فيها من قوى عنصرية فى بناء الحضارة ، ليكون ذلك وسيلته إلى تعرف عظمة الله وباهر وقدرته وعظيم سلطانه ، فيعرف نعمة الله عليه باصطفائه وتفضيله بما جبله عليه من استعداد فطرى للترقى فى مدارج الكمال الإنسانى .

وهذا معنى يشمل كل إنسان فى الوجود ، لا يخص فرداً دون فرد ، ولا أمة وشعباً دون أمة وشعب ، ولا طبقة دون طبقة ، فالناس فى الواقع سواسية فى حقيقة الإنسانية ولا يقع التفاوت بينهم إلا بسبب الانحراف عن هذه الحقيقة التى تجمعهم .

وقد اعتبر الإسلام هذا الواقع ، ولم يهدره ، ولم يغض من شأنه ، بل قدره حق قدره ، فجعله وسيلته فى تحقيق المساواة الإنسانية بين كافة الناس فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات .

وجعله أساساً فى القضاء على نظام الطبقات الذى كان معمولا به قانوناً ، ومعترفاً بوجوده عرفاً فى شرائع وأعراف الأمم والشعوب التى سبقت شريعة الإسلام .

---

(١) سورة الإسراء آية ٧٠ .

ثم اتخذه دعامة فى تقدير التفاوت الاجتماعى والفكرى بين الأفراد والجماعات فيما هو خارج نطاق الحقيقة الإنسانية من كل ما يكتسب بتأثير البيئة وإتاحة الفرص الموجهة .

ثم عول فى هذا التقدير على العمل الذى يؤديه كل إنسان لخدمة المجتمع الذى يحيا معه.

خصائص الوحدة الانسانية فى القران الحكيم :

عرض القرآن الكريم لوحدة المنبع الإنسانى . ونشأة الإنسانية فى صور شتى ، وألوان مختلفة من التعبير ، وضروب متعددة من الأساليب ، وله فى كل صورة لفتات إلى دقائق من المعانى التى توقظ الشعور الإنسانى وتوجهه إلى رعاية الموجبات الاجتماعية لهذه الوحدة ، وله فى كل لون من ألوان التعبير نسق فى وضع الألفاظ وتخيرها يوحى بما لهذه الوحدة من سمو فى ربط الإنسانية بوشيجة الإخاء ، وله فى كل ضرب من ضروب أساليبه نفحات من الإعجاز المعبر عن الخصائص التى امتاز بها فى الاعتماد على هذه الوحدة لتحقيق المساواة المطلقة بين كافة أبناء البشرية .

وأول صورة تسبق إلى صدارة البحث هى قصة خلق آدم وحواء أبوى البشر وأصل الإنسانية وهى القصة الوحيدة التى عرضت لها المذاهب والنحل والشرائع الأخرى فى صدد الكلام على أصل البشرية ووحدة منبعها .

والقرآن الحكيم يعرض لهذه القصة باعتبارها الحقيقة الأولى فى إبراز الإنسانية بنوعها الموحد الذى أشبه دوحة عظيمة نشأت من بذرة واحدة ،

ثم استعظمت بأفنانها وأغصانها حتى ملأت الفضاء فوقع منها فنن فى مواجهة أشعة الشمس فتأثر بها تأثراً لم يفقده صلته بأصل الدوحة ، ووقع منها غصن فى الظل فتأثر بجوه تأثراً لم يسلبه قوة استمداده من جذور منبعه ، وهكذا اتجه كل غصن وفنن إلى الوجهة التى أتيحت له فى البيئة والحياة التى تحيط بهذه الدوحة ، ولكنها جميعاً تستمد من طبيعة الدوحة عناصرها المكونة لحقيقتها الأصيلة .

وقصة خلق أبوى البشر ، آدم وحواء ، عرض لها القرآن العظيم فى عدة مواضع منه فى أسلوب متفاوت بين الإيجاز المعجز والإطناب المفحم ، يذكر فى بعض تلك المواضع ما يطوى فى الآخر ، ويضمر هنا ما يذكر هناك من المعانى والمقاصد ، حملا للاحق على السابق ورداً للأول على الثانى ، جمعاً بين المعانى المتوافقة، والقرآن يشرح بعضه بعضاً،وهو فى وحدة معانيه كالكلمة الواحدة المعبرة عن معنى مقصود لا يؤدى بغيرها وأول صورة لهذه القصة وردت فى مطلع القرآن العظيم فى صدر السورة الثانية من ترتيب المصحف ، أى السورة الأولى بعد فاتحة الكتاب وهى سورة البقرة ، أطول سور القرآن الكريم وأكثرها قواعد وأحكاما تشريعية .

خلافة الانسان فى الارض :

وفى شأن هذه القصة يقول الله تعالى فى أول نص من الآيات فى ترتيب البيان القرآنى عرضت لها: « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم

فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض . وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون »(١) .

سيقت هذه الآيات الكريمة مساق الامتنان بنعمة من أجل نعم الله على الإنسان باعتبار جنسه العام ، وباعتبار أفراده عقيب آية أخرى جاءت أيضاً بمجيء الامتنان بنعمة لاحقة فى الوجود لهذه النعمة ، سابقة عليها فى الاعتبار الاستدلالى الذى قصد به ربط الحقائق الكونية بحقيقة الإنسانية، ليتخذ العقل الإنسانى من هذا الربط طريقاً إلى المعرفة العليا ، معرفة الخالق وعظيم قدرته ، وذلك قوله تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً »(٢) . وقد جعل الله هذا الخلق برهاناً يعتمد على الحس والمشاهدة لإقرار العقل بأعضل قضية إنسانية تلك هى قضية النشأة الأخرى : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون »(٣) وهذا تعجيب من الله تعالى سيق لبيان أن الكفر بالله وجحود خالقيته أمر بالغ الغرابة يقتضى عجب العقلاء ، ولا سيما مع العلم بما مر ويمر فيه الإنسان من أطوار نشأته الأولى والأخرى ، ذلك العلم الذى يعتمد على الحس التجريبى بالاستقراء الذى لا يقبل الاستثناء ، وقد انتقل القرآن الكريم من دليل الأطوار النشئية إلى دليل الامتنان بالنعمة جرياً على طريق الترقى فى الاستدلال ، لأن دليل الامتنان بالنعمة أقرب إلى الحس والمشاهدة ، وأدعى لجذب النفس على التأمل ، والاستجابة خصوصاً وأنه اشتمل على عناية بالغة فى تعميم النعمة وعموم المنعم عليه .

قال الإمام الرازى : وما أحسن ما راعى الله سبحانه وتعالى هذا

---

(١) سورة البقرة آيات ٣٠ — ٣١ — ٣٢ . (٢) سورة البقرة آية ٢٩ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٨.

الترتيب ، فإن الانتفاع بالأرض والسماء إنما يكون بعد حصول الحياة ، فلهذا ذكر الله أمر الحياة أولا ثم أتبعه بذكر السماء والأرض .

ولما استحكم الاستدلال بشقيه فى الآيتين السابقتين وكان ذلك كالإعداد المتطلع إلى معرفة حقيقة النشأة الأولى للإنسان ، اتبع الله تعالى ذلك بذكر نعمة عامة وكرامة تامة بذكر خلق الإنسان وتكرمته والإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع والولد كما قيل سر أبيه .

القصة قطعية الوقوع

المتعليم والتشريف :

وهذا القول من الله تعالى للملائكة فى آيات خلق الإنسان وتكريمه بالخلافة فى الأرض إخبار من الله لملائكته بطريق الوحى ، بقضية كائنة فى غيب العلم الإلهى . حان وقت إبرازها لعيان الحس ، إعلاماً لهم بأن الفيض الإلهى دائم الإسباغ لا ينفد ولا ينقطع ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء — فلا هو حديث مشافهة وتشاور — تعالى عما يقول الجاهلون علواً كبيراً — ولا هو رموز وتمثيل كما يزعمه المتعاقلون .

والمقتضى لهذا الإخبار هو أولا : الإنعام بترقى الكمال الملائكى بزيادتهم فى العلم بشأن من شئون الله الكونية ، والملأ الأعلى دائم الترقى بما يفيضه الله تعالى على طبيعتهم الروحانية من مظاهر الجود .

ثانياً : التعرف بمن اصطفاه الله لخلافته وإظهار كرامته وفضله ، فلما سمع الملائكة أن هذا الكائن خليفة الله فى أرضه استخبروا ربهم عن شأن هذه الخلافة ليعلموا علمها ويعرفوا حالها ، أهى خير محض لا شر فيه كما هو شأن الملائكة ، أم هى خير مشوب بالشر ، وأفردوا الاستخبار صراحة

عن جانب الشر وهو الذى لا تعرفه طبيعتهم الخيرة ، تلك الطبيعة العابدة المسبحة بحمد الله المقدسة لجلاله ، لأن هذا الجانب المستخبر عنه هو الذى يخافون كونه إعظاماً لمقام الألوهية أن يعصى الله فى أرضه وله عباد مكرمون، يسبحونه الليل والنهار لا يفترون . وحدثوا عن أنفسهم بأوصاف عبوديتهم تحدثاً بنعمة الله عليهم فأجيبوا عن هذا الاستخبار بما وقفهم عند مخلوقيتهم ، وبيان أن علمهم مهما عظم فإنه لا يحيط بشىء من علم الله إلا بإذنه .

معنى خلافة الانسان فى الأرض وحكمة اختياره لها

ومعنى كون الإنسان خليفة ، أنه خليفة الله فى أرضه استخلفه فى عمارة الأرض وسياسة الخلق ، وتكميل نفوس بعض البشر ، وتنفيذ أوامر الله وأحكامه فيهم ، وهذه الخلافة فى الإنسان بهذا المعنى هى رسالة الكملة من البشر ممثلة فى الأنبياء والمرسلين وورثتهم من العلماء والحكماء واهل الحل والعقد من الأمراء والولاة المقسطين ، تلك الرسالة لا تنقطع آثارها من الأرض ما دام الإنسان على ظهرها ؛ لأن الإنسان هو روح العالم وعماده المعنوى بمقتضى طبيعة إنسانيته لأنه وسط بين جوهرين : جوهر مادى مظلم حيوانى ، وجوهر رفيع منير يلحقه بالملائكة المقربين . فهو يجمع قوى العالم العلوى والأرضى بعقله ومعارفه وأخلاقه الفاضلة وبغرائزه الحيوانية .

قال الآلوسى : فى تفسير قوله تعالى : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) ومعنى كون آدم خليفة أنه خليفة الله تعالى فى أرضه ، وكذا كل نبى ، استخلفهم فى عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم ، لا لحاجة به تعالى ، ولكن لقصور المستخلف عليه ، لما أنه فى غاية الكدورة والظلمة الجسمانية ، وذاته تعالى فى غاية التقديس ، والمناسبة شرط فى قبول الفيض على ما جرت به العادة الإلهية ، فلابد من متوسط ذى جهتين : تجرد وتعلق ، ليستفيض من جهة ويفيض بأخرى ... ولم تزل تلك

الخلافة فى الإنسان الكامل إلى قيام الساعة ، بل متى فارق هذا الإنسان العالم مات العالم لأن الإنسان روحه الذى به قوامه ، فهو العماد المعنوى للسماء ، والدار الدنيا جارحة من جوارح جسد العالم الذى كان الإنسان روحه ، وفائدة قوله تعالى : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) للملائكة تعظيم شأن المجعول وإظهار فضله بتعريفه للملائكة وبيان قدره .

ثم قال : (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) استكشاف عن الحكمة الخفية وعما يزيل الشبهة .

إن نفس الإنسان مجمع الموجودات فمن عرفها فقد عرف الموجودات ، ولذلك قال الله تعالى : « أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون »[1] ، تنبيهاً على أنهم لو تدبروا أنفسهم وعرفوها عرفوا بمعرفتها حقائق الموجودات فانيها وباقيها وعرفوا حقيقة السموات والأرض ، ولما أنكروا البعث الذى هو لقاء ربهم ، ومن عرف نفسه عرف أن يسوسها ومن أحسن أن يسوس نفسه أحسن أن يسوس العالم فيصير من خلفاء الله المذكورين فى قوله تعالى : (ويستخلفكم فى الأرض) .

ثم قال : الإنسان من بين الموجودات مخلوق خلقة تصلح للدارين ، وذلك أن الله تعالى قد أوجد ثلاثة أنواع من الأحياء ، نوعاً لدار الدنيا ، وهى الحيوانات ، ونوعاً لدار الآخرة وهو الملائكه الأعلون ، ونوعاً للدارين وهو الإنسان ، فالإنسان واسطة بين جوهرين : وضيع وهو الحيوانات ، ورفيع وهو الملائكة ، فجمع فيه قوى العالمين ؛ وجعله

---

(١) سورة الروم آية ٨ .

كالحيوانات فى الشهوة البدنية والغذاء والتناسل والمهارشة والمنازعة وغير ذلك من أوصاف الحيوانات، وكالملائكة فى العقل والعلم وعبادة الرب والصدق والوفاء، ونحو ذلك من الأخلاق الشريفة.

ووجه الحكمة فى ذلك أنه تعالى لما رسخه لعبادته وخلافته وعمارة أرضه وهيأه مع ذلك لمجاورته فى جنته، اقتضت الحكمة أن يجمع له القوتين، فإنه لو خلق كالبهيمة معرى عن العقل لما صلح لعبادة الله تعالى وخلافته .. ولو خلق كالملائكة معرى عن الحاجة البدنية لم يصلح لعمارة أرضه، كما لم يصلح لذلك الملائكة حيث قال فى جوابهم: «إنى أعلم مالا تعلمون»(١).

وقال الأستاذ محمد حسنين محمد مخلوف الكبير فى تعليقته على الجزء الرابع من موافقات الشاطبي: «وسؤال الملائكة إنما وقع لاستكشاف الحكمة وإزالة الشبهة التى أثارها فى نفوسهم ما فهموه من اسم الخليفة، وما يقتضيه اختلاف طبائعه وتركيب أمزجته، وليس المقصود منه التعجب والتفاخر والاعتراض، حتى يضر بعصمتهم، كما قيل، ولو كان كذلك لما كان الجواب بهذا التلطف والإقناع المفيد، قال تعالى: (إنى أعلم مالا تعلمون) فقد أقرهم على ما فهموه من الاسم الشريف، وأرشدهم بقصور علمهم إلى ما انطوى تحت سره المنيف، وأظهر لهم من شأنه بتعليم آدم مالم يعلموه ولن يعلموه، فازدادوا بذلك علماً ويقيناً، وفهموا أنه الصالح للخلافة دونهم، فإن خليفة الله فى عمارة أرضه وسياسة خلقه، وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم يجب أن يكون جامعاً بين التجرد والتعلق، حافظا للنسبتين، وذلك لا يكون ملكا وإنما يكون بشراً، وآدم عليه السلام هو المجلو له سبحانه والجامع لصفتى جماله وجلاله ومن هنا قال الخليفة الأعظم ﷺ: «إن الله

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠.

خلق آدم على صورته أو على صورة الرحمن ، وبه جمعت الأضداد وكملت النشأة وظهر الحق .

وفائدة إخبار الملائكة بهذه المقالة تعظيم شأن المجعول وإظهار فضله وتعريفه للملائكة ليعرفوا قدره ؛ لأنه باطن من الصورة الكونية بما عنده من الصورة الإلهية ، وما يعرفه لبطونه من الملأ الأعلى إلا اللوح والقلم .

وفى تفسير المنار ما ملخصه : « والظاهر أن المراد بالخليفة آدم ومجموع ذريته ولكن ما معنى هذه الخلافة ؟ وما المراد من هذا الاستخلاف ؟هل هو استخلاف بعض الإنسان على بعض ؟ أم استخلاف النوع على غيره ؟

جرت سنة الله فى خلقه بأن تعلم أحكامه للناس وتنفذ فيهم على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه فى ذلك ، وكما أن الإنسان أظهر أحكام الله وسنته الشرعية ، كذلك أظهر حكمه وسنته الخلقية الطبيعية ، فيصح أن يكون معنى الخلافة عاماً فى كل ما ميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات ، وقد أعطى الإنسان قوى معنوية تتصرف بشعوره وإحساسه تصرفاً يكون له به السلطان على هذه الكائنات فيسخرها ويذللها بعد ذلك كما تشاء تلك القوة الغريبة التى يسمونها العقل ولا يعقلون سرها ، ولا يدركون حقيقتها ولا كنهها .

فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ، ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ، ولا محدود العمل ، فهو على ضعف إفراده يتصرف بمجموعه فى الكون تصرفاً لا حد له بإذن الله وتصريفه، وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب والأحكام الطبيعية ليظهر بها أسرار خليقته ، وملكه الأرض وسخر له عوالمها أعطاه أحكاماًوشرائع حد فيها لأعماله وأخلاقه حدا يحول

دون بغى أفراده وطوائفه بعضهم على بعض ، فهى تساعده على بلوغ كماله لأنها مرشد ومرب للعقل الذى كان له كل تلك المزايا ، فلهذا جعله الله خليفته فى الأرض وهو أخلق المخلوقات بهذه الخلافة ، أليس من حكمة الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، أن جعل الإنسان بهذه المواهب خليفته فى الأرض يقيم سنته ويظهر عجائب صنعه وأسرار خليقته وبدائع حكمه ومنافع أحكامه ؟

وهل وجدت آية على كمال الله تعالى وسعة علمه أظهر من هذا الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ، فلا عجب أن يكون الإنسان خليفة الله فى الأرض » انتهى(١) .

وقال فى موضع آخر : « وإنما جاء القرآن بموضع العبرة فى خلق آدم واستعداد الكون لأن يتكمل به ، وكونه قد أعطى استعداداً فى العلم والعمل لا نهاية لها ليظهر حكم الله ويقيم سنته فى الأرض فيكون خليفة له » .

العلم اشرف خصائص الإنسانية

وفى تفسير الخلافة بهذا المعنى - الذى ارتضيناه ودعمناه بالاستئناس من كلام العلماء والباحثين فى معانى القرآن ومقاصده - ما يقتضى الامتياز بخصيصة العلم المركوز فى فطرة الإنسان باستعداده الخلق الذى لاحد له ، وهو من أجل آيات الله على أن الإنسان استحق أن يكون خليفة الله فى الأرض ، لأنه أوتى من العلم والمعرفة بحقائق الكون ومن الاستعداد لتلقى أحكام الله وشرائعه فى سياسة الخلق مالم يؤته مخلوق غيره ولا الملائكة المكرمون ،

---

(١) تفسير المنار ج ١ .

فكان له بذلك عليهم فضيلة شرف الخلافة مع أنهم المسبحون المقدسون لله تعالى لايفترون بطبعهم الروحانى ، ومع أن النوع الإنسانى المختار للخلافة لابد أن يقع من بعض أفراده انحراف عن سنة الله وصراطه المستقيم ، لكن منزلة المعرفة التى لاحد لها هى الخصيصة التى امتاز بها الإنسان ، والتى رفعه الله بها فوق كل منزلة لكل مخلوق ، وهى التى نيط بها مقام الاستخلاف.

ومن هنا جاء الجواب عند استخبار الملائكة وتعرفهم صفة هذه الخلافة، وهل هى خير محض كالذى طبع عليه الملائكة من التسبيح بحمد الله والتقديس له ؟ أو للشر فيها مكان كما يقتضيه وضعها ومهمتها فى الحياة ، لأنها تقوم على سياسة الخلق بإقامة ميزان العدل الإلهى فيهم ، وتنفيذ شرائع الله وسننه فيما بينهم وتوجيههم إلى إثارة مافى ظواهر الكون من قوى الطبيعة وحقائق الموجودات تحقيقاً لنعمة التسخير الإلهى التى امتن بها على الإنسان وحده فى آية : (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً) ، وهى فى بلاغة النسق القرآنى وترتيب معانيه بوقوعها قبل آية الخلافة مباشرة آية الإعجاز النسق فى ترتيب آى القرآن ، وهو فن من فنون الإعجاز البيانى فى القرآن بعيد الغور ، لايدركه إلا الأقلون ، والله يؤتى فضله من يشاء من عباده .

وطبيعة الخلافة بهذا المعنى توحى بوقوع التنازع والتهارش والخصومات ، وتؤدى إلى التقاتل والفساد ليكون للخلافة معنى وجودى ، تتحقق فيه حقيقتها وتظهر به خصائصها العملية فى إقامة شرائع الله وإظهار سننه فى خلقه ، قال أبو عبد الله القرطبى : قد علمنا قطعاً أن الملائكة لاتعلم إلا ما أعلمت ، ولا تسبق بالقول وذلك عام فى جميع الملائكة ، لأن قوله : (لايسبقونه بالقول) خرج على جهة المدح لهم فكيف قالوا : (أتجعل فيها من يفسد فيها) فقيل : المعنى لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد إذ الخلافة

المقصود منها الإصلاح وترك الفساد .. ثم قال فى صدد الموازنة بين ماذكره فى تفسير الآية من أقوال ومذاهب للعلماء : والقول الأول — يعنى هذا الذى ذكرناه عنه ـ حسن جداً ، لأن فيه استخراج العلم واستنباطه من مقتضى الألفاظ ، وذلك لايكون إلا من العلماء ، ومراده مدح الملائكة بهذا السؤال لأنهم استنبطوه من لفظ خليفة باعتبار مقتضاه اللفظى فى اللغة لأن وصف الخلافة وطبيعتها وعملها فى الأرض يحمل فى طياته وجه سؤال الملائكة واستخبارهم ، وهم على أكمل مراتب أدب العبودية ، ليقفوا بما يسمعون من الجواب على علم مالم يعلموا ـ فأجيبوا جواباً إجمالياً بقول الله تعالى لهم على ضرب من ضروب الوحى : (إنى أعلم مالا تعلمون) ، ومعنى هذا الجواب الإجمالى أن الله تعالى أخبر ملائكته السائلين سؤال استعلام واستخبار بأن هذا الجنس من الخلق الذى أجعله خليفتى فى الأرض ركبت فيه من القوى الخفية والخصائص المعنوية والإدراكات العقلية ما يجعل الخير فيه أغلب من الشر ، وسيكون فيه من الكملة المصطفين أفـــراد يظاهرون قوى الخير ، ويسوسون الخلق بحكمة الله وتدبيره وتطبيق شرائعه، فتعلوا كلمة الحق والخير على صوت الباطل والشر ، ويسبحون بحمده تسبيحاً قائماً على ما منحتهم من الإرادة والاختيار ومجاهدة النفس ، والتغلب على الهـــوى ويقدسون لى تقديساً ناشئاً من اطلاعهم على براهين عظمتى وباهر قدرتى من بدائع كونى بما آتيتهم من العلم الذى لم آته لجنس غيرهم .

فأنا أعلم من حقيقة خليفتى وما منحته من خصائص العلم والمعرفة التى لا تحد ما لا تعلمون ، ثم أخذ فى تفصيل ما أجمل بعد استثارة بواعث الشوق والرغبة فى السائلين إلى البيان الشافى فقال : (وعلم آدم الأسماء كلها)، هكذا بأسلوب الغيبة ، والعدول عن أسلوب التكلم والمواجهة بالخطاب الذى جرى

عليه نسق الآية قبلها . (إنى أعلم مالا تعلمون) ، للإشارة إلى أن هذا التعليم مما استأثر الله به ، وتولاه بحكمته ، ليميز خليفته به فى الأرض على سائر مخلوقاته، تشريفاً لقدره بإظهار مكانه فى الاختصاص بالرعاية الربانية فى تربيته وتعليمه ، وإشعاراً للسائلين من الملأ الأعلى بأن هذا التعليم مما لم يدخل فى دائرة علمهم المحدود، فكأنه يقول: إننى أنا الذى توليت تعليم خليفتى حقائق الأشياء وصفاتها ونعوتها ، وجعلت ذلك فى فطرته وطبيعته .

وعندنا أن المراد من آدم هنا الجنس الإنسانى الذى ظهر فى فرده الكامل بحقيقة الإنسانية ليكون أنموذجاً لما يأتى بعده من سلائله الإنسانية .

والمراد من الأسماء التى علمه الله إياها حقائق الأشياء ومعانى الأسماء بمعرفة مسمياتها معرفة كاملة شاملة ، وإطلاق أسمائها عليها عند وجودها بمناسباتها ، لأن الاسم المميز للمسمى لا يطلق على الحقيقة ليميزها إلا بعد معرفة المسمى بخصائصه المميزة .

ومعنى تعليمه إياها إيداعه تعالى فى فطرة الإنسان واستعداده الخلق معانيها بما أودع فيه من القوى الفكرية والإدراكات العقلية والاستشفاف الروحى التى جعلها الله وسيلته إلى علم جميع حقائق الأشياء التى تدخل تحت الطاقة البشرية ، وتظهر فى أحيانها بالكسب والتعلم التدريجى فى أفراد الإنسان على مر الدهور والأزمان .

قال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره ما ملخصه : « من الناس من قال قوله (وعلم آدم الأسماء كلها) أى علمه صفات الأشياء ونعوتها وخواصها والدليل عليه أن الاسم اشتقاقه إما من السمة أو من السمو ، فإن كان من السمة كان الاسم هو العلامة وصفات الأشياء ونعوتها وخواصها دالة على ماهياتها ، فصح أن يكون المراد من الأسماء الصفات، وإن كان من السمو

فكذلك لأن دليل الشيء كالمرتفع على ذلك الشيء ، فإن العلم بالدليل حاصل قبل العلم بالمدلول ، فكان الدليل أسمى فى الحقيقة فثبت أنه لا امتناع فى اللغة أن يكون المراد من الاسم الصفة .

وإذا ثبت أن هذا التفسير ممكن بحسب اللغة ، وجب أن يكون هو المراد لا غيره لوجهين :

أحدهما : أن الفضيلة فى معرفة حقائق الأشياء أكثر من الفضيلة فى معرفة أسمائها وحمل الكلام المذكور لإظهار الفضيلة على ما يوجب مزيد الفضيلة أولى من حمله على ما ليس كذلك .

وثانيها : أن التحدى إنما يجوز ويحسن بما يتمكن السامع من مثله فى الجملة ... والعقل لا طريق له إلى معرفة اللغة ألبتة ، بل ذلك لا يحصل إلا بالتعلم أما العلم بحقائق الأشياء فالعقل متمكن من تحصيله — فصح وقوع التحدى فيه — انتهى(١) .

وقد نقل الشيخ رشيد فى تفسير المنار عن شيخه الأستاذ الإمام محمد عبده قوله : (علم الله آدم كل شيء ولا فرق فى ذلك بين أن يكون له هذا العلم فى آن واحد أو فى آنات متعددة ، والله قادر على كل شيء ؛ ثم إن هذه القوة العلمية عامة للنوع الآدمى كله ، ولا يلزم من ذلك أن يعرف أبناؤه الأسماء من أول يوم فيكفى فى ثبوت هذه القوة لهم معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال)(٢) .

ولما كان آدم باعتباره الفرد الكامل فى حقيقة الإنسانية — كنموذج ممثل لها فى حقيقة الخلافة فى الأرض — هو البذرة الأولى لدوحة البشرية ،

---

(١) تفسير الرازى ج ١ .   (٢) تفسير المنار ج ١ .

كانت جميع الحقائق التى تظهر فى مستقبل الحياة على أيدى ذريته كامنة فيه ، كما تكمن خصائص الدوحة العظيمة قبل وجودها فى بذرتها التى تنبت منها .

وقد أظهر الله للملائكة ما أودعه فى نفس آدم من الحقائق الكونية ، والسنن الإلهية ، والعلوم والمعارف التى ستظهر على أيدى ذريته من بعده تدريجاً تبعاً لمقتضيات الحياة ، ليكون ذلك جواباً تفصيلياً عملياً مشهوداً للملائكة،الذين استخبروا عن شأن الخلافة فى الأرض وحال الخليفة القائم عليها ، بعد الإجابة الإجمالية التى ردت العلم المحيط إلى الله تعالى وحده ، وفى هذه الإجابة إلى جانب الإعلام والتعليم تعريف بقدر من اصطفاه الله لخلافته وإبراز لفضله وشرفه .

فلما علم الملائكة ما لم يكونوا يعلمونه ، واطلعوا على ما كان محجوباً عنهم من شرف الجنس المنتخب للخلافة قاموا على ساق أدب العبودية ، يسبحون الله تعالى ، ويردون إليه العلم المحيط ويتبرءون أن يكون من صفاتهم العلية ادعاء ما لم يكن لهم ، مثنين على الله بما هو أهله من وصفه بالعلم المحيط ، والحكمة النافذة « قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » .

ومن آفاق آداب العبودية هبت عليهم نسمات الإنعام بتنزل الإذن لأنموذج الخلافة بتكميل الفضل عليهم ، وإعلامهم بما عرض عليهم من حقائق الأشياء إجمالا ليذكروا خواصها ومميزاتها وأسماءها المعبرة عن تلك الخواص والمميزات ، وكانوا بها غير عالمين : « قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .

وهذا القول أيضاً هو من قبيل الوحى بضرب من ضروبه ، والمراد أن الله أوحى إلى آدم أن يخبرهم بنعوت الأشياء التى عرضت عليهم وصفاتها الدالة على حقائقها كما هى مركوزة فى فطرته واستعداده الخلقى ، فما أنبأهم آدم بما أفاضه الله عليه وظهر به شرفه وفضله ، وقرت عين الحقيقة فى أنفس السائلين . قال الله جل وعلا للملائكة بضرب من ضروب الوحى العام أو بما جبل عليه الملائكة من المعرفة والفهم عن الله ، ألم أقل لكم إن علمى محيط بغيب السموات والأرض،فأعلم حال من اصطفيته لخلافتى فى أرضى كما أعلم حال غيره من مخلوقاتى قبل أن تخلق ، وأعلم ما تبدون من التطلع إلى معرفة الحقيقة باستخباركم عن أمر الخلافة فى الأرض وأعلم ما كنتم تكتمون من تخوفكم أن أعصى فى أرضى بنعمتى حينما أعلمتكم أنى جاعل فى الأرض خليفة يقوم على تنفيذ أحكامى وتحقيق حكمى وسنتى فى الكون .

شرف النوع الانسانى :

وهذا كله يدل دلالة قاطعة على مزيد شرف النوع الإنسانى وإظهار فضيلة اصطفائه لخلافة الله فى الأرض ، وبيان أنه إنما ألبس خلعة الخلافة عن الله تعالى دون الملائكة المكرمين المسبحين بحمد الله ، المقدسين له لما جبل عليه من فضيلة العلم والمعرفة التى لا تعلوها فضيلة من الفضائل التى قسمها الله تعالى بين خلقه .

وتفضيل الإنسان بالعلم والمعرفة عام شامل لجميع أفراده بمقتضى الاستعداد الفطرى ، يتساوى فيه جميع من تحقق فيه حقيقة الإنسانية كاملة، دون أن تعترضها عوارض طارئة بتأثير البيئة والمجتمع ، أو لنقص فى الخلقة والطبيعة .

والتفاوت الذى يظهر فى آفاق الأفكار الإنسانية ليس تفاوتاً ذاتياً يرجع إلى حقيقة الإنسانية، ولكنه تفاوت عارض بقدر مايتاح من الفرص لانطلاق العقل البشرى فى أجواز التأمل، والانتفاع بظواهر الكون، وتجارب الحياة ونفثات الطبيعة.

وبهذه الفضيلة الشريفة المنيفة علا شأن الإنسان فوق شأن الملائكة المكرمين، حتى أقامه الله تعالى منهم مقام الأستاذ والمعلم، فعلمهم من أمر الله فى شأنه وشأن الكون معه وشأنه مع الكون ما لم يكونوا يعلمون، فاستوجب منهم — بفضل الله وإحسانه إليه — التكريم والتعظيم، وأمرهم بالسجود له سجود تشريف واعتراف بفضله عليهم وعجزهم عن بلوغ درجته فيما وهبه الله من العلم الذى جعله مناط خلافته عنه فى خلقه، يقيم فيهم سننه وينفذ فيهم أحكامه وشرائعه، وهكذا جاءت قصة إسجاد الله تعالى ملائكته لآدم نموذج الإنسانية الكامل عقيب قصة خلافته عن الله فى أرضه تتميماً لإظهار فضيلة النوع الإنسانى فى شخص منبعه الأول ومنشأه الأصيل.

قصة الحسد والكبر فى موقف ابليس:

وجاءت بعدها قصة إبليس وإبائه السجود لآدم مع الملائكة المكرمين جحوداً لحكمة الله تعالى فى خلقه، فعميت بصيرته عن إدراك مناط التفضيل والخيرية منحدراً إلى حمأة العنصرية المادية المكونة لهذه الأشباح النارية والطينية، وضالا عن إدراك سر قول الله تعالى لملائكته: (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) بعد أن أخبرهم بالنبأ العظيم: (إنى جاعل فى الأرض خليفة) فقول الله تعالى: (ونفخت فيه من روحى) كان حرياً أن يهز مشاعر الإدراك عند كل من يسمع هذا الخطاب، ويحرك أحاسيس الفهم عن الله تعالى عند سائر أولى الألباب، ويفتح باب التلقى عن

الله لخطابه الشريف بذل العبودية ورضا التسليم ، ولكن من يضلل الله فلا هادى له ، فأبى إبليس أن يكون مع الساجدين ، واستكبر فى الأرض بغير الحق ،حسداً وبغياً، واحتج لضلالته بجهالة عمياء :«قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين »[١] ، وبيان جهالته فى احتجاجه أن المخلوق من الطين هو الشبح المادى الذى قيل فيه : «فإذا سويته »[٢] وبقيت وراء ذلك القضية الكبرى التى هى مناط الشرف والفضيلة وموضع العلم والمعرفة :(و نفخت فيه من روحى)، وفى هذه الإضافة أسرار لو فتح لإبليس منها منفذ سم الخياط لأسرع إلى السجود مع الساجدين،ولو لم يطمس الله تعالى على بصيرته،ويسلبه ما كان أعطاه من نور ناره لكان فيما دون هذه الإضافة مقنع له،وكان بحسبه أن يقال : (ونفخت فيه روحاً) فما بالك والله الخلاق العليم يقول:(ونفخت فيه من روحى) بإضافة التكوين وهى أعلى وأشرف،وهى المرادة فى نشأة السلالة فى أكمل أطوارها فى قوله تعالى:(ثم أنشأناه خلقاً آخر) مما استوجب الثناء الأكرم من الله العلى العظيم على نفسه بما هو أهله تعليماً لخلقه فى معرفة إنعامه بقوله : «فتبارك الله أحسن الخالقين»[٣] ولو لم يذهب الحسد بلب إبليس ويظلم الكبر قلبه لما أبدى عوار جهله بهذه الشبهة التى تتضاءل افتضاحاً أمام الحجة النيرة التى تسطع بنور الحق فى أفق الحقيقة اتضاحاً .

ولو تأمل بعين الإنصاف فى مجرد قول الله تعالى : (سويته) لوجد فيه إشارة إلى ما أتحف الله تعالى به خليفته من الرعاية الخاصة ، والعناية الكاملة ، خصوصاً إذا مد رواق التأمل إلى ماجاء مفسراً لها من قوله تعالى:

---

(١) سور الأعراف آية ١٢ .
(٢) سورة الحجر آية ٢٩ .
(٣) سورة المؤمنون آية ١٤ .

« ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى »(١) فجرد الخلق المشرف بهذا القيد (بيدى) حتى مع ملاحظة الأصل الطينى للشبح الآدمى الذى تشبث به إبليس فى احتجاجه ، مفيد لمزيد الرعاية وبديع العناية بالاختصاص الأكمل بما يقتضى بنفسه أعظم الشرف والفضل .

ولكن حكمة الله التى شرفت نموذج النوع الإنسانى الأول فى نشأته قضت أن تجعل إلى حزائه فى هذه الحياة نموذجاً للشر والإضلال ، فجعلت من إبليس هذا النموذج الشرير ، وجعلت من جنده سلائل للشر والإفساد فى الأرض ليكون مقام الخلافة بين الخلق مقام الجهاد فى تحقيق سنن الله تعالى وتنفيذ شرائعه ، وهى فى ظاهرها محنة وفى حقيقتها محنة وتشريف ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، ومن ثم زاوج القرآن الكريم بين قصة النشأة الإنسانية الأولى ممثلة فى آدم أبى الإنسانية ومنبعها الأول ونموذجها الأصيل ، وقصة إبليس وذريته مع النوع الإنسانى منذ نشأته ، بعد أن أنهى الكلام فى قصة الملائكة المكرمين الذين استعلموا عما لم يكونوا يعلمون من شأن هذا الخلق العظيم الذى أنبئوا بظهوره فى الوجود مختاراً لمنصب الخلافة عن الله فى الأرض ، ففهموا عن الله تعالى حكمته ، مسرعين إلى سرادق العبودية يعتصمون به ، متجاذبين الثناء على الله عز شأنه : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم »(٢) ولهذا لم يكن فى قصة الخلافة هنا ذكر للأصل المادى الذى خلق منه آدم ، لأن دعامة شرف الخلافة تقوم على فضيلة العلم والمعرفة ، وهى خصيصة العقل الإنسانى وليس للأصل المادى مدخل فى حقيقة العقل ومدركاته ، لأن

---

(١) سورة ص آية ٧٥ . (٢) سورة البقرة آية ٢٣ .

العقل قوة من قوى الروح الأعلى المشار إليه بقوله تعالى : (ونفخت فيه من روحى) .

بيد أن هذا الأصل المادى جاء ذكره بأطواره المختلفة فى نصوص المزاوجة بين قصتى آدم وإبليس فى سورة (الأعراف) وسورة (الحجر) وسورة (الإسراء) وسورة (ص) وفى هذه المواطن عرض القرآن لما عرض له فى أعقاب قصتى الخلافة والمزاوجة بين قصتى آدم وإبليس من إسكان آدم الجنة ، ومكر إبليس به حتى أخرجه منها إلى حياة الكفاح والجهاد أداء لحق الخلافة ، وذلك تقدير العزيز العليم .

اطار القصة فى القرآن:

على هذا النسق المحكم ، وفى هذا الأسلوب البيانى المعجز ، وفى هذه الصورة البالغة ذروة الروعة والجمال ، وفى هذه البراعة من البيان ، ساق القرآن العظيم قصة النشأة الإنسانية فى خلق منبعها الكريم ،ونموذجها الكامل فى حقيقتها ، المستجمع لجميع خصائصها ، المستكمل لكافة فضائلها بفطرته واستعداده الجبلى ، الذى انحدر منه فى الأصلاب والترائب وراثة لذريته فى أقطار الحياة ولحظات الأزمان ، ليظهر فى مناسباته ودواعيه جبلة واكتساباً ، تحقيقاً لحقيقة الخلافة التى نيطت به ، قائمة على دعامة الروح والعقل والعلم ، والمعرفة ، حقاً مشاعاً بين كافة أفراد البشر أينما وجدوا وحيثما حلوا ، لايعترض سبيلهم فيه اختلاف الأزمنة والأمكنة ، ولا اختلاف اللون أو اللسان ، ولا اختلاف النحل والمذاهب ، ولا اختلاف العقائد والأديان ، ولكل فرد منهم حظه من الحقيقة الإنسانية على حسب ماأوتى من إشراق الروح ، وتوثب العقل فى إدراك الحقائق الكونية وظواهر الطبيعة وتجارب الحياة .

وفى هذا المجال موضع للتأمل ، ذلك أن المعروف فى أيدى الناس من الكتب السماوية — حاشا القرآن الكريم — قد عرض لقصة نشأة الإنسانية فى خلق آدم أبى البشر عرضاً ساذجاً ، جعلها جسداً لاروح فيه وشبحاً لا حراك به ، كما عرض لهـــا غير الكتب السماوية من دواوين التاريخ القديم ، وروايات أساطير الأمم الغابرة ، وأحاديث أمجادها المصنوعة فى أسلوب خيالى ، أخرجها عن دائرة الحقائق الواقعة إلى أحاديث الأسمار والأباطيل ، والنظر الموازن يستطيع أن يدرك من أقرب طريق وأيسره مقدار ما للقرآن العظيم من فوق فى أسلوب عرض الحقائق ، وبراعة فى الأداء ، وسمو فى الفكرة ، لا يلحق سابقه ولا يشق غباره ولا يدرك هدفه .

وقد أعطينا القارئ المتأمل صورة تفصيلية لفكرة الإسلام فى نشأة الإنسانية من النص القرآنى ، وما نيط بها من خلافة الله فى الأرض ، لتكون لها بمقتضى هذه المرتبة العلية سيادة الكون المسخر لها ، بما منحت من قوة العقل وفضيلة العلم والمعرفة . جبلة واكتساباً فى كل فرد من أفراد الإنسانية على سنن سواء ، لأن الإسلام يستهدف من سوق قصة النشأة الإنسانية الإشعار بوحدة الإنسانية فى خصائصها وأهدافها ، لتتعاون على إقامة حياة متكافلة تكافلا أخوياً ، يعمل فيها كل فرد ، ويتحمل مسئولية عمله بقدر ما أتيح له من فرصة الإعداد والاستعداد ، وبقدر ما منح من قوة مادية وروحية لتحقيق ما خلق لأجله النوع الإنسانى من سيادة الكون ، بكشف أسراره ، واستخدام عناصره ، وظواهره الطبيعية فى تأكيد سنن الله وإبراز حكمته فى خلقه ، ومعرفة صفاته المقدسة ، ومظاهر أسمائه الحسنى فى باهر قدرته وعظيم سلطانه بوساطة العقل واستخدام العلم للحصول على

أكبر قسط من المنافع المادية والروحية التى ترقى بالإنسان فى هذه الحياة إلى أقصى ما يمكن من الكمال الإنسانى .

الاسلام يشجع الخصائص الانسانية
العليا فى الأفراد والجماعات

وليس من المعقول أن يقرر الإسلام بهذه الفكرة أبرع صورة للمساواة بين أفراد البشرية ، ويقيم أمتن دعائم الإخاء الإنسانى ، ثم يقف فى سبيل أى فرد من أفراد الإنسانية يستطيع أن ينهض بالحياة ، ويحقق رسالة الخلافة عن الله تعالى فى الأرض ، وقد عرفنا أن رسالة الخلافة فى الأرض منوطة بالعلوم والمعارف عن طريق انطلاق العقل من أغلال الجمود والتقليد .

ولهذا كانت الحقوق والواجبات التى تقتضيها الحقيقة الإنسانية واحدة فى نظر الإسلام — بالنسبة لجميع الأفراد ، لا اختلاف فيها ولا امتياز لفرد على فرد لأى سبب من الأسباب ، وإنما الاختلاف والامتياز فى العوارض الطارئة من أثر البيئات والمجتمعات ، فمن حق كل فرد فى النوع الإنسانى أن يحيا حياة إنسانية كريمة فى هذه الحياة ، ويعيش فيها عيشة محترمة . آمناً على نفسه وماله وعرضه ، فى دائرة عمله وظروفه وبيئته ومجتمعه ، وعلى كل إنسان واجبات إنسانية تقابل ما له من حقوق قررتها شريعة الإسلام تحقيقاً للتكافل الأخوى ، ويجب عليه أن يؤديها للمجتمع الذى يعيش معه ، وللحياة التى يحياها مع الناس والأشياء ، هذه المساواة الإنسانية فى الحقوق والواجبات ، وتلك الدعائم الأخوية التى يقوم على أساسها التكافل العام هى هدف الإسلام من إشعار الإنسانية بوحدتها فى منبعها الأول ، بسوق قصة منشأها فى هذه الصورة بألوانها المتسقة مع الإطار الذى وضعت فيه ، ولذلك لم يقف

الإسلام فى عنايته بتحقيق هذا الهدف النبيل عند حـــد سوق قصة النشأة الإنسانية ، بل اتخذ من هذه القصة وسيلة لإيقاظ الضمير الإنسانى فى الأفراد والجماعات ، إلى الإيمان بالمساواة فى الحقوق والواجبات الإنسانية بين أفراد البشر كافة ، كحقيقة واقعة لاسبيل إلى إنكارها ، أو التمادى فيها ، وكحقيقة نابعة من وشيجة الإخاء الحقيقى الذى ينميه أصل واحد ، كانت منه السلائل الإنسانية فى نظام جنسى ولادى موحد ، فى مدى مامضى من الدهور ومايجىء من الأحقاب إلى انتهاء هذه الحياة الدنيا .

عناية القرآن بإبراز مبدأ المساواة
بين أبناء الإنسانية عامة

وقد عنى القرآن الكريم بتدعيم الإيمان بهذه المساواة الأخوية بين الأفراد والجماعات كمبدأ أساسى فى آيات كثيرة من سوره ، وجه فيها الحديث إلى الإنسان باعتباره الفرد المكلف الذى تحققت فيه حقيقة الإنسانية وخصائصها ، والذى نيط به تنفيذ مقتضيات الخلافة عن الله تعالى باعتبارها نظاماً يكفل العدالة والسلام والأمن ، ويحقق أكبر نصيب من الخير العام لكافة خلق الله على هذه الأرض المستخلف فيها . وقد سيقت تلك الآيات كلها فى الترتيب القرآنى بعد تدعيم أسس الوحدة الإنسانية فى قصة النشأة الأولى ، غير آية واحدة تقدمت على قصة النشأة فى ترتيب التلاوة : « يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون »(١) .

ومن عجيب البيان القرآنى أنه جعل السابق فى الترتيب الوجودى وهو قصة خلق المنبع الإنسانى وأصل نشأته لاحقاً فى الترتيب البيانى ، ليخرج اللاحق مخرج الامتنان العام على كافة المخاطبين من أفراد الإنسان بما تضمنه

---

(١) سورة البقرة آية ٢١ .

من نعمة الخلافة فى الأرض ، والتذكير بموجباتها فى صدد الأمر التكليفى بأفراد الله تعالى بمقام الربوبية الخلاقة التى منها المبدأ والنشأة وإليها المعاد والمرجع ، ليكون هذا الامتنان برهاناً وجدانياً يؤكد عن طريق العواطف البشرية والاعتراف بالفضل والإحساس البراهين العقلية فى الأنفس والآفاق .

ولهذا ساق آية الخطاب التكليفى العام : (يأيها الناس اعبدوا ربكم) قبل آيات النشأة الإنسانية فى قصة خلق أبى البشر آدم عليه السلام ، وأبرز فيها الخطاب بطريق النداء بأعم عنوان يشمل أفراد الإنسان : (يأيها الناس) .

وطلب منهم جميعاً دون استثناء أن يفردوا بالعبادة الله الذى رباهم على موائد فضله وإحسانه ، قبل أن يتنسموا نسمات الوجود الحسى فى صورة البشر السوى ، وأدام لهم هذه التربية والتعهد بعد أن سواهم فى أحسن صورة وأبدع تقويم ، ولفتت الآية نظر الإنسان فى أفراده إلى نشأتهم فى بطون أمهاتهم ، وأنها خلق الله وإبداعه يستوى فيها الحاضرون والغابرون واللاحقون، وجعل القرآن الكريم آية الخطاب العام وطلب العبادة ببرهانها أساساً فى السياق البيانى ، وجعل قصة النشأة الآدمية منتظمة فى سلك العقد البرهانى ، بطريق الامتنان على جميع المخاطبين ، بنعمة جعل النوع المخاطب فى عموم أفراده خليفة الله فى أرضه فكأنه قيل يأيها الناس ، بهذا العنوان الإنسانى ،ليس غير ، أفردوا بالعبادة الله الذى تعهدكم بألوان التربية ، ونمى أرواحكم وعقولكم وأبدانكم بإحساناته وفواضله لأنه ربكم الذى خلقكم وخلق الذين من قبلكم إبداعاً بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، وهذا إشارة إلى برهان الأنفس المذكور فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا

تبصرون)[١] وهو برهان يوشك أن يكون حسياً مشهوداً لكل إنسان ، لقربه من موطن التأمل والفهم ، ولهذا عقبه وحده بأطماعهم فى تقوى الله ذى الجلال والإكرام وصاحب الطول والإنعام ، ثم ذكر بعده برهان الآفاق : « الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم »[٢] ، جمعاً بين طرفى الحجة لتستقيم النتيجة : (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) صدق ما دعاكم إليه ربكم من استحقاقه التفريد بالعبادة بما قدمه إليكم وهز نفوسكم للنظر فيه ، من قاطع البرهان فى الأنفس والآفاق ، وهو المشار إليه بطرفيه فى قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »[٣] .

من لطائف النظم البيانى

فى القرآن العظيم

وحكمة هذا السياق البيانى فى القرآن العظيم ، الذى تقدمت فيه آية الخطاب التكليفى العام الشامل لجميع أفراد النوع الإنسانى ، بعنوانهم المحيط بكافة أفراده على آية النشأة الأولى بخلق آدم أبى البشر ، واصطفائه وسائر ذريته لمنصب الخلافة عن الله تعالى فى الأرض ، أنه أريد به — فيما يظهر لنا — الإشارة إلى أن التكاليف التشريعية ، وأساسها التوحيد ، ومعرفة الله تعالى لا يعرف فيها الإسلام فى شأن الخطاب بها وطلبها تكليفاً يتجاذب فى عاقبة أمره الثواب والعقاب ، تخصيصاً فردياً أو طبقياً ، أو طائفياً ، تحقيقاً للوحدة فى التكليف تبعاً للوحدة فى أصل النوع والنشأة ، والتكليف

---

(١) سورة الذاريات آية ٢١ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٢ .
(٣) سورة فصلت آية ٥٣ .

التشريعى خاصة الإنسانية العامة فى أفرادها، وأمانة الله العظمى التى عرضها على السموات والأرض فأبينها طبيعة وخلقة ،وحملها الإنسان فطرة واستعداداً.

وهذا معنى قول جمهور أئمة أصول الفقة الإسلامى إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة لخطابهم بأصولها .

فالناس — فى نظر الإسلام — كما هم فى حقيقتهم الوجودية وواقع أمرهم الإنسانى عباد الله يتساوون أمام قهر إلهيته فى هذه العبودية التى حررتهم من ربقة التعبد لغيره ، مهما يكن شأن هذا الغير ، لأن اختيارهم من بين كافة الخلق لمقام الخلافة عن الله فى الأرض ، رفعهم فوق سائر أنواع المخلوقين ولا ينبغى للأرفع الأفضل أن يعبد نفسه للأقل منه فضلا ، بله الذى لافضل له فى دائرة الوجود .

والمساواة فى حقيقة الإنسانية جعلتهم سواسية فى جميع الحقوق والواجبات الآدمية ، فلا ينبغى أن يستعبد بعضهم بعضاً ، ومن طريق هذه العبودية لله الواحد ، الخلاق العليم ، خوطبوا خطاباً عاما كعمومها ، فمن نظر فى آيات الله الكونية وأجاب داعى الله تعبداً له جل شأنه ، فذاك الذى حرر عقله من أغلال التقليد الجهول ، وهو الذى فهم عن الله حكمته فى خلقه ، وعرف ربه معرفة قلبية وعقلية ، فكان من المخلصين الذين سلمت فطرتهم من الانحراف العقلى ، واكتملت فيهم حقيقة الإنسانية الفاضلة، وتم استعدادهم للقيام بأعباء الخلافة عن الله فى رعاية خلقه يسوسونهم بتدبيره ، ويقيمون فيما بينهم سننه الكونية وينفذون شرائعه الإلهية .

وأما من أعرض ونأى بجانبه ، ولم ينظر فى آيات الله وحججه البالغة فذاك الذى أوبقه التقليد البليد ، والجمود المستحجر ، والجهل المظلم ، فألغى عقله وغلف قلبه ، وأمات ضميره ووجدانه ، فكان من الضالين الهالكين

الذين سلبوا خصائص الإنسانية العقلية وفضائلها الروحية ، فكانوا أناسى بأشباحهم البدنية ، ففقدوا حظهم فى مقام الخلافة ، يساسون ولا يسوسون ، ويقادون ولا يقودون ، وبهذا يكون التفاوت بين الأفراد والجماعات فى المجتمع الإنسانى .

وهكذا القرآن الكريم يسير فى سنن الخطاب التكليفى العام بعنوانه الشامل لكافة الأفراد فى جميع آياته ، على نسق يوقظ الشعور الإنسانى ليكون الإنسان على ذكر دائم لوشيجة الوحدة الإنسانية ، وينبه العقل إلى خاصته فى الوجود ، ليكون دائماً على استعداد لتوجيه الحياة ، بما يستخرجه من سنن الكون بالعلم والمعرفة ، متجرداً عن الانحراف عن الجادة أو الانقياد لنموذج الشر الذى ناصب الإنسان العداء وأضمر له البغضاء ممثلا فى نموذجه الأول منذ اللحظة الأولى فى النشأة الإنسانية .

المساواة الإنسانية
فى نعم الله

وعلى هذا الغرار جاءت الآية الثانية من آيات الخطاب العام بنفس العنوان العام الشامل ، سوى أن الأمر فيها جاء أمر إباحة وإرشاد إلى الانتفاع بما سخره الله للإنسان فى الأرض ، ليفيد منه فى حياته الجسمية والعقلية ، ثم اتبع الأمر بالتحزير من متابعة الشيطان ، نموذج الشر الذى أقام نفسه ناطوراً يرقب أعمال الإنسان ، ويترصد له يبغيه الغوائل بكيده وإضلاله ، ليسلبه نعمة الخلافة فى الأرض ، تلك النعمة التى كانت مصدر شقائه الذى ارتطم فى حنيرته حسداً واستكباراً أن يؤتى الله تعالى أحداً من النوع الإنسانى فضلا ونعمة يمتاز بهما على سائر الخلق : « يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً . ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم

عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون »[١] .

فالنداء الموجه إلى كافة أفراد الإنسان بعنوانهم الشامل (الناس) تذكير برابطة الوحدة الإنسانية ووشيجة الإخاء الإنسانى .

وأمر الإباحة والإرشاد للانتفاع بما فى الأرض من كنوز ظاهرة وباطنة ، واختيار ما لا تبعة فيه ولا مسئولية فى تناوله من كل ما تستحليه النفوس الكريمة ، وتستطيبه الأذواق السليمة ، تنبيه إلى خاصة العقل بالبحث والنظر والكشف عن حقائق الأشياء لمعرفة طيبها من خبيثها ، وتمييز نافعها من ضارها .

وذكر الأكل تمثيل وشاهد للانتفاع والإفادة للتوضيح بما هو قريب فى واقع الحياة .

والنهى عن متابعة الشيطان نموذج الشر منذ بدأ الله خلق الإنسان وبيان ما عقد عليه الخناصر من العداوة الدائمة البينة لآدم أبى البشر ولذريته من بعده ، تحذير من عواقب الانحراف عن الجادة ، وحث على الاستقامة مع البرهان العقلى ، وترك الانقياد الجادل والتقليد البليد ، لأن البرهان خاصة العقل ، والعقل خاصة الإنسان التى ميزه الله بها .

فالاستقامة مع البرهان تحقيق لحقيقة الإنسانية فى أخص معانيها ، والانقياد مع التقليد إهدار لهذه الخاصة ونقص من حقيقة الإنسانية .

ولهذا ساق القرآن الحكيم فى ظل الخطاب العام المستند إلى أمر الإباحة والإرشاد الوصف اللازم فى نموذج الشر : (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) لتتم الموازنة بين النموذجين ، نموذج الخير

---

(١) سورة البقرة آيتا ١٦٨، ١٦٩.

والهداية ونموذج الشر والضلالة يذكر خاصيتهما حتى لا يكون للإنسان — إذا انحرف — على الله حجة ، ولله الحجة البالغة على خلقه .

وقد بين القرآن العظيم أن الانحراف وقع من بعض أفراد الإنسان ، أولئك الذين ألغوا عقولهم وسلبوا خاصتهم العقلية ، وتضاءلت حقيقة إنسانيتهم فى أشباح أبدانهم ، فهم صم ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، وهم بكم ، ولهم ألسنة لاينطقون بها ، وهم عمى ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، فسدوا على أنفسهم منافذ العقل من طريق الحس فعطلوها فتعطلت عقولهم عن عملها فهم لا يعقلون ، فكانوا مثلا مضروباً لكل من انحرف عن حقيقة الإنسانية وفقد خاصتها : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون »(1) .

وفى هذا نعى على من أهمل عقله وعطل خاصة العلم والمعرفة ، وتبع كل ناعق لا يعقل ولا يهتدى ، فلا رأى له ، ولا فكرة عنده ، ولا عقيدة فى قلبه ، فهو ليس أهلا لأن ينال شرف الخلافة عن الله فى أرضه .

ومن لطائف البيان القرآنى الدقيقة العميقة أنه جعل متعلق أول آية للخطاب التكليفى العام الشامل لجميع أفراد الإنسان فى الترتيب البيانى طلب عبادة الله وحده ، والعبادة لاتكون حقيقة معتبرة إلا بعد معرفة الله تعالى ، معرفة تقوم على قاطع البرهان ويقين الاستدلال ، والمعرفة بالله وصفاته العليا وأسمائه الحسنى أصل العقيدة الصحيحة فى الإسلام ، والعقيدة أصل التشريع .

وبمقتضى عموم الخطاب فى طلب عبادة الله كان كل إنسان متأهل

---

(1) سورة البقرة آية ١٧٠ .

للخطاب مكلفاً بمعرفه الله معرفة برهانية تتأصل عليها العقيدة بالنظر فى آيات الله الكونية وسننه الطبيعية . وجعل معلق الآية الثانية فى الخطاب التكليفى العام الإفادة بكل ما يمكن الإفادة منه والانتفاع به من كنوز الأرض وذخائرها مما يظهر فوق أديمها أو ينبت فى باطنها .

وبمقتضى عموم هذا الخطاب أيضاً كان كل إنسان متأهل لمطلق الخطاب مكلفاً بالعمل بأقصى ما يستطيع من طاقة بشرية على تحقيق ما يمكنه من الإفادة والانتفاع بأكبر قسط من تلك الكنوز والذخائر ، لا يختص شىء منها بأحد من الناس ؛ ولا يختص أحد من الناس بشىء منها دون الآخرين ، وإنما مرجع الأمر أن كل إنسان وعمله وجهده وكفاحه فى الحياة (لا تظلمون ولا تظلمون) عدالة مطلقة وفرص مطلقة لإنسانية واحدة ، ومعنى هذا — فى نظر الإسلام — أن أفراد الإنسان جميعاً متساوون فى واجبات التكاليف ، ومتساوون فى كافة حقوق الإفادة والانتفاع من كل ما يمكن الإفادة منه والانتفاع به فى هذه الحياة بكل وسيلة من وسائل العقل المتوثب الكشاف ، والحس المرهف الواعى . قال الإمام الرازى فى تفسيره مفاتيح الغيب : اعلم أنه تعالى لما بين التوحيد ودلائله ؛ وما للموحدين من الثواب واتبعه بذكر الشرك ومن يتخذ من دون الله أنداداً ويتبع رؤساء الكفرة ؛ اتبع الله ذلك بذكر إنعامه على الفريقين وإحسانه إليهم وأن معصية من عصاه ، وكفر من كفر به لم تؤثر فى قطع إحسانه ونعمه عنهم فقال : (يأيها الناس كلوا مما فى الأرض) .

وهذا بيان من إمام من أئمة المسلمين ، لا يخالفه فيه أحد منهم ، لمقصد من مقاصد القرآن العظيم فى آية من آياته البينات ،

جاءت لتعلن أن الإسلام يرى فى صراحة ودون مواربة أن المساواة فى حقيقة الإنسانية تقتضى المساواة فى الحقوق والواجبات العامة التى تقتضيها الإنسانية بخصائصها البدنية والعقلية ، فلا ينقصها كفر أو معصية، ولا يزيدها إيمان أو طاعة ، وهذه هى الثورة الحقيقية لوحدة الإخاء الإنسانى التى يقصد إليها القرآن الكريم لتكون هدف العقل البشرى فى سير الحياة .

وشيجة الاخاء الانسانى

 وربطها بمنبع الإنسانية الموحد

وهناك لون آخر من ألوان الخطاب العام التكليفى يتجه نصاً إلى وشيجة الإخاء الإنسانى فيربطها بالمنبع الموحد ، ويحيطها بضرب من أسلوب الرعاية الكاملة ، ويصور البشرية فى عمومها أسرة واحدة ، ترجع فى أصل نشأتها إلى نفس واحدة ، هى نفس أبى البشر آدم عليه السلام ، ويصور خلق زوجه منه كأنها بضعة منه ، أو كأنها بعض ذريته ليكون أتم للسكون ، وأكمل للمودة وهذا من باب ما جاء على طريق الامتنان العام على أفراد الإنسان فى قوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة »[١] .

وقد عرض القرآن العظيم لهذا اللون فى مفتتح سورة النساء وهى السورة الرابعة فى ترتيب التلاوة ، وتقع فى المرتبة الثانية بعد سورة البقرة فى الطول وكثرة الأحكام التشريعية قال تعالى : (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا

---

(١) سورة الروم آية ٢١ .

الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً »(١) وأخرجه فى أسلوب يمس الشعور الإنسانى فيهزه هزاً إلى التعاطف الأخوى الإنسانى، بما فى هذا الأسلوب من لفتات وجدانية توقظ الحس، وتنبه العقل إلى وشائج الترابط النسبى بين كافة أفراد الإنسان فى شتى الأزمنة والأوطان، وإلى ما يوجبه ذلك الترابط من التكامل والتعاون والمحبة والمودة، وتبادل المنافع والمؤاساة بالبر والإحسان.

والأمر بالتقوى عقيب النداء العام لكافة البشر بالعنوان الشامل كالأمر بعبادة الله وحده فى آية سورة البقرة الأولى لأن عبادة الله تنشأ عن معرفته، والمعرفة هى الركن الأول فى بنيان العقيدة السليمة، والعقيدة هى الدعامة الأولى التى يعتمد عليها التشريع فى الإسلام.

وتعليق التقوى هنا بالاسم الأكرم (ربكم) بهذه الإضافة العامة — فى المخاطبين — عموم الأمر بالتقوى رد إلى السبب الأصيل فى طلب التقوى، وهو التعهد بالتزكية والتربية والإحسان، وتأكد ذلك بذكر وصف الخالقية من نفس واحدة، ذلك الوصف المشعر للإنسانية فى عموم أفرادها من جميع الأمم والشعوب التى على ظهر الأرض بأن الإله الذى رباكم وتعهدكم برعايته وفضله هو الذى وحد منبعكم فى أصل نشأتكم بخلقكم من نفس واحدة متساوين فى حقيقة إنسانيتكم، فلا تفاوت بينكم بأى اعتبار من الاعتبارات الطبقية أو الطائفية، ولا بأى اعتبار من الاعتبارات الطارئة بتأثير البيئات من الألوان واللغات والأزمنة والأمكنة، فلا اعتبار لاختلاف الألوان والألسنة أو اختلاف الأعصر والأوطان.

---

(١) سورة النساء آية ١.

ثم عاد الأسلوب البيانى فى الآية إلى الأمر بالتقوى ، ولكنها هنا جاءت متعلقة بلفظ الجلالة : (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) وكانت فى صدر الآية متعلقة بوصف الربوبية لأن موضع الصدارة جاء لبيان القدرة الإلهية فى خلق جميع البشر من نفس واحدة ، وجعلهم إخوة فى النسب ، به يتعاطفون ويتراحمون ويتوادون . وهذا يستدعى الإشارة إلى ما يتبع الخلق والإبداع من التربية والتعاهد بالتزكية حتى يستوى الإنسان قادراً ساعياً فى حياته مفكراً فى مبتدأ نشأته ومنتهى أمره ، مع تبادل المصالح والمنافع بما يقتضى التكافل والتعاون على الخير والبر .

وأما الأمر الثانى بالتقوى فقدجاء لبيان حق الإخاء الإنسانى من الرعاية والمودة تمهيداً للإشارة إلى مايدعو إلى هذه الرعاية من الترابط الرحمى الذى يستمد عناصره من رحمة الله وخشيته ، وأشير إلى جانب الرحمة بتسمية هذه الرابطة الأخوية رحماً أخذاً من الرحمة ، وهى فى الإنسان مجاز عارض وفى وصف الخلاق العليم حقيقة على ما يوضحه الحديث المروى من قول النبى ﷺ : (أنا الرحمن وهى الرحم شققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته)[1] وأشير إلى جانب الخشية بتعليق التقوى بلفظ الجلالة المشعر بالقهر والمهابه .

ولكن هل فى واقع الحياة الإنسانية أن يستجيب جميع أفرادها إلى صوت المودة والإخاء فلا يحيد عن طريقه حائد ؟

لا ، ليس هذا فى واقع الحياة ، ولا هو من واقعها ، لأن الأهواء والشهوات والأثرة والطموح واقفة على بنيات الطريق تختلس من شذ عن

---

(١) انظر هامشة ص ١٨٤ فى تخريج الحديث ، وله أصل فى البخارى ومسلم .

القافلة لتهوى به إلى منحدرها ، فكان لا بد من رائد يهش بعصاه ليرد الشارد عن الحظيرة إلى محافل السالكين .

ومن ثم جاء هذا التهديد فى ختام الآية الكريمة بذكر اسم كريم من أسماء الله الحسنى يدل على شدة المراقبة وكامل الإحاطة ليكون كل فرد فى أسرة الإنسانية على بينة مما ينتظره إن هو مال مع أهوائه وشهواته وخضع لأثرته ولم يتحرر من سلطان غرائزه ، فعق إخوته من البشر وحاد عن طريق المودة والمحبة (إن الله كان عليكم رقيباً) .

قال الإمام أبو جعفر الطبرى : ثم وصف تعالى ذكره نفسه بأنه المتوحد بخلق جميع الأنام من شخص واحد ، معرفاً عباده كيف كان مبتدأ إنشائه ذلك من النفس الواحدة ، ومنبههم بذلك على أن جميعهم بنو رجل واحد وأم واحدة ، وأن الذى يلزمهم من رعاية بعضهم حق بعض وأن بعد التلاقى فى النسب إلى الأب الجامع بينهم مثل الذى يلزمهم من ذلك فى النسب الأدنى ، وعاطفاً بذلك بعضهم على بعض ليتناصفوا ولا يتظالموا وليبذل القوى من نفسه للضعيف حقه بالمعروف على ما ألزمه الله له .

والرحم التى جعل الله اتقاء قطعها لما فيه من الإفساد فى الأرض ، عدلا لاتقائه سبحانه وتعالى بترك معاصيه والتزام طاعته هى الرحم العامة الشاملة لقرابة البشرية وأخوتها كلها بدليل عموم الخطاب فى صدر الآية .

ويرشحه قول الله تعالى توبيخاً لقاطعى الرحم[1] من المنافقين

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال : نعم أما ترضين أنى أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك — قالت : بلى يا رب، قال : فذاك ..».

وعتاة المشركين المعاندين ممن لم يقبل هدى الله وقابل الدعوة إليه بالإفساد فى الأرض : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم »(١) .

وهنا لفتة دقيقة فى أسلوب البيان القرآنى للدعوة إلى الهداية ، إذ جعل التولى عن قبولها والإعراض عنها تقطيعاً للروابط الرحمية العاطفة ، وتمزيقاً لوشائج القربى الإنسانية المجمعة ، وهـذا هو منبع الإفساد فى الأرض .

فالدعوة إلى الهداية — فى نظر الإسلام — وتجميع الإنسانية فى ظل رايتها توثيق لعرى القرابة الأخوية بين كافة أبنـاء الإنسانية ، فالداعى إلى الهداية الإسلامية إنما يدعو إلى أمر تتوافق عليه العقول السليمة ، والقلوب الطاهرة ، والأرواح المشرقة ، والعواطف النبيلة .

فقرن سبحانه قطع الرحم والقرابة الأخوية بالإفساد فى الأرض ، تعظيماً لشأن الروابط الإنسانية التى توحد القرابات الدنيا فى صلة الرحم مهما تباعدت وشائجها فى العصور والأزمان .

وقد جاء هذا التعظيم صريحاً مفصلا فى قوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم »(٢) . حيث قرن الإحسان إلى ذوى القربى بعد أن أعطى للوالدين

---

(١) سورة محمد آية ٢٢ .

(٢) سورة النساء آية ٣٦ .

حقهما من التمييز الواجب لهما من بين سائر القرابات بتوحيده المؤكد بالأسلوب الإطنابى بالنهى عن الشرك ، وقد فصل القرابات التى تربطها الرحم الإنسانية العامة بأوصافها الحاملة على التعاطف والإحسان فذكر بعد الوالدين ذوى القربى الأدنين من الإخوة والأخوات ، والأعمام والعمات ، والأخوال والخالات وفروعهم ، لأنهم يجيئون بعد الوالدين فى منزلة القربى الملاصقة، ثم ذكر اليتامى الذى فقدوا الوالد . وبفقده فقدوا عاطفة الأبوة وحمايتها . فهم أحوج إلى إحسان عاطف يشعرهم بأنهم من الأسرة الإنسانية بمكانهم من البنوة المودودة ، وذكر بعدهم المساكين الذى حرموا مما يعينهم على السعى والتقلب فى أرض الله لكسب أرزاقهم ، وإعانة إخوانهم ، فسكنت نفوسهم إلى الاستسلام ، يتطلعون إلى حياة الناس فيرون نشاطاً وحركة وعملا وإنتاجاً ، ويعودون إلى حرمانهم فتنكسر قلوبهم فهم أحوج إلى إحسان دافع إلى الإخاء الإنسانى ، ليشعرهم أنهم لبنات فى بناء الإنسانية أدركها بعض العقبات فلم تتمكن من أن تشد نفسها إلى بناء الإنسانية،فما هى إلا نظرة إنعاش من إخوانهم فى الإنسانية حتى يعودوا عناصر حية عاملة ناهضة فى قافلة الحياة .

ثم ذكر الجار القريب ، وهو الجار الأدنى فى الجوار أو فى وشيجة الدم والعصب ، وهو بمكانه من هذا الجوار أعلم بما يدخل ويخرج من النعمة على جاره ، فإن كان محروماً فى وضعه المادى زاده الحرمان الطارئ من عطاء جاره اشتعالا لنار الحرمان فى قلبه فيملأه الحقد والحسد ، ويجره ذلك إلى السعى بالإفساد ، وإن لم يكن محروماً فى وضعه المادى كان تبادل المنافع بينه وبين جاره الذى لاصقه مدعاة للمحبة والمودة وتأكيد روابط الإخاء ، وفى هذا دقيقة لطيفة .

ذلك أن الإحسان للجار مطلوب من كل جار على قدر حاله، فهو فى الحقيقة تكافل ومشاركة فى الحياة فى سرائها وضرائها .

ثم جاء الجار الجنب وهو الجار البعيد فى قرابة النسب الأدنى أو البعيد فى قرابة الحس والمشاهدة فى عدم ملاصقة الدور والمنازل ، وهى مرتبة طبيعية فى جعل العموم فى الإحسان شاملا لجميع أبناء الإنسانية .

ثم ذكر الصديق الملازم بعنوان الصحبة بالجنب وليشعره أنه من صاحبه وصديقه بالمكان الذى توجبه الأخوة والقرابة ، فلا تدخله وحشة من إحسان صديقه ، وفى هذا أيضاً من التكافل والمشاركة الأخوية ما فى سوابقه لأن لكل صديق مكانه من صديقه ، ويدخل فى هذا الزوجة كما يقوله بعض المفسرين .

ثم ذكر ابن السبيل المسافر الضارب فى أرض الله يسعى على رزقه أو يطلب أمراً مشروعاً من أمور الحياة ، وقد انقطعت به وسائل الكفاية فأصبح فى حاجة إلى ما يسد كفايته ، ويحفظ ضيعته ويشعره بأنه أخ فى الإنسانية ، له من حقوق التعاطف والتراحم ما يجعله فى أى بقعة من وطن الإنسان العام وهو الأرض كلها يشعر بأنه فى وطنه الخاص وبين أهله الأدنين .

ثم ذكر ما ملكت أيمانكم من إخوانكم الذين أوقعهم سوء التربية الاجتماعية فى مجتمع حاد عن جادة الحق وجهل حقيقة إنسانيته واستبعد بعضه بعضا .

وإذ لم يكن من المستطاع اجتماعياً تخليص المجتمع من هذا الشذوذ الإنسانى فى قرار واحد ينادى بالكلمة الفاصلة فلا أقل من تنظيم هذا الشذوذ وتضييق

دائرته فى أضيق ما يمكن من الحدود ولا أقل من إشعار هؤلاء الأناسى الذين شذ بهم المجتمع عن مكانهم الإنسانى بأن لهم حقوقهم الإنسانية فى المشاركة والتكافل بالإحسان إليهم ، إحساناً يفتح أمامهم أبواب العيش الكريم ، ويقربهم من الحرية حتى يحين خلاصهم من هذا السجن الإنسانى الكبير ، وهذا ما قصد إليه الإسلام ، وقد جاء ووجد المجتمع الإنسانى من عن يمينه وشماله يعج بهذا الشذوذ الإنسانى، فنظمه وضيق منافذه وقرب المحكوم عليهم بالشذوذ الإنسانى من الإنسانية الكريمة فقال فيهم نبى الإنسانية ورسول السلام والإسلام : (إخوانكم خولكم أطعموهم مما تطعمون وألبسوهم مما تلبسون ، فإن كلفتموهم عملا فأعينوهم) وسنعرض لهذا بالتفصيل فى مكانه من البحث .

وهكذا نجد هذه الآية الكريمة عقدت أواصر الإخاء الإنسانى بين جميع أبناء الإنسانية تحقيقاً لصلة الرحم التى عظمها الله تعظيماً لم يعظمه لصلة أخرى من صلات الإنسانية .

نظرة فى الترتيب المعنوى للآيات الثلاث

والمتأمل فى الآيات الثلاث التى سقناها من نوع الخطاب التكليفى العام يجد :

أولا : أن الآية الأولى كان متعلق الخطاب العام فيها الأمر بتفريد الله تعالى بالعبادة وسوق الأدلة القاطعة بنظر العقل على استحقاقه تعالى العبادة من جميع الخلق سواء أكانوا موجودين وقت المشافهة بالخطاب أم الذين لم يوجدوا إذ ذاك ، ولكنهم بمعرض الوجود فعدوا داخلين فى الخطاب نصاً لوجوب التبليغ على الموجودين .

وقد بينا أن أساس التكليف معرفة الله وتوحيده ، وإخلاص العبادة له

وحده فكان الخطاب بذلك حرياً أن يكون أول خطاب تكليفى عام يتوجه إلى جميع أفراد الإنسان .

ثانياً : أن الآية الثانية كان متعلق الخطاب العام فيها الامتنان بإباحة الطيبات مع جميع ماخلقه الله تعالى فى الأرض ، وسخره لإرادة الإنسان وعقله للإفادة منه ، والانتفاع به بعد معرفة منافعه ومضاره ، ففيها حث على دراسة عناصر الطبيعة لمعرفة حقيقتها وآثارها .

ثالثاً : أن الآية الثالثة كان متعلق الخطاب العام فيها تحقيق رابطة الوحدة الإنسانية بين كافة بنى آدم باعتبار نشأتهم الأولى من نفس واحدة ، وتأكيد وجوب رعاية هذه الرابطة الرحمية والقيام بحقوقها بقرنها بتقوى الله تعالى الذى عقد أواصر الإخاء بينهم بإخراجهم إلى الوجود الحسى من أب واحد انتزع منه زوجه لتكون أماً لهم جميعاً ، وبث منهما عوالم الإنسانية فى أرجاء الأرض .

ولا شك أن هذا الترتيب البيانى جاء فى غاية الحسن ، لأنه جاء موافقاً للترتيب الوجودى ، ذلك أن معرفة خالق السموات والأرض بالبرهان القاطع توجب إفراده بالعبادة والتقديس ، وهذا هو موجب الآية الأولى التى توجهت به إلى جميع أفراد الإنسان أينما وجدوا ، ومتى كانوا ، وذلك يقتضى - بإشارة سياق أدلة العبودية التى شيبت بالامتنان والتفضل من المعبود بالإحسان والإنعام - القيام بحق الخالق بإفراده بكافة فنون العبادة .

وهذه الأرض المسخرة بما فيها من كنوز وذخائر ، وما اختصت به من إقامة خلافة الإنسان عن الله فيها لعمارتها لم تخلق عبثاً ، بل خلقت لتؤدى الخلافة الإنسانية فيها رسالتها فى الكشف عن سنن الله فى الكون ، وإبراز مكنونات الطبيعة لينتفع بها الإنسان ويفيد منها أكبر فائدة تعود عليه وعلى

غيره من مخلوقات الله . وهذا الانتفاع لا يكون إلا بما طاب من غير تبعة تنغصه ، واحلولى دون غصة تفسده ، واستلذته النفوس الكريمة والأذواق السليمة ، وهذا هو موجب الآية الثانية الذى وجهت به الإنسانية كلها إلى استخدام كنوز الأرض فى مصالحها ومنافعها ، وذلك أرفع درجات الإحسان من المعبود الذى جعل الأرض فراشاً لهم والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً للإنسان أولا ولغيره تبعاً له ولحياته .

وهذا الانتفاع بهذه النعمة العظمى الذى أرشدنا إليه الخلاق العليم ، يستدعى وجود نظام يقوم على أساسه ، حتى لا ينقلب الإنعام انتقاماً إذا ترك الأمر فوضى ، يسوده التغالب والتنازع بين من أبيح لهم بمقتضى عموم الخطاب ، فجاءت الآية الثالثة لتبين ما يجب أن يكون عليه المخاطبون من المساواة فى الحقوق والواجبات بمقتضى حقيقة الإنسانية ، كأساس لهذا النظام وما يجب أن يكون بينهم من الود والتعاطف الأخوى بمقتضى رابطة الرحم والقرابة التى يجب ألا يغض منها الزمن مهما استطال ، لأنها حقيقة واقعة لا تتبدل .

القيم الأعلى للتشريع الاسلامى وحظ الانسانية منه

بيد أن تطبيق أحكام نظام التكافل والمساواة وتكافؤ الفرص أمام الأفراد ليأخذ كل إنسان حقه بحسب ما أتيح له من طاقة وجهد وعمل، يحتاج إلى قيم يقوم عليه وينفذه ، ويشرع له الأصول والقواعد ، التى تضمن إقامة ميزان العدالة بين المخاطبين باعتبارهم مظاهر وجودية لحقيقة الإنسانية .

ولا بد لذلك القيم من أن يكون مؤيداً من صاحب النعمة العظمى بالوحى المشرع لنظام الحيـاة .

ومن ثم جاءت آية الخطاب التكليفى العام الرابعة فى الترتيب البيانى فى القرآن الكريم متعلقة بأمر النبوة تثبتها بالبرهان القاطع .

والنبوة هى القيم على التنفيذ لشرائع الله تعالى ، وتجعلها بهذا الاعتبار دليلا على عموم رسالة خاتم الأنبياء محمد ﷺ : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون »(١) .

وقد خالف أسلوب هذه الآية أسلوب سابقاتها من الآيات الثلاث فى توجيه الخطاب ، فهناك كان الخطاب من الله العلى الأعلى موجهاً إلى الناس مباشرة بما أمرهم به .

وهنا خوطب النبى ﷺ وطلب إليه أن يتولى هو خطاب الناس فى هذه القضية خليفة عن الله تعالى فيها فقيل له : (قل يأيها الناس) لأن متعلق خطاب النداء خاص به ، بإثبات رسالته — أولا — وعمومها لكافة الخلق — ثانياً — وعموم رسالة محمد ﷺ أخص به لا يشاركه فيه غيره من إخوانه الأنبياء والمرسلين ، وهو شامل لجميع المخاطبين بالنداء بالعنوان العام .

وفى هذه الآية تقرير لوحدة الإنسانية وتقرير لرابطة الإخاء الإنسانى بعموم خطاب النداء وعموم الرسالة بالنص الصريح : (إنى رسول الله إليكم جميعاً) ثم جاء البرهان مسوقاً على نهج البيان القرآنى بوصف الله تعالى بما هو أخص شأنه سبحانه المقتضى لإطلاق تصرفه وتدبيره (الذى له ملك السموات والأرض) وهو دال بنصه على أن هؤلاء المخاطبين من رسول الله ﷺ بعموم رسالته مملوكون لله تعالى ملكية قهر وتدبير ، فإنه سبحانه فيهم مطلق التصرف يرسل

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٨ .

من شاء لمن شاء كما يشاء ، يعم برسالاته ويخص ، فهو إذ يملك السموات والأرض يملك من فيهما وما فيهما ويصرف ما شاء كما يشاء لا معقب على تصريفه وتدبيره ، لأنه (لا إله إلا هو يحيى ويميت) فالخلق كلهم عبيده ، وهو سبحانه مولاهم ولا مولى لهم سواه ، فيجب عليهم الإيمان به إلهاً واحداً ، أحداً عليماً حكيماً رحيماً قادراً قاهراً له الأسماء الحسنى ، والصفات القدسية العليا ، ومن حكمته ورحمته أن أنعم عليهم بمن يبلغهم عنه رسالته وهدايته ، وهو النبى الذى جاءهم بكتاب منه ، جمع من ضروب الهداية والعلوم والمعارف ، وسياسة الخلق وأصول الأخلاق ، وقواعد الاجتماع ، وأنواع العبادات وشرائع المعاملات ما جاء به جميع الأنبياء والمرسلين مفرقاً فى شرائعهم على اختلاف عصورهم مع رعاية ما اقتضاه نهوض الإنسانية فى أطوارها الاجتماعية فى مدارج التاريخ إلى أن بلغت فى درجات الكمال الإنسانى مرتبة هيأت لها أن يتحرر العقل البشرى من أغلال الترسب والجمود لينطلق بها فى آفاق الرقى صاعدة بقدر ما تسمح به الطاقة البشرية ، وهذا هو ما امتاز به الإسلام على سائر الشرائع باعتباره نظاماً عالمياً خالداً ، ختم شرائع السماء .

ولذلك قال تعالى :(فآمنوا بالله ورسوله) ، ثم ذكر برهان إثبات الرسالة بعد أن استوفى برهان الألوهية واصفاً النبى الذى طلب منهم الإيمان به بأخص أوصافه على نهج إيراد برهان الألوهية بوصف الله تعالى بخواص ذاته العلية فقال : (النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته) فالإنباء عن الله تعالى من رجل أمى لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يجالس العلماء بمثل ما أنبأ به محمد ﷺ بما جاء به القرآن الحكيم من العلوم والمعارف والهداية دليل قاطع على صدقه فى رسالته العامة الخالدة : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا

العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون . وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عندالله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلناعليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون[١] وبذلك يتم استيفاء برهان النبوة عامة ، وبرهان صدق رسالة محمد ﷺ خاصة لأنه هو النبى الذى يؤمن بالله وكلماته التى أنزلت على من سبقه من إخوانه الأنبياء والمرسلين من الشرائع والمعجزات .

وبقى بيان الطريق الذى يجب على المخاطبين بخطاب التكليف العام فى صدر الآية أن يسلكوه ليحققوا فيما بينهم نظام المساواة وتكافؤ الفرص ليتم لهم الانتفاع بما سخر الله لهم من كنوز الأرض وذخائرها على أكمل وجه فى ظل السلام والعدالة ، دون تدافع وتنازع يؤدى إلى التظالم والفساد فى الأرض مما يعطل مهمة خلافة الإنسان فيها عن الله تعالى ؛ فجاءت الآية الكريمة ببيان هذا الطريق فى كلمة واحدة مفردة (واتبعوه) ؛ وهى كلمة جامعة لكل ما يتطلبه نظام الحياة من قول أو عمل ، فهذا النبى الذى ثبت بالبرهان النير صدق رسالته ، وأنه ينطق عن الله تعالى ؛ ويعمل بوحى منه ، هو الذى يهديكم إلى ما فيه صلاح أمركم ونظام حياتكم ،فاتبعوه فى جميع أقواله وأفعاله (لعلكم تهتدون) أى لتكونوا على رجاء تتوقعون به أن تحل عليكم هداية الله وتوفيقه إلى ما يفتح أمامكم آفاق المعارف الكاشفة عن سنن الله فى هذا الوجود .

قال الإمام فخر الدين الرازى . واعلم أن هذا إشارة إلى ذكر المعجزات الدالة على كونه نبياً حقاً ، وتقريره أن معجزات رسول الله ﷺ كانت على نوعين :

---

(١) سورة العنكبوت آيات ٤٨و٤٩و٥٠و٥١ .

النوع الأول : المعجزات التى ظهرت فى ذاته المباركة ،وأجلها وأشرفها أنه كان رجلا أمياً ، لم يتعلم من أستاذ ، ولم يطالع كتاباً ولم يتفق له مجالسة أحد من العلماء ، لأنه ما كانت مكة بلدة العلماء ، وما غاب رسول الله ﷺ عن مكة غيبة طويلة ، يمكن أن يقال إنه فى مدة تلك الغيبة تعلم العلوم الكثيرة ، ثم إنه مع ذلك فتح الله عليه باب العلم والتحقيق ، وظهر عليه القرآن المشتمل على علوم الأولين والآخرين ، فكان ظهور هذه العلوم العظيمة عليه مع أنه كان رجلا أمياً لم يلق أستاذاً ولم يطالع كتاباً من أعظم المعجزات الدالة على صدق رسالته وإليه الإشارة بقوله : (النبي الأمى) .

والنوع الثانى : من معجزاته الأمور التى ظهرت من خارج ذاته مثل انشقاق القمر ونبوع الماء من بين أصابعه ، وهى تسمى بكلمات الله تعالى ، ألا ترى أن عيسى عليه السلام لما كان حدوثه أمراً غريباً مخالفاً للمعتاد لاجرم سماه الله تعالى كلمة ، فكذلك المعجزات لما كانت أموراً غريبة خارقة للعادة لم يبعد تسميتها بكلمات الله تعالى ، وهذا النوع هو المراد بقوله : (يؤمن بالله وكلماته) أى يؤمن بالله وبجميع المعجزات التى أظهرها الله عليه . فبهذا الطريق أقام الدليل على كونه نبياً صادقاً من عند الله ثم قال الرازى :

واعلم أنه لما ثبت بالدلائل القاهرة التى قررناها نبوة محمد ﷺ وجب أن يذكر عقيبه الطريق الذى به يمكن معرفة شرعه على التفصيل ، وماذلك إلا بالرجوع إلى أقواله وأفعاله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (واتبعوه) ، وأعلم أن المتابعة تتناول المتابعة فى القول وفى الفعل ، أما المتابعة فى القول فهى أن يمتثل المكلف كل ما يقوله فى طرفى الأمر والنهى ، والترغيب والترهيب ، وأما المتابعة فى الفعل فهى عبارة عن الإتيان بمثل ما أتى به المتبوع سواء كان فى طرف الفعل أو طرف الترك فثبت أن لفظ (واتبعوه)

يتناول القسمين وثبت أن ظاهر الأمر للوجوب فكان قوله تعالى :(واتبعوه) دليلا على أنه يجب الانقياد له فى كل أمر ونهى ، ويجب الاقتداء به فى كل ما فعله إلا ما خصه الدليل وهو الأشياء التى ثبت بالدليل المنفصل أنها من خواص الرسول ﷺ .

* * *

هذه ثلاث مراتب من أنواع الخطاب التكليفى العام التى وردت فى القرآن الكريم موجهاً فيها الخطاب إلى جميع أفراد الإنسان بعنوانهم العام الذى يشملهم ، فلا يفوته منهم فرد فى الوجود الإنسانى ، باعتبار أن الإنسان هو خليفة الله فى أرضه ، يرعى سننه الكونية ويقوم على تنفيذ شرائعه بين خلقه ، وقد كانت المرتبة الأولى منها متعلقة بأساس التكليف، وهو معرفة الله تعالى وإفراده بالعبادة والإخلاص ، وهذا ما تكفلت به الآية الأولى من آيات الخطاب فى سورة البقرة كما عرضناها مفصلة ،وكانت المرتبة الثانية متعلقة بإرشاد كافة المخاطبين إلى ما أودع الله فى الأرض من كنوز النعم التى سخرها لهم ليفيدوا منها أقصى ما يبلغون من نفع بعيداً عن الأثرة ، وتحقيقاً للمساواة فى الحقوق والواجبات بمقتضى عموم الخطاب، ومتعلقة بتعطيف أبناء الإنسانية بعضهم على بعض بمقتضى ما بينهم من وشائج الرحم والقربى وذلك ما بسطناه فى الآية الثانية من آيات الخطاب العام من سورة البقرة أيضاً ، وفى الآية الثالثة التى افتتحت بها سورة النساء ، وجاءت مبينة وجوب رعاية رابطة الرحم التى عقدت أواصرها بين بنى آدم قاطبة وحدة المنبع ، تلك الرابطة الرحمية التى رفعها القرآن الكريم إلى ذروة العزة الإيمانية ، فجعلها قرينة تقوى الله العلى الأعلى .

وكانت المرتبة الثالثة بياناً لما تقتضيه مهمة الخلافة عن الله فى الأرض من ضرورة وجود قيم متكمل فى حقيقة إنسانيته ، وفى وجوده لخاص باعتباره الأنموذج الأعلى لحقيقة الخلافة الإنسانية . مؤيداً فى هذا التكمل بقوة غيبية يستهدى بها فتهديه . ويسترشدها فترشده إلى السبيل الأقوم فى القيام بأمر الخلافة عن الله تبعاً لقوة احتمال المجتمع الإنسانى فى شتى أطواره الوجودية ، وهذا هو شأن النبوات فى مراحل التاريخ البشرى . حتى إذا تهيأت الإنسانية فى طورها النهائى لمرتبة الكمال العقلى جاءتها الرسالة العامة فى آخر أطوار الرسالات الإلهية وأكملها فى نبوة خاتم النبيين محمد ﷺ تحمل إليها رسالة العقل فى تفسير آيات الله فى الكون إلى شرائع سياسة الخلق ، وقواعد الأخلاق ، وأصول الاجتماع وتفاصيل التعبد لله الخلاق العليم موصوفة المعالم وصفاً يحددها أكمل تحديد ، ويميزها أتم تمييز حتى لا يلتبس مجال العقل بمجال الوحى الذى لا يتبدل .

والعقل يستند فى تثبيت دعائمه إلى الوحى حتى لا يضل الطريق فى سيره بالحياة وهو يقودها .

والوحى يستند فى تعرف حكمه وتيسير الإيمان بأحكامه إلى العقل ، فهما متعاونان فى مجالها دون أن يصادم أحدهما الآخر فى حقيقة من الحقائق الصادقة ، وتلك هى الميزة الكبرى لرسالة الإسلام العامة الخالدة على سائر الأديان والشرائع وذلك ما أحكمته آية الخطاب العام فى سورة الأعراف .

عموم الخطاب بإثبات دار الجزاء

ولما استوفت مراتب الخطاب الثلاث بيان مقام الإلهية ، وبيان مكانة الإنسان فى هذا الوجود والإنعام عليه بما يحييه ويرقيه فى مدارج الكمال ،

وبيان النبوات والرسالات السماوية مبدأ ونهاية ، كانت هناك مرتبة لابد لنا من التعرض لها فى مراتب الخطاب العام تلك هى مرتبة إثبات البعث للجزاء فى حياة أبقى وأفضل من الحياة الزائلة ، ليقوم أمر الخلق على التناصف والتعاون فى أداء الحقوق والقيام بالواجبات ، وبهذه المرتبة تتم مراتب الخطاب التكليفى العام ، مشتملة على ذكر ما يتعلق بالله سبحانه ، وذكر ما يتعلق بتصريف هذه الحياة فى ظل الخلافة الإنسانية وذكر النبوات القيمة على تنظيم التصرف بوحى الله وتشريعه ، وذكر اليوم الآخر وبعث العالمين من قبورهم للجزاء على ما قدموا من عمل .

وقد جاءت هذه المرتبة فى البيان القرآنى على نهج أخواتها من أسلوب النداء بعنوان الإنسانية العام (يأيها الناس) منذرة بيوم البعث والجزاء مخوفة من أهواله ، مرغبة فى نعيمه ، واصفة أهاويل ذلك اليوم ونعيمه فى أسلوب زاجر مرة ورغيب مرة أخرى .

وقد تعددت فى البيان القرآنى صورة الزجر والوعيد ، كما تعددت فيه صور الوعد والترغيب ، وترمى كلها إلى إشعار الإنسان بمقدار ما تقتضيه خلافة الإنسان عن الله فى الأرض من تحقيق مبدأ العدالة والمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، ومبدأ التراحم والإحسان إلى كافة المخلوقات .

والدعامة الأولى لهذه المرتبة: هى إثبات البعث والجزاء فى اليوم الآخر بتوجيه الخطاب إلى الناس عامة ليزداد الذين آمنوا إيماناً ، ويثوب الحيارى إلى رشدهم ويراجعوا عقولهم فيلحقوا بإخوانهم السالكين سبيل الهداية الذين وصلوا ما أمر الله به أن يوصل من إيقاظ العقل وتسريحه طليقاً من الأغلال للنظر فى ملكوت الله وتفهم آياته فى هذا الوجود .

وقد أقام الأسلوب البيانى فى القرآن الحكيم هذه الدعامة لإثبات يوم البعث ببرهانه المشرق فى آية من آيات الخطاب العام على هداية العقل جرياً على سنن القرآن العظيم فى سياق القضايا الكبرى مدعمة ببراهينها لاجتثاث جذور الشك من قلوب الحيارى المبلسلين : « يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج »(١) .

وهذا عرض بارع الإعجاز لأعضل قضية تعرض لها العقل البشرى بالامتحان الممحص، ساقها القرآن الحكيم فى صراحة قوية ، تبين أن موقف العقل من هذه القضية لم يكن موقف إيمان وتسليم ، بل كان موقفاً حائراً ، أقعده الشك المريب عن النهوض بعبء الإيمان بها حتى ينهضه البرهان القاطع ويهديه إلى نور اليقين .

ومن ثم جاء سياق البرهان فى أسلوب الترتب الشرطى — بحرف الشك — من غير مهلة ليقتلع فى سرعة النظر البرهانى جذور الشك الحائر ، وهو استدلال قاطع لا تعوزه أقيسة المناطقة وتعقيدات المتفلسفين ، لأنه قائم على مقدمات صادقة تؤمن بها الفطر السليمة .

فالذى خلق الإنسان خلقاً بعد خلق ، وصوره طوراً بعد طور ، فبدأ خلقه من تراب ، وذلك إشارة إلى الأصل الأصيل لكل إنسان ، ثم جعل هذا الأصل الجماد الذى لم يكن بطبعه محلا للحياة نطفة تحلها الحياة البدائية

---

(١) سورة الحج آية ٥ .

بما فيها من ملايين الجراثيم الحية ، ثم خلق هذه النطفة علقة ، ثم أبدع هذه العلقة مضغة ، ثم جعل المضغة عظماً ، وكسا العظم لحماً حتى استوى جنيناً سوياً ، يتحرك فى قرار مكين ، ثم أخرجه طفلا يتنسم أنسام الحياة ، ثم سواه شاباً قوياً يسعى فى أرض الله ويتقلب فى نعمته حتى بلغ أشده ، ولم تزل عناية الله تتولاه بالتربية والرعاية فيعمر منه من يعمر حتى يبلغ أرذل العمر وسوء الكبر فيرتد عقله وتصوراته ، وعواطفه ومشاعره وأحاسيسه إلى حال الطفولية وطبعها فيجهل بعد علم ، ويضعف بعد قوة ويغضب حيث الرضا ، ويرضى حيث الغضب ، ويخترم بالموت عند حلول الأجل المحتوم .

وكأن الآية الكريمة تقول للإنسان مخاطبة له فى عموم أفراده :

أرأيتم من كانت هذه قدرته فى نشأتكم تراباً من الأرض ، ثم نطفاً فى أصلاب آبائكم وأرحام أمهاتكم ، وأجنة فى بطونهن خلقاً بعد خلق ، وطوراً بعد طور مما هو مشهود لكم ببصر عقلكم وبصيرة حسكم ، أيعجزه إحياؤكم بعد إماتتكم ، وإعادتكم بعد إفنائكم ليوفيكم أجوركم ويجزيكم بأعمالكم .

ثم تتبع الآية الكريمة هذا الاستدلال بلون آخر من الاستدلال العقلى العلمى ليكون لكل ذى نظر من الأنظار المختلفة فى العلوم والمعارف الإنسانية حظه من طرائق الاستدلال القرآنى أداء لحق عموم الرسالة الإسلامية وخلودهـــا بعموم وخلود الفكر البشرى (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) ، فهمود الأرض بيبسها وإقفارها من النبات بمنزلة الموت للأحياء واهتزازها بتفاعل موادها وتحركها وربوها بانتفاخ قشرتها إذ

أنزل الله عليها الماء بمنزلة الحياة تسرى فى الموات فيشرق ويزهو ويتبلج بالبهجة وجمال المنظر .

وفى تعبير القرآن الحكيم بالهمود فى جانب وبالاهتزاز والربو فى جانب آخر إعجاز فى الأداء لا يعرفه غير أسلوب القرآن ، لأنه إعجاز باللفظة المفردة تحمل فى طواياها صورة كاملة يعجز التعبير عنها فى أسلوب البشر مهما أوتوا من بلاغة الإسهاب .

وقد تعددت صور الخطاب العام الشامل لجميع أفراد الإنسان فى البيان القرآنى ، واختلفت مخارجها فى الأسلوب وطرائق الأداء بين التعلق بالتكليف التشريعى ،وبين التذكير بنعمه ، والإرشاد إلى هاديه ، ولا يتسع هذا البحث لاستيعابها وشرح مقاصدها ، وفيما ذكرناه منها غنية لمن يريد المثل والمشاهد .

ميزان التفاضل بين ابناء الانسانية فى نظر الاسلام

بيد أن هناك آية من آيات هذا الخطاب خرجت مخرج الإخبار النصى عن وحدة الإنسانية باعتبار أصل نشأتها ، ثم أبانت عن حكمة الله تعالى فى ربط ما تكاثر من الفروع المتشعبة عن الأصل الأول بأصول أقرب إلى الفروع من ذلك الأصل البعيد بالقياس الزمنى ، لتكون عرى الإخاء أرعى وأجد ، وتوثيقها أقوى وأشد ، بين عامة الفروع من جهة لارتباطها بالأصل القريب ، وبين خاصة الأصول القريبة من جهة أخرى ، لارتباطها جميعاً بالأصل الأصيل ، ثم كشفت الآية الكريمة عن درة عقد الفضائل فى تفضيل فرع على فرع ، أو فرد على فرد ، فكانت بذلك دستوراً للمساواة المطلقة بين كافة أبناء البشرية فى هذه الحياة ودستوراً للتفاضل عند الله فيما وراء الحقوق الإنسانية فى الحياة الأخرى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من

ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(١).

فالخطاب العام بصورة النداء بعنوان الإنسانية الأعم (يأيها الناس) جرى على نهج الآيات السابقة ، وجعل هنا متعلق الخطاب وحدة الإنسانية فى نشأتها الأولى على غرار آية افتتاح سورة النساء من وجه قريب .

وتقديم عنوان الأبوة هنا فى الذكر البيانى على عنوان الأمومة للإشارة إلى أن الأبوة هى الأصل الأصيل ، وجعل ما تكاثر من الفروع شعوباً وقبائل إشارة إلى طبيعة الاجتماع الإنسانى فى تكاثره بالولادة والتناسل ، وتفرقه إلى وحدات تنضوى كل وحدة منها تحت لواء واحد ، تجعله عنوانها الخاص تطلباً لقرب الروابط الواشجة بين أفراد كل وحدة ، وهذه الوحدات هى الشعوب والقبائل التى تكونت بجعل الله وهدايته لتتعارف وتتقارب وتتعاون وتتراحم فى ظل المساواة الإنسانية مساواة عامة فى الحقوق والواجبات ، لايغض منها اختلاف فى اللون ، أو اللغة ، أو العقيدة ، أو الزمن ، أو الوطن ، فالعجمى أخو العربى ، والآرى أخو السامى ، والرومانى أخو الصقلبى ، والقحطانى أخو العدنانى ، والقرشى أخو الحبشى، أخوة رحمية ولدهم جميعاً أب واحد وأم واحدة ، والأم من الأب منزعها ، إليه مرجعها ، والأب من التراب منشأه وأصله لا يتفاضلون عند خالقهم إلا فى شئ واحد ، هو(التقوى)وهى كلمة جامعة لخصال الخير سلباً وإيجاباً ، فى الفعل والترك ، فهى ميزان التفاضل بين الناس (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، والمقصود الإجمالى منها اتقاء المزالق عن أفق الكمال فى حقيقة الإنسانية بخصائصها التى هى مناط الخلافة عن الله تعالى فى الأرض ، ومظهرها الجامع

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

هو العمل الصالح الذى يعود على الحياة كلها بما فيها من إنسان وحيوان ونبات وجماد بأكبر قسط من البر والخير والإحسان والرحمة .

ومن ثم كانت هذه الآية الكريمة ـ لما فيها من التنصيص على وحدة الإخاء الإنسانى ـ ملتقى الأنظار ومرمى الأفكار فى التطبيق العملى لمبدأ وحدة الإنسانية فى الحقوق والواجبات العامة التى يحيا بها الخلق فى هذه الحياة ، وعلى أصولها يتعايشون ، فهم جميعاً متساوون بحق إنسانيتهم فى هذه الحقوق والواجبات ، ولهذا جاء الرد على إبراهيم خليل الله عليه السلام لما دعا ربه لأهل البلد الحرام مكة المكرمة أن يرزق أهله من الثمرات ، وقيد دعاءه ـ تأدباً مع العزة الإلهية، ووقوفا بنفسه عند حد العبودية ـ بمن آمن منهم بالله واليوم الآخر ، فقال الله له جرياً على سنة الإطلاق لمقام الألوهية وواسع الرحمة الربانية : (ومن كفر فأمتعه قليلا) فى هذه الحياة الدنيا، ثم يلقى جزاءه على ما قدم من عمل فيها يوم الفصل بين الخلائق « إن يوم الفصل كان ميقاتاً »(١).

وفى ذلك يقول البيان القرآنى حكاية لهذه القصة المتضمنة لقانون المساواة الإنسانية فى الحيـــاة الدنيا يرزق جميع الناس كافرهم ومؤمنهم من ثمرات ما أودع الله فى خلقه : (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) ولا مدخل هنا للتمييز بينهم بكرم التقوى الذى جعله الله تعالى عنواناً على التفاضل عنده، لأن هذا التمييز بوصف التقوى تمييز بوصف عارض زائد على الحقيقة الإنسانية التى سيقت الآية لبيان مساواة الناس فيها حتى لا ينتقص أحد أحداً منهم بعيب ، ولا يسخر إنسان من إنسان مثله لصورة ظاهره قد تحجب وراءها نفساً شريفة الإحساس ،

---

(١) سورة النبأ (عم يتساءلون) آية ١٧ .

كريمة الشعور حسبما تشير إليه الآيتان السابقتان على هذه الآية: «يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون. يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم»[1].

وتوجيه النبي فى هاتين الآيتين للمؤمنين، ومجىء الخطاب لبيان وحدة الإنسانية فى منبعها الأول بالعنوان العام (يأيها الناس) فى الآية بعدهما وهى موضوع الحديث، لبيان أن خاصة الإيمان ووحدة العقيدة كانت وحدها كفيلة أن تنهنه الساخرين العيابين وتمسك ألسنتهم أن تؤذى بالسوء أحداً من الناس، أى أحد، لأن الإيمان منزهة تحفظ المؤمن عن الانزلاق فى المآثم، فما بالهم إذا انضم إلى وحدة الإيمان والعقيدة وحدة الإخاء فى النشأة والأصل الأول، الذى يجعلهم سواسية فى الإنسانية، نماهم أب واحد وأم واحدة، فهم أخوة أشقة الأرومة، ولا يليق بالأخ أن يتنقص أخاه ويعيبه ويتجسس على عوراته، ولذلك جاءت فى آية الغيبة والظن الآثم التصريح بهذا الإخاء فى معرض التنفير من سوء الظن بالناس وعيبهم وتتبع عوراتهم: (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) وزعم أن التنفير خاص بالمؤمنين قصور بالقرآن الحكيم عن مواضعه من الفهم، لأن الإنسان باعتبار إنسانيته مصون النفس والعرض والمال والعقل والدين، فلا يباح منه شىء إلا بجرم يخرجه عن عموم الحقوق الإنسانية، والقرآن مرتبط السياق فى ترتيب آياته ومعانيه ومقاصده حتى كأنه كله كلمة واحدة.

---

(١) سورة الحجرات آيتا ١١، ١٢.

والتفاضل بالتقوى خاص بدار الجزاء على ما تفيده كلمة (عند الله) من اقتضاء الاختصاص والتقييد، وقد يرشد إلى هذا المعنى الحديث الثابت فى الصحيح من قوله ﷺ: (إن الناس معادن كمعادن الذهب، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا)؛ لأنه يدل بنصه على ثبوت الخيرية فى الجاهلية، وليس لكرم التقوى فيها وجود، وهذه الخيرية التى أثبتها الحديث فى الجاهلية مردها إلى ما كان عند بعضهم من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم مما يكمل إنسانيتهم، وليس مرجعه إلى أمر طائفى أو تفاوت طبقى، فالتفاضل بالتقوى إنما هو بالنسبة للفضل فى الدار الآخرة لا بالنسبة للحقوق والواجبات العامة فى هذه الحياة.

التطبيق العملى لمبدأ المساواة الانسانية

وقد كان أول تطبيق عملى لحقيقة هذه الآية العليا فى الوجود الإنسانى هو ما صنعه فى الإسلام محمد ﷺ، أنموذج الإنسانية الأعلى، والمثل الأكمل لعنوان خلافة الله فى أرضه، والقيم الأول على تبيين مقاصد الذكر الحكيم لقول الله تعالى: «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم»[1] فقد قام بهذه الصيحة المدوية فى أعظم مجتمع ضم أكبر عدد من أبناء البشرية المستظلين بلواء الإيمان فى وحدة العقيدة الإسلامية فى حجة الوداع، روى المجد ابن تيمية صاحب منتقى الأخبار من طريق الإمام أحمد فى مسنده عن أبى نضرة قال: حدثنى من سمع خطبة النبى ﷺ فى أوسط أيام التشريق فقال: (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لافضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟) قالوا: بلغ رسول الله ﷺ قال الشوكانى فى

---

(١) سورة النحل آية ٤٤.

شرحه (نيل الأوطار) . قوله : (ألا إن ربكم واحد) هذه مقدمة لنفى فضل البعض على البعض بالحسب والنسب كما كان فى زمن الجاهلية ، لأنه إذا كان الرب واحداً وأبو الكل واحـــداً لم يبق لدعوى الفضل بغير التقوى موجب .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : (كلكم بنو آدم وآدم من تراب إن الله أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية وفخرها بالآباء ، والناس مؤمن تقى وفاجر شقى ، ورواه الترمذى من حديث عبد الله بن عمر (يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية ، وتعاظمها بالآباء فالناس رجلان رجل برتقى كريم على الله ، وفاجر شقى هين على الله ، والناس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب) .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما قال : أقبل نبى الله ﷺ من غزاة فدعا فاطمة — ابنته — فقال لها : (يا فاطمة اشترى نفسك من الله ، فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً) وقال مثل ذلك لنسوته ، وقال مثل ذلك لعترته ، ثم قال نبى الله ﷺ : (ما بنو هاشم بأولى الناس بأمتى ، إن أولى الناس بأمتى المتقون ، ولا قريش أولى الناس بأمتى ، إن أولى الناس بأمتى المتقون ، ولا الأنصار أولى الناس بأمتى ، إن أولى الناس بأمتى المتقون ، ولا الموالى أولى الناس بأمتى ، إن أولى الناس بأمتى المتقون ، إنما أنتم بنو رجل وامرأة ، وأنتم كجمام الصاع ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى (ورواه مسلم فى صحيحه بلفظ (إن آل أبى ليسوا لى بأولياء ، إنما وليي الله وصالح المؤمنين) .

وروى أن ثابت بن قيس رضى الله عنه جاء إلى مجلس رسول ﷺ — وكان فى أذنه وقر — فلم يجد مجلساً يسمع منه ، فقال لرجل : تفسح ، فقال له : قد وجدت مجلساً فأجلس ، فغضب ثابت وقال : من هذا ؟ قالوا :

فلان ، فقال : ابن فلانة ؟ يعيره بأم له فى الجاهلية ، فقال النبى ﷺ : « من الذاكر فلانة » قال ثابت : أنا يارسول الله ، فقال النبى ﷺ :(انظر فى وجوه القوم) فنظر ، فقال : (ما رأيت ؟) قال : رأيت أبيض وأسود وأحمر فقال : (فإنك لاتفضلهم إلا بالتقوى) .

وثبت فى السيرة النبوية أنه لما كان فتح مكة أمر النبى ﷺ بلالا حتى علا على ظهر الكعبة فأذن ، فقال جماعة من رءوس قريش عتاب بن أسيد ابن العيص ، والحارس بن هشام وسهيل بن عمرو ، وأبو سفيان بن حرب كلاماً ينتقصون فيه بلالا ، فأتى جبريل النبى ﷺ فأخبره بما قالوا فدعاهم وسألهم فأقروا ، فأنزل الله قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم) قال القرطبي: فزجرهم الله عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء ، فإن المدار على التقوى، أى الجميع من آدم وحواء إنما الفضل بالتقوى .

وفى حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : إنى جعلت نسباً وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم أتقاكم ، وأبيتم إلا أن تقولوا : فلان بن فلان ، وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم، أين المتقون؟ أين المتقون ؟ »

وفى حديث أبى ذر أنه كان عند النبى ﷺ فنازعه رجل ، فقال له أبو ذر : يا بن اليهودية فغضب النبى ﷺ وقال له : (ما ترى هاهنا من أحمر أو أسود ما أنت بأفضل منه إلا بالتقوى) وفى حديث البخارى ومسلم عن المعرور بن سويد قال : لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة ، فسألته عن ذلك ، فقال : إنى ساببت رجلا فعيرته بأمه فقال النبى ﷺ : (يا أبا ذر أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ، إخوانكم خولكم جعلهم

الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم).

وخرج الطبرى من حديث أبى مالك الأشعرى عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم، ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم فمن كان له قلب صالح تحنن عليه، وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إلى الله أتقاكم» وفى الحديث الصحيح: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا، ولا تناجشوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا» وروى الطبرى عن النبى ﷺ: (أن الله جاء بالإسلام فرفع به الخسيسة وأتم به الناقصة وأذهب به اللوم فلا لوم على مسلم، إنما اللوم لوم الجاهلية».

وقد مزج الإسلام بجتمعه بالمصاهرة مزجاً أذهب به الفوارق الطارئة على حقيقة الإنسانية ولم يبق إلا على ميزة العمل الصالح، يقوم به المسلم فيسدى به إلى المجتمع خيراً وبراً وإصلاحا وجعل هـذه الميزة هى مناط التفاضل والكفاءة فى الأنساب والمصاهرة.

فقد تبنى أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وهو من غطارفة قريش، سالماً مولاه: وكان مولى لامرأة من الأنصار، وزوجه هندا ابنة أخيه الوليد ابن عتبة بن ربيعة، وتزوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير، وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف، وزوج النبى ﷺ مولاه زيد بن حارثة زينب بنت جحش وهى ابنة عمة رسول الله ﷺ، ثم تزوجها النبى ﷺ بعد أن طلقها زيد ليكون ذلك أساساً لتشريع المساواة فى أعلى ذروتها وأفضل صورها، وليقتلع به جذور الجاهلية من أصلها.

وهكذا جعل نبى الإسلام محمد ﷺ نفسه الكريمة وأهل بيته وأقرب

الناس إليه مثلا لتطبيق دعامة المساواة الإنسانية التى نادى بها الإسلام فى دستوره الأعظم القرآن الكريم تطبيقاً عملياً ، أقامه على وحـــدة الإخاء الإنسانى بين الناس جميعاً ، وأبان عن معقد الفضل بالعمل الصالح ، ليتنافس فيه المتنافسون .

بل إن الإسلام ليذهب فى التطبيق العملى لمبادئه إلى أبعد من ذلك ، تلك المبادئ التى تشبع بها المسلمون الأولون، وجعلوا المساواة الإنسانية فى الحقوق والواجبات عملا من أعمال الحياة ، يشعر الناس بآثارها فى تطبيق نصوص القرآن بمشاركة أهل الكتاب للمسلمين فى هذه الحقوق الإنسانية فقد ذكر القاضى أبو يوسف فى كتاب الخراج : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بباب قوم وعليه سائل يسأل : شيخ كبير ضرير البصر ؛ فضرب عضده من خلفه ، وقال : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى ، قال : فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن ، فأخذ عمر بيده ؛ وذهب به إلى منزله ؛ فرضخ له بشىء من المنزل ، ثم أرسل إلى خازن بيت المـال ، فقال : انظر هذا وضرباءه ؛ فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) والفقراء هم المسلمون وهـذا من المساكين من أهل الكتاب ؛ ووضع عنه الجزية وعن ضربائه ، ورزقه من بيت المـال ؛ وقد سبق القائد المظفر بطل الإسلام والمسلمين (خالد بن الوليد) بهذا التشريع المستنبط من عدالة الإسلام وروح الوحدة الإنسانية فى كتابه الذى عاهد به أهل الحيرة لما جاءوا بزعمائهم يطلبون الصلح على ما صولح عليه أهل الكتاب فى إعطاء الجزية وفى ذلك الكتاب يقول القائد البطل على مسمع من عامة المسلمين وعلم من سائرهم ؛ وفى الطليعة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، فكان إجماعاً (وجعلت لهم ؛ أيما شيخ ضعف عن

العمل أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله) .

وجرى على هذه السنة الإسلامية الحميدة فى سياسة الإسلام وسماحته البالغة حد الروعة والإعجاب الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ؛ فقد جاء فى كتابه إلى عامله على البصرة عدى بن أرطاة : (وانظر من قبلك من أهل الذمة من قد كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه . . . وذلك أنه بلغنى أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس ؛ فقال : ما أنصفناك إن كنا أخذنا منك الجزية فى شبيبتك ثم ضيعناك فى كبرك ، ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه) .

هذا لون من العدالة لا تعرفه الحياة فى غير الإسلام ، لأنه قائم على احترام الإنسانية ومعرفة حقوقها ومساواة كافة الناس فى هذه الحقوق ، حقوق العيش الكريم وعدم التعرض للمهانة والذلة ، لا فرق فى ذلك بين إنسان وإنسان .

وأعمق من ذلك فى تطبيق مبدأ العدالة والمساواة الإنسانية بروح رحيمة تمليها التربية الإسلامية ما رواه البلاذرى فى الفتوح : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند مقدمه الجابية من أرض الشام مر بقوم مجذمين من النصارى — أى مرضى بمرض الجذام — فأمر أن يعطوا من الصدقات ، وأن يجرى عليهم القوت من مال المسلمين ، وهذا معنى أدخل فى باب الرحمة الإنسانية مما يتشدق به المتحضرون فى هذا العصر المنافق المرائى من إنشاء المستشفيات العامة المختلطة التى لا تفرق بين دين ودين ، لأن صنيع الإسلام خص أهل الذمة

بالرحمة ولم يشرك معهم أحداً ، لتكون العناية بهم أتم وأرفق ، وكان صريحاً واضحاً ، وأبى أن يسدل على مبادئه وأعماله ستاراً من النفاق الآثم الذى ظاهره الرحمة وباطنه من قبله النقمة والعذاب الأليم .

والشواهد من التاريخ الإسلامى على ذلك كثيرة يطول الحديث بعرض الكثير منها فى هذا المقام وسيأتى لها مزيد إن شاء الله .

الأصل الثاني

وحدة الدين وأثرها في التشريع الإسلامي العام

الإسلام دين جميع الأنبياء والرسل

وحدة الدين فى شريعة الإسلام صنو وحدة الإنسانية فى الوجود الواقعى حسبما يقرر تاريخ البشرية على هذه الأرض ، وكما تصورهما المصادر الأصلية للتشريع الإسلامى .

وذلك أن وحدة الدين بناء من الحكمة والعلم والمعرفة والإصلاح لبناته أصول الشرائع السماوية ، ودعامته الأولى التى يقوم على أساسها هى وحدة الإنسانية فى أصل نشأتها ومنبعها الأول الذى جمع الله لها فيه جميع العناصر المادية والمعنوية التى تتكون منها حقيقتها .

فإذا تعبد الله هذه الإنسانية الموحدة بنظام تحيا به وتعيش فى ظله ، فلا بد أن يكون ذلك النظام موحداً فى أصوله وقواعده ، متفقاً تمام الاتفاق فى أسسه مهما اختلفت عليه الأزمان وتباعدت الأماكن والأوطان .

ومرجع وحدة هذه الأصول والقواعد إلى معرفة الله تعالى وتوحيده وإخلاص العبادة له وحده قال الإمام أبو جعفر الطبرى فى تفسيره : الدين الواحد الذى لايقبل غيره : التوحيد والإخلاص لله الذى جاءت به الرسل .

ووحدة الأصول ، واتفاق الأسس ، وتماثل القواعد فى هذا المرجع الأصيل لاتمنع من وقوع التفاوت والاختلاف فى التشريع العملى الذى ينظم حياة الأفراد ، وعلاقاتهم الاجتماعية وحياة الجماعات وعلاقاتهم بالأفراد ، لأن هذا التشريع العملى يجرى فى أطوار مختلفة باختلاف أطوار الإنسانية التى مرت بها وتقلبت فيها فى مراحل التاريخ ، وفى هذه الأطوار يقع التفاوت والاختلاف ، بتأثير البيئة والمجتمع ، تبعاً لاتساع الحياة وضيقها ، وكثرة حاجات الناس وقلتها ، فكلما اتسعت الحياة كثرت الحوادث الجزئية التى تحتاج إلى تشريع يضبطها ويعطيها أحكامها الفرعية الملائمة لبيئتها ومجتمعها ، وكلما ضاقت الحياة تضاءلت تلك الحوادث ، وقلت حاجتها إلى التشريع المنظم والأحكام الفرعية الضابطة ، وإلى هذا المعنى يشير القرآن الحكيم فى قوله : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً »(١) ومعناه لكل قوم من أهل الملل المختلفة جعل الله طريقاً يسلكونه يتناسب مع حالهم وبيئتهم فى أسلوب واضح بلغتهم وطرائق استعمالهم ، فالشرعة كالشريعة هى الأحكام الفرعية والعملية التى تختلف باختلاف حياة الأمم التى تشرع لها الأحكام تعبداً أو تنظيماً للحياة لإقامة العدل وتقرير الإحسان .

والمنهاج هو الأسلوب والطريقة التى اختصت بها كل شريعة فى إبراز هذه الأحكام بصورة عملية .

فالشريعة بهذا المعنى مغايرة للدين ، لأن الشريعة تعنى الأحكام الفرعية العملية التى يقع فيها النسخ والتبديل ، والاختلاف والتفاوت بين الملل والشرائع السماوية ، أما الدين فإنه يعنى الأصول العقائدية الثابتة بالبراهين

---

(١) سورة المائدة آية ٤٨ .

القطعية التى لا يمكن وقوع النسخ والتبديل فيها ، ولا يمكن أن تختلف فى حقائقها ملة عن ملة ولادين عن دين ، ويلحق بها فى اعتباره داخلا فى مفهوم الدين الذى جاء به جميع الرسل ، فلا يلحقه الاختلاف والتغيير . الأمر بأمهات الفضائل الخلقية التى لا اختلاف بين العقول على حسنها كالعدل والإحسان والصدق ، والبر والعفة والشجاعة ، والنهى عن أضدادها التى لااختلاف بين العقول على قبحها كالظلم والإيذاء والكذب والجبن، وكذلك دعائم العبادات كالصلاة والزكاة والصوم ، قال الرازى فى تفسير قوله تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً .....) هذه الآية تدل على أن هذه الشرائع على قسمين ، منها ما يمتنع دخول النسخ والتغيير فيه ، بل يكون واجب البقاء فى جميع الشرائع والأديان كالقول بحسن الصدق والعدل والإحسان ، والقول بقبح الكذب والظلم والإيذاء . وقد تعبد الله تعالى بها جميع الأمم إجمالا وحياً منه سبحانه مقروناً بالأصول العقائدية ، والاختلاف إنما وقع فى طرائق أدائها وهيآتها وأماكنها وأزمانها .

وكما تفاوتت الإنسانية فيما وراء حقيقتها العنصرية — بما عرض لها من الخصائص الطارئة عليها وهى سائرة مع الزمن ، تحمل على كاهلها ما كسبته من تجارب عملية ، وما حققته من أهداف عامة بقدر ما أتيح لها من فرص فكرية واجتماعية ، وما قامت به من عمل فى بناء الحضارات على دعائم العلم والمعرفة — تتفاوت الأديان السماوية الموحدة فى الأصول العقائدية وأمهات الفضائل الاجتماعية ودعائم العبادات الشرعية فيما وراء ذلك من الأحكام الفرعية العملية لتؤدى بهذا التفاوت للحياة الاجتماعية مطالبها الناشئة من ضرورة تبادل المنافع والمصالح المشتركة ، وتوفى بحاجاتها من النظام الذى يجب أن يقوم على دعائم العدل والإحسان .

وقد أبرزت الشريعة الإسلامية فى أصولها الوحدة الدينية كما أوحاها الله تعالى لجميع أنبيائه ورسله فى كافة النظم السماوية والملل الإلهية التى تعبد بها الإنسانية فى عصورها المختلفة منذ أول الأنبياء آدم عليه السلام إلى خاتم المرسلين محمد ﷺ فى صورة قوية جلية من النصوص توائم ما أبرزته من وحدة الإنسانية فى إطارها الذى رسمت فيه .

المقصود الاعظم من الدين

وقد اعتمدت شريعة الإسلام فى ذلك على أن المقصود بالدين فى عمومه أمران :

الأمر الأول : معرفة الله تعالى بنعوت الكمال الثابتة لذاته العلية بالبراهين اليقينية وإخلاص العبادة له سبحانه إخلاصاً يؤدى إلى الاستسلام المطلق لأحكامه التعبدية ، ويبعث على الخضوع لمشيئته بالتزام طاعته فى جميع ما أمر به من أمهات الفضائل الخلقية ودعائم العبادات الشرعية ، وفى جميع ما نهى عنه من أصول الرذائل الاجتماعية وأركان المعاصى والمخالفات .

وهذا يقتضى الإيمان بمن يصطفيهم الله تعالى من الأنبياء والرسل لتبليغ وحيه ورسالاته وأحكام دينه الذى ارتضاه لعباده ، إجمالا فى حق جميعهم من غير تفريق بينهم فى التصديق بنبواتهم والإيمان برسالاتهم ، وتفصيلا فى حق من خصه الله بالذكر منهم فى كتبه السماوية .

الأمر الثانى : إقامة نظام إصلاحى يقوم على دعائم العدل والإحسان فى تحديد علائق الناس أفراداً وجماعات بعضهم ببعض مع ملاحظة ما تقتضيه الحياة الاجتماعية فى عصر كل رسالة سماوية من منهج خاص فى الإصلاح يتلاءم مع طبيعة البيئة وأحوال المجتمع .

والأمر الأول هو المعنى الخاص للدين الموحد الذى لا يقع فيه اختلاف بين شريعة وشريعة، وملة وملة ؛ لأنه دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، وهذا المعنى هو المراد بالإسلام الذى هو دين جميع الأنبياء والرسل، لأنه دين الله الذى لا يقبل من أحد غيره .

« إن الدين عند الله الإسلام »[١] « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه»[٢] .

وبهذا المعنى عنون القرآن الكريم للدين الموحد بكلمة (الإسلام) وقد أدارها بمادتها التى تقصد إلى الاستسلام لأوامر الله تعالى والانقياد له بطاعته والتذلل لقهره بعبوديته والإخلاص فى التوجه بها إليه وحده فى صور متعددة أكثر من ستين مرة مما يدل على عظم العناية بتوكيد هذا المعنى وتركيزه فى نفوس البشر لترسخ فيها وحدة الدين الإلهى فتجتمع وحدتهم الإنسانية .

وهذا المعنى للدين الموحد بعنوان الإسلام هو الذي وصى به إبراهيم خليل الله وأبو الأنبياء بنيه ووصى به حفيده يعقوب بنيه ، وقصه علينا القرآن الكريم بأسلوب تتردد فيه مادة لفظ الإسلام لتؤكد معناه فى قوله تعالى : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩ .
(٢) سورة آل عمران آية ٨٥ .

الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون»[1] قال صاحب تفسير المنار : قال الأستاذ الإمام فى الآيات ما معناه : خلاصة هذه الوصية عقيدة الوحدانية فى العبادة وإسلام القلب لله تعالى . والإخلاص له ، وتكرار لفظ (الإسلام) فى هذه الآيات يراد به تقرير حقيقة الدين ، وذلك أن العرب كانت تدعى أن لها ديناً خاصاً بها وأنه الحق ، وإن اختلفت فيه القبائل والشعوب، ومنهم من كان ينتمى إلى إبراهيم على وثنيتهم ، وكذلك اليهود والنصارى كل يدعى ديناً خاصاً به وأنه الحق ، فبينت هذه الآيات أن هذه الدعاوى من التعصب للتقاليد ، وأن دين الله تعالى واحد فى حقيقته ، وروحه التوحيد والاستسلام لله تعالى والخضوع والإذعان لهداية الأنبياء ، وبهذا كان يوصى أولئك النبيون أبناءهم وأممهم فتبين أن دين الله واحد فى كل أمة وعلى لسان كل نبى ، ولذلك قال فى آية أخرى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)[2] فالتفرق فى الدين ما جاء إلا من الجهل والتعصب للأهواء والمحافظة على الحظوظ والمنافع المتبادلة بين المرءوسين والرؤساء ، فالقرآن يطالب الجميع بالاتفاق فى الدين والاجتماع على أصليه العقلى ، وهو التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه والقلبي وهو الإسلام والإخلاص لله فى جميع الأعمال .

(١) سورة البقرة آيات ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) سورة الشورى آية ١٣ .

وعلم من هذا أن لفظ الإسلام والمسلمين فى كلام إبراهيم وإسماعيل ويعقوب يراد به معناه الذى تقدم ، فمن لم يكن متحققاً بهذا المعنى فليس بمسلم ، أى ليس على دين الله القيم الذى كان عليه جميع الأنبياء والمرسلين ، وأما لفظ الإسلام فى عرفنا اليوم فهو لقب يطلق على طوائف من الناس لهم مميزات دينية وعادية تميزهم عن سائر طوائف الناس الذين يلقبون بألقاب دينية أخرى .

ومعنى الإسلام الذى دعا إليه القرآن هو الذى تقوم به الحجة على المشركين ، ويعترف به اليهود والنصارى لأنه روح كل دين ، وهو الذى دعا إليه النبى ﷺ ، والدعوة إلى اللقب ـ أى مجرداً عن معناه المقصود لامعنى لها .

وهذا المعنى الخاص المفسر به الدين الموحد بعنوان الإسلام هو الذى فهمه أئمة الهدى من علماء الإسلام السابقين من آيات القرآن الكريم ، روى الطبرى عن قتادة فى تفسير قوله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) قال : والإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، والإقرار بما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله ، وهو دين الله الذى شرعه لنفسه وبعث به رسله ، ودل عليه أولياءه لايقبل غيره ولا يجزى إلا به .

* * *

والأمر الثانى : هو المعنى الخاص للشريعة ، وهو الذى يقع فيه التفاوت والاختلاف بين شريعة وشريعة ، وملة وملة ويعتريه النسخ والتبديل حتى فى الشريعة الواحدة ، لأنه ينظر فى مقاصده إلى مقدار مابلغته الإنسانية من رشد فى التفكير واستعداد الفطرة للتجاوب مع نظام الكون وكشف أسراره للنهوض بالحياة .

فشرائع آدم ونوح وإدريس من متقدمى الأنبياء والرسل عليهم السلام

ليست كشرائع إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام في نظام الحياة الاجتماعية، والأحكام الفرعية العملية ، وشرائع إبراهيم وموسى وعيسى من الأنبياء والرسل الأقربين فى عصور التاريخ ليست كشريعة خاتم النبيين محمد ﷺ التى ختم الله بها الشرائع السماوية ، تعظيما لقدر الإنسانية التى تعبدها الله بها فى جميع عصورها المستقبلة وأوطانها المتباعدة ، تقديراً لما وصلت إليه البشرية من سمو فى التفكير يفتح أمامها آفاق التقدم الحضارى ، وما بلغته من رشد العقل وإشراق القلب بنور المعرفة وضياء العلم ، فجاءت الشريعة الخاتمة جامعة لجميع ما تحتاج إليه البشرية من نظم تكفل لها فى مستقبلها الاستقرار فى ظل ظليل من العدل والإحسان والتراحم والتعاون والتواسى بين أفراد المجتمع لتشق طريقها نحو التقدم إلى ذروة ما تستطيعه الطاقة البشرية من الرقى والرفعة .

فإذا سمعنا الله تعالى يقول فى القرآن الكريم ممتناً على عباده المسلمين بأعظم ما خصهم به من نعمته بعد أن أظفرهم على عدوهم وأيدهم بنصره، وجمع شملهم حول راية الإيمان والهداية إلى دينه : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً»[1] فلا يصح أن يفهم من الدين الذى امتن الله بإكماله وأتم به نعمته، ورضيه لعباده ديناً بعنوان (الإسلام) إن المراد به هذا (الإسلام) الجغرافى الذى تتمسك به طوائف من الناس بحكم اللقب والوراثة ، لا بحكم العلم والمعرفة والعمل والإخلاص لله تعالى .

وإنما يجب أن يفهم أن المراد بالدين فى الآية الكريمة هو الدين الموحد فى دعوة جميع الأنبياء والرسل وهو المراد بالإسلام فى قوله تعالى: (إن الدين عند الله الإسلام) لأنه هو الدين الذى اصطفاه الله لأنبيائه ورسله وخيرة عباده من السابقين واللاحقين ، وهو الذى وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى

---

(١) سورة المائدة آية ٣ .

وعيسى ، ووصى به إبراهيم بنيه أن يعتصموا بهحتى يلقوا ربهم وهم مسلمون ، وهو ملة إبراهيم التى أوحى الله إلى خاتم أنبيائه محمد ﷺ باتباعها «ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا»[١] وهو هدى الأنبياء والرسل الذين أمر الله نبى الإسلام محمداً ﷺ أن يهتدى بهديهم بعد أن ذكرهم بأسمائهم فى أعقاب قصة استدلال إبراهيم عليه السلام على الربوبية بالأدلة العقلية القائمة على إدراك الحس والمشاهدة ، بياناً لوحدة الدين الحق الذى لا يقبل الله غيره ديناً (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)[٢] وهذا الهدى الذى جمع الله عليه الأنبياء والمرسلين فوحد به الدين الحق، هو الكلمة العادلة المقسطة التى يستوى فى الإقرار بها جميع الملل المتعبدة بوحى السماء ، وهذه الكلمة التى دعا إليها نبى الإسلام محمد ﷺ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ليجمعهم مع المسلمين على الحق وهدى الأنبياء والمرسلين «قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»[٣] وكان ﷺ يكتب هذه الآية فى كتب دعوته أهل الكتاب إلى الدخول فى الإسلام، وكتب بها إلى هرقل يدعوه وقومه بها إلى الإسلام ، لاشتمالها على أصل الدين وروحه الذى اتفقت عليه دعوة الأنبياء ، وهو التوحيد الذى جاءت به كتبهم قبل تحريفها عن مواضعها وبقيت آثاره فيما بين أيديهم من هذه الكتب، ففى التوراة :(إن الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى، أمامى لا تصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة ما مما فى السماء من فوق ، ومما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض لا تسجد لهن ولا تعبدهن) وفى إنجيل يوحنا :(وهذه

---

(١) سورة النحل آية ١٢٣.
(٢) سورة الأنعام آية ٩٠.
(٣) سورة آل عمران آية ٦٤ .

الحياة الأبدية إن يعرفوك أنت الإله الحقيق وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته).

والقرآن الكريم يربط بين معانى الموضوعات الموحدة برباط يشد بعضها إلى بعض حتى كأنها مع تفرقها فى ثنايا سوره وعديد آياته بناء واحد ، فتراه بعد أن شيد الوحدة الدينية تحت عنوان الإسلام ذهب يعرض قصص الأنبياء ويذكر الكثير من أحوالهم مع أممهم وصبرهم على الأذى فى سبيل إقامة دعائم التوحيد والإخلاص لله تعالى ، وإفراده سبحانه بالعبادة ، ثم يقفى ذلك بقوله تعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »[1] روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى تفسيرها لما ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد ، أى أن هذا دينكم دين واحد هو دين الإسلام ، وأنا ربكم فأفردونى بالعبادة . وقال الزمخشرى : الأمة الملة ، وهو إشارة إلى ملة الإسلام ، أى أن ملة الإسلام هى ملتكم التى يجب أن تكونوا عليها ، وهى ملة واحدة غير مختلفة ومثل هذه الآية أختها التى أشرقت من مشكاتها أسلوباً ومعنى قول الله تعالى: « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون »[2] وهذه الآية أفسح مجالا بسياقها وسباقها من الآية السابقة فى شد عروة الوحدة الدينية ، لأنها جاءت بعد آية توجه الخطاب إلى جميع الرسل عليهم السلام بأمر إرشاد وأمر إيجاب بما هو من شيمة الأنبياء والرسل وخلائقهم التى فطرهم الله عليها إعداداً لهم لحمل عبء رسالته إلى عباده ، وهو العمل الصالح وتطييب الرزق، لتشير إلى أن المقصود الحقيق هو اجتماع أتباع الأنبياء وأممهم من كافة أبناء

---

(١) سورة الأنبياء آية ٩٢ .

(٢) سورة المؤمنون آية ٥٢ .

الإنسانية على ملة واحدة ، هى ملة الإسلام ، وعلى عمل واحد هو العمل الصالح الذى نيط به التفاضل بين الأفراد الذين تجمعهم وحدة الإنسانية .

وتوجيه الخطاب للرسل لأنهم القدوة لأممهم ، وسبق أمر الإرشاد أمر الإيجاب للدلالة على إرشادهم إلى ما يؤكد أمر الوحدة الإسلامية والدينية بينهم ، فإنهم إذا أكلوا ما يأكل الرسل من الطيبات التى لاتبعة فيها ولا مسئولية فى تناولها من كل ماتستطيبه النفوس الزكية وتستحليه الأذواق السليمة لم يقع بينهم تنازع يفرق وحدتهم ، ويعيشون أخوة متحابين فى الدين والدنيا ، والتعبير بالأكل تمثيل ، والمراد تطييب الرزق بتحصيله من طرقه العادلة الرشيدة ، ولذلك عندما أفرد الأمر بأكل الطيب من الرزق ولم يتبعه شيئاً من طلب العمل الصالح بصفة عامة سوى شكر النعمة الخاصة ، ولم يقفه بوحدة الدين والملة توجه الأمر نصاً إلى المؤمنين خاصة فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون» فهذا أمر إرشاد وامتنان ومن ثم أعقبه بطلب الشكر على هذه النعمة بخصوصها ، روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً)، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال (يأيها الرسل كلوا من الطيبات وأعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم) .

وقال تعالى : (يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) والمراد تعظيم شأن تحصيل الطيب من الرزق ، لأنه عماد طهارة القلب الذى هو مستودع الإخلاص ومستقر التوحيد ، ولهذا قال راوى الحديث : إن النبى ﷺ ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء يارب يارب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى

يستجاب له ، ليبين أثر تطييب الرزق فى إعداد النفس لموقف التضرع بين يدى الله تعالى ، بعد أن لمح إليه بمساواة اتباع الأنبياء من الأمم بالمرسلين فى طلب تحصيل الرزق من أطيب طريق .

* * *

وللقرآن الكريم أسلوب فى تصوير الوحدة الدينية ، يخرجها مخرج الحقائق القائمة التى يخاطب بها المسلمون خطاب اختصاص ليشعرهم بحق القوامة على الدعوة إليها وحياطتها بكل ما يحفظها من التفرق والشتات ،وفى ذلك يقول الله تعالى : (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فهذه الآية تخاطب المسلمين بأن الله الذى (لهمقاليدالسموات والأرض) اجتباهم لحمل رسالة الإنسانية ، ودعوة أبنائها فى مشارق الأرض ومغاربها إلى كلمة سواء بينهم ، هى كلمة (الإسلام) دين جميع الأنبياء والرسل الذى أوحاه الله إليهم ووصاهم به ، وأمرهم بالدعوة إليه ،وخص بالذكر أكابرهم نوحاً أول الرسل ، ومحمداً خاتم النبيين والمرسلين ، وإبراهيم خليل الله وأبا الأنبياء ، وموسى كليم الله ، وعيسى بن مريم روح الله وكلمته التى ألقاها إلى مريم الطاهرة البتول ، تنويهاً بشأنهم لأنهم أصحاب أعظم الشرائع وأكثر الأتباع الذين حفظ التاريخ لهم ذكراً مشهوراً متعا لما عند المخاطبين .

قال الرازى فى تفسيره : والمقصود بالآية أن يقال : شرع لكم من الدين ديناً تطابقت الأنبياء على صحته ، والمراد منه الأمور التى لاتختلف باختلاف الشرائع وهى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ،والإيمان يوجب السعى فى مكارم الأخلاق والاحتراز عن رذائل الأحوال . . .

ثم قال : قوله تعالى : « أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »[1] مشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب فى الشرع والعقل ، وبيان منفعته أن النفوس إذا توافقت صار كل واحـــد منها معيناً للآخر فى ذلك المقصود المعين ، وكثرة الأعوان توجب حصول المقصود ، أما إذا تخالفت تنازعت وتجادلت فضعفت فلا يحصل المقصود ،وحصول التنازع ضد مصلحة العالم ، لأن ذلك يفضى إلى الهرج والمرج والقتل والنهب ، فلهذا السبب أمر الله تعالى فى هذه الآية بإقامة الدين على وجه لا يفضى إلى التفرق .

هذا المعنى الجليل الذى غاص عليه هذا الإمام واستنبطه من الآية من أقرب وجوهها وصريح ألفاظها هو الذى يدندن حوله الداعون إلى الوحدة الإنسانية من متألهى هذا العصر ومتفلسفيهم ، وينادى به المتعاقلون من ساسته ، فهل تثوب الإنسانية إلى رشدها وتقرأ القرآن الحكيم بعقلها وقلبها لتعرف أن الدين الحق هو دين جميع الأنبياء والرسل الذى يدعو إلى الإخاء والمحبة فى ظل الوحدة ، ويحذر أشد التحذير من الشقاق والفرقة ؟ وهو هذا الدين الذى جاء به خاتم النبيين محمد ﷺ .

وقال القاضى أبو بكر بن العربى فى أحكامه : بعث الله نوحاً بتحريم الأمهات والبنات والأخوات ووظف عليه الواجبات ، وأوضح له الآداب فى الديانات ، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر بالأنبياء صلوات الله عليهم ، واحداً بعد واحد، وشريعة إثر شريعة حتى ختمها الله بخير الملل، ملتنا على لسان أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ ، فكان المعنى : أوصيناك يا محمد ونوحاً ديناً واحداً ، يعنى فى الأصول التى لا تختلف فيها الشريعة ، وهى

---

(١) سورة الشورى آية ١٣ .

التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج والتقرب إلى الله بصالح الأعمال ، والزلف إليه بما يرد القلب والجارحة إليه ، والصدق والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة وصلة الرحم وتحريم الكفر والقتل والزنى والإذاء للخلق كيفما تصرفت ، والاعتداء على الحيوان كيفما دار،واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات فهذا كله مشروع ديناً واحداً وملة متحدة لم تختلف على ألسنة الأنبياء ، وإن اختلفت أعدادهم وذلك قوله تعالى : (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) أى اجعلوه قائماً ، يريد دائماً مستمراً محفوظاً مستقراً من غير خلاف فيه ولا اضطراب ، فمن الخلق من وفى بذلك ، ومنهم من نكث، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، واختلفت الشرائع وراء هذا فى معان حسبما أراده الله مما اقتضت المصلحة وأوجبت الحكمة وضعه فى الأزمنة على الأمم . (١ هـ)

عناية الاسلام الفائقة بالوحدة الدينية :

وقد عرف المسلمون الذين استنارت ضمائرهم بأنوار مشاهدة الوحى ، وتعاليم النبوة لهذه القوامة على الوحدة الدينية ـ التى ندبهم الله لحمل رسالتها ـ حقها عليهم ، فقاموا أمناء على تبليغها للإنسانية ، وأداء لحق الوراثة النبوية التى وردت فى الحديث الشريف : (العلماء ورثة الأنبياء) فأثنى الله عليهم ثناء كريماً ، ووعدهم فأجزل لهم العطاء ، ناعياً على الذين خانوا أمانة الله فيما عهد إليهم من قبل المسلمين من أمر هذه الوحدة التى شتتوا شملها ، ومزقوا جمعها ولم يحفظوا عهد الله فيها ، ففرقوا بين الله ورسله بإيمانهم ببعض وكفرهم ببعض إعراضاً عن الحق ، واتباعاً لأهوائهم ، وميلا مع شهواتهم : «إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم

الـكافرون حقاً وأعتدنا للـكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحـــد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيما » (١) .

فالله تعالى يسجل فى هذه الآيات على الذين يفرقون وحدة الدين الإلهى ، ويمزقون بذلك شمل الإنسانية ، ويشتتونها طوائف وشيعاً — الجحود لآياته والـكفر به سبحانه وبرسله الذين أرسلهم لتجميع ماتفرق من الأمم والشعوب تحت راية التوحيد الإلهى ، والتوحيد الإنسانى ، ويتوعدهم بأشد ألوان العذاب بعد أن يؤكد أبلغ التأكيد مادمغهم به وسجله عليهم من شنار الـكفر جحوداً أوعناداً وإعراضاً عن بينات البراهين ، ثم يتبع ذلك التنويه بشأن المؤمنين الذين وفوا بعهد الله ولم ينقادوا لهوى أنفسهم ، بل نصبوا للبرهان عقولهم وقلوبهم ، يفهمونه بهما ،ويؤمنون بما تقبله عقولهم وتثلج له قلوبهم ، وتطمئن عليـه أفئـدتهم ، فعقدوا أواصر الإخاء والمحبة بين أبنـاء البشرية فى ظل الوحـدة الدينية التى تقتضى الإيمان بجميع الرسل من غير تفرقة بين أحـد منهم ، لأن الوجه الذى ثبت منـه رسالة بعضهم هو عينه الوجه الذى يثبت رسالة سائرهم ، فـلا معنى للتفريق بينهم ، إيماناً ببعضهم وكفراً ببعضهم ، لأن هذا تفريق بين الله الذى تفضل بإرسالهم وبينهم ، ورد على الله وتـكذيب لأخباره الصادقة، وهو اعتقاد مدخول لا وزن له عند الله ، بل هو كفر محض الـكفر بالله وبجميع رسله ، والمتمسكون به هم الـكافرون حقاً الذين أعد الله لهم فى يوم الجزاء عذاباً مذلا لـكبريائهم الفاجرة ، مهيناً لتعززهم فى الدنيا بصغارهم فى الآخرة .

(١) سورة النساء آيات ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ .

أما الذين آمنوا بالله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم فى الإيمان برسالاتهم فأولئك الذين وفوا بعهد الله فى شد عرى الإخاء الإنسانى تحت راية الوحدة الدينية ، ولم يتخذوا الدين مطية لأغراضهم وأهوائهم ، ولم يتلاعبوا بقدس الإيمان بالله ورسله ، وهم الذين سوف يعزهم الله برضوانه ويكرمهم بمغفرته وواسع رحمته .

ويجرى على سنن هذه الآيات فى إفادة التنويه بشأن القيمين على رعاية الوحدة الدينية الذين تشبعوا بحكمة الإسلام ، وامتزجت نفوسهم بمبادئه وأحكامه،وتكيفوا فى صورهم وأرواحهم بآدابه وحكمه ، فكانوا فى أشخاصهم نماذج حية لأسراره قول الله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير »(١) .

فانظر إلى افتتاح الآية كيف يضع الأساس لدعائم الوحدة الدينية من طريق الإيمان العقلى والاقتناع الوجدانى على سواء ، فإيمان الرسول برسالة نفسه وإيمانه بما أنزل إليه من ربه هو الركن الأول فى تحقيق تبليغ الرسالة وإثبات النبوة ، ولهذا ورد من طريق صحيح أن النبى ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية قال : (ويحق له أن يؤمن) .

وإثبات النبوة وتحقيق تبليغ الرسالة هما الدعامة الأولى فى إيمان المؤمنين بهذه الرسالة .

ولما كان إيمان الرسول برسالة نفسه وبما أنزل إليه من ربه شاملا لجميع عناصر العقيدة الإيمانية لم يحتج فى جانبها إلى تفصيل تلك العناصر وذكرها بأسمائها الخاصة ، لأن الإيمان بما أنزل إليه من ربه جمعها وحياً وعقيدة ،

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٥ .

وكان التعبير بما أنزل إليه من ربه مغنياً عن كل تفصيل .

أما إيمان أفراد المؤمنين فهو مستق بما أنزل إلى الرسول من ربه ، فلابد من بيانه وتفصيله لهم ليعلموه ويتيقنوه بالبرهان حتى لاتهزه أعاصير الشكوك والريب ، لذلك جاء فى جانبهم تفصيل دعائم إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

والإيمان بالله رباً واحداً عليماً حكيماً قديراً ، له الأسماء الحسنى وصفات الكمال العليا أساس هذه الدعائم ، والملائكة سفراء الله إلى الخلق وكل الله إليهم بإذنه كثيراً من أحوال الكون ، وهم عباد مكرمون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون طبيعة جبلهم الله عليها وهم بأمره يعملون .

والإيمان بجميع كتب الله تعالى بأنها منزلة من عنده ليتعبد بها من بلغوا دعوتها والإيمان بجميع رسله ، لا يفرقون بين أحد منهم ، فلا يؤمنون برسالة بعض ، ويجحدون رسالة بعض ، لأن هذا تفريق بين الله ورسله ، نعاه الله فى الآية السابقة على بعض الأمم الضالة ، وشأن المؤمنين أنهم يؤمنون بجميع رسل الله إلى الخلق كل واحد منهم يبلغ ما خصه الله به من وحيه التشريعى فى ظل الوحدة الدينية فى الأصول والقواعد ، التى لا تختلف باختلاف الرسل ولا باختلاف العصور والأزمان والأماكن .

ويعجب الناظر بعين العقل والتأمل فى رياض القرآن الكريم من الحفاوة التى يوليها هذا الكتاب الكريم لوحدة الدين الإلهى ، وقصده إلى إثارة الدوافع الإنسانية فى الأفراد والجماعات لتجميع البشرية أسرة واحدة فى ظل دين الله الموحد ، فالقرآن لا يكاد يفرغ من قضية التسوية بشأن الموحدين لدين الله الذين ندبهم الله للقوامة على هذه الوحدة ورعايتها، والنعى على المفرقين لما جمع الله عناداً حتى يعود إلى قضية الوحدة بعد الاستطراد

إلى بيان ما ارتكب المفرقون لوحدة الدين من شطط وإعنات لرسول المؤمنين الموحدين لرسالات الله فى أصولها الثابتة بأسئلة لا يريدون منها إلا العناد والشغب على الرسول ليفتنوا المؤمنين به ويصدوهم عن متابعته ، كما شغبوا على من زعموا الإيمان به ، نبيهم ورسولهم ومخلصهم من العبودية موسى كليم الله عليه السلام ، إذ سألوه أكبر مما سألوا من لم يؤمنوا به محمداً ﷺ ، فقالوا لموسى (أرنا الله جهرة) أثراً من مآثر الوثنية التى كانوا عليها فظنوا بالألوهية ، ما كان للأوثان والتماثيل من التجسيم والتحديد ، فما قدروا الله حق قدره .

بل إنهم شغبوا على من كان وجوده إعجازاً وحجة قاطعة توجب الإيمان والتسليم ذلك عيسى بن مريم ، كفروا به وبهتوا أمه الطاهرة البتول ، وكان هذا الاستطراد تسلية لخاتم النبيين ﷺ . فكأن الله يقول له: لا تأبه لهؤلاء المشاغبين ، ولا تبال بهم ولا ترفع لإعناتهم رأسك ، فهم قوم بهت ، ينكرون ما يعرفون ، وقد عرفوك حق المعرفة ، وعرفوا رسالتك فهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، فما شغبهم عليك بأظهر فى صور العناد وبلادة العقل من شغبهم بنبيهم ومنقذهم من العذاب المهين . ولو كانوا يطلبون الدليل والبرهان لكان فيما أنزله الله إليك بعلمه وحكمته ، وشهد بإنزاله هو وملائكته من الكتاب المعجز ما يجعلهم ينقادون إلى الإيمان بك بزمام الطاعة والتسليم .

بعد هذا الاستطراد الحكيم يعود القرآن إلى الوحدة الدينية من قريب ، يذكرها بالصورة التى يتوجه فيها بالخطاب إلى القيم الأعظم على الدعوة إلى وحدة دين الله بين أبناء البشرية محمد خاتم النبيين ﷺ فيقول الله له : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان

وآتينا داود زبوراً . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً .رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما »(١) .

هذه الآيات الكريمات تضع قضية الوحدة الدينية فى موضعها الصحيح من حياة البشرية ، فهى من الله العلى الأعلى لخاتم النبيين محمد ﷺ يقول له فيها : إنا بما لنا من عظمة الألوهة وجلال الكبرياء أوحينا إليك من أصول الدين الإلهى وقواعده مثل الذى أوحينا إلى أول رسلنا نوح وإلى النبيين الذين تتابعوا بعده لهداية الإنسانية ممن درست معالم شرائعهم وخفيت آثار دعوتهم على التاريخ فلم يحفظها فى سجلاته فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام، ومثل الذى أوحينا إلى أبيك إبراهيم الخليل،وإلى أبنائه وحفدته ومن كان من ذريته من الأنبياء والرسل المذكورين فى تاريخ الرسالات الإلهية بآثارهم المعروفة لأهل عصرك ، وسمى القرآن الكريم فى الآية الكثير منهم بأسمائهم لأنهم أصحاب الشرائع والملل المأثورة،ثم عم فى الرسل تعميماً يشملهم جميعاً ما ذكر منهم وما لم يذكر (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) مما يفيد أن الوحدة الدينية لم يشبها فى تاريخ الوحى الإلهى أدنى شائبة ،وأنها كانت فى الوحى المعلوم تاريخه الموجودة آثاره هى نفسها فى الوحى الذى لم يقص علينا أنباءه » .

ثم خص الله تعالى موسى عليه السلام فأبرزه فى الذكر بأخص نعوته النبوية ، ذلك هو نعت التشريف بصفة التكليم من العلى القدير ،لأن الحديث كان يجرى مع الذين شغبوا عليه ولم يردعهم هذا النعت العلى فى صفات المرسلين، وكان ذلك تسلية لخاتم النبيين عن شغبهم عليه وإعناتهم له .

---

(١) سوره النساء آيات ١٦٣،١٦٤،١٦٥ .

ثم بينت الآيات أن الله تعالى تفضل بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين لقطع أعذار العباد ودحض حجتهم تحقيقاً للعدل الإلهى : «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا»(١) .

وقد تكرر فى القرآن الكريم توجيه المسلمين باعتبارهم القوامين على تراث النبوات إلى رعاية وحدة الدين الإلهى على نهج ما جاء فى الآيات الثلاث بأساليب وصور مختلفة ، تستهدف كلها إثارة العقل الاجتماعى فى الإنسان إلى الاعتصام بوحدة الدين الإلهى كما هى فى واقع الحياة وفى شرائع الله ووحيه إلى جميع أنبيائه ورسله .

هذا التكرار فى نصوص الآيات لمعنى الوحدة الدينية يوحى إلى القيمين على تبليغ رسالة الإسلام بحق الوراثة النبوية أن يجعلوا وحدة الدين الإلهى بحرصهم عليها ودعوتهم الناس إليها حقيقة وجودية من حقائق الحياة التى يعيش الناس فى ظلها ويحيون تحت رايتها ليحصلوا على أكبر قسط من الاستقرار النفسى والسلام الاجتماعى ؛ لأنهم فى ظل هذه الحقيقة يشعرون بوشائج الإخاء والمحبة تربط بينهم وتجمع متفرقهم .

ولما كان خليل الله إبراهيم عليه السلام ، والأنبياء من ذريته محور الحديث عن الوحدة الدينية فى الآيات الثلاث السابقة ، لأن أهل الديانات الإلهية يؤمنون به ويعظمونه ، فكانوا أجدر باتباعه والتمسك بملته ، ملة الإسلام التى وصى بها بنيه ؛ فقد جاء الحديث فى كثير من الآيات القرآنية جارياً مجرى الحديث فى الآيات الثلاث استجلاباً لإيمان أهل الكتابين من اليهود والنصارى الذين يزعمون أنهم على ملته ودينه ، وإن كان كل فريق

---

(١) سورة الإسراء آية ١٥.

منهم يبهت الآخر ويكذبه ، ويدعى أن إبراهيم عليه السلام كان على ملتهم دون سواها ، وأن غيرهم ليسوا على شيء من أمر الدين: «وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء » (١) فأكذبهم الله جميعاً فى زعمهم على إبراهيم ، ورد عليهم أبطولتهم بقوله تعالى : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » (٢) ولكن العناد أعمى بصائرهم فلجوا فى أغاليطهم : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » (٣) بزعمهم أن اليهودية فى زعم اليهود هى ملة إبراهيم وبزعم أن النصرانية فى زعم النصارى هى ملة إبراهيم ، وهو عليه السلام عند الفريقين إمام المهتدين الهادين كما هو كذلك عند الله وفى دينه الذى ارتضاه لعباده المؤمنين ، وقد رد الله عليهم هذه الأضلولة الباغية فى زعمهم أن إبراهيم على ملتهم مجيباً لهم ساخراً من عقولهم بعد أن نفاها خبراً مسلماً فقال : « يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون (٤) » ثم أرشد خاتم النبيين محمداً ﷺ إلى ما يقطع حجتهم بقوله: « قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين (٥) » وقد أجمل هنا بطى عنوان ملة إبراهيم وهو الإسلام ونشره صريحاً فى آية أخرى : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » وخلاصة هذا الرد القاطع لأباطيلهم أن الهدى والاهتداء ليس كما زعمتم فى يهوديتكم أو نصرانيتكم وإنما الهدى والاهتداء فى ملة إمام الهداة المهتدين باعترافكم وتمسحكم بأعتابه إبراهيم خليل الله عليه السلام ، فاتبعوها وأسلموا لله رب العالمين كما أسلم هو وبنوه ، وانقادوا لطاعة الله بتصديق رسوله الذى

---

(١) سورة البقرة آية ١١٣ .

(٢) سورة آل عمران آية ٦٣ .

(٣) سورة البقرة آية ١٣٥ .

(٤) سورة آل عمران آية ٦٥ .

(٥) سورة البقرة آية ١٣٥ .

قامت البراهين القاطعة على صدقه كما كان إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان على ملة فريق منكم ولا كان من المشركين .

ثم بين تعالى أن ملة إبراهيم لم تكن ملته وحده ، ولكنها كانت دين جميع الأنبياء والرسل ومن ثم أمر عباده المؤمنين أن يصدعوا قلوب الجاحدين ، ويجهروا بوحدة الدين الإلهى « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »(١) أى لا تكن دعوتكم إلى شئ خاص بكم ، يفصل بينكم وبين سائر أهل الأديان السماوية ، بل انظروا إلى جهة الجمع والاتفاق وادعوا الناس إلى أصل الدين وروحه الذى لا خلاف فيه ولا نزاع ، وهو التسليم بنبوة جميع الأنبياء والمرسلين مع الإسلام لله رب العالمين لا نعبد إلا الله ولا نفرق بين أحد من رسله .

وقد جاء هذا النص الموحد فى ألفاظه وأسلوبه ومعناه — تقريباً — فى موضع آخر من القرآن الكريم لتأكيد مضمون الوحدة الدينية ، وإثارة الدوافع الإيمانية على اقتحام العقبات فى سبيل الدعوة إليها ، ونشر رايتها بين كافة الأمم والشعوب ، ففى سورة آل عمران يقول الله تعالى موجهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه محمد ﷺ ، بعد أن سجل على أهل الكتابين حيدهم عن الحق والهدى حسداً من عند أنفسهم وبغياً على الله وعلى رسله بالتفريق بين الله ورسله وبين بعض الرسل وبعضهم الآخر ، يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض . «قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق

---

(١) سورة البقرة آية ١٣٦ . تفسير المنار جـ ١ .

ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (١) .

فهذا الإسلام الذى نحن عليه ، وبه متمسكون هو دين الأنبياء والمرسلين الذى لايقبل الله من أحد ديناً غيره ، وتوجيه الخطاب هنا إلى النبي ﷺ ، وتوجيهه هناك إلى المؤمنين للدلالة على وحدة الرعاية الواجبة في تبليغ رسالة وحدة الدين الإلهي ، وهذه الرعاية حق على النبي ﷺ وحق له بالأصالة والوحى نصاً ، وهى عـــلى الأمة ولها بالوراثة فى التبليغ والتأسى تكليفاً .

والقرآن الكريم مع احتفاله الشديد بمناقشة أهل الكتاب فى تثبيت وحدة الدين الإلهى بين البشرية ليجمع كلمتهم حتى يكون الدين مصدر سعادة الإنسانية واتفاقها وتعاونها على البر والهدى ، نراه يرشد أهله إلى الطريق الأقوم فى إنجاح مسعاهم لهداية الناس ، فيقول : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » (٢) أى لاتكونوا فى تبيين الحق مع الذين علموا منه ماعلمتم ، وقد جاءهم به من الله كتاب فيه هدى ونور ، وإن جحدوا به كفراً وطغياناً ، إلا محاجين بالطريقة الحسنى ، التى هى أمثل الطرق وأعدلها فى إقامة الحجة نيرة باصرة مع لين الجانب وعدالة التجاذب فى البحث وحسن العرض ووضوح العبارة ونصاعة الأسلوب حتى تشرق الحقيقة بنور البرهان وعندئذ يكون من كابر الحق ظالماً ، فيرد عن ظلمه بما يكفه عن الإفساد فى الأرض والإضلال للعقول .

---

(١) سورة آل عمران آية ٨٤ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٤٦ .

ثم أمر الله المؤمنين أن يقوموا بحق وحدة الدين الإلهى ، دعاة إليها ، هداة بهديها ، وقولوا آمنا بالحق الذى أنزل إلينا على قلب نبينا فى كتابنا الجامع لما فى كتبكم من أصول الهداية وقواعد الملة الإلهية ، وآمنا بالحق الذى أنزل إليكم على ألسنة أنبياء اللهورسله إليكم ، لأنه هو الحق الذى أنزل إلينا كما أخبرنا ربنا فى كتابه ، لا كما توارثتموه عن أحباركم ورهبانكم محرفاً عن مواضعه ، يحلون لكم فيه ويحرمون من عند أنفسهم ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، حتى اتخذتموهم بهذا التحليل والتحريم المبتدع أربابا من دون الله الذى هو إلهنا وإلهكم ، نعبده وحده مخلصين له الدين ، ونحن له مسلمون منقادون لطاعته ، وذلك هودين الله الذى أوحاه إلى جميع أنبيائه ورسله ، وبه أمر خاتم النبيين محمد ﷺ أن يقيم له وجهه حنيفاً على ملة إبراهيم التى فطر الله الناس عليها وفيها يقول تعالى « فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١) .

وقد خص الله تعالى الإسلام بخصيصة لاتوجد فى غيره من سائر الأديان، ذلك أن الإسلام يعتبر العمل بأحكامه وتنفيذ شرائعه ، والتكيف بروحه وآدابه ، وتحقيق مبادئه تحقيقاً عملياً فى حياة الناس حتى يكون أهله مثلا إنسانية لحقائقه ، ونماذج حية تتحرك مجسمة لفضائله — جزءاً مكملا لحقيقة الإيمان به .

فإذا رأينا القرآن الكريم — وهو دستور الإسلام وقانونه الأعظم — يدعم بنصوصه حقيقة من الحقائق باعتبارها مبدأ من مبادئ الإسلام ،

---

(١) سورة الروم آية ٣٠ .

فإن علينا أن ننظر إلى هذه الحقيقة فى التشريع العملى لنظام الحياة الإسلامية، لنعرف مكانها من حياة المسلمين أفراداً وجماعات لنتبين مالهذه الحقيقة من قدر فى رعاية هذا الدين الإلهى الإنسانى القويم .

وقد عرفنا دون أن نستقصى ونستوعب — احتفال القرآن الكريم فيما عرضناه من نصوص آياته — وهو قليل جداً من كثير جداً — عناية الإسلام بمبدأ وحدة الدين الإلهى ، وتوكيد أن الإسلام لم يكن ، ولن يكون ديناً جنسياً ، ولا ملة طائفية ، وإنما هو دين الإنسانية كلها لأنه دين جميع الأنبياء والرسل ، أوحاه الله إليهم جميعاً ، وجعله ميثاقهم الذى أخذوه على أممهم بأمر الله ليكونن أمة واحدة فى التصديق بما آتاهم الله من كتاب وحكمة ثم جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ليؤمنن به ولينصرنه ، وهذا هو معنى قول الله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ، أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ، قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين »(1) .

قال الأستاذ الشيخ محمد عبده : « هذا رجوع إلى أصل الموضوع الذى افتتحت السورة بتقريره وهو التنزيل وكون الدين عند الله واحداً ، وهو ما كان عليه إبراهيم وسائر النبيين .

وهذه الآية من أقوى دعائم الإسلام فى دعوته إلى وحدة الدين الإلهى، وهى حجة على الذين يجعلون الدين سبباً للخلاف والنزاع ، وإثارة العداوة والبغضاء بين أبناء الإنسانية ، وفى ختمها بهذا الوصف إعظام وتبجيل

---

(١) سورة آل عمران آية ٨١ * تفسير المنار ج ٣ .

لوحدة الدين ، وأن من مقتضى وحدة الميثاق وأخذه على جميع أمم الأنبياء وإقرارهم به ، وأخذهم على أنفسهم عهد الله بهـذا الإقرار وشهادة أنبيائهم عليهم ، وشهادة الله العليم الخبير مع الأنبياء على الأمم أن يكون دين الله واحداً لأن دعاته متفقون متحدون ، فمن تولى بعد الميثاق على ذلك عن هذه الوحدة واتخذ الدين آلة للتفريق والعدوان ولم يؤمن بالنبي الخاتم المصدق لمن تقدمه ولم ينصره كأولئك الذين يجحدون نبوة محمد ﷺ فأولئك هم الفاسقون الخارجون من ميثاق الله الناقضون لعهده ، وليسوا من دينه الحق فى شىء .

التطبيق العملى
لمبدأ الوحدة الدينية
فى الإسلام

وقد طبق النبى ﷺ هذا المبدأ العملى فى أول عمل تعبـدى بدأ به التشريع الإسلامى فى المدينة المنورة بعد هجرته وأصحابه إليها،وفيها كان وضع أساس النظام الجماعى فى التشريع لأمة الإسلام ، أى للناس أجمعين .روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قدم النبى ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فسأل :ما هذا ؟ فقالوا:يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبى ﷺ لأصحابه : (أنتم أحق بموسى منهم فصوموا) .

ومعنى هذا الحديث أن الإسلام هو دين الأنبياء والمرسلين ، لا دين لهم سواه ، وموسى كليم الله من أئمة الأنبياء وسادة المرسلين، فالأمة التى تتمسك بدين الإسلام وتدعو إليه أحق بتعظيم ذكرى أيامه ، وحفظ تراثه ، لأنه أحد الدعاة إلى هذا الإسلام دين الله الذى بعث به جميع الأنبياءوالمرسلين.

وفى حديث آخر يرويه البخارى أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما

أن النبي ﷺ قدم المدينة ،فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال (ما هذا؟) قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى. فقال النبي ﷺ : (إنا أحق بموسى منكم) .

وظاهر أن وجه أحقيته ﷺ بموسى عليه السلام من اليهود قومه ، أنه أخوه فى الوحى والنبوة ووحدة الدين الإلهى، فهو الحفيظ على تراثه الدينى، الحرى بالقيام بأمره التشريعى تأكيداً لوحدة الدين السماوى ، لأنه جاء بالناموس الذى أنزل على موسى ، فدعا إليه ، فكان أول من أعرض عنه هؤلاء اليهود الذين فرقوا الناس شيعاً فى الأرض وحرفوا كلم الله التى أنزلها على موسى فى التوراة عن مواضعها ، وأبو أن يؤمنوا بهذا النبى الخاتم للنبوة وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وأن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون .

وقد جاءت أخوة الأنبياء فى الدين صريحة فى قول النبى ﷺ فيما يرويه البخارى. وقد ذكر عنده عيسى بن مريم عليه السلام: « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة ، والأنبياء أخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد » .

وقد اشتمل هذا الحديث على أمرين :

أحدهما : أولوية خاتم النبيين محمد ﷺ بعيسى بن مريم عليهما السلام، وذلك لأنه أخوه الأقرب إليه فى سلك الأنبياء، ليس بينهما نبى ، كما وردت به بعض الروايات .

ثانيهما : عقد آصرة الأخوة بين جميع الأنبياء والمرسلين ، بسبب وحدة الدين .

وقد بين نبي الإسلام محمد ﷺ مكانه من أخوته الأنبياء والمرسلين أحسن بيان ،فضرب لنفسه ولهم مثلا أبان فيه عن مقامهم ومقام رسالاتهم، وأن كل رسالة اتخذت مكانها فى زمانها الذى جاءت فيه ، فكانت رسالتهم متفقة متحدة متعاونة فى تعاقبها تعاقب لبنات البناء فى أقدارها الخاصة يشد بعضها بعضاً . روى البخارى فى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إن مثلى ومثل الأنبياء فى قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به:ويعجبون له ، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين) .

ومغزى هذا الحديث الشريف أن شرائع الأنبياء ورسالاتهم هى فى الحقيقة لبنات هذا البناء الذى ضرب مثلا لأخوة الأنبياء ووحدة شرائعهم والذى بينها من توافق فى المقاصد والأصول هو بمثابة مايشد لبنات البناء بعضها إلى بعض حتى تتوحد فتصبح كلها شيئاً واحداً ، فنبى الإسلام محمد ﷺ يقول : إن بناء الشرائع السماوية واحد ، تألف من لبنات متشابهة وبدأ أساسه منذ أول رسالة إلهية إلى البشر ،واستمر يعلو ويتماسك بظهور الرسالات المتعاقبة حتى انتهى الى هيئة خاصة لفتت بحسنها وجمالها أنظار الناظرين لولا موضع لبنة من زاوية جعلت الطائفين حول البناء يعجبون من نقص هذه اللبنة التي يتوقف عليها كمال البناء وحسنه ، واللبنة مثل ضربت لرسالته الخاتمة المكملة لسائر الشرائع والرسالات الإلهية ، فكما أن هذه اللبنة ختمت لبنات البناء الجميل وأكمل بها إكمالا لا يحتاج بعده إلى شىء سوى الحفاظ عليه وصيانته وتنظيفه مما عسى أن يعلق به فقال : فأنا تلك اللبنة التى ينتظرها الناس ، أى المكملة لبناء البيت وحسنه ،وأنا خاتم النبيين ، ورسالتى خاتمة الرسالات ، وشريعتى آخر الشرائع ،لا تحتاج بعدها

الحياة إلى رسالة أخرى ، ولا تكون بعد شريعتى شريعة ، يوحى بها الله تعالى إلى أحد من البشر ، لأنها حوت من الأصول والقواعد ما حوته سائر شرائع الأنبياء والمرسلين ، ووكلت إلى العقل الإنسانى — بعد أن بلغ فى ظل الرسالات الإلهية المتعاقبة رشده — النظر فيما يفيد الحياة ويعلى شأن الإنسان ، وأيقظته من سباته ، وأرته طرائق هدايته وأطلقت له سلطان حريته فيما وراء الأصول والقواعد المنزلة على الأنبياء من كل ما يختص بتنظيم الحياة الإنسانية فى إطار من العدل والإحسان .

وإلى هذا المغزى للحديث السابق يشير النبى ﷺ فى قوله ﷺ : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ؛ فقد أخبر عن بعثته أنها جاءت لإكمال مكارم الأخلاق ، وهذا يقتضى أن كل رسالة سبقته وضعت فى صرح مكارم الأخلاق لبنة حتى وصلت إليها فأكملتها ، فالرسالات كلها متعاونة متآلفة على بناء الإصلاح الخلقى ، فهى وحدة فى بدايتها ونهايتها ، وهذا هو المعنى بنفسه الذى ذكره فى حديث موضع اللبنة من البيت .

اثر الوحدة الدينية فى نشر دعوة الاسلام :

لما أتم الله تعالى على نبيه ﷺ وعباده المؤمنين نعمة استقرار دعوة الإسلام فى أرجاء جزيرة العرب ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وأقبلت وفود القبائل على رسول الله ﷺ من كل حدب ينسلون ، يبايعونه مؤمنين بدعوته ، مهتدين بهديه ، آخذين على عواتقهم القيام بأمر الله فى تبليغ دعوة الإسلام إلى القاصى والدانى ، وإلى الأحمر والأسود ، يبذلون فى سبيل نشرها مهجهم ، وينصرون الله ورسوله بأرواحهم ، رأى

رسول الله ﷺ أن يضع لأمته خطة هذا التبليغ لتقوم به الأمة من بعده ، تحقيقاً لعموم هذه الدعوة وخلودها ، ورأى ﷺ أن يبدأ الدعوة خارج الجزيرة العربية بدعوة ملوك الأمم وحكامها ، وأمراء الولايات ، وزعماء الشعوب ، ورؤساء الجماعات ، معتمداً فى دعوته على مبدأ الوحــدة الدينية باعتبار هذه الوحدة دعامة من أعظم دعائم الدعوة إلى الله تعالى ، وإلى دينه القويم ، دين الإسلام الذى هو دين جميع الأنبياء والمرسلين ، وباعتبار هذه الوحــدة الدينية أصلا من أصول التشريع فى الإسلام ، وباعتبارها أساساً من أسس السماحة الإسلامية فى معاملة الأمم والشعوب .

ولهذا كتب النبى ﷺ إلى النجاشى ملك الحبشة ، وإلى هرقل عظيم الروم ، وإلى المقوقس عظيم القبط ، وإلى غيرهم من الأمراء والحكام ، والزعماء كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام ، جعل مبدأ الوحدة الدينية أساسها ، واقتدى به خلفاؤه وأصحابه الذين حملوا كتبه إلى هؤلاء الملوك والعظماء ، فى جعل الوحدة الدينية وسيلتهم فى تبليغ دعوة نبيهم ﷺ ، كما اقتدى به ﷺ الدعاة إلى الله فى الأمة الإسلامية من ولاة العدل ، وصالحى الأمراء ، وصادقى الإيمان من الراسخين فى العلم من أئمة الإسلام على مدارج التاريخ وتوالى العصور .

هجرة المسلمين الى الحبشة :

تروى كتب السيرة والتاريخ أنه لما اشتد الأذى على المسلمين بمكة فى مطلع الدعوة إلى الله أشار رسول الله ﷺ على أصحابه أن يهاجروا فى الأرض ، ونصح لهم أن يذهبوا إلى الحبشة ، وقال لهم : (إن بها ملكاً لايظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه). فخرج فريق من المسلمين إلى الحبشة المسيحية ، فراراً بدينهم وعقيدتهم من الظلم والاضطهاد ، وخشية أن يفتتنوا فى دينهم ، وكان فيمن خرج إليها : جعفر بن أبى طالب ، ابن عم رسول الله ﷺ يحمل كتاباً من النبى ﷺ

إلى النجاشي ، يدعوه إلى الإسلام ، ويخبره بشأن المهاجرين إلى بلده ليكرمهم، وهذا نص الكتاب كما ترويه كتب السيرة :

(بسم الله الرحمن الرحيم ؛ من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ، سلم أنت ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لاشريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفراً ، ونفراً معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر ، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحى والسلام على من اتبع الهدى) .

ولما عرفت قريش بهجرة هؤلاء النفر من المسلمين إلى الحبشة أرسلت وراءهم عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، محملين بالهدايا والطرف إلى النجاشى وبطارقته كى يردوا المهاجرين إلى قومهم ، ودخل عمرو ورفيقه على النجاشى ، فقالا له : أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى عيناً بهم ، وأعلم بمـــا عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

فأرسل النجاشى إلى المسلمين المهاجرين إلى بلده ليراهم ويسمع منهم — وكان النجاشى قد قرأ كتاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم الذى حمله إليه جعفر بن أبى طالب — واجتمع المسلمون ليرسموا طريق اجتماعهم بالنجاشى،

فقال جعفر رضى الله عنه لأصحابه : أنا خطيبكم اليوم ، فاتبعوه ، ودخلوا على النجاشى ، وتقدم جعفر فسلم ولم يسجد للملك كما يفعل معه أبناء رعيته وكل من يدخل عليه ، فقال أصحاب النجاشى لجعفر : مالك لا تسجد للملك؟ فقال : إنا لا نسجد إلا لله عز وجل ، ثم سأله النجاشى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فتكلم جعفر رضى الله عنه ، فوصف حال العرب فى جاهليتهم وما كانوا عليه من سوء الحال فى عقائدهم وعاداتهم وأخلاقهم ، ثم قال : فكنا على ذلك الحال حتى بعث الله إلينا رسولا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ... فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ماجاء به من الله تعالى ، فعدا علينا قومنا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، فلما قهرونا وظلمونا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك .

فقال النجاشى : هل معك مما جاء به من عند الله شىء فتقرؤه على ؟ قال جعفر . نعم ، وتلا عليه سورة مريم من أولها إلى قوله تعالى : (فأشارت إليه) حتى بلغ (أبعث حياً) . فلما سمع النجاشى ذلك قال : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . وقال بطارقته بعد أن أفاقوا من دهشتهم : هذه كلمات من النبع الذى صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح.

ثم التفت النجاشى إلى رسولى قريش وقال لهما : انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكما . فلما أصبحا غدا عليه عمرو بن العاص — وكان أجرأ عليه لسابق معرفته به — وقال له : إن المسلمين يقولون فى عيسى قولا عظيماً ، فأرسل

إليهم، وسألهم عن قولهم فى عيسى ، فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . فأخذ النجاشى عوداً وخط به ثم قال : ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط .

ثم كتب النجاشى إلى النبى ﷺ رداً على كتابه فقال :

(بسم الله الرحمن الرحيم) إلى محمد رسول الله من النجاشى الأصحم ابن أبجر . سلام عليك يا نبى الله ورحمة الله وبركاته من الله الذى لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام . أما بعد فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ماذكرت ثفروقاً إنه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه ،وأسلمت على يديه لله رب العالمين .

وقد بعثت إليك بابنى أرها بن الأصحم بن أبجر ، فإنى لا أملك إلا نفسى ، وإن شئت أن آتيك فعلت يارسول الله ، فإنى أشهد أن ماتقول حق. والسلام عليك يارسول الله) .

وهجرة جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه إلى أرض الحبشة كانت فى رجب سنة خمس من البعثة ، وهى الهجرة الثانية للمسلمين إلى الحبشة .

وقد ثبت ثبوتاً مستفيضاً أن النبى ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى الحجة سنة ست من الهجرة — أى بعد خمسة عشرة عاماً من هجرة جعفر وأصحابه إلى الحبشة — كتب إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام . وكان أول رسول بعثه ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ، وكتب معه كتابين — كما يقول ابن سعد فى الطبقات — يدعوه فى أحدهما إلى الإسلام ، وهذا الكتاب فى نصه متفق مع نص الكتاب الذى قدمناه على أنه مرسل مع جعفر بقصد

الوصية بإكرام المهاجرين وتأمينهم على حياتهم ودينهم ، غير أن الكتاب المتقدم فيه النص على أن النبي ﷺ ذكر فيه أنه بعث إليه ابن عمه جعفراً ومعه نفر من المسلمين ، وطلب منه إكرامهم ، أما كتاب عمرو ابن أمية الداعى إلى الإسلام فتختلف الروايات فى نصه ، فبعضهم يذكر نصه مجرداً من ذكر جعفر وأصحابه . ومن هؤلاء الإمام ابن القيم فى كتابه (الهدى النبوى) حيث يقول : وكتب — أى النبي ﷺ — إلى النجاشى (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة سلم أنت ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، أشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لاشريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى ، وتؤمن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى . والسلام على من اتبع الهدى) .

فلما وصل عمرو بن أمية إلى النجاشى قال له — فيما يرويه محمد بن إسحاق — يا أصحمة إن على القول وعليك الاستماع ، إنك كأنك فى الرقة علينا منا ، وكأنا فى الثقة بك منك ، لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه ، ولم نخفك على شىء قط إلا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد ، وقاض لا يجور ، وفى ذلك الموقع الحز ، وإصابة المفصل ، وإلا فأنت فى هذا النبي الأمى كاليهود فى عيسى بن مريم ، وقد فرق النبي ﷺ رسله إلى الناس ، فرجاك لما لم يرجهم له ، وأمنك على ما أخافهم عليه ، بخير سالف وأجر ينتظر .

فقال النجاشي : أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر .

وقال ابن القيم : ثم كتب النجاشي جواب كتاب رسول الله ﷺ ، وذكر عين النص الذي قدمناه ، ثم قال : وتوفى النجاشي سنة تسع — أي من الهجرة — وأخبر رسول الله ﷺ — أي وحياً — بموته ذلك اليوم، فخرج بالناس إلى المصلى ، فصلى عليه وكبر أربعاً ، قال ابن القيم : قلت : وهذا وهم والله أعلم ، قد خلط راويه ، ولم يميز بين النجاشي الذي صلى عليه، وهو الذي آمن به وأكرم أصحابه ، وبين النجاشي الذي كتب إليه يدعوه، فهما اثنان ، وقد جاء ذلك مبينا في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كتب إلى النجاشي ، وليس بالذي صلى عليه .

ويقول ابن سعد في الطبقات : إن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست من الهجرة أرسل الرسل إلى الملوك، يدعوهم إلى الإسلام ، وكتب إليهم كتباً ... وكان أول رسول بعثه رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ، وكتب إليه كتابين ، يدعوه في أحدهما إلى الإسلام ويتلو عليه القرآن ، فأخذ كتاب رسول الله ﷺ فوضعه على عينيه ، ونزل عن سريره تواضعاً ثم أسلم وشهد شهادة الحق ، وقال : لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته . وكتب إلى رسول الله ﷺ بإجابته وتصديقه وإسلامه على يدي جعفر بن أبي طالب لله رب العالمين .

قال ابن سعد : وفي الكتاب الآخر يأمره أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب وكانت قد هاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها عبد الله بن جحش الأسدي ، فتنصر هناك ومات ، وأمر رسول الله ﷺ

النجاشي فى الكتاب الثانى أن يبعث إليه بمن قبله من أصحابه ، ويحملهم ففعل ، فزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وأصدق عنه أربعمائة دينار ، وأمر بجهاز المسلمين ومايصلحهم ، وحملهم فى سفينتين مع عمرو بن أمية الضمرى ، ودعا بحق من عاج فجعل فيه كتابى رسول ﷺ ، وقال : لن تزال الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان بين أظهرها .

وهذا صريح فى أن النجاشي الذى كتب إليه النبى ﷺ مع رسوله عمرو بن أمية الضمرى قد آمن وشهد شهادة الحق ، وكتب إلى النبى ﷺ باجابته وتصديقه وإسلامه على يدى جعفر بن أبى طالب لله رب العالمين ، وأرسل بإجابته مع رسول رسول الله ﷺ إليه الذى رجع مع سائر المهاجرين نفاذاً لأمر رسول الله ﷺ بحملهم إليه .

ولم يعرض ابن سعد هنا للصلاة على النجاشي ، كما لم يبين أن هذا النجاشي الذى كتب إليه النبى ﷺ مع عمرو الضمرى هل هو نجاشي جعفر ابن أبى طالب وأصحابه الذين أكرمهم وأمنهم فى بلاده ، أو نجاشي آخر تولى بعده — كما يرشح ذلك طول المدة بين هجرة جعفر وأصحابه وبين إرسال عمرو ابن أمية بكتابى رسول الله ﷺ — والروايات ليست بينة فى هذا المقام ، وفيها خلط متشابه .

فهل توهيم ابن القيم للراوى وخلطه خاص بمسألة الصلاة على النجاشي ، أو هو شامل لهـــا ولأساسها وهو أن المكتوب إليه مع الضمرى نجاشي آخر غير نجاشي جعفر وأصحابه الذى آمن على يديه وشهد شهادة الحق ، وعمل وصية رسول الله ﷺ فى إكرام أصحابه المهاجرين إليه ؟

عبارة ابن القيم صريحة فى أن النجاشي الذى آمن بالله ورسوله هو

نجـاشى جعفر وأصحابه ، وأنه هو الذى كتب إليه النبى ﷺ مع رسوله عمرو بن أمية الضمرى ، وهو الذى حدثه عمرو ذلك الحديث البليغ فى الدعوة إلى الله ، وهو الذى كتب جواب رسول الله ﷺ وأرسله مع رسول رسول الله ﷺ الذى حمـــل إليه كتـابيه .

وما ذكره ابن القيم مما ورد فى صحيح مسلم لا يجيب عن السؤال ، لأن كل ما يفيده حديث مسلم أن النبى ﷺ كتب إلى نجاشى ليس هو بالذى صلى عليه ، وفى هذا إشارة واضحة أنه ﷺ صلى على نجاشى لم يكتب إليه ، أى كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام قصداً كما كتب إلى سائر الملوك فى سنة سبع من الهجرة ، وحينئذ يكون هذا النجاشى هو نجاشى جعفر وأصحابه الذى أرسلت إليه قريش ليرد إليها المهاجرين من المسلمين ، فأبى وأمن المسلمين وأكرمهم ، وعرف الحق فيما حدثه به جعفر وفيما تلا عليه من قرآن ، ففاضت عينه وأعين بطارقته لما سمعوا الذكر ، وتكون صلاة النبى ﷺ عليه رداً على جميل صنعه بالمسلمين .

ولا ينفى حديث مسلم أن النجاشى الذى صلى عليه رسول الله ﷺ قد كتب إليه كتاباً ليس هو كتاب الدعوة الذى صدر إلى الملوك ، وتكون الكتابة إليه إما مع جعفر — كما هو رأينا — وإما مع عمرو الضمرى كما هو فى عبارات ابن القيم وابن سعد وابن سيد الناس والقسطلانى ، وكل عبارات هؤلاء صريحة فى إيمان هذا النجاشى المكتوب إليه ، وحينئذ فلا مانع أن يكون النبى ﷺ قد كتب إلى النجاشى الذى هاجر إليه جعفر وأصحابه ، كتاب وصية بإكرام أصحابه وتأمينهم على أنفسهم ودينهم ، وكان مستقيماً على النهج القويم فى مسيحيته كما يدل عليه حديثه مع جعفر

وأصحابه فى مواجهة رسولى قريش، ولا شك أن هذا إيمان معتبر فى الإسلام، ويكون هذا النجاشى هو الذى صلى عليه رسول الله ﷺ جزاء ما قدم للمهاجرين من الحماية والتأمين والإكرام .

ولا مانع أن يكون النبى ﷺ قد كتب إلى نجاشى آخر غير نجاشى جعفر وأصحابه مع رسوله عمرو بن أمية الضمرى ، وأن هذا النجاشى هو صاحب الحديث البليغ فى الدعوة إلى الله الذى قام به بين يديه رسول رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى ، فآمن وشهد شهادة الحق وأرسل جواب كتاب رسول الله ﷺ مع رسوله عمرو بن أمية الذى رجع مع سائر المهاجرين ، فوجدوا رسول الله قد فتح خيبر واستولى على غنائمها فأسهم لهم منها ، ولا مانع أن يكون رسول الله ﷺ قد كتب إلى نجاشى ثالث لم يعرف اسمه ولا إسلامه ، ويكون هو المقصود بحديث مسلم .

ويذكر القسطلانى فى المواهب أن النجاشى أرسل ابنه فى أثر من أرسله من عنده مع جعفر ، فلما كانوا وسط البحر غرقوا ، ووافى جعفر وأصحابه رسول الله ﷺ ، كما يذكر القسطلانى أن هذا النجاشى هو أصحمة الذى هاجر إليه المسلمون فى رجب سنة خمس من النبوة وكتب إليه النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام مع عمر بن أمية الضمرى سنة ست من الهجرة ، فآمن به وأسلم على يدى جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، وتوفى — النجاشى — سنة تسع، ونعاه النبى ﷺ يوم توفى، وصلى عليه بالمدينة، ثم قال القسطلانى : وأما النجاشى الذى ولى بعده وكتب له النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام فكان كافراً لم يعرف إسلامه ولا اسمه ، ثم ذكر القسطلانى حديث مسلم المتقدم فى كلام ابن القيم .

ويروى أبو داود حديث إرسال عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى بكتاب النبى ﷺ مختصراً فيقول : إن النبى ﷺ بعث عمرو بن أمية الضمرى وكتب معه إلى النجاشى ، فقدم عمرو على النجاشى ، فقرأ عليه كتاب رسول الله ﷺ ، ثم دعا النجاشى جعفر بن أبى طالب والمهاجرين ، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم ، ثم أمر جعفراً أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ سورة مريم ، وقاموا تفيض أعينهم من الدمع فهم الذين أنزل الله فيهم : (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) وقرأ إلى (الشاهدين) .

وقصة الملك الذى أكرم المهاجرين إلى بلاد الحبشة وآواهم ، وبسط لهم رداء الأمن فى بلاده ، ومعرفة الملك الذى نعاه النبى ﷺ إلى أصحابه وصلى عليه يوم وفاته ، والملك الذى كتب إليه أن يزوجه السيدة أم حبيبة فزوجه إياها وأصدقها عنه أربعمائة دينار ، والملك الذى أمره رسول الله أن يحمل إليه أصحابه فحملهم مع عمرو الضمرى ، والملك الذى كتب له النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام ، ولم يعرف اسمه ولا إسلامه ، والملك الذى كتب إليه وليس هو بالذى صلى عليه — كما فى رواية مسلم — وهل كتب النبى ﷺ كتاباً مع جعفر إلى النجاشى يوصيه فيه بإكرام جعفر وأصحابه غير كتابه الذى أرسله مع عمرو بن أمية الضمرى ؟ كما يوحى بذلك بعد ما بين مبدأ هجرة جعفر وأصحابه واجتماعهم بالنجاشى وقراءتهم عليه وعلى بطارقته القرآن إثر وصول رسولى قريش النجاشى لرد المهاجرين إلى مكة ، وبين وصول عمرو بن أمية بكتاب النبى ﷺ إلى النجاشى يدعوه فيه إلى الإسلام ؟

وكل هذه أمور تحتاج إلى تحقيق يكشف عن وجهها التاريخى .

والقدر الذى اتفقت عليه الروايات هو أن جماعة المسلمين هاجروا إلى

الحبشة بإشارة النبي ﷺ ، وكان فيهم جعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ وأن قريشاً أرسلت فى أثرهم إلى ملك الحبشة ليردهم إليهم ، فأحضر الملك المهاجرين من المسلمين ، وسمع منهم وكان متكلمهم جعفر رضى الله عنه ، فرق الملك وبطارقته لما سمعوا الذكر ، وأبى أن يسلمهم إلى قريش ، وأمنهم على أنفسهم ودينهم ، فأقاموا عنده آمنين فى خير جوار حتى سنة خمس أو ست من الهجرة ، ثم وفدوا على رسول الله ﷺ فوجدوه قد فتح الله عليه خيبر ، وأسهم لهم من غنائمها ، وأرسل الملك رده على كتاب النبي ﷺ بإسلامه على يدى جعفر رضى الله عنه ، ثم لم يلبث أن توفى ، فنعاه النبي ﷺ إلى أصحابه وصلى عليه ، وأنزل الله تعالى فى هذا الملك وفى قومه ممن كان على طريقته فى رقة القلب ومعرفة الحق قرآناً يتلى فقال تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين »[1] . وهذه الآيات الكريمة تعنى :

أولا : اليهود الذين حرفوا التوراة ، وغيروا معالم شريعة موسى عليه السلام ، وكتموا ما عندهم من العلم بمحمد ﷺ وصدق رسالته ، وبهتوا عيسى ابن مريم وأمه الطاهرة الحصينة ، وعاثوا فى الأرض فساداً ، ودأبوا على نقض عهود الله تعالى ومواثيقه ، وكفروا بآياته ، وقتلوا الأنبياء ، ورضى

---

(١) سورة المائدة آيات ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥ .

خلفهم صنيع سلفهم فى هذه الموبقات ، وظلموا الناس واستحلوا أموالهم بغير حق ، وقالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل ، وامتصوا دماء البشرية ، بما استحلوا من أخذ الربا وأكل السحت والرشا ، وإشعالهم نيران الحروب فى العالم ، وتدبيرهم المؤامرت ، وحبكهم الدسائس لإفساد المجتمع الإنسانى، حتى أصبحوا أينما حلوا من أرض الله على صفات ونعوت من بلادة الطبع ، وسماجة النفس ، وسوء معاملة الخلق بالظلم ،والتكالب على جمع الدنيا من أى وجه ، لا يبالون فى سبيلها حقاً أو عقيدة ،ولا يرعون شرعاً ولا ملة كما قال الله عنهم : « فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما »[1] .

وقال عز شأنه : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل »[2] .

وتعنى هذه الآيات الكريمة .

ثانياً : النصارى الذين أشربت قلوبهم روح النصرانية السمحة الزاهدة بما فيها من الرأفه والرحمة ومعرفة الحق فى بشارة عيسى عليه السلام بنبوة محمد خاتم النبيين ﷺ ، فكل من أدركه الإسلام على ذلك داخل فى نطاق الآية فى أى زمان ومكان،وبلغه بلاغاً صحيحاً فاستجاب لدعوة الحق،وسارع إلى دين الله الموحد بعنوان الإسلام ، واهتدى بهدى الله ، واستضاءت روحه بنور الإيمان ، ورقت قلوبهم خضعانا للحق ، وفاضت أعينهم بالدمع رقة وشوقاً إلى أن ينظمهم الله فى سلك عباده الصالحين .

---

(١) سورة النساء آيتا ١٥٥، ١٥٦. (٢) النساء آيتا ١٦٠، ١٦١.

فهم كما قال الله تعالى فى وصفهم : « وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية »(١) وكما قال تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين »(٢) .

ولا مدخل هنا لعقيدة الفريقين لأن الله تعالى ذم اليهود الذين ذكرهم بأوصاف خبيثة ، جعلت توحيدهم ضرباً من الوثنية المادية والشرك البليد ، ولذلك قرنهم الله تعالى فى أشدية عداوتهم للمؤمنين بالذين أشركوا بالله وجعلوا له أنداداً يعبدونهم من دونه ، والمشركون أحط طوائف الضلالة فى الأرض ، وحسبهم قول الله تعالى : « أولئك كالأنعام بل هم أضل »(٣) .

ومدح النصارى بوصفهم الذى يدعوهم أنهم إذا عرفوا الحق أذعنوا له وآمنوا به ، ولانت لسماعه قلوبهم ، لما فيها من الرقة والرأفة ، فالمدح لهم لم يكن على خصوص إيمانهم بخاتم النبيين محمد ﷺ ، وإنما كان على ما جبلهم الله عليه من استعداد لهذا الإيمان الذى وقع منهم بعد أن سمعوا ما أنزل على الرسول ، وعرفوا أنه الحق الذى يخرج من النبع الذى خرج منه ما أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام ، فأصبحوا بعد هذا الإيمان مسلمين يمدحون — إلى جانب هذه المدحة — بما يمدح به كل مسلم من غير اختصاص ، ولهذا كان لهم أجرهم مضاعفاً .

ومهما يكن من أمر هذه القصة فالثابت المقطوع به منها أن النجاشى

---

(١) سورة الحديد آية ٢٧.
(٢) سورة القصص آيات ٥٢ — ٥٥.
(٣) سورة الأعراف آية ١٧٩.

ملك الحبشة — أى نجاشى كان — وهو رأس من رؤوس النصرانية على عهد بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ قد هداه الله تعالى إلى معرفة الحق فآمن لما تبين أن الإسلام هو دين جميع الأنبياء والرسل وأن ماسمعه من القرآن، ولا سيما فى شأن البتول وابنها عيسى المسيح عليهما السلام إنما كان يخرج من النبع الذى جاء به موسى من التوراة، ومن المشكاة التى أضاءت منها كلمات المسيح عيسى عليه السلام، وأن ما أمر به من توحيد الله وإفراده بالعبادة، ومن أنواع البر وأمهات الفضائل ومانهى عنه من الشر والفواحش ورذائل الأخلاق، كان مما جاءت به رسالات الله قبل الإسلام.

وقد اهتدى بهدايته بطارقته وعلماء أمته من القسيسين والرهبان، لتنزههم عن العصبية الدينية، وعدم استيلاء الدنيا على قلوبهم، فآمنوا بدعوة الإسلام، لأنهم عرفوا أنه دين الله الذى بعث به سائر المرسلين؛ وأن بشارة موسى بمجىء عيسى عليهما السلام كبشارة عيسى بمحمد ﷺ.

وهكذا كانت الوحدة الدينية التى نادى بها الإسلام فى أصوله ومصادره هى الوسيلة إلى هذه الهداية.

بيد أن غير النجاشى من سدنة النصرانية وعلمائها وأساقفتها كانوا على عكس النجاشى وبطارقته، فهم مع اعترافهم بأن ماجاء به محمد ﷺ حق، وأنه النبى المنتظر الذى بشر به موسى وعيسى، وسجلوا ذلك فى كتبهم التى ردوا بها على كتب النبى ﷺ التى دعاهم فيها إلى الإسلام، وأن الإسلام الذى دعوا إليه لم يكن ديناً مبتدعاً، ولم يكن رسوله الذى جاء به بدعاً من الرسل، ولكن الإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين، ومحمد ﷺ أخو موسى وعيسى وسائر النبيين، كما جاء فى الحديث الصحيح: (الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد). فهم مع ذلك كله لم يؤمنوا، وعنوا

بأنفسهم عن الهداية ضناً بما هم فيه من ملك وزخرف ورياسة ، فبعضهم قارب ووقف ولم يدخل ساحة الإيمان ، وبعضهم هم ولم يعزم ، لأنه خاف قومه على نفسه ، كما ترى فى حديث هرقل والمقوقس ممن كتب إليهم النبى ﷺ يدعوهم للإسلام كما كتب إلى النجاشى ، ولكن الله يهدى من يشاء .

روى البخارى فى صحيحه أن هرقل — بعد أن استخبر أبا سفيان ابن حرب عن حال رسول الله ﷺ فأخبره أبو سفيان مجيباً عما سأل عنه — دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) : من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم ، تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأرسيين و « يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وكان هرقل قد جمع عنده فى مجلسه نفراً من قريش كانوا قد وفدوا إلى بلده تجاراً فيهم أبو سفيان بن حرب إثر رؤية رآها هرقل فى نومه ، فسألهم — فى حديث طويل رواه البخارى — عن خبر النبى ﷺ وأحواله وما يأمر به وما ينهى عنه ، فأجابه أبو سفيان ، وكان أقرب القوم نسباً إلى النبى ﷺ ، وأعرفهم بمدخله ومخرجه ، فلما سمع هرقل إجابة أبى سفيان قال له والقوم يسمعون : فإن كان ماتقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، وفى بعض روايات

الحديث أن هرقل قال لأبى سفيان : ويحك والله إنى لأعلم أنه نبي مرسل ، ولكنى أخاف الروم على نفسى ، ولولا ذلك لاتبعته .

وذكر صاحب مجموعة الوثائق النبوية أن قيصر الروم هرقل كتب إلى النبي ﷺ جواب كتابه فقال : (إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى من قيصر ملك الروم : أنه قد جاءنى كتابك مع رسولك ، وإنى أشهد أنك رسول الله ، نجدك عندنا فى الإنجيل ، بشرنا بك عيسى بن مريم ، وإنى دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا ، ولو أطاعونى لكان خيراً لهم ، ولوددت أنى عندك فأخدمك وأغسل قدميك)(١) .

وكما كتب النبي ﷺ إلى قيصر الروم كتب إلى أسقفهم (ضغاطر) فقال له : (إلى ضغاطر الأسقف . سلام على من آمن . أما على أثر ذلك فإن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الزكية ، وإنى أومن بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، والسلام على من اتبع الهدى) .

وقد صرح ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى بأن (ضغاطر) هذا آمن بالنبى ﷺ فقتله قومه شهيداً .

وذكر القسطلانى فى المواهب أن النبى ﷺ كتب إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية : (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك إثم

(١) مجموعة الوثائق النبوية : للدكتور حميد الله الحيدر آبادى .

القبط « يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .

حوار بديع

وبعث بهذا الكتاب مع حاطب بن أبى بلتعة ، فتوجه به إلى مصر ، فلما بلغها وجده بالإسكندرية ، فتوجه إليه فرآه فى مجلس يشرف على البحر ، فركب سفينة حتى حاذى مجلسه وأشار إليه بالكتاب ، فأمر بإحضاره ، فجىء به إليه ، وسلمه الكتاب ففضه وقرأه ثم قال لحاطب : مامنعه إن كان نبياً أن يدعو على فيسلط على ؟ فقال له حاطب : وما منع عيسى أن يدعو على من خالفه أن يسلط عليه ؟ فجعل المقوقس يستعيد حاطبا كلامه مرتين، ثم سكت .

فقال له حاطب: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك .

فقال المقوقس:إن لنا ديناً لا ندعه إلا لما هو خير منه .

فقال حاطب: ندعوك إلى دين الله وهو الإسلام ، الكافى به الله فقد ماسواه، إن هذا النبى دعا الناس ، فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى .

ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعاء أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبى أدرك قوماً فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، فأنت ممن أدرك هذا النبى ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به .

فقال المقوقس : إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بزهود

فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخباء والإخبار بالنجوى ، وسأنظر [1]

ثم دعا المقوقس كاتباً له يكتب العربية فكتب إلى النبى ﷺ : «باسمك اللهم . من المقوقس إلى محمد . أما بعد فقد بلغنى كتابك وقرأته وفهمت ما فيه ، أنت تقول : إن الله تعالى أرسلك رسولا وفضلك تفضيلا وأنزل عليك قرآنا مبيناً ، فكشفنا يا محمد فى علمنا عن خبرك فوجدناك أقرب داع دعا إلى الله وأصدق من تكلم بالصدق ، ولولا أنى ملكت ملكا عظيماً لكنت أول من سار إليك لعلمى أنك خاتم الأنبياء وسيد المرسلين وإمام المتقين.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته إلى يوم الدين .

نظرة وعبرة

وهنا موضع للتأمل الذى يكشف عن حقيقة المعنى الإنسانى الرفيع فى فهم حملة رسالة الإسلام من أصحاب محمد ﷺ وتلاميذهم الذين تربوا فى مدارس الإسلام الأولى — لروح هذا الدين الإلهى القيم ، وفهم ما انطوى عليه من أصول تربط الإنسانية كلها بوشائج الإخاء والمحبة : وجعلت من الدين وشيجة تكافل يتعاطف به الناس ويتوادون ليعيشوا فى ظل الوحدة الإنسانية والدينية التى تجمعهم أسرة واحدة .

فهذا السفير — الذى أرسله محمد ﷺ إلى المقوقس أحد حماة النصرانية — يؤدى سفارته بأسلوب الداعى إلى وحدة الدين الإلهى ، ويجيب عن تساؤل يوجه إليه بأن مثل محمد عند الله كمثل عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام فى أن الله تعالى جعلهما رسولين لهداية الخلق كغيرهما من إخوانهما الأنبياء والرسل ، ولم يسلطهما على الناس تسليط قهر وإكراه ، فكما لم يدع عيسى

(١) المواهب الدينية ج١ وتفسير المنار ج٧.

عليه السلام على من خالفه ليسلط عليه لم يدع محمد ﷺ على المقوقس أو غيره ليسلط عليه .

فلما لزمت الحجة المقوقس لج فقال : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه ، فقال له سفير الإسلام : نحن لا نفرق بين شرائع الله ، ولا نفاضل بين وحى الله إلى رسله ، ولا نعرف العصبية الذميمة ، وإنما ندعو الناس إلى دين الله الواحد وهو الإسلام ، دين إبراهيم خليل الله ، ودين ولديه إسماعيل وإسحاق ، ودين يعقوب حفيده ، ودين الأسباط من نسل يعقوب ، ودين موسى وعيسى ، ودين سائر الأنبياء والرسل ، لا نفرق بين أحد من رسله .

ثم يأخذ سفير الإسلام فى المقاربة إلى قلب المقوقس وقومه بعد إلزامهم الحجة ، فيقول لهم : إن هذا النبي يدعوكم إلى دين الإسلام ، الذى دعا إليه النـاس كما دعاكم ، فكان أشدهم عليه المشركون الوثنيون ، وأعداهم له اليهود ، أعداء الله ، وأعداء دينه ، وأعداء الإنسانية الذين كذبوا عيسى وافتروا عليه الكذب وبهتوا أمه الطاهرة الحصينة ، وكان أقربهم منه النصارى .

ثم يستطرد سفير الإسلام إلى نوع من الاحتجاج الممزوج بروح العاطفة وتحريك الوجدان فيقول : ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى عليهما السلام فى التوراة إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ فى الإنجيل ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعاء أهل التوراة إلى الإنجيل ، لأنها كتب الله تعالى أنزلها من عنده موحدة الأصول والقواعد تدعو إلى دين واحد هو دين الإسلام .

ثم انظر إلى الحجة النيرة يوردها هذا السفير العليم بروح الإسلام

وسمو أهدافه فى تجميع الإنسانية تحت راية دين الله الواحد ، حتى تعود كما خلقها الله أسرة واحدة يجمعها الإخاء ، وتوحد بينهم المحبة ، فيقول فى نهاية الحديث مع المقوقس : ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به .

* * *

عجباً لهؤلاء العرب أبناء الصحراء ! ! ماذا صنع بهم محمد رسول الله ﷺ حتى سواهم نماذج للهداية الربانية، وساسة لقيادة البشرية بعلم ومعرفة هما فوق فلسفة الفلاسفة وعلم العالمين ؟

فانظر هل ترى أقرب إلى قلب عظيم قومه فى عالم النصرانية من أن تدعوه إلى دين المسيح وتأمره به ، لأنه هو دين الله الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ ؟ فمتى وكيف اطلع أصحاب محمد — وهم الأميون الذين لم يثاقفوا عالماً غير نبيهم — على حقائق الأديان والشرائع ، وتاريخها ، ومتى وكيف أتيح لهم الموازنة بينها حتى عرفوا أن الحق الذى جاء به أولها هو الحق نفسه الذى جاء به آخرها ؟

ولكن أليس القرآن الكريم هو كتاب الإسلام ودستور شريعته الذى يقول الله فيه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس »(١) . ويقول فيه مخاطباً أهل الكتاب من اليهود والنصارى : « يأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم »(٢) .

من هذا النبع الكريم كان فقه أصحاب محمد ﷺ وتلاميذهم فى

---

(١) سورة آل عمران آية ٣ . (٢) سورة المائدة آية ٦٨.

دين الله ومن هذا النبع الطيب فهم أصحاب محمد ﷺ الوحدة الدينية باعتبارها أصلا من أصول الإسلام ، تستهدف وحدة الإنسانية فى ظل الهداية الإلهية(*).

بهذا الفهم الرحيب ، والأفق الفكرى الفسيح فى وضع الوحدة الدينية فى موضعها من الإسلام كانت سفارات رسول الله ﷺ إلى ملوك النصرانية وقسيسيها وقد جعل السفراء الكرام وصية رسول الله ﷺ نصب أعينهم إذ يقول لهم وهو يودعهم : (انصحوا لله فى عباده ، فإنه من استرعى شيئاً من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة) .

ومن هنا كانت إجابة أولئك الملوك والقسيسين على دعوة الإسلام إيماناً وتسليماً من بعضهم كالذى كان من النجاشى وضغاطر ، ومقاربة واعترافاً بالحق دون إسلام وتسليم من بعضهم كالذى كان من هرقل والمقوقس ، ولكنها على أية حال تركت أثراً فى أممهم وشعوبهم كان له مدخل كبير فى مستقبل حياتهم فى مواجهة الدعوة الإسلامية عندما انساح المسلمون فى أرض الله داعين إلى الله ، فقد قابلها النصارى بسورية ومصر بالترحيب والمعاضدة ، والوقوف مع المسلمين فى وجه المستعمرين الرومان حتى طهروا البلاد من ظلمهم ، وأتيح لهم معرفة الإسلام على حقيقته فدخلوا فيه أفواجاً ، وامتزجوا بأبناء عمومتهم من العرب الوافدين لتبليغ دعوة الإسلام .

وكان على العكس من ذلك موقف الوثنيين من العجم الذين لم يكونوا على صلة بالسماء ولم يكونوا من دين الله بسبيل ، فقد كتب النبى صلى الله

(*) طبقات ابن سعد.

عليه وسلم إلى كسرى أبرويز ملك الفرس كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، فرد رداً خبيثاً ، أملته العنجهية المتجبرة والجهالة الوثنية البليدة .

روى القسطلانى أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى ملك فارس :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فإنى رسول الله إلى الناس كلهم لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم فإن توليت فعليك إثم المجوس) .

فلما قرئ عليه الكتاب مزقه فدعا عليه النبي ﷺ أن يمزق الله ملكه واستجيبت دعوته وسلط الله عليه ولده شيرويه فقتله .

* * *

وقد قضى الله على وثنية كسرى وأبدل الله الفرس خيراً منها ، وهدى الله الشعب الفارسى إلى الدخول فى الإسلام على أيدى الدعاة المجاهدين بعد جولات تكشفت فيها عدالة الإسلام ورحمته، فكانوا فى ظله سدنة الفكر الإسلامى ورهبان محاريبه .

* * *

هذه الوحدة الدينية التى أقام الإسلام دعائمها على أساس الوحدة الإنسانية كان لها باعتبارها أصلا من أصول التشريع العام فى الإسلام ، أثر كبير فى توجيه ذلك التشريع وجهة قربت بين أهل الكتاب عامة ومن لحق بهم ممن له شبهة كتاب سماوى وبين المسلمين فى كثير من المعاملات ، والمصاهرة والمعاشرة، والأخذ والعطاء والحدود وأحكام الجنايات، والحقوق

المدنية ، والواجبات الاجتماعية والسياسية ، وكانت هذه الوحدة هى الفيصل فى تنوع التشريع فى الإسلام بالنسبة لأهل الكتاب والوثنيين فيما وراء الأمور الإنسانية العامة كالعدل والرحمة والإحسان وحق الحياة فى ظل النظام الاجتماعى العام .

لأن هذه الأمور يراها الإسلام أموراً إنسانية عامة لكل إنسان له فيها حقوق على المجتمع الإنسانى ، وواجبات للمجتمع فى مقابل تلك الحقوق، بل إن الإسلام يراها حقوقاً لكل كائن حى من أتفه حيوان إلى أعظم إنسان، فنى الحديث الصحيح أن نبى الإسلام محمداً ﷺ قال : (دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلم تطعمها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض) وفى حديث آخر أن امرأة بغياً سقت كلباً كان يلهث من العطش فغفر لها .

الأصل الثالث

العدل في الاسلام وأثره في التشريع العام

ينظر المفكرون إلى (العدل) باعتباره فضيلة يؤدي بها إلى كل ذى حق حقه دون أن يظلم أو يظلم — نظرات مختلفة باختلاف مشاربهم ، وضروب ثقافتهم ، وصبغة بيئاتهم ، وألوان تربيتهم وطرائق سلوكهم فى الحياة ،

فمن غلب عليه جانب من جوانب الحياة ، وصبغت بيئته بلون ذلك الجانب رأى أن العدل هو تحقيق المساواة فى الجانب ، فالذى يسود بيئته ومجتمعه الذى يحيا بين أفراده روح الحياة المادية التى يشغلها الصفق فى الأسواق ، والأخذ والعطاء ، وتطلب المرابحات والضرب فى الأرض ابتغاء الكسب وجمع المال ، يرى أن هذه الحياة المادية هى مجال (العدل) الذى يصبح فى نظر هؤلاء الماديين عملية حسابية تقوم على أساسها النظم الاقتصادية التى تعطيك لتأخذ منك ، وتأخذ منك لتعطيك ، دون أى نظر إلى قيم أخرى وراء ذلك .

والذى يسود بيئته ومجتمعه جانب الفكرة والروح يرى أن (العدل) فى هذا الجانب مقامه ومثواه ، فلا ينبغى أن تتغلب فكرة على فكرة ، ولا مذهب على مذهب ، بأمر خارج عن حقيقته ، ويجب أن يتاح لكل فكرة أو مذهب فرصة البيان الحر عن ذات نفسه حتى تعرف صلاحيته إن كان صالحاً للبقاء ، أو ينكشف زيفه فيذهب مع الذاهبين .

والذى تسيطر عليه سياسة الأمم وقيادة الشعوب يرى أن العدل فضيلة الولاة والحكام والقادة من أصحاب السلطان وحماة القانون ، لايشاركهم فيها أحد غيرهم ، لأنهم رعاة الناس وقادتهم الذين يسوسونهم بسلطان القانون ، يردون الحق إلى أهله ، ويأخذون من القوى للضعيف ، ومن القادر للعاجز ، فلا تظلم نفس شيئاً فى دائرة سلطانهم .

والذى تشغله الحياة الاجتماعية يرى أن العدل يقوم على تحديد علاقات عناصر المجتمع تحديداً يرفع التمييز بين الأفراد والجماعات ويحقق المساواة بينهم فى كل شأن من شئون المجتمع .

وهكذا . وهكذا حتى حبس كل فريق فضيلة (العدل) فى مجاله الخاص لايراها إلا هناك .

أما الإسلام فقد نظر إلى (العدل) نظرة عامة شاملة كان لها أكبر الأثر فى توجيه التشريع العام الذى ينتظم كافة العلاقات والمعاملات الإنسانية سواء أكانت بين المسلمين بعضهم مع بعض أم كانت بين المسلمين وغيرهم من سائر الملل والنحل .

وهذه النظرة الشاملة لاتقف عند الحيـاة المادية الجامدة ونظامها الاقتصادى الجاف ، ولا تقف عند الحياة الفكرية والمجال العقلى والروحى ، ولا تقف عن الحياة السياسية وأنظمة الحكم فى سياسة الأمم والشعوب ، وسلطان الولاة والحكام ، ولا تقف عند الحياة الاجتماعية وعلاقات أفراد المجتمع وطوائفه بعضهم ببعض .

بل لاتقف نظرة الإسلام إلى (العدل) عند حياة الناس، ولكنها تشمل الكون كله بعوالمه العلوية والأرضية .

العدل فى نظام الكون :

فهذا الترابط المحكم بين الكائنات والنظام المنسق بينها ، والأوضاع المنسجمة فى كل كائن بالنسبة لغيره من سائر الكائنات هو الإطار الذى يصور العدل التكوينى بين جميع المخلوقات ، وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » (١) وقوله تعالى : « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » (٢) وقوله تعالى : « سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى » (٣) وقوله تعالى : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » (٤) وفى قوله تعالى تذكيراً للإنسان بنعمة الله عليه فى تسوية خلقه وتعديل تركيبه ، وتنسيق صورته : « الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ماشاء ركبك » (٥) .

ذكر الفخر الرازى عن مقاتل فى تفسيرها قوله : يريد عدل خلقك فى العينين والأذنين والرجلين ، فلم يجعل إحدى اليدين أطول ولا إحدى العينين أوسع . قال الرازى : وتقريره ماعرف فى علم التشريح أنه سبحانه ركب جانبى الجثة على التساوى حتى إنه لاتفاوت بين نصفيه ، لافى العظام ولا فى أشكالها ولا فى ثقبها ولا فى الأوردة والشرايين والأعصاب النافذه فيها والخارجة منها . وفى قوله تعالى فى معرض الامتنان بهذه النعمة وتفخيم شأن الإنسان بها : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » (٦) .

---

(١) سورة الحجر آية ٨٥ .

(٢) سورة طه آية ٥٠ .

(٣) سورة الأعلى آيات ١ ، ٢ ، ٣ .

(٤) سورة يس آيات ٣٨، ٣٩، ٤٠ .

(٥) سورة الانفطار آيات ٧، ٨ .

(٦) سورة التين آية ٤ .

فالحياة كلها فى نظر الإسلام وحدة قائمة على اتساق عناصرها فى نظام محكم ، وتماسكها تماسكاً يهيئ لكل عنصر منها القيام بما خلق له من المنافع والمصالح مادام فى موضعه من نظام الكون العام ، وهذا الاتساق والتماسك بين ذرات الكون هو (العدل) التكوينى الذى قامت به السموات والأرضين وهو سر قوله تعالى : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا »(١) وقوله تعالى : « ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه »(٢) .

قال الرازى : ومعناه أن مقادير العناصر لو لم تكن متعادلة متكافئة، بل بعضها أزيد بحسب الكمية وبحسب الكيفية من الآخر لاستولى الغالب على المغلوب، ووهى المغلوب وتنقلب الطبائع كلها إلى طبيعة الجرم الغالب ، ولو كان بعد الشمس من الأرض أقل مما هو الآن لعظمت السخونة فى هذا العالم واحترق كل مافى هذا العالم ، ولو كان بعدها أزيد مما هو الآن لاستولى البرد والجمود على هذا العالم ، وكذا القول فى مقادر حركات الكواكب ومراتب سرعتها وبطئها ، فإن الواحد منها لو كان أزيد مما هو الآن أو كان أنقص مما هو الآن لاختلت مصالح هذا العالم.

والعدل الاجتماعى الذى يحدد العلاقة بين الناس بعضهم ببعض جانب من جوانب العدل المطلق فى نظر الإسلام ، وهذا العدل المطلق فى نظام الكون العام أساسه العدل التكوينى ، وهو ليس من صنع الإنسان ، ولا هو فى مقدوره ، بل هو شأن الله الخلاق العليم جعله مثلا فى الحس والمشاهدة ليحتذى فى تحقيق العدل التشريعى ، وهو العدل الاجتماعى التكليفى الذى ينظم حياة الناس على حسب طاقتهم العقلية والروحية والجسمية ، وبقدر ما أتيح لهم من فرص استخدام هذه الطاقة فى مجالاتها

---

(١) سورة فاطر آية ٤١ .

(٢) سورة الحج آية ٦٥ .

الخاصة ليقع الأمر به وتشريع نمطه موقع الرغبة والقبول ، بل الحرص على التخلق به وتنفيذه :

العدل الاجتماعي في الاسلام :

وقد عنى الإسلام أشد ماتكون العناية بطابع تحقيق العدل الاجتماعي كأساس للحياة الإنسانية الفاضلة ، وقد وجه هذه العناية :

أولا : إلى توطيد دعائم العدل الاجتماعي بين كافة الإنسانية أفراداً وجماعات وأمماً وشعوباً وحاكمين ومحكومين : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به »[1] .

قرن الله تعالى الأمر بالعدل فى الحكم بين جميع الناس الأمر بأداء جميع الأمانات ، والأمانة هى مايؤتمن عليه الإنسان من أمور الدين والدنيا ، فتشمل أمانة الإنسان مع خالقه بمعرفته وتوحيده وإخلاص العبادة له ، وتشمل أمانة الإنسان مع نفسه بحفظها مما يوبقها ، ويحملها على ماينفعها فى الدنيا والآخرة ، وتشمل أمانة الإنسان مع أسرته بإحسان تربيتها والقيام على أمورها ، وأمانة الإنسان فى عمله بإتقانه ، وأمانته مع مجتمعه بالحرص على التواصى بالحق والصبر على الأذى ، وأمانته مع سائر الناس بالتناصح والتعاون على البر والتقوى ، بل تشمل أمانته مع كل ماله علاقة به فى حياته من إنسان وحيوان وأشياء .

وهذا التعميم فى جانب الأمانات واقع مثله فى جانب الحكم بالعدل ، والعبارة فيه أصرح لأن الله تعالى يقول : (وإذا حكمتم بين الناس) فجعله

---

(١) سورة النساء آية ٥٨ .

حقاً لكل إنسان كائناً من كان ، على حسب مكانه فى الحياة وموضوعه فى المجتمع الذى يعيش فيه ، لا يغض من حقه فيه جنس ، أو لون أو لغة أو عقيدة ، أو مذهب أو فكرة ، فكل إنسان — فى نظر الإسلام — مأخوذ بالعدل ، وكل إنسان له فى العدل حقوق وعليه واجبات ، يحيا بهذه الحقوق فى مجتمعه ويتعامس مع الحياة بأداء تلك الواجبات .

وهذا ظاهر فى تعميم الخطاب لكل من كان أهلا لتحمل الأمانة على عمومها ، ولكل من تعرض للحكم بين الناس ، سواء أكان هذا التعرض بطريق الإمامة العامة والولاية السياسية أو بطريق التقاضى إليه، لأن الحاكم العام نصبه للفصل فى الخصومات ،أو كان بطريق الإفتاء،أو بطريق الرياسة العرفية كرئيس الأسرة ، أو رئيس العمل ، قال القرطبى فى أحكامه : هذه الآية من أمهات الأحكام ، تضمنت جميع الدين والشرع ... والأظهر أنها عامة فى جميع الناس ، فهى تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات فى قسمة الأموال ورد الظلامات ، والعدل فى الحكومات ، وتتناول من دونهم من الناس فى حفظ الودائع والتحرز فى الشهادات وغير ذلك كالرجل يحكم فى نازلة ونحوه ، ثم قال فى قوله تعالى:(وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) ، هذا خطاب للولاة والأمراء والحكام ، ويدخل فى ذلك بالمعنى جميع الخلق ، ثم استدل على هذا العموم بقوله ﷺ : (إن المقسطين على منابر من نور ، عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا) ، وبقوله ﷺ : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته والرجل راع على أهله ، وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت زوجها وهى مسئولة عنه ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) .

فجعل فى هذه الأحاديث الصحيحة كل هؤلاء رعاة وحكاماً على مراتبهم ، وكذلك العالم الحاكم ، لأنه إذا أفتى حكم وقضى ، وفصل بين الحلال والحرام ، والفرض والندب والصحة والفساد ، فجميع ذلك كله أمانة تؤدى وحكم يقضى .

وثانياً : إلى تعميم العدل تعميماً شاملا لجميع جوانب الحياة الإنسانية ، فالحياة المادية بنظامها الاقتصادى يجب — فى نظر الإسلام — أن تقوم على أساس العدل الاجتماعى حتى يظفر كل ذى حق بحقه ، وحتى يؤدى كل إنسان واجباته نحو الآخرين فى دائرة العدل ، فلا يجوع إنسان ويتخم آخر ، ولا يترف فرد فى الأمة ، ويعيش غيره من إخوانه فى الإنسانية على القفار والشظف ، ولا يعان كسول على كسله ، ولا يهضم عامل من عمله ، ولا يغبن كادح فى أجره ، ولا يحابى قريب لقرابته ، أو صديق لصداقته ، بل يجب أن يتساوى الناس فى إتاحة الفرص للعمل ثم يجزى كل عامل على عمله وجهده ، وما يقدم للحياة من منفعة تعود عليه وعلى المجتمع .

والحياة الفكرية بجوانبها العلمية يجب أن تعتمد فى نظر الإسلام — على العدل ، فلا تحابى فكرة على حساب فكرة أخرى ، ولا يضيق على اتجاه عقلى ليوسع اتجاه آخر ، ولا يغمط حق نظرية علمية لمراعاة نظرية أخرى ، ولا يناصر مذهب على مذهب لمجرد العصبية ، بل يجب أن تفتح نوافذ الحرية لكل فكرة ، ولكل اتجاه ، ولكل نظرية لتعرض على مخابر البحث العقلى المستقيم وتجارب العلم الصحيحة ، وتوزن بميزان العدل حتى يظهر زيف الزائف فيذهب بنفسه إلى وادى الفناء ، ويبقى الحق ثابتاً شامخاً فى حياة الخالدين : « فأما الزبد فيذهب جفاء أما ما ينفع النـــاس فيمكث فى الأرض »(١) .

---

(١) سورة الرعد آية ٧١ .

والحياة الروحية يجب — في نظر الإسلام — أن ترتكز في بنائها على قواعد العدل ، فلا ينبغي أن يغالى فيها بالإفراط حتى تضعف بجانبها سائر القوى المادية العاملة في الإنسان ، فإنه (لا رهبانية في الإسلام) ولا يصح أن يستهان بها بالتفريط حتى تضعف إشراقة الروح ، ويخبو ضياؤها ، وتسيطر القوى المادية المظلمة والغرائز الحيوانية على حياة الإنسان ، فيعيش كما تعيش الأنعام ، لأن الإسلام ينظر إلى الإنسان نظرة إنسانية تتطلب تحقيق العدل بين جسمه وروحه .

وهذا الازدواج بين الجسم وخصائصه والروح وخصائصها هو موطن الامتياز في الإنسان على سائر المخلوقات ، فللجسم جانب من وجوب الرعاية، يجب أن يتحقق بالمحافظة على عدالة تركيبه وتسوية أعضائه ، حتى يقوم كل عضو منها بمهمة اختصاصه على أكمل وجه ، وللروح جانب من العناية يجب أن يلاحظ في مجال إشراقها حتى تبقى أبداً مضيئة شفافة ، لا تحجبها ظلمات الهوى ، وثورة الشهوات ، وسطوة الغرائز فيطفأ فيها قبس النور الذي خصت به ليصلها بالملأ الأعلى .

والحياة السياسية وأنظمة الحكم في الأمم والشعوب يجب — في نظر الإسلام — أن تبنى على أصول العدل حتى تستطيع كل أمة وكل شعب ، بل كل فرد في كل أمة وفي كل شعب أن يحيا حياة حرة كريمة يحظى فيها بحريته ، وينال جزاء سعيه ، ويحصل على فائدة عمله ونتيجة كده وجهده .

وهذه الحياة السياسية تتطلب ممن يلي أمر الأمم والشعوب أن يستشعر مسئوليته في تطبيق نظام الحكم العادل ، وإليهم يتجه الخطاب

فى قول الله تعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »[1] .

والحياة الاجتماعية التى تربط الأفراد والجماعات برباط المنافع والتبادل للمصالح يجب — فى نظر الإسلام — أن يحكمها التعاون ويسودها العدل حتى تحقق فى ظلها وشائج الترابط بين الأفراد والجماعات بروح المساواة فى الحقوق والواجبات ، فلا يشعر فرد فى الأمة أنه مغبون فى نيل حقوقه لعقيدة ، أو لون ، أو مذهب ، أو فكرة،ولا تشعر جماعة فى الأمة بالحيف يقع عليها من أجل أنها تدين بفكرة أو مذهب ، ولا يسمح لفرد أو جماعة أن يتوانى أو يستهين فى القيام بواجباته نحو المجتمع الذى يعيش فيه،فالعدل أخذ وأداء ، ومغنم ومغرم .

فالأسرة فى البيت ، والمدرسة والمصنع ، والمزرعة والمتجر ، ومكاتب العمل ، والمساجد والنادى ، والطرقات العامة والشوارع كل ذلك يجب أن يسوده العدل بأوسع معانيه وأعمق صوره .

ومن هنا كان العدل أصلا من أعظم أصول التشريع فى الإسلام ، بل هو أصل الأصول فى الإسلام فأينما تحقق كان التشريع الإسلامى معه .

كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى عامله على الكوفة عبد الحميد ابن عبد الرحمن : أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور فى أحكام وسنن خبيثة ، سنتها عليهم عمال السوء ، وإن أقوم الدين العدل والإحسان .

ويقول الإمام ابن القيم فى كتاب (الطرق الحكيمة) : إن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذى قامت به

---

(١) سورة النساء آية ٥٨ .

الأرض والسموات ، فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأى طريق كان فثم شرع الله ودينه .

ويقول — أيضاً — : ومن له ذوق فى الشريعة واطلاع على كمالاتها ، وأنها لغاية مصالح العباد فى المعاش والمعاد ، ومجيئها بغاية العدل الذى يفصل بين الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح ، وعرف أن السياسة العادلة جزء من أجزائها ، وفرع من فروعها ، وأن من له معرفة بمقاصدها ووضعها وحسن فهمه فيها لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة .

فالعدل فى الإسلام هو الميزان الذى تعتمد عليه السياسة التشريعية فى هذا الدين القيم ، تلك السياسة التى تقصد إلى تحقيق ما يصلح الحياة ويرقيها وينمى الشعور بحب الخير والحق فى قلوب الأفراد والجماعات ، ويجعل من الأمة وحدة متعاونة على البر والتقوى ، متكافلة فى مصالحها .

وتحقيق العدل بأية صورة من الصور التى تستهدف المصلحة العامة دون مفسدة راجحة أو مساوية هو الهدف الأعلى للسياسة الشرعية فى الإسلام .

ولئن كان قد ضل عن هذا قوم بتقصيرهم فى فهم مقاصد الإسلام ، وتفريطهم فى استقصاء غاياته وتعرف أسراره ، فجمدوا مع حرفية النصوص حتى شككوا الناس فى قدرة الشريعة الإسلامية على القيام بمصالح العباد باعتبارها شريعة عامة خالدة ، خاتمة للشرائع السماوية ، كما ضل قوم بإفراطهم فى التأويل حتى انقلب إلى تحريف ، فانطلقوا من قيود الشريعة فى أصولها ، مراغمين لصريح النصوص التى لاتحتاج فى فهمها وفهم المقصود منها إلى شىء

من التأويل ، لظهورها فى الدلالة على المقصود منها ، فخرجوا بذلك عن حدود الله ، وحكموا فى مصالح العباد بما يخالف حكم الله ورسوله، انقياداً لأهوائهم، لئن ضل قوم بذلك ، وضل آخرون بهذا فإن الأصول الأساسية للتشريع لاتزال قائمة محفوظة ، تنادى أهل البصائر النيرة والعقول السليمة بإقامة موازين الاجتهاد والاستنباط القويم . ومن هنا — أيضاً — كان (العدل) هو الأساس الذى يعتمد عليه التشريع الإسلامى فى جانبي عمومه الإنسانى والموضوعى ، اعتماداً يجعله أساساً للحكم فى كل حادثة من حوادث الحياة ، وبعبارة أخرى أدق ، اعتماداً يجعله أساساً للترابط بين كل مترابطين بسبب من أسباب الحياة .

ولذلك جاء أسلوب الأمر به والترغيب فيه متنوعاً فى البيان القرآنى ، ففى الآية التى تحدثنا عنها جاء الأمر بالعدل مقروناً بالأمر بأداء الأمانات على عمومها وعموم العدل عموماً يشمل الناس أفراداً وجماعات ، ويشمل الأحداث زماناً ومكاناً .

وفى قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »[1] . قرن العدل بأمرين فى جانب الطلب والترغيب .

أولها : الإحسان ، والمراد به كمال الأعمال وإيصال النفع إلى عامة الخلق ، وهذا المعنى للإحسان هو المشار إليه فى حديث جبريل عليه السلام بقول النبى ﷺ : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك (وعبادة الله تتحقق فى كل عمل من أعمال الخير والبر إذا وقعت

(١) سورة النحل آية ٩٠.

بنية خالصة ، سواء أكان ذلك محض تعبد كما فى الصلاة وذكر الله ، أم كان عملا من أعمال البر لنفع المجتمع أفراداً وجماعات .

وثانيهما : إيتاء ذى القربى ، والمراد به صلة الرحم فى أعم مراتبها وخص القرابة بالذكر لأن حقهم أوكد وأقرب .

ثم قرنه بثلاثة أمور فى جانب النهى والتنفير :

أولها : الفحشاء ، وهى كل عمل فاحش بذىء ، تشمئز منه النفوس الكريمة ، فتفسيره بالزنى تمثيل للفعل البالغ النكارة والفحش ، وقد سماه الله تعالى فاحشة ، فضرب به العلماء مثلا لها لفحشه ونفور النفوس الكريمة من مواقعته

وثانيها : المنكر ، وهو عمل أو قول قبيح تنكره الطبائع السليمة والشرائع الإلهية من كل ماهو بغيض لدى العقول . فهو يعم جميع المعاصى والرذائل والدناءات .

وثالثاً : البغى وهو تجاوز الحد ، فيدخل فيه الكبر والغرور والبطر ، والظلم والحقد والتعدى على الحقوق ، وفى الحديث الشريف : (لاذنب أسرع عقوبة من بغى) وفى حديث آخر : (الباغى مصروع) وفى المأثور : (لو بغى جبل على جبل لجعل الباغى منها دكاً) .

وقد جعل العدل في مطلع هذه الأمور للإشعار بأنه أساس الفضائل العملية ومقدمها وهو حق عام لكل إنسان ، بل لكل كائن تتطلب طبيعة وجوده فى الحياة الحق والإنصاف كما هو عام فى كل عمل من الأعمال . قال القاضى أبو بكر ابن العربى : العدل بين العبد وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر ، وأما العدل بينه وبين نفسه فنعها مما فيه هلا كها قال الله تعالى : « ونهى النفس عن الهوى »[1] وعزوب الأطماع عن الاتباع ولزوم القناعة فى كل حال ومعنى .

(١) سورة النازعات آية ٤٠ .

وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل وكثر ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه ، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل ، ولا فى سر ولا فى علن ، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى ، وأقل ذلك الإنصاف وترك الأذى .

ونحن نسوق آراء العلماء والأئمة تبياناً لما فهموه من روح الإسلام فى نصوص دستوره وآيات كتابه الكريم .

وقد ترجم الإمام البخارى رحمه الله فى صحيحه بهذه الآية الكريمة فقال: باب قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » ، وقوله : « إنما بغيكم على أنفسكم » ، وقوله : « ثم بغى عليه لينصرنه الله » . وترك إثارة الشر على مسلم أو كافر . ثم ذكر البخارى حديث كيد لبيد بن الأعصم اليهودى فى عمله السحر للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن أطلعه الله على ما كان وكشف ما ألم به : (وأما أنا فأكره أن أثير على الناس شراً) .

فانظر إلى دقة فهم هذا الإمام العظيم ، وإلى براعة فقهه لروح الإسلام، واستنباطه من الآية الكريمة أن المسلم لا يخلق به أن يثير الشر والفساد على عامة الناس ، لا فرق بين مسلمهم وكافرهم، لأن الله تعالى بعد أن أقام بناء الفضائل الإنسانية على دعائم العدل ندب عباده إلى الإحسان للمسىء ولا سيما إذا كان هذا الإحسان يحول دون وقوع فتنة الناس فى عقائدهم وحياتهم الاجتماعية وكان النبى صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى لأمته فى ذلك .

وقد كانت هذه الآية الكريمة مصباحاً استضاءت به قلوب كثيرين ممن أقبلوا على ساحة الإيمان عند سماعها وفهم معناها . روى ابن عباس رضى

الله عنهما : أن عثمان بن مظعون الجمحى قال : ما أسلمت أولا إلا حياء من محمد عليه الصلاة والسلام ، ولم يتقرر الإسلام فى قلبى إلا حين حضرته ذات يوم بينما هو يحدثنى إذ رأيت بصره شخص إلى السماء ثم خفضه عن يمينه ثم عاد لمثل ذلك ، فسألته فقال : (بينما أنا أحدثك إذا بجبريل نزل عن يمينى فقال: يا محمد « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية) . قال عثمان بن مظعون : فوقع الإيمان فى قلبى .

وأخرج ابن ماجه عن على كرم الله وجهه أنه قال : أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب ، فخرج وأنا معه وأبو بكر ، فوقفنا على مجلس عليهم الوقار ، فقال أبو بكر : ممن القوم ؟ فقالوا : من شيبان بن ثعلبة ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشهادتين وإلى أن ينصروه فإن قريشاً كذبوه ، فقال مقرون بن عمرو : إلام تدعو أخا قريش ؟ فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية ، فقال مقرون بن عمرو : دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك يوم كذبوك وظاهروا عليك .

ولهذا قال عبد الله بن مسعود : هذه الآية أجمع آية فى القرآن لخير يمتثل ولشر يجتنب ، وحسبك بها أن ذل لسطوتها غطارفة اللسن المقاويل من ذوى العقول الفارعة ، فقد روى مشهوراً أن الوليد بن المغيرة سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرؤها فقال له : يا بن أخى أعد ، فأعادها عليه حتى استطعمها ذوقاً وفهماً فلم يملك نفسه أن قال : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وأن أصله لمورق وأعلاه لمثمر ، وما هو بقول بشر .

ولكن لقد صدق الله تعالى إذ يقول لنبيه : « فإنهم لا يكذبونك ولكن

الظالمين بآيات الله يجحدون(١) فإن الوليد لم يكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه بقى على جحوده للحق وكفره بالله عناداً وبغياً على الله ورسوله .

وقد أفرد البيان القرآنى (العدل) بالذكر فى آيات أخرى، وجه الخطاب فيها إلى المؤمنين باعتبارهم القوامين على أمانة الله فى هداية الخلق وسياستهم فى أسلوب يدل على وثاقة طلبه ، وأنه الأصل الذى لا تقوم استقامة الحياة بين الناس إلا على أساسه ، يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً »(٢) .

هذا أسلوب فى إعظام شأن (العدل) لا نجده فى كتاب غير القرآن ، ولا فى شريعة غير شريعة الإسلام ، دين الأنبياء والمرسلين، منذ كانت النبوة فى البشر إلى أن اختتمت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولا نجده فى أمة أخذت به وطبقته عملياً — فى صور لولا شهادة التاريخ الواقعى لقيل إنها ضرب من الخيال — غير أمة الإسلام ، وسنورد من ذلك شواهد تدل على حقيقة (العدل) فى حياة المسلمين يوم أن كانوا متكيفين بحقيقة الإسلام خالصاً لم تشبه لوثة العبوديات الوثنية التى عاشتها الحياة فى غير أمة الإسلام .

فهذا النداء المتلطف لأولئك القوامين على أمانة الله بعنوان الإيمان يدل على خصيصتهم فى حمل أمانة (العدل) حتى يكون خلقاً لهم وجبلة فى طبيعتهم الإنسانية التى صقلها الإيمان فلم يقل لهم : كونوا عادلين مقسطين ، ولم يقل لهم :

---

(١) سورة الأنعام آية ٣٣ .

(٢) سورة النساء آية ١٣٥ .

قوموا بالقسط ولكن قيل لهم : (كونوا قوامين بالقسط) فالأمر بهذه الكينونة معناه أعدوا أنفسكم إعداداً خاصاً يميزكم عن سائر البشر ، وذلك بأن تجعلوا (العدل) عنصراً من عناصر تكوينكم الإسلامى ، واختيار لفظ (قوامين) بهذه المادة وهذه الصورة يدل على أنهم أريدوا على أن يكونوا نهاضين مشمرين عن ساق العزم فى بذل الجهد والتحفز للعمل فى سبيل توطيد دعائم هذه الفضيلة الاجتماعية ، حتى تكون ديدنكم فى حياتكم لتبلغوا بها حد الكمال فى رعاية تحقيقها فى واقع الحياة .

ولا يتحقق هذا الكمال حتى يكون (العدل) خلقاً للمؤمن يقوم به على نفسه — أولا — فينصف منها ، ويعترف عليها ويجنبها المظالم فى القول والعمل ، وحتى يكون — ثانياً — خلقاً يقوم به المؤمن على أعز الناس عليه وأحبهم لديه وأقربهم منه .

وليتأمل هنا فى تخصيص الوالدين بالذكر وإجمال سائر القرابة وراءهما ، ثم لم يقف الأمر عند ذلك ، ولكنه تولج إلى دخيلة الضمير الإنسانى ، وأبى عليه أن يخضع فى إقامة العدل لعاطفة تتملق الغنى لغناه أو عاطفة رحمة ترحم الفقير لفقره ، فلا يحملن المؤمن تعزز الغنى بغناه على أن يجانب معه (العدل) ويظلم له الفقير ، ولا تحملنه الرحمة على أن يحابى الفقير فيظلم له الغنى وليذكر أن الله تعالى الذى خلق الخلق وقسم بينهم أرزاقهم هو الذى أغنى الغنى ، وهو الذى أفقر الفقير ، والناس كلهم عيال الله وعباده ، يتساوون فى حق القيام بالعدل ، بينهم وهو سبحانه أولى بهم .

ولا ينبغى لمن شرفه الله بالإيمان أن يتبع الهوى ويميل مع العواطف فيحيد عن (العدل) لياً بالحق وإعراضاً عن النصفة ، لأن الله الذى شرفهم بفضل الإيمان وحملهم أمانة (العدل) الاجتماعى خبير بأعمالهم وبما يكون

منهم من إعراض عن الحق لو أعرضوا عنه ، ومن نكوص عن الجهر به ، فيجازيهم بما يعلم من نياتهم .

ذكر أبو جعفر الطبرى عن قتادة فى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » الآية ، هذا فى الشهادة فأقم الشهادة ، يا بن آدم ولو على نفسك ، أو الوالدين ، أو على ذوى قرابتك أو شرف[1] قومك ، فإنما الشهادة لله وليست للناس ، وإن الله رضى العدل لنفسه والإقساط والعدل ميزان الله فى الأرض ، به يرد الله من الشديد على الضعيف ومن الكاذب على الصادق ومن المبطل على المحق ، وبالعدل يصدق الصادق ويكذب الكاذب ، ويرد المعتدى ويرنخه[2] تعالى ربنا وتبارك ، وبالعدل يصلح الناس .

وظاهر من كلام هذا الإمام أن حمل الآية على الشهادة من باب التمثيل بأظهر مواطن العدل .

ولهذا قال الجصاص فى أحكامه: قوله تعالى : (كونوا قوامين بالقسط) قد أفاد الأمر بالقيام بالحق والعدل ، وذلك موجب على كل أحد إنصاف الناس من نفسه فيما يلزمه لهم وإنصاف المظلوم من ظالمه ، ومنع الظالم من ظلمه ، لأن جميع ذلك من القيام بالقسط .

وقال أبو بكر بن العربى فى أحكامه : المعنى لاتميلوا بالهوى مع الفقير لضعفه ، ولاعلى الغنى لاستغنائه ، وكونوا مع الحق ، فالله الذى أغنى هذا وأفقر هذا أولى بالفقير أن يغنيه بفضله بالحق لا بالهوى والباطل ،

---

(١) جمع مفرده شريف أو مصدر وصف به مبالغة.

(٢) رنخ بالراء والنون المشددة والخاء المعجمة ، ذلل.

والله أولى بالغنى أن يأخذ ما فى يده بالعدل والحق لا بالتحامل عليه فإنما جعل الله سبحانه الحق والعدل عياراً لما يظهر من الخبث وميزاناً لما يتبين من الميل ، فالله تعالى سوى بين الأقربين والأبوين فى الأمر بالحق والوصية بالعدل ، وإن تفاضلوا فى الدرجة كما سوى بين الخلق أجمعين، وإن تفاضلوا - أيضاً - فى الدرجة وكأنه سبحانه يقول: لا تلتفتوا فى الرحم قربت أو بعدت فى الحق كونوا معه عليها .

ومن لطيف الأمر فى هذه الآية ما روى جماعة من المفسرين عن السدى أنه قال : نزلت فى النبى صلى الله عليه وسلم واختصم إليه رجلان : غنى وفقير ، وكان ميله صلى الله عليه وسلم مع الفقير، يرى أن الفقير لا يظلم الغنى، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط فى الغنى والفقير .

وموضع اللطف فى هذه الرواية أنها تصور أمر (العدل) فى نظر الإسلام فى صورة غير مألوفة عند الناس وفى أكثر واقع الحياة .

ذلك أن الناس ألفوا أن الغنى هو الذى يظلم الفقير استضعافاً له ، واعتزازاً بقوته وغناه ، فيميلون مع الفقير يرحمونه وينصرونه على الغنى استجابة لدواعى بشريتهم ، ولم يألفوا أن الفقير الضعيف يظلم الغنى حتى يقفوا مع الغنى ينصرونه ، وهم يرون أنه لا يحتاج إلى نصرتهم ، إذ لو كان قد ظلم لانتصف لنفسه ، فجاءت الآية الكريمة على خلاف مألوف الناس ، واضعة (العدل) موضعه من الحياة ميزاناً لا يميل مع رحمة الفقير لفقره وضعفه ، ولا يحابى غنياً لغناه وقوته ، موجهة النبى صلى الله عليه وسلم وهو القدوة العظمى للمؤمنين أن يكون قواماً بالقسط ميالا مع الحق أينما كان متسامياً عن مألوف الناس وعاداتهم ، لأنه المثل الأعلى للأسوة فى تطبيق دستور العدل فى واقع الحياة .

وفى توجيه النداء لعامة المؤمنين إشعار بأن العدل مطلوب من المؤمنين ، أفراداً وجماعات ، رعاة ورعية ، لأنه أساس لاستقامة الحياة فى جميع مظاهرها وأطوارها ، فإذا فقدت الحياة العدل فقد فقدت بفقده النظام الجماعى الذى يربط بين الأفراد ، وبينهم وبين الجماعات ، وبين الجماعات والشعوب والأمم على دعائم الحق والواجب .

ومن عجيب الأسلوب البيانى فى القرآن الحكيم أن الله تعالى ذكر هذا المعنى نفسه فى قوله : (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى)[1] . فصورة النداء بعنوان الإيمان ، وصورة الخطاب الكينونى (كونوا) الذى يجعل من العدل طبيعة فى خلائق أهل الإيمان لأنه أماناتهم العظمى التى حملوها ليؤدوها إلى الحياة ، وصورة إعظام القيام بالعدل (قوامين) هنا فى هـــذه الآية هى نفسها هناك فى تلك الآية .

بيد أن الأمر اختلف فى الآيتين اختلافاً جمع متفرق مواطن العدل باعتباره أصلا فى التشريع الإسلامى الذى يشمل الحياة من جميع جوانبها . فهناك وجه الأمر للمؤمنين إلى أن يكونوا قوامين بالعدل ولو كان فى ذلك مراغمة كافة عواطف الحب والمودة والقرابة ، وهنا وجه الأمر للمؤمنين إلى أن يكونوا قوامين بالعدل ولو كان فى ذلك مراغمة كافة عواطف البغض والعداوة .

وملتقى الآيتين الكريمتين فى توجيه أهل الإيمان إلى أن يكونوا نهاضين بالعدل بين الناس إخلاصاً فى عبودية الله ، لا تحملهم محبة مهما عظمت

---

(١) سورة المائدة آية ٨ .

أو بغض مهما اشتد على الإعراض عن إقامته إحقاقاً للحق وإنصافاً للمظلوم وانتصاراً للضعيف .

يقول أبو بكر الجصاص فى أحكامه : وقد تضمن ذلك الأمر بالعدل على المحق والمبطل وحكم بأن كفر الكافرين وظلمهم لايمنع من العدل عليهم .

ويقول الطبرى : يعنى جل ثناؤه يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل فى أوليائكم وأعدائكم ، ولا تجوروا فى أحكامكم وأفعالكم ، فتجاوزوا ما حددت لكم فى أعدائكم لعداوتهم لكم ، ولا تقصروا فيما حددت لكم من أحكامى وحدودى فى أوليائكم لولايتهم لكم ، ولكن انتهوا فى جميعهم إلى حدى واعملوا فيه بأمرى .

وقال الفخر الرازى : واعلم أن التكاليف وإن كثرت إلا أنها محصورة فى نوعين : التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله ، فقوله : (كونوا قوامين لله) إشارة إلى النوع الأول وهو التعظيم لأمر الله، ومعنى القيام لله ، هو أن يقوم لله بالحق فى كل ما يلزمه القيام به من إظهار العبودية وتعظيم الربوبية وقوله : (شهداء بالقسط) إشارة إلى الشفقة على خلق الله ، ومعناه كما قال عطاء : لا تحاب فى شهادتك أهل ودك وقرابتك ، ولا تمنع شهادتك أعداءك وأضدادك ، أو معناه كما قال الزجاج : تبينون عن دين الله ، لأن الشاهد يبين ما يشهد عليه ، فسمى البيان عن دين الله شهادة لذلك .

ثم قال الرازى : وقوله تعالى : (ولايجرمنكم شنآن قوم على ألاتعدلوا) أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا فيهم ، والآية عامة ، والمعنى ولا يحملنكم بغض قوم على أن تجوروا عليهم وتجاوزوا الحد فيهم ، بل

اعدلوا فيهم وإن أساءوا إليكم ، وأحسنوا إليهم وإن بالغوا فى إيحاشكم ، فهذا خطاب عام ، ومعناه أمر الله تعالى جميع الخلق بأن لا يعاملوا أحداً إلا على سبيل العدل والإنصاف ، وترك الميل والظلم والاعتساف .

وقال القرطبي : ودلت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه ، وأن المثلة بهم غير جائزة وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك ، فليس لنا أن نقتلهم بمثله قصداً لإيصال الغم والحزن إليهم .

وحاذق المفسرين وإمامهم أبو جعفر الطبرى يربط بين آية العدل فى سورة النساء وبين قصة قوم منافقين خانوا الله ورسوله وتواطئوا على الكذب بتبرئة الجانى المنافق ورمى رجل يهودى بالذنب وهو برىء ، حتى هم النبى ﷺ أن يقوم فى ذلك مقاماً فأرشده الله وعلمه ما لم يكن يعلم .

وفى ذلك يقول أبو جعفر : وهذا — الإشارة إلى آية العدل فى سورة النساء — تقدم من الله تعالى ذكره إلى عباده المؤمنين به وبرسوله أن يفعلوا فعل الذين سعوا إلى رسول الله ﷺ فى أمر بنى أبيرق أن يقوم بالعذر لهم فى أصحابه وذبهم عنهم وتحسينهم أمرهم بأنهم أهل فاقة وفقر ، يقول الله لهم: (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط) يقول : ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام بالقسط .

وقصة هؤلاء الخائنين من بنى أبيرق ومن نضح عنهم من ضعفاء الإيمان مروية بروايات متعددة وكلها ترجع إلى معنى واحد هو خيانة الأمانة ورمى البرىء بالذنب والكذب على رسول الله ﷺ ليدافع عنهم ، ذكر أبو جعفر بسنده عن السدى قال : « إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً »[1] نزلت فى طعمة بن أبيرق ،

---

(١) سورة النساء آية ١٠٥ .

استودعه رجل من اليهود درعاً فانطلق بها إلى داره ، فحفر لها اليهودى ثم دفنها ، فخالف إليها طعمة فاحتفر عنها فأخذها ، فلما جاء اليهودى يطلب درعه جحدها ، فانطلق اليهودى إلى ناس من اليهود من عشيرته ، فقال : انطلقوا معى ، فإنى أعرف موضع الدرع ، فلما علم بهم طعمة أخذ الدرع فألقاها فى دار أبى مليل الأنصارى ، فلما جاءت اليهود تطلب الدرع فلم تقدر عليها ، ووقع طعمة وأناس من قومه باليهودى فسبوه وقال لهم طعمة : أتخونونى ؟ فانطلقوا يطلبونها فى داره ، فأشرفوا على بيت أبى مليل فإذا هم بالدرع ، وقال طعمة : أخذها أبو مليل ، وجادلت الأنصار دون طعمة ، وقال لهم : انطلقوا معى إلى رسول الله ﷺ، فقولوا له ينضح عنى ويكذب حجة اليهودى فإنى إن أكذب كذب على أهل المدينة اليهودى ، فأتى ناس من الأنصار رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله جادل عن طعمة وأكذب اليهودى ، فهم رسول الله ﷺ أن يفعل فأنزل الله تعالى الآيات .

وذلك أرفع درجات العدل فى التطبيق العملى وأعظمها فى إعظامه فى نظر الإسلام الذى لايفرق فى تطبيق مبدأ العدل بين إنسان وإنسان مهما اختلفت العقائد والأديان واللغات واللسان والمحبة والعداوة .

* * *

وقد تكرر الأمر بالعدل فى البيان القرآنى بصور مختلفة وأساليب متعددة ولاسيما ما كان تحذيراً عن الميل إلى القرابة وأهل المودة ، ففى محكم التنزيل : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون »[1] يقول أبو جعفر الطبرى فى تفسيرها : يعنى تعالى ذكره بقوله : (وإذا قلتم فاعدلوا) وإذا حكمتم بين الناس فتكلمتم

---

(١) سورة الأنعام آية ١٥٢ .

فقولوا الحق بينهم واعدلوا وأنصفوا ولاتجوروا ولو كان الذى يتوجه الحق عليه والحكم ذا قرابة لكم ولا تحملنكم قرابة قريب أو صداقة صديق حكمتم بينه وبين غيره أن تقولوا غير الحق فيما احتكم إليكم فيه .

وقوله تعالى : (وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به) معناه أن العدل المطلق الذى لاتنقصه القرابة والمودة ، ولا العداوة والبغضة هو عهد الله إلى عباده ووصيته التى وصاهم بها على ألسنة جميع الأنبياء والرسل ، فعليهم الوفاء بعهد الله والاستجابة لوصيته بالمسارعة إلى قول الحق والتمسك به ونصرته ونصرة أهله .

وإنما تكرر هذا المعنى فى القرآن لأن غرائز البشرية وطبيعة تكوينها تقتضى الميل بالعطف ، والشفقة على القرابة وأهل المودة من الأصدقاء والإخوان والأعوان ، وقد شرع الله تعالى العدل ليكون ميزاناً يعرف به الحق لأهله مهما كانت صلتهم من حب وبغض فيجب أن يأخذ كل فرد حقه منه .

ولهذا بعد أن ذكر الله تعالى وحدة الدين الإلهى بوحدة أصوله فى قوله تعالى : «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»[1] قال لخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم : « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير»[2] يأمره بالاستقامة على وحدة الدين الإلهى ، وينهاه عن اتباع

---

(١) سورة الشورى آية ١٣ .

(٢) سورة الشورى آية ١٤ .

أهواء المفرقين بين الرسل يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، ويحرفون ما أنزل الله من وحيه ، ويأمره أن يجهر بالوحدة الدينية على النهج الذى أوحاه الله إليه وإلى إخوانه الأنبياء والمرسلين ، ويعلن أنه يؤمن بكل كتاب أنزله الله لهداية الخلق لأن جميع كتب الله يصدق بعضها بعضاً ، وأن خلاف المخالفين عليه وإنكارهم نبوته مع ذكرها فى كتب الأنبياء والتبشير بها على ألسنة المرسلين مشاقة لله الذى بعثه رحمة للعالمين لايمنعه أن يقوم بالعدل فى جميع الأحوال ؛ لأن الله تعالى أمر به وشرعه له ليكون ميزاناً لأعمال الخلق ، لايحول بينه وبين أحد منهم كفر أو عداوة ولا يحابى فيه أحد لأجل إيمان أو محبة أو قرابة ومودة ، ومن هنا جاءت الآية بعد ذلك تحكى سنة الله تعالى فى تشريع العدل، وأنه أنزله مع الكتاب ليكون الكتاب آمراً بالحق ، ناهياً عن الباطل ، ويكون العدل ميزاناً توزن به الأعمال ليحق الحق ويبطل الباطل : « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان »(١) .

وفى آية أخرى جاءت على غرار هذه الآية بيان أن إنزال الكتاب مقروناً بإنزال الميزان ليقوم الناس فى حياتهم بالعدل ولو بقهر القوة لمن أبى واستكبر سنة الله تعالى مع جميع الأنبياء والمرسلين فى كافة شرائعهم: « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز »(٢).

وأسلوب هذه الآية الكريمة يفيد أن تحقيق العدل بأعم معانيه وقيام الحياة على دعائمه هو الغاية القصوى من إرسال الرسل بالشرائع وإنزال الكتب الإلهية معهم لهداية الخلق وإصلاح شأنهم .

---

(١) سورة الشورى آية ١٥ .

(٢) سورة الحديد آية ٢٥ .

ويشير إنزال الحديد وتهيئته لعمل الصنائع وصنع الأسلحة منه إلى أن المقصود بالعدل الذى يقوم الناس به فى حياتهم هو الميزان الذى يحقق مصلحة المجتمع البشرى ولو أدى ذلك إلى استعمال القوة القاهرة لردع المفسدين فى الأرض المعوقين لسنن الله فى تقدم الحياة .

وردع هؤلاء المفسدين فى الأرض بالقوة القاهرة التى تجعل الحديد وإنزاله رمزاً لها وعنواناً عليها نصر لشرائع الله ورسالاته فمن نهض به أيده الله بقوته ، وهو القوى الذى لا يقادر ، العزيز الذى لا يغالب .

كما أن العدل فى البيان القرآنى هو الميزان الذى يحقق أكبر قسط فى مصلحة البشرية وتقدمها ، فهو أيضاً الميزان الذى يحدد العلاقة بين الناس وخالقهم عز شأنه ، فإذا جهل فريق منهم شأن الإلهية وفقدوا عقولهم ، وألغوا خصيصة إنسانيتهم التى فضلوا بهديها على كثير من خلق الله واستعبدهم التقليد البليد، والعكوف على مواريث رذائل الآباء من أهل الجهالة والضلالة، واحتجوا لضلالهم بضلال أسلافهم تقليداً لهم ،وتقولوا على الله الكذب : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها »[1] ردهم على أعقابهم خاسئين ، وأكذبهم فيما زعموه من الباطل : « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون »[2] ولم يتركهم فى عمايتهم بل بين لهم ميزان الهداية الإلهية فيما يأمر به وينهى عنه وما يتعبد به عباده : « قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين»[3] فكأنه تعالى يقول : إن الله تعهد عباده بالعدل وأمرهم به فى جميع أحوالهم ، والعدل يقتضى العلم والمعرفة ويقظة العقل ، فلا عدل مع الجهل

---

(١) سورة الاعراف آية ٢٨ .

(٢) السورة نفسها والآية نفسها .

(٣) السورة نفسها آية ٢٩ .

والتقليد البليد الذى يميت العقل ويفقده خاصته ، والتقول على الله بالزور والبهتان ، إفك مفترى لا يجترىء عليه إلا بليد العقل معرق فى الجهالة ، أو طاغية عنيد موغل فى الضلالة ، فحال هؤلاء المقلدين لآبائهم من غير تعقل ، المجترئين بالكذب على الله ، وحال كل ما اتصف بصفتهم فى أى زمان ومكان قبيحة ذميمة عند الله وعند الناس .

وإنما رضى الله لعباده أن يلتزموا ما أمرهم به من العدل والإخلاص فى التوجه إليه بالعبادة والدعاء ، ولا سيما فى مواطن التقديس والمناجاة .

والعدل فى البيان القرآنى هو الخصيصة الأولى لخلافة الإنسان عن الله تعالى فى الأرض .

ولذلك كان هو المقصود الأعظم من هذه النعمة العظمى ، فإن الله تعالى لم يجعل الإنسان خليفة فى الأرض إلا ليحق العدل بأكمل صوره وأوسع معانيه بتنفيذ شرائع الله وتطبيق سننه الكونية وكشف حقائق الوجود التى أقامها الله فى تقديره وخلقه على دعائم العدل التكوينى فى ائتلاف عناصرها وتماسك ذراتها تماسكاً لا يقوم على مجرد الروابط المادية ، وإنما يعتمد على نظام أوضاعها فى مقارها وتقدير خلقها بميزان الحكمة الإلهية ، ليكون مثلا مشهوداً يحتذيه الإنسان فى تحقيق المقصود من خلافته فى الأرض ، وذلك المقصود هو إقامة الحياة على سنن العدل والحق .

وإلى هذا المعنى يشير القرآن الحكيم فى قوله تعالى : والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »[1] وهو وجه المناسبة بين رفع السماء ووضع الميزان أى العدل ،

---

(١) سورة الرحمن آيات ٧، ٨، ٩

ولما كان الميزان اخص امور العدل فى موضعه وأشهر آلاته وأعرفها عنون له به .

والمراد من وضع الميزان إنزاله تشريعاً فى جميع الكتب السماوية وتعبد الناس به لتقوم حياتهم على طرائقه ومناهجه ، واختصاص السماء بذكرها بهذا الوصف المشعر بدقة الانتظام وقوة التماسك الذى يحفظها فى أوجها على أوثق ما خلقت عليه إشارة إلى ما بين العدل التكوينى الذى أقام الله تعالى عليه جرم الكون جميعه وبين العدل التشريعى — الذى وضعه الله شريعة تعبد بها عباده وأمرهم أن يقوموا على تنفيذ أحكامها — من وشائج إلهية تحمل الإنسان على الاستجابة والامتثال ، وفى الأثر : تخلقوا بأخلاق الله .

ولما كان الأنبياء والرسل هم النماذج العليا لخلافة الإنسان عن الله فى أرضه ، وعليهم نزلت شرائع الله وأحكامه لسياسة خلقه ، وكانوا أعرف الخليقة بسنن الله الكونية ، وأعلمهم بأسرار الوجود وحقائقه ناط الله تعالى بهم حمل أمانة العدل وتطبيقها فى الحياة ليكونوا أسوة يتأسى بهم المؤمنون بشرائعهم ، وينافسهم فى ذلك غيرهم ممن يدرك أثر العدل فى إصلاح الحياة ، ولكنه حجب عن الإيمان .

وقد أعطى الله بعض أنبيائه الملك إلى جانب النبوة فكانوا أخص بالتنبيه إلى رعاية العدل فيما ملكهم الله وبسط عليه سلطانهم ، لأن طبيعة الملك مع غير الأنبياء تقوم على المغالبة والتنازع فخشية التظالم فيه أدنى من خشيته فى غيره ، ولهذا قال الله لنبيه داود ، وقد آتاه الله الملك والنبوة : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله »[١] يقول الله عز شأنه لعبده داود : يا داود

(١) سورة ص آية ٢٦ .

إنا بما لنا من سلطان الإلهية المطلق الذى نعطى به ما نشاء من فضلنا من نشاء من عبادنا ، ونمنع به ما نشاء من إحساننا عمن نشاء من خلقنا ، أعطيناك إلى جانب نعمة النبوة ملك خلافة فى الأرض ليقوم الناس فيه بالقسط فيما بينهم ، فكن لهم راعياً أميناً وأسوة صالحة فى حكمك بينهم بالعدل والحق ، ولا تتبع الهوى : هواك وميلك أو هوى غيرك من ذوى قرابة أو مودة ، فلا تمل فى حكمك مع المودة لأهلها من الخلان والأصدقاء، أو القرابة لذويها ، وليسعهم عدلك فيهم حتى يكونوا سواسية عندك ، مع نفسك وغيرك ممن قرب أو بعد ، لأن اتباع الهوى يقلب ملك الخلافة والعدل إلى ملك غصوص ظالم ، يضل فيه القيم بسلطانه عن سبيل الله من العدل والإحسان : «إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »[1] وقد أيد الله النبوة بالعصمة عن الوقوع فيما يوجب الوعيد بالعذاب الشديد ، فنبوة داود عليه السلام عاصمة له من أن يناله هذا الوعيد ، ولذلك أخرجه البيان القرآنى مفصولا عن خطاب داود ، ساقه مساق التهديد والتخويف العام لمن يضل عن سبيل الله من سائر المالكين ، وسلك به مسلك الإنذار العام على صورة الحديث عن غير حاضر لقصد التبليغ والإخبار صوناً لمقام النبوة أن يكون بمعرض الوقوع فى مجانبة العدل والميول مع الهوى .

شناعة الظلم فى نظر الاسلام:

وإذا كان الإسلام قد عنى بأمر (العدل) هذه العناية العظمى لمكانه من إصلاح الحياة عامة ، وحياة الناس بخاصة ، فإنه قد عنى بمثل هذه العناية أو

---

(١) بقية الآية السابقة .

أشد بشأن بيان قبح (الظلم) وشناعته لمكانه من إفساد الحياة العامة وحياة الناس بخاصة .

فقد أمر الإسلام بالعدل فى أساليب متنوعة وصور من التعبير مختلفة ، ورغب فيه ترغيباً جعله أصلا من أصول التشريع العام ، بل اعتبره أصل الأصول كلها .

لأنه أصل فى تصحيح العقيدة والتعبدات .

وأصل فى تعامل الناس وبعضهم مع بعض .

وأصل فى بناء المجتمعات الخاصة فى داخل الأمم والشعوب ، والمجتمعات العامة فى الدول والحكومات .

وأصل فى إقرار النظم الاجتماعية الصالحة التى تتخذ منه ميزاناً تزن به أعمالها ، ودعامة تقوم عليها حياتها .

وأصل فى استقرار الأمن والسلام بين الأمم والشعوب .

ونهى عن (الظلم) نهياً زاجراً فى أساليب متعددة ، وصور من التعبير متفاوتة ونفر منه بتقبيحه تنفيراً مرعباً ، ورهب منه ببيان سوء مغبته ترهيباً مفزعاً ، لأنه أساس كل فساد فى الأرض ، وإفساد فى حياة الخلق .

وأصل أصيل للفوضى فى سياسة الأمم وقيادة الشعوب ، ومسعر الفتن ، وموقد نيران الحروب ، وللعامل الأول فى سفك الدماء وقتل الأبرياء ، ومعول التخريب والتدمير لبناء الحضارة ومشعل العداوة والبغضاء بين الأقارب والبعداء .

ولذلك صب الله تعالى نقمته على الظالمين فطردهم من رحمته — وهى التى وسعت كل شىء — وسجل عليهم لعنته وسخطه بقوله تعالى : « ألا لعنة الله

على الظالمين[١]، وبقوله جل شأنه: «يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار»[٢] ويقول عز سلطانه: «فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين»[٣].

ولا شك أن كل نهى عن (الظلم) هو فى واقعه الوجودى أمر بالعدل، وكل تنفير من (الظلم) هو فى نفسه تحبيب فى (العدل) وكل ترهيب من (الظلم) هو فى شاهد الحياة ترغيب فى (العدل) وكل ذم للظلم هى فى شرعة التعبير البيانى للإسلام مدح للعدل.

وكما كان الأمر بالعدل فى الإسلام شاملا للعدل فى العقائد والتعبدات، وشاملا للعدل الاجتماعى والسياسى فى علاقات الناس بعضهم مع بعض وتعاملهم أفراداً وجماعات ودولا وحكومات، وأمماً وشعوباً، كان النهى عن (الظلم) فى هذا الدين القيم شاملا للظلم فى العقائد والتعبدات، وشاملا للظلم الاجتماعى والسياسى فى علاقات الناس ومعاملاتهم فى شئون الحيـــاة التى يعيشونها فى مجتمعاتهم.

فأما (الظلم) فى العقائد والتعبد لله تعالى فهو أصل الداء، ومنشأ الفساد فى الأرض والإفساد بين العباد، ومصدر بلاء الإنسانية ومنبع متاعبها، لأنه (ظلم) يقوم على الجهل بالله تعالى وجحود سلطانه الذى يدبر به أمر خلقه وهذا الجحود يسوق إلى إطراح التناصف والعدل ويستعبد الإنسان لغرائزه الحيوانية التى تسوقه بطبيعتها إلى التغالب بالقوة المادية فيسطو القوى على الضعيف. والقادر على العاجز، فيسلبه حقه فى الحياة الحرة الكريمة، والقوة المادية غادية رائحة، لا بقاء لها على حال ولا استقرار لها فى مكان، فمرة

---

(١) سورة هود آية ١٨.
(٢) سورة غافر آية ٥٢.
(٣) سورة الأعراف آية ٤٤.

هنا ومرة هناك : «وتلك الأيام نداولها بين الناس»[1] ، فإذا مال بها ميزان الحياة مالت معه حيثما كان، وعاد التغالب شرقياً بعد أن كان غربياً ويمينياً بعد أن كان يسارياً ، وسرت من ورائه الأحقاد والضغائن، تسوقها بعصاها الأطماع الاستعمارية فيعود سيد الأمس عبد اليوم ، وقوى الماضى ضعيف الحاضر ، وهكذا تظل الحياة فى اضطراب وقلق ، ويظل الناس فى خوف وفزع نتيجة للظلم فى العقائد بالإلحاد والجهل بالله وجحوده ، وعدم مراقبته وخشيته .

ومن هنا كان (الظلم) فى العقائد هو أفحش أنواع (الظلم) لأنه إلحاد فى دين الله وميل عن الجادة فى حق الله تعالى ، وتزييف للألوهية ، وعبث بأصول الأديان والشرائع ، ومعول لهدم نظام الحياة وتسليط للغرائز الحيوانية على العقل،وطمس لإشراق الروح الإنسانى ، وحجاب مظلم يغشى القلب ، وإشاعة للفوضى والتغالب بالقوة المادية فى الحياة ، وإهدار للقيم الخلقية العليا بين الناس .

ولهذا جاء البيان القرآنى بتقبيح (الظلم) فى العقائد ، والوعيد عليه فى قوارع الآيات المحكمة التى تبين جزاء الظالم لنفسه بغمط حق ربه وخالقه وإنكار ربوبيته والاستكبار عن عبوديته له ، والتقول عليه بالباطل وافتراء الكذب .

والبيان القرآنى أورد تقبيح (الظلم) فى العقيدة والنعى على الظالمين لأنفسهم بتعديهم حقوق الإلهية بالجحود والإنكار ، والشرك فى عبادة لله تعالى فى أسلوب لايجرى فى عرف البراعة البيانية إلا لقصد المبالغة ،

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٠ .

وبلوغ الغاية القصوى فى تصوير المعنى المقصود ، والغرض منه فى هذا المقام بيان أن هؤلاء الظالمين بلغوا الذروة فى شناعة (الظلم) فليس هناك أحد أشد ظلماً منهم ، لأنهم افتروا على الله الباطل وأعرضوا عن التأمل فى الدلائل الكونية التى نصبها الله تعالى شاهدة على وجوده وقدرته ووحدانيته وحكمته ، وإذا ذكروا بها تولوا عنها مدبرين كأن فى آذانهم وقراً ، وفى أعينهم عمى ، وعلى قلوبهم أغلفة من غشاوات الحجب يسد عليهم منافذ الهداية والإيمان.

بيد أن هذا الأسلوب مع توحده فى صورة الإنكار والتوبيخ يختلف فيما يرتبط بكل موضع من مواضع الورود فى صورة الجزاء ، فقد يرد الجزاء بعد عرض شناعة ظلم الظالمين وتهديدهم بتصوير جرمهم فى صورة الجرم الذى ليس فوقه فى شناعته جرم آخر — متحداً فى أغلب مادة التعبير ، فقول الله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين »(١) ، وقوله جل شأنه : « فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين »(٢) متحدان فى صورة التعبير الاستفهامى للإنكار البالغ حد النهاية فى إنكاره ماهم عليه من ظلم شنيع ، وتعلق الأول بافتراء الكذب على الله ، وهو الاختلاق الذى لا يستند على شبهة ، وبالتكذيب بالحق الثابت بروائع البينات وتعلق الثانى بالكذب على الله ، وبالتكذيب بالصدق ليعادل مجرد الكذب على الله والتكذيب بالصدق إفتراء الكذب وتكذيب الحق فى فظاعة ما أقدموا عليه ، ولذلك جاء الجزاء فيهما موحداً بأسلوب الاستفهام التهديدى ، ليفيد استبعاد أن يقع هذا اللون البشع من الظلم من أحد يجترئ عليه ، وهو يعلم مآل الكافرين بما

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٨ .

(٢) سورة الزمر آية ٣٢ .

قام أمامه من الأدلة الواضحات والآيات البينات القائمة مقام الشاهد على استحقاق كل عامل جزاء عمله ، والعقل الذى يرى هذه المجازاة فى هذه الدار الدنيا على ما يقع فيها من أعمال تافهة يقضى بأحقيه المجازاة فى الدار الآخرة على الأعمال العظيمة التى تختص بالخالق جل شأنه ، فالأسلوب الإنكارى خرج مخرج الإقرار والتسليم منهم تنزيلا لقيام البرهان مقام الاعتراف إرغاما للمغتربين المكذبين تبكيتاً على شنيع ما ارتبكوا من ظلم .

ويلحق بهذا الأسلوب نظيره فى قوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون»[1] ، فهو فى التعبير الاستفهامى الإنكارى وتعليقه بافتراء الكذب على الله مثله سواء ، ولكنه خالفه فى الجزاء ، فذاك كان وعيداً بالمآل المعلوم للكافرين بسبب ظلمهم فى العقيدة وهذا إخبار بخيبتهم أينما كانوا فى الدنيا والآخرة . قال أبو جعفر الطبرى فى تفسيرها : يقول تعالى ذكره : ومن أشد اعتداء ، وأخطأ فعلا ، وأخطل قولا (ممن افترى على الله كذباً) يعنى ممن اختلق على الله قيل باطل، واخترق من نفسه عليه كذباً ، فزعم أن له شريكاً من خلقه وإلهاً يعبد من دونه كما قال المشركون من عبدة الأوثان ، أو ادعى له ولداً أو صاحبه كما قالته النصارى (أو كذب بآياته) يقول : أو كذب بحججه وأعلامه وأدلته التى أعطاها رسله على حقيقة نبوتهم ، كذبت بها اليهود (إنه لا يفلح الظالمون) إنه لا يفلح القائلون على الله الباطل أى أن هؤلاء المفترين على الله كذباً والمكذبين بآياته لا يفلحون اليوم فى الدنيا ولا فى الآخرة .

---

(١) سورة الأنعام آية ٢١ .

فالآية — كما يقول شيخ المفسرين وإمامهم أبو جعفر ـ تعم الظالمين في العقيدة والتعبد لله ظلماً أصيلا بإنكار وجود الله والإشراك به كما في عبدة الأوثان ، وتعم الظالمين في العقيدة ظلماً عارضاً بتحريف آيات الله وتبديل شرائعه كما في ادعاء النصارى لله ولداً وصاحبه ، وكما في صنيع اليهود في إنكارهم آيات الله ومعجزات أنبيائه التي هي حجج الله تعالى على الناس لإثبات صحة النبوات وصدق الأنبياء ، وقد كان من أعظمها حجة وأبينها دلالة معجزات خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، وهم يعرفونه في كتبهم بالبشارة به بأوصافه وخواصه التي لا تنطبق على أحد غيره ، ويعرفونه إذ حل بينهم بما أقامه الله له من البينات المعجزة القاهرة ، وبما آتاه من الهداية كما يعرفون أبناءهم معرفة لا يتمارون فيها ، فأنكروا ذلك كله وجحدوه ، وافتروا على الله الكذب والباطل ، روى أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لعبد الله بن سلام ـ وكان من أحبار اليهود وعلمائهم فهداه الله إلى الإسلام وكان من خيار الصحابة : أنزل الله على نبيه : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفون كما يعرفون أبناءهم »(١)، فكيف هذه المعرفة ؟ فقال : يا عمر : لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابني ، ولأنا أشد معرفة بمحمد مني بابني ، لأني لا أدري ما صنع النساء ، وأشهد أنه حق من الله .

وقد تكرر هذا الأسلوب في إنكار (الظلم) في العقيدة ، وبيان أنه أقبح أنواع (الظلم) فمن ذلك قوله تعالى : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه »(٢) وقوله : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٦.
(٢) سورة الكهف آية ٥٧ .

ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون »[١] ، وتأمل إظهارهم بوصف المجرمين فى تسجيل انتقام الله منهم انتقاماً يلاحقهم فى الدنيا والآخرة ، وفى الآيتين من التوبيخ على الإعراض عن النظر فى آيات الله وبراهينه التى نصبها شاهدة على وجوده ووحدانيته وقدرته وحكمته ، فإذا ذكروا تولوا عنها كأن فى آذانهم وقراً : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون »[٢] .

وهكذا كل آية من القرآن العظيم تنعى على الظالمين شنيع ظلمهم بافتراء الكذب على الله وتقول الباطل عليه سبحانه وتعالى تجرى هذا المجرى ، وفيما ذكرناه منها واقعاً موقع الشاهد والمثل غنية لأولى الألباب .

ويتبع (الظلم) بافتراء الكذب فى حق جلال الله (الظلم) بسوء الاعتقاد فى النبوة والأنبياء ، فقد سلكه الله تعالى فى البيان القرآنى . هذا المسلك من القبح والشناعة يقول الله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون »[٣] .

قال المفسرون : هذه الآية تنعى على الظالمين لأنفسهم بافتراء الكذب على الله بادعاء النبوة والوحى من الله زوراً وتقولا ، وزعم أن أحداً من البشر — بغير اصطفاء الله لرسالته — قادر على أن ينزل مثل ما أنزل الله على أنبيائه ورسله فى كتبه وشرائعه المنزلة من عنده وأخصها القرآن

---

(١) سورة السجدة آية ٢٢ .
(٢) سورة البقرة آية ١٨ .
(٣) سورة الأنعام آية ٩٣ .

الكريم ، فقد حكى الله عن بعض المشركين أنهم قالوا : « لو نشاء لقلنا مثل هذا »[1]، يقصدون القرآن ، وقد كذبوا ، لأن الله تحداهم وعجزهم تعجيزاً مقروناً بالتبكيت ليكون أبلغ فى استخراج أقصى ما يملكون من قوة المعارضة فأبلسوا وبهتوا : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين »[2]

والآية التى تنعى على الظالمين ظلمهم فى أمر النبوة والوحى تصور استهتار أولئك الظالمين فى دعواهم والوحى إليهم كذباً وبهتاناً ودعواهم باطلا أنهم ينزلون مثل ما أنزل الله .

وقد قابل البيان القرآنى هذا العبث والاستهتار بلون من الاستهزاء الساخر ، فكأنه يكيل لهم بكيلهم .

أى ولو ترى أيها الرائى هؤلاء الظالمين الكاذبين العابثين بادعاء ما ليس لهم باطلا وتقولا على الله بافتراء الكذب وهم فى غمرات الموت وشدائد سكراته لرأيت أمراً فظيعاً مفظعاً ، تنقطع من هوله الأنفاس ، وتحترق له الأكباد وتنفطر من شدته القلوب هلعاً لما حل بهم من ألوان العذاب وصنوف البلاء ، وملائكة الموت يترصدونهم ، يقولون لهم — وهم على ما هم عليه من شديد البلاء — أخرجوا أنفسكم من أبدانكم وخلصوا أرواحكم مما تقاسون من أليم العذاب وثقيل الأوصاب إن كنتم كما زعمتم أنكم قادرون على شىء ، أى شىء ، كزعمكم القدرة على أن تكونوا أنبياء يوحى إليكم ،

---

(١) سورة الأنفال آية ٣١ .

(٢) سورة البقرة آيتا ٢٣ ، ٢٤ .

وزعمكم القدرة على إنزال مثل ما أنزل الله على أنبيائه ورسله .

لقد ذهبت أباطيلكم وتراهاتكم وذهب معها غروركم وتبجحكم بالباطل ، وأصبحتم أمام أنفسكم أسرى العجز الفاضح والهوان المهين ، فإنكم اليوم إذ تفارقون غروركم إلى دار الجزاء الأبدى تجزون على افترائكم الكذب على الله وعلى أنبيائه ورسله الجزاء الذى تلقون به العذاب المهين وفاقالكبريائكم الكاذبة واستكباركم على الله وعن النظر في آيات الله نظراً يؤدي بكم إلى ساحة الإيمان كما أدى بالمؤمنين الصادقين من أولى الألباب الذين احترموا عقولهم فاهتدوا بهدى الله وفاءوا إلى ظله الظليل .

قال الإمام الرازى : واعلم أن قوله : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) إنما يورد فى معرض المبالغة ، وفيه دلالة على أن الافتراء على الله تعالى أعظم أنواع الظلم .

وأما الظلم فى التعبد فأقبحه ما كان بتحريف التشريع الذى أنزله الله تعالى على رسله وتعبد به عباده ، وتبديله وابتداع مالم يأذن به الله ولم يشرعه ، وذلك كظلم اليهود فى تركهم حكم التوراة فى بعض الوقائع وتحريفها فى بعض آخر .

روى البخارى ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث والسنة أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : إن رجلا منا وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ماتجدون فى التوراة؟) قالوا : نفضحهم ويجلدون. قال عبد الله بن سلام : كذبتم ، إن فيها آية الرجم ، فأتو بالتوراة ، فأتوا بها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال عبدالله ابن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا آية الرجم تلوح، فقالوا: صدق يا محمد،

فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ونزل قوله تعالى : «وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله » إلى قوله جل شأنه : «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »(١).

وذكر القاضى أبو بكر بن العربى عن ابن جريج أنه قال : لما رأت قريظة النبى ﷺ قد حكم بالرجم ، وكانوا يخفونه فى كتابهم ، قالوا : يا محمد .. اقض بيننا وبين إخواننا بنى النضير وكان بينهم دماء وديات ، وكانت النضير تتعزز على قريظة فى دمائها ودياتها ، فحكم بينهم بالاستواء ، فقالت بنو النضير : قد حططت منا . وأبوا حكم رسول الله ﷺ وقالوا : لانطيعك ، ولكن نأخذ بحدودنا التى كنا عليها فنزل قوله تعالى : «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس » إلى قوله : «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون»(٢) فالكافرون هناك هم الظالمون هنا .

والمراد بهم اليهود الذين بدلوا حكم الله بما ابتدعوه من قبل أهوائهم الفاسدة .

ويلحق بهم فى هذا الظلم ولو تسمى باسم الإسلام كل من عطل شرائع الله وأحكامها وهو قادر على أن يقيمها وتركها استهتاراً أو جحوداً ، أو متابعة وتقليداً لمن لم يعتقد بالإسلام وشريعته ويدين بشرائع وضعية إكباراً له وانمياعا فيه ، وأخذاً بقوانينه وأوضاعه لمجرد الهوى أو الاستضعاف ، وأمر أمم الإسلام (اليوم) فى خطر عظيم من أمر الله وسخطه .

والتعبير بالظلم هنا وبالكفر هناك للدلالة على شناعة جرمهم ، وأنهم بتبديل شرائع الله — وتحريفها وترك الحكم بها مع التمكن من إقامتها —

---

(١) سور المائدة آيتا ٤٣ ، ٤٤ .   (٢) سورة المائدة آية ٤٥ .

كفروا كفراً فجروا فيه وجاوزوا كل حد للطغيان، فهو كفر فوق كل كفر، وأنهم بجرمهم هذا ظلموا ظلماً تعدوا فيه كل موبقة ، وليس هناك من هو أظلم منهم .

ومما جاء فى البيان القرآنى عن الظلم فى التعبد والتشريع قوله تعالى: «فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين»(1) وهذا النوع من الظلم وإن كان قد أبرز فى صورة ما يرد من التعبير للمبالغة للإشمار بشناعة ما افترقوا ، إلا أن ما ذكر معه من الجزاء لا يلحقه بما سبق فى هذا الأسلوب خاصاً بالافتراء على الله فى العقيدة والإلحاد فى آيات الله ورسالاته .

قال الإمام الرازى: قال المحققون :إذا ثبت أن من افترى على الله الكذب فى تحريم مباح استحق هذا الوعيد الشديد فمن افترى على الله الكذب فى مسائل التوحيد ومعرفة الذات والصفات والنبوات والملائكة ومباحث المعاد كان وعيده أشد .

* * *

أما الظلم الاجتماعى الذى يتظالم به العباد فيطغى بعضهم على بعض فى التعامل الذى تقتضيه الحياة الاجتماعية من الحصول على المنافع ودفع المضار ، فيظلم القوى الضعيف ويسلب القادر حق العاجز ، ويغمط الغنى الفقير ، ويبخس الرئيس المرءوس مغالبة وفجوراً سواء أكان ذلك بين الأفراد أو بين الجماعات، أو بين الأمم والشعوب باسم الدول والحكومات ، فقد أكثر فيه البيان القرآنى النصوص الزاجرة والآيات الرادعة ، لأن هذا (الظلم) يتصل بسبب قريب من الطبيعة الحيوانية فى الإنسان، تلك الطبيعة التى تسعر نيران الغرائز فى داخل الكيان الإنسانى ، وتوقظ فيه « الأنانية » وحب الذات فتقلب

---

(1) سورة الأنعام آية ١٤٤ .

الإنسان إلى حيوان لا يعرف إلا نفسه وشهواته ، بل إنها تقلبه إلى وحش يسيطر بقوة عضلاته على كل ما يستطيع السيطرة عليه ، فلا يريد لأحد غيره أن يأخذ من الحياة كما يأخذ ، بل هو يتسلى بآلام الآخرين ومتاعبهم .

ومن هنا كان لا بد للناس من سلطة قاهرة تمنع التظالم وتحقق العدل ، وهذا ما قضت به الشرائع والقوانين التى تنظم الحكومات وتبين حقوق الأفراد والجماعات فى ظلها لتقوم على تنفيذها بميزان العدل مؤيداً بقوة سلطان القانون: «ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون»(١) ظلموا أنفسهم،وظلموا الناس بما بغوا فى الأرض فاستحقوا سخط الله وعقابه : «ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه »(٢) بتعريضها للعقاب الذى يرد المعتدين . وهذا الظلم الاجتماعى وخيم العاقبة ، سريع العقوبة ، لأن الظالمين للناس فى أموالهم وأرزاقهم وأعراضهم وكرامتهم وحرياتهم وحقوق إنسانيتهم مهددون من الله تعالى بخراب الديار وسوء المآل ، طال بهم الأجل أو قصر ، ولعذاب الآخرة أشد وأقسى : « ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به)(٣) بل: «ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة »(٤) . وقد أنذر القرآن الكريم سوء مغبة (الظلم) ببيان صنيع الله تعالى بالظالمين من الأمم الماضية وما حل بهم من الانتقام الشديد : « وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير »(٥) « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا »(٦) ،(وكم قصمنا من قرية كانت

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢٩ .
(٢) سورة الطلاق آية ١ .
(٣) سورة يونس آية ٥٤ .
(٤) سورة الزمر آية ٤٧ .
(٥) سورة الحج آية ٤٨ .
(٦) سورة يونس آية ١٣ .

ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين »[1] ، ثم بين الله أن هـــذا البطش الشديد بالظالمين ليس مختصاً بالماضين من الأمم الظالمة ، وإنما هو سنة العدل الإلهى فى أخذ الظالم إذا لم يسارع إلى التوبة الصادقة بالندم ورد المظالم إلى ذويها والتحلل من ظلمهم

وفى ذلك يقول البيان القرآنى « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد »[2] .

قال الرازى : اعلم أنه تعالى لما أخبر الرسول عليه السلام فى كتابه بما فعل بأمم من تقدم من الأنبياء ، لما خالفوا الرسل وردوا عليهم ، من عذاب الاستئصال وبين أنهم ظلموا أنفسهم فحل بهم العذاب قال بعده : (وكذلك أخذ ربك) فبين أن عذابه ليس بمقتصر على ما تقدم ، بل الحال كذلك فى أخذ كل الظالمين .

واعلم أن هذه الآية تدل على أن من أقدم على ظلم فإنه يجب عليه أن يتدارك ذلك بالتوبة والإنابة لئلا يقع فى الأخذ الذى وصفه الله تعالى بأنه أليم شديد ، ولا ينبغى أن يظن أن هذه الأحكام مختصة بأولئك المتقدمين ، لأن الله بين بهذه الآية أن كل من شارك المتقدمين فى فعل مالا ينبغى فلابد وأن يشاركهم فى ذلك الأخذ الأليم الشديد .

ومما جاء من قبيل الإنذار بما حل بالظالمين قوله تعالى : « ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون »[3]،

---

(١) سورة الأنبياء آية ١١ .

(٢) سورة هود آية ١٠٢ .

(٣) سورة النمل آيات ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ .

وقوله تعالى: « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال »[١]، وتأمل قوله: « وتبين لكم كيف فعلنا بهم » وما فيه من تهديد صارم ووعيد قاصم، وقوله: « وضربنا لكم الأمثال » وما فيه من الحث على الاعتبار والاتعاظ بما حل بهم من انتقام الله وبطشه، ولهذا عقب الله جل شأنه قوله تعالى: « فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد »[٢] بقوله جل شأنه: « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »[٣] لتأكيد طلب الاعتبار والتأمل فى آثار أولئك الظالمين رأى عين وسماع أذن ووعى قلب وإدراك عقل.

وقد أخبرنا الله تعالى أن من سنته فى خلقه أن الأمة إذا انتشر فيها الظلم الاجتماعى ولم يقم أقوياؤها وأشرافها وصالحوها وأهل العلم والمعرفة فيها بالنهى عنه ومقاومته والعمل على تغيير منكره وإحلال (العدل) مكانه سلط الله عليها الولاة الظلمة يسوسونها بإرادة الله وتقديره ، وعلى مقتضى حكمته حتى تثوب إلى رشدها وتغير ما بها من منكر الظلم وذلك فى قوله تعالى : « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون »[٤] ، روى أبو الشيخ عن منصور بن بى لأسود قال : سألت الأعمش عن قوله تعالى: « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً » ما سمعتهم — أى الصحابة وأكابر التابعين — يقولون فيها ؟ قال : سمعتهم يقولون : إن فسد الناس أمر الله عليهم شرارهم .

قال الشيخ رشيد رضا فى المنار : فإن الأمة الصالحة لا تقبل الأمراء

(١) سورة إبراهيم آية ٤٥ .
(٢) سورة الحج آية ٤٥ .
(٣) سورة الحج اية ٤٦ .
(٤) سورة الانعام آية ١٢٩.

والحكام الفاسدين الظالمين ، بل تسقطهم إذا نزوا على مصالحها وتولى الخيار، ولا سيما إذا كان صلاحها بقواعد الإسلام الذى جعل أمر الناس شورى بينهم ... ثم قال : فالملك — أى رئيس الدولة — المترف وهو الذى أكبر همه التمتع باللذات الجسدية ومظاهر العظمة والسلطان ، يتخذ لنفسه الوزراء والقواد والبطانة والحاشية من أمثاله المترفين ، فيقلدهم جمهور الناس فى أعمالهم السيئة، لأن الناس — كما قيل — على دين ملوكهم ، وبذلك يكون الفساد أغلب من الصلاح والفسق عن أمر الله وسننه فى القوة والنظام أعم الاتباع ، وبهذا هلك من هلك من الأمم بانقراض أهلها أو بتسليط الأمم القوية عليها كما قال تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً »(١) .

فإذا يسر الله للأمة قيادة صالحة توقظها من سباتها لتدفع الظلم عن كيانها الذاتى ، فإن الله تعالى ينقذها حينئذ من بين براثن الولاة الظلمة بهدايتهم أو بالانتقام منهم وتولية الصالحين من أبنائها .

قال الرازى : الآية : (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً) تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين فالله تعالى يسلط عليهم ظالماً مثلهم ، فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم .

وهذا القول يدل على أن تسليط الأمراء والولاة والحاكمين الظلمة على الأمم والشعوب عقوبة معجلة من الله للظالمين ، ولكنها تعم الأمة كلها ، لأن غير الظالمين سكتوا على ظلم الظالمين ، ولم يأخذوا على أيديهم ، وهذا قانون اجتماعى يقرره الله فى قوله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »(٢)

(١) سورة الإسراء آية ١٦ .
(٢) سورة الأنفال آية ٢٥ .

وبهذا استوجب بنو إسرائيل اللعن والطرد من رحمة الله ، وذكرنا القرآن الكريم بحالهم لنتعظ بهم فقال : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون »(١).

وحذرنا النبى ﷺ عاقبة أمرهم أن نقع فيما وقعوا فيه فيحل بنا ما حل بهم . ففى حديث الترمذى وأبى داود عن عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قال : « أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال : « لعن الذين كفروا — إلى قوله فاسقون » .

ثم قال النبى ﷺ محذراً أمته عاقبة ذلك : (كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم) .

وفى حديث آخر رواه الترمذى : (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » وعن جرير البجلى أن النبى ﷺ قال : (ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى هم أكثر وأعز ممن يعمله ، ثم لم يغيروا إلا عمهم الله منه بعقاب) .

وروى البخارى عن النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة المائدة آيتا ٧٨، ٧٩ .

أنه قال : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » .

فإن تاب الظالمون عن ظلمهم أو أخذ الصالحون على أيديهم فكفوهم عن الظلم تاب الله عليهم ، وهدى ولاتهم وأمراءهم وجعلهم عليهم رحمة بعد أن كانوا عذاباً ونقمة أو يبدلهم منهم غيرهم من عباد الله المصلحين الصالحين .

وهذا عام فى كل ظلم ، لأنه تهديد للظالم إن لم يقلع عن ظلمه سلط الله عليه أشد منه وأقدر على ردعه من أمثاله الظلمة الذين لا يرحمون ، ويدخل فيه جميع من يظلم سواء أكان فرداً من الرعية ظلم فرداً آخر ، أم كان راعياً ظلم أفراداً أو جماعة من الرعية ، ويحمل عليه ظلم أتباعه وبطانته وحواشيه وجميع معاونيه لأنه المسئول عنهم وعن أعمالهم فى الرعية ، ويدخل فيه ظلم التجار والسراق والمختلسين والغششة والعمال الذين لا يبذلون جهداً فى إجادة أعمالهم ، ولا يعطون عملهم الوقت الذى يكافىء أجورهم ويشمل ظلم الرؤساء الذين لا ينصفون مرءوسيهم بعدم تقديرهم لما يبذلون فى عملهم من جهد ونصب ، ويحابون الأقارب والأصدقاء واللائذين بهم على حساب الكادحين العاملين .

* * *

وأقبح أنواع الظلم الاجتماعى ما كان اعتداء على حرمات الأديان

بتخريب معابدها أو تعطيل شعائرها ، وفيه يقول الله تعالى : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين . لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »(١) .

وهذا الأسلوب يدل على شناعة الظلم الذى يحول دون ذكر الله فى بيوته أو يؤدى إلى السعى فى خرابها بتعطيلها عن إقامة الصلوات فيها أو بهدمها وتخريب بنائها ، والاستهانة بها بعدم الاهتمام بإصلاحها إذا بليت بلى يمنع من عمارتها بذكر الله والتعبد له فيها ، كما يدل هذا الأسلوب على أن هذا الظلم بالغ ذروة التعدى على الحرمات بما يلحقه بقبح الظلم فى العقائد بالإشراك بالله تعالى والجهل بصفات قدسه والإلحاد فى آياته .

وما ذكر من الجزاء يؤكد هذا المعنى ، فقد جعلت الآية الكريمة جزاء هؤلاء المانعين مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، والساعين فى خرابها أن تعلو عليهم يد القوامين على نظام الحكم من ذوى السلطان المنفذين لحدود الله وزواجره ، فتخيفهم وتذل كبرياءهم ، وتجعلهم هيابين وجلين إذا دخلوا مساجد الله ، فلا يطلقون أيديهم فيها بسوء يعطل شعائرها ، ولهم وراء الإخافة خزى من الله وعار يلحقانهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم لا يقدر قدره إلا من أعده لهم جزاء ظلمهم وتعديهم على حرمات الله ، وهذا كما قال تعالى فى آية أخرى : « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون »(٢) .

---

(١) سورة البقرة آية ١١٤ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٢٤ .

وظاهر الآية يفيد العموم ، فهى شاملة لكل متعبد عام اتخذ لعبادة الله وإقام الصلاة ، وسياق الآية يدل على أن المقصود بها أهل الكتاب ، لأنهم أصحاب السيئات التى حكاها الله عنهم فى الآيات السابقة على هذه الآية ، قال أبو جعفر الطبرى فى تفسيرها : وتأويل قوله : « ومن أظلم » وأى امرئ أشد تعدياً وجراءة على الله وخلافاً لأمره من امرئ منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويعبد الله فيها ؟ قال بعض أهل التأويل : هم النصارى أعانوا بختنصر وجنده على تخريب بيت المقدس حملهم بغضهم لليهود وعداوتهم لهم على ذلك .

وقال آخرون : المقصود مشركو قريش والمسجد هو الكعبة ، وجمع تعظيما له وذلك بصدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقبل معتمراً زائراً للبيت الحرام مقلداً هديه فمنعوه فنحر هديه بذى طوى قبل أن يبلغ البيت الحرام ، ورجع بأصحابه بعد أن عقد صلح الحديبية الذى فتح الله به الطريق أمام الدعوة ، وفيه نزل قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » (١) وقد نصر الطبرى القول الأول وشيده بحجته فقال : وأولى التأويلات التى ذكرتها بتأويل الآية قول من قال : عنى الله عز وجل بها النصارى وذلك أنهم هم الذين سعوا فى خراب بيت المقدس وأعانوا بختنصر على ذلك ومنعوا مؤمنى بنى إسرائيل من الصلاة فيه بعدما انصرف بختنصر عنهم إلى بلاده ، لأن مشركى العرب لم يسعوا قط فى تخريب المسجد الحرام ، بل ثبت أنهم بنوه فى الجاهلية وبعمارته كان افتخارهم .

وقد أغرب صاحب المنار ، فذكر فى تفسير الآية وجهين غير ماذكره

---

(١) سورة الفتح آية ١ .

المفسرون قال : الوجه الثالث أن الكلام فى أهل الكتاب وأن الآية ليست منبئة بأمر واقع ، ولكن بأمر سيقع ، وهو ما كان بعد ذلك من إغارة الصليبيين على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين وصدهم إياهم عن المسجد الأقصى وتخريبهم كثيراً من المساجد .

ثم قال : الوجه الرابع : وهو مبنى على أن الآية منبئة عن أمر سيقع أن المراد بها حادثة القرامطة الذين هدموا الكعبة ومنعوا المسلمين منها وهدموا كثيراً من المساجد ، كأنه بعد أن ذكر حال أهل الكتاب فى طعن اليهود منهم فى النصارى ، وقولهم فيهم إنهم ليسوا على شىء من الدين ، وطعن النصارى فى اليهود كذلك ، وبعد قوله فى المشركين الذين لا يعلمون الكتاب إنهم قالوا قولهم لم يبق إلا ما سيقع للمسلمين وفى المسلمين .

فإنباء الله بهذه الحادثة من الإخبار بالغيب ، فوقعت وكانت حادثتهم من أكبر الأحداث فى المسلمين : فإنهم استولوا على جزء كبير من ممالك الإسلام وهدموا المساجد وعاثوا فى الأرض فساداً ؛ ولم يكن فى أيام الحروب الصليبية على طولها من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة مثلما كان على عهد القرامطة ، فالآيات على هذا مبينة لأحوال جميع الملل .

ثم قال : قال شيخنا « محمد عبده » سواء كانت الآية فى حادثة واقعة أو منتظرة أم كانت وعيداً للذين لا يحترمون المعابد على الإطلاق ، هى على كل حال ناطقة بوجوب احترام كل معبد يذكر فيه اسم الله تعالى بالصلاة والتسبيح ، وبتحريم السعى فى خراب المعابد وبالحكم على الذين يصدون الناس عنها ويسعون فى خرابها — أى هدمها أو تعطيل شعائرها ومنع عبادة الله فيها — بكونهم أظلم الناس كما يستفاد من استفهام الإنكار ، لأن المنع

من ذكر الله تعالى وإبطال شعائر المعابد التى تذكر به وتشعر القلوب بجلاله انتهاك لحرمة الدين يفضى إلى نسيان الناس الرقيب المهيمن عليهم فيمسون كالهمل ، وتفشوا فيهم المنكرات والفواحش وانتهاك الحرمات وهضم الحقوق وسفك الدماء.

وعبادة الله تعالى بذكره والصلاة له تنهى بطبيعتها عن الفحشاء والمنكر، ولا ينافى ذلك ما عساه يطرأ على العبادة أو يوجد فى المساجد من الأشياء المبتدعة التى لم يأمر بها الكتاب، فمن علم بهذه البدع فعليه أن ينكرها ويسعى فى إزالتها ، ولا يجوز له السعى فى إزالة المعابد من الأرض لما فى ذلك من الفساد ، وهذا هو السر فى حكم الشريعة الإسلامية باحترام كنائس أهل الكتاب وبيعهم وصوامعهم واحترام معابد الذين لهم شبه كتاب أيضاً كالمجوس والصائبين .

وهذا الاتجاه الغريب فى توجيه الآية بورودها فى حادثة ستقع وأنها إخبار بالغيب ، وحصر تطبيقها على ما كان من إغارة الصليبيين على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين أو تنزيلها على حادثة القرامطة الذين هدموا الكعبة المشرفة واقتلعوا الحجر الأسود من ركنه ونقلوه إلى حيث أرادوا بعد أن كسروه ، ومنعهم المسلمون من الطواف بالبيت العتيق وهدمهم كثيراً من المساجد الإسلامية .

هذا الاتجاه لا ينبغى أن يكون هو محملا للآية ، لأنه يخصصها بحادثة أو حوادث جرى ويجرى مثلها وأعظم منها بين عالم الإسلام وعالم الكفر والإلحاد ، والطمع فى بلاد المسلمين لاستعباد أهلها والاستحواذ على خيراتها والقضاء على دينهم الذى يربيهم على العزة والكرامة والدفاع عن الحوذة ، ويحضهم على رد المعتدين رداً قاصماً لظهورهم ومرهباً لمن خلفهم من المتربصين:

« فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون »[1] مع ملاحظة العدل والأمانة والوفاء : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين »[2] .

والذى نفهمه من أسلوب البيان القرآنى وسننه فى التعبير ومكان آياته من الحياة أنه يجب إبقاء الآية على عمومها لتشمل النعى على كل ظالم مضى أو يأتى بمنع مساجد الله وسائر متعبداته أن يذكر فيها اسم الله والسعى فى خرابها بهدمها أو تعطيلها عن إقامة الصلاة فيها ، وهذا ماجاء فى تلخيص كلام الشيخ محمد عبده فى آخر عبارة المنار ، فهو الرأى الذى يجب حمل الآية عليه .

ولو أن صاحب المنار الذى جوز فى الآية ذلك التوجيه الغريب نظر إلى ما صنع ويصنع الملاحدة والمستعمرون من الشرق والغرب بالمسلمين وبلادهم ومساجدهم ومدارسهم ومعاهدهم الدينية كالذى جرى ويجرى فى بلاد المسلمين الذين استولت عليهم الشيوعية فكم من مسجد هدموه على رؤوس المصلين ، أو عطلوه عن شعائر الدين وحولوه إلى مصنع أو مربط للخيول؟! وكم من مدرسة إسلامية حولوها إلى وكر لدراسة الإلحاد والكفر بالله تعالى وجحود الدين ؟ ! وكم من معهد دينى أقفلوه وشردوا طلابه ومدرسيه حتى أصبح المسلمون قلة مستذلة تحت حكم الشيوعية الملحدة ؟!

وكالذى جرى فى بلاد المغرب الإسلامية على يد الاستعمار الفرنسى الفاجر فى تونس ومراكش ، والجزائر التى كانت تجرى فيها حرب الإفناء للعرب والمسلمين ومحو كل أثر إسلامى بله المساجد والمعاهد الدينية .

وكالذى جرى ويجرى على يد الصهيونية اليهودية المجرمة فى فلسطين

---

(١) سورة الأنفال آية ٥٧ . (٢) السورة نفسها آية ٥٨ .

والقدس بلد المسجد الأقصى بيت المقدس الذى كانت حادثة بختنصر فيه محملا للآية الكريمة عند جمهور المفسرين الأقدمين ، وهى حادثة مهما قيل فى فظاعتها فإنها لا تمثل إلا القليل من الظلم والطغيان والفجور الصهيونى اليهودى الذى وقع على أهل البلاد وتشريدهم فى العراء وطردهم من بلادهم وبيوتهم وأموالهم وتركهم نهباً للموت عراياً جياعاً لا يملكون شيئاً ، حتى ولا أسباب الموت الكريم .

وكالذى جرى ويجرى على يد الاستعمار الإنجليزى الغاشم فى جنوب الجزيرة العربية والإمارات التى تقاسمها عملاؤه مما يقشعر منه قلب كل إنسان ، من هدم البيوت بالجملة على رءوس ساكنيها العزل البائسين ، وبينها بيوت الله ومعابده ومدارس المسلمين ومعاهدهم .

ومن وراء ذلك كله جمعيات التبشير الأمريكية والأوربية من كل جنس ودولة ، تغذيها حكوماتها بالمال الوفير والسلطان القوى لتكون طلائع للاستعمار والقضاء على الإسلام والمسلمين .

وأين تقع حادثة القرامطة وأمثالها ، وحوادث الحروب الصليبية وفظائعها من أحداث الأندلس ومحاكم التفتيش ؟ بل أين تقع من حوادث حروب البلقان فى أخريات الدولة العثمانية وما وقع فيها للمسلمين من أهوال وفظائع .

ولو أن صاحب المنار — عليه الرحمة من الله — نظر إلى ذلك كله ونظر إلى نفسية أولئك الفجرة من الملاحدة المستعمرين لكان عظم رأيه فى الحادثتين اللتين جوز حمل الآية الكريمة عليهما كتفسير لها أن هاتين الحادثتين مثل مضروب فى التاريخ، وشاهد واقعى على أن الآية الكريمة تنبىء المسلمين وتنبههم إلى أنه لا ظلم أظلم من ظلم يمتد إلى بيوت العبادة ومساجد الله أن

يذكر فيها اسمه ، ولا أحد أظلم ممن يسعى فى تخريب المعابد التى يعبد الله فيها بالصلاة والذكر والتسبيح ، لأنه ظلم ليس القصد منه مجرد هدم الأبنية التى لا يملكها أحد من الناس — وإنما هى لله تعالى ، يعبد فيها ويذكر اسمه ويسبح له فيها بالغدو والآصال ، فهى لا تضر أحداً كائناً من كان — ولكنها تجمع كلمة المسلمين وتوحد صفوفهم وتربيهم على العزة والكرامة والتحرر من رق العبودية إلا لله رب السموات والأرض وما بينهما ورب العرش العظيم ، وهذه التربية الاستقلالية الاعتزازية هى مايقلق المستعمرين ويقض مضجعهم .

فالمقصود الأعظم من الآية تسجيل أقبح الظلم وأشنعه على الذين يقوضون دعائم التربية الاستقلالية ، ويهدمون معاقل الوحدة الإسلامية لتمزيق شمل الإسلام والمسلمين وتفريقهم إلى قوميات وثنية تسترجع ظلمات التاريخ التى بددها الإسلام بنور الإخاء البشرى الذى أضاء به آفاق الحياة ، وتحيي ما أماته الإسلام من تفرق جنسى وتعزز قبلى ، وتبعث عصبيات جاهلية خضبت الأرض بالدماء ، وأشعلت نيران الحروب وتميت ما أحياه الإسلام من مبادىء الوحدة الإنسانية فى ظل الإيمان بالله الواحد الأحد ، والإيمان بجميع رسله وأنبيائه .

وذكر المساجد فى الآية الكريمة من باب الشاهد والمثل ، لأن المساجد أعظم معاقل الوحدة الإسلامية وأقوى حصونها المجمعة لكافة المسلمين فى أرض الله على التوجه إلى الله وحده مخلصين له الدين ولو كره الجاحدون .

ومن هنا تكون الآية نصاً على ما هو كالسبب المباشر فى تشريع الجهاد

دفاعاً عن الحق وقتال الظالمين المفسدين فى الأرض بدفعهم بأهل العدل والإصلاح ، وكفهم عن مفاسدهم بتخريب المعابد ومعاقل الدين عامة فى أية ملة ودين ، وذلك صريح قول الله تعالى : «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز»[1] لأن الله تعالى جعل من سنته الكونية التى أقام عليها دعائم العمران واستقرار المجتمع الإنسانى آمناً فى كل عصر وجيل أن يدفع بأهل الخير والصلاح أهل الشر والفساد ، وتأويل هذه الآية : ولولا إذن الله تعالى للمظلومين فى قتال الظالمين ومدافعتهم بالقوة لاستشرى الفساد فى الأرض وانتهكت الحرمات وضاعت معالم الخير بضراوة أهل الظلم والطغيان ، فتهديم مواضع العبادة فى الأمم التى كان لعبادتها أصل إلهى وتخريبها عنوان على أقبح صور الفساد والظلم فى الأرض ، لأنه هتك لسياج الحرمات الفردية والجماعية فى أقدس مقدساتها .

وإذن الله تعالى للمظلومين أن يردوا العدوان بمثل قوته وسلاحه ويثأروا بالعدل لأنفسهم من ظالميهم بقتالهم لحماية الحق والخير ، عنوان على أرفع صور العدل والإصلاح فى الأرض .

ويؤكد هذا المعنى تأكيداً قوياً اتصال الدفع بالإذن للمظلومين فى قتال الظالمين فكان آخر الآية الكريمة بياناً لأولها .

قال الفخر الرازى : المراد بدفاع الله عن المؤمنين فى قوله تعالى «إن الله يدافع عن الذين آمنوا»[2] هو إذنه لأهل دينه بمجاهدة الكفار ، فكأنه قال سبحانه وتعالى : ولولا دفاع الله أهل الشرك بالمؤمنين من حيث

---

(١) سورة الحج آية ٤٠ .

(٢) سورة الحج آية ٣٨ .

يأذن لهم فى جهادهم وينصرهم على أعدائهم لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان ، وعطلوا ما يبنونه من مواضع العبادة ، ولكنه دفع عن هؤلاء بأن أمر بقتال أعداء الدين ليتفرغ أهل الدين للعبادة .

وقال أبو عبد الله القرطبي : قوله : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) هذا بيان قوله : (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) ، أى يدفع عنهم غوائل الكفار بأن يبيح لهم القتال وينصرهم . . ولولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعـــداء لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما يبنيه أهل الديانات من مواضع العبادات ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة ، فالجهاد أمر متقدم فى الأمم وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات ، أى لولامشروعية القتال والجهاد لرد الاعتداء لتغلب أهل الباطل على أهل الحق فى كل أمة وعم الفساد فىالأرض .

هذا المعنى المحكم المفصل هو نفسه المعنى الذى جاء مجملا فى سورة البقرة بلفظ الآية هنا سواء ، يقول الله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »(١) .

وكما جاءت آية سورة الحج عقيب أذن الله تعالى للمؤمنين فى قتال الظالمين فكانت مؤكدة لشرعية القتال لدفع الظلم وتأمين الحياة فى أقدس مظاهرها ، جاءت آية سورة البقرة عقيب قصة دفع جالوت وجنوده من نماذج الطغاة الظلمة بجهاد طالوت وجنده من نماذج المقسطين أهل الخير والصلاح وقتالهم لرد اعتدائهم .

وذلك صريح فى أن المرد بدفع الله الناس بعضهم ببعض تسليط أهل

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥١ .

الحق والعدل ونماذج الخير والصلاح والإصلاح على أهل الباطل والظلم ونماذج الشر والفساد والإفساد والفجور لينتصفوا منهم ويقيموا عليهم ميزان العدل ويأمن الناس على حريتهم بأمان متعبداتهم أينما كانوا وحيثما كانوا .

قال صاحب المنار فى تفسيره لهذه الآية : أى لولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق ، وأهل الفساد فى الأرض بأهل الصلاح فيها لغلب أهل الباطل والإفساد فى الأرض وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم حتى يكون لهم السلطان وحدهم فتفسد الأرض بفسادهم فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين فى الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين ، فأهل الحق حرب لأهل الباطل فى كل زمان ، والله ناصرهم ما نصروا الحق وأرادوا الإصلاح فى الأرض .

والآيتان الكريمتان إخبار — يتضمن تشريعاً — لم يقصد به مجرد حكاية شىء مضى عن الأمم السابقة كان فى شرائعهم ، وإنما هو إخبار يقرر به القرآن الحكيم أصلا من أصول الاجتماع البشرى وسنة من السنن العامة فى الحياة ، وهذه السنة هى ما يعبر عنه فى عرف المحدثين بتنازع البقاء وبقاء الأصلح ، وبهذا يكون الإسلام سبق المتشدقين بدعوى العلم بسنن الاجتماع بقرون كثيرة ، وكأن الله تعالى يقول : إن ما فطر عليه الناس من مدافعة بعضهم بعضاً عن الحق والمصلحة هو المانع من فساد الأرض فهو السبب فى بقاء الحق وبقاء الصالح فى الحياة .

وهذا الأصل الاجتماعى بمقتضى ما تضمنه الإخبار به من تشريع الجهاد لدفع الإفساد فى الأرض وتأمين الحق وحماية مواطنه يوجب على أهل الإسلام كافة باعتبارهم القيمين على حماية الحق فى المجتمع الذى يستظل بظل

الإسلام أن ينهضوا جميعاً متحدين على قلب رجل واحـد بإعداد القوة التى تدفع الباطل وأهله ، وترد الظالمين الباغين عن ظلمهم وبغيهم ، وتنصر الحق وأهله ، وتقيم عدالة يفيء إلى ظلها أهل الخير والإصلاح ليدفعوا أهل الشر والإفساد المعتدين على مقدسات الأديان ، أينما كانوا فى ظل راية الإسلام، فهدم البيعة والكنيسة المقر عليهما كهدم المسجد سواء فى وجوب الدفاع عنهما بالقتال ورد البغاة الظالمين المفسدين كما هو ظاهر عموم الآية الكريمة .

وهذه القوامة على حماية المجتمع لا تتحقق إلا إذا كانت الأمة قوية فى أخلاقها وفى عقيدتها ، وفى أسلحتها ، وفى وحدتها ، ملتفة حول زعيم عادل وقائد باسل تختاره بمحض حريتها لتضع فى يده زمام قيادتها والنهوض بها ، وهذا الزعيم العادل المؤمن هو الذى يقودها إلى ميادين العمل الجاد والكفاح لتحيا حياة كريمة ويقودها إلى ميادين الجهاد ودفع غائلة المفسدين فى الأرض الذين يعتدون على مقدسات الأديان وينتهكون حرمات البلاد ويبغون على العباد .

وآية سورة البقرة أجملت نتيجة عدم دفع الله الناس بعضهم ببعض باستسلام أهل الخير والإصلاح لأهل الشر والفساد، فجعلتها فساد الأرض ومعنى ذلك شيوع الهرج والمرج ، وإثارة الفتن واستطالة الظالمين ، وذيوع البغى والإلحاد ، واستحواذ القلق والاضطراب والفزع على قلوب الضعفاء والمظلومين ، وانتشار الخوف بين الناس فلا يستطيع متعبد لله أن يتعبد، ولا يأمن مؤمن أن يظهر إيمانه وعقيدته ولا يتمكن مسلوب الحق مهدر الكرامة أن يجأر بشكواه ، ولو تجرأ فجأر بها أخذته مخالب الظالمين من هنا وهناك ، وإن نجا بنفسه فلن يجد سميعاً لأنينه ، ولا مجيباً لشكواه ، وبذلك يفسد نظام

المجتمع الإنسانى فساداً يعم الأرض ، وهذا هو المقصود بفساد الأرض جعلته الآية الكريمة نتيجة لتقاعس المصلحين عن مقاومة الظالمين المفسدين وهو المعنى الذى فصلته آية الحج بعنوان تهديم مواطن العبادة عند سائر الأمم والملل باعتبار الاعتداء على تلك الأماكن المقدسة أنموذجاً لأبشع أنواع الظلم وأقبح مظاهر الفساد فى الأرض ، مما ترتب على كف أيدى المؤمنين الصادقين عن الطغاة الظالمين واستكانتهم لهم واستسلامهم لغوائلهم وبغيهم على الله وعلى الناس .

ويؤكد هـــذا المعنى تأكيداً قوياً مدح المنتصرين الذين يأخذون على أيدى الطغاة الظالمين والثناء عليهم فى قول الله تعالى : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون »[١] لأنه سبق وصفاً للمؤمنين لبيان فضلهم ، ونعتهم بالنعوت الحميدة التى تميزهم على غيرهم ، وهو عام فى كل بغى وظلم ، ويشمل كل ظالم باغ فى الأرض بغير الحق ، روى أن الإمام إبراهيم النخعى ـ أحد سادات التابعين ـ سئل عن تفسير هذه الآية فقال : كانوا ـ أى الصحابة ـ يكرهون أن يذلوا أنفسهم فتجترىء عليهم الفساق والسفهاء .

ولا يعارض هذا ما جاء فى آيات كثيرة من الترغيب فى العفو عن المسىء والصفح عن الجارم ، لأن للعفو مرتبـــة وللانتصار مرتبة ، فمرتبة العفو والصفح فى الظلم الفردى الذى لا يتعدى خطره الأفراد ، ويقع موقع الفلتة من غير إصرار ولا استهتار .

ومرتبة الانتصار على الظالمين وعدم الصفح عن ظلمهم تكون فى الظلم الاجتماعى الذى يتعدى ضرره وأخطاره الأفراد إلى المجتمع فى الأمور

---

(١) سورة الشورى آية ٣٩ .

العامة التى يشمل ضررها البرىء والمذنب ، وهذا اللون من الظلم يقع من الظالمين استكباراً فى الأرض وبغياً على الخلق .

قال أبو بكر بن العربى فى أحكامه : ذكر الله الانتصار فى البغى فى معرض المدح وذكر العفو عن الجرم فى موضع المدح ، وذلك راجع إلى حالتين : إحداهما أن يكون الباغى معلناً بالفجور ، وقحاً فى الجمهور ، مؤذياً للصغير والكبير ، فيكون الانتقام منه أفضل .

الثانية أن تكون الفلتة ، أو يقع ذلك ممن يعترف بالذلة ويسأل المغفرة ، فالعفو هاهنا أفضل ، وفى مثله نزلت : « وأن تعفوا أقرب للتقوى »[1] ، « فمن تصدق به فهو كفارة له »[2] ، « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم[3] » .

وقد عقب البيان القرآنى هذا الثناء على المنتصرين من ظالمى المجتمع والباغين على الناس فى الأرض ببيان مرتبة العدل فى المجازاة ورد الاعتداء بالمساواة التامة التى لا زيادة فيها ولا نقصان ، لأن الزيادة على الظلم بغى ، والنقصان حيف وهضم للحق .

ولما كانت النفوس البشرية سريعة الانفعال تحت تأثير القوة الغضبية التى لا تؤمن سطوتها رغب الله فى العفو وأظهر سخطه على الظالمين وبغضه لهم ، وهذا كناية عن شديد انتقامه منهم بما سيحل بهم من أليم عذابه .

وعلى سنة القرآن الكريم فى تفخيم ما يريد تعظيمه أبهم البيان القرآنى جزاء العافين عن الظالمين ظلم الفلتات ، كما أبهم جزاء الباغين الظالمين :

(١) سورة البقرة آية ٢٣٧ .
(٢) سورة المائدة آية ٤٥ .
(٣) سورة النور آية ٢٢ .

« فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين »[1] لتذهب نفوس السامعين فى تصوير الجزاء كل مذهب ، فيعظم ، عندها جزاء العافين عن هفوات الأواببن فترغب فيه ، وتحبه وتتخلق بخلقه ، ويشتد عندها جزاء الطغاة الظالمين ، فتكره الظلم وتنفر منه ، وحينئذ يقع العفو فى موقعه من العدل الرحيم ، ويقع الانتصار على الظالمين بالانتقام منهم ورد اعتدائهم موقعه من العدل الزاجر القوى : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل »[2] فرفع الحرج عنهم وأباح لهم الانتصار تمشياً مع الطبيعة البشرية التى لا ترضى بالضيم ، وسجل الحرج على الظالمين الباغين : « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم »[3] . وهذا واضح الورود فى الظلم الاجتماعى الذى يقع على الناس فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وكرامتهم وحرياتهم وعقائدهم ومتعبداتهم ، وفى كل ما هو حق لهم بمقتضى إنسانيتهم بعنوانها العام الذى علق به الظلم وجعل محـــلا له (يظلمون الناس) دون أن يفرق بين إنسان وإنسان .

ثم عاد القرآن الكريم إلى الترغيب فى الصبر على الأذى الفردى والمغفرة بالتجاوز عن صاحبه تمكيناً للأعذار عند الانتصار ، وهذا الصبر ضرب من ضروب المقاومة للطغاة الظالمين ، ولذلك جاء به البيان القرآنى فى أسلوب يدل على أن هذه المرتبة لا يستطيعها عوام البشر ، وإنما هى سبيل الخاصة من أولى العزائم القوية .

---

(١) سورة الشورى آية ٤٠ .
(٢) سورة الشورى آية ٤١ .
(٣) السورة نفسها آية ٤٢ .

ثم ذكر القرآن الحكيم شأن الطغاة الظالمين فى دار الجزاء الأبدى حيث يلقى كل باغ جزاءه الحق من النكال والعذاب المهين الذى يذلهم فيودون لو يرجعون إلى الدنيا ليعملوا عملا صالحاً يكفر عنهم سيئات ما عملوا من قبل، وإذا عرضوا على النار لتراهم طعاماً لها ويرونها عذاباً لهم رأيتهم محقرين أذلاء خاشعين من الحقارة والذل، يختلسون النظر اختلاساً ناكسى رءوسهم عند ربهم كالمريب الذى شاهد جريمته ظاهرة بعد أن كانت خافية لا يراها أحد. ثم يزيدهم الله نكالا بتبكيت المؤمنين لهم ودفعهم إياهم بوصف الخسران لأنفسهم وأهليهم الذين فارقوهم بالإيمان والعدل وصالح العمل فأدخلوا الجنة وحيل بينهم وبين الظالمين الذين سيخلدون فى عذاب مقيم لا يريم عنهم ولا يريمون عنه: «وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى، وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم»(١).

قال العلماء: كف الظالم عن ظلمه، ومنعه منه واجب على المسلمين دولة وأمة وأفراداً، ولو أدى ذلك إلى القتل والقتال، والقائم فيه مجاهد فى سبيل الله، فإذا مات فى هذا القتال على نيته الصالحة فى إقامة العدل ونصرة المظلوم فإنه شهيد وهذا صريح قول الله تعالى: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين»(٢).

---

(١) سورة الشورى آيتا ٤٤، ٤٥.
(٢) سورة الحجرات آية ٩.

قال أبو عبد الله القرطبي : فى هذه الآية دليل وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام ، أو على أحد المسلمين ، فإن كان البغى منهما دعيا إلى المكافة والموادعة وإصلاح ذات البين ، فإن لم تقبلا وأقامتا على البغى وجب قتالهما حتى ترجعا إلى أمر الله ، ولا ينبغى الهرب والاعتزال وترك الباغين على بغيهم وظلمهم يعيثون فى الأرض فساداً بشقهم عصا الطاعة على الإمام المقسط ، أو على جماعة أو فرد من المسلمين ، بل يجب الانتهاض لقتال الباغي ونصرة المظلوم حتى يعود الحق إلى نصابه ، ويقر العدل فى قرابه ، ويأمن المجتمع فى إفراده وجماعاته .

قال أبو جعفر الطبرى : لو كان الواجب فى كل اختلاف يكون بين الفريقين الهرب منه ولزم المنازل لما أقيم حد ، ولا أبطل باطل ، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسبي نسائهم وسفك دمائهم بأن يتحزبوا عليهم ويكف المسلمون أيديهم عنهم وذلك مخالف لقوله عليه السلام : (خذوا على أيدى سفهائكم) .

وأبو جعفر رحمه الله لسعة أفقه فى فهم الإسلام وتفقهه فى دين الله يرمى فى كلامه عن قوس الحقيقة الإسلامية العظمى القائمة على دعائم العدل والنضال فى سبيل الحق أينما كان وكيفما كان ، وهو بذلك يدفع فى صدر السلبيين الذين يرون حرمات الله تنتهك ثم لا يرفعون رءوسهم دفاعاً عن تلك الحرمات ، متعللين بتأويل بعض آيات فى كتاب الله .

وإذا كانت الآية الكريمة واردة فى طائفتين مؤمنتين بغت إحداهما على الأخرى فلا بد من النظر فى موقف الإسلام إزاء حكم الطائفتين المقتتلتين إذا كانتا من غير أهل الإسلام على ضوء حكم الآية وحكمة تشريعها التى هى تحقيق العدل ، وكف الباغى عن بغيه وإقرار السلام بين المجتمع الإسلامى

ليعيش الناس فى أمن يؤدون فى ظله واجباتهم كاملة ويأخذون حقوقهم وافية لايظلمون ولا يظلمون .

والنظر فى ذلك يقوم على أساس تحقيق العدل وعدم الإضرار بالإسلام وأهله فإن كانت الطائفتان أو الأمتان المقتتلتان ، وهما من غير أهل الإسلام ، لايصلهم بالمسلمين عهد أو ذمة أو جوار مسالم ، ولا يلحقهم من تقاتلهم ضرر ، ولا يتيسر للمسلمين القيام بالإصلاح بينهم تركوا حينئذ وشأنهم ، وإنما بغيهم على انفسهم ، وإن كانتا قريبتين من المسلمين بعهد أو ذمة أو جوار مسالم ، وكانت إحداهما ظالمة والأخرى مظلومة ، وكان انهزام المظلومة يعود بالضرر على المسلمين لعدم الوفاء بالعهد والذمة ولحرمة الجوار المسالم الذى يؤدى خرقه إلى الإضرار بالمسلمين ، لأنه إذا سكت المسلمون وتركوا الأمة المظلومة تنهزم أمام عدوها ويجوس ظالماً خلال ديارها بالإفساد والبغى خيف أن تمتد يد ظلمه وبغيه إلى بلاد المسلمين فينتهك حرماتهم ويعبث بمقدساتهم ، ومن هنا وجب قتال الباغى من الطائفتين أو الأمتين غير المسلمتين ، ووجب مساندة المظلوم ونصرته حتى يفىء الظالم إلى الحق والعدل لأن القتال حينئذ قتال لمصلحة راجحة هى الوفاء بالعهد والذمة أو دفع الضرر الراجح وقوعه على المسلمين .

ودليلنا على ماذهبنا إليه صنيع النبى ﷺ فى السبب المباشر لتحريك غزوة الفتح ، روى حفاظ السيرة النبوية ومحدثوها أن النبى ﷺ لما أمر بكتابة عقد صلح الحديبية بينه وبين قريش وكان فى هذا الصلح : أنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، تواثبت خزاعة فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم .

ثم إن بنى بكر حلفاء قريش غدروا فعدوا على خزاعة خلفاء رسول الله ﷺ فبيتوهم على ماء لهم ، وساعدتهم قريش بالسلاح والرجال خفية ، فاستغاثت خزاعة برسول الله ﷺ تستنصره وخرج إليه زعيمها عمرو ابن سالم الخزاعى فى أربعين راكباً وناشده نصرتهم للحلف الذى بينه وبينهم ، فقام رسول الله ﷺ يجر رداءه وهو يقول : (لانصرت إن لم أنصركم بما أنصر منه نفسى) وكان ذلك هو الذى هاج فتح مكة وهو الفتح الأعظم كما يقول ابن القيم فى زاد المعاد نقلا عن سلف الأئمة والأعلام .

فانتصار رسول الله ﷺ لحلفائه الخزاعيين بتجهيز الجيوش والاستعداد للحرب والقتال لم يكن لإسلامهم ، وإن كان فيهم مسلمون ، وإنما كان وفاء بالعهد ولدفع الظلم عنهم ، ورد اعتداء المعتدين الظالمين من بكر وقريش عليهم لدخولهم مع رسول الله ﷺ فى عقده وعهده قبل دخولهم فى الإسلام . فهو انتصار للمظلوم لدفع البغى والظلم عنه ، وإن كان من غير المسلمين .

كما يدل على ما ذهبنا إليه ما كان من قواد المسلمين فى معاهدات الفتوح الصلحية ، فى عهد بطل الإسلام خالد بن الوليد لأهل الحيرة : أنه شرط لهم أن على المسلمين منعة المعاهدين وحمايتهم من إغارة عدو يبغى عليهم ويظلمهم ويستبيح حرماتهم ، وتلك المنعة إنما تكون بالدفاع والقتال دونهم ، فإن لم يستطع المسلمون منعتهم ورد الظلم عنهم لأمر حال بينهم وبين ذلك فليس لهم على المعاهدين شىء مما صولحوا عليه .

وفى عهد لأهل (بانقيا) : إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة . . . فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا ، حتى نمنعكم ، ومثل ذلك فى عهود النعمان ابن مقرن ، وحذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن ، لأهل البلاد التى فتحت صلحاً

على أيديهم ، كلها تذكر المنعة على المسلمين وتجعل الجزية فى مقابل هذه المنعة، وجاء فى عهد الأحنف بن قيس لمرزبان (مروروذ) . (إن عليك نصرة المسلمين وقتال عدوهم بمن معك من الأساور إن أحب المسلمون ذلك وأرادوه ، وإن لك على ذلك نصرة المسلمين على من يقاتل من وراءك من أهل ملتك » .

ويقول أبو عبيد فى كتاب الأموال بعد أن ذكر أن رسول الله ﷺ قال : (أطعموا الجائع ، وعودوا المريض ، وفكوا العانى) وكذا أهل الذمة يجاهد من دونهم ويفتك عناتهم ، فإذا استنقذوا رجعوا إلى ذمتهم وعهدهم أحراراً . وهذه تسوية فى الحقوق بين المسلمين وأهل الذمة ، تؤدى لذويها ولو لزم لأدائها القتال .

وجاء فى معاهدة يهود المدينة وموادعتهم مقدم رسول الله ﷺ : (إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف ومواليهم وأنفسهم أمة من المؤمنين ، لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته (ثم ذكر أن لجميع طوائف اليهود اليثربيين من الحقوق مثل ماليهود بنى عوف ثم جاء فيها : « وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصيحة والنصر للمظلوم . . وأن بينهم النصر على من دهم يثرب) وليتأمل قوله ﷺ : (أمة من المؤمنين) مع التصريح باختلاف الدين .

وجاء فى كتاب حبيب بن مسلمة لأهل تفليس وكان صلحها فى عهد خلافة عثمان رضى الله عنه : (فإن عرض للمؤمنين شغل عنكم — أى لم يستطيعوا منعتكم وحمايتكم من عدوكم وقهركم عدوكم — فغير مأخوذين بذلك ، ولا ناقض ذلك عهدكم بعد أن تفيئوا إلى المؤمنين والمسلمين) .

وذكر البلاذرى فى الفتوح أن النبى صلى الله عليه وسلم لما توجه إلى تبوك من أرض الشام لغزو من انتهى إليه أنه قد تجمع له من الروم ومن تبعهم من العرب ، لم يلق كيداً وصالحه أهلها وأتاه وهو بتبوك (يحنه) ابن رؤبة صاحب أيلة وصالحه أيضاً وكتب لهم كتاباً شرط لهم فيه (أن يحفظوا ويمنعوا) .

ثم روى البلاذرى عن سعيد بن عبد العزيز قال : بلغنى أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج ، وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم .

وهذه كلها نصوص تدل على أنه يجب على المسلمين مقاومة الظالم وكفه عن الظلم ، ولو كان المظلوم غير مسلم ما دامت تربطه بالمسلمين رابطة عهد أو ذمة أو مصلحة متبادلة ولايعرف ذلك لدين من الأديان أو شريعة من الشرائع أو أمة من الأمم غير دين الإسلام وشريعته وأمته .

ومن هنا نفهم وضعنا الصحيح فى مناصرة الأمم الضعيفة والشعوب المظلومة التى ترزح تحت نير الاستبداد الاستعمارى وتنوء بأثقال بغيه وغشمه ، وتحاول الخلاص من ظلمه لتتمتع بحقها الإنسانى فى الحرية والعيش الكريم من كل من تربطنا بهم روابط الجوار والإخاء والمصالح المتبادلة والمحالفات الحرة الشريفة لقصد التعاون على خير الإنسانية

وتحقيق السلام ، وتحرير المستضعفين من ربقة الاستعباد والظلم في قارتي الإسلام آسيا وأفريقيا .

بل إن روح الإسلام في تحقيق العدل الاجتماعي بين سائر أبناء الإنسانية ومقاومة الظلم والاستبداد توجب مناصرة الضعيف المظلوم أينما وجدت السبيل إلى نصرته . والدفاع عنه .

٭ ٭ ٭

الأصل الرابع

الوفاء بالعهد وأثره في توجيه التشريع الإسلامي

الوفاء بالعهد هو الصورة الحية فى إطار الضمير الإنسانى، وهو أرفع صور (العدل) الاجتماعى بين الأفراد والجماعات.

وقد عنى الإسلام بالوفاء بالعهد عناية بالغة ، أبرزته فى براعة البيان القرآنى والأحاديث النبوية وحوادث التاريخ فى الوقائع الإسلامية ، ومعاملات الأفراد والجماعات والأمم والشعوب — فى صورة جعلت منه أصلا راسخ الدعائم فى صرح التشريع العام فى الإسلام بأوسع معانيه ، وأشمل مضامينه ، ولا سيما فيما يتعلق بالروابط الاجتماعية بين المسلمين وغيرهم من سائر الأمم والشعوب ، والدول والحكومات فى حالتى الحرب والسلم .

والوفاء بالعهد — فى نظر الإسلام — هو خلاصة القيم التى ترتكز عليها يقظة الضمير فى داخل الكيان الإنسانى ، وقد حفل القرآن الحكيم والسنة النبوية بذكره فى أساليب مختلفة وعبارات منوعة .

يجىء مرة قريناً للعدل كأثر من آثار التطبيق الواقعى لمقتضياته ، ويجىء مرة منفرداً عنه باعتباره عنواناً على يقظة

الضمير الإنسانى الذى يقف فى داخل النفس الإنسانية حارساً أميناً لا يغفل .

ويجىء مرة فى إطار التحذير الموجع للذين نامت ضمائرهم ، ففقدوا الشعور بالمشاركة فى الحقوق والواجبات الإنسانية ، وارتكسوا فى حمأة « الأنانية » والأثرة وحب الذات ، فلا يرون إلا أنفسهم، ولا يعرفون إلا رغائبهم وشهواتهم ، ولا يسعون إلا إلى منافعهم الخاصة ، لا يحسون بحق لغيرهم ، ولا يشعرون بواجب عليهم لمجتمعهم ، فلم يكن لهم حظ من التخلق بهذا الخلق الكريم ، خلق الوفاء بالعهد ولم يكن لهم نصيب من رعاية هذا اللون من القيم الإنسانية الرفيعة .

هذا التحذير يرسم الصورة العملية الواقعة فى حياة هؤلاء الذين تعروا عن خلعة هذه الفضيلة النبيلة ، ففقدوا الشعور والإحساس بأواصر المجتمع .

ثم يقفى القرآن الحكيم والسنة المطهرة على هذه الصورة القاتمة من التحذير المرعب بذكر آثارها الوخيمة على الحياة والأحياء ، بما يشيع فيها نتيجة لعدم رعاية فضيلة الوفاء من فساد وبيل ، وشر مستطير ، وظلم صارخ ، وبغى فادح ، ينال الحياة والناس والأشياء بأساليب من الخيانة والغدر ومكر السوء ، والكيد الدسيس ، والتدبير المظلم الخبيث ، حتى تصبح الحيـاة نهباً بين غالب ظالم ، ومغلوب مظلوم ، وقوى قاهر ، وضعيف مقهور .

الوفاء بالعهد فريضة الله فى جميع شرائعه :

يضفى الإسلام على منقبة (بالوفاء بالعهد) سربالا من بيانه يضعه به فى مكانه من سجل الفضائل الاجتماعية ، ويبين أن هذه المنقبة الرفيعة الشريفة

فريضة الله فى جميع شرائعه على جميع خلقه ، لأن جميع شرائع الله تأمر بالوفاء بالعهد وتوصى بأداء الأمانة ، وتنهى أشد النهى عن الغدر والخيانة ، وتؤكد مراعاة حقوق العباد في معاملات الناس من أي جنس ولون وعقيدة ، والله سبحانه وتعالى يحب المتقين من عباده الذين يوفون بعهده وعهد عبادة ، ولا يختانون ، ولا يكتمون ما أنزل الله إليهم من العلم بوجوه الحق ، ويعاملون الناس بالعدل والإنصاف اتباعاً لما شرعه فى كتبه وأنزله على رسله عليهم الصلاة والسلام .

وفى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ قال : (أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك) ، وفى حديث بن عمر عند ابن ماجه أن النبى ﷺ قال : (إن الله إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياء ، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً ، فإذا لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً نزعت منه الأمانة ، فإذا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائناً مخوناً ، فإذا لم تلقه إلا خائناً مخوناً نزعت منه الرحمة ، فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيما ملعناً ، فإذا لم تلقه إلا رجيماً ملعناً نزعت منه ربقة الإسلام) .

والقرآن الكريم والسنة النبوية يصوران الوفاء بالعهد مقروناً بالعدل والأمانة فى كثير من الآيات والأحاديث باعتبار الوفاء بالعهد هو الصورة العملية التى تتصل بالضمير الإنسانى فى تطبيق نصوص الشريعة المطهرة .

يقول الله تعالى : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » (١) .

ومعنى ذلك فى أسلوب القرآن أن العدل السوى فى التطبيق الواقعى

---

(١) سورة الأنعام آية ١٥٢ .

على حياة الإنسان المادية والأدبية هو عهد الله الذى عهده إلى عباده فى جميع ما أخذ عليهم من مواثيق لتقديس ذاته العلية تعبداً لجلاله ، وعرفاناً لنعوت كماله ، وطاعة لأوامره ونواهيه ، واستجابة لوصاياه ومواعظه ، وفى جميع ما أخذوه من المواثيق والعهود على أنفسهم بعضهم على بعض فى معاملاتهم وسائر أحوالهم الاجتماعية .

وكأن الأمر فى الآية الكريمة أريد به تفصيل جانبى العدل ، جانبه القولى بما يحقق العدل فى الحكم بين الناس ، وفصل خصوماتهم ، والعدل فى أداء الشهادات لإحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، والعدل فى الإفتاء والإخبار بأحكام الله شرائعه والعدل فى كل إخبار يثبت به حق أو يحفظ به من الضياع .

وجانبه العملى المعبر عنه بالوفاء بالعهد تأكيداً لطلبه وحثاً على تحقيقه بإقامة وصايا الله وسنته التى وصى بها عباده وأنزلها فى كتبه على رسله .

ويقول الله تعالى : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون »(١) فالله تعالى ربط الوفاء بالعهد بالعدل فى صورة تشعر بأن الوفاء بالعهد هو الثمرة الجنية من دوحة العدل ، فبعد أن ذكر العدل — مبيناً أنه أمر الله إلى عباده وقرن به الأمر

---

(١) سورة النحل آيتا ٩٠، ٩١.

بالإحسان ليزدادوا فى صالح أعمالهم ، ثم ضم إلى الإحسان إيتاء ذى القربى تحقيقاً لصلة الرحم وتماماً بحق الله والشفقة على خلق الله ، وهما جماع الإيمان والإحسان ثم قرن بالعدل النهى عن أصول المناكر والمظالم بما وعظ الله به عباده ليتذكروا فضله ونعمه عليهم فيسارعوا إلى شكره — أمر عباده بالوفاء بعهد الله إذا أخذوه على أنفسهم ، ووثقوه بالأيمان ، ونهاهم عن نقض أيمانهم بعد توكيدها تلاعباً بعهد الله وتهاوناً بأوامره ، وقد جعلوا الله عليهم شهيداً ، وقد هددهم بأنه سبحانه عليم بما يفعلون ، لا يخفى عليه من أمرهم شىء وسيجازى كل عامل بعمله ، فمن وفى بعهد الله أثابه وأحله المنزلة العليا فى دار الجزاء .

وقد تضمن هـذا التهديد للناكثين عهودهم وعداً وبشارة للذين وفوا بعهودهم مع الله ومع عباده . ثم ضرب لناقضى الأيمان بعد توكيدها، وناكثى عهودهم مثلا يصور بشاعة أفعالهم وحماقة عقولهم وموت ضمائرهم بامرأة حمقاء استنفدت عمرها فى إحكام فتل غزلها ، ثم بحمقها وضعف عقلها ، وسوء تصرفها نقضته بعد إحكامه وقوة نسجه لجملته أنكاثاً وأعادته خيوطاً منفوشة تضييعاً لأيام حياتها وثمرة عملها .

ثم بين تعالى أن هؤلاء الناكثين للعهد الناقضين للأيمان بعد توكيدها يتخذون أيمانهم وسيلة لغش الناس وخداعهم ، فإذا رأوا بعد توثيق العهود بالأيمان أن نقض تلك العهود ونكث الأيمان التى وكدوها والتحول عنها إلى عهود أخرى أنفع لهم وأكسب قوة وشرفاً وثراء تحولوا إلى ذلك دون مبالاة بما وثقوه من العهود والأيمان ، فإذا عقدوا عهداً مع قوم ثم رأوا قوماً أقوى أو أشرف منهم نقضوا عهد أولئك وتحولوا إلى هؤلاء تطلباً

للكثرة والشرف والقوة هذا من اختبار الله وامتحانه لعباده ليرى أيهم يقيم عهده بإرادته . وأيهم يخيس به ويخدع نفسه ويخادع الناس ويخون الله ورسوله استجلاباً لأغراض زائفة ، وقد توعدهم الله تعالى بكشف ما عميت عنه أبصارهم وبصائرهم من الخير فى حفظ العهد والوفاء به .

وقد عظم الإسلام شأن الوفاء بالعهد ، ورفع مكانته فوق كل فضيلة ، وجعله واجب الاحترام ، لا تحل عقدته إلا بسبب موجب من نحو خيانة أو غدر أو ممالاة عدو للإسلام والمسلمين .

* * *

الوفاء بالوعد فضيلة انسانية :

والإسلام ينظر إلى الوفاء بالعهد باعتباره فضيلة إنسانية لا يختص بجنس أو عقيدة أو جماعة ، فهو مع الكافر كحرمته وقداسته مع المسلم ، وهو مع العدو كحرمته وقداسته مع الصديق ، وهو مع البعيد كحرمته وقداسته مع القريب يقول الإمام ميمون بن مهران : من عاهدته وف بعهده مسلماً كان أو كافراً ، فإنما العهد لله تعالى . ولذلك يقول تعالى فى الحفاظ على عهد المشركين الذين عاهدهم رسول الله ﷺ فى معاهدة الحديبية ، فبقى منهم على عهده من بقى ممن كان قد دخل فى عقد قريش ولم يؤمن كما آمنت قريش يوم فتح مكة : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين »(١) ، فالله تعالى يأذن لرسوله ﷺ أن ينبذ إلى هؤلاء المعاهدين له وللمؤمنين عهدهم وأن يبرأ من علائق

---

(١) أول سورة التوبة .

العهد الذى كانوا عليه ، وأن يمنحهم فرصة يرتادون فيها ما يختارون لأنفسهم يسيحون فى الأرض أحراراً ، لايخافون قتالا ، ولايخافون أحداً يصدهم عن مقاصدهم فى متقلبهم فى الأرض حتى يزنوا أمرهم بميزان العقل والمصلحة ، ثم هم بعد ذلك فى قبضة الله وسلطانه لايفوتونه مهما انطلقوا فى موائل الأرض ومهاربها ، وأنهم إن حدثوا أنفسهم بخيانة الله ورسوله فالله مخزيهم وخاذلهم .

وقد كان الناس على عهدهم ومنازلهم فى الجاهلية ، يحجون البيت عرايا نساء ورجالا ويرتكبون من القبائح والموبقات ما يند منه جبين الحياء خجلا ، وكان رسول الله ﷺ بعد أن دخلت قريش فى حظيرة الإيمان بفتح مكة أقبل من غزوة تبوك وأراد الحج فقال : إنه يحضر المشركون فيطوفون عراة ، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك ، فأرسل أبا بكر وعلياً رضى الله عنهما فى السنة التاسعة ليحج أبو بكر بالناس أميراً عليهم ويقوم على بسورة التوبة فى المواسم مبلغاً عن رسول الله ﷺ ، وينادى بهذه الكلمات : لا يطف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول ﷺ عهد فعهده إلى مدته ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك ، ثم قال تعالى : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين »[1] .

وفى هذا بيان للسبب الذى يصلح معه نقض العهد ، فإذا نقض المشرك المعاهد شيئاً من عهده أو نقض شرطاً من شروطه ، أو عاون عدوا للمسلمين عليهم وظاهره بنفسه أو ماله أو سلاحه فقد حل حينئذ نقض عهده ، ومهما

---

(١) سورة التوبة آية ٤ .

أقام على العهد لا ينقص منه شيئاً ولم يظاهر عدواً للسلمين فيجب أن يبقى عهده مصوناً محفوظاً إلى نهاية مدته التى عقد على أساسها العهد ، مهما بلغت تلك المدة ، ومن يكن عقده مقيداً بمدة فعهده إلى مدته قائم ما دام هو محافظاً على شروطه وفياً بعهده ، وقد ختم الله الآية الكريمة بقوله : (إن الله يحب المتقين) ترغيباً للسلمين فى الوفاء بالعهد والمحافظة عليه ، لأن ذلك هو عنوان التقوى .

ثم بين الله تعالى أن المشركين فى عمومهم لا يكون لهم عند الله وعند رسوله عهد لأنهم قوم أهدروا عقولهم وتعبدوا للأوثان ينحتونها بأيديهم ويتخذونها آلهة من دون الله تعالى ، ثم استثنى منهم الذين عاهدوا المسلمين ، فأمروا بالمحافظة على عهدهم ، والوفاء لهم به ما استقاموا هم عليه ووفوا به فقال تعالى : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين »(١) .

وهذا وإن كان وارداً على سبب خاص فى قوم مخصوصين إلا أنه حكم عام فى كل من عاهد المسلمين واستقام على عهده ، لم يخن ولم يغدر ولم ينقص من عهده شيئاً ولم يظاهر عدواً للسلمين ، فهذا يجب الوفاء له بعهده ، وهذا الوفاء من أوصاف المتقين التى يحبها الله تعـالى ، وهذا الوصف هو عينه الذى ختمت به الآية السابقة ، وهو لون من ألوان الوعد والترغيب الذى يتضمن وعيداً وتهديداً لمن ينحرف عن وصايا الله ومواعظه .

ومن مظاهر العناية البالغة فى القرآن الكريم بالوفاء بالعهد أن الله يجعل

---

(١) التوبة آية ٧ .

هذا الخلق النبيل وصفاً يثنى به على أولى الألباب الذين يعلمون أن المنزل على نبيه محمد ﷺ هو الحق ، ويدركون بنافذ بصائرهم ونور أفئدتهم ما فيه من الهداية للحياة وإصلاحها . فيقول الله جل ثناؤه : « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق »(١) لأن الوفاء بالعهد هو الصورة العليا الشاملة لأنواع العدل الإيجابى فى التطبيق العملى فهو شامل الإتيان بجميع المأمورات ، وترك جميع المنهيات للأفراد والجماعات والأمم والشعوب .

الوفاء بالعهد أساس من أسس التشريع فى الاسلام

والوفاء بالعهد هو الأساس القويم للتشريع الإسلامى فى العقيدة والتعبد والمعاملات يقول تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين)(٢) ، وهذا ميثاق الربوبية على الخلق ، حيث مكنهم من الاستدلال على وجوده ووحدانيته بما نصبه فى الكون من الدلائل والبينات ، بعد أن أخرجهم بقدرته من ظهور آبائهم وأرحام أمهاتهم بشراً سوياً ، وركب فيهم العقل ، وناط به المعرفة والاستدلال ، وهذا معنى إشهادهم على أنفسهم وإقرارهم بذلك ، ومن ميثاق الربوبية وعهدها ما خص به الأنبياء والمرسلون كما فى قوله تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً »(٣) والمخصوصون بالذكر من الأنبياء هم أصحاب الشرائع

---

(١) سورة الرعد آيتا ١٩، ٢٠.
(٢) سورة الأعراف آية ١٧٢.
(٣) سورة الأحزاب آية ٧ .

والذكر الباقى بين الأمم، وغلظ الميثاق المأخوذ منهم تعظيمه لعظمتهم وفضلهم على غيرهم .

ومن ميثاق الربوبية وعهدها ما خص به العلماء فى بيان ما آتاهم الله من فضله — وما عليهم من دينه وشئون كونه وآياته فى خلقه — للناس فلا يكتمونه، كما فى قوله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه »(١) قال الحسن فى تأويلها : هى فى كل من أوتى علم شىء من الكتاب — أى لا فرق بين علم الدين والدنيا — فمن علم شيئاً فليعلمه. وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة . ويروى فى تأويلها عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه : ما أخذ الله على الجاهلين أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا وقال محمد بن كعب : لا يحل لعالم أن يسكت على علمه ، ولا لجاهل أن يسكت على جهله .

وعهد الربوبية يشمل عهد العقيدة بمعرفة الله وتوحيده وإخلاص العبادة له، ويشمل عهد التعبد له سبحانه بما شرعه من ضروب العبادات القولية والفعلية حتى لا تكون العبادة إلا له وحده ، كما قال تعالى حاكياً عن عباده المؤمنين ما عليهم أن يكونوا عليه بعد ثنائهم عليه بصفاته المقدسة فى فاتحة الكتاب: « إياك نعبد وإياك نستعين »(٢) .

وأما العهد فى المعاملات ، فهو ما يكون بين الناس من العهود الاجتماعية والسياسية سواء أكانت دولية أم غير دولية ، وبذلك كله وقع الثناء على الذين يوفون بعهد الله باعتبار عموم العهد الشامل الذى يعتمده كل تشريع فى الإسلام .

ولهذا يقول النبى ﷺ : (لا إيمان لمن لا أمانة له . ولا دين لمن

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٧ . (٢) فاتحة الكتاب آية ٥ .

لا عهد له) ، ويقول فى حديث آخر : (ثلاث أنا خصمهم يوم القيامةومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى عهداً ثم غدر ، ورجل استأجر أجيراً استوفى عمله وظلمه أجره ، ورجل باع حراً فاسترق الحر وأكل ثمنه) .

وفى الحديث المتفق على صحته:(أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ،ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر) .

ثم أكد القرآن طلب الوفاء بالعهد ، بذكر الثناء على أهل العلم بالحق بأنهم (لاينقضون الميثاق) ، وعدم نقض الميثاق هو فى واقع الوجود عين الوفاء بالعهد ، ولكن القرآن يسلك به الأسلوب التأكيدى قصداً إلى أن هؤلاء الممدوحين بفضيلة الوفاء بالعهد إنما استحقوا هذه المدحة الشريفة لأنهم فى مبادرتهم إلى تنفيذ ما أخذ عليهم من عهد كأن هذه طبيعة من طبائعهم ، وإذا عقدوا مع أحد كائناً من كان لايحلون عقده غدراً فهم أوفياء فى جانبى الفعل والترك ، يرجو خيرهم وبرهم من كان له عندهم عهد ، ويأمن الغدر من عقد معهم عقداً فى أمر من أمور الحياة وروابط المجتمع .

ولم يقف القرآن فى رعاية الوفاء بالعهد عند الأمر به وتأكيده ولكنه أشعر أهل الإيمان بعد الأمر به بأنهم مسئولون عن عهودهم والوفاء بها ، فقال تعالى : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا »[1] . قال الإمام الرازى : واعلم أن كل عقد تقدم لأجل توثيق الأمر وتوكيده فهو عهد ، فقوله : (وأوفوا بالعهد) نظير لقوله تعالى فى مفتتح سورة المائدة : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » فدخل فى قوله تعالى : (أوفوا بالعقود) كل عقد من العقود..

(١) سورة الإسراء آية ٣٤.

وحاصل القول فيه أن مقتضى هذه الآية أن كل عقد وعهد جرى بين إنسانين فإنه يجب عليهما الوفاء به بمقتضى ذلك العقد والعهد .

والعهد بإطلاقه يشمل ما أخذ الله على عباده من وثيق المواثيق التى أعلمهم بها على ألسنة أنبيائه ورسله فى جميع شرائعه للقيام بحق ربوبيته بأداء ماوجب عليهم فى عبودتهم له بالإتيان بما أمرهم به ، وترك مانهاهم عنه ، وفعل مارغبهم فيه ، واجتناب مارهبهم منه ، كما يشمل ما أخذ العباد بعضهم على بعض من عقود المعاملات ، وعهود المخالفات والاتفاقات فى دائرة الشرائع الإلهية المضبوطة بالعدل .

والإسلام الذى جعل الوفاء بالعهد من أصول تشريعه ، يحترم العهود والمواثيق التى تعقد فى دائرة الحق ، والتى تحقق العدل وتنصر المظلوم ، وتعين على نوائب الحق ولو كانت من قوم غير مسلمين لأنها عدل ، والعدل لا يعرف الزمان والمكان ، ولا الجنس والألوان ، ولا يختص بالعقائد والأديان ، وإنما يتعبد بذاته وحقيقته ، فأينما وجدت حقيقة العدل فهى التى أرادها الإسلام ، وهى التى أمر الله بها عباده المؤمنين ورغبهم فيها .

وفى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ سئل عن حلف الجاهلية ؟ فقال نبى الله ﷺ : (لا يزيده الإسلام إلا شدة) أى قوة وتأكيداً . وروى أصحاب السير أن النبى ﷺ قال : (لقد شهدت فى دار ابن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو ادعى به فى الإسلام لأجبت) .

وقد تمسك سلف الأمة بهذا الحلف ، وعظموا أمره فى الإسلام وجعلوه من عهوده التى يجب الوفاء بها . روى أن الوليد بن عتبة — وكان أميراً على المدينة — تحامل على الحسين بن على السبط وظلمه فى مال له . فقال له الحسين: احلف بالله لتنصفنى من حق أو لآخذن سيفى ثم لأقومن فى مسجد رسول

الله ﷺ ، ثم لأدعون بحلف الفضول . وقال عبدالله بن الزبير : وأنا أحلف بالله لئن دعانى لآخذن سيفى ثم لأقومن معه حتى ينتصف من حقه أو نموت جميعاً . وبلغت المسور بن مخرمة فقال مثل ذلك . وبلغت عبد الرحمن بن عثمان ابن عبيد الله التيمى ، فقال مثل ذلك ، فلما بلغ ذلك الوليد أنصفه .

وهذا الحلف معروف فى تاريخ العرب قبيل الإسلام بحلف الفضول ، قال ابن إسحاق : اجتمع قوم من سادات قريش فى دار عبد الله بن جدعان — لشرفه ونسبه — فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم إلا قاموا معه حتى ترد عليه مظلمته فسمت قريش هذا الحلف حلف الفضول .

قال أئمة الإسلام : هـــذا الحلف وأمثاله من المحالفات والاتفاقيات والمعاهدات التى يقصدبها تحقيق العدل الاجتماعى بين الناس ، والتى تستهدف إنصاف المظلوم من ظالمه ، والأخذ على يد الظالم وكفه عن بغيه وظلمه ولو بالقوة المادية هو المقصود بقول النبى ﷺ : (أيما حلف كان فى الجاهلية لايزيده الإسلام إلا شدة) وبقوله ﷺ فيما رواه البخارى :(انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) قيل : يارسول الله ننصره مظلوماً أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟ قال : (تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصر له) .

وأما ما كان على طريقة الجاهلية الجهلاء أو جاهلية الحضارات المادية الظالمة ، من الأحلاف التى يعقدها الظالمون قائمـــة على الاستبداد بالأمم الضعيفة والمغلوبة على أمرها ، كالاتفاقات والمعاهدات التى لاتـكافؤ فيها بين المتعاقدين ، فقد هدمها الإسلام من أساسها بمعـاول أصوله وقواعده التى أقامها على وحدة الإنسانية ووحدة العقيدة بمـا يغرس فى نفس كل إنسان يحترم إنسانيته العزة والكرامة . وبذلك كشف الإسلام عن خفايا

تلك المحالفات التي تعقد لإذلال الأمم والشعوب، وابتزاز ثرواتها وامتصاص دمائها وتوريثها الفقر والجوع والأمراض والجهالات والإلحاد والخرافات والأساطير الهادمة لكيان الأمم.

الوفاء بالعهد اعظم صور في العدل الاجتماعي:

هذا العدل الاجتماعي الذي عنون له الإسلام في البيان القرآني بالوفاء بالعهد هو أعظم العهود التي أمر الله عباده المؤمنين بالوفاء بها في مفتتح سورة المائدة، وهي سورة محكمة كلها لأنها نزلت في آخر ما نزل القرآن المبين وجميع آياتها نصوص أحكام تشريعية واحتجاج لتثبيت العقيدة التوحيدية، ودحض لأباطيل أهل الكتاب وغيرهم من المبطلين تحريفاً في كتب الله أو المبطلين أصالة كالمشركين وعبدة الأوثان، وتبيين الحق في العقيدة والحلال والحرام. قال تعالى مفتتحاً هذه السورة الكريمة: «يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود». والعقود التي أمر الله عباده المؤمنين بها هي العقود المأمور بالوفاء بها في الآيات الأخرى وهي — كما قدمنا — ماعقد الله من المواثيق على عباده مما أحله لهم وما حرمه عليهم، وما عقد العباد بعضهم لبعض من التزامات في عقود المعاملات بين الأفراد والجماعات والأمم والشعوب والدول والحكومات، فهي عامة تشمل عهود التكليف والتعبد لله بما شرعه لعباده، وتشمل التعامل مع الناس وتبادل المصالح بينهم بما ألزمهم الله الوفاء به إذا أخذوه على أنفسهم بعضهم على بعض، كعقود الشركات والمزارعات والوصايا والودائع والزواج والنذور والإيمان وغيرها مما فصلته كتب الفقه الإسلامي وأشبعت البيان فيه.

وتشمل إلى جانب ذلك المعاهدات والاتفاقيات القائمة على دعائم التعاون بين الأمم والشعوب على البر والتقوى ونصرة المظلوم، وتحقيق المصالح

العامة للمتعاقدين من كل ما يؤدى إلى استقرار الأمن بين الناس ، وإشاعة السلام فى الحياة ، والعيش الكريم الذى يليق بالإنسان فى مجتمعه وبيئته .

وقد مدح الله تعالى عباده المخلصين بأنهم من أهل الرعاية للأمانة والحفاظ على العهد فقال فى سورة المؤمنون بعد أن وصف المفلحين من المؤمنين بصفات الكمال البشرى : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون »(١) وكذلك جاء نص الآية نفسها فى سورة المعارج مما يدل على كمال العناية بهذه المنقبة التى يتحلى بها الكملة من المؤمنين . كما نعى القرآن على قوم عاهدوا الله بالثبات فى لقاء أعداء الحق من المشركين واليهود فلم يثبتوا وفروا جبناء رعاديد ، واستهانوا بعهد الله وهم مسئولون عنه ، فقال تعالى : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا »(٢) .

ولما أثنى الله تعالى على أهل بيعة الرضوان ، وجعل بيعتهم لرسول الله ﷺ بيعة لله تعالى ، ثم نوه الله بعلو درجتهم فى الإيمان بما اختصوا به فى هذه البيعة من فضل لا يلحقهم فيه أحد ، فجعل يد رسول الله ﷺ التى صافح بها أيديهم توكيداً للبيعة هى يد الله ونعمته العظمى عليهم ، وهذا من أوكد العهود والمواثيق ولذلك كان حظ الناكث له أسوأ حظ يعود بالوبال على نفسه يوبقها ويوقعها فى أليم العذاب والحسرة والخسران المبين، كان نصيب من أوفى به أعظم نصيب من رضوان الله وإحسانه قال تعالى :«إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً »(٣) ، وفى الآية تعريض بالمنافقين الذين

---

(١) سورة المؤمنون آية ٨ .
(٢) سورة الأحزاب آية ١٥ .
(٣) سورة الفتح آية ١٠ .

لا يوفون بعهود الله ولا عهود الناس ، وإن وبال نكثهم بالعهود إنما يقع عليهم ، ولا يتضرر به سواهم .

وفيها بشارة عظيمة للمؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ فوفوا بعهدهم . روى أن عبداً لحاطب بن أبى بلتعة جاء إلى رسول الله ﷺ وقال له : ليدخلن حاطب النار ، وقال رسول الله ﷺ : (كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدراً والحديبية) وفى هؤلاء الأوفياء نزل قول الله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً »(١) .

مكانة الوفاء بالعهد من الفضائل فى تصوير القرآن والسنة .

وقد نهج القرآن الكريم والسنة النبوية — وهما المصدران الأصيلان للتشريع فى الإسلام فى تصوير المكانة التى يعتليها الوفاء بالعهد من ذروة الفضائل الإسلامية — منهجهما فى تصوير مقام العدل فى الأصول التشريعية الإسلامية ، فكما صور العدل فيهما فى إطاره الخاص ، أمراً به وترغيباً فيه ، وبياناً لفضله فى تحقيق الحياة الكريمة للأفراد والجماعات ، وتأكيداً لأمره بتصوير الظلم الذى ينافر العدل ويضاده فى أشنع صورة تعود بالشر والوبال على مرتكبه وعلى الحياة والمجتمع الذى يعيش فيه وعلى المجتمع الإنسانى عامة .

نجد القرآن والسنة النبوية صورا الوفاء بالعهد — وهو لباب العدل — فى صورته الخاصة أمراً به ، وحثاً عليه ، وترغيباً فيه ، وبياناً لمكانته فى الحياة الاجتماعية ، وتوثيقاً لعقده ، وتأكيداً لطلبه ، وصوراه بتصوير

---

(١) سورة الفتح آية ١٨ .

نقض العهد ونكثه فى صورة من بشاعة النكر ، وخطورة العواقب التى تترتب عليه مما تنخلع لهولها القلوب ، وترعب منها النفوس .

وقد صورنا نهج طلبه فيما سقناه من آيات وأحاديث كان فى بعضها قران بين الأمر بالوفاء بالعهد ونكران نقضه ، والخيس به فى نحو قوله تعالى : (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) وقوله :(وأوفوا بعهدالله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) .

وقد جاءت نصوص مستقلة تنعى على الذين ينقضون عهدالله وعهدالناس وتبين مغبة أعمالهم وقبح ما ارتكبوا فى حق أنفسهم ، وحق خالقهم ،وحق مجتمعهم ، وحق الناس أجمعين ، يقول الله تعالى : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون »(١) .

فهؤلاء قوم كانوا يعيشون فى دغل مع أنفسهم ، استولى على أفئدتهم حتى أسقمها ، فلم تستطع أن تحمل قوة الإيمان ، ولم تقو على أن تعيش فى تحرر من ربقة الدنيا وزخارفها ، فراحوا يطلبونها وينفقون فى سبيل الحصول عليها قطرات ما تشربت به أنفسهم من نقيع الخداع بدعوى الإيمان ، فعاهدوا الله وألحوا فى العهد ، وأكدوا التوثيق بالأيمان الفاجرة لئن آتانا الله من فضله مالا ورزقنا من الدنيا ومتاعها ، وفتح لنا من كنوزها لنعطين الفقير والمسكين ، ولننفقن فى سبيل الله ولنكونن فى حياتنا من صالحى المؤمنين الذين لا تستعبدهم الدنيا ولا يغويهم الشيطان بغوايته ، وأجابهم الله تعالى — وهو يعلم ما فى قلوبهم — اختباراً لهم لتحق عليهم كلمة الله ،

---

(١) سورة التوبة آيات ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ .

وليظهر للناس ما أبطنوا من دخل النفاق ، وليتعظ بهم من تحدثه نفسه بالركون إلى ماركنوا إليه ، وآتاهم من الدنيا الكثير الغامر ، والدنيا حلوة خضرة غرارة ضرارة ، احلوت فى مذاقهم ، وازينت أمام أنظارهم ، وغامت على عقولهم ، فعميت بصائرهم ، وأظلمت أرواحهم ، فعزت عليهم أن ينفقوها فيما عاهدوا الله عليه من التصدق على ذوى الحاجة وإصلاح السبل الفاضلة ، وتعززوا بها فلم تسخ بها أيديهم ، وبخلوا بها فلم يؤدوا لها فرضاً ولا نفلا ، ولم يكن لهم من إقبالهم على الضراعة وقت طلبها ما كانوا يتسربلونه من إلحاح فى الدعوة الخادعة ، بل تولوا عن منازل الإيمان وأعرضوا عن دواعيه ودوافعه ، وشغلتهم لعاعات الدنيا بما أفسد قلوبهم فتغشاها النفاق وتخلل أقطارها وفرخ فى أوديتها ، فلم يبق ذرة من ذراتها إلا داخلها واحتل بؤرتها ، كانت كالأرض السبخة التى لا تنبت كلأ ولا تمسك ماء ، ولكنها كانت مباءة للتعفن والفساد ، ومأوى للأوبئة والأمراض التى لا يرجى لها زوال وشفاء .

وقد فتح الله تعالى باب التوبة لكل متأثم ولو كان أكفر الكافرين وسده على هؤلاء المنافقين الناكثين لعهد الله تفظيعاً لشأن نقض العهد ونكثه : « فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » .

ولم يعرف ذنب سجل على أهله فى النص القرآنى أسوأ ما أخذ الله به مذنباً سوى نقض العهد نفاقاً ونكثه خيانة لله ولرسوله ﷺ ، ولم يعرف أن ذنباً من الذنوب وإثماً من الآثام ومعصية من المعاصى ، الكفر فما دونه يفسد القلوب فساداً لا يبرأ إلى يوم لقاء جزائه سوى نكث عهد الله ونقضه بعد توكيده ، وقد ذكر القرآن سبب ذلك وجعله مثلا فى

خصلتين من خصال المنافقين وخصيصتين من خصائص النفاق خلف وعد الله ، والكذب على الله .

وقد ذكر الأئمة فى سبب نزول الآية روايات كثيرة أشهرها دوراناً على الألسنة ولا سيما ألسنة القصاصين وضعاف العلم من الواعظين ، قصة تنسب إلى ثعلبة بن حاطب الأنصارى البدرى ، قال أبو عمر بن عبد البر : قيل إن ثعلبة بن حاطب هو الذى نزل فيه : (ومنهم من عاهد الله) الآية إذ منع الزكاة ، فالله أعلم به ، وما جاء فيمن شاهد بدراً — أى من الأحاديث التى تبرئهم من النفاق — يعارض قوله تعالى فى الآية : (فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم) الآية .

قال القرطبى : وثعلبة بدرى أنصارى ، وممن شهد له الله ورسوله بالإيمان فما روى عنه غير صحيح ، قال أبو عمر : ولعل قول من قال فى ثعلبة إنه مانع الزكاة الذى نزلت فيه الآية غير صحيح .

وروى القرطبى عن الضحاك : أن الآية نزلت فى رجل من المنافقين : نبتل بن الحارث ، أو جد بن قيس أو معتب بن قشير . قال القرطبى : وهذا أشبه بنزول الآية فيهم .

وكيفما كان الأمر فإن القرآن الكريم لا يقف بأحكامه وأخباره عند الأفراد ، وإنما يقصد إلى النماذج فى تطبيق الأحداث ، يجعل منها مثلا لأشباهها فى مجارى الزمن ، فأحكامه قواعد وأخباره مشاهد للنفس البشرية .

وتأمل هذا مع قول الله تعالى فى الثناء على صادقى الإيمان من الكملة المخلصين الذين عاهدوا الله على بيع أنفسهم له جهاداً فى سبيله لإعلاء كلمته ، كلمة الحق والعدل فصدقوا فى عهدهم ومضوا

قدماً فى الوفاء بميثاقهم لله تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا »[1] .

فهؤلاء قوم من صفوة المؤمنين عاهدوا الله تعالى ليصدقن فى لقاء العدو وليرين الله منهم - ما يحب من الإقدام فى معامع الوغى وفاء بعهده ، فنهم من استشهد وفاز برضوان الله صابراً محتسباً ومنهم من يقيم على العهد، لا ينقضه ولا يغيره ، بل يترقب يوم الجهاد ، موطناً نفسه على الصدق والوفاء ليفوز بإحدى الحسنيين .

وكما ذكر الأئمة فى آية النفاق نموذجاً للمنافقين الذين عاهدوا الله ونكثوا عهدهم وغدروا بمواثيقهم ، فجعلوه سبباً لنزول الآية نعياً عليهم بما اكتسبوا من الإثم وخيانة العهد كذلك ذكر الأئمة فى هذه الآية آية صدق الوفاء بالعهد وبيع النفس لله تعالى جهاداً فى سبيله نموذجاً تمثل فيه الوفاء بالعهد على أكمل صورة عرفتها الأخلاق والمروءات الإنسانية والشجاعة فى سبيل تأييد الحق ، ونادت بها شرائع الله لتثبيت دعائم كلمة الله فى الأرض .

فقالوا : انزلت هذه الآية فى أنس بن النضر الأنصارى عم أنس ابن مالك خويصة رسول الله ﷺ ، روى الإمام أحمد فى مسنده عن أنس رضى الله عنه قال : عمى أنس بن النضر — سميت به — لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، لئن أرانى الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله عز وجل ما أصنع ، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد فاستقبل

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢٣ .

سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فقال له أنس بن النضر : يا أبا عمرو أين ؟ واها لريح الجنة ، إنى أجده دون أحد فقاتل حتى قتل ، فوجد فى جسمه بضع وثمانون ضربة بسيف أو طعنة برمح أورمية بسهم ، قالت عمتى الربيع بنت النضر : فما عرفت أخى إلا ببنانه . فكان السلف من الصحابة يرون أن هذه الآية : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) نزلت فى أنس بن النضر .

وفى روايات أخر أنها نزلت فى طلحة بن عبيد الله ، أو فى مصعب ابن عمير ، أخرج الترمذى عن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه قال : إن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابى جاهل : سله — أى رسول الله ﷺ — عمن قضى نحبه ، من هو ؟ — وكانوا لا يجترءون على مسألته ، يوقرونه ويهابونه — فسأله الأعرابى ، فأعرض عنه ، ثم إنى اطلعت من باب المسجد ، وعلى ثياب خضرة ، فلما رآنى النبى ﷺ ، قال : (أين السائل عمن قضى نحبه ؟) قال الأعرابى : أنا يارسول الله ، قال : (هذا ممن قضى نحبه) .

وروى البيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير ، وهو مقتول على طريقه ، فوقف عليه ودعا له ، ثم تلا هذه الآية : (من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ، ثم قال رسول الله ﷺ : (أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزوروهم ، والذى نفسى بيده لايسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه) .

وهذا يدل على أن القرآن لايقصد فى أخباره إلى فرد بذاته ، ولكنه

بقصد إلى تصوير النماذج الرفيعة للفضائل الإنسانية التى نشأها الإسلام بتعاليمه ورباها بشرائعه ، وأدبها بآدابه ، كما قصد فى تصوير المنافقين إلى تصوير أخبث النماذج فى مثل الرذيلة ليدل بذلك على أن الإنسانية فى سائر عصورها هى مناط الخير والشر ، وأن الكفاح بينهما هو الكفاح بين الحق والباطل فى نماذج البشرية من الفضائل والرذائل .

اليهود أخبث نماذج الرذائل الانسانية :

وكما تكون نماذج الفضائل والرذائل فى الأفراد تكون فى الجماعات والأمم وقد رأينا تصوير القرآن الكريم نموذج الرذيلة فى الأفراد من أهل النفاق ، وأما نموذج الرذيلة فى الأمم والشعوب فأبشع نماذجه اليهود ، فهم أنقض أمة لعهد ، وأغدر شعب بميثاق ، وأخون جماعة لأمانة ، يصورهم القرآن كذلك فيقول : « أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون »(١). فهم متواصون على النكث بالعهد، يعهد سلفهم إلى خلفهم بذلك وصية من الآباء إلى الأبناء ، ومن الجدود إلى الحفدة ، وهذا هو العهد الوحيد الذى حافظوا عليه فلم يخيسوا به ولم ينقضوه ، عهدهم على ألا يفوا بعهد لله ولا للناس .

يقول الإمام ابن جريج فى قوله : (نبذه فريق منهم) ، ولم يكن فى الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ، يعاهدون اليوم وينقضون غداً ، وقد أسند ابن كثير هذا الأثر عن الحسن البصرى ، ثم سجل الله عليهم أن نقضهم للعهد لا يقع منهم وهم يعلمون أن ذلك غير جائز لهم وإنما يتعمدونه كفراً بالله وجحوداً لما أنزله فى كتبه على رسله من وجوب الوفاء بالعهد

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٠ .

الذى وثقوه على أنفسهم ليبين ما اخذه الله عليهم فى توراتهم من الأخبار ، ببعث محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به، فهم ينقضونه المرة بعد الأخرى، وهم متوافقون عليه ، فوبخهم الله جل ذكره بما كان ديدنهم ، وعير به أبناءهم إذ سلكوا منهاجهم فى التسربل بهذه الرذيلة .

قال ابن كثير: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التى تقدم الله إليهم فى التمسك بها والقيام بحقها ، ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة الذى فى كتبهم وصفه ، نعته وأخباره وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ونصرته .

وهذا شبيه بما كان عليه المنافقون الذين عاهدوا الله لئن آتاهم ثراء ومالا كثيراً ليصنعن من صنوف البر والخير ما يجعلهم من صالحى المؤمنين ، فلما آتاهم الله ما طلبوا بخلوا ونقضوا عهد الله ، وخاسوا به ونكثوا ما وثقوه من أيمانهم ، فأعقبهم ذلك نفاقاً فى قلوبهم لا يريمها ولا يبرح عنها. فكذلك هؤلاء اليهود لما نقضوا عهد الله وتواصوا بذلك كما تواصوا بأكل أموال الناس بالباطل أعقبهم ذلك الفجور كفراً بالله وبما أنزل عليهم فى كتابه فكذبوا رسوله وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإنهم ليكتمون الحق وهم يعلمون .

ولم يقف بهم الأمر عند ذلك. ولكنهم كانوا يجعلون نقض العهد ونكث الإيمان ثمناً لعرض خسيس من أعراض الدنيا، ولهذا ذمهم الله بذلك فقال : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم »(١) .

---

(١) سورة آل عمران آية ٧٧ .

قال الطبري في تفسيرها : إن الذين يستبدلون بتركهم عهد الله الذي عهد إليهم ووصيته التي وصاهم بها في الكتب التي أنزلها الله إلى أنبيائه باتباع محمد وتصديقه والإقرار به ، وما جاء به من عند الله ، وبأيمانهم الكاذبة التي يستحلون بها ما حرم الله عليهم من أموال الناس التي ائتمنوا عليها . عوضاً وبدلا خسيساً من عرض الدنيا وحطامها أولئك لا حظ لهم في خيرات الآخرة ولا نصيب لهم من نعيم الجنة وما أعده الله لأهلها فيها ، وهم محرومون من تكليم الله إياهم بما يسرهم ، ومحرومون من عطف الله عليهم ، وهم في مقت الله وغضبه لا يطهرهم من دنس الكفر ورجس الخيانة والغدر ، ولهم عند الله عذاب أليم .

وقال الإمام الرازي : « قوله (إن الذين يشترون بعهد الله) يدخل فيه جميع ما أمر الله به ويدخل فيه ما نصب عليه من الأدلة ، ويدخل فيه المواثيق المأخوذة من جهة الرسول ، ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه به ، لأن كل ذلك من عهد الله الذي يلزم الوفاء به » .

ونقض العهد كان سجية اليهود مغروساً في طبعهم وقد سجله القرآن عليهم في ضمن ما سجل من قبائحهم العديدة ، وكان سبب لعنهم وطردهم من رحمة الله ، قال تعالى : « فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا »[1] فهذه الآية الكريمة دمغتهم بقبائح متعددة وليتأمل في تصوير الآية بتسجيلها رذيلة نقض العهد عليهم وعطفها سائر قبائحهم عليها مما يفيد أن نقض العهد أرذل الرذائل الخلقية التي يبغضها الله تعالى ويمقت المتصف بها ، فكان الله تعالى يقول : بسبب نقض هؤلاء اليهود عهد الله وميثاقه الذي واثقهم

---

(١) سورة النساء آية ١٥٥ .

به والذى أخذه عليهم فى كتبه وعلى رسله فخاسوا به وغدروا خيانة منهم لأمانة العهد،وبسبب كفرهم وجحودهم دلائل آيات الله وحججه على صدق أنبيائه ورسله ،وبغيهم وعتوهم بقتل أنبياء الله طغياناً وكفراً بغير ذنب لهم غير أنهم يدعونهم إلى الإيمان بالله ورسله وكتبه،وبسبب قولهم عناداً وفجوراً قلوبهم غلف ، أى مسدوده دون وصول الحق إليها ، لا تفقه مايقوله الدعاة إلى الله من الأنبياء والرسل ،بسبب ذلك كله من قبائحهم لعنهم الله . وطردهم من رحمته طرداً أبدياً وطبع على قلوبهم فلا تقبل الإيمان ولا يرجى لها الشفاء من مرض النفاق وخبيث الكفر ،وهم لفجورهم فى الكفر إذا آمنوا لا يؤمنون إيماناً خالصاً ، وإنما يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، يؤمنون بما يوافق أهواءهم وأغراضهم الخبيثة ، ويكفرون بما هو الحق من ربهم ، وكذلك يفرقون بين رسل الله ، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فإيمانهم محض من التشهى وخبيث الهوى ، وفجور الاستهتار .

ونظير هذه الآية أختها التى سجلت على هؤلاء الناكثين لعهود الله وعهود العباد اللعن ووصفتهم بأن الله تعالى طبع على قلوبهم وجعلها فاسدة لاتقبل الهدى والخير ، وأنهم يحرفون كلام الله المنزل على رسله عن مواضعه بسوء تفسيره وتبديله ، ويكتبون بأيديهم من الضلال ماتوحى لهم به شياطينهم كذباً وبهتاناً على الله ، ويقولون لما كتبوه افتراء على الله هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، وهم يعلمون أنهم يكذبون . يقول الله تعالى : « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين »[1].

---

(١) سورة المائدة آية ١٣ .

فالله تعالى يقول لنبيه محمد ﷺ . لاتعجب من أمر هؤلاء اليهود الذين هموا أن يبسطوا إليك وإلى أصحابك أيديهم بالسوء غدراً بك وخيانة لأمانة العهد الذى بينك وبينهم ، فإن ذلك من عاداتهم وعادات أسلافهم الذين أخذ الله عهدهم على يد نبيهم موسى عليه السلام بطاعته وطاعة رسله وتصديقهم جميعاً فيما جاءوا به من عنده ، والإيمان بجميع كتبه ، فنقضوا ميثاقهم الذى واثقهم به ربهم ، ونكثوا عهدهم فأعقبهم ذلك اللعنة والطرد من رحمة الله ، وهؤلاء الذين معك يساكنونك ويعاصرونك هم سلالة الأخابث من سلفهم ، ورثوهم فى قساوة قلوبهم وفسادها فساداً لا تقبل معه الإيمان ولا يدخلها الهدى والخير ، لأنها مسدودة عنه بما طبع الله عليها كما طبع على قلوب أسلافهم بنقض هؤلاء عهدك وعهد أصحابك ، ونقض أولئك عهد أنبيائهم ، وتحريف جميعهم كلام الله عن مواضعه بسوء تأويله وتبديلهم آياته وكتمانهم الحق .

قال الطبرى : فإذا كان ذلك من فعل خيارهم مع أيادى عندهم ، فلا تستنكروا مثله من فعل أراذلهم ، وقال أبو جعفر فى تفسير قوله (يحرفون الكلم عن مواضعه) يقول جل ذكره : وجعلنا قلوب هؤلاء الذين نقضوا عهودنا من بنى إسرائيل قسية منزوعا منها الخير ، مرفوعاً منها التوفيق لشدة قسوتها فلا يؤمنون ولا يهتدون ، فهم لنزع الله عز وجل التوفيق من قلوبهم والإيمان من نفوسهم يحرفون كلام ربهم الذى أنزله على نبيهم موسى ﷺ وهو التوراة فيبدلونه ، فيكتبون بأيديهم غير الذى أنزله الله عز وجل على نبيهم ، ثم يقولون لجهال الناس هذا هو كلام الله الذى أنزله على موسى ﷺ ، والتوراة التى أوحاها الله إليه ، وهذا من صفة القرون التى كانت بعد موسى من اليهود ممن أدرك بعضهم عصر نبينا محمد ﷺ ، ولكن

الله عز ذكره أدخلهم فى عداد الذين ابتدأ الخبر عنهم ممن أدرك موسى عليه السلام منهم ، إذ كانوا من أبنائهم وعلى منهاجهم فى الكذب على الله والفرية عليه ونقض المواثيق التى أخذها عليهم فى التوراة .

ثم بين الله تعالى أن اليهود نسوا حظاً مما أنزل عليهم ، ومما وعظوا به من الأحداث ، وما ذكروا به من الآيات والعبر فتركوا دينهم وفرائضه ، وفكوا عرى ما ألزمهم الله به من العهود والمواثيق . واستبطنوا الخيانة والغدر ، فلا يزال النبى ﷺ يطلع على الخيانة والكذب والفجور منهم ، لأن ذلك دينهم وجبلتهم التى جبلوا عليها إلا قليلا ممن هدى الله منهم .

وقد ذكر المفسرون نموذج هـــذه الخيانة الملازمة لهؤلاء الفجرة فيما ذكروه من أسباب نزول الآية ، وأنها نزلت فى يهود بنى النضير الذين هموا بقتل رسول الله ﷺ إذ أتاهم فى بعض أصحابه فى ديارهم يستعينهم فى دية العامريين ، فأطلعه الله عز ذكره على ما هموا به من سوء ، ونجا الله نبيه من كيدهم ، وبين له أن الغدر والخيانة طبيعة لهم ورثها الخلف عن السلف .

ثم ذكر الله تعالى وصيته لخاتم النبيين محمد ﷺ بأن يكون فى حياته النموذج الأعلى للفضائل الإنسانية النبيلة لمواءمة سمو رسالته العامة الخاتمة فقال له : (فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين) قال الإمام الطبرى: وهذا أمر من الله عز ذكره نبيه محمدا ﷺ بالعفو عن هؤلاء اليهود الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل ، واصفح لهم عن جرمهم بترك التعرض لمكروههم ، فإنى أحب من أحسن إلى من أساء إليه فعفا عن إساءته وصفح عن جرمه .

والقرآن الكريم يضع بهذه الآية الكريمة منهج الإسلام ودستوره فى تشريعه ومعاملته لغير المسلمين مع إساءتهم أقسى الإساءات ، فقد وصف

اليهود ، بنعوتهم الواقعة فى حياتهم ومنهجهم فى معاملاتهم مع الناس ، وأنهم قوم شيمتهم الغدر والخيانة ، وأنهم تآمروا على اغتيال رسول الله ﷺ وهو بين أظهرهم ، فى محلتهم وبيوتهم ، فأطلعه الله على خبيثة أمرهم ، وأمره بالعفو عنهم ، والصفح عن إساءتهم إحسانا للمعاملة لتكون سنة تشريعية تقتفيها الأمة من بعده .

ولم يكتف القرآن الكريم فى بيان رعايته للوفاء بالعهد ، وأنه أصل أصيل فى بناء التشريع الإسلامى بذكر الأوامر الصريحة التى جاءت بها النصوص إيجاباً للقيام به والترغيب فى التمسك به والتخلق بفضائله ، ولا بذكر النصوص التى جاءت لبيان بشاعة نقض العهود ، ونكث المواثيق ، ومغبة التحلل من قيودها ، بل إنه تأكيداً لذلك كله عرض للنهى الزاجر عن الخيانة نقضاً للعهد ونكثاً للمواثيق باعتبار الخيانة هى الصورة البشعة فى سجل الرذائل الاجتماعية ، كما قال تعالى : (إن الله لا يحب الخائنين) .

المنافقون ربائب اليهود في الخيانة والغدر

وكما بين القرآن أن نقض العهد ديدن اليهود وطبيعتهم التى جبلوا عليها فى حياتهم مع الناس ، بين أن الخيانة أساس النفاق ، ونجار المنافقين ، والمنافقون هم البيضة التى تفقأت عنها نعامة اليهودية ، أو هى الوليد الذى انفرج عنه تاريخهم الاجتماعى بين الأمم والشعوب ، والعجب أن هؤلاء وأولئك تغلب عليهم طبيعة السوء ، فلا يرعى فريق منهم لآخر زماماً ، فهم يتخاونون ، ويرمي بعضهم بعضاً بسهام الغدر والخيانة ، كما يتحدث عنهم القرآن والسيرة النبوية بذلك ، ولكن المسلمين يقفون من الفريقين موقف العدل فى أرفع درجاته ، فلا تميل ميزانه العداوة الحاقدة ، ولا البغضاء الحاسدة .

وهنا نرى القرآن ينزل على النبى ﷺ كاشفاً لسوآت التخون الذى يتعامل به الفريقان فيتحدث عن خبيئة من جرائم النفاق وخبث المنافقين أرادوا أن يلصقوها بأحد معليهم الإفساد فى الأرض من اليهود ظلما وعدوانا ، فأبى الله إلا أن يفضحهم ، بإرشاد نبيه ﷺ إلى وجه الحق فيما تخاونوا فيه ، حتى لاينساق وراء تبييتهم السوء ، وكشف ماتوهموه يخفى على الله تعالى لجوراً منهم فى الكفر وخبث النفاق ، وقدمنا شيئاً من هذه القصة فى مناسبة اقتضتها .

قال الله تعالى موجهاً الخطاب لنبيه ﷺ : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا »[1] .

وهذه الآيات بمضمونها العام توجيه للنبى ﷺ إلى مايجب أن يكون عليه فى رسالته الخاتمة لرسالات الله تعالى ، مما بينه الله تعالى له فى كتابه الذى أنزله عليه دستوراً عاماً خالداً لإصلاح الحياة وتحقيق مصالح العباد ، والصعود بها إلى مراقى الفضائل ، وذروة الإحسان ، ليطبقه بميزان العدل الذى هو روح شرائع الله ، مستلهماً وحى الله الذى يبين له الطريق ، ويريه الحق فى صورته المشرقة ليتبعه فى حكمه بين الناس قاطبة على قدم المساواة بين أفرادهم وجماعاتهم وأممهم وشعوبهم ، مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم

---

(١) سورة النساء آيات ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ .

وعقائدهم ودياناتهم فى قربهم وبعدهم وحبهم أو بغضهم ، وهذا يقتضيه ألا يقف موقف المدافع عن الذين يتظاهرون بالإسلام وهم بأعمالهم بعيدون عن الاستضاءة بنور إيمانه ، لأنهم فى حقيقة أمرهم منافقون خبثاء إذا خاصموا فجروا ، وإذا ائتمنوا خانوا وإذا عاهدوا غدروا ، وإذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا .

فإذا انتهض أحد ممن لا يعلم حقيقة نفاقهم من المؤمنين لحمايتهم تعصباً لهم فاستغفر لهؤلاء ، لأنهم لم يتعمدوا ذلك ، وعلمهم أن قرابة الإيمان فوق كل القرابات ، ثم نهى الله المؤمنين فى شخص نبيه ﷺ أن يجادلوا عن الذين يختانون أنفسهم بما يوبقها من رذائل النفاق ، لأن الخيانة إثم وضلال مبين ، والله تعالى يبغض كل خوان أثيم ، يستخفى بتدبير للشر والمكر من الناس ، والله عليم بمكرهم ولكن لا يشعرون ، لأن علمه محيط لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماء ولا فى الأرض ، وإذا كان الخطاب فى صدر هذه الآية موجهاً للنبى ﷺ والمقصود هم المؤمنون تعظيماً لشأنه ﷺ فى تحمل مواجهة الخطاب ، فقد جاء الخطاب صريحاً لعامة المؤمنين فى الآية بعدها ، وهى مكملة للقصة فيقول الله لهم بطريق الاستفهام الإنكارى للتنبيه على أن هؤلاء المنافقين لا ينبغى لأحد المؤمنين أن يجادل عنهم . لأن هذا الجدل إذا أمكن أن يقع فى هذه الحياة الفانية فلا يمكن أن يقع يوم القيامة حيث تتهاوى الدعاوى وينفرد الله تعالى بالملك وحده ، فهو مالك يوم الدين القاهر فوق عباده العليم الخبير .

وقد ذكر المفسرين أن نموذج هذه الرذيلة كان رجلا من المنافقين من بنى أبيرق قوم من الأنصار ، استودعه رجل من اليهود درعاً فلما جاء يطلبها كفرها الأبيرق .

وفى بعض الروايات أن الدرع طرحها الأبيرق على اليهودى فجاء اليهودى إلى رسول الله ﷺ وحلف أنه ماسرقها ولكن طرحت عليه، وجاء بعض أقرباء الأبيرق وجيرانه فقالوا : يارسول الله هذا اليهودى الخبيث يكفر بالله وبما جئت به وأكذبوا اليهودى فى دعواه أنها طرحت عليه، وأظنوه بالسرقة ، وكاد النبى ﷺ يميل إلى تصديقهم ، فكشف الله له خبيئة النفاق وأعلمه بحقيقة الحال بما أنزل عليه من الآيات التى تبين أن الخيانة جريمة فاجرة ولو كانت مع أكفر الكافرين ، وأعدى أعداء المؤمنين .

وقد نهى الله المؤمنين عن الخيانة نهياً عاماً شاملا ، لم يترك فيه منفذاً لحيلة محتال فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون »(١) ،

وخيانة الله تعالى هى خيانة عهوده التى أخذها لذاته المقدسة على عباده بتوحيده وتمجيده وإطاعة أوامره واجتناب نواهيه ، وإطاعة وصاياه فى كتبه والوفاء بعهوده ومواثيقه .

وخيانة الرسول هى الغدر بعهوده التى عقدها مع المعاهدين الذين حالفوه ألا ينصروا عليه عدواً ، وألا يظاهروا عليه محارباً له .

وخيانة الأمانات هى نكث عهد الناس بعضهم مع بعض فيما تعاقدوا عليه من ودائع وأسرار .

فمعنى الآية إيجاب أداء التكاليف بأسرها ، سواء كانت متعلقة بحق الله أو حق رسوله ، أو حق عباده ، مهما كانوا ، وعلى أى حال كانوا فالأمانة مؤداة إلى البر والفاجر ، وإلى المؤمن والكافر ، وإلى الصديق والعدو .

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٧.

وقد ذكر المفسرون فى أسباب النزول نماذج للذين انزلقوا منحرفين عن جادة الأمانة فنزلت الآية تبين لهم مغبة موقفهم ، وما يجب أن يكون عليه أهل الإيمان من المحافظة على الأمانة محافظة تجعلها خلقاً من خلائقهم وطبيعة من طبائعهم ،

روى أن النبي ﷺ بعث إلى قريظة لما حاصرهم بعد نقضهم عهده وظاهروا عليه أعداءه وخانوا أمانة الاتفاق الذى كان بينه وبينهم - أبا لبابة - وكان لأبى لبابة أهل وولد فى بنى قريظة . فقالوا له يستشيرونه : يا أبا لبابة ما ترى لنا ؟ أننزل على حكم سعد فينا ؟ وكان رسول الله ﷺ هو الذى حكم فيهم سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فأشار عليهم أبو لبابة بقبول حكم رسول الله ﷺ بتحكيم سعد فيهم ، بيد أنه أشار إلى حلقه يريد بذلك أن يفهمهم أن نزولهم على حكم سعد إنما هو الذبح والإبادة وكان أبو لبابة رجلا من خلص المؤمنين لم يشب إيمانه دخل ، فطن إلى ما كان منه من خائنة الإشارة إلى حلقه ، ورأى أنه قد خان الله ورسوله بذلك فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه ، وانطلق إلى مسجد رسول الله ﷺ فربط نفسه فى سارية منه ، ومكث مربوطاً تسعة أيام ، لا يحل رباطه إلا للصلاة ، حتى يخر مغشياً عليه من الجهد ، ثم لطف الله به فأنزل توبته على رسول الله ﷺ فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده فحله ﷺ . وجعل أبو لبابة من توبته أن ينخلع من ماله صدقة فقال له النبي ﷺ (يجزيك الثلث أن تصدق به) .

وفى رواية أخرى أن نموذج هذه الآية هو حاطب بن أبى بلتعة ، وكان بدرياً رضوانياً ، وهو الذى نزلت فيه أوائل سورة الممتحنة باتفاق المفسرين والمحدثين . وحديث قصته فى الصحيحين ، روى البخارى عن على كرم الله

وجهه قال : بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد ، فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها » قال على رضى الله عنه : فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة . قلنا لها : أخرجى الكتاب . قالت: مامعى كتاب، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب ، قال : فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ (ياحاطب ماهذا ؟) قال : يارسول الله لاتعجل على ، إنى كنت امرأ ملصقاً فى قريش - يقول كنت حليفاً ولم أكن من أنفسها - وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى : ولم أفعله ارتدادا عن دينى ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله ﷺ : « أما إنه قد صدقكم » فقال عمر : يارسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق فقال : (إنه قد شهد بدراً) وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً قال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » .

ومما يلفت نظر البصائر النيرة فى شأن نماذج الإيمان أن المؤمن إذا هفا فهو رجاع أواب ، فأبو لبابة ففطن إلى فعلته قبل أن يفارق موضع قدميه فتاب توبة لم تبق من أثر الذنب عليه شيئاً ، بل كانت مطهرة له تطهيرا رفعه الله به إلى منزلة الأوابين ، وحاطب بن أبى بلتعة صدق الله ورسوله واعترف بما صنع واعتذر فعذره الله ورسوله وحسبهما فى مفاخر الإيمان أن الله تعالى ناداهما بعنوان الإيمان مسجلا متلواً إلى يوم القيامة .

أما نماذج النفاق وخبيث الكفر من اليهود والمشركين فإن القرآن الكريم يسجل عليهم الإصرار على الخيانة والغدر وأنهم مجبولون على نقض العهود ونكثها ، وإن عثر على خبثهم تهافتوا متهالكين جبناً فإذا تشمموا رائحة

العفو والصفح أو الإعراض عنهم تكرماً تحينوا الفرص للرجوع إلى الخيانة والغدر ونقضوا العهد مرة بعد مرة ، وهم شر من دب على وجه الأرض بما استبطنوا من نكث العهد ومكر السوء .

قال الله عز وجل : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لايتقون . فإما تثقفهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين.(١)

فقد سجل الله عليهم أنهم لايخرجون من دائرة الكفر ولايخلصون منه، فهم قد كفروا ، وهم خالدون فى الكفر لا يريمون عنه إلى الإيمان ، فلم يكتف بوصفهم بالكفر ، بل اتبعهم بنفى الإيمان من مستقبل حياتهم وأيأسهم من رحمة الله ، ملعونين أينما ثقفوا ، ثم أبان أن وصفهم بالكفر ونفى الإيمان عنهم توطئة لما هو المنشأ فى شريتهم ، فهم الذين عاهدوا رسول الله ﷺ ، ثم نقضوا عهده ، ثم عاهدوه فخاسوا بعهده مرة ومرة ، لا يرعون ذمة ولا يفون بعهد ، لأنهم لايخافون ربهم من فوقهم ولا يرجون له وقاراً، فليس لهم جزاء إلا التنكيل بهم تنكيلا يرعبل من يختفى وراءهم من حلفائهم وأنصارهم المتسترين بالنفاق ويبدد شملهم رعباً بما يوقع بهم من النكال والإثخان ، ليتذكروا ما حل بهؤلاء من النكال فلا يمالئوهم على المؤمنين .

ثم أرشد الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين إلى ما يجب أن يكون من أخلاقهم فى إقامة ميزان العدالة المطلقة التى يتساوى فيها الناس أجمعون ، فجعل المحافظة على العهد واجبة الرعاية ما دام المعاهدون — مهما كان أمرهم — محافظين عليه — فإن أظهروا نقضه وجب على أهل الإيمان أن يعالنوهم بنبذ عهدهم

---

(١) سورة الأنفال آيات ٥٥ — ٥٨ .

إليهم وأنهم لم يعودوا سلماً لهم ، بل هم حرب عليهم فليرتادوا لأنفسهم وليستعدوا حتى يتساووا معهم فى العلم بفك عروة عهدهم ، وهذا أقصى ما يتصور فى مراتب العدل .

وقد ذكر المفسرون أن نموذج هذا الخبث والفجور فى نقض العهد كان فى اليهود من بنى قريظة والنضير ، نقضوا العهد الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ والمؤمنين فأعانوا المشركين بالسلاح ، فلما كشف الله أمرهم اعتذروا إلى رسول الله ﷺ وقالوا نسينا العهد الذى بيننا .فعفى عنهم رسول الله ﷺ وعاهدهم مرة أخرى ، فنقضوه يوم الخندق ، وظاهروا الأحزاب ، فذهب إليهم رسول الله ﷺ وحاصرهم ونكل بهم كفاء غدرهم وخيانتهم ونقضهم العهد المرة بعد الأخرى .

وقد وعد الله تعالى رسوله ﷺ بتمكينه من الذين أرادوا خيانته وظفره بهم فقال عز شأنه : « وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم »(١).

يصف الله جل ثناؤه الذين يريدون خيانة رسوله صلى الله عليه وسلم بأن الغدر والخيانة شيمتهم التى مرنوا عليها فى سائر الأحوال ، فليس عجيباً أن يخونوا رسول الله ﷺ ويغدروا وينقضوا عهده ، لأنهم ارتكبوا ما هو أشنع من ذلك ، فقد خانوا الله من قبل خيانتهم رسوله ﷺ لأنهم نقضوا ما أخذ عليهم من المواثيق والعهود ليعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً ، ونصب لهم من الدلائل الكونية ما أقرت به عقولهم فخانوا هذه العهود ونكثوها ونقضوا العهد فأشركوا بالله وعبدوا من دونه آلهة اتخذوها ولكن الله تعالى أمكن منهم وسلط عليهم رسوله ﷺ فظفر بهم وأذاقهم الخزى والنكال جزاء خيانتهم وغدرهم .

---

(١) سورة الأنفال آية ٧١ .

والقرآن الكريم يضع الخائنين الذين يتخذون من الخيانة وسيلة للكيد والمكر الخبيث موضع اليأس من التوفيق فيقول تعالى : « وأن الله لا يهدى كيد الخائنين »[1] لأن الخائن يحس بجرمه لا يفارقه إحساسه به ، فهو فى قلق دائم وحيرة مرعبة . يستغرق حياته فى المكر الخبيث وتدبير وسائل الغدر فهو بعيد عن الهداية والاطمئنان ، لا يعرف الاستقرار النفسى ، وراحة الضمير ، فكيده ضلالة ، ومكره فساد ، وتدبيره بوار ، وعمله هباء ، وقد قطع الله بالنصوص الصريحة التى طبقها القيمون على تشريع الإسلام فى الحياة العملية أحداثاً ووقائع عذر كل أحد ، ولم يترك سبيلا للتحايل والعبث بفضيلة الوفا بالعهد وفاء كاملا .

شدة حرص الاسلام على فضيلة الوفاء بالعهد:

وقد فهم المسلمون ذلك ، ورسخ فى أنفسهم جلال فضيلة الوفاء بالعهد ، فحرصوا على التخلق بها وحافظوا عليها ولو قابلهم أعداؤهم بالغدر والخيانة ، فإنهم يرون الوفاء لهم بعهدهم فريضة محكمة لا يجوز التلاعب بها ، روى الترمذى فى صحيحه عن سليم بن عامر قال : كان بين معاوية وبين الروم عهد ، وكان يسير نحو بلادهم ليقرب منهم ، حتى إذا انقضى العهد غزاهم ، فجاء رجل على فرس أو برزون وهو يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدر ، فنظروا فإذا هو عمرو بن عنبسة ، فأرسل إليه معاوية ، فسأله : فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من كان بينه وبين قوم عهد ، فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ إليهم على سواء) فرجع معاوية بالناس .

وفى خبر آخر أن الروم صالحت معاوية رحمه الله تعالى على مال يؤديه لهم وارتهن منهم رهناً فجعلهم ببعلبك ، ثم إن الروم غدرت فأبى معاوية

---

(١) سورة يوسف آية ٥٢ .

والمسلمون أن يستحلوا قتل الرهن ، وخلوا سبيلهم، واستفتحوا بذلك عليهم، وقالوا : وفاء بغدر خير من غدر بغدر .

والمتأمل فى هاتين الروايتين ، يرى مقدار حرص المسلمين على الوفاء بالعهد ، حرصاً لم يصرفهم عنه موقف أعدائهم منهم ، ولم يصرفهم عنه تمكنهم من أعدائهم للظفر بهم وهزيمتهم .

ففى الرواية الأولى نرى أن أمير المسلمين معاوية رحمه الله تعالى رأى أن يسير فى أرض المسلمين بجيوش الإسلام فى مدة العهد الذى كان بينه وبين الروم حتى إذا انقضت المدة كان قريباً من عدوهم فيتمكن منهم دون أن يكون قد نقض لهم عهداً أو دخل لهم أرضاً ، فرأى أحد المسلمين — ولم يكن من أمرائهم ولا قادتهم ولكنه رجل منهم ، صحب رسول الله ﷺ فرأى من خلائقه شدة حرصه على الوفاء بالعهد ، وعدم المساس به من قريب أو بعيد — أن فى سير أمير المسلمين بجيوشه فى أرض الإسلام ليقرب من عدوهم ، حتى إذا انقضى أمدهم تمكن منهم ، عبثاً وتحايلا على العهد الذى أبرم معهم ، فذكر أمير المسلمين ومن معه من القادة والجنود أن هذا السير وإن كان فى أرض المسلمين إلا أنه تحايل للقرب من العدو والتمكن منه على غرة والله تعالى لا يرضى لعباده المؤمنين بهذا التحايل ، وهو سبحانه أكبر وأجل من أن يبيح سياج الوفاء بالعهد بهذا التحايل ، ورسول الله ﷺ حذر المسلمين أن يشدوا عقدة عقدوها مع قوم ، أى قوم ، أو يحلوها قبل انقضاء مدتها إلا إذا كان القوم الذين عقدوا معهم تلك العقدة على علم تام بما عزم عليه المسلمون ، فلم يسع أمير المسلمين بعد أن عرف وجه الحق إلا أن يرجع بالمسلمين إلى حيث كان بهم .

وفى الرواية الثانية أن أمير المسلمين معاوية رحمه الله تعالى كان فى موقف

ورأى فيه من مصلحة الإسلام والمسلمين أن يؤدى مالا لأعدائه من الروم المجاورين له المتحفزين به فى هدنة عقدها بينه وبينهم ، وأخذ رهائن ليضمن عدم غدرهم وخيانتهم ، ولكنهم غدروا وخانوا ، فأبى المسلمون وأميرهم أن يستحلوا قتل الرهائن ، لأن هؤلاء الرهائن لم يكونوا مع الغادرين ، ولا يعلم شأنهم فى ذلك، فهم أبرياء فى ظاهر الأمر ، ولم يكلف الإسلام أهله التنقيب على ضمائر الناس وقلوبهم ، واكتفى بما يبدو ويظهر من أفعالهم .

بل إن المسلمين جعلوا من هذا الغدر قربى إلى الله تعالى يستفتحون بها على عدوهم ، ورأوا أن يكون سبيلهم عدم مقابلة الغدر بغدر مثله ، بل قابلوا الغدر بالوفاء وجعلوا شعارهم (وفاء بغدر خير من غدر بغدر) فكان من بركة هذا الشعار الكريم أن تنزل عليهم نصر الله وفتحه المبين .

ومن شواهد حرص الإسلام على الوفاء بالعهد ما أعطى رسول الله ﷺ لأعدى أعداء الله ورسوله من آل بنى الحقيق أخبث اليهود ، ولم تمنعه عداوتهم له من أن يعطيهم ما أعطى سائر بنى النضير من حقن دمائهم إذا وفوا بعهده ، فقد روى أنه لما حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر لنقضهم عهده ، ونكثهم ما آتوه من المواثيق على ألا يؤلبوا عليه ، ولا يظاهروا له عدواً ، فغدروا وخانوا، أخذوا لأنفسهم الأمان لهم ولذراريهم على أن يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم كل شىء كان فى الحصن من المال والسلاح والمتاع ، وكان فى الحصن أهل بيت بنى أبى الحقيق، وكانت فيهم شدة وفحش على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا بني الحقيق قد عرفت عداوتكم لله ولرسوله ، ثم لم يمنعنى ذلك من أن أعطيكم ما أعطيت أصحابكم ، وقد أعطيتمونى أنكم إن كتمتم شيئاً حلت لنا دماؤكم) ثم قال لهم : (ما فعل مسك حيي الذى جاء به من النضير ؟ ، قالوا : ذهبت به

النفقات والحروب ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (العهد قريب والمال كثير) ثم دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عما لحي يقال له سعية ابن عمرو إلى الزبير بن العوام ليستخرج ما عنده من خبيئة مسك ابن أخيه حي ، فمسه الزبير بعذاب فدل على المسك وقال : كنت أرى حيياً يطوف فى خربة هاهنا ، فذهبوا إلى الخربة ففتشوها ووجدوا المسك وهو جلد مملوء بالحلى ، فكان ذلك نقضاً للعهد بعد العفو والصفح ، فعاقبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على غدرهم وخيانتهم ، ونقضهم للعهد .

عهد الحديبية من أعظم شواهد الوفاء بالعهد فى الاسلام

ومن أجل وأنبل شواهد الوفاء بالعهد فى الإسلام وفاء رسول الله ﷺ بعهد الحديبية الذى عقد بينه وبين أعدائه المشركين ، مع ما كان فى هذا العهد من شروط تعطى عدو المسلمين كل شيء يتصور فى مصلحتهم ، وتحمل ثقل هذا العهد على كاهل المسلمين وحدهم ، حتى مرج أمرهم ، وزلزلت أقدام أكابرهم .

ولم يثبت لشدة هذه الشروط ، وتقبلها كما تقبلها نبى الله ﷺ إلا أرسخ المؤمنين قدماً فى ساحة الإيمان ، أبو بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه ، وحتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه يصف ما داخل نفسه من الشدة : لقد صالح رسول الله ﷺ أهل مكة على صلح وأعطاهم شيئاً لو أن نبى الله أمر على أميراً فصنع الذى صنع نبى الله فوالله ما سمعت له ولا أطعت ، وكان الذى جعل لهم : أن من لحق من الكفار بالمسلمين يردونه عليهم، ومن لحق بالكفار لم يردوه (١) .

وقصة الحديبية مروية فى الصحاح ، وتفصيلها فى كتب السيرة ، ونحن

(١) طبقات ابن سعد .

نذكرها برواية البخارى رحمه الله ، منبهين على أبرز ما فيها من أحداث تتصل بوفاء النبى ﷺ بما عاهد عليه ولو كان فيه من الشرائط ما يبدو فى ظاهر الأمر ومعارف العقول ومألوف الحياة أنه أشد ألوان الضيم على المسلمين ، ليتجلى فضل الله تعالى على نبيه محمد ﷺ وعلى أصحابه فيما ادخره الله لهم ولدينه من فتح كان هو الطريق إلى نشر راية الحق فى أرجاء الأرض ، وليظهر كمال هذه الخليقة ، خليقة الوفاء بالعهد فى جبلة رسول الله ﷺ ، ويظهر أثر الإيمان فى تسليم أصحابه له وطاعتهم أمره ، والتأسى به فى أعمالهم والوفاء بعهودهم ، ولو لم تسعفهم بوادر الأمور ، وبواكيرها بإدراك حكمة تصرفه ﷺ بإذن ربه حتى يغب الرأى وتنجلى سحائبه عن شمس الهداية فى حقيقتها العليا من آفاق الوحى وإشراق أنوار النبوة فى سجل الرعاية الربانية .

فقد لحقهم فى هذا الموقف من البلاء ، وداخلهم من الشدة ما لم يكن لهم به طاقة لولا رسوخ الإيمان بالله ورسوله فى قلوبهم ، ولو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بهم لهاضها ، ولكن الله تعالى ثبتهم للمحنة فثبتوا وتجلت بروقها عن بشائر الفتح المبين .

روى البخارى فى صحيحه من طريق الزهرى عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه ، قالا : خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية — فى ذى القعدة سنة ست من مهاجرة ﷺ — حتى كانوا ببعض الطريق قال النبى ﷺ : (إن خالد ابن الوليد بالغميم فى خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين) فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذاهم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيراً لقريش ، وسار النبى ﷺ حتى كان بالثنية التى يهبط عليهم منها بركت راحلته ، فقال الناس :

حل ، حل ، فألحت فقالوا : خلأت القصواء ، خلأت القصواء ، فقال النبي ﷺ : (ماخلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل، والذى نفسى بيده لا يسألون خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها) ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية[١] على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً ، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه ، وشكى إلى رسول الله ﷺ العطش ، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه ، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة ، فقال : إنى تركت كعب بن لؤى وعامر ابن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل[٢] وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ، فقال رسول الله ﷺ : (إنا لم نجىء لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جموا ، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن الله أمره).

فقال بديل : سأبلغهم ما تقول ، فانطلق حتى أتى قريشاً ، قال : إنا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولا ، فإن شئتم نعرضه عليكم فعلنا ، فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشىء ، وقال ذوو الرأى منهم :

---

(١) هذا يرجح أن الحديبية قرية قريبة من مكة كما يقول المحب الطبرى ، لأن التعبير بلفظ أقصى لا يكون فى البئر ولا فى الشجرة مما قيل إنه الحديبية .

(٢) النساء بأطفالهن ليزيدهم ذلك حمية .

هات ما سمعته يقول ، قال : سمعته يقول كذا وكذا فحدثهم بما قال النبي ﷺ .

فقام عروة بن مسعود فقال : أى قوم ، ألستم بالولد ؟ قالوا بلى ، قال : أولست بالوالد ؟ قالوا : بلى ، قال : فهل تتهمونى ؟ قالوا : لا ، قال : ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا[١] على جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى ؟ قالوا : بلى .

قال : فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد اقبلوها ودعونى آته ، قالوا : ائته ، فأتاه ، فجعل يكلم النبى ﷺ ، فقال له النبى ﷺ : نحوا من قوله لبديل .

فقال عروة عند ذلك : أى محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى فإنى والله لا أرى وجوهاً ، وإنى لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك .

فقال له أبو بكر — وكان قاعداً خلف رسول الله ﷺ — : امصص بظر اللات[٢] أنحن نفر عنه وندعه ؟

فقال عروة من هذا ؟ قالوا : أبو بكر ، قال : أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك .

---

(١) امتنعوا أن يجيبونى.

(٢) قصد الصديق بهذا الخروج عن طبيعته أن يحقر عروة لما أثاره بتحقير جنود الله بوصفه لهم وأن يبعث نخوته الإنسانية ضد انحطاطه الوثنى فى عبادة صنم اللات .

وجعل عروة يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم أخذ بلحيته ﷺ والمغيرة ابن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنصل السيف وقال له : أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك ، فإنه لا ينبغى لمشرك أن يمسه .

فقال عروة : ما أفظك وأغلظك ، من هذا ؟ قالوا : ابن أخيك المغيرة ابن شعبة قال عروة : أى غدر ألست أسعى فى غدرتك .

وكان المغيرة صحب قوماً فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبي ﷺ (أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شىء) .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه قال : فوالله ماتنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، ومايحدون إليه النظر تعظيماً له .

فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أى قوم والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى ، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده : فإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له .

وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، فقال رجل من بنى كنانة ـ

هو الحليس بن علقمة ـ دعونى آته ، فقالوا : ائته ، فلما أشرف على النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له) ، فبعثت له واستقبله الناس يلبون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ؟ ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت ، فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص فقال : دعونى آته ، فقالوا : ائته ، فلما أشرف عليهم قال النبى صلى الله عليه وسلم (هذا مكرز وهو رجل فاجر) فجعل يكلم النبى ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو ، فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لقد سهل لكم من أمركم) .

ومن رواية محمد بن إسحاق أن قريشاً قالت لسهيل بن عمرو : ائت هذا الرجل فصالحه : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (قد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا) فلما انتهى إلى النبى صلى الله عليه وسلم جرى بينهما القول حتى وقع بينهما الصلح ، فقال سهيل : هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً ، فدعا النبى صلى الله عليه وسلم الكاتب ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: (بسم الله الرحمن الرحيم) .

قال سهيل : أما الرحمن فو الله ما أدرى ما هو ؟ ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب .

فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (اكتب باسمك اللهم) .

ثم قال : (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله) .

فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى ، اكتب محمد ابن عبد الله) .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (على أن تخلو بيننا وبين البيت فنطوف به) .

فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام القابل ، فكتب .

فقال سهيل : وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا .

قال المسلمون : سبحان الله ؟ كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟

فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين .

فقال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلى .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنا لم نقض الكتاب بعد) .

قال : فو الله إذاً لم أصالحك على شىء أبداً .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : (فأجزه لى) .

قال : ما أنا بمجيزه لك .

قال : (بلى فافعل) .

قال : ما أنا بفاعل .

قال مكرز : بل قد أجزناه لك، قال أبو جندل : أى معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟ ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً فى الله .

فقال عمر بن الخطاب :فأتيت نبى الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ألست نبى الله حقاً ؟

قال : (بلى) .

قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟

قال :(بلى) .

قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذاً ؟

قال : (إنى رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصرى) .

قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟

قال :(بلى ، فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟) .

قلت:لا.

قال : (فإنك آتيه ومطوف به) .

قال عمر : فأتيت أبا بكر ، فقلت : يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقاً ؟

قال : بلى .

قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟

قال : بلى .

قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذاً ؟

قال : أيها الرجل ؟؟ إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصى ربه ، وهو ناصره فاستمسك بغرزه ، فوالله إنه على الحق .

قلت : أليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟

قال : بلى .

أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟

قلت : لا . .

قال : فإنك آتيه ومطوف به .

فلما فرغ من قضية الكتاب ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه (قوموا فانحروا ثم احلقوا) فما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات .

فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها مالقى من الناس .

فقالت أم سلمة : يانبى الله اتحب ذلك ؟ اخرج ثم لاتكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك :

فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غماً .

ثم رجع النبى ﷺ إلى المدينة ، فجاء أبو بصير — رجل من قريش — وهو مسلم فأرسلوا فى طلبه رجلين ، فقالوا : العهد الذى جعلت لنا ؟ فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إنى لأرى سيفك هذا يافلان جيداً ، فاستله الآخر ، فقال : أجل والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت .

فقال أبو بصير : أرنى أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه حتى برد ، وفر الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : (لقد رأى هذا ذعراً) .

فلما انتهى إلى النبى ﷺ قال : قتل صاحبى وإنى لمقتول ، فجاء أبو بصير فقال : يانبى الله قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتنى إليهم ، ثم أنجانى الله منهم ، قال النبى ﷺ : (ويل أمه مسعر حرب لوكان له أحد) فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم . فخرج حتى أتى سيف البحر .

وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبى بصير ، فجعل لايخرج من

قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير حتى اجتمعت منهم عصابة ، ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه فهو آمن ، فأرسل النبى ﷺ إليهم ، فأنزل الله تعالى قوله : « وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً . هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما . إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما »[١] .

تحليل يكشف عن لوامع هذه المعاهدة:

فى قصة هذه المعاهدة أمور تصور – فى جملتها – فضيلة الوفاء بالعهد وتبين تفاصيلها منزلة هذه الفضيلة الاجتماعية من الفضائل الإسلامية التى جعلها الإسلام خصائص مميزة لمجتمعه من بين سائر المجتمعات البشرية فى الأرض .

الأمر الأول :

هذه المعاهدة تعد أساساً عملياً لتطبيق التشريع الإسلامى المتعلق بتحديد العلاقة فيما بين المسلمين وغيرهم من الطوائف والأمم والشعوب ،

---

(١) سورة الفتح آيات ٢٤ – ٢٦ .

وأساسا لكل ما يتصل بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت مرارته وشدته ، ومهما تكن آثاره وقسوته .

ذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو رسول الله الذى بعثه لدعوة الناس كافة إلى الهدى ودين الحق ليخرجهم به من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإيمان والعلم ، هو الذى تولى بنفسه عقد هذه المعاهدة ورضى شروطها ، وكان على علم بما فيها من تفاوت فى موازين عدالة المعاهدات ، لم يخدع عن صواب الرأى ، ولكنه أراد بتوفيق الله وتسديده أن يفتح للدعوة باباً سلمياً توقف من ورائه خصومة تشتعل بين طرفيها حرب عصبية لا هوادة فيها .

وهى حرب يتمثل فيها الإيمان بالحق فى أصدق صوره وأرسخها يحمل رايتها الإسلام والمسلمون بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهى حرب يتمثل فيها الظلم والطغيان والجهالة فى أبشع صورها ، يحمل رايتها الشرك والمشركون بقيادة جبابرة الطغاة .

والنبي ﷺ إذ يتولى بنفسه تطبيق مبدأ من أهم مبادىء السياسة التشريعية لأمته إنما يرسم بعمله طريق التأسى به لمن يتولى بعده أمراً من أمور الحياة فى مستقبل هذه الأمة .

وعمله صلى الله عليه وسلم فى تطبيق المبادئ التشريعية هو الأصل الأول فى البناء التربوى للمجتمع الإسلامى ، ومن ثم كان عقد هذه المعاهدة والوفاء بشروطها له الأهمية الكبرى فى تأسيس التشريع الإسلامى المحدد للعلاقة بين المسلمين وغيرهم من الأمم والجماعات .

الأمر الثانى :

كان لهذه المعاهدة مقدمات كانت الطريق إلى الوصول إليها ، وكان لها آثار بعيدة المدى عميقة الجذور فى تاريخ المد الإسلامى وانتشار الدعوة إلى الله .

فأما آثارها فتتمثل في أحداث التاريخ وفي سياسة الفتوحات التي جاءت متتابعة بعد توقيعها .

وأما مقدماتها فلم تكن تؤذن بوقوعها على صورتها التي وقعت بها ، ولذلك كان وقع المفاجأة بها قاسياً شديداً على نفوس المسلمين ، وهذه المقدمات بعضها بعيد ، وبعضها قريب ، ولكنها متصلة الحلقات متسلسلة الوقائع .

فالنبي ﷺ رسول من عند الله ، ختم الله برسالته الرسالات الإلهية ، ورسالته هي رسالة الإسلام ، والإسلام ثورة إصلاحية نيط بها تغيير جذري في بناء المجتمع البشري ، وإصلاح ما فسد في أممه وشعوبه فكرياً ، وسياسياً ، واجتماعياً ، وروحياً ، وكان المجتمع الذي نبتت فيه هذه الأمة الإسلامية مجتمعاً مريضاً ، أسقمه المرض إلى حد جعل كيانه الاجتماعي والروحي كياناً متهاوياً لا يتماسك في عقيدة يسندها عقل أو منطق ، ولا يتماسك في نظام اجتماعي يسنده علم يهدي إلى حق وخير .

ويحيط بهذا المجتمع المتهافت في بنائه الاجتماعي مجتمعات بشرية ممزقة الأوصال ، تعيش على أصداء باهتة لتاريخ ظلوم قاتم الآفاق ، يحمل رايته السوداء دولتان أو أمتان كانتا في عهد إشراق شمس الدعوة الإسلامية شبحاً لبناء إنساني متهدم ، ينخر فيه سوس الفناء ، وتنسج له الحياة أكفان الزوال .

ففي الشرق كانت بقايا دولة الفرس تتنفس لاهثة من طول ما عانت من أمراض الاضطرابات الداخلية والخلافات المذهبية وآثار الحروب الخارجية مع منافسيهم الرومان .

وفى الغرب كانت دولة الرومان تطفو على سطح الحياة جسداً عريض الأكتاف لا روح فيه ، أنهكته المظالم الإقطاعية والمجادلات المذهبية ، والحروب الخارجية مع الفرس .

وبين هاتين الدولتين ، أو الأمتين شراذم إنسانية المظهر متناثرة هنا وهناك تناثر الدقل أو الحصى على الأرض ، تعيش كما تعيش الأنعام فى غياهب البرارى وغياض الغابات، إن أدركتها يد إحدى الدولتين اعتصرتها إن توهمت فيها شيئاً من عصارة ، حتى تتركها عوداً ناشفاً لا تطعمه إلا نيران الجهالة والهمل .

وفى هذا الجو القاتم أشرقت شمس الهداية من أفق الجزيرة العربية ببعثة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم رسولا إلى الناس كافة بشريعة هى خاتمة الشرائع الإلهية ، فدعا أول ما دعا قومه ، استجابة لأمر الله له فى قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) فدعاهم إلى توحيد الله وترك عبادة الأوثان ، وحذرهم من عقابه ، وأنذرهم بطشه ، فتولوا عنه مدبرين ، وما آمن به منهم إلا قليل فصبر عليهم وصابرهم ، وتحمل منهم أشد الأذى ، ولم ينتهوا حتى تآمروا على قتله ، ولما لم يجد سبيلا إلى قلوبهم عرض نفسه ودعوته على غيرهم من القبائل والبطون ، يذهب إليهم فى مواطنهم ومحافلهم ، أو يستقبل الوافدين من قبائل العرب وبطونها إلى بلده ليعظموا بيت ربهم بما تعودوه فى جاهليتهم من مناسك وشعائر ، وأقبل عليه أبناء يثرب أوسهم وخزرجهم ؛ وجمع الله به كلمتهم بعد فرقة وقتال بينهم ،

وبايعوه على أن ينصروه نصرهم لأنفسهم ، ويحمون دعوته حمايتهم لأولادهم وأعراضهم إن أوى إليهم وهاجر إلى بلدهم ، فبايعهم وأشار على أصحابه الذين أوذوا فى سبيله وسبيل دعوته بالهجرة إلى إخوانهم أنصار الله وأنصار رسوله ودينه ، فهاجر منهم من استطاع أن يهاجر ، واتخذوا من يثرب مدينتهم ، وفيها دوى صوت الدعوة حتى عم أرجاءها ، فلم يبق بيت من بيوتها إلا دخله الإسلام ، وذعرت مكة ، بل رعبت وركبت ظهر الشيطان تجرى بها إلى أسوأ تدبير ، وأعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم بما بيتت من كيد ومكر ، فخرج إلى المدينة مهاجراً يصاحبه صديقه أول المؤمنين وأفضل أتباع الأنبياء والمرسلين أبو بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه .

استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وأقبل عليه أهلها يؤمنون بدعوته إقبال الفصائل على حفل أمهاتها للرضاع .

وكانت المدينة مستوطناً لجاليات من اليهود والعرب المتهودين ، يملكون الثروة فيها ، فتحرك فيهم عرق الحسد ، فنافقوا ، واستنفقوا قوماً ممن شاركهم فى رذيلة الحسد ، وتعاونوا وإياهم على الإثم والعدوان ، وهموا بما لم ينالوا ، واليهود والمنافقون جبناء لا يجرءون على الوقوف نهاراً جهاراً أمام الدعوة الجديدة وجندها وأنصارها ، فهم كما وصفهم الله تعالى بوصف إخوانهم فى قوله : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم

جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)[١] .

وفى قوله تعالى : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون)[٢] .

رأى النبى صلى الله عليه وسلم بتسديد الله أن يهادنهم ، فعقد معهم معاهدة وادعهم فيها وأمنهم على أنفسهم وأموالهم ودياناتهم ، ليفرغ نفسه للدعوة ، يبلغها ويوطد دعائم تشريعها ، ويثبت سياستها ومبادئها .

وكانت المدينة طريق مكة إلى الشام فى تجارتها ، وفى زعماء أهل مكة عنجهية حاسدة ، ولهم قلوب على الدعوة الجديدة حاقدة ، ونفوس للحق والهدى مبغضة ، وعقول بالله كافرة ، أرمضها أن يفلت المسلمون بدعوتهم إلى قلعة منيعة تقف فى طريق تجارتهم ، وتهدم طغيانهم ، يحميها أنصارها من الأوس والخزرج وهم — على ما تعلم قريش ولفها — أبناء السيف والقنا وأحلاس الحرب والوغى .

وقريش فى مكة تعلم أنها استولت على أموال المهاجرين إلى المدينة ظلماً وعدواناً وبغياً وعتوا ، وأخرجتهم من ديارهم بغير حق ، فهل تنام قريرة العين ، وتمر بتجارتها على هؤلاء الذين وترتهم بالأمس آمنة مطمئنة ؟

فلتجرب ، وليمض عاهلها أبو سفيان بن حرب قائداً لقافلتهم ، ومضى يسوق قافلته إلى الشام ، وفيها باع واشترى ، وربح واستربح ، وعاد إلى قومه يحمل إليهم غرائر المال ومكاسب التجارة .

---

(١) سورة الحشر آيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ . (٢) سورة المنافقون آية ٤ .

ولعل فى هذا المال الذى اتجرت به قافلة قريش مالا من أموال المسلمين المهاجرين ، وألا يكن عينه فهو عوضه ، وللمظلوم أخذ حقه من ظالمه ،وقد أذن الله جل ذكره لهم بالقتال لدفع الظلم وإقامة دعائم الحق فقال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »[1] .

وقربت القافلة من المدينة ، وتسامع أهلها من الأنصار والمهاجرين بقدومها فحركتهم حمية الحق ، وحمية الدفاع عن كرامتهم ، فهؤلاء أعداؤهم وهم أعداء الحق لم يكتفوا ببغيهم عليهم حيث كانوا بين أظهرهم ، بل أخرجوهم من ديارهم وأموالهم، وتجاوزوا كل بغى وعتو فداسوا بقافلتهم الباغية طريق مهاجرهم علانية ، لا ، لا ، لن يكون لأهل البغى والعدوان الظالمين مرور بقافلتهم ، وفى أنصار الله عين تطرف .

وخرج بعض المسلمين من المهاجرين وإخوانهم الأنصار يعترضون طريق القافلة إلى مكة ، فعلم بهم غطريفها أبو سفيان بن حرب ، فعدل عن الطريق وساحل بقافلته ، وكان قد أنذر أهل مكة فخرجوا يجرون أذيال الغرور والكبرياء ، يسوقهم البأو والغطرسة إلى حتوفهم ، وأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد نجا ونجت معه القافلة ، فلم ينههم ذلك عن المضى فى طريق البغى .

شاور النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فكلهم أشار بملاقاة أعداء الله على كثرتهم وعظيم استعدادهم ، وقلة المسلمين وضعف ظهرهم وعدتهم ، وكانت وقعة بدر الكبرى كما تحدثت عنها كتب السيرة ، وفيها انتصر الحق على الباطل ، وظفر الإيمان بالشرك ، وهزم الظلم والبغى هزيمة ساحقة ، وكانت

(١) سورة الحج آيتا ٣٩ ، ٤٠ .

هذه الواقعة أول واقعة واجه فيها المسلمون — وهم قلة فى العدد ، وضعف فى العدة — المشركين بقوتهم الباغية ، وكان سلاح الإيمان بالحق هو الفيصل فى هذه المواجهة .

عادت فلول مكة خائبة خاسرة بعد عنجهية الكبرياء وحمية الجاهلية ، مقصوصة الأجنحة ، ثم توالت الوقائع وظهرت نجيث اليهود وخبث النفاق، واشرأبت أعناقهم خشية أن تعلو كلمة الإسلام ، فنقضوا العهود والموادعات التى عقدها رسول الله ﷺ بينهم وبين المؤمنين وتجمع أحزاب الكفر والضلال من اليهود والمشركين على شراذم المنافقين ، وتعاهدوا على الغدر والفجور ، وكانت وقائع وأحداث ، من أهمها غزو الأحزاب التى تألب فيها المشركون من ألفاف القبائل التى لم يدخل الإسلام قلوبها ، وظاهرهم اليهود والمنافقون ، فهزمهم الله ، ونصر جنده وأعلى كلمته .

الأمر الثالث :

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انتصاراته المتوالية أن يمد يد المسالمة والرفق إلى مكة وأن يوادع أهلها موادعة من لا يرغب فى الحرب ولا يستهدف العداوة والقتال ، بل يدعو إلى الأمن والسلام ، وخرج إلى العمرة بمن معه من المهاجرين والأنصار ، عامداً إلى البيت الحرام زائراً ، وساق معه الهدى ليأمن الناس ، ويعلموا أنه خرج معظماً للبيت متعبداً لربه، ولكن غطرسة المشركين وعجرفتهم الطاغية أبيا إلا عناداً فاجراً ، وعقدوا الخناصر على أن يصدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن تعظيمهم بيت ربهم فى رحلتهم المسالمة .

تواردت الأخبار على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل مكة

تجمعوا وتعاهدوا على أن يمنعوه من دخول مكة، فقال كلمته الوادعة الموادعة الحكيمة المحكمة (يا ويح قريش أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ؟ فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ ! فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره أو تنفرد هذه السالفة) .

فهل رأى الناس إنصافاً ومعدلة مثل ما فى هذه الكلمة الجامعة ؟

وهل سمع الناس بموادعة ومسالمة مثل هذه المسالمة الوادعة ؟

وهل عرف الناس طريقاً لفتح باب الحرية للعدو يملكه أمر خصمه مثل ما عرضت له هذه الكلمة الواثقة الموثقة ؟

وهل ذكر التاريخ عزيمة مصممة على المضى قدماً فى أمر بدأ متوارياً ثم استعلن شامخاً كما بدأ أمر الإسلام مثل ما فى هذه الكلمة الحازمة الصارمة ؟

بلى كانت مرة فى التاريخ ، نفس تاريخ هذه الدعوة فقط ، يوم أن انفرد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جانب والأرض كلها ومن عليها فى جانب آخر ، حتى عمه الذى كان يحنو عليه ويحوطه بدا أنه خضع لبعض الأمر مع قومه فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أخت هذه الكلمة : (والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه) .

ثم عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق مواجهة قريش إمعاناً منه فى الرغبة عن الصدام وتأمين الناس حتى بلغ مكاناً قريباً من قرية الحديبية بركت راحلته فجعل الناس ينهضونها فألحت ولم تنهض ، فقالوا :

حلأت القصواء . خلأت القصواء ، أى حرنت ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها — أى عن مكة — حابس الفيل ، والذى نفسه بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها) ثم زجرها فوثبت به حتى نزل بأقصى قرية الحديبية ، انتظاراً لما تنفرج عنه أسرار الغيب ، وما عسى أن يكون من قريش وقد ظهر لها ظهوراً بيناً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يقدموا إلى مكة إلا من بعد أن مدوا حبل السلام والموادعة ، وأنهم لم يأتوا إلا لزيارة البيت الحرام وتعظيمه .

الأمر الرابع :

كان لهذه السياسة الحكيمة الحازمة المسالمة التى ساس بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الموقف أثرها فى توجيه الأمور إلى نهايتها التى قصد إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه السياسة التى تحمل فيها على نفسه وامتحن فيها أصحابه رضى الله عنهم أشد الامتحان ، فصبروا للمحنة بعد أن محصوا تمحيصاً أخلص أنفسهم للتأسى والتسليم لما يراه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو خفيت عليهم حكمته وأسراره .

ولما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزله الذى نزله من الحديبية أتاه بديل بن ورقاء الخزاعى فى رجال من قومه ، وخزاعة — مسلمها ومشركها — كانت موضع نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مأمونة على سره ، لا تخفى عليه شيئاً تراه بمكة ، فسأل بديل ورفاقه النبى صلى الله عليه وسلم ، ما الذى جاء به ؟ فقال له : (إنه لم يأت يريد حرباً ، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته) فرجع بديل ومن معه من قومه إلى قريش وأبلغوها

مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتابعت الرسل منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يجيب كل رسول بما أجاب به بديل ، وكان من أمتع هذه المقاولات مساءلة عروة بن مسعود الثقفي وما احتف بها من أمور لها مكانها الخاص فى تصوير إجلال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمهم وحبهم له .

ولكن الشرك كان لا يزال يفكر بعقلية الوثنية التى لم تستطع أن ترتفع عن حماة الكيد الأحمق ، ففكرت قريش بهذه العقلية وقدرت ، فكرت فى الغدر ، فبعثت خمسين رجلا ليتحينوا غرة من المؤمنين فيفتكوا بمن ينالونه منهم ، وكان هؤلاء الخمسون بله التفكير والتقدير ، فرموا فى جموع الصحابة بالحجارة والنبل ، وما هى إلا هبة من بهاليل الإيمان حتى أخذوهم سوقاً إلى رسول الله ﷺ فمن عليهم وعفا عنهم وخلا سبيلهم تأكيداً لمقاصده النبيلة ﷺ .

الأمر الخامس :

لم يكتف رسول الله ﷺ بما كان بينه وبين رسل قريش من مقاولات كانت واضحة أشد الوضوح فى أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن من قصده فى قدومه إلا التعبد له وزيارة بيته المحرم وتعظيم حرمته ، بل تقدم إلى صاديه أعداء الحق فأرسل إليهم من يبلغهم عنه ما أجاب به رسلهم من المسالمة والموادعة وترك الفرصة لهم ، إزالة لكل شك . وتبديداً لكل ارتياب ، فعسى ألا يكون رسلهم قد أدوا ما حملوا من أمانة الرسالة إليهم بتفصيلها ووضوحها ، فقد كانوا يجبهون الرسل ، ويلقون منهم عنتاً وتسفيهاً مما قد يمنع من كمال الإبلاغ ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم

أن يقطع دابر الشك ويعذر إليهم حتى لا تبقى لهم حجة عليه وعلى أصحابه .

فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا خراش بن أمية الخزاعى فبعثه إلى قريش ، وحمله على بعير له ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، فسفهت قريش على رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقروا به جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا قتله فمنعه قومه وحلفاؤهم الأحابيش وخلوا سبيله ، وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما صنعت قريش معه .

لم يعجل رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش فيجازيها بما فعلت من الغدر برسوله إليها ، ولكنه طاولها وصابرها رجاء أن تثوب إلى مراشدها ، فدعا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليبعثه إلى مكة ، فيبلغ عنه أشرافها ما جاء له ، فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله إنى أخاف قريشاً على نفسى بمكة ، وما بمكة من بنى عدى بن كعب — قوم عمر — أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى إياها ، وغلظتى عليها ، ولكن أدلك على رجل أعز بها منى ، عثمان بن عفان ، وكان هذا الرأى من عمر سديداً موفقاً موافقاً لما يقصد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسالمة والموادعة ، لأن عمر لو ذهب إلى قريش ، وهو معها كما وصف نفسه ، لأسرعت إليه ، تمد يدها بالسوء ، ويكون ذلك سبباً فى اشتعال نار الحروب ، وهذا ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحاول تجنبه والابتعاد عنه ، فكان عدم بعث عمر من حسن السياسة الموفقة الموافقة لمقاصد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضى الله عنه وبعثه

إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه لم يأت إلا زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته .

خرج عثمان فى سفارته إلى مكة ، وحقق الله ظن عمر فيه ، فلم يكد عثمان يقرب من مكة حتى لقيه قبل أن يدخلها أبان بن سعيد بن العاص ، فجعله بين يديه ، وعرف منه ما جاء به سفيراً فأجاره وأعلن هذا الجوار على ملأ قريش ، فلم ترفع بالإنكار عليه رأس لعزته فى قومه وعزة قومه فى قريش .

بلغ عثمان رضى الله عنه رسالة رسول الله ﷺ إلى أبى سفيان وأشراف مكة كما أمره رسول الله ﷺ ، فأرادوا أن يتملقوا عثمان ويصرفوه عن مقصده ، فقالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل ، ولكن عثمان أحد السابقين الأولين ، وأحد أصحاب الهجرتين ، الأثير بالصهر فى مطلع البعثة قبل أن يشرف أحد قبله بهذا الصهر العلى المستعلى ، عثمان صاحب الفضائل والفواضل على الإسلام والمسلمين ، أبى لصدق إيمانه على قريش هذا الملق الوضيع ، ورد عليهم بالكلمة الراسخة فى صدق الإيمان ، وقال لهم : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ .

وعادت قريش إلى عنجهيتها فاحتبست عثمان عندها ولم تطلق له حرية الرجوع إلى رسول الله ﷺ ليبلغه عنها جواب رسالته ، ولما طال احتباس عثمان تطايرت الإشاعات بأن عثمان قد قتلته قريش ، فثارت لهذه الشائعات عزائم الإيمان ، فقال رسول الله ﷺ : (لا نبرح حتى نناجز القوم) .

ودعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان تحت الشجرة وضرب رسول الله ﷺ بإحدى يديه على الأخرى وقال : (هذه عن عثمان) وتسامعت قريش بعزيمة رسول الله ﷺ على مناجزتهم ، وبيعة أصحابه له على ذلك ، فرعبت رعباً شديداً ودارت بها أرضها تحت أقدامها

فرقاً وفزعاً فأطلقت عثمان رضى الله عنه ، وأرسلت سهيلا تطلب إليه مصالحه رسول الله ﷺ .

وفى بيعة الرضوان يقول الله تعالى تنويهاً بمقام رسول الله ﷺ ومكانته من الله تعالى ، وتشريفاً لأصحابه الذين بايعوه ، وإشادة بفضيلة الوفاء بالعهد ، وذماً لرذيلة نكثه ونقضه : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً »(١) .

ويقول جل ثناؤه فى إظهار فضل الذين بايعوا رسول الله ﷺ هذه البيعة المباركة وحفاوته بهم « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً »(٢) .

الأمر السادس :

انتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ فتكلم فأطال الكلام ، وتراجعا فى الحديث ، ثم جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينه الصلح على شروط تحمل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه أمراً عظيماً ، وناءت بثقلها نفوس أصحابه حتى وثب عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسائله فى شأن هذه الشروط القاسية ، وكيف يقبلها المسلمون وهم على الحق وأعداؤهم على الباطل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنى رسول الله وهو ناصرى ولست أعصيه) قال عمر : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ فقال له رسول

---

(١) سورة الفتح آية ١٠ .

(٢) سورة الفتح آية ١٨ .

الله صلى الله عليه وسلم : (بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه العام ؟) قال عمر : لا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (فإنك آتيه ومطوف به) .

هذا الموقف الشديد الذى عبر عمر عن جوه النفسى فى نفوس الصحابة بقوله : ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ ، يصور أصدق تصوير ما دخل على المسلمين من الغم والحيرة ، بيد أن الموقف كان أقسى مما تصوره الكلمات، فقد كان فوق طاقة الاحتمال البشرى ، لم يثبت له بعد رسول الله ﷺ الذى كان على علم من ربه كشف له حجب الأسرار عن عواقبه غير الصديق أبى بكر رضى الله عنه .

وثبات أبى بكر الذى انفرد به فى مضايق هذا الموقف إنما كان يقدر رسوخه فى الإيمان رسوخاً كان يستمده من آفاق شمس النبوة الذى جعله الله على قلبها ، وله منها الكثير من خصائص آثارها الفطرية ، ومن يقينه الذى وقر فى قلبه بصورة لا يلحقه فيها نقص الشبهات ، ولا يزيدها كشف الحجاب .

ولهذا ذهب إليه عمر يتلمس من يقينه وإيمانه ثلج التثبيت ، لأنه سيد الراسخين بعد النبى صلى الله عليه وسلم .

قال عمر : فأتيت أبا بكر ، فقلت له كما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرد عليه أبو بكر بما رد به عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء لم يخرم منه حرفاً ، ولا غير كلمة ، غير أنه زاده فى التثبيت فقال له : فاستمسك بغرزه حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق .

الأمر السابع :

هذه المعاهدة تتألف من سبعة شروط :

الشرط الأول : وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض .

الشرط الثانى : من أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش بغير إذن وليه رده عليهم .

الشرط الثالث : من أتى قريشاً ممن مع رسول الله صلى عليه وسلم لم يردوه عليه .

الشرط الرابع : أن بيننا — أى المؤمنين والمشركين — عيبة مكفوفة — أى صدراً نقياً من الغل والخداع والغش مطوياً على الوفاء والأمانة .

الشرط الخامس: أنه لا إسلال ولا إغلال — أى لا سل للسيوف للقتال، ولا خيانة وسوء تدبير بالمكر والكيد.

الشرط السادس : من أحب أن يدخل فى عقد محمد — صلى الله عليه وسلم — وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

الشرط السابع : أن يرجع محمد — صلى الله عليه وسلم — عن قريش عامه هذا فلا يدخل مكة ولا يطوف بالبيت ، وإذا كان عام قابل خرجت قريش عن مكة وأخلتها فدخلها محمد صلى الله عليه وسلم بأصحابه ، فأقام بها ثلاثاً ، ليس معه إلا سلاح الراكب ، السيوف فى قربها .

قال ابن القيم فى زاد المعاد : من الحكم التى تضمنتها هذه الهدنة أنها كانت مقدمة بين يدى الفتح الأعظم الذى أعز الله به رسوله وجنده،ودخل الناس به فى دين الله أفواجاً .

ومنها أن هذه الهدنة كانت أعظم الفتوح،فإن الناس أمن بعضهم بعضاً ، واختلط المسلمون بالكفار،ونادوهم بالدعوة وأسمعوهم القرآن،وناظروهم

على الإسلام جهرة آمنين وظهر من كان مختفياً بالإسلام ، ودخل فيه فى مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل ، ولهذا سماه الله فتحاً مبيناً .

وهذا يدل على أن خير شروط هذه المعاهدة وأبركها هو الشرط الأول ، شرط وضع الحرب بين المسلمين والمشركين ، لأنه أمن الناس ، وفتح أمام دعوة الإسلام الطريق إلى القلوب والآفاق ، فأسمعها المسلمون لمن لم يكن قد سمعها . وبينت حججها بياناً ساطعاً لمن يكن قد تبينها وقرئ القرآن على من لم يكن قد سمعه ، وهم قوم لماحون لمواقع نجوم الفصاحة ومنازل البلاغة من آياته ، دراكون لحكمه وأسراره .

وبذلك كانت هذه الهدنة هى الفتح المبين الذى بشر الله به عباده المؤمنين وامتن به على رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم ، وهنأه به أمين الوحى جبريل والملائكة وصالحوا المؤمنين .

وكان أشد شروطها وأقساها فيما بدا للناس ، واشتد الأمر فيه على جمهور الصحابة رضوان الله عليهم شرطيها الثانى والثالث اللذين قضيا برد من أتى رسول الله ﷺ من قريش إليهم ولو كان على دينه ، ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه .

هذان الشرطان هما اللذان أدخلا على المسلمين من الهم والغم ما أذهل الألباب ، وأظهر أكابرهم منهما الامتعاض ، وعجب متحيراً كثير منهم من قبول هذين الشرطين ، فقالوا : سبحان الله كيف يرد على المشركين من جاءنا مسلماً ، ولا يردون علينا من ذهب إليهم مسلماً ؟ ! وكان أشد الممتعضين : عمر بن الخطاب ، وأسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة ، وسهيل بن حنيف ، ولكن رسول الله ﷺ قبل ذلك وعاهد القوم عليه لما كان ينظر إليه من

وراء ستر الغيب ، وقال لأصحابه (من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاء منهم إلينا فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً) .

وقد عجل الله امتحان المسلمين وابتلاءهم فى تحقيق الوفاء بهذين الشرطين الصارمين ليمحصهم ، ويعدهم إعداداً كاملا لحمل أمانة الإسلام ، ويظهر لأعدائهم فضل الإسلام فى احترام الوفاء بالعهد فى خلائقهم التى خلقتهم بها دعوته الهادية الراشدة ، ويبين للناس ما حبا به نبيه محمداً ﷺ من الصبر على البلاء ، وتعظيمه أمر الوفاء بما عاهد عليه مهما عظمت شدته واشتدت قسوته .

فبينما هم كذلك — لم يكتبوا العهد وشروطه ، وإنما كان الأمر لايزال مفاوضة كلامية انتهى أمرها إلى الاتفاق على شروط العهد — إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، ولم يكد يراه أبوه سهيل وكان هو صاحب سفارة قريش ومتكلمها فى العهد وشروطه ، ونائبها فى عقد المصالحة حتى ضرب بوجهه وأخذ بتلابيبه وقال : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلى ، فقال النبى ﷺ : (إنا لم نقض الكتاب بعد)فأبى سهيل إلا شرطه ، وقال : فوالله إذاً لم أصالحك على شىء أبداً ، فوافق النبى ﷺ على أن الشرط لازم واجب الوفاء وإن لم يقض الكتاب ، ولكنه طلب من سهيل أن يترك له ابنه أبا جندل استثناء من الشرط ، فأبى سهيل أشد الإباء ، فصرخ أبو جندل لما علم أنه متروك لأبيه يرده إلى المشركين ، ونادى فى المسلمين يثير فيهم حمية الإسلام وأريحية الإيمان ، أى معشر المسلمين : أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟ ! ألا ترون ما لقيت ؟ ! وكان قد عذب عذاباً شديداً فى الله .

فقال له رسول الله ﷺ : (يا أبا جندل . . اصبر واحتسب فإنا

لا نغدر ، وإن الله جاعل لك فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدرو بهم) .

وفى هذه الكلمات النبوية الشريفة العظيمة دلالة ليس فوقها دلالة على مقدار حرص رسول الله ﷺ وتمسكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه وعواقبه فيما يبدو للناس .

فهو ﷺ يرى أحد المسلمين الذين عذبوا عذاباً شديداً ليفتن عن دينه يرمى بنفسه بين أظهر المسلمين وهو فى قيوده وأغلاله ، وأبو هذا المسلم المضطهد هو الذى يعقد الصلح مع النبي ﷺ فيستجيزه رسول الله منه فيأبى ويهدد بالتحلل من المعاهدة ، فلم يزد رسول الله ﷺ على أن أوصى المسلم المعذب بالصبر والاحتساب ، فيصرخ هذا المسلم فى إخوانه المسلمين يستدر عطفهم ويثير حماستهم بعرض حاله عليهم وهم يرونه ويرون ما فيه وما لقيه من المشركين ، وما ينتظر أن يلقاه منهم بعد رده إليهم ، ويخشى رسول الله ﷺ أن يحرك هذا الموقف كوامن النفوس فى المسلمين وتأخذهم الحمية الإيمانية فيصنعون ما يعوق عقد المعاهدة ويحسم الأمر بقوله : (فإنا لا نغدر) ويبشر أبا جندل ليثبته على الإيمان بأن الله جاعل له فرجاً ومخرجاً ، ثم يقول ﷺ كلمة جامعة لتقر فى أسماع كافة المسلمين وتعيها قلوبهم : (إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم) حتى يكون كل مسلم شهد أو غاب على بينة من أمر الوفاء بالعهد ، وتمسك الإسلام به ، فلا تثيره عاطفة ولا تميل به حمية .

وكان شرط هذه المعاهدة السادس الذى تضمن حرية الاختيار للقبائل فى الانضمام إلى أحد الفريقين المتصالحين — فاتحة خير — وهو الذى عجل

الفتح المبين ، فقد تواثبت خزاعة — وكانت قديما مع بنى هاشم فى حلفهم ، وكانت موضع ثقة ونصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم — وقالوا : نحن فى عقد محمد صلى الله عليه وسلم ، وتواثبت بنو بكر وقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم ، وكان بين الحيين خزاعة وبكر إحن وضغائن جاهلية خلفت بينهم ترات ودماء يتحينون لإثارتها الفرص ، فلما جاء الإسلام حجز بينهم ، وظلوا على ما بينهم من الإحن حتى تم عقد صلح الهدنة فانتهزها البكريون غدراً وخيانة ، وعدوا على خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيتوهم فى ديارهم وعلى مياههم وهم غارون آمنون ، ورفدت قريش بنى بكر حلفاءها بالسلاح والرجال مستخفين ، وظاهروهم على حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الداخلين فى عقده وعهده ، فنقضت قريش بذلك عهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى واثقته به على أن بينهم وبين المسلمين عيبة مكفوفة وصدور سليمة من الغش والخداع ، نقية من الغدر والخيانة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال ، وهم قد سلوا السيوف وقاتلوا وخانوا وغدروا .

وخرج عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين من قومه إلى المدينة ، يستنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستنجزه الوفاء بعهده لحلفائه الذين آثروه ودخلوا فى عقده وعهده ، وقد عدت عليهم بنو بكر حلفاء قريش ، ورفدتهم قريش وأعانتهم بالسلاح والرجال .

ولما انتهى عمرو بن سالم الخزاعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى مسجده بين أظهر أصحابه أنشد هذه الأبيات يستصرخ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين :

يارب إنى ناشد محمداً   حلف أبينا وأبيـــه الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والدا   ثمت أسلمنا فلم تنزع يدا
فانصر هداك الله نصراً عتدا   وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا   إن سيم خسفا وجهه تربدا
فى فليق كالبحر يجرى مزبدا   إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك الموكدا   وجعلوا لى فى كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا   وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا   وقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ : (نصرت ياعمرو بن سالم) وتسامعت قريش برحلة الخزاعيين إلى المدينة يستصرخون رسول الله ﷺ ، فرعبت رعباً شديداً وأخذها المقيم المقعد ، وندمت على مافعلت ، وسقط فى يدها فأرسلت زعيمها أبا سفيان ليشد عقد الهدنة ويستزيد فى مدتها .

فلما قدم المدينة دخل على ابنته أم المؤمنين السيدة أم حبيبة رضى الله عنها فذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه ، فقال لها : يابنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس ، قال : والله لقـــد أصابك بعدى شر .

وهنا إشراقة بفضيلة الوفاء بالعهد ولكنها من لون عجيب جداً ، فالسيدة الجليلة أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبى سفيان زعيم قريش وسيد بطحاء مكة يدخل عليها أبوها بعد طول عهد بفراقها ، ويجىء ليجلس على فراش فى بيتها فتطويه عنه ، فيتساءل فى عنجهية الكبرياء المتغطرس ، هل طوى عنه هذا الفراش لأنه لايليق بكبرياء سيد البطحاء وزعيم قريش ؟ أو طوى هذا

الفراش تعظماً به أن يدنسه رجس الشرك فى زعامة البطحاء ؟ فتجيبه ابنته الوفية لدينها ولنبيها ورسالته ، ولزوجها وعظمته ، مبينة له : إنه فراش رسول الله ﷺ الطاهر المطهر ، وأنت رجل مشرك نجس، لاتصلح للجلوس عليه خشية أن تدنسه ، إنه الإيمان ، الإيمان إذا خالطت بشاشته شغاف القلوب ، وامتزجت حلاوته بالأرواح والعقول والجوارح .

لم يقنع أبو سفيان بهذا الدرس الذى تلقاه من أقرب الناس إليه لحماً ودماً ،من ابنته فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه فيما هو قادم من أجله ، فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبى بكر فكلمه ليكلم له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبى عليه الصديق ، ثم أتى عمر بن الخطاب وكلمه ليشفع لهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان عمر أشد الناس وطأة على صلعة كبرياء زعيم البطحاء . ثم أتى على بن أبى طالب وعنده زوجه فاطمة بنت سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، وابنها الحسن غلام يدب على الأرض بين يديها ، فاستعطف علياً وسأله بالرحم أن يشفع له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى عليه ولكنه لاينه ورفق به ، فالتفت زعيم البطحاء فى ذلة إلى السيدة النبيلة فاطمة البتول وقال لها : يابنت محمد ؟ هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ، فقالت أم الحسنين سيدة نساء العالمين والله مايبلغ بنى هذا أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أف وتف للكبرياء الجوفاء والغرور التافه ، أليست لكم عقول ؟ ! حاربتم محمداً صلى الله عليه وسلم وآذيتموه وأصحابه حتى أخرجتموهم من ديارهم وأموالهم ،وألبتم عليه من استطعتم من أحلاس الحقد والبغضاء

من اليهود والمنافقين ، فهزمكم وانتصر عليكم ، وعفا عنكم . وجاءكم مسالماً موادعاً يزور بيت ربه ويعظم حرمته فصدد تموه ومنعتموه وكان فى استطاعته أن يستأصل شأفتكم ، ولكنه أبقى عليكم تفضلا منه فشارطتموه فأفرطتم فى شروطكم فقبلها ، وأعطاكم الفرصة التى لاتعوض .

فهل كان من مروءة الوفاء أن تقابلوا كل ذلك بهذا الغدر الوضيع ؟! وهل كان من مكارم العروبة أن تستذلوا أنفسكم هذا الذل الذى يذهب بكم إلى أن زعيمكم سيد البطحاء يتهافت أمام غلام يدب بين يدى أمه ليجير بينكم وبين جده سيد العالمين صلى الله عليه وسلم ، ولكنه الكفر الأبله والشرك الجهول ، لا طريق له إلى العزة والكرامة ولا طريق له إلى السمو النفسى ، إنك إن تسمو به يخلد إلى الأرض يلهث لأنه خبيث ظلوم .

عاد أبو سفيان زعيم قريش إليها خائباً ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجهازه وأمر المسلمين أن يتجهزوا ، وسار إلى مكة فى حشود جند الله وكتائب الإيمان وأنصار الإسلام ، وفى الطريق التقطت عناية الله أبا سفيان رحمه الله تعالى فدخل فى الإسلام بعد أن رأى عظمته وعظمه نبيه صلى الله عليه وسلم وفتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم مكة المشرفة ، ودخلت قريش كلها فى الإسلام ، وأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعفا عنهم فكانوا بفضل الوفاء بالعهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وببركة هدنة الحديبية هم كتائب الجولة الأولى لفتوح الإسلام كلها ، وكانت مكة قلعة وحصناً من قلاع وحصون الدعوة إلى الله بالعلم والحجة النيرة ثم بالجهاد فى سبيل الله .

ومن أروع مظاهر الوفاء بالعهد فى هذه المعاهدة — إلى جانب مظاهره فى قصة أبى جندل — ما أجمع على روايته الأئمة فى السيرة النبوية ، أن النبى صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية إلى المدينة أتاه أبو بصير عتبة ابن أسيد الثقفى ، وكان ممن حبس بمكة فلم يستطع الهجرة مع المهاجرين ، فتخلص والناس مشغولون بالهدنة وأحاديثها ، وفر بدينه ، ولم يكن قد علم بشروط المعاهدة ، فكتب فيه المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرده عليهم وفاء بعهدهم ، وبعثوا بالكتاب رجلا من بنى عامر بن لؤى ومولى لهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ياأبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت أى بعد قدومه المدينة — ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك) قال أبو بصير : يارسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم : (يا أبا بصير انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً) . نعم يارسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليك ، لا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، هذا درس من دروس تربيتك لأمتك تربية ترتفع بها إلى آفاق العظمة الأخلاقية النبيلة ، لأن الغدر لؤم واللؤم شيمة الأدنياء الذين لا يرتفعون عن مواطئ أقدام الحياة .

صدع أبو بصير بأمر النبى صلى الله عليه وسلم وانطلق مع رسولى المشركين وفاء بعهدهم ، وليلق فى سبيل هذا الوفاء ما يلقى عظماء النفوس فى سبيل توطيد مبادئ القيم العليا لبناء الحياة .

ولكن هل ترضى نفوس الأعلياء أن تذل وتخضع لزمجرة الباطل ؟! لا لن ترضى ؟ وأين المخرج ؟ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو الذروة فى قمة الفضائل الإنسانية — قد وفى لأعدائه أصدق الوفاء وأعظمه ، فرد

إليهم أبا بصير ، وليس فى عنق أبى بصير عقد لأحد ، فليتصرف لينجو بإيمانه ودينه .

ففى الطريق وهو مع رسولى قومه نزل ثلاثتهم منزلا يستريحون ويطعمون من ثمرات معهم ، والحديث شجون، فقال أبو بصير للعامرى: والله إنى لأرى سيفك هذا جيداً ، فانتفخت أوداج العامرى بلهاً واستكباراً ، وسل سيفه من غمده ، وقال : أجل إنه والله لجيد ، لقد جربت به ثم جربت وسأضرب به فى الأوس والخزرج يوماً إلى الليل .

وكأنه بهذا الغرور الأحمق قد أثار حمية أسيره أبا بصير لدينه وأصحابه وأنصار نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أرنى أنظر إليه ، فأمكنه منه فضربه به حتى برد ، وفر رفيق العامرى مذعوراً يهوى هوياً حتى أتى المدينة فدخل المسجد وهو يعدو كاشفاً عن سوأته ذهولا وذعراً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. حين رآه : (لقد رأى هذا ذعراً) فلما انتهى إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال : لقد قتل والله صاحبى وإنى لمقتول ، فجاء أبو بصير يحمل معه سلب العامرى وقال للنبى صلى الله عليه وسلم مبيناً موقفه : يا نبى الله قد أوفى الله ذمتك ، قد رددتنى إليهم ، ثم أنجانى الله منهم وقدم إلى النبى صلى الله عليه وسلم سلب قتيله ليخمسه كما يخمس الغنائم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم متعجباً معجباً من شجاعته (ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد) ثم قال : يا أبا بصير إنى إن خمست السلب لم أف بالذى عاهدتهم عليه ، ولكن شأنك بسلب صاحبك واذهب حيث شئت) فلما سمع ذلك أبو بصير عرف أنه سيرده إليهم وفاء بالعهد ، فخرج حتى أتى سيف البحر .

وينفلت منهم أبو جندل ابن سهيل ، ويلحق بأبى بصير ، فجعل لا يخرج رجل من قريش قد أسلم إلا لحق بأبى بصير حتى اجتمعت منهم عصابة ثلثمائة رجل أو يزيدون ، فما يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام

إلا اعترضوا طريقها وقتلوا من فيها ، وأخذوا الأموال التي كانوا يتجرون بها ، فأرسل المشركون إلى النبي ﷺ يناشدونه بالله والرحم لما أرسل إلى أبي بصير ومن معه ، ومن أتاه منهم فهو آمن ، وتخلوا في ذلة عن أقسى شروطهم التي صبوا فيها كؤوس كبريائهم، وقد غدروا وخانوا ، ووفى رسول الله وأصحابه فذلت قريش من حيث طلبت العز، وعز رسول ﷺ وأصحابه من حيث عدى عليهم ونصرهم الله نصراً مؤزراً ، وأثابهم على وفائهم الفتح المبين .

ومن مظاهر الوفاء بهذه المعاهدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اعتمر عمرة القضية ودخل مكة في سلاح الراكب وفاء لقريش بعهدها أقام بها ثلاث ليال ، فما أتى الصبح من اليوم الرابع حتى أتاه سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة، فصاح حويطب نناشدك الله والعقد لما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث، فقال سعد بن عبادة : كذبت لا أم لك، ليست بأرضك ولا بأرض آبائك ، والله لا يخرج ، ثم نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم سهيلا وحويطباً فقال: (إني قد نكحت فيكم امرأة — يعني ميمونة بنت الحارث — فما يضركم أن أمكث حتى أدخل ونصنع الطعام ، فنأكل وتأكلون معنا ؟) فقالوا : نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن بالرحيل .

في كل مظهر من مظاهر الوفاء بهذه المعاهدة نجد صوراً من النبل النبوي والتسامي في الرفق بالأعداء والمسالمة معهم ، وفتح باب التقارب ، تعبر أصدق تعبير عن مدى الحرص على مبادىء الوفاء بالعهد في هذا الدين القيم .

لم ينظر المشركون المسلمين لحظات من الزمن بعيد انقضاء الأجل المضروب للإقامة فى مكة حتى جاءوهم يلحون عليهم فى الخروج منها وفاء بالعقد الذى تم بينهم فى شروط المعاهدة .

وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبالغ فى التلطف بهم ليستل من صدورهم الحفيظة على الإسلام والمسلمين ، ويستميلهم إلى الوفاق والمسالمة ، فأخبرهم حين ناشدوه أنه تزوج فيهم امرأة ولما يدخل بها ، ولا يضرهم شيئاً أن يمكث بمكة ريثما يدخل بأهله ، وزادهم فى التلطف معهم انه يريد أن يشاركوه وأصحابه طعام وليمة زواجه فيهم ، ولكنهم أبوا إلا جفوة وتنائياً ، وعادوا يلحون فى خروجه عنهم مناشدينه الله والعقد ، فلم يسعه صلى الله عليه وسلم أمام جفائهم وتأبيهم إلا أن أمر فأذن فى أصحابه بالرحيل وفاء بما عاهدهم عليه.

* * *

ولما كانت معاهدة الحديبية هى أجل معاهدات الإسلام وأخطرها لما احتف بها من أحوال وشئون ، ولما اشتملت عليه من شروط ولما برز فيها من السياسة الحكيمة الحازمة التى عالج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الموقف من جانبيه ، جانب عتو المشركين طغياناً وكفراً ،وجانب ما أصاب المسلمين من الشدة والحيرة، ولما تجلى فيها من مواقف الحرص البالغ على الوفاء بعقدها على ما كان فيه من القسوة على المسلمين ، ولما أعقب ذلك كله من الخير والبركة للإسلام والمسلمين، بما كشف ستر الغيب عنه .

وأعظم ذلك وأجله الفتح المبين ، فتح مكة الذى مهد للمد الإسلامى ، وفتوحاته التى نشرت العدالة والرحمة فى أرجاء الأرض .

لذلك كله جعل علماء الإسلام وأئمته هذه المعاهدة منذ عقدها والتزم المسلمون الوفاء بعهدها نصب أعينهم فى مواقفهم الصارمة لحماية أهل الذمة والمعاهدين أن يظلموا ، أو يضاموا ، وهم فى ظل الإسلام يرعون ذمامه وعهده .

وجعلها الخلفاء والأمراء والولاة وصالحو ملوك الإسلام أصلا يئلون إليه فى بناء علاقة المسلمين بغيرهم من الطوائف والأمم والشعوب ، وظلا ظليلا يفىء إليه المعاهدون إذ أصابهم فى ظل الإسلام ضيم ، أو هضم لهم حق ، أو وقع عليهم ظلم .

ولذلك جاءت السنة النبوية بما تضمنته هذه المعاهدة المباركة من أصول وقواعد ، وجاءت الوقائع والحوادث التطبيقية فى تاريخ العدالة الإسلامية قائمة على دعائم من مبادئ هذه المعاهدة التى نبعت من الهداية القرآنية ، ومن إشراق أنوار النبوة المحمدية الخاتمة .

روى أبو داود فى سننه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فانا حجيجه يوم القيامة) ، وفى حديث عبد الله بن أرقم أن النبى صلى الله عليه ولاه على جزية أهل الذمة ، فلما ولى من عنده ناداه فقال : (ألا من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه من حقه ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة) . وفى حديث ابن عنبسة الذى رد به معاوية رضى الله عنهما عن قصده مع الروم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (من كان بينه و بين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى يمضى أمده او ينبذ إليهم على سواء) .

وقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم من الغدر تحذيراً شديداً فقال :

(لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به بقدر غدرته ، يقال هذه غدرة فلان) . وقال صلى الله عليه وسلم : (من أمن رجلا على نفسه نقتله فأنا برىء من القاتل) . وقال صلوات الله وسلامه عليه : (ما نقض قوم العهد إلا أديل عليهم العدو) .

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين فى الوفاء بالعهد والذمة سواسية ، كبيرهم وصغيرهم وعظيمهم وأدناهم فقال : (ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلا) ، وفى رواية أخرى : (المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، لا يقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد فى عهده ، من أحدث حدثاً فعلى نفسه ، ومن أحدث أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) .

ولقد تسامى القرآن الحكيم برعاية شأن الوفاء بالعهود والمواثيق إلى أرفع مراتب التسامى ، إذ حكم بالتسوية بين الكافر المقتول خطأ - وهو من قوم بيننا وبينهم ميثاق وعهد - وبين المؤمن المقتول خطأ فى بلد الإسلام، بإلزام القاتل أداء دية كاملة موفرة لأهل المقتول الكافر ، للعهد الذى بيننا وبينهم ، وأن هذه الدية مال من أموالهم، وحق من حقوقهم ، وأموالهم لا تحل للمؤمنين بغير طيب نفس منهم ؛ فإن لم يستطع القاتل أداء الدية موفرة غير منقوصة وجب عليه صيام شهرين متتابعين ؛ وإلزام القاتل مع أداء الدية تحرير رقبة مؤمنة ، يقول الله تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة

مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما » (١).

بل إن القرآن الحكيم لم يرض — لتساميه برعاية الوفاء بالعهود والمواثيق — أن ينصر جماعة المؤمنين إخوتهم فى الإيمان — ممن قعدوا عن الهجرة ، ورضوا بالمقام فى أهليهم الكافرين ، فسيموا الأذى ، فاستغاثوا بالمؤمنين ، يطلبون نصرتهم وعونهم بمال أو نفير لإنقاذهم ممن يؤذيهم — إذا كان هؤلاء الكافرون المستنصر عليهم بينهم وبين المؤمنين عهود ومواثيق ، رعاية لحرمة العهد ، ووجوب المحافظة عليه ، وعدم نقضه حتى تنتهى مدته. يقول الله تعالى : « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير » (٢) .

ورعاية شأن الوفاء بالعهد — فى الإسلام — عامة شاملة لأمان أهل العهد والذمة فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، وسائر ما اشترطوه مما لا يتنافى مع أصل من أصول الإسلام ، فلا يؤخذ من أموالهم شىء إلا عن طيب نفس منهم ، ولا يهاجون برعب أو إرجاف

يقول خالد بن الوليد رضى الله عنه : لا تمشى ثلاث خطاً لترزأ معاهداً إبرة فما فوقها .

وفى حديث سعد بن أبى وقاص أن مولى له قال : كنت مع سعد فأجننا الليل إلى حائط رجل من أهل الذمة ، فطلبنا صاحبه فلم نجده ، فقال سعد :

---

(١) سورة النساء آية ٩٢ .

(٢) سورة الأنفال آية ٧٢ .

إن سرك أن تلقى الله غداً مسلماً فلا ترزأن منه شيئاً ، فبتنا طاويين حتى أصبحنا .

وفى حديث عبادة بن الصامت أنه مر بقرية من قرى الغوطة ، فأمر غلامه أن يقطع له سواكا من صفصاف على نهر بردى ، فمضى الغلام ليفعل ثم صاح به عبادة ، فقال له : ارجع فإنه إلا يكن بثمن — الآن — فإنه سييبس فيعود حطباً بثمن .

وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رجلا من أهل الذمة أتاه وهو بالجابية ، فقال له : إن الناس — يعنى المسلمين — قد أسرعوا فى عنبه ، فخرج عمر حتى لقى رجلا من أصحابه يحمل ترساً عليه عنب ، فقال له عمر : وأنت أيضاً ؟ فقال الرجل المسلم : يا أمير المؤمنين أصابتنا مجاعة . فانصرف عمر فأمر لصاحب الكرم بقيمة عنبه .

وفى وصية عمر للخليفة من بعده : وأوصيه بذمة الله ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعده ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم .

هذه غرائب وعجائب، ولكنها وقائع شهدتها حياة المسلمين، وأحداث عمر بها تاريخ الإسلام .

ومن مآثر عدالة عمر رضى الله عنه ما رواه أبو يوسف فى كتاب (الخراج) من طريق الشعبى أن زياد بن حدرد الأسدى بعثه عمر على عشور العراق والشام ، وأمره أن يأخذ من المسلمين ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر ، فمر رجل من تغلب من نصارى العرب ، ومعه فرس فقومها ابن حدرد بعشرين ألفاً ، وقال للتغلبى : أعطنى الفرس وخذ منى تسعة عشر ألفا ، أو أمسك الفرس وأعطنى ألفا

فأعطاه التغلبي ألفا وأمسك فرسه ، ثم مر عليه راجعاً فى سنته ، فقال له : أعطنى ألفا أخرى ، فقال التغلبي : كلما مررت بك تأخذ منى ألفا ؟ قال : نعم ، قال فرجع التغلبي إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فوافاه بمكة ، وهو فى بيت ، فاستأذن عليه ، فقال له عمر : من أنت ؟ فقال : رجل من نصارى العرب ، وقص عليه قصته ، فقال له عمر : كفيت ، ولم يزده على ذلك ، فرجع التغلبي إلى زياد بن حدرد وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفاً أخرى ، فوجد كتاب عمر قد سبق إليه ، يقول فيه : من مر بك فأخذت منه صدقة ، فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل ، إلا ان تجد فضلا ، فقال التغلبي : قد والله كانت نفسى طيبة أن أعطيك ألفاً ، وإنى أشهد الله أنى برىء من النصرانية ، وأنى على دين الرجل الذى كتب إليك هذا الكتاب .

وى !! من يقرأ الإسلام ويفهمه ؟ ومن يصور الإسلام إلى العقول والقلوب لتفهمه ؟ .

والإسلام يأبى أشد الإباء أن ينقض العهد بالظنة والشبهة ، وهو مع إعظامه لمكانة الوفاء بالعهد وإجلاله لقدر هذه الفضيلة الاجتماعية وأثرها فى أخلاق الناس ، وحرصه أشد الحرص على ترغيب المسلمين فى التمسك بها ، ومع تقديره لخطر نكث العهد ونقض المواثيق . وتحذير المسلمين أشد التحذير من الإقدام عليه فى أية صورة يلمح فيها لون من ألوان التحايل على العبث بالعهود والمواثيق يرى أن يقف من أهل الذمة والمعاهدين إذا نقضوا العهود.كما وقف من المسلمين موقف العدالة الصارمة حتى لا يكون للعبث بالعهود والمواثيق سبيل . وحتى تبقى لها قداستها فى النفوس لحماية المجتمع الإنسانى أن تشيع فيه الخيانة والغدر . فكلما حانت فرصة لأقوى المتعاقدين،

أو أشدهما دهاء . وأخبثهما مكراً خاس بعهده ، وغدر بعقده ، فتسود الفوضى الاجتماعية بين الدول والأمم والشعوب والطوائف والجماعات والأفراد فى معاملاتهم وروابطهم الاجتماعية ، ويعيش الناس فى ظل التربص والرعب الذى يسطو فيه القوى على الضعيف والقادر على العاجز دون رادع من ضمير أو شريعة .

روى أبو عبيد فى كتاب (الأموال) : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل عمير بن سعيد على طائفة من الشام ، فقدم عليه عمير قدمة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن بيننا وبين الروم مدينة ، يقال لها : (عرب سوس) وإنهم لا يخفون على عدونا من عوراتنا شيئاً ، ولا يظهروننا على عوراتهم ، فقال له عمر : فإذا قدمت فخيرهم بين أن تعطيهم مكان كل شاة شاتين ، ومكان كل بعير بعيرين ، ومكان كل شىء شيئين ، فإن رضوا بذلك فأعطهم وخربها ، فان أبوا فانبذ إليهم — أى عهدهم — وأجلهم سنة ، ثم خربها .

فقال عمير : اكتب لى عهداً بذلك ، فكتب له عهداً ، فلما قدم عمير عليهم عرض عليهم ذلك فأبوا ، فأجلهم سنة ثم خربها .

قال أبو عبيد : وإنما عرض عمر عليهم ما عرض من الجلاء ، وأن يعطوا الضعف من أموالهم ، لأن لم يتحقق ذلك عنده من أمرهم ، أو أن النكث كان من طوائف منهم ، دون إجماعهم ، ولو أطبقت جماعتهم عليه ما أعطاهم من ذلك شيئاً إلا القتال والمحاربة .

مواقف مشرفة لأئمة الاسلام :

ولأئمة الإسلام وعلمائه وأمرائه وولاته مذاهب فى هذا النحو من النقض الذى لم يتيقن إطباق الجميع عليه ، فتعليق أبى عبيد على صنيع عمر بما علق

عليه اختيارله ، وهو مذهب من مذاهب فقهاء الإسلام ومتشرعيه ، وقدحكى أبو عبيد هذا الرأى عن الأوزاعى وغيره من الأئمة ، وخالفهم كثير ، قال أبو عبيد : وقد كان نحو من هذا قريباً الآن فى دهر الأوزاعى بموضع بالشام ، يقال (جبل اللبنان) وكان به ناس من أهل العهد ، فأحدثوا حدثاً ، وعلى الشام يومئذ (صالح بن على) لحاربهم وأجلاهم ، فكتب إليه الأوزاعى قال :

رأى الأوزاعى (*)

قدكان من أجلاء أهل الذمة من أهل جبل لبنان مما لم يكن تمالأ عليه خروج من خرج منهم ، ولم تطبق عليه جماعتهم ، فقتل — أى الوالى صالح ابن على — طائفة ورجع بقيتهم إلى قراهم ، فكيف تؤخذ عامة بعمل خاصة ، فيخرجون من ديارهم وأموالهم ؟ وقد بلغنا أن من حكم الله جل وعز أنه لا يأخذ العامة بعمل الخاصة ، ولكن تؤخذ الخاصة بعمل العامة ، ثم يبعثهم على أعمالهم . فأحق ما اقتدى به ووقف عليه حكم الله تبارك وتعالى ، وأحق الوصايا بأن تحفظ وصية رسول الله ﷺ وقوله : (من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه) .

ومن كانت له حرمه فى ذمة فله فى ماله والعدل عليه مثله ، فإنهم ليسوا

(*) قال ابن خلكان : هو الإمام ابو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعى إمام أهل الشام ، سمع من الزهرى وعطاء ، وروى عنه الثورى وأخذ عنه عبد الله ابن المبارك . وولد ببعلبك سنة ثمان وثمانين وتوفى سنة سبع وخمسين ومائة . وروى رسالته الى صالح بن على المؤرخ البلاذرى فى كتابه (فتوح البلدان) عن محمد بن سعد عن الواقدى. وفى النص اختلاف قليل

بعبيد فتكونوا من تحويلهم من بلد إلى بلد فى سعة، ولكنهم أحرار أهل ذمة يرجم محصنهم على الفاحشة ، ويحاص نساؤهم نساءنا من تزوجهن من القسم والطلاق والعدة سواء .

* * *

ثم ذكر أبو عبيد آراء عدد من الأئمة والعلماء فى مثل النحو الذى كان من (عرب سوس) و (جبل لبنان) فقد أحدث أهل قبرس حدثاً ، فلم يعجل عليهم أمير الثغور ، ولكنه شاور العلماء ، فأشار عليه كل بما يرى .

وقال أبو عبيد : ثم كان بعد ذلك حدث من أهل قبرس ، وهى جزيرة فى البحر بين أهل الإسلام والروم قد كان معاوية صالحهم وعاهدهم على خرج يؤدونه إلى المسلمين ، وهم مع هذا يؤدون إلى الروم خرجاً أيضاً ، فهم ذمة للفريقين كليهما ، فلم يزالوا كذلك حتى كان زمان (عبد الملك ابن صالح) على الثغور ، فكان منهم حدث أيضاً ، أو من بعضهم ، رأى عبد الملك أن ذلك نكث لعهدهم، والفقهاء يومئذ متوافرون فكتب إلى عدة منهم يشاورهم فى محاربتهم ، فكان ممن كتب إليه : الليث بن سعد ، ومالك بن أنس ، وسفيان بن عيينة . وموسى بن أعين ، وإسماعيل ابن عياش ، ويحيى بن حمزة ، وأبو إسحاق الفزارى ، ومخلد ابن حسين ، فكلهم أجابه على كتابه ، قال أبو عبيد : وقد اختلفوا عليه فى الرأى إلا أن من أمره بالكف عنهم والوفاء لهم وإن غدر بعضهم أكثر ممن أشار بالمحاربة .

ونحن نسوق آراء هؤلاء كما ساقها أبو عبيد فى كتاب (الأموال)

لأنها تمثل فهم علماء الإسلام وأئمته لنصوصه والتفقه فى أصوله، والاحتكام إلى روحه وسماحته وعدله .

وهؤلاء الأئمة الذين ساق أبو عبيد آراءهم هم أعلام الأئمة وفقهاء الإسلام .

١ — راى الامام الليث بن سعد (*)

قال أبو عبيد : فكان مما كتب إليه (الليث بن سعد) أن أهل قبرس لم نزل نتهمهم بالغش لأهل الإسلام والمناصحة للروم ، وقد قال تعالى: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء »[1] ولم يقل تبارك وتعالى لا تنبذ إليهم حتى تستبين خيانتهم .

وإنى أرى أن تنبذ إليهم ، ثم ينظرون سنة يأتمرون ، فمن أحب منهم اللحاق ببلاد المسلمين على أن يكون ذمة يؤدى الخراج فعل ، ومن أراد أن يتنحى إلى الروم فعل ، ومن أراد أن يقيم بقبرس على الحرب أقام فيقاتلهم المسلمون كما يقاتلون عدوهم ، فإن فى إنظار سنة قطعاً لحجتهم ووفاء بعهدهم .

(*) هو الإمام الحجة فقيه مصر ، كان من أثرياء مصر وأجوادها ، قيل لم تجب عليه الزكاة فى مال ناض مع سعة ثرائه لكثرة صلاته الإخوانية ومكارمه ، وقد دارت بينه وبين الإمام مالك ابن أنس محاورات فى الفقه والحديث يدل مابقى منها على سعة أفق الأئمة وسعة صدرهم للبحث وإخلاص الاجتهاد ، وفى الليث يقول الإمام الشافعى : الليث أفقه من مالك لكن أصحابه لم يقوموا به . ولد الليث سنة ٩٤ هـ وتوفى سنة ١٧٥ هـ

(١) سورة الأنفال آية ٥٨ .

٢ — رأى الامام سفيان بن عيينة(*)

قال أبو عبيد: وكان مما كتب إليه سفيان بن عيينة: إنا لا نعلم النبى صلى الله عليه وسلم عاهد قوماً فنقضوا العهد إلا استحل قتلهم غير أهل مكة، فإنه من عليهم، وإنما كان نقضهم الذى استحل به غزوهم أن قاتلت حلفاؤهم من بنى بكر حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من خزاعة، فنصر أهل مكة بنى بكر على حلفائه، فاستحل بذلك غزوهم، ونزلت فى الذين نقضوا «ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين»[١].

ونزلت فيهم: «إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون. الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون. فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون»[٢].

وكان فيما أخذ النبى صلى الله عليه وسلم على أهل نجران فى صلحه (أن من أكل منهم ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة، والذى انتهى)

(*) هو الإمام الثبت الزاهد الفقيه المحدث المجمع على جلالته وفضله أبو محمد سفيان ابن عيينة روى عن الأكابر: الزهرى، وعمر بن دينار، ومحمد بن المنكدر وأقرانهم وروى الأعلام عنه الإمام الشافعى، وشعبة بن أبى الحجاج وعبد الرزاق، وطبقتهم.

(١) سورة التوبة آيتا ١٣، ١٤.

(٢) سورة الأنفال آيات ٥٥، ٥٦، ٥٧.

إلينا من العلم : أن من نقض شيئاً مما عوهد عليه ثم أجمع القوم على نقضه فلا ذمة لهم .

٣ — رأى الامام مالك بن أنس (*)

قال أبو عبيد : وكان فيما كتب إليه مالك بن أنس : إن أمان أهل قبرس كان قديماً متظاهراً من الولاة لهم ، يرون أن أمانهم وإقرارهم على حالهم ذل وصغار لهم ، وقوة للمسلمين عليهم لما يأخذون من جزيتهم ، ويصيبون بهم من الفرصة على عدوهم ، ولم أجد أحداً من الولاة نقض صلحهم ولا أخرجهم من مكانهم .

وأنا أرى ألا تعجل بنقض عهدهم ومنابذتهم حتى يعذر إليهم ، وتؤخذ الحجة عليهم ، فإن الله تبارك وتعالى يقول : « فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم »[١] فإن لم يستقيموا بعد ذلك ويتركوا غشهم ، ورأيت أن الغدر يأتى من قبلهم أوقعت بهم عند ذلك ، وكان بعد الإعذار إليهم ، فكان أقوى لك عليهم ، وأقرب من النصر لك والخزى لهم إن شاء الله .

(*) هو إمام الأئمة وعالم الأمة وفقيه دار الهجرة حجة الله فى أرضه ، مفتى الأنام ، وعلم الإسلام أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحى ، سمع من الزهرى وطبقته ، وروى عنه الأوزاعى ويحيى بن سعيد وطبقتهما ، أخذ عنه الإمام الشافعى وابن القاسم ، وابن وهب ، وأشهب وكثرة من فقهاء الأمصار ، لا يحصون عدداً . قال بعض السلف : إنه هو المقصود بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم (يوشك أن تضرب آباط الإبل فلا يجدون أعلم من عالم المدينة) .

(١) سورة التوبة آية ٤ .

٤ — رأى الامام موسى بن اعين (*)

قال أبو عبيد : وكان فيما كتب إليه موسى بن أعين : إنه قد كان يكون مثل هذا فيما خلا ، فينظر فيه الولاة ، ولم أر أحداً ممن مضى نقض عهد قبرس ولا غيرها ، ولعل جماعتهم لم تمالئ ما كان من خاصتهم . وإنى أرى الوفاء لهم ، وإتمام تلك الشروط . وإن كان منهم الذى كان . وقد سمعت الأوزاعى يقول فى قوم صالحو المسلمين . ثم أخبروا المشركين بعورتهم ودلوهم عليها : إن كان الذى أخبر ودل من أهل الذمة فقد نقض عهده ، وخرج من ذمته ، فإن شاء الوالى قتله وصلبه ، وإن كان الذى أخبر بعورة المسلمين مصالحاً لهم ، لم يدخل فى ذمة نبذ إليهم الوالى على سواء (إن الله لا يحب الخائنين) .

٥ — رأى الامام اسماعيل بن عياش (**)

قال أبو عبيدة : وكان فيما كتب إليه إسماعيل بن عياش : « إن أهل قبرس أذلاء مقهورون ، تغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم ، فقد يحق لنا أن نمنعهم ونحميهم » ، وقد كتب حبيب بن مسلمة فى عهده لأهل أرمينية :

(*) هو الإمام المحدث أبو سعيد الحرانى الجزرى ، كان من زهاد الأمة وصالحيها روى عن مالك بن أنس والأوزاعى وطبقتهما قال الأوزاعى يوماً لأهل مجلسه. إنى لأعرف رجلا من الأبدال ، قيل له : من هو ؟ قال : موسى بن أعين ، مات سنة ٧٥هـ

(**) هو الإمام أبو عتبه إسماعيل بن عياش العنسى الحمصى ، العابد الزاهد ، قيل إنه كان يحيى الليل كله ، روى عن الأوزاعى وعبد الرحمن ابن جبير بن نفير وأبى وهب الكلاعى وطبقتهم ، وروى عنه ابن إسحاق وهو أكبر منه ، وكذلك الثورى والأعمش وهما من شيوخة ، والليث بن سعد وبقية بن مسلم ومعتمر بن سليمان وابن المبارك أبو داود الطيالسى . مات سنة ١٨١هـ.

أنه إن عرض شغل عنكم ، وقهركم عدوكم فإنكم غير مأخوذين ولا ناقض ذلك عهدكم بعد أن تفوا للمسلمين ، وإنى أرى أن يقروا على عهدهم وذمتهم ، فإن الوليد بن يزيد كان قد أجلاهم إلى الشام فاستفظع ذلك واستعظمه فقهاء المسلمين ، فلما ولى يزيد بن الوليد ردهم إلى قبرس ، فاستحسن المسلمون ذلك ورأوه عدلا .

٦ — رأى الامام يحيى بن حمزة (*)

قال أبو عبيد : وكان فيما كتب إليه يحي بن حمزة : إن أمر قبرس كأمر (عرب سوس) فإن فيها قدوة حسنة وسنة متبعة ، فإن صارت قبرس لعدو المسلمين إلى ما صارت إليه (عرب سوس) فإن تركها على حالها والصبر على ما كان فيها لما فى ذلك للمسلمين من جزيتها ، وما يحتاجون إليه مما فيها أفضل ، وإنما كان أمانها وتركها لذلك وليس من أهل عهد بمثل منزلتهم فيما بين المسلمين وبين عدوهم إلا ومثل ذلك يتقى منهم قديماً وحديثاً ، وكل أهل عهد لم يقاتلوا المسلمين من ورائهم ، وتمضى أحكامهم فيهم فليسوا بذمة ، ولكنهم أهل فدية ، يكف عنهم ما كفوا ، ويوفى لهم بعهدهم ما وفوا ، ويقبل منهم عفوهم ما أدوا ، ولا ينبغى أن يكون ذلك من المسلمين إليهم إلا من بعد تقية يتقونها منهم ، أو ضعف عن محاربتهم ، أو شغل عنهم بغيرهم ، وقد روى عن معاذ بن جبل أنه كره أن يصالح أحداً من العدو على شىء معلوم إلا أن يكون المسلمون مضطرين إلى صلحهم ،

(*) هو الإمام أبو عبد الرحمن يحيى بن حمزة الحضرمى البتلهى نسبة إلى بيت لها قرية بالشام بقرب دمشق وقد يقال له : الدمشقى ، حدث عن الأوزاعى وأقرانه ووثقه أبو داود وابن معين والنسائى ، مات سنة ١٨٣ هـ.

لأنه لا يدرى لعلهم يكونون أغنياء أعزاء فى صلحهم ، ليست عليهم ذلة ولا صغار .

٨٩٧ — رأى الامامين ابى اسحاق الفزارى (*) ومخلد ابن حسين (**)

قال أبو عبيد : وكان فيما كتب إليه أبو اسحاق ومخلد بن حسين : إنا لم نر شيئاً شبيهاً بأمر قبرس من أمر (عرب سوس) وما حكم فيها عمر ابن الخطاب ، وقد كان الأوزاعى يحدث أن المسلمين فتحوا قبرس فتركوهم على حالهم وصالحوهم على أربعة عشر ألف دينار ، سبعة آلاف للمسلمين.اوسبعة آلاف للروم . على ألا يكتموا المسلمين أمر عدوهم . ولا يكتموا الروم أمر المسلمين . فكان الأوزاعى يقول : ما وفى لنا أهل قبرس قط ، وإنا نرى أن هؤلاء القوم أهل عهد . وأن صلحهم وقع على شىء فيه شرط لهم وشرط عليهم . وأنه لا يستقيم نقضه إلا بأمر يعرف به غدرهم ونكث عهدهم .

(*) هو الإمام شيخ الإسلام الحجة الثبت المرابط الفقيه المحدث إبراهيم بن محمد بن الحارث الكوفى المصيصى ، حدث عن عطاء بن السائب وأقرانه ، وأخذ عنه ابن المبارك وطبقته ، وكان الأوزاعى يقول عنه : حدثنى الصادق المصدق أبو إسحاق الفزارى ، والأوزاعى من شيوخه ، وكان يفضله على نفسه ، وعلى الفضيل بن عياض وبالغ أبو داود ففضله على كل من على وجه الأرض فى عصره . توفى أبو إسحاق سنة ١٨٥ هـ .

(**) هو الإمام الفقيه المحدث أبو محمد الأزدى المهلبى البصرى ، نزل ثغر المصيصة ، روى عن الأوزاعى وابن جريج ، وروى عنه أبو إسحاق الفزارى وابن المبارك وهو من أقرانه ، قال عنه العجلى : ثقة رجل صالح ، كان من عقلاء الرجال ، وقال عنه أبو داود : كان أعقل أهل زمانه ، قال البخارى فى التاريخ : إنه مات سنة ١٩١ هـ .

قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام بعد نقله ما نقل من كتب ورسائل هؤلاء الأئمة الأعلام من فقهاء الإسلام إجابة عن طلب الوالى آراءهم : فأرى أن أكثرهم قد وكد العهد ، ونهى عن محاربتهم حتى يجمعوا جميعاً على النكث ، وهذا أولى القولين بأن يتبع ، وأن لا يؤخذ العوام بجناية الخاصة إلا أن يكون ذلك بممالأة منهم ورضى بما صنعت الخاصة ، فهناك تحل دماؤهم.

وقد استأنس أبو عبيد بصنيع على كرم الله وجهه مع الخوارج حين قتلوا عبد الله بن خباب رضى الله عنهما فأرسل إليهم على أن أقيدونا بعبد الله بن خباب ، فقالوا : كيف نقيدك بعبد الله وكلنا قتلة ؟ فقال على : أوكلكم قتلة ؟ يريد أن يؤكد ممالأتهم على قتله ، قالوا : نعم ، فقال على : الله أكبر ، ثم أمر بقتالهم .

قال أبو عبيد : أفلا ترى أن علياً عليه السلام لم يستجز قتال عوامهم بما أحدثت الخاصة حتى انتحلوه جميعاً وتواطئوا عليه ، فكذلك أمر النكث .

فأبو عبيد رحمه الله يجعل أمر نكث العهد مثل فعل الخوارج فى قتلهم عبد الله بن خباب ، فقد قتله خاصتهم ، فلم يستجز على عليه السلام أن يبسط إليهم يداً بالقتال والمحاربة حتى استبان له أنهم تمالئوا على قتله ، وأنهم متواطئون خاصتهم وعامتهم على ما أحدثوا ، فحينئذ أمر بقتالهم ، وإحداث نكث العهد من الخاصة لا يحل قتال العامة دون ممالأة منهم بل زاد أبو عبيد على ذلك — حرصاً على الوفاء بالعهد — أن بلاداً لو فتحت ، فكان بعضها عنوة وبعضها صلحاً ، ولا يعرف هذا من هذا أمضى كله على الصلح ، مخافة التقدم على الشبهة .

* * *

بيد أن بعض الأئمة من فقهاء المتأخرين جنح إلى غير ذلك ، فرأى أن

النكث إذا وقع من بعض أهل الصلح ، وأقره الباقون ، ورضوا به جعلوا كلهم ناقضين ولو لم يشترك جميعهم فى المباشرة ، وحل قتالهم بالإقرار والرضا .

اختيار الامام ابن القيم

وقد ذكر ابن القيم فى كتاب (زاد المعاد) هذا الخلاف ، واختار الفتيا بقول من قال بالنقض بفعل البعض مع إقرار الباقين ورضاهم ، وإن لم يشاركوا فى الأحداث التى وقع بها نكث العهد ، وقال إن ذلك من هدى النبى ﷺ .

والذى يظهر أن هذا رأى اجتهادى من الإمام ابن القيم ، لا نص فيه صراحة ، فإنه لما أراد أن يشيد ما ذهب إليه قال: وكان من هديه ﷺ أنه إذا صالح قوماً فنقض بعضهم عهده وصلحه ، وأقرهم الباقون ورضوا به غزا الجميع ، وجعلهم ناقضين ، كما فعل بقريظة ، والنضير ، وبنى قينقاع ، وكما فعل فى أهل مكة .

قال ابن القيم : فهذه سنته فى أهل العهد ، وعلى هذا ينبغى أن يجرى أهل الذمة كما صرح به الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم ، وخالفهم أصحاب الشافعى ، فخصوا نقض العهد بمن نقضه خاصة ، دون من رضى به وأقر عليه وفرقوا بينهما بأن عقد الذمة أقوى وأكد ، ولهذا كان موضوعاً على التأبيد ، بخلاف عقد الهدنة والصلح .

والأولون يقولون . لا فرق بينهما — أى بين عقد الذمة ، وعقد الهدنة والصلح — وعقد الذمة لم يوضع للتأبيد بل وضع بشرط استمرارهم ودوامهم على التزام ما فيه ، فهو كعقد الصلح الذى وضع للهدنة بشرط التزامهم أحكام ما وقع عليه العقد .

قال أصحاب هذا الرأى : والنبي ﷺ لم يوقت عقد الصلح والهدنة بينه وبين اليهود ، لما قدم المدينة ، بل أطلقه ما داموا كافين عنه ، غير محاربين له ، فكانت تلك ذمتهم ، غير أن الجزية لم يكن نزل فرضها بعد ، فلما نزل فرضها ازداد ذلك إلى الشروط المشترطة فى العقد ، ولم يغير حكمه ، وصار مقتضاها التأبيد ، فإذا نقض بعضهم العهد ، وأقرهم الباقون ، ورضوا بذلك ، ولم يعلموا به المسلمين صاروا[1] فى ذلك كنقض أهل الصلح ، وأهل العهد والصلح سواء فى هذا المعنى ، ولا فرق بينهما فيه ، وإن افترقا من وجه آخر .

يوضح هذا أن المقر والراضى والساكت إن كان باقياً على عهده وصلحه — أى كما يقول أصحاب الشافعى — لم يجز قتاله ولا قتله فى الموضعين — أى فى عقد الهدنة والصلح، وعقد الذمة — وإن كان بذلك — أى برضاه وسكوته وإقراره — خارجاً عن عهده وصلحه راجعاً إلى حاله الأولى قبل العهد والصلح — أى كما يقول أصحاب أحمد — لم يفترق الحال بين عقد الهدنة ، وعقد الذمة فى ذلك ، فكيف يكون عائداً إلى حاله فى موضع دون موضع ؟ هذا أمر غير معقول .

توضيحه أن تجدد أخذ الجزية لا يوجب له أن يكون موفياً[1] بعهده مع رضاه وموالاته ومواطأته لمن نقض، وعدم الجزية يوجب له أن يكون ناقضاً غادراً غير موف بعهده ، هذا بين الامتناع .

فالأقوال ثلاثة : النقض فى الصورتين — أى صورة الهدنة والصلح ، وصورة الذمة — وهو الذى دلت عليه سنة رسول الله ﷺ فى الكفار .

وعدم النقض فى الصورتين ، وهو أبعد الأقوال عن السنة .

ويشبه أن يكون هذا رأى أبى عبيد المتقدم .

والتفريق بين الصورتين ، والأول أصوبها .

ثم قال ابن القيم : وبهذا القول أفتينا ولى الأمر لما أحرقت النصارى أموال المسلمين بالشام ودورهم ، وراموا إحراق جامعهم الأعظم ، حتى أحرقوا منارته ، وكاد لولا دفاع الله أن يحترق كله ، وعلم بذلك من علم من النصارى وواطئوا عليه وأقروه ، ورضوا به ، ولم يعلموا به ولى الأمر ، فاستفتى فيهم ولى الأمر من حضر من الفقهاء ، وأفتيناه بانتقاض عهد من فعل ذلك ، وأعان عليه بوجه من الوجوه ، أورضى به وأقر عليه .

ثم قال ابن القيم إن شيخه الإمام ابن تيمية نص على ذلك ، وأفتى به فى غير موضع .

* * *

والمتأمل بعين العقل وفقه الدين فى آراء الأئمة وأقوال العلماء ومذاهبهم يرى ان جمهورهم يعظمون شأن الوفاء بالعهد ، غير أنهم يختلفون فى تكييف الموقف وتقديره بعد وقوع الحادث أو الحوادث التى يكون بها النقض والنكث ؛ فبعض العلماء يأخذ بما هو أحوط لأهل الذمة والمهادنين والمصالحين وبعضهم ينظر إلى حال المسلمين فيأخذ بما هو أحوط لهم لحماية الإسلام من التعرض للعواقب الوخيمة .

ومن هنا كانت شقة الخلاف — التى عرضها ابن القيم ومد أطرافها ووسع أديمها — ضيقة لاتكاد تبين ، والموقف الذى عرضه ابن القيم ، وأفتى فيه بما أفتى يستبين منه أن النقض كان من جميع نصارى المحلة التى بها الحادث ، لأن إحراق أموال المسلمين ودورهم وجامعهم الأعظم لايكون إلا عن ملأ من خاصتهم وعامتهم ، وليس يقصد بناقض العهد من باشر حادث النقض بيده ونفسه ، وإنما يقصد به من باشر بيده أو تدبيره ، أو أعان بأية طريقة تساعد على وقوع الحادث ، أو مالأ المباشرين ، أورضى رضا تظهر

عليه أماراته بالموافقة ، أو أقر مع علمه دون أن يحرك ساكناً بالمعارضة أو إخبار ولاة أمور المسلمين بما يدبر من الأحداث فى الخفاء .

ولو وقع حادث من بعض أهل الذمة أو المهادنين والمصالحين ، وعارض فى وقوعه غيرهم لم ينقض عهد المعارضين ، ولا عهد الساكتين الذى لم يعلموا بأمر الحادث وقت تدبيره ، وإنما ينقض فقط عهد الذين باشروا الحادث ومن أعانوهم على وقوعه أو مالئوهم عليه .

وهذا هو مافعله النبى ﷺ مع أهل مكة حيث أعانوا بنى بكر حلفاءهم على خزاعة حلفاء النبى ﷺ ، وهو مافعله مع يهود بنى قينقاع والنضير وقريظة ، إذ كانوا متمالئين خاصتهم وعامتهم .

فالأئمة والعلماء كانوا فى فتاويهم ومواقفهم مع السنة لم يخالفوها فى شىء وإنما اختلفت أنظارهم فى الاحياط للعهود والمواثيق والمحافظة على قداستها والاحتياط للإسلام والمسلمين والنظر لمصلحة الأمة ، وفقاً لما أداهم إليه اجتهادهم فى فهم الحوادث والنصوص كما يتضح من أقاويل الأئمة الذين ساق أبو عبيد آراءهم وكل مثاب مأجور .

سماحة المعاملة في تصرفات القادة والأمراء في فتوح الشام

والناظر فى تصرفات قادة الفتوحات الإسلامية من أصحاب رسول الله ﷺ وأمرائه وولاته وتلاميذهم من التابعين وتابعيهم يرى أنهم كانوا أحرص على الرفق والسماحة فى تنفيذ العهود والمصالحات مما جعل المعاهدين والمصالحين يتعاونون مع المسلمون فى صدق وإخلاص : نتيجة لما رأوه من العدالة الرحيمة فى معاملة المسلمين لهم .

يقول الإمام أبو يوسف فى كتاب « الخراج » : إنما كان الصلح جرى بين المسلمين وأهل الذمة فى أداء الجزية ، وفتحت المدن على ألا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها ، وعلى أن يحقنوا لهم دماءهم ، وعلى أن يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم ويذبوا عنهم .

ثم يروى أبو يوسف عن الإمام مكحول الشامى أن أباعبيدة بن الجراح رضى الله عنه صالحهم بالشام واشترط عليهم حين دخلها على أن تترك كنائسهم وبيعهم . . وطلبوا منه أن يجعل لهم يوماً فى السنة يخرجون فيه صلبانهم بلا رايات ، وهو يوم عيدهم الأكبر فأجابهم إلى ماطلبوا ، ووفى لهم المسلمون بشرطهم .

فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن سيرتهم فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعوناً للمسلمين على أعدائهم ، فبعث أهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالا من قبلهم يتجسسون الأخبار عن الروم وعن ملكهم ، وما يريدون أن يصنعوا . فأتى أهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بأن الروم قد جمعوا جموعاً لم ير مثلها فأتى رؤساء أهل كل مدينة إلى

الأمير الذى خلفه أبو عبيدة عليهم فأخبروه بذلك . فكتب والى كل مدينة ممن خلفه أبو عبيدة إلى أبى عبيدة يخبره بذلك . وتتابعت الأخبار على أبى عبيدة فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين .

فكتب أبو عبيدة إلى كل وال ممن خلفه فى المدن التى صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ما جبى منهم من الجزية والخراج . وكتب لهم أن يقولوا لهم إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع . وأنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك . وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط . وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم .

فلما قال لهم المسلمون ذلك . وردوا عليهم الأموال التى جبوها منهم قال أهل الذمة للمسلمين : ردكم الله علينا ونصركم عليهم . فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً . وأخذوا كل شىء بقى لنا حتى لا يدعوا لنا شيئاً .

وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يخبره بجموع الروم . وبما صنع مع أهل الصلح ، وبما فتح الله على المسلمين وانتصارهم على جموع الروم ، فكتب إليه عمر رضى الله عنه يقره على صنيعه مع المصالحين ، ويقول له فى كتابه : وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحقها ، ووف لهم بشرطهم الذى شرط لهم فى جميع ما أعطيتهم .

ولما وجه أبو بكر الصديق رضى الله عنه خالد بن الوليد إلى العراق خرج على تعبية . وجعل يمر على البلاد والحصون . يفتحها بلداً بلداً . وحصناً حصناً حتى وصل إلى الحيرة . فخرج إليه عبد المسيح بن بقيلة . وإياس بن قبيصة الطائى . وصالحه إياس على أداء الجزية ، وقال له : مالنا فى حربك من حاجة وما نريد أن ندخل معك فى دينك .

تقيم على ديننا ونعطيك الجزية . فصالحهم خالد ورحل عنهم على ألا

يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصراً من قصورهم التى كانوا يتحصنون فيها إذا نزل بهم عدو لهم ، ولا يمنعون من ضرب النواقيس ولا من إخراج الصلبان فى يوم عيدهم وعلى ألا يشتملوا على ريبة أو فساد .

كتاب خالد بن الوليد فى مصالحة اهل الحيرة

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل الحيرة أن خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر رضى الله عنه أمرنى أن أسير من منصرفى من أهل اليمامة إلى أهل العراق من العرب والعجم بأن أدعوهم إلى الله جل ثناؤه ، وإلى رسوله ﷺ ، وأبشرهم بالجنة وأنذرهم من النار فإن أجابوا فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين .

وإنى انتهيت إلى الحيرة فخرج إلى إياس بن قبيصة الطائى فى أناس من أهل الحيرة من رؤسائهم وإنى دعوتهم إلى الله وإلى رسوله فأبوا أن يجيبوا فعرضت عليهم الجزية أو الحرب ، فقالوا : لاحاجة لنا بحربك ، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب فى إعطاء الجزية .

وإنى نظرت فى عدتهم فوجدتهم سبعة آلاف رجل ، ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل ، فأخرجتهم من العدة ، وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والإنجيل أن لا يخالفوا . ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم . ولا يدلوهم على عورات المسلمين . عليهم بذلك عهد الله وميثاقه الذى أخذ أشد ماأخذ على نبى من عهد أو ميثاق أو ذمة ، فإن هم خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان . وإن هم حفظوا ذلك ورعوه وأدوه إلى المسلمين فلهم ما للمعاهد وعلينا المنع لهم فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم . لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ماأخذ على نبى من عهد أو ميثاق . وعليهم مثل ذلك .

وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله.

وجعلت لهم أيما عبد من عبيدهم أسلم أقيم فى أسواق المسلمين فبيع بأعلى مايقدر عليهم فى غير وكس ولا تعجيل، ودفع ثمنه إلى صاحبه، ولهم كل مالبسوا من الزى إلا زى الحرب.

وشرطت عليهم جباية ماصالحتهم عليه حتى يؤدوه إلى بيت مال المسلمين، عمالهم منهم، فإن طلبوا عوناً من المسلمين أعينوا به ومئونة العون من بيت مال المسلمين.

* * *

هذا الكتاب وثيقة من أعظم وثائق التاريخ، فيه تصوير بارع لواقع سماحة الإسلام فى معاملة غير المسلمين من أهل الذمة والمصالحين.

وإذا كان بعض الولاة والأمراء فى بعض العصور وبعض البلدان من أوطان الإسلام قد انحرفوا من مهيع الإسلام وهديه فى شدة حرصه على العدالة فى تحقيق الوفاء بالعهد، والرفق الرحيم بالمعاهدين فى أخذهم بشروطهم ومواثيقهم، فإنهم قد وجدوا من أئمة الإسلام وعلماء الأمة القائمين على صراط الدعوة إلى الله بالحق والشفقة على خلق الله وعياله من يقوم فى وجوههم بكلمة الحق يجهر بها، وينكر عليهم ظلمهم لأهل الذمة والمهادنين والمصالحين من أى جنس أو ملة.

فقد وقف الأئمة من الفقهاء والمحدثين أمام هؤلاء الولاة والأمراء، وردوا عليهم سياستهم المنحرفة، ونقدوا بشدة أفعالهم المنكرة، وعابوا عليهم تصرفاتهم

الخارجة على نطاق الهدى النبوى فى معاملة أهل العهود الذين واثقهم المسلمون ، وأعطوهم ذمتهم وعقودهم على الوفاء لهم بشروطهم التى أخذوها عليهم فى معاهداتهم وبينوا لهم معالم الحق ، وأقاموا لهم منائر الهداية من سنة النبى ﷺ .

يقول الإمام أبو يوسف مخاطباً هارون الرشيد : وقد ينبغى ياأمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شىء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم ، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من ظلم معاهداً أوكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه » .

وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند وفاته : أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم .

ثم روى أبو يوسف رحمه الله عن سعيد بن زيد أنه مر على قوم قد أقيموا فى الشمس فى بعض أرض الشام ، فقال : ما شأن هؤلاء ؟ فقيل له أقيموا فى الشمس فى الجزية ، فكره سعيد ذلك ، ودخل على أميرهم ، وقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من عذب الناس عذبه الله » .

وروى أبو يوسف عن هشام بن حكيم بن حزام أنه وجد عياض ابن غنم قد أقام أهل الذمة فى الشمس فى الجزية ، فقال : يا عياض ماهذا ؟ فإن رسول الله ﷺ قال : « إن الذين يعذبون الناس فى الدنيا يعذبون فى الآخرة » .

وقد أسقط عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجزية عن بعض أهل الكتاب حين عجزوا عن أدائها ، وتكفلوا الناس لقوتهم وتحصيل جزيتهم ، بل أوجب

إعالتهم من بيت مال المسلمين ، وبين أنهم بعجزهم أصبح لهم حق فى زكوات المسلمين وصدقاتهم لأنهم من المساكين . كما تقدمت الإشارة إلى ذلك فى موضعه .

فقد روى أبو يوسف وغيره أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بباب قوم وعليه سائل يسأل : شيخ كبير ضرير البصر ، فضرب عضده من خلفه ، وقال : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى ، قال : فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن ، فأخذ عمر بيده وذهب به إلى بيته فأعطاه شيئاً من المنزل ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال ، فقال : انظر هذا وضرباءه : فو الله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه .

* * *

هذه نماذج تطبيقية سقناها لنبين بها كيف كان يعامل قادة الفتح الإسلامى أهل الذمة ، وكل من ارتبط معهم بميثاق وعقد معاملة تعتمد على أصول وقواعد منتزعة من مصدرى التشريع فى الإسلام : القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة .

هذه النماذج تصور مواقف أئمة الإسلام وعلمائه الأعلام فى يقظة ضمائرهم وشجاعتهم لحراسة مناهج هذا الدين التشريعية ، ومراقبة تطبيقها فى واقع الحياة تطبيقاً عادلا كريماً .

فهذا إمام أهل الشام فى عصره ، الإمام الأوزاعى ، ينكر فى صراحة قوية وعزيمة صارمة لا تخشى فى الجهر بالحق شيئاً على الأمير (صالح بن على) إخراجه أهل جبل لبنان — وهم أهل ذمة — من ديارهم ، وتحويلهم من

بلادهم وأوطانهم إلى بلاد أخرى ، من أجل حادث وقع من بعضهم ، رأى الأمير أن فيه نقضاً لعهدهم ولم يثبت أن عامتهم مالأت خاصتهم على هذا الحادث، ويجهر الإمام الأوزاعى فى كتابه إلى الأمير أنه لايجوز فى حكم الله وشرعه أن يؤخذ العامة بعمل الخاصة ، ولكن الذى تقرر فى شرع الله وحكمه جواز أخذ الخاصة بعمل العامة ، ثم يبعثهم الله فى يوم الجزاء على نياتهم . ومقاصدهم من أعمالهم ، وهو العليم الحكيم .

وكأن وجه ذلك أن الخاصة أقدر — فى تقدير السياسة الدنيوية — على منع العامة إذا هموا بإحداث أمر ينقض عهودهم ، ويخشى منه تعكير صفو السلام بين أهل العهد والمسلمين ، لأن زمام الأمور بيد الخاصة بما لهم من المكانة التى صاروا بها خاصة فى قومهم ، والعامة تبع لهم ، فإذا أراد الخاصة بعزيمة صادقة صيانة العهد بينهم وبين المسلمين فإنهم يستطيعون وقف إحداث العامة وإبطال تدبيرهم ، على خلاف حال العامة فإنهم لايستطيعون الوقوف أمام الخاصة .

فإخراج أهل (جبل لبنان) جميعهم من بلدهم وتحويلهم إلى بلد آخر من أجل حادث وقع من بعضهم ظلم مخالف لحكم الله فى شرعه ، ومنكر مخالف لوصية رسول الله ﷺ بأهل الذمة والمعاهدين لأنهم أحرار أهل ذمة وعهد . لهم حقوق مشروعة يجب لهم الوفاء بها . وقد أعطاهم الإسلام من الحقوق مشاركتهم للمسلمين فى كثير من الأحكام الشرعية .

وعلى نهج هذا الإمام الربانى نهج جمهور أئمة الإسلام وفقهائهم ، ففى رسائل الأئمة الذين استفتاهم الأمير (عبدالملك بن صالح) فى أمر جزيرة (قبرس) نجد تعبيراً صادقا عن الإيمان العميق بما للوفاء بالعهد من مكانة فى الإسلام . وعن الحرص الشديد على الجهر بكلمة الحق فى وجوب وفاء

المسلمين لأهل الذمة بعهودهم وذمتهم . كما نجد طواعيةواستجابة من الأمراء والولاة لتنفيذ آراء العلماء والعمل بها .

والذين احتاطوا من الأئمة فى أمر (قبرس) إنما كان احتياطهم لاشتباه الأمر عليهم فى تمالؤ المعاهدين على إحداث ما أحدث ، ولذلك رأى هذا الفريق ألا يعجل فى فتياه إلى القول بنقض عهد هؤلاء جميعا أو القول بعدم النقض ،بل رأى أن ينبذ إلى المعاهدين عهدهم حتى يتبين أمرهم فى التمالؤ والتواطؤعلى إحداث ماأحدث . وحتى يكونوا على سواء مع المسلمين . فلا يخانون ولا يغدر بهم وأن يعطوا فرصة من الوقت . يأتمرون فيها ليظهر أمرهم وليأخذوا لأنفسهم سبيل المراوضة والتأهب . وقد جعل بعض الفقهاء من المفتين الذين استفتاهم الأمير هذه الفرصة الزمنية سنة . وفى إنظارسنة قطع لحجتهم ووفاء بعهدهم .

وقد أنكر الأئمة وفقهاء الأمصار على الوليد بن يزيد إجلاءه أهل (قبرس) إلى الشام فى حادث سابق وزمن متقدم على زمن ولاية (عبدالملك ابن صالح) واستفظعوا عمله واستعظموه . ورأوا فيه جرأة على الله ورسوله فى ظلم أهل الذمة .

وقد استحسنوا عمل يزيد بن الوليد فى رد عمل أبيه الوليد . ورجع أهل (قبرس) إلى بلدهم وديارهم ورأوه عدلا أقام ميزانه . فشكروا له ماصنع من الحفاظ على وصية رسول الله ﷺ فى أهل ذمته .

ولا ريب أن هذا الموقف من أئمة الإسلام وفقهاء أمصاره دليل قاطع على أن الإسلام لايفقد أبداً قائماً بالحق يرد المنحرفين إلى صراط الله السوى وشرعه القويم .

وإذا كان فى هذه النماذج صورة مشرقة لما وقر فى نفوس المسلمين

الأولين وخاصة أئمتهم وعلماءهم وصالحى ولاتهم وأمرائهم ؛ فإن هناك نماذج تصور منابع هذه السماحة الإسلامية فى سير الفتح الإسلامية مما جعل الأئمة والعلماء يستمسكون بها ويقفون فى شجاعة حراساً عليها .

ولهذا كان لا بد لنا من وقفة مع طليعة أمراء الفتح الإسلامى من أصحاب رسول الله ﷺ فيما وضعوه من مبادىء تطبيقية — أخذوا بها فى مصالحاتهم لأهل البلاد والمدن والأنصار التى فتحوها صلحاً — مستقاة من مصدرى التشريع الأصليين فى الإسلام : القرآن الكريم والسنة الصحيحة .

ولا بد لنا من إبراز هذه المبادىء فى صورتها الإسلامية السمحة . ووضعها فى الإطار الذى أضفى عليها من القداسة مما جعلها عنواناً على سماحة الإسلام فى معاملته من استظل بظله من سائر الشعوب والأمم . والأفراد والجماعات . كما جعلها أساساً لتطبيق قواعد الإسلام وأصوله فى سياسة الفاتحين التى ساسوا بها الأمم والشعوب . فكانت سبباً قوياً فى سرعة انتشار الدعوة إلى الله . وإلى إعلاء كلمة الحق والعدل فى أرجاء الأرض .

تطبيق سماحة الاسلام اعظم اسباب سرعة انتشاره :

وفى هذه السياسة الحكيمة الرحيمة أوضح إجابة عن تساؤل المتسائلين عن أسباب السرعة الهائلة التى طوى فيها الإسلام أكثر المعمور من الأرض تحت ظله الظليل .

ويتجلى إبراز هذه المبادىء فى أمور :

أولا : أن هذه المبادىء السمحة الراشدة تنقض الفكرة المتعنتة الجاحدة التى يرددها أعداء الإنسانية ، وأعداء الحق والحرية الذين قهرهم الإسلام بعدله وفضله وتشريعه ، بتصوير فتوحاته غزواً مادياً لنهب ثروات الأمم

والشعوب ، واغتصاب خيراتها وحرمانها من نعم الله عليها فيما أنعم به من مصادر الثروة الاقتصادية .

وتصوير هذه الفتوحات بأنها إكراه للناس بقوة السلاح على الدخول في دين الإسلام — ومحاربة للحرية الدينية، وتدخل في ضمائر الناس بتغيير عقائدهم، وحجر على العقول والأفكار أن تعقل ما تشاء وتفكر كما تشاء ، وقسر لأهل الأديان والملل على ترك عوائدهم الدينية — تصوير ظالم متجاهل ، أو تفكير عقل مظلم ورشح قلب جهول .

لأن النظرة العابرة ، بله الناقدة الفاحصة ، فى فتوحات الإسلام ترد ذلك وتدفع فى صدر زاعميه لأن هذه الفتوحات ، كما دونها التاريخ الصادق المصدوق بأقلام جهابذته من أبناء الإسلام ، أو غيرهم من طلاب الحقائق الذين ينشدونها فى مقارها من واقع الأحداث ، مهما كلفهم ذلك من تعب ومشقة ولى أعناق الكاشحين أصدق شاهد على عدالة الإسلام وسماحته .

أما ما دون عن هذه الفتوحات بأقلام من انطوى على مستكنة الإحن والأحقاد لهذا الدين الذى حرر العقول والقلوب والأرواح من عبودية التفكير الوثنى فهذا ما لا نعيره سمعاً ولا نظراً .

لأن شمس الهداية والحق كانت أقوى فى إشعاعها من ظلام عقولهم وقلوبهم وأرواحهم ، فبدت أضواؤها من وراء سحب الباطل تنادى على نفسها بما تنشره من أنوار فى آفاق الحياة .

فهذا أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة الإسلامية ، وعظيم فتوح المصالحات الذى سد به عمر بن الخطاب فراغ خالد بن الوليد بطل فتوحات الحرب والقتال .

نقرأ فى مصالحاته لأهل الشام أنه صالحهم على الإبقاء على معابدهم من البيع والكنائس داخل المدن وخارجها مصونة ، لا يهدم منها شىء ، ولا يغير من معالمها شىء .

وصالحهم على حقن دمائهم وحفظ حياتهم .

وصالحهم على الدفاع عنهم وحمايتهم من اعتداء من يهم بالاعتداء عليهم.

وصالحهم على أن من قاتلهم أو ناوأهم وجب على المسلمين أن يقاتلوه دونهم ، ويدفعوه عنهم بقوة السلاح .

فهل هذه المبادئ التى تلزم المسلمين أن يحافظوا على معابد أهل الذمة والمعاهدين داخل المدن وخارجها ، وتلزمهم بحماية دمائهم أن تسفك، والدفاع عنهم بنصب القتال لمن قاتلهم أو ناوأهم من أعدائهم ، مع ما فى ذلك من التعرض للقتل وإثارة العداوة على المسلمين فى نفوس أعداء أهل الذمة المناوئين لهم — يمكن أن يشتم منها رائحة غزو ومادى لنهب ثروات أو جمع أموال؟ أو يمكن أن تفيد من قريب أو بعيد إكراهاً على الدخول فى الإسلام ؟

أو يصور فيها اعتداء على حرية الأديان ؟

ثانياً : إن هذه المصالحات التى تعتمد على العدل والرحمة ، والتى قامت على الرفق بأهل الذمة كان لها أثرها الخطير الذى استهدفه الإسلام من فتوحاته.

فقد رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم بشروطهم، وشاهدوا حسن سيرتهم فيهم، وجربوا معاملتهم، فوثقوا معهم مخلصين، وصاروا عوناً للمسلمين على أعدائهم، فكانوا يخبرونهم بأحوال أعدائهم ، ليكونوا منهم على حذر واستعداد لملاقتهم .

ولما تأكد أمير المسلمين أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه من أخبار جموع الروم التى جمعوها لقتال المسلمين رأى أن ذلك سيشغله ويشغل المسلمين عن الوفاء لأهل الذمة بشرط الدفاع عنهم وحمايتهم من أعدائهم ، فكتب إلى ولاة المدن والأمصار التى صولح أهلها أن يردوا عليهم ما أخذوه منهم من الجزية أو الخراج .

وأمر فى كتابه إلى هؤلاء الولاة أن يفصحوا إلى أهلها بأننا إنما رددنا عليكم أموالكم لأننا سنشغل عن الدفاع عنكم بما جمع لنا عدونا من جموع، وأنكم اشترطتم علينا فى عهودكم أن نمنعكم من عدوكم، ونحن لا نقدر على ذلك، وقد رددنا ما أخذنا منكم، ونحن لكم على شرطكم وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله على عدونا.

وقد اظهر أهل الذمة عظيم غبطتهم بهذه المعاملة العادلة الرحيمة، وأفصحوا عن سرورهم، وأمنيتهم فى نصر المسلمين على عدوهم من الروم مع مشاركتهم لهذا العدو فى الدين، ولكن ظلم الروم وعدالة المسلمين ورفقهم بأهل ذمتهم هما اللذان دفعا بالمعاهدين إلى هذا الموقف.

وقد عبر المعاهدون عن ذلك فقالوا عندما رد إليهم المسلمون أموالهم: لو كان الروم هم المنتصرين ما ردوا علينا شيئاً مما أخذوا، وكانوا أخذوا منا كل شيء يقع تحت أيديهم ولم يبقوا لنا شيئاً.

فهل هذه المعاملة السمحة، وهذه السماحة البالغة فى رفق المعاملة، وهذا الوفاء العادل، وهذا العدل الرحيم الذى يتمثل فى رد جميع ما أخذ من أهل الذمة من أموال أخرجوها من أيديهم طيبة بها أنفسهم وفاء بشرط المصالحة فى وقت تأزم فيه الموقف على المسلمين، حيث جمع لهم عدوهم جموعاً حاشدة وكانوا أحوج ما كانوا إلى المال، ليستعدوا به فى مواجهة عدو يفوقهم عدداً وعدة، ويصارحون المعاهدين بأنهم إنما ردوا عليهم هذه الأموال وفاء بشرطهم فى المصالحة أن يدافعوا عنهم، ويمنعوهم من أعدائهم، وأنهم عاجزون عن الوفاء بهذا الشرط، وأنهم إذا عادوا منتصرين فهم على شرطهم.

هل فى شىء من هذا كله ما يمكن أن يكون شبهة يتعلق بها أعداء الإسلام فيما زعموه من تصوير فتوحاته بأنها فتوحات لإكراه دينى لأغراض مادية عمياء ؟

لو كان لأعداء الإسلام عقول يفقهون بها لرأوا أن فى صنيع المسلمين ومعاملتهم لأهل ذمتهم دليلا قاطعاً على أن هذه الفتوحات المتتابعة فى أقصر زمن وأقل قوة حربية بالنسبة لقوة أعداء الإسلام كانت فتوحات للقلوب الكسيرة بمفاتيح الإيمان والحق والعدل والرحمة ونصرة المظلومين ، وتحرير المستعبدين، وحماية المستضعفين ، استجابة لقول الله تعالى فى دستور الإسلام ومصدره الأصيل فى التشريع : القرآن الكريم فى خطاب المؤمنين تحريضاً لهم على استنقاذ المستضعفين من براثن الاستعباد البشرى ، وتحرير المظلومين من رق استبداد الظالمين : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً »(١) .

فكل قرية أو بلد ظلم أهله وعجزوا عن تحرير أنفسهم واستطاع المسلمون تخليصهم من وطأة الظلم وتحريرهم من عبودية الاستضعاف البشرى لها حق فى عنق المسلمون ، أن يقاتلوا دونهم ، ويكونوا لهم أولياء ونصراء .

فالآية عامة اللفظ والمعنى والحكم ، وتخصيص نزولها بسبب خاص — بقوم معينين بوصفهم وبلد معين كان فيه هؤلاء القوم محطاً لظلم الظالمين من أهل هذا البلد — لا يرد العموم فى المعنى والحكم التشريعى ، لأن العبرة فيما اتفق عليه العلماء بعموم اللفظ وشموله لسائر الوقائع والأشخاص والأزمنة

---

(١) سورة النساء آية ٧٥ .

والأمكنة والأحوال التى تدخل تحته بمدلوله عليه فى المعنى .

وإنما يراد بخصوص السبب ذكر النموذج المباشر وقت نزول الآية ، والقرآن الكريم يجرى على نهج اعتبار الأشخاص والأزمنة والأمكنة نماذج يجب احتذاؤها والتأسى بها .

ويؤكد هذا ذكر النساء والولدان ، لأنهم ملازمون للاستضعاف ، محتاجون أينما وجدوا على مدى دهر الإسلام للقتال دونهم وتخليصهم من أيدى ظالميهم ،أما الرجال فهم وإن وجب القتال فى سبيلهم عند استضعافهم وتعرضهم للقهر والظلم فاحتمال تمكنهم من استخلاص أنفسهم قائم لا يزول .

ووجوب القتال وفاء بشرط المعاهدين عند التمكن أشد من وجوبه ابتداء لنشر دعوة الحق ، لأن وجوب القتال وفاء بشرط أهل الذمة بمنعهم من عدوهم وحمايتهم فى ظل الإسلام واجب مضيق لا يسع المسلمين الإجماع على تركه فى دائرة المعاهدة المعقودة زمناً ومكاناً .

أما وجوب القتال ابتداء لفتح الطريق أمام الدعوة إلى الله وتأمينها فهو واجب موسع كفائى يسقط عن بعض المسلمين إذا قام به بعضهم الآخر فى أى مكان من أرض الله .

وقد كان فتح مكة — وهو أعظم الفتوح فى عهد رسول الله ﷺ — نتيجة لقيام رسول الله ﷺ بالوفاء بشرط المعاهدين ، ولم يكن لقيامه باستخلاص المستضعفين واستنقاذهم من أيدى ظلمة قريش وطغاة المشركين .

وكما أن سبيل الله عام فى الزمان والمكان والأشخاص فيجب أن يكون سبيل المستضعفين عاماً فى الزمان والمكان والأشخاص ، فالآية تحريض

للمؤمنين على القتال فى سبيل الله لتأمين الدعوة إلى الحق والعدل، وعلى القتال فى سبيل المستضعفين أينما وجدوا فى أرض الله فى أى عصر وزمان يتمكن فيه المسلمون من الدفاع عنهم والقتال فى سبيلهم لحمايتهم من ظلم الظالمين .

والمفسرون كثير منهم ، حذاقهم ، من يطلق القول أخذاً بعموم اللفظ وشمول معناه فلا يذكر اسم بلد معين ، أو أقوم معينين، كالذى يرويه الطبرى عن ابن شهاب فى تأويل الآية حيث يقول : مبيناً أن عطف المستضعفين على لفظ الجلالة ، من مدخول السبيل : فى سبيل الله وسبيل المستضعفين ، وقد اتبع الطبرى كلام ابن شهاب بما يدل على ملحظ العموم من كلام الحسن وقتادة تأويلهما للآية بسوق الحديث الصحيح الذى يذكر فيه قرية ظالمة وقرية صالحة ، قالا : خرج رجل من القرية الظالمة إلى القرية الصالحة فأدركه الموت فى الطريق ، فنأى بصدره إلى القرية الصالحة ، فما تلافاه إلا ذلك ، فاحتجت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأمروا أن يقدروا أقرب القريتين إليه فوجدوه أقرب إلى القرية الصالحة بشبر .

ومعلوم أن هذا مثل ضربه رسول الله ﷺ لبيان سبق رحمة الله للعبد برغم سوابق عمله ، وأن العواقب بحسن الخواتيم وما يعلمه الله من نية عبده فليس فيه قصد إلى قرية معينة أو أشخاص معينين .

ويؤيد عموم الآية وشمول معناها زماناً ومكاناً وأشخاصاً تعقيبها بالآية التى بعدها ، وهى كالتعليل لما فى هذه الآية من التحريض على القتال فى سبيل الله وسبيل المستضعفين ، قال تعالى : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا »[1] .

---

(١) سورة النساء آية ٧٦.

وتأويلها كما يقول الطبرى : الذين آمنوا بالله ورسوله وأيقنوا بموعود الله لأهل الإيمان به يقاتلون فى سبيل الله ، أى فى طاعة الله ومنهاج دينه وشريعته التى شرعها لعباده ، والذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وما جاءهم به من عند ربهم يقاتلون فى طاعة الشيطان وطريقه ومنهاجه الذى شرعه لأوليائه من أهل الكفر بالله ، ثم حرض الله المؤمنين على أعدائه وأعداء دينه من أهل الشرك والظلم فقال لهم : فقاتلوا أيها المؤمنون أولياء الشيطان الذين يطيعونه ويتولونه فى مخالفة أمر الله وطاعته وطاعة رسوله ﷺ ، ثم بين لهم أن مكر الشيطان وكيده ، ومكر أوليائه وكيدهم ضعيف ، لأن أهل الشيطان وأولياءه أهل وهن ومهانة ، فلا ينبغى لمن آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يهابوهم مهما كثر عددهم وعظمت عدتهم ، ولا ينبغى للمؤمنين أن يخشوهم ويخافوا كثرة عددهم لأن الله ينصركم عليهم إذا اعتصمتم بدينه وقاتلتم فى سبيله .

* * *

إن هذه المعاملة الكريمة التى عامل بها الفاتحون المسلمون أهل الذمة كان لها صدى عريض فى آفاق الأرض ، ولا سيما فى البلاد والمدن التى لم يدخل أهلها فى صلح قبل أن يصلهم نبأ هذه المعاملة النبيلة .

فقد تتابعت رسائل هؤلاء ورسلهم إلى الولاة والأمراء يطلبون إليهم أن يصالحوهم على ما صالحوا عليه إخوانهم الأولين ، وأن يعطوا من الشروط مثل ما أعطى أولئك .

بل لقد أطمعهم نبل الفاتحين وحسن سيرتهم فى تنفيذ سماحة الإسلام

وتطبيق مبادئه العادلة الرحيمة أن يزيدوا فى شروطهم شرطاً يحمون به من احتمى بهم من الروم أعداء الإسلام بعد هزيمتهم وانتصار المسلمين عليهم ، فاشترطوا أن من كان عندهم من الروم الذين جاءوا لقتال المسلمين ، فإنهم آمنون ، يخرجون بمتاعهم وأموالهم واهلهم إلى بلادهم ، لا يتعرض لهم أحد فى شىء من ذلك .

فاستجابت لهم سماحة الإسلام ونبالة الفاتحين فأعطوهم ذلك إلى جانب سائر شروط إخوانهم المصالحين ، وأقبل أمير الفتح أبو عبيدة رضى الله عنه راجعاً من حرب الروم منتصراً ، فكلما مر بمدينة لم يكن أهلها ممن صالحه بعثوا إليه رؤساءهم يطلبون إليه أن يصالحهم على شروط من سبقهم إلى الصلح ، وكان أبو عبيدة يجيبهم مغتبطاً ، ويكتب بينه وبينهم كتاب العهد والمصالحة .

ولما عم الصلح واستقر الأمر واستتب الأمن كتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنهما يخبره بنصر الله المسلمين على عدوهم من الروم بعد أن كان قد استنجد به ، وذكر له ما أعطى المصالحين وأهل الذمة من العهود والمواثيق ، وما شرطه عليهم ، وما شرطوا لأنفسهم على المسلمين ، فكتب إليه عمر رضى الله عنه يقره على مصالحاته ويقول له يوصيه بهم ، (واجعل الجزية عليهم بقدر طاقتهم ، ويكونون عمار الأرض ، فهم أعلم بها ، وأقوى عليها ، ولا سبيل لك عليهم ولا للمسلمين معك وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم ، وأكل أموالهم إلا بحلها ، ووف لهم بشرطهم الذى شرطت لهم فى جميع ما أعطيتهم) .

(وأما إخراج الصلبان فى أيام عيدهم فلا تمنعهم من ذلك خارج المدينة بلا رايات ولا بنود على ما طلبوا منك يوما فى السنة) .

بهذه المعاملة السمحة ، وبهذه السماحة فى المعاملة فتحت بلاد الشام على أيدى الفاتحين من قواد الإسلام وأمرائه ، وكان أميرهم أبو عبيدة بن الجراح أمين الأمة يمهد لهم الطريق ويعبد لهم السبيل حتى تم إجلاء الروم عن هذه الأرض العربية الإسلامية ، وتحررت نهائياً من ظلم مستعبديها ومستغليها وأصبحت قلعة من أمنع قلاع الإسلام وحصناً من حصونه التى لا ترام .

سماحة المعاملة فى فتوح العراق

ثالثاً : بهذه المعاملة السمحة ، وبهذه السماحة فى المعاملة فتحت بلاد الشام ، ولم تكن هذه السياسة الحكيمة الرحيمة فى معاملة أهل الذمة هى منهج أبى عبيدة وحده ، بل كانت المنهج الذى أقام الإسلام دعائمه ، وثبت فى شريعته أعلامه . وأعلى فى آفاقها منائره ، فهو ليس منهجاً خاصاً لأمير فتح المصالحة أبى عبيدة توصل إليه باجتهاده ، وفرضه على ولاته الذين عملوا تحت إمرته ؛ وإنما هو منهج عام فى شريعة الإسلام ؛ ينبع من مصدريها الأصيلين : القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

وقد أخذ به بطل الفتح الحربى سيف الله خالد بن الوليد فى فتوحاته حينما وجهه الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه بعد فراغه من حرب اليمامة — وكانت آخر معارك المرتدين وأعنفها — إلى العراق ليدعو أهلها من العرب والعجم إلى الله جل ثناؤه وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويبشرهم بالجنة وينذرهم من النار ، ويبين لهم أن من أجاب داعى الله وقبل دعوة الحق ، فلهم ما للمسلمين من الحقوق ؛ وعليهم ما على المسلمين من الحقوق والواجبات .

هكذا كان أمر الخليفة الأول لقائده المظفر ، الدعوة إلى الله ورسوله للناس كافة عربهم وعجمهم قياماً بحق عمـــوم دعوة الإسلام ، وختمها لرسالات الله تعالى .

فمن أجاب وأقبل فهو أخو المسلمين وشريكهم في حياتهم ، يقاسمهم الخير ، ويحمل معهم أثقال الحياة وجهادها .

فالأمر في الإسلام وفي دعوته التي جاء بها رسول الله محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم أمر إخاء إنساني ومساواة في حمائل الإيمان ، وعدالة في الحقوق ، وليس أمر تسلط جماعة أو فرد أو أمة أو شعب على فرد أو جماعة أو أمة أو شعب ، ولا أمر دنيا يجمع ثراؤها ويكره الناس عليها .

وقد صدع القائد البطل بأمر الخليفة ، وتوجه بجيوشه الظافرة دون أن يستكره أحداً على السير معه ، وكان في طريقه يدعو إلى الله ، يصالح من يطلب منه الصلح ، ويجالد من يتعرض له معـــانداً حتى انتهى إلى عاصمة المناذرة بالعراق (الحيرة) ودعا أهلها إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فأبوا قبول الدعوة جهالة ، ورضوا بالذلة والصغار ، وطلبوا من خالد أن يصالحهم على ما صالح عليه غيرهم من أهل الكتاب ، وكان صلح خالد لأهل الحيرة وغيرهم من عرب العراق وعجمهم أسبق من صلح أبي عبيدة لأهل الشام ، لأن فتح العراق قد كان قبل فتح الشام .

ولا يتعجبن متعجب أن يرى صلح خالد لأهل العراق — وهو أول صلح في الفتح بعد حرب الردة — متفقاً في روحه وشرائطه مع صلح أبي عبيدة لأهل الشام ، وهو لاحق لمصالحات خالد ، لأن المنبع الذي استقيا

منه منبع واحد ، هو التشريع الإسلامى فى مصدريه الأصيلين : القرآن الكريم وسنة النبى صلى الله عليه وسلم . بيد أننا نرى فى مصالحات خالد أمراً أبرزه القائد فى كتاب عهده مع أهل الحيرة ، وهو أمر له أهميته .

ذلك أنه حين طلبوا منه الصلح ورضوا بالجزية نظر فى عدتهم، أى عدة من تضرب عليهم الجزية منهم ، فوجدوا سبعة آلاف رجل، ويقول خالد: ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانة — أى عجز — ألف رجل فأخرجتهم من العدة ، فصار من وقع عليهم الجزية ستة آلاف .

وهنا وقفة متأملة تعطينا فى صراحة عادلة أن الجزية فى الإسلام إنما هى ضريبة دفاع مشترك عن كل من استظل بظل القانون العام للدولة ، يسهم فيها بقدر معلوم كل قادر على أدائها منتفع بآثارها فى حياته وماله وأسرته، فلا تكون على النساء والصبية ، ولا على الضعفاء الزمنى من الرجال ، وهى إلى جانب ذلك مشروطة بحماية دافعيها وغيرهم والدفاع عنهم ، وقتال عدوهم إذا قاتلهم أو ناوأهم ، فإذا عجز المسلمون أو شغلوا عن الدفاع عن أهل الذمة سقطت الجزية عنهم ووجب رد ما أخذ منهم كما رأيناه فى صنيع أبى عبيدة مع أهل الشام .

فهل تكون للعدالة صورة أفضل من هذه المعاملة ؟ وهل تكون هناك سماحة أسمح من هذه السماحة ؟أو ليس فى هذه المعاملة السمحة توطيد لدعائم الإخاء الإنسانى والمساواة بين أفراد وجماعات المجتمع المستظل بظل الإسلام على اختلاف أجناسهم ودياناتهم ؟ .

وشىء آخر نراه فى مصالحات خالد رضى الله عنه يرتفع بهذه المعاملة السمحة إلى ذروة التكريم لأهل الذمة والمعاهدين من أهل الصلح ، ذلك أن القائد العظيم يربط معاهدته مع أهل الذمة بما يقدسونه من كتبهم ، فيقول :

وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والإنجيل أن لايخالفوا ولا يعينوا كافراً على مسلم . ولايدلوا أعداء الإسلام على عورات المسلمين .

ومعنى هذا الشرط أن القائد يعلن للدنيا أن أمر الدعوة الإسلامية أمر ديانة وإيمان ، لا أمر فتح وإكراه ، ونهب أموال وثروات ، فهو يقول لأهل الذمة من أهل الكتاب ، هذا هو الحق فى العقيدة ينادى به القرآن الكريم فى قول الله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »(١).

فإن أبيتم الدخول معنا فى عقيدتنا التى جاءنا بها نبينا خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله ، فقفوا عند تقديسكم لما تقدسون من كتب أنزلها الله من قبل على أنبيائه ورسله إلى أسلافكم وهى تطالبكم بالوفاء بما رضيتم من شروط فى مواثيق ومعاهدات عقدت معكم ، فإن مخالفة شرط المعاهدات غدر وخيانة ، والغدر والخيانة منكران أشد الإنكار فى جميع شرائع الله تعالى .

وشىء أجمل وأروع من سابقه نراه فى مصالحة خالد رضى الله عنه لأهل الحيرة سجله فى كتاب معاهدتهم حيث يقول : وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر ،وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته ، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله .

وى !! كأن الله جعل فى قلوب هؤلاء الفاتحين روافد من نمير العدالة الرحيمة

---

(١) سورة آل عمران آية ٦٤ .

والرحمة الدافقة ، فهم يصبون سلسلها فى مصالحاتهم وعهودهم حتى تكون بلسماً يشفى صدور المصالحين من طول ما عانوه وقاسوا من وطأة الظلم والاستبداد ، وحتى تكون نبراساً يهتدى بها السالكون فى مدارج التاريخ .

فانظر واسمع : أيما شيخ ضعف عن العمل — بكبر السن ومرض الشيخوخة — أو أصابته آفة أو عاهة ، أية آفة ، وأية عاهة، مرض أو غيره ، أعجزته عن العمل والكسب ، أو كان غنياً فافتقر ، فلا يطالبون بها مهما كان عدد أفراد كل نوع منهم ، ولو أتى عددهم على جميع من كانت تؤخذ منهم الجزية فى بلدهم ، لأن الإسلام لم يأت لجباية المال ، وإنما جاء لهداية العقول ، وتطهير القلوب والأرواح ، ومسح ما أصاب الإنسانية من أوصاب ، وتضميد جراحها بيد الرحمة والإحسان .

لا ، ليس طرح الجزية وإسقاطها عن هؤلاء هو منتهى سماحة المعاملة فى الإسلام ، ولكنها تتصاعد ويتسامى بها الرفق إلى ذروة النبل العاطف والرحمة الدافقة ، فتجعل هؤلاء عيالا على بيت مال المسلمين ، يعولهم وينفق عليهم بما يلزمهم من القوت والمسكن والملبس بما يعرف لأمثالهم بين أهل ملتهم ، ويعال معهم عيالهم مهما كانوا من الكثرة والعدد .

يتحدث الناس فى هذا العصر — شرقاً وغرباً — عن التكافل الاجتماعى وعن كفالة الدولة للشيوخ والعجزة ، فهل قرءوا أو سمعوا عن هذه السماحة الإسلامية فى إلزام الدولة بهذه الصورة من الكفالة التى تحمى الكرامة الإنسانية من المهانة وتحفظها من الضياع ؟

إن التكافل الاجتماعى فى الإسلام لا يرضى أن يذل رجل من أهل الذمة ، وهو يحيا فى كنف الإسلام ، فيعيش على الصدقة ، يتكفف الناس ، ولكن

الإســـلام يحميه ويكرمه ، ويوجب على الدولة أن تعوله وتعول عياله معه .

وخالد بن الوليد رضي الله عنه يتلاقى في هذا المضمار مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد عرفنا قصته مع اليهودي الذي وجده على باب قوم يسأل ويتكفف، فأمر به بعد أن عرف حاله أن يعال هو وأمثاله من بيت المال، بل إن عمر رضي الله عنه أمر بقوم من النصارى مرضى بمرض الجذام أن يعالوا وينفق عليهم من بيت مال المسلمين .

فهل رأى الناس او سمعوا بسماحة رحيمة وعدل مواس ومواساة عادلة ، وإخاء ودود مثل هذا الذي عامل به خلفاء الإسلام وامراؤه وقواده أهل الذمة والمعاهدين ؟

وتابع خالد رضي الله عنه سيره يدعو إلى الله على بصيرة من أمر دينه ، ففتح الله عليه ما شاء من البلاد والحصون، وخرج أهلها إليه يستقبلونه بطلب المصالحة بعد ما سمعوا بمصالحاته وما فيها من رفق ورحمة ، وبر وخير ، حتى انتهى إلى آخر معاقل العراق مما يلي فارس ، واستقر بالناس الأمن وتواصلوا فيما بينهم متراحمين متعاطفين .

قال الإمام أبو يوسف رحمه الله : ولم يرد ذلك الصلح على خالد أبو بكر ، ولا رده عمر بعد أبي بكر ولا عثمان ولا علي رضي الله عنهم أجمعين .

ثم قال أبو يوسف : وقد كان نظر في ذلك غير واحد من الخلفاء الماضين — أي بعد عهد الراشدين — وهموا بهدم البيع والكنائس التي في المدن والأمصار فأخرج أهل المدن الكتب التي جرى الصلح فيها بين المسلمين وبينهم ، ورد

الفقهاء والتابعون هذا الانحراف على من أراده منهم وعابوه عليهم فكفوا عما أرادوا من ذلك ، فالصلح نافذ على ما أنفذه عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى يوم القيامة .

وعمر هو الذى يقول لأمير جيشه أبى عبيدة رضى الله عنهما ، إن الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا فوفوا لهم .

وأبو يوسف رحمه الله يشير فى كلامه إلى محاولة انحراف بعض ملوك الإسلام بعد عهد الصحابة رضى الله عنهم عن الجادة فى معاملة أهل الذمة والمعاهدين وظلمهم ويشير إلى وقوف الأئمة من الفقهاء وعلماء الأمة أمام هؤلاء الخلفاء وأمرائهم وولاتهم على المدن والأمصار، دفاعاً عن ذمة الإسلام وعهوده ، ونقد هؤلاء الأئمة ما هم به أولئك الملوك والأمراء والولاة من أعمال تتنافى مع الإسلام فى كتابه الكريم ووصايا رسوله الأمين ﷺ ، وعابوا عليهم ذلك فى صراحة هادرة لا تخاف إلا الله تعالى حتى ردوهم عن قصدهم المنحرف ، فكفوا عن الإقدام عما أرادوه استجابة لآراء الأئمة وأعلام الأمة .

ومهما يكن من أمر فإن انحراف المنحرفين — كانوا من كانوا — لا يقوم حجة ولا شبه حجة ضد عدالة التشريع الإسلامى وسماحته فى معاملة غير المسلمين الذين استظلوا بظل الإسلام ، وارتضوا العيش مع المسلمين فى عهود ومواثيق يعظمها الإسلام ، ويوجب على علمائه حمايتها بكلمة الحق يواجه بها المنحرفون مهما يكن شأنهم ومقامهم من مراتب الدنيا ، دفاعاً عن الوفاء بالعهد الذى أحله الإسلام من أصوله وقواعده فى التشريع مع أكرم منزلة .

ونحن لا نقصد إلا بيان سماحة التشريع الإسلامى فى معاملة كل من ارتبط مع المسلمين بعهد وذمـة ، ولا يضير الإسلام شيئاً انحراف المنحرفين ، ولا تعنت المتعنتين ، فالبشرية فى مدى سيرها فى ركب الحياة لابد أن تجد عقبات تتعثر فيها ، وكثيراً ما تكون هذه العقبات نابعة من الطبيعة البشرية نفسها .

ولا يعنينا أن نتلمس لهذا الانحراف وجوه المعاذير وألوان المخارج ، ولا يخيفنا لأنه لايمس طبيعة التشريع الإسلامى وروحه السمحة النبيلة السارية فى نصوصه الأصيلة فى مصدريه الأصيلين : القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

غير أننا لانستطيع منع الأسف الذى يداخل نفوسنا حين نقرأ شيئاً من آثار هذا الانحراف الذى كان فى أحيان كثيرة معوقاً للمد الإسلامى عن بلوغ مداه المقدور لحيويته ، بل كان سبباً فى بعض ما أصاب تيار اندفاع الدعوة إلى سبيل الله من جزر انحسرت به عن مداها فى الانتشار .

كما أن إحسان تطبيق هـذا التشريع فى سماحته كان أحفل بركة على الإسلام والمسلمين ، وأعظم نعمة على الحياة ، أضفى عليها كثيراً من الأمن والاستقرار ، وأشعر الناس بسلطان العـدل ، وأذاقهم حلاوة الإخاء الإنسانى ، وطعم المساواة فى الحقوق والواجبات والعيش الكريم .

وأبان هذا التطبيق الدقيق العادل أن الدين الإسلامى يستهدف من دعوته وحدة الإنسانية فى ظل العدل والرحمة ، ولا يرضى عن تمزيق شمل الجماعات

والأمم والشعوب ، ولا يرضى عن الباطل بنشر سلطانه فى الأرض فيستعبد عقول الأحرار ، ويشل تفكيرهم ، ولا يرضى عن الظلم ينوء بثقله على الحياة فيفقد الناس الحرية والكرامة الإنسانية ، ولا يرضى بالذلة تكسر أنف العزة الإنسانية فى مجتمع تسوده تعاليم الإسلام وآدابه أو يحكمه تشريعه العادل القويم . متى تعود للإسلام عزته لينشر على العالم لواء سماحته؟ وعلى يد من ؟

* * *

نظام الحكم في الإسلام
وأثره في تطبيق سماحة التشريع

الأصل الخامس

الأمل ينهض بالأمة فلا تستسلم للعواصف

بين الأمل واليأس مكان يقف فيه صادقو الإيمان ، لا تهزهم أريحية الأمل فيندفعون اندفاع الأغرار الذين لم يروزوا الحياة،ولم تصقلهم تجارب الأحداث ، ولا يقعدهم اليأس حسرى حيارى فى جمود الأنكاس المهازيل، ضعاف الإيمان برحمة الله وخفى ألطافه .

وفى هذه الوقفة المستبصرة تمر بهم مواكب الحياة وهى تجرى لمستقرها، ويد القدر الحكيم تسوق بها،فتعنف مرة مغزة فى السير حتى تتقطع هوادى الركاب دون بلوغ الغاية ، وتسلس مرة فتمضى فى سيرها هادئة مستنيرة حتى إذا جد بها الجد أسرعت الخطا يقظانة متثبتة موفية إلى ظل من الهداية ظليل .

وفى طبيعة الأمم الحية أن تسكن للعواطف حتى تمر بها فلا تهزها هزة الهلع والخور ، ولكنها قد تتحرك معها لتتفادى دمدمة إعصارها ، وليس من طبع الأمم الحية أن تستكين للأحداث لأن الاستكانة استسلام خانع ، أما السكون ففيه تجميع للقوى ، وتحفز للوثبة فى إبانها المقدور .

وقد هبت على الأمة الإسلامية عواصف من الأحداث هوجاء ، لعبت

فى تاريخها ووجهته فى غير وجهته التى بدأها الرعيل الأول من طلائع الإسلام ، وعبثت بمقدساتها ، وقطعتها قوميات متهارشة،ومزقتها دويلات تافهة هزيلة ،كل دويلة ركبت رأسها ، وانتفخ سحرها وظنت وخالت وتخيلت أنها هى دولة ابن الخطاب ، وفى طيات هذه الغرور أسلمت قيادها لأحد الذئاب الجائعة من أعداء الإسلام ، فقادها بزمام طائفة من الحكام التافهين الذين (حطوهم) على كراسى الحكم فانحطوا ، واتخذوا منهم مطايا لإذلال الشعوب المسلمة ، يسومونهم سوء العيش ، ويذيقونهم بؤس الحياة .

وسكنت الشعوب المسلمة لهذه العواصف ، ولم تستسلم ، واستكان حكامها واستخذوا فى ذلة الضارع المخذول ، حتى إذا حانت الفرصة هبت الشعوب من رقدتها ، تزمجر مطالبة بحقها فى الحياة الحرة والعيش الكريم ، ووقفت أمام الأذلاء المفسدين ، وأمام سادتهم وجهاً لوجه ، تصد الظلم وتطارد الفساد ، وبلغ كثير منها غايته من الحرية (الرسمية) ، ولكنهم وقفوا يتسمعون إلى صوت الماضى من تاريخ الإسلام ، يستوحونه العزة والحرية ، حرية العقيدة والإيمان بالله إلهاً واحداً لا يعبد سواه ، ذلك الإيمان الذى سما بأسلافهم إلى معاقد العزة وأمجاد الكرامة .

وقد أرشد القرآن الكريم — وهو منبع الإسلام الفياض ودستوره المحكم — الأمة الإسلامية إلى دعائم الحيـاة الكريمة ، فأقامها على العدل والرحمة وسماحة الإخاء بين أبناء الإنسانية فى شتى أقطار الأرض .

وتجاوب تاريخ المسلمين الأولين مع روح دستورهم الأعلى ، فأسسوا

على وفق مبادئه وتعاليمه دولتهم التى امتد ملكها إلى أقصى المعمور من الأرض شرقاً وغرباً ، ونشروا راية العدل والحق على آفاق ما بلغه ملكهم ، ورفعوا لواء المساواة فى الحقوق والواجبات بين أبناء البشرية من أمم الأرض فى سماحة من حسن السياسة ، لا تفرق بين إنسان وإنسان ، شعارها : الناس إخوة سواسية لا فضل لأبيض على أسود ، وعلموا الناس كيف تتحقق العدالة الاجتماعية بين الأفراد والجماعات . وكيف تصان الحقوق ، ويسود التكافل الإنسانى حتى تصبح البشرية كلها أسرة واحدة .

وكان ذلك كله بفضل التطبيق العملى لنصوص القرآن وتشريعاته الحكيمة ، باعتباره دستورهم المسيطر على حياتهم ، فهو معهم فى البيت ، والمسجد ، والمدرسة ، والمزرعة ، والمتجر ، والمصنع يحكمونه فى كل أمورهم ، ومنه نبعت مقومات حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والخلقية والفكرية إلى جانب حياتهم الروحية التى تربطهم بوشائج العبودية بخالقهم وحده ، وتربى فيهم الضمير الوازع عن الانزلاق فى مزالق الانحراف عن منهج الدستور الإلهى الذى أقامه الله تعالى سياجاً يجمع فى ساحته مراشد الخير ، ومراسم الهداية .

وكذلك كان المسلمون حتى تولى أمرهم ملوك وحكام ، ومتزعمون ، جهلوا تشريع القرآن ، واغتروا بمظاهر الحضارات المادية ، فتحللوا من تبعات دستورهم الإصلاحية ، وولوا وجوههم شطر الشهوات التافهة التى مكنتهم من متعها تلك الحضارات البراقة ، وقادوا الأمة الإسلامية بهذا الإيمان الكفور بعد أن مزقوا شملها ، وتقاسموها أشلاء مبددة وحكموها بدساتير وقوانين لا يعرفها الإسلام ولا تعرفه ، حتى أصبحت الأمة

الإسلامية غريبة عن إسلامها وأصبح إسلامها غريباً عنها ، ينكرها وتنكره ، بل إن بعض زعماء وحكام بعض الأوطان الإسلامية أصبح يتحامى فى أحاديثه الحديث عن الإسلام فراراً من وصمة الرجعية التى رفع شعارها فى وجوه المسلمين أبناء الحضارات المادية المتحللة عن قيود القيم الخلقية والفضائل الإنسانية،ليباعدوا بين المسلمين وبين مناهج دستورهم الإصلاحية .

والإسلام لا ينكر ما فى الحضارات المادية من خير وإصلاح ، لو طبق على أسلوب لا يتنكر للقيم الخلقية ، وأعظم جوانب الخير فى تلك الحضارات المادية ، العلم والمعرفة ، وانطلاق العقل الإنسانى فى آفاق الكون يتسكشف ، ويختبر ، ويصنع ويجرب ، ويبنى صروح التقدم الفكرى التى دفعت عجلة الحياة إلى مدى ملك فيه الإنسان زمام التحكم فى كثير من ظواهر الطبيعة المغلفة بالأسرار .

والإسلام – منذ نزل من عند الله – أرى أهله أنهم أحوج ما يكونون إلى هذا العلم المادى التجريبى ، وإلى هذه المعرفة المادية المنطلقة فى آفاق الكون ، وقد كانا فى مناهجه يوم أن كان دستوره القرآن العظيم مفهوماً لدى أهله ، مطبقاً فى واقع حياتهم ، ولكن أعداء الإسلام من صانعى الحضارة المادية التى غيرت وجه الحياة ، لم يمكنوا المسلمين من العلم والمعرفة على حقيقتهما – كما مكنهم المسلمون من قبل – وإنما فتحوا لهم منهما باباً خلفياً ينفتح على ساحة مليئة بمظاهر الشهوات الجسدية المذهلة – وكانت هذه المظاهر الشهوية المادية – وقد بلغ منها المسلمون ذروتها فى عواصمهم – هى التى أوقفت المد الفكرى فى دولة الإسلام – ومليئة بشعارات هى فى حقيقتها من صنع الإسلام ، ولكنها ألبست ثياباً تبرجت بها تبرج الجاهلية

الأولى، لا تستر عورة، ولا تخفى إغراء، فاغتر بمظهرها الذين أفقدتهم الشهوات عقولهم، فتلقفوها وظنوا أنهم وقعوا على شيء جديد، وهم يجهلون حقيقة دستور الإسلام من جانبه النظامي العملي فى حياة الأمة، وهو الدستور الذى نزل ليفتح أعين من يعتصم به على الكون ومظاهر الطبيعة المسخرة فى جميع عناصرها للإنسان، ليهتدى بها إلى معرفة خالقه، وينتفع بما حوته من منافع أودعها الله فيها لتكون نعمة لبنى الإنسان.

وحتى هذه الشعارات لم يشأ صانعوها أن يعطوها للمسلمين بثيابها الفاضحة وصورتها التخطيطية، ولكنهم عمدوا إلى أشلاء من هنا وهناك، وألفوا منها صورة شوهاء، مطموسة إحدى العينين، مصطلمة إحدى الأذنين، مقطوعة إحدى اليدين والرجلين، ممسوحة بطلاء معربد فى خطوطه وألوانه، وقدموها لهم عنواناً (زائفاً) على العلم والمعرفة اللذين قامت — زعموا — على دعائمها صروح هذه الحضارة البراقة بالفن وزخارفه، وعمائره، وتخطيطاته، ورسومه وألوانه، وأشيائه وتهافت الزعماء المراهقون ممن وضعهم صانعوا الحضارات الشهوية فى قيادة المسلمين على هذه الشعارات بصورتها العوراء الكسيحة، وقدموها لأوطانهم وشعوبهم على قرع طبول المرتزقة من نفايات المنافقين على أنها إصلاح جديد، لا يعرفه تاريخهم، ويأبى التاريخ إلا أن يخزيهم، ويأبى واقع المسلمين إلا أن يبهتهم بالكذب المفترى، وتزداد الشعوب بؤساً وفاقة وجهلا، وبعداً عن حقيقتها التاريخية، وعن إصلاحها الذى يجب أن ينبع من طبيعتها ودينها وأخلاقها.

بيد أن القوة الأصيلة فى طبيعة الإسلام التى يحملها دستوره فى آياته هيأت لهذه الأمة — وهى فى عنفوان محنتها فرصة — للنهوض من كبوتها،

وتبصيرها بحقيقة أمرها فى حاضرها البائس الذليل ، وفى ماضيها المشرق المنير ، وفى مستقبلها الغامض المحجوب، وتوجيهها إلى آفاق الهداية القرآنية التى جاء بها كتابها الحكيم دستوراً مهيمناً على وجودها ، وهى لم تفقد دعاة الإصلاح الحقيق ، على قلتهم ، وقلة وسائلهم الإصلاحية ، والتضييق على ألسنتهم وأقلامهم، ولكنهم هبوا يدعون الأمة إلى ثورة تشريعية تهدم بنيان التبعية الدستورية ، وتقيم على أنقاضه صرح الحرية فى العمل بدستورها الإلهى المنزل ، مستوحية طبيعتها وتاريخ الأمجاد من أسلافها . تحقيقاً لقول الله تعالى: « ولتكن منكم أمة » - أى كونوا أمة (١) - يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » وقوله جل شأنه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ، وقوله تبارك اسمه : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لايشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » ، وقوله عز شأنه : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

إن العمل بدستور الإسلام معناه أن يكون هذا الدستور بنصوصه وتشريعاته قائماً فى حياة المسلمين قياماً عملياً ، يوجه سياستهم ، ويصرف شئونهم فى السياسة والاقتصاد والنظام الاجتماعى ومناهج التربية وبرامج

---

(١) لأن (من) فى قوله (منكم) بيانية وليست تبعيضية ، مثلها فى قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما».

التعليم بجميع مراحله ، مسيطراً على حياتهم الفردية والجماعية سيطرة تجعله الحكم الذى لا يرد حكمه ، حتى يكون لمجتمع الإسلامى فى حياته كلها صورة لدولة تسير فى حياتها على أساس العدل والحرية والمساواة ، وسماحة الإخاء الإنسانى ، والتكافل التعاونى بين أبناء الأمة .

وليس معنى العمل بدستور الإسلام استغراق حياة المسلمين فى أوضاع من التعبدات وطقوس حركية من البدع والخرافات ، تقام باسم الإسلام ، والإسلام منها براء ، تحقيقاً لإرادة صانعى الحضارات المادية الذين أغروا بعض من لم يتح له أن يعرف الإسلام على حقيقته فى دستوره وتشريعاته ، للتبشير بثقافاتهم ونشر قشور معارفهم وعلومهم .

وفى سبيل ذلك أعانوهم على أن يأخذوا مكان الصدارة فى الأندية والمجامع العلمية وبعض كليات الجامعات ، والصحف والمسارح وسائر وسائل الإعلام والدعايات ، وأغدقوا عليهم ليستعبدوا ألسنتهم وأقلامهم ، لتسبح بحمد حضاراتهم تقديساً لهم حتى يدخلوا فى روع عوام المثقفين أن هذه الحضارات المادية هى وحدها التى قام ويقوم على آثارها رقى الأمم ، وهى التى يجب أن تؤخذ بخيرها وشرها ، وحلوها ومرها لمن أراد أن يكون تقدمياً فى تفكيره ونظام حياته .

بيد أن كثيراً من أبناء الإسلام فى أوطانه درسوا معارف هذه الحضارات المادية وعلومها دراسة واعية ، ولم يخدش ذلك إيمانهم بدينهم ، لأنهم كانوا على أساس من دراسة الإسلام وتاريخه وعلومه ومعارفه فلم ينحدروا إلى دركات التبعية الفكرية ، وكانوا أقوياء فى احتفاظهم بشخصياتهم المتميزة بثقافتها المؤمنة ، ولكنهم زحزحوا عن مكانهم فى محافل العلم ومجامع المعرفة ، فاعتزلوا حياة أولئك المراهقين ، وتجنبوا منافساتهم فيما هم موجهون إليه ،

وسيأتى يوم هؤلاء الأصلاء من رواد العلم يوم تصحو الأمة وتحرر فى تطبيق برامج التعليم والتربية فتوضع على أساس دستور الإسلام وتشريعاته. وهذا الانفصال بين أصلاء الباحثين من أحرار العلماء فى جامعاتنا ومجامعنا ومحافل العلم عندنا، وبين التقليديين التبعيين جاء نتيجة لانفصال وقع فيه صانعو الحضارات المادية فى معركة (العلم والدين) فى أوربة يوم أن حاول بعض علمائها الذين تتلمذوا على ثقافة الإسلام فى الأندلس وجزر البحر المتوسط حينما كان بحيرة إسلامية.

ومن هنا كانت غلطة التقليديين التبعيين، لأنهم لم يضموا إلى نظرتهم السطحية فى نهضة أوربة وعلومها ومعارفها دراسة إسلامية تتعمق تاريخ الإسلام العلمى وآثاره الفكرية، وتوجيهاته السياسية والاجتماعية، ولكنهم عرفوا الإسلام من وجوه الذين يترددون على المساجد والزوايا وتجمعات المناسبات التى تقام باسم الدين فى حلق مايسمونه الذكر، ويشارك فيها بعض المسئولين عن مستقبل الأمة تملقاً للعامة واستجلاباً لرضاهم، ولم يعرفوه فى وجوه مفكريه وأئمته ومصلحيه، وصانعى حضارته العمرانية والاجتماعية، فقالوا مع صانعى الحضارة المادية (الدين للديان) و (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله).

والإسلام لايعرف قيصرية قيصر، ولا كسروية كسرى، ولا يعرف حقاً خاصاً فى حياة الناس لقيصر يميزه عن غيره من أبناء البشرية إلا بمقدار ما يتماسك فى يده ميزان العدل فى الحكم بين الناس، وإنما يعرف الإسلام (الله) مالك السموات والأرض، ويعرف أن الخلق كلهم عيال الله وعباده، وأن العباد كلهم إخوة فى الإنسانية لكل فرد منهم - قيصر أو غيره - حقوق

وعليه واجبات ، تنظمها شرعة الحق والعدل اللذين نزل بهما دستور الإسلام نظاماً متكاملا فى سائر جوانب الحياة ، أطلق فيه العقل من عقاله ، وحرره من أغلاله ، ووجهه لتفسير كتاب الكون ولوح الوجود ، ليستكشف أسراره ويستخرج منافعه ودلائله على عظمة الخالق جل جلاله : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

العلم والدين
بين الشرق الإسلامي والغرب

وقصة العلم والدين فى أوربة معروفة لدارسى تاريخ نهضتها الاجتماعية والفكرية ، وصورتها فى إيجاز أن أوربة كانت — بعد أن نقلت إليها علوم المسلمين ومعارف العرب ، وفنونهم الأدبية ، وفلسفتهم الطبيعية عن طريق علماء الأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط التى دخلها الإسلام فى عصوره المبكرة — قد فتحت عينيها على نزاع مستعر الأوار بين رجال العلم ، ورجال الدين ، فرجال العلم وجدوا فيما نقلوا عن علماء الإسلام وفلاسفته حرية التفكير التى لا تقف عند حد ، فأرادوا أن يكونوا مثلهم لأن حرية التفكير هى التى بوأت المسلمين ذروة الحضارة الفكرية والاجتماعية ، ففكر علماء أوربة فى الكون ، كما فكر المسلمون ، وأطلقوا لأنفسهم عنان البحث ، وفكوا عقولهم من عقلها ، وأدخلوا على حياة الناس فى أوربة التى كانت سادرة فى ظلمات الجهالة ، نوراً من النظريات العلمية فى الفلك والطبيعة لم تستسغها عقول رجال الدين فى أوربة الذين كان فى أيديهم سلطان الحكم ، وتصريف شئون الدول فقامت قيامتهم على العلماء ومن ورائهم الغوغاء أتباع كل ناعق ، فقتلوا وحرقوا من العلماء والمفكرين كثيرين فى ظل محاكم التفتيش التى قضوا بأحكامها على بقية المسلمين فى الأندلس ، ونقلوها سلاحاً يفتك بالعلماء منهم الذين أخذوا علم المسلمين وأرادوا أن يطبقوه فى بيئاتهم .

ومن هنا نشأت تلك الخصومة العنيفة بين (العلم والدين) فى أوربة ، لأن رجال الدين فيها أرادوا أن يستبقوا سلطانهم على الناس ، وهم يعلمون أن هذا السلطان الزائف لا يبقى لهم إلا إذا بقيت الجهالة فاشية فى الشعوب، تقيد العقول بأغلالها ، وتسدل على الأفكار أستار ظلماتها وعندئذ فقط يمكن أن تنقاد لهم العامة بزمام التهريج الدينى ، تحت ستار تلك الخرافة الوارمة ، والأكذوبة المنتفخة بأنفاس الأباطيل ، والدعوى المفرطحة القائمة على نظرية (التفويض الإلهى) التى يتحكمون فى ظلها فى رقاب الناس وعقولهم ،ويستعبدونهم باسمها ، ويجمعون بسلطانها فى أيديهم السلطة الزمنية والدينية ، أى الحكم فى مصائر الأمم ، والتحكم فى جوانب حياتهم السياسية والاجتماعية والروحية .

وأما رجال العلم والفلاسفة الذين استنارت عقولهم بفضل ما وصل إليهم من علوم الإسلام ومعارف العرب فقد أبوا إلا أن يعيشوا أحراراً وأن يدفعوا ثمن هذه الحرية من دمائهم وأرواحهم ، وطابت أنفسهم أن يشتروا هذه الحرية من بائعها بهذا الثمن الفادح ليقدموها مصبوغة بدمائهم هدية لأممهم وأوطانهم ، ليعتقوها من ربقة الاستعباد الفكرى ، ويفتكوها من أغلال الجهالة .

وبعد نضال مرير ذهب ضحيته عشرات من العلماء والمفكرين وأنصار الحرية الفكرية انتصر العلم على دين أوربة ، وانتصر العلماء والمفكرون على رجال الدين فى أوربة ، وانتصر الفلاسفة على وارثى علم الحواريين فى زعم رجال الدين (الأكليروس) .

وفى الحق أن المعركة لم تكن بين دين وعلم كما صورها الكاتبون ، لأن أوربة لم يكن لها آنئذ دين تتمسك به حقيقة ، ولكن الذى

كان إنما هو شهوات المتسلطين باسم الدين وسلطان التفويض الإلهى ، تلك الشهوات التى كانت تقف فى طريق العقل وحرية الفكر لتتحكم فى حياة الناس ، فهزمت أمام نور العلم ، وكان طبيعياً أن يهزم رجال الدين فى أوربة أمام أولئك العلماء والفلاسفة،لأن رجال الدين فى أوربة أرادوا — استجابة لشهواتهم — أن يحملوا المسيحية السمحة فوق طبيعتها ، وأن يعرضوها لما هو فوق طاقتها .

ذلك أن المسيحية دين سماوى فى أصلها وحقيقتها ، نزل تهذيباً روحياً ، وتطهيراً وجدانياً ، يقوم على تصفية الروح من أدران الظلمات المادية ، بنشر الرحمة ، والزهادة المادية ، والتسامح الأخوى كما يرى ماثلا فى آيات الإنجيل الذى يقول : (سمعتم أنه قيل لكم : عين بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك ، فاترك له الرداء أيضاً ، ومن سخرك ميلا واحداً فاذهب معه اثنين) .

وكان طبيعياً أن تكون رسالة المسيح عليه السلام كذلك رسالة سماحة مطلقة ورحمة مطلقة وتسامح مطلق ، وزهادة مطلقة ، ورهبانية مطلقة ، لأنها فى إبانها دور من أدوار الوحى الإلهى لطور من أطوار الإنسانية كان يتطلب هذا اللون من التهذيب الروحى الخالص ، فهى رد فعل لما صارت إليه البشرية — بعد تقادم زمن الوحى بشريعة التوراة — من قساوة القلوب وغلظ الأكباد وفساد الفطرة ، وبلادة العقول والأفكار ، وجمود الطبائع والوجدانات ، وإظلام الأرواح وتبلج الإحساس وخمود جذوة الشعور عند خراف بنى إسرائيل ، كما أخبر القرآن الكريم بذلك عنهم ليوقظ أفئدة

المؤمنين ، ويحرك مشاعرهم لحمل رسالة الإسلام ، وهى خاتمة الرسائل الإلهية. يقول الله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » (١) ويقول جل شأنه : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة » (٢) .

ولكن رجال الدين فى أوربة أرادوا من المسيحية السمحة الزاهدة أن تكون وسيلة لحفظ سلطانهم ونفوذهم على الدهماء ، فأقحموها فيما هو خارج عن طبيعتها الأصيلة التى لا تحمل فى طوايا نصوصها شيئاً أساسياً عن نظام الدولة ، وسياسة الحكم ، وعلاقات الحاكمين بالمحكومين ونظام المجتمع سياسياً واقتصادياً ، بل هى على العكس من ذلك تحمل فى طوايا نصوصها ما يوجب ترك سياسة الحكم ونظام الحياة الاجتماعية للقوانين الوضعية التى تستقل بوضعها السلطة الحاكمة فى الدولة تطبيقاً للقاعدة المشهورة فى نص الإنجيل: (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله)،وقد كان من نتيجة هذا النزاع بين المتسلطين على الدهماء باسم الدين وسلطان التفويض الإلهى المزعوم ، وبين رجال العلم والفلاسفة الذين تحرروا من قيود الكنيسة أن أفعمت قلوب هؤلاء الأحرار من رجال العلم ورواد الفكر الفلسفى فى أوربة بكراهية كل ما يتصل بالدين،فشددوا النكير على كل مظهر من مظاهره ليزحزحوا هؤلاء المتلسطين على الناس باسم الدين عن مكانهم ، فنادوا بأن الدين ليس إلا صلة شخصية بين العبد وربه ، ولا دخل له إطلاقا فى سياسة الحكم والأنظمة الاجتماعية ، وتصريف شئون الحياة وحل مشكلاتها .

---

(١) سورة الحديد آية ١٦ .

(٢) سورة البقرة آية ٧٤ .

وهذا واضح معقول جداً بالنسبة لدين أوربة ومن يدين بدينها من الأمم الدائرة فى فلكها ، وكلما اتسعت النهضة العلمية ، وانجابت غياهب الجهالة ، اتسع معها انتشار هذا المبدأ الذى انتهى بعزلة الدين فى حياة تلك الأمم عن حياة الناس عزلة تامة ، وبقى حبيساً فى المعابد وأدمغة محترفى التدين من النفعيين من رجال الكهنوت ، ورؤساء الكنيسة، وحكمت أوربة فى مختلف دولها وشعوبها بقوانينها الوضعية التى تلائم طبيعتها وأحوالها وعاداتها .

فى ظل آثار هذه المعركة بين العلم والدين التى قامت نهضة أوربة على قعقعة سلاحها مدت أوربة يدها إلى الشرق الإسلامى فاستعمرته بروؤس أموالها ، ثم بجحافل جيوشها ، ثم بمظاهر حضارتها المادية ، وأفكارها وثقافاتها ، وكان لها فى الشرق تلاميذ ومريدون رضعوا حضارتها وكانوا موضع ثقتها ومحل عطفها ، فتقدمت بهم وقدمتهم إلى كراسى الحكم فى أوطان هذا الشرق الإسلامى الذى كان يعانى أمراض الجهالة والجمود الفكرى ، ويعانى بأساء الفقر ، ويعانى أبشع مظاهر الفوضى السياسية والاجتماعية .

وكان من أهم ما وجه إليه هذا الغزو الاستعمارى جهوده للقضاء على البقية الباقية من روح ـ الإسلام بين أهله ، التعليم والتربية ، والتعليم فى أوطان الإسلام ـ على ضعفه ـ كان يعتمد ـ قبل أن تنكب البلاد الإسلامية بنكبة الاستعمار الأوربى ـ على المبادئ الإسلامية التى بقى بعضها باهتاً شاحباً جامداً ، لايستطيع الحركة إلا بقدر ، فحول هذه البقية الهزيلة إلى برامج التقطها من فتات البرامج التعليمية عندهم ، وجمع لها من مناهج الثقافة أشتاتاً من هنا وهناك ، غير أنه أفعمها بتاريخ نهضة أوربة ومعارفها ، وأبطالها وأوليات مخترعاتها ، وأهمل إهمالا كلياً تاريخ الإسلام ومعارفه وعلومه ،

ومفكريه ، وخلع على معاونيه من ملوك وحكام وزعماء خلع البطولة والإصلاح ، ولكن الله تعالى الذى أنزل القرآن هدى ورحمة ، ونوراً وحكمة ، وتبياناً لكل شىء ، وتكفل بحفظه ، وأرسل رسوله محمداً خاتم النبيين بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله،وعداً محققاً،وأمراً نافذاً ، قد بعث فى الأمة الإسلامية يقظة حركت فيها بواعث النهوض فى جميع أوطانها كأنما كانت مع نفسها على ميعاد .

ولينظر الباحث إلى المصور الجغرافى ليرى مواقع الدول الإسلامية فى قارتيها تتحرك لتنفض عنها غبار الاستكانة والجمود الفكرى ، وتحاول أن تستعيد اتصالاتها مرة أخرى بإسلامها ، لتتخذ منه هادياً مرشداً ، ومن دستوره شريعة ومنهجاً ، وكثير من هذه الدول الإسلامية قد خطا نحو هذا الهدف خطوات موفقة .

والأمل يغمر قلوب المصلحين فى أن تسير الأوطان الإسلامية كلها إلى هدفها الموحد وهى — إن شاء الله — واصلة ، طال الزمن أو قصر ، ولا بد لها من أن تحطم هذه السدود المصطنعة والحواجز المعوقة لسيرها ، حتى تبلغ غايتها فى الاعتصام بدستورها علماً وعملا ، لتجعل من تشريعه قانوناً يجعل من مبادئه وتعاليمه وشائج بين الدول الإسلامية ، تضمهـــا فى إطار من الوحدة التشريعية ، شريعة ودولة ، كما جمع أسلافهم فى عهود اعتصامهم به قانوناً يحكمهم ، وشريعة تنظم شئون حيـــاتهم حتى بوأهم ذروة الحياة قيادة رائدة فى الفكر والاجتماع .

نظام الحكم في العالم الاسلامي

نحن لا نعنى بنظام الحكم هذا العنوان الشكلى الذى أغرى الناس به وشغل أذهانهم وتفكيرهم هل يكون الحكم فى الدول الإسلامية (جمهوريا أو غير جمهورى) .

وإنما نعنى بنظام الحكم القوة المسيطرة على تصريف شئون الدولة ، وإدارة دفةسياسة الأمة فى الداخل والخارج،وتنظيم علاقة الحاكم بالمحكوم، ومعرفة ما على الحاكم من واجبات نحو الأمة أفراداً وجماعات ، وما له عليها من حقوق وما على المحكوم من واجبات، وما له من حقوق ، وتنظيم علاقة الأفراد بالأفراد ، وعلاقة الأفراد بالجماعات ، وعلاقة الجماعة بغيرها من الجماعات ، فى داخل الأمة وخارجها ، فى ظل عدالة اجتماعية يتحمل فيها كل إنسان مسئوليته بما يتناسب مع مكانته عدالة تهيىء لكل فرد أو جماعة فى الأمة فرصة العمل المتكافىء مع قواه الفكرية والجسمية، على أن يلقى على هذا العمل الجزاء الملائم .

عدالة تعطى للمريض الدواء حتى يصح ، وللجاهل المعرفة حتى يستنير، وللعاجز القوت والمأوى حتى تتاح له القدرة على أن يعيش فى أمته إنسانا كريماً على نفسه ، نافعاً لأمته ، وفى ذلك كله يقول النبى ﷺ فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمر . عن النبى ﷺ قال : (ألا كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو

مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته) .

هذا الحديث الشريف لم يترك من مسئولية التكافل الاجتماعى فى الأمة شيئاً ، فهو أساس فى نظام الحكم الشورى ، يفرض على كل فرد فى الأمة حقوقاً وواجبات ، يجعله مسئولا فى دائرتها ،وهو صورة لقوة ترابط القوة الحاكمة فى تدرجها مع المسئولية من العبد فى مال سيده إلى أمير الناس وواليهم فى رعايته لهم ومسئوليته عنهم .

أما أن تكون هذه القوة المسيطرة على حياة الأمة بسلطان القانون الدستورى الإسلامى فى أية صورة من صور النظام السائد فى العالم فهذا ما لا يصح أن يشغلنا عن الأساس الذى يجب أن تقوم عليه دعائم الحكم الصالح فى الأمة .

وليس معنى ذلك أن نستهين بالعنوان الذى يجب أن يوضع تحته نظام الحكم الذى تريده الأمة والذى يجب أن تختاره لنفسها عن طريق الشورى، وإنما معناه أننا نترك للحكم الصالح فرصه اختيار العنوان لنفسه بإلهام من الأمة ، فهى صاحبة الحق فى ذلك أولا وأخيراً .

فلا ينبغى أن نحرص على كتابة اللافتة المعلنة قبل تكوين الفكرة، ولا يصح أن تكون الفكرة من سبحات الخيال وومضات التقليد ، بل يجب أن نكون واقعيين ، فنجهر بأننا نريد حكما صالحاً يشعر فى ظله كل إنسان بكرامة إنسانيته ، ويتمتع فيه كل فرد بحقوقه ، ويقوم فى ظله بواجباته حكما لا يجعل من الحاكم سيداً ، يتعالى على الأمة بسلطانه ، بل حكما يكون

فيـه الحاكم مسئولا عن تطبيق دستور الإسلام تطبيقاً ، ينال فيـه كل فرد حقه ، ويؤدى فى ظله واجباته .

وليس فى تشريع الإسلام وأوضاعه السياسية الأصلية التى تؤخذ من نصوص دستوره ، أو من توجيهات النبي ﷺ ما يحتم شكلا من أشكال الحكم أو صورة خاصة من أنظمته وكل ما جاء فى ذلك أخبار النبى ﷺ فى حديث : (الخلافة بعدى ثلاثون ثم تكون ملكاً عضوضا) بأن نظام الحكم فى أمة الإسلام بعده سيكون قائماً على العدل ما كانت الشورى الحقيقية قائمة بين المسلمين ، وذلك فى الخلافة الراشدة ، فإذا انحرف نظام الحكم إلى ولاية العهد الوراثى ، وولى أمر الأمة من لم يكن أهلا للإمامة ، فقد حل الظلم والاستبداد محل العدل والشورى ، وهذا هو الملك العضوض الذى يعض الناس بظلمه وجبروته ويذهب بحرية الحياة فى الأمة ، وينشر الاستبداد والقهر .

وقد جاء فى القرآن الكريم فى معرض القصص عن السابقين من الأمم قبل الإسلام للعبرة أن شأن الملوك إفساد حياة الأمم ، وإذلال أشرافها ، ليخضعوهم لسلطانهم ، ويذهبوا منهم نخوة الحرية ، ويدخلوا على أنفسهم اليأس من عودة ما كانوا عليه من عز وشرف .

وذلك فى قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ ، فقد جاء على لسان هذه الملكة قولها كما حكاه القرآن الحكيم بعد مشاورتها مع الملأ من قومها فى أمر كتاب سليمان الذى يدعوها فيـه إلى الإسلام والتسليم : « قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون »[1] .

---

(١) سورة النمل آية ٣٤ .

كما جاء فى القرآن الكريم فى قصة طالوت على لسان نبيهم فى ذلك الوقت أن الله اصطفاه ملكا على بنى إسرائيل ، وزكاه بأن الله زاده عليهم بسطة فى العلم والجسم ، بعد ان اعترض ملأ بنى إسرائيل على إيتائه الملك ، لأنه لم يكن من ذوى الغنى والثراء فى المال ، وبنو إسرائيل قوم لا يقيمون وزناً إلا للمال ، فهو معيار الفضل عندهم ، ورد الله عليهم مبيناً أنه ليس من خصائص الملك واستحقاقه الغنى والثراء المالى ، لأن هذا خارج عن الصفات الإنسانية التى يكون بها الكمال الإنسانى ، وإنما خصائص الملك سلامة الأعضاء فى قوة البدن، وزكانة العقل فى قوة الفكر وسعة العلم بتجارب الحياة ليكون حاكم الأمة قديراً على القيام بواجباته فى جهاد أعداء الله وسياسة الأمة، وإقامة موازين العدل بينها .

قال الإمام القرطبى : وهذه الآية أصل فى صفة الإمام العام الذى يولى أمر الأمة . وفيها بيان أن الإمامة مستحقة بالعلم والدين ، والقوة على القيام بواجبات الحكم فى سياسة الأمة ، ولاحظ للنسب فيها .

وقال الإمام الرازى : وهذه الآية تدل على بطلان قول من يقول : إن الإمامة موروثة .

فالقرآن الحكيم عرض لأمر نظام الحكم فى شكل من شكو له فى موضعين من قصص من سبقنا ، بين فى أحدهما إن الملوك تستولى عليهم طبيعة التغلب والقهر ، وذلك لايخلو عن ظلم الناس وإذلال أشرافهم حتى لاينازعوهم استكبارهم فى الأرض، وبين فى ثانيهما أن إمامة الناس لاتلتزم الوراثة وإنما مرجع أمرها إلى الصلاح والقدرة على القيام بحق الحكم علما وعملا .

فالموضعان يتجاذبان أمر الحكم وولاية الأمر العامة بما فيها من صفات وخصال ، ويتفقان على أن نظام الحكم لايختص بشكل معين ، وإنما يدور

مع الصلاحية والعدل ، والقدرة على القيام بسياسة الأمة بما يقتضيه دستورها، وإقامة معالم جهادها أعداءها ،وصدق النظر فى تدبير أمورها،ووضع الأشياء فى مواضعها ، والشجاعة فى تنفيذ حدود الله وزواجره .

ففى أحد الموضعين تنفير وذم لهذا الشكل من نظام الحكم بهذا العنوان - كما فى قصة سبأ ولا سيما إذا جعل قوله تعالى : (وكذلك يفعلون) ستأنفاً لقصد إقرار ماجاء على لسان ملكة سبأ وهو رأى جمهور المفسرين .

وفى الموضع الآخر تسويغ لهذا الشكل من أشكال أنظمة الحكم ، وبيان لصلاحيته إذا استكمل شرائط الصلاحية ، والمذكور من هذه الشرائط فى القصة ، سلامة الأعضاء واستواء هيئتها التى يتحقق بها قوة البدن على احتمال المشاق ، ويتحقق بها شجاعة الملاقاة للأعداء ، وروعة الهيبة ، وهـــذا هو مايفيده وصفه ببسطة الجسم ، وكذلك ذكر من شرائط الصلاحية سعة العلم والمعرفة ، اللذين يلزمهما زكانة العقل وجودة التفكير ، وحسن التدبير ، وحكمة السياســـة وإعطاء الأحداث والوقائع حقها من النظر الصادق والتطبيق السليم .

وقد يلمح الباحث من سياق قصة طالوت أن العنوان جاء فيها بهذا الشكل من شكول الحكم لغير قصد إلى مدحه أو ذمه ، وإنما جاء تمشياً مع ما كان معروفاً فى بنى إسرائيل ، وهو الذى طلبوه من نبيهم كما حكاه القرآن الكريم عنهم فى قوله تعالى : « ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل فى سبيل الله »(١) فهم إنما طلبوا ما تعارفوه بينهم فى نظام حكمهم ، فكان طبيعياً أن يستجاب طلبهم بما عهدوه بينهم ، ولم يكن هناك مقتض لصرفهم عن متعارفهم من أنظمة الحكم إلى غيره .

---

(١) سورة البقرة ٢٤٦.

والقرآن الكريم ساق القصة فى هذا الإطار ، ولكنه عنى بما يجب العناية به لصالح الأمة ، وهو أن يكون حاكمها وقائدها قديراً على القيام بأعباء الحكم وسياسة الدولة سياسة تحقق العدالة ، وقوة تصريف الأمور فى السلم والحرب ، دون أن يكون للوراثة مدخل فى اختياره .

اسطورة الديمقراطية

تعم الأمم الإسلامية التى استقلت سياسياً فتنة الديمقراطية التى أغرموا بها وجعلوها عنواناً على حياة أوطانهم ، وطرة لأسماء دولهم .

فأية ديمقراطية هذه التى يتغنى بها إخوتنا فى الإسلام ؟

أهى ديمقراطية إنجلترا وقد جثمت على صدر عالمنا الإسلامى حتى كتمت أنفاسه ، وامتصت دماءه ونهبت ثرواته ، وتركته فريسة للفقر والمرض والجهل ، والتمزق الفكرى والسياسى والضياع الاجتماعى والتحلل الخلقى باسم الديمقراطية المتحضرة ؟

ثم إن إنجلترا لم تكد تشعر بانحسار سلطانها فى دنيا الاستعمار ، وبدأ نجمها يأفل كدولة يغطى استعمارها مشرق الشمس حتى عمدت ، وهى راحلة منحسرة ، إلى غرس أخبث نبتة إنسانية فى قلب وطننا الإسلامى : زرعت إسرائيل فى فلسطين ، وتعهدتها بالتنمية والتربية حتى اشتد عودها ، وتركتنا نعانى منها كل شر وفساد .

فقد استباحت إسرائيل فى ظل التدليل البريطانى حرمات الإسلام ، وشردت أبناءه من أوطانهم . وفتكت بشبابه . واحتلت أوطانه ، واغتصبت

أرضه . ودنست برجسها أولى قبلتيه . ومسرى نبينا محمد ﷺ ، ولا تزال تفسد . ولا نزال منها فى بلاء ؟

أم هى ديمقراطية مكمل الثالوث فى حربناسنة ١٩٥٦ ميلادية التى أصبحت فى تقلبات الرياح السياسية صديقة نسبح بحمدها ، وتاريخها معنا فى خداع الديمقراطية معروف مسطور ؟

أم هى ديمقراطية أمريكا وهى وكر المأساة الفلسطينية وحاضنة إسرائيل بعد أن سقطت أنياب الأسد البريطانى ، تمدها بجميع وسائل الحياة ، بالمال والسلاح بلا حدود . لتسفك به دماء الأبرياء فى أوطاننا ؟

أم هى ديمقراطية الرمـــوز الوثنية فى أشخاص الحكام الذين أقامهم الاستعمار الأوربى وقال عنهم إنهم يملكون ويحكمون مستبدين لا يسألون؟

شعوب تتضور جوعاً . وتتوارى عرياً . وتتهالك مرضاً ، وتتهافت جهلا ، وتتساقط إعياء وهى تكد وتكدح ، ويتولى حكمها من يملك ويحكم ولا يسأل عما يفعل ؟

وما قيمة هذه الديمقراطية التى تحيا فى خطب الفارغين من رواد متنزهات (هايد بارك) وتموت جنيناً فى القارة السوداء ؟ تموت فى روديسيا ، وجنوب أفريقيا ، وأرتريا ، وغينيا بيساو فى ظل الاستعمار الوحشى البرتغالى بتأييد أمريكا وإنجلترا ؟

وما قيمة هذه الديمقراطية التى تحيا فى واشنطن وتموت فى الهند الصينية ؟

وما قيمة هذه الديمقراطية التى يتمتع بخيراتها ذوو البشرة البيضاء ويحرم منها الأمريكيون السود ، وهم فى قلب وطنهم أمريكا المتحضرة الديمقراطية؟

هؤلاء الأمريكان السود محرم عليهم تحريماً قاطعاً ارتياد الأماكن العامة

كالمشارب والمطاعم والنوادى والمحافل ، ودخول الجامعات للتعلم ، والنزول فى الفنادق التى ينزل فيها مواطنوهم البيض ، لالذنب ارتكبوه سوى أنهم سود البشرة ؟

وما قيمة هذه الديمقراطية التى تقيم المذابح فى بلد لايؤمن أهله بها ؟

هذه ديمقراطية زائفة خادعة ، يجب علينا نحن الذين تجرعنا كأس علقمها أن نلعنها ونكفر بها ، ونلعن الحضارة التى تعتمد عليها ، هى ديمقراطية كاذبة خادعة ، يجب علينا أن نلقن أولادنا وحفدتنا لعنها والكفر بها .

أم هى ديمقراطية ماوراء السدود التى فتكت بملايين المسلمين فى أوطانهم التى كانت غرة فى جبين التاريخ الإسلامى ؟ هذه الديمقراطية التى تعيش فى خفاء الظلام وراء السهوب المجهولة .

الديمقراطية التى تهدد كرامة الإنسان ، وتعبث بمقدسات الشعوب وتنشر الفوضى أينما حلت وحيثما وجدت ،وتبث دعايتها المسمومة بالإلحاد، وتسمى الدين (أفيون الشعوب) .

إن المخدوعين من أبناء الشرق الإسلامى بهذه الديمقراطية الزائفة لايرون منها فى أوطانهم إلا بريقها الحضارى فى ألوان من المتعة المادية ،وأساليب من الحياة عقدت الانتفاع بها إلا على قلة من القادرين على أعبائها فى المدن وعواصم البلاد التى مهدها المستعمرون لملذاتهم وترفهم ، وبقى ماوراء ذلك على أسوأ أحوال الحياة وشظفها وقسوتها على الذين يعيشون تحت سمائها .

فإذا حاول دعاة الإصلاح من رجالات الإسلام لفت نظر المخدوعين إلى سوءات هذه الديمقراطية فى تاريخها معنا وتاريخنا معها هبوا فى وجوههم بأنهم أعداء الحرية والتقدم ، ومتعة الحياة ، ودعاة الرجعية والتأخر والعود بالأمم إلى القرون المظلمة .

فإذا قيل لهم : أى تقدم سمحت لنا به هذه الديمقراطية الغربية سوى الانطلاق من عواصم الفضيلة والأخلاق الكريمة ؟

إن هذه الديمقراطية أطلقت فينا المارد الشهوى المتعطش نخرج فى وحشية يحطم روحانيتنا الدينية، ويفتك بتقاليدنا حتى تركنا أشباحاً تحيا كما تحيا قطعان الحيوانات التى لا تعرف صلة بالسماء .

لقد كانت هذه الديمقراطية بارعة فى تصوير متعها ومظاهر روائها وما أقامته لنفسها من معالم زاهية فى الجوانب المادية الخالصة ، مما جعل السذج من أبناء هذا الشرق يفتنون بها ، ويدافعون عنها .

نعم قد يكون من الشطط البالغ أن ننكر ما قدمته وتقدمه هذه الديمقراطيات من تقدم علمى حول حياة الإنسانية إلى حياة متوثبة، مليئة بالمفاجآت الفكرية والوثبات العقلية ، والتقدم الحضارى والكشوف الكونية ، والاختراعات الصناعية التى لم تكن تدور فى خلد البشرية ، ولا كانت تمر بأحلامها وآمالها .

ولكن السؤال الذى نقدمه إلى أبناء الشرق الإسلامى هو : ما الذى أفدنا نحن فى شرقنا من هذا التقدم العلمى والمفاجآت الفكرية والوثبات العقلية ؟ وما حظنا الذى نملكه ملكاً استقلالياً من هذا التقدم العلمى الحضارى الذى كان أعظم أثر من آثار هذه الديمقراطيات فى أوطانها وبين أهلها .

هل استطعنا أن نملك شيئاً من هذه القوة العلمية الهائلة التى تسوق العالم بسياطها ؟ هل استطعنا أن نسهم بشىء من النظريات العلمية التى قامت وتقوم عليها الاختراعات الصناعية حربية أو غير حربية ؟

إن كل ما سمحت وتسمح به حضارة الغرب فى قارتيه، وحضارة منافسيهم

عن يجثمون وراء السدود الحديدية أن نستورد مالايحتاج إليه صانعوه ، من بقايا فتات موائدهم قبل أن يتخلصوا منه بإلقائه في قاع المحيطات ،لأن الحياة عندهم أصبحت فى غنية عنه ، ولا تريده .

وهذا هو ما يملأ أدمغة المخدوعين عندنا ، يتحدثون به فى بيان تقدمنا حضارياً وعلمياً .

إننا يجب أن نفرق بين الحضارة الفكرية والتقدم العلمى — الذى يسعد الحياة ويذيقها لذة التنعم بنعم الله فى الكون ، تلك النعم التى سخرها الله للإنسان ،ليفيد منها فى معرفة جلال الله تعالى،خالق الكون ومبدع عناصره — وبين التقدم العلمى الذى أفقد الإنسانية أمنها وسلامها ، واستقرارها وأورثها القلق والفتن والاضطراب ، وملأ قلوبها خوفاً وذعراً ،وحول أحلامها رعباً وفزعاً، وآمالها آلاماً وعذاباً ، وأشاع بين الأمم والشعوب الأحقاد والضغائن والحروب المدمرة .

إننا يجب أن نفرق بين الحضارة الفكرية والتقدم العلمى الذى نملك منه ملكاً استقلالياً يحررنا من عبودية التقليد ،ولم الفتات المتبقى تحت موائد أولئك المتحضرين الديمقراطيين — وبين التقدم العلمى الذى يستأثر به الديمقراطيون المتحضرون ،ليبسطوا بسلطانه أيديهم على شعوب العالم استعباداً لها ، ليستغلوا خيراتها وخيرات أوطانها .

العلم حق مشاع لجميع أمم العالم وشعوبه ، وافراده وجماعاته ، لاتختص به أمة ولا شعب ولا دولة ،يأخذه صاحب القدرة على فهمه وتطويعه للتجارب العملية من أى مكان وجده فيه ، ومن أى جيل وجده عنده .

كذلك عرف المسلمون العلم ، فأخذوا منه ، وأعطوا ، فلم يقصروا ولم

يضنوا ، فما بالنا اليوم قصرنا وقنعنا بالفتات المادى للمتعة ؟ وما بال غيرنا — وقد أعطيناه وأخذ منا — يضن علينا ويمنعنا حقاً لنا فى الحياة ؟

لست أدرى هل طلبنا حقنا من العلم جادين قادرين فنعنا ؟ أو أننا زهدنا فلم نطلب؟ أو عجزنا فلم نستطع ؟أو شغلنا بما قدمته لنا الحضارة الديمقراطية من متع ولذائذ فلم نفرغ لطلب العلم الجاد من معارف الكون ومظاهر الطبيعة ؟

إننا يجب أن نفرق بين حضارة ديمقراطية تجعل من العلم مجالا إنسانياً يفيد منه كل قادر ، وبين ديمقراطية سياسية اجتماعية تدخل على الناس فتفقدهم حرياتهم ، وتتسلط بقوة العلم عليهم لتسلبهم ثمار كدهم وكدحهم ، وتحول بينهم وبين أن يعيشوا اكراماً على أنفسهم فى أوطانهم .

إن اتصالنا بحضارة أوربة وديمقراطيتها ونهضتها الفكرية أكبر عمراً فى مقياس الزمن من عمر الثورة الشيوعية فى دولتيها وشعوبهما ،وعندنا جامعات علمية ، أقمناها على أساس الحرية الفكرية والدراسة الجامعية ، وكانت هذه الجامعات هى الصلة الفكرية بيننا وبين حضارة أوربة ،فهل يمكن لمخدوع من أبناء الشرق الإسلامى أن يعقد موازنة بين حالتنا — مهما بلغنا من مظاهر الحضارة المتعية — وبين التقدم الفكرى الوثاب ،والنهضة العلمية (الطفرية) فى دولتى الشيوعية وشعوبهما ؟

ولنترك أمريكا فى ضخامة رقعتها على الأرض وباهظ ثرواتها ،ولندخل فى إمكان الموازنة بديلا عنها ربيبتها (إسرائيل) على قصر عمرها .

فلماذا برعوا وخمدنا ؟ ولماذا تقدموا وتأخرنا ؟ ولماذا صنعوا المعجزات العلمية وتجاربها واكتفينا نحن بصنع الخرافات والأساطير ؟ وما الذى

قدمته جامعاتنا ومراكز بحوثنا من تقدم علمى فى مجال البحث التجريبى ، وعلوم الطبيعة ودراسة الكون ؟ .

الحضارة المنقذة

إن العالم يتطلع من نوافذ التاريخ إلى حضارة تنقذه من ويلات الخوف والرعب والخواء الخلق ودنس الضمير ، وتعيد إليه الطمأنينة والسكينة وتمحو من قلوب الشعوب والأمم دفائن الأحقاد والأضغان ، وترد إليها الألفة والمحبة والإخاء وطهارة الضمير وصفاء الوجدان .

فأين يجد العالم تلك الحضارة التى تحقق له هذه الأحلام بعد هذه التجارب القاسية المريرة ؟

إنه لم يجدها ولن يجدها فى ديمقراطية أوربة الفاشلة ، ولم يجدها ولن يجدها فى الشيوعية الملحدة الطاغية الهادمة لأمجاد الإنسانية ومقوماتها الطبيعية ولم يجدها ولن يجدها فى علم أمريكا وصواريخها المدمرة ، ورؤوس أموالها الفاجرة ، ولكنه إذا أرادها فإنه يجدها فى ظل الإيمان بالله تعالى إيماناً يطهر البشرية من رجس الأنانية والأثرة ، وتقديس المادة العمياء .

إيماناً لا يخدع ولا يخدع ، إيماناً صريحاً واضحاً لا يسمى الأشياء بغير أسمائها ، فلا يسمى الإلحاد فى آيات الله حرية ، ولا يسمى الدعارة مدنية ، ولا يسمى الفسوق عن جادة الأدب حضارة .

إيماناً يرفع النفس الإنسانية إلى آفاق علوية تجعل من الضمير الإنسانى حارساً يقظاً على سلوك الأفراد والجماعات ، يراقبهم فى داخل مخدعهم وخارج بيوتهم ، ويكون معهم أينما كانوا .

إن الغرب بقارتيه القديمة والجديدة قد أقفر من الروحانية السامية إقفاراً أفقده الإيمان بالله وأعبده للمادة البليدة ، فلم يعد فى حضارته أمل إلا لعبيد الشهوات الجسدية التافهة ، ولم يعد فيها متسع إلا لرواد الحروب والمتعطشين للدماء .

وإن منافسى الغرب من وراء السد الحديدى فى منابع الشيوعية لم يكن لهم قط رصيد من الروحانية حتى يمكن جعلهم فى كفة الميزان الأخرى أمام الغرب المتحلل ، فينظر إن كان فيهم وفى مبادئهم الهدامة الضالة أمل للإنسانية ، فهم أشد عداوة للأخلاق والفضيلة ، وهم أحفل بالإباحية من الغرب المتحلل وهم أكفر بالدين وشرائعه من هذا الغرب الخادع المخدوع .

فماذا بقى للإنسانية من أمل ؟ وإلى أين تتجه هذه الإنسانية البائسة ، المسكينة ؟ .

الواقع أن كثيراً من اليأس الكظيم قد تسرب إلى كثير من القلوب ، ولا سيما قلوب الذين لم يشعروا بحرارة الإيمان بالله ، وبرد اليقين برحمته وحكمته وبقيت القلة الصابرة المصابرة والمنتشرة فى هذا الجانب من الأرض — بين غمرة سبعمائة مليون من المسلمين أو يزيدون ولكنهم كغثاء السيل — لم تفقد الأمل فى رحمة الله وحكمته ، لأنها مؤمنة ، والإيمان بالله وحده هو القوة القاهرة التى اعتمد عليها الإسلام قديماً فى قهر المادية الغربية ممثلة فى حضارة الرومان المتهالكة ، وفى القضاء على الشيوعية الشرقية ممثلة فى الزندقة الفارسية والإباحية المزدكية المارقة .

وها هو ذا التاريخ يعيد نفسه ، ويستدير الزمان كهيئته يوم أن وقف الإسلام أمام هاتين القوتين بكثرة عددهما ، وعظيم عددهما وضخامة وجودهما المادى ، بقوة إيمانه ، فيقف اليوم من حضارة الغرب بقارتيه ، ومن

شيوعية السد الحديدى بدولتيه موقفه التاريخى من أسلافهما ، وقد بدأت الغشاوات السياسية تنكشف عن أعين الشعوب الشرقية بفضل مابينها من تقارب فى الآمال والآلام ، وبدأت حمى الديمقراطية الغربية الزائفة تنقشع عن المخدوعين من زعماء الشرق ومحترفى سياسته ، وبدأت الشعوب تصحح وضعها وتملى على زعمائها كتاب سياستها وظهرت فى الوجود السياسى كتلة شرقية قوية خالصة من بعض الدول الآسيوية والأفريقية التى تجمعها وحدة الآلام والآمال ، وبدأت تتبلور فكرة تكتل الشعوب الإسلامية لتكون وحدة فى الهدف والاتجاه ، وبدأ الفزع يأخذ على أعداء الإسلام وأذناب الاستعمار فى الداخل والخارج مشاعرهم وأحاسيسهم ، فشرعوا أقلامهم المحطمة لتدافع عن الديمقراطية المحتضرة وتسند الاستعمار المنهار .

إن أعداء الإسلام يخشون أن يتم الاتصال السياسى والاقتصادى والاجتماعى بين مجموعة الأمم الإسلامية فى ظل الإيمان بوحدة الوطن الإسلامى ، وعندئذ تحقق فى يسر وسهولة فكرة الحكم الإسلامى الذى لايقصد به ـ بداءة ـ وحدة الحكومة والدولة لجميع الأوطان الإسلامية وإنما يقصد به ـ أول مايقصد ـ نوع من التقارب والتواصل الذى يتيح فرص الدراسة لظروف كل دولة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً ، ويتيح تبادل الأفكار والآراء ويتيح القيام ببعض التجارب العملية فى تطبيق بعض الأفكار وترجمتها واقعياً فى الحياة الإسلامية .

الإسلام دين ودولة

إن الإسلام فى حقيقته العليا الشاملة (دين ودولة) لجانبه الدينى يتمثل فى جملة تشريعاته وأصوله باعتبارها الموجه للحياة العامة، وحياة الأفراد وعلاقتهم بخالقهم أداء لحق التعبد لجلاله ، وعلاقتهم بغيرهم من الأفراد والجماعات .

وهذا الجانب الدينى فى الإسلام يرمى إلى تهذيب النفس الإنسانية وتربية الوجدان ، وتلطيف حدة الغرائز ، وكف جموحها ، حتى يكون الفرد بشعوره الذاتى عضواً فى أسرة متكافلة تكافلا تعاونياً ، يمزج أفراد الأمة وجماعاتها مزجاً لايتميز فيها الفقير بفقره ، ولاالعاجز بعجزه ؛ لأن مواساة الغنى فى تكافله مع الفقير تجعلهما أخوين فى الحقوق والواجبات ، ولأن معاونة القادر فى تكافله مع العاجز تجعلهما شريكين فى واجبات الحياة . مزجاً يوحد آلامهما وآمالهما بإحساس ينبع من وشائج الإخاء الإيمانى الذى يوحد بين مشاعر المتآخيين . لاعن طريق القانون بسيفه المصلت على الأعناق ، ولا عن طريق مجرد الرغبة فى الثواب أو الرهبة من العقاب ، ولكن عن طريق تربية الوازع الداخلى فى ضمير الإنسان ، كأثر من آثار التعبد لله تعالى ، ومراقبة جلاله وعرفان فضله ، وتقدير نعمه وإعظامها ، والتشارك فى الأخوة الإنسانية بروح التقارب الرحمى الذى يربط الإنسانية كلها برباط وحدة المنبع الأصيل .

وهذا هو معنى قول النبى ﷺ : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) ، وقوله ﷺ : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا

اشتكى منه عضـو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهـر) وقوله ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه) .

والناظر فى التشريع الإسلامى من جانبـه الدينى . يجد ذلك جلياً فى نصوص القرآن والسنة النبوية .

فهو واجده فى العقيدة الموحدة التى تشد الإنسان إلى معرفة ربه وخالقه ، والتى تجمع بين مشاعر الإيمان عند كافة المؤمنين .

وهو واجده فى جميع ماتعبد الله به عباده . فى الصلاة والصيام . والحج . والزكاة ونظام الأسرة ،فى حقوق الزوجين ، حق كل منهما على الآخر، وفى حقوق الوالدين على أولادهما — وفى حقوق الأولاد على والديهما ، فى التربية وإحسان الأدب ، وفى حقوق الإخوة والاخوات وسائر القرابات.

وهو واجـده فى أحكام البيع والشراء ، والإجارة والقراض وسائر المعاملات التى تتعلق بتبادل المصالح ، وفى الحدود والزواجر ، وأحـكام القضاء والشهادة .

وهو واجده بصورة بارعة وأسلوب رائع فى أبواب البر والإحسان . والترغيب فى المواساة بالصدقة الكريمة،وفى أحكام الوقف والهبة والوصية، وفى أحكام المواريث التى تقصد إلى تفتيت الثروة فى أيدى ذوى القرابة الخاصة ، حتى لا يكون المـال سيفاً مصلتاً ، تستذل به النفوس الـكريمة .

وهذا الجانب من جانبى الإسلام باعتباره (ديناً) قد استقرت أسسه وكمل بنيانه على قواعده التشريعية الثابتة التى لا تتغير بتغير الزمن والمـكان والأشخاص والأشياء ، وهو المعنى بقوله تعالى : « اليوم أكملت لـكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لـكم الإسلام دينا » (١) أى أكملته بإنزال

---

(١) سورة المائدة آية ٣ .

قوانينه وتشريعاته التى تكفل نظام الحياة للفرد والجماعة والأمة فلا يحتاجون معه إلى غيره من القوانين والأحكام .

وليس لأحد كائناً من كان بعد انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وانقطاع الوحى أن يزيد على هذه الأصول والقواعد ، وليس لأحد كائناً من كان أن ينقص شيئاً منها .

بيد أن الإسلام ترك الحرية المطلقة لأهل العلم أن يستنبطوا، بل أوجب عليهم أن يستنبطوا للحوادث الجزئية المتجددة أحكامها الملائمة فى ظل الأصول والقواعد التى نزل بها دستور الإسلام، حتى لا تصادم أحكام الاجتهاد أصلا من الأصول الثابتة بالنص، وبهذا ضمن الإسلام لشريعته الخلود والشمول، مسايرة الأزمان والأعصر والأماكن ، وتحقيق مصالح العباد .

ومن هنا كانت الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع السماوية. وكان دستورها القرآن العظيم خاتم الكتب الإلهية المنزلة بتكامل الأنظمة الدينية . فلا كتاب بعده ينزل من السماء إلى الأرض ، ومن هنا كان نبينا نبى الإسلام ﷺ خاتم النبيين ، فلا نبى بعده .

وأما الجانب الثانى من جانبى الإسلام باعتباره (دولة) فهو الجانب العملى النظامى الذى يقوم على تنظيم الأوضاع لسلطات التنفيذ لتشريعات الإسلام وقواعده العملية التى جاء بها .

وهذا الجانب مرتبط أشد الارتباط بالجانب الأول ، بل هما ممتزجان امتزاجاً يكون حقيقة الإسلام الشاملة الكاملة .

ومن الجانب الثانى تنبع النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وقد عرض الإسلام فى نظامه العملى لهذا كله فى نصوص دستوره

الأساسى ، القرآن العظيم وجاءت السنة النبويةمفصلة لما أجمله ، وجاء الفقه التشريعى شارحاً لما أشكل منه .

فى الجانب السياسى بين قواعد إقامة حكومة عادلة ، تحمل مسئوليتها كاملة عن جميع الأوضاع السياسية فى الداخل والخارج ، وبين حقوق الراعى على رعيته ، وحقوق الرعية على راعيها وبين ما يجب من علاقات الأمة مع الأمم الأخرى فى حالتى السلم والحرب .

وفى الجانب الاجتماعى بين الدعائم التى تقوم عليها روابط المجتمع ، وحقوق الأفراد قبل بعضهم على أساس مسئولية الحاكم عن تنظيم تلك الروابط ، وجعل ميزان العدل هو العامل الحتمى فى سلامة النظام الاجتماعى ، ثم أبرز عامل الرحمة والمواساة بالفضل إحسانا ، ليكون وراء العدل تشريعاً ، وقائده تطبيقاً .

وفى الجانب الاقتصادى بين مصادر الثروة ومواردها ، فى الزراعة ، والتجارة ، والصناعة واستخراج كنوز الأرض ومعادنها وخيراتها بيد أبناء لأمة وسواعدها وعرقها ، مع الحذر من لصوص السياسة الاقتصادية الذين يدخلون من الباب الخلفى فى صورة شركات مساهمة .

والإسلام وضع للأمة قواعد تأسيس شركات منوعة الأعمال ، ووضع لها أبواب القراض والمضاربة مما يمكن أن يحل كثيراً من مشاكل البنوك والمصارف الربوية لو وجد توجيهاً صالحاً صبوراً متحركاً .

ومن مصادر الاقتصاد الإسلامى غنائم الحرب ، وتشريع الزكوات ، وضرب الخراج على الأرض الزراعية ، وفرض ضرائب الضرورة الاجتماعية لتنمية حركة الإصلاح وإقامة المنشآت العمرانية للتعليم ، والتعبد وحفظ الصحة وعلاج الأمراض وقد حدد الإسلام الأصول السليمة لمصارف

ميزانية الدولة ، وبين مسئولية كل من له صلة بشيء منها ، ومحاكمة من يعتدى على أموال الأمـــة بالاختلاس والغصب ، والرشوة ، أو التبديد ، أو الإهمال .

وبين الإسلام الأسباب الصحيحة للملكية الأفراد والهيئات لأى نوع من أنواع المـال ، حتى تكون هذه الملكية سليمة نظيفة ، لايتعلق بها حق للأمة أو للأفراد أو الهيئات العاملة ، وبين حق الإمام العام فى محاسبة الذين تظهر لهم ثروات مفاجئة ، لاتتناسب مع أعمالهم وطرق مكاسبهم ، وهكذا مما بينته كتب الفقه العملى ، وكتب السياسة الشرعية .

لقد شبعت الأمم الإسلامية من التجارب الديمقراطية غربية وشرقية ، حتى أتخمت وكلما ازدادت إمعانا فى التمسك بهذه الديمقراطيات ازدادت ،شا كلها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وازدادت معها صفعات هذه الديمقراطيات لها .

وتاريخنا مع هذه الديمقراطيات بحضارتها المادية أقرب وأصدق شاهد .

ومع ذلك فلم تحاول أمة من هذه الأمم الإسلامية أن تتحرر من هذه العبودية ، وتوجه وجهها شطر الإسلام لتبدأ تجربة جديدة ، تعتمد على نظامه التربوى فى التعليم بمراحله كلها .

وعلى نظامه الاجتماعى فى تحقيق عدالته الاجتماعية . وتكافله التعاونى، وترابطه الأخوى .

وعلى نظامة السياسى فى إقامة علاقاتها وحل مشاكلها .

وعلى نظامه الاقتصادى فى استثمار موارده المـالية وتنمية ثرواته ، وفى تعميم نظام الشركات المساهمة بأنواعها المختلفة التى تغطى حاجة الأمة فى التجارة والصناعة . واستقلالها فى التصرف بثرواتها ، واستخراج

كنوزها ، وتسويق محاصيلها واستغلال أبواب القراض والمضاربة من الفقه الإسلامى فى التكافل العملى الذى يحرك العاملين الأقوياء إلى العمل المثمر الذى يشعر كل عامل أنه مالك ، يعمل لنفسه بجهده ، ويكد ليكسب ويتعاون مع غيره على الكسب الشريف .

ودراسة نظرية القرآن الكريم فى المال — وصفة جولان أيدى من فى أيديهم المال من الأثرياء ، ومعنى ملكيتهم الفردية لهذا المال مع قول الله تعالى : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »[1] وبيان معنى أن الله تعالى جعل المال قياماً للأمة ، وإضافته إلى المجتمع الإسلامى فى قوله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما »[2] وإحياء مبدأ : (من أين لك هذا ؟) الذى طبقه عمر بن الخطاب على كبار القادة والولاة من عظماء الصحابة وقاسمهم أموالهم لبيت مال المسلمين ، ومنهم ابنه عبد الله بن عمر ، ودراسة «وقف عمر بن عبد العزيز من أموال أسرته المالكة وعمله فى أموال خاصة أهله ، وغير ذلك من نماذج تطبيق المبادىء الإسلامية عند من فهمها فهماً أصيلا ، لا يحمل عنوانات مستعارة لخداع الأمة وتملق الآخرين — كل ذلك كفيل بوضع سياسة مالية وتخطيط اقتصادى إسلامى يحقق العدالة وينهض بالأمة ، ويحفظ لها ثرواتها .

ولا يعقل أن يقول أحد من المصلحين الإسلاميين أن تكون التجربة الإسلامية طفرة تهدم صرح الاقتصاد القائم مرة واحدة بجرة قلم ، وتتنكر فى كلمة واحدة لعلاقات الأمة الإسلامية بغيرها من الدول والأمم ، ولكن هؤلاء المصلحين يريدون أن تبدأ الأمة الإسلامية تجربتها الإسلامية فى تدرج يحمل عنوان العمل الجاد بإيمان صادق فى تصحيح الأوضاع القائمة فى أوطان

---

(١) سورة الحديد آية ٧ . (٢) سورة النساء آية ٥ .

الإسلام ، ليعلم الجيل الناشىء أن لدينا ذخيرة إنسانية يمكن أن تكون مصدر تقدم حضارى ، ينبع من تاريخنا وتراثنا ، وقدرتنا على النهوض .

والدعوة إلى اتجاه الأمة إلى تجربة إسلامية ليس معناه أن تغمض أعينها وتسد آذانها عن العلم والمعرفة فى أى أفق عالمى ترى منه شعاع ضوئهما ، والعلم والمعرفة لا وطن لهما ولا عنصرية تملكهما .

وإنما المشكلة الكبرى تكمن فى : هل تسمح لها الأمم التى تستأثر بآثار العلم التجريبي ونظرياته ، وتستحوذ على عوامل المعرفة ، ووسائل دراسة مظاهر الطبيعة فى عناصر الكون ، بأن تعطيها الفرصة لتتعلم وتعلم ، وتتركها تأخذ من هذا العلم مايحقق آمالها ؟

لقد كانت لهذه الأمم المستأثرة بالعلم والمعرفة سوابق مع الأمم الإسلامية فى تاريخها القريب لاتشجع على الأمل ، فقد كان خبراؤها الفنيون يجوسون خلال الأوطان الإسلامية وبأيديهم مفاتيح العمل فى مصانعها ومعاملها ، وكثير منهم بحكم تخصصه الفنى كان يحتل المكان الأول فى جامعاتها العلمية ، فماذا أفادت منهم ؟ وما الذى أعطوه لها من علمهم التجريبى فى صناعة الحرب ؟ لاشىء ولكننا لاننكر أن بعض الأمم الإسلامية أفادت من العلوم النظرية والعلوم الطبية ، وبعض الفنون الأدبية .

ولا ينبغى للأمة الإسلامية وهى تحاول تجربة فكرية إسلامية تصحح بها أوضاعاً برهنت التجارب الكثيرة على عقمها فى حياتنا العلمية أن يقعدها اليأس عن العمل ، فلتعمل متعاونة ولتبذل أقصى ماتستطيع من طاقات ، ولتحاول فى تجربتها أخذ ما تستطيع من أى أفق يشرق منه نور العلم ، ولتتذرع بالصبر الكريم الذى يعينها على تحمل المشاق فى سبيل الأمل الكبير ، وهى لابد

واصلة إلى غايتها وأهدافها مادامت معتصمة بإيمانها بربها وإسلامها وشخصيتها وحرية أوطانها .

فإذا طالب المخلصون من دعاة الإصلاح فى الأمم الإسلامية أن تحكم هذه الأمم حكماً إسلامياً يوائم طبيعتها وتاريخها ، فهم لا يطلبون أن تشكل حكومات من العلماء الدينيين ، وهم يحملون على رءوسهم العمائم ، وفى أيديهم المسبحات ، ليديروا بعلمهم الدينى شئون الدولة فى نظامها الداخلى والخارجى ، وإنما يطالبون بتطبيق حقيقة الإسلام العملية فى واقع الحياة باعتباره النظام الشامل (ديناً ودولة) وأن تقوم على هذا التطبيق طائفة من الأمة من ذوى الاختصاص الفكرى والمعرفة بحقائق الإسلام فى شريعته ، ترعى الله فى عملها ، وتنهض بالأمة فترفعها إلى مصاف الأمم الحية فى العلم والقوة المادية والأدبية على أساس من القيم الروحية والأخلاق الفاضلة .

وقد كان العلماء الحقيقيون يطلبون لكراسى الحكم والقضاء ، فيفرون منها خشية أن يتخذهم الحاكمون وسيلة لخداع الشعوب وتغرير الأمة باسم الدين ، وكان هؤلاء العلماء الصادقون مع الله أبعد الناس عن التلمظ للدنيا ، وأبعد الناس عن ذوى السلطان والحكم فى الدولة ، خشية أن يكونوا شركاء لهم فيما عسى أن يقع منهم من ظلم للرعية وفساد فى السلوك ، ولكنهم كانوا إذا رأوا حقاً مضاعاً ، أو باطلا رافع الرأس أو ظلماً واقعاً ، أو عدلا متروكاً انتفضوا وتهيئوا للنصيحة والموت معاً ، كما وصفهم الله تعالى بقوله عز شأنه : « يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم »[1] .

---

(١) سورة المائدة آية ٥٤ .

نماذج فاضلة للتربية الاسلامية

(أ) أبو حازم وسليمان بن عبد الملك :

روى الدرامى فى مسنده عن الضحاك بن موسى قال : مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة وهو يريد مكة ، فأقام بها أياما ، فقال : هل بالمدينة أحد أدرك أحـداً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا له : أبو حازم . فأرسل إليه فلما دخل عليه قال له : يا أبا حازم ما هذا الجفـاء ؟

قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين وأى جفاء رأيت منى ؟

قال سليمان : أتانى وجوه أهل المدينة ولم تأتنى .

قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول مالم يكن ماعرفتنى قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك .

فالتفت سليمان إلى محمد بن شهاب الزهرى فقال : أصاب الشيخ وأخطأت .

قال سليمان : يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟

قال أبو حازم: لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب .

قال : أصبت يا أبا حازم ، فكيف القدوم غداً على الله تعالى ؟

قال : أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه .

فبكى سليمان وقال : ليت شعرى ما لنا عند الله ؟

قال أبو حازم : اعرض عملك على كتاب الله .

قال سليمان : وأى مكان أجده ؟

قال : « إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم » .

قال سليمان : فأين رحمة الله يا أبا حازم ؟

قال : رحمة الله قريب من المحسنين .

قال سليمان : يا أبا حازم فأى عباد الله أكرم ؟

قال : أولو المروءة والنهى .

قال سليمان : فأى الأعمال أفضل ؟

قال أبو حازم : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم .

قال سليمان : فأى الدعاء أسمع ؟

قال : دعاء المحسن إليه للمحسن .

فقال سليمان : أى الصدقة أفضل ؟

قال أبو حازم : للسائل البائس وجهد المقل ، ليس فيها منٌّ ولا أذى .

قال سليمان : فأى القول أعدل ؟

قال أبو حازم : قول الحق عند من تخافه أو ترجوه .

قال سليمان : فأى المؤمنين أكيس ؟

قال أبو حازم : رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها .

قال سليمان : فأى المؤمنين أحمق ؟

قال أبو حازم : رجل انحط فى هوى أخيه وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره .

قال له سليمان : أصبت ، فما تقول فيما نحن فيه ؟

قال : يا أمير المؤمنين أو تعفينى ؟

قال له سليمان : لا ، ولكن نصيحة تلقيها إلى .

قال أبو حازم : إن آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضاهم حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فقد ارتحلوا عنها ، فلو شعرت ما قالوه وما قيل لهم ؟

فقال له رجل من جلسائه : بئس ما قلت يا أبا حازم[1] :

قال أبو حازم : كذبت ، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

قال له سليمان : فكيف لنا أن نصلح ؟

قال : تدعون الصلف ، وتمسكون بالمروة وتقسمون بالسوية .

قال له سليمان : فكيف لنا بالمأخذ به ؟

قال أبو حازم : تأخذه من حله وتضعه فى أهله .

---

(١) ليتأمل القارئ ملق النفاق ، ثم ينظر بعده إلى إخلاص الإيمان ، وهكذا الفرق بين العلماء بالله وبين المنافقين فى دين الله .

قال له سليمان : هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك ؟

قال أبو حازم : أعوذ بالله !

قال له سليمان : ولم ذاك ؟

قال أبو حازم : أخشى أن أركن إليكم شيئاً قليلا ، فيذيقنى الله ضعف الحياة وضعف الممات .

قال له سليمان : ارفع إلينا حوائجك .

قال أبو حازم : تنجينى من النار وتدخلنى الجنة .

قال سليمان : ليس ذاك إلى .

قال له أبو حازم : فما لى إليك حاجة غيرها .

قال سليمان : فادع لى .

قال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة ، وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى .

قال له سليمان : قط .

قال أبو جازم : قد أوجزت وأكثرت إن كنت من أهله ، وإن لم تكن من اهله فما ينبغى أن أرمى عن قوس ليس لها وتر .

قال له سليمان : أوصنى ، قال : سأوصيك وأوجز ، عظم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك .

قال الراوى : فلما خرج أبو حازم من عند سليمان بعث إليه بمائة دينار وكتب إليه : أن أنفقها ولك عندى مثلها كثير ، فردها عليه أبو حازم

وكتب إليه : يا أمير المؤمنين ، أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياى هزلا ، أو ردى عليك بذلا ، وما أرضاها لك ، فكيف أرضاها لنفسى ؟ .

ثم ساق أبو حازم فى كتابه إلى سليمان قصة موسى عليه السلام مع بنتى الرجل الصالح وقد سقى لهما غنمهما ، ثم التجأ إلى الله تعالى بقوله : « رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير »[1] فسأل ربه ولم يسأل الناس ، ثم قال أبو حازم : فإن كانت هذه المائة دينار عوضاً لما حدثت فالميتة والدم ولحم الخنزير فى حال الاضطرار أحل من هذه ، وإن كان لحق فى بيت المال فلى فيها نظراء ، فإن ساويت بيننا وإلا فليس لى فيها حاجة .

(ب) شريك بن عبد الله والأمير موسى بن عيسى :

يروى صاحب العقد الفريد أن امرأة أتت يوماً القاضى شريك ابن عبد الله قاضى الكوفة ، وهو فى مجلس الحكم ، فقالت : أنا بالله ثم بالقاضى : قال : من ظلمك ؟ قالت : الأمير موسى بن عيسى ابن عم أمير المؤمنين ، كان لى بستان على شاطىء الفرات ، فيه نخل ورثته عن أبى وقاسمت إخوتى . وبنيت بينى وبينهم حائطاً وجعلت فيه رجلا فارسياً ، يحفظ النخل ويقوم به ، فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتى ، وساومنى ورغبنى ، فلم أبعه ، فلما كان هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام ، وفاعل ، فاقتلعوا الحائط وأصبحت لا أعرف من نخلى شيئاً ، اختلط بنخل إخوتى .

---

(١) سورة القصص آية ٢٤ .

فقال القاضى شريك : يا غلام أحضر الطينة — أى لوضع الخاتم — فأحضرها فختمها وقال للمرأة : امض إلى بابه بالختم حتى يحضر معك ، فجاءت المرأة بالطينة المختومة ، فأخذها الحاجب ، ودخل على موسى ابن عيسى ، فقال : قد أعدى القاضى عليك ، وهذا ختمه .

فقال الأمير : ادع لى صاحب الشرطة ، فدعا به ، فقال له : امض إلى شريك ، وقل له : يا سبحان الله ما رأيت أعجب من أمرك ، امرأة ادعت دعوى لم تصح ، أعديتها على ؟

قال صاحب الشرطة : إن رأى الأمير أن يعفينى من ذلك ؟

فقال : امض ، ويلك

فخرج صاحب الشرطة وقال لغلمانه اذهبوا وأدخلوا لى إلى حبس القاضى بساطاً وفراشاً ، وما تدعو الحاجة إليه ، ثم مضى إلى شريك فلما وقف بين يديه أدى الرسالة .

فقال القاضى لغلام المجلس : خذ بيده فضعه فى الحبس ، فقال صاحب الشرطة : والله لقد علمت أنك تحبسنى ، فقدمت ما أحتاج إليه إلى الحبس .

وبلغ الأمير موسى الخبر ، فوجه الحاجب إليه ، وقال له : رسول أدى الرسالة ، أى شيء عليه ؟

فقال شريك اذهبوا به إلى رفيقه ، إلى الحبس فحبس الحاجب مع صاحب الشرطة ، فلما صلى الأمير موسى العصر بعث إلى إسحاق ابن الصباح الأشعثى وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضى شريك وقال لهم : امضوا إلى القاضى . وأبلغوه السلام ، وأعلموه

أنه استخف بى ، وأنى لست كالعامة فضوا إليه وهو جالس فى مسجده بعد صلاة العصر ، فأبلغوه الرسالة ، فلما انقضى كلامهم قال لهم القاضى : مالى أراكم جئتمونى فى غثرة(1) من الناس فكلمتونى ؟

من ههنا من فتيان الحى . فأجابه جماعة من فتيان الحى ، فقال : ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس .

ما أنتم إلا فتنة ، وجزاؤكم الحبس ، قالوا : أجاد أنت ؟ قال : حقاً حتى لا تعودوا برسالة ظلم ، فحبسهم .

فركب موسى بن عيسى فى الليل إلى باب السجن وفتح الباب وأخرجهم كلهم .

فلما كان الغد وجلس شريك للقضاء جاءه السجان فأخبره .

فدعا بالقمطر فختمه ووجه به إلى منزله ، وقال لغلامه الحق بثقلى إلى بغداد ، والله ما طلبنا هذا الأمر منهم ولكنهم أكرهونا عليه ، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذ تقلدناه لهم .

ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد ، وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى ، فركب فى موكبه ولحقه وجعل يناشده الله ، ويقول : يا أبا عبد الله تثبت . انظر اخوانك تحبسهم . دع أعوانى .

قال : نعم ، لأنهم مشوا لك فى أمر لم يجز لهم المشى فيه ولست بارح أو يردوا جميعاً إلى الحبس ، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدى فأستعفيه مما قلدنى .

---

(1) الغثرة بالتحريك الجماعة المختلطة من الناس فيهم الغوغاء والجهلة .

فأمر موسى بردهم جميعاً إلى الحبس وهو واقف والله مكانه حتى جاءه السجان فقال : قد رجعوا جميعاً إلى الحبس .

فقال : لأعوانه خذوا بلجام دابته بين يدى إلى مجلس الحكم فمروا بين يديه حتى أدخل المسجد وجلس فى مجلس القضاء .

فجاءت المرأة المتظلمة فقال : هذا خصمك وقد حضر .

فقال موسى وهو مع المرأة بين يديه : قبل كل أمر ، أنا قد حضرت ، أولئك يخرجون من الحبس .

فقال شريك : أما الآن فنعم ، أخرجوهم من الحبس .

فقال : ما تقول فيما تدعيه هذه المرأة ؟

قال : صدقت .

قال : ترد ما أخذت منها وتبنى حائطاً سريعاً كما كان

قال موسى : أفعل ذلك كله ؟

قال القاضى للمرأة : أبقى لك عليه شىء ؟

قالت : بيت الرجل الفارسى ومتاعه .

قال موسى : ويرد ذلك كله .

قال القاضى : أبقى لك عليه دعوى ؟ قالت : لا ، وبارك الله عليك وجزاك خيراً .

قال : قومى ، فقامت من مجلسه .

فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه فى مجلسه ، وقال : السلام عليك أيها الأمير أتأمر بشىء ؟

قال : أي شيء آخر؟ وضحك .

فقال له شريك : أيها الأمير: ذاك الفعل حق الشرع ،وهذا القول الآن حق الأدب، فقام الأمير وانصرف إلى منزله وهو يقول : من عظم أمر الله أذل الله له عظماء خلقه .

(ج) عمرو بن عبيد والمنصور :

روى البيهقي صاحب كتاب المحاسن والمساوى فى هذا الكتاب قال : دخل عمرو بن عبيد على المنصور فقال : يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل يقفك ويسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر ، وإن الأمة خصماؤك يوم القيامة ، وإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بما ترضاه لنفسك ، ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليك ،وإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بأن تعدل على الرعية .

يا أمير المؤمنين إن وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور ، والله ما يحكم وراء بابك بكتاب الله ولا بسنة نبيه ﷺ ، فبكى المنصور .

فقال سليمان بن مجالد وهو واقف على رأس المنصور : يا عمرو قد شققت على أمير المؤمنين .

فقال عمرو : يا أمير المؤمنين من هذا ؟ قال : أخوك سليمان ابن مجالد .

قال عمرو : ويلك يا سليمان إن أمير المؤمنين يموت ، وإن كل ما تراه يفقد ، وإنك جيفة غداً بالفناء ، لا ينفعك إلا عمل صالح قدمته ، ولقرب هذا الجدار أنفع لأمير المؤمنين من قربك ، إذا كنت تطوى عنه النصيحة وتنهى من ينصحه .

يا أمير المؤمنين إن هؤلاء اتخذوك سلماً إلى شهواتهم .

قال المنصور : فأصنع ماذا ؟

أدع لى أصحابك أولهم .

قال عمرو : أدعهم أنت بعمل صالح تحدثه ، ومر بهذا الخناق فليرفع عن أعناق الناس ، واستعمل فى اليوم الواحد عمالا كلما رابك منهم ريب أو أنكرت على رجل عزلته ووليت غيره ، فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقربن به إليك من لا نية له فيه .

(د) عمرو بن حبيب والرشيد :

روى صاحب العقد الفريد للملك السعيد قال : قال عمر بن حبيب القاضى : حضرت مجلس الرشيد يوماً فجرت مسألة فتنازعها الخصوم وعلت الأصوات فيها ، فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن النبى ﷺ ، فدفع بعضهم الحديث ، وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم : أبو هريرة متهم فيما يرويه ، وصرحوا بتكذيبه ، ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونصر قولهم .

فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فنظر إلى الرشيد نظر مغضب وانصرفت إلى منزلى ، فلم ألبث أن جاءنى غلام فقال : أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول وتحنط وتكفن .

فقلت : اللهم إنك تعلم أنى دفعت عن صاحب نبيك وأجللت نبيك أن

يطعن على أصحابه فسلمنى منه ، وأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسى حاسر عن ذراعيه ، بيده السيف وبين يديه النطع ، فلما بصرنى قال: يا عمر ابن حبيب ما تلقانى أحد من الدفع والرد لقولى بمثل ما تلقيتنى به وتجرأت على .

فقلت يا أمير المؤمنين إن الذى قلته ، ووافقت عليه ، وملت إليه ، وجادلت عنه ، ازراء على رسول الله ﷺ ، وعلى ما جاء به ، فإنه إذا كان أصحابه ورواة حديثه كذابين فالشريعة باطلة ، والفرائض والأحكام فى الصلاة والصيام والنكاح والطلاق والحدود مردودة غير مقبولة ، فالله الله يا أمير المؤمنين أن تظن ذلك أو تصغى إليه ، وأنت أولى أن تغار لرسول الله ﷺ من الناس كلهم .

فلما سمع كلامى رجع إلى نفسه ، ثم قال : أحييتنى يا عمر بن حبيب أحياك الله ، أحييتنى أحياك الله ، أحييتنى أحياك الله .

(هـ) عبد الله بن طاوس والمنصور :

روى أن أبا جعفر المنصور استدعى عبدالله بن طاوس ومالك بن أنس رضى الله عنهما فلما دخلا عليه أطرق ساعة ثم التفت إلى عبد الله بن طاوس وقال له : حدثنى عن أبيك طاوس .

فقال : حدثنى أبى : أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى فى سلطانه فأدخل عليه الجور فى حكمه .

فامسك أبو جعفر المنصور ساعة .

قال مالك : فضممت ثيابى خوفاً أن يصيبنى دمه ، ثم قال له المنصور : ناولنى تلك الدواة ثلاث مرات ، فلم يفعل فقال له : لم لم تناولنى ؟ فقال :

أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها ، فلما سمع المنصور ذلك قال : قوما عنى ، قال ابن طاوس : ذلك ما كنا نبغى .

(و) عاقبة بن يزيد والمهدى :

ذكر صاحب العقد الفريد أن عاقبة بن يزيد القاضى دخل على المهدى فى وقت الظهيرة وهو خال فاستأذنه فيمن يسلم إليه القمطر الذى فيه قضايا مجالس الحكم ، واستعفاه من القضاء ، وطلب منه أن يقيله من ولايته .

فظن المهدى أن بعض الولاة قد عارضه فى حكمه ، فقال له فى ذلك . إنه إن كان عارضك أحد لننكرن عليه .

فقال القاضى : لم يكن شىء من ذلك .

قال : فما سبب استعفائك من القضاء ؟

قال يا أمير المؤمنين كان تقدم إلى خصمان منذ شهر فى قضية مشكلة ، وكل يدعى بينة وشهوداً ويدلى بحجج تحتاج إلى تأمل وتثبت ، فرددت الخصوم رجاء أن يصطلحوا أو أن يظهر الفصل بينهما .

فسمع أحدهما أنى أحب الرطب ، فعمد فى وقتنا هذا وهو أول أوقات الرطب ، فجمع رطباً لا يتهيأ فى وقتنا جمع مثله لأمير المؤمنين ، وما رأيت أحسن منه ، ورشا بوابى بدراهم على أن يدخل الطبق على ، ولا يبالى أن يرد عليه ، فلما أدخله على أنكرت ذلك وطردت بوابى ، وأمرت برد الطبق فرد عليه .

فلما كان اليوم تقدم الخصمان إلى فما تساويا فى عينى ولا قلبى .

فهذا يا أمير المؤمنين ، ولم أقبل ، فكيف يكون حالى لو قبلت ؟

ولا آمن آن تقع على حيلة فى دينى فأهلك ، وقد فسد الناس ، فأقلنى يا أمير المؤمنين أقالك الله ، وأعفنى عفا الله عنك فأقاله .

* * *

الأساس العام
في نظام الدولة الإسلامية

إذا كان شطر الإسلام باعتباره (ديناً ودولة) وهو شطره التعبدى التهذيبي قد استقرت أصوله ، وكملت قواعده فى حياة النبى ﷺ فإن شطره العملى ، وهو شطره النظامى فى الحياة فى صورة (دولة) تقوم على تطبيق شرائعه وقوانينه ، وبسط سلطانها على العامة والخاصة، لإقرار الحق والعدل بين أبناء الإنسانية فى مشارق الأرض ومغاربها ، لايزال باقياً ، يتجدد بتجدد الأعصر والأجيال ، ويتبلور فى صور من الواقعية كلما جدت الأحداث .

وهذا الشطر من الإسلام لا يزال ديناً فى عنق الأمة الإسلامية ، يجب عليها تنفيذه، ورعايته،ولو بالقوة القاهرة فى نظام الحدود والتعاذير الزاجرة، وفى صورة القتال إذا قامت أسبابه .

ومن ثم ترك الإسلام للأمة أمر نظام الدولة وأسلوب الحكم، وعنوان الحاكم ، تختاره على مقتضى (تطور) الحياة الصالحة فى مدارج الزمن ، بعد أن ضمن لها مقومات البقاء فى سياج من عوامل الحيوية النابضة .

وقد أغضى الإسلام فى بناء دولته الكبرى على روابط العنصرية الجنسية اللونية ، والقومية القبلية أو البلدية.فأهدرها توسعاً فى ربط الإنسانية الشاملة، وإطراحاً للمظاهر الضيقة فى بناء مرافق الحياة ،فلم يقم وزناً للعنصرية الطائفية، ولا للوشائج الوطنية ولا للقومية الجنسية، بل إنه كره ذلك وبغضه إلى الأمم

الإسلامية ، وأقام لها وشائج الإخاء الإنسانى ، يقول الله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »[1] وفى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ قال فى إحدى خطبه : (وأشهد أن العباد كلهم إخوة) .

وخطب النبى ﷺ بمكة فقال — كما رواه الترمذى عن عبد الله بن عمر : (يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها ، فالناس رجلان ، رجل بر تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هين على الله ، والناس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب) ، ثم تلا رسول الله ﷺ الآية إلى قوله : (إن الله عليم خبير) .

على هذه الأسس الحكيمة أقام الإسلام نظام دولته الذى تجاهله المخدوعون فى ديمقراطيات حضارة الغرب والشرق ، فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا ، وغفلوا أو تغافلوا عن طبيعتنا وبيئاتنا وعاداتنا وأخلاقنا وأفكارنا وعقائدنا ، ولم تفدهم الأحداث العواصف بعبرها ، ولا التجارب المريرة بآثارها ، وهى تنادى بأنه لا يصلح لنا معشر المسلمين تشريع أوربة ودساتيرها ، ولا قوانين أمريكا وديمقراطيتها ، ولا نظم الشرق الوافدة إلينا من وراء السهوب والسدود ، ولا يلائمنا إلا دستور إسلامنا .

وفى عصرنا — فى غضون هذا القرن — قامت تجربة قوية اتخذت من الحكم الإسلامى شعاراً لها ، وطريقاً لسلوكه .

وكانت الحياة فى هذا الجانب الذى ظهرت فيه تلك التجربة من أرض الإسلام قد استشرى فيها فساد العقيدة وفساد المجتمع ، بصورة طوحت بأمن الحياة واستقرارها ، وبدلت معالم الإسلام جاهلية جاهلة .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

وكان لابد من عزمة صارمة تأخذ بخلاقيم المفسدين فى الأرض ، وتقيم للناس منار الهداية الزاجرة ، فأقيمت حدود الله ، واستعلنت تعازير الشريعة . تأخذ بشدتها المستهترين ، فشردت بهم من خلفهم ، وأخافت بقسوتها عليهم من محدثه نفسه بالسير على معوج طرائقهم ، حتى استقر أمر الناس، وأمنوا على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم فى سفرهم وإقامتهم ، وحلهم وترحالهم ، أمنا ضربوه فى بلاد الإسلام مثلا محموداً .

ومضى الحكم هناك — ولا يزال — حكما إسلامياً فى واقع حياة الناس التى يدركها سلطان القانون الشرعى الزاجر .

ولم يقف هذا الحكم الإسلامى معوقاً لنهوض الأمة فى تدرج يعالج تزمت بعض العقول ، فقامت فى ظله نهضة علمية مجددة ، ونهضة عمرانية مشيدة ، ودخلت فى ظله على حياة الناس (تطورات) متقدمة ، تراها فى بيوتهم، قصورا شامخة ، ومنازل ساترة ، كما تراها فى متاجرهم ، ومدارسهم وجامعاتهم ، وفى طرائق عيشهم ، وبزتهم ، ومطاعمهم ومشاربهم ، ونزل ضيفانهم والزائرين لبلادهم وتراها فى تناولهم لمصالحهم مع الناس ، وأحاديثهم فى أداء أغراضهم، وفى كثير من مظاهر الحضارة الحديثة والمدنية الحضرية .

ولا يزال المتأمل فى حياتهم يرى جديداً منها يظهر فى كل يوم من أيام حياتهم ، ومع ذلك كله لم يظهر فى حياتهم ما يضطرهم إلى اتخاذ مظاهر حكم غير حكم الإسلام ، ولا تحكيم قانون غير قانون الإسلام وشريعته المنبثقة من دستوره[١] .

وقد سار كثير من بلاد الجزيرة العربية وأطرافها على هذا النهج الإسلامى، فى تدرج يزداد بقدر (تطور) الحياة فيها ، اقتداء بهذه الدولة المسلمة التى

---

(١) المملكة العربية السعودية .

يعتبرونها بمثابة الأم لأوطانهم ولا سيما بعد تحررهم من وطأة أعداء الإسلام، كما سار غيرهم على حكم التشريع الإسلامى فى بعض بلاد الإسلام التى لم تبتل بوطأة الاستعمار الأجنبى، كلياً أو جزئياً. مثل أفغانستان والدول التى قامت على أساس إسلامى مثل باكستان، والدول التى استقلت حديثاً فى قارة أفريقيا مثل موريتانيا وغيرها.

وقد يختلف الوضع قليلا أو كثيراً فى مدى تطبيق نظام الحكم الإسلامى، والعمل بأحكام الشريعة الإسلامية فى البلاد، بقدر معرفتها بالإسلام، وفهمها لأحكامه وشرائعه، وبقدر اختلاف أوضاع الحياة الاجتماعية فيها.

وكثير منهم يتطلع إلى نهضة إخوانهم فى البلاد التى كان من حظها أن يأرز الإسلام إلى معاهدها الدراسية فى أوقات محنته، فيتخذها موطناً لتراثه وشرائعه، ودراساته، فكانت أمينة على هذا التراث، حفيظة لأصول الشريعة، قيمة على دراستها وفهمها.

وفى هذا التطلع يترقبون تحركهم إلى مجال التطبيق العملى لأنظمة الحكم الإسلامى على أممهم وشعوبهم، ليجعلوا منهم قدوة، يتقبلونها فى مناهجهم الدستورية.

وعسى ألا يطول بهم الترقب والانتظار، فيوفق الله تعالى هذه الأمم التى اختارها لحفظ أصول شريعته، لتكون أساسا لانطلاقة العمل التطبيقى لأحكام دستور الإسلام.

وها هى ذى تجربة حديثة — قد يتحقق بها بعض الأمل، وتفتح أمام إخوتها أبواب العمل — قامت تنادى فى عزم بحكم الإسلام، واتخاذ دستوره: القرآن العظيم، وشريعته أساساً لكل تشريع تحكم به الأمة[1].

(١) الجمهورية العربية الليبية.

وفى هذه التجربة سمعنا وقرأنا تحريم الخمر « إذ لا يتفق أن تعلن دولة أنها تتمسك بالدين الإسلامى عقيدة وشريعة للحكم ، ثم تبيح الخمور . . إننا لم نحرم الخمر ، الله هو الذى حرمها فى القرآن الكريم ، فكيف نحل شيئاً حرمه الله(١) » .

وفى هذه التجربة سمعنا وقرأنا منع التعامل بالربا بين الأفراد ، على أن يعالج التعامل به بالنسبة للبنوك والمصارف فى المستقبل .

وفى هذه التجربة سمعنا وقرأنا أن نقاشاً واسع المدى ، جرى فى محاورات ندوة بين جمع من علماء الإسلام ومفكريه حول كيفية تطبيق الشريعة الإسلامية ، وحول ما فى هذه الشريعة من أصول ومبادىء تشريعية يمكن تطبيقها فى توجيه الحكم توجيهاً إسلامياً خالصاً دون مشقة ولا حرج .

وفى هذه التجربة قرأنا وسمعنا تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على خاصة الناس وعامتهم على سواء ، دون تدخل من القائمين على سلطان الحكم .

ونحن حين نشير إلى هذه التجارب لا نصفق تحمساً ، ولكننا نذكر الناسين ، وننبه الغافلين ونوقظ النائمين ، ونرشد من بأيديهم أزمة الأمور أن تنفلت من أيديهم ، فيصبحوا على ما فعلوا فى أنفسهم نادمين .

إننا نرقب ونستشرف ، فالطريق طويل ، ملىء بالصعاب ، ولكن الله مع الصابرين المخلصين .

---

(٢) جريدة الأهرام ٣٠ من ربيع الأول سنه ١٣٩٢هـ — ١٧/٤/١٩٧٢م .

وهذه عبرة تاريخية نقبسها من تاريخنا القريب لعل فيها ما يرد الشاردين إلى ساحة الإسلام والعمل بنظام حكمه، واتخاذ دستوره أساساً لكل تشريع تحكم به الأمم الإسلامية.

فى سنة ١٩٣٠ م حدث انقلاب سياسى فى مصر ، كان من آثاره إلغاء دستور سنة ١٩٢٣ م ووضع لها دستور بديلا عن ذلك الدستور ، ولا يعنى هذا البحث قيمة هذا العمل ، لأنه صورة من ألاعيب السياسة ، وإنما يعنى البحث اقتباس المسوغات التى تذرع بها أصحاب الانقلاب السياسى لتغيير دستور سنة ١٩٢٣ ، المأخوذ من أحدث دساتير العالم وهذا شىء له أهميته فى موضوع (نظام الحكم) .

جاء فى البيان الذى قدم به غطارفة الانقلاب ، دستورهم البديل ما نصه :

ومن يستقرىء أخبار وضع الدساتير لن تفوته ملاحظة أن كثيراً من واضعى الدساتير الحديثة يعمدون إلى الانتفاع بخبرة الغير فى الأمور الدستورية ، دون مراعاة ما بين بلد وبلد من الفوارق فى الخلق والطباع . والنظم الاجتماعية ، ويظنون خطأ أن آخر الأوضاع خيرها إطلاقاً كما أن أحدث المخترعات أكملها ، أو أن ما نجح فى بلد ناجح فى غيره من البلاد ، ويرون أن النقل عن الغير أقل كلفة وأهون نصباً ، إذا كان البحث والاستقراء فيما يناسب ويلابس حالة كل بلد أمراً صعب المسلك طويل الشقة ، وليس من يشك فى أن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية العامة فى مصر خصوصاً من حيث التعليم ونوع الثروة وتوزيعها لا تشبه فى كثير أحوال البلاد التى نقل عنها الدستور المصرى .

وهنا نتساءل : أين إسلامنا ؟ وأين عقيدتنا ؟ وأين دستورنا الإسلامى ؟ وأين شريعتنا التى استنبطها أئمة الإسلام طوال تاريخنا ؟

لا ذكر لشىء من ذلك عند (المصلحين) السياسيين أصحاب الانقلابات السياسية الملقنين ، مع أن جميع الأسباب التى ذكروها فى بيانهم ليسوغوا استبدال دستور الانقلاب بالدستور الملغى توجب أن ينتهى بيانهم (الأفلاطونى) إلى الإقرار بأن الدستور الذى يجب أن نحكم به هو الدستور الإسلامى وشريعته .

ولكن يظهر أن أصحاب الانقلاب السياسى رأوا أن البحث والاستقراء فى تهيئة الدستور الإسلامى ، وإعداد بنوده ومواده فى صورة تقنينية ، تيسر على الحاكمين العمل به — أمر صعب المسلك طويل الشقة ، وأن وضع دستور « منقول » الحقائق والأحكام مغلف الصياغة والأسلوب والألفاظ بأغلفة الخداع المزور أقل كلفة ، وأهون نصباً .

ولعل الأمر لم يكن فى أيديهم ، ولا كانت تملكه أيمانهم ، ولا كانت تؤمن به عقولهم وقلوبهم ، وإنما كان فى يد من لا يريد أبداً للأمم الإسلامية أن تحكم بدستورها الإلهى بل لا يريد لها أن تعلم — وهى فى غمرة جهالتها لدينها وبعدها عن إسلامها — أن لها دستوراً قائم المعالم ، واضح المحجة . هو أنسب ما يمكن أن تحكم به لأنه يحمل طابع عقيدتها وخلقها وطباعها ونظمها الاجتماعية ، وأصول حياتها الاقتصادية فى مدارج تاريخها.

ويظهر من هذا البيان الانقلابى أن واضعى الدساتير الحديثة — ولا سيما فى أمم الشرق الإسلامى الذى لا يزال يحيا على تلقط فتات موائد مستعبديه على رغم مظاهر الاستقلال — أمور تلفت النظر :

أولا : أنهم مقلدون، ينقلون عن غيرهم نتائج خبرتهم فى بلادهم وأوطانهم تحت تأثير بيئاتهم ونظمهم الاجتماعية ، دون نظر ينفذ إلى مراعاة ما بين بلد وبلد ، وبيئة وبيئة ، ونظم ونظم من الفوارق والتأثرات الدينية والعقدية .

ثانياً : أن واضعى الدساتير الحديثة يقيسون الأوضاع الدستورية على الاختراعات العلمية ويرون أن آخر الأوضاع الدستورية هو خيرها وأحسنها، كما أن أحدث المخترعات هو أكملها .

ثالثاً : أن واضعى الدساتير الحديثة يرون أن ما نجح فى بلد من الأوضاع الدستورية، لابد أن ينجح فى غيره من البلاد، مع أن البداهة تقضى بأن لكل بلد أخلاقه وطباعه ونظمه الاجتماعية الخاصة به وهذه أمور لها آثارها فى تكييف كل بلد وكل أمة .

رابعاً : أن واضعى الدساتير الحديثة لا يحبون البحث والاستقراء، ليميزوا بين ما يلابس ويلائم حال كل بلد ، لأن البحث والاستقراء أمر صعب المسلك ، طويل الشقة ، وهم يكرهون ذلك ويحبون أن يخلدوا إلى الراحة المترفة فى صورة اجتماعات دارسة باحثة، لا تشق عليهم، ومنتهى هذه الدراسة أن يعمدوا إلى النقل عن الغير لأن النقل عن الغير أقل كلفة وأهون نصباً ولا شك أن أقل ما يوصف هذا الوضع أنه ضعف عن تحمل أمانة العمل .

وقــد انتهى أصحاب الانقلاب السياسى فى بيانهم إلى أن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية العامة فى مصر ، خصوصاً من حيث التعليم ، ونوع الثروة العامة وتوزيعها لا تشبه أحوال البلاد التى نقل عنها الدستور المصرى الملغى ، ولذلك وجب إلغاؤه ، ووضع دستور (مناسب) يخلفه فى حكم الأمة ووضع هذا الدستور (المناسب) ثم ألغى ، ووضع غيره ثم ألغى ، وقام بعده

دستور ثم ألغى ، وقام بعده آخر ، وهكذا تكررت التجارب الدستورية الفاشلة ، ولم يثبت منها تجربة واحدة ولم يحاول أحد أن يعلن متسائلا : لماذا منيت هذه التجارب ، الكثيرة بالفشل ؟ ولكنهم جمجموا همساً مع أنفسهم بهذا التساؤل ، وكانت الشعوب المسلمة مؤمنة أشد الإيمان بأن أسباب فشل هذه التجارب المتعددة تكمن وراء محاولة إبعاد الأمة الإسلامية عن دستورها الإلهى وشريعتها الخالدة .

وفى تجربة حرة قريبة جرى استفتاء عام مباشر ، أعربت فيه الأمة — خاصتها وعامتها — عن رأيها الإجماعى فى أن دستورها يجب أن يكون قائماً على أساس أن الدستور الإسلامى بشريعته الأصيلة يجب أن يكون هو الأساس الوحيد لكل تشريع تحكم به الأمة ، ولكن — وفى فمى ماء — تنزل الوحى على بعض مراكز القوى الإعلامية ، وتبخر رأى الأمة الإجماعى ، وبقيت أبواب التشريع مفتحة لكل تشريع يفد على الأمة ليحكمها ، يدخل من أيها شاء ، ولا بأس أن يكون التشريع الإسلامى واحداً من هذه التشريعات التى يقوم عليها بناء الحكم فى الأمة .

بأي دستور تحكم الأمة الإسلامية ؟

إذا كانت الدساتير الأجنبية عن خلقنا وطباعنا ونظمنا الاجتماعية لا تصلح لحكم الأمة الإسلامية ، ولا تصلح الأمة عليها ، فبأى دستور تحكم الأمة الإسلامية ؟ وعلى أى نظام فى الحكم يجب أن يكون بناء الدول الإسلامية ؟

إنها لا تحكم إلا بدستور تنتزعه من بيئتها وطبيعتها وأخلاقها وعاداتها الحميدة ، وأفكارها وعقائدها الدينية ، ونظامها الاجتماعى ، وروح ثقافتها .

دستور يصحح الأوضاع فى أوطان الإسلام ويقيم الحياة فيها على عدالة اجتماعية تؤمن بالحرية الكريمة ، وتكفر بمظاهر الحضارة العابثة .

دستور يقول القائم على مسئوليته ، الخليفة الثانى ، فاروق الإسلام ، عمر بن الخطاب رضى الله عنه مخاطباً عامة الأمة: من رأى منكم فى اعوجاجاً فليقومه . فيقوم إليه أحد أبناء الأمة ، رجل من عامة المسلمين فيقول له : والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا. فيقول عمر وهو الخليفة الذى يملك فى يده سلطان الحكم ، وسلطان التنفيذ : الحمد الله الذى جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه .

ويقول له رجل من غمار المسلمين فى كلام جرى : اتق الله ياعمر. فيزجره رجل من عامة المسلمين مستنكراً أن يقول لأمير المؤمنين :

اتق الله ، فيقول له عمر : دعه ، فإنه لا خير فيكم إذا لم تقولوها ،ولا خير فينا إذا لم تقبلها .

ياسبحان الله ؟ ! عمر بن الخطاب ثانى رجل فى الإسلام كله يجبهه رجل من عامة المسلمين ، ويقول له : اتق الله يا عمر ، كأنه رأى فيه حيداً عن الحق والعدل ، فيزجره بعض من لا يرى صراحة الجهر بالحق فى وجوه الحاكمين، ولكن عمر ينكر على الزاجر زجره الناصح ويرى أن هذا الجهر بالحق درس من دروس التربية الإسلامية يجب أن يشجع المعتصمون به فيقول للزاجر : دعه فلينصح لخليفته وليقل له فى وجهه هذه الكلمة التى تطوى فى ثنايا حروفها ميزان التفاضل بين المسلمين. ويفرح عمر ويعلن رأيه للمسلمين : إن الأمة إذا لم تكن على درجة من الشجاعة فى الحق تستطيع بها أن تقول لحاكمها : إلزم الحق لخشية الله فلا خير فيها ، وإن الحاكم الذى لا يكون لديه من الشجاعة الأدبية ما يتقبل به الكلمة الناصحة لا خير فيه ولا يصلح لمكانه من أمته .

أجل ، إن الأمة الإسلامية تريد أن تحكم بدستور يقول أول خلفاء نبيها ﷺ أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى أول خطبة خطب بها الناس بعد بيعته بالخلافة : (أيها الناس إنى وليت عليكم — أى وليتمونى عليكم باختياركم — ولست بخيركم — أى وأنا واحد منكم ، لا أفضلكم — أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم) .

إن الأمة الإسلامية يجب أن تحكم بدستور يجعل من الدولة أباً رحيما لكل أبناء الأمة ترعاهم وهى مسئولة عنهم وتكفلهم فى الصحة والمرض ، وتكلؤهم فى الشباب والهرم ، وتؤمنهم ما استطاعت وما وسعت مواردها ، دون أن يسألهم أحد : من أبوك ؟ ومن أنت ؟ ولكن السؤال دائماً يجب أن يكون : ماذا عملت لأمتك ؟ وماذا تستطيع أن تعمل لها ؟ وماذا ينقصك لأجل أن تعمل لتقدم لأمتك ثمرة جهدك وكدك ؟

هذا هو دستور الإسلام فى القرآن العظيم بيد أن دساتير الديمقراطية الفاشلة تقول : هذا أبيض فيجب أن يعطى كل شىء وهذا أسود فيجب أن يحرم من كل شىء .

ودستور الإسلام لايعرف هذه التفرقة العنصرية الجائرة ، ويأبى على أمته أن تدين بها فهو يقول فى أوضح وأروع نصوصه الكريمة النبيلة : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(١) .

الله تعالى يخاطب عباده فى دستور الإسلام ، ويناديهم بهذا العنوان الشامل لأسودهم وأبيضهم ، عنوان الناس الذى يوقظ فيهم الشعور بوحدة المنبع ، ويملأ النفس عزة بالمساواة ويقول لهم : إنى بجلال عظمتى ووحدة ألوهيتى خلقتكم جميعاً من منبع واحد ، أب واحد وأم واحدة ،لاتتفاوتون فى صلتكم بهذا المنبع الموحد ، فكلكم أبناء آدم وزوجه ، ولكنكم تتفاوتون بشىء وراء ذلك ، هو الاستعداد والجهد والعمل (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، والتقوى كلمة تعنى جماع الخير والبروهى كما يقول القرطبي- مراعاة حدود الله تعالى أمراً ونهياً ، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به ، والتنزه عما نهاك عنه .

وقد جاءت السنة النبوية بما فسر الآية الكريمة ، فقد خطب النبى ﷺ عامة المسلمين فى حجة الوداع فقال : (أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

على أحمر فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب) .

وفي هذا الحديث الكريم من فقه الدستور الإسلامي أمور :

أولا : ربط الوحدة الإنسانية بوحدة الربوبية (إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد) وهذا بيان لأساس البناء الدستوري في الإسلام دين الوحدة ، وحدة الخالق جل شأنه ووحدة الإنسانية بالعبودية لخالقها ، وبالنسب لمنبعها ، وبين هاتين الوحدتين تنطوي وحدة الكون كله .

ومعنى ذلك أن الدستور الإسلامي يربط تشريعه بعقيدة التوحيد في مبدئها ومنتهاها ، وأنه لا يشرع لجنس ولا لعنصر ، ولا للسماء ومن فيها ومافيها ولا للأرض ومن فيها وما فيها ، ولكنه يشرع لنظام الحياة في الوجود كله ، فالله رب العالمين والكون كله مخلوق لله تعالى يربيه برحمته ونعمه : « إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً »[1] .

ثانياً : عناية النبي — ﷺ — وهو المفسر لدستور الإسلام — ببيان وحدة المنبع الإنساني ، ووحدة العنصر الذي منه خلق ذلك المنبع ، لتتأكد هذه الوحدة ويتطامن الغرور العنصري عند بعض من منحوا مظاهر من نضارة الطبيعة في أجسامهم وألوانهم .

ثالثاً : بيان منشأ التفاضل بين جميع من وحد بينهم المنبع ، وأن هذا المنشأ الذي يكون به التفاضل خارج عن حقيقة الإنسانية الموحدة التي تتعلق بها الحقوق والواجبات في هذه الحياة التي يتنافس فيها المتنافسون (أكرمكم عند الله أتقاكم) ، فليس لمنشأ التفاضل مدخل في تفاوت التشريع واختلافه

(١) سورة مريم آية ٩٣ .

فلايشرع الإسلام لإنسان تقى خير غير ما يشرع لإنسان شرير غير تقى ، فالتشريع عام للناس بعنوانهم العام ، والتطبيق على الأحداث والوقائع هو الذى يضع الأحكام مواضعها ، مهما كانت شخصية الحاكم ، ولذلك قيد منشأ التفاوت بالظرف (عند الله) لبيان أن الجزاء الأخروى وهو الذى يكون به التفاضل فى الدار الآخرة .

رابعاً : تأكيد إهدار مظاهر التفاضل التى ترجع إلى الجنس والعنصر ، فلا فضل لإنسان من جنس عربى على إنسان من جنس أعجمى ، ولا لإنسان من جنس أعجمى على إنسان من جنس عربى ، ولا لإنسان أبيض البشرة على إنسان أسود البشرة ، ولا لإنسان أسود البشرة على إنسان أبيض البشرة إلا بقدر ما يناله أى إنسان - أسود أو أبيض - من توفيق فى حياته لعمل خير عام يعود نفعه على الناس جميعا و (خير الناس أنفعهم للناس) .

وقد أشهد النبى ﷺ الله رب العالمين على تبليغه هذه الحقائق الدستورية للناس عامة ، تحقيقاً لقهر الربوبية ، وأمر من شهد التبليغ وسمعه أن يبلغ من لم يشهد ولم يسمع ، ليكون ذلك أصلا من أصول التشريع العام لسائر الناس فى سائر الأزمان والأوطان . أداء الحق عموم رسالته .

وفى تطبيق النصوص الدستورية على واقع الحياة جاءت السنة النبوية بفيض من الأحكام التنفيذية ، أشرنا إلى كثير منها فى مواضع من (هذه الموسوعة)، ولاسيما فى بحث(الرق فى نظر الإسلام) مما أبان فى وضوح أن الدستور الإسلامى الذى تريده الأمة الإسلامية لحكمها - بتشريعه هو الذى يجعل الساحة الإسلامية عنوانه (الضخم) فيرتفع بأهله رعاة ورعية عن العصبيات الزميمة ، ويكفل لكل من ينضوى تحت لوائه إيماناً به ،أوعهداً

وذمة لأهله ، فيجعل له من الحقوق والواجبات ما يحقق أمنه وسلامته فى نفسه وأهله ، وماله وعرضه ، ودينه وعقيدته .

وقد ذكرنا من نماذج ذلك حادث عمر بن الخطاب وهو خليفة المسلمين مع يهودى كبير السن ضرير البصر ، وجده على باب قوم يسأل ، فأمر خازنه أن ينظر إلى هذا وأمثاله فيعيلهم من بيت مال المسلمين ، فى تعليل فقهى ، يقع فى الذروة من سماحة الإسلام ، وفهم دستوره فهماً تشريعياً يتسع لكافة أبناء الإنسانية .

وذكرنا من نماذج ذلك حادث مقاضاة أحد اليهود علياً كرم الله وجهه أمام عمر ، فلما حضرا بين يديه ، دعا علياً بكنيته ، فقال له:(آجلس ياأبا الحسن) والتكنية فى عرف العرب نوع من التعظيم ، فغضب على رضى الله عنه ، لأن عمر عظمه فدعاه فى مجلس القضاء بكنيته ولم يصنع ذلك بخصمه .

وذكرنا أيضاً حادث عمر مع قوم من مرضى النصارى بالجذام رآهم وهو قادم من الجابية إلى دمشق ، فأمر بهم ان يعالوا من الصدقات — أى زكوات المسلمين .

إن الدستور الإسلامى الذى تريده الأمة الإسلامية لتحكم به هو الذى يجعل رئيس الدولة مسئولا عن أعمال عماله وولاته الذين اختارهم لمعاونته فى حكم رعيته ، وهم فى مكان عملهم لأنه هو الذى عينهم فهو مسئول عنهم .

يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أيما عامل لى ظلم احداً وبلغتنى مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته .

ويقول يخاطب الملأ من أمة الإسلام فى دولته : أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ، ثم أمرته بالعدل أكنت قضيت ما على ؟

قالوا : نعم ، قال لا ، حتى أنظر فى عمله ، أعمل بما أمرته أم لا .

ويقول فى كتابه إلى سعد بن أبى وقاص : إن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء .

ويقول لعمرو بن العاص ، وقد تعدى أحد أبنائه على مواطن من قبط مصر : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

هذا الدستور الإسلامى الذى تريده الأمة الإسلامية لحكمها هو الذى يأمر بتفتيت الثروة وتوزيعها فى أيدى العاملين الكادحين من أبناء الأمة فتسمعه يقول فى شأن مصدر من مصادر الثروة منبهاً إلى توزيعه بين أهل الحاجة من أفراد الشعب معللا ذلك بأحدث ما وصل إليه الاقتصاد الحديث فى تسويغ تفتيت الثروة وتوزيعها : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »(١)، أى شرعنا هذا التوزيع فى مال الفىء على هذه الأصناف من ذوى الحاجة كى لا تتضخم الثروة فى أيدى فئة الأغنياء منكم فيستأثروا بالثروة ويبقى الفقراء محرومين ، فيتولد فى أنفسهم الحقد والضغينة وينقطع بينهم وبين الأغنياء حبل المودة والتعاون ، فيقف دولاب العمل والإنتاج وتبوء الأمة بالفقر والجهل والمرض والعجز والضعف .

وهو الدستور الذى شرع أحكام المواريث ونص عليها صراحة كوسيلة من الوسائل العامة لتفتيت الثروة المتجمعة من كسب أو غيره ، وفى توزيع المال على نظام الميراث فى الإسلام إتاحة فرص لأفراد كثيرين ليعملوا فى هذا المال بعد أن كان محبوساً تحت يد واحدة .

---

(١) سورة الحشر آية ٧ .

فأين من هذا النظام الإسلامى الاقتصادى المرن ، نظام الديمقراطية الفاشلة الذى يجعل مال المتوفى فى بعض دولها مهما كثر لأكبر بنيه ، ويترك الأبناء الآخرين محرومين .

هذا الدستور الإسلامى الذى تريده الأمة الإسلامية لحكمها هو الذى يجعل للفقير والمسكين والمحروم حقاً فى مال الغنى ، يأخذه منهم ولى الأمر بقوة السلاح إذا ضنوا به وماطلوا فيه ، ويرده على مستحقيه حقاً واجباً لهم لا تبرعاً مخزياً ، ولا صدقة مذلة ، ففى حديث معاذ المتفق عليه : أن النبى ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال له :

(إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب).

وفى هذا الحديث من لطائف المعانى وأسرار التشريع الدستورى وبراعة التعبير :

أولا : أن النبى ﷺ قال لرسوله : إنك تأتى قوماً أهل كتاب ، فأشعره بحال المبعوث إليهم ليعلمه أنهم من أهل العلم والمعرفة ، ليسلك فى خطابهم مسلكا يلائم حالهم من لطف الحجة ونصاعتها ، وإشراق العرض ، وسداد المأخذ ، وحكمة الأسلوب ، وفى ذلك إرشاد للدعاة وأهل الإصلاح ، فلا يجعلون دعوة العالم المفكر كدعوة الجاهل الغمر ، وقد لمح القرآن الكريم إلى هذا فى قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن »[1]

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٦ .

ثانياً : ذكر الحديث أساس الإيمان بتوحيد الله والشهادة لنبيه محمد ﷺ بأنه رسول الله المبلغ عنه ، ثم أعقب ذلك بركنى الإسلام الجامعين لطرفى الشريعة فى التهذيب التعبدى والإصلاح الاجتماعى بالرفق والمواساة ، فذكر الصلاة المفروضة ، وهى صلة تعبدية بين العبد وخالقه ، وذكر الزكاة وهى حق الفقير والمسكين فى مال الله تحت يد الغنى تحقيقاً للعدل الاجتماعى بين الناس .

ثالثاً : ذكر الحديث أن هذا الحق فى مال الأغنياء يؤخذ منهم أخذاً ، يأخذه ولى الأمر أو نائبه بقوة القانون حتى لو امتنع من وجب عليه هذا الحق عن إعطائه أخذ منه قهراً ولو أدى إلى الحرب والقتل والقتال .

وقد قاتل الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه طائفة من العرب أقاموا على الإيمان بالله ورسوله وأقاموا الصلاة ، ولكنهم منعوا الزكاة وضنوا بها ، ورأى الصديق حربهم عليها حتى يؤدوها ، وقال : والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ، ووافقه على ذلك جميع الصحابة بعد أن اقتنعوا بحجته فكان إجماعاً قاطعاً لاشبهة فيه .

رابعاً : ذكر الحديث أن هذا الحق إذا أخذ من الأغنياء وجب رده على فقراء المحلة التى نما فيها المال ، فهو يضع بذلك قاعدة التكافل الاجتماعى على الأفراد والجماعات ، إذا عجزت موارد الدولة عن الوفاء بحاجة الأمة . ورده عليهم يكون على الصورة التى يختارها ولى الأمر البصير بأحوال الأمة العارف فيما يصلحها ، وليس بلازم أن يكون على صورة تمليك عين المال للفقير والمسكين ، بل يجوز أن يكون فى صورة علاج يقدم للمريض العاجز عن ثمن العلاج والدواء ، أو فى صورة دور لتعليم أبناء الشعب العاجزين عن نفقات المدارس والمعاهد العلمية ، أو فى صورة مساجد لإقامة الشعائر

الدينية فى أحياء الفقراء الذين لا يستطيعون أن يقيموا مسجداً جامعاً يجمعون فيه جمعتهم ، أو فى أية صورة من صور الإصلاحات الجوهرية التى تقتضيها السياسة الشرعية وتعود على مستحق الزكاة مباشرة .

خامساً : حذر الحديث جباة الزكاة من ظلم الأغنياء وأخذ كرائم أموالهم فى هذا الحق لتكون أنفسهم راضية طيبة بما أخذ منهم فلا يداخلها الحقد والبغضاء ، وبالغ فى هذا التحذير ، فأمر باتقاء دعوة هؤلاء الأغنياء إذا ظلموا بأخذ أكثر مما وجب عليهم ، ولو كانت الكثرة فى صورة الكيف لا فى العدد والكم ، وأفاد أن هذه الدعوة مقبولة عند الله مجابة فى الظالم لأنه ليس بينها وبين الله حجاب ، فهو يقبلها وينصر صاحبها ولو كان عاصياً لله تعالى ، لأن المعصية حجاب دون القبول إلا من المظلوم ، وفى هذا إشارة إلى قبح الظلم بجميع ألوانه .

هذا الدستور الذى نريده لنحكم به هو الذى لا يقف عند حد فرض الزكاة على القادرين ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيلتفت إلى الضمير الإنسانى فيهزه ويحركه ليقيم منه دافعاً إلى حب الخير ، وينمى القيم الخلقية فى النفس الإنسانية ليرغبها فى فضل وراء هذا الحق الواجب ، فضل التعاطف والتراحم والمؤاساة والبر والإحسان ووشائج المروءة .

هذا الدستور الإسلامى الذى يجب أن يحكم به المسلمون هو الذى لا يرضى لأهله بالضعف والذلة ، بل يأمرهم بأن يكونوا أعزة أقوياء . متأهبين بأخذ أسباب القوة لئلا تتخطفهم ذئاب الأمم ووحوش الاستعمار قال الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »[1] وفى صحيح مسلم عن

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠ .

عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى) وإذا كان الرمى قد عرف عند العرب خاصة وعامة الأمم القديمة بما يخص القسى والسهام والنشاب ، فإن تفسير الآية الكريمة به فى الحديث لايقيده بنوع خاص ولكنه يفيد العناية بشأن هذا السلاح من أسلحة الحرب ،أما نوعه وآلته وطريقة استخدامها فهذه متروكة للزمن والفكر الإنسانى وأطوار العلوم والاختراعات .

فالرمى عند العرب فى عصورهم الأولى رمى بالقسى والسهام ، وهو فى عصرنا رمى بالقنابل الذرية والهيدروجينية عن طريق الطائرات النفاثة أو غيرها مما استحدث ، ويستحدث .

وذلك كله يمكن أن يكون داخلا فى مضمون الآيةوالحديث ،ولاسيما أن الآية أضمرت القوة وأبهمت نوعها بعد أن جعلتها غاية لما يستطاع فى الإعداد ، فكل مايتقوى به ويدخل فى دائرة الاستطاعة فهو مطلوب فى الإعداد لحماية الحوزة ورد عدوان المعتدين .

وتفسير القوة بالرمى فى الحديث تفسيرلها بأبلغ أنواعها ،وقال القرطبى فى تفسيره : ولما كانت السهام من أنجع مايتعاطى فى الحروب والنكاية فى العدو ، وأقربها تناولا للأرواح أىفى زمنها خصها رسول الله ﷺ بالذكر لها والتنبيه عليها .

هذا الدستور الإسلامى الذى يجب أن تحكم به الأمم الإسلامية هو الذى يأمر أهله بالجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الحق ونشر راية العدل فى آفاق الأرض ومقاومة الظلم والظالمين وحماية المستضعفين قال الله تعالى :

« انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله »[1] وقال تعالى: « ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان »[2] وفى الحديث الصحيح : (ماترك قوم الجهاد إلا ذلوا) .

هذا الدستور هو الذى يهدد المتثاقلين عن الجهاد المتخاذلين بأشد أنواع العقاب ويعيرهم بالجبن وذل الحياة ، ويتوعدهم باستئصال شأفتهم من الوجود ويستبدل بهم غيرهم ، قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير »[3] .

وهو الدستور الذى يأمر برد اعتداء المعتدين ، وينهى عن الاعتداء بدءاً ونهاية قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »[4] .

وهو الدستور الذى يحرص على السلم أشد مايكون الحرص عليها بشرط ألا تكون سلماً مذلة ، فهو يأمر بها أهله ويحضهم على الجنوح لها إن جنح لها أعداء الإسلام ومحاربوه حتى الذين غدروا به ونقضوا عهودهم معه قال تعالى: « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم »[5].

وهو الدستور الذى يأمر بالضربات الحاسمة فى محاربة الغادرين الناقضين للعهود الذين لاذمة لهم ولا وفاء : « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم

---

(١) سورة التوبة آية ٤١ .
(٢) سورة النساء آية ٧٥ .
(٣) سورة التوبة آيتا ٣٨ و ٣٩ .
(٤) سورة البقرة آية ١٩٠ .
(٥) سورة الأنفال آية ٦١ .

يذكرون»(١) وفى قوله (فشرد بهم من خلفهم) آية من آيات البراعة الإعجازية فى أسلوب هذا الكتاب الكريم ، فهو يقول : إن هؤلاء الخائنين الذين قامت لديك أمارات خيانتهم لا يستحقون الرحمة ، فإذا لقيتهم فى الحرب فاشدد وطأتك عليهم ، واضربهم ضربة ترعبلهم وتدخل على من وراءهم من أعداء الإسلام الفزع وتملأ قلوبهم بالرعب الذى يزلزل أقدامهم ويبدد شملهم .

وهو الدستور الذى يأمر بنبذ عهد الخائنين وإعلانهم بترك عهدهم وإطراحه إذا قامت الأمارات القوية على خيانتهم وتدبيرهم فى الخفاء لحرب أهل الإسلام ، حتى يكونوا إذا نبذ إليهم على علم مساو لعلم المسلمين فى حل ما كان بينهم من عقد تحاشياً من عار الغدر والخيانة التى يكرهها الله أشد الكراهية فلا يرضاها لعباده الذين اصطفاهم لهداية العالمين، يقول الله تعالى: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين»(٢) وروى الترمذى فى جامعه عن سليم بن عامر قال : (كان بين معاوية والروم عهد ، وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى إذا انقضى العهد غزاهم ، فجاءه رجل على فرس وهو يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدر ، فنظروا فاذا هو عمرو بن عنبسة فأرسل إليه معاوية فسأله، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من كان بينه وبين قوم عهد ، فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ إليهم على سواء) فرجع معاوية بالناس .

هذا الدستور الإسلامى الذى تريده الأمم الإسلامية لحكمها هو الذى يحرص أشد الحرص على حرية العقيدة التى لها أصل من وحى الله تعالى إلى رسله عليهم ، فلا يكره أحد فى ظله على ترك عقيدته ليعتنق عقيدة أخرى

---

(١) سورة الأنفال آيتا ٥٦، ٥٧ .

(٢) سورة الأنفال آية ٥٨ .

يقول الله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »[١] روى زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمى أيتها العجوز تسلمى ، إن الله بعث محمداً بالحق ، قالت : أنا عجوز كبيرة والموت إلى قريب ، فقال عمر : اللهم اشهد ، وتلا : (لا إكراه فى الدين) فهذا الأثر صريح فى فهم أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه معنى الآية، وأنها على ظاهرها محكمة لانسخ فيها ، وأن الواجب على أهل الإسلام تبليغ دعوته تبليغاً كافياً لجميع الخلق ، فمن شاء بعد التبليغ آمن واهتدى ، ومن شاء كفر وغوى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »[٢]، ويؤيد أثر عمر رضى الله عنه ما رواه أبو دواد عن ابن عباس أن هذه الآية — (لا إكراه فى الدين) — نزلت فى الأنصار ، كانت تكون منهم المرأة مقلاة — وهى التى لا يعيش لها ولد — فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده ، وذلك قبل أن يدخل عليهم الإسلام ، فلما أجلت(*) بنوا النضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا ندع أبناءنا ، وفى رواية : وإنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه ، وأما إذا جاء الله بالإسلام فنكرههم عليه ، فأنزل الله تعالى : (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) .

وقال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ وقد تعنت معه المشركون وكان حريصاً على إيمانهم : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦.

(٢) سورة النحل آية ١٢٥ .

(*) قال اللسان : جلا القوم عن أوطانهم يجلون وأجلوا إذا خرجوا من بلد إلى بلد .

الناس حتى يكونوا مؤمنين »[١] . يقول له : إن واجبك أن تبلغ الناس رسالة ربك ، وليس من واجبك أن تقسرهم على الإيمان قسراً ، وأن تكرههم على قبوله . ودعهم بعد البلاغ أحراراً فى عقائدهم وما يدينون به ماداموا لا يعرضون لدعوتك ولا يقفون فى سبيلها ، فإن وقفوا أمامها معوقين ليصدوا عن سبيل الله من يرغب الدخول فيه كان من حقك بل كان عليك أن تدفعهم من طريق الدعوة : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »[٢] ، أى فإن انتهوا عن إشعال نيران الفتنة ، وكفوا عن التعرض للدعوة والصد عن سبيل الله فدعهم وشأنهم ، لأنهم قد انتهوا عن الظلم الذى استرجبوا به القتال والقتل ولا عدوان إلا على الظالمين .

بل إن الإسلام ليبالغ فى حرصه على أن لا يكره أحد على اعتناقه ، فيأمر الله نبيه محمداً ﷺ بإجارة من يستجيره من المشركين حتى يسمع كلام الله وتبلغه الدعوة بلاغاً كافياً ، ثم يأمره بحمايته حتى يبلغ مكاناً يأمن فيه على نفسه أماناً يطمئن به قلبه حتى إذا آمن بعد ذلك كان إيمانه عن يقين ومعرفة وحرية اختيار ، قال تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه »[٣] .

وإذا كان هذا صنيع الإسلام مع المشركين الوثنيين فلا عجب أن كان صنيعه مع أهل الكتاب غاية فى التلطف معهم والإحسان إليهم ،

---

(١) سورة يونس آية ٩٩.

(٢) سورة البقرة آية ١٩٣ .

(٣) سورة التوبة آية ٦.

يقول الله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » [١] فحظ أهل الكتاب من أهل الإسلام إبلاغهم دعوة الإسلام وبرهم والإقساط إليهم ماداموا لم يعتدوا على حرمات الإسلام والمسلمين .

وقد طبق المسلمون فى تاريخهم هذه النصوص تطبيقاً عملياً ، فجعلوها واقعاً من واقع الحياة الوجودية .

فقد كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى كتاب عهده إلى أهل بيت المقدس : (هـــذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم لايكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم) .

وقد خص القرآن الحكيم أهل الكتاب بمزيد من الرعاية والفضل فى مجادلتهم فقال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم » [٢] قال الرازى فى تفسيره : قال بعض المفسرين : المراد منه لا تجادلوهم بالسيف وإن لم يؤمنوا إلا إذا ظلموا وحاربوا . أى إذا ظلموا ظلماً زائداً على كفرهم ، وفيه معنى ألطف منه وهو أن المشرك جاء بالمنكر فكان اللائق أن يجادل بالأخشن ويبالغ فى تهجين مذهبه وتوهين شبهه ... وأما أهل الكتاب فجاءوا بكل حسن إلا الاعتراف بالنبى عليه السلام ، فوحدوا وآمنوا بإنزال الكتاب وإرسال الرسل والحشر ،فلمقابلة إحسانهم يجادلون أولا بالأحسن ، ولا تستخف آراؤهم .

---

(١) سورة الممتحنة آية ٨ .
(٢) سورة العنكبوت آية ٤٦.

بل إن الإسلام يذهب فى التلطف بأهل الكتاب وإحسان معاملتهم إلى أبعد من هذه المظاهر فيميزهم عن غيرهم فى سائر أرباب الأديان والملل يرفع الحرج عن المسلمين فى مخالطتهم وتبادل المصالح معهم وتنــاول أطعمتهم ، وإقامة دعائم الاختلاط النسبي الموحد بين العواطف والرغائب والأهداف، فأباح للمسلم أن يصهر إلى أسرة كتابية غير مسلمة فيتزوج منها ويرتبط بها بهذا الرباط المقدس ويكون مع زوجه منهم أسرة مترابطة بوشائج المحبة والتعاطف والمودة والرحمة والذرية ، قال الله تعالى : « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن » (١) .

الديمقراطية الخادعة

لقد وجهنا إلى الديمقراطية كما يفهمها الغرب فى قارتيه ، وكما يفهمها الشرق من وراء سدوده — وهى أرقى مارضيه العصر الحديث من نظم الحكم — ألواناً من النقد من وجهة نظرتنا الإسلامية ، وقد سبقنا رجال الفقه الدستورى فى الشرق والغرب إلى نقدها نقداً مراً لاذعاً .

يقول أحد علماء الفقه الدستورى الغربيين ، السنيور (جيوفانى) متهكماً بالحكم الديمقراطى الشعبي تهكماً موجعاً : أرونى الشعب أعطكم عينى اليمنى ، فمنذ عشرات السنين وأنا أنقب عنه ولما أعثر عليه .

ولو أن أنصار الديمقراطية أرادوا مقاربة الإنصاف لتركوا هذا الغلو

(١) سورة المائدة آية ٥ .

فى زعمهم ان الديمقراطية حكم الشعب للشعب ، وقالوا كما يقول بعض علماء الفقه الدستورى الغربيين : إن الديمقراطية حكومة الأغلبية الحزبية ، والأغلبية الحزبية أقرب إلى الدكتاتورية الاستبدادية التى يقضى فى ظلها على الحرية الشعبية .

الحكم الاسلامى افضل انظمة الحكم

إذن فما هو نظام الحكم الذى يجب أن تحكم به الأمة الإسلامية فى أوطانها المختلفة ؟ وإننا نقولها صريحة مدوية ، لا مداهنة فيها ولا مواربة : إن أفضل أنظمة الحكم وأحسنها هو (نظام الحكم فى الإسلام) ذلك النظام الذى يجمع فضائل الأنظمة التى عرفتها الإنسانية فى تاريخها ، ويتجافى عن النقائص والعيوب التى لصقت بتلك الأنظمة فى أدوار تجربتها .

أهم دعائم الحكم في الإسلام
الشورى

يعتمد (نظام الحكم فى الإسلام) على (الشورى) وهى الركن الأول فيه ، وقد نص عليها صراحة دستوره الحكيم — القرآن العظيم — فى موضعين منه ، الموضع الأول منه جاء النص فيه أمراً جازماً موجهاً إلى العقل الأعظم ، والإنسان الكامل الذى لا ينطق عن الهوى ، بعد لون من التربية الخلقية التى أرشد إلى أخذ أصحابه وتلاميذه به،فقال له الله تعالى: « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر »(١) .

والموضع الثانى جاء فيه النص فى سورة من القرآن سميت باسم (الشورى) فى سياق الإخبار عن حالة أهل الإسلام ، وتصوير طريقتهم فى الحياة ، بتطبيق ما أمروا به من مبدأ (الشورى) فقال تعالى : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون »(٢) .

وقد طبق النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته الشريفة هذا النص الدستورى تطبيقاً عملياً فكان يستشير أصحابه فيما لم ينزل

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩ (٢) سورة الشورى آية ٣٨ .

عليه فى شأنه وحى ، وقد ثبت فى السنة الصحيحة أنه صلى الله عليه وسلم أخذ برأى بعضهم ، وترك رأى اجتهاده ، حينما بدت له المصلحة العامة .

روى أصحاب دواوين السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج ليلقى عير قريش أتاه الخبر أن قريشاً خرجت فى عددها وعدتها لتمنع عيرها ، وكانت العير قد نجا بها زعيمها أبو سفيان ، ولكن قريشاً ركبت رأسها ، وحفزها الغرور المتغطرس إلى التظاهر بقوتها لترعب المسلمين ، وسارت إلى بدر ، وعلم النبى صلى الله عليه وسلم بمسيرها ، فاستشار أصحابه فى لقائها ، فقام أبو بكر فقال وأحسن ، ثم قام عمر فقال وأحسن ، ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : (أشيروا على أيها الناس) . فقال سعد بن معاذ أحد سادات الأنصار : لعلك تريدنا يا رسول الله ؟ قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (أجل) . قال سعد بن معاذ : آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله . فاستنار وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم سروراً ، وبشر أصحابه بالنصر .

ولما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه بادر قريشاً إلى الماء ، فنزل على أدنى ماء من بدر فجاءه الحباب بن المنذر الأنصارى فقال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه

ولا أن نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بل هو الرأى والحرب والمكيدة) قال الحباب : يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لقد أشرت بالرأى) ؛ ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس ، تحقيقاً لما أشار به بعض جنوده من ذوى الرأى والخبرة فى أصحابه .

هذا مسلك فى تطبيق مبدأ الشورى ، أخذ به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مسلك منصب على استشارة ذوى الرأى من أهل العلم والخبرة فى الأمة ، فى أمر لا يقع فى تقدير العامة ومعارفها ، بل ربما لو طرح على العامة لأفسدته ، فكان من البين أن يقتصر فيه على استشارة أهل الحل والعقد فى الأمة ، وهم أولو العلم من ذوى الاختصاص والتجربة التى تعتمد على الخبرة .

وهذه القصة توحى بمضمونها أن واجب النصح يقضى على أهل العلم والخبرة إذا عرفوا طريقاً يحقق للأمة مصلحة عامة أن يسارعوا إلى التقدم به إلى قائد الأمة وإمامها ، وإلى كل من له عليها سلطان ولاية أو إمارة أو حكومة ، ولو كان هذا الطريق مخالفاً لما ذهب إليه القائد الإمام ، أو صاحب الإمرة والسلطان ، ولو لم يطالب منه ذلك ، كما صنع حباب بن المنذر فقد رأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بالناس منزلا لا يوائم تجارب الحرب ، ولا تقره الخبرة التى

توجب الأخذ بكل سبيل يؤدى إلى تقوية جند الإسلام ، وإضعاف أعدائهم مما يحقق للمسلمين النصر عليهم .

بيد أن منصب الرسالة له خصيصة لا يمكن أن تكون أبداً لغيرها من مناصب القيادة والإمامة ، وجند الإسلام من أبطال الرعيل الأول فى أصحاب رسول الله ﷺ أعرف الناس بحق هذه الخصيصة وموجباتها فى الشاهد والغائب ، ومن ثم لم يسارع الحباب بن المنذر بإبداء رأيه ، بل سأل رسول الله ﷺ مستخبراً عن نزوله هذا المنزل الذى أنزل فيه الناس استعداداً لملاقات أعدائهم، أكان بوحى من الله فيكون من مضامين خصائص الرسالة ويجب الوقوف عنده والرضا به ، ولو كانت كل دلائل الخبرة والتجربة متظاهرة بخلافه؟ أم هو الاجتهاد والرأى ؟ وعندئذ يجب أن تتقدم التجربة بما عندها من خبرات وعلم ، فتكون هى المحكمة فيما عرض من أمر، فلما ظهر أن الموقف كان اجتهادياً ولم ينزل فى شأنه وحى من الله ألقى الحباب بن المنذر برأيه التجريبى، فأعجب به رسول الله ﷺ ، وتقبله منفذاً له .

وفى موقف رسول الله ﷺ ، وموقف أصحابه فى معاهدة الحديبية مايلقى ضوءاً كاشفاً على منازل الاجتهاد والرأى ، ومنازل الوحى الذى يحدث عن الغيب ولو كان فيما يظهر للناس معانداً لمعالم التجربة والخبرة، لأنه من لدن الحكيم الخبير ، وقد قدمنا تحليل هذا الموقف .

ومن قبيل ماتتوجه فيه المشورة إلى أولى العلم والخبرة وخاصة من عقلاء الأمة ورؤوسها ، وليس للعامة فيه نصيب ، مشاورة النبى ﷺ خاصة أصحابه فى أسرى بدر . روى مسلم فى صحيحه من حديث عمر بن الخطاب عن ابن عباس قال: فلما أسروا الأسرى قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر: (ماترون فى هؤلاء الأسرى ؟) فقال أبو بكر : يانبى الله هم بنو العم

والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : (ماترى ياابن الخطاب ؟) فقال عمر : لا والله يارسول الله ، ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم ... فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، فهوى رسول الله ﷺ ماقال أبو بكر ولم يهو ماقلت ، وقد نزل القرآن كاشفاً عن الغيب مؤيداً ماهوى رسول الله ﷺ من رأى أبى بكر رضى الله عنه.

وهناك أمور تتعلق الحقوق فيها برأى العامة الذين تتصل بهم اتصالا مباشراً ، ولايحتاج الرأى فيها إلى كبير تدبير فتكون مشورتهم حقاً من حقوقهم لايقضى فيها إلا إذا أخذ رأيهم بطريقة من طرق تعرف الرأى المتاحة فى المجتمع ، ومثال ذلك بما شرعه النبى ﷺ لأمته لتقتدى به من بعده ، ماروى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين ، وسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم . فقال رسول الله ﷺ : (معى من ترون — أى من عامة الناس وخاصتهم — وأحب الحديث إلى أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين ، إما السبى ، وإما المال ، وقد كنت استأنيت بكم) . قالوا : فإنا نختار سبينا ، فقام رسول الله ﷺ فى المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : (أما بعد فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين، وإنى قد رأيت أن أرد لهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مايفئ الله علينا فليفعل) . فقال الناس : قد طيبنا ذلك يا رسول الله : فقال رسول الله ﷺ : (وإنا لاندرى من أذن منكم فى ذلك ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم) . فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا .

وهذا المسلك فى تطبيق الشورى على أنها الدعامة الأولى فى صرح (نظام الحكم فى الإسلام) يرشدنا إلى أدق ماوصلت إليه السياسة فى تعرف رأى العامة فيما يتصل بها مما يكون للأفراد حق فيه .

ذلك كما يقول العلماء إن الإمام أو الوالى لايمكنه أن يباشر جميع الأمور بنفسه، فيحتاج إلى إقامة من يعاونه ليكفيه مايقيمه فيه ، والأمر والنهى إذا توجه إلى جماعة الناس جملة يقع فيه التواكل من بعضهم ، وربما وقع التفريط ، فإذا أقام الإمام عرفاء على الناس ، على كل أهل بيت أو قبيلة أو جماعة عريف يتحمل مسئولية قومه وجماعته لم يسع العرفاء إلا القيام بما أمروا به .

وذكر ابن حجر فى شرح البخارى أن أبا رهم الغفارى كان يطوف على القبائل حتى جمع العرفاء . واجتمع الأمناء على قول واحد ، وقد روى ابن حجر حديث أبى داود عن رسول الله ﷺ : (العرافة حق ، ولابد للناس من عريف) ثم ذكر أن ماورد من التحذير من العرافة هو كالتحذير من عموم الولاية والإمارة ، لبيان مافى ذلك من خطر ، ليكون العاقل على حذر حتى لايتورط فى السعى إليها والتكالب على طلبها وقبولها وفى قوله ﷺ : (العرافة حق) دليل على أن العرافة وما إليها من مناصب الدولة كالقضاء من كل ماتقتضى المصلحة العامة إقامته أمر مشروع لتحقيق مصالح الأمة ونشر راية العدل بينها ومعرفة رأيها فيما يحتاج فيه إلى رأى العامة .

فالنبى ﷺ لما جاءته هوازن مسلمة تائبة ، واستعطفته أن يرد عليها أموالها وسبيها ، وكان ﷺ قد أعطاهم فرصة : رجاء أن يفيئوا إلى الإسلام ليرد عليهم سبيهم : فاستأنى بهم قبل قسم السبى بضع عشرة ليلة ، انتظار الفيئتهم قبل أن تصبح الغنائم فى يد المجاهدين ، يملكونها بالقسم ، وقد كان الأمر فيها

قبل القسم راجعاً إليه ، فلما فاتت الفرصة ، وقسمت الغنائم ودخلت الغنائم فى ملك أفراد المجاهدين وقد يكونون تصرفوا فى الأموال ، لأن الحركة أسرع إليها — بين لهم أن الحق فى رد ما غنمه المسلمون منهم أصبح حقاً لأفراد المجاهدين ، وأنه لا يرى نزع جميع ما وقع بأيديهم بغير طيب نفس منهم ، لما عسى أن يحدثه ذلك فى قلوب بعض المجاهدين ، فخير هوازن بين السبي والمال ، وأفهمهم أنه شفيع لهم عند جماعة المسلمين ، وقال لهم : (سأطلب لكم ، وقد وقعت المقاسم) وهذا التخيير بين المال أو السبى هو ما يراه سياسة وحكمة، ولا يرى إكراه المجاهدين على رد جميع ما غنموه وقسم بينهم ، وأصبح حقاً لأفرادهم ، وهذا معنى قوله ﷺ : (أحب الحديث إلى أصدقه) وعندئذ قالت هوازن : خيرتنا يا رسول بين الحسب والمال، فالحسب أحب إلينا ، فقام رسول الله ﷺ فى المسلمين شفيعاً ، يطلب إليهم أن تطيب أنفسهم برد السبى على إخوانهم الذين جاءوا تائبين مسلمين ، وأجاب الناس جملة بأنهم قد طيبوا أنفسهم برد ما تحت أيديهم من السبى على أهله ، وهنا يأتى دور تطبيق مبدأ الشورى تطبيقاً نظامياً تعرف به آراء أصحاب الحقوق من عامة الناس ، بتعبير صادق ، فقال لهم رسول الله ﷺ : (إنا لا ندرى — أى على التفصيل والتعيين ، وهذا أمر مطلوب ، ليجرى التصرف على أساسه — من أذن منكم ممن لم يأذن، فارجعوا — أى إلى محلاتكم ومواطن اجتماعاتكم الخاصة بكل عرافه — حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم) أى بعد التعرف على آراء أفرادكم فى حرية وطيب نفس، ورفع العرفاء رأى العامة فأخذ به رسول الله ﷺ ، وأمر برد السبى على أهله ، وعوض من لم تطب نفسه بترك نصيبه حتى أرضاهم .

هذه الطريقة فى تعرف رأى العامة إنما هى لون من ألوان الطرائق السياسيــــة التى عرفها فن الدساتير فى أنظمة الحكم الذى يسمونه الحكم (الديمقراطى) وهذا اللون لم يخرج عن كونه نموذجاً من نماذج المسالك التى يمكن بها تعرف رأى العامة فيما يتعلق بالأفراد مباشرة من الحقوق والواجبات، وليس هو المسلك الذى لامسلك سواه ، لأن المقصود من سائر المسالك هو الوقوف على رأى أصحاب الحقوق فى المسائل العامة .

وهذا الطريق الذى شرعه النبى ﷺ لأمته مضمونه تنظيم الأفراد فى جماعات سمها ماشئت : هيئات ، أو نقابات، أو جمعيات، أو بيوتات، أوقبائل أو اتحادات ، وعلى كل جماعة نقيب أو عريف أو رئيس ، تكون الجماعة قد رضيته مسئولا عنها ، ناطقاً بكلمتها وهذا النقيب أو العريف هو الذى يمثلها أمام رئيس الدولة المنفذ للدستور وسائر القوانين بنفسه أو أعوانه من الوزراء والعاملين معهم .

فإذا وقع من الحوادث مايتصل بالأفراد فى حق من حقوقهم أو واجب من واجباتهم ، كان حقاً على رأس الدولة أن يستشيرهم استشارة عامة ، يتعرف بها رأى كل فرد منهم ، وهم فى مأمن يحميهم من التأثر بغيرهم من ذوى السلطان والميول التى تعاند حرية الرأى ، ومن الطبيعى أن يكون العريف أو النقيب أو الرئيس هو الذى يتولى تنظيم الطريق الذى يتعرف به رأى الأفراد الذين وضعوا ثقتهم فيه باختيارهم له ليمثلهم أمام الإمام القائد والحاكم المتصرف . وهو الذى يتولى رفع رأى المنضوين تحت لواء عرافته أو نقابته إلى رأس الدولة المنفذ لأحكام القانون .

والذى يدل على أن هذا النظام الذى أتاحته البيئة إنما هو مجرد نموذج يحتذى أنه جاء فى صورة أخرى فى حديث العقبة الثالثة التى وقعت فيها بيعة

الأنصـار الكبرى ، فقـد جاء فى حديثها أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال لهم — بعد أن تمت بيعتهم له — : (أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً ، يكونون على قومهم بما فيهم) ، فأخرجوا تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، وهؤلاء النقباء معروفون بأسمائهم عند أهل السير وعلماء السنة .

ويؤخذ من حديث هذه البيعة أن النقباء هنا كالعرفاء هناك ، يكون على كل جماعة منهم نقيب أو عريف ، هو الذى يقوم بشأنهم العام ، وهو طريقهم إلى الإمام القائد رأس الدولة ، كما يؤخذ منه أن اختيار النقباء كان بانتخاب قومهم لهم ، فالنبى ﷺ إنما طلب منهم أن يخرجوا إليه منهم اثنى عشر نقيباً فهم الذين اختاروهم ، وقدموا أسماءهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم فرضيهم وبارك اختيارهم .

حول هذه الدائرة عرف مسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تطبيق مبدأ الشورى : وهـذا بالنظر للنبى صلى الله عليه وسلم المؤيد بالوحى كاف جداً فى توطيد دعائم الشورى مبدءاً أساسياً للدستور الإسلامى الذى يقوم على دعائمه (نظام الحكم فى الإسلام) .

ولم يكن النبى ﷺ فى حاجة قط إلى مشاورة أحد ، لأن الله تعالى يقول فى حقه : « وما ينطق عن الهـوى إن هو إلا وحى يوحى » ، فهـو ﷺ مسدد من الله تعالى فى اجتهاده ، ولم يكن يجتهد إلا فيما لم ينزل عليه فيه وحى وكان اجتهاده واقعاً تحت إقرار الوحى ، يقول أبو سعيد الحسن ابن أبى الحسن البصرى: ما أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما فى المشاورة من الفضل ، ولتقتدى به أمته من بعده .

والحوادث التى اجتهد فيها رسول الله ﷺ ، وكانت موضع مشاورة أصحابه كلها راجعة إلى سياسة الحرب ومكايدها ، وما يترتب عليها ، وإلى أمور

الدنيا ومصالح الخلق فى معاشهم ، ولم يكن يشاور أحداً قط فى الأحكام لأنها منزلة من عند الله .

أما موقف الأمة بعد رسول الله ﷺ من مبدأ الشورى ، فهو الموقف الذى دلت عليه حياة الخلفاء الراشدين ، والصالحين من ولاه الأمر فى خير قرون الإسلام ، فإنه لم يعرف عن أحد منهم أنه استبد برأيه ، بل كانت الشورى ديدنهم فى جميع مايعرض لهم من الحوادث التى لم يكن فيها نص من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ، سواء أكان ذلك من قبيل سياسة الأمة أم من قبيل التشريع الاستنباطى فى الأحكام الشرعية ، أم كان من قبيل مصالح الحروب وتعيين قوادها ، وتجهيز الجيوش . ومعاهدات الصلح . وإقامة موازين العدل بين الأفراد والجماعات ، وتحديد علاقات الأمة بغيرها من الأمم فى حالتى الحرب والسلم ، إلى غير ذلك مما يشمل سائر جوانب الحياة فى الأمة .

وأول موقف من مواقف الشورى بعد رسول الله ﷺ كان موقف الصحابة فى إقامة الخلافة عن رسول الله ﷺ ،واختيار الإمام القائد للأمة، وقدتمت هذه المشاورة ببيعة الصديق أبى بكر رضى الله عنه بيعة إجماعية ، كما سيأتى بعض تفصيل ذلك ، ثم كانت مشاورتهم فى أهل الردة ، وقد تشاوروا فى الأحكام الاجتهادية التى لم يجدوا عليها نصاً فى القرآن ولا فى السنة ، كمشاورتهم فى عدد الجلد على شرب الخمر ، ومشاورتهم فى ميراث الجد وبيع أمهات الأولاد ، وشاور عمر الهرمزان فى الحرب: فقال له الهرمزان مر المسلمين أن ينفروا إلى كسرى ، فأخذ عمر برأيه وتشاوروا فى الوباء يحل ببلد ، هل يقدم عليه ، أو يهرب منه ، وجرى الحوار فيه بين عمر وأبى عبيدة حتى روى عبد الرحمن بن عوف حديثاً فى شأنه عن النبى ﷺ . فوقفوا عنده .

وقد حض النبي ﷺ على إقامة الشورى من بعده بما يشعر بوجوبها . روى الترمذى فى جامعه أن النبى ﷺ قال : (إذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم سمحاءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها) .

ففى هذا الحديث وعد بالخير والبركة فى حياة المسلمين ماداموا متمسكين بالشورى ، وفيه وعيد شديد ، وإنذار بما تلقاه الأمة فى حياتها من الشدائد والمحن إذا تخلت عن الشورى الجادة . وخضعت للعواطف المائعة ، واكتفت فى أمورها برأى النساء . والنساء يعشن بعواطفهن استجابة لطبيعة الزوجية والأمومة التى خلقن منها ولها .

الموسوعة في سماحة الإسلام

المجلد الثاني

بقلم
محمد الصادق عرجون
عميد كلية أصول الدين
بجامعة الأزهر سابقا

الدار السعودية للنشر والتوزيع
SAUDI PUBLISHING & DISTRIBUTING HOUSE

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٣٩٢ - ١٩٧٢

الطبعة الثانية
١٤٠٤ - ١٩٨٤

جدة
الإدارة : البغدادية - عمارة الجوهرة - الدور الثاني - شقة رقم ٧ - ١٢
● تليفون ٦٤٣٢٨٢١ / ٦٤٢٤٠٤٣ / ٦٤٢٤٢٥٥
● تلكس ٤٠٤٣٥١ نشرا ● ص ب ٢٠٤٣
المكتبة : شارع الملك عبد العزيز ● تليفون رقم ٦٤٧٨٧٢٣
المكتبة : شارع فلسطين - مركز الزومان ● تليفون ٦٦٠٨٩٦٤

الدمام : الشارع العام - ص ب ٨٩٩ ● تليفون رقم ٨٣٢٣٥١٥ / ٨٣٣٥٥٢٠
الرياض السليمانية - ص ب ٩٤٧٢ ● تليفون : ٤٦٤٧٥١٥ / ٤٧٦٩٠٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحاكم في نظام الحكم الإسلامي يحكم ولا يملك

الدولة الإسلامية وضعت قواعدها الأساسية فقط فى عهد النبى ﷺ، وكانت القاعدة الأولى فى نظام الدولة الإسلامية إقامة الحاكم الذى يحكم ولا يملك، على عكس ما تنادى به الديمقراطيات الخادعة المخدوعة، وذلك أن الإسلام يدعو إلى التحرر من رق العبودية فى أية صورة من صورها، فهو لا يعترف بشخصية مهما علا شأنها تملك ولا تحكم، أو تحكم ولا تسأل، وهذا أول مبدأ يخالف فيه (نظام الحكم فى الإسلام) غيره من أنظمة الحكم المعروفة فى تاريخ الاجتماع الإنسانى، لأن هذه الأنظمة كلها، رئيس الدولة فيها إما أن يملك ويحكم، ولا يسأل كما فى الملكيات المطلقة أو الدكتاتوريات المستبدة، وإما أنه يملك ولا يحكم ولا يسأل كما فى الملكيات الدستورية أو الجمهوريات البرلمانية، وإما أنه يحكم ولا يملك، وهو مسئول أمام المجلس النيابى، وهذه المسئولية تسندها الحزبية التى يعتمد عليها نظام السياسة فى الدولة، كما فى النظام الجمهورى الرئاسى، إلى جانب توقيت مدة الرياسة فى هذا النظام.

ونظام الحزبية يجعل المسئولية صورية تقريباً لأن الرئيس إنما ينتخب من أعضاء الحزب صاحب الأغلبية، وحزبه ملتزم بتأييده دائماً مما يجعل هذا النظام استبداديا بحكم الأكثرية النيابية.

ولا يوجد فى أنظمة الحكم نظام يجعل من رئيس الدولة خادماً للأمة، يحكمها بإرادتها ولايملكها سوى (نظام الحكم فى الإسلام) فهو نظام دستورى، دستوره القرآن الحكيم، وهو نظام رئاسى دائم، تختار فيه الأمة

بكامل حريتها رئيسها وحاكمها ، إما بترشيح من الرئيس السابق لفرد معين كما فعل أبو بكر الصديق رضى الله عنه، إذ رشح عمر بن الخطاب إماماً عاماً للمسلمين وحاكماً لهم يحكمهم من بعده دون أن يفرضه عليهم .

ونرى أن الصديق رضى الله عنه لم يبتدع هذا المسلك ابتداعاً ، وإنما استأنس فيه بفعل رسول الله ﷺ معه ، إذ رشحه للخلافة بتقديمه للإمامة فى الصلاة فى مرضه وهى أعظم مراتب الدين ، ولهـــذا احتج به جمهور المسلمين لبيعته بالخلافة ، فقالوا : رضيه رسول الله ﷺ لديننا ، فكيف لا نرضاه لدنيانا ؟

غير أن رسول الله ﷺ لم يعين فى ترشيحه الخليفة بعده باسمه وشخصه حرصاً منه على أن يبقى مبدأ الشورى سنة قائمة فى الأمة ، تعتمد عليه فى نظام حكمها ، إذ لو عين رسول الله ﷺ شخصاً بذاته للخلافة بعده لكان هذا التعيين نصاً لايسع الأمة التشاور فيه ، لأنه لا شورى مع النص ، لأن الأمة مأمورة بطاعة رسول الله ﷺ فيما نص عليه كطاعة الله تعالى، لقوله عز شأنه : «من يطع الرسول فقد أطاع الله» بخلاف غير رسول الله ﷺ كائناً من كان، فإن ترشيحه شخصاً بعينه للخلافة بعده غير ملزم للأمة ، إلا إذا شورت فيه ، ورضيته إمامالها وأعلنت عن رضاها بإمامته .

وهذا هو ماوقع فى ترشيح أبى بكر الصديق رضى الله عنه عمر بن الخطاب للخلافة بعده ، فإنه لما شعر بدنو أجله جمع وجوه الناس وهم أهل الشورى ، وقال لهم : إنه قد نزل بى ما قد ترون ولا أظننى إلا ميتاً لما بى ، وقد أطلق الله إيمانكم من بيعتى وحل عنكم عقدتى ، ورد عليكم أمركم فأمروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إن أمرتم فى حياة منى كان أجدر ألا تختلفوا بعدى .

فقاموا يتشاورون فلم يتفقوا على رأى سوى أن يردوا الأمر إلى الصديق ويفوضوه فى اختيار الخليفة بعده ، وقالوا له : ياخليفة رسول الله ﷺ رأينا رأيك ، فاستمهلهم ليستأنس برأى بعض ذوى الحجى وزكانة الرأى من المهاجرين والأنصار فدعا عبد الرحمن بن عوف ، وسعيد بن زيد ، وأسيد بن الحضير ، وأضرابهم وسألهم عن رأيهم فى عمر بن الخطاب ، فكلهم اتفقوا على أنه خير من بقى بعد الصديق ، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى منه .

وبلغت هذه المشاورة جمهور الناس ، فدخلوا على أبى بكر ، وقالوا له : ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلاف عمر علينا ، وقد ترى غلطته ، وهو إذا ولى كان أفظ وأغلظ فقال الصديق : أجلسونى ، فلما أجلسوه قال لهم : أبالله تخوفونى ؟ خاب من تزود من أمركم بظلم ، أقول له . اللهم إنى استخلفت على أهلك خير أهلك . ثم قال لهم : أبلغوا عنى ما قلت من وراءكم .

فهذه المعارضة دليل على أن ترشيح الصديق عمر للخلافة بعده ليس تعييناً ملزماً ، وإنما هو بمجرد اقتراح قام على أساس يقينه بصلاحيته لهذا الأمر ، وأكد ذلك عنده ما زكى به عمر الذين استشارهم من الخاصة ذوى السابقة والحجى ، ولهذا رد الأمر إلى الأمة ، وبين أن مرجع الأمر فى النهاية حقها وحدها ، وقد صرح بذلك فى كلمته التى افتتح بها الشورى ، إذ قال فيها : إن الله قد أطلق إيمانكم من بيعتى ، وحل عنكم عقدتى ، ورد عليكم أمركم ، فأمروا عليكم من أحببتم .

فقوله رضى الله عنه : ورد عليكم أمركم فأمروا عليكم من أحببتم تقرير لحق الأمة فى إقامة الإمامة العظمى وتنصيب حاكمها ، فترشيح الصديق عمر لا يعدو أن يكون تزكية له فى تقديمه للأمة لتختاره إذا رأته قواماً بخلافتها .

ويزيد ذلك تأكيداً أن الصديق رضى الله عنه لما كتب للعامة كتاباً يرشح فيه عمر أشرف على الناس من نافذة داره ، وقال لهم : إنى قد عهدت عهداً افترضونه ؟ فقالوا : رضينا ياخليفة رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر مبيناً وجه ترشيحه لشخص بعينه هو عمر بن الخطاب : اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة ، وهذا تفسير قوله فى كلمة افتتاح الشورى : فإنكم إن أمرتم فى حياة منى كان أجدر ألا تختلفوا بعدى .

وإذا انتفى الامتياز فى فرد كان الترشيح لجماعة تتوافر فى كل واحد منهم شرائط الرياسة الدستورية العامة، ليختاروا منهم واحداً لرياسة الدولة وإمامة الأمة، بشرط أن ترضاه الأمة كما فعل عمر بن الخطاب فى ترشيحه ستة نفر من السابقين الأولين ، هم أفضل من بقى من الرعيل الأول ، وزكاهم بقوله : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى وهو راض عنهم .

وقد اختير من الستة المرشحين عثمان بن عفان باختيار الأمة التى استطلع رأى جمهورها فى عاصمة الإسلام عبد الرحمن بن عوف، بعد ان اتفق رفقاؤه المرشحون من قبل عمر للشورى على إسناد الأمر إليه فى تعرف رأى الناس ، وإعلان اختيار من يرضونه لإمامة المسلمين .

وقد يأتى تنصيب رأس الدولة وإمام الأمة باختيار مباشر من جمهور

ذوى الحل والعقد ، دون ترشيح من أحد ، كما وقع فى تنصيب على رضى الله عنه خليفة للمسلمين بعد عثمان رضى الله عنه .

وليس فى (نظام الحكم فى الإسلام) توقيت لرياسة رئيس الدولة . فالخليفة المختار دستورياً هو حاكم الأمة وإمامها ، يجب عليها أن تسمع له وتطيع مادام قائماً بعمله فى إطار الأصول الدستورية ، فإن غير وبدل فى شىء من تلك الأصول فلا طاعة له على الأمة .

أما ماوقع مخالفاً لذلك من نظام الحكم الوراثى ، وولاية العهد للأبناء والإخوة دون رجوع إلى الأمة غير مكرهة بقهر القوة الغاشمة ، أو الرشوة المغلفة ، فهو عمل مردود على أصحابه ، وليس من نظام الحكم فى الإسلام الذى نادى به القرآن الكريم ، وأقامه الراشدون من خلفاء الإسلام وحكامه على دعائم الشورى الحرة .

وقد أشار النبى ﷺ إلى نظام الحكم الصالح القائم على الشورى ، وإلى نظام الحكم القائم على اغتصاب إرادة الأمة أو تجاهلها فى حديثه المشهور الذى يقول فيه (الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكا عضوضاً) ومعنى هذا الحديث أن النبى ﷺ يخبر أن الإمامة الصالحة والخلافة الراشدة فى قيادة الأمة ، والقيام على حكمها وسياسة أمورها بالعدل والرحمة خلافة له ﷺ فى إقامة دستورها ، القرآن العظيم هى التى تقيم فيها الأمة معالم الشورى الحقيقية فى اختيار إمامها وحاكمها.

وقد كشف التاريخ عن سر الغيب فى منطق النبوة ، أن هذه المدة التى حددها النبى ﷺ لنظام الحكم الصالح العادل الرحيم فى واقع الحياة الوجودى هى مدة الخلفاء الراشدين الذين أقاموا معالم الحكم الشورى على قواعد دستور الإسلام ، القرآن العظيم .

ثم أخبر النبي ﷺ أن نظام الحكم بعد مدة الخلفاء الراشدين يتحول ملك عضوض ، أى ملك يكثر فيه الظلم الذى يعض الناس ويبطش بهم ، ويحيل حياتهم إلى قلق نفسى واضطراب فكرى ، يذهب بأمنهم وسلامتهم، ويملأ قلوبهم بالرعب والفزع ، وحياتهم بالهرج والفتن وسفك الدماء .

وقد تحقق هذا الإخبار إعجازاً ، فكان كما أخبر رسول الله ﷺ ، وقام حكم الراشدين شورياً بالعدل والرحمة ، ثم قام بعده حكم الملك العضوض بولاية العهد الوراثى ، حتى ولى إمامة الأمة الفجار ، والأطفال والولدان ، وامتد الفساد حتى أدار دفة الحكم من ورائهم النساء والخصيان وبعدت الأمة عن معالم دستورها ، القرآن العظيم ، وتفرقت فى أرض الدنيا عباديد ، وضلت طريقها فى الحياة ، وتخطفتها الذؤبان الجائعة من أعداء الإسلام ، يذلونها ، ويسلبون كرامتها . ويغتصبون حريتها ، ولن يعود لها عزها حتى تعود إلى (نظام الحكم فى الإسلام) فى ظل دستورها (القرآن العظيم) .

وليس هذا بعزيز إذا وجد فيها الموجهون الصالحون من العلماء العاملين الذين ينصحون لله ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم ، ولا يخافون فى الله لومة لائم ، يجهرون بالحق والسيوف مصلته فوق رقابهم ،وإذا وجد الموجهون الصالحون من الولاة المخلصين الصادقين الذين إذا مكنهم الله فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وشيدوا على طريق الهداية منائر الشورى ، ونشروا راية العدل ، رحماء بينهم أعزة على أعدائهم ، يجاهدون فى الله مخلصين .

وقد شهد التاريخ شيئاً من ذلك . شهده فى عهد خامس الراشدين عمر ابن عبد العزيز ، وشهده فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، وشهده فى عهود أوائل خلفاء الأندلس ، وشهده فى عهد قطز ، والناصر قلاوون وغيرهم .

فتحديد المدة فى الحديث لا يراد منه أن ذلك الكائن فى عهد الراشدين لا يكون بعدهم أبداً ولكن يراد منه بيان أن خواص أصحاب رسول الله ﷺ الذين رباهم بسيرته وأخلاقه سيصلون على عهد التربيـــة النبوية لا تنحرف بهم دنيا الناس ، وأن الانحراف سيقع بعدهم تمييزاً لخصائص التربية فى كل عصر وجيل .

وقد أخبر النبي ﷺ أن أمته لا ينقطع عنها المدد النبوى فى الاستقامة الفاضلة ، فنى الحديث الصحيح أنه ﷺ قال : (لا تزال طائفة من أمتى قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم) .

أوّل حاكم في الإسلام

وقد كان أول حاكم للدولة الإسلامية بنص القرآن الكريم هو النبي ﷺ لأن الله تعالى أوجب طاعته فى جميع ما يأمر به أو ينهى عنه ، أو يرغب فيه ، أو ينفر عنه ، فقال تعالى : « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا »[1] .

هذه الآية الكريمة هى الدعامة الوسطى التى يعتمد عليها بناء الصرح الدستورى فى (نظام الحكم فى الإسلام) و هى المادة الأولى فى قانون السياسة الدستورية فى الإسلام .

وفيها من الفقه الدستورى أنها تقرر فى صراحة لا لبس فيها أن طاعة

---

(١) سورة النساء آية ٥٩ .

رسول الله ﷺ واجبة استقلالا يجب الأخذ بها دون الرجوع إلى شيء آخر غيرها ؛ وأن التوقف دون المسارعة إلى امتثالها أمراً ونهياً وترغيباً وترهيباً إلحاد في دين الله وفسوق عن جادة الشريعة ومقتضى نص الدستور الإلهي ، شأنها في ذلك شأن طاعة الله تعالى، بغير فارق، سوى أن طاعة الله تعالى ذاتيه، وطاعة الرسول مستمده من وصف رسالته من الله تعالى .

ومأخذ ذلك من إبراز الأمر في صورته الكاملة مقروناً بفعل الطاعة دون إضمار له ، ذلك الإضمار الذي يشعر بالتبعية .

ويظهر هذا من أسلوب الآية في التنبيه على طاعة أولى الأمر دون ذكر لفعل الطاعة في جانبهم اكتفاء بالمشاركة التي يقتضيها العطف ، فلم تبرز الآية فعل الطاعة في جانب أولى الأمر وأبرزته في جانب طاعة الله وطاعة لرسول .

وطاعة الرسول بمقتضى أسلوب الآية حق له باعتباره ولى أمر المسلمين وحاكمهم الأعلى ، وهذه الولاية والحاكمية إنما كانتا له ﷺ بوصفه رسولا من الله تعالى . فهي له من الله بادىء ذي بدء ، وقد أعطيت حق طاعة الله تعالى في وجوب الامتثال استقلالا ، بل جعل الله تعالى طاعة الرسول عين طاعة الله تعالى ، فقال جل شأنه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله »(١) وجعل أتباعه في أقواله وأفعاله وإقراراته عنوان محبة الله لمن يتبعه ، فقال : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله »(٢) وأوجب على المكلفين قاطبة الرضا المطلق بحكمه ، وجعل ذلك عنوان الإيمان فقال تبارك وتعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما »(٣) وأثبت له ﷺ الحاكمية ، وأمره بها فقال

---

(١) سورة النساء آية ٨٠ (٢) سورة آل عمران آية ٣١

(٣) سورة النساء آية ٦٥ .

عز شأنه : (وأن أحكم بينهم بما أنزل الله)[١] وقال : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله)[٢] وأنكر القرآن الكريم على من لم يرض أو يعمل بحكم النبي ﷺ جحوداً وافتياتاً ، وجعل حكمه ﷺ حكماً لله تعالى ، فقال « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون »[٣] .

وأما طاعة أولى الأمر — وهم فى أصح أقوال المفسرين من السلف والخلف — علماء الأمراء والولاة ، فإن فشا الجهل بالدين وأحكامه فيهم كان الأمر إلى العلماء المتقين ، ويجب على الأمراء أن يسألوهم عن حكم الله فيما يعرض لهم من سياسة الأمة ، فإن استكبروا عن سؤال العلماء وأفتوا بجهالتهم لم تكن لهم فى عنق الأمة طاعة واجبة إلا تقية بالغ الضرر . قال القرطبي نقلا عن الإمام ابن خويز منداد : (وأما طاعة السلطان فتجب فيما كان لله فيه طاعة ، ولا تجب - بل لا تجوز - فيما فيه لله معصية ، ولذلك قلنا . إن ولاة زماننا لا تجوز طاعتهم ولا معاونتهم ولا تعظيمهم ، ويجب الغزو معهم متى غزوا - فهى تابعة لطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ) لأن وصف الولاية الموجب لطاعتهم إنما اكتسبوه بحق ما فى الدستور الإلهى من وجوب إقامة حاكم يصرف شئون الأمة ، ويقيم بينها معالم العدل والنصفة فهم مطاعون ما أقاموا هذا الدستور ، فإذا انحرفوا عنه وحادوا عن طريقه عناداً أو استضعافاً وتقليداً لمراسم أجنبية عن الإسلام فلا طاعة لهم لقول رسول الله ﷺ : (إنما الطاعة فى المعروف . ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) ولقول الله تعالى :(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)[٤]

---

(١) سورة المائدة آية ٤٩ .
(٢) سورة النساء آية ١٠٥ .
(٣) سورة المائدة ٥٠ .
(٤) سورة المائدة آية ٤٤ .

قال العلماء : هذا فى حق من حكم بغير ما أنزل جحداً لما أنزل الله ، أو إيثاراً لغير ما أنزل الله على شريعة الله .

وفاء الدستور الإسلامى بالأحكام الأساسية للدولة

وقد اشتمل القرآن الحكيم —وهو الدستور الإسلامى— على الأحكام الأساسية لنظام الدولة فى الإسلام ، فعرض لعلاقة الفرد بالفرد ، الفرد المؤمن بإخوانه فى الإيمان تارة وإخوانه فى الإنسانية تارة أخرى، وعرض لعلاقة الفرد بأسرته ، وبين حقوق كل فرد منها نحو الآخرين ، وأقام نظام الأسرة على قواعد واضحة ، فللوالدين على أولادهم حقوق ، وللأولاد على والديهم حقوق ، وللزوج على زوجه حقوق ، وللزوجة على زوجها حقوق، وللإخوة بعضهم على بعض حقوق ، ولسائر القرابة وكل من يرتبط بالفرد بصلة القربى أو صلة الجوار أو صلة الخدمة والمصلحة حقوق بينها القرآن ، ونبه على ما وراء ذلك من الفضل والمحاسنة والتراحم بما يجعل الأمة كلها أسرة واحدة ، وحسب المسلم أن يقرأ قول الله تعالى :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً[١] » .

---

(١) سورة النساء آية ٣٦

فهذه آية واحدة من كتاب الله ، القرآن العظيم ، لم يفتها وشيجه من وشائج الترابط فى المجتمع إلا ذكرتها ، وجعلت منها دعامة من دعائم التكافل الاجتماعى بين سائر أفراد الأمة وجماعاتها .

كذلك عرض القرآن لعلاقة الأسرة بالأمة ، وعلاقة الأمة بالحاكم ، وعلاقة الحاكم بالأمة عامة كمجتمع له مصالح اجتماعية يعمه النفع بها ، وعلاقته بالأفراد فى مصالحهم الخاصة التى تلزمه باعتباره راعياً فى الدولة مسئولا عن مصالح هؤلاء الأفراد .

ثم عرض القرآن إلى علاقة الأمة بغيرها من الأمم فى حالتى الحرب والسلم ، والأخذ والإعطاء ، وتبادل المصالح والمنافع ، وعرض للنظام الاقتصادى ، وبين مصادر الثروة ومواردها من الزراعة والتجارة والصنائع والحرف ، ووزع الثروة توزيعاً عادلا ، وأتاح الفرصة لكل قادر على العمل ، وبين وضع المال فى ملكية الأفراد والجماعات ، وعرض للنظام الاجتماعى ، وأقامه على أساس القيم الخلقية والفضائل الإنسانية ، ووازع الضمير ، وعرض للنظام السياسى ، فأمر بطاعة ولاة الأمر فيما لا معصية فيه لله تعالى ، وأمر الأمة بمناصحتهم ومعاونتهم وتعظيمهم ما داموا معظمين لأمر الله تعالى وربط ذلك كله بالإيمان بالله واليوم الآخر ، ليجزى الله كل نفس بما كسبت ، وهذا فيصل ما بين نظام الحكم فى الإسلام ، وغيره من الأنظمة التى لا تعرف غير سلطة القانون ، والقانون لا يدرك إلا من تعرى له بحسناته وسيئاته ، أما من تخفى وراء الحيل والمخاتلة والتظاهر بالخير فأنى للقانون أن يدركه بعقوباته وزجره ؟

إقامة الحاكم العام على رأس الدولة

ضرورة اجتماعية ودينية

بينا أن دستور الإسلام القرآن العظيم اشتمل على الأحكام الأساسية التى يقوم عليها نظام الدولة ، وأجملنا القول فى ذكر القضايا والمسائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى إذا استقامت على قواعدها الأمة انتظم أمرها ، والتأم شملها ، وتوحدت كلمتها ، وقويت شوكتها ، ورفرفت على آفاقها راية العدل ، وتواصلت فيما بينها بالرحمة متآخية متحابة .

ولا ريب أن هذه الأمور التى جاء بها دستور الإسلام فى أشد الحاجة إلى قيم مسئول على تدبير أمر الأمة فيها ، وتنفيذها ، ومن ثم كان تنصيب إمام عام وحاكم منفذ ، تسمع له الأمة وتطيع واجباً شرعياً ، يوجبه الدين لتجتمع كلمة الأمة ، وتنفذ أحكام الشريعة التى هى القانون الإلهى الذى تساس الأمة بأحكامه .

يقول الإمام القرطبي : ولا خلاف فى وجوب ذلك بين الأمة ، ولا بين الأئمة ، وأجمعت الأمة على تقديم الصديق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فى التعيين ، حتى قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، فدفعهم المهاجرون عن ذلك ، وأقاموا عليهم الحجة ، فرجع الأنصار عن رأيهم ، وتمت بيعة أبى بكر رضى الله عنه بإجماع من الفريقين .

فلو كان فرض الإمامة غير واجب لما ساغت هذه المناظرة والمحاورة عليها ، ولكان يمكن إنهاء الأمر بالقول : إن نصب الإمام ليس بواجب على الأمة ، وليس للتنازع فيه وجه ولا فائدة .

ثم إن الصديق رضى الله عنه لما حضرته الوفاة عهد إلى عمر فى الإمامة، وقدمه إلى الأمة لتختاره إذا وافقت على عهده ، فاختارته الأمة ولم يعترض أحد بأن هذا الأمر غير واجب على الخليفة ولا على الأمة فدل ذلك على وجوب الإمامة ، وأنها ركن من أركان الدين الذى به قوام المسلمين وصلاح حالهم .

وقد شذ قوم فقالوا : إن نصب إمام على الأمة وحاكم يدير سياسة الدولة ليس بواجب فى الدين ، وإن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم ، وتناصفوا فيما بينهم ، وبذلوا الحق من أنفسهم ، وقسموا الغنائم والفىء والصدقات على أهلها ، وأقاموا الحدود على من وجبت عليه أجزأهم ذلك ، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماماً يتولى ذلك .

والذى يتأمل — منصفاً — يعلم علماً يقينياً أنه لا سبيل إلى تحقيق أمر من هذه الأمور التى هى من صميم عمل الإمام العام وواجب الحاكم — مما ذكره المعارضون لنصب الإمام أو غيرها فى مهمات حياة الأمة من الجهاد وتجهيز الجيوش ، ورسم الخطط لملاقاة الأعداء ، وعقد الصلح ، والتصرف فى الغنائم والأسرى ، وبعث الإمدادات ، وإعداد الأسلحة وسائر وسائل القوة المأمورة بها الأمة وبذل الحق لأهله ، والتناصف، وإقامة الحدود بأنواعها، وحفظ أموال اليتامى ، والأخذ على أيدى السفهاء — بغير إقامة إمام عام مسئول ، وحاكم يتفرغ لذلك .

وليقل لنا أصحاب هذا الرأى الذى يترك الأمة هملا بغير راع يرعى شئونها ويرد الظالم عن ظلمه ، ويأخذ الحق من القوى ليرده على الضعيف ، كيف ومن يتولى ذلك ويباشره ويأمر به ؟ أهى الأمة كلها بجميع أفرادها ، أم هم أولو الحل والعقد من القادة والمصلحين ؛ وهؤلاء وأولئك هل يجتمعون

من أقاصى الأرض لينفذوا حكم الدستور وقوانينه فى كل حادث وجزئية تقع فى أى مكان من الدولة ؟ أم يكتفون بإسناد الأمر إلى من يتفرغ للنظر فيه ومباشرته ؟

إن افتراض أن الأمة يمكن أن تستقيم على منهج الدستور منفذة لأحكامه وأحكام القوانين المتفرعة عنه بغير قيم مسئول وإمام عام يتفرغ لأمر تدبير سياسة الحكم وتنفيذها خيال يسبح فى فضاء لا تعيش فيه أمة تحكمها طبائع البشر ، وهذا ليس بموضع نظر ، وقد فرغت حياة الأمة من الجدل حوله ، وأصبح نصب رئيس للدولة مسئول عن إدارة دفة الحكم فيها ، على أية صورة من صور أنظمة الحكم واقعاً لا سبيل إلى تجاهله واطراحه .

والإسلام نظام واقعى لا يعرف هذه الخيالات الجدلية السابحة فى فضاء ، وإنما يعرف الإسلام واقع الحياة الذى تعيشه أمته كغيرها من أمم الأرض .

والإمام العام إنما يوجب الإسلام على الأمة إقامته ليدفع عنها عدوها ، ويرد عنها عدوانه ، ويحمى دمارها ، ويحافظ على أوطانها ومقدساتها ، ويسد الخلل الذى ينشأ عن اضطراب أمرها ، ويستخرج الحقوق من غاصبيها ويردها على أهلها ، ويقيم الحدود الزاجرة ، والتعزيزات الرادعة ، ليمنع أهل البطالة والفساد من العبث بحياة الآمنين ، ويجبى ما وجب من الأموال لبيت المال ، وينفق ما جبى فى أهله وحقه ، فينشىء معاهد العلم ومدارسه ، ويؤسس المساجد ، ويمهد الطرق للسابلة ويقيم المشافى للعلاج ويبنى المصانع وغير ذلك مما هو لازم لحياة الأمة .

ومن صميم طبيعة المهمة التى يقوم عليها نصب الإمام استنبط أئمة المسلمين من اعلام العلماء شروطاً يجب أن تتوافر فيمن تختاره الأمة للولاية عليها ،

ويتحمل مسئولية حكمها، حتى يمكن أن تطمئن إلى عدله، وتعطيه من التعظيم والسمع والطاعة ما يكون جديراً به فى مكانه منها .

ومن أهم تلك الشروط :

١ — أن يكون الإمام العام عالماً مجتهداً، لا يحتاج إلى غيره فى الاستفتاء، فيما يعلم بالنص، قديراً على اختيار أهل الشورى من العلماء، فيما لم يرد فيه نص، فإذا لم يتوافر العلم بهذا القدر وعلى هذه الصورة، وجب أن يكون الإمام من أمثل الأمة عقلا يستشير العلماء فيما ينوبه من أمور الدولة، ولا يقضى بغير علم يأتيه من أمناء العلماء ذوى البصر بالأمور .

٢ — أن يكون الإمام العام حصيف الرأى، خبيراً، بأمور السياسة والحروب، وتدبير الجيوش، وسد الثغور، والأخذ على أيدى الظلمة وإنصاف المظلومين .

٣ — أن يكون الإمام العام قوى القلب والعزيمة، لا تلحقه رقة فى إقامة الحدود، ولا تأخذه بأهل الفساد رأفة .

٤ — أن يكون معروفاً بالعدالة، لا يشينه إخلال بالمروءات فضلا عن ارتكاب المعاصى والسيئات، وليس معنى ذلك أن يكون معصوماً، وإنما معناه أنه أصلح الأمة وأقدرها على الاستقامة فيما يظهر من حاله .

فإذا أقيم الإمام العام على أساس هذه الشرائط ثم طرأ عليه ما يخالفها، ففسق عن أمر ربه فى حق أمته وجب — فى رأى جمهور الأمة — خلعه عن منصب الإمامة، لأن ما طرأ من الفسق يمنعه من القيام بأمر العباد على مقتضى العدالة والصلاح .

وشذ قوم فقالوا : لاينخلع الإمام العام إلا إذا كفر كفراً يخرجه عن الملة ، كما جاء حديث عبادة بن الصامت الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه قال (دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه ، فكان فيما أخذ علينا أن بايعناه على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ، وأن لاننازع الأمر أهله . إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان).

وفى الحق أن هذا الحديث وأمثاله خرج مخرج الإرشاد والنصح لإبعاد الأمة عن مواطن الفتن الداخلية التى تفتك بأمنها وسلامتها ، وتضعف قوتها التى يجب ان تبقى لأعدائها وذلك عندما يكون الأمر محصوراً فى دائرة ضيقة لايعم بها الفساد ، وكانت الأمة ليست على مستوى المقاومة الظافرة .

أما لو كانت الأمة من صلاح الحال وقوة اليقين ، وأمن الفتنة الداخلية، وقد رأت حاكما يتظاهر بالفجور ، ويعبث بمصالح الأمة ، ويتواطأ مع أعدائها على اغتصاب أوطانها ، فيجب عليها عزله عن ولاية حكمها ، وتولية من هو أصلح لإدارة أمورها بالعدل والرحمة .

تطبيق مبدأ الشورى

ورئيس الدولة فى الإسلام مقيد فى إدارة شئون الأمة بمبدأ الشورى الذى أمر الله به رسوله ﷺ وهو يحكم منصب الرسالة أول حاكم للدولة فى الإسلام — فى قوله تعالى :

« وشاورهم فى الأمر »[1] والذى وصف الله به حال الأمة ،

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

وأخبر أنه ديدنها وخلقها في قوله تعالى . « وأمرهم شورى بينهم »(٢) والذى طبقه عملياً رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأحداث والوقائع التى ذكرنا نماذج منها .

بيد أن هذا المبدأ العظيم الذى يدور عليه فلك الحكم فى نظام الإسلام السياسى لم يظهر خطره وعظيم مكانته وحاجة الأمة إليه ، ليستقيم بناؤها السياسى على دعائم العدالة ، إلا بعد عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم ، إنما اكتسب وصف الحاكمية من منصب الرسالة ، ومنصب الرسالة مسير بالوحى ، فالنبى ﷺ لم يكن :

أولا : فى حاجة إلى العمل بمبدأ الشورى ، لأنه مؤيد بالرسالة ، ومسدد بالوحى ، ومحبو بأعظم عقل أهدى إلى إنسان فى الوجود ، وإنما كان ﷺ يلجأ إلى الشورى فى بعض الحوادث الخلية من النص ، والتى لا تتعلق بأمر العقيدة أو العبادة ، اجتهاداً منه لحاجة التشريع وتعليم الأمة لتقتدى به في تطبيق هذا المبدأ العظيم .

ثانياً : أن وصف الحاكمية — كما قلنا — إنما جاءه ﷺ من طبيعة رسالته بدين الإسلام من جانب نظامه الدولى ، لأن هذا الجانب يحتم أن يكون للمسلمين دولة تطبق رسالة الإسلام العملية وهذه الدولة لا بد لها من حاكم يدبر شئونها ويصرف أمورها ، فكان من البداهة أن يكون صاحب الرسالة — ما دام موجوداً — هو الحكم والحاكم لهذه الدولة .

---

(١) سورة الشورى آية ٣٨ .

فالدستور الإلهى هو الذى عين النبى ﷺ حاكماً ورئيساً لدولة الإسلام مدة وجوده صلى الله عليه وسلم ، فلا يمكن بداهة أن يكون للشورى مدخل فى تعيين حاكم للدولة الإسلامية فى حياة النبى ﷺ ، لأنه معين لإمامة الدولة بمرسوم إلهى اقتضته طبيعة رسالته ، وبقى المبدأ قائماً فى التشريع والتطبيق ، وقد عرفنا سبيله فى التشريع الاجتهادى ، وأما فى التشريع النصى فلا سبيل لمبدأ الشورى ، إذ لا رأى ولا اجتهاد مع النص ، وأما فى التطبيق العملى فحق أهل الاجتهاد والرأى وأولى العلم قائم فى مبدأ الشورى ، يجب على ولى أمر المسلمين أن يعمل بهذا المبدأ الدستورى ، فيدعو أهل الشورى ، ويشركهم فى أمره فيما تدعو إليه حاجة الأمة .

وقد تغير الأمر تغيراً كلياً بعد وفاة رسول الله ﷺ وانقطاع الوحى . فأصبح مبدأ الشورى من أخطر وأعظم مبادىء (نظام الحكم فى الإسلام) لأنه تناول اختيار الحاكم نفسه وطريقة اختياره ، وتناول التشريع الذى يشرح الدستور ، ويضع القوانين المتفرعة عن نصوصه الكلية ، فى السياسة والاقتصاد ، والاجتماع ، والمعاملات المدنية والجنائية وشئون التجارة والزراعة ، وتوزيع الثروة بعد أن اتسعت مواردها ، وتدبير الحرب ، وتجهيز الجيوش ، والتصرف فى آثار ذلك من غنائم أو أسرى ، وتطبيق ذلك كله تطبيقاً عملياً كما سترى ذلك فى نماذج الشورى التى طبقها الخلفاء الراشدون ، ولا سيما الشيخان أبو بكر وعمر فى عهديهما .

وسنكتفى بعرض صور لتطبيق مبدأ الشورى فى تنصيب الحاكم الأعلى للدولة فى عهود الراشدين ، وهى صورة رائعة ، لأنها تمثل الحكم الأصلح فى الدولة الإسلامية بشهادة النبى ﷺ فى قوله : (الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً عضوضاً ، وفى قوله :(خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم) ، ومعنى ذلك — كما قدمناه — أن الحكم الصالح الذى

يتميز بهذا اللقب التشريفى ، لقب الخلافة عن رسول الله ﷺ هو ما كان قائماً على تطبيق مبدأ الشورى ، وكان الأنموذج الأعلى لذلك هو ما كان فى مدة الخلفاء الراشدين ، لأن الحكم فى هذه المدة كان حكماً مثالياً ، فى تحقيق العدالة والرحمة ، وحكم الراشدين — هو الحجة العملية التطبيقية على وجوب التمسك بهذا المبدأ الدستورى العظيم فى كل ما يتصل بشئون الدولة ، ولم ينص عليه فى القرآن ، وهو الدستور الأساسى ، مما تركته الشريعة للتشاور والاجتهاد

وأول مظهر لذلك كان فى إقامة أبى بكر الصديق رضى الله عنه أول حاكم أعلى للدولة خليفة لرسول الله ﷺ .

فقد توفى رسول الله ﷺ إثر مرض طال أياماً كثيرة ، وقد عرف النبى ﷺ قرب أجله بإشارات وردت فى القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى: « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » (١) روى البخارى فى الصحيح عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه ، فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟.

فقال عمر : إنه من قد علمتم ، فدعاهم ذات يوم فأدخلنى معهم ، فما رأيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليريهم ، فقال : ما تقولون فى قول الله تعالى:(إذا جاء نصر الله والفتح) ؟

فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً .

فقال لى : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . فقال ما تقول ؟

---

(١) سورة النصر .

فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ ، أعلمه له ، قال : (إذا جاء نصر الله والفتح) فذلك علامة أجلك (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) .

فقال عمر بن الخطاب : لا أعلم منها إلا ما تقول .

وفى حديث آخر عن ابن عباس من رواية الإمام أحمد فى المسند أنه قال : لما نزلت : « إذا جاء نصر الله والفتح » قال رسول الله ﷺ : (نعيت إلى نفسى) .

وفى تفسير القرطبى عن مقاتل قال : لما نزلت — هذه السورة — قرأها النبى ﷺ على أصحابه ، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص ففرحوا واستبشروا ، وبكى العباس ، فقال النبى ﷺ : (ما يبكيك يا عم) ؟ قال : نعيت إليك نفسك ، قال : (إنه لكما تقـول) . فعاش بعدها ستين يوماً ما رئى فيها ضاحكاً مستبشراً .

ومع ذلك كله فلم يعين النبى ﷺ شخصاً بعينه باسمه وذاته خليفة له حاكماً عاماً للأمة من بعده ، وهو يعلم أنه لا بد لها من إمام عام يقوم مقامه ويخلفه فى تصريف الأمور وتدبير شئون الدولة وتنفيذ أحكام الدستور ، ولكنه رشح أبا بكر بتقديمه لإمامة الصلاة وقوله حينما سمع صوت عمر وهو يصلى بالناس إماماً : (يأبى الله ورسوله والمؤمنون ، مروا أبا بكر فليصل بالناس) .

وبهذا الأسلوب المحكم الحكيم وجه الأمة إلى وجوب الأخذ بمبدأ الشورى فى تنصيب من يتولى أمر حكمها ، لأن الأمة هى صاحبة هذا الحق بعد نبيها ﷺ ، فلتعط هذا الحق من تشاء عن اختيار منها .

وقد فهم الصحابة ذلك ، فتركوا جسد رسول الله ﷺ مسجى فوق سريره بعد أن أفاقوا من هول الصدمة بوفاته ، واجتمعوا فى دار الشورى ،

سقيفة بنى ساعدة ، ليتشاوروا فى تنصيب خليفة لرسول الله ﷺ ، يحكم الأمة بدستورها الإلهى ، ويصرف شئونها كما كان يصرفها نبيها ﷺ ، وتمت بيعة أبى بكر بيعة إجماعية بعد مشاورات ومحاورات جرت بين المهاجرين والأنصار .

روى ابن عباس عن عمر بن الخطاب أنه قال : كان من خبرنا حين توفى رسول الله ﷺ أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم فى سقيفة بنى ساعدة ، واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر .

فقلت : يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا الأنصار ، فانطلقنا حتى أتيناهم فى سقيفة بنى ساعدة ، فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم معشر المهاجرين رهط ، فى كلام يرشح به الأنصار للخلافة .

قال عمر : فلما سكت أردت أن أتكلم ، وكنت زورت فى نفسى مقالة أعجبتنى أريد أن أقدمها بين يدى أبى بكر ، وكنت أدارى منه بعض الحدة ، فلما أردت أن أتكلم قال : على رسلك ، فكرهت أن أغضبه .

فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم منى وأوقر ، ووالله ما ترك من كلمة أعجبتنى فى تزويرى إلا قال فى بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكت .

فقال للأنصار : ماذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، هم أوسط العرب داراً ونسباً .

وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ، فبايعوا أيهما شئتم ، فأخذ بيدى وبيد أبى عبيدة بن الجراح ، وهو جالس بيننا ، فلم أكره مما قال غيرها .

فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، منا أمير، ومنكم أمير يامعشر قريش .

فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف فقلت : ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ، ثم بايعته الأنصار .

قال عمر : وإنا والله ماوجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبى بكر خشينا إن نحن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلا منهم بعدنا ، فإما بايعناهم على مالا نرضى ، وما أن نخالفهم فيكون فساد ، فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذى بايعه تغرة أن يقتلا .

قال ابن منظور فى لسان العرب : ومعنى الحديث أن البيعة حقها أن تقع صادرة عن المشورة والاتفاق، فإذا استبد رجلان دون الجماعة فبايع أحدهما الآخر ، فذلك تظاهر منهما بشق عصا الطاعة واطراح الجماعة ، فإن عقد لأحد بيعة فلا يكون المعقود له واحداً منهما ، وليكونا معزولين من الطائفة التى تتفق على تمييز الإمام منها ، لأنه لو عقد لواحد منهما وقد ارتكبا تلك الفعلة الشنيعة التى أحفظت الجماعة من التهاون بهم والاستغناء عن رأيهم لم يؤمن أن يقتلا .

وهذا الذي قاله ابن منظور هو رأي بن الأثير في النهاية، وهو مختصر قول الأزهرى فى التهذيب فإنه قال : لايبايع الرجل إلا بعد مشاورة الملأ من أشراف الناس واتفاقهم ومن بايع رجلا من غير اتفاق من الملأ لم يؤمروا أحد منهما تغرة بمكر المؤمر منهما لئلا يقتلا أو أحدهما .

بيعة ابى بكر دستور عملى

فى نظام الحكم الإسلامى

وقصة بيعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه هى الدعامة التطبيقية الأولى فى توجيه نظام الحكم الإسلامى وجهة الشورى ، وقد أبانت أموراً هامة .

أولها : أن الأمة أجمعت على تقديم تنصيب الإمام العام ، وهو الحاكم الأعلى للدولة ورئيسها على تجهيز رسول الله ﷺ ، وإنزال جسده الشريف فى روضته المطهرة .

وفى ذلك مايدل دلالة قاطعة على أن إقامة حاكم عام للأمة هو أهم أمور الدين والدنيا فى شئون الدولة ، وأنه لاينبغى أن تبقى الأمة بدون حاكم عام إلا ريثما تختار هذا الحاكم فى سرعة لاتعجلها عن إصابة الحق والعدل.

ثانيها : أن تنصيب الحاكم الأعلى للدولة لايكون إلا عن بيعة من الأمة وهذه البيعة لاتتم ، ولا تكتسب صفتها الدستورية الملزمة للأمة إلا بعد مشاورة من ملأ الناس ، يشترك فيها اشتراكاً مباشراً أهل الرأى الحصيف ، والعلم التقى ، وأولو الأحلام الراجحة فى ميزان السياسة ، ومن وراء كل أولئك سائر الأمة .

ثالثها : أن من خالف الشورى فى البيعة ، وعقد بيعة أخرى ، غير بيعتها كان شاقاً عصا الطاعة للدستور ، مفرقاً لجماعة المسلمين ، مشتتاً لكلمة الأمة ، باغياً للفتنة ، معرضاً نفسه ومن بايعه إن رضى ببيعته لأقسى الجزاء وهو القتل .

رابعها : ألا وراثة للحكم فى الإسلام فنظام الملكية الوراثى فى جميع صوره وأساليبه نظام خارج عن حدود الإسلام ، لايقره دستوره نصاً ، ولا يتفق مع تطبيقه عملا .

ويبقى ما وراء ذلك من طريقة إجراء الشورى والاختيار موكولا للأمة وإلى ذوى الاختصاص الدستورى ، القوامين على فهم دستور الإسلام ، القرآن العظيم نصاً وروحاً ، تجرى فيه الأمة على حسب مقتضيات الأحوال وعوامل البيئة وسنن (التطور) فى الحياة .

وعلى هذا الأساس ولى أبو بكر الصديق رياسة الدولة العليا ، خلافة لرسول الله ﷺ ببيعة عامة من الأمة بعد مشاورة كانت الحرية فيها مكفولة على أتم صورها ، حتى قالت الأنصار وهم أصحاب الكثرة العددية فى ظروف الاختيار وزمانه : منا أمير ومنكم أمير ، ولكن الحجة من القانون الدستورى أقنعتهم فبايعوا بيعة سائر المسلمين .

وقد تولى هذه البيعة رجال الشورى فى الإسلام ، وهم معروفون بأوصافهم التى ترفعهم إلى مرتبة التقدير لأعباء الحكم ، وتؤهلهم لمعرفة مقتضياته ، فاختارو له أفضل من رأوه صالحاً للقيام بمسئوليته ، فكان هذا المختار لخلافة رسول الله ﷺ الصديق أبا بكر لأنه أقومهم بأعباء الحكم ، وأقدرهم على تحمل خطر مسئوليته ، وأصلحهم لإدارة ، دفة سياسة الدولة فى أول خطواتها الدولية نحو الحياة .

وقد كشف التاريخ الواقعى عن توفيق المسلمين فى هذا الاختيار ، وشاهد ذلك موقف أبى بكر من ارتداد العرب عن الإسلام كفراً أو فسقاً يؤدى إلى الكفر بمنع الزكاة التى هى حق الفقراء وصالح الدولة العام فى أموال الأغنياء ، فقد تضعضعت كل شخصية إلا شخصية أبى بكر ، فقد كانت قوية

قاهرة ، تنطق بعزيمة صارمة ، وإرادة صادقة ، وحزم لا يلين ، حتى رد العرب إلى حظيرة الطاعة الإيمانية ، ووجههم إلى حمل راية العدالة ينشرونها فوق هامات الأمم والشعوب .

عهد الحاكم الأعلى إلى الأمة

وطريقة أبى بكر فى تنفيذ الشورى

عرف أبو بكر منذ اللحظة الأولى لاختياره خليفة لرسول الله ﷺ ، وحاكماً أعلى للأمة مسئولا عن كافة شئونها السياسية والاجتماعية ، أنه تولى سلطان الحكم على الدولة باسم الأمة ، وأنها هى التى أقامته حاكماً عليها ، يحكمها بدستورها الذى أنزله الله نوراً وهدى ، وعرف أن هذا الدستور يلزمه بتطبيق مبدأ الشورى ، ويقيد حكمه بهذا المبدأ ، وأن هذا الدستور يلزم الأمة بطاعته ، والسمع له فى دائرة طاعته لله فى شئون الأمة ، فإذا حاد عن طاعة الله ، وانحرف عن سمت العدل فلا طاعة ولا سمع له على الأمة .

بيد أن أبا بكر لم يشأ أن يترك هذا لحرفية النصوص التى تتعاورها التأويلات التى قد تنحرف بها عن غايتها ، بل سجله فى أول خطبة خطبها بعد بيعته بالخلافة ، ميثاقا يؤكد سلطان الدستور فقال : (أيها الناس إنى وليت عليكم — أى وليتمونى عليكم — ولست بخيركم ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم ، القوى فيكم عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له) .

هذه هى طبيعة الحاكم الدستورى الذى يحكم ولا يملك ، ويولى ولا يلى ،

فإنه يطاع ما أطاع الله ، فإن خرج عن طاعة الله فى حكم الأمة فلا طاعة له على أحد منها ، بل على الأمة أن تنابذ الحاكم الذى ينحرف عن طاعة الله فى شئون الدولة الداخلية والخارجية فى السلم أو فى الحرب ، فلا تتعاون معه فى مخالفاته وانحرافاته ، ولا تقيم وزناً لأحكامه متى أمنت على نفسها الهرج والفتن .

وقد كان أبو بكر خير حاكم عام عرفه الإسلام فى تاريخه كله ، تطبيقاً لأحكام الإسلام فى شجاعة عاقلة ، وعقل شجاع ، وتدبير محكم ، ومشاورة حرة . وأمر نافذ ، وإقدام موفق .

عجل الله تعالى له الامتحان ليضع بخلافته أروع صورة تطبيقية للدستور الإسلامى ، حتى تكون نصب عين من تختاره الأمة لقيادتها . وتوليه سلطان حكمها العام وإمامتها العظمى ، فكان الصديق الأنموذج الأمثل لما رسمه الدستور فى أحكامه ، وكان المثل الحى للدلالة على واقعية التشريع الإسلامى فى عدالة لا تشتط مع الإفراط ، ولا تميل مع التفريط .

لم يكد أبو بكر يفرغ من البيعة حتى فاجأته جموع الأعراب والقبائل زاحفة على المدينة عاصمة الإسلام ، فجمع الناس واستشارهم فى أمر هؤلاء الخارجين على أصول الدستور كفراً أو فجوراً ، فأشاروا عليه جميعاً بالكف عنهم ، وأخذهم بالمهادنة والمداهنة ، وملاينتهم حتى تتجمع له قوة المقاومة لمقاتلتهم .

ولكن أبا بكر رضى الله عنه — وقد حمل على كاهله عبء المسئولية الدستورية فى أول مراحلها — وكان ألزم المؤمنين قاطبة لرسول الله ﷺ فى جميع مواقفه ، وأعرفهم بخلائقه عرف موقفه فى غزوة بدر ، وموقفه

فى أحد ، وموقفه فى خيبر ، والنضير ، وقينقاع ، وقريظة ، وحنين ، والخندق ، وغيرها — رأى أنه لو هادن هؤلاء الخارجين المرتدين — وأشداقهم تتحلب لاجتياح الإسلام ، واستئصال شأفة المسلمين — لكانت هذه المهادنة هى القشة التى تقصم ظهر الفحل ، فلا يستطيع بعدها أن يهدر بشقاشقه إدلالا بقوته ، فأبى على ملأ المسلمين أن يأخذ برأيهم فى الكف عن محاربة المرتدين ، وتمسك بوجوب قتالهم ، وردهم بقوة السلاح إلى حظيرة الإيمان ، وأخذ حق المال منهم ليرده على مستحقيه .

غير أن أبا بكر رضى الله عنه كان هو الخليفة الأول فى سجل الراشدين ، وكان هو الحاكم الدستورى الأول فى نظام الحكم فى الإسلام ، والحكم فى الإسلام لا يعرف الاستبداد الفردى ، وإنما هو حكم يعتمد أول ما يعتمد على الشورى ، فلم يستبد أول الراشدين برأيه ، ويكره الناس بسلطان الحاكمية على متابعته ، بل جمع الملأ من أصحاب محمد ﷺ ، وشاورهم فى الأمر ، وحاججهم بنصوص الدستور حتى اقتنعوا بصواب رأيه .

روى أن عيينة بن حصن والأقرع بن حابس قدما على أبى بكر فى رجال من رؤوس العرب فدخلوا على رجال من المهاجرين فقالوا : إنه قد ارتد عامة من وراءنا عن الإسلام ، وليس فى أنفسهم أن يؤدوا إليكم من أموالهم ما كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن تجعلوا لنا جعلا نرجع فنكفيكم من وراءنا ، فدخل المهاجرون والأنصار على أبى بكر فعرضوا عليه الذى عرضوه عليهم ، وقالوا : نرى أن تطعم الأقرع وعيينة طعمة يرضيان بها ، ويكفيانك من وراءهما حتى يرجع إليك أسامة وجيشه ، ويشتد أمرك ، فإنا اليوم قليل فى كثير ، ولا طاقة لنا بقتال العرب .

قال أبو بكر : هل ترون غير ذلك ؟ فقالوا : لا

قال أبو بكر : قد علمت أنه كان من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم المشورة ، فيما لم يمض فيه أمر من نبيكم ، ولا نزل به كتاب عليكم ، وأن الله لا يجمعكم على ضلالة ، وإنى أشير عليكم ، وإنما أنا رجل منكم تنظرون فيما أشرته عليكم ، وفيما أشرتم به ، فتجمعون على أرشد ذلك فإن الله يوفقكم .

أما أنا فأرى أن نشد إلى عدونا فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، وأن لا ترشوا على الإسلام أحداً وأن تتأسوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنجاهد عدوه كما جاهدهم ، والله لو منعوا عقالا لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه من أهله وأدفعه إلى مستحقه ، فأتمروا يرشدكم الله ، فهذا رأيى .

فقال الملأ من ممثلى الأمة : أنت أفضلنا رأيا ، ورأينا لرأيك تبع .

وقال عمر بن الخطاب — وكان من المعارضين — فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق .

وفى هذه المشاورة التى دارت بين الخليفة الأول ، وممثلى الأمة أمور تلفت النظر ،وتدعو إلى التأمل،وتملأ قلوب المؤمنين الصادقين روعة وتقديراً لهذه الروح الدستورية التى دارت بها هذه المشاورة البسيطة فى حوارها ، العميقة فى طبيعتها وغايتها .

وأول ما يلفت النظر ، ويدعو إلى التأمل فى هذه المشاورة هو منشؤها

والزمن الذى كان ظرفاً للأحداث الخطيرة التى دعت إليها ، والجو الذى غلفها ، والفرصة التى اهتبلها أعداء الإسلام لينالوا منه ومن أهله ، والحرب النفسية التى شنها الذين فى قلوبهم مرض ليحتطبوا فى غابات الفزع المظللة بسحائب الحزن المظلم .

فقد فارق الدنيا إلى الرفيق الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأظلمت الحياة فى وجوه المؤمنين الذين هاضهم الحزن فبخعهم ، وركض الشيطان بخيله ورجله هنا وهناك بعد أن طعنه المؤمنون فى حماطة قلبه بإجماعهم على بيعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فانملت ناكصاً على عقبيه يدعو إلى ميراث أبى جهل فى تراث الذين آمنوا رهقاً ، وهم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، وتنادى جفاة الأعراب — وهم أشد كفراً ونفاقاً وأجهل الناس بموجبات الإيمان ، وكانوا يتربصون بالمؤمنين الدوائر — تنادوا بالفتنة فى مضاربهم ، كالذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى ، فهم لا يعقلون ، ووقع هذا التنادى فى آذان الأحمق المطاع وأضرابه من ذوى الرؤوس الخاوية ، وظنوا بالله تعالى ظن السوء، يريدون أن يبدلوا كلام الله ، فدارت عليهم دوائر السوء ، وغضب الله عليهم ولعنهم، ونجى الله المتقين الذين لم يفتنوا فى دينهم .

وتحرك ركب الشيطان فى دياجير هذه الظلمات الحالكة يؤم المدينة عاصمة الإسلام ، ليرهب المؤمنين ، يقدمه الأحمق المطاع ، ومن يساميه فى الجهالة والطيش من جفاة الصحراء ، وزعموا لأنفسهم زعامة ، يبيعون بها ويشترون فى سوق المزايدات الحقيرة ، يفترون على الله الكذب ، لا يريدون كبير شر يخيف ، لأنهم ليسوا من ذوى الهمم فى كبريات الشرور ، ولا يقصدون إلى خير لأنهم لا خير فيهم ، وإنما يريدون دناءات فى لعاعة

من لعاعات التفاهة الحقيرة ، ويريدون : خرافاً أو نعاجاً أو إبلا ، أو تمراً أو أى شىء ثمناً يكون جعلا لهم ليردوا المرتدين — زعموا — عن الزحف على عاصمة الإسلام ، فكانت حرباً نفسية أختير لها وقتها وجوهاً ، ودخل بها الشيطان على القلوب الكسيرة من باهظ الحزن لفقد نور الحياة بفقد رسول الله ﷺ .

والقلب الحزين مستسلم فى ذهول ، لايحاول أن يستكشف ما وراء الظواهر ، إلا من عصم الله ودخل بها أنضاء الحزن من المؤمنين — وهم فى غمرة المفاجأة على الصديق ، وهو أشدهم حزناً ، ولكنه كان أقواهم يقيناً ، وأشجعهم قلباً ، وأكملهم إيمانا ، وأفضلهم عقلا ، وأحكمهم سياسة ، وأكبرهم نفساً ، وعرضوا عليه مقالة الشيطان ورغائب جنده الذين لعب بهم ، وقادهم مخشوشين إلى حتوفهم كما قاد من قبل زعيمهم تلميذه أباجهل إلى حتفه وألقى به فى قليب بدر .

ولم تستخف المفاجأة الصديق ، وثقل ميزانه ورجح على جميع من وازنه وفى هدوء الحكمة السياسية ووداعة الخلق الصديقى جمع أبو بكر ملأ المؤمنين وتحدث إليهم مبيناً الاتجاه الدستورى فى معالجة الأحداث والمشكلات ، وأن الشأن فى كل أمر من أمور المسلمين ليس فيه إليهم عهد من رسول الله ﷺ ، ولا نزل به نص من كتاب الله إليهم ، هو الشورى ، ثم تعرف رأيهم بمراجعتهم فيما عرضوه عليه ، حتى تبين أنه لارأى لهم غير ما قالوا ، ثم أشار عليهم برأيه ، وبين لهم أنه فى حكم الشورى إنما هو رجل منهم ، ينظرون فيما أشار به ، وفيما أشاروا به ، ثم يختارون مجمعين على أرشد الرأيين .

لقـــد امتحن الصديق فى مطلع خلافته بأول وأخطر شورى فى أول وأخطر حدث باغت المجتمع الإسلامى ، ولم يفق من هول الصدمة بوفاة رسول الله ﷺ ،فخرج من هذا الامتحان القاسى المعقد الذى فاجأه على غير أهبة أو توقـع ــ أصفى معدناً ، وأقوى إيماناً ، وأصلب عوداً ،وأعلى كعباً فى إمامة المسلمين .

ذلك لأن خصيصة الحكم القوى الصالح تكمن فى تحمل المسئولية كاملة فى الشدة والرخاء والبأساء والسراء ، مهما تكن نتائجها فى مستقبل الحاكم فى غير مغامرة غير مأمونة العواقب بمستقبل الأمة ، والصديق بموقفه فى هذه المحنة قـد أعطى أمة الإسلام أول درس فى الاعتصام بمبدأ الشورى ، على أتم وأكمل ما يكون الاعتصام بمبدأ يؤمن به حاكم مسئول عن حيـــاة أمته فى حاضرها ومستقبلها أعمق الإيمان ، فهو :

أولا : قد سمع إلى ما عرضه أحلاس الشيطان على جماعة من المؤمنين ، رضوا به واستسلموا لقبوله ، ريثما يعود جيش الإسلام الذى خرج لوجهته التى وجهه إليها رسول الله ﷺ قبيل وفاته ، بقيادة أسامة بن زيد، الذى كان فى تسييره ، والأزمة خانقة ، والمسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتيـــة ، موقف من مواقف الحزم الصديقى كان تعبيراً صادقاً عن سياسـة أبى بكر فى خلافته .

ثم حاول أن يستطلع دخيلة هؤلاء الذين رضوا بمهادنة الأعداء، فاستنطقهم: هل ترون غير ذلك ؟ فلم يجد عندهم شيئاً ، وكأنما قرأ فى صفحة أفئدتهم كأنهم مغلوبون على هذا الاستسلام لفرط ما نابهم من رهق المصيبة التى لم تصب الدنيا بمثلها من قبل ، ولن تصاب بمثلها بعد .

فذكرهم فى تلطف الأبوة الحانية أن مبدأ الشورى كان وما يزال عهداً عهد به رسول ﷺ إليهم فلنتشاور ، ثم نعزم مجمعين ، والله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة .

ثانياً : إن أبا بكر وهو الحاكم الأعلى للدولة الذى وضعت الأمة فى يديه سلطان طاعتها له أدخل نفسه معهم فى محاورات الشورى كرجل منهم ، لا كحاكم له من سلطان الحكم ما يجعله يملى ويؤمن الناس على قوله ، وهذه هى طبيعة الحكم الشورى الذى شرعه الإسلام ليقوم على دعائمه (نظام الحكم فى دولة الإسلام) .

هذه الطبيعة تجعل الحاكم الأعلى فى الدولة رجلا من الأمة ، يعرض رأيه فى الوقائع والأحداث كغيره من أفراد أصحاب الشورى ، ثم يجب عليه أن ينفذ ما تنعقد عليه وحدة كلمتها ، ويجمع عليه رأيها ، فلا يكون بمعزل عنها ينظر إليها من أفق برجه الذهبي وهى تتحاور وتتشاور ، وهو مصمم على أن يمضى لوجهه فيما عزم عليه من رأى ، أو يهز كتفيه بسلبية تفقده الشعور بما تعانيه الأمة من أزمات ، كهؤلاء الملوك الذين تقيمهم (الديمقراطيات) الفاشلة رموزاً وثنية ، تملك ولا تحكم ، فليس عليها من مسئولية الحكم شىء، أى شىء، ولها غنم الملك وخيراته .

ولا كهؤلاء الدكتاتوريين الحاكمين بأمرهم ، يديرون شئون الأمة ويحلون أزماتها بأهوائهم فى صورة رؤساء جمهوريات ، أو ملوك مستبدين ، يقضون فى أمور أممهم بما يرضى غرورهم ، دون أن يرجعوا إليها فى مشاورة جادة تستطلع رأيها ، لأنهم يملكون ويحكمون ، وإذا رجعوا إلى أممهم فى أمر من أمورها فإنما يرجعون إليها ودموعهم تجرى بعد أن يكونوا قد أوقعوا الأمة فى شر غرورهم الاستبدادى بقضائهم فى الأمور من وراء ظهرها .

ثالثاً : إن أبا بكر رضى الله عنه بعد أن ذكر للملأ من أهل الشورى رأيه كرأى رجل منهم — وكان هذا الرأى على خلاف آرائهم جميعاً فى وجوب ملاقاة العدو ومقاتلته ، جهاداً فى الحق وفى سبيل إعلاء كلمة الحق ، وعدم قبول مهانة الإرشاد على دين الله — قال لهم : فأتمروا بينكم يرشدكم الله ، وهذا الرأى الذى أعرضه عليكم وأشير به رأيي الخاص كرجل منكم ، لا ألزمكم به بسلطان الحاكمية ، بل هو كغيره من آرائكم إن رأيتم فيه صواباً فهو إذا رأيكم .

وفى هذا أعظم دلالة على أن (نظام الحكم فى الإسلام) يضع الكلمة الأولى والأخيرة فى يد الأمة عملياً ، لا خداعاً كاذباً : كخداع (الديمقراطيات) الخادعة التى تضحك من الأمة ، فتتفق فى طى الظلام على تنفيذ دكتاتورية الحاكم رهبة أو رغبة ، ثم تجىء إلى وضح النهار تتحاور — وتتشاور ، وتصخب وتغضب ، وهى خواء إلا مما قيل لها فى سواد الظلام .

وهذا موقف آخر لأبى بكر رضى الله عنه ، لا يقل دلالة على أن مبدأ الشورى فى نظام الحكم الإسلامى هو القاعدة الأولى ، والدعامة التى يرتكز عليها بناء الدولة فى الإسلام .

روى عن عبد الله بن أبى أوفى الخزاعى ، أن أبا بكر لما أراد أن يجهز الجنود إلى الشام دعا عمر ، وعثمان ، وعليا ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبا عبيدة ابن الجراح ، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم ، وشاورهم ، وكلهم استصوبوا رايه ، وقالوا : ما رأيت من الرأى فأمضه ، فإنا له سامعون ، ولك مطيعون ، لا نخالف أمرك ، وعلى فى القوم لا يتكلم ، فقال له أبو بكر : ماذا ترى

يا أبا الحسن ؟ فقال على : إنك مبارك الأمر ميمون النقيبة ، فإنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نصرت إن شاء الله تعالى .

فقال أبو بكر : بشرك الله بخير ، ومن أين علمت هذا ؟ قال على : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناوأه حتى تقوم الساعة ، وأهله ظاهرون) . قال أبو بكر : سبحان الله ؟ ما أحسن هذا الحديث ، لقد سررتنى سرك الله فى الدنيا والآخرة .

ونفذ أبو بكر قرار الشورى ، وأنفذ جنود الإسلام إلى الشام داعية إلى الله مجاهدة ، وكانت كتائب أبى بكر إلى الشام أول بشائر الفتوحات الشامية .

وحسبنا من عمد أبى بكر فى تطبيق مبدأ الشورى : وحرصه على هذا المبدأ الدستورى ما ذكرنا ، وحسبه فى خلافته على قلة زمنها وقصر مدتها ، وكثرة شواغلها ومفاجآتها هذا المجد العريض فى ترسيخ قواعد الشورى فى عهده فى بناء دولة الإسلام .

وِلَايَةُ العَهْدِ فِي الإسْلام
وَمَبْدَأُ الشُورَى

غير أن بعض الناظرين فى التاريخ الإسلامى يقولون : إن أبا بكر أدخل على نظام الحكم فى الإسلام شيئاً جديداً ، له خطره وأثره فى نظام الحكم ذلك هو ولاية العهد ، لأنه كتب فى مرض موته كتاباً يعهد فيه بالخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

فهل كان ذلك — كما زعموا — وكان خروجاً على مبدأ الشورى فى تنصيب الحاكم العام على الأمة ، وهو مبدأ أساسى فى نظام الحكم الإسلامى ؟
يغلط بعض الباحثين فى فهم هذه المسألة تاريخياً ، وسياسياً .

ووضعها الصحيح ان أبا بكر رشح — فقط — عمر بن الخطاب للخلافة بعده ، ولم يعينه تعييناً يلزم الأمة بطاعته ، بل ترك الأمر فى التعيين والاختيار لرأى الأمة ، وذوى رأيها من أهل الشورى ، فلها ان شاءت أقرت ترشيحه ، وإن شاءت ردته ، واختارت لنفسها من تشاء أن تقيمه رئيساً لدولتها وخليفة عليها وحتى هذا الترشيح لم يستبد به أبو بكر ، بل شاور فيه أهل الرأى من ملأ المسلمين .

وذلك واضح فيما رواه لنا التاريخ الصحيح : فقد روى أنه لما ثقل أبو بكر واشتد عليه المرض واستبان له من نفسه ، وأحس دنو أجله ، جمع الناس إليه ، فقال لهم : إنه قد نزل بى ماقد ترون ، ولا أظننى إلا ميتا لما بى ، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتى ، وحل عنكم عقدتى ورد عليكم أمركم ، فأمروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إن أمرتم فى حياة منى كان أجدر ألا تختلفوا

بعدى . فقاموا فى ذلك فلم يستقم لهم أمر ، ورجعوا ، إليه فقالوا : رأينا يا خليفة رسول الله رأيك ، قال : أمهلونى حتى أنظر لله ولدينه ولعباده .

ثم استخبر الأجلاء من وجوه الأمة وذوى الرأى من أهل الشورى عن رأيهم فى عمر فأجمعوا على أنه خيرهم وأفضلهم وأقدرهم على القيام بأمر الأمة ، فدعا بعبد الرحمن بن عوف فقال له : أخبرنى عن عمر بن الخطاب ؟ فقال له عبد الرحمن : ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى، فقال أبو بكر : وإن . فقال عبد الرحمن : هو والله أفضل من رأيك فيه .

ثم دعا بعثمان بن عفان ، فقال له مثل قوله لعبد الرحمن بن عوف ، فقال عثمان رضى الله عنه : علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله ، فقال له أبو بكر : يرحمك الله والله لو تركته ماعدوتك .

ثم شاور أبو بكر سعيد بن زيد ، وأسيد بن الحضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار ، فقال أسيد بن الحضير الأنصارى : اللهم أعلمه الخيرة بعدك ، يرضى للرضى ، ويسخط للسخط ، والذى يسر خير من الذى يعلن ، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه .

وترامت هذه الأخبار فى المشاورة إلى الجمهور من عامة الأمة ، فدخل طلحة بن عبيد الله أحد الأجلة من العشرة المبشرين بالجنة متكلماً باسم العامة فقال لأبى بكر : ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا ، وقد ترى غلظته ، وهو إذا ولى كان أفظ وأغلظ ؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه : أجلسونى ، فلما جلس قال : أبالله تخوفونى ؟ خاب من تزود من أمركم بظلم ، أقول : اللهم إنى قد استخلفت على أهلك خير أهلك ، ثم قال لطلحة : أبلغ عنى من وراءك ماقلت لك .

ثم دعا أبو بكر بعثمان ، فقال له : (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ،

هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة فى آخر عهده بالدنيا ، خارجاً منها ، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب : إنى استخلفت عليكم بعدى ...) وأخذته غشية فذهب به قبل أن يسمى أحداً ، فكتب عثمان اسم عمر بن الخطاب ، ثم أفاق أبو بكر من غشيته فقال لعثمان : اقرأ على ما كتبت ، فقرأ عليه حتى ذكر اسم عمر ، فكبر أبو بكر ، وقال : أراك خفت أن تذهب نفسى فى غشيتى تلك فيختلف الناس ، فجزاك الله عن الإسلام خيراً ، والله إنك لها لأهلا ، ثم أملى عليه : فاسمعوا له وأطيعوا ، وإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً ، فإن عدل فذلك ظنى به وعلمى فيه ، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » والسلام عليكم ورحمة الله) .

ثم أمر عثمان فختم الكتاب وخرج به إلى الناس . ومعه عمر ، وأسيد ابن الحضير القرظى ، فقال عثمان للناس : أتبايعون لمن فى هـذا الكتاب ؟ قالوا : نعم .

وفى رواية أن أبا بكر أشرف على الناس من كوة فى داره فقال : أيها الناس إنى قد عهدت عهداً أفترضونه ؟ فقال الناس : رضينا يا خليفة رسول الله ﷺ ، فقام على بن أبى طالب فقال : لانرضى إلا أن يكون عمر ، فقال أبو بكر : إنه عمر ، فأقروا ذلك جميعاً ورضوا به ، ثم بايعوا لعمر بيعة عامة .

من هذا العرض الإجمالى والتحليل لقصة عهد أبى بكر بالخلافة إلى عمر ، يتجلى أن أبا بكر رضى الله عنه كان بموقفه فى هذه القصة المثل الأعلى لتطبيق مبدأ الشورى ، وأن عهده بالخلافة إلى عمر لم يكن من قبيل ولاية العهد

الوراثية فى الملك العضوض ، وإنما كان ذلك العهد من قبيل توجيه الرأى العام — وفى طليعته أهل الشورى من ملأ المسلمين — إلى مكان الصلاحية للاختيار ، وتضييق دائرة الاختيار ، وحسم الاختلافات حتى لاتفترق كلمة الأمة .

وهذا الترشيح شبيه بترشيح النبى ﷺ لأبى بكر للخلافة بعده ، بتعيينه إماماً لأعظم مناصب الدين ، وهو الصلاة ، غير أن النبى ﷺ لم يعين شخص أبى بكر لخلافته على أمته ، إذ لو عينه خليفة بعده لكان هذا نصاً دستورياً لاتجوز مخالفته بحكم ما للرسول من منصب الرسالة ، ولا مكان للشورى مع النص .

أما أبو بكر فقد عين مرشحه للخلافة مباشرة بالشخص والاسم ، لكنه ترك أمر اختياره او اختيار غيره ممن يرضاه المسلمون لرأى الأمة وأهل شوراها التى من حقها ألا ترضى بهذا الشخص المعين ، وأبو بكر رضى الله عنه كان يعلم ذلك ، ولهذا لما أشرف على الناس من نافذة بيته ، وكتابه الذى عين فيه مرشحه للخلافة باسمه وشخصه فى يد عثمان ، قال للناس : إنى قد عهدت عهداً افترضونه ؟ فلو قالوا : لانرضى ما كان عليهم من حرج دستورى فى شريعة الإسلام ، ولهذا قال على بن أبى طالب رضى عنه : لانرضى إلا أن يكون عمر ، وعلى لم يكن يعلم أن من فى الكتاب هو عمر فقال أبو بكر : إنه عمر .

وليست مخالفة الأمة لترشيح أبى بكر فى عدم اختيار مرشحه مؤثمة للأمة .

ومما يجب التنبه له أن أبا بكر لما أراد ترشيح خليفة بعده جمع الناس ، وقال لهم : إن الله قد أطلق ايمانكم من بيعتى ، وحل عنكم عقدتى ،

ورد عليكم أمركم . وهذا صريح فى أن أمر بيعة الحاكم العام وتنصيبه من حق الأمة ، وهى التى عقدت بيعته بالخلافة ، فرد أمرها إليها حينما ظن أنه ميت فى مرضه هذا ، وقال لها : فأمروا عليكم من أحببتم ، تقريراً لحق الأمة المطلق فى اختيار خليفتها وحاكمها العام .

ولما وصل أمر مشاورته لملأ الصحابة من ذوى الرأى إلى عامة المؤمنين فى ترشيحه عمر خليفة عليهم اعترض متكلمهم على هذا الترشيح محتجاً بشدة عمر المعروفه للناس ، ورد عليه أبو بكر بأنه اجتهد فى هذا العهد الترشيحى لله تعالى ولرسوله ودينه وللأمة ولنفسه ، خروجاً من المسئولية التى كانت فى عنقه للأمة ، وأمر المتكلم عن العامة أن يبلغهم ما قاله له ، وهذا دليل آخر على أن أبا بكر وضع أمر الأمة فى حقها اختيار خليفتها موضع الاعتبار العظيم .

ولما قال أهل الشورى من خواص المسلمين الذين استشارهم أبو بكر فى أمر الخلافة ، وبين لهم أن الأمر فيها هو أمر الأمة ، وأن الله رد على الأمة أمر تنصيب إمامها ، فعليهم أن يولوا أمرهم من أحبوا ولم يعين فى هذه المشاورة المبدئية شخصاً بعينه ، لا عمر ولا غيره ، وخرجوا من عنده يتشاورون فلم يستقم لهم أمر ، ولم يتفقوا على شئ ، سوى أنهم رأوا حسما للخلافات — رد الأمر إلى أبى بكر ، وقالوا له : رأينا رأيك ، وهذا تفويض منهم ببيعة من يختاره لهم ، ومع ذلك فلم يتسرع فى الإعلان عن اختياره ، بل قال لهم : أمهلونى حتى أنظر لله ولدينه ولعباده .

ثم فتح باب الشورى فى تعيين اسم من وقع عليه اختياره مرشحاً للخلافة ، فشاور الأجلاء من ذوى المكانة فى الدين ، وذوى الحصافة فى سياسة الأمة ، ليستبين حال مرشحه من نفوس الملأ فكلهم أجمعوا على أنه أفضلهم وأقومهم

بهذا الأمر ، وأقدرهم على قيادة الأمة ، وأنه على سريرة يمكنها أفضل من علانيته، وقد جهر على بن أبى طالب برأيه فى مختار أبى بكر وهو لايعلمه ، وصرح بأن الاختيار إن كان قد وقع على عمر فقد رضيناه ،فقال له أبو بكر: إنه عمر .

على أننا نقرر فى ظل التشريع الإسلامى أن ولاية العهد فى نظام الحكم الإسلامى لايمنعها نص دستورى فى تشريع الإسلام ، إذا لم تعتمد على مجرد الوراثة النسبية فى تولية من ليسوا أهلا لولاية أمر الأمة .

أما إذا كانت ولاية العهد بعيدة عن الوراثة النسبية مبرأة من الهوى ، أو كانت — ولو لوارث نسبى — تستهدف مصلحة الأمة فى اختيار أكفأ قادتها لتولى منصب إمامتها العامة ، فإنه لامانع فى التشريع الإسلامى بروحه ونصوصه من ذلك .

ومن هنا كانت ولاية سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموى ، عهده من بعده لعمر بن عبد العزيز ، ليكون خليفة على المسلمين بعده ، من خير مانالت الأمة من حكم صالح ، أقام منائر العدل فى جنباتها،وأقر الأمن والسلام فى أقطارها ،وأقام الحدود والزواجر ، ورفع أعلام الجهاد فى سبيل الله ، فكان فى خلافته — وهى بولاية العهد — خامس الراشدين ، ولله ما أشبه عمر بعمر فى أساس خلافته وقيومية عدله .

قال رجاء بن حيوه — وكان من خواص عقلاء الدولة الأموية — قال لى سليمان بن عبد الملك : إلى من ترى أن أعهد ؟ فقلت : إلى عمر بن عبد العزيز ، قال : كيف أصنع بوصية امير المؤمنين بابنى عاتكة ؟ من كان منهما حياً ، قلت : تجعل الأمر من بعده ليزيد ، قال : صدقت ، فكتب سليمان عهده لعمر بن عبد العزيز ، فلما بويع عمر بالخلافة كان أول ماتكلم

به على الناس أن خطبهم فقال : أيها الناس : والله ماسألت الله هذا الأمر قط فى سر ولا علانية ، فمن كان كارها لشئ مما وليت فالآن ، فقام إليه سعيد ابن عبد الملك ، فقال له : ذلك أسرع فيما نكره ، — أتريد أن نختلف ويضرب بعضنا بعضاً ؟

وهذا العهد من سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز فلتة من فلتات الحياة ، وهى خير ألف مرة من الشورى فى ذلك العهد الذى يتربع فيه على كراسى الحكم وبطانات الحاكين وحاشيتهم ممن يمثلون الملأ من أهل الشورى من لاتهدأ أشداقهم عن الحركة تلمظاً لما فى أيدى الولاة من لعاعات الدنيا .

وقد كانت هذه الفلتة فى العهد لعمر بن عبد العزيز بالخلافة لمعة برق أضاءت للناس أو بقات وصلت حاضرهم بماضى أمتهم تذكيراً لهم بنعمة الله عليهم فى عدل الإسلام وسماحة حكمه فى اصالة نصوصه ومبادئه الدستورية فى تشريع الإسلام ، فإذا غير الناس وبدلوا فذلك دستور الشيطان (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) .

ومن هنا يظهر أن ولاية العهد التى عرفها ويعرفها الإسلام معرفة إقرار ورضا لاتتعارض مع مبدأ الشورى الدستورية مطلقاً ، لأنها ليست فى وقت صلاح الأمة وتوافر ذوى الرأى والحجى فى ملئها الشورى تعييناً للحاكم العام بغير بيعة من الأمة ، ولاشورى من أهلها ، وذلك كما فى عهد أبى بكر لعمر بن الخطاب بالخلافة بعده ، الذى تبين أنه ترشيح لايتم الاختيار فيه إلا عن طريق الشورى .

أما إذا اضطرب حبل الهداية فى نظام الحكم ، وولى أمر الأمة من ليسوا أهلا للولاية عليها ، وازدحم ذوو شوراها على أبواب المتغلبين بالقهر على

حكم الأمة ، يطلبون رفدهم ، فقد تكون ولاية العهد إذا صادفت توفيقاً فى تبين من تتوافر شرائط الأمامة العامة فيه - خيراً من الشورى التى يتولاها ملأ المتلمظين لما فى أيدى الحاكمين المتغلبين ، وذلك كما فى عهد سليمان ابن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز .

الشورى في عهد عمر بن الخطاب

هذا الاستطراد الخفيف الذى ذهب بنا إلى خلافة عمر بن عبد العزيز بولاية عهد سليمان بن عبد الملك دعت إليه المناسبة ، وضرب المثل بنموذج لنوع من أسلوب تطبيق نظام الحكم الصالح الذى لايعتمد الشورى فى تنصيب الحاكم العام على الأمة ، مما يقره النظام التشريعى فى الإسلام .

فلنرجع إلى حديثنا عن النظام الأصيل ، فى طريقة إقامـــة الحكم الإسلامى على مبادىء الشورى وتطبيق مبادئها ، تحقيقاً لسلطان الأمة فى حقها الدستورى لاختيار إمامها وحاكمها العام .

وقد أوضحنا الأمر بما لايدع لمتقول شبهة فى تطبيق نظام الشورى تطبيقاً عملياً فى عهد خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد قام بالأمر بعده — على أساس نظام الشورى — الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأتى فى تطبيق نظام الحكم الدستورى فى الإسلام بما جعله — بسياسته العملية مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية على يديه — المؤسس القانونى للدولة .

ومشاورات عمر فى الشئون العامة والخاصة — فى العبادات والمعاملات، وولاية الأمصار ، وتجهيز الجيوش للجهاد، وتولية قوادها ، والنظام الاقتصادى للدولة ، والنظام الاجتماعى للمجتمع الإسلامى والأسلوب السياسى فى تدبير أمر الرعية ، وتحمله مسئولية الحكم فى الصغير والكبير من الأمور — أكثر من أن تحصى .

ويكفينا هنا أن نسجل لعمر رضى الله عنه فى تطبيق مبدأ الشورى موقفين عظيمين ، وضع بهما عمر أصلا دستورياً فى الحرص على مصلحة الأمة فى حاضرها ومستقبلها ، وحياطة كيانها السياسى والتشريعى ، والمالى ، والاجتماعى .

أولهما : موقفه فى توطيد دعائم الشورى فى اختيار الحاكم الأعلى رئيس الدولة وطريقة اختياره ، اختياراً يقوم على حق الأمة فى حرية إقامة حاكمها الأعلى ورأس دولتها .

ثانيهما : موقفه التشريعى ، وفهمه لنصوص الدستور الإسلامى فهماً عبقرياً ، تجلت عنه محاورته لأهل الشورى من خاصة المؤمنين ، ووضع به أساس النظام المالى للدولة ، نظاماً يدعم اقتصادها ، ويضمن لمهامها الاجتماعية والحربية موارد ثابتة ، تقوم بمطالبها إذا دهمتها الأحداث .

وسيظهر من عرض هذين الموقفين وتحليل أحداثهما أن عمر رضى الله عنه كان أحوذيا نسيج وحده فى عمق الإدراك لطبيعة الأحداث ، وأنه كان بعيد النظر جداً فى مستقبل الأمة وتوجيهها إلى الجادة فى حياتها السياسية والاجتماعية وأنه كان يضع المبادىء الشورية فى مكانها من حياة الأمة ، وأنه كان نظاراً إلى روح التشريع ، لا يقف عند حرفية النصوص .

طريقة عمر في تطبيق الشورى لاختيار رئيس الدولة (٢)

طعن أبو لؤلؤة المجوسى غلام المغيرة بن شعبة ، فى مؤامرة يهودية مجوسية خبيثة ، عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو يؤم الناس فى غلس الفجر ، فأنفذه ، وأحس المسلمون دنو أجل عمر بعد طعنته القاتلة ، فقال له من حضره من وجوههم : أوص يا أمير المؤمنين ، استخلف ، فقال عمر : أتحمل أمركم حياً وميتاً ؟ لوددت أن أحظى منه بالكفاف ، لا على ، ولا لى وإن استخلف فقد استخلف من خير منى — يعنى أبا بكر — وإن أترككم فقد ترككم من هو خير منى رسول الله ﷺ — قال عبد الله بن عمر : فعرفت أنه حين ذكر رسول الله ﷺ غير مستخلف .

ثم قال عمر رضى الله عنه : وما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء الرهط الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، وسمى علياً ، وعثمان ، وطلحة ، وسعداً ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير ، وقال : يشهدكم عبد الله ابن عمر ، وليس له من الأمر شىء .

وما أظن أن يلى إلا أحد هذين الرجلين ، على وعثمان ، فإن ولى عثمان فرجل فيه لين ، وإن ولى على ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على طريق الحق ، وإن تولوا سعداً فأهلها هو والا فليستعن به الوالى ، فإنى لم أعزله عن خيانة ولا ضعف ، ونعم ذو الرأى عبد الرحمن بن عوف مسدد رشيد ، له من الله حافظ ، فاسمعوا منه .

ثم قال لأبى طلحة الأنصارى: يا أبا طلحة إن الله عز وجل طالما أعز بكم

الإسلام ، فاختر خمسين رجلا من الأنصار ، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم .

وقال للمقداد بن الأسود : إذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلا منهم .

وقال لصهيب : صل بالناس ثلاثة أيام، وأدخل علياً ، وعثمان ،والزبير وسعداً ، وعبدالرحمن بن عوف، وطلحة إن قدم ، وأحضرعبد الله بن عمر ولا شىء له من الأمر ، وقم على رؤوسهم ، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم ، وأبى اثنان فاضرب رأسيهما ، فإن رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلامنهم فحكموا عبد الله بن عمر ، فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

ثم دعا لهم ، فقال اللهم ألفهم واجمعهم على الحق ، ولاتردهم على أعقابهم، وول أمر أمة محمد خيرهم .

* * *

لم يكد يفرغ الناس من دفن عمر رضى الله عنه حتى أسرع رهط الشورى، وأعضاء مجلس الدولة الأعلى الذين عينهم عمر إلى الاجتماع فى بيت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وقيل : إنهم اجتمعوا فى بيت فاطمة بنت قيس الفهرية أخت الضحاك بن قيس ، ليقضوا فى أخطر قضية عرضت فى حياة المسلمين .

تشاور القوم فلم يبرموا أمراً ، فقال عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنه:

أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟ فلم يجبه أحد، فقال: فأنا أنخلع منها، فقالوا: رضينا، ثم خرج عبدالرحمن يتلقى الناس فى أنقاب المدينة متلثما، لا يعرفه أحد، فما ترك أحداً من المهاجرين والأنصار، وغيرهم من ضعفاء الناس إلا وسألهم واستشارهم، فأما أهل الرأى فأتاهم مستشيراً وتلقى غيرهم سائلا، يقول: من ترى الخليفة بعد عمر؟ فلم يلق أحداً يستشيره ولا يسأله إلا ويقول: عثمان، فلما رأى اتفاق الناس وإجماعهم على عثمان أتى بيت مسور بن مخرمة بعد هجعة من الليل فأيقظه فقال له: ألا أراك نائماً، ولم أذق فى هذه الليلة كثير غمض، انطلق فادع فلاناً وفلاناً نفر من المهاجرين.

قال المسور: فدعوتهم، فناجاهم طويلا، ثم قاموا من عنده فخرجوا، ثم دعا علياً فناجاه طويلا، ثم دعا عثمان فناجاه حتى فرق بينهما أذان الصبح.

فلما صلوا جميعاً، وقد ارتج المسجد بالناس، صعد عبدالرحمن بن عوف المنبر متقلداً سيفه وعليه عمامته التى عممه بها رسول الله ﷺ، ثم تكلم فقال: أيها الناس، إنى قد سألتكم سراً وجهراً عن إمامكم فلم أركم تعدلون بأحد هذين الرجلين: إما على، وإما عثمان فقم إلى يا على، فقام إليه، فوقف تحت المنبر، فأخذ عبد الرحمن بيده، فقال: هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة رسوله، وفعل أبى بكر وعمر؟ فقال على: اللهم لا، ولكن على جهدى من ذلك، وطاقتى، فأرسل عبد الرحمن يده.

ثم نادى: قم إلى يا عثمان، فأخذ بيده، وهو فى موقف على الذى كان فيه، فقال: هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة رسوله،

وفعل أبي بكر وعمر ؟ فقال عثمان : اللهم نعم، فبايعه عبد الرحمن ، وبأيع له الناس .

تلك هى خلاصة موجزة لقصة الشورى وبيعة عثمان رضى الله عنه خليفة على المسلمين ، وهى تعطى صورة واضحة للنظام الأعلى فى الحكم الإسلامى، وطريقة تنصيب الإمام الأعظم للدولة الإسلامية ، كما كان يفهمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالخليفة العبقرى عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أحس دنو أجله ، وقال له أجلاء أهل الشورى : استخلف ، واستعرض فى هذه القضية شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموقفه من الخلافة بعده ، وشأن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وموقفه من تنصيب إمام عام للدولة الإسلامية بعد أن أحس دنو أجله ، فرأى عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يستخلف أحداً على الولاية العامة للأمة بعده ، بل ترك الأمر لاختيارها ، تولى عليها من ترضاه إماماً لها وحاكماً عليها ، يقوم على تدبير سياستها، وتنفيذ دستورها، ويكون خليفة لرسولها .

وكذلك رأى عمر أن سلفه أبا بكر رضى الله عنه قد أخذ بمبدأ الترشيح لولاية الحاكم العامة لكن ذلك لم يكن عن طريق الوراثة النسبية ، وحصر الخلافة الإسلامية فى بيت من بيوتات المسلمين ، أو طائفة من طوائفهم ، بل أخذ بهذا المبدأ على أساس الشورى وطريق اختيار الأمة ، ومشاورة الملأ من رجالاتها الذين تتوافر فيهم شرائط السياسة الحازمة والرأى الحصيف ، والقوة على الجهر بالحق ، لاختيار رجل لخلافتها ، يكون شديد الشكيمة ، صارم العزيمة ، عليماً بفقه الدستور الإسلامى ، قديراً على تصريف أمور الأمة قواماً بالعدل ، ينزل نفسه من الأمة منزلة الأب من

أولاده فى القيام على تربيتهم وإعدادهم لخوض معارك الحياة بأسلحة العلم والخلق الكريم ، فكان ذلك الرجل هو عمر بن الخطاب باتفاق الأمة ورضاها ، وهو الذى رشحه أبو بكر ، فبايعته الأمة بيعة لم يعرف التاريخ نظيراً لها لغيره من الخلفاء .

رأى عمر رضى الله عنه ذلك فرجح عنده مسلك النبى صلى الله عليه وسلم — كما فهم هذا ابنه عبد الله بن عمر — فعمل بما رجح عنده ، ولم يول عهده واحداً بعينه ، ولم يستخلف على الأمة رجلا بذاته ، لكنه مع ذلك لم يترك الأمر سائحاً دون سياج يحفظه من الانتشار والفوضى بين جمهور الناس وعامتهم ، خشية أن ينفلت عقال الرأى من يد الخاصة وأهل العقل والعلم ، وقد يولى حينئذ من لم يكن هناك ، فيفسد نظام الحكم فى الأمة ، وينفرط عقدها الاجتماعى ، فتقدم عمر رضى الله عنه إلى الأمة ، فأسس لها المجلس الأعلى للشورى واختار أعضاءه — على سمع الأمة وبصرها ورضاها — ممن يصلح كل واحد منهم لولاية الخلافة والإمامة العظمى ، ورشح اختياره هذا بأن هؤلاء الرهط توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم ، وفى ذلك أعظم تزكية لهم فى هذا المقام .

ثم ذكر عمر لكل واحد منهم من الخصائص والمميزات ما يجعل الأمة تطمئن كل الاطمئنان إذا وقع اختيارها على أى منهم لخلافتها وولاية حكمها العام .

وبذلك يكون عمر قد خطا بالأمة الخطوة الأولى نحو اختيار حاكمها الأعلى ، وبذلك أيضاً يكون عمر قد ضيق دائرة الاختيار وقرب الأمر ، وحصره فى موقعه ، وقطع على العامة أطماعها ، وحال دون الأغمار وأشباههم

أن يعبثوا بمستقبل الأمة ، ثم ترك تعيين أحد هؤلاء المرشحين إلى اختيار الأمة وإلى رأيها وتقديرها ، ولا شك أن ما صنعه عمر كان من أحكم التدبير وأحسن السياسة .

* * *

ولا بد لنا من وقفة متأملة فى الأسلوب الذى اصطنعه فاروق الإسلام وعبقرى المسلمين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو فى أحرج لحظة من حياته ، يعانى سكرات الموت . فيما رسمه من خطة للوصول بالشورى إلى نهايتها الحكيمة ، فى أخطر مرحلة من مراحل تأسيس الدولة الإسلامية فهو:

أولا : حينما قيل له استخلف أبدى أسفه على ما حمل من عبء الخلافة فى صورة حزينة وضعها فى هذا الإطار الدامى (أتحمل أمركم حياً وميتاً ؟) وبين أنه يود لو حظى من أمر المسلمين بالكفاف ، ونجا لا عليه ولا له ، ثم خاير بين أمرين فى موقفين ، يمثلان له الطريق إلى ما يريد . أو ما أراد منه المسلمون .

الأول : موقف النبى ﷺ ، وهو يفارق الدنيا ، فى طريقه إلى الرفيق الأعلى ، فإنه ﷺ لم يستخلف على أمته شخصاً معيناً يحمله عبء الخلافة بعده ، وإنما قدم أفضل المسلمين لأفضل مناصب الدين ، ترشيحاً له - فقط - لمنصب الخلافة ، فقال لما استعز به واشتد عليه مرضه (مروا أبا بكر فليصل بالناس) ولما سمع صوت عمر وهو يصلى بالناس لغيبة أبى بكر قال : (لا ، لا ، لا ، ليصل بهم ابن أبى قحافة) .

الثانى : موقف أبى بكر رضى الله عنه ، وقد أحس دنو أجله ، فاستشار الملأ من كبار المهاجرين والأنصار فى أمر الخلافة ، بعد أن أفهمهم أن بيعته قد أطلق الله إيمانهم منها وحل عنهم عقدته ورد إليهم أمرهم ، فليختاروا

للخلافة عليهم من يحبون ، ولكنهم ردوا إليه الأمر ، فاستمهلهم حتى ينظر ، وأخذ فى استطلاع رأيهم فى عمر ، فأجمعوا على الرضا به ، وكتب أبو بكر عهده مرشحاً له ، واستشار العامة — بعد مشاورة الخاصة — على البيعة لمن فى هذا الكتاب ، فرضوا وبايعوا عمر خليفة للصديق بإجماع .

نظر عمر فى هذين الموقفين ورأى أن فى كل منهما قدوة حسنة ، فإن لم يستخلف ، وترك الأمر كله للأمة ، تختار خليفتها ، فقد فعل ذلك رسول الله ﷺ ، وإن استخلف وعين للأمة من يرضاه لها ، وتركها تختاره أو تختار غيره بمقتضى حقها فى حرية الاختيار لشخص معين ، فقد فعل ذلك أبو بكر رضى الله عنه فى عهده لعمر بالخلافة بعده .

وعرف ابنه عبد الله بن عمر أنه غير مستخلف ، لأنه لايعدل بمتابعة رسول الله ﷺ متابعة أحد .

بيد أن عمر فى حصافة عقله وأحوذيته رأى ألا يترك الأمر سائحاً لايضبطه سياج يمنع من تفلت الزمام من يد أولى الرأى ، فرشح رهطاً من أجلة أصحاب رسول الله ﷺ السابقين الأولين الذين توفى رسول الله ﷺ وهو راض عنهم ، وسماهم ، وزكاهم بما يعلمه من الفضل والفضائل فى كل واحد منهم ، وأبدى ظنه فى تقدم على وعثمان على سائر الرهط فى ميل الجمهور إليهما ، وذكر ما يهجس فى نفسه من توقع لما يحدث إذا ولى واحد منهما ، فعثمان فيه لين يخاف منه عليه وعلى فيه دعابة قد تطمع بعض المستلغين للموقف من شيعته . وهو على ذلك أجدر الرجلين أن يحمل الأمة على الطريق السوى ، طريق الحق .

ثانياً : أن عمر رضى الله عنه كان أعلم الأمة بها ، وبما دخل على مجتمعها من انحراف الطمع والطموح ولاسيما عند من لم يشرب قلبه فضائل الإسلام

من شباب حديث عهد بإسلام . أو — إعراب لم يتفقهوا فى الدين. أو ذوى أطماع من مسلمة الفتح وما بعده : بمن لم يثقفه طول الصحبة لرسول الله ﷺ . والتأدب بآدابه . والتخلق بأخلاقه . والتعمق فى معرفة مبادىء الإسلام السياسية والاجتماعية .

فرأى بألمعيته المخاوف التى تظلل الأفق . فعمد إلى تدبير محكم . يقطع الطريق على المتمنين الطامعين الطامحين . ويحوط به كلمة الأمة من التبدد فى هواء الأهواء . وكان فى تدبير عمر عنف عمر ، وقوته وشجاعته فى الحق .

وتوجه بتدبيره إلى الأنصار الذين طالما أعز الله بهم الإسلام. والذين هم أبعد الأمة عن مطامع الدنيا، وأبعدهم عن مشاقة الله ورسوله، وتفريق جماعة المسلمين ، فقال لأحد رجالاتهم أبى طلحة : اختر خمسين رجلا من الأنصار — ليكونوا جنود الله — وكن على رأسهم لتحفظ بهم سلطان القانون ، وهيبة الدولة، وأمره أن يستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم للخلافة .

وجعل من المقداد بن الأسود رئيس حرس على دار الشورى .

وأقام صهيباً لإمامة الصلاة ثلاثة أيام فقط ، وهى المدة التى حددها عمر ليتم فى نهايتها حسم الأمر واختيار الخليفة من رجال الرهط ، لتعود الأمور بعدها إلى طبيعتها .

وأمر صهيباً أن يجعل الشورى مغلقة على رجال الرهط ، وأن يدخل معهم عبد الله بن عمر ليكون حكماً بينهم إذا اختلفوا ، وليس له من أمر الخلافة شىء .

ثم قال عمر رضى الله عنه لصهيب — ويا هول ما قال ، ويا أحكم ما قال —

قال له : قم على رؤوس الرهط وهم يتشاورون فيما بينهم ليختاروا رجلا منهم ، فإن اجتمع على رأى واحد خمسة منهم وأبى واحد منهم أن يتابعهم (فاشدخ رأسه بالسيف) .

إى والله ؟ هكذا قال عمر لصهيب : أشدخ رأسه بالسيف .

لله أنت يا ابن الخطاب ، بحق ما لقبك رسول الله ﷺ فاروق الإسلام ، من أبى رأى الجماعة فقد شق عصا الطاعة .

وكذلك إن أبى اثنان من الرهط ، وافقه أربعة منهم فاضرب رأسيهما بالسيف ، هكذا بالصورة المفزعة المرعبة التى قصد إليها عمر قصداً أراد به أن ينهنه الطامعين ، لأن الأمر شورى ، والشورى مبدأ الإسلام الدستورى فى إنتظام أموره ، فيجب أن تحاط بما يحفظ لها هيبتها .

فإن انقسم الرهط ، فحكموا عبد الله بن عمر ، فإن أبى الفريقان حكمه فكونوا مع الفريق الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، لأنه رجل مسدد رشيد ، له من الله حافظ .

وقد برهنت سياسة عبد الرحمن بن عوف فى إدارة الشورى على سداد إلهام عمر وصدقه فى وصفه له ، فقد أخرج نفسه ، وأسقط حقه فى الخلافة ليجمع كلمة الأمة ، وحقق الله به الخير لها فى أخطر قضاياها السياسية والاجتماعية .

ثالثاً : نفذ كل رجل ممن وسد إليهم عمر شيئاً ما نيط به ، فاستعد أبو طلحة الأنصارى وأعد جند الله ، ونفذ المقداد ما أمر به ، وصلى صهيب بالناس ، وأدخل الرهط دار الشورى التى وقع عليها الاختيار : بيت عائشة أم المؤمنين ، أو بيت فاطمة بنت قيس ، وأخذ صهيب أهبته لتنفيذ أمر عمر مهما كانت العواقب .

وصهيب رضى الله عنه الذى أسند إليه عمر هذا الأمر الخطير ، مولى

من موالى الإسلام ، ولكنه كان من أفضل المسلمين إسلاماً ، وأوثقهم إيماناً بالله ورسوله ، وأشجعهم فى الحق ، والإسلام لا يعرف الأنساب والأحساب ، ولكنه يعرف للمؤمن مكانه فى دنيا الإسلام بوزنه بميزان الفضائل الإنسانية العليا ، وقد كان صهيب من ذلك كله فى الذروة ، فولاه عمر ماولاه .

رابعاً : إن عبد الرحمن بن عوف بعد أن أخرج نفسه من الخلافة وفوض إليه بقية الرهط إدارة الشورى ، واختيار من تختاره الأمة منهم ، وكان من حقه بمقتضى هذا التفويض أن يختار من الرهط رجلا يوليه وتبايعه الأمة .

ولكن مبدأ الشورى الدستورية كان متغلغلا فى أنفس القوم ، لأنهم يعلمون أنه عهد نبيهم إليهم ، فأبى عبد الرحمن أن يعتمد على هذا التفويض ، ويستبد بالأمر ، وخرج إلى طرقات المدينة ومجامعها متلثماً لا يعرفه أحد ، وكان يستشير ذوى الرأى من المهاجرين والأنصار ، وهو أعرف بهم ، وكان يكتفى بمجرد السؤال للعامة وضعفاء الناس ، ممن لم يكن من ذوى الرأى وأهل الشورى ، ورأى الناس خاصتهم وعامتهم متفقين على اختيار عثمان رضى الله عنه للخلافة الإسلامية بعد عمر وكان عثمان ألوفا مألفاً ، محبوباً من جمهور الأمة مقدراً ، معروفاً بالفضل والسابقة وعظيم البذل فى سبيل الله عند خاصتها .

ولما استقام لعبد الرحمن بن عوف الميسم ، واطمأن إلى رأى الأمة أراد أن يزداد يقيناً فيما انتهى إليه أمر الناس ، فدعا إليه نفراً من المهاجرين ، وناجاهم طويلا ، ولعله أطلعهم على ما وصل إليه فى تعرف

رأى الأمة ، ليستوثق لنفسه منهم ، حتى يكونوا معه وفى جانبه على من تحدثه نفسه بالفرقة والاختلاف .

ثم دعا علياً وناجاه طويلا ، ودعا عثمان وناجاه طويلا ، ليعرف ما عندهما ، وما يجول بخاطرهما ويحسم الأمر معهما ، لأنهما رجلا الساعة .

خامساً ، إن عبد الرحمن بن عوف بعد ما بذل من جهد مضن فى تعرف رأى الأمة اجتمع له الناس فى المسجد لصلاة الصبح ، وحفل بهم المسجد فى جموع لم يكن المسجد يحفل بمثلها حتى ارتج بهم المسجد ، وصعد عبد الرحمن منبر رسول الله ﷺ ، وعليه بذة الجد الصارم ، وزى العزم الحازم ، فقد تقلد سيفه ، ووضع على رأسه عمامته التى عممه بها رسول الله ﷺ ، وأنظار الناس معلقة به ، وأسماعهم مشدودة إلى منطقه ، ثم تكلم وأعلن على الناس ما كان منه إليهم فى المشورة وأنه استخبرهم سراً وجهراً عن إمامهم بعد عمر ، ورأى أنهم لا يعدلون بعثمان أو على أحداً ؛ فلم يعارضه أحد ممن شهد هذا الاجتماع الحافل ، ولم يختلف عليه منهم أحد ؛ فلم يبق أمامه إلا البت وحسم الأمر بتعيين أحدهما تحت سمع الأمة وبصرها ، وكان من حقه التفويضى من الرهط أن يختار أحدهما ؛ وهو آمن أن يختلف عليه أحد ، ولكنه إمعاناً فى تطبيق مبدأ الشورى وإشراك الأمة فى الأمر معه فى آخر خطواته ؛ دعا علياً رضى الله عنه ، وأخذ بيده ، وسأله : هل أنت مبايعى على العمل بنصوص الدستور الإسلامى : الكتاب والسنة ، وعلى العمل فى تطبيق الشيخين أبى بكر وعمر لنصوصهما ؟

فقال على — وهو صادق مع نفسه — : اللهم لا ، ولكن أبايعك على جهدى من ذلك وطاقتى ؛ فأرسل عبد الرحمن يده ، ثم دعا عثمان ؛

وأخذ بيده ، وهو فى مكان على الذى كان واقفاً فيه ، وقال له ما قال لعلى : هل أنت مبايعى على العمل بكتاب الله وسنة رسوله وفعل أبى بكر وعمر ؟ فقال عثمان وهو صادق مع نفسه : اللهم نعم : فبايعه عبد الرحمن ، وبايع له الناس بيعة إجماعية لم يتخلف عنها أحد ممن شهدها .

وتمت بيعة عثمان رضى الله عنه ، وسارت الحياة دستورية قوية حتى قضى الله ما قضى فى حياة هذه الأمة ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ثانيهما : أى الموقف الثانى من الموقفين اللذين اخترناهما من مواقف عمر فى توطيد دعائم الشورى وتطبيق مبادئها موقفه فى تطبيقها فى الشئون المالية للدولة بعد توطيدها فى إقامة الحاكم الأعلى للدولة .

ذلك هو موقفه من أرض السواد فى العراق بعد فتحها ، فقد أراد المجاهدون تقسيمها عليهم أخذاً بآية الغنيمة فى سورة الأنفال ، وأبى عليهم ذلك عمر ، اجتهاداً منه فى أول الأمر ، حتى وفقه الله للحجة النيرة من آيات القرآن الكريم فى سورة الحشر ، فى استنباط عبقرى ، وفهم ألمعى للنصوص والجمع بين متفرقها .

روى القاضى أبو يوسف فى كتاب الخراج عن الزهرى أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، استشار الناس فى السواد حين افتتح ، فرأى عامتهم أن يقسمه ، وكان بلال بن رباح من أشدهم فى ذلك وكان رأى عمر رضى الله عنه أن يتركه ولا يقسمه ، فقال : اللهم أكفنى بلالا وأصحابه ، ومكثوا فى ذلك يومين أو ثلاثة . أو دون ذلك .

ثم قال عمر : إنى وجدت حجة ، قال الله تعالى فى كتابه: «وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير »(١) حتى فرغ من شأن بنى النضير ، فهذه عامة فى القرى كلها ، ثم قال : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب »(٢) ثم قال : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون »(٣) . ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال : « والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »(٤) فهذا فيما بلغنا — والله أعلم — للأنصار خاصة ، ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم ، فقال : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم »(٥) فكانت هذه عامة لمن جاء بعدهم .

فقد صار هذا الفيء من بين هؤلاء جميعاً فكيف نقسم لهؤلاء وندع من تخلف بعدهم بغير قسم ؟ فأجمع على تركه وجمع خراجه .

وتفصل الرواية الأخرى هذا الإجمال ، فيقول أبو يوسف رحمه الله: حدثنى

---

(١) سورة الحشر آية ٦ .
(٢) سورة الحشر آية ٧ .
(٣) سورة الحشر آية ٨ .
(٤) سورة الحشر آية ٩ .
(٥) سورة الحشر آية ١٠ .

غير واحد من أهل المدينة قالوا : لما قدم على عمر رضى الله عنه جيش العراق من قبل سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه ، شاور أصحاب محمد ﷺ فى تدوين الدواوين ، وقد كان اتبع رأى أبى بكر فى التسوية بين الناس . فلما جاء فتح العراق شاور الناس فى التفضيل ، ورأى أنه الرأى ، فأشار إليه بذلك من رآه ، وشاورهم فى قسمة الأرضين التى أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام : فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا .

فقال عمر : فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ؟ ما هذا برأى . فقال له عبد الرحمن ابن عوف رضى الله تعالى عنه : فما الرأى ؟ ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم ، فقال عمر : ما هو إلا ما تقول، ولست أرى ذلك ، والله لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين ، فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها . وأرض الشام بعلوجها ، فما يسد الثغور ؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ؟

فأكثروا على عمر رضى الله تعالى عنه ، وقالوا : أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ؟ ولأبناء القوم ، ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا ؟ فكان عمر رضى الله عنه لا يزيد على أن يقول : هذا رأيى .

قالوا : فاستشر فاستشر المهاجرين الأولين ، فاختلفوا ، فأما عبد الرحمن ابن عوف رضى الله تعالى عنه ، فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ، ورأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر رضى الله عنهم رأى عمر :

فأرسل عمر إلى عشرة من الأنصار ، خمسة من الأوس ، وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم، فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله،

ثم قال : إنى لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا فى أماتى فيما حملت من أموركم ، فإنى واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هو هواى

معكم من الله كتاب ، ينطق بالحق ، ووالله إن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق .

قالوا : قل نسمع يا أمير المؤمنين .

قال : قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ، وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلماً ، لئن ظلمتهم شيئاً هو لهم ، وأعطيته غيرهم لقد شقيت .

ولكن رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا فى توجيهه ،وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها ، وأضع فيها الخراج ، وفى رقابهم الجزية ، يؤدونها فتكون فيئاً للسلمين المقاتلة والذرية ، ولمن يأتى من بعدهم .

أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها ؟ أرأيتم هذه المدن العظام ، كالشام والجزيرة ، والكوفة والبصرة ومصر ، لا بد من أن تشحن بالجيش ، وإدرار العطاء عليهم ؟ من أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج ؟

فقالوا جميعاً : الرأى رأيك ، فنعم ما قلت ، وما رأيت ، إن لم تشحن هذه الثغور ، وهذه المدن بالرجال ، وتجرى عليهم ما يقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم .

قال عمر رضى الله تعالى عنه : قد بان لى الأمر ، فمن رجل له جزالة وعقل ، يضع الأرض مواضعها ، ويضع على العلوج ما يحتملون؟ فأجمعوا

على عثمان بن حنيف ، وقالوا : تبعثه إلى أهم ذلك ، فإن له بصراً وعقلا وتجربة ، فأسرع إليه عمر ، فولاه مساحة أرض السواد، فأدت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر رضى الله تعالى عنه بعام واحـــد مائة ألف ألف درهم .

قال القاضى أبو يوسف رحمه الله تعالى : والذى رأى عمر رضى الله عنه — من الامتناع عن قسمة الأرضين بين من افتتحها عندما عرفه الله تعالى ما كان فى كتابه من بيان ذلك — توفيق من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين .

وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم، لأن هـذا لو لم يكن موقوفاً على النـاس فى الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ، ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد . ولمـا أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة والمرتزقة ، والله أعلم بالخير حيث كان .

نَظـرَةٌ وعِـبرَة

وللنظر الصادق فى هذه المشاورة التشريعية الخطيرة التى تنفست عن أصول دستورية عظيمة الخطر فى مستقبل الأمة، ومستقبل التشريع المالى فى الإسلام مجالات من التأمل الفسيح ، والنظر العميق .

أولها : تلك النظرة العمرية المستقصية فى ربط آيات القرآن الكريم بعضها ببعض ، وفهمها باعتبارها وحدة دستورية تشريعية لا يستغنى جزء منها عن جزء آخر ، حتى انتهى بها نظر المجتهد العبقرى إلى مكانها من الخلود

الدستورى فى صورتها الأخيرة التى لم تبق لأحد من أهل اللسن والحجاج الجدلى حجة قائمة .

(فقد صار هذا الفىء من بين هؤلاء جميعاً — أى من حضر وجاهد ؛ ومن سيأتى بعد من كافة المسلمين الذين هم جميعاً جنود الله وكتائب الإسلام — فكيف نقسم لهؤلاء الحاضرين ، فيملكون ما قسم لهم ويرثه عنهم أبناؤهم ، ويكون دولة بينهم وبين من يرثهم — فقط — ويحرم منه عامة المسلمين الذين يأتون بعدهم — وندع من تخلف بعدهم) .

ثانيها : أن الرواية تعرض الشورى التى تم على أساسها هذا التشريع فى أروع صورها الدستورية . فهى تذكر أن عمر رضى الله عنه رأى عدم قسمة الأرضين فى سودا العراق على المجاهدين . وأن يتركها موقوفه على عامة المسلمين فى مستقبل حياة الأمة الإسلامية .

وهذا نوع من أنواع (التأميم) الذى يتشادق به المخدوعون ، فعمر رضى الله عنه قد أمم أرض السواد ، وجعلها لمصلحة الأمة ، تشحن من حصائلها ثغور المسلمين ، ومدنهم العظام ، وتجهز جيوشهم ويرزق منها جنودهم ، وتشترى منها أسلحتهم ، وتصنع منها ما يقدرون على تصنيعه .

واسم (التأميم) كلمة مستحدثة لم تكن معروفة فى اصطلاح المال الإسلامى بل كان المعروف عند المسلمين هو (الحبس والوقف) وهذا اختلاف فى اللفظ، وهو لا يغير من الحقائق شيئاً .

وقد عارض عمر رضى الله عنه فى رأيه عامة المجاهدين ، وحمل لواء هذه المعارضة (بلال بن رباح) أحد السابقين الاولين ، مولى أبى بكر رضى الله عنهما ، ومؤذن رسول الله ﷺ ، وكان بلال شديداً فى معارضته شدة

حملت عمر رضى الله عنه على أن يستغيث منه بالله ، ويلجأ إليــه متضرعاً داعياً أن يكفيه بلالا وأصحابه من المعارضين .

وهذا لون من ألوان التربية الإسلامية ،لم يعرف إلا فى شريعة الإسلام ودستوره الحكيم،ذلك أن يقف مولى من الموالى فى وجه رئيس الدولة الأعلى — ومن هو ؟ إنه عمر بن الخطاب — حاملا لواء معارضته فى أخطر قضية من قضايا النظام المالي في الإسلام، يعارضه في حرية تعنو لها جباه المخدوعين فى بريق الديمقراطيات الفاشلة .

ثالثها : أن عمر خليفة المسلمين — وفى يده سلطان التنفيذ — لم يلجأ إلى سلطانه ولا استبد برأيه ، بل جرى فى مشاورته على أساس الحجة والإقناع،واحتج على صواب رأيه بأسانيد من نصوص الدستور الأساسى، فلم تقنع حجته — على نصاعتها وإشراقها — معارضيه ، ووقف عند رأيه ، وما كان يزيدهم على قوله : هذا رأيى ، فقالوا له : إن بيننا وبينك الشورى العامة،فاستشر ، فما استطاع أن يقول : لا ، ويتوارى وراء سلطان الرياسة العليا للدولة ، ولـكن عمر رضى الله عنه كان وقافاً عند الحق ، فأذعن ودعا مجلس الشورى من المهاجرين والأنصار ، وفيهم عثمان وعلى وطلحة ، وابن عمر ، ودعا معهم عشرة من الأنصـار من كبرائهم وذوى رأيهم ، خمسة من الأوس ، وخمسة من الخزرج ، وقال لهم : أنتم شركائى فيما حملت من أمور الأمة ، وأعوانى فى تصريف سياستها العليا ، فما أنا إلا واحد منكم كأحدكم وأنتم اليوم أهل الإيمان ، الذى لا يزيغ بصاحبه ، لا تبالون متى وكيف وعلى من وقعت كلمة الحق ، ومعكم من الله العلى الأعلى كتاب هو الدستور الناطق بالحق .

فقـال مجلس الشورى : قل نسمع ، فعرض عمر رضى الله عنه القضية

عليهم ، وألقى إليهم بحجته ثم ألقى بحجة معارضيه فى أسلوب صادق موحد لا يظلم كلمة ، ولا يغمض رأياً ، حتى قالوا له جميعاً : الرأى رأيك ، فنعم ما قلت ، ونعم ما رأيت .

وهنا قال عمر : قد بان لى الأمر ، ومضى قدماً ينفذ رأيه ، وهذا هو الوضع الذى أمر الله به رسوله ﷺ فى آية أمره بالشورى ، إذ قال له : (وشاورهم في الأمر) وإذا ـ بلغت الشورى مداها ، وأخذت من النفوس مكانها واستوفت شرائطها ، فامض قدماً إلى تنفيذ ما انتهت إليه ، غير متردد ، ولا متوقف «فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين»[1]

وعمر رضى الله عنه أحرص المؤمنين على الاقتداء برسول الله ﷺ ، وطلب رجلا له جزالة وعقل وتجربة ليوسد إليه أمر مسح الأرض ووضع الخراج عليها ، وضرب الجزية على العلوج ، فدل على الخريت الفطن عثمان ابن حنيف ، فكلفه القيام بالأمر ووجهه فتوجه ، ودرت الأرض بخيراتها فكان خراج موضع واحد منها فى عام واحد ، مائة ألف ألف درهم ، وهذا من بركات الشورى والاعتصام بها .

رابعها : أن الرواية المفصلة أشارت إلى أول خطوة خطاها عمر رضى الله تعالى عنه فى تنظيم الإدارة المالية فى الدولة الإسلامية ، وفى طريقة الإنفاق على المشروعات وأصحاب المرتبات والوظائف فى الدولة ، فدون الدواوين لحفظ مال الدولة وإحكام التصرف فيه ، ورعاية مستقبل الأفراد والجماعات وإعطاء أصحاب الحقوق حقوقهم عن هذا المال ، وإنشاء احتياطى من ميزانية الدولة للمفاجآت .

وبينت هذه الرواية أن عمر رضى الله عنه كان يسير بسيرة أبى بكر رضى

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

الله عنه فى إعطاء الأرزاق ، وأبو بكر رضى الله عنه كان يسوى بين الناس وطوائفهم ، ويرى أن هذا المال بلغة الدنيا ، وليس جزاء على عمل ، وإنما جزاء العمل عند الله فى الآخرة ، فالناس عنده أسوة فى هذا المال .

ولكن عمر رضى الله عنه حينما فتحت فى عهده خزائن الدنيا على الدولة الإسلامية ، وكثرت الأموال وفاضت ، وامتلأ بيت مال المسلمين به رأى أنه لا ينبغى أن يسوى فى العطاء والأرزاق بين من حارب مع رسول الله ﷺ فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وبين من حارب رسول الله ﷺ ظالماً لنفسه وللحق .

ورأى ألا يسوى بين السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وبين الطلقاء وأبنائهم ، ولا بين من كان أثيراً عند رسول الله ﷺ ، وبين من لم تكن منزلته عنده كذلك مع معرفة منزلته ومكانته من الفضل فى الإسلام . ومن هنا فضل عمر رضى الله عنه أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ وابن حبه فى العطاء على ولده عبد الله بن عمر — وعبد الله هو من هو ، فى فضله وعلمه ومكانته فى الإسلام .

وسار عمر فى الشورى إلى غايتها ، لم يستبد برأيه ، ويفرضه على الناس ، وهو فى هذا الرأى يخالف سلفه الخليفة الأول أبا بكر الصديق رضى الله عنه بل رأى عمر أن يشاور الناس فى هذا المبدأ المالى الذى سيترتب عليه تغيير الوضع المالى لكثير من الناس ، فشاور أهل الرأى والفضل فى هذا التغيير ، فأشار عليه به من رآه من ملأ المسلمين .

خامسها : هذا الاتجاه الدستورى فى حماية الدولة وثغورها ومدنها ، وشحن أمصارها العظام بالجيوش والجند والسلاح ، وإعداد كتائبها بما يجعلها على أهبة الاستعداد ، وإعداد احتياطى ثابت من المال فى ميزانية الدولة فى صورة

عرفها الإسلام باسم (الحبس والوقف) — وعرفها العصر الحديث باسم (التأميم) أى جعل بعض المنافع العامة ملكاً للأمة فى يد الدولة تديرها وتتصرف فيها بما تقضى به موازين العدل والحق التى جاء بها الدستور الإسلامى فى نصوصه وتطبيقاته من غير إسراف وانحراف ولا تضييع وإتلاف — قد وضع به عمر بن الخطاب رضى الله عنه أعظم المبادىء الدستورية الإسلامية التى يظنها بعض المخدوعين جديدة مستحدثة ، وهى كما رأينا صورة مستخرجة من صميم الدستور الإسلامى المجيد .

* * *

هذه هى الشورى فى الإسلام ، ومجالسها وأساليب تنفيذها ، والمسلمون اليوم فى أشد الحاجة إلى من يتقدم إليهم بنظام حكم إسلامى يعتق رقابهم من ذل العبودية الفكرية والتشريعية ، والتاريخ يفتح صفحاته لمن يريد من أبناء هذه الأمة أن يكتب سطراً يتصل نوره بنور الإسلام فى سماحته ورحابة أفقه

فهل من زعيم قوى الإيمان بالله تعالى صادق الشجاعة ، متفقه فى مبادىء التشريع الإسلامى ، عليم بروح الإسلام ، يتقدم ليكتب فى تاريخ الإسلام كلمة تبعث الحياة فى هذا الشرق الإسلامى لتعيده إلى أمجاد الإسلام ؟

إن الزعامات السياسية المخدوعة ببريق ديمقراطيات الغرب والشرق قد فشلت فشلا ذريعاً ، وقد ولدت فى مهادها زعامات سياسية تحررت من قيود التبعية السياسية ، ومشت فى طريق المجد تبنيه على دعائم الحرية ، ولكن الأمة الإسلامية تريد أن تبنى مستقبلها على أساس دستورها الإلهى الذى يناديها : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (١) .

---

(١) سورة الأنبياء آية ٩٢.

نكسة فاجعة

وتمت بيعة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فى جو ملبد بغيوم الفتن والأحداث الفوادح ، ومضى رضى الله عنه فى سبيل صاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، يستن بسنتهما فى إقامة نظام الحكم على أساس الشورى والعدالة الاجتماعية ، إلى أن تحول المجتمع الإسلامى الخضم الذى اتسعت رقعته عن اتجاهه الأول ، ذلك الاتجاه الذى ربى عليه النبى ﷺ أصحابه .

وكان المظهر الأعلى لتلك التربية الفاضلة وزن الدنيا وزخارفها فى قبضة الأفراد والطوائف فى داخل الأمة بميزان البصيرة المستنيرة بنور الإيمان ، فلم تعلق بقلوبهم علوقا يدفع إلى التنافس فيها تنافساً يصدهم عن تكميل أرواحهم وتزكية نفوسهم ، ولم ينصرفوا عنها انصراف الأغرار ، الذين لا يقدرون نعم الله حق قدرها : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »(١) .

ومن هنا كان ماطرأ على الأمة من الانغماس فى ملذات الدنيا ومتعها ، والتنافس فى جمعها هو الصورة الواضحة فى هذا التحول الذى بدأ فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب — وهو من هو — على أيدى أصناف من الناس تدافعت أمواجهم بأشتات من العناصر مختلفة المذاهب المتنوعة والعادات المتباينة ، والأفكار المتضاربة ، ممن دلفوا إلى ساحة الإسلام تلبية لنداء — الفتوحات الإسلامية طوعاً أوكرهاً ، أو فراراً من الظلم والاستبداد الذى كانوا يسامون فى أممهم تحت سلطان حكمهم الاستبدادى

---

(١) سورة الأعراف آية ٣٢ .

إلى ساحة العدل والإخاء فى ظل راية القرآن العظيم ، دستور الإسلام ومصدر تشريعاته .

لكن يد عمر رضى الله عنه كانت قوية القبضة على حلاقيم الفتنة .كانت (درته) أصلب وأحد من سيف الحجاج ، وكلماته الزاجرة أسرع إلى النفوس وأهيب فى القلوب من بتراوات زياد ، وكانت قوة الإيمان لاتزال تسيطر على إرادة المجتمع ، فكان المفسدون يتخوفونه على أنفسهم وأبشارهم، فلم يستطيعوا أن يعملوا إلا فى جنح الظلام ، يدبرون ويمكرون ، وكان أخبث مكرهم ، وأفدح تدبيرهم — وهو تدبير يهودى مجوسى — أن يطيحوا بهذا السد الفولاذى من طريقهم ، وقتلوا عمر وهو يكبر لصلاة الصبح فى غلس الظلام ، ومرجت الفتنة ، وتعالت أمواجها الصاخبة ، وعصفت رياحها المزمجرة ، تلعب بسفينة الأمة الإسلامية فى محيط الفتن المتلاطمة، دون أن تجد ربانا عمريا يمسك بسكانها ليوجهها إلى مرفأ السلامة .

كانت الصور التى ملأت إطار الحياة الإسلامية فى هذه الفترة هى التنافس الفردى أو الطائفى فى وزن زخارف الدنيا بميزان التقدير الأخرق ، والحرص عليها حرصاً دعا إلى التسابق إلى محافلها لجمعها واكتنازها ، والصد عن إنفاقها فى سبيل الخير والبر ، وفتح أبواب الشهوات الرخيصة والركون إلى مظاهر العبث المادى ، والحصول على أكبر قدر من اللذات كغاية ينتهى إليها سعى الناس .

والإسلام لاينكر على أمته أن يكون فيها أثرياً كأبلغ ما يكون الثراء إذا كان هذا الثراء قائماً على العدل والحق والرشاد ، ولكن الإسلام ينكر أشد الإنكار أن يكون الثراء الفردى أو الطائفى قائماً على الظلم والاستغلال وأداة للفساد والإفساد .

فالمال فى نظر الإسلام ملك للأمة فى يد أفرادها وطوائفها ، أو بيت مالها ، ينفق فى مصالحها التى تقيم دعائم قوتها ، وتجهز به جيوشها ، وتؤسس به مصانعها ، وتنشأ منه مدارسها ومعاهدها وجامعاتها ومساجدها وقناطرها ومشافيها ، ويكفل الحياة الكريمة لسائر أبنائها ، كما كان دأب أثرياء أفاضل المؤمنين الذين كان ثراؤهم قوة للأمة ، ومصدر خير وإصلاح لمجتمعها من أمثال الصديق والفاروق وذى النورين ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن عبادة وابنه قيس ، وعبد الله بن جعفر ابن أبى طالب وكثير غيرهم ، فقد كانت الدنيا فى أيديهم للأمة والدولة ومكارم الأخلاق ، لا يملكون منها إلا التصرف بما أراهم الله فى شريعته ، وما أدب به الصالحين من عباده من التنافس فى سبيل المكارم وإسعاد الأمة .

ولو لم يكن فى الأمة أثرياء أتقياء ما تحرك لها جيش ، ولا قامت لها مصلحة ، والعبرة فى جيش العسرة وغزوة تبوك ـ وهو أعظم جيش عدداً خرج فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم بقيادته ليرهب عدو الله وعدو المسلمين من الرومان الذين استعدوا لغزو الإسلام واستئصال المسلمين ـ أعظم شاهد على أن ثراء المسلمين قوة لأمتهم ودولتهم .

ومما زاد فى اتساع هوة الفساد وتغيير منهج الأمة فى سيرتها دخول فئات وطوائف من الأمم إلى ساحة الإسلام عراة عن الإيمان الصادق ، حتى طغى سوادهم على صادقى الإيمان من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وتابعيهم من صالحى المؤمنين .

أولئك قوم قد أرادوا الدنيا بإسلامهم ، فخاضوا إليها لجج الدماء ، ورتعوا فى بقية من آثار النبوة ممثلة فى شخص عثمان بن عفان رضى الله تعالى

عنه رأفة بالأمة أن تفتك بها الفتن ، ورحمة بها أن تعصف بها عواصف التفرق والاختلاف .

رأى هؤلاء المفسدون أنهم يعيشون فى ظل ظليل من الخلافة الراشدة ، آمنين أن تحدث لهم أحكام وزواجر بقدر ما أحدثوا من الفجور ، لأن ذلك فى نظر الخلافة الراشدة وشرعتها من سنن الملك العضوض ، وهى منه براء .

وقد استشرى هذا التحول والتغير فى نهج الأمة عن السمت الأول ـ فى أواخر عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه لاتساع الفتوحات ووفور الخيرات وكثرة الغنائم ودرور الأموال[1] ، وضعف الوازع الدينى والجهالة بمبادئ الإسلام ، وقيام أسواق النخاسة والاتجار فى الجوارى والعبيد ، وامتلاء بيوت المترفين بهم ، وتنافس هؤلاء فى التقرب إلى ما يرضى السادة ، وشيوع الخلاعة والفساد فى أوساطهم ، إلى جانب ما حدث من الاختلافات المذهبية فى فهم نصوص الدستور الإسلامى .

وظهرت الشيعة بأفهامها وأصول طوائفها ، وظهرت الخوارج بشدائدها وجفائها ، وانتحل هذه المذاهب من لم يكن منها فى صدر ولا ورد ، ولكنه أرادها أداة للوصول إلى أغراضه الخبيثة : كعبد الله بن سبأ وطائفته السبئية ، وهم يهود من أخابث الإنسانية ، وهم الذين حملوا لواء الفتنة الكبرى التى بدأت بقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ، ولم تنته أعمالها وآثارها إلى اليوم ، لأنها كانت إذ ذاك تحمل أسماء الصالحين لتموه بهم على الناس فى

---

(١) راجع كتابنا عثمان بن عفان .

قضية المـال فى أيدى الأثرياء ، وجعلت من الصحابى الجليل أبى ذر الغفارى كبش فداء لها .

وهى اليوم يقودها شياطين اليهود الذين زرعوا شجرتها الخبيثة فى حياة الناس ليفتنوهم عن أمنهم وإيمانهم ، وهى إذ ذاك كانت تجد فى كسروية بعض الولاة وحواشيهم ، وقيصرية المفتونين بالمال ومتعته ما أعانها على تحريك الفتنة ، ووضع فى يدها الحجة على فساد الأوضاع .

وهى اليوم تجد فى مظاهر الحضارات الباغية فى الأمم الطاغية بأموالها، التى يملكها شياطين اليهود ، يحكمونها بها ظلماً وطغياناً من وراء أظهر الرؤساء (الديمقراطيين) ما يعينها على بث روح الحقد والبغضاء بين أبناء الإنسانية ، ولا سيما فى الأمم الإسلامية المغلوبة على أمرها ، فما أشبه اليوم بالبارحة ، وما أشبه الوجوه بالوجوه ، والأعمال بالأعمال .

ومن الطبيعى أن تكون أول طائفه يتطرق إليها الفساد ويساق إليها ليجنى المفسدون من ورائها ما يريدون من إفساد وبلبلة ـ هى طائفة البطانات وحواشى الحكم .

واجتمع على نظام الحكم فى الإسلام الفساد الداخلى والخارجى ، واشتد التجاذب بين الخير والشر ، الخير ممثلا فى الخلافة الراشدة وبقية الفئة الهادية المهدية من أصحاب رسول الله ﷺ ، والشر ممثلا فى ذوى المطامع من الشباب الطموح فى ظل الخلافة وبطاناتها وحاشيتها مستغلا عواصف الجو ، مسوقاً بسياط الفتنة اليهودية المجوسية ـ من شباب قريش ومن انضوى إليهم ممن كان على شاكلتهم ، الذين فاتتهم سوابق الفضل والتربية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

استعلت الفتنة العمياء واتسعت حتى شملت الأمة الإسلامية كلها فى أمصارها العظمى وأقطارها المختلفة ، ولوت عنقها وعدلت بها عن الجادة التى تركها عليها نبيها ﷺ وخليفتاه : الصديق والفاروق ، وظل عهد الخليفتين الراشدين الصهرين عثمان وعلى رضى الله عنهما مسرحاً لعواصف الثورات وقواصم الفتن ، ونيران الحروب الداخلية يشعل لهيبها أخابث اليهود الذين أعياهم أن ينالوا من الإسلام نيلا فى مواجهة كريمة ، فعمدوا إلى الدس والكيد الماكر ، وتستروا وراء التشيع لآل البيت ، وتسلطوا على بعض ذوى الطوايا السليمة من صالحى المؤمنين بمعسول القول ، وخبيث التدبير ، حتى تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض ، وولاية عهد نسبية ، يلى الحكم فيها بهذه الوراثة الأطفال والمأفونون ، وأهل الغرور والفجور ، والسيف مصلت على رءوس الأمة ، والغصص الاستبدادية آخذة بحلاقيمها ، وانزوى كثير من العلماء الأحرار ، والصالحين من ذوى الأحلام مكظومين مكرهين كارهين ، بعد أن رأوا سيف الظلم والقهر يمشى إلى رقاب إخوة لهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعهم من الأئمة وأعلام الهدى .

ولكن الأمة لم تعدم من أبنائها من يقدم نفسه فداء لهـــا ، ولدينها ؛ ودستورها ؛ واندفع بعض دعاة الإصلاح ؛ وأهل الإيمان الصادق ممن لا يبالون فى سبيل الله ؛ سبيل الحق والعدل من أى الجهات يأتيهم الموت ، ولسان حالهم يقول :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

ونصبوا أنفسهم لمقاومة الظلم والطغيان ، ليردوا إلى نظام الحكم فى الإسلام اعتباره ، ويعيدوا إلى مبدأ الشورى حريته لتختار الأمة حاكمها الأعلى ، وتقضى على ولاية العهد الوراثية بالأنساب غير أن الأمر لم يكن فى دائرة إرادتهم ، ولا فى طوق طاقتهم ، لأن دعاة الفتنة من أخابث اليهود والمنافقين ومرضى القلوب من المتلمظين لفتات موائد الظلمة قد أحكموا رتاج المنافذ ، وقتل شهيداً سيد شباب أهل الجنة الحسين بن على حفيد رسول الله ﷺ وسبطه ابن الزهراء ، وقتل معه من أهل بيته شموس الإنسانية وأنجمها ، فى كثرة من جمهور المسلمين الذين خرجوا معه مجاهدين لا يحصون عدداً ، وقتل أول مولود فى الإسلام بعد الهجرة عبد الله بن الزبير ، وهو مقبل فى سبيل الحق منشداً :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وتتابعت ثورات دعاة الإصلاح ولم تخمد لهم جذوة ، وقتل من قتل على مر العصور ، ولن تفقد الأمة منهم من يذكرها بخلودها :

إذا مات منا سيد قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول

وتوالت المحن على الأمة ، واتسعت هوة الفرقة بين أبنائها ، وأقيم فى أوطان الإسلام دويلات يحكمها :

ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

عوامل حيوية الامة الاسلامية برغم عواصف الفتن

وقبل أن نختم الحديث فى هذا الأصل من أصول الهداية الإسلامية وسماحة تشريعها ننبه إلى أمر له أهميته من الوجهة التاريخية ، والوجهة العملية .

أما من الوجهة التاريخية فهو أن هـذه المحن القاصمة والفتن العاصفة تمكنت من الأمة الإسلامية مبكرة ، فقد بدأت فى أواخر عهد خلافة عمر ابن الخطاب بقتله،وتفاقم أمرها فى أواخر عهد خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، بسفك الدماء ، وديمومة القتل والقتال ، ثم استشرى شرها بعد ذلك ، فلم تهدأ لها زجرة ، ولا سكنت لها دمدمة ، ولا سقطت لها أسلحة مدمرة ، وكان بعض ذلك،بل أقل من بعضه كفيلا أن يفقد الأمة الإسلامية كل مقوماتها الذاتية ، وشخصيتها المعنوية ، وروحها الدستورية الأصيلة .

لكن ذلك لم يكن مؤثراً على نهوض الأمة طوال عدة قرون، قد يكون آخرها قبيل تقويض الخلافة الإسلامية على أيدي التتار بتدبير الوزير اليهودي ابن العلقمي، وذلك نحو خمسة قرون.

ذلك أن الأمة الإسلامة ـــ على رغم ما كان قائماً فى داخلها من هذه القواصم ـــ لم تفتر ـــ قط ـــ عن الدعوة إلى الله ، ماقعدت جيوشها عن الجهاد ، ولا انقطع تاريخها من كبريات الأحداث المجيدة ، فهى فى عهد عثمان ، وعهد معاوية ، كانت راياتها تخفق على جزر البحر الأبيض المتوسط وأساطيلها تمخر مياهه داعية إلى الله ، فاتحة للبلاد والقلوب والعقول ، ولها فى جزر هذا البحر مآثر وآثار تشهد لتاريخها .

وهى قد فتحت المغرب كله فى هذا العهد أيضاً ، وهى قد طرقت أبواب القسطنطينية ووقفت فى ظـــل سورها ودفنت صاحب رسولها ﷺ سيدنا أبا أيوب الأنصارى هناك على يد يزيد بن معاوية ، وهى قد فتحت الأندلس فى عهد الوليد بن عبد الملك وأسست فيها دولة إسلامية لا يعرف التاريخ الإنسانى نظيراً لها فى حضارتها الفكرية والفنية والفقهية والأدبية والفلسفية والمعمارية ، وقد كان عهد الوليد عهد عمارة وبناء .

وهي فى عهد عمر بن عبد العزيز لم تجد فى طولها وعرضها مستحقاً للزكاة فقد اكتفى الناس وأثروا ثراء عريضاً نظيفاً حلالا طيباً .

وهى فى عهد أبى جعفر المنصور أسست أول جامعة علمية ، ترجمت فيها علوم الأوائل واستبحر فى عهده الفقه الإسلامى وعظمت سائر الفنون والعلوم ، ولا سيما علوم اللغة والأدب والفلسفة وتفسير القرآن وتدوين السنة .

وفى عهد ولديه المهدى والهادى امتد ملكها إلى أطراف المعمور ، وفى عهد حفيده الرشيد كان هٰرون يخاطب السحابة وهى تمر فوقه: أمطرى حيث شئت فإن خراجك سيأتينى وأنا فى مكانى .

وفى عهد المأمون كانت النهضة العلمية بأوسع ما عرف الناس من معانى العلم والمعرفة تنشر أجنحتها فى الأقطار الإسلامية،ولا سيما عواصمها الكبرى ، بغداد ، ودمشق والقاهرة وقرطبة لا تجد فى دنيا العلم والمعرفة ما يساميها فى أى جانب من جوانب الحضارة الفكرية والاجتماعية والفنية .

وفى عهد المعتصم فتحت عمورية من أجل تخليص امرأة مسلمة هتفت : وامعتصماه ، فنقل إليه من سمع هتافها ، فقال : لبيك ، وتجهز حتى خلصها .

وهكذا لو تتبعنا الحياة الإسلامية فى الأندلس والمغرب وأقصى المشرق لوجدنا حياة فياضة بالحيوية الفكرية فى هذه الأمة الإسلامية على رغم ما اعتراها من محن وفتن داخلية لم يهدأ أوارها منذ اشتعلت نيرانها .

فما سبب ذلك ؟ هذا فى الحقيقة من الوجهة التاريخية فى المجتمع البشرى إعجاز يعسر تفسيره وتعليله اجتماعياً وعلمياً،وهو فى حاجة إلى بحث خاص،

يضع الأحداث فى مواضعها ، ويستشكف آثارها ، ويستخرج أسبابها .

والذى يدور بخلدنا نتيجة بحث لا نضعه مع النتيجة النهائية، ولكن نضعه سطراً فى صحيفة البحث .

إن التربية الإسلامية التى تعهد بها النبى ﷺ أمته، والمبادئ — التشريعية والخلقية ، والنظم السياسية والفكرية التى جاء بها القرآن الكريم وطبقها النبى ﷺ فى واقع حياة الأمة من أصحابه .

وما أفاضه عليها من طموح خلود الذكر باستمرار الدعوة إلى الله ، وعمومها لكافة الأزمان والأماكن والأجيال .

وما كان من الصحابة فى نقل ذلك كله عملياً فى سلوكهم إلى تلاميذهم من التابعين .

وما وقر فى نفوس المسلمين الأولين من عدم ارتباط الإيمان بالدين بأية عصبية ، وأن الناس فى العمل لخلود الدعوة إلى الله سواسية ، لا يفضل بعضهم بعضاً إلا بما يحفظه له التاريخ من عمل مجيد يفوق به عمل غيره من العاملين .

هـــذه — فى نظرنا — بعض الأسباب الإجمالية التى جعلت من هذه الأمة الإسلامية أمة تتغلب على معوقات الحركة والتقدم ، فتسير قدماً ، لا تلتفت خلفها .

ووراء هذه الأسباب أسباب جزئية تتصل بالأحداث التاريخية قد يكون لها مدخل فى تجديد حيوية الأمة وحركتها .

أما من الوجهة العملية فالدستور الإسلامى ، وهو القـــرآن الحكيم ، وتطبيقات النبى ﷺ لنصوصه ، واجتهاد الصحابة والتابعين ، وسائر أئمة

الدين وعملهم فى استنباط أحكام الحوادث والوقائع الطارئة فى تاريخ الأمة - كان كل ذلك قائماً محفوظاً ، لم تفقد منه شيئاً طوال فترة بقائها فى صورة الخلافة الإسلامية قبل فتنة التتار ، ولم يحدث أن أقحم على الأمة الإسلامية فى هذه الفترة تشريع لا يستمد منازعه من الدستور الإسلامى الأصيل .

فالأمة على رغم ضعضعة مبدأ الشورى فى إقامة حاكمها الأعلى ورأس دولتها ظلت تحكم بشريعتها الإسلامية المأخوذة من دستورها ، وظل فقهاؤها وعلماؤها يجتهدون لها ويستنبطون أحكام وقائعها وحوادثها ، فلم تحتج إلى شريعة أو قانون غير شريعتها وقوانين فقهها .

والذى تغير مما يوجبه دستورها هو صورة تنصيب الحاكم الأعلى للدولة، وهذا لم يؤثر فى حكم الأمة بدستورها وتشريعاته ، حتى ركدت فيها ريح الاجتهاد وبدأ حكامها يضيقون ذرعاً بالأحداث التى تجد ولا يسعفها الفقه المقلد بأحكامها ، فأحدثوا ما أحدثوا من أحكام وترك كثير من أحكام التشريع ، وهى لاتزال قائمة يمكن تطبيقها .

وكثير من الحوادث الطارئة لا تجد لهـا أحكاماً فى الفقه المقلد فى يسر وسهولة ، وتحتاج إلى نظر واجتهاد ويستخرج لهـا من الفقه الإسلامى أحكامهـا .

والاجتهاد له أصوله وقواعده ، وليس بلازم أن تكون تلك الأصول والقواعد مجتمعة فى شخص واحد ، كما كان الشأن فى أئمة الاجتهاد السابقين بل يمكن فى عصرنا أن يكمل بعض العلمـــاء بعضاً فى استنباط حكم الحادثة الواحدة .

وتصحيح الأوضاع للرجوع بالأمة إلى أحكام دستورها يتطلب من أهل العلم والفقه فى الدين أن يتشجعوا ويعملوا - بغير وصاية من الحكومات ليعدوا أنفسهم بالبحث فى تفسير القرآن الكريم على ضوء أقوال المفسرين،

وبالبحث فى كتب السنة ولا سيما كتب المصنفات ، وبالنظر فى الفقه الإسلامى المستبحر ، ليجدوا للأمة مخارج لحياتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تبنى عليها نظام حكمها بالتشريع الإسلامى من غير إفراط ولا تفريط ، ولا نعلم فى تاريخ التشريعات والقوانين تشريعاً أوسع أحكاما ، وأكثر مسائل ، وأغزر تعريفات ، وأعمق نظراً وأسد حكمة ، وأرشد رشداً ، وأهدى عدلا من التشريع الإسلامى ، والفقه الإسلامي لا يقف أمام مشكلة من مشاكل الحياة لا يجد لها حلا أو منفذاً إلى حل.

وأخذ الأمة بالتدرج فى رجعها إلى تشريعها وتطبيقه على وقائعها وأحداثها فى صبر وأناة مع النظر فى استنباط أحكام الحوادث الطارئة هو الطريق العملى الكفيل بوصول الأمة الإسلامية إلى تحكيم دستورها ، ووضع أحكامه التشريعية موضع التنفيذ .

والمهم أن تبدأ الدراسة ، ويبدأ البحث فى إعداد النصوص الدستورية وتشريعاتها ووضعها فى الصورة التقنينية ، ليسهل العمل بها فى التقاضى والفتوى ، مع وجوب التوقف فى تنفيذ كل ما يخالف أحكام الدستور الإسلامى إذا لم يحدث التوقف فى تنفيذه ضرراً بالغاً يمس طبيعة التعامل الدولى مع أية دولة إسلامية ، وكذلك وجوب البدء فى تنفيذ ما هو قائم بالنص من أحكام التشريع الإسلامى ولم يعمل به كثير من الأمة الإسلامية كالحدود والتقديرات .

هذه صورة لنظام الحكم فى الإسلام عرضناها من الوجهة التاريخية التشريعية ومن الوجهة السياسية ، ومن الوجهة العملية فى التطبيق الواقعى فى حياة الأمة الإسلامية ، ومع بعض الموازنات بين هذا النظام الذى جاء به الإسلام باعتباره جانبه الدولى ، وبين غيره من الأنظمة التى أخذ بها

المسلمون فى عصور انحلالهم واستبداد الملوك والحكام بهم استغلالا لضعفهم وجهالتهم أو الأنظمة التى تأخذ بها الدول المعاصرة التى لاتدين بالإسلام .

وقد قصدنا من عرض هذه الصورة بيان أثر نظام الحكم كما أمر به الإسلام فى تطبيق سماحة تشريعه وأن نضع بين يدى الأمة تحت سمعها وبصرها صورة هذا النظام لنقول لها : إننا جربنا كثيراً من ألوان الحكم وأنظمته التى لايقرها الإسلام ، بل أقحمت على أمته إقحاماً فى فترات ضعفها وجهلها ، فلم تفلح تلك الأنظمة فى تحقيق ما تبتغيه الأمة من إصلاح يبلغ بها مكانها من المجد والعزة والكرامة .

فلنجرب العودة إلى تاريخنا ومجدنا وحقيقتنا الإسلامية ، ونعمل بنظام الحكم الإسلامى تحت أى عنوان إصلاحى إن كانت كلمة (الإسلام) تخيف أحداً من الناس ، وعندئذ سيدخل الإسلام بنوره وهدايته وسماحته إلى هذه القلوب النافرة فيردها إلى ساحته الربانية لتجعل منه طريقها إلى وحدة الإنسانية فى ظل من الإيمان ظليل .. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

سماحة العقيدة فى الإسلام

العقيدة فى دين الإسلام هى أصل أصوله ، التى تتفرع عنها شرائعه ، ونظمه الاجتماعية ، وتنبثق من نبعتها آدابه وأخلاقياته ، وتشرئب إليها أنظار المفكرين ، ليعرفوا من أسلوب أدائها مقدار ما فى هذا الدين القويم من يسر وسماحة ، تقربانه من القلوب والعقول وتضعانه فى مستوى الإدراك الإنسانى العام ، الذى لا يطيق عنت التعقيدات الفلسفية ، وغموض الرموز الكهنوتية ، واصطلاحات المحترفين العلمية التى تذهب بأعمار الناس وآجالهم دون أن يصلوا منها إلى وضع إصلاحى تقوم على دعائمه علاقة العبد بربه وخالقه ، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، وعلاقة الإنسان بالأشياء التى يعيش بها ومعها ، وتعيش به ومعه ، وهذا الوضع الإصلاحى هو المقصود من تشريعات الإسلام ، فإذا لم توصل إليه (العقيدة) بأسلوب أدائها ، وسماحة طبيعتها كانت حملا ثقيلا على ضمير الإنسان تقلقه ، وتبلبل منازعه وتحيل الحياة أمامه أمشاجاً من الأثرة عند الأفراد والجماعات .

فالعقيدة فى الإسلام هى القانون الذى يرجع إليه كل نص فى النظام التشريعي ، ويرجع إلى حكمة المكلفين كل عمل يصدر عن العقلاء المتكلمين .

فإذا لم ترتبط نصوص النظام التشريعى بالعقيدة ارتباط الفرع بالأصل فإن هذه النظم التشريعية تصبح ضرباً من الانطلاق الاجتماعى الذى تحكمه الشهوات الفردية ، والمغالبات الاجتماعية ، والأثرة الذاتية ، مما يجعل الحياة صورة مشوهة المعالم ، تقودها الفوضى (المنظمة) بقوة البطش والإرهاب

والعقيدة في الإسلام بهذا التصور تعطى الحياة منهجاً تقنينياً يعتمد على تربية (الضمير) ليكون حارساً أميناً على تصرفات الأفراد والجماعات وتعطى للناس منهجاً اجتماعياً يقوم على استقامة السلوك بوحى من هذه العقيدة التى يشدها الإيمان بالله القوى القهار إلى الرضا بالعدالة فى الحقوق والواجبات .

وحينئذ يكون تشريع الجزئيات نوعاً من النظام الذى يكفل للأفراد والجماعات طريق الوصول إلى حياة يعرف كل فرد ، وكل جماعة وشعب ، ما له فى الحياة من حقوق وما عليه من واجبات ، ويعرف أن مصدر هذه الحقوق والواجبات هو الله الخلاق العليم الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، فلا مدخل فى تحديد الحقوق والواجبات للرغائب الشخصية ، وإنما تحددها النظم التشريعية المرتبطة بالعقيدة .

وليس من غرض هذه (الموسوعة) أن تستوعب جزئيات التشريع الإسلامى المنظم للحقوق والواجبات فى مظاهر سماحتها ، وسعة رحمتها ، لأن ذلك ما لا يمكن تقصيه وتتبعه لكثرته الغامرة التى تتعاصى على الاستيعاب والتقصى ، ولاسيا إذا استدعيت على مقتضى النهج التحليلى الذى يعطى لكل جزئية حقها من النظر الذى يكشف عن سماحتها فى طريقة تشريعها ، وأسلوب تيسير امتثالها ، والترغيب فى التحلى بها أمراً وطلباً ، والترهيب منها تركاً ونفوراً ، على ما هو سمت المسلك الذى حاولناه فى تناول الموضوعات التى صورناها فى إطار السماحة الإسلامية ، وخرجت بها هذه (الموسوعة) إلى الناس أينما وقعت لهم من أرض الله تحمل إليهم صورة الإسلام فى أصوله التى نزل بها دستوره القويم . القرآن العظيم وبينتها سنة النبى ﷺ قولا وعملا ، وأبرزتها فى الحياة تطبيقاً مشرقاً أعمال الراشدين وأئمة الهدى من المصلحين .

بيد أننا وقد بسطنا القول فى بيان الأصول التى استمدت منها عناصر

السماحة الإسلامية فنونها — وضربنا لذلك الأمثال من واقع التاريخ الإسلامى وأحداثه — فقد رأينا استكمالا لعوامل التطلع عند الناظرين فى هذا الكتاب ألا نخليه من بحث موجز يصور سماحة العقيدة فى الإسلام ، لأن العقيدة فى هذا الدين القيم هى الأساس الذى يقوم عليه بناؤه التعبدى و نظامه الاجتماعى ، كما يقرره الحديث المتفق على صحته فى قول النبى ﷺ : (بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا) .

فالشهادة بجانبيها الإلهى والنبوى تعبير عن العقيدة فى أيسر صورها وتصدير الحديث بها بيان لمكانها من الإسلام ، لأنها عموده الأوسط الذى تعتمد عليه سائر الأركان فى قيامها بحمل البناء .

ومن ثم كان لابد من عرض لصور من طريقة القرآن الكريم — وهو المصدر الأصيل الذى أعطى حق التعبير عن الحقيقة الكبرى لمعانى الإسلام — فى بيان جوهر العقيدة وأسلوب أدائها إلى العقول فى أخص وأعلى مجالاتها من العلم والمعرفة ، وفى أعم وأبسط مداركها من سذاجة الفطرة ، والاستعداد العام عند كل إنسان فى التمييز بين الحق والباطل ، والضار والنافع ، تمييزاً ينبع من سلامة الفطرة عن التعقيدات الوراثية ، التقليدية ، وعن التواء بعض نظريات العلم التى لم ينضجها البحث القويم .

وهذا الأداء — الذى يجد فيه أعلم العلماء ، وأعمق الباحثين ، ملاءمته فى التسامى بإدراكاته عن منازل عامة العلماء ، والتسامى بها عند سذاجة العوام ، والذى يجد فيه سوى الفطرة من الناس طلبته من دلائل الإيمان ، ودواعى اليقين ، بالنظرة الأولى ، التى لا يملك غيرها — هو خصيصة القرآن الكريم فى أسلوبه الأدائى المعبر عن الدعائم البرهانية لتوطيد بناء العقيدة فى الإسلام ،

وهذه الخصيصة القرآنية هى روح سماحة العقيدة التى لاتقصد إلى أخذ العقول بالخداع والحيلة، ولا تقصد إلى أخذها بالقسر والإكراه، ولكنها تتيح الفرصة للعقول كلها على اختلاف مستوياتها وتفاوتها طبيعة وكسباً، لتدرك ما يؤديه إليها استعدادها العلمى أو الفطرى من الحقائق إدراكاً تطمئن إليه، ويستقر جولانها الفكرى عنده.

أما جوهر العقيدة فى الإسلام — وهو أعظم مظاهر سماحتها — فهى عقيدة واقعية بسيطة، لا يكد العقول إدراكها، ولا تتعاصى على الفهم حقائقها، بريئة من الغموض والتعقيد. بعيدة عن الخداع والتهويل، لا أسرار فيها ولا رموز.

فهذا الكون بما فيه من عوالم، يشهد بعضها الإنسان، ويشهد تقلبات الحياة بها، فتتغير من حال إلى حال، ويغيب عنه الكثير عنها، فلا يدرك الإنسان ما فيها، وما هى عليه من تقلبات وأحوال — مخلوق، وخالقه هو الله الأحد، الصمد الذى لم يلد، ولم يولد، فليس هو عز شأنه والد أحد من خلقه، ولا هو جل جلاله مولود لأحد، ولم يكن له كفواً أحد، فلا نظير له فى وجوده وكمالات صفاته، ولا مثيل له فى ذاته، عالم الغيب والشهادة، لا يعزب من علمه مثقال ذرة فى السماء ولا فى الأرض، وهو الرحمن الرحيم، أعطى تفضلا، وأحسن سرمداً، وهو الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، القهار، الخالق، البارىء، المصور، مالك الملك، الرزاق، الغنى، الحميد، له الأسماء الحسنى والكمالات التى لا تتناهى، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم.

والإسلام لايضع الوجود الإلهى موضع الاحتمال، ولكنه يراه واقعاً مسلماً به عند جمهور العقلاء، اعتماداً على إدراك الفطر السليمة، قبل أن يلحقها صدأ التبديل والتحريف، وإلى ذلك يشير قول الله تعالى :

« فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم »(١) .

قال الإمام ابن كثير : إنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وإنه لا إله غيره ، واستدل على ما ذكره من المعنى بالحديث الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال عن الله عز شأنه : (إنى خلقت عبادى حنفاء — أى على عقيدة الحق — فاجتالتهم الشياطين عن دينهم أى — عقيدتهم —) .

ثم قال ابن كثير فى قوله تعالى : (لا تبديل لخلق الله) معناه : لا تبدلوا خلق الله ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها ، وقد ساوى الله تعالى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجبلة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس فى ذلك .

وفى تفسير القرطبى ، قال ابن عطية : والذى يعتمد عليه فى تفسير هذه اللفظة — أى الفطرة أنها الخلقة والهيئة التى فى نفس الطفل ، التى هى معدة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربه . ويؤمن به . فكأنه تعالى قال : أقم وجهك للدين الذى هو الحنيف ، وهو فطرة الله الذى على الإعداد له فطر البشر .

ثم قال القرطبى : وقال شيخنا إن الله تعالى خلق قلوب بنى آدم مؤهلة لقبول الحق ، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول ، وعلى تلك الأهلية أدركت الحق .

وقال الرازى : فطرة الله هى التوحيد، فإن الله فطر الناس عليه. فالوجود الإلهى بما لله تعالى من كمالات الإلهية ، هو ما جبل الله الناس عليه ، ولكن تعرض لهم الفتن فى تقلبات حياتهم الفكرية والاجتماعية . فتخرجهم على مقتضى فطرهم التى فطرهم الله عليها ، من معرفة الله وتوحيده .

(١) سورة الروم آية ٣٠ .

ولهذا جاء الخطاب لسيدنا رسول الله ﷺ: (فأقم وجهك للدين حنيفاً) وهو خطاب لأمته بالتزام مقتضى الجبلة والخلقة التى خلق الله الناس عليها. أى أقيموا أيها المؤمنون وجوهكم، أى انصبوا ذواتكم واجعلوا كل همكم الحفاظ على دين الحق مائلين إليه بكليتكم، موثقين معرفتكم بالله تعالى، على ما هو مقتضى الفطرة والخلقة التى خلق الله الناس عليها. فلا تبدلوا خلق الله بانحرافكم عن الفطرة السليمة وقد قرر القرآن الحكيم اعتراف المشركين. بمقتضى أصل الفطرة بالوجود الإلهى بما له من خصائص الخلق والإبداع ولاسيما فى عظائم المخلوقات التى لا يحيط بها الحس المحدود، ولا يدرك حقيقتها تفصيلا العقل المكتسب أو الموهوب.

وقد جاء هذا الاعتراف فى مواضع من القرآن بصورة موحدة اللفظ والأسلوب، ففى سورة لقمان يقول الله تعالى: «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون»(١).

وذلك بعد أن بين الله تعالى أنه سخر للناس ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، فخلقكم بشراً سوياً فى أحسن صورة، وجعل لكم فى أبدانكم قوى ظاهرة تمكنكم من السعى فى الأرض لتحصيل أسباب معاشكم، وجعل لكم فى أرواحكم وعقولكم قوى باطنة، تملكون بها من العلم والمعرفة ما تسيطرون به على ظواهر الطبيعة، وتسخرون به قوى الحياة فى السموات والأرض، ولكنهم مع ذلك يجادلون فى الله إنكاراً وإلحاداً، أو شركاً وسوء تقدير لحق الألوهية انحرافا بالفطرة عن سمتها السوى، وأصلها الصافى النقى جهلا بالله، وضلالا عن هداية الفطرة، وتقليداً لموروثهم عن الآباء وتشبعا بآثار بيئاتهم التى يقودها الشيطان بزمام الإضلال والكفران: «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع

---

(١) سورة لقمان آية ٢٥.

ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير »[١] .

وهم فى دخائل أنفسهم يقرون بالوجود الإلهى ، ويعترفون بالله تعالى خالقاً مبدعاً ، وأن مافى السموات والأرض من عوالم مسير بتدبيره وحكمته ، خاضع لقهره وجلال قدرته .

وبعد أن تمت قضية اعترافهم بالوجود الإلهى فى صراحة لاتعوزها الحجة أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يحمده على هذه النعمة العظمى، نعمة اعتراف المشركين وإقرارهم بالوجود الإلهى مع خصائصه فى الخلق والإبداع، فألزموا أنفسهم الحجـــة عليهم ، إشارة إلى أن هذا الاعتراف والإقرار الصريح بالوجود الإلهى كان يقتضى عقلا توحيد الله فى وجوده توحيداً كاملا ، لايكفى فيه بمجرد عدم إنكار الوجود الإلهى ، ولكنه يستوجب كمال الوحدانية فى كل شأن من شئون الألوهية .

ولكن هؤلاء المشركين الذين يقرون معترفين بالوجود الإلهى يستغرق عقولهم وإحساسهم الجهل بشأن الكمال الإلهى ، فهم لايعلمون أن مقتضى هذا الاعتراف بداهة أن يخلصوا العبودية لله تعالى وحده ، وأن يعرفوه بكمال صفاته ، ويقدروه حق قدره ، فلا يشركوا به شيئاً — أى شىء — على أية صورة من صور الإشراك والكفر .

وفى سورة (الزمر) يقول الله جل شأنه : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون »[٢] .

---

(١) سورة لقمان آية ٢١ .
(٢) سورة الزمر آية ٣٨ .

فالأسلوب واللفظ هنا فى سورة (الزمر) هما لفظ وأسلوب سورة لقمان ، بيد أن الموضعين اختلفا فيما يترتب على هذا الإقرار والاعتراف بالوجود الإلهى . ففى سورة لقمان كان المترتب عليه حمد الله تعالى ، وإظهار جهالة المقرين بالوجود الإلهى الذين لم يرتفعوا بعقولهم إلى مستوى هـذا الإقرار والاعتراف الذى يستوجب إفراد الله تعالى بالعبودية إفراداً كاملا ، وهنا فى سورة (الزمر) جعل الله تعالى المترتب على هذا الإقرار بالوجود الإلهى نوعاً من الحوار الملزم الذى يدمغ هؤلاء المقرين بالوجود الإلهى بالجهالة الغبية ، فقال لنبيه ﷺ : قل لهؤلاء الجهلة الأغبياء : إنكم معترفون بالوجود الإلهى ، ومعترفون بخصائصه فى الخلق والإبداع ، فاخبرونى بما أنتم عليه من الشرك والضلال الذى أنتم عليه عاكفون فى عبادة هذه الأصنام ، ما شأنها فى النفع والضر ، هل تستطيع أن تكشف شيئاً من الضر إذا أراده الله بأحد من خلقه ، وهل تستطيع أن تمسك رحمة ونعمة إذ أرادها الله بأحد من خلقه ؟ فلا تصل إلى من أريد بها .

ولما كان جواب هذا التساؤل الاستخبارى مفهوماً بداهة ترك استخفافاً بهم ، لأنهم يعاندون بأعمالهم البداهة العقلية ، إنهم بإقرارهم أن خلق السموات والأرض من خصائص الألوهية ، يعترفون بأن ما فى السموات والأرض من نعم أو نقم ، ونفع أو ضر يجب أن يكون من خصائص الله تعالى خالق السموات والأرض فلا أحد يملك من أمرهما شيئاً ، فهو الضار الذى لا يقدر على كشف ضره أحد ، وهو النافع الذى لا يقدر على منع نفعه أحد ؟

يقول الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيرها : اعلم أنه تعالى لما أطنب فى وعيد المشركين وفى وعد الموحدين عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الأصنام ، وبنى هذا التزييف على أصلين :

الأصل الأول : هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الله القادر العالم الحكيم الرحيم ، وهو المراد بقوله : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) .

واعلم أن من الناس من قال : إن العلم بوجود الله القادر الحكيم الرحيم متفق عليه بين جمهور الخلائق لا نزاع بينهم فيه ، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم ، فإن من تأمل فى عجائب أحوال السموات والأرض ، وفى أحوال النبات والحيوان خاصة ، وفى عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة علم أنه لا بد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم .

الأصل الثانى : أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر ، وهو المراد من قوله «قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته»[1] فثبت أنه لا بد من الإقرار بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم ، وثبت أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر ، وإذا كان الأمر كذلك كانت عبادة الله كافية ، وكان الاعتماد عليها كافيا ، وهو المراد من قوله : (قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون) .

وفى سورة الزخرف يقول تبارك وتعالى «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم»[2] .

وفى السورة نفسها يقول الله تعالى : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون»[3] .

---

(١) سورة الزمر آية ٣٨ .

(٢) سورة الزخرف آية ٩ .

(٣) سورة الزخرف آية ٨٧ .

والآية الأولى من آيتى الزخرف لا تختلف فى لفظها وأسلوبها عن آيتى لقمان والزمر بغير خاتمتها التى ذكرت الخالق بوصفى العزة والعلم ، وذلك لبيان ضعف عقلية هؤلاء المشركين الذين يتركون العزيز القوى الذى لا يغالب ، ولا يقادر بإقرارهم واعترافهم، وينصرفون عن عبادته إلى عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع ، ولبيان جهالتهم فى اتخاذهم من لا يسمع ولا يبصر آلهة ، يعبدونها من دون الله العزيز العليم .

والآية الثانية من آيتى الزخرف تختلف عن الآيات الثلاث السابقة فى أمر جوهرى، يدخل دخولا أولياً فى الاحتجاج على هؤلاء المشركين الذين عموا وصموا ، فضلوا طريق الهداية ، وركبوا بنيات الطريق ، وسلكوا فى عمياء مضلة ، وهم يعلمون أنهم فى غيهم يعمهون .

ذلك أن الآيات الثلاث السابقة ، آية لقمان ، وآية الزمر ، وأولى آيتى الزخرف ربطت السؤال بخلق السموات والأرض ، فكان الجواب منهم بحكاية الله عنهم : خلقهن الله القادر العزيز العليم ، لأن الأمر فيها لا يحتمل إسناد خلقها إلى غير الإله القادر الخلاق العليم .

أما آية الزخرف الثانية فقد ربطت السؤال بخلقهم هم فقالت : (ولئن سألتهم من خلقهم) وقضية خلقهم ألصق بهم ، وأقرب إلى أن تدعوهم إلى شىء من التفكير، عسى أن تنتبه عقولهم إلى ما هم فيه من حماة الضلال بعبادة غير من خلقهم بإقرارهم واعترافهم ، ولذلك ختمت بلون من الأسلوب التقريعى الموجع ، لا يخلو من التهكم اللاذع ، فقيل لهم (فأنى تؤفكون) أى إذا كنتم مقرين بأن الله تعالى هو الذى خلقكم، فكيف انصرفتم مدبرين عن عبادته ، التى هى حقه الذاتى على مخلوقيه ، إلى عبادة مالا يملك لكم شيئاً : «أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون»(١).

---

(١) سورة النحل آية ١٧ .

وهذه الآية التي ارتبط فيها السؤال بخلق المخاطبين تتأكد بآية سورة يونس ، وهي قوله تعالى : «قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون»[١].

ففي هذه الآية نقلة أخرى من جو الآيات السابقة تأخذ بعقول المخاطبين إلى جو أقرب إلى تقلبات حياتهم ، وذلك هو جو الرزق ، وهو ألصق بالخلق والإبداع ، وأقرب إليه في الربط ، لأن الخلق إبداع في غيبة ، والرزق إعطاء في شهود ، فهم يشهدون الرزق يأتيهم ، والمقصود الرزق العام الذي يكون بغير مباشرة الأيدي كالمطر ، وهو رزق السماء والإنبات والحيوان ، وهو رزق الأرض والرزق سبب في صيانة البدن والعقل والروح ، فاعترافهم بأن الله خلقهم وأبدعهم من العدم ، وأنه رزقهم من السماء بإنزال المطر ، ورزقهم من الأرض بإنبات النبات الذي يتغذى منه الحيوان والإنسان يصك أسماع عقولهم فيفتح لها أبواب التفكير والتدبر في حالهم وإشراكهم بالله تعالى الذي خلقهم ورزقهم ، حتى يتبينوا أنهم في عبادتهم غير خالقهم ورازقهم سفهاء ضالون .

وتزيد هذه الآية دلائل أخرى ، يعترفون بها وراء الخلق والرزق ، ومنها ملك الحواس التي هي مصدر العلم والمعرفة (أم من يملك السمع والأبصار) فالله تعالى هو مالكها ، وهو واضع أسرار أدائها لعملها حتى يجعلها صالحة للقيام بمهمتها ، ثم جاءت الآية بما يؤكد اعترافهم بقدرة الله على ما لا يقدر عليه غيره (ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) ثم جاءت بما يعم ذلك كله فقالت (ومن يدبر الأمر) ويأتي إقرارهم واعترافهم

---

(١) سورة يونس آية ٣١ .

شاملا لجميع ما أحاطت به الآية (فسيقولون الله) ولذلك جاءت خاتمتها أشبه بخاتمة آية الزخرف الثانية فى أسلوبها الإنكارى، بما يوحى به من التوبيخ والتقريع على عدم أخذهم بموجب إقرارهم واعترافهم الذى يقضى باتقائهم سخط الله وعذابه، فقيل للنبى ﷺ: (فقل أفلا تتقون).

ولهذا جاءت الآية بعدها مباشرة مقررة لما ينبغى أن يكونوا عليه من حسن الاعتقاد فى الله والإيمان به إلها واحداً لا شريك له ولا شفيع عنده إلا بإذنه، وهذا هو الحق الذى لاحق غيره: «فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون» (١).

فقول الله تبارك وتعالى (فذلكم الله ربكم) يتضمن صفتى الخالقية والرازقية لله الحق، فاسم الجلالة عنوان الخالقية والإبداع، واسم الرب عنوان على الرازقية والإعطاء، فهو الذى خلقهم بإقرارهم واعترافهم، وهو الذى رباهم برازقيته على موائد فضله بما أنزل لهم من السماء، وبما أخرج لهم من الأرض. وهاتان الصفتان تستوجبان العبودية من المخلوقين المرزوقين لخالقهم ورازقهم.

ثم قفى ذلك بقضية عامة عقلية، تقرها العقول وتؤمن بها القلوب (فماذا بعد الحق إلا الضلال) تعريضاً بالمخاطبين ومن كان على شاكلتهم فى السفه والضلال الذى يعرف صاحبه الحق ويقربه، ثم ينصرف عنه معرضاً مستكبراً مدرعا الباطل عناداً وعتواً كما قال تعالى: «فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين» (٢).

---

(١) سورة يونس آية ٣٢.

(٢) سورة النمل آيتا ١٣، ١٤

وكل ذلك يدل على أن الفطرة الإنسانية مجبولة على معرفة الله إقراراً بوجوده وكمال صفاته التى تقتضيها ألوهيته .

فإذا تحدث القرآن الكريم عن سماحة العقيدة فى الإسلام لا يتحدث عن قضية تقبل الشك ، وتحتاج إلى إقامة الدلائل والبراهين على إثباتها ، وإنما يتحدث عن الانحراف الطارئ على الفطرة بتأثير البيئة والأفكار المنحرفة .

هذا الانحراف الذى يطرأ على الفطرة لا يختص بزمن معين ولا جيل من الناس ، ولكنه عام شامل يدخل على الفطرة أينما كانت ، فيصدئ مرآتها وترتسم فيها صور الحقائق الفطرية شائهة متغيرة .

ولا يستطيع العلم وحده أن يقف أمام تيارات الانحراف الجارفة ، بل ربما كان فى بعض فنون العلم ما يساعد على الانحراف ، فلا اعتراض بإلحاد العلماء والمثقفين ، لأن هؤلاء لم يحاولوا أن يصححوا مواقف عقولهم مع جبلة فطرتهم الأصيلة قبل أن يتراكم عليها صدأ الإلحاد العليم .

وقد تنزوى ظلال الجبلة الفطرية فى حنايا النفس الإنسانية تحيناً لفرصة الظهور بما فى مخزون مرآتها من معرفة الحق ، ويتجلى ذلك فى مظهرين :

المظهر الأول :

ما نراه فى أحيان كثيرة من التقاط الهداية الفطرية لأشخاص ذوى مكانة فى العلم ، وقد يكون من فنون علمهم ما يستدعى الإلحاد والانحراف ، ولكن ذلك لا يقف حاجزاً دون تخطى الهداية إلى قلوبهم من وراء أسوار العقل العلمية ، فإذا بهؤلاء مهديون مهتدون ، يعلنون عن إيمانهم

بالحق ومعرفتهم لله تعالى فى فرحة فطرية ، لا تعرف الوقوف عند منطق العقل وحده ، ولكنهم آمنوا بما عرفته فطرهم وتنزل منها إلى قلوبهم ووجدانهم .

المظهر الثانى :

وهو مظهر أعم وأشمل ، لا يكاد يترك وراءه فطرة من الفطر الإنسانية إلا اختزن فى مرآتها تحت كثف الصدأ العلمى أو الجهلى إيماناً فطرياً يتحين المضائق الذاتية ، والأزمات النفسية التى تعجز العقل ، وتضنى القلب ، وتسقم الروح ، فإذا بها تتنفس أنفاس الإيمان مضطرة ، قد فقدت الشعور بشخصيتها العلمية أو المذهبية تحت وطأة الأزمات الفادحة ، وراجعت الفطرة المنزوية فى حنايا النفس ، ترجع أنين الأزمات القاسية ، مترجمة بلسان المعرفة الفطرية (يا رب) يسمعها من يسمعها ،وتختفى حيث تختفى ، ولكنها فى حنايا النفس موجودة .

ليس أحد فى دنيا الناس كائناً من كان عالماً أو جاهلا ، ملحداً أو مؤمناً ، تتأزم حياته بأى لون من ألوان الأزمات القاسية الفادحة إلا وهو قائلها (يا رب) إيماناً فطرياً .

وقد تتغلب الفطرة على العلم والعقل ، فتحمل النفس على إبراز ماتنطوى عليه من عقيدة فطرية فى صورة إيمان ملحد ، وهـــذا الإيمان الملحد ليس غريباً ، بل هو واقع فى الحياة ، يتمثل فى إيمان الأتباع بزعامة المتبوعين ، فالمتبوع فى شريعة الزعامات الملحدة إله ، يقدسه أتباعه قداسة الألوهية ، ولكنها قد تكون قداسة نفاق مغرق فى عبوديته للزعامة المؤلهة .

والقرآن العظيم لم يغفل هذا الإيمان الملحد فيقول : «ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى

الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب . إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار »(١) .

ويقول : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون »(٢) . ويقول : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون »(٣) .

فهذا إيمان ملحد كفور ، يستوى فيه عبدة الأصنام ممن اتخذوها آلهة من دون الله ، ومقدسو الملوك والأباطرة والزعامات الملحدة ، وهؤلاء المتبوعون المؤلهون ، ومقدسوهم أتباع كل ناعق الذين ضرب القرآن لهم المثل فى الجهل المتسرع إلى إجابة النعيق فقال « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون »(٤) . وسائرهم وثنيون كما قال لهم القرآن : « إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً »(٥) . ويقول حكاية عن محاورة الخليل إبراهيم عليه السلام لقومه : « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين »(٦) .

وهذه المحاورة نموذج لما يجرى بين دعاة الحق ودعاة الباطل ، ونموذج

---

(١) سورة البقرة آيات ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧ .
(٢) سورة الزمر آية ٣ .
(٣) سورة يونس آية ١٨ .
(٤) سورة البقرة آية ١٧١ .
(٥) سورة العنكبوت آية ١٧ .
(٦) سورة العنكبوت آية ٢٥ .

لما هو كائن بين الأتباع المغررين والمتبوعين المستكبرين ، يتملق الأتباع المتبوعين وينافقونهم ، ويترددون إليهم ترامياً على أقدامهم ، وتلمظاً لما فى أيديهم من زخرف الدنيا ، ويبادل المتبوعون الأتباع النفاق والتودد لتبقى لهم زعاماتهم ورآساتهم وتحكمهم فى مصائر أولئك الأذلاء من الأتباع ، فإذا رحلوا جميعاً عن هذه الحياة الفانية وانكشفت الغشاوات ، وزال عمى القلوب ، وتبينت الأمور للبيب والغفول كفر بعضهم ببعض ، ولعن بعضهم بعضاً . فى محاولة لإلقاء الذنب عن كاهل كل ليحمله على كاهل الآخرين .

ويقص القرآن هذا الحوار المترامى بالاتهامات فيقول : «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون»[1] .

وهذا الحوار من أعجب أساليب القرآن الكريم ، وهو كثير متعدد المواضع ، مختلف المناحى والطرق ، وهو يمثل صور الإيمان الزائف ، والنفاق المتهالك ، والطغيان الكفور .

ومن هنا كانت سماحة الإسلام فى عقيدته لا تتعلق بجوهر قضية الوجود الإلهى ، لأن قضية الوجود الإلهى — كما بينا — فطرية ، تؤمن بها جميع الفطر الأصلية ، وإنما تتعلق سماحة العقيدة فى الإسلام بالأسلوب الذى عالج به القرآن الحكيم مظاهر الانحراف فى الفطرة ، ذلك الانحراف الذى كان

---

(١) سورة سبأ آيات ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

من آثاره المباشرة العامة الإشراك بالله تعالى ، واتخاذ آلهة تعبد من دونه ، فى صور شتى ،وأشكال مختلفة ، تتنافى كلها مع الوجود الإلهى ، المستلزم لأكمل الكمالات التى لا تحيط بها العقول ، ولا تستطيع الأقلام والألسنة التعبير عنها .

ولذلك نرى القرآن الحكيم فى كثير من آياته البرهانية يسوق قضية الوجود الإلهى مساق الإخبار المسلم بداهة ، ثم يتبعه الاستدلال البرهانى الذى تتساوى فى إدراك الحقيقة منه أعظم العقول تعمقاً فى التفكير وغوصاً على الحقائق بطرائقها العلمية ، والعقول الساذجة التى تأخذ ما تدركه لأول نظرة ، وهذا من مضامين عموم دعوة الإسلام التى جعل الله دستورها القرآن العظيم ، وجعل من تيسره وسماحته تطاوعه مع العقول ، فيجد فيه كل عقل مجاله فى إدراك ما يستعد له من حقائقه .

فالعقول المتعمقة تجرى فى تعمقها وغوصها إلى أبعد ماتستطيع من مدى فى البحث ، فيسعفها القرآن بأسلوبه بما يشبع مداركها ، والعقول الساذجة تأخذ منه ما يظهر لها من ظواهر المعانى والحقائق . فيعطيها القرآن ما يملأ القلوب يقيناً ومعرفة فى حدود طاقتها وسذاجة إدراكها الذى لا يقوى على منطق العلم والفلسفة .

واليقين والمعرفة أمران نسبيان ، يختلف وجودهما فى القلب والعقل باختلاف الاستعداد لهما ، فالعامة لهم يقينهم ، ولكنه لا يبلغ أبداً أن يكون على شيء من يقين العلماء والحكماء والمتفرسين ، وللعامة معرفة ولكنها معرفة الفطرة وبداهات العقول .

وقد يتساءل متسائل : كيف يكون الوجود الإلهى فطرياً ، مركوزاً

فى كل فطرة إنسانية ،وفى حياتنا اليوم كثرة من الناس فى أمم مختلفة ، تنكر الوجود الإلهى إنكاراً كلياً .

ونحسب أننا لم نغفل الإجابة عن هذا التساؤل فى كلامنا دون أن نفرضه تساؤلا مشكلا ، لأننا قلنا : إن الفطرة التى جبلها الله على معرفته ، والإقرار بوجوده ، هى الفطرة التى لم تتبدل ، بل بقيت على أصالتها ونقائها ، وأما الفطر التى انحرفت بها عوامل الإلحاد عن أصالتها ، فهذه ليست من الفطر التى يستقر فيها الوجود الإلهى بصورته الإيمانية الحنيفية التى جاءت فى الحديث القدسى كما أخبر رسول الله ﷺ عن رب العزة فى قوله: (إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم) .

وإنما يستقر في هذه الفطرة المنحرفة ضرب من الإيمان الكفور الذي يتخذ من المخلوقين آلهة ، تعبد من دون الله عبادة قداسة تحت عنوانات مختلفة ، فهؤلاء فطرهم فيها وجود إلهى ، لكنه ليس هو الوجود الإلهى الحق، وإنما هو وجود إلهى ملحد ، يقوم على تقديس زعامة أو حاكمية أو نظرية سياسية ، أو ما شاء لهم التواء التصور الاجتماعى الذى تقوده السياسة العمياء بزمامها .

ولولا ما كان فى فطر هؤلاء من الوجود الإلهى قبل تسرب الانحرافات إليها ، وترسبها فى تعاقب الأجيال ما كانوا ليؤمنوا بما آمنوا به من زعامات مؤلهة ، ونظريات مقدسة ، وحاكميات طاغية ، فهم كإخوانهم المشركين ، الذين عرفوا الوجود الإلهى ، وانحرفوا عنه ملحدين « يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون »(١)

---

(١) سورة التوبة آية ٣٠.

ليس من المستطاع فى حدود الزمن والتمكن أن يستوعب هذا البحث مواضع الأسلوب البرهانى التى جاءت آياتها فى القرآن العظيم تعبيراً عن سماحة الإسلام فى عقيدته ، ونرى أن فى عرض بعض الشواهد والنماذج غنيه لمن يريد أن يقتنع ، وفى مجال البحث على ضوء ما نذكره من الشواهد سعة لمن أراد أن يستزيد ويتشبع ، والقرآن لا تفنى عجائبه .

الشاهد الأول: يقول الله تعالى «وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »[1] .

هاتان آيتان ، جاء الإخبار عن الوجود الإلهى فى أولاهما ، وهى مؤلفة من جملتين ، إحداهما تقرر الوجود الإلهى فى الوحدانية ، خطابا لجميع المخلوقين من العقلاء ، وثانيتهما تؤكد مضمون الأولى بأسلوب القصر الذى يقع به الإيمان الشرعى موقعه من القبول ، ثم أتبع ذلك بوصف الإله الواحد بأنه رحمن ، يعطى تفضلا ، سئل أم لم يسأل ، وأنه رحيم دائم الإحسان لا يقطع فضله وعطاءه عن أحد من خلقه ، فهو دائم الإفضال والجود .

ثم جاءت الآية الثانية برهاناً قطعيا واقعياً مشهوداً من كل ذى عقل ، وسمع وبصر ، وقد سيقت مساق التعليل الاستدلالى لبيان واقعية الإخبار فى الجملة الأولى .

---

(١) سورة البقرة آيتا ١٦٣ ، ١٦٤

وقد اشتملت الآية الاستدلالية على أمور ذكرت بعنوان مخلوقيتها لله تعالى ، وأنها تحمل بما فيها من دلائل الحدوث والتقلب والتنقل من حال إلى حال برهان خالقية الله لها ، وأن فى هذه المخلوقية والخالقية آيات وبراهين تدل على وحدانية الله تعالى، وهو ما تضمنته الآية الأولى من الإخبار بالوجود الإلهى ، وهذه البراهين قائمة فيها لا يدركها إلا العقلاء الذين تتحرك عقولهم بالتفكير والتدبير ، فهى لا تستعصى فى إدراكها والإيمان بها على من استعمل عقله من عامة الناس وخاصتهم ، لأنها قائمة على مشاهدة الحس ، تنادى بوحدانية خالقها .

والآية فى خلق السموات والأرض شهود عظمتهما ، فالسموات فى بنائها ورفعها بغير عمد ، وما فيها من مخلوقات علوية عاقلة وغير عاقلة ، والأرض بوضعها وما أجرى فيها من الأنهار ، وبما ثبت فيها من الرواسى والجبال .

واختلاف الليل والنهار فى تعاقبهما ليبتغى الناس فى نهارهم من فضل الله سعياً وعملا ، وليسكنوا فى ليلهم سكون راحة وهدوء .

ثم ذكرت الآية الفلك والسفائن التى تمخر المحيطات وتشق البحار ، وتجرى فى الأنهار حاملة للناس ما ينفعهم فى معاشهم من نعم الله ، متنقلة على ظهر الماء من مكان إلى مكان ومن بلد إلى بلد ، تأخذ من هنا لتفرغه هناك وتعطى مما حملت ، وتأخذ غيره ، فهى من أعظم وسائل تبادل مصالح العباد ، وتيسير أرزاقهم ، فكم من شىء يوجد فى بلد ولا يوجد فى بلد آخر .

ثم ذكرت الآية الماء الذى ينزله الله من سماء قدرته ليحيي به موات

الأرض ، لتخرج للناس من نباتها ماتقوم عليه حياتهم ، ثم ذكرت الآية بث الدواب فى الأرض لتنعم بما تخرجه الأرض ، ولينعم الإنسان بما فى هذه الدواب من منافع بألبانها ولحومها وجلودها وأشعارها وأصوافها، وكل ماينتفع به منها .

ثم ذكرت الآية تصريف الرياح وتحولها من حال إلى حال ، فهى حيناً صباً ، وحيناً عواصف ، وحيناً شمالية ، وحيناً جنوبية ، وحيناً لواقح ، وحيناً عقيماً بما يدل على أنها مدبرة بتدبير عليم حكيم ، ثم ذكرت الآية السحاب المسخر بين السماء والأرض محمولا بقدرة الله ، يزجيه من مكان إلى مكان ، ليسقى أجادب الأرض ، ويحيى به قفرها .

ثم ختمت الآية بأن فى كل ذلك آيات ودلائل على وحدانية الله وبالغ قدرته ، ولكن إدراكها لايكون إلا بمن يعقلون عجائب صنع الله متدبرين فى آياته ودلائل قدرته ووحدانيته .

وفى ذلك يقول القاضى عبد الجبار ـ وهو من أئمة المعتزلة ـ فى كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن): إن سائر الأجسام والأعراض وإن كانت تدل على الصانع ، فهو تعالى خص هذه الأشياء الثمانية بالذكر لأنها جامعة بين كونها دلائل ، وبين كونها نعماً على المكلفين على أوفر حظ ونصيب ، ومتى كانت الدلائل كذلك كانت أنجع فى القلوب وأشد تأثيراً فى الخواطر .

والتنبيه إلى أن الدلائل فى عمومها — أخذاً من هذه الآية إذا كانت مشتملة على ما يجمع كونها دلائل فى ذاتها وبين كونها نعماً تكون أفيد وأنجح فى اطمئنان القلوب وأشد تأثيراً فى الخواطر ، وأدعى إلى القبول — فيه تقرير لجهة من جهات السماحة فى الاستدلال .

وقال الإمام الرازى : وأعلم أن النعم على قسمين ، نعم دينية ، ونعم دنيوية ، وهذه الأمور الثمانية التى عددها الله تعالى نعم دنيوية فى الظاهر ، فإذا تفكر العاقل فيها ، واستدل بها على معرفة الصانع صارت نعماً دينية ، لكن الانتفاع بها من حيث إنها نعم دنيوية لا يكمل إلا عند سلامة الحواس وصحة المزاج، فكذا الانتفاع بها من حيث إنها نعم دينية لا يكمل إلا عند سلامة العقول ، وانفتاح بصر الباطن .

وقال أبو جعفر الطبرى فى آخر كلام طويل : فأخبر الله المخاطبين أن إلههم هو الذى أنعم عليهم بهذه النعم ، وتفرد لهم بها ، ثم قال: هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء ، فتشركوه فى عبادتكم إياى ، وتجعلوه لى نداً وعدلا ؟

فإن لم يكن من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء ، ففى الذى عددت لكم من نعمتى، وتفردت لكم بأيادى دلالات لكم إن كنتم تعقلون مواقع الحق والباطل، والجور والإنصاف، وذلك أنى لكم بالإحسان إليكم منفرد دون غيرى وأنتم تجعلون فى عبادتكم إياى أندادا .

ثم قال الطبرى : والذين ذكروا بهذه الآية واحتج عليهم بها هم القوم الذين وصفت صفتهم دون المعطلة والدهرية ، وإن كان فى أصغر ما عدد الله فى هذه الآية من الحجج — البالغة المقنع لجميع الأنام .

ويجرى على سنن هاتين الآيتين فى تصوير الوجود الإلهى أو صفات الكمال والقهر الواجبة لله تعالى فى صورة الإخبار المسلم نظائرها فى الاستدلال على جلال القدرة الإلهية وباهر إرادتها ، وبالغ حكمتها ، وعظيم سلطانها فى تدبير الملك والملكوت ، وتفرد رب العزة بالخلق والإبداع ، مثل قوله

تعالى: «ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير . إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار »[1] .

فالإخبار بملكية السموات والأرض لله ، والإخبار بأنه سبحانه على كل شيء قدير ، هو قضية الوجود الإلهي في صورة من صوره الكمالية ، فهو إخبار بشيء لا يضعه القرآن موضع الجدل وتجاذب الدلائل ، ولكنه يصوره بدهياً مسلماً به ، ويعقبه ببرهانه ، وهو من نسج برهان الآيتين السابقتين في أمرين من دلائلهما ، هما خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وتأتي خاتمة الدلائل بصورة خاتمة الآيتين السابقتين (لآيات لأولى الألباب) ثم تأخذ في وصف هؤلاء العقلاء بأنهم عرفوا الله حق معرفته ، فذكروه على جميع أحيانهم ، قياماً ، وقعوداً ، وعلى جنوبهم ، وأعطوا عقولهم حقها في التفكر والتدبر لآيات الله ليزدادوا — إيماناً مع إيمانهم ، (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) تفكيراً أداهم إلى ما فيها من دلائل الربوبية ، فوقفوا على قدم العبودية مسبحين الله تعالى ، معلنين عن إبداع صنعه وبالغ حكمته في خلقه (ربنا ما خلقت هذا باطلا) ، ثم عادوا إلى التسبيح والتنزيه ، متضرعين إلى الله أن يقيهم عذاب النار .

ولهذا ورد من طرق كثيرة أن النبي ﷺ لما نزلت عليه هذه الآيات بكى بكاء شديداً ، تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فيما يرويه ابن مردويه : أتاني رسول الله ﷺ في ليلتي حتى مس جلده جلدي ، ثم قال:

---

(١) سورة آل عمران آيات : ١٨٩، ١٩٠، ١٩١.

(ذريني أتعبد لربي عز وجل) قالت عائشة فقلت : والله إني أحب قربك ، وإني أحب أن تعبد ربك ، فقام إلى القربة فتوضأ ، ولم يكثر صب الماء ثم قام يصلي ، فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح ، فقال : يارسول الله ما يبكيك ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟!

فقال النبي ﷺ : (ويحك يابلال !! وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله على في هذه الليلة « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب » ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها) .

ومن قبيل ما جاء فيه الوجود الإلهي إخباراً عن قضية مسلمة لدى العقول، ثم سيقت بعده دلائله قوله تعالى: «إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون»(١) .

وهذه الآية في نمط أسلوبها تجري على نمط أسلوب أخواتها من الآيات السابقة ، غير أنها اختلفت عنها في ربط الخلق باسم (الرب) تعالى ، مخبرا عنه بالله الذي خلق ، للأشعار من أول نظرة عقلية بأن هذا الخالق الكريم هو الذي رباكم على موائد فضله ، بما أنزل لكم من رزق ، وبما أخرج لكم من طيبات الأرض ، ليجعل الاستدلال من قبيل الاستدلال بالنعم، فيكون أنجع في القلوب ، وأقرب إلى الخواطر .

وفي ذلك قطع لدابر ما يتوهمون من وجود نفع لهم — أي نفع — من شركائهم الذين اتخذوهم أنداداً لله تعالى فعبدوهم من دونه، ليفيدهم ببوادر

---

(١) سورة يونس آية ٣.

حسهم وشعورهم أن شركاءكم ليسوا أرباباً لكم ، لأنهم لا ينفعونكم بشيء والرب من شأنه التفضل بالعطاء الذى يربى به مربوبيه ، فربكم الحق الذى يتنزل إليكم رزقه من سماء عزته هو الله القادر الذى خلق السموات والأرض فى آجال تقديرية لا يعلم حقيقتها إلا هو وحده، وإنما ذكرها لكم بما تعرفون فى معارفكم المحدودة تقريباً لعقولكم ، وتعليما لكم ، لتنهضوا بشئون حياتكم ، وقد جاء فى الحديث الشريف عن النبى ﷺ : (تخلقوا بأخلاق الله) .

ثم بين سبحانه أنه بهذه العظمة وهذا الجلال المتمثل فى كمال اقتداره على الخلق والإبداع استوى على عرش الكبرياء ، والتعزز استواء يليق بجلال عزته ، وأنه منفرد بتدبير الخلق فى حياتهم الدنيا وفى الآخرة ، لا يشفع عنده أحد إلا من بعد إذنه ورضاه ، يوم يضع موازين القسط ، ويحاسب الخلائق . فلا تظلم نفس شيئاً .

فهو جل شأنه الحقيق بجلال الربوبية ، المستحق للعبادة وحده ، وقد ختمت هذه الآية بما يوقظ العقول للتفكير فى صنع الله تعالى، ومحكم تدبيره لأمور خلقه ، ليعلم المخاطبين أنهم لو تدبروا فيما بين أيديهم من آيات كونية، وتفكروا فى حال آلهتهم التى يعبدونها من دون الله، لارتدعوا عن ضلالهم، واهتدوا إلى ساحة الإيمان (أفلا تذكرون) .

وخلق السموات والأرض وما جعل الله فيهما من آيات ودلائل على وجوده ووحدانيته ، وخلق الناس ، وما بث من مخلوقات فى السموات والأرض واختلاف الليل والنهار بالتعاقب، وإنزال أسباب الرزق من السماء ، وتصريف الرياح كل ذلك جعله القرآن الحكيم عمدة الاستدلال على الوجود الإلهى ، بيد أنه أبرزه فى طرائق من روعة البيان مختلفة ،

وفى أساليب من براعة الأداء منوعة ، ليحرك العقول فى اتجاهات الإبداع المتكاثرة ، ليأخذ كل عقل منها ما هو مستعد لإدراكه وفهمه كما أوضحناه فى الآيات السابقة ، وكما جاء فى قوله تعالى : «إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين. وفى خلقكم وما يبث من دابة ايات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون »(١).

والتفنن فى الأسلوب البيانى من الإيجاز إلى الإطناب ، ومن الحذف إلى الذكر ، ومن التأسيس إلى التأكيد ، ومن البيان إلى الإشارة والرمز ، ومن الحقيقة إلى المجاز ، ومن الصراحة إلى الكفاية ، خصيصة القرآن الكريم فى بيانه الأدائى للحقائق ، ولاسيما الحقائق الإلهية، ليسهل إدراكها وترسيخها فى النفس ، توطيداً لدعائم الحجة ، وإقامة لمنائر البرهان ، وملاحظة لتفاوت العقول والإدراكات .

ففى الآيات السابقة ذكر القرآن خلق السموات والأرض ، وجعل فيه آيات للعقلاء ، وهنا ذكر ما فى السموات والأرض من آيات ودلائل على الوجود الإلهى ، وهناك ذكر المنافع ووسائلها من السفائن والفلك التى تجرى بما تحمل فى البحر ، وهنا ذكر خلق الناس وما فيه من براهين على الوجود الإلهى ، وهذا كما قال تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »(٢) .

وذكر هنا ما يبث من دابة ، ولم يقيد هذا البث هنا بالأرض كما جاء

---

(١) سورة الجاثية آيات : ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ .
(٢) سورة الذاريات آية ٢١ .

مقيداً بها فى آية البقرة ؛ وهذا قد يكون إعجازاً بإخبار القرآن الكريم عن وجود كائنات حية فى غير الأرض ، وذكر البث هنا بصيغة الفعل المضارع إشارة إلى ان الخلق والإبداع دائم لا ينقطع ، ثم ذكر اختلاف الليل والنهار بالتعاقب ، على معنى أنهما يتعاقبان ، فيخلف أحدهما الآخر تحقيقاً لمنافعهما فى هذا التعاقب ، كما قال تعالى (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً)(٢) .

وهنا ذكر ما أنزل من سماء قدرته رزقا يحى به الأرض بعد جفافها ويبسها وإقفارها مما هو موت لها فلا يوجد فيها نمو ولا حركة تفاعل بالتوالد ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت بالحياة والنمو والإنبات وربت بالتفاعل الذى يجرى فى باطنها بتحريك مواد الحياة فيها لتخرج الرزق المباشر للتناول والانتفاع ، وجعل ذلك كله آيات لقوم يعقلون ، وهذه الخاتمة جاءت على غرار خاتمتى آيتى البقرة وآل عمران .

ثم ختمت هذه الآيات بتنبيه وجه فيه الخطاب للنبى ﷺ ليكون دافعاً للمخاطبين إلى التفكير والنظر فى آيات الله ؛ ليهتدوا بها إلى ساحة الإيمان الذى جاءتهم دلائله العقلية والقلبية والشعورية من عند الله ربهم رب العالمين ، وهذا أقصى ما تتطلع إليه العقول والأفكار من سماحة البراهين ويسرها (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) .

ومن هـــذا النوع الذى يتحدث عن الوجود الإلهى إخباراً مسلماً ، كأنه قضية من قضايا البداهة ، ضرب يتخذ طريق البرهنة على

---

(١) سورة الفرقان آية ٦٢ .

الوجود الإلهى متنزلا مع شبه المنحرفين بفطرهم ، لتقرير شبههم ، ثم بكر عليها بإبطالها ، ليكون ذلك أوقع فى الإقناع وسل نزغات الشيطان من عقولهم وقلوبهم .

ومن شواهد هذا الضرب قول الله تعالى : «وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون . أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون »[1] .

فقوله تعالى (وله من فى السموات والأرض) إخبار عن الوجود الإلهى فى صورة مالكية الله تعالى لمن ما فى السموات والأرض ، ملكاً مطلقاً ، لا يشاركه فيه أحد ، ولا ينازعه فى شىء منه منازع ، وهذا يتضمن أن الله هو الخالق لكل ذلك ومبدعه ، والمنفرد بتدبيره ثم أعقب ذلك بأن له خلقاً قربهم إلى ساحة ربوبيته ، فهم عنده عباد مكرمون ، ينزلون من جلال ربوبيته منزلة أقرب العبودية ، فهم بذل التعبد له متسربلون ، يسبحونه ويقدسونه فى سائر الأزمان واللحظات من الليل والنهار ، لا يعيون تعباً ، ولا يفترون انقطاعاً ، وفى ذلك بيان لاستغنائه تعالى عن هؤلاء الذين أشركوا به أصناماً اتخذوها آلهة ، ليبين لهم أنهم إن اهتدوا ، وآمنوا ، وعبدوا الله ، وسبحوه تقديساً لجلاله فلأنفسهم يمهدون ، وإن تولوا عن قبول الهداية وأعرضوا مستكبرين ، فإن لله عباداً مكرمين ، هم الملائكة الذين هم أرفع

---

(١) سورة الأنبياء آيات : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

درجات منهم ، وأعلى قدراً ، وأشرف عند الله منزلة لا يستكبرون عن عبادته ، ولا يتعبون من سرمدية تسبيحه وتقديسه .

ثم جاء الأسلوب بالآية الثانية من هذه الآيات مبدوءة بما هو صريح فى إنكار ما عكف عليه هؤلاء المشركون من وثنية بليدة، ويتمثل ذلك فى صورة الإضراب الانتقالى من عرض لحقائق النبوات وأحوالها — وما يحتف بها من أمور تتعلق بالأنبياء والرسل، وتتعلق بموقف أممهم معهم عناداً وجحوداً ، وزجراً وتهديداً ووعيداً — إلى بيان الوجود الإلهى ، ووحدانية الله تعالى ، وما يجب له على عباده من التعبد له ، تعبداً خالصاً لا يشوبه شرك بأية صورة من صوره، فقال تعالى: (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) فهذا تبكيت وتقريع للمشركين على ما اقترفوه فى حق عقولهم التى أهدروها، وفى حق جلال الله تعالى وسابغ إنعامه عليهم، فاتخذوا آلهة من الأرض ينحتونها من حجارتها أو يصورونها بأيديهم من طينها وأشجارها ومعادنها، يعبدونها من دون الله ، وتوهموا فى آلهتهم أنها تنشرهم بعد موتهم لتحاسبهم على ما أجرموا فى حياتهم الدنيا .

ولا يستقيم فى شرعة أدنى العقول إدراكاً أن تكون هذه الأصنام آلهة مع الله ، لما استقر فى بدائه العقول أن تعدد الآلهة إفساد لنظام الكون فى السموات والأرض ، وهذه القضية البدهية لا تحتاج فى فهمها والإيمان بها إلى منطق متفلسف ، ولا تقبل فى بداهة بطلانها جدلا متعسفاً .

فالشركة فى التدبير والخلق لعالم هذا الكون من المفروض فى أصحابها كمال الاقتدار واستقلال الإرادة وحرية الاختيار المطلق فى كل شريك ، وحينئذ لا بد فيها من التغالب والتنازع ، وإلا كانت غير مستوفية لشرط كمال الاقتدار واستقلال الإرادة وحرية الاختيار ، ومن هذا شأنه لا يكون إلها

يستحق العبادة فى شرعة أبسط بداهة العقول ، وإذاً لا يستقيم نظام الكون ، وتعمه الفوضى ، ويسوده الاختلال ، وأنتم أيها المشركون تعلمون بما تشهده أعينكم ، وأسماعكم حساً ملموساً ، وبما تشهده عقولكم وقلوبكم إدراكاً متيقناً أن نظام الكون يجرى على أقوم اتساق ، وأحسن ترتيب ، وأحكم تدبير «ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم »(١) .

فالله تعالى وحده هو إله الكون ، ومدبر أمره ، منفرداً بإبداعه . فهو وحده أهل التنزيه عن مفترياتكم ، وهو رب العرش العظيم ، الحكيم فى تدبيره ، العليم بشئون خلقه ، القدير على الخلق والإبداع ، العدل فى مجازاته ، مالك الملك ، لا يسأل عما يفعل فى ملكه ، والخلق كلهم بين يديه مسئولون: « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون .ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآيتنا يظلمون »(٢).

ومن أساليب الاستدلال على الوجود الإلهى والإخبار عنه اخباراً يجعله مسلم الإقرار به قوله تعالى: « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى

---

(١) سورة الحج آية ٦٥ .

(٢) سورة الأعراف آيات ٦، ٧، ٨، ٩

ثم ذكر تعالى فى الاستدلال على واسع علمه وإحاطته وعظيم قدرته أنه يدبر أمر الكون بما فيه من المخلوقات التى لاتحصى عدداً ، ولا يحيط بها علم مخلوق فى اختلاف أجناسها وصفاتها وأحوالها ، فهو سبحانه يدبر هذا الخلق المتكاثر المتفاوت بالإيجاد والإعدام ، والإحياء والإماتة والإغناء والإفقار . والزيادة والنقصان ، واختلاف الطعوم والألوان واختلاف المقاصد والإفادة ، والمنافع والمضار ، فيعطى كل مخلوق مايقوم به وجوده ، وما يؤدى به الغرض من هذا الوجود ويدخل فيه الهداية والضلال ، والإيمان والكفر ، وإرسال الرسل وتكليف العباد بما أنزل من الشرائع ، فاختصاص كل مخلوق بوضعه ووصفه وعمله سكونا وحركة ، وأدائه لفائدة خلقه وطبيعته ، لايمكن أن يكون إلا أثراً لقدرة عظيمة وإرادة شاملة وعلم محيط .

فإذا تأمل العقلاء فى هذا التدبير علموا أن الله تعالى لايشغله شأن عن شأن ، ولا يمنعه تدبير عن تدبير ، « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين[1] » .

ثم قال تعالى (يفصل الآيات) وتفصيلها إحداثها متتابعة متتالية بعضها عقب بعض ظاهرة الدلالة على ما سيقت له ، بينة الحقائق والمعانى ، لا إبهام فيها ولا إجمال ، وأحداثها متعاقبة أوكد فى إفادتها الدلالة على قدرة الله ، لأن كل آية من آيات دلائله على عظمته إذا جاءت مستقلة ، ثم أعقبتها فى الإيجاد آية أخرى كان ذلك أثبت للبرهان عند العقول ، ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى : (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) لأن الإيقان الذى يحصل بتقرير الوجود الإلهى من براهين الآيات الدالة عليه يحدث فى النفس إيقاناً بالقدرة على

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٤ .

البعث والحشر ، لأن القادر على إحداث الخلق ابتداء قادر على إحداث الإعادة والحشر، وهو المراد بلقاء الله تعالى، فمن يقدر على الإيجاد والإعدام والتدبير على كثرة وعظمة الموجودات والمدبرات ، واستمرار الإحياء والإماتة أحرى أن يكون قادراً على إعاداتها وبعثها «وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »(١) .

يروى أن رجلا قال لعلى بن أبى طالب : كيف يحاسب الله الخلق دفعة واحدة ؟ فقال على رضى الله عنه : كما يرزقهم الآن دفعة واحدة ،وكما يسمع نداءهم . ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة ، فهو سبحانه لايشغله شأن عن شأن كما قال تعالى : « ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير »(١) .

ثم ذكر جل ذكره أن الله الذى رفع السماء بغير عمد ، وهى مرئية لكم مشهودة هو الذى مد الأرض ، وبسطها لتستقيم عليها حياة من فوقها من مخلوقات . والمد والبسط ،وكذلك الدحو والتسطيح أمور نسبية لاتحدد حقيقة الأرض فى كونها كروية أو غير كروية ، لأن الجسم العظيم فى عظمة الأرض وكبر حجمها يتراءى كل جانب من جوانبها لسعته كأنه سطح مبسوط ، لما يجرى عليه من مظاهر الحياة وتقلباتها .

ثم ذكر تعالى من آيات استدلاله على الوجود الإلهى أنه جعل فى الأرض رواسى ، جبالا عظاماً ترسيها وتحفظها أن تميد بأهلها فتفسد حياتهم ، وقد تعتريها حركات مدمرة وزلازل جائحة ، فجعل الجبال لها أوتاداً تمسك

---

(١) سورة الروم آية ٢٧ .

(٢) سورة لقمان آية ٢٨ .

حركتها فى شيء من التوازن الذى لا يذهب بها فى فضاء الكون ، وجعل فيها أنهاراً ، تجرى فى وديانها وأخاديدها ، لتسق الناس والحيوان والزروع والنخيل والأعناب ، وسائر ما تنبت الأرض ، وجعل فيها من كل ثمرة من الثمرات صنفين فى أصل الإيجاد ، ثم تكاثرت الأصناف بطعومها وألوانها وأحجامها والذي يتأمل فى ألوان وطعوم الفواكه وأحجامها يظهر له العجب العجاب فى صنع الخلاق العليم ، والذى يتأمل فى ألوان الزهور والورود وروائحها يدهش عقله من قدرة الله تعالى (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحى الأرض بعد موتها)[1] .

ثم أخبر سبحانه أنه يغشى الليل النهار فيغطى بظلمته ضياء النهار ليسكن الناس عن الحركة ويهدؤا حينما يضمهم الليل بين جنباته ، ثم يخلفه النهار بنوره ، ليبتغى الناس فى تقلباتهم ما يرجون من فضل الله .

ثم ختمت الآية بما ختم به أمثالها ، فقال تعالى (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) . والتفكر حركة العقل بالنظر فى الدلائل التى جاءت بها الآيات الإلهية للبرهنة على اقتدار الله تعالى وقيامه بأمور خلقه صغيرها وكبيرها جليلها وحقيرها ؛ فلا يستطيع إدراك ما فى هذه الآيات من براهين ودلائل إلا من يحرك عقله بالنظر و المقايسة والاعتبار .

ثم جاءت الآية الثالثة من هذه الآيات بنوع من الاستدلال على الوجود الإلهى ، وهى آيات تحرك الحس والشعور ، ليتلق كل منهما وحى العقل بما تضمنته الآية من دلائل حسية وعقلية ووجدانية ، فقال تعالى (وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل) وهذا أمر

---

(١) سورة الروم آية ٥٠ .

محسوس مشهود ، فالأرض فيها أماكن متجاورة، يتصل بعضها ببعض ولكنها مختلفة الطبيعة ، فبعضها سوداء جيدة التربة ، وبعضها سبخية ، وبعضها رملية وبعضها صخرية ، وفى هذه القطع المتجاورة من الأرض بساتين وحدائق . فيها كروم العنب ، والزرع والنخيل ، متماثلة وغير متماثلة ، وكلها تسقى بماء واحد ، ولكنها تختلف فى ثمارها اختلافا كبيراً ، فبعضها حلو ، وبعضها مر أو حامض ، وبعضها كبير وبعضها صغير ، مع اختلاف ألوانها وأجناسها ، فالمصدر واحد ، والسقيا واحدة ، والغذاء واحد ولكن القدرة الإلهية والإرادة الصمدانية هى التى تجعل فى الحلو حلاوته وهى التى تعطى المر والحامض طعمه ، وهى التى تعطى الأحجام والألوان فلو كان الأمر أمر طبيعة لما جاء هذا الاختلاف الواسع المدى .

ولذلك ختمت الآية بما يلوح بتقصير العقول فى إدراكها ، فإنها لو لم تكن مقصرة محصورة الإدراك لعرفت شأن هذه الآيات وصدق دلالتها على الوجود الإلهى ، ودلالتها على بالغ قدرة الله وحكمته فى خلقه ومطلق إرادته فى إعطائه ما يشاء لما يشاء (قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى)(١)،

وهكذا نجد دلائل الوجود الإلهى متوافرة فى القرآن الكريم أعظم ما تكون فى صدق دلالتها وسماحة إدراكها مما يجعل العقيدة الإسلامية فى سماحتها ميسرة سهلة ، لاتلتوى ولا تتعرج وقد قلنا أن الاستيعاب لهذه الدلائل لايسعفنا به الوقت والإمكان ، ولكننا بعد أن ذكرنا هذه النماذج من الآيات وأبنا عن دلالتها إبانة تجعلها فى متناول القارىء بحسب استعداده العقلى والثقافى والفطرى سنسوق بعض الآيات التى تتظاهر فيها الدلائل لينظر فيها الناظرون على ضوء ما سقناه من بيان وتوضيح وكثير من آيات

---

(١) سورة طه آية : ٥٠ .

الدلائل البرهانية يشبه بعضها بعضاً فى معانيها وأهدافها .

يقول الله تعالى (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون . أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون . أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ما تذكرون . أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، أءله مع الله تعالى الله عما يشركون . أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أءله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)(١) .

هذه ست آيات جاءت بأسلوب الاستفهام الإنكارى ، وهو أسلوب تقريرى فى حقيقته ، غير أنه يتضمن شيئاً وراء الإنكار التقريرى ، وهذا الشىء قد يكون تقريعاً وتوبيخاً للمخاطبين لأمر وقع منهم اقتضى ذلك التوبيخ وقد يكون هذا الشىء تعجيباً من أمر غريب يقتضى التعجيب، وتبدأ الآيات بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحمد الله والتسليم على عباد الله المصطفين لهدايته .

ثم استفهام إنكارى بالمخايرة بين الله تعالى وبين شركاء المخاطبين ، وهذا متضمن للسخرية عن عقولهم والتهكم بتفكيرهم ، لأنه لا مخايرة بمقتضى بداهة العقل بين الخلاق العليم القدير الحكيم، وبين أحجار لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عن عبادها من عذاب الله من شىء .

---

(١) سورة النمل آيات ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤ .

ويبدأ بعد ذلك الأسلوب التقريرى باعتباره حجة على بطلان هذه المخايرة التى اقتضى عقدها بين غير نظيرين جهلهم بالله تعالى ، وجاء مدخول الاستفهام فى أول الآيات التقريرية خلق السموات والأرض ، وإنزال الماء من السماء وإنبات الله به حدائق وبساتين رائعة البهجة لحسن منظرها ، ونفى استطاعتهم أن ينبتوا شجرها ، ثم أعاد الاستفهام مستخبرا استخبار تجهيل (أءله مع الله) أبدع هذا ؟ ثم بين أنهم لجهالتهم وضلالتهم يسوون بين الله وبين آلهتهم فيجعلونها عدلا لله تعالى ، ثم جاءت الآية الثانية بالأسلوب نفسه عن جعل الأرض مستقراً للخلق يتقلبون فوقها لمنافعهم وقضاء مصالحهم ، التى تكمل بما أنشىء فى الأرض من الرواسى والأنهار والحجز بين البحرين ، أى الأنهار والبحار ، وغلب البحر فقيل بين البحرين ، وهذا الحاجز ليمنع طغيان ماء البحر بملوحته على ماء الأنهار وعذوبته ، فتفسد على الناس حياتهم لو لم يوجد هذا الحاجز .

وتمر الآيات بهذا الأسلوب ذاكرة آيات الله تعالى وبدائع خلقه مما عرضنا للكثير منه فيما سبق ثم يختم هذا الحشد البديع بتعجيزهم عن إقامة برهان صادق على شىء من ذلك فيقول الله تعالى « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

ومن هذا القبيل قول الله تعالى (وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين

ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون)[1] .

هذه ثمان آيات تذكر فنونا من آيات الله ، تحدث القرآن عن مثيلاتها فى كثير من آياته ، وتزيد هذه الآيات على غيرها من الآيات جريا على عادة القرآن فى عدم التكرار المطلق ، ولكنه قد يذكر الشيء مرة ومرة ، ويدخل عليه توضيحاً أو زيادة فى مقصده .

فها هنا لاتجد القرآن يكرر آياته تكراراً مطلقاً ، ولكنه إذ يذكر إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى يربطه بإحياء الأرض بعد موتها ، ويجعل بعث الخلائق بعد الموت وإخراجهم من قبورهم شبيها بإحياء الأرض بعد موتها بما تنبته من خيراتها ، وإذ يذكر خلق الناس من تراب ، يقول لهم : أنظروا كيف تحولتم من التراب الموات إلى البشرية الحية العاقلة المنتشرة فى الأرض بالسعى فى مناكبها وإذ يقول إنه خلق لكم من أنفسكم وجنسكم أزواجا لتسكنوا إليها بعقولكم وقلوبكم وأرواحكم وربط بينكم برباط المودة والرحمة لتكون الحياة فيما بينكم سعيدة موفقة ، فذلك آية من آياته للمتفكرين فى عجائب صنع الله وبدائع خلقه وتدبيره للنفوس والأبدان .

---

(١) سورة الروم آيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .

وإذ يقول : ومن آياته خلق السموات والأرض ، يزيد على ذلك اختلاف الألسنة باللغات واللهجات ، واختلاف الألوان بين أبناء البشر مع وحدة منبعهم وأصلهم فى منشئهم ، ويجعل ذلك آية لأهل العلم ، لأن العالمين هم الذين يدركون ما فى ذلك من اقتدار وحكمة ، ثم يذكر منام الناس والحياة بالليل ، ويقظة الناس والحياة بالنهار ليبتغوا لأنفسهم من فضل الله ورزقه وعطاياه ويجعله آيات ودلائل للذين يسمعون سماع تدبر وتذكر ، ثم تأتى آية البرق خوفا من آثاره وطمعاً فى عواقبه من الغيث المغيث ، ويكرر إنزال الماء من السماء لإحياء الأرض به بعد موتها ، لأن النعمة فيه ملازمة لسعى الإنسان فى الحياة ، ويجعل ذلك آيات ودلائل لقوم يستعملون عقولهم فى إدراك مواهب الحياة وثمراتها .

أما ذكر قيام السماء والأرض بأمره ، فهو كالبيان لقوله فى آية الرعد « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » فقيام السماء والأرض بأمره هو إمساكهما أن تزولا عن مدارهما فى آفاق الحياة ، كما قال تعالى « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده »(١) . وقوله : « ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » بيان لسرعة إجابة الخلائق لدعوة البعث ، وهذا فى الواقع كناية عن اقتدار الله تعالى على بعث الخلق وحشرهم للحساب فى لحظة واحدة ، كما قال تعالى « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شىء قدير »(٢) .

---

(١) سورة فاطر آية ٤١ .

(٢) سورة النحل آية ٧٧ .

وقد تحدى القرآن الكريم بآيات الخلق والإبداع فى دلالتها على الوجود الإلهى فقال « هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين[١] .

ومن أروع وأبدع الاستدلال البرهانى على الوجود الإلهى قوله تعالى (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون)[٢] .

فقوله فى الآية الأولى (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون)معناه : أم خلق هؤلاء المنكرون للوجود الإلهى من غير خالق خلقهم ، أم خلقوا أنفسهم ، وكلا الأمرين مغرق فى المحال ، لأنه لا يجوز فى شرعة العقول السليمة أن يوجد خلق من غير خالق ، ولا أن يحدث فى الكون حادث من غير محدث يحدثه ويوجده ، فإن لم يكن ذلك فى دائرة الإمكان لم يبق إلا أنهم خلقوا أنفسهم ، وهذا عته وجنون ، أو خلقهم خالق قادر ليس كمثله شىء ، وهو الله تعالى .

ويورد الله تعالى خلق الإنسان فى الاستدلال على الوجود الإلهى ، لما فى هذا الخلق من عجائب صنع الله تعالى التى هى أقرب إلى الإنسان من كل عجائب المخلوقات وفى ذلك يقول الله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين)[٣] .

---

(١) سورة لقمان آية ١١.
(٢) سورة الطور آيتا ٣٥ ، ٣٦.
(٣) المؤمنون آيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤

هذه آيات تتحدث عن أطوار خلق الإنسان ، وهى التى أجملت فى قوله تعالى « مالكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا »(١) .

وفى قوله جل شأنه « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلك الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون »(٢) .

وأطوار خلق الإنسان بدأ العلم يقربها من العقول، ولكن نظريات العلم لا نجعلها تفسيراً للقرآن وإنما هى وسيلة من وسائل فهمه فيما وراء العقيدة والتعبدات ، التى لا تدخلها تجارب العلم وكشوفه .

ومن سور القرآن التى تضمنت آياتها دلائل الوجود الإلهى فى خلق الله وإبداعه سورة النحل وتسمى سورة النعم لكثرة ما ذكر فيها من نعم الله ومننه على عباده ، ومثلها سورة الأنعام ، فقد تكرر فيها الاستدلال على الوجود الإلهى فى آيات كثيرة وصور من الأساليب مختلفة .

وبالجملة فجميع السور المكية وهى أكثر من ثمانين سورة من سور القرآن الكريم يجد فيها الباحث كثرة من آيات الاستدلال على الوجود الإلهى ، ونختم هذا الفصل بهذه الآيات من سورة الواقعة ، بقول الله تعالى « نحن خلقناكم فلولا تصدقون . أفرأيتم ، ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون . أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون . أفرأيتم

---

(١) سورة نوح آيتا ١٣ ، ١٤ (٢) سورة الزمر آية ٦ .

النار التي تورون . ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين »(١) .

فأول الآيات تقرر الوجود الإلهي تقريراً مؤكداً ، يتعلق بخلق الناس في أشخاص المخاطبين ، وجاء التأكيد من قوله « فلولا تصدقون » أي هذا الإخبار حرى بالتسليم والإذعان ، فهلا استجابت عقولكم ، ودفعت بكم إلى مواطن الهداية والتصديق بهذا الإخبـــار الذي هو في بداهة العقول مقرر معروف .

ثم جاءت الآية الثانية ، وهي أولى في الاستدلال تقررهم بقضية هي في مشاهدهم لا تريها « أفرأيتم ما تمنون » أي أخبرونا عن هذا الماء الذي يخرج من أصلابكم إلى قراره المكين ، ثم إذا هو في بطون زوجاتكم جنين يتحرك ، ءأنتم خلقتموه بشراً سوياً أم نحن الذين خلقناه بقدرتنا وحكمتنا وإرادتنا ؟ ثم ذكر أنه قدر بينهم الموت ، وحكم به عليهم ، ولم يعجزه شيء ، فهو قادر على أن يذهب بهم ويبدل أمثالهم على ما قال تعالى « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد »(٢) .

وكما قال تعالى «وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم»(٣) . ثم بين لهم أنهم علموا علم مشاهدة ونظر أنه خلقهم وأنشأهم من النطف ، وهذه هي النشأة الأولى ، فهلا تذكروا وتدبروا وعلموا أن من قدر على الخلق الأول قادر على الإعادة والبعث والإحياء بعد الإماتة .

ثم جاء قوله تعالى « أفرأيتم ما تحرثون » احتجاج بما يباشرونه بأنفسهم

---

(١) سورة الواقعة آيات من ٥٧ — ٧٢ . (٢) سورة فاطر آية : ١٦ .
(٣) سورة محمد آية : ٣٨ .

فى الأرض ، وهو الحرث ، وإلقاء البذور فى الأرض هل أنتم الذين أنبتموه وجعلتموه زرعا يحمل السنبل والحب ، أم نحن الذين أنبتناه بقدرتنا ، فأنتم كان منكم تقليب الأرض وتشقيقها وطرح البذر فيها، ونحن كان منا الإنبات والزرع ، فهلا شكرتم هذه النعمة التى لو شئنا لجعلناها نقمة فنجعل الزرع هشيما وحطاماً هالكا لا ينتفع به ، ولو فعلنا ذلك لندمتم على ما فاتكم من الإنعام والإنتفاع بسبب مخالفاتكم ومعاصيكم ، وتقولون فى ندمكم إنا لمعذبون ، بل نحن محرومون مما طلبناه من الرزق .

ثم جاء قوله جل شأنه « أفرأيتم الماء الذى تشربون » تذكيراً بنعمة من أجل النعم ، وآية من أعظم الآيات على قدرة الله وحكمته ، فإنزال الماء سبب فى الحياة ، ولولا الماء ما بقى على وجه الأرض حى يعيش ، بل إن الله تعالى جعل الماء مصدراً للحياة ، فقال تعالى: « وجعلنا من الماء كل شىء حى »(١). وكون الإنزال من المزن أى السحاب آية الاقتدار فهل هذه النعمة التى تحيون بها ، والآية التى تشهدونها أنتم صنعتموها أم نحن صانعوها ؟

وهى نعمة بعذوبتها تتلذون بشربها وتطفئون نار العطش بها ، ولو شئنا لحولنا عذوبته إلى ملوحة شديدة ولكننا أبقيناه عذبا زلالا ، فهلا أدركتم مدى هذا الإنعام فشكرتم لتدوم لكم النعمة ، وتزدادون إنعاما ، كما قال تعالى فى بيانه أن الشكر قيد النعم ، ومنميها « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد »(٢) .

ثم قال عز شأنه « أفرأيتم النار التى تورون » مذكراً بنعمة عظيمة ،

---

(١) سورة الأنبياء آية ٣٠.

(٢) سورة ابرهيم آية : ٧.

يحتاج تعرف جانب الإنعام فيها إلى تدبر وتفكير هذه النار تقدحونها وتشعلونها لتنتفعوا بها فى كثير من شئونكم ، فأخبرونى ، أنتم أنشأتم شجرتها التى تتوارى بين عناصرها أم نحن الذين أنشأناها لكم لتقوم على قدحها أمور حياتكم ومعاشكم ؟ وهى مع ما فيها من منافع الدنيا جعلناها لكم تذكرة بنار الآخرة لتعتبروا ، وجعلناها منافع للمسافرين فى الأرض يحملون أحجارها وزنادها ويحملون من شجرتها لوقت حاجتهم إليها .

ثم عقبت هذه الآيات العظيمة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو الأسوة لأمته — بأن يسبح ربه ويقدسه ، فقيل له « فسبح باسم ربك العظيم » قياما بحق شكر المنعم ، وترغيباً فى تعظيم الله سبحانه الذى أنعم على خلقه بهذه النعم ، لتقتدى به أمته فى دوام الشكر لله المتفرد بالأنعام .

البعث والنشور

فى أسلوب القرآن

قضية البعث والنشور وإعادة الحياة إلى الموتى وحشرهم للحساب ، ومجازاتهم على أعمالهم من أعضل قضايا العقيدة ، وتتجلى سماحة الإسلام فى إبرازها للعقول فى أسلوب فطرى يقوم على المشاهدة . لتكون هذه المشاهدة طريقاً إلى فهم ما غاب بالمقايسة وضرب المثل .

وقد عنى القرآن الحكيم بهذه القضية عنايته بقضية الوجود الإلهى فى سماحة أسلوب أدائها للعقول ، وكما تعددت الآيات التى عرضت لقضية الوجود الإلهى ، فقد كثرت الآيات التى تقرر البعث ، وكما قلنا أن استيعاب مواطن الاستدلال يطول ولا يحصر ، فكذلك هنا لا سبيل إلى استيعاب آيات الاستدلال على قضية الإحياء بعد الإماتة والبعث من القبور ، وسنكتفى بنماذج وأمثلة تكون شواهد لغيرها لمن يحب أن يأنس بأسلوب القرآن ويستنطقه فى هذه القضية التى بدأت مع الحياة ، وعرضت لها الفلسفة بأسلوبها ومنطقها ، وعرض لها المتكلمون من علماء الإسلام بأسلوبهم واصطلاحاتهم ، وسنعرض لنموذج من كلامهم بعد أن نفرغ من عرض ما يتسنى لنا عرضه وبيانه من آيات القرآن الكريم .

ففى سورة الأنعام يقول الله تعالى وهو يحكى قول الجاحدين « وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين »(١) . وهو إنكار واضح ، وقد رد الله عليهم بالآية بعدها « ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق

---

(١) سورة الأنعام آية ٢٩ .

قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون »[١] . وهذا الرد لا يتضمن تقرير استدلال على قضية البعث ، ولكنه يفيد أن هؤلاء حينما يحشرون إلى ربهم ليلقوا جزاءهم ، يقرون بالحق حيث لا ينفعهم هذا الإقرار ، ويقول تعالى فى السورة نفسها « والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون)[٢] . وهذا إخبار قاطع لم يتبع بدليل .

وفى سورة هود يقول الله تعالى بياناً لقول الكفرة المنكرين للبعث « ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين)[٣] . وهذا تسجيل على المنكرين إنكارهم ودعواهم أن البعث أو القول به ما هو إلا سحر مبين ، ولكن هذا القول منهم مرتبط بما هو كالدليل ، ولكنه ذكر قبله فى قوله تعالى فى صدر الآية نفسها (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) . فكأنه قيل إن الذى خلق السموات والأرض وكان قبل خلقهما عرشه على الماء مستقراً حيث لا يستقر شىء إلا محمولا بقدرة الله تعالى ، وهذه القدرة هى التى بها يحييكم بعد ما أماتكم ويبعثكم من قبوركم للحساب والجزاء .

وقال تعالى « إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط »[٤] هذه الآية تقرر البعث فى موضعين :

الأول — قوله (إليه مرجعكم جميعاً) .

والثانى — قوله (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده) وهذا الموضع الثانى تضمن

---

(١) سورة الأنعام آية ٣٠ .
(٢) سورة الأنعام آية ٣٦ .
(٣) سورة هود آية ٧ .
(٤) سورة يونس آية ٤ .

دليل الإعادة والبعث ، لأن قوله (إنه يبدأ الخلق) معناه الإخبار عن النشأة الأولى التى هى خلق الحياة بما فيها من الناس والحيوان والأشياء ، فكأنه سبحانه يقول : إن الذى قدر على الخلق والإبداع فى نشأتكم الأولى لا بد أن يكون قادراً على إعادة حياتكم بعد إماتتكم ، ولذلك عقبها بحكمة الإعادة فى قوله (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) وهذه الحكمة تؤكد الاستدلال ، لأن الحكيم لا يترك خلقه سدى دون أن يجازيهم على أعمالهم ، فالجزاء عدل وحكمة ، وهما من صفات الله تعالى .

ثم أكد الاستدلال تأكيداً آخر بقوله بعد هذه الآية «هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب»(١). فجعل الشمس ضياء وجعل القمر نوراً وتقدير منازله ليعلم العباد منه الحساب والسنين لتنظيم أمر معاشهم فى الحياة دليل على الاقتدار فى إعطاء كل مخلوق خصائص تختلف عن خصائص غيره مع أنهم متفقون فى أصل الجرمية الصالحة للتكييف بأية كيفية ، فاختصاص الشمس بالضياء واختصاص القمر بالنور دليل على اختيار الخالق واقتداره ومن البدهى أن المقتدر على ذلك قادر على إعادة الخلق لمجازاتهم .

ويقول الله تعالى «وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل كونوا حجارة أو حديداً . أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً»(٢) .

فى هذه الآيات يحكى ربنا تبارك وتعالى شبهة منكرى البعث بالآية الأولى ، وهى شبهة تدل على أن عقولهم استعظمت الإعادة بعد التمزق

---

(١) سورة يونس آية ٥. (٢) سورة الإسراء آيات ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ .

والتفرق ، وهذا التمزق إنما كان للأجسام والأبدان والصورة المادية التى للإنسان ، وقد رد الله عليهم بقوله : إنه لا مكان لهذا الاستعظام إلا بمجرد الاستبعاد الذى لم تقو عقولكم على رده ، والله تعالى أجل فى اقتداره من أن يعجزه جمع أجزاء أبدانكم وتسويتها بشراً سوياً كما كانت فى الحياة الدنيا ، وقد وبخهم بأسلوب تعجيزى مبيناً أن قدرته فوق مستوى عقولهم فقال لهم (كونوا حجارة أو حديداً أو جبالا من كل خلق يعظم فى صدوركم فإنكم ستعادون خلقاً جديداً للحساب والمجازاة، ولكنهم أمعنوا فى اللجاج والجحود، فقالوا : من يعيدنا ؟ وجاءهم الجواب بدهياً مسلماً قل يعيدكم الذى أبدع خلقكم وابتدأه أول مرة كنتم فيها بعد أن لم تكونوا ، ومع ذلك فقد لجوا فى العناد والجحود ، وبين الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أنهم إذا سمعوا هذا الرد المفحم لهم حركوا رءوسهم مستهزئين وقالوا إمعاناً فى الجحود والاستهزاء (متى هو ؟) فجاءهم الرد (قل عسى أن يكون قريباً)لأنه آت لا محالة وكل آت قريب ويوم يرونه حقيقة واقعة كأنهم لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها .

ومثل هذه الآية من السورة نفسها ، قوله تعالى « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً . ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا : إذا كنا عظاماً ورفاتاً . أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً . أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً)(٢) .

فصدر الآية إخبار عن حشرهم على أقبح صورة جزاء كفرهم وجحودهم ، وأن ذلك هو جزاؤهم بسبب كفرهم بآيات الله وحججه ودلائل اقتداره ، وقولهم إنكاراً لهذا الحشر واستعظاما لإعادتهم

---

(١) سورة الإسراء آيات ٩٧، ٩٨، ٩٩.

للحساب والجزاء أءذا كنا عظاماً ورفاتاً نبعث خلقاً جديداً ، فأجابهم الله تعالى بما هم مقرون به ، وهو خلق السموات والأرض ، وهو أعظم من خلق الناس ، وقد تكرر فى القرآن الكريم اعترافهم بأن الله تعالى خالق السموات ومبدعها ، وخالق الأرض ومنشؤها ولهذا جاء هذا الجواب ملزماً لهم (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض) فى عظمة خلقهما قادر على أن يخلق مثلكم من الأناسى إعادة لخلقكم أول مرة ولكنهم لجوا فى العناد فأبوا لظلمهم إلا الكفر والطغيان .

وفى سورة المؤمنون قدم الله تعالى الاستدلال بخلق الإنسان فى أطواره المتعددة ، نطفة ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم كسا هذه العظام لحماً ، ثم نفخ فيه من روحه لجعله خلقاً آخر حياً عاقلا سميعاً بصيراً ، وهذه الأطوار فى خلق الإنسان من أعظم دلائل الاقتدار والحكمة ، ولذلك أثنى سبحانه على نفسه عقبها فقال (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

ولما استقام الدليل جاءت بعده قضية البعث والإعادة فى قوله تعالى (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم . إنكم يوم القيامة تبعثون)[١] .

وفى سورة الصافات ، والواقعة ، وفاطر تكرر هذا الأسلوب فى إنكار الجاحدين للبعث والرد عليهم بما يدحض حجتهم .

وفى أسلوب القرآن الكريم لإثبات البعث خصيصة عجيبة ، ذلك أنه يربط دائماً البعث والإعادة بإحياء الأرض وإخراج النبات من بطنها ، ومن هذا القبيل ما جاء فى سورة الروم من قوله تعالى « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون »[٢] .

---

(١) سورة المؤمنون آيتا ١٥، ١٦ . (٢) سورة الروم آية ١٩ .

فقوله تعالى:(وكذلك تخرجون) أى كإخراج النبات من باطن الأرض بعد إحيائها بإنزال الماء عليها ومثل ذلك قوله تعالى فى سورة فاطر: « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور »[1] .

فصدر الآية بيان للاقتدار الإلهى بما أحدث من آيات كونية بإرسال الرياح وإثارتها للسحاب وسوقه إلى أرض بلد ميت ، يابس قفر ، لا أثر للحياة فيه ، فأنزل عليها الماء فأحياها بعد موتها ، فكذلك إعادة الخلق بعد الموت وبعثهم ونشورهم لموقف الحساب والجزاء .

وهذا أمر إذا تأمله العقلاء كان فيه مقنع لهم، لأنهم يشهدون بكل ما فيهم من حسن يبس الأرض وقفرها فإذا نزل عليها الماء حييت وأنبتت من كل زوج كريم « هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه »[2] .

وفى سورة الحج آية هى جماع التحقيق فى موضوع البعث فى أسلوب القرآن .

قال الله تعالى « يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً »[3] .

وهذا استدلال قطعى ، لا تعوزه أقيسة المناطقة وتعقيدات المتفلسفين ، لأنه قائم على مقدمات صادقة تؤمن بها الفطر النقية ، فالذى خلق الإنسان

(١) سورة فاطر آية : ٩ .
(٢) سورة لقمان آية ١١ .
(٣) سورة الحج آية ٥ .

خلقاً بعـــد خلق ، وصوره طوراً بعد طور ، بدأ خلقه تراباً ، ثم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم جنيناً يتحرك فى قرار مكين ، ثم أخرجه طفلا يتنسم أنسام الحياة ، ثم سواه شاباً سوياً ، ورباه حتى جعله شخصاً قوياً ، يعمر منه من يعمر حتى يبلغ أرذل العمر فيرتد عقله وتصوراته وعواطفه ومشاعره إلى خلق الطفولة ، ويجهل بعد علم ، ويضعف بعد قوة ، ويخترم بالوفاة فى أجله المحتوم من يشاء الله انتهاء حياته ، تقول الآية الكريمة مخاطبة الإنسان فى عموم أفراده :

من كانت هذه قدرته فى نشأتك الأولى وخلقك فى أطوار حياتك المشاهدة لك لا يعجزه إحياؤك بعد موتك وإعادتك بعد فنائك ليوفيك جزاء عملك ، فهو القادر على كل شىء وهو الخلاق العظيم .

وقد عرفنا أن هذا اللون الاستدلالى على البعث فى القرآن الكريم جاء بصور مختلفة فى الإجمال والتفصيل ليقيم الله الحجة على أهل الإلحاد المعاندين ، وليوثق عرى الإيمان فى قلوب المؤمنين ، وقد جاء فى تعبير مجمل رائع من سورة يس : « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقــه قال من يحى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم »(١) .

وسورة الحج تتبع هذا الاستدلال بلون آخر من الاستدلال العلمى ليكون لكل ذى نظر من الأنظار المختلفة فى العلوم والمعارف الإنسانية حظه من طرائق الاستدلال القرآنى ، أداء لحق عموم الرسالة وخلودها بعموم وخلود الفكر البشرى « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج »(٢) . فهمود الأرض بيبسها وإقفارها من النبات بمنزلة الموت

(١) سورة يس آيات ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ .   (٢) سورة الحج آية ٥ .

للأحياء ، واهتزازها بتحرك موادها وتفاعلها ، وربوها بانتفاخ قشرتها إذا أنزل الله عليها الماء بمنزلة الحياة تسرى فى الموات فيشرق ويتبلج بالبهجة وجمال المنظر ، وفى تعبير القرآن الكريم عن الحالة الأولى بالهمود ، وعن الحالة الثانية بالاهتزاز والربو إعجاز لا يعرف فى كلام البشر ، لأنه واقع فى اللفظة المفردة تحمل صورة كاملة لو أريد التعبير عنها فى أسلوب بشرى لاستوعبت رسالة كاملة ، وهذا باب يكثر فى القرآن الكريم ويمتاز به، وهو خارج عن الإعجاز الأسلوبى الذى اعتبره البلاغيون ودندنوا حوله ، وفى المقابلة بين الهمود والاهتزاز ضرب من اللطف الفنى فى إطار التعبير .

ولما استوى الاستدلال بشقيه (التطورى) فى خلق الإنسان وفى خلق النبات بما لا يدع مجالا للتوقف فى قبول النتيجة ، جاءت تلك النتيجة فى صراحة ظافرة كأمر حتمى ، لا يسع العقول السليمة من العناد إنكاره بعد استقامة المقدمات ووضوحها «ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور »[1] .

والإشارة التى بدأت بها هذه النتيجة الحتمية تعود إلى ماتقدم من أطوار الخلق فى الحيوان والجماد والنبات ، وكأن الآيات الكريمات تقول : كان الأمر على وصفنا من الأطوار فى الخلق لأن الله تعالى الذى أحدث بقدرته هذه الأطوار هو وحده الحق الثابت وجوده فلا يتغير ولا (يتطور) لأن وجوده بذاته لذاته ، ولا يكون وجود لغيره إلا مستمداً من وجوده وفيض جوده وتسخيره ، ولما كان هذا الأصل فى الإيمان بوجود الله هو الدعامة

---

(١) سورة الحج آيتا ٦ ، ٧

الأولى فى المقصود من براهين القرآن الكريم اتبعه فى الذكر بما يتبعه فى الوجود وهو خلق الحياة من الموات بطبعه أو بفقد الحياة بعد ظهورها فيه، وهذا هو قوله تعالى:(وأنه يحى الموتى) ثم عقب ذلك بتعميم قهر القدرة الإلهية ببيان أن جميع الأشياء مقهورة بها وفى قبضتها ، وذلك هو قوله جل جل شأنه:(وأنه على كل شئ قـــدير) ثم ختمت آيات النتيجة بتحقيق ما ارتاب فيه الجاهلون من الملاحدة والمعاندين بتأكيد أن ساعة الإحياء الثانى آتية لاريب فيها يبعث الموتى من قبورهم أحياء كأكمل ماتكون الحياة ليلقى كل عامل جزاء عمله فى دار لايلحقها الدثور والفناء .وذلك قوله تعالى: (وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) .

البعث فى أساليب المتكلمين والفلاسفة:

يقول الإمام الرازى — وهو صورة مكبرة للتفكير الفلسفى فى الإسلام — فى تفسيره لهذه الآيات من سورة الحج ثم إنه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ماهو المطلوب والنتيجة وذكر أموراً خمسة :

أحدها : — قوله:(ذلك بأن الله هو الحق) والحق الموجود الثابت ، فكأنه سبحانه بين أن هذه الوجوه دالة على وجود الصانع،وحاصلها راجع إلى حدوث هـــذه الأعراض المتنافية وتواردها على الأجسام يدل على وجود الصانع .

وثانيها : — قوله تعالى:(وأنه يحى الموتى) فهذا تنبيه على أنه لما لم يستبعد من الإله إيجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات .

وثالثها : — قوله:(وأنه على كل شئ قدير) يعنى أن الذى يصح منه إيجاد هذه الأشياء لابد وأن يكون واجب الاتصاف لذاته بالقدرة ومن

كان كذلك كان قادراً على جميع الممكنات ، ومن كان كذلك فإنه لابد وأن يكون قادراً على الإعادة .

ورابعها : — قوله :(وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) والمعنى أنه لما أقام الدلائل على أن الإعادة فى نفسها ممكنة وأنه سبحانه وتعالى قادر على الممكنات وجب القطع بكونه قادراً على الإعادة فى نفسها ، وإذا ثبت الإمكان والصادق أخبر عن وقوعه فلا بد من القطع بوقوعه .

واعلم أن تحرير هذه الدلالة على الوجه النظرى أن يقال الإعادة فى نفسها ممكنة ، والصادق أخبر عن وقوعها فلا بد من القطع بوقوعها .

أما بيان الإمكان فالدليل عليه أن هذه الأجسام بعد تمزقها قابلة لتلك الصفات التى كانت قائمة بها حال كونها حية عاملة ، والبارئ سبحانه عالم بكل المعلومات ، قادر على كل المقدورات الممكنة ، وذلك يقتضى القطع بإمكان الإعادة لما قلنا أن تلك الأجسام بعد تمزقها قابلة لتلك الصفات، لأنها لو لم تكن قابلة لها فى وقت لما كانت قابلة لها فى شئ من الأوقات، لأن الأمور الذاتية لاتزول ، ولو لم تكن قابلة لها فى شئ من الأوقات لما كانت حية عاملة فى شئ من الأوقات ، لكنها كانت حية عاقلة فوجب أن تكون قابلة أبداً لهذه الصفات. وأما أن البارئ يمكنه تحصيل ذلك الممكن فلأنه سبحانه عالم بكل المعلومات فيكون عالماً بأجزاء كل واحد من المكلفين على التعيين وقادراً على كل الممكنات ، فيكون قادراً على إيجاد تلك الصفات فى تلك الذوات فثبت أن الإعادة فى نفسها ممكنة وأنه سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن ، فثبت أن الإعادة ممكنة فى نفسها ، فإذا أخبر الصادق عن وقوعها فلا بد من القطع بوقوعها .

فإن قيل : فأى منفعة لذكر مراتب خلقة الحيوانات وخلقه النبات فى هذه الدلالة ؟ قلنا : إنها تدل على أنه سبحانه قادر على كل الممكنات . وعالم بكل المعلومات ، ومتى صح ذلك فقد صح كون الإعادة ممكنة ، فإن الخصم لا ينكر المعاد إلا بناء على إنكار أحد هذين الأصلين ، ولذلك فإن الله تعالى حيث أقام الدلالة على البعث فى كتابه ذكر معه كونه قادراً عالماً كقوله :(قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) . فقوله : (قل يحييها الذى أنشأها) بيان للقدرة ، وقوله :(وهو بكل خلق عليم) بيان للعلم ، (أ هـ كلام الإمام الرازى) ، وإنما سقناه على طوله لأمور :

أولها — أن موضوع البعث والمعاد من الموضوعات الدينية التى تتعلق بأصل عقيدة الإيمان الصحيح ، وهو بمعرض التشكيك من ملاحدة أغمار المثقفين بالثقافات المعاصرة غير الإسلامية الذين لم يعرفوا فيما عرفوا من قضايا الدين ومبادئ الإسلام إلا صورة شائهة محرفة . وموضوع البعث والمعاد . تتفاوت فى الإيمان به وطرائق أدلته العقول ، والطريق الذى سلكه الإمام الرازى على ضوء تفسيره للآية الكريمة طريق علمى يقوم على دعائم العقل ، بألفاظ اصطلاحية لا يدركها إلا طوائف مخصوصة من أهل العلم والمعرفة .

ثانيها . أننا عرضنا لطريق استدلال القرآن الكريم فوجدناه يسوق هذه المعانى الدقيقة الاصطلاحية المنطقية التى يعتمد عليها المتكلمون فى صورة تثير الوجدان وتوقظ المشاعر النفسية وتدفع بالعقول إلى النظر دون ارتباط بهذه الاصطلاحات اللفظية والمعنوية التى لا يعرفها اليوم إلا القليل والذين يعرفونها لا يقفون معها فى تفكيرها ، وهذا ما نعنيه بسماحة العقيدة فى الإسلام ، أى يسر أدائها وسهولة إدراكها فطريق القرآن الكريم فى الاستدلال وتوجيه العقول والمشاعر لإدراك أعمق الحقائق أيسر وأشمل وأقوم ، ونحن لا نقصد إلى شىء من الموازنة ، فإنه من البداهة بمكان ألا محل

للموازنة بين أسلوب القرآن الحكيم وطرائقه وأى أسلوب آخر ولكننا نقصد إلى توجيه الناظرين فى القرآن الكريم والداعين إلى نشر قضاياه ومبادئه إلى أن يعملوا على إشاعة الأسلوب القرآنى وتقريبه بما يرفع الحجب الاصطلاحية عن وجهه الجميل ، حتى لا تغرق معانيه فى خضم الاصطلاحات الموضوعة فى عصور تاريخية ، كانت لها بها ألف مأنوس ، وكانت لها دواعيها الخاصة فى العصور التى نهدت بين جنباتها .

ثالثها : أننى أحب فيما أكتب من أفكار فى محيط المسائل الدينية ، وخاصة ما يتصل منها بالقرآن المبين لتنشر على الناس ، أن أستأنس بأفكار أئمتنا من أعلام الإسلام ، فهم الذين سبقونا بالإيمان والعلم والفضل ، ومهدوا لنا طرائق البحث واقتحموا غمرات المعارف ، فأفاض الله عليهم من فضل جوده ما جعلهم أعلام الهداية فى الأرض ، فكانوا أحق بها وأهلها .

وقد هدتنى تجاربى فى البحث أن الله تعالى جمع فى أفكار هؤلاء الأئمة وتراثهم العلمى الموروث كثيراً مما خطر على قلوب المفكرين فى دائرة الإسلام ومعارفه مما ظنوه مبتكراً ، غير أن هذا منشور فى خضم ما خلفوا من آثار المكتبة الإسلامية العظمى فى تاريخ الإسلام .

فعلى الذين يريدون أن ينهضوا بالبحث العلمى المسلم أن يقرءوا ، ويطلعوا ، ويدمنوا التفتيش فى آثار المتقدمين فيما يقصدون إليه من تفكير ، فهؤلاء الباحثون هنا وهناك الذين يزعمون لأنفسهم قدرة على الابتكار فى التفكير الإسلامى عليهم أن يروضوا أنفسهم على تحمل مشقة البحث وعناء الاطلاع قبل أن يخرجوا على الناس بما يخرجون به من رأى ، وسيجدون أنهم مسبوقون بما قالوا وما ارتأوا .

ولسنا نقصد بهذا إلى أن نجمد أفكار المفكرين ، أو نزعم حبس

المعارف على جيل من الناس ، أو عصر من الأعصر ، أو جماعة من الجماعات، أو فرد من بنى الإنسان ، ترديداً لقول من قال (ما ترك الأول للآخر شيئاً) كلا ، لا نقصد إلى لا شيء من ذلك لأن الفكر الإسلامي ينبوع يستمد فيضه من محيط كلمات الله التى لا تنفد وما أصدق من قال (كم ترك الأول للآخر) فلا نستطيع أن نغمط العقول حقها فى الخلق والابتكار ولكننا نقصد إلى نهنهة الغرور عند مراهقى الباحثين ، عساهم أن يعتصموا بحبل التواضع . ويعرفوا للمتفوقين من أسلافنا حقهم عن إيمان وبصيرة ثم هم فى حل ، وراء ذلك ، أن يطلقوا لعقولهم الأعنة وقد تتوارد الأفكار فيكون للأول فضل السبق ، ويكون للآخر فضل الكشف ، وكلاهما صاحب فكر ونظر .

سماحة التعبد فى الإسلام

قصرنا الكلام فى سماحة العقيدة فى الإسلام على أهم قضايا الاعتقاد ، وهى قضية الوجود الإلهى وما يجب لله من صفات الكمال وعلى أعضل قضايا الإيمان ، وهى قضية البعث والنشور ، وحشر الخلائق للحساب والمجازاة تحقيقاً لعدل الله ورحمته .

وقد جعلنا القرآن الكريم — وهو الدستور الأعظم ، والنبع الذى تفيض منه على الحياة روافده — إمامنا الذى نأتم به ، ونبعنا الذى نستق من أسلوبه وحقائقه ، ودلائله وبراهينه بيان ما أردنا إيداعه فى هذه (الموسوعة) من أصول السماحة الإسلامية ، قياماً بحق الأصل الإيمانى الذى يرجع إليه كل أصل فى أصول السماحة الإسلامية فى التشريع .

والتعبد فى الإسلام لا يقتصر على ما يسمى فى عرف الناس ، وعلى ما اشتهر فى دراسات الفقه الإسلامى بالعبارات التى لا تكاد تخرج عن أركان الإسلام الأربعة بعد ركنه الأعظم الأهم ، ركن الشهادتين . وهذه الأركان الأربعة — كما جاءت فى حديث (بنى الإسلام على خمس) وهو حديث متفق على صحته وثبوته — هى الصلاة ، وهى والية الشهادتين فى مكانتها من الإسلام ، وتليها أختها الزكاة ، ثم يجىء الصيام والحج ، وهى أركان اشتهرت بأنها قواعد الإسلام ، وهى جديرة بما عرف لها من الفضل وما شهرت به .

وإنما يعنى التعبد فى الإسلام كل عمل من أعمال الإنسان اعتمد على الإخلاص لله تعالى ، وعلى حسن النية وطهارة الضمير ، وتيقظ الإحساس والشعور لأداء الأعمال حتى تكون مقصودة لمن يعملها ويقوم بها ، فالأعمال

التى تصدر بغير قصد أو شعور لا وزن لها فى الإسلام .

والذى يدل على تعميم التعبد لجميع أعمال الإنسان قول النبى ﷺ فى الحديث الثابت الصحيح : (الإيمان بضع وسبعون شعبة) وفى كثير من الأحاديث بيان أن أعمال الإنسان التى يعملها ويظن أنها أعمال عادية لادخل للتعبد فيها ، هى فى واقعها الإسلامى تعبد ، يدخل فى إطار العبادات التى يتقرب بها العبد إلى خالقه .

فإماطة الأذى عن الطريق تعبد ، والسعى على الأولاد لجلب الرزق الحلال تعبد ، واللقمة يضعها الرجل فى فم زوجه تعبد ، وملاعبة الرجل زوجه تعبد ، وحمل الأخ لأخيه ما عجز عنه تعبد ، ومساعدته على رفع حمله على دابته تعبد ، والحياء من العيب تعبد ، وإمساك اللسان عن القول المسىء تعبد ، وإكرام الضيف تعبد ، ومواساة الإخوان تعبد ، وأكلك مع الجماعة مما يليك تعبد ، ومشيك لزيارة أخيك تعبد وعيادة المريض تعبد .

وهكذا لا يرى الإسلام عملا من الأعمال خالصاً للدنيا ، ولا عملا من الأعمال خالصاً للدين ، فكل عمل أريد به وجه الله تعالى هو تعبد لله جل شأنه ، ولو لم يكن صلاة ولا ذكراً وتسبيحاً وهذا معنى الحديث الصحيح المشهور فى قول النبى ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى) وهذا أمر تتسع دائرته عن استيعاب البحث فيه وبيان سماحة الإسلام فى تعبد الناس به ، وقد ضبطه — الحديث بالإخلاص لله تعالى وعقد النية ، وتيقظ الإحساس والشعور .

ونحن نوجز القول فى بيان سماحة الإســـلام فى تعبداته الأصيلة التى جعلها الحديث أركانه التى بنى عليها وعرفها الناس بقواعد الإسلام ، وأولها وأعلاها قدراً ، وأجلها اعتباراً فى أصول الإسلام .

الصلاة :

يقول النبي ﷺ : (المصلي يناجي ربه فعليه أن يتأهب بالوضوء) هذا نوع من لطائف سماحة التعبد في الإسلام ، يقصد إلى أن يغرس في نفس المسلم ملكة الطهارة والنظافة الظاهرة ليكون وضيء المنظر ، جميل المطلع ، لتتحول هذه الملكة عندما يعتادها وترسخ في نفسه عنوانا على طهارة باطنه ونظافة قلبه إذا أحسن أداءها بإسباغ الوضوء وتعميم أعضائه بالطهارة .

فالوضوء — في سماحة الإسلام — هو الأهبة التي يستعد بها المؤمن للوقوف بين يدى الله تعالى لأنه إذا وقف نظيف الجسم طاهر البدن كان متجمع الحس والشعور ، خفيف الروح ، صافي الذهن ، كامل الحركات ، صادق التأمل فيما يقول قراءة وذكراً ودعاء .

والوضوء يتناول بعض أعضاء الجسم الظاهرة التي تباشر الأعمال غالباً ، وتواجه الحركة في الإنسان وقد يعتريها التلوث من آثار ما يقوم به الإنسان من عمل ، وقد يتطاير إليها من غبار الطريق ، ودخان المركبات ، وروائح الشوارع والطرقات ، فنظافة هذه الأعضاء المعروضة لذلك لون من التجميل ، وللوضوء طهارة تتقدمه ، وهي داخلية ، يقصد بها تنظيف مداخل الإنسان التي تخرج منها فضلاتها . فتأتي هذه الطهارة الداخلية تنظيفاً وتطهيراً يذهب بكريه الرائحة وآثار الفضلات .

وإلى جانب الوضوء الذي تتكرر دواعيه يجيء في باب النظافة والطهارة الغسل وهو طهارة شاملة لها دواعيها وقد جعلتها سماحة الإسلام غير متكررة لما فيها من المشقة ، ولكنها تطلب إذا اقتضاها داع من دواعيها ، فإذا قام الإنسان إلى صلاته متأهباً بالطهارة أداها مشرح الصدر ، متجمع الخواطر .

والصلاة كما رسمها القرآن والسنة النبوية أعظم وسائل اتصال العبد بربه، لأنها تقصد إلى تحقيق أفضل وأكمل ما رسمت الشرائع الإلهية من علاقة بين العبد وربه، لأنها صلة تعبد خالص وزلفى إلى الله لا يشوبها شائبة من علائق الدنيا، تتقبل العقول السليمة أوضاعها وحركاتها التعبدية في قراءتها وحركاتها من ركوع وسجود، وذكر ودعاء، بما ينعكس على باطن الإنسان، فيهذبه وينير جوانبه وهذا معنى قوله تعالى: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر»(١) وفى حديث النبي ﷺ (من لم تنهه صلاته فلا صلاة له).

والصلاة عبادة موقتة بأوقات معينة ثابتة، وهى فى داخل هذه الأوقات لا تستغرق فى أدائها كاملة بطهارتها وفرائضها وآدابها سوى جزء من الوقت قصير بالنسبة إلى جميع الوقت الذى منحه الله للإنسان.

وعماد السماحة الإسلامية فى الصلاة إفراد الله تعالى بالتعبد له جل شأنه إفراداً كاملا وذلك بطرح العبد نفسه على أعتاب العبودية والتذلل المطلق لله تعالى، مع مراقبة جلاله واستحضار إنعامه وإحسانه، كما يرشد إلى ذلك ما جاء فى فاتحة الكتاب وهى السورة التى أوجب الله قراءتها فى كل صلاة وقد بدأها الله تعالى بحمد نفسه حمداً يليق بجلاله تعليما لخلقه طريقة حمده والثناء عليه بما هو أهله، ثم اتبع حمده — الذى اختار له اسم (رب العالمين) لبيان عموم ربوبيته لجميع الخلق وهذا من خصائص الإسلام فى توحيده لله تعالى — بالثناء الجميل على ذاته المقدسة بذكر رحمته بداء ونهاية وشمولا، وأنه تعالى المنفرد بملك يوم الجزاء، قال: «إياك نعبد وإياك نستعين»(٢). قطعاً للنفس عما يشغلها من ظواهر الوجود وتقلبات الحياة ليخلص قلب العبد وروحه لله تعالى، فلا يعبد سواه، ولا يستعين بغيره.

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٥ . (٢) فاتحة الكتاب آية : ٤ .

وهذا مقام خاصة المؤمنين الذين قيل فيهم :«وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » (١) وأما عامة أهل الإيمان فلهم الأمر المقرون بدواعى الاستجابة ودوافع العمل من جزاء الدنيا والآخرة (يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم » (٢)

وقد ذكر القرآن الكريم نموذجاً للمعنيين ، خوطب به نموذج الإنسانية الأعلى سيد الوجود سيدنا محمد ﷺ .فقال له ربه تبارك وتعالى « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص» (٣) .

وهذا نسق عجيب فى التناسب بين وذج الخطاب فى سمو التكليف ، وكأن محمداً ﷺ هو الصورة العليا لأمته فى نسق الخطاب ، فخوطب ﷺ خطابها بجميع أطرافها عامة وخاصة ، فهو ﷺ ببشريته مأمور معها أمر تكليف بمطلق العبادة لله تعالى ، ليكون قدوتها فيما تستطيع القيام به لتتوصل إلى الكمال البشرى ، وهو ﷺ فى روحانيته ودوام ترقياته فى مدارج الكمال النبوى الخاتم مخصوص بكونه نموذج المثل الأعلى لإخلاص العبادة، وقد قال لأصحابه لما استكثروا عبادته وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر:(إنى لست كهيئتكم) وفى راوية (لست كأحدكم) ومن ثم قيل له تخصيصاً :« وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » (٤) وليتأمل قوله تعالى : (لعلك ترضى) ففيه من عوارف الشهود مالا يستطيع القلم التعبير عنه .

---

(١) سورة البينة آية ٥ .

(٢) سورة البقرة آيتا ٢١، ٢٢ .

(٣) سورة الزمر آيتا ٢ ، ٣ .

(٤) سورة طه آية ١٣٠ .

وقيل له ﷺ فى موطن آخر من مواطن الإخلاص فى التعبد بالصلاة: « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (١) وفى خاص الحديث النبوى قوله ﷺ : (وجعلت قرة عينى فى الصلاة) وكان ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة وكان يقول لبلال مؤذنه رضى الله عنه: (أرحنا بالصلاة يا بلال) وفى حديث جابر عند مسلم أن النبى ﷺ قال:(مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم منه كل يوم خمس مرات ، فما ترون ذلك يبقى من درنه؟ قالوا : لاشئ فقال ﷺ :(فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن) .

وقد جاء ذكر الصلاة فى القرآن عشرات المرات تجئ مرات — وهذا أغلب مرات ذكرها — مقرونة بالزكاة : وتجئ فى مرات منفردة أومقرونة بالصبر ، كما فى قوله تعالى:«واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » (٢) . وقوله جل شأنه : « يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر الصلاة إن الله مع الصابرين » (٣) .

وقد جعلت الصلاة عنواناً على الإيمان ، فأخذت له خالصاً من دون سائر العبادات ، قال الله تعالى :«وما كان الله ليضيع إيمانكم » (٤) .

قال علماؤنا : أى صلاتكم ، كنى بالإيمان عن الصلاة ، لأنها ركنه الأول نزولا وتعبداً ومكانة ومقاماً ، ومن هنا جاء الزجر الموجع لتاركها ، فالنبى ﷺ يقول:(الصلاة عماد الدين من تركها فقد هدم الدين) ويقول فى

---

(١) سورة الأنعام آيتا ١٦٢ ، ١٦٣.
(٢) سورة البقرة آية ٤٥ .
(٣) سورة البقرة آية ١٥٣ .
(٤)سورة البقرة آية ١٤٣ .

حديث آخر: (فرق ما بيننا وبين المشركين الصلاة) وقد أخذ بظاهر الأحاديث بعض الأئمة فحكم بظاهرها على من ترك الصلاة تهاوناً وكسلا، وفيها يقول عمر رضى الله عنه: من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، وحسبها فضلا قول رسول ﷺ: (أقرب ما يكون العبد من ربه أن يكون ساجداً).

فهى فى الإسلام كمال الإيمان، لادين لتاركها تهاوناً بحقها واستهانة بحرمتها، ولا أمانة لمن لادين له، وحديث المخدوعين يخدع الشيطان من الأغرار عن الضمير والأخلاق بغير دين تقام أركانه، ويحافظ على فروضه وشعائره فى سلوك الإنسان سخف وهراء، بل هو شعبة من أخبث شعب الإلحاد والضلال.

الزكاة:

الزكاة فى الإسلام هى الركن الاجتماعى الذى جعله الله تعالى قياماً لعلاقات الناس على وشائج المودة والتعاطف، فهى ركن المال التعاونى الذى يتمثل فيه تكافل أفراد الأمة تكافلا قانونياً بالحق الواجب، وهى أخت الصلاة وقرينتها فى أكثر آيات القرآن، جعلها الله طهرة للنفس من رذيلة الشح والبخل، والشح مهلكة للفضائل، مجلبة للأحقاد والضغائن فى الحديث أن النبى ﷺ قال: (ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه) ويقول الله عز وجل: «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»(١) فالشح خسران، والإنفاق فلاح، وخير الإنفاق ما أدى به حق الله فى أداء فرائضه، والله تعالى يقول لنبيه ﷺ: «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم»(٢) وفى الحديث

---

(١) سورة الحشر آية ٩. (٢) سورة التوبة آية ١٠٣.

أن عبد الله بن أبى أوفى لما جاء بزكاة ماله إلى رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : (اللهم صلى على آل أبى أوفى) .

والزكاة ليست إحساناً مذلا ، ولكنها حق واجب ، أوجب الله على من وجبت عليهم إخراجها لمستحقيها فإن لم يخرجها من وجبت عليه أخذت منه قهراً ، ولو أدى ذلك إلى قتاله ومحاربته ، وقد قاتل الصديق أبو بكر رضى الله عنه مانعى الزكاة ، وأنزلهم فى القتال والمحاربة منزلة المرتدين ، ولما جادله عمر فى القتال ، وقال له : كيف تقاتلهم والنبى ﷺ يقول : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله) رد عليه الصديق بقوله : إن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه . فقال عمر : والله ما هو إلا أن رأيت الله تعالى شرح صدر أبى بكر للقتال حتى شرح الله صدرى له وعرفت أنه الحق .

وحقوق المال لا تقف عند الزكاة . فقد تهجم على الأمة أمور تضطرها إلى الحاجة إلى المال فوق ما هو مفروض على الأفراد والجماعات ، وذلك كأوقات الحروب والجهاد ، وغلبة العدو على أرض الإسلام ، وبيت المال لا يكفى للقيام بواجب الدفاع ومحاربة الأعداء ، وهنا تأتى حقوق أخرى فى المال ، يقول الإمام الغزالى فى الإحياء : وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن فى المال حقوقاً سوى الزكاة كالنخعى والشعبى وعطاء ومجاهد ، وهذا اتجاه معقول ، وحق المسلم على المسلم قد لا تكفى فيه الإحسانات والتبرعات ، فيجب على الموسرين مهما وجدوا محتاجين أن يزيلوا حاجتهم ، وهذا أقرب ما يكون إلى مذهب أبى ذر فى فهمه آية : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم »[1] .

---

(١) سورة التوبة آية ٣٤ .

ومن آداب الزكاة فى سماحة الإسلام إخفاء إعطائها لمستحقيها ، وذلك نفياً للرياء المبطل للعمل وفى الإخفاء حفظ كرامة الفقير وعدم التسميع به وإذلاله ، ولذلك جاءت الأحاديث مرغبة فى إخفاء الصدقات ، فنى الحديث المشهور عن النبى صلى الله عليه وسلم :(سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله : أحدهم رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله بما أعطت يمينه) وفى حديث آخر أن النبى ﷺ قال:(صدقة السر تطفىء غضب الرب) والله تعالى يقول « إن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم »[1] ورسول الله ﷺ يقول :(إن الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع فى يد السائل) .

ومن آدابها الإنفاق من طيب المال ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، والله تعالى يقول: « يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه »[2] .

ومن آدابها إعطاؤها لذوى القربى إن كانوا فى حاجة إليها ، فإن الصدقة عليهم صدقة وصلة رحم ، والله تعالى يقول (وآتى المال على حبه ذوى القربى)[3] وفى حديث أبى ذر رضى الله عنه عند الشيخين أنه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى ظل الكعبة ، فلما رآنى قال : (هم الأخسرون ورب الكعبة) فقلت : ومن هم؟ قال:(الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله) ومعنى ذلك أن الموسرين إذا قاموا بالحقوق فى أموالهم ولم يضنوا بها بخلا وشحا كانوا خير الناس فى أمتهم ، وأما إذا بخلوا بأموالهم وأمسكوا أيديهم عن الإنفاق شحاً فهم الأخسرون أعمالا . والزكاة وسائر الصدقات من مراسم الشكر على نعمة الغنى واليسر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧١. (٢) سورة البقرة ٢٦٧. (٣) سورة البقرة آية ١٧٧.

الصوم :

الصوم هو الركن الجامع بين تهذيب النفس وتطهيرها من أدران الغرائز المادية ، وبين مقام الزلفى إلى الله تعالى بعمل باطنى لا تتحرك فيه الجوارح، وإنما هو من عمل القلب والضمير فهو ترك وسر ليس فيه عمل يرى ويشاهد، بخلاف جميع أعمال الطاعات فإنها تقع بمشهد من الناس على مرأى ومسمع منهم ، وفيه قهر للشهوات ، وهو نية خالصة وسكون إلى الله تعالى فى مقام مراقبته ، وهذا سر قول رسول الله ﷺ فيما يحكيه عن رب العزة تبارك وتعالى : (كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به) ، وسر ذلك أن الصوم عمل قلبى لا تفسده الحركات الجسمانية ، فهو سر بين العبد وربه ، فإذا قام العبد بآدابه وحافظ على ظاهره ليكون على وفق باطنه كان قد تشبه بملائكة الله تعالى وكان عبداً ربانياً ، ولذلك أبهم الله جزاءه، وجعله جزاء لا يستطيع أحد أن يبلغ مداه ولا أن يقدره قدره، وقد قيل فى تفسير قوله تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »[1] إن الصابرين هم الصائمون ، وفى الحديث: (الصوم نصف الصبر) وفى حديث آخر : (الصبر نصف الإيمان) وبهذين الحديثين يكون الصبر ربع الإيمان .

والصوم بلسم جراحات النفوس والقلوب ، يهذبها وينقيها من ثورة الغرائز ، ويعدها لحياة الطهر والنقاء وفى حديث أبى داود أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ وقال له: دلنى على عمل يدخلنى الجنة ، فقال له النبى ﷺ: (عليك بالصوم فإنه لا عدل له) .

وللصوم المتقبل المهذب للنفس المطهر للقلب آداب يجب مراعاتها حتى

---

(١) سورة الزمر آية ١٠ .

تحقق فائدته ، فلا يكون كما قال الحديث الشريف:(كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش) .

وأول هذه الآداب غض البصر ، فلا يسرح الصائم نظره إلى ما حرم الله تعالى عليه ، فإن ذلك من نزعات الشيطان وأن يحفظ لسانه عن الهزر وقول الزور والغيبة والنميمة وقذف الناس ، فهذه من أشد مفسدات الصيام باطنا وقال كثير من الأئمة السابقين إن الغيبة تفسد الصوم ظاهراً وباطناً ، ومثلها الكذب والنميمة واليمين الفاجرة وفى الحديث الشريف (الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته) .

ومن عجيب شأن الصوم فى القرآن الكريم أنه الركن الوحيد فى أركان الإسلام الذى لم يتكرر ذكره فى القرآن كما تكرر ذكر سائر الأركان الأخرى ، وكأن السر فى ذلك أن الصوم عمل قلبى فهو من الأمور الخفية ، وهو صمت ، والصمت ترك ، ولذلك جاء النص عليه فى آيته التى لا آية له غيرها (يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) (١) فحكمته التخلق بالتقوى ، والتقوى عمل من أعمال القلب، وبذلك تتم المناسبة بين حقيقة الصوم وبين عدم تكرار النص عليه .

والصوم جعله الله تعالى واجباً فى شهر واحد من شهور العام ، ليأخذ البدن راحته ويأخذ القلب غذاءه ، وتأخذ الروح إشراقها ، هذا الشهر هو شهر رمضان ، تتجلى فيه أنوار العقول والقلوب، وتسخو فيه الأيدى بالجود والعطاء وتكثر فيه المواساة والتوادد ، وقد كان من خلق رسول الله ﷺ أنه يكون فى رمضان أجود بالخير من الريح المرسلة وقد خصه الله بليلة القدر،

---

(١) سورة البقرة آية : ١٨٣ .

وهى خير من ألف شهر ، وكان النبى ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان شد مئزره وأيقظ أهله ، وأكثر من الذكر والعبادة وسائر صنوف الخير لتقتدى به أمته ، والله تعالى يقول : «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر»(١) .

الحج :

أما الحج فهو مجمع الإسلام ، ومحفل المسلمين ، دعا الله إلى إقامته ليجمع شمل القادرين على الوصول إلى الحرم جمعاً تعبدياً ، فهو الركن الاجتماعى التهذيبى ، يتعارف المسلمون فى ساحته ، ويتبادلون فى ساحته الرأى والفكرة ، ويسمع عامة المسلمين أراء أئمتهم وعلمائهم ، ويطالعون أفكار قادتهم وزعمائهم ، وفتاوى أعلامهم من العلماء فى مهمات شئون الإسلام والمسلمين ، ولا يشغلهم هذا عن التعبد لله ، يؤدون الشعائر فى هذا الركن إيماناً وتسليما ، لا يسألون فى تعبدهم لماذا نفعل هذا ؟ ولكنهم يسألون كيف صنع رسول الله ﷺ ، ليصنعوا كما صنع وكذا كان أكابر سلفهم يفعلون ، حج عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فوقف عند الحجر الأسود ، وصاح قائلا يسمع الناس : إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك .

والعبادة روحها الإخلاص التعبدى ، والتسليم للتشريع متى ثبت عن المشرع ، فإذا خلت العبادة من التسليم والتعبد كانت جسما بلا روح فيه ، وشبحاً بلا شعور ، وصوراً بغير عقل ، ومن هنا جاء تعبير القرآن العظيم عن طلب هذا الركن من أركان الإسلام إيجاباً وسلباً ، وامتثالا وجحداً فقال الله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢١ .

«فإن الله غنى عن العالمين»(١) ففى الإيجاب نص بالتحتيم فى دائرة الشرط، تيسيراً وتقديراً لمن يصلح للوفود للمحفل المعظم من كل فج عميق من أوطان الإسلام، وفى السلب والجحود تكفير للجاحدين استهتاراً أو استكباراً أو كسلا وتهاونا، وكفر دون كفر، وإيمان فوق إيمان.

وفى القرآن الكريم سورة بعنوان هذا الركن العظيم، سميت (سورة الحج) وفى هذه السورة عرض لحكمة تشريع هذا الركن الإسلامى من الوجهة الاجتماعية. وعرض لحكمته التعبدية، وجاءت الآيات فى بيان الحكمتين نسقاً يراوح بينهما كأنهما مزج من فكرة واحدة، فالحكمة الاجتماعية مع الحكمة التعبدية فى طريق واحد، يقول الله عز شأنه: «إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم. وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود. وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير. ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق. ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور. حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق. ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب. لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق. ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من

---

(١) سورة آل عمران آية ٩٧.

بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين »(١) .

فالآيات بدأت ببيان مكانة البيت الحرام ومقامه فى حياة المسلمين ، وأنه بيتهم جميعاً جعله الله مثابة وأمناً لعامتهم وخاصتهم يستوى فيه جميع من يشهده ومن حضر إليه ، وقدم إليه من أبعد البعد ، أو أقرب القرب فى أرض الله ، وأن صد أى مسلم عن الوصول إليه ، أو الطواف به كالصد عن سبيل الله لا يقدم عليه مجترئاً على اقترافه إلا كفور أو مفسد فى الأرض محارب لله ورسوله وسائر المسلمين . ثم توعد الله تعالى بأليم العذاب وشديد العقاب من ينحرف عن طريق الحق وهو فى بيت الله وحرمه بقول أو بفعل أو تدبير ماكر ، أو مكر خبيث ، مسجلا عليه الإلحاد والظلم مما يوجب على الأمة كلها أن تضرب على يديه ، وتطهر حرم الله من رجسه وإفساده .

ثم بين الله تعالى قدر هذا البيت المعظم بأنه عز شأنه تولى بنفسه هداية خليله إبراهيم عليه السلام ، وتعريفه مكانه الذى اختاره من سائر الأمكنة فى بقاع الأرض ، ليكون ندى المسلمين فى أعظم مجتمعاتهم وأكبر محافلهم وأمر خليله — بعد تحقيق إخلاص الإيمان بأسلوب الاستفزاز والتنفير من الإبقاء على آثار الوثنية الجاهلة فى صورة النهى عن الإشراك بالله متعلقاً بأعم ما يفيد العموم — أن يعد هذا البيت طاهراً مطهراً للطائفين به والقائمين

---

(١) سورة الحج من آية ٢٥ إلى ٣٧.

فيه للصلاة والذكر والمناجاة والدعاء لا يفترون عن تعبداتهم ركعاً سجداً متذللين بين يدى ربهم فى ساحة ضيافته لزوار بيته .

ثم أمر خليله عليه السلام أن يدعو الناس ليفدوا إلى بيت ربهم، ووعده بإبلاغ من يدعوهم وبأنه سيجيبه كل من كان أهلا لهذه الضيافة التعبدية فى شهود هذا الحفل الحاشد بأفراد وجماعات المسلمين ، حيثما كانوا من أرض الله تعالى فى أوطانهم ليشهدوا فيه ومن حوله منافع لهم فى دينهم بما يبذلون من نفوسهم تعبداً لله وطاعة له ، وفى دنياهم من تبادل المنافع والتجارات كما قال تعالى: « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » (١) قال القرطبى وابتغاء الفضل ورد فى القرآن بمعنى التجارة قال الله تعالى : « فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » (٢) وروى البخارى فى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً فى الجاهلية ، فتأثموا - أى أصحاب رسول الله ﷺ - أن يتجروا فى الموسم فنزلت: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فى مواسم الحج ،وفى حديث أبى أمامة التيمى عند الإمام أحمد ، قال : قلت لعبد الله بن عمر : يا أبا عبد الرحمن: إنا قوم نكرى - أى الركائب للحجاج والعمار - ويزعمون أنه ليس لنا حج ، قال ابن عمر : ألستم تحرمون كما يحرمون ؟ وتطوفون كما يطوفون ؟ وترمون - أى الجمرات - كما يرمون ؟ قال: بلى ، قال : فأنت حاج، ثم قال ابن عمر : جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عما سألتنى عنه ، فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فدعا النبى ﷺ الرجل السائل ، فتلاها عليه ، وقال ﷺ : (أنتم حجاج) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال فى تفسير الآية : ليس عليكم حرج فى الشراء

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٨ . (٢) سورة الجمعة آية ١٠ .

والبيع قبل الإحرام وبعده ، قال القرطبي : وفى الآية دليل على جواز التجارة فى الحج للحجاج مع أداء العبادة وأن القصد إلى ذلك لايخرج به المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه .

وهذا من أدل الدلائل على سماحة الإسلام فى تعبداته .

والحج وفادة على بيت الله تنصب فيه موائد الجود والكرم الإلهى، فيقبل دعاء الداعين ، ويغفر للمذنبين ، ويجمع كلمة المسلمين ، وتناقش فيه الآراء والأفكار العلمية والاجتماعية ، ويتعرف المسلمون إلى شئون بعضهم ويحصل بينهم الاتفاقات الاقتصادية وتبادل المصالح الدنيوية إلى جانب الفوز برضوان الله .

وفى الحديث الصحيح: (من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)، ويقول النبي ﷺ (الحجاج والعمار وفد الله عز وجل وزواره إن سألوه أعطاهم وإن استغفروه غفر لهم ، وإن دعوه استجيب لهم ، وإن شفعوا شفعوا) ويقول الإمام الغزالى: أعلم أن أول الحج الفهم ، أعنى فهم موقع الحج فى الدين ، ثم الشوق إليه ،أما الفهم فإنه لاوصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات والكف عن اللذات والاقتصار على الضرورات فيها والتجرد لله سبحانه فى جميع الحركات والسكنات .

ثم قال الغزالى : وأما الشوق ، فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأن البيت بيت الله عز وجل ، وأنه وضع على مثال حضرة الملوك، فقاصده قاصد إلى الله عز وجل وزائر له ، وأن من قصد البيت فى الدنيا جدير بأن لا يضيع زيارته، فيرزق مقصوده من الزيارة فى ميعاده المضروب له ، فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لامحالة ، مع أن المحب مشتاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة ، والبيت مضاف إلى الله عز وجل فبالأحرى أن يشتاق

إليه بمجرد هذه الإضافة ، فضلا عن الطلب لنيل ماوعد عليه من الثواب الجزيل .

وفى الحديث الصحيح : (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) .

وفى القيام بأداء هذه الفريضة أداء لحق الشكر لله تعالى على نعمه وواسع فضله، ومشاركة للبائسين والمتعرضين لطلب الجود والإحسان من عطاء الله، وما كان عطاء ربك محظوراً .

والحجاج الذين يقع حجهم مبروراً هم الذين يطرحون أنفسهم على عتبات الذل والإخلاص لله تعالى ، لأن من يحرم الإخلاص يحرم الثواب .

وأظهر مظاهر سماحة التعبد فى هذا الركن العظيم المساواة المطلقة بين كافة المسلمين فى مظاهرهم الإحرامية ، وألفاظ تعبدهم بالتلبية، فليس لأحد مهما كان مركزه لباس خاص فى الإحرام، وليس لأحد مهما كان مقامه صيغة فى التلبية خاصة ، وليس لأحد مهما كان شأنه مكان معين فى حرم الله ومواقف شعائره فالمسلمون سواسية فى كل شئ .

ذلك أن البيت الحرام بيت الله الأخص الذى جعله لعباده المؤمنين عامتهم وخاصتهم يستوى فيه المقيم فى بلده الحرام، والطارئ عليه من أبعد الأماكن، لأداء نسكه والتعبد لله حول بيته ،سواء أكان راعياً وحاكماً ، أم رعية ومحكوماً ، أميراً أو مأموراً وذلك لتوثيق عرى الوحدة الإيمانية بين سائر المسلمين فى أرض الله مهما تباعدت أوطانهم واختلفت أجناسهم وألوانهم وأحوالهم .

ولهذا عظم الله الذنب فى الصد عنه وجعله كالصد عن الدعوة إلى الله ، ووصف فاعليه بالكفر ، والصد عن البيت الحرام إما صد جماعى ، أى

يحصل من جماعة أو أمة وهؤلاء يجب على كافة المسلمين مقاتلتهم وحربهم حتى ينتصروا عليهم وتعود الحرية إلى بيت الله المحرم .

وإما صد فردى ، أى يقوم فرد يحسب أن له على عامة المسلمين امتيازاً وفضلا يخصه بالبيت فهذا يجب على علماء الإسلام نصحه ومنعه عن هذه الضلالة .

روى الإمام الغزالى فى كتاب (إحياء علوم الدين) أن الخليفة العباسى المهدى قدم مكة ، فلبث بها ما شاء الله ، فلما أخذ فى الطواف نحى الناس عن البيت ، فوثب إليه عبد الله بن مرزوق فلببه بردائه ثم هزه وقال له : انظر ما تصنع ؟ من جعلك بهذا البيت أحق ممن أتاه من البعد حتى إذا صار عنده حلت بينه وبينه ، وقد قال الله تعالى « سواء العاكف فيه والباد »[1] من جعل لك هذا ؟ فنظر المهدى فى وجهه وكان يعرفه ، لأنه من مواليهم — أى أن عبد الله بن مرزوق كان من موالى العباسيين فقال المهدى : أعبد الله بن مرزوق ؟ قال : نعم فأخذ ابن مرزوق فجىء به إلى بغداد عاصمة الخلافة ، فكره المهدى أن يعاقبه عقوبة ظاهرة ، يشنع بها عليه فى العامة ، فجعل ابن مرزوق فى إصطبل الدواب ليسوسها ، وضموا إليه فرساً عضوضاً سيء الخلق ، ليعقره الفرس ، فلا ينسب قتله إلى المهدى أمام العامة ، ولكن الله تعالى لين هذا الفرس العضوض لعبده الذى قام بحق النصح والأمر بالمعروف ، ثم لما لم يروا الفرس آذاه ، بل لان له صيروه إلى بيت حبس فيه ، وأغلق عليه بابه ، وأخذ المهدى المفتاح عنده ، فإذا بابن مرزوق قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقل ، فأوذن به المهدى ، فقال له : من

(١) سورة الحج آية ٢٥ .

أخرجك ؟ فقال الذى حبسنى ، فضج المهدى وصاح ، وقال له : أما تخاف أن أقتلك ؟ فرفع ابن مرزوق رأسه إليه وهو يضحك ، ويقول : لو كنت تملك حياة أو موتاً ، وبقى محبوساً حتى مات المهدى ، ثم خلوا عنه فرجع إلى مكة .

وهذه القصة تفيد أن عبد الله بن مرزوق — وكان من صالحى الأمة القوامين لله بالحق ، لا يبالون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم — رأى أن تنحية الناس عن البيت الحرام وإخلاء المطاف لطواف فرد من الأفراد مهما كان شأنه ومكانه فى مناصب الدنيا ، ولو كان ذلك الفرد هو الخليفة نفسه ، أرفع أبناء الدنيا مرتبة فى منصبه لكان من حق الزجر أن يلحقه ، والله تعالى يقول : « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » ، وهكذا كان الناس من سلف الأمة ، وهكذا كانت تعبداتهم خالصة لوجه الله تعالى .

نموذج من سماحة الترابط الاجتماعي
في الإســــــلام

يقول الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً »(١) .

هذه آية من القرآن المجيد من سورة النساء ، وهى ثانية الطوليين فى عدد الآيات وكثرة الأحكام التشريعية وتنوعها فى موضوعات شتى ، وهذه السورة تبدأ بنداء عامة الإنسانية بوصفهم العام (الناس) تأمرهم بتقوى الله الذى وحد منبعهم وجعلهم من أب واحد وأم واحدة — وقد قدمنا أن التقوى كلمة تعبر عن دواعى الحرص على الخير ودوافعه ، والحرص على الاحتفاظ به — وأنه نشرهم فى الأرض وبثهم فى أرجائها ليعمروها بالعدل والرحمة واستقامة السلوك فى مجموعهم ذكوراً وإناثاً (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) .

وهى بهذا الأسلوب — كما قدمنا — تلفت نظر عامة المخاطبين أينما كانوا وحيثما حلوا من أرض الله إلى أنهم إخوة نشأوا من منبع واحد ، وأنكم جميعاً من مضى وغبر ، ومن يولد ويستجد إخوة مخلوقون لله تعالى الذى رباكم بإحسانه وفضله وتعهدكم برعايته ، فأنتم على تباعد الأزمان والأوطان واختلاف الألسنة والألوان والنوازع والأفكار إخوة تربطكم الرحم

---

(١) سورة النساء آية ٣٦ .

العاطفة بالمودة والمؤاخاة ، وتجمعكم وحدة الأصل والمنبع ، لتكونوا فى حياتكم متآخين متحابين ، يواسى بعضكم بعضاً ويعين قويكم ضعيفكم وقادركم عاجزكم حتى تبلغوا ما قدر لكم من درجات الرقى فى الحياة .

وقد عظم الله شأن هذه الرابطة الرحمية التى تربط الناس جميعاً أفراداً وجماعات برباط الإخاء والمحبة حتى جعل اتقاءها والتحذير من قطيعتها رديفاً لاتقائه تعالى وداخلا معه فى مآله وعاقبته فقال : (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) هكذا بالعطف الإفرادى دون إعادة الفعل فى جانب الأرحام ليكون اتقاء قطيعة الأرحام مستمداً من اتقاء الله بالتزام طاعته وتجنب معاصيه وهذا يدل على أن صلة الرحم العامة بين أبناء الإنسانية من أجل طاعات الله تعالى وأن قطيعة هذه الرحم العامة من أكبر معاصى الله ومساخطه .

بل جعل سبحانه قطيعة الرحم الإنسانية قريناً للإعراض عن قبول الهداية والسعى فى الأرض بالفساد ، فقال تعالى فى سورة محمد توبيخاً للطغاة المستبدين من أهل النفاق وعتاة المشركين : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم »[1] فهذا خطاب عام لجميع المفسدين فى الأرض وتحذير من قطيعة الرحم العامة ، وهو الأنسب بعموم دعوة الإسلام وإنسانيته الخالدة .

ومن هنا كانت رابطة الإخاء الإنسانى هى الأساس الذى بنيت عليه

---

(١) سورة محمد آية ٢٢

سائر أحكام هذه السورة الكريمة من القرآن الحكيم ، وهى أحكام تكاد تجمع شرائع الإسلام كلها .

ولذلك جاءت الآية التى نحن بصدد تفسيرها من هذه السورة مبينة لعناصر الترابط بين أصول الإنسانية التى تتجمع فيها دوافع الإخاء والمودة، وتتشابك فيها وشائج التعاطف والمحبة بأوصافها الباعثة على الوفاء بحق هذا الترابط الودود .

بدأت الآية الكريمة بالأساس الأقوم الذى لا اعتبار لأى عمل من الأعمال إلا إذا كان معتمداً عليه ذلك الأساس وهو الإخلاص فى العبادة لله وحده (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) فمجرد العبادة لله تعالى لا يكفى فى بناء عقيدة التوحيد الخالص من شوائب الشرك ، ولا بد معها من الإخلاص والتبرى من الشرك الظاهر والخفى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً »[1] «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين »[2] « ألا لله الدين الخالص)[3] وفى الحديث الصحيح: (قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه) وفى حديث آخر أن النبى ﷺ قال : (يجاء يوم القيامة بصحف مختمة ، فتنصب بين يدى الله تعالى يقول الله تعالى للملائكة : القوا هذا ، واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : وعزتك ما رأينا إلا خيراً ، فيقول الله عز وجل ، وهو أعلم ، إن هذا كان لغيرى، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما ابتغى به وجهى) .

---

(١) سورة الكهف آخر آياتها .
(٢) سورة البينة آية ٥ .
(٣) سورة الزمر آية ٣ .

ومن هنا كان عمل المنافقين والمرائين هباء ، لا وزن له عند الله ، بل هو وبال على أصحابه لأنهم قصدوا به تملق المخلوقين وإرضاءهم ، فكان لوناً من الشرك الخفي الذي يحبط الأعمال روى الضحاك بن قيس عن رسول ﷺ : (إن الله تعالى يقول : أنا خير شريك فمن أشرك معي شريكاً فهو لشريكي ، يا أيها الناس ، أخلصوا أعمالكم لله تعالى فإن الله لا يقبل إلا ما خلص له، ولا تقولوا هذا لله وللرحم ، فإنها للرحم ، وليس لله منها شيء،ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم ، فإنها لوجوهكم وليس لله تعالى منها شيء) .

ومن هنا قال أهل العلم بالله : إن الرياء في العمل شرك خفي محبط للثواب، وهو المعنى في الآيات والأحاديث المحذرة من الوقوع فيه ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

(إن أخوف ما أخاف على أمتي الإشراك بالله . أما أني لست أقول يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ، ولكن أعمالا لغير الله وشهوة خفية) .

وحسبنا في هذا المقام الحديث المتواتر شهرة:(إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) ، ومعناه أن العمل مرتبط بعقد القلب ، وقبوله متوقف على إخلاصه لله تعالى ، فمن عمل مخلصا لله تعالى موافقاً للسنة فعمله مقبول عند الله وعند رسوله ، ومن عمل رئاء الناس ، يتملقهم ويتزين لهم في عمله فعمله مردود عليه .

وهكذا نرى ربنا تبارك وتعالى في كتابه الحكيم بعد أن وطد دعائم

إفراده بالعبادة يوالى فى نسق متصل ذكر عناصر الترابط الإنسانى المتكافل فى أكمل وأبدع ترتيب .

وبدأ بأهم العناصر وأولاها بالرعاية والتقديم ، وهـو الإحسان إلى الوالدين ، وقد قرن تعالى الإحسان إليهما بعبادته وحده وعدم الإشراك به وجعله رديفاً لتوحيده ولم يجعل لمخلوق قط غيرهما — حاشا رسول الله ﷺ — هذا الحق ولا أقامه هـذا المقام فهما أحق الناس بالإحسان إليهما والشكر لهما ، والتزام برهما وطاعتهما فى غير معصية الله فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

والناس يخطئون فى فهم الإحسان واستعماله فى أسلوب القرآن ، فهم لا يفهمون إلا ماتبادر من المادة والعرف الذى يضفى على الإحسان صفة المنحة والتبرع فقط وليس هـذا معناه فى شرعة القرآن ولا فى منهج الفصحى من الكلام ، وإنما معناه فيهما ، يقابل الإساءة ،وهى محرمة محظورة فيكون هو واجباً حيثما جاء مطلقاً أو مقروناً بواجب ، وقد يصرف إلى التبرع إذا حفته قرائن صارفة إليه .

وقد تكررت فى القرآن الكريم آيات بر الوالدين والإحسان إليهما ، وعظم الله حقهما حتى جعل شكرهما والياً لشكره سبحانه وتعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير »[1] ثم يؤكد ذلك ويوصى بالإحسان إليهما ولو كانا كافرين ، ولو حاولا جاهدين حمله على الكفر فلا يسيء إليهما ولـكنه لا يطيعهما فى هذا ، وعليه أن يحسن صحبتهما بالمعروف من القول والفعل ،

---

(١) سورة لقمان آية ١٤ .

(وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا)[١] وفى صحيح البخارى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالت : قدمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش وحدتهم إذ عاهدوا النبى ﷺ ، فاستفتيت النبى ﷺ فقلت: إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها ؟ قال : نعم ، صلى أمك . قال سفيان بن عيينة فأنزل الله عز وجل فيها (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)[٢] وهذه الآية من دعائم سماحة الإسلام فى معاملة غير أهله من سائر الملل والأديان ، فهم ماداموا مسالمين لنا لا يعالنوننا الحرب ولا يكيدون لنا فى الخفاء ولا يتربصون بنا الدوائر ، فلهم العدل والبر تخلقا بمعالى الأمور واستئلافا لقلوبهم وعملا بما يحب الله ورسوله من أخلاق المؤمنين .

وقد أكدت السنة المطهرة كما أكد القرآن الكريم حق الوالدين فى البر والإحسان ، فى حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال (رضا الرب فى رضا الوالدين وسخطه فى سخط الوالدين) وفى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه سأل النبى ﷺ ، أى العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ قال (الصلاة لوقتها) قال ثم أى ؟ قال (بر الوالدين) وروى أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ يستأذنه فى الجهاد ، فقال له النبى ﷺ : أحى والداك ؟ قال نعم ، وتركتهما يبكيان فقال له النبى ﷺ (اذهب فاضحكهما كما أبكيتهما ، نومك مع أبويك على فراشهما يضاحكانك ويلاعبانك أفضل لك من الجهاد معى) .

---

(١) لقمان آية ١٥ .

(٢) سورة الممتحنة آية ٨ .

وروى البخارى فى صحيحه أن النبى ﷺ قال (رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على ، رغم أنف رجل أدرك أبويه عند الكبر أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، رغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له).

وحق الأم أوكد من حق الأب لما فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال : من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال أمك . قال ثم من ؟ قال ثم أمك ، قال : ثم من ؟ قال : ثم أمك . قال : ثم من ؟ قال : ثم أبوك . قال العلماء : هذا الحديث يدل على أن محبة الأم والشفقة عليها والإحسان إليها ينبغى أن يكون ثلاثة أمثال محبة الأب والإحسان إليه ، لأن النبى ﷺ ذكر الأم فى جواب السائل ثلاث مرات مرتبة بحرف ثم الذى أشعر باستقلال منازل الترتيب ، ثم ذكر الأب فى المرة الرابعة مرتبا له بالحرف نفسه ، قال أرباب القلوب والمعانى : والعيان يشهد لذلك ، لأن صعوبة الحمل ، وصعوبة الوضع ، وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه رأى رجلا يطوف بالبيت الحرام وعلى كاهله امرأة ضعيفة فى داخل زنبيل ، فقال له : ما هذا ؟ قال : هذه أمى رغبت فى الحج وهى على ما ترى من الضعف فأحببت أن أبرها بتحقيق رغبتها ، فحملتها منذ خرجنا ، أفترانى أديت لها حقها الذى لها على من البر ؟ قال ابن عباس رضى الله عنهما : لا ، ولا حق طلقة واحدة من طلقاتها يوم ولدتك .

وحق البر بالوالدين والإحسان لهما لا ينقطع بموتهما بل هو باق

فى الدعاء لهما بالمغفرة والرحمة كما قال تعالى « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »(١) ويتمثل فى استدامة المودة والإحسان إلى أهل ودهما من أقاربهما وأصدقائهما . روى أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله هل بقى من بر والدى شيء من بعد موتهما أبرهما به قال : نعم ، الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قبلهما ، فهذا الذى بقى عليك .

وعن عبد الله بن دينار أن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروح عليه إذا مل ركوب الراحلة ، وكانت له عمامة يشد بها رأسه فبينما هو يوما على ذلك الحمار إذ مر به أعرابى فقال : ألست فلان ابن فلان ؟ قال بلى فأعطاه الحمار ، فقال اركب هذا ، وأعطاه العمامة وقال : أشدد بها رأسك ، فقال له بعض أصحابه : غفر الله لك ؟؟ أعطيت هذا الأعرابى حماراً كنت تروح عليه وعمامة كنت تشد بها رأسك ؟ وهم الأعراب يرضون باليسير . فقال ابن عمر لأصحابه : إن أبا هـذا كان صديقا لعمر رضى الله عنه وأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى .

وإذا كان هذا هو حق الوالدين فى البر والإحسان فعقوقهما والإساءة إليهما أكبر الكبائر فى معاصى الله تعالى بعد الإشراك بالله . روى البخارى عن النبي ﷺ قال : (الكبائر الإشراك بالله . وعقوق الوالدين ، وقتل النفس . واليمين الغموس) وهى اليمين الفاجرة التى يحلفها صاحبها كاذباً متعمداً .

---

(١) سورة الإسراء آية ٢٤.

وقد أهمل أكثر الناس هذه الحقوق ، فعق الأولاد والديهم ، وجفا الأبناء أمهاتهم ، وأساؤوا عشرتهم من أجل زوجاتهم ، وتناسوا سهر الليالى وشقاء أيام العمر التى قضتها الأمهات فى تربية الأبناء بعد مهالك الحمل والوضع ، والله تعالى لم يقبل فى تعظيم حق الوالدين استثناء . روى الترمذى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال :

كانت تحتى امرأة أحبها ، وكان أبى يكرهها ، فأمرنى أن أطلقها فأبيت ، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال : يا عبد الله بن عمر طلق امرأتك . وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « من أمسى وأصبح مرضياً لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة ، وان واحدا فواحدا ، ومن أمسى وأصبح مسخطا لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار وان واحدا فواحدا ، فقال رجل : يا رسول الله . وإن ظلماه ؟ قال النبى ﷺ : وإن ظلماه ، وإن ظلماه ، وإن ظلماه » .

والعنصر الثانى :

فى الآية الكريمة من عناصر الترابط الإنسانى الإحسان إلى ذوى القربى ، والمراد بهم من تربطهم بك قرابة رحم من جهتى الأب والأم ، فيشمل الإخوة والأخوات والأعمام والعمات ، والأخوال والخالات ، وفروع كل منهم ، فهى عامة شاملة ، لم تترك قريباً ذا رحم إلا وجعلت له فى البر والإحسان حقاً واجباً أو مندوبا إليه ، وقد قدمنا فى صدر هذا الحديث ما لصلة الرحم من تعظيم فى الإسلام ، وحسبنا ما جاء فى الحديث الصحيح « ان الرحم تقوم عائذة بالله تعالى عن القطيعة ، فيقول لها تعالى : أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟

قالت : بلى ، قال : فذاك لك ، وهذا تمثيل بليغ لرضاء الله تعالى على من وصل رحمه ، وسخطه على من قطع رحمه وفى الحديث « من سره أن يبسط له فى رزقه ، وينسأ له فى أجله فليصل رحمه » .

والعنصر الثالث :

من عناصر الترابط الإنسانى فى الآية الكريمة الإحسان إلى اليتامى الذين فقدوا الوالد الساعى على أرزاقهم وكفايتهم وهم صغار لا يقوون على تزاحم السعى والكسب ، وبفقد الوالد فقدوا عاطفة الأبوة وحمايتها من عاديات الأحداث ، فهم أحوج إلى الإحسان والبر بما يشعرهم أنهم لا يزالون فى الأسرة الإنسانية بمكانتهم من البنوة المودودة .

وقد عنى الإسلام بكفالة اليتامى وتربيتهم عناية تسمو بهم من مواطن الذلة والهوان ، وترفعهم إلى أن يكونوا مواطنين صالحين فى الأمة وأفراداً عاملين ينتفع بهم المجتمع ، وقد جعل النبى ﷺ كافل اليتيم المحسن إليه فى التعليم والتربية فى منزلة رفيعة فقال ﷺ : (كافل اليتيم له أو لغيره — أى قريباً أو أجنبياً عنه — أنا وهو كهاتين فى الجنة) وأشار ﷺ بأصبعيه السبابة والوسطى ، وقال ﷺ (من ضم يتيما من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله عز وجل غفرت له ذنوبه) . قال العلماء : الإحسان إلى اليتيم الذى يستحق عليه كافله هذه الدرجة هو الإحسان الذى يجعل اليتيم بمنزلة ولد الإنسان من صلبه فى الإكرام وحسن التربية والتعليم ، فيعلمه من أمر الدنيا ما ينفعه فى حياته من صناعة أو تجارة ، ويعلمه من أمر الآخرة ما يحفظ دينه واستقامته ويؤدبه كما يؤدب ولده بالزجر والضرب الخفيف إن رأى حاجة لذلك .

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له : إن فى حجرى يتيما أآكل من ماله ؟ قال نعم : (، غير جامع مالا ولا واق مالك بماله) قال : يا رسول الله أفأضربه ؟ قال (ما كنت ضاربا منه ولدك) .

ومن الإحسان إلى اليتيم حفظ ماله إن كان له مال وتثميره بالتجارة حتى لاتأكله النفقات ، وإذا بلغ مبلغ الرجال زوجـــه من كفئه ، وأقام له ما يصلحه فى عرسه من صنيع وطيب بقدر حاله وحال من يزوجه منها ،وكل ذلك بالمعروف فى غير تقتير ولا إسراف .

والعنصر الرابع من عناصر الترابط الإنسانى فى الآية الكريمة الإحسان إلى المساكين ، وهم الذين حرموا مما يعينهم على السعى والعمل لكسب أرزاقهم فسكنت نفوسهم إلى الاستسلام يتطلعون إلى حياة الناس فيرون نشاطا وحركة وعملا وإنتاجا ويعودون إلى حرمانهم فتنكسر قلوبهم فهم أحوج إلى إحسان دافع إلى وشيجة الإخاء الإنسانى ليشعرهم أنهم لبنات فى بناء الإنسانية أدركها بعض العقبات فلم تتمكن من أن تشد نفسها إلى بناء المجتمع الإنسانى ، فما هى إلا نظرة عطف صادق لاذلة فيه حتى يعودوا عناصر حية فى قافلة الحياة .

وليس المراد بالمساكين هؤلاء المستجدين فى الطرقات وعلى أبواب المساجد وأماكن تجمع الناس فهؤلاء محترفون لأخس الحرف وأحقر المكاسب وأخبث الأرزاق أرزاقهم، وإنما المراد بالمساكين هم الذين عجزوا عن اللحاق بتزاحم الناس فى السعى على الرزق والكسب الحلال ، يقول النبي ﷺ (ليس المسكين الذى يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لايجد غنى يغنيه ، ولايفطن له فيتصدق عليه ، ولايقوم فيسأل الناس .

هذا هو المسكين الذى يقع الإحسان إليه موقعه ، يقول النبي ﷺ (الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ،وكالقائم الذى لا يفتر، وكالصائم الذى لا يفطر) .

والعنصر الخامس والسادس من عناصر الترابط الإنسانى ، الإحسان إلى الجار سواء أكان قريب الدار أو قريب النسب والرحم ، وسواء أكان بعيد الدار أو بعيد النسب والرحم ، والإحسان إلى الجار القريب أداء لحق الجوار وحق القرابة ، والإحسان إلى الجار البعيد أداء لحق الجوار ، وقد عظم الإسلام حق الجار حتى قال النبي ﷺ : (ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) وحق الجار عام فى المسلم وغير المسلم . وفى حديث عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ قال لها عند تفريق لحم الأضحية (أبدىء بجارنا اليهودى) وفى حديث عبد الله بن عمر أن شاه ذبحت فى أهله فلما جاء جعل يقول : أهديتم لجارنا اليهودى ، وكررها ثلاث مرات حتى قال له مولاه نافع : كم تقول : أهديتم إلى جارنا اليهودى ، فقال ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول (ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) .

والعنصر السابع من عناصر الترابط الإنسانى فى الآية الإحسان إلى إلى الصاحب الملاصق والمراد به ما يشمل الزوجة والرفيق فى السفر ، والصديق الصدوق ، أما الإحسان إلى الزوجة فأمره معروف ومفصل ، وهى شريكة الرجل فى حياته وأولاده فحقها عظيم ، وأما الرفيق فى السفر فقد ورد فيه أن النبي ﷺ كان معه رجل من أصحابه وهما على راحلتين ، فدخل رسول الله ﷺ غيضة فقطع قضيبين أحدهما معوج فخرج وأعطى لصاحبه القضيب القويم ، فقال له صاحبه : كنت يارسول الله أحق بهذا ،

فقال له : كلا يافلان إن كل صاحب يصحب آخر فإنه مسئول عن صحابته ولو ساعة من نهار ، وأما الصديق الصادق فى موادته فهو بمنزلة صديقه عند نفسه ، وكان السلف الصالح يرفعون الحجب دون الأصدقاء إلا فى محارم الله تعالى ، روى عن الحسن البصرى أنه دخل داره فوجد حلقة من أصدقائه وقد أخرجوا سلالا من تحت سريره فيها أطايب الأطعمة وهم مكبون يأكلون فتهللت أسارير وجهه وضحك وقال : هكذا وجدنا كبار الصحابة ، ويروى عن الربيع بن خثيم أن أخاله فى الله زاره فلم يجده فدخل وقدمت له الجارية طعاما فأكل فلما عاد أخبرته فقال لها : إن صدقت فأنت حرة .

والعنصر الثامن الإحسان إلى ابن السبيل ، والمراد به المسافر يسعى على رزقه ورزق عياله أو يطلب أمراً مشروعا من أمور الحياة ، وقد انقطعت به وسائل الكفاية حتى أصبح فى حاجة إلى المعونة بما يحفظ ضيعته ، ويشعره بأنه أخ لمن وجد بينهم ، له من الحقوق الإنسانية ما يجعله فى آية بقعة من أرض الله واجداً كفايته ، مأمون الضيعة والهوان حتى يعود إلى وطنه .

والعنصر التاسع من عناصر الترابط الإنسانى فى الآية الكريمة الإحسان إلى من جعلهم الله تحت أيدينا مما ملكت أيماننا ملكا شرعياً ، وهذا باب من أبواب الإحسان لا يزاحم فيه الإسلام ، فقد جاء فى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى ذر (يا أباذر هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تطعمون ، وألبسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم) وهذا المبدأ الإسلامى الذى يحقق المساواة فى مظاهر الحياة المعيشية أحرى أن يطبق على من يعيننا فى بيوتنا ومزارعنا ومتاجرنا ومصانعنا من العمال والخدم ، فهم إخواننا ، علينا أن نحسن عشرتهم ونكرمهم ونواسيهم بما نواسى به أنفسنا وأولادنا .

وبعد . فهذه آية واحدة من القرآن الكريم تصور أرفع درجات السماحة الإسلامية فى ترابط المجتمع فهى عقدت أواصر الإخاء الإنسانى بين جميع أبناء الإنسانية تحقيقاً لصلة الرحم العامة والخاصة ، البعيدة والقريبة ، فما من أحد من الناس فى وجود المجتمع الإنسانى إلا وقد شملته الآية ودخل تحت وصف من أوصافها المذكورة ، فكان كل إنسان مأموراً بالإحسان إلى كل إنسان .

ولو أن الناس حققوا هذا المبدأ السامى لتحقق فيما بينهم التكافل الاجتماعى على أوسع معانيه وأبلغها ، وعاشوا إخوة متحابين ، يتعاونون على البر والتقوى ، بريئة أنفسهم من الأحقاد والضغائن يحيون فى ظل الإخاء والمودة ، والسماحة .

سماحة النصيحة فى الاسلام :

روى أن الإمام العظيم عبد الرحمن بن عمر الأوزاعى قال : بعث إلى أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته ، فلما وصلت إليه ، وسلمت عليه بالخلافة رد على واستجلسنى ثم قال لى :

ما الذى أبطأ بك عنا ياأوزاعى ؟

قلت : وما الذى تريد يا أمير المؤمنين ؟

قال : أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم .

فقلت : فانظر ياأمير المؤمنين ألا تجهل شيئاً مما أقول .

قال : وكيف أجهله وأنا أسألك عنه وفيه وجهت إليك وأقدمتك له ؟

قلت : أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به ؟

فصاح بى الربيع — صاحب المنصور — وأهوى بيده إلى السيف ،

فانتهره المنصور ، وقال : هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة ؟؟ فطابت نفسى وانبسطت فى الكلام .

فقلت : ياأمير المؤمنين ، حدثنى مكحول عن عطية بن بشر قال : قال رسول الله ﷺ « أيما عبد جاءته موعظة من الله فى دينه فإنها نعمة من عند الله سيقت إليه ، فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها إثماً ، ويزداد الله بها سخطاً عليه » .

يا أمير المؤمنين حدثنى مكحول عن عطية بن بشر قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما وال مات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة » .

يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله ، إن الله هو الحق المبين ، إن الذى لين قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمورهم لقرابتكم من رسول الله ﷺ . وقد كان بهم رؤوفا رحيما ، مواسيا لهم بنفسه فى ذات يده ، محمودا عند الله وعند الناس ، فحقيق بك أن تقوم له فيهم بالحق ، وأن تكون بالقسط له فيهم ولعوراتهم ساترا ، لا تغلق عليك دونهم الأبواب ، ولا تقم دونهم الحجاب ، تبتهج بالنعمة عندهم ، وتبتئس بما أصابهم من سوء .

يا أمير المؤمنين حدثنى يزيد بن جابر عن عبدالرحمن بن عمره الأنصارى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة ، فرآه بعد أيام مقيما ، فقال له : ما منعك من الخروج إلى عملك ؟ ، أما علمت أن لك مثل أجر المجاهد فى سبيل الله ؟ قال لا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : أنه بلغنى أن رسول الله ﷺ قال : ما من وال يلى شيئاً من أمور الناس إلا أتى به يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه ، لا يفكها إلا عدله ، فيوقف على جسر من النار ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه ، ثم يعاد فيحاسب ، فإن كان محسناً نجا بإحسانه ، وإن كان مسيئاً انخرق به ذلك الجسر فيهوى فى النار سبعين خريفاً .

فقال عمر رضى الله عنه : عمن سمعت هذا ؟ قال الأنصارى : من أبى ذر وسلمان ، فأرسل إليهما عمر ، فسألهما ؟

فقالا : نعم ، سمعناه من رسول الله ﷺ .

فقال عمر : واعمراه ؟ ؟ من يتولاها بما فيها ؟

فقال أبو ذر رضى الله عنه : من سلت الله أنفه وألصق خده بالأرض .

قال الأوزاعى : فأخذ المنصور المنديل فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكانى .

ثم قال الأوزاعى رحمه الله : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل ، أريب العقد ، لا يطلع منه على عورة ، ولا يخاف منه على حرة ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم .

وقال عمر أيضاً : الأمراء أربعة ، فأمير قوى ظلف نفسه وعماله ، فذلك كالمجاهد فى سبيل الله يد الله مبسوطة عليه بالرحمة ، وأمير فيه ضعف ، ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه . فذلك على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله ، وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه ، فذلك الحطمة الذى قال فيه رسول الله ﷺ (شر الرعاة الحطمة) فهو الهالك وحده ، وأمير أرتع نفسه وعماله ، فهلكوا جميعاً .

ثم قال الأوزاعى رحمه الله : يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله بحقه ، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى . وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ، ومن طلبه بمعصية الله أذله ووضعه ، فهذه نصيحتى إليك والسلام عليك ، ثم نهضت .

فقال لى : إلى أين ؟ فقلت إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله . فقال : قد أذنت لك ، وشكرت لك نصيحتك وقبلتها ، والله الموفق للخير والمعين عليه ، وبه أستعين ، وعليه أتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل ، فلا تخلنى من مطالعتك إياى بمثل هذا ، فإنك المقبول غير المتهم فى النصيحة ، قلت أفعل إن شاء الله ، فأمر له المنصور بمال يستعين به على خروجه . فلم يقبله وقال : أنا فى غنى عنه ، وما كنت لأبيع نصيحتى بعرض من الدنيا .

عبرة وعظة :

هذه هى السيرة الرفيعة الكريمة التى كان يسير عليها علماء الإسلام فى حياتهم الروحية السامية ، فهذا إمام لا يجهل الخليفة أبو جعفر المنصور — وهو من هو — مكانه من دنيا الناس ، ويعرف له فضله فى إمامته وعلمه لا يجده يقف ببابه ، ولا يجده يتردد على مجالسه ، ولا يجده ينافس فى الدخول عليه ويتطلع إلى مرضاته ، ولا يجده يلوذ بحواشيه يتخذ منهم خلانا وأصدقاء ، بل لا يجده قريباً منه فى عاصمته ، بل يرسل إليه فيأتيه راضيا امتثالا لواجب الطاعة ، ويدخل عليه معززاً مكرما ، يسأله الخليفة متلطفا متشوقا إليه لطول غيبته عنه ، فيرد الإمام الأوزاعى رد العالم المتكرم فيمعن الخليفة فى التلطف معه متواضعاً مقدرا لفضل العلم فى شخص الإمام ، ليبسط نفسه ، ويزيل عنه وحشة هذا اللقاء ، ويرفع عن قلبه هيبة هذا المجلس المحجب بالكبرياء ، ويمعن الإمام الأوزاعى فى التسامى بفضل العلم ، حتى تبدر من صاحب الخليفة وهو واقف على رأسه بسيفه — وهو أنموذج لضرب من النفاق يعيش كالعلق فوق جيف الطغاة المستبدين فى كل جيل وعصر — بادرة فاجرة ، تستعظم على فضل العلم وعزة التقى أن يكونا من الخلافة والملك

فى ميزان الكرامة المتسامية ، ولكن الخليفة وهو أعرف بجليسه يرد هذه البادرة الخبيثة بما تطيب به نفس الإمام وينشرح صدره للحديث ، فيتحدث فى أدب رفيع وشفقة ورحمة يغلف بهما مرارة الحق فى النصح ويبلغ فى إمحاض النصح نهايته من الصراحة والإنذار ، دون تشنيع أو تعالم يرائى بهما الناس ، ثم ينهض غير متلبث ، فيستخبره الخليفة إلى أين ؟ . فيجيب : إلى الولد والوطن ، حيث هناك حياته ، يسعى على ولده ، ينقل إليهم رزق الله بكده وكدحه ، ويقوم على تربيتهم بأدب الإسلام وعلمه ، ويعرف لوطنه حقه عليه ، يشارك مواطنيه ضراءهم وسراءهم ولكن بإذن أمير المؤمنين .

هذا أدب العلم ، وذاك عز التقى !!

ويأذن الخليفة شاكراً مثنياً ، راجياً إلى الإمام رجاء أشبه بضراعة الصديق إلى الصديق فلا تخلنى من مطالعتك إياى بمثل هذا .

ثم ماذا ؟ ثم يجىء الامتحان القاسى ، الامتحان العاصف ، بما للنفوس الضعيفة من ستر وغلالات ريائية فيمزقها حتى تبدو على حقيقتها ، وتجوزه النفوس القوية بالحق ، وأدب التكرم بالعلم التى صنعها الله على عينه لتكون نماذج عليا للتربية الإسلامية ، كأصفى ما يكون المعدن المصفى .

أمر الخليفة لهذا الإمام الجليل بمال يستعين به على سفره ، وكان هو الذى أشخصه ودعاه إليه ، فلم يقبل الأوزاعى المال ورده على الخليفة فى تكرم وتسام ، وإظهار لنعمة الله السابغة بالستر الجميل ، وقال أنا فى غنى عنه ، وما كنت لأشترى بآيات الله ثمناً قليلا ، وكل نصيحة

فى الإسلام آية من آيات الله ، وكل دنيا الناس ثمن قليل لآية من آيات الله .

وهكذا يختم الإمام الأوزاعى رحمه الله هذا السجل الحافل بأروع الفضائل ، التى رسخها الإسلام بتربيته السمحة فى نفوسهم بقوله: وما كنت لأبيع نصيحتى بعرض من الدنيا ، وهذه الكلمة الكبيرة العظيمة هى وحدها درس من أدب الإسلام فى السلوك والتربية والأخلاق والتدين ، هـذه الصفات التى هى ألزم للعلماء من غيرهم من طوائف الأمة وأفرادها تتمثل فى سماحة الإسلام وشجاعة حماته القوامين على فهمه وإبلاغه رسالته إلى الناس ، هذه السماحة التى جعلها الله خصيصة هذا الدين فى تاريخ الإنسانية ليست هى النفاق العملى ولا الميوعة السلبية التى تقف بعيداً تنظر ما يفعل الناس .

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

* * *

الجهاد في الإسلام

حقيقته - حكمته - أنواعه - مراتبه

إذاً لماذا شرع الجهاد في الإسلام؟

هذا السؤال طبيعي الورود — بعد ماتقدم من بيان الدعائم والأصول التي قام عليها بناء الإسلام في تشريعه الحكيم ، العادل الرحيم ، في سماحة كانت واقعاً وجودياً في حياة المسلمين ، رعاة ورعية ، وقادة وشعوباً ، يوم أن كان الإسلام هو الذي يرتاد لهم بتعاليمه ومبادئه وتشريعه وآدابه وسياسته منازل الدعوة إلى الله ، وإلى تحرير الإنسانية من أغلال الوثنية والتعبد لغير الله تعالى ، تحقيقاً لروابط الإخاء الذي يجمع الإنسانية أفراداً وجماعات في إطار الوحدة الرحمية التي ولدت في مهادها — فلا ينبغي للباحث في موضوع هذا الكتاب أن يتجاهله أو يتهرب منه .

فلابد إذاً من مواجهته ، والإجابة عنه ، إجابة تبين في صراحة وإقناع حكمة تشريع الجهاد ، بياناً يرده إلى ساحة العدالة وسماحة الإسلام في طبيعته التشريعية في عمومها — ولا سيما في معاملة غير المسلمين ، تلك السماحة التي قام على دعائم تجليتها بناء هذا الكتاب .

والجهاد — فيما يبدو للناس — حرب مدمرة ، وقتال تسفك فيه الدماء ، وتزهق في ميادينه الأرواح ، وقتل يحرص عليه المجاهد أشد الحرص ، وأسر لمن تتكشف عنه الحرب حياً في ميدان القتال ، واسترقاق وعبودية ، وغنائم لأموال الأعداء وعتادهم وعدتهم .

فهو في صورته الظاهرة سفك للدماء ، وتخريب لعمران البلاد ، وتشريد للضعفاء ، وتيتيم للأطفال ، وثكل للنساء يتركهن أيامى معذبات ، وسلب لحرية الإنسان ، وإهدار لكرامته ، وإكراه له على تغيير عقيدته ، وتحويل له عن مألوف قومه ووطنه .

فكيف إذاً يتفق تشريعه — بهذه القوة الداعية إليه فى آيات القرآن وأحاديث النبى ﷺ ، ووصايا الخلفاء الراشدين وصالحى الولاة والأمراء والقادة من بعده ، تلك الآيات والأحاديث والوصايا المغربة المحرضة على القتال والقتل وإعداد الأسلحة وسائر فنون الحرب ، وبراعة التدريب — مع العدالة ، بله الرفق والسماحة ؟؟

ونظن أننا بتصويرنا هذا — لما يجول فى حنايا أنفس الكاشحين المنكرين لهذا التشريع ، أو المتنكرين له من أعداء الإسلام ، أو الجاهلين والمتجاهلين ممن ينتسب (جغرافياً) إلى هذا الدين الكريم ، دين الإسلام، من المتعالمين (العقلانيين) المتعالمين بثقافة التسامح واستعباداً للتقاليد الحضارية المتحللة من قيود القيم الروحية فى هذا العصر — قد أوفينا على الغاية فى تصوير ما يزعمون من اعتراضات ومغامز ، يعيبون بها الإسلام فى شرعه للجهاد .

* * *

أجل . الجهاد حقيقة من حقائق الإسلام الكبرى التى لا يمكن أن تجحد وهو فى هذا الدين سياج من حديد العزائم ، وقوة الإرادة الصارمة ، يطلبه الإسلام من أهله ، ويحرض عليه ، ويغرى بالقيام به ، ويثيب عليه ثواباً لا يعدله ثواب طاعة من الطاعات ، ويجعل تركه ضعفاً وذلة ، وإهماله مهانة وهواناً ، والتولى عن مجابهة العدو فى ميادينه والفرار من لقائه أكبر الكبائر، وأعظم الذنوب والآثام ، وفى ذلك يقول القرآن : « يأيها الذين آمنو إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فـــلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره

إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (١) .

ولكن الذى يجب أن يتهمه أهل الاستقامة الإنسانية هنا هو أن نبين مقصد الإسلام وهدفه من تشريعه الجهاد حتى يتبين لذوى العقول السليمة : متى يكون القتال جهاداً يطلبه الإسلام ويغرى به ويحرض عليه ويرغب فيه؟ ومتى يكون قتل المسلم فى ميادين الحرب استشهاداً يرفع صاحبه إلى أعظم درجات الإكرام عند الله تعالى ؟ ومتى يأذن الإسلام فى القتال ليكون جهاداً ؟ ومتى يوجبه ويحرض عليه ؟ ومتى يجوز للمسلمين أن يأخذوا أعداءهم أسرى ؟ ومتى يجوز لهم أن يغنموا أموالهم وعتادهم ؟

يقول بعض الباحثين المعاصرين فى تسويغ شرعية الجهاد فى الإسلام : الحرب ضرورة اجتماعية ، لا تستطيع الإنسانية أن تتخلص منها نتيجة لطبيعة التغالب على المصالح ، واستجلاب المنافع ودفع المضار والمفاسد التى طبع عليها البشر أينما كانوا وكيفما كانوا .

والتاريخ البشرى على طول مداه — منذ وجد الإنسان على ظهر هذه الأرض إلى يومنا هذا ، وقد بلغت فيه الحضارة العلمية والاجتماعية مبلغاً لم يقنع فيه العلم بالبقاء فى الأرض ، وإنما صعد بالإنسان إلى أجواز الكواكب — شاهد عدل على ذلك ، فهذا التاريخ لم يشهد عهداً من عهوده ، ولم يعرف عصراً من عصوره ، ولا جيلا من أجياله خلت فيه أرجاء الأرض من حروب وقتال ، تتسع تارة فتعم أكثر أقطار الأرض ، وتضيق أحياناً فتعم بعض أنحائها ، سواء فى ذلك أحلك العصور ظلاماً وجهالة ، وأشدها بريقاً ولمعاناً ، وأكثرها حضارة وعمراناً .

---

(١) سورة الأنفال آيتا ١٥ ، ١٦

فلا بد لأى نظام يريد أن يحيا مع الناس أن يشرع للحرب والقتال — من وجهة نظره — ما يتفق مع أصوله وقواعده ،ووسائله وأهدافه ، حفاظاً على أمنه وصوناً لكيانه .

والإسلام نظام جاء لأجل أن يحيا به الناس ، ويحيا هو بشرائعه فى واقع حياة الناس ، فكان طبيعياً أن تتضمن شريعته مشروعية الحرب والقتال ، بدأ ، ووسيلة وغاية .

والذين يقولون هذا إنما قالوه دفاعاً عن الإسلام فى شرعيته الحرب دفاعاً عن دعوته ومصالح أهله ، وحماية لها حينما غاب المسلمون على أمرهم ، وأصبح إسلامهم هدفاً للنقد العائب ، والرشق بسهام الغميزة والتنقيص ؛ ليصد العائبون بغميزتهم تيار هذا الدين عن الاندفاع لغايته فى سبيل إنقاذ الإنسانية من براثن الوثنيات الجاهلة أو الوثنيات (المتعالمة) المغلفة بأغلفة الدين المزور على السماء ، أو المغلفة بأغلفة الحرية (الجائرة) تحت أسماء وعنوانات اجتماعية براقة لتخليصها من المظالم الباطشة بالضعفاء والاستبداد الباغى القابض على نواصى العباد .

ويقول الإمام العلامة السيد محمد الخضر رحمه الله فى رسالة له بعنوان (آداب الحرب فى الإسلام) :

(طبعت نفوس على حب الاستئثار بالمنافع ، وذلك ما يدعوها إلى أن تمد أيديها إلى ما يتمتع به غيرها من خير وتنتزعه منه بقوة ، كما أن فى النفوس غيرة على ما بيدها من حق وإباية لأن يؤخذ منها هذا الحق وهى كارهة ، وذلك ما يدعوها إلى أن تذود عن ساحتها وتدافع عن حقوقهـــا ولو كان

خصمها أكثر جنداً وأتم سلاحاً ، بل تقف هذا الموقف من الرجولة والاحتفاظ بالكرامة ولو غلب على ظنها ستغلب على أمرها ، تفعل هذا إيثاراً لحياة العزة على حياة المهانة وتحامياً لخزى ينقل من جيل إلى جيل .

وهاتان الطبيعتان : طبيعة حب الاستئثار بالمنافع وطبيعة إباء الضيم هما منشأ أكثر الحروب التى تقوم بين الأمم : الحريص على منافع فى يد غيره يهاجم أو يستعد متحفزاً للهجوم ومن بيده المنافع ينهض فى وجه المهاجم أو يبادر المتحفز للهجوم عليه قبل أن يستوفى وسائل الهجوم .

ربما كان قوم على حق وسيرة من الرشد ، فيحمل لهم الطغاة الفجار ضغناً ويرومون القبض على زمامهم ليصرفوهم عن سيرتهم الرشيدة ولا يرضى المستقيمون على طريقة الرشد إلا أن يعيشوا أحراراً فإذا الحرب ناشبة أولئك يبغون فتنة وهؤلاء يبغون سلاماً .

وقد تنشب الحرب بين طائفتين يعتقد كل منهما في نفسه أنه المظلوم وخصمه الظالم ، وهذا النوع من الحروب هو الذى يمكن تحاميه من طريق المفاوضات وقرع الحجة بالحجة ويغنى فيه القلم عن النار والحديد إذا كانت طبيعة حب الاستئثار بالمنافع غالبة على النفوس ، وإذا كان أصحاب الأهواء يحرصون على إطفاء نور الحق ، وإذا كان فى إقناع أحد الخصمين بأن الحق فى جانب غيره صعوبة فمن الحزم أن تكون الأمة على استعداد كاف لدفاع من يريد الاعتداء على حق من حقوقها بسوء قصد أو بسوء فهم .

وكذلك نرى الإسلام قد فرض على الأمة ان تنفق أقصى ما تستطيع فى الاستعداد للدفاع قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » فاستعداد الأمة للحرب يجعلها فى منعة من أن يهتضم ذو قوة

حقاً من حقوقها ، أو تحدثه نفسه بأن يبسط سلطانه على قيد شبر من أوطانها) اهـ .

ومعنى كلام هذا الإمام أن الحرب إما هجومية ، يشعل نارها ظالم يريد أن يستأثر بمنافع الحياة ويحرم منها غيره ، فينزع منه منفعة يراها فى يده ، فيقف صاحب الحق فى وجه الظالم الذى استأثر بالمنافع واحتازها لنفسه وقومه دون من له حق المشاركة فى المنافع بحكم إرادة الحياة ، فإذا الحرب ناشبة ونارها مشبوبة ، وإذا القتال قائم بين الفريقين المستأثر الظالم وصاحب الحق الذى يطلب حقه ، والفيصل هنا للقوة القاهرة ، لأن التغالب على منافع دنيوية متداولة ، والقوة لا تثبت فى يد ولا تستقر فى أمة أو دولة ، والأيام دول والحرب سجال ، وهذا قانون اجتماعى قرره ربنا تبارك وتعالى فى قوله عز وجل : « وتلك الأيام نداولها بين الناس »[1] فبعد أن خص أهل الإيمان بالتسلية والعزاء لما أصابهم يوم أحد بقوله : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله »[2] عم بذكره سنته تعالى فى خلقه وتداول الأيام بينهم ، وفى هذا زيادة تسلية وعزاء للمؤمنين ليكونوا دائماً مستعدين لتقبل النصر بغير غرور وبطر ، وقبول المحنة بغير يأس وضجر .

وإما حرب دفاعية يضطر إلى خوضها صاحب الحق إذا اعتدى عليه مبطل يريد أن يعبث بكرامته وينتزع منه حقه فى الحياة الحرة الكريمة فتأبى على صاحب الحق طبيعة إباية الضيم أن يستكين ويستسلم ، ويسلم ما بيده من حق فإذا الحرب قائمة على سوقها وإذا القتال دائر الرحى والفيصل هنا لقوة الإيمان بالحق فى صدور أهله .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤١ .

(٢) الآية السابقة من السورة نفسها .

وهذا اللون من التدافع بين طوائف البشر على استجلاب المنافع ودفع الأضرار هو الذى أشار إليه القرآن الكريم فى قوله عز اسمه : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض»(١) وفى قوله تعالى شأنه : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً »(٢)

فالقرآن الكريم يقرر بنص هاتين الآيتين الكريمتين اللتين وردتا على سبب واحد وجرتا فى واد واحد سنة من سنن الله تعالى الكونية فى المجتمع الإنسانى ، تلك هى سنة التدافع المركوز فى طبيعة البشر لتنازع البقاء فى الحياة وأن الحروب ضرورة من ضروريات المجتمع البشرى على ظهر الأرض لاختلاف مطالب الأفراد والجماعات واشتباك مصالح الأمم والشعوب ، وما طبعت عليه النفوس من حرص على الاستئثار بالمنافع وهذا واقع يصدقه تاريخ الحياة .

كما يقرر القرآن الكريم بسياق الآيتين وسياقهما أن أهل الإيمان والخير والصلاح يجب عليهم أن ينهضوا لمدافعة أهل الكفر والفسوق والشر والفساد فى الأرض ، ليقللوا من شرورهم ومن فسادهم فى الأرض ليبقى الوجود متوازياً فى القوى ، عامراً بسبب هذا التدافع الذى يداول الله به الأيام بين الناس ، ويتيح لأهل الخير والصلاح البقاء فى نماذج متلاحقة تحقيقاً لسنة الله الكونية فى أن يبقى ربط الحياة بهذا التدافع بين الناس والأشياء .

وفى سياق هاتين الآيتين نجد أن الله تعالى أذن لأهل الإيمان والخير والصلاح بدفع غوائل أهل الكفر والفسوق والشر والفساد ، فآية سورة

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥١ .

(٢) سورة الحج آية ٤٠ .

الحج تجىء عقيب إذن الله تعالى للمظلومين المضطهدين فى قتال الظالمين المستبدين ومدافعتهم بقوة السلاح فقال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »[١] وآية سورة البقرة تجىء عقيب قصة دفع جالوت وجنوده من نماذج الطغيان والظلم بطالوت وجنده من أهل الخير والصلاح .

يقول الإمام الرازى فى تفسيره : اعلم أنه تعالى لما بين أن الفساد الواقع بجالوت وجنوده زال بما كان من طالوت وجنوده ، وبما كان من قتل داود جالوت ، بين عقيب ذلك جملة تشمل كل تفصيل فى هذا الباب وهو أنه تعالى يدفع الناس بعضهم ببعض لكيلا تفسد الأرض (اهـ)

* * *

هذا المنطق فى بيان أسباب الحرب يعالج بيان الأسباب الاجتماعية للحروب التى تنشب بين الأفراد والجماعات والأمم والشعوب بقصد التنافس على احتياز منافع الدنيا والاستئثار بها والتدافع فى سبيلها والتغالب عليها .

وهذه أسباب عامة تتناول الحقوق الاجتماعية للإنسانية كلها فى حياتها الاجتماعية التى تعيش فى ظلها الأمم والشعوب مهما كانت عقائدها وأجناسها وأخلاقها وعاداتها .

وبمقتضى عموم هذه الأسباب يكتسب كل شعب وكل أمة فى موطنه من الأرض حقاً يجب الدفاع عنه حماية لحياة الأمة أو الشعب الذى اكتسب هذا الحق الاجتماعى لأفراده وجماعاته .

والقرآن الكريم إذ يقرر وجوب الدفاع عن هذه الحقوق الاجتماعية لا يقرره على أنه هو الجهاد المشروع لحماية الدعوة إلى الله تعالى ، وإنما يقرره على أنه دفاع عن حق العيش فى الحياة الذى يستحقه كل إنسان بمقتضى

---

(١) سورة الحج آيتا ٣٩ ، ٤٠ .

إنسانيته ، فهو دفع للظلم والاستبداد وحماية لحق الإنسان فى أن يعيش فى مجتمعه آمناً على نفسه وماله وعرضه وحريته .

اما الحروب التى شرعتها الأديان السماوية وجاء بها الإسلام شريعة من شرائعه دفاعاً عن الحق فى تصحيح العقيدة وتثبيتها ، والإيمان بالله ورسالاته ، وتطهيراً للإنسانية من رجس الوثنيات الساخرة بمنطق العقل ، فلها أسباب لا تخضع لمنطق التنافس على منافع الدنيا .

والإسلام يفرق بين حرب أذن فيها لحماية الحقوق الاجتماعية — التى هى حقوق للناس عامة بمقتضى إنسانيتهم ، وهذه الحرب ليست من الجهاد فى سبيل الله وإنما هى حرب مشروعة لحفظ الحق الاجتماعى الذى يشترك فيه الكافر والمؤمن ، والرجل والمرأة ، والقوى والضعيف ، والعاجز والقادر ، والكبير والصغير ، ويدخل تحت هذا الإذن القتال فى سبيل الدفاع عن النفس والمال والعرض . وفيه ورد قول النبى ﷺ : (من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد) ، ويلحق بهذا من قاتل دون حرية وطنه إذا اعتدى عليه معتد .

وكل هذا قتال للدفاع عن الحق الاجتماعى الذى يملكه الإنسان ، كل إنسان بمقتضى إنسانيته .

وكون الظلم وقع فيها على المستضعفين من المؤمنين فى سياق القرآن فأذن لهم بالدفاع عن أنفسهم لا يجعلها حرباً للجهاد فى سبيل الله ولا يخرجها عن حقيقتها الاجتماعية .

وحرب أوجبها وحرض عليها ورغب فى خوضها لحماية الحق الإلهى الذى تعبد الله تعالى به عباده فى معرفته والإيمان به وبرسالاته التى أرسل بها

رسله ، وهذه حرب الجهاد فى سبيل الله التى يكلف القيام بها والإعداد لها الداعون إلى الله من الأنبياء والرسل وأتباعهم من المؤمنين .

فهى حرب دفاعية لرد الاعتداء على الدعوة نفسها بالوقوف فى طريقها لصدها وصد الناس عن النظر فيها والإقبال عليها ، وتعويقها عن سيرها ، واضطهادها وإيذاء الدعاة إليها .

وقد وضع الإسلام لهذه الحرب الدفاعية عن الحق الإلهى وتأمين الدعوة إليه نظاماً خاصاً يصور مقصد الإسلام ، وهدفه من شرعية الجهاد ، ويبين متى يكون القتال جهاداً فى سبيل الله ومتى يكون قتل المسلم فى هذا الجهاد استشهاداً يمنح صاحبه حياة الشهداء وفضلهم وما أعده الله لهم من ثواب لا يشاركهم فيه غيرهم من المؤمنين الصادقين .

هذا النظام هو الذى شرعه الإسلام وسماه جهاداً فى سبيل الله ويسميه دعوة إلى الله ودعوة فى سبيل الله .

ولباب هذه الدعوة وهدفها - الذى لا هدف للإسلام سواه - من تشريع الدفاع عنها لحمايتها وتأمين تبليغها إلى القاصى والدانى ، والأحمر والأسود ، من كل من يمكن أن تبلغه من المكلفين فى أرض الله ، تحقيقاً لعمومها زماناً ومكاناً ومدعواً إليها - هو بذل أقصى ما عند الداعين إلى الله تعالى من طاقة فى القول والعمل لفتح القلوب والعقول للإقبال على هذه الدعوة وتفهمها وقبولها عن إيمان وطواعية واختيار .

ولهذا كانت وسائل تحقيق هذا الهدف متنوعة مختلفة ، وكانت مظاهر الجهاد فى التبليغ متعددة ، وصوره كثيرة متفاوتة فى مراتبها .

ولم يكن مظهر القتال والحرب إلا صورة من صور هذا الجهاد ، وضعها الإسلام فى آخر صوره ومظاهره ، لا يأذن فى مباشرتها لحاملى راية الدعوة

إلى الله إلا تحت ضغط الضرورة القصوى . التى لا تبقى وراءها ضرورة ، حين لا يبقى من القتال محيص ولا من الحرب مفر ، حين تفرض الحرب على الدعاة إلى الله فرضاً لا يجدون عنه مهرباً .

فالإسلام لا يأذن فى القتال فى سبيل الحق الإلهى إلا إذا استنفد دعاته كل ما يستطيعون من وسائل أخرى لتبليغ الدعوة ، وإلا إذا عرضوا جميع ما لديهم من صور الجهاد التى شرعها الإسلام قبل أن يصل الموقف إلى مرحلة القتال ، ونشوب الحرب ، وإلا إذا أصبحوا فى حالة لا يملكون معها الحركة الحرة فى توجيه الدعوة لسيرها فى طريق الأمن والسلام .

وإذا كان الإسلام قد وضع الجهاد بجميع صوره ومظاهره فى إطار تشريعى واحد فإنه قد جعل من هذا الإطار مجمعاً لجميع هذه الصور المتنوعة والوسائل المختلفة ورتبها ترتيباً جعل القتال أبعدها وقوعاً .

وإنما برزت صورة القتال فى إطار الجهاد أكثر من بروز غيرها من الصور والمظاهر لأنها الصورة التى أكسبتها قسوة المقاومة للدعوة ، وشدة كلب المعتدين على الداعين إلى الله مظهر الغلبة على سائر صور الجهاد ووسائله ، فطغت على سطح الإطار التشريعى بقسوتها وضراوتها ، فكانت هى صورة الجهاد عند النظرة السطحية العابرة .

ومهما يكن فإن الإسلام قد أحاط هذه الصورة من صور الجهاد بسياج من التشريع جعلها كعلاج الأمراض المستعصية التى تصيب الإنسان ، فيستفحل أمرها ، ويستشرى شرها حتى يخشى منها على الجسم — إذ لم يوقف سريانها — أن تفسده إفساداً لا يمكن تداركه وتلافيه إلا ببتر العضو المصاب ، حماية لسائر الأعضاء من تطرق الفساد ، وإبقاء على حياتها وسلامتها .

ومن ثم نجد أن المصدرين الأصيلين للتشريع الإسلامي: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد اتخذا من لفظ (الجهاد) دعامة للدعوة إلى سبيل الله، فدارت عليها الآيات والأحاديث التي وردت في الحض على تبليغ الدعوة بعرضها عرضاً واضحاً شافياً ، وحمايتها من الاعتداء عليها والدفاع عنها باللسان والقلم .

أما إذا اتخذ هذا الاعتداء على الدعوة صورة الاعتداء المادي المسلح للقضاء عليها أو تعويق سيرها بوضع العقبات في سبيلها، أو الإساءة المادية إلى حملة لوائها وناشري رايتها ، فإنه يكون من الضروري حينئذ الانتهاض إلى رد هذا العدوان بسلاحه المادي وهنا تقع الحرب وينشب القتال بين أشياع الباطل المعتدين ، وجند الحق المدافعين .

بيد أن هذا الدفاع ليس من قبيل الدفاع المادي عن الحق الاجتماعي، ذلك الدفاع الذي يرتبط بحماية الإنسان في حياته الاجتماعية ، وعيشه في المجتمع الذي يحيا بين جنباته وإنما هو دفاع عن الحق الإلهي، وحماية الدعوة إلى الله التي كلف الدفاع عنها الأنبياء والمرسلون وأتباعهم ممن يحملون معهم لواء الدعوة إلى هذا الحق حتى تتحرر الإنسانية من رق الوثنية على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وحتى يأمن الناس على عقائدهم الإيمانية ويكون الدين كله لله .

وقد تميز هذا النوع من الجهاد — في تشريع الإسلام — بأنه — إلى جانب كونه ضرورة دفاعية ، يجب أن يكون متمحضاً لله تعالى — فلا تقبل فيه شائبة من الشوائب التي تتعلق بمنافع الدنيا والتنافس على مصالحها المعاشية أو الاجتماعية ، وأنه يجب أن يقف عند انتهاء أسبابه الموجبة

له ، إما بقبول الدعوة والدخول فى الإسلام إيماناً به واختياراً له ، وإما بضمان مصالحة وأمان يفرضه عهد موثق ، يستوجب عدم الوقوف فى طريق الدعوة ، وعدم الاعتداء عليها ، وعلى القائمين بها والداعين إليها ، وقد بينت السنة النبوية ذلك فى أحاديث كثيرة ، نورد منها ما يكفى لإقناع من يطلب الحق فى مظانه .

١ — روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (مثل المجاهد فى سبيل الله — والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله كمثل الصائم القائم ، وتوكل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالماً مع أجر وغنيمة) .

وقول النبى ﷺ فى هذا الحديث : (والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله) نص فى اشتراط خلوص النية لاعتبار الجهاد جهاد فى سبيل الله ، وأن هذه المنزلة لا ينالها كل من أبلى فى القتال ، ونال من العدو أكثر مما نال منه غيره وإنما هى منزلة لمن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الله هى حقه فى أن لا يعبد معه شىء من الأشياء ، وهذا هو معنى الحديث المتفق على صحته فى قوله صلى الله عليه وسلم : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) .

٢ — روى الإمام أحمد فى مسنده والنسائى فى سننه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فيما يحكيه عن رب العزة جل اسمه : (أيما عبد من عبادى خرج مجاهداً فى سبيلى ابتغاء مرضاتى ضمنت له إن رجعته أن أرجعه بما أصاب من أجر وغنيمة) .

٣ — فى حديث أبى موسى عند البخارى أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل

للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله من هؤلاء ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله) .

٤ — روى الإمام مالك فى الموطأ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (والذى نفسى بيده لا يكلم أحد فى سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم فى سبيله - إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دماً ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك) .

٥ — روى أبو داود والنسائى فى سننهما عن أبى أمامة قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله ، أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ قال النبى ﷺ : (لا شىء له) ثم قال رسول الله ﷺ : (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه) .

٦ — وفى موطأ الإمام مالك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كرم المؤمن تقواه ، ودينه حسبه ، ومروءته خلقه ، والجرأة والجبن غرائز يضعها الله حيث يشاء ، فالجبان يفر عن أمه وأبيه . والجرىء يقاتل عمن لا يؤوب إلى رحله ، والقتل حتف من الحتوف والشهيد من احتسب نفسه على الله عز وجل .

٧ — وفى حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه يوم فتح خيبر أن النبى ﷺ قال له : (لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم) .

وبهذا التصوير لإخلاص العمل لله تعالى كان الدفاع عن الحق الإلهى هو الجهاد المشروع فى الإسلام .

وبهذا الإخلاص كان هذا الجهاد خصيصة المؤمنين التى ميزهم الله تعالى بها ، وأثنى عليهم بوصفها فقال تعالى مادحاً لهم : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله »(١) وجاء فى الآية نفسها فى مقابل هـــذه الصفة خصيصة الـكافرين الذين استعبدهم الشيطان فقاتلوا فى سبيله أولياء الله ودعاة الحق الإلهى ، فقال تعالى : « والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت »(١).

ثم حرض تعالى المؤمنين وأغراهم بمحاربة أعداء الحق الإلهى وأولياء الشيطان مبيناً لهم أن كيد الشيطان كان ضعيفاً ، فلا يهولنكم انتفاخ سحره ، ولا تخيفنكم كثرة جنده ومظاهر عتاده وعدته ، فإنه لا يلبث أن ينهار ، ويتهاوى ذليلا مهيناً ، قال الله تبارك وتعالى : « فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً »(١).

وتتجلى مهانة الطاغوت وذلته حين يتخلى عن أوليائه فى أحرج مواقفهم ، ويتبرأ ممن خدعهم واستغواهم كما قال تعالى : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لـكم اليوم من الناس وإنى جار لـكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب »(٢) .

ولم يقف أمره مع أوليائه أعداء الحق الإلهى عند تبرئه منهم وتركهم هملا أذلاء ناكسى رؤوسهم أمام قوة الإيمان القاهرة ، يلقون من عذاب الله وهوانه ما كان سبباً لهـم فيه بخداعه لهم ، ولـكنه يراجع أمره معهم ساخراً منهم سخرية العاجز المستكبر الذى اتبعه فى ضلالته من يعيشون

---

(١) سورة النساء آية ٧٦ .

(١) سورة الأنفال آية ٤٨ .

بطونهم ، ويحيون لبطونهم كسائمة الأنعام من ضعفاء العقول الذين وصفهم القرآن بقوله : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم »(١) .

وقد صور القرآن الكريم هذا الموقف من سخرية الشيطان بأوليائه الذين اتبعوه وأطاعوا أمره فقال الله عز شأنه : «وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم »(٢) .

* * *

والدعوة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ مرت فى مرحلتين متميزتين ، كان لكل مرحلة منهما خصائصها الطبيعية ومميزاتها التاريخية وأحداثها الواقعية .

---

(١) سورة محمد آية ١٢ .

(٢) سورة إبراهيم آية ٢٢ .

مَراحِلُ الدعوةِ الإسلاميّة

المرحلة الأولى

هذه المرحلة هى مرحلة تأسيس الدعوة وإقامة دعائمها الأصيلة على أساس من الحجة المشرقة والبرهان المنير ، وهى المرحلة المكية التى عاشتها الدعوة مع رسول الله ﷺ والقلة التى آمنت بها فى مكة ، بلد البعث وابتداء الرسالة .

وقد مكث النبى ﷺ فى هذه المرحلة المكية ثلاث عشرة سنة ، يدعو إلى الله تعالى مبلغاً رسالته ، ينزل فيها عليه القرآن آيات وسوراً بياناً وتحقيقاً لأهداف الرسالة وأصولها ، وهذه الأهداف والأصول هى :

أولا : بيان العقيدة الصحيحة وبسط حجتها وإقامة البراهين الصادقة على وحدانية الله تعالى ، وباهر قدرته، ومطلق مشيئته، وبالغ حكمته، ومحكم تدبيره وإحاطة علمه ، وسائر ماتقتضيه الألوهية من نعوت العز وصفات الكمال .

ثانياً : تهجين الوثنية التى جعلت من العقل الإنسانى سخرية مضحكة ، وأضحوكة ساخرة وهدم بنيانها الذى شيدته البلاهة الذليلة ، وبلادة الحس الجهول ، وفقدان الشعور بالكرامة الإنسانية ، والإزراء على الذين اتخذوا هذه الوثنية المهينة للعقل دينا ، يعبدون فى ظلها أصناماً وأوثاناً نحتوها بأزاميلهم، ونصبوها للعبادة بأيديهم ، أو حيوانا يقودونه بزمامه ، يطعمونه من حشائش الأرض ، فيطعم ، ويسقونه من مائها فيشرب ، وإن منعوه طعامه أو شرابه هلك أو جمح ، أو يعبدون كائناً أرضياً من شجر أو غيره، أو سماوياً من شمس أو قمر أو نجم من كل مخلوق لاينفع ولا يضر ،

أو إنسان متجبر فى عتو وبغى أودجال ماكر ، هـذا يخدعهم ويسخر من عقولهم وذاك يسيمهم سوءالعذاب، فيذلون له ،ويركعون بين يديه ويسجدون تحت قدميه .

ثالثاً : تحرير العقل الإنسانى من أغلال الجمود الأبله ، وربقة التقليد البليد ، بالعكوف على ما كان يعبد آباؤهم من قبل ، ولوكان آباؤهم لا يعقلون شيئاً من أمور الحياة وتقلباتها وراء حظ بطونهم ومطالب شهواتهم الدنيا ، ولا يهتدون إلى مايجب أن يكون عليه الإنسان من الكرامة التى خصه الله بها ليـكون خليفته فى الأرض ، يقيم عليها دعائم الحق وموازين العدل ، بما أتاح له من النظر فى ملكوته وآياته الكونية ليعتبر بها، ويهتدى بالتأمل فى إحكام تدبيرها إلى الإيمان بالله تعالى إيماناً يقوم على أسس اليقين العقلى ، والشعور الوجدانى وبداهة الحس .

والناظر فى هذه الآيات والسور المكية التى نزلت فى هذه المرحلة من عهد الرسالة الخاتمة يستشعر — إلى جانب تميزها بفكرتها الأصيلة التى تدور حول هذه الأهداف ومايتصل بها من إثبات البعث واليوم الآخر ، وما يجرى فيه من قضاء ، ومجازاة على ماقدم المكلفون فى حياتهم الأولى من عمل ، وما انتهى إليه العاملون من مستقر فى إحدى دارى الجزاء ، حسبما يقضى به الله رب العالمين — قوة آمرة فى أسلوب أداء هذه الحقائق ، ورهبة زاجرة فى التعبير عنها ، وتنوعاً فى طرائق الأداء فمن إخبار بقضية عقدية يتبعه الدليل والبرهان، إلى تمثيل للغائب بالحاضر المشهود أو تصوير للمعنويات فى صورة المحسوسات ، أوجدل يدفع الشبهة بالحجة ، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، أو قصص يصور ماحاق بالمكذبين ، من أخذ الله وبطشه ، أو يساق للتأسى بعزائم الصابرين من الأنبياء والمرسلين .

وقد نزل فى هذه المرحلة من النمط أكثر سور القرآن عدداً ، فالقرآن كله أربعة عشر ومائة سورة نزلت منها فى هذه المرحلة المكية خمس وثمانون سورة ، منها عشر فى نصفه الأول ، وسائرها فى نصفه الثانى .

ولا يحتاج الناظر إلى كبير معاناة فى وقوفه على نماذج لأهداف الرسالة من آيات وسور القرآن التى نزلت فى هذه المرحلة ، فليس إلا فتح المصحف الشريف ومعرفة السور النازلة فى هذه المرحلة بما نص عليه أئمـــة القرءة وحفاظ القرآن فإذا هو واجد فى أية سورة منها خصائصها مبثوثة فيها .

ونحن إذ نسوق بعض النماذج من آيات سور هذه المرحلة إنما نقصد إلى ضرب المثل ، لأن الاستيعاب والاستقصاء يقتضى نقل جميـع سور هذه المرحلة المكية ، لأنه مامن سورة منها إلا وفى آياتها حـديث عن هدف أو أكثر من أهداف ، الرسالة فى هذه المرحلة .

قال الله تعالى مبيناً وحدة الله ، وانفراده بالإلهية ذاكراً برهانها القطعى الذى لا يرد ، ناعياً على الذين يعدلون بربهم آلهة من دونه ، لا يستطيعون إماتة أحد ولا إحياء أحد .

والإماتة بمعنى خلق الموت ، والإحياء بمعنى خلق الحياة فى الموات من أخص خصائص الإلهية ولهذا كانا حجة خليل الله إبراهيم عليه السلام فى محاجته متجبر قومه كما ساقها الله إخباراً لنبيه محمد ﷺ فى قوله : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت »(١) فلما لم يفقه المتجبر شأن الإلهيـة فى الإحيـاء والإماتة فقال عناداً : أنا أحيى وأميت ، رده الخليل إلى البرهان القاهر بمـا فيه من مناط الاستدلال بهما ، وهو الخلق والإيجاد .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٨ .

ثم اتبع القرآن الكريم برهان الوحدانية بذكر لازم من لوازمها وهو إطلاق المشيئة الإلهية ، وقهر ماعداها من الإرادات المسيرة بإرادة الإله الواحدالأحد، فليس لموجود سلطان بإرادته ، ومشيئته مع إرادة الله تعالى . ومشيئته كما قال تعالى : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » [1] فسلطان الإلهية لله رب كل شيء مبسوط على جميع من فى الكون ، ومافى الكون ، فلا يقال لفعل من أفعاله (لم) وهو يقول لخلقه لم فعلتم ؟ ولم تركتم « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لايسأل عما يفعل وهم يسألون) [2] .

ومن هذا النمط فى أسلوب قريب قوله عز شأنه: « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » [3] .

فالآية سيقت لتشديد بناء العقيدة فى وحدانية الله تعالى واستئصال شأفة الإشراك على آية صورة كان من صوره ، والقول بنسبة الولد لله — تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً — ، من أعظم أنواع الإشراك بالله تعالى ، واتخاذ شركاء يعبدون من دون الله ضلال بين وجهل بشأن الإلهية كما أوضحته الآية الكريمة بطريق المنطق البرهانى الذى جرت عليه الآية السابقة فى أسلوبها ، وجاءت خاتمةهذه الآيةمتساوقة مع خاتمة الآية السابقة تحقيقاً لوحدة الهدف الذى سيقتا من أجله .

---

(١) (آخر سورة التكوير) .

(٢) سورة الأنبياء آيات ٢١، ٢٢، ٢٣ .

(٣) سورة المؤمنون آية ٩١

وقال تبارك وتعالى : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »(١) .

وفى هذه الآيات من مظاهر القدرة الإلهية وإبداعها ما يدل بأدنى تأمل على انفراد الله تعالى بالخلق والإيجاد ، وأنه فى إبداعه لما يبدعه مما ساقه فى الآيات برهان قاطع على باهر قدرته وكمال وحدانيته وبالغ حكمته .

وقال عز اسمه من نحو هذا النمط : « أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون . أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ما تذكرون . أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، أءله مع الله تعالى الله عما يشركون .

---

(١) سورة الرعد آيات (٢، ٣، ٤).

أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أءله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »(١) .

وقد سبقت هذه الآيات بأسلوب الاستفهام الإخبارى لبيان أن ما ذكرته من آيات الله الكونية إنما هى نعم من الله على عباده يحيون بها ويشاهدونها ، ويشاهدون آثارها وأنها فى وضوح دلالتها على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته ما كان ينبغى أن تشوب دلالتها شائبة إنكار فكأنها مسلمة معروفة لدى المخاطبين لا تحتاج إلا إلى تنبيه العقل وإيقاظه من غفوته لينظر ويتأمل فإذا هو أسير الإيمان بها والإذعان لبرهانها .

وقال جل شأنه فى بيان إحاطة علمه : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين »(٢) .

وقال جل وعز : « وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين »(٣) .

وقال سبحانه : « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور . وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين »(٤)

---

(١) سورة النمل آيات (٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤) .

(٢) سورة الأنعام آية ٥٩ .

(٣) سورة يونس آية ٦١ .

(٤) سورة سبأ آيتا ٢ ، ٣ .

ومن لطائف القرآن الحكيم فى هذا النمط — إلى جانب تقاربه فى الأسلوب — ما نراه من اتحاد الفاصلة فى المواضع الثلاثة التى سبقت لبيان إحاطة علم الله تعالى بكل شىء ، وهذا مما لا تكاد العقول تحيط بإدراك سره وحكمته ، ولكن ذلك لا يمنع المؤمن بجلال هذا الكتاب الكريم من التأمل وتسريح نظر الفكر فى رياضه ، فلعل الله تعالى يفتح باب الفهم لبعض ما أودع الله فى كتابه الحكيم من الحكم والأسرار .

وعلى هذا قد يبدو للباحث أن وحدة هذه الفاصلة فى مقامها تفيد أن علم الله ثابت لا يدخله التغيير والتبديل والمحو والإثبات ، وإنما هو انكشاف محيط يتجلى به كل شىء لله تعالى على وجهه الذى هو عليه فى جملته وتفصيله وعبر عن ذلك بما تدركه العقول بتسجيل معلوم الله فى كتاب مبين ، وليس إلا علمه المحيط .

وقال تعالى فى إثبات البعث واليوم الآخر : «يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور»(١)

وهذا استدلال قطعى لا تعوزه أقيسة المنطق وتعقيد الفلسفة لأنه قائم على مقدمات تؤمن بها الفطرة السليمة ، فالذى خلق الإنسان خلقاً بعد خلق

(١) سورة الحج آيات ٥ ، ٦ ، ٧ .

وصوره طوراً بعد طور بدأ خلقه من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم سواه جنيناً يتحرك فى قرار مكين ، ثم أخرجه من ظلمة الأرحام إلى ضياء الدنيا طفلا يتنسم أنسام الحياة ، ثم جعله شاباً قوياً ، تعهده ورباه حتى جعله إنساناً كاملا فى خلقته ، يعمر منه من يعمر حتى يبلغ أرذل العمر ، فيرتد عقله وتصوراته وعواطفه ومشاعره إلى خاق الطفولية ويجهل بعد علم،ويضعف بعد قوة ، فمن كانت هذه قدرته فى نشأتك الأولى — أيها الإنسان — لا يعجزه إحياؤك بعد إماتتك وإعادتك بعد فنائك ليوفيك جزاء عملك ، لأنه القادر على كل شىء وهو الخلاق العظيم .

ثم يتبع القرآن الكريم هذا الاستدلال بلون آخر من الاستدلال العلمى على وقوع البعث ليكون لكل ذى نظر من الأنظار المختلفة حظه من طرائق الاستدلال القرآنى . أداء لحق عموم الرسالة وخلودها فقال تعالى : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » فهمود الأرض بيبسها وإقفارها من النبات بمنزلة المــوت للأحياء واهتزازها بتحرك موادها وتفاعلاتها وربوها بارتفاع قشرتها إذا أنزل الله عليها الماء إيذان بحلول الحياة والتوالد فيها ، وهو بمنزلة الحياة تسرى فى الموات فيشرق ويتبلج بالبهجة والنضرة وجمال المنظر .

وفى تعبير القرآن الكريم عن الحالة الأولى بالهمود ، وعن الحالة الثانية بالاهتزاز والربو إعجاز لا يعرف فى كلام سـوى القرآن الكريم ، وهو إعجاز عجيب لأنه واقع فى اللفظة المفردة ، تحمل صورة كاملة الأوضاع ، لو أريد التعبير عنها فى أسلوب بشرى لتطلبت جملا كثيرة .

ولما استوى الاستدلال على وقـوع البعث بشقيه التطورى فى خلق الإنسان والنبات بما لا يدع مجالا للتوقف فى قبول النتيجة جاءت تلك النتيجة

فى صراحة ظافرة كأمر حتمى لا يسع العقول السليمة إنكاره بعد استقامة مقدماته ووضوحها (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) .

والإشارة التى بدأت بها هذه النتيجة الحتمية تعود إلى ما تقدم من أطوار الخلق فى الحيوان والجماد والنبات وكأن الآيات تقول : كان الأمر على وصفنا من الأطوار فى الخلق لأن الله تعالى الذى أحدث بقدرته هذه الأطوار هو وحده الحق الثابت وجوده فلا يتغير، لأن وجوده بذاته لذاته، ولا يكون وجود لغيره إلا مستمداً من وجوده ومن فيض جوده .

ولما كان هذا الأصل فى الإيمان هو الدعامة الأولى فى المقصود من براهين القرآن الكريم أتبعه فى الذكر بما يتبعه فى الوجود ، وهو خلق الحياة فى الموات ، ثم ختمت الآيات بذكر ما ارتاب فيه المشركون فى أسلوب مؤكد يبين أن الناس يبعثون من قبورهم أحياء كأكمل ما تكون الحياة ليلقى كل عامل جزاء عمله .

وقد جاء هذا النمط فى إثبات البعث فى قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون »(١) .

ومن أروع ما جاء فى إثبات البعث وأقربه إلى الحس المعتدل قوله تعالى : « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب

---

(١) سورة المؤمنون آيات ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦ .

لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم »[١] .

وقال تعالى فى الإزراء بالتقليد فى العقيدة وبالمقلدين فيها : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون . ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون »[٢] .

وقال عز شأنه : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير »[٣] .

وهذا كقول من سلف من الأمم الخالية الذين قالوا لرسولهم منكرين عليه دعوتهم إلى الإيمان بالله وتوحيده : «أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا»[٤] وقول آخرين قالوا مثل قولهم: « قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا »[٥] .

وقال جل ثناؤه فى تسفيه أحلام المشركين : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيدٍ يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها »[٦] .

---

(١) سورة يس آيات : ٧٧، ٧٨، ٧٩ .
(٢) سورة البقرة آيتا ١٧٠، ١٧١ .
(٣) سورة لقمان آية ٢١ .
(٤) سورة هود آية ٦٢ .
(٥) سورة الأعراف آية ٧٠ .
(٦) الأعراف آيتا ١٩٤، ١٩٥ .

وقال عز اسمه : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون »[1] .

ومن قبيل الإزراء والسخرية بعقول المشركين قول الله تعالى : « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب »[2] .

وهذا قليل من كثير ، وهو — كما قلنا — من قبل ذكر النماذج والأمثال وجميع سور هذه المرحلة المكية كانت آياتها فى تصحيح العقيدة وتثبيتها ، وإبطال الشرك والوثنية وفى قصص الماضين لما فيها من الزجر للمنذرين والتأسى بالمنذرين ، ولم ينزل فيها شىء من العبادات سوى الصلاة ، لما فيها من مظهر العبودية الخالص لله تعالى ، فهى صورة تطبيقية للعقيدة الصحيحة وعنوان على الإيمان ، كما لم ينزل فى هذه المرحلة المكية شىء من أحكام المعاملات والحدود والنظم الاجتماعية وسياسة الدولة فى السلم والحرب .

وكان من الطبيعى أن يثور طغاة الشرك وغطارفة الوثنية ، وعتاة الظلم والاستبداد على هذه الدعوة الجديدة التى جاءت لتهدم بنيان شركهم ، وتغمز قناة عنجهيتهم ، وتكسر شرة طغيانهم ، وتخضد شوكتهم ، وتقضى على وثنيتهم ، وتقيم منار العدل والحق على دعائم التوحيد ، وإخلاص العبادة لله وحده ، وتحرر المستضعفين فى الأرض من رق المستكبرين وتوقظ العقل من سباته لينهض بالحياة على أسس العلم والمعرفة ، وتؤسس نظاماً اجتماعياً يقضى على

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٩ .
(٢) الحج آية ٧٣ .

فوضى القبلية وسلطان الفرد ، وتحكم الأقوياء ، واستعباد الأمم والشعوب بالوراثة الملوكية ،أو بضغط الفقر وحب العيش ، وتنادى بالمساواة والعدالة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وتجعل من القيم الروحية والأدبية فيصلا بين الفضائل والرذائل،ومن مكارم الأخلاق موازين لتقدير الحياة مما أحفظ الطغاة ، وملأ صدورهم غيظاً ، وقلوبهم حقداً وعقولهم كفراً واستنطق ألسنتهم نكراً ، وتألبوا على الدعوة وداعيها ، وانتهضوا مشمرين لمقاومتها بكل ما أوتوا من قسوة وجور .

صبر رسول الله وأصحابه على أذى المشركين

نزل الوحى على رسول الله ﷺ وأمره ربه بالتبليغ والإنذار ، فقام وحيداً يدعو إلى الله وأنذر قومه ، واستسر بدعوته حتى يوطدها ويجمع حولها من يؤمن بها ، فما آمن معه إلا قليل .

وتعرض رسول الله ﷺ لأشد أنواع الأذى، وأقسى ألوان الإساءة والضرر وتعرض معه من آمن به وبدعوته من الأفراد القلائل لشآبيب الظلم والطغيان تصب عليهم صباً وهم صابرون محتسبون ، وهانت عليهم أنفسهم فى سبيل الله ، وأمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يصدع بدعوته وأن يعلن بالتبليغ ، وأن يعرض عن جبابرة الشرك والضلال ، فلا يبالى بطغيانهم ولا بما يلاحقونه به من صنوف الإيذاء ، فقال له عز شأنه : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » (١) .

ولما أعلن دعوته ﷺ ، وجابه المشركين بها فى أنديتهم ومحافلهم اشتدوا عليه وكانوا يستهزءون به ، ويترصدون له فى منافذ الطرقات ، حتى

---

(١) سورة الحجر آية ٩٤ .

إذا خرج إلى مضارب القبائل فى المواسم والأسواق وأطراف مكة وما جاورها من أحياء العرب ، ليبلغ الناس دعوة ربه ، وقفوا يصدونهم عن الاستماع إليه ، ويمنعونهم من الإيمان بدعوته ، يقولون: هو ساحر هو كاهن هو شاعر مجنون ، هو كاذب فلا تصدقوه ، ومدوا أيديهم إليه بالسوء وعالنوه بهجر القول وبذىء الكلم ، واساءوا جواره فقد كان منزله ﷺ بين منزلى أشق أعدائه وشانئيه ، أبى لهب بن عبد المطلب أحد أعمامه ، وعقبة بن أبى معيط ، فكان ﷺ إذا رجع إلى بيته وجـــد على بابه الدماء وأفراث الحيوان والقاذورات ، فينحيها ويقول (بئس الجوار هذا يا معشر قريش) .

وكانت العوراء أروى بنت حرب زوجة عمه أبى لهب وأخت أبى سفيان ابن حرب تشتط فى إيذاء رسول الله ﷺ ، وتضع فى طريقه الأشواك والمؤذيات ، وتسبه بقبيح القول وبذىء الألفاظ ، وفيها وفى زوجها نزلت سورة : « تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد »(١)

روى البزار فى مسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أنزلت « تبت يدا أبى لهب وتب » جاءت امرأة أبى لهب ورسول الله ﷺ جالس ومعه أبو بكر ، فقال أبو بكر لو تنحيت لا تؤذيك بشىء ؟ فقال رسول ﷺ : (إنه سيحال بينى وبينها) ، فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر : فقالت يا أبا بكر : هجانا صاحبك ، فقال أبو بكر : لا ورب هـذه البنية ، وما ينطق بالشعر ولا يتفوه به ، فقالت: إنك لمصدق، فلما ولت قال أبو بكر: ما رأتك قال : (لا ، مازال ملك يسترنى حتى ولت) .

وكان أبو لهب شديد البغضة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والازدراء

---

(١) سورة المسد .

له ، والتنقيص له ولدينه ، يتفنن فى إيصال الأذى إليه . ففى مسند الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد الديلى قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى سوق ذى المجاز وهو يقول : (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ، ذو غديرتين ، يقول إنه صابىء كاذب ، يتبعه حيث ذهب فسألت عنه فقالوا : عمه أبو لهب .

وأخرج الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال قال: رسول الله عليه وسلم: (لقد أوذيت فى الله ، وما يؤذى أحد وأخفت فى الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال ما يأكله ذو كبد إلا ما يوارى إبط بلال) .

وعند الطبرانى عن منبت الأزدى قال . رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول : (يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا) فمنهم من . . . فى وجهه ومنهم من حثا عليه التراب ، ومنهم من سبه حتى انتصف النهار .

وروى أبو يعلى — وأصله فى البخارى — عن عروة بن الزبير عن عمرو بن العاص قال : سئلت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما : ما أشد ما رأيت المشركين بلغوا من رسول ﷺ ؟ فقالت : كان المشركون قعوداً فى المسجد يتذاكرون رسول الله ﷺ ، وما يقول فى آلهتهم ، فبينما هم كذلك إذ أقبل رسول الله ﷺ فقاموا إليه بأجمعهم فأتى الصريخ إلى أبى بكر رضى الله عنه ، فقالوا : أدرك صاحبك ، فخرج من عندنا وإن له لغدائر أربعاً وهو يقول : ويلكم : « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » فلهوا عن رسول الله ﷺ ، وأقبلوا على أبى بكر رضى الله عنه فرجع إلينا أبو بكر ، فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه ، وهو يقول : تباركت ياذا الجلال والإكرام .

ومن أبشع حوادث الإيذاء التى لقيها رسول الله ﷺ وقابلها بأجمل الصبر والرحمة وأبلغ العفو والصفح ، وأصدق الدعاء واللجأ إلى الله،موقف ثقيف بالطائف حينما ذهب إليهم رجاء أن يؤوه بعد أن استشرى إيذاء قومه له ، وتفاقم صدهم عن الدعوة . روى البخارى ومسلم عن عروة أن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنهما حدثته قالت : قلت للنبى ﷺ ، هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : «لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فنادانى فقال:إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم على ، ثم قال : يا محمد : ما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ؟ قال النبى ﷺ : « بل أرجو أن يخرج الله عز وجـــل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل ، لا يشرك به شيئاً » .

وأخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة بأتم وأبسط من رواية الشيخين،قال عروة : ومات أبو طالب وازداد البلاء على رسول الله ﷺ شدة ، فعمد إلى ثقيف يرجو أن يؤوه وينصروه فوجد ثلاثة منهم سادة ثقيف ، وهم إخوة عبدياليل بن عمرو ، وخبيب بن عمرو ، ومسعود بن عمرو فعرض عليهم نفسه ، وشكا إليهم البلاء وما انتهك قومه منه ، فردوا عليه أقبح رد وأفشوا أمره فى ثقيف حتى اجتمعوا له يستهزئون به ، وقعدوا له صفين على طريقه ، فأخذوا بأيديهم الحجارة فجعل رسول الله ﷺ لا يرفع رجله

ولا يضعها إلا رضخوها بالحجارة وهم فى ذلك يستهزئون ويسخرون ، فلما خلص من صفيهم وقدماه تسيلان دماً عمد إلى حائط من كرومهم فأتى ظل حبلة من الكرم فجلس فى أصلها مكروباً موجعاً ، تسيل قدماه الدماء .

وفى هذه الحادثة روى بن كثير عن محمد بن إسحاق قال : أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة ابن ربيعة، ورجع عنه سفهاء ثقيف فعمد إلى ظل حبلة من عنب فجلس فيه، فلما اطمأن قال : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ، لا حول ولا قوة إلا بك) .

هذه بعض نماذج ومثل مما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدة مقامه بمكة وهى قليل من كثير ملأت أسفار السيرة النبوية ودواوين الحديث وكتب التاريخ .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما اشتد عليه البلاء وازداد المشركون قسوة فى أذيته إزداد لهم رحمة وشفقة ، وتسامى بصبره واحتماله إلى آفاق ماجبله الله عليه من أكرم النحائز، وأشرف الطبائع ، وأرق التسامح وأسمح الصفح ، وأجمل العفو ، تحقيقاً لقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »(١) وقوله صلى الله عليه وسلم : (إنما أنا رحمة مهداة) . فلم يثنه ما لقى من أشد ألوان الأذى عن المضى قدماً فى ثبات ورسوخ قدم وقوة

---

(١) سورة الانبياء آية ١٠٧ .

وعزيمة لتبليغ رسالة ربه ، بل إن ذلك الإيذاء كان يزيده قوة تصميم وشدة حرص على المضى فى التبليغ لإخراج الناس من ظلمات الشرك والجهل إلى نور الإيمان والعلم ، حتى أنزل الله عليه تلطفاً به وإشفاقا عليه وتسلية له قوله عز شأنه : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً »[1] وقوله جل ذكره : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين »[2].

أخرج الطبرانى وأبو يعلى عن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه قال : جاءت قريش إلى أبى طالب فقالوا له : يا أبا طالب : إن ابن أخيك يأتينا فى أفنيتنا وفى نادينا فيسمعنا ما يؤذينا به ، فإن رأيت أن تكفه عنا فافعل، فقال لى : يا عقيل التمس لى ابن عمك فأخرجته من كبس — بيت صغير — من أكباس أبى طالب ، فأقبل يمشى معى يطلب الفىء يمشى فيه فلا يقدر عليه حتى انتهى إلى أبى طالب ، فقال له أبو طالب : يا بن أخى والله ما علمت إن كنت لى لمطيعاً ، وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم فى كعبتهم وفى ناديهم تسمعهم ما يؤذيهم ، فإن رأيت أن تكف عنهم ؟ فحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ببصره إلى السماء ، فقال : (والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار) فقال أبو طالب : والله ما كذب ابن أخى قط ؟ ارجعوا راشدين .

وأخرج البيهقى فى الدلائل هذه القصة وفيها أن عمه قال له ، فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق أنا ولا أنت فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك ، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قد بدا لعمه فيه ، وأنه خاذله ومسلمه ، وضعف عن القيام معه فقال له رسول الله

---

(١) سورة الكهف آية ٦ .

(٢) سورة الشعراء آية ٢.

ﷺ : (يا عم لو وضعت الشمس فى يمينى والقمـــر فى يسارى ماتركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فى طلبه) .

صبر طلائع الايمان من السابقين

أما السابقون الأولون من طلائع الإيمان الذين أقبلوا على دعوة الإسلام فى غمرات المحن والبلايا فاهتدوا بهديهـا ، فقد عذبوا عذاباً يذيب الصخر ويفتت شوامخ الجبال الراسيات .

يقـول سعيد بن جبير كما يرويه ابن سعد فى الطبقات : قلت لابن عباس رضى الله عنهما : أ كان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العـذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم ؟ قال نعم : والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه . ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضر الذى به حتى يعطيهـم ما سألوه من الفتنة .

واستقصاء الحوادث التى امتحن فيها السابقون الأولون من أصحاب رسول الله ﷺ والتى قاسوا فيها شـدة البلاء وصنوف الإيذاء يطول ولا يحصى .

كما أن الشخصيات التى توجهـا الله بتـاج العزائم المعجزة من هؤلاء السابقـين الذين كانوا طلائع الإيمـان بدعوة الإسلام ، والذين كانت سياط العذاب تلهب جسومهم فتزيد أرواحهم إشراقاً وقلوبهم ضياء ، وعقولهم نوراً ، لا تعد ولا تستقصى .

وإنمـا نضرب المثل ، ونسوق الشاهد ليتبين أن المرحلة المـكية من

مرحلتى الدعوة فى عهد رسول الله ﷺ — وهى أطول زمناً — كانت مرحلة امتحان وتمحيص ، وبلاء وشدة ، وتعذيب ، ثبت الله فيها أفئدة القلة الصادقة فى إيمانها بالقول الثابت ، وكان الجهاد الإسلامى فيها جهاد عزائم صابرة مصابرة ، أمام اعتداءات ظالمة فاجرة .

ابو بكر الصديق

أبو بكر الصديق أول الناس إجابة لدعوة الإسلام ، دعاه رسول الله ﷺ أول من دعا فى أول لقاء له به بعد أول لقاء لملك الوحى ، فأجاب ولم يسأل ، وأقبل بروحه وقلبه وعقله ولم يتلجلج فهو أسبق السابقين وطليعة المؤمنين وأصدق الصديقين، ثانى اثنين فى الإيمان ، بل ثانى اثنين فى الإسلام وثانى اثنين فى الغار ، بشهادة القرآن ، وثانى اثنين فى تثبيت رسن الإيمان فى غارب الإسلام يوم ارتدت العرب قاطبة . ولم يبق على الإيمان إلا قلة من الراسخين الأولين .

خلقه الله على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنحه من خلائقه معالم المكارم الإنسانية ، فكان على قدمه متحققاً بمحض شمائله جبلة وفطرة ، يصل الرحم ، ويقرى الضيف ويكسب المعدوم ويعين على نوائب الحق .

كذلك وصفه من عرفه اختباراً وتعرفاً ، ولم يكن واصفه بمعرفة النبى ﷺ مشرفا روى البخارى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين .

ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفى النهار بكرة وعشية ،فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى

إذا بلغ برك الغماد لقيه بن الدغنة ، وهو سيد القارة ، فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش : فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ، ولا يخرج أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة .

وكانت أعقل نساء العالمين وأم سيدة نساء العالمين السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها قد وصفت رسول الله ﷺ حين جاءها يرجف فؤاده بعد لقيا الملك في الغار بهذه الخلال ، تثبته بها على أمره ، وتبشره بأن الله تعالى الذي اجتباه لأعظم رسالاته لن يخزيه أبداً .

لأنه عز شأنه خلقه من معدن الخير والنور ، وسيؤيده حتى يؤدي رسالة الخير والنور ومن ثم كان صبر أبي بكر رضى الله عنه على شدائد المحن وعظائم البلايا واحتماله للأذى . وشدة البلاء ، وقسوة العذاب في سبيل عقيدته ودينه ليس كصبر أحد من الناس ، وإنما هو صبر يستمد عزيمته من عزائم صبر رسول ﷺ واحتماله .

فإذا كان صبر أبي بكر رضى الله عنه إعجاز لا يطيقه البشر فلأنه نابع من المنبع الأول لعزائم أولى العزم من أصفياء البشر ، فقد احتمل أبو بكر رضى الله عنه من الإيذاء والضر مالم يحتمله أحد من أصحاب الأنبياء والرسل

تقول عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ كانوا ثمانية وثلاثين رجلا ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ فى الظهور والإعلان بالدعوة ، فقال له النبي ﷺ : (يا أبا بكر إنا قليل) ، فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد كل رجل فى عشيرته ، وقام أبو بكر خطيباً ورسول الله ﷺ جالس ، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله ﷺ ، وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين ، فضربوا فى نواحى المسجد ضرباً شديداً ووطىء أبو بكر ، وضرب ضرباً شديداً ، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ، ويحرفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبى بكر حتى مايعرف وجهه من أنفه ،وجاء بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبى بكر وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ، ولا يشكون فى موته . ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة ، فرجعوا إلى أبى بكر ، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب فتكلم فى آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فسوا منه بألسنتهم ، وعذلوه ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : أنظرى أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه ، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول . ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت : والله مالى علم بصاحبك ، فقال لها . اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل ، فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد ابن عبد الله ،وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ؟ قالت: نعم ، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً ، فدنت منه أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت : والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإنى لأرجو أن

ينتقم الله لك منهم . قال أبو بكر : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت : هذه أمك تسمع ؟ قال : فلا شيء عليك منها ، قالت : سالم صالح ، قال : أين هو قالت : فى دار ابن الأرقم قال : فإن لله على أن لاأذوق طعاماً ، ولا أشرب شراباً أو آتى رسول الله ﷺ فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكيء عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ أكب عليه فقبله ، وأكب عليه المسلمون ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة ، فقال أبو بكر بأبى وأمى يارسول الله : ليس بى بأس إلا ما نال الفاسق من وجهى .

هذا موقف من مواقف صبر الصديق رضى الله عنه وقوة احتماله لشدة البلاء فى سبيل عقيدته ودينه ، وهو يمثل ذروة فى صلابة العزيمة ، وقوة الشكيمة ، وروعة المخاطرة للدفاع عن رسول الله ﷺ وفناء فى محبته ، والحرص على بقائه ، وسلامته ، وهو ليس بأعظم مواقفه فى الصبر والاحتمال بل له أمثاله ، وله أروع منه ولكننا نكتفى بالحادث يصور نموذج الابتلاء والمحنة ، ويصور الاحتمال والصبر ليكون معبراً بما يحمله من المعانى والحقائق عن حياة المسلمين فى هذه المرحلة القاسية دون أن يشرع لهم جهاد الحرب والقتال إلا ما يكون من الدفاع الفردى عن النفس من قبل الحق الاجتماعى الذى يملكه كل إنسان .

من الرعيل الاول

ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه أسوة صالحة لكثير من مسلمة الرعيل الأول فى صبرهم ومصابرتهم وقوة احتمالهم ، وقد أسلم على يده بدعوته كثير

من الطلائع فصبروا على ما أوذوا متأسين به واحتملوا شدائد المحن متمثلين ثباته ورسوخ إيمانه .

عثمان بن عفان

منهم عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكان عمه الحكم بن أبى العاصى يوثقه رباطاً يقسم لايحله حتى يدع الإسلام ، ويكفر بمحمد ﷺ فيقـول له عثمان والله لا ادعه أبداً ولا أكفر بمحمد ﷺ ، ولاأفارقه ، ولم يزل به يدنيه ترغيباً ، ويبعده ترهيباً ، حتى يئس من تركه دينه وعندئذ تركه ولكنه كان يؤذيه ولا يرد عنه أذى السفهاء ، فلما رأى عثمان مايلقى من الأذى هاجر إلى الحبشة ومعه زوجه بنت رسول الله ﷺ حتى إذا أمن الناس عاد فكان أحد عمد الإسلام الذين قامت دعوته عليهم .

الزبير بن العوام

ومنهم الزبير بن العوام رضى الله عنه أسلم على يد أبى بكر بدعوته ، وهو صغير ابن ثمان سنين ، وكان عمه يعذبه ليفتنه ويرجع عن دينه ، فلا يزيده ذلك إلا ثباتاً وقوة كان يعلقه فى حصير ويدخن عليه بالنار ، ويقول له : لاأدعك حتى تكفر بدينك ، فيقول الزبير : والله لاأكفر أبداً .

عمر بن الخطاب

أما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد كان عصياً فى جاهليته ، شديداً على الإسلام والمسلمين ينال منهم ، ويهابه ضعفاؤهم ، فلما ألقى الله الهداية فى قلبه أقبل بقوته وصلابته فجعلهما للإسلام والمسلمين ، وقد فرح المسلمون بإسلامه فرحاً شديداً ، وأعز الله به الإسلام استجابة لدعوة رسول الله ﷺ .

ولم يرض عمر رضى الله عنه أن يستتر بإسلامه فخرج بعدأن شهدشهادة الحق وآمن بالله ورسوله إلى أندية قريش يعلن عليهم أنه قد أسلم فثاروا عليه ، فما برح يتلقى ضرباتهم ويدافع عن نفسه حتى أعيا فقعد وهو يقول : افعلوا ما بدالكم حتى حجز بينه وبينهم بعض مترفيهم من رءوسهم وكبرائهم .

بلال

وقد عذب بلال رضى الله عنه فى الله عذاباً شديداً تنوء به الجبال الرواسى ، فصبر على مالقى من البلاء صبراً كان إعجازاً فى قوة الإيمان .

كان طغاة المشركين يلبسونه أدرع الحديد ، ويطرحونه بها فى شمس الهاجرة لتصهره بحرارتها إذا اشتعلت فى أدرع الحديد ، ثم إذا فاء الفىء وضعوا فى عنقه حبلا ويسلمونه إلى صبيانهم وسفهائهم يطوفون به فى شعاب مكة ، وهم يضربونه ويتلتلونه ويسبونه ويتضاحكون به ، فما كان يزيد وهو تحت قسوة العذاب وشدة البلاء على قوله : أحد أحد ، يرددها تذوقاً لحلاوة التوحيد ، واستهانة بما يصنعون به من أبشع ألوان التعذيب ، حتى افتداه أبو بكر رضى الله عنه وأعتقه .

آل ياسر

وأما آل ياسر عمار وأمه أول شهيدة فى الإسلام السيدة الجليلة سمية ، وأبوه سيدنا ياسر فقد كانوا سادة الطلائع الصابرة ، كان النبى ﷺ يمر بهم

ويرى ماينزله فجرة المشركين بهم من صنوف العذاب ، فلا يزيد على قوله ﷺ : (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة) .

وأخرج الحاكم وابن عساكر عن عثمان رضى الله عنه قال: بينما أنا أمشى مع رسول الله ﷺ بالبطحاء إذا بعمار وأبيه وأمه يعذبون فى الشمس ليرتدوا عن الإسلام ، فقال أبو عمار : يارسول الله الدهر هكذا ؟، فقال النبى ﷺ (صبراً يا آل ياسر اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت) .

وقد بلغ من فجور طغاة المشركين وعتوهم أن قتلوا سمية أم عمار رضى الله عنهما بعد تعذيبها أشد العذاب — أبشع قتلة عرفها الفجور فى الأرض، فقد مر بها الفاجر الخبيث أبو جهل ، وهى فى غمرة البلاء فطعنها بحربة طعنة فاجرة لا يقصد القتلة بها إلا فاجر الطبع ،دنىء الجبلة، مغموز الرجولية.

خباب بن الارت

روى بن سعد فى الطبقات عن الشعبى قال : دخل خباب بن الأرت رضى الله عنه على عمر بن الخطاب فأجلسه على متكئة فقال : ماعلى وجه الأرض أحد أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد ، قال خباب : من هو ياأمير المؤمنين ؟ قال : بلال ، فقال خباب : ماهو بأحق منى ، إن بلالا كان له فى المشركين من يمنعه ، الله به ، ولم يكن لى أحد يمنعنى، فقد رأيتنى يوماً أخذونى فأوقدوا لى ناراً ثم سلقونى فيها ، ثم وضع رجل رجله على صدرى، فما اتقيت الأرض إلا بظهرى .

وعند أبى نعيم أن خباباً قال لعمر رضى الله عنهما : أوقدوا لى ناراً فما أطفأها إلا ودك ظهرى .

وأخرج البخارى عن خباب رضى الله عنه قال : أتيت النبى ﷺ ، وهو متوسد ببردة ، وهو فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : ألا تدعو الله ؟ فقعد ، وهو محمر وجهه فقال : (قد كان من كان قبلكم ليشط بأمشاط الحديد مادون عظامه من لحم أو عصب مايصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت مايخاف إلا الله عز وجل والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون) .

أبو ذر الغفاري

كان أبو ذر رضى الله عنه شاعراً متحنفاً فى الجاهلية ، فلما سمع برسول الله ﷺ قدم عليه فوجده فى دار الأرقم ، فدخل عليه وأسلم وشهد شهادة الحق ، وقال له النبى ﷺ : « ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى » .

قال أبو ذر : والذى نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم قام القوم فضربوه حتى أوجعوه ، وأتى العباس فأكب عليه ، قال : ويلكم . ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأنها طريق تجارتكم إلى الشام ، فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد لمثلها ، فضربوه وثاروا إليه فأكب العباس عليه .

وعند الطبرانى وأبى نعيم أن أبا ذر قال لما أعلن لقريش إسلامه : فقاموا فضربونى حتى تركونى كأنى نصب أحمر ، وكانوا يرون أنهم قد قتلونى ، فأفقت فجئت إلى رسول الله ﷺ ، فرأى ما بى ، فقال : ألم أنهك ؟ فقلت : يارسول الله كانت حاجة فى نفسى قضيتها .

عثمان بن مظعون

كان عثمان بن مظعون رضى الله عنه قد دخل بعد إسلامه فى جوار الوليد بن المغيرة فأصبح وهو يرى مافيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء، وقسوة الإيذاء وشدة التعذيب، وهو يغدو ويروح فى أمان الوليد، فقال لنفسه: إن غدوى ورواحى آمناً فى جوار رجل من أهل الشرك، وأصحابى وأهل دينى يلقون من الأذى والبلاء مالا يصيبنى لنقص كبير فى نفسى.

ثم مشى إلى الوليد، وقال له: يا أبا عبد شمس. وفت ذمتك، قد رددت إليك جوارك. فقال الوليد: لم يا ابن أخى؟ لعله آذاك أحد من قومى، قال: لا، ولكنى أرضى بجوار الله عز وجل.

قال الوليد: فانطلق إلى المسجد فاردد على جوارى علانية كما أجرتك علانية، فانطلقا إلى المسجد. فقال الوليد للأ قريش: هذا عثمان قد جاء يرد على جوارى، قال لهم عثمان رضى الله عنه: صدق قد وجدته وفياً كريم الجوار، ولكنى أحببت ألا أستجير بغير الله تعالى فقد رددت عليه جواره.

وبينما هم فى مجلسهم وعثمان يرد على الوليد جواره إذ وفد عليهم لبيد ابن ربيعة الشاعر فقعد ينشدهم من شعره فقال لبيد:

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

فقال عثمان بن مظعون: صدقت: فقال لبيد:

وكل نعيم لا محالة زائل

فقال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول ، فقال لبيد : متى كان يؤذى جليسكم يا معشر قريش فمتى حدث فيكم هذا ؟ فقام رجل من القوم وقال : هذا سفيه فى سفهاء معه قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن فى نفسك من قوله ، فرد عليه عثمان بن مظعون حتى استشرى أمرهما فقام ذلك الرجل إلى عثمان ولطمه فاخضرت عينه ، والوليد بن المغيرة فى المجلس يرى ما بلغ من الأذى من عثمان .

فقال الوليد لعثمان : أما والله يا ابن أخى إن كانت عينك عما أصابها لغنية ؟ لقد كنت فى ذمة منيعة ، فقال عثمان : بلى والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها فى الله ، وإنى لفى جوار من هو أعز ، وأمنع وأقدر يا أبا عبد شمس ، وفى ذلك يقول عثمان بن مظعون رضى الله عنه :

فإن تك عينى فى رضا الرب نالها   يدا ملحد فى الدين ليس بمهتد

فقد عوض الرحمن منها ثوابه   ومن يرضه الرحمن ياقوم يسعد

وقد ساق البخارى حديث أبى هريرة بتصديق كلمة لبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل .

فقال عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ (أصدق كلمة قالها الشاعر) :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل .

وقد علق الحافظ بن حجر على هذا الحديث فقال : وفى إيراد البخارى هذا الحديث فى هذا الباب — أيام الجاهلية — تلميح بما وقع لعثمان ابن مظعون بسبب هذا البيت مع ناظمه لبيد بن ربيعة قبل إسلامه والنبى ﷺ بمكة وقريش فى غاية الأذية للمسلمين .

مصعب بن عمير

أخرج ابن سعد فى الطبقات قال ، كان مصعب فتى مكة شباباً وجمالا ، وسبيباً ، وكان أبواه يحبانه ، وكانت أمه مليئة كثيرة المال ، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه ، وكان أعطر أهل مكة يلبس الحضرمى من النعال ، فكان رسول الله ﷺ يذكره ويقول : (ما رأيت بمكة أحسن لمة ، ولا أرق حلة ، ولا أنعم نعمة ، من مصعب بن عمير) .

بلغ مصعباً أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام فى دار الأرقم ابن أبى الأرقم فدخل عليه فأسلم ، وصدق به وخرج ، فكتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه فكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سراً فبصر به عثمان بن طلحة يصلى ، فأخبر أمه وقومه فأخذوه فحبسوه فلم يزل محبوساً حتى خرج إلى أرض الحبشة فى الهجرة الأولى ، ثم رجع مع المسلمين حين رجعوا فرجع متغير الحال ، قد حرج — غلظ — فكفت أمه عنه من العزل .

ولما تمت بيعة الأنصار بالعقبة طلبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرسل معهم من يعلمهم معالم الإسلام ويقرئهم القرآن ، فأرسل معهم مصعب ابن عمير ، وكان يدعى القارىء والمقرىء وكان يؤمهم فى الصلاة وهو أول من جمع بهم أول جمعة فى الإسلام .

نزل مصعب بالمدينة على أسعد بن زرارة ، فتلازما ، وكانا يدعوان إلى الله فقد أخرج ابن إسحاق أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد ، دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظفر ، وكان سعد بن معاذ رضى الله عنه ابن

خالة أسعد بن زرارة . فدخل به حائطاً من حوائط بنى ظفر على بئر يقال له بئر مرق ، فجلسا فى الحائط ، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم ، وسعد ابن معاذ وأسيد بن حضير يومئذسيداقومهما من بنى عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه فلما سمعا به قال سعد لأسيد : لا أبالك : انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ، وأنههما أن يأتينا دارينا ، فإنه لولا أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك ، هو ابن خالتى ، ولا أجد عليه مقدماً ، فأخذ أسيد حربته ثم أقبل إليهما فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب : هذا سيد قومه وقد جاءك فاصدق الله فيه .

قال مصعب : إن يجلس أكلمه ؟ فوقف عليهما أسيد متشتماً ، فقال : ماجاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره ، قال : أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فعرف فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشراقه وتسهله .

ثم قال لهما ما أحسن هذا وأجمله ، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟ قالا له تغتسل فتتطهر وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى فقام فاغتسل ، وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين .

ثم قال لهما : إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ، اسعد بن معاذ ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم .

فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم .

فلما وقف على النادى قال له سعد : ما فعلت ؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت فقال له سعد : والله ما أراك أغنيت عنا شيئاً .

ثم أخذ حربته وخرج إليهما ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما ، فوقف متشتماً ، ثم قال لأسعد بن زرارة : والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة مارمت هذا منى ، أتغشانا فى دارنا بما نكره؟ وكان سعد بن زرارة قد قال لمصعب لما رأى سعد بن معاذ مقبلا : جاءك والله سيد من ورائه قومه إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان .

فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً رغبت فيه قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ؟ قال سعد بن معاذ : أنصفت ، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه مصعب الإسلام وقرأ عليه القرآن قرأ عليه أول سورة الزخرف « حم . والكتاب المبين. إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » .

فعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشراقه وتسهيله .

ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين ، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق ثم ركع ركعتين ثم أخذ حربته فأقبل عائداً إلى نادى قومه ومعه أسيد بن الحضير ، فلما رآه قومه مقبلا قالوا: نحلف بالله لقد رجع سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم .

فلما وقف عليهم قال : يابنى عبد الأشهل ؟ كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيبة قال : إن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، فما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة .

هذا رجل من رجالات قريش فى الذروة من أرومتها ، كان يعيش أنعم ما يعيش مترف يتقلب فى فنون الترف والبذخ ويتفنن فى مأكله ومشربه وملبسه ، وبزته وتعطره ، يسيل عليه المال من كف أم مليئة تحبه، ولا تضن عليه بمطلب .

يسمع عن الإسلام ودعوته ، فيسرع إليه ويقبل عليه مجيباً ويسلم ويتشهد شهادة الحق ويكتم إسلامه عن أمه وأبيه وقومه وعشيرته خشية بطشهم ويراه رجل مشرك وهو يصلى فيخبر عنه وتلومه أمه ويعنفه قومه ويحبسونه ويقطعون عنه ما كان يترف به من متاع الدنيا ويفر بدينه إلى الله ، تاركاً لهم دنياهم ، ويهاجر مع من هاجر إلى بلد بعيد نائى البعد إلى الحبشة ، يعيش فيه غريباً فقيراً مطمئن القلب بالإيمان يعبد ربه علانية ، لا يستخفى من أحد ولا يخاف أن ينم عليه أحد .

فإذا عاد المسلمون من أجل نبأ سمعوه عن صفاء الجو من سحب الإيذاء فى بلدهم ، عاد معهم فإذا النبأ أكذوبة الشيطان ، صرخ بها فى وادى الأباطيل .

ويرجع من يرجع من المسلمين إلى مهاجرهم الأول بالحبشة ، ويبقى مصعب رضى الله عنه وكان قد تغير حاله وقشف عيشه واخشوشن جسمه ، وحال حاله ، فكفت أمه عن عزله ولومه .

ويفتح الله تعالى باب الأمل الفسيح أمام دعوة الإسلام ، وتتم بيعة الأنصار ، ويسألون رسول الله ﷺ أن يرسل معهم معلماً يعلمهم ويؤمهم فى صلواتهم ويقرئهم القرآن ، فيختار لهم رسول الله ﷺ مصعباً رضى الله عنه ، ويذهب معهم مصعب إلى بلدهم يدعو إلى الله ويبشر بالإسلام ، ويلقى من الإخافة والإرهاب ، والإيذاء بالشتم . وغيره مثل ما لقى من أسيد ابن الحضير ، وسعد بن معاذ رضى الله عنهما .

ولكنه فى يقين المؤمن الراسخ ، يمضى فى تبليغ دعوة الإسلام هادئاً وادعاً ، فتلين له صخور القلوب ، وتستجيب له جوامح النفوس ، وتشرق لدعوته مكفهرات الوجوه ، ويدخل الإسلام مع العذارى إلى خدورهن ، ويقتحم أندية الملأ من أوس وخزرج ، وتصبح (يثرب) ببركة دعوة مصعب مدينة الإسلام وعاصمة الإيمان ، تضىء آفاقها بأنواره ، وتستعد لاستقبال أعظم حدث فى تاريخ البشرية ، غير وجه الحياة .

ذلك هو اختيار الله عز وجل لرسوله ﷺ لهذه المدينة المنورة أن تكون مهاجره ومثوى شريعته ، وقلعة دولته ، ومنشر دعوته .

ولقد كان أشد مالقى مصعب رضى الله عنه من الابتلاء اقتلاع نفسه من حياة التنعم والترف وخفض العيش ، والرضا بقشف الحياة ، وعيشة البأساء والضراء فى ظل مدقع الفقر وجفوة العيش .

روى البخارى عن الأعمش قال : سمعت أبا وائل يقول : عدنا خباباً ، فقال : هاجرنا مع النبى صلى الله عليه وسلم نريد وجه الله تعالى ، فوقع أجرنا على الله ، فمنا من مضى لم يأخذ من أجره شيئاً ، منهم مصعب بن عمير ، قتل يوم أحد وترك نمرة ، فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه ، وإذا

غطينا رجليه بدا رأسه ، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطى رأسه ونجعل على رجليه شيئاً من إذخر .

ولم ينج من الإيذاء والتعذيب وشدة البلاء فى المرحلة المكية للدعوة أحد من أصحاب النبي ﷺ من السابقين الأولين ، وإنما ذكرنا من ذكرنا من الأشخاص ، وذكرنا ما ذكرنا من الأحداث التى وقعت للذين ذكرناهم من طلائع الإيمان باعتبارهم فى هذه الأحداث نماذج ومثلا تصور ما كان يلقاه النبي صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه من طغاة المشركين من أفانين الأذى ، والتعذيب وشدة البلاء فى الله وهم صابرون محتسبون .

هكذا كان حال المسلمين

هذه كانت حال المسلمين وهم فى قلة عددهم وضعف قوتهم المادية ، وهذه كانت حال أعدائهم فى طغيانهم وعتوهم فى المرحلة المكية للدعوة الإسلامية، ظلم فادح وجبروت فاجر ، وعنجهية طاغية تتمثل فى صــــور من الإيذاء الموجع ، والإضرار المفظع ، والتعذيب المهلك ، يلاحق بها طغاة الشرك وأحلاس الوثنية البليدة جماعة المؤمنين أينما كانوا وحيثما وجدوا .

وصبر جميل ورضاً مؤمن ، وكف عن مقابلة الأذى بالأذى والإضرار بالإضرار ، يوصى بها رسول الله ﷺ أصحابه ، ويأخذ بها نفسه أخذاً بالغاً ، ليكون لأصحابه أسوة قائمة يطمئنون إليها فى تقبل ما يلقون من البلاء والمحن حتى لا ييأسوا من روح الله وتشتد عزائمهم ويربط الله على قلوبهم برباط التثبيت ونفحات الإيمان .

وتمضى هذه المرحلة ونيدة الخطى بمدتها الزمنية ثلاثة عشر عاماً والعذاب يصب على المؤمنين صبا فى فحش وفجور، وبشاعة وظلم شنيع، ولم ينزل من القرآن المكى سورة أو آية تأمر بالقتال أو تأذن،فيه على كثرة ما نزل من السور المكية مليئة بآيات المحاجة لتثبيت العقيدة التوحيدية وإبطال الشرك وهدم الوثنية، وإنما نزل فيها بعض آيات تحض على (الجهاد) وترغب فيه، وتدعو إليه وتطالب المؤمنين بالقيام به.

فأى جهاد هو الذى تدعو إليه وتطلبه هذه الآيات ؟؟

والجهاد فى شرعة الإسلام — كما ذكرنا — أنواع مختلفة وصور متفاوتة، ليس القتال إلا صورة منها، بل هو آخر صورة فى إطار الجهاد العام، فهل أرادت هذه الآيات المكية القليلة هذه الصورة صورة الحرب والقتال وطلبتها من المؤمنين ؟

يجمع أئمة الإسلام وعلماؤه وقاداته أن جهاد القتال والحرب لم يؤذن فيه، ولم يؤمر به فى القرآن الكريم إلا بعد الهجرة إلى المدينة المنورة واستقرار الإسلام فيها واتخاذ المقاومة من أعداء الإسلام صورة التأليب والتجميع فى الداخل والخارج، لاستئصال الدعوة إلى الله، والقضاء على المؤمنين.

يقول القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب (الأحكام): إن الله سبحانه بعث نبيه ﷺ بالبيان والحجة، وأوعز إلى عباده على لسانه بالمعجزة والتذكرة، وفسح لهم فى المهل وأرخى لهم فى الطيل ما شاء من المدة بما اقتضته المقادير التى أنفذها واستمرت به الحكمة.

والكفار يقابلونه بالجحود والإنكار، ويعتمدونه وأصحابه بالعدواة الإيذائية والبارى سبحانه يأمر نبيه ﷺ وأصحابه باحتمال الأذى والصبر

على المكروه ، ويأمرهم بالإعراض تارة وبالعفو والصفح أخرى حتى يأتى أمر الله .

وقال فى موضع آخر : إن الله سبحانه لما بعث محمداً ﷺ بالحجة دعا قومه إلى الله دعاء دائماً عشرة أعوام لإقامة حجة الله سبحانه وتعالى ووفاء بوعده الذى امتن به بفضله فى قوله: « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »(١)، واستمر الناس فى الطغيان وما استدلوا بواضح البرهان .

وكانت قريش قد اضطهدت من اتبع رسول الله ﷺ من قومه حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم عن بلادهم ، فهم بين مفتون فى دينه ومعذب ، وبين هارب فى البلاد مغرب ، فمنهم من فر إلى أرض الحبشة ومنهم من خرج إلى المدينة ومنهم من صبر على الأذى .

فلما عتت قريش على الله وردوا أمره وكرامته وكذبوا نبيه ، وعذبوا من آمن به وعبده ووحده ، وصدق نبيه واعتصم بدينه أذن الله لرسوله فى القتال والامتناع ، والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم فكانت أول آية أنزلت فى إذنه له بالحرب : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »(٢) أى إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظلموا ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله ، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة (اهـ) .

---

(١) سورة الإسراء آية ١٥ . (٢) سورة الحج آيات ٣٩، ٤٠، ٤١ .

وقال الإمام الرازى فى تفسيره تأويلا لقوله: (بأنهم ظلموا) . فالمراد أنهم أذنوا بالقتال بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله ﷺ ، كانوا يأتون إلى رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم: (اصبروا إنى لم أومر بقتال) حتى هاجر فأنزل الله تعالى هذه الآية وهى أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية . (اهـ) .

وعن الضحاك أن قوله تعالى: «إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور»(١) نزل حينما أراد بعض المؤمنين بمكة أن يردوا اعتداء المعتدين من طغاة المشركين بقتل من يتمكنون من قتله غيلة واحتيالا .

وقال القرطبي فى تأويلها : فوعد الله فيها سبحانه بالمدافعة ونهى أفصح نهى عن الخيانة والغدر (اهـ) .

ولما تمت بيعة العقبة الكبرى ، وكان عدد أصحابها من الأوس والخزرج نيفاً وثمانين ، قالوا : يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادى بأسيافنا فنقتلهم؟ فقال لهم رسول الله ﷺ : (إنى لم أومر بهذا) .

فالجهاد الذى أمر به رسول الله ﷺ فى مكة ونزل عليه به القرآن الكريم فى طول مدتها إنما هو جهاد الحجة والبيان لمعالم التوحيد وإبطال الشرك وعبادة غير الله تعالى فى أية صورة من الصور .

والسور المكية التى وردت فيها مادة (الجهاد) متصرفاً فيها بصيغ مختلفة هى ثلاث سور من نحو ثلاث وثمانين سورة نزلت بمكة ، وذكرت مادة (الجهاد) فى هذه السور الثلاث أربع مرات ، منها مرتان فى سورة العنكبوت، وليس فيها موضع فى آية سورة منها يتعين فيه إرادة جهاد الحروب والقتال .

---

(١) سورة الحج من آية ٣٨

١ – فى سورة الحج يقول الله تعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج » . قال القرطبى فى تفسيرها : هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به والانتهاء عن كل مانهى الله عنه ، أى جاهدوا أنفسكم فى طاعة الله وردوها عن الهوى ، وجاهدوا الشيطان فى رد وسوسته ، وجاهدوا الظلمة فى رد ظلمهم ، وجاهدوا الكافرين فى رد كفرهم.

فقد فسر الجهاد فى الآية ببذل الوسع فى طاعة الله ورد كيد الشيطان ، ودفع الظلم ، ويمكن أن يراد برد كفر الكافرين رد شبهه وأباطيله وبيان حجة الإيمان وبسط أدلته .

ويدل لذلك ما أورده من حديث أبى غالب عن أبى أمامة أن رجلا سأل النبى ﷺ أى الجهاد أفضل ؟ عند الجمرة الأولى فلم يجبه ؟ ثم سأله عن الجمرة الثانية فلم يجبه . ثم سأله عن جمرة العقبة ، فقال النبى ﷺ : (أين السائل ؟) فقال : ها أنا ذا ، فقال عليه الصلاة والسلام : (كلمة عدل عند سلطان جائر) ، وليس لغير القرطبى من المفسرين مايخالف قوله ، فالآية واردة فى الأمر بجهاد النفس وبذل الطاقة فى طاعة الله تعالى ، وليس لجهاد الحرب والقتال قصد فيها .

٢ – فى سورة الفرقان يقول الله تعالى : « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً » ، قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسيرها : جاهدهم بالقرآن.

والجهاد بالقرآن إنما يكون ببيان حجته مع بذل الوسع فى هذا البيان حتى لا يكون للناس على الله حجة ، وذلك باللسان والقلم ، وقد بسطنا القول فى مقدمة الكتاب فى بيان الجهاد بالقلم واللسان ، وبيان معانى القرآن وحقائقه التشريعية وقواعده الاعتقادية ، وعرض حججه وإبطال شبه المبطلين .

وقال ابن القيم فى تأويل الآية : فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن .

٣ — فى سورة العنكبوت يقول الله تعالى : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه »

هذه الآية من قبيل قوله تعالى : « من عمل صالحا فلنفسه » فهى لتقرير عدل الله تعالى وبيان أن عمل الإنسان إنما يجنى ثمرته صاحبه ونفعه إنما يعود عليه ، ولذلك جاء عقيبها قوله تعالى : « إن الله لغنى عن العالمين » .

والمعنى أن كل عامل له جزاء عمله ، فمن يبذل غاية وسعه فى عمل الصالحات فإنما يعود نفع ذلك عليه ، والله تعالى لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، لأنه غنى عن خلقه : حميد حمد نفسه تقديساً وحمده عباده طاعة وتعبداً .

قال الحسن البصرى فى تأويل الآية : إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً فى الدهر بسيف ومعنى هذا أن الجهاد يتحقق بغير حرب وقتال ، كما فى جهاد الحجة والبيان ، وجهاد النفس بكفها عن المخالفات وتطويعها لفعل الطاعات .

وعن أبى عباس رضى الله عنهما فى تفسيرها : لا تخافوا فى الله لومة لائم ، وهذا التأويل جعل الآية فى جهاد الظلمة وإظهار الحق .

وعن الضحاك : اعملوا الله حق عمله : استفرغوا وسعكم فى إحياء الدين ، وإقامة حقوقه ، وردوا أنفسكم عن الهوى والميل .

وعن عبد الله بن المبارك قال : هى فى جهاد النفس ، وهو الجهاد الأكبر .

فالمفسرون يجمعون مع اختلاف تفسيرهم فى عباراتهم أن الآية لا تقصد إلى جهاد الحروب والقتال فهى فى أنواع الجهاد وصوره الأخرى .

٤ — وفى سورة العنكبوت أيضاً : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا

وإن الله لمع المحسنين » . وللمفسرين عبارات ترجع كلها إلى بذل الوسع فى عبادة الله وتوحيده وطاعة أوامره ،وقد اتكأ عليها الزهاد وأهل المجاهدة فى العبادة ، وجعلوها حجة لمذاهبهم فى الإخلاص ومراقبة الله ومقام الإحسان، وصرفها غيرهم إلى طلب الجهاد ببيان مناهج الحق ورفع مناره .

قال القرطبي نقلا عن السدى : إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال .

قال ابن عطية : فهى قبل الجهاد العرفى ، أى جهاد القتال والحرب المعروف فى عرف الفقهاء عند إطلاق لفظ (الجهاد) فهى فى الجهاد العام فى إحياء دين الله وطلب مرضاته .

قال الحسن بن أبى الحسن : الآية فى العباد . وقال ابن عباس وإبراهيم ابن أدهم : هى فى الذين يعملون بما يعلمون . وقد قال ﷺ : (من عمل بما علم علمه الله مالم يعلم) .

ونزع بعض العلماء فى تأويلها إلى قوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) ومعناه أن قوله تعالى :(والذين جاهدوا فينا) من قبل قوله تعالى: (واتقوا الله) لأن التقوى من أعظم مراتب العمل ، بما يعلم ، فعطف قوله (يعلمكم الله) من باب عطف النتيجة على مقدمتها ، فتعليم الله تعالى للمتقين علماً غير ما توصلوا به إلى التقوى إنما هو ثمرة من ثمار التقوى ، فكذلك قوله تعالى : (والذين جاهدوا فينا) تأويله أن الذين بذلوا الوسع فى مرضاة الله وعملوا مخلصين لله يهديهم الله سبله إلى القرب من شهود جلاله فى مصنوعاته ، ويحل عليهم رضوانه ، لأنهم أحسنوا العمل بمراقبة الله تعالى ، واستفراغ الطاقة فى ملازمة محابه من الأعمال الصالحة ، فالله معهم باللطف والإنعام ونفحات التوفيق .

وهذا المعنى هو الذى يشير إليه قول عمر بن عبد العزيز رضى عنه : إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا فى العمل بما عملنا ، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا قال تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) .

وقال أبو سليمان الدرانى - وهو أحد كبار العباد - فى تأويل قوله تعالى : (والذين جاهدوا فينا) ليس الجهاد فى الآية قتال الكفار فقط ، بل هو نصر الدين والرد على المبطلين وقمع الظالمين وعظمه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومنه المجاهدة للنفس فى طاعة الله وهو الجهاد الأكبر .

المرحلة الثانية - جهادُ القِتَالِ

من هذا العرض يتبين أن جهاد القتال كان فى التشريع الإسلامى آخر صورة فى إطار الجهاد العام بمراتبه المتفاوتة وأنواعه المختلفة ، وأن المرحلة المكية من مرحلتى الدعوة الإسلامية على ما كان فيها من ضروب الإيذاء والتعذيب لأهل الإيمان — لم ينزل فيها نص بالإذن بالقتال وإباحته ، بله فرضه والأمر به، ولكن نزل فيها نصوص كثيرة تنهى عن القتال ، يقول فيها الإمام الرازى : إنها تنيف على سبعين نصاً ونزلت فيها نصوص تأمر المؤمنين بالصبر على المكروه واحتمال الأذى ، والعفو عن ظالميهم والصفح الجميل عن معذبيهم، فاستجابوا لأمر الله وصبروا على ما أوذوا ، وعفوا عمن ظلموهم حتى لم يبق فى قوس الصبر منزع وحتى لم يبق للعفو مكان .

الإذن بالقتال لدفع العدوان

عندئذ أذن الله تعالى للمؤمنين فى قتال ظالميهم الذين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ونفوهم من بلادهم وأرغموهم على مفارقة فلذات أكبادهم وآبائهم وأمهاتهم وأهليهم وعشيرتهم إلى حياة الغربة فنزل قول الله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »، وكان المؤمنون بهذا الإذن مخيرين بين القتال لرد الاعتداء والدفاع عن النفس ، وبين الصبر والعفو ، وقد كان الصبر عليهم أغلب والعفو لديهم أرغب ، رجاء أن يفىء الظالمون إلى عقولهم فيعرفوا الحق ويؤمنوا به ، أو تتحرك فى أنفسهم عواطف القربى ، فتنهنه من غلوائهم ، وتكفكف من جبروتهم وطغيانهم .

أول أمر بالقتال

فلما سدت على الظالمين منافذ التعقل وسلبوا شعور المودة فى القربى ، وازدادوا عتواً أمر الله تعالى عباده المؤمنين أمراً جازماً تعبدهم به أن يقاتلوا من نصب لهم الحرب وبدأهم بالقتال ، ونهاهم عن الاعتداء وتجاوز حد الإنصاف ، ونزل فى ذلك قوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (١) .

بيد أن طغاة الكفر وجار الوثنية أبوا إلا الإمعان فى العتو ، فراحوا يحرضون من كان ساكنا متربصاً ، ومن كان بعيداً لاهياً من القبائل يؤلبونهم على المسلمين ليستأصلوا شأفتهم من الوجود ، ونجم النفاق ، وذر قرن الشيطان فى أفق الغدر والخيانة اليهودى ، واليهود يعيشون على الحقد والبغضاء لكل ما ليس بيهودى ، وأسرعوا تحت جنح الظلام إلى الدس والتآمر ونقض العهود والمواثيق التى عاهدهم بها رسول الله ﷺ منذ اللحظة الأولى التى حل بها فى المدينة ، وائتمروا به ﷺ ليقتلوه غيلة وهو فى ديارهم ، ورمت العرب كلها المؤمنين عن قوس واحدة وتداعوا لقتالهم فنزل الأمر لقتال الكفرة كافة كما هموا أن يقاتلوا المسلمين كافة جزاء وفاقاً ، وقال تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين » (٢) .

وفى قوله تعالى فى هذه الآية خطاباً للمؤمنين : (واعلموا أن الله مع المتقين) دليل على أن الجهاد المشروع فى الإسلام يجب أن يكون فى إطار التقوى ، فإن خرج عن هذا الإطار لم يكن جهاداً مشروعاً فى الإسلام .

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٠ .

(٢) سورة التوبة آية ٣٦ .

يقول ابن القيم فى كتابه (زاد المعاد) مبيناً أنواع الجهاد ومراتبه :
ولما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته ، ومنازل أهله أعلى المنازل فى الجنة كما لهم الرفعة فى الدنيا ، فهم الأعلون فى الدنيا والآخرة كان رسول الله ﷺ فى الذروة العليا منه ، فاستولى على أنواعه كلها ، فجاهد فى الله حق جهاده بالقلب والجنان والدعوة والبيان ، والسيف والسنان ، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده ، ولهذا كان أرفع العالمين ذكراً وأعظمهم عند الله قدراً ، وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه وقال : « ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً . فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً »(١) .

فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن . ولما كان أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض ، مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه كان للرسل صلوات الله عليهم وسلامه من ذلك الحظ الأوفر وكان لنبينا صلوات الله وسلامه عليه من ذلك أكمل الجهاد وأتمه .

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى فى مراتب الجهاد المأمور به فى التشريع الإسلامى والواردة آياته فى القرآن الكريم جهاد النفس بمخالفة هواها ، وتطويعها للقيام بأمر الله تعالى ، وجهاد الشيطان بمقاومة وسوسته وكيده ، وبين أن هذين النوعين من الجهاد مقدمان على جهاد قتال أعداء دين الله من الكفار والمنافقين ، وأن جهاد البيان والحجة والتبليغ أول مراتب الجهاد الشرعى المأمور به فى الإسلام ، وأن أكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد كلها قال : والخلق متفاوتون فى منازلهم عند الله تفاوتهم فى مراتب

---

(١) سورة الفرقان آيتا ٥١ ، ٥٢ .

الجهاد ، ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ، فإنه كمل مراتب الجهاد وجاهد في الله حق جهاده ، وشرع في الجهاد من حين بعث إلى أن توفاه الله عز وجل، فإنه لما نزل عليه : « يأيها المدثر. قم فأنذر . وربك فكبر وثيابك فطهر » شمر عن ساق الدعوة وقام في ذات الله ليلا ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، فلما نزل : « فاصدع بما تؤمر »[1] صدع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم ، فدعا إلى الله الصغير والكبير ، والحر والعبد ، والذكر والأنثى ، والأحمر والأسود ، والجن والإنس ، ولما صدع بأمر ربه وصرح لقومه بالدعوة ، وناداهم بسب آلهتهم وعيب دينهم اشتد أذاهم له ولمن استجاب له من أصحابه ، ونالوهم بأنواع الأذى .

ولما اشتد البلاء على المسلمين أذن الله سبحانه لهم بالهجرة إلى أرض الحبشة ولما تمت بيعة العقبة وفشا الإسلام في المدينة أذن رسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى إخوانهم الأنصار ، فهاجروا إليهم فرأى المشركون حينئذ أن مهاجر المسلمين دار منعة وقوة ، وأن القوم الذين هاجروا إليهم أهل حلقة وشوكة وبأس ، فخافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم ولحوقه بهم فيشتد عليهم أمره ، فاجتمعوا في دار الندوة وائتمروا باغتيال رسول الله ﷺ ونزل عليه الوحي فأخبره بكيدهم وتدبيرهم وأذن الله له بالهجرة — فهاجر ومعه صديقه وصاحبه الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، واستقر رسول الله ﷺ بالمدينة ، وأيده الله بنصره وبعباده المؤمنين فنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الناس كلهم ، الأسود والأحمر ، وبذلوا نفوسهم دونه ، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأرواح ، وكان أولى بهم

(١) سورة الحجر آية ٩٤ .

من أنفسهم ، فرمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة ، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة ، وصاحوا بهم من كل جانب والله تعالى يأمرهم بالصبر والعفو والصفح ، حتى قويت الشوكة واشتد الجناح ، فأذن لهم حينئذ فى القتال ، ولم يفرضه عليهم فقال تعالى: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »(١).

ثم قال ابن القيم : وقد قالت طائفة إن هـذا الإذن كان بمكة والسورة مكية وهذا غلط لوجوه :

أحدها : أن الله سبحانه لم يأذن بمكة لهم فى القتال ، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة .

الثانى : أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعـد الهجرة وإخراجهم من ديارهم فإنه قال : (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) ، وهؤلاء هم المهاجرون .

الثالث : قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم »(٢) نزلت فى الذين تبارزوا فى يوم بدر من الفريقين .

الرابع : أنه خاطبهم فى آخرها بقوله : (يأيها الذين آمنوا) ، والخطاب بذلك كله مدنى فأما الخطاب بيا أيها الناس فمشترك .

الخامس : أنه أمر فيها بالجهاد الذى يعم الجهاد باليد وغيره ، ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة ، فأما جهاد الحجة فأمر به فى مكة

---

(١) سورة الحج آية ٣٩ ، ٤٠.

(٢) سورة الحج آية ١٩ .

بقوله : « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً »[1] فهذه سورة مكية والجهاد فيها هو التبليغ وجهاد الحجة وأما الجهاد المأمور به فى سورة الحج فيدخل فيه الجهاد بالسيف .

السادس : أن الحاكم روى فى المستدرك من حديث الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ، ليهلكن . فأنزل الله عز وجل : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) وهى أول آية نزلت فى القتال وإسناده على شرط الشيخين ، وسياق السورة يدل على أن فيها المكى والمدنى .

ثم فرض على المؤمنين القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة ، وكان محرماً ثم مأذوناً فيه، ثم مأموراً به لمن بداهم بالقتال ثم مأموراً به لجميع المشركين .

مراتب جهاد القتال

وجهاد القتال نفسه ليس مرتبة واحدة ،ولكنه مراتب متعددة ، وصور مختلفة ، رتبه التشريع الإسلامى ترتيباً جعل فرضية عمومه ، وحتميته آخر مراتب عموم الجهاد طلباً وآخر صوره وقوعاً .

المرتبة الأولى إباحة القتال دفاعاً عن النفس

هذه المرتبة هى مرتبة إباحة القتال دفاعاً عن النفس ، ورداً للاعتداء ، وقد كان القتال محرماً منهياً عنه فى أكثر من سبعين موضعاً فى القرآن الكريم ،

(١) سورة الفرقان آية ٥٢ .

مأموراً قبله بالصبر علـى الأذى والمكروه ومقابلة ذلك بالعفو الكريم والصفح الجميل .

فقد أذن للمؤمنين الذين يقاتلهم أعداؤهم ، أعداء الحق والهدى ، ظالمين لهم أن يقاتلوا أولئك الأعداء الظلمة ، رداً لظلمهم ودفاعاً من المؤمنين عن أنفسهم ، وعن حق الإنسان فى الحياة الكريمة التى لا تقبل أن يفرض فيها سلطان مخلوق على مخلوق .

وهذه المرتبة فى جهاد القتال اختيارية ، لا إلزام فيها على المؤمنين بنصب القتال لمن قاتلهم ورداً لاعتداء من اعتدى عليهم ، بل كان فيها للعفو والصفح مكان فسيح ، رغب فيهما الإسلام بعد إباحة القتال والإذن فيه عدالة ، ترغيباً يجعلهما أحب إلى نفس المؤمن من الانتصاف لنفسه بالقتال ، فهى من قبيل الدفاع عن الحق الاجتماعى الذى يملكه كل إنسان . بمقتضى أنه إنسان ، ومن هنا كانت اختيارية ، يملك الإنسان فيها أن يتنازل عن حقه بالعفو الكريم والصفح الجميل ، استجابة لقول الله تبارك وتعالى . « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » (١) بعد تقرير مرتبة العدل فى رد الاعتداء بقوله عز شأنه : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها » (١) وبقوله جلا وعلا : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » (٢) وقوله : سبحانه : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » (٣) الذى حض عقيبه على الصبر والإغضاء فقال جل شأنه : « ولئن صبرتم لهو

---

(١) سورة الشورى آيتا ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) سورة البقرة آية ١٩٤ .

(٣) سورة النحل آية ١٢٦ .

خير للصابرين . واصبر وماصبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »[١] .

وللقرآن الكريم افتنان فى روعة الأسلوب ، ففى آيات سورة الشورى يعقب آيات العدل بالترغيب فى العفو والإصلاح ، ويبهم أجر العافين المصلحين ليشعر بعظمته ، وفى سورة النحل نراه يعقب آية العدل بطلب الصبر بعد التمهيد له ببيان خيريته ، ثم يسلى رسوله ﷺ بأن صبره على إيذائه بقتل عمه سيد الشهداء حمزة والتمثيل به لا يكون إلا بالاعتصام بالله تعالى لعظم المصيبة فى هذا الحادث ، وينهاه أن يحزن ويضيق صدره بمكر أعدائه وأعداء الله فى دينه ويريه أن صبره وعدم حزنه وضيق صدره من تقوى الله وإحسان الإخلاص له والله مع المتقين المحسنين .

ومن هذا الباب قوله تعالى: «ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور»[٢] بعد بيان رفع الحرج والإثم عن المنتصر من ظالميه بقوله جل وجهه: «ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق »[٣]

وقد أثنى الله تعالى على أصفياء عباده المؤمنين ببيان أن سجيتهم أنهم يعفون قادرين ويغفرون متكرمين ، فقال تعالى : «وإذا ما غضبوا هم يغفرون»[٤] فهم مفطورون بإيمانهم على التكرم بالصفح والعفو ، لا ينتقمون لأنفسهم تخلقا بأخلاق رسول الله ﷺ فى الحديث الصحيح :(ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله) .

---

(١) آخر سورة النحل .

(٢) سورة الشورى آية ٤٣ .

(٣) سورة الشورى آية ٤١، ٤٢ .

(٤) سورة الشورى آية ٣٧ .

بيد أنهم كانوا يكرهون أن يستذلوا ، ولكنهم إذا قدروا عفوا وفيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ، فهم ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين .

وقد صح أن رسول الله ﷺ عفا عن جماعة فى نحو ثمانين رجلا تمالئوا على الغدر به وبأصحابه وهو نازل بالحديبية فأخذوا أخذاً . فلما قدر عليهم وأصبحوا بين يديه من عليهم وعفا عنهم وخلى سبيلهم .

وعفوه ﷺ عن أهل مكة يوم فتحها، ويده العليا عليهم وسلطانه مبسوط فوق هاماتهم مشهور مذكور ، وهم الذين آذوه أشد الإيذاء ، وآخرجوه من بلده وداره وآذوا أصحابه وعذبوهم أشد العذاب، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وشردوهم فى البلاد غرباء فقراء ، وألبوا عليهم العرب واليهود لحربهم ، وقتلوا كل من قدروا على قتله منهم ، ومثلوا بعمه سيد الشهداء حمزة ، وأدموا وجهه الشريف ، وكسروا رباعيته ، وخنقه شريرهم ابن ابي معيط وألقى الفرث والقذر على ظهره وهو يصلى ، ولكنه ﷺ حين قدر عليهم عفا عنهم ، وحين تمكن منهم صفح وغفر لهم .

روى أصحاب السيرة والسنن أنه ﷺ لما نزل مكة واطمأن الناس طاف بالبيت على راحلته ثم وقف على باب الكعبة فقال : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، يا معشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى

وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »[١].

ثم قال : (يامعشر قريش ، ما ترون أنى فاعل فيكم ؟) قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال لهم : (اذهبو فأنتم الطلقاء) .

وذكر ابن سعد : أنه ﷺ قال لهم : (مثلى ومثلكم كما قال يوسف لإخوته: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »[٢] .

وقد طلب الله تعالى من نبيه ﷺ أن يصفح عن السفهاء الذين كذبوه وآذوه واعتدوا عليه بالقول والفعل صفحاً جميلا . لا ضغن فيه ولكنه إعراض يكتنه الحلم والإغضاء فقال جل شأنه : «فاصفح الصفح الجميل »[٣] وقال عز اسمه : «فاصفح عنهم وقل سلام»[٤] فهذا إرشاد لرسول الله ﷺ حينما ضجر من إلحاحه فى دعوة المشركين إلى الله وإلى دينه الذى ارتضاه لعباده ، ومن إعراضهم عن قبول دعوته وإيذائهم له ولأصحابه ، فأمره الله سبحانه بالصبر عليهم ، والصفح عنهم ، ومسالمتهم ، وأخذهم بالرفق واللين والكلمة الطيبة ليتألف قلوبهم ويعفو عن إساءتهم فلا ينتصف منهم ولا يجبههم بمثل أقوالهم وأفعالهم .

ومن هذا النبع قوله تعالى : « واصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلا » [٥] فإن الله تعالى يأمر نبيه ﷺ أن يمسك عن مجازاة أعدائه من

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

٢) سورة يوسف آية ٩٢ .

(٣) سورة الحجر آية ٨٥ .

(٤) سورة الزخرف آية ٨٩ .

(٥) سورة المزمل آية ١٠.

الطغاة المشركين ، فلا يرد عليهم قولهم إذا سفهوا عليه ، ولا يرد عليهم بمثل فعلهم إذا آذوه واعتدوا عليه . بل يعرض عنهم مجملا فلا يكافوهم ، ويغضى عنهم متكرماً فلا يعاتبهم ، ويجانبهم مسالماً فلا يخالطهم ، ويداريهم متسامياً فلا يكاشفهم .

وهذا هو صبر أولى العزم من الرسل الذين أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يجمع فى عزيمته منتهى عزائمهم ، وفى صبره غايات صبرهم ،فقال له :«فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل»[1] فهو ﷺ مكلف أن يصبر صبر جميعهم لاصبر آحادهم ، لأن الله تعالى أراد أن يجمع له ماتفرق بين صفوة الخلائق من الفضائل ، لتكون كلها خلقاً سوياً له ومحامد فى شمائله .

ويشير إلى هذا المعنى حديث عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : ظل رسول الله ﷺ صائماً ثم طواه ، ثم ظل صائماً ، ثم طواه،ثم ظل صائماً، ثم قال : (ياعائشة إن الدنيا لاتنبغى لمحمد ولا لآل محمد : يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم فقال : (واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وإنى والله لأصبرن كما صبروا جهدى ولا قوة إلا بالله) .

ويؤكد هذا المعنى قول الله عز وجل بعد أن ذكر أعيان المرسلين وذكر ما آتاهم من الحكمة والنبوة : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده »[2] فكل صفة كريمة اتصفوا بها ، وكل خلق عظيم تخلقوا به،وكل هداية من الله جاءوا بها هى مطلوبة أن تكون من صفاته ﷺ وأخلاقه وهدايته .

---

(١) سورة الأحقاف آية ٣٥ .

(٢) سورة الأنعام آية ٩٠ .

ويبين الله تعالى لرسوله ﷺ منهج الهجر الجميل فى قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »[1] يقول له ربه تبارك وتعالى: خذ العفو عن المسيء خلقاً لك ، ولا تقطع صلاتك بالناس لما تلقى منهم من المكروه والإيذاء ، بل احتملهم وكن معهم آمراً بالمعروف ، وإذا جهل عليك سفهاؤهم فأعرض عنهم متجاوزاً عن حقك فى الانتصاف لنفسك منهم.

فالله تعالى لا يأمر رسوله ﷺ بهجر الناس هجراً يقطعه عنهم ويعزله عن مجتمعاتهم لأن ذلك يناقض طبيعة الرسالة وتبليغ الدعوة ، فلا يمكن أن يطلبه الله من رسوله ﷺ .

فهذا النهج الذى رسمته هذه الآية الكريمة فى بيان الهجر الجميل هو جماع مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، ولذلك لما نزلت هذه الآية سأل النبى ﷺ جبريل عن تأويلها والمراد منها ، فقال : (يا جبريل ماهذا ؟) قال جبريل عليه السلام : إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك .

ومن هنا كانت إجابة ام المؤمنين عائشة رضى الله عنها حينما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت عائشة : كان خلقه القرآن .

ومن أروع منازع الصبر الذى أمر الله به نبيه محمداً ﷺ أن يتخلق به ويتحلى بحلاه قوله تعالى : « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى »[2] فأنت ترى أن الله عز شأنه يأمر نبيه ﷺ بالصبر على ما يسمع

---

(١) سورة الأعراف آية ١٩٩ .

(٢) سورة طه آية ١٣٠.

من هجر القول وبذىء الكلم ، ولحش السفه ، وجهالة السوء من أعدائه ، وأعداء دعوته ، دعوة الحق والتوحيد وتحرير العقول من عبودية الجمود وبلادة التفكير ، ويأمره أن يستعين على أعباء هذا الصبر بالاستغراق فى مشاهد الجلال الإلهى مسبحاً الله بحمده شاكراً لأنعمه ، لتقر عينه وينعم بما يفاض عليه من خصيصة الرضا عن الله والرضوان من الله .

ويجرى فى مهيع هذه الآية أختها ونظيرتها فى قوله تعالى : « فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود »[1] فوحدة الأسلوب ووحدة اللفظ ، ووحدة التعبير إشراقة بيانية تنبعث من شمس العناية الربانية لاستدامة الاستغراق فى منازل التقديس .

بيد أن القرآن الحكيم لايكرر ، ولكنه يستعيد التعبير فى بعض المواقف ليضيف إليه فى موقف آخر انبثاقة من ضياء البيان تزيده قوة ، ففى آيتى سورة ق يقتصر على طلب الاستغراق فى شهود التقديس فى أصفى أوقات المناجاة دون ذكر لجزاء ثوابى على القيام بحق هذا الطلب ، وذلك لبيان أن هذا الاستغراق الشهودى مقصود لذاته بالنسبة لهذا النبى الكريم ﷺ ، فهو الطالب وهو المطلوب ، وهو الوسيلة وهو الأساس المرغوب .

وفى سورة (طه) يستطيل الفيض الإلهى فيذكر جــزاء معيناً خاصاً بموضعه على ما طلب منه من الصبر والاستعانة عليـه بالاستغراق فى شهود التقديس ، ويزيده فيجعل ثمرة هذا الاستغراق فى منازل الشهود هو الجزاء ، فيقول الله تبارك وتعالى لحبيبه ونبيه محمد ﷺ : (لعلك ترضى) بعنوان

---

(١) سورة ق آيتا ٣٩ ، ٤٠ .

الرجاء الذى يصور مشهداً من مشاهد الحفاوة والجلال يعجز عن بيانه أبرع البيان ، وليس الرجاء من الله توقع ، ولكنه وقوع .

وقريب من منهج هاتين الآيتين قول الله تعالى : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم »(١) .

وفى هاتين الآيتين — على مقتضى نهج القرآن فى تنائيه عن محض التكرار — لطيفة بيانية ، تتجلى فى تلطف الله تعالى بنبيه ﷺ وإشعاره أنه فى الذروة من مقام الحفاوة به والرعاية له إذ يقول له : (فإنك بأعيننا) لتقوى عزيمته ويشتد ساعده على احتمال ما يلقى فى سبيل دعوته من الأذى ، وهو ماض فى تبليغ أمر ربه .

ومثل هذه الآية فى شحذ العزيمة قوله تعالى : « فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار »(٢) والأمر بالاستغفار هنا إشارة إلى ما كان يلم به ﷺ من ضيق الصدر بإفك المشركين وتقولهم عليه بالزور والباطل كما يفسره قوله تعالى : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »(٣) فإن تعقيب أمره ﷺ فى سائر هذه الآيات بالصبر على تجافى المشركين وإيذائهم له ولأصحابه ، بأمره بالتسبيح والتحميد توجيه إلى أصدق معوان على الاعتصام بالصبر وقوة الاحتمال .

---

(١) سورة الطور آية ٤٨، ٤٩ .
(٢) سورة غافر آية ٥٥ .
(٣) سورة الحجر ثلاث آيات ختمت بها.

فكأنه قيل له : امض قدماً فى أداء رسالتك ، ولا تلتفت إلى سفاهة السفهاء ، وأعرض عنهم وتغاض عن قبيح أقوالهم وسيئ أفعالهم ، واشتغل بتنزيه ربك وحمده على جزيل نعمه ، فهو الذى رباك على موائد فضله ، ومنحك من فواضل لطفه فاجعل استغراقك فى شهود جلاله قرة عينك ورضا نفسك ، ومجمع أنسك : ومنتهى رجاوة قلبك .

والنبى صلى الله عليه وسلم هو القدوة العظمى : والأسوة الفضلى لأمته فى أخلاقه وسلوكه وأقواله وأعماله كما قال الله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »(١) .

ولهذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يطلب من المؤمنين أن يتخلقوا بأخلاقه فى صبره على الأذى ، وعفوه عمن سفه عليه ، وصفحه عمن أساء إليه ، ومسالمته لمن شغب عليه ، فيعفوا كما عفا ، ويصفحوا كما صفح ، ويسالموا كما سالم ، ويصبروا على الأذى كما صبر ويحتملوا البلاء كما احتمل، تاركين الانتصاف لأنفسهم من أعدائهم ، وهم قادرون عليهم فى قوة متمكنة فقال تعالى : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون »(٢) .

فلا يسافهوهم ، ويصبروا على أذاهم تأليفاً لقلوبهم ، عساها تلين ، فتقبل

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢١ .
(٢) سورة الجاثية آية ١٤ .

على الحق وتقبله وتؤمن به وتهتدى بهدى الله الذى جاء به على يدى خاتم النبيين محمد ﷺ .

وقد أثنى الله عليهم بأنهم استجابوا لله ولرسوله ، فكانوا كراماً فى غفرانهم سفاهة السفهاء ، وإعراضهم عن حماقة الأغبياء ، ورفقهم فى مخاطبة الجهلاء لا تزيدهم شدة الجهالة إلا حلماً ، ولا تزيدهم المبالغة فى السفاهة إلا تكرماً ، فوصفهم الله فيما وصفهم به من خلع الاختصاص بالعبودية بهذين الوصفين الكريمين فقال تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً »(١) . وقال عز شأنه : « وإذا مروا باللغو مروا كراماً »(٢) .

ويدفعون الجهالة بسداد القول فى لين ورفق ، ويمرون باللغو من سقط القول وقبيح الفعل وسفه السفهاء كراماً معرضين عنهم تكرماً عما يشينهم . وتنزهاً عن مداخلة الباطل وملابسة العبث الجاهل كما قال تعالى : « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين »(٣) .

* * *

فالتسامح الذى يأمر به الإسلام فى هذه المرحلة من مراحل الجهاد بلغ مرتبة كان بها جماع مكارم الأخلاق ، ومحامد الشمائل ، ومحاسن الشيم ، وقد أرادها الإسلام خلقاً للمؤمنين فى حياتهم ، وسجية فى أعمالهم ، وأسلوباً

---

(١) سورة الفرقان آية ٦٣ .

(٢) سورة الفرقان آية ٧٢ .

(٣) سورة القصص آية ٥٥ .

فى دعوتهم إلى الله تعالى ، وطبيعة تصدر عنها مقاصدهم ، وتترجم إليها نياتهم وضمائر قلوبهم .

ومن هنا نرى النبى ﷺ يجعل مكارم الأخلاق غاية لرسالته الخاتمة لرسالات السماء ، وهدفاً لبعثته بالهدى ودين الحق ، فيقول ﷺ فى الحديث الصحيح :(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

والقرآن الكريم يبلغ ذروة البراعة فى روعة البيان عندما يتحدث عن هذا السمو التربوى فى توجيه النبى ﷺ ، وإرشاده إلى طريقة تربية أمته التى وضع الله تعالى فى يدها أزمة قيادة الإنسانية ، ومقاليد نهوضها بقوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١) .

ولن تستطيع هذه الأمة الإسلامية أن تقود الإنسانية فى حياتها آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر إلا إذا قام بناء مجتمعها على دعائم مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم .

يقول الله تعالى فى التوجيه التربوى لهذه الأمة :«ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين . ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم.وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » (٢) .

فهذه الآيات تقرر أنه لا أحد أحسن قولا من المؤمن الذى يدعو إلى الله على بصيرة فى دعوته ، وهو يعمل صالحاً فى حياته ليكون أسوة للداعين بدعوته معلناً على الملأ أنه أسلم وجهه إلى الله تعالى فى زمرة المؤمنين .

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠ .

(٢) سورة فصلت آيات ٣٣، ٣٤، ٣٥.

والدعوة إلى الله تعالى مراتب ، أجلها دعوة الأنبياء لأنهم صلوات الله عليهم المؤسسون لها ، وتليها فى الفضل دعوة العلماء لأنهم ورثة الأنبياء ، ودعوة العلماء درجات أحسنها وأرضاها دعوة القدوة العملية الصالحة ، والحكمة المؤثرة ، وهؤلاء هم الأدلاء على الله بسمتهم وعملهم وقولهم ، وهم الحكماء الذين يحببون الله تعالى إلى خلقه بتعظيم نعمه ومظاهر فضله وإحسانه .

وأقطع درجات دعوة العلماء للشبهات ، وأثبتها فى مجال الحجاج دعوة الحجة العقلية والبرهان وهى دعوة العلماء بطرائق الاستدلال العقلى ، الناظرين فى ملكوت الله لإقامة الحجة من آيات الكون على توحيد الله وكمال صفاته .

وأعمها نفعاً ، وأقربها إلى قلوب العامة وعقولهم الساذجة،دعوة الموعظة الحسنة التى تخاطب العواطف ، وتثير الوجدان ، وتدعو إلى التمسك بأحكام الشريعة وتبيينها للناس .

وتأتى بعد دعوة العلماء بمراتبها دعوة الملوك وأصحاب السلطان ، وهى دعوة إلى الله تعالى بإقامة معالم الجهاد بالقتال ، إذا لم تفد دعوة العلماء ، أو إذا تعثرت فى معاثر الظلم والطغيان الخارجى ، أو استفحل العبث بأحكام الشريعة فى الداخل ،فيقيم الملوك وذوو السلطان حدود الله وزواجره على العابثين بأحكام الدين وآدابه وأخلاقه ، حتى يعودوا إلى ساحة الاستقامة .

ثم تقرر الآيات أن الدعوة إلى الله بمراتبها ودرجاتها لا بد أن تصادفها عقبات تقف فى طريقها ، ولا بد من رسم طريق لتذليل هـــذه

العقبات ، وقد رسمت الآيات هذا الطريق فى قوله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »[١] .

ويدخل فى الحسنة دخولا أولياً الدعوة إلى الدين الحق ، والصبر على جهالة أعدائه والإغضاء عن سفاهتهم وإيذائهم وترك الانتقام منهم ، وعدم الالتفات إليهم بالإعراض عنهم والإحسان إليهم فى أمور الدين وأمور الدنيا ومعاشها .

وتشمل السيئة سوء معاملة أعداء الحق للداعين إليه ، والإضرار بهم ، وإيذائهم بالكلمة البذيئة والفعلة القبيحة ، فأرشد الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الطريق الأحسن فى تأليف القلوب الجامحة ، والنفوس الحردة ، فقال له : (ادفع بالتى هى أحسن) ، ومعناه ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريقة التى هى أحسن الطرق فى مسالك الأخلاق ، فإنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ، ولم تقابل سفاهتهم بالغضب والإيحاش استحيوا من أنفسهم وتركوا تلك الأخلاق المذمومة ، والأفعال القبيحة التى يعاملونك بها ، وانقلبوا من العداوة إلى المحبة ومن البغضة إلى المودة .

ولما أرشد الله تعالى إلى هذا الطريق النافع فى الدين والدنيا ، وعظمه ، بين أنه طريق محفوف بالمكاره لا يقدر على سلوكه إلا الذين ملكوا أزمة أنفسهم فصبروها على احتمال الشدائد ، وتجرع مرارات الحياة وكظم الغيظ ، وذلك لا يتأتى إلا لمن كان متخلقاً بالفضائل النفسية مجبولا على

---

(١) سورة فصلت آية ٣٤ .

تغليب القوى الروحانية فى طبيعته على غرائزه المادية ، لأن الاشتغال بالانتقام لا يحصل إلا من نفس قليلة الحظ من الفضائل النفسية ، تتأثر بالواردات الخارجية والحظوظ الدنيوية لأن النفس القوية فى جوهرها الروحانى الثرية بالفضائل النفسانية لا تتأثر بعوامل الواردات المادية ، ولا تقيم لهـا وزناً أمام أهدافها السامية ، فلا تشتغل بالانتقام ورد الاعتداء ، لأن ذلك يصرفها عن الوصول إلى مقاصدها الإصلاحية النافعة ، ولكنها تغضى على القذى ، وتتسامح بتحمل الأذى وتعفو وتصفح عن حقها فى سبيل تحقيق الغرض الأعظم من الدعوة إلى الله تعالى .

وهذا الخلق الكريم — خلق التسامح الرحيم — هو الذى يوجه التشريع الإسلامى فى هذه المرتبة من مراتب الجهاد بالقتال بعد الإذن فيه لدفع الظلم ورد الاعتداء .

وقد كان هذا التسامح هو العنوان الضخم فى حياة المسلمين طيلة مرحلة الدعوة فى مكة المشرفة وكانت شواهد التاريخ أصدق دليل عليه .

(المرتبة الثانية)

الأمر بالقتال لرد الاعتداء :

هذه المرتبة من مراتب جهاد القتال هى مرتبة الأمر بالقتال ، وفرضه دفاعاً عن النفس ورداً للاعتداء ، ومقاومة للظلم وانتصافاً للعدل والحق من أهل الباطل ، وفتحاً لطريق الدعوة إلى الله وإزالة العقبات التى يضعها أعداؤها فى طريقها .

وهذه المرتبة لم تجيء فى التشريع الإسلامى ومصدريه الأصليين إلا بعد أن استنفد المسلمون جميع وسائل المسالمة والصفح عن جهالة المشركين ، والعفو عن سفاهتهم ، والصبر على آذاهم استجابة لأمر الله مع ورود الإذن لهم بقتال من ظلمهم ، بعد أن يئس المسلمون من استجابة المشركين للحجة والبرهان ، وبعد أن يئسوا منهم أن تلين قلوبهم لدواعى القربى وعواطف الرحمة الإنسانية بترك الظلم والفجور فى إيذائهم وتعذيبهم .

ولم تجيء هذه المرتبة إلا محدودة المعالم محصورة المجال ، بتبيين من هم الذين أمر الله بقتالهم ، وتبيين دوافع هذا القتال ، وحكمته وغايته التى قصد إليها الإسلام من الأمر به وتشريعه .

والفرق بين هذه المرتبة من مراتب جهاد القتال والمرتبة السابقة أن هذه المرتبة قد أمر الله تعالى فيها بالقتال بصريح لفظه ، وفرضه على المؤمنين لرد الاعتداء . وأما المرتبة السابقة فليس فيها إلا إباحة القتال والإذن فيه دفاعاً عن النفس ورداً لظلم الظالمين الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم وشردوهم فى البلاد غرباء فقراء ، بعد أن كان القتال محظوراً فهما متفقتان فى سبب شرعية القتال وهو رد الاعتداء ، والدفاع عن الحق الإنسانى ، وإطلاق الحرية أمام الدعوة إلى الله وإلى دينه ، ولكنهما مختلفتان فى منهج القتال ، فذاك يقوم على أساس الإذن والإباحة بعد الحظر والتحريم وهذا يقوم على الأمر الواجب ، الذى لا يجوز تركه إلا تكرماً .

وقد جاء هذا الإذن ومعه ترغيب الله تعالى فى الصبر على الأذى والعفو عن الإساءة والصفح عن الاعتداء ، والإغضاء عن السفاهة ، والإعراض

عن الجهالة ، رجاء أن تتفتح قلوب أعداء الحق للهدى والنور الذى جاءت الدعوة إلى الله به ، فتتقلب الكراهية فى نفوسهم إلى المحبة ، والبغضة إلى مودة ، والإعراض عن الحق إلى إقبال عليه ، ونظر فيه وتأمل فى دلائله وقبول لهدايته .

وقد وردت فى هذه المرتبة آيات متتابعة فى سورة البقرة ، وهى سورة مدنية نزلت بعد الهجرة ، وهى أكثر سور القرآن الكريم أحكاماً ، وأطولها فى بيان التشريع ، شملت أحكامها جميع أركان الإسلام وأهم فروعه ، فذكرت فيها الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج والجهاد والدين ، والربا ، وأحكام الأسرة ، والترغيب فى الصدقة ، إلى جانب قصص الأنبياء وأقوامهم .

وفيها جاء الأمر بجهاد القتال فقال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين »(١) .

قال أئمة الإسلام : هذا أول ما نزل فى الأمر بالقتال وفرضه بعد الإذن فيه وإباحته بقوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » ولا خلاف بين فقهاء الأمصار وعلماء الأمة أن القتال كان محظوراً قبل الهجرة بآيات

---

(١) سورة البقرة آيات ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤ .

الصبر ، والعفو ، والصفح ، والغفران ، التى نزلت بمكة ، والمسلمون يلاقون أشد أنواع التعذيب وأقسى ألوان الإيذاء .

فلما استيأس المسلمون من استفتاح قلوب المشركين بمكة لضياء الحق ، ونور الهداية — واشتد عليهم الإيذاء ، وبرح بهم الألم ، وتمت بيعة العقبة بين رسول الله ﷺ والأنصار ، وقويت بها شوكة الإسلام واشتد بالأنصار عضد المسلمين وأمرهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، حيث الجو الفسيح للدعوة إلى الله وإلى دينه فهاجروا إليها ، والتأم جمع المهاجرين والأنصار وهاجر إليهم النبى ﷺ بعد أن أعلمه الله تعالى بالمؤامرة الخبيثة لاغتياله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا فى جمعهم قوة مرهوبة تستطيع أن تنتصف للحق ، وتستطيع أن ترد الظلم وتدفع الضيم أذن الله تعالى لهم فى الانتصاف لأنفسهم من ظالميهم إن شاءوا الأخذ بالعدل ، ورغبهم مع هذا الإذن فى الصبر والعفو والصفح واحتمال الأذى سماحة وتكرما .

ولكن أعداء الحق وأحلاس الوثنية ، وجنود الشرك أبو إلا العناد والعتو فى الإجرام ، فاشتد موقفهم من المؤمنين سوءاً وتفننوا فى الصد عن سبيل الله ، وازدادوا طغياناً إلى طغيانهم وجور إلى جورهم .

بيد أنهم وقعوا فى أودية الحيرة والضلال ، لا يجدون مخرجاً بعد أن صنعوا بأيديهم معول هدم شركهم والقضاء على وثنيتهم ، فهم الذين أخرجوا المسلمين إلى مهاجرهم ، فكانوا مع إخوانهم الأنصار القوة الضاربة لحماية الحق ورد اعتداء الظالمين .

ولكن النبي ﷺ أراد أن يرى أعداء الحق بعد تبدل الموقف ، وظهور قوة المسلمين الظافرة فى مجتمعهم الجديد أنه لايرغب فى الحرب والقتال .

وإمعاناً منه ﷺ فى قصد المسالمة وإدخال الناس فى السلم بعد أن انتصر على أعدائه وهزمهم فى مواقع القتال التى جرت بينه وبينهم تجهز النبى ﷺ فى جمع من أصحابه للسير إلى مكة معتمراً ، لايقصد إلا زيارة البيت الحرام وتعظيمه طائفاً متعبداً ، فلما سمع المشركون بسيره هبوا لصده ، ومنعوه من أداء عمرته ، وصالحهم بمعاهدة الحديبية التى كانت أروع صورة للتسامح الإسلامى مع أعدائه ، وأروع صورة للصبر الذى ادرع به النبى ﷺ ، وأروع صورة للأخذ بترغيب الله تعالى فى العفو والصفح وقوة الاحتمال ، ورجع النبى ﷺ بأصحابه، وهم يطئون على جمر الغضا من شدة مالحقهم من الغم والألم لقسوة الشروط التى قامت عليها هذه المعاهدة ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم من ربه مالا يعلمه سواه ، فكان على يقين أنه لن يضيعه . وأنه ناصره نصراً عزيزاً ، وأنه سيتم نعمته على عباده المؤمنين، وأنه سيظهر دينه على الدين كله تحقيقاً لفضله وإنجازاً لوعده ، فاحتمل ﷺ عبء القضية حتى فرج الله عن المؤمنين الغمة التى نزلت بهم فإنهم لم يلبثوا أن ساروا قافلين إلى مدينتهم حتى فاجأتهم البشرى فى طريقهم بالفتح المبين ، ونزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الفتح وقرأها صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، فسرى عنهم ما كان داخلهم من الغم والألم وفرحوا فرحاً شديداً .

وكان فى شروط المعاهدة أن يرجع المسلمون فى عامهم هذا فلا يدخلون مكة ، ويجيئون من العام القابل ، وتخلى لهم مكة فيدخلونها مجردين من السلاح

ويعتمرون ثم يعودون . وأقبل الموعد من العام التالى فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجهز أصحابه لقضاء عمرتهم وأداء نسكهم ، وتخوف المسلمون غدر المشركين بهم كما غدروا بحلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعانوا عليهم ، وكره المسلمون القتال دفاعاً عن أنفسهم فى الحرم والشهر الحرام إذا أوقع بهم المشركون غدراً وخيانة ، فنزل القرآن الكريم يأمرهم بأن يقاتلوا من قاتلهم فى الحرم أو غيره دفاعاً عن أنفسهم .

اشترط القرآن لهذا القتال شرطين :

أولهما : أن يكون قتال المسلمين فى سبيل الله ، وهذا معناه أن يقاتل المسلمون من يقاتلهم ليصدهم عن سبيل الله ، ويقف فى طريق الدعوة إلى الله ويغدر بما أعطى من عهد وميثاق ، ويبقى بعد ذلك الترغيب فى العفو والصفح قائماً إذا كان القتال لحق شخصى ، أو حق اجتماعى يتعلق بأمور الدنيا والتغالب على حياتها واحتكارها ، والنبى صلى الله عليه وسلم يبين بما لا يدع مجالا للشك معنى القتال فى سبيل الله فيقول فى الحديث :

(من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله) .

ثانيهما : النهى عن الاعتداء فى القتال ، وهذا عام شامل ، فلا يقاتل من كف يده عن قتال المسلمين ، ووقف منهم موقف المسالمة ، وأعلن السلام ، وكذلك لا يقاتل من لم يكن شأنه القتال كالنساء ، والصبيان ، والعجزة من الشيوخ ، والزمنى الضعفاء ، والفلاحين والأجراء ، والذين اعتزلوا حياة الناس فى الصوامع من الرهبان ، ولا يجوز بمقتضى هذا الشرط أن يمثل المسلمون بأعدائهم . ولا أن يحرقوا شجراً أو زرعاً ، أو يقتلوا حيواناً لغير مصلحة : لأن هذا كله اعتداء لا يحبه الله .

ويوضح هذا تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم لهذا المبدأ فى فعله وقوله : وتأسى خلفائه وولاة أمر المسلمين من بعده به صلى الله عليه وسلم ، ففى الحديث الصحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول لسراياه وبعوثه للدعوة إلى الله : (اغزوا فى سبيل الله وقاتلوا من كفر بالله ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الوليد وأصحاب الصوامع) . وكان صلى الله عليه وسلم ينكر أشد الإنكار قتل النساء والصبيان ، ففى صحيحى البخارى ومسلم عن ابن عمر قال : وجدت امرأة فى بعض مغازى النبي صلى الله عليه وسلم مقتولة فأنكر صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان .

وفى كتاب أبى بكر الصديق رضى الله عنه إلى يزيد بن أبى سفيان أنه قال له : إنى موصيك بعشر : لاتقتل إمرأة ولا صبياً ، ولا كبيراً هرماً ، ولا تقطعن شجراً مثمراً ، ولا تخربن عامراً ، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، ولا تحرقن نخلا ، ولا تغرقنه ، ولا تغلل .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : اتقوا الله فى الذرية والفلاحين الذين لاينصبون لكم الحرب ، وكان عمر بن عبد العزيز لايقتل الحراثين ، وروى الطبرى عن يحي بن يحي الغسانى أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن قوله تعالى : (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين) . فكتب إليه عمر رضى الله عنه : إن ذلك فى النساء والذرية ومن لم ينصب لك الحرب منهم .

وعن ابن عباس فى تفسيرها أنه قال : لاتقتلوا النساء ولا الصبيان ولا الشيخ الكبير ، ولا من ألقى إليكم السلم منهم وكف يده .

وقد أنذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته سوء عاقبة الاعتداء ، ومجاوزة

الحد الشرعي فى قتال الأعداء ، وخوفهم من عواقب الظلم ، وغرور الانتصار ، وشفاء حزازات النفوس ، فقال فى حديث حذيفة : (إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة ، قاتلهم أهل تجبر وعداوة فأظهر الله أهل الضعف عليهم فعمدوا - أى أهل « الضعف » - المنتصرون إلى عدوهم فاستعملوهم فأسخطوا الله عليهم إلى يوم القيامة) .

وبهذا يظهر أن أول آية نزلت بفرض القتال على المؤمنين - بعد حظره ثم إباحته - والإذن فيه تأمرهم أن يقاتلوا من قاتلهم دفاعاً عن الدعوة إلى الله التى هى سبيله ، دون من لم يكن منه قتال لهم ، ويلزم من ذلك الكف عمن كف يده من عامة أهل الكفر فلم يقاتل .

وقد عقب القرآن الكريم شرط النهى عن الاعتداء بلون من التهديد الشديد والوعيد الزاجر لمن خالف مضمونه ، وشفى حزازات نفسه ، متجاوزاً حد القتال فى سبيل الله الذى أوضحه وشرعه لعباده فقال : (إن الله لا يحب المعتدين) الذين يجاوزون حدود الله ، فيستحلون من أعدائهم ما حرمه دينه وشرعه ، وإذا كان الله لا يحبهم ، فهم على طرف الخطر من شفا الإيمان ، وهذا الأسلوب أبلغ أثراً فى نفوس المسلمين من التصريح بنوع العقاب الذى ينال المعتدين فى القتال .

وبهذا يكون القرآن الكريم قد وضع القاعدة الأولى فى منهج تنفيذ فرضية جهاد القتال ، فهو قتال لمن يقاتل ، وهو دفع للظلم ، ورد للاعتداء ، وهو قتال فى سبيل الله ، ونصرة دينه لتكون كلمة الله هى العليا ، وليس قتالا فى سبيل المنافع الدنيوية ، ولا فى سبيل المنافسات الشخصية بين الأفراد والجماعات ، وهو قتال منصف ، لا اعتداء فيه ، ولا ظلم ، ولا غدر ، ولا خيانة .

وبعد أن وضع القرآن الكريم هذه القاعدة تابع البيان فى موقف المؤمنين مع هؤلاء الذين نصبوا لهم الحرب والقتال فقال عز شأنه : (واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل) .

فهؤلاء المقاتلون للمؤمنين معتدون ظالمون ، يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم حيث أصابوهم ويقتلوهم أينما أصابوا مقاتلهم ، وكيفما أمكن قتلهم ، ورد ظلمهم ، وكما أخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم ، فليخرجهم المؤمنون إذا ظفروا بهم من حيث أخرجوهم ، عدلا بعدل ومكيالا بمكيال .

وإذا كان للقتل عظيم الأثر فى النفوس ، تستبشعه ، وتستفظعه لما فيه من سفك الدم وإزهاق الأرواح فإن فتنة المؤمنين فى دينهم وصب أنواع العذاب والإيذاء عليهم ليردوهم عن دينهم إلى الكفر وعبادة الأوثان أشد على النفوس المنصفة من قتل المعتدين الظالمين دفاعاً عن النفس وانتصاراً للحق والدعوة إلى الله .

فالمؤمنون إنما أمروا بقتل أعدائهم الذين بدءوهم بالقتال حيثما ظفروا بهم ، لأنهم مظلومون مشردون عن أوطانهم وديارهم وليس لهم طريق إلى الانتصاف - بعد إطالة حبل الصبر على الأذى والصفح عن الجهالة والسفاهة - إلا هذا الطريق الذى ألجأهم إليه الظالمون المعتدون فهو طريق فرضه الاعتداء على المؤمنين للدفاع عن النفس ورد الظلم وردع للظالمين .

وكما يكون فى هذا القتال الذى فرض على المؤمنين وأمروا به إزهاق لأرواح المشركين . المعتدين الظالمين ، ففيه أيضاً تعرض من المؤمنين للقتل استشهاداً فى سبيل الله والدفاع عن الحق وعن الكرامة الإنسانية اتقاء للفتنة فى دينهم وردهم إلى الشرك والوثنية الذى يعقبهم الخزى والذل فى الدنيا ، والخلود فى عذاب الأبد فى الآخرة .

فالتعذيب الذى يلقاه المؤمنون لو استسلموا للمشركين أشد على نفوسهم من القتل شهداء فى سبيل الله ، وإعلاء كلمته ، ونصر دينه ، فالفتنة واقعة على المؤمنين ، وهى — فى نظر النفوس المنصفة أشد وقعاً وبشاعة من قتلهم أعداءهم دفاعاً عن أنفسهم ، وأشد وقعاً من تعريض المؤمنين أنفسهم للقتل استشهاداً فى سبيل الله الذى هو أحب إليهم من فتنتهم فى دينهم .

وهذا من قبيل تهوين القتل فى سبيل الله على المؤمنين حتى يقبلوا على جهاد أعدائهم فى يقين بموعود الله ، وشجاعة وبصيرة من ربهم ، وإيمان بما أعده الله لهم من الثواب العظيم وفيه ترغيب فى الاستشهاد فى سبيل الله ، وفداء العقيدة والدين بالنفس ، وهى أعز ما يملك المؤمن فى الحياة .

وقد ذكر القرآن بعد ذلك خصيصة للمسجد الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمناً لمن دخله ، تعظيماً له وتشريفاً لقدره ، بأن قتال المؤمنين للمشركين عنده لا يكون إلا بعد أن يبدأ المشركون بالقتال فيه ، وينتهكوا حرمته حتى لا تكون لهم حجة على المؤمنين كما شنعوا بحادث الشهر الحرام والقتال فيه كما حكى الله سؤالهم وتشنيعهم بقوله تعالى : «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير» .

فإن بدأ المشركون القتال معتدين على المؤمنين وجب على المؤمنين دفعهم وقتلهم جزاء لهم على كفرهم واعتدائهم .

وهذا فى الواقع ليس تخصيصاً للمسجد الحرام بحكم شرط فى قتال المشركين لا يكون فى غيره ، وإنما هو تأكيد لمعنى قوله تعالى: «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم» . لأن فرض القتال فى هذه المرحلة مشروط بمقاتلة من يقاتل ، ولا يتم ذلك إلا إذا اعتدى المشركون وبدءوا بالقتال .

وإنما جاءت خصيصة المسجد الحرام بالنص عليها دفعاً لما عسى أن يتوهم أن حرمة المسجد تمنع من رد الاعتداء وقتال من قاتلوهم عنده لقوله تعالى : « ومن دخله كان آمناً » ولما روى فى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ قال يوم فتح مكة : (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة ، وأنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ولم يحل لى إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة) .

والمقصود أن بيان حرمة المسجد الحرام لا تكون دريئة يحتمى بها الظالمون ، لقتل المؤمنين فيه وانتهاك حرمة المسجد ، دون أن يجدوا من المؤمنين دفاعاً عن أنفسهم ورداً على القتال بقتال مثله ، فالله تعالى رفع هذا الوهم بالنهى عن قتال المشركين عند المسجد الحرام حتى يبدءوا بقتال المؤمنين فيه ، فإذا بدءوا بالقتال فيه ، واعتدوا على حرمة المسجد وحرمة المؤمنين وجب قتلهم جزاء كفرهم ، واعتدائهم على أهل الإيمان ، وانتهاكهم حرمة البلد الحرام والمسجد الحرام ، فإن ثابوا إلى الإيمان ، ودخلوا فى ساحته مسالمين فالله تعالى يقبلهم ، ويغفر لهم ما فرط منهم فى حال كفرهم ، ويعفو عنهم لأنه غفور رحيم ، وكذلك إن ثابوا إلى كف أيديهم عن القتال ودخلوا فى السلم والمسالمة ولو كانوا على شركهم تركوا لمسالمتهم لا يهاجون ولا يفزعون .

وفى قوله تعالى فى جانب نهى المؤمنين عن قتال المشركين : « عند المسجد الحرام » — بظرف (العندية) الذى يجعل القتال بعيداً عن ذات المسجد ، وفى قوله فى جانب قتال المشركين (حتى يقاتلوكم فيه) بلفظ (فى) المفيد لظرفية الاحتواء الذى يفيد أن قتال المشركين للمؤمنين الموجب

لقتالهم والرد عليهم هو الذى يكون فى داخل المسجد — لطيفة بيانية فى الأسلوب القرآنى تفيد أن شرط قتال المؤمنين للمشركين أن يظهر انتهاكهم لحرمة المسجد الحرام ظهوراً بيناً لا يمترى فيه أحد وذلك بجعل ذات المسجد ظرفاً لقتالهم وميداناً لاعتدائهم . وعندئذ يجب أن يقاتلوا عنده ، لا فيه إجلالا وتعظيماً لحرمته عن دناسة القتال فيه ، فكأن المشركين لم يعتدوا بحرمة المسجد ابتداء فقاتلوا المؤمنين فى داخله ، وكأن المؤمنين لم يرضوا أن يجعلوا من المسجد الحرام مباءة للقتال ودنسه فقاتلوهم عنده .

ومغزى ذلك أن القرآن الكريم ينبه المؤمنين على وجوب تعظيم المسجد الحرام ولو قوتلوا فيه ، ويكشف عن سوء طوية المشركين فى أنهم لا يقيمون لحرمة المسجد وزناً أمام أغراضهم وشهواتهم .

ثم أمر الله تعالى تأكيداً لما سبق بقتال هؤلاء الذين قاتلوا المؤمنين فى المسجد الحرام وجعل لهذا القتال غاية ينتهى عندها ، وتلك الغاية هى القضاء على الفتنة وأسبابها ودوافعها .

وكان أهم تلك الأسباب والدوافع ضعف المسلمين وقلتهم واستطالة المشركين عليهم بقوة شكيمتهم وقهر سلطانهم الذى كانوا يفتنون به المؤمنين بالتفنن فى تعذيبهم ليردوهم عن دينهم إلى الوثنية والشرك .

فهذا أمر المؤمنين أن يكون قتالهم المشركين المعتدين — الذين بدءوهم بالقتال فى البلد الحرام والمسجد الحرام — قوياً قاهراً ، وأن يضربوا الشرك وحزبه فى الصميم ، ويقضوا على قوة المشركين وسلطانهم بضربات حاسمة لا تبقى لهم سلطاناً ولا شوكة يعودون بها إلى الفتنة للمسلمين عن دينهم .

وإذا خضدت شوكة لشرك وكسرت قناة المشركين ، وترعبلت قوتهم كان الدين لله خالصاً ، وانتصر التوحيد على الشرك والوثنية ، وهذا فى الواقع نتيجة حتمية لإضعاف قوة الكفر وقهر أهله بقوة الإسلام وعلو شأنه وعزه أهله ، فإن انتهى المشركون عن العدوان وكفوا عن الظلم ووضعوا سلاح القتال ودخلوا فى ساحة الإيمان ، وأعلنوا المسالمة ودخلوا فى السلم وجب تركهم ومسالمتهم فلا يعدو عليهم أحد ، لأنهم كفوا عن الظلم ولا عدوان إلا على الظالمين .

وهذا هو معنى قوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » الذى تأسست عليه مرتبة جهاد القتال الثانية بالأمر به وطلبه فرضاً واجباً فهم مأمورون ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم لأن قتال من لم يقاتل اعتداء وعدوان ، والله تعالى لا يحب المعتدين ولا يرضى بالعدوان إلا على الظالمين .

ثم ذكر القرآن قاعدة عامة فى تقرير العدل الذى هو الأساس الأول فى التشريع الإسلامى عامة وفي جهاد القتال خاصة فقال تعالى : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص » وهذا حكم عام ، وإن كان نزول الآية بسبب حادث خاص بقصة الحديبية وعمرة القضية ، فإن المشركين لما أبوا المسالمة وصدوا رسول الله ﷺ عن زيارة البيت الحرام معتمراً سنة ست من الهجرة فى شهر ذى القعدة ، وهو شهر حرام يحرم فيه القتال ، وعقد معهم صلحاً على أن يعود من العام القابل فيدخل مكة زائراً .

ورجع رسول الله ﷺ فى عامه هذا ، فلما كان العام المقبل من سنة سبع للهجرة خرج ﷺ لقضاء عمرته ومعه أصحابه فى شهر ذى القعدة من هذه السنة ، وهو الشهر الذى كان المشركون قد صدوه فيه عن الوصول إلى البيت عام أول ، وأدى رسول الله ﷺ نسكه ثم خرج عن مكة وفاء لأهلها بالعهد الذى صالحهم عليه ورجع إلى المدينة ، فأنزل الله الآية يمتن فيها على نبيه

صلى الله عليه وسلم ويخبره أن الشهر الحرام الذى أوصلكم فيه إلى حرمه وبيته حتى قضيتم مناسككم على كراهة من المشركين بالشهر الحرام نفسه الذى صدكم فيه المشركون فى العام الماضى فأقصكم الله تعالى منهم عدلا منه سبحانه وتعالى .

ثم قرر القرآن الكريم هذه القاعدة فى قوله تعالى « والحرمات قصاص » أى بمجازاة حرمة بحرمة ، وعدل بحادث مماثل لحادث واقع من غير عدوان ولا ظلم ، وهذا عام فى كل فعل وكل زمان وكل مكان .

ثم قضى على ذلك بما يؤكده فى صورة محذرة للمؤمنين حتى لا يسرفوا فى تجاوز المجازاة بالمثل فقال : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وهذا رد إلى صدر الآية ، فكأنه قيل فمن قاتلكم فقاتلوه كما قاتلكم ، لأن الحرمات قصاص ، ولا تعتدوا بقتال من كف يده عن قتالكم وسالمكم أو بقتل من ليس من أهل القتال ، فهو أمر بالعدل مع جميع الناس حتى مع المشركين .

ثم بين القرآن أن الوقوف مع العدل فى المجازاة من تقوى الله ، والتقوى من صفات أهل الإيمان الذين ينصرهم الله ويؤيدهم بقوته لأنه معهم فقال : « واتقوا الله » فى لزوم حدوده التى حدها لكم ، واعلموا مشعرين أنفسكم باليقين أن الله بتأييده ونصره مع المتقين الذين يلزمون حدوده فلا يجاوزون معالم العدل التى نصبها لعباده فى قصاص الحرمات ، ومنهج جهاد أعدائه أعداء دينه ، فإن عداوتهم لا تحل ظلمهم ، وقتال من لم يقاتل منهم ، ومن أعطاكم السلام وكف يده عنكم ، فإذا اتقيتم الله ولزمتم ما حده لكم نصركم الله وأيدكم وكان معكم بجنده وقوته لأنه مع المتقين .

ويدخل فى إطار هذه المرتبة من مراتب جهاد القتال جميع الأوامر

والترغيبات والتحريضات التي وردت آياتها بالقتال المشروط الذي ينتهي في غاياته وأهدافه إلى رد الاعتداء والدفاع عن الحق المشروع ، لكل إنسان بمقتضى إنسانيته وبمقتضى ما طبعت عليه النفوس البشرية من كراهية الشر وبغض الفساد ، ووجوب مقاومة أسبابهما.

وبمقتضى وجوب قيام القادرين على محاربة الظلم والاستبداد ، لحماية الإنسانية من الانحلال الاجتماعي إذا استشرى الشر والفساد في المجتمعات البشرية .

وبمقتضى وجوب إقامة دعائم الإصلاح الإنساني فكرياً واجتماعياً لضمان استقرار الأمن والتحرر من الخوف والقلق النفسي الذي يفسد الحياة .

بل بمقتضى وجوب توحيد الإنسانية بردها عن عوارض التفرق والمشاحنات التي تخلقها في الأفراد والجماعات الأنانية وحب الاستئثار بالمنافع إلى أصلها الأول في الإخاء الحقيقي الذي يربطها بأصل وجودها أسرة واحدة تعبد رباً واحداً وتستهدف غاية واحدة .

فالقتال لتخليص المستضعفين من النساء والأطفال ، وعجزة الرجال من بشاعة الاستبداد والظلم الذي يعيشون في نيرانه بين يدي جلاديهم من الظلمة المستبدين ، جهاد مأمور به في الإسلام مرغب فيه أشد الترغيب ، محرض عليه أقوى التحريض مثاب عليه أعظم الثواب .

والقتال في سبيل كف بأس أعداء الحق وطغيان أعداء الإسلام والمسلمين المتربصين بهم الدوائر وكسر حدة الباطل وإضعاف شوكة أهله ، وزعزعة جموعهم وتمزيق تألباتهم ضد الحق وأنصاره قتال جهاد مأمور به في الإسلام مرغب فيه ، مأجور عليه أعظم الأجر من يخوض غمراته لإعلاء كلمة الحق ونصرة المظلومين .

والقتال فى سبيل تأمين سير الدعوة إلى الله . ورفع العقبات عن طريقها وإزالة معالم الباطل التى يقيمها أعداء الحق فى طريقها جهاد مأمور به فى الإسلام ومفروض على المسلمين القيام به فى دائرة العدل التى أمر بها القرآن فى قوله: « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

والقتال فى سبيل القضاء على الفتنة فى الدين حتى يأمن الناس على عقائدهم الصحيحة ويأمنوا على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، وأداء عباداتهم فى ظل الحق الإلهى من توحيد الله وإخلاص الدين له بعد إتاحة الفرصة الوافية للنظر فى دلائل الحق وبراهينه وآياته جهاد مفروض على الذين بيدهم مقاليد الحق والدعوة إلى الله حتى يفىء الناس إلى ظل الحق ويكون الدين كله لله تعالى وحده فلا يعبد فى أرضه أحد سواه، ولا يقدس مخلوق مخلوقاً، وإنما التقديس لله الواحد القهار .

كل ذلك من صور جهاد القتال الذى يدخل فى إطار المرتبة الثانية من مراتب جهاد القتال ، وهو القتال المشروط الذى شرع لرد العدوان فى صوره المختلفة والذى أمر الله به المسلمين أمراً جازماً وفرضه عليهم بعد أن صارت لديهم قوة يدفعون بها ظلم الظالمين عن أنفسهم ويدفعون بها اعتداء المعتدين على دعوتهم إلى الله بعد الهجرة إلى المدينة التى تأسست بها وحدة القوة الإسلامية من المهاجرين والأنصار .

لقد استنفد المسلمون جميع وسائل المهادنة والملاينة ، وسائر طرائق العفو عن الإساءة والصفح عن الجهالة فى ظل تحريم القتال عليهم وأمرهم بالصبر والمصابرة قبل الإذن لهم بالقتال للدفاع عن أنفسهم ورد العدوان والظلم عن جماعاتهم .

واستنفدوا طاقاتهم فى الصبر على احتمال الأذى والمكروه بعد الإذن

لهم بالقتال انتصافاً لأنفسهم مع أمرهم بالصبر وترغيبهم فى دفع الإساءة بالإحسان .

ولكن الأمر بين المسلمين والمشركين استفحل واتسع مداه وخرج عن دائرته الضيقة المحدودة بين قلة مسلمة فى مكة وأسرهم المشركة إلى دائرة أبعد مدى وأوسع أفقاً ، وأعمق أثراً إلى مجال خارجى عن الأسر والبيوت المكية، أصبحت فيه مكة نقطة ارتكازه وتجمعاته .

فقد ازدادت بهذا التحول ضراوة الموقف وحدته ، فقد أصبح المسلمون بعد الهجرة قوة مرهوبة يحسب المشركون حسابها بعد أن كانوا مستضعفين فى مكة يسامون سوء العذاب من المشركين .

التأم المهاجرون بإخوانهم الأنصار فى وحدة إيمانية وقوة إسلامية صارت بها المدينة قلعة الإسلام وحصنه الحصين الذى لا يرام ، وازداد حنق المشركين وحردهم على المسلمين الذين أصبحوا بقوتهم الجديدة فى منعة منهم ، بل صاروا خطراً عليهم فأخذ المشركون يؤلبون القبائل فى خارج مكة ويحزبون الأحزاب ويجمعون الجموع لحرب المسلمين ، ولم يكتف المشركون بمن حولهم من جموع القبائل ، بل مدوا أيديهم إلى يهود المدينة ومنافقيها ، ليكونوا إلباً معهم على المسلمين ، واليهود والمنافقين ألد أعداء الإسلام ، وأشد عداوة للمسلمين فلم يلبثوا أن أجابوا إلى التحزب مع الشرك والوثنية ابتغاء استئصال شأفة المسلمين ووقف تيار الدعوة إلى الإسلام .

نقض اليهود عهودهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخانوا الله ورسوله ، وغدروا بما أكدوه من المواثيق ، وظهر نجيث النفاق، واشرأبت أعناق المنافقين،ومشوا بين الناس بالفتنة وعاثوا فى الأرض فساداً.والرسول صلى الله عليه وسلم يدارى هؤلاء وهؤلاء حتى إذا انكشف الغطاء وافتضحت

السرائر قدر المسلمون هذا الموقف المتأزم حق قدره ، وأعدوا له عدته ، وشمروا للجهاد أعدائهم ولم ترهبهم حشودهم وتحزباتهم ، ووقفوا أمامهم صفاً واحداً ونزل القرآن الكريم يأمرهم بقتال من قاتلهم ، ويحرضهم على قتال أعدائهم ودفع الظلم عن المظلومين .

يقول الله عز شأنه فى ترغيب المسلمين فى القتال ،وتحبيب الاستشهاد فى سبيل الله ، وتحريضهم على القتال فى سبيل تخليص المستضعفين من ظلم الشرك وطغيان المشركين ، ومعاتبة الذين كانوا يرغبون فى القتال حين كان محظوراً عليهم إذ قيل لهم كفوا أيديكم واعتصموا بعبادة ربكم بإقامة الصلاة وأداء الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال فى إبانه شحت نفوسهم بنفوسهم ، وغلب عليهم الطبع البشرى ، ورغبوا لو أن الله أخر عنهم أجل طلب القتال ، وما كان التأخير ليغنى عنهم فى آجالهم وأجل الحياة كلها شيئاً : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقـــاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً . وما لكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً . الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً . ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينـا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا »[1] .

---

(١) سورة النساء آيات ٧٤ — ٧٧.

فهذه الآيات تأمر المؤمنين بالله ورسله — وهم على حرصهم على التمسك بسمو المبادئ الإنسانية والحفاظ عليها ونشرها وحمايتها من اعتداء المعتدين — بالقتال فى سبيل الله وهو أعظم دعائم الخير والإصلاح فى الحياة، وتثنى عليهم بأنهم باعوا الدنيا واشتروا بها الآخرة، فهم لم يقاتلوا لحظوظ أنفسهم وإشباع شهواتهم، وانطلاق غرائزهم من قيود الفضيلة والعدل، ولم يقاتلوا لينافسوا أهل الدنيا فى دنياهم، ولم يقاتلوا ليتسلطوا على الناس، وينالوا حظاً من الشهرة والعلو فى الأرض إرضاء لطموح غرزى يدفعهم إلى القتال، وإنما قاتلوا إطاعة لأمر الله ودفاعاً عن الحق وتأميناً لحياتهم ونشر دعوتهم إلى الله وإلى توحيده وإخلاص العبادة له، وهم فى سبيل هذه المبادئ السامية يحبون الموت ويحرصون عليه أشد من حب أعدائهم وحرصهم على الحياة.

والآيات تبشر المؤمنين بأنهم إن قتلوا فى سبيل مبادئهم فلهم عند الله أجر عظيم ونعيم مقيم فى دار الخلود، وإن انتصروا على أعدائهم وهزموا الباطل وأقاموا دعائم الخير والإصلاح فقد فازوا بتوطيد مبادئهم ونشرها بين الناس ليقيموا على أساسها بناء العدل والإخاء، وذلك هو الهدف الأسمى لدين الإسلام.

ثم سلكت الآيات بالمؤمنين مسلكاً فى جهاد القتال يشد من أزرهم ويقوى عزائمهم ويدفعهم إلى الاستبسال والفدائية فى قتالهم أعداء الحق والخير.

وقد أخرج البيان القرآنى هذا المسلك فى أسلوب المساءلة عن دوافع القعود عن القتال وهو خور فى العزائم لايلجأ إليه إلا الجبناء الرعاديد، والمؤمنون بقوة إيمانهم أبعد ما يكونون عن الخور والجبن، وهذا مسلك يثير

العواطف الوجدانية ويحرك عوامل الحماسة ونخوة الشمم والإباء، ويستصرخ في ضمير الإنسان منازع النجدة وعلو الهمم .

فالقتال في سبيل الله تحقيق لأسمى المبادئ وتحرير للعقول من ربقة الوثنية البليدة ، ومن أهمه القتال في سبيل إنقاذ المستضعفين الذين لا يستطيعون دفعاً عن أنفسهم ولا رداً لظلم يقع عليهم ، ولا يملكون إلا الاستغاثة بأنين الألم ، وسفح الدموع ، يناجون ربهم بضراعة التذلل ومسكنة الضعف لينقذهم من إذلال الطغاة الظالمين ، ويخرجهم من هذه القرية الكريمة عليهم ، العزيزة على أنفسهم ، الحبيبة إلى قلوبهم ، فهي وطنهم ، على أرضها نشأوا وبسمائها استظلوا ، ولكن الطغاة من أهلها بغوا على الحق فدنسوا كرامتها بما يقترفون من المظالم والبغي ، بلد كان يأمن فيه الحاضر والبادى ، والغريب والقريب والمقيم والطارئ ، فأصبح أهله من الشيب الذين قوست الأيام ظهورهم كبراً وعتياً ، ومن النساء الضعيفات ومن الولدان والأطفال يطاردون ، ويسامون الخسف والعذاب، وهم لا يستطيعون لدفع الظلم عنهم حيلة ولا يجدون سبيلا للفرار من قسوته .

ومن لطائف البيان القرآني التعبير عن ضراعة المظلومين المستضعفين بقوله تعالى تصويراً لما انطبع في نفوسهم : « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ». فهو تعبير أدى كل ما في نفوس الضارعين من معنى وصور ، ولم يمس كرامة البلد الحرام وعزته عليهم ، بل نزهوه في تعبيرهم المحكي عنهم عن إلصاق دنس الظلم به ، وهو الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً ، وأسندوا الظلم إلى مباشريه من الطغاة الذين لم يرعوا لهذا البلد الكريم على الله وعلى الناس حرمة ولا عهداً .

وقد ألهم الله هؤلاء المستضعفين المعذبين — في دار الأمان — ظلماً

وعدواناً أن تكون ضراعتهم وجؤارهم إلى الله لتخليصهم من أليم العذاب وضراوة الإيذاء ، وقسوة البلاء أن يجعل لهم ولياً من عنده ، يلي أمورهم وينقذهم من هذا الشر المستطير ، وأن يجعل لهم نصيراً يقاتل فى سبيل إنقاذهم وإخراجهم من ظلمات الظلم ومضايق المذلة إلى براح الحرية ونور العدالة .

ثم بينت الآيات مقصد المؤمنين وهدفهم من القتال الذى فرضه الله عليهم كما بينت مقاصد الكفار والمشركين من قتالهم المؤمنين . فالمؤمنون الداعون إلى الله يقـــاتلون انتصاراً للحق ودفاعاً عن مبادئ العدالة ، ورداً ، لظلم الظالمين ، وتحريراً للمستضعفين ، وتطهيراً للعقيدة من رجس الوثنية .

والكافرون الوثنيون يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، والطاغوت عنوان على أبشع صور الشر والفساد فى الأرض . فكل ما سوى الحق والخير هو الطاغوت الذى يقاتل المشركون فى سبيله .

فالآية تبين أن المؤمنين يستهدفون من قتالهم إعلاء كلمة الله ونصرة المظلومين ، وأن الكافرين أحلاس البلادة الوثنية يستهدفون من قتالهم نصرة الباطل ونشر الضلال والكفر ، وإشاعة الشر والفساد والتسلط على الضعفاء وظلم العاجزين .

فعلى المؤمنين أن يشمروا لقتال هؤلاء الفجرة الظلمة أولياء الشيطان ، وأعداء الرحمن ، والشيطان لا يقود أولياءه إلا إلى الفحشاء والمنكر . فهو خبيث القيادة ضعيف النكاية لا يهولن أهل الإيمان قعقعته بكثرة جند الباطل معه ، فإنها كثرة جوفاء خاوية أمام قوة الحق وعزائم الإيمان .

ثم ختمت الآيات بصورة معاتبة المؤمنين الذين كانوا يلقون من المشركين فى المرحلة المكية الأذى والمكروه ، وكانوا يودون لو أذن لهم فى مقاصة المشركين بأعمالهم معهم ، ويطلبون الإذن بذلك من رسول الله

صلى الله عليه وسلم، فيأمرهم بالصبر على الأذى والتغاضى عن الجهالة والسفه، روى أبو جعفر الطبرى عن ابن عباس أن قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : يا رسول الله كنا فى عز ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا) فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا ، فأنزل الله تبارك وتعالى : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم »(١) الآية .

يعاتبهم على ما كان منهم حين طلبوا أن يفرض عليهم القتال ليردوا اعتداء المعتدين ، فأمرهم بالعفو والصفح ، والاشتغال بعبادة الله من الصلاة والزكاة والإحسان إلى الناس ، فلما جاء الأمر بالقتال حين حان وقته بعد الهجرة ، ونزلت آياته تأمر به ، وتفرضه كرهه الذين كانوا يطلبونه فى غير إبانه ، وكراهتهم له كانت استجابة لدواعى الطبع البشرى لا جبناً ولا رداً على الله تعالى ، وحاشا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكونوا كذلك ، وقد سجل لهم التاريخ مواقف البطولة والشجاعة والفدائية فى جهادهم فى سبيل الله ، وإنما كان كفهم عن القتال حين أمروا به من قبيل قوله تعالى: « كتب عليكم القتال وهو كره لكم »(٢) فهو بيان للطبيعة البشرية فى حب الحياة وتشبثها بالبقاء فيها والنفرة من مفارقتها بالقتل والموت ، والمؤمنون مطالبون بمغالبة هذه الطبيعة الداعية إلى الدعة والخفض، ولو كان عن طريق الاستسلام بما يربون به أنفسهم من طرائق التربية السلوكية التى تحبب إليهم الانتصار للحق والخير ، ولو أدى بهم إلى الاستشهاد والقتل ، فمن ثم عوتبوا

---

(١) سورة النساء آية ٧٧ .

(١) سورة البقرة آية ٢١٦ .

على موقفهم وعلى تمنيهم أن لو كانت لهم فسحة فى فرض القتال ، تؤخرهم إلى أجل قريب يتمتعون فيه بزهرة الدنيا بعد أن تنفسوا نسائم الحرية وتخلصوا من ظلم المشركين .

وقد بين الله تعالى — ليعظهم ، ويذكرهم — أن متاع الدنيا مهما عظم أمره ، ومهما طال أمده فهو قليل إلى جانب ما فى الآخرة من نعيم مقيم أعده الله لعباده المؤمنين المجاهدين ، فمتاع الدنيا إلى نفاد وفناء ، ومعه الغصص والآلام ، ونعيم الآخرة مقيم خالد مصفى من الأكدار ، فلا موازنة بين ما يفنى وينفد وبين ما يبقى أبد الآبدين ، ولا بين لذة خالصة من شوائب الأكدار والتنغيص وبين لذة عارضة يعقبها الندم والحسرة والغصص والآلام .

وقد عقب هذا العتاب ببيان أنهم استمسكوا بخيط العنكبوت ، لأن الموت آت ولا بد منه لكل حى ، فلأن يقبله المؤمن فى حالة شريفة تعقبها السعادة الأبدية خير له من أن ينتظره وهو لا يدرى على أية حالة يأتيه : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة »(١) .

ويقول الله جل اسمه فى الحض على قتال المشركين لكف بأسهم وكسر شرتهم ، وثلم حدتهم وفل قوتهم وإضعاف شوكتهم ، وشرخ قناتهم حتى لا تقوم للباطل قائمة ، ولا للظلم وأهله دولة « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلا » .

والخطاب فى الآية موجه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لبيان أن كراهية من كرهوا القتال فى سبيل الله حين أمروا به بعد أن

(١) سورة النساء آية ٧٨ .

توافرت أسبابه ، وقد كانوا يطلبونه ويلحون فى طلبه يوم أن لم تكن أسبابه قائمة لدى المسلمين ، لا يرفع مسئولية تكليفه صلى الله عليه وسلم القتال جهاداً فى سبيل الله ، ولو لم يقاتل معه أحد ، فالله تعالى يندب نبيه صلى الله عليه وسلم للنهوض إلى أعدائه أعداء الحق من الكفرة المشركين ، ويأمره بقتالهم لإعلاء كلمة الله ، ويخبره أنه لا يحمل فى هذا القتال إلا تبعة نفسه ، وليس عليه من تبعات غيره سوى أن يحرض المؤمنين ويحثهم على جهاد أعدائهم ، ليكف الله بأسهم عنهم بقوة المؤمنين الذين يسلطهم عليهم ، فإذا لم يستجيبوا وكفوا عن ملاقاة أعدائهم ، وخاورهم فعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج إليهم وحده وأن الله تعالى ناصره على جموعهم ومؤيده بجنود لا يرونها ، وقد أنجز الله وعده ونصره بالرعب يقذفه فى قلوب الكفرة وأحزابهم وحشودهم

وفى الآية بشرى النصر ، يزفها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بذكره حرف الإطماع فى كف بأس الذين كفروا ولو قاتلهم وحده ، لأن الله تعالى الذى أطمعه فى نصره وحققه له فى مواقع كثيرة أشد بأساً وأعظم قوة من كل ذى بأس وقوة ، وأنكى تنكيلا بأعدائه وأعداء دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم وأوجع عقوبة لهم وسيوقع بأسه ونكاله وعقوبته بالمعتدين الفجرة .

وهذا القتال الذى أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بتحريض المؤمنين عليه من القتال المشروط باعتداء المعتدين المندرج فى إطار المرتبة الثانية من مراتب جهاد القتال . لأن بأس الذين كفروا وعتوهم هو وسيلتهم إلى العدوان والظلم ، فتحطيمه تحطيم للظلم والطغيان وقضاء على وسائل العدوان ، وتقليم لأظافر المعتدين وكسر لشوكتهم ، وتأمين للدعوة إلى الله وإلى توحيده .

فهو أمر بالقتال مرتبط بما سبقه من الأمر بالقتال لإنقاذ المستضعفين وتخليصهم من لأواء الظلم وطغيان العدوان ، فإن الله تعالى لما أنكر على جماعة المؤمنين تقاعدهم عن القتال فى سبيل تخليص الضعفاء من براثن الافتتان فى دينهم بما يصب عليهم من ألوان التعذيب والإيذاء بقوله عز شأنه : «وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين» أراد تعالى استثارة حميتهم الإيمانية ونخوتهم الإنسانية بالإعراض عنهم ، وإفراد النبى ﷺ بتكليفه القتال وحده لما كمله به من الشجاعة والإقدام فقال :(فقاتل)أنت وحدك فى سبيل الله فإنا ناصروك ، وحسبك من الذين معك أن تحرضهم على القتال ، وترغبهم فيه وتذكرهم بأيام الله وشدة بأسه على أعدائه وأعداء الحق لتثير فى نفوسهم الحفيظة على هؤلاء الظلمة ذوى الهمم الدنيئة الذين يتشاجعون على الضعفاء من العجزة والنساء والأطفال فيظلمونهم ظلم الجبناء .

ومما يدل على أن هذا القتال الذى أمر به رسول الله ﷺ منفرداً من قبيل القتال المشروط بالاعتداء أن هؤلاء المشركين لو كفوا بأسهم وكفوا أيديهم عن قتال المؤمنين وسالموهم معتزلين قتالهم لم يكن للمؤمنين عليهم سبيل فى قتالهم قال تعالى : « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »[1] مع أنهم ينطوون على ضغينة للمؤمنين يحرصون على فتنتهم عن دينهم ليردوهم إلى الكفر ، فيكونوا وإياهم سواء ، وقد نهى الله المؤمنين عن مداناتهم وتقريبهم منهم ما لم ينزعوا عن كفرهم ويدخلوا فى ساحة الإيمان ويهجروا ما نهى الله عنه من الظلم والطغيان ، فإن أعرضوا عن المسالمة ومضوا فى اقتراف المظالم والمنكرات فليؤخذوا وليقتلوا حيث

---

(١) سورة النساء آية ٩٠

وجدوا ، حتى يكف الله بأسهم ويكسر قناتهم وينقذ المستضعفين من طغيانهم وفى ذلك يقول الله عز وجهه : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً . إلا الذين يصلون إلا قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ماردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً »(١) .

وقد استثنى الله من الذين يؤخذون ويقتلون الذين يلتجئون إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق ، فهؤلاء يكف عنهم كما يكف عن المعاهدين الذين لجأوا إليهم ، كما استثنى قوماً ضاقت صدورهم عن قتال المؤمنين فلم يقاتلوهم وحرجوا أن يقاتلوا قومهم فكفوا عن قتال هؤلاء وهؤلاء ، وهؤلاء ، لم يجعل الله للمؤمنين سبيلا إلى قتالهم ، وفى هذا دليل على أن هذا القتال مشروط بالاعتداء .

ثم ذكرت الآية قوماً نافقوا بالكفر فكانوا يأتون المؤمنين متظاهرين بالإسلام ليأمنوهم على أنفسهم وأموالهم ، فإذا عادوا إلى قومهم أظهروا ما أضمروا من الكفر ففضحهم الله ، وأظهر خبيث كفرهم وأخبر بشأنهم المؤمنين ، وبين أنهم لم يعتزلوا قتال المؤمنين ويلقوا إليهم السلم ظاهراً وباطناً

---

(١) سورة النساء آيات ٨٩ — ٩١ .

ويكفوا أيديهم عن قتـــالهم فليأخذهم المؤمنون ليقتلوهم حيثما ثقفوهم وأصابوهم فإن الله قد جعل للمؤمنين عليهم سلطاناً مبيناً وحجة واضحة بظهور كفرهم وغدرهم .

ويتأكد ذلك بأن الله تعالى أمر المؤمنين الضاربين فى سبيل الله مجاهدين حاملين راية الدعوة إلى الله ناشرين دينه بالتبين والتثبت من حال من يدعونه إلى الله فلا يقاتلوا إلا من قاتلهم أو يعتدى ظالماً ، وأبى الله عليهم أن يبتغوا بجهادهم عرض الحياة الدنيا وذكرهم بما كانوا عليه من إخفاء إيمانهم والإصرار به رهبة من الطغيان والظلم حتى من الله عليهم باعتزاز دينه وتقوية جنده ونصر أوليائه، فأعزهم به، وذكرهم بما كانوا عليه من الكفر حتى من الله عليهم بأن هداهم للإيمان فأحرزوا أنفسهم بسلطانه قال تعالى : «يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً »[1] .

فقتال الجهاد فى سبيل الله لم يشرع فى الإسلام ابتغاء عرض الحياة الدنيا وإنما شرع دفعاً للظلم وقضاء على كفر الشرك والوثنية ، والله تعالى لم يرض من المؤمنين إلا بالتبين والتثبت فى حال من التبس عليهم أمره ، وأبى عليهم أن يقدموا على قتل أحد إلا قتل من علمتموه يقيناً حرباً لكم ولله ولرسوله .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايتين كلتاهما تبين أن القتال إذا أريد به عرض الحيـــاة الدنيا كان مسطخاً لله ، موجباً لعذابه ،

---

(١) سورة النساء آية ٩٤ .

ولا يكون القتال جهاداً فى سبيل الله إلا إذا كان لإعلاء كلمة الحق ، كلمة الله بتوحيده ومعرفته بكامل نعوت جلاله .

الرواية الأولى : ذكرها الطبرى بسندين مختلفين وملخصهما أن النبى ﷺ بعث نفراً إلى واديقال له (أضم) فيهم محلم بن جثامة فلقيهم عامر ابن الأضبط فحياهم بتحية الإسلام فسكتوا عنه ، وحمل عليه محلم بن جثامة لحنة كانت بينهما فى الجاهلية فقتله وأخذ بعيره ومتاعه ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ جاءه محلم فى بردين فجلس بين يديه ليستغفر له فقال له النبى ﷺ (لاغفر الله لك) فقام محلم وهو يتلقى دموعه ببرديه فما مضت سابعة حتى مات ودفنوه فلفظته الأرض ، ثم دفنوه فلفظته الأرض ، ثم دفنوه الثالثة فلفظته فجاءوا إلى رسول الله ﷺ وذكروا له ذلك فقال : (إن الأرض لتقبل من هو شر من صاحبكم ولكن الله عز وجل أراد أن يعظكم) وفيهم نزلت الآية .

الرواية الثانية : بعث رسول الله ﷺ سرية عليها أسامة بن زيد رضى الله عنهما إلى بنى ضمرة ، فلقوا رجلا منهم يدعى مرداس بن نهيك معه غنيمة له وجمل أحمر ، فلما رآهم أوى إلى كهف جبل واتبعه أسامة ، فلما بلغ مرداس الكهف وضع فيه غنمه ثم أقبل إليهم فقال : السلام عليكم أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فشد عليه أسامة فقتله من أجل جمله وغنيمته وكان النبى ﷺ إذا بعث أسامة أحب أن يثنى عليه خير ، ويسأل عنه أصحابه ، فلما رجعوا لم يسألهم عنه ، فجعل القوم يحدثون النبى ﷺ ويقولون : يارسول الله لو رأيت أسامة ولقيه رجل فقال الرجل: لاإله إلا الله محمد رسول الله فشد عليه فقتله ، وهو معرض عنهم ، فلما أكثروا عليه

رفع رأسه إلى أسامة فقال :(كيف أنت ولا إله إلا الله ؟) قال أسامة رضى الله عنه يارسول الله ، إنما قالها متعوذاً ، تعوذ بها ، فقال له رسول الله ﷺ (هلا شققت عن قلبه فنظرت إليه) فأنزل الله تعالى الآية .

وأصل القصة فى البخارى والترمذى ومسند أحمد وسنن أبى داود، وهى تدل دلالة واضحة على أن القتال لايكون فى سبيل الله إلا إذا كان لمحض إعلاء كلمة الله ، وأن الله تعالى قبل من الناس علانيتهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وحسابهم فى الآخرة على ما يعلم من نياتهم وما أضمروا فى قلوبهم.

وقد أنكر النبى ﷺ على أسامة عدم قبوله كلمة التوحيد من مرداس ، وتأوله بأنه قالها متعوذاً بها من القتل فقال له : (هلا شققت عن قلبه ؟) فندم أسامة على ما كان منه وقبل الله منه إنابته وندمه وغفر له لصدق نيته .

وأغلظ النبى ﷺ على محلم بن جثامة لعلمه بسوء نيته فى قتل عامر ابن الأضبط لأنه قتله غير متأول ، بل قتله لشفاء حزازة جاهلية وإحن كانت بينهما ، فهما وإن استويا فى ابتغاء عرض الحياة الدنيا بالقتل إلا أن محلماً ضم إلى ابتغائه عرض الحياة الدنيا سوء نية بعد علم بإسلام صاحبه ، فلذلك دعا عليه النبى ﷺ بعدم المغفرة له ووعظ الله به المؤمنين بلفظ الأرض لجسمه وهى تحبس من هو شر منه .

وإنما لم يقتص منهما لتأويلهما أن المقتول إنما قال الكلمة متعوذاً بها من السيف ، فأما أسامة رضى الله عنه فتأول ظاهراً وباطناً وظن أن الكلمة لاتعصم دم قائلها إلا إذا قالها مطمئناً بها وأما محلم فادعاء التأول قائم بالنسبة له ، وهو الذى دفع عنه القصاص ، والعلم بسوء نيته أوجب التغليظ فى حقه والدعاء عليه .

قال القاضى أبو بكر بن العربى فى أحكامه : وإنما سقط القتل عن هؤلاء لأجل أنهم كانوا فى صدر الإسلام وتأولوا أنه قالها متعوذاً ، وأن العاصم قولها مطمئناً ، فأخبر النبى ﷺ فى الحديث الصحيح أن قولها عاصم كيفما قالها ، وابن العربى يشير إلى حديث البخارى عن ابن عمر قال النبى ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل) .

ثم قال ابن العربى : فإن قيل : فتغليظ النبى ﷺ على محلم كيف مخرجه قلنا لأنه . علم من نيته أنه لم يبال بإسلامه ولم يحققه فغضب على هذه النية .

* * *

ويقول الله عز شأنه فى جهاد القتال لتأمين سير الدعوة إلى الله والقضاء على بلاء الفتنة فى الدين ، حتى يأمن الناس على أنفسهم ، وحريتهم وعقيدتهم ، وتزول العقبات من طريق الدعوة لنشر الحق وترتفع راية التوحيد ، وتنكس أعلام الشرك والوثنية وتطهر الإنسانية من أدران هذا الانحطاط العقلى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير »(١) فهذا قتال مشروط بغاية ينتهى إليها ، تلك الغاية هى القضاء على فتنة المؤمنين فى دينهم بما كان ينالهم من البلاء والتعذيب قبل أمرهم بالقتال دفاعاً عن أنفسهم ورداً للعدوان والظلم ، ولهذه الفتنة عوامل ودوافع وأسباب تعتمد عليها ، فالقضاء عليها لا يتحقق إلا بالقضاء على أسبابها ودوافعها وعواملها ، ولا يتم ذلك إلا إذا انتصر الحق وعلا سلطانه بقوة

---

(١) سورة الأنفال آية ٣٩ .

أنصاره حتى يمحى كل أثر للظلم والطغيان ، ويرتفع علم التوحيد وتنكس راية الشرك وتحطم الوثنية ويكون الدين كله خالصاً لله تعالى وحده .

فهذه الآية رفيقة آية سورة البقرة : «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين» (١) .

وسياق آية البقرة كان فى القتال المشروط ببدء القتال من جانب المشركين فلا يقاتل المؤمنون إلا من بدأهم بالقتال ، وإذا قاتلوه وجب أن ينتهى القتال إلى غايته التى يقطع فيها دابر الفتنة ، فلا يبقى سبب يعرض معه المؤمن للفتنة فى دينه بما يناله من بلاء وإيذاء وتعذيب حتى يرتد عن دينه ويعود إلى الشرك والوثنية .

وقد فسر الفتنة بالبلاء الذى كان ينال المؤمنين — ظلماً وعدواناً فى مكة قبل أن يؤمروا بالقتال انتصافاً لأنفسهم ، وانتصاراً للحق ودفعاً للظلم والطغيان — جماعة من الصحابة والتابعين ، منهم : عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وعروة بن الزبير ، وقد احتج بعض الناس على ابن عمر فى تركه القتال مع إحدى الطائفتين المتنازعتين فى الإسلام . واحتجوا عليه بالآية فى تركه الجهاد واشتغاله بالحج ، روى البخارى عن نافع عن ابن عمر أن رجلا جاء فقال : يا أبا عبد الرحمن ألا تصنع ما ذكره الله فى كتابه : «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» الآية ، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه ؟ فقال ابن عمر يا ابن أخى ؟ أعير بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلى من أن أعير بالآية التى يقول الله عز وجل : «ومن يقتل مؤمناً متعمداً» إلى آخر الآية ، قال الرجل : فإن الله يقول : «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة» ، فقال ابن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام

(١) سورة البقرة آية ١٩٣ .

قليلا وكان الرجل يفتن فى دينه إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة .

فهذا صريح فى أن المراد من الفتنة هو البلاء الذى كان ينال المؤمنين يوم أن كان الإسلام قليلا فلما كثر الإسلام وعز جانبه بالهجرة ارتفعت الفتنة فوجب أن يرتفع موجبها من القتال المشروط بها .

ويوضح هذا ماذكره ابن كثير فى تفسيره عن أيوب بن عبدالله اللخمى قال : كنت عند عبدالله ابن عمر فأتاه رجل فقال : إن الله يقول : «وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله » . فقال ابن عمر قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله .

وأما ترك ابن عمر الجهاد ومواظبته على الحج فلأنه كان يرى مايراه جمهور المسلمين من وجوب الجهاد وجوباً كفائياً إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، مالم يستنفر الإمام الناس، أويدهم العدوشيئاً من بلاد الإسلام، فإنه حينئذ يكون واجباً على الأعيان ، وكانت الفتنة الداخلية قد شغلت المسلمين عن جهاد أعداء الإسلام ، وكان ابن عمر يرى عدم الدخول فى هذه الفتنة فلم يكن أمامه للتقرب إلى الله تعالى إلا مواظبته على الحج مع القيام بشعائر الإسلام الأخرى .

وأما تفسير عروة بن الزبير الفتنة بالبلاء والإيذاء الذى كان يقع على المؤمنين وهم قلة فى مكة لم يؤذن لهم بالقتال دفاعاً عن أنفسهم ، ولكنهم أمروا بالصبر والعفو والصفح فقد رواه أبو جعفر الطبرى فقال : إن عبدالملك ابن مروان أو الوليد بن عبد الملك كتب إلى عروة يسأله عن أشياء فكتب إليه عروة : سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله هو ، أما بعد : فإنك كتبت إلى تسألنى عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وسأخبرك به ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

كان من شأن خروج رسول الله ﷺ من مكة أن الله أعطاه النبوة ، فنعم النبي ونعم السيد ، ونعم العشيرة ، فجزاه الله خيراً ، وعرفنا وجهه فى الجنة ، وأحيانا على ملته وأماتنا عليها ، وبعثنا عليها .

وإنه لما دعا قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذى أنزل عليه لم يبعدوا منه أول مادعاهم إليه ، وكانوا يسمعون له حتى ذكر طواغيتهم ، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال هناك أنكر ذلك ناس واشتدوا عليه ، وكرهوا ماقال ، وأغروا به من أطاعهم ، فانقصف عنه عامة الناس فتركوه إلا من حفظ الله منهم وهم قليل ، فمكث بذلك ماقدر الله أن يمكث ، ثم ائتمرت به رؤوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال فافتتن من افتتن ، وعصم الله من شاء منهم .

فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة وكان بالحبشة ملك صالح ، يقال له (النجاشى) لايظلم أحد بأرضه وكان يثنى عليه مع ذلك صلاح ، وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ، وكانت مساكن لتجارهم يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً ، فأمرهم بها النبي ﷺ ، فذهب إليها عامتهم ، لما قهروا بمكة وخاف عليهم الفتن ، ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات ، يشتدون على من أسلم منهم ثم إنه فشا الإسلام فيها ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم ، فلما رأوا ذلك استرخوا استرخاءة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه ، وكانت الفتنة الأولى هى أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخافتها ، وفراراً مما كانوا فيه من الفتن والزلزال ، فلما استرخى عنهم ودخل فى الإسلام من دخل منهم تحدث باسترخائهم عنهم ،

فبلغ من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أنه قد استرخى عمن كان منهم بمكة ، وأنهم لا يفتنون عن دينهم فرجعوا إلى مكة وكادوا يأمنون بها وجعلوا يزدادون ويكثرون، وأنه قد أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير ، وفشا بالمدينة الإسلام وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فلما رأت ذلك قريش تذامرت على أن يفتنوهم ويشتدوا عليهم فأخذوهم وحرصوا على أن يفتنوهم فأصابهم جهد شديد وكانت الفتنة ، الآخرة ، فكانت ثنتين فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة حين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، وأذن لهم فى الخروج إليها ، وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة .

ثم إنه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة سبعون نقيباً رؤوس الذين أسلموا فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة ، وأعطوه عهودهم على أنا منك وأنت منا ، وعلى أن من جاءنا من أصحابك أو جئتنا فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا ، فاشتدت عليهم قريش عند ذلك ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بأن يخرجوا إلى المدينة ، وهى الفتنة الآخرة التى أخرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وخرج هو ، وهى التى أنزل فيها : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »، قال ابن كثير بعد أن نقل ذلك عن الطبرى . وهذا صحيح إلى عروة رحمه الله .

فهذه المرتبة من مراتب جهاد القتال هى مرتبة أمر الله تعالى فيها عباده المؤمنين بقتال من يبدؤهم بالقتال .

وقتال من يقف فى طريق الدعوة إلى الله ليصد عنها من يريد الإيمان بها .

وقتال من يسلب الناس حرية الفكر والعقيدة بالقوة القاهرة .

وقتال من يفتن المقبلين على اعتناق دين الله والإيمان به بتعذيبهم حتى

يرتدوا عنه أو يموتوا تحت سياط العذاب .

فهو قتال مأمور به لرد الاعتداء ، والدفاع عن النفس ، ومقاومة الظلم ، والقضاء على عوامل الفتنة ورد المؤمنين عن دينهم ، وتخليص المستضعفين من النساء والولدان وعجزة الشيوخ من الرجال والزمنى والضعفاء ، وإنقاذهم من وطأة الاستبداد والظلم وتحريرهم من نير الطغيان وربقة الفجور ، وتأمين الطريق أمام كلمة الحق والهدى وهى تسرى إلى العقول والقلوب دون أن يعوق سيرها بإقامة العقاب بين يديها .

فإذا لم يكن بدء قتال من المشركين للمؤمنين .

وإذا لم يكن منهم اعتداء عليهم .

وإذا لم يكن منهم ظلم لهم .

وإذا لم تكن فتنة للمؤمنين عن دينهم بالإيذاء والتعذيب .

وإذا لم يكن تعويق لسير الدعوة إلى الله تعالى .

وإذا لم يكن صد عن الحق والهدى والخير والنور .

وإذا ترك المستضعفون فى أرض الله يتنسمون نسائم الحرية فى تفكيرهم وعقائدهم وما يختارون لأنفسهم من عقيدة ودين لاتمتهن فى ظله العقول الإنسانية .

وإذا كف أعداء الله وأعداء دينه الحق أيديهم عن قتال المؤمنين وألقوا إليهم السلم وكان الدين كله لله وجب حينئذ على المؤمنين أن يكفوا أيديهم عن القتال وأن يدخلوا فى السلم . ويشغلوا أنفسهم بطاعة الله وذكره ، والدعوة إلى دينه بالحجة النيرة والبرهان الواضح والموعظة الحسنة .

فهو قتال شرع انتصافاً لحق اجتماعى أوسع مدى وأعمق أثراً من الحق الاجتماعى المتعلق بحياة الأفراد والجماعات لمجرد حرية العيش ، وحق الإنسان فى الحياة الكريمة بمقتضى إنسانيته . لأن انتصاف الإنسان لحق نفسه فى حرية الحياة ، وحقه فى العيش الكريم يملك صاحبه التجاوز عنه وتركه ، بل إن تركه والتجاوز عنه قد يعد فى شرعة الأخلاق وحسن المعاشرة فضيلة اجتماعية .

بيد أن الانتصاف لحق الدفاع عن النفس فى سبيل التحرر من عبودية الظلم والفجور والطغيان والقضاء على عوامل الفتنة فى الدين وتخليص المستضعفين من وطأة البلاء والتعذيب ، وفتح الطريق أمام كلمة الله لتكون هى العليا ، وكف بأس أعداء الله وكسر شوكتهم وتحطيم قوتهم ، والحد من شراستهم ، لا يملك أحد التنازل عنه وتجاوزه وتركه لأنه حق إنسانى ممزوج بحق إلهى ، أو هو حق اجتماعى لمصلحة المجتمع البشرى عامة . كلف القادرون عليه القيام به ممثلين فى نموذج المجتمع المؤمن باعتبار ما فى هذا المجتمع المؤمن من معنى الخلافة عن الله فى الأرض ، ليقيم عليها موازين العدل .

فهو حق المجتمع المؤمن كأمة متكافلة متضامنة وليس حقاً لفرد ولا لجماعة كالفرد فيما تحمل من معنى طائفى أو قومى ، وهو واجب على الأمة كلها بشرط العدل وعدم التجاوز لحدود الله كما جاءت النصوص وطبقه النبى ﷺ وأمر به وطبقه أصحابه وولاة العدل من بعدهم تطبيقاً كان مثلا مضروباً فى صحائف التاريخ .

وحتى هذه المرتبة من مراتب جهاد القتال لم تغفل مكان العفو والصفح عن الإساءة ، والتجاوز عن الهفوات والغض عن جهالة السفهاء ، والعفو هنا فى هذه المرتبة اختيارى .

وقد كان هناك فى مرتبـــة الإذن بالقتال مأموراً به واجباً مفروضاً ، ولذلك لايقدم هنا عليه إلا إذا كان مأمون السلامة فى عواقبه غير مضيع لحق عام ، ومصلحة للجتمع ، ولا يملكه هنا فى هذه المرتبة إلا المجتمع ممثلا فى ولى الأمر العادل الحازم العليم بالأحداث فى مقدماتها و نتائجها ، ولايملكه فرد من الأفراد فى المجتمـع إلا من طريق الوحـــدة المتكافلة فى قول النبي ﷺ : (المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم) .

المرتبة الثالثة :

الأمر بالقتـــال

لتكون كلمة الله هى العليا

تدوين الحقائق الإسلامية يجب أن يعتمد على الصدق والصراحـة ، بعيداً عن كل لبس أو خفاء ، بقدر ماتملك الأقلام القادرة من رشحات العلم بالحق ، لأن هذه الحقائق ملك الحياة كلها بغير زمن أو مكان ، أو أشخاص أو مؤثرات اجتماعية أو عوامل نفسية أو عصبيات مذهبية أو دوافع وطنية أو نزعات قومية أو نزوات جنسية .

ونحن هنا نكتب عن (الجهاد) فى الإسلام وشرعيته وتشريعه ، ووصلنا منه إلى مرحلة (جهاد القتال) لتكون كلمـة الله هى العليا ، وهـو الجهـاد لحماية الحق الإلهى ، الذى أخبر عنه النبى ﷺ أنه هو الجهاد فى سبيل الله .

الأمة الإسلامية فى حاضرها وماضيها

والأمة الإسلامية وشعوبها مغلوبة (اليوم) على أمرها فى جميع أوطانها ، يعيش من يعيش منها فى ظل باهت من الحرية ـ وهو أمثلها ـ مستعبد الفكر ،

مقيداً بأغلال عبودية (الصداقة) بين قطيع شره من ذؤبان الإنسانية ، وقطيع همل من حملانها المبعثرة فى صحراء الحياة تحت عنوانات (مطلية) بألوان الخديعة بالتخويف من (التعصب) والختل (بالتسامح) .

فهى أمة مخدوعة عن نفسها ، وعن حريتها ، وعن تفكيرها ، وعن عقيدتها ، وإيمانها ، وعن شريعتها ، ودينها ، وعن أخلاقها وكرامتها ، وعن عيشها وحياتها ، وعن خيرات أرضها وكنوزها ، وعن غيث سمائها وجو وطنها ، وعن تاريخها فى ماضيها ، وعن دوافعها فى حاضرها من الحياة .

بل هى مخدوعة عن كونها مخدوعة ، يمكر بها أصدقاؤها من ذؤبان الإنسانية ، فتحيا فى ظل هذا المكر الخبيث أمماً شتى ، وهى بإسلامها أمة واحدة ، ودويلات وهى فى تاريخها المجيد دولة موحدة ، وأوطاناً متباعدة متحاجزة ، وهى فى واقعها الإيمانى وطن واحد لكل مسلم أينما حل من أرض الإسلام .

تحكمها شهوات الإنسانية فى أفراد من ذؤبان (مهجنة) وجوههم منها ، وقلوبهم مستعارة من قلوب ذؤبان الغابات الجائعة ، أقيموا عليها حاكمين بألقاب زائفة ، انتفخوا بها انتفاخ البطين الأبله ، يأكل فلا يشبع ويتجشأ بريح الذئاب .

وقد كانت أمة الإسلام أمة كتبت تاريخها فى مطلع حياتها مجداً وعزة وكرامة وسؤدداً ، شيدت حضارتها بيدها وفكرها وعقيدتها ، فكانت بهذه الحضارة نموذجاً للإنسانية الفاضلة فى ذروة أوجها الحضارى ، وكانت بعقيدتها مثلا أعلى لإقامة موازين العدل والمساواة .

وكانت بتفكيرها أمة يحييها العلم ، وتقودها المعرفة إلى آفاق التقدم

والرقى العقلى والتحرر الفكرى ، يتقرب إليها البعداء ، ليأخذوا عنها هذا العلم الذى تحيا به ، ويقبسوا منها المعرفة التى تعيش فى ظلها متحررة العقل ، مشرقة الروح ، مضيئة القلب ، ويمتزج بها الراغبون فى مجدها أخوة سواسية فى منازل الإيمان ، لم تفرقهم الأجناس ولم تباعد بينهم الألوان ، اتخذوا من لسان القرآن ولغته لساناً لهم ولغة ، يتسابقون إلى التفوه بها ، وإلى البراعة فى بيانها ، فهى لسانهم ، لأنها لسان كتابهم ، ودستور حياتهم ، وهى لغتهم لأنها لغة بيانهم ، فهم وحدة فى العقيدة والإيمان ، وهم وحدة فى اللغـــة واللسان ، وهم وحدة فى القوة والعزة ، وهم وحدة فى العلم والمعرفة ، وهم وحدة فى بناء حضارتهم الإسلامية ، وهم وحدة فى الأهداف والآمال ، وهم وحدة فى الوسائل والغايات ، وهم وحدة فى العمل لخير أمتهم وسيادة دينهم كذلك — وعزة الحق — كانوا ؟؟ . .

فلما مالت بهم شمس الهداية عن كبد سماء المجد والعزة وعشت أبصارهم عن مهيع الحياة فضلوا الطريق فى سيرهم ، وتخلفوا عن قافلة الحياة ، وأبلسوا حيناً فى أودية الدهش والحيرة ، ثم تفرقوا عباديد ، وذهبوا فى الأرض أحزاباً وشيعاً ، وتقطعوا أمماً وأوطاناً واحتشوهم فى تفرقهم ذؤبان الأمم والشعوب المتلمظة لازدرادهم ، فأدخلوهم فى حظائر القوميات ليباعدوا بينهم وبين إسلامهم ، فارتدوا إليها ردة جاهلية فصمت ما بينهم من عرى الهداية ووشائج الإيمان وروابط الإخاء ، فضعفوا بعد قوة وذلوا بعد عزة ، واستعبدوا بعد حرية ، وافتقروا بعد ثراء ، وجهلوا بعد علم ، وضلوا بعد هدى ، وألحد فهماؤهم بعد راسخ الإيمان ، ولقنوا جهالة فى صورة علم ، وقشوراً من سقط التفكير فى صورة معرفة ، وخلقوا برذائل فى صورة فضائل ، واستطير عامتهم بأساطير الهذيان ، واستسخر خاصتهم

بأباطيل الخرافات ، واستبيحت حرماتهم باسم الحضارة ، وبدلوا من الاستقامة تحللا ودعارة، ورضوا بالمذلة والهوان ، فطمع فيهم من لا يدفع عن نفسه ، وساقهم بعصاه كسيح جنسه ، وحكمهم العبيد والشراد يبيعونهم فى سوق النخاسة الدولية عبيداً فى صورة أحرار ، يتكلم حكامهم — إذا سمحت لهم ذؤبان الصداقة — بكلام السادة القادة ، ويعملون فى حكم شعوبهم عمل الأذلة العبدة ، داؤهم الغرور الأجوف ، وبلاء الأمة بهم أفظع من بلائها بسوس ينخر فى عظامها لأنهم يقودونها بزمام التعزز إلى هاوية المذلة والدمار .

قصاراهم صداقة ذئب ليستنصروا به على ذئب ، وكانوا يستطيعون لو أرادوا لأمتهم وأنفسهم العزة حقاً أن يكونوا أمام الذئاب ضراغمة ، ولكنهم أحبوا الحياة من أحط جوانبها وتولهوا عشقاً بتفاهاتها وشهواتها الرخيصة ، فهانوا على الحياة فلم تعطهم منها إلا بقايا فتات متعفن من موائد الذؤبان، فتهارشوا عليه ، واقتتلوا على احتيازه ، وقتل بعضهم بعضاً وتأرثت بين شعوبهم نيران العداوة والبغضاء بما زوروا لهم من زائف التهم يقذف بها كل قائد شعب من شعوب أمتهم الإسلامية منافسه فى الحظوة عند ذئب من ذؤبان الأطماع فى قيادة شعب آخر من شعوبها .

وهذا واقع يرسمه القلم بدم دمعه ، وينتزعه انتزاعاً من حياة الأمة الإسلامية فى ماضيها وحاضرها وفى حوادث التاريخ البعيد والقريب شواهد على صدقه لا تدفع .

فلنستنطق التاريخ — وهو أبو العبر — ليحدثنا :

كيف قامت أول فتنة فى تاريخ الإسلام ففرقت كلمة المجتمع الإسلامى، ومزقت وحدته ؟

وكيف لعب فيها أعداء الإسلام من أخابث اليهود ، وغيرهم من الموتورين بزعامة ابن السوداء عبد الله بن سبأ اليهودى الذى أشعل نيران الفتنة فى طول البلاد الإسلامية وعرضها ، وكانت فتنته هى العامل الأساسى فى نشوب الحروب المدمرة بين طوائف المسلمين من الشيعة والخوارج والأمويين والزبيريين والمروانيين ؟

وكيف قوضت الدولة الأموية بدسائس حاقدى المجوس الذين تظاهروا بأنهم من خلص أنصار العباسيين ، وقامت على أنقاضها الدولة العباسية التى انتشرت فى عهدها الأفكار الأجنبية عن أصول الإسلام ومبادئه وزاحمت هذه الأصول والمبادىء حتى طغت عليها وزحزحتها عن مكانها من حياة المسلمين؟

وكيف تحللت هذه الدولة بعد أن بسطت جناحيها على سائر بلاد الإسلام إلى دويلات يقاتل بعضها بعضاً ويكيد بعضها إلى بعض ويتناصر بعضها بأعداء الإسلام على بعض ؟

وكيف ذهب التنازع بين هذه الدويلات على شهوات الدنيا بحياتها، وقضى عليها وذهبت مع الذاهبين فى أطواء الحياة ومدارج الفناء ؟

وكيف ضاعت (الأندلس) من أيدى المسلمين إلى غير رجعة بعد ملك وحضارة إسلامية ، قاما فيها عدة قرون على دعائم العلم والمعرفة ؟ وكيف أفنى منها المسلمون إفناء بأبشع ما تعرف الإنسانية من عصبية وتوحش لم يعرف التاريخ لهما مثيلا ؟ وكيف طمست معالم الحضارة الإسلامية فى تلك البلاد طمساً أنسى المسلمين أنهم كانوا هناك أكثر من خمسة قرون ؟ بل أنساهم بجرد التفكير فى أن هذه البلاد كانت وطناً إسلامياً لهم ، وأن المسلمين كانوا أصحابها الذين عمروها أكثر مما عمرها الذين أخرجوهم منها، وأنهم بنوا فيها حضارة فكرية وفنية ، وعمرانية لا تزال أصداؤها ترن فى أذن التاريخ .

وكيف مزقت (شام) الإسلام إلى هذه الأوضاع الهزيلة فى صورة دويلات : لاتدفع عن نفسها المذلة والهوان ؟

وكيف ذهبت مع النسيان إمبراطورية الإسلام فى الهند ، وهذه آثارها تدل على عظمتها ؟

وكيف تواثب المغامرون من العبيد والأحرار على حكم مصر باسم الإسلام فى مراحل التاريخ لحكوها بالحديد والنار ؟

وكيف احتل الإنجليز مصر بعد أن تخلصت من الاحتلال الفرنسى بعد أن مزقها شراذم المماليك تمزيقاً أفقدها قوة المقاومة للمحتلين فجثموا على صدرها سبعين سنة أو تزيد ؟

وكيف استعبدت هولاندا ـ وهى ثمانية ملايين من الناس الأمة الإندنوسية وهى قرابة مائة مليون أكثر من ثلاثة قرون ؟ وماذا صنعت بها ؟

وكيف استعبد الفرنسيون المغرب الإسلامى فى تونس ومراكش والجزائر عشرات بل مئات السنين ، وما خلفوه وراءهم من آثار جعلت شعوب هذه البلاد غريبة عن حياتها الإسلامية ؟ وكيف احتل الإيطاليون ليبيا ؟ ثم من بعدهم البريطانيون والأمريكانيون . وماذا صنعوا بشعبها المسلم الأبى وأرضها الطيبة ! وكيف قضى على المسلمين فى بخارى وسمرقند وسفوح قفقاسيا (القوقاز) والمجر وألبانيا ويوجوسلافيا والبوسنة والهرسك والصرب والجبل الأسود وأواسط أوربا ! أين ملايين المسلمين الذين خلدوا أمجاد الفكر الإسلامى فى هذه البلاد فيما خلفوه من ثروة علمية وحضارة عمرانية لم تعرف لغيرهم من العلماء والمفكرين ! وما حل ببقاياهم إن كانت لهم بقايا فى العلم بحقائق الإسلام .

وكيف ذهبت فلسطين من أيدى المسلمين طعمة إلى أعدى أعداء الإسلام والمسلمين . بل إلى أعدى أعداء الإنسانية من اليهود ؟ وكيف انحسر المد الإسلامى عن أوربا بعد أن دخلت إليها عقائده ومبادئه ؟

وكيف امتصت الإمبراطورية العثمانية وزوت بعد أن كانت كلمتها تهز العالم ؟

وكيف ؟ وكيف ؟ وكم ؟ وكم ؟ مما امتلأت به صحائف التـــاريخ الحزين الباكى ؟

ثم أين نحن اليوم ؟ ولماذا ؟

وهل إلى عودة العزة الإسلامية من سبيل ؟

أما مكاننا فى الحياة اليوم فحسب المسلم أن يلقى نظرة على المصور الإقليمى لقارات العالم ليقرأ على خطوطه حاضر المسلمين فى أوطانهم ، ويتعرف أخبارهم ، ويستكشف أحوالهم حتى يأتيه النبأ اليقين بأن المسلمين اليوم هم العصارة التى ترسبت فى كأس الحياة من دماء الأمة الإسلامية على مدى منازل التاريخ فى مراحله معها بعد أن كرع من هذه الدماء وعب فيها (ذؤبان الصداقة) المتربصين بالإسلام حتى امتصوا من هذا الدم ماء الحياة .

والمسلمون اليوم هم الصورة المعبرة عن منطق القلم الذى رسم خطوطها فى بيان قد يبدو متشائماً ولكنها واقع يصور حال المسلمين منذ أن استقبلتهم أول فتنة تركت حليمهم حيران ، وحكيمهم دهشان واستشرت فيهم بعدها عوامل التحلل والانحلال ، وتفرقوا ولم يجتمعوا ، ولو توحدوا والتزموا جواد الإسلام ما استطاعت قوة فى الأرض أن تغالبهم .

لذلك كان حال المسلمين فى واقعهم من المجتمع البشرى اليوم هو أصدق صورة لمكانتهم من الحياة ، وهذا الحال هو حالهم منذ انحلت من بينهم رابطة الأخوة الإيمانية التى عقدها الله بينهم وجعلهم بها إخوة يتقاسمون السراء والضراء ، ولهذه الأخوة الإيمانية ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل بالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائره بالحمى والسهر .

فالله تعالى يقول للأمة الإسلامية : « إنما المؤمنون إخوة » ليجمع لهم وشائج الوحدة فى مجتمع لا تفرقه الأزمان والأوطان ، ولكن المسلمين قالوا بواقعهم وقولهم ذؤبان الصداقة : إننا أمم وأوطان وقوميات وصداقات وأحزاب وأحلاف وشيع ، فكان هذا التفرق هو داء المسلمين الدوى ومرضهم العضال ، وهو العصا التى يهش بها عليهم (ذؤبان الصداقة) ليحولوا بينهم وبين وحدتهم الإيمانية بل ليحولوا بينهم وبين مجرد (التقارب) فيما يجمعهم أمة مسامة لها مقوماتها الذاتية التى أقامها عليها الإسلام فى نصوص دستوره وكتابه المنزل على رسوله محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .

وقد يتساءل بعض المتسرعين : كيف يكون تفرق المسلمين إلى أمم ، ودول ، وأوطان ، سبباً فى حالهم الذى يعيشون عليه اليوم من التأخر عن قافلة الحياة الإنسانية المتوثبة ، وهم قد أبدعوا فى ظل هذا التفرق ألواناً من الحضارات الفكرية ، والاجتماعية ، والفنية ، والعمرانية ، والتشريعية ، والفلسفية ، والنظم الاقتصادية ووثبات العلوم والمعارف العقلية — يدين لهم بها العالم فى حضاراته القائمة اليوم بكل ما فيها من خصائص وهى الحضارات التى قهر بها (ذؤبان الصداقة) الأمة الإسلامية لأنهم أظهروها عليها من جانبها المادى الشهوى وهو جانب له بريق أخاذ مسموم فأسرعت إليه مسعورة بغرائز جوعى منهومة ، حتى إذا سكرت بخمر الانحلال وسرى مفعول سم الانحلال فى أصولها انحدرت متهاوية إلى مهاوى الترف والترهل وخنث الميوعة وفقدت كل عوامل المقاومة ، فلم تستقم لها قناة ولم يصلب لها عود ؟

بلى ؟ ، قد أبدعت الأمة الإسلامية وهى متفرقة دولا وأمماً وأوطاناً ، هذه الألوان من الحضارات وشاركت فى غيرها ، وكان لها فضل السبق بهذا الإبداع ، بل فضل الأستاذية على أوربا الجاحدة المخدوعة الخادعة المغرورة المتهاوية (اليوم) أمام لقيطيها الوليدين ووريثيها الجديدين فى الشرق والغرب .

ولكن هذه الحضارات — وليتها لم تكن ، وليغضب من يغضب — كان فيها سرطان التأخير الذى هوى بالأمة الإسلامية إلى واقعها من الحياة الذليلة بضعفها ، الذليلة بجهلها بتاريخها ، وجهلها بإسلامها بل التنكر لهذا التاريخ ، والإلحاد فى هذا الإسلام .

إن هذه الحضارة التى نبتت فى أرض التفرق الإسلامى هى التى قتلت فى الأمة الإسلامية عوامل الأصالة فى تكوينها أمة مسلمة ، وعوامل الأصالة فى هذه الأمة تعتمد على الوحدة المتكافلة فى القيام بواجب الدعوة إلى إعلاء كلمة الله ونشر الحق الإلهى ، وحمايته من طغيان الباطل وجنوده ، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذا التفرق كان معول هدم لهذه الوحدة ، وقد فقدت الأمة بهدم وحدتها عامل التناصح فيما بينها ، بل فقدت عامل التماسك أمام المغريات الشهوية ، وأمام صولة الغرائز الجامحة ، وأمام غمرة الترف الماجن ، وهو الثمرة الملعونة لهذه الحضارات التى أفقدت الأمة مقوماتها الأخلاقية وشوهت قيمها الروحية ، وبدلت نظرتها إلى الحياة ، فلم تعد هذه الحياة عندها إلا تفاهات من شهوات تتلقفها من هنا وهناك ، بل تصدر إليها من هنا وهناك .

إن المسلمين فقدوا فى ظل هذه الحضارات الشهوية المترفة كل مقوماتهم الذاتية ، حتى الإيمان بأنفسهم وتاريخهم ، وأنهم كانوا أصحاب حضارة يدينون بها العالم لم يبق لهم منه إلا رصيد الجحود والتنكر .

ولو أن هذه الحضارات التى أبدعها المسلمون وهم أمم ، ودول ، وأوطان ، متفرقون أبدعوها وهم أمة موحدة البناء موحدة الوسائل والأهداف لكانت اليوم هى الضمير الذى يوقظ فيهم الإيمان الغطيط فى غفلة الفراغ القلبي والروحى عند المسلمين .

والمسلمون لهم رصيد من حقائق الوجود الإسلامى يجب أن يعودوا إليه إذا أرادوا أن تعود إليهم عزتهم الإسلامية .

والعزة الإسلامية ليست قوة مادية تسفك الدماء ، وتنهب الأموال ، وتفتك بالضعفاء ، وتنتهك الحرمات وتستعبد الأحرار ، وتدمر العمران ، وترمل النساء ، وتيتم الأطفال ، وتفرض نفسها على الآخرين ، بالرعب والفزع كما صنع التتار فى اندفاعهم الوحشى المدمر المخرب ، وكما صنع الصليبيون فى تألبهم على المسلمين ، فسفكوا الدماء وذبحوا الأبرياء وخربوا بلاد الإسلام تخريباً أفنى فيه المسلمون إفناء ذهب بمعالم حياتهم التاريخية ، وطمس آثارهم وهدم مقدساتهم .

وكما يشهده عصرنا جهاراً علانية من حملات الإبادة للمسلمين فى أوطانهم فى الشرق والغرب ومن وحشية الدول المتحضرة بهذه الحضارة المادية الفاجرة مع الأمم المغلوبة على أمرها ، هذه الدول

التى سخرت العلم للتدمير والتخريب وإبادة الأبرياء ، وفرض سلطانها على الأمم والشعوب الضعيفة بما تصبه عليها من الدمار والخراب .

ما هذه الحضارات التى يتغنى بها المراهقون فى أوطاننا والتى تتمثل عظمتها فى استخدام العلم لإهلاك الحياة وتجريدها من الخير والبر ؟ وتجريدها من اعتبارها القيم الخلقية والفضائل الإنسانية .

ما هذه الحضارات التى تجعل من التحلل عن كل قيمة للفضائل مبدأ يسود الحياة الاجتماعية حتى لم يعد للفضيلة عندها حقيقة مستقرة فى قواميس الأخلاق ؟

ما هذه الحضارات التى تستعبد الناس بالمال تجعله فى أيدى أفراد أو جماعات يسوقون الإنسانية بعصاه الذهبية إلى جحيم الفساد والإفساد ؟

ما هذه الحضارات التى تقضى على الإنسان فتفقده شعوره بإنسانيته لتجعله آلة فى مصنع من الآلات البشرية لا يدرى أحدهم ما يريد ، ولا ما يراد به ، وهو فى كفاحه — مع لا شىء — يتصبب عرقاً وتذوب حياته مع أنفاسه ؟

ما هذه الحضارات التى يتحكم بها فى مستقبل الإنسانية نفر من المغامرين ، يدفعونها إلى الهاوية باسم العلم والتقدم الفكرى ، وهم يعبثون بحياة الأمم والشعوب عبث الأطفال بالكرة تدفعها أرجلهم اللاهية متنقلة بها من مكان إلى مكان دون أن تدرى الكرة لماذا هذا القفز والانتقال ؟

ما هذه الحضارات التى تجعل من ألوان الأجسام البشرية خصائص

توزع بحسبانها حظوظ الحرية والكرامة وحق الحياة ؟ فالأبيض ولو كان فى تفاهة الفارغين من معانى الحياة وقيمتها هو السيد الذى له كل الحقوق فى دساتير هذه الحضارات فى حياتها العملية ، والأسود هو اللعنة التى تحمل أعباء العبودية بكل شرورها ومفاسدها وذلها ، ولو كان فى عقل أعقل المفكرين ؟

والعزة الإسلامية التى تتمثل فيها حضارة الإسلام والتى أقام دعائمها القرآن الكريم ليست فى شىء من هذه الحضارات الماجنة المارقة المفسدة للفطرة الإنسانية .

وإنما العزة الإسلامية التى تساءلنا عن سبيل عودتها لحياة الأمة الإسلامية والتى يجب على كل مسلم أن يعمل على عودتها بنفسه وماله وقلمه ولسانه ، هى عزة المبادئ التى قام على قواعدها المجتمع الإسلامى فى بنائه أمة واحدة تحمل أمانة الدعوة إلى تطهير العقيدة من رجس الشرك ودرن الوثنية ، وصفاء التوحيد ، وإخلاص العبادة لله تعالى ، فالناس فى الحضارة الإسلامية أمام ربهم وخالقهم سواسية فى عبوديتهم له ، وهم سواسية أمام الحياة فى الحقوق والواجبات .

وتحمل أمانة الدعوة إلى تحرير العقل الإنسانى من ربقة التقليد الأبله والجمود البليد .

وتحمل أمانة الدعوة إلى إقامة العدل بين الناس أفراداً وجماعات أينما كانوا ، وعلى أى حال كانوا ، لا تفرق بينهم الأجناس والأوطان ولا الألوان واللغات .

فهم جميعاً فى ظلال العزة الإسلامية إخوة فى حرية العيش

الكريم ، دون تغابن أو تظالم ، وهم إخوة فى حرية التفكير وانطلاق العقل فى ميادين العلم والمعرفة ، بقدر ما أوتى كل فرد أوشعب من نصيب فى التمكن من هذا الانطلاق ، وبقدر ما أوتى من وسائل الانطلاق دون حرمان أو عقبات .

وهم إخوة فى التعاون على المواساة متكافلين ، يعين قويهم ضعيفهم ، ويريش غنيهم مملقهم ، ويساعد قادرهم عاجزهم،حتى يقوى الضعيف فيعمل، ويحيا المملق فيكسب ، ويقدر العاجز فيتحرك ، ويتعلم الجاهل فيعلم ، ويكونوا فى الخير والبر ، والحق والعدل سواء ، وتصبح الحياة بينهم شركة أعضاؤها أبناء الإنسانية ، أسرة واحدة،تعيش فى وطن واحدهو أرض الله الواسعة ، لايستأثر فيها أحد على أحد ، ويأخذ كل عامل منهم نتيجة عمله ، ويجنى ثمار كفاحه وكده ، فى حدود طاقته وقدرته ، ووسائله التى هيئتها له بيئته العامة والخاصة فى ظل وحدة العقيدة ، ووحدة التفكير ، ووحدة الأهداف والوسائل .

بهذه المبادئ كانت الأمة الإسلامية طليعة رائدة للإنسانية ، ترود لها منازل غيث الفكر المتحرر من قيود الجمود ، وتستكشف مسارح الهداية والإصلاح ، وتستطلع لها مواقع الخير والبر بعد أن بلغت الإنسانية رشدها الفكرى ، ونضج عقلها العلمى ، واستعدت بفطرتها لتلقى آخر الرسالات الإلهية بكل ماتحتوى نصوصها من مبادئ اجتماعية وسياسية وفكرية وقيم روحية ونظم اقتصادية ونظريات فلسفية ، وأصول أخلاقية .

وبهذه المبادئ وضع الله تعالى زمام قيادة الإنسانية فى يد الأمة الإسلامية وكلفها حمل أمانة الدعوة إلى إعلاء كلمة الله ، كلمة الحق والعدل ، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور .

إن الله تعالى أضفى على الأمة الإسلامية خصائص انفردت بها ، ومكن لها بهذه الخصائص التى أبرزها رعيلها الأول عملا فى واقع الحياة دعامة لقيامها بالدعوة إلى الله ، فكانت هذه الخصائص هى العوامل القيادية التى ألزمت هذه الأمة حمل أعباء خلافة الله فى الأرض .

وللأمة الإسلامية تاريخ مع الدعوة إلى الله لإعلاء كلمته ، تلك الدعوة التى جمعت أشتاتاً من الأمم والشعوب ، وحدت بينهم بعقيدة التوحيد ، وربطتهم بوشائج الإيمان فكانوا أمة واحدة لهامقوماتها الذاتية، وخصائصها الفكرية ، وفضائلها الاجتماعية ، ونظمها السياسية وطرائقها الاقتصادية ، وقيمها الأخلاقية ، ونوازعها الروحية ، وعواملها التقدمية ، واتجاهاتها العقلية ، ونظرياتها الفلسفية ، ونماذجها الحضارية ، ووسائلها لتحقيق أهدافها وغاياتها .

وكانت الدعوة إلى الله لتكون كلمته هى العليا دستور هذه الأمة الذى يفىء إلى ظله كل من يحيا فى الوجود الإسلامى ، ذلك الوجود الذى كان يفرض سلطانه على الحياة بقوة سماحة الحق ورحمة العدل، وهداية الإيمان، استجابة لأمر الله تعالى فى آياته التى أقام بها منار خلافة هذه الأمة فى أرض الله على دعائم العزة الرائدة ،إذ يقول عزشأنه مهيباً بها أن تكون هى الناطقة بكلمة الله ، منذرة بها مبشرة ، وأن تكون هى القيمة على موازين العدالة فى الحقوق والواجبات بين الناس لتحملهم على الاستقامة على الطريق الأقوم استصلاحاً لهم،واستعداداً لنيلهم فيض العناية الإلهية فى الإصلاح : «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »(١) .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤ .

والمعنى فى الآية أن الله جل شأنه يطلب من الأمة الإسلامية(*). أن تكون على قلب رجل واحد فى وحدتها ، لحمل راية الدعوة إلى الله تحقيقاً لمظهر خلافتها عن الله فى أرضه ، وأن تكون بما أفاض عليها من الخصائص القيادية قوامة على العدل داعية إلى الخير ، آمرة بالمعروف ، ساعية إلى البر والإصلاح ، ناهية عن المنكر والشر ، محذرة من الظلم والفساد قائمة بتحقيق الأمن للعباد ، وهذا تشريف لمقام هذه الأمة فى مقام التكليف وتكليف لها بهذا التشريف .

والدعوة إلى الله وإلى الخير ، والقيام بالعدل ، وتحقيق الأمن بين العباد والأمر بالمعروف والسعى إلى البر والإصلاح ، والنهى عن المنكر والشر ، والتحذير من الظلم والفساد هى جماع الفضائل الاجتماعية التى يقوم عليها صلاح الحياة ، وهى جماع العوامل القيادية فى وجود الأمة الإسلامية .

ولباب هذه الفضائل ومنبعها ، وخلاصة فضلها هو الدعوة إلى الله وإلى الحق لتكون كلمة الله هى العليا ، وهذه خصيصة الأمة الإسلامية التى امتازت بها عن سائر الأمم فى بناء مجتمعها على دعائمها ، وبهذه الخصيصة ، وهذا الامتياز كانت خير أمة أخرجت للناس تحمل فى قلبها وروحها وعقلها أكمل المعانى والحقائق الإلهية لأكمل رسالات الهداية الإلهية .

وبذلك أخبرها الله عن نفسها، لتكون على بينة من أمرها ، ووضعها

---

* وهذا المعنى يقتضى أن يكون لفظ (من) فى قوله « منكم » لبيان الجنس ، والمعنى: لتكونوا جميعاً أمة واحدة داعين إلى الخير بأبلغ ما يستطيع كل فرد منكم علماً وعملا ، وهذا المعنى هو المناسب لمنصب التكافل فى الدعوة إلى الله فليس فى الأمة الإسلامية فرد فى مكان التكليف إلا وهو مكلف القيام بالدعوة إلى الله .

القيادى ، وعلى ثقة من توفيق الله وتأييده إذا وفت بحق هذه الخصيصة ، وقامت بما طلب منها فى تحقيق آثارها فقال لها عز اسمه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله » .

وأسلوب الآية الكريمة يضع هـــذه الخصائص القيادية فى بناء الأمة الإسلامية موضحها من البيان القرآنى ، إذ جعلها دعائم الخيرية التى فضلت بها على جميع الأمم ، وقدمها فى الذكر على (الإيمان) مع أن الإيمان هو عماد اعتبار جميع ما يصدر عن الإنسان من عمل صالح ، فكل عمل لا يعتمد على الإيمان فهو سراب .

فدار الخيرية التى ارتفعت بها الأمة الإسلامية إلى آفاق القيادة الإنسانية يجب أن يتمثل فى اختصاصاتها بنعوت وحقائق امتازت بها لايشاركها فيها غيرها من الأمم .

والإيمان بالله تعالى حقيقة واحدة أينما وجدت لا تفاوت فيها إلا بمقدار رسوخها أمام الشكوك والشبهات ، وهذه الحقيقة الإيمانية التى تضفى على الأعمال الإنسانية اعتبارها فى ميزان الثواب والعقاب ، كما أنها وصف للأمة الإسلامية فهى وصف كان لغيرها من الأمم التى آمنت قبلها بشرائع ورسالات الإلهية ، فالمؤمنون سواء فى أصل حقيقة الإيمان ولا امتياز للأمة الإسلامية فى هذه الحقيقة عن غيرها من سائر الأمم ذات الرسالات السماوية ، وحينئذ لا يستقيم أن تكون الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس بمجرد إيمانها بالله تعالى .

وإنما اختصاص الأمة الإسلامية الذى امتازت به، وفضلت به على غيرها من الأمم هو قيامها بالدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وقيام الأمة الإسلامية بذلك ليس بمجرد دعوة كلامية ، وخطب وعظية، ومقالات إنشائية، وإنما هو بذل المهج والأرواح ، وإنفاق الأموال والتضحية بثمرات الأفئدة فى سبيل نشر الدعوة إلى الخير ، وإقناع كل من له قدرة على النظر فى الحجة والبراهين ، وإزاحة العقبات المعوقة من طريقها بكل وسيلة ممكنة وسبيل موصلة بعد الإعذار ببيان الحجة بياناً لا يبقى علة لمتعلل .

وأول دعائم الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف هى معرفة الله تعالى بوحدانيته وسائر كمالاته ونعوت جلاله ، والإذعان برسالات الأنبياء والمرسلين الذين أيدهم الله بآياته المصدقة لهم ، وقبول ما جاءت به هذه الرسالات من أعمال البر والخير والإصلاح ، والعدل والإخلاص وحب العلم وتقديس المعرفة .

وأول دعائم النهى عن المنكر هو القضاء على الشرك بصوره كلها ، والوثنية بجميع أشكالها ، وعبادة المخلوقين ، والقضاء على الجهل بآيات الله فى الأنفس والآفاق ، ومحاربة الظلم والطغيان ، ولهذا كان التكليف بالقيام بالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مقدماً على الإخبار عن خصيصة الأمة فى قيامها بهذه الدعوة فى ترتيب تلاوة الآيات .

والمتمرسون بمعرفة الأسلوب العربى، العارفون بمواقع البيان فى طرائقه، يعلمون أن سنته فى براعة التعبير الجرى على تقديم ماهو الأصل أو كالأصل فى القصد والعناية لتحقيق الغرض الذى سيق له الكلام البليغ .

والإيمان بالله تعالى أصل فى وقوع العمل موقعه من الاعتداد به، وأعظم أعمال الإنسان التى تعتمد على الإيمان هو الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لكن الإيمان وحده ليس أصلا فى اختصاص الأمة الإسلامية ، تعتمد عليه خيريتها للناس ، وهذه الخيرية هى عنوان استحقاقها رتبة القيادة الإنسانية .

وإنما الأصل فى خيرية الأمة الإسلامية، هو ماصدرت به الآية الآمرة المكلفة من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، اللذين جعلا خصيصة للأمة ، كانت بها خير أمة أخرجت للناس ، فى الآية المخبرة بذلك ، فلهذا قدما فى الذكر واللفظ فى هذه الآية المخبرة أداء لحق البراعة فى البيان .

فالأمة الإسلامية هى الأمة الوحيدة التى فرض عليها القتال وبذل المهج والأرواح وثمرات الفؤاد ، وإنفاق الأموال فى سبيل الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى أعلى صورها إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده وتحطيم الوثنية بجميع صورها وأشكالها، والقضاء على الشرك والإلحاد والظلم حتى تطهر العقيدة ويكون الدين كله لله .

ولهذا نرى القرآن الكريم — وهو دستور الإســـلام ومرجعه الأصيل — يبين أن الدعوة إلى الحق والخير يجب — أولا — أن تقوم على الحجة البينة والبرهان الواضح فإن لم تغن الحجة النيرة فى تقبل الحق والعدل وجب ردع الباطل والظلم بالقوة القاهرة، فإرسال المرسلين إنما كان بالبينات وهى آيات الله ودلائله التى يخاطب بها العقول والقلوب حتى تنساق راغبة الى الإيمان بها ، وإلى تقبلها تقبلا يقوم على الرضا والاقتناع ، فإن لم تقبل

الحق عناداً ، وركبت مطية الجحود كانت متسربلة بوصف العناد والعتو . والعناد العاتى مرض فى القلوب والعقول لا دواء له إلا ردعه ردعاً حاسماً ، يقضى عليه حتى لا يستشرى ويستفحل سريانه فى جسم الإنسانية فيفسدها إفساداً يهوى بها إلى حضيض سائمات الأنعام بل هى حينئذ أضل منها سبيلا .

وآيات الله وبيناته التى أرسل بها رسله هى كتبه المنزلة على رسله وأجلها أثراً وأعظمها خطراً فى توجيه الحياة وهدايتها هو القرآن العظيم ، كما قال تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » وقد أخبر الله تعالى بإرسال رسله ببيناته ، وقرن بها إنزال الميزان ، ليقوم الناس بالقسط .

والميزان هو الوسيلة العملية لتحقيق العدل بين الناس ، وهو الطريق لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، وهو الفيصل الذى يحدد معالم الحق والخير ، ويميزهما عن الباطل والشر ، ويكشف عن حقيقة المعروف وعن حقيقة المنكر ، ويحدد طريق الأمر ، وطريق النهى ، ويبين السبيل فى تطبيقهما تطبيقاً ، مقنناً يكتسب قداسته الدستورية من قداسة نصوص الكتاب الحكيم .

ثم بين الله تعالى أن هذا التطبيق للأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، تطبيقاً عملياً إيجابياً ، ولا سيما فى صورته العليا، التى هى المقصود الأول منه ، وهو ما يتعلق بتطهير العقيدة من دنس الشرك والوثنية ، قد يحتاج إلى قوة مادية تحمل المعاندين على الدخول فى سياج حكمه والتسليم له أو التنحى عن طريقه ، فكان لابد إذاً من إعداد هـــذه القوة

إعداداً كاملا للدفاع عن الدعوة إلى الخير وحماية الحق من أعدائه المعاندين المبطلين ، وفتح الطريق أمام هدايته حتى تصل إلى القلوب والعقول .

وقد ذكر الله تعالى العنصر الفعال فى إعداد هذه القوة بإخباره أنه أنزل مع البينات والميزان (الحديد) ووصفه بمصدر تأثيره وأن فيه بأساً شديداً ومنافع للناس ، فهو أداة للخير والنفع إذا استقامت الحياة بالناس على جادة الحق والعدل والخير ، وهو أداة لتأديب الطغاة والمنحرفين والعتاة المعـاندين الذين إذا سمعوا الحق لووا رءوسهم وصدوا وهم مستكبرون .

وفى بيان ذلك يقول الله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للنـــاس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز »[1] .

فنسق الآية جاء بالمقصود منها على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : بيان سنة الله تعالى فى رسالاته إلى الخلق بأنه أرسل الرسل بالبينات وهى المعجزات التى يؤيدهم بها تصديقاً لهم فى دعواهم رسالة ربهم لما فيها من الدلائل القاطعة والحجج الباهرة ، كما أرسلهم بالشرائع التى فيها صلاح الحياة ومنافع الناس فى معاشهم ومعادهم ، ليهتدوا بها ويسلكوا سبيلها من الدعوة إلى توحيد الله والدعوة إلى الخير والحق والعدل .

---

(١) سورة الحديد آية ٢٥ .

المرحلة الثانية : إنزال الكتب الضابطة لهذه الشرائع المبينة لمعالمها وأحكامها ووحيها إلى الرسل ليقوموا بالدعوة إلى ما جاءت به من الهدى والخير ، وأفرد لفظ الكتاب فى الآية لقصد الجنس الشامل لكل ما نزل على المرسلين من صحف وكتب ، وفى هذا الإفراد بيان أن كتب المرسلين وشرائعهم شيء واحد فى أصولها لا تتعدد ولا تختلف ، فالإيمان بها كلها هو الذى يتحقق به كمال الإيمان فمن آمن ببعض الكتب وكفر ببعضها فإيمانه هباء لا وزن له عند الله تعالى .

ثم عطفت الآية (الميزان) على الكتاب وسلكته معه فى إنزاله لأن الميزان هو المعيار الذى يتميز به الحق من الباطل ، والعدل من الجور ، والكتب السماوية إنما أنزلها الله لتبين للناس سبل الحق والعدل .

المرحلة الثالثة : إنزال الحديد أى إنشاؤه وخلقه ، على نحو قوله تعالى : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » أى أنشأها وخلقها ، والمعنى أن الله تعالى خلق معادن الحديد فى باطن الأرض وألهم العقول بالعلم والمعرفة إخراجها وتصنيعها فيما يكون قوة للحق والعدل من سلاح وجنة ، وفيما يكون فيه منافع الناس فى شئون حياتهم فى زراعاتهم وصناعاتهم ومهامهم فى بيوتهم ، وبين الله ذلك بوصف الحديد بالبأس الشديد والقوة القاهرة لمن لم يتقبل الحق ويؤمن به بعد بيانه بالحجة النيرة لردعه عن الفساد فى الأرض وكف بأسه عن تعويق سنن الله فى تقدم الحياة انتصاراً لرسالات الله وجهاداً فى سبيله لتكون كلمته هى العليا وتبقى كلمة الذين كفروا هى السفلى .

قال الإمام ابن كثير : وقوله تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) ، أى وجعلنا الحديد ردعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة ، توحى إليه السور المكية ، وكلها جدال مع المشركين ، وبيان وإيضاح للتوحيد ، وبينات ودلالات ، فلما قامت الحجة على من خالف شرع الله الهجرة وأمرهم بالقتال وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده (اهـ) .

وفى الآية وعد وبشرى للقائمين بحق الله تعالى فى الدعوة إلى سبيله وإعلاء كلمته بأن الله سينصرهم إذا علم من نياتهم وضمائرهم أنهم ينصرون دينه ، ويؤيدون الحق بأنفسهم وأموالهم ويقومون بحق رسالات الله فى الدفاع عنها ونصرتها ، وقد أنزل أسباب القوة والبأس وأمرهم بإعدادها لردع أعداء الله وأعداء رسله ليظهر مكنون علم الله تعالى بإظهار أنصاره على أعدائه وليعلم أعداء الله من الطغاة أن الله لا يعجزه أحد مهما تمكن من القوة المادية وأسبابها لأنه قوى قهار لا يقادر وعزيز غالب على أمره لا يغالبه أحد .

وقد جاء هذا المعنى فى صور كثيرة وأساليب متنوعة فى القرآن العظيم كلها تبين أن منصب الخلافة عن الله فى الأرض — وهو الذى تتحقق به قيادة الإنسانية — يتطلب من القائمين على أمر الأمة الإسلامية وحكامها وقادتها أن يؤدوا حق تمكين الله لهم فى الأرض بما خولهم من أسباب القوة والمنعة ، وبما وضع فى أيديهم من سلطان قيادة هذه الأمة التى أمرها الله أن تكون طليعة الإنسانية رائدة لها فى الحياة فقال تعالى : « ولينصرن الله من ينصره

إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور»[١] وقال تعالى : «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »[٢] .

وبهذا التمكين فى الأرض ، وبالقيام بحق الله فى نصرته بنصرة دينه، وعد الله الأمة الإسلامية باستخلافها فى الأرض لتقيم عليها موازين العدل بين الناس والإحياء ، بما وضع فى يدها من سلطان الحق والعدل ، وقوة حمايتها والدفاع عنها، فقال جل شأنه : «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »[٣] .

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة ثلاثة وعود مبشرة للأمة الإسلامية فى مستقبل حياتها ،الوعد الأول. أن الله تعالى وعد الأمة الإسلامية —وهو تعالى منجز وعده — باستخلافها فى الأرض لترفع راية الحق ، ولتضع موازين القسط بين الناس إذا استقام على طريق الله أمرها،وقام قادتها وولاة أمرها من العلماء العاملين بما علموا ، الناصحين لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، ومن الأمراء والولاة والحكام الصالحين ذوى العزائم الصارمة والسياسة الحكيمة يحق تمكين الله لهم فى الأرض بما وضع فى قلوب العلماء وعقولهم من نور شريعته وهدايته وبما يجب عليهم من الجرأة على الجهر بكلمة الحق دعاة إلى الله تعالى ، وبما وضع فى أيدى أمراء الأمة وحكامها من القوة الرادعة ،ورهبة الكلمة موصولة الإيمان لردع الخارجين على الحق،

---

(١) سورة الحج آيتا ٤٠ ، ٤١ .

(٢) سورة محمد آية ٧ .

(٣) سورة النور آية ٥٥ .

المنحرفين عن مهيع الاستقامة فأقاموا الصلاة — وهى عماد الدين — وآتوا الزكاة — وهى عنوان التكافل بين المسلمين — وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وكانوا فى سلوكهم وأخلاقهم القدرة العملية الصالحة لأمتهم، وأخذوا بنواصيها إلى مراقى العزة وآفاق الكرامة .

الوعد الثانى : أن الله عز شأنه وعد هذه الأمة بتمكين الحق الذى ارتضاه لعباده ديناً وشريعة ، وهذا التمكين جعله الله تعالى نعمة منه لهذه الأمة وهذا يقتضى أن الله تعالى أعز الأمة الإسلامية بهذا الدين ،ومكن لها به فى الأرض حتى كانت بهذا التمكين هى القوة القادرة على حماية مقدسات الإنسانية الفكرية والاجتماعية والعقدية .

ومن هنا جاء إخبار الله تعالى فى معرض الامتنان على هذه الأمة يؤكد وعد الله تعالى بهذا التمكين ، مهما صادف هذه الأمة من محن وبلاء لتمحيصها ، حتى يميز الله الخبيث من الطيب ، فقال تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » (١) وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال :(إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها) .

الوعد الثالث : أن الله تعالى وعد هذه الأمة — وقد أنجز لها وعده — أن يبدل خوفها أمناً وقد كانت فى مهد نشأتها تعيش فى جو من الرعب والخوف مما كانت تلاقى من الإيذاء والتعذيب والظلم والقهر حتى ما يكاد المسلم يطمئن إلى السير وحده فى أرض الله وبلاده .

وفى تصوير ذلك يقول الربيع بن أنس عن أبى العالية تفسيراً للآية : كان النبى ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين ، يدعون إلى الله وحده

---

(٤) سورة الفتح آية ٢٨ .

وإلى عبادته وحده ، لاشريك له سراً ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموها فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين ، يمسون فى السلاح ويصبحون فى السلاح ، فصبروا على ذلك ماشاء الله ، ثم إن رجلا من الصحابة قال : يارسول الله ؟ أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : (لن تلبثوا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبياً ليست عليه حديد) . وأنزل الله هذه الآية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فآمنوا ووضعوا السلاح ، ثم إن الله تعالى قبض نبيه ﷺ فكانوا كذلك آمنين فى إمارة أبى بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيماوقعوا فيه فأدخل عليهم الخوف وغيروا فغير بهم .

وروى مسلم فى صحيحه عن النبى ﷺ أنه قال : (ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون) .

وفى حديث عدى بن حاتم أن النبى ﷺ قال له حين وفد عليه : (أتعرف الحيرة ؟) قال : لم أعرفها ، ولكن قد سمعت بها . قال رسول الله ﷺ :(فو الذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز). قلت : كسرى بن هرمز قال النبى ﷺ : (نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لايقبله أحد) ، قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى ابن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ (بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة والدين والنصر والتمكين فى الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة نصيب) .

وهذه الوعود التى جاءت فى الآية الكريمة المحققة بإعلاء كلمة الله ، وإظهار الإسلام على الدين كله ورفعة الأمة وتمكين دينها فى الأرض ، وتبديل خوفها أمناً ونصرها على أعدائها ، تستمد قوتها من قوة الاعتزاز بالله تعالى والتفانى فى الدعوة إلى الخير والحق وإقامة العدل .

والاعتزاز بالله تعالى أقوى دعائم الدفع القيادى فى الأمة الإسلامية ، لأن الله تعالى غالب على أمره، قوى قاهر فوق عباده لا تعجزه قوة فى الأرض ، إذا أراد تحطيمها فإنه تعالى يحطمها بها . فهو العزيز الذى لا يغالب القوى الذى لا يقادر قال عز اسمه : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز »(١)

فالآية وعد من الله تعالى باستخلاف الأمة لتكون قائدة الإنسانية إلى مجالات ارتقائها فى مدارج الكمال البشرى ، وفيها تصوير للدور الذى ادخرت الأمة الإسلامية للقيام به فى الحياة والمكانة التى ادخرت لها فى التاريخ بين الأمم .

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسيره : هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أى أئمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ، وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم ، وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها وأخذ الجزية من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم ، وصاحب مصر

---

(١) سورة المجادلة آية ٢١ .

والإسكندرية ، وهو المقوقس ، وملوك عمان ، والنجاشي ملك الحبشة بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه .

ثم قام بالأمر من بعده خليفته أبو بكر الصديق ، فلم شعث ما وهى فى جزيرة العرب وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس ، وإلى أرض الشام ففتح الله عليه بعض بلاد فارس وبعض أرض الشام وقد ألهمه الله لما دنا أجله أن يستخلف عمر الفاروق ، فقام بعده بالأمر قياماً تاماً ، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله فى قوة سيرته وكمال عدله ، وتم فى أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها وديار مصر إلى آخرها وأكثر إقليم فارس وكسر كسرى ، وقصر قيصر ، وانتزع يده عن بلاد الشام وأنفق أموالها فى سبيل الله .

ثم لما كان العهد العثمانى — يريد عهد خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه — امتدت الممالك الإسلامية إلى أقاصى مشارق الأرض ومغاربها ففتحت بلاد المغرب إلى اقصى ما هنالك ، الأندلس ، وقبرص ، وبلاد القيروان ، وبلاد سبتة مما يلى البحر المحيط ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين (اهـ) .

ولم يقف التوجيه الإسلامى بالأمة عند هذا ، ولكنه فى سبيل إثارة الحوافز القيادية ناط بها أمانة القيام بأعباء الحق الذى تدعو إليه ، فأشركها فى أقوى دعائم الدفع القيادى على أسس الإخاء والمحبة تعززاً بالله تعالى وعزته وقوته وقهره ، باعتبارها النموذج الأفضل لقوة الرقابة على تنفيذ معاقد الحق تنفيذاً يستند إلى القيم الخلقية والفضائل الإنسانية ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »[1] .

وبهذه العزة الإيمانية — التى أضفاها الله على هذه الأمة استمداداً من

---

(١) سورة المنافقون آية ٨.

عزته الذاتية وانبثاقاً من عزة رسوله خاتم النبيين محمد ﷺ ، التى كانت مصدر عظمة رسالته ، وقوتها فى توحيد الأمة الإسلامية ، لحمل أمانة الدوافع القيادية للنهوض بالحياة نهوضاً يبلغ ذروة مقدورها الإنسانى — ارتبط نصر الله للأمة الإسلامية على أعدائها وأعداء الحق والخير والعدل ، قال الله عز شأنه : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين »(١) .

والإيمان الذى ربط الله تعالى به نصره للمعتصمين بعروته الوثقى ، له خصائصه والتزاماته التى تميزه عن إيمان الذين يعيشون مع الحياة بألسنتهم يقولون ما ليس فى قلوبهم ، وهذه الخصائص والالتزامات هى القوة الدافعة للأمة الإسلامية إلى مكان القيادة الإنسانية التى جعلها الله عنواناً على خلافة الإنسان فى الأرض .

ولم يترك الله تعالى الأمة الإسلامية لنزوات الغرور تعبث بها ، أو خور العزائم ، يوهن من قوتها أو يأس الأحزان — إذا أصابتها نكسات الأحداث — يضعفها ، ولكنه تداركها برحمته وتربيته لها على العزة ، فنفخ فيها روح الاعتزاز بالله تعالى معقوداً بناصية الإيمان فقال جل شأنه : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »(٢) .

فالإيمان بخصائصه والتزاماته كاف فى توفير مجامع العزة للأمة الإسلامية ، فكيف يصل إلى قلوب أبنائها وهن العزائم وخور الأحزان وهم الأعلون المتعززون بعزة الله ؟ والله جل شأنه يقول : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا »(٣) .

---

(١) سورة الروم آية ٤٧ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٣٩ .

(٣) سورة النساء آية ١٤١ .

هذا الاعتزاز بعزة الله تعالى، والعمل بمقتضى خصائص الإيمان والتزاماته هو مصدر الدوافع القيادية فى الأمة الإسلامية، وبذلك كان لهذه الأمة منصب الخلافة عن الله فى الأرض بوضع إلهى وتكليف سماوى لا اختيار لها فى فرضه عليها، وتكليفها القيام بأعبائه وموجباته.

وقد أوتيت الأمة الإسلامية من الوصايا الإلهية والأوامر التكليفية، ومنحت من العوامل النفسية والفضائل الخلقية والطرائق السلوكية والحوافز التربوية ما يمكن لها من إعداد أقوى الدعائم المادية للدفاع عن الدعوة إلى الحق.

فهى أمة قد اختارها الله لتكون خاتمة الأمم صاحبة الشرائع الإلهية واختار نبيها ﷺ ليكون أكمل رسول بأكمل رسالة ختمت بها الرسالات السماوية، فكان لا بد لها أن تكون رسالة جامعة لكل خير جاءت به رسالة سابقة عليها إلى جانب ما يقتضيه (تطور) الإنسانية الفكرى والاجتماعى من خيور لم تكن تتطلبها ولا تطيقها الأمم السابقة فى طورها الفكرى والاجتماعى.

ولهذا جعل الله الأمة الإسلامية أمة وسطاً فهى خير أمة وأعدلها رسالة وعملا، وجعل لها مقام الشهادة على جميع الأمم لأنها أعلمت حالها بما قصه الله عليها، فعلمت أنباءها كما يعلم الشاهد الصدوق حال المشهود عليه، فعلمت سنن الله فيهم، وما أنزل عليهم من رسالاته وهداياته، وماقابلوا به هذه الرسالات الهادية من الجحود والتكذيب والإيذاء لرسل الله والسخرية منهم، والاستهزاء بهم، وما أخذهم الله به من ألوان مساخطه وعذابه حتى استأصلهم وأذهبهم، وجاء بهذه الأمة الإسلامية لتقوم بخلافة الله فى الأرض

بالحق والعدل والرحمة،قال الله تعالى: «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً»(١) .

وجعل الأمة الإسلامية أمة وسطاً ، خياراً عدولا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو أقرب القربى إليهم أو أعدى أعدائهم ، هو المعنى الذى جاءت به الآية فى قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وهو المعنى الذى تضمنته الآية فى قوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين»(٢) وفى قوله عز شأنه : «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى»(٣) .

فهو امتنان من الله تعالى على الأمة الإسلامية ، وتعريف لها بمكانها من الحياة بما مكن لها من دوافع القيادة وبما آتاها من منصب الخلافة فى الأرض هادية مهدية قائمة بالحق ناشرة لواءه على الآفاق .

وجعل أبناء هذه الأمة الإسلامية شهداء على الناس يبينون حالهم ويكشفون حال ما بقى فى أيدى بقايا الهالكين من الأمم من شرائع محرفة وكتب مبدلة تكليف من الله تعالى بأشرف واجبات الحياة ، وهو العلم بأحوال المجتمع البشرى وأطواره الفكرية والاجتماعية ومعرفة أحداثه التاريخية ليكون إخبارهم عن حالهم وشهادتهم عليهم على بينة من أمرهم .

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٣

(٢) سورة النساء آية ١٣٥ .

(٣) سورة المائدة آية ٨ .

وقد نبه القرآن العظيم على كثير مما وقع للأمم السابقة من أحوال وتقلبات وأطوار اجتماعية ، وحث الأمة الإسلامية على استطلاع ذلك ومعرفته للاعتبار به والشهادة على أهله ، وأمر بالسير فى الأرض والنظر فى آثار الماضين ، والوقوف على أحوال الغابرين حتى تحذر طريقتهم فى الإفساد والضلال ، وحتى تكون مراقبة لجلال الله تخشى أن يحل بها مثل ماحل بهم أن انحرفت عن هداية الله وطريقه المستقيم ، قال تعالى : « ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون . قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين »(١) .

وجعل رسول هذه الأمة الإسلامية ﷺ بعد بيان فضلها على جميع الأمم شهيداً على أمته إظهار لفضل هذه الأمة وتعظيم لقدر رسولها ﷺ لأن شهادته على أمته تعديل لهذه الأمة وإبانة عن فضلها فى مشهد الجمع لاريب فيه، وإنها لم تقف منه ﷺ موقف الأمم الغابرة من رسلها وأن أمته ﷺ اهتدت بهديه وحملت لواء دعوته ، وتخلقت بأخلاقه فكانت أحق بخلافة الله فى الأرض وأهلا لها .

ولهذا ربط الله تعالى بين أمره لهذه الأمة الإسلامية بالجهاد فى سبيل الحق الإلهى لتكون كلمة الله هى العليا ، ويكون الدين كله لله تعالى ، وبين اجتبائها لمنصب الخلافة فى الأرض واختيارها لقيادة الحياة وامتن عليها فى قيامها بدورها الإنسانى برفع الحرج عنها فى دينها وشريعتها ، وجعلها شريعة سماحة ويسر لعمومها وخلودها ، لتقود الناس بهذه السماحة إلى مدارج الحق والخير ، فى ظل من طهارة العقيدة بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وحده والاعتصام بعزته ، والاعتزاز بعبوديتهم له ، والتحرر من عبودية المخلوقين،

---

(١) سورة الأنعام آيتا ١٠ ، ١١ .

قال الله تبارك وتعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وماجعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير »(١) .

فهذه الآية الكريمة فى معناها وهدفها انبثاق من معنى آيات الامتنان أو التكليف للأمة الإسلامية أن تقوم على رعاية الحياة بسماحة الحق وقوة العدل لتصل بها إلى ذروة مقدورها من الكمال البشرى .

وفى هذه الآية من زيادة فى البيان بيان أهم الالتزامات القيادية التى أفردت الأمة الإسلامية بتكليفها القيام بها .

فقد بدأت الآية بأمر الله لهذه الأمة بالجهاد فى الله والجهاد فى الله أخص من الجهاد فى سبيل الله لأنه الجهاد المتمحض لحماية الحق الإلهى لتكون كلمة الله هى العليا ولهذا لم تقل الآية وجاهدوا فى سبيل الله .

لأن سبل الله كثيرة ، وإن كان الجهاد فى الله طليعة أفرادها وأهمها ، ولأهمية الجهاد فى الله بين أنواع الجهاد فى سبيل الله جاء قول النبى ﷺ فيما رواه البخارى عن أبى موسى رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه . فمن فى سبيل الله ؟ قال : (من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله) .

وعلى هذا التأويل يفهم كل ماجاء من الترغيب فى الجهاد فى سبيل الله وكما أن الجهاد فى الله أخص من الجهاد فى سبيل الله فالمجاهدون فى الله أخص

---

(١) آخر سورة الحج .

من المجاهدين فى سبيل الله لأن لفظ المجاهدين فى سبيل الله يعم كل إنسان يملك أن يدافع عن حق اجتماعى له أو لغيره وكل من يجاهد لتكون كلمة الله هى العليا ، لكن الجهاد فى الله هو الجهاد فى سبيل نصرة الحق الإلهى وحمايته ، فهو جهاد لا تشوبه شائبة تختص بحق من حقوق المجتمع أفراداً أو جماعات ، تلك الحقوق هى التى تقتضيها إنسانية الإنسان التى توجب له حق الحياة الحرة الكريمة متمكناً من أخذه حقه وقيامه بواجبه . فإذا اعتدى على حقه كان له حق الجهاد دفاعاً عن حقه المعتدى عليه لرد الاعتداء ، وإذا لم يقم بواجبه كان على الأمة أن ترده إلى حظيرة الاستجابة للقيام بالواجب الذى عليه للمجتمع ، وهذا جهاد فى سبيل الله وليس جهاداً فى الله .

ولهذا نجد الآية تؤكد الجهاد فى الله فتقول : (حق جهاده) لأن هذا الجهاد لا يجوز فيه العفو والصفح والتسامح ويجب أن يبلغ غايته بخلاف الجهاد فى سبيل الله للحق الإنسانى فإن العفو والصفح والتسامح فيه مرغب فيها .

والجهاد لنصرة الحق الإلهى وحمايته ونشر رايته هو مهمة خلفاء الله فى الأرض الذين جعل لهم توجيه الحياة وجهتها الصالحة الفاضلة بما مكن الله لهم فى الأرض من عوامل قيادية تتيح لهم العمل على تحقيق موعود الله تعالى فى قوله : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »(١) .

---

(١) سورة الصف آية ٩ .

وقد اتبعت الآية الأمر بالجهاد لنصرة الحق الإلهى ، وحمايته ببيان موجبه على هذه الأمة وهو اصطفاؤها لتكون هادية للحياة ، قائدة لأسرة الإنسانية فى مراحل الزمن وأحداث تطور المجتمع البشرى إلى أن وقفت الآية بالأمة الإسلامية فى ظل الاعتصام بالله تعالى والاعتزاز بعزته وقوته ، ثم أخبرها بأنه مولاها وناصرها إذا استقامت على عهده مجاهدة لإعلاء كلمته وهو نعم المولى ونعم النصير .

* * *

والذين يحكمون على الأمة الإسلامية — المختارة لخلافة الله فى الأرض تحقيقاً لوعد الله — بمقتضى نظرهم إلى واقع المسلمين اليوم كما يرونه وكما صورناه ، وإلى واقعهم من التاريخ منذ أن ضلوا طريق الدعوة إلى الحق والخير والهدى ، ومنذ أن أهملوا القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى أعلى مراتبهما فأهملوا الدعوة إلى الله وإلى دينه الحق وشغلوا بما شغلهم به (ذؤبان الصداقة) ليصرفوهم عن منبع هدايتهم وسيادتهم وعزتهم ومنذ أن انحرفوا عن هداية الله فى الأخذ بمعاقد العلم والمعرفة ، وإعداد القوة الدافعة القاهرة فى ضوء نظريات العلم التجريبى وأطواره وتجاربه وآثاره العظيمة،ومنذ أن مالوا بجانبهم عن جادةالفضيلة ، والخلق القويم ، واندفعوا مع شهواتهم إلى حظيرة المادية المنحلة فأصبحوا عبيد غرائزهم وفقدوا قلوبهم وضمائرهم .

الذين يحكمون على الأمة الإسلامية بمقتضى هذا النظر يغفلون عن سنن الله تعالى فى الحياة ، ويغفلون أو يتغافلون ، عن حقيقة الإيمان الذى جعله الله تعالى فى سننه الاجتماعية دعامة للعزة ، ومنبعاً للقوة ، وسياجاً لحماية الحق .

وتلك الحقيقة التي قصدنا ونقصد إليها كما تصورها حقائق الإسلام وشرائعه وهدايته فى مصدريه الأصيلين : القرآن العظيم والسنة النبوية ، هى أن الإيمان الذى جعله الله دعامة لعزة الأمة الإسلامية فعزت به يوم أن تشربت معانيه وحقائقه و (تكيفت) به حتى كانت نماذجها الحية صورة متحركة له ، تتحرك معه أينما ولوا وجوههم كان معهم ، بل كان هو الذى يقودهم ويحركهم ، هو الذى يجعل من هذه الأمة قوة موحدة فى عقيدتها وعلومها ومعارفها وتفكيرها وأخذها بأسباب القوة المادية القائمة على تجارب العلم لتحمى بها الدعوة إلى الحق الإلهى ، وتدافع عن حقها فى الحياة الكريمة الفاضلة .

وهو الذى يجعلها موحدة فى نظمها الاقتصادية التي تقوم على أساس العدل والمواساة والرحمة والاكتفاء الذاتى ، فلا تمد يديها إلى (ذؤبان الصداقة) تستجديهم الإعانات فى صورة مساعدات أو قروض ربوية ، وهو الذى يجعلها موحدة فى سياستها وعلائقها مع الأمم الأخرى ، فلا تكون فى سياستها وعلائقها سيقة لذؤبان الصداقة وإنما تكون فى علاقتها أمة لها مقوماتها الذاتية النابعة من شخصيتها وإيمانها ووحدتها وعقيدتها وعزتها .

هذا الإيمان — إذا عادت إليه الأمة الإسلامية — هو الذى يمدها بالقوة التى لا تردها عن غايتها وأهدافها قوة لا تصدر عن مثل إيمانها ، لأنه إيمان يحبب المسلم الموت فى ذات الله شهيداً أشد من حبه للحياة ، إيمان تصور أغوار رسوخه فى داخل النفس المسلمة لله تعالى الكلمة التى عنون بها أبو بكر الصديق رضى الله عنه إطار الجهاد فى الله ، فقال : احرص على الموت توهب لك الحياة .

إيمان يصور قوته فى نفس المسلم قول النبى ﷺ فيما رواه الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى : (ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده ، فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو أن يذكر بعظيم) . وقوله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى : (لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله فيه مقال فلا يقول فيه فيقال له يوم القيامة : ما منعك أن تكون قلت فى كذا وكذا ، فيقول : مخافة الناس ، فيقول — الله — إياى أحق أن تخاف) .

وقد بينا أن هذا الإيمان الذى ربط الله تعالى به العزة الإسلامية وربط به نصرة المعتصمين بعروته الوثقى له خصائص والتزامات، وهذه الخصائص والالتزامات هى القوة الدافعة للأمة الإسلامية إلى مكان القيادة الإنسانية فى الحياة .

فإذا استطاعت الأمة الإسلامية أن تحقق فى حياتها وسلوكها هذه الخصائص فتتحول عن واقعها الضعيف الذليل ، الجاهل المفرق ، إلى واقع الإيمان العزيز العليم الموحد كانت حرية بخلافة الله فى الأرض وكانت أحق بمكان القيادة الإنسانية تأخذه غلاباً، ولا تستجديه استجداء .

وقد قصدنا بهذا التصوير أن نضع يدى الأمة الإسلامية أينما حل منها قوم صورتها التى صورها بها القرآن العظيم فى بيانه لتحاول أن تأخذ فى أسباب دعودتها إلى هذه الصورة عزيزة قوية عليمة فاضلة ، بقيادة من ادخره الله فى مكنون غيبه لهذا الفضل واصطفاه لهذا المجد من أى جنس بشرى

ومن أى مكان فى أرض الله ويومئذ يؤتى الله ملكه من يشاء ويعز من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، ولكل نبأ مستقر ، ولكل أجل كتاب ، وسوف تعلمون .

وقد تقدم الله تعالى إلى المستكينين المستسلمين المستضعفين فى الأرض — وأسباب العزة والقوة بين أيديهم مهملة — منذراً متوعداً فقال : « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وماذلك على الله بعزيز » (١) وقال عز شأنه : « إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً » (٢) وقال جل جلاله : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » (٣) وقال تبارك اسمه : « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » (٤) .

وليس المراد بالارتداد فى هذه الآية والتولى فى الآية السابقة الكفر والخروج عن الإيمان والإشراك بالله تعالى وإنما المراد ترك الحق والعمل به ممن يجب عليه حماية الحق والدفاع عنه ونصرته ، روى الطبرى عن محمد ابن كعب القرظى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أرسل إليه يوماً — وعمر أمير المدينة — فقال : يا أباحمزة آية أسهرتنى البارحة قال محمد ابن كعب : وما هى أيها الأمير ؟ قال قول الله تعالى (يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه) . حتى بلغ : (ولا يخافون لومة لائم) . فقال محمد : أيها

---

(١) سورة فاطر آيات ١٥ — ١٧ .　(٢) سورة النساء آية ١٣٣ .
(٣) آخر سورة محمد .　(٤) سورة المائدة آية ٥٤ .

الأمير إنما عنى الله بالذين آمنوا الولاة من قريش من يرتد عن الحق ، أى الذين خالفوا النهج الذى كان عليه أهل العدالة وقوة الحق .

وقال ابن كثير فى تفسير الآية : يقول الله مخبراً عن قدرته العظيمة إنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته فإن الله سيستبدل به من هو خير لها منه وأشد منفعة وأقوم سبيلا .

فالتولى عن نصرة الدين وإقامة الشريعة معنـاه فقدان خصائص الإيمان التى تعتمد عليها عوامل العزة والقوة ، وفقدان التزامات الإيمان بإهمال الجهاد فى سبيل الله خوفاً من لوم اللائمين . وقولهم : الجهاد وحشية والتعزز بالعزة الإسلامية عصبية .

والنعوت التى أضفاها الله تعالى على من يأتى بهم بدلا من الذين باعدوا أنفسهم من مكان القيادة الإنسانية - بفقدهم خصائص الإيمان الذى جعله الله مصدراً لدوافع العزة والقوة هى نعوت المؤمنين الذين أعدهم الله للقيام بنصرة الحق وهى خائص خلافة الله فى الأرض لإقامة منار العدل .

فهم قوم يحبهم الله لاكتمال فضائل الإنسانية فيهم ، وبحبه إياهم أحبوه حباً آثروا بـه رضاه على رضا كل محبوب ، وهم رحماء بالمؤمنين ، يخفضون لهم من أنفسهم أجنحة الذل حدباً عليهم وشفقة بهم وحباً لهم ، وهم أعزة شامخون على أعداء الله أشداء الوطأة غلاظ الجفوة على أعداء الحق الإلهى ، يعـدون للمواقف أقرانها ، لا يركنون إلى مداهنة الأحـداث تهرباً من مواجهتها ، ولـكنهم إذا واجهوها كانوا أعزة أقوياء يجاهدون فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا ، لا يرهبون قوة فى الأرض مهما كان شأنها عدداً وعدة ولا يخافون لوماً من أحد يعيرهم بمجافاة سلوكهم — فى عزتهم

وجهادهم انتصاراً للحق — لمراسم الحضارة ومظاهرها ليخدعهم عن حقيقة إيمانهم وسيادتهم وعزتهم .

ثم أخبر الله عن كمال عظمته مبيناً أن استبدال قوم يعدهم بتربيته ويرعاهم برعايته ويؤدبهم بشرائعه ، ويؤيدهم بقوته بقوم آخرين تخاذلوا نخذلهم ، وضعفوا عن تحمل أمانة الحق والعدل ، وعجزوا عن القيام بموجبات خلافته تعالى على خلقه فى الأرض يسوسونهم بسننه وعدله ، إنما هو محض فضل منه يؤتيه من يشاء من عباده وهو سبحانه الواسع الذى لا تحيط بكمال ألوهيته العقول والأفكار ، ولا تقيده فى اختياره ومطلق مشيئته الأجناس والألوان ولا الأماكن والأزمان ، العليم بما فطر عليه خلقه من استعداد وبما وضع فى أجناسهم وأممهم وشعوبهم وأفرادهم من حكم وأسرار ، فيصطفى منهم بفضله أمة مسلمة قائمة على الحق والعدل ومناهج العلم وسبحات الأفكار ، تقود الإنسانية إلى معارج الكمال المقدور لها فى سجل الحياة إيماناً بما جاء به خاتم النبيين محمد ﷺ من شريعة ختم الله بها شرائعه الإلهية وجمع فيها كل خير وصلاح للناس والحياة .

* * *

ونحب أن ننبه هنا إلى أمر له أهميته فى تصحيح وهم قد يستولى على بعض الناظرين فيما كتبنا من هذه البحوث .

ذلك أننا فى تصويرنا دوافع العزة الإسلامية بما صورها به القرآن الكريم لا نتعصب لجنس ولا لون ، ولا وطن ، ولا قومية ، وإنما نضع أمام الحياة صورة من الحقائق الواقعيـــة والمبادىء الإلهيـة التى جاء بها دين الإســـلام ، ذلك الدين القيم الذى يضع دستوره قاعدة التفاضل بين أبناء الإنسانية أفراداً وجماعات أمماً وشعوباً فى أمر يملكه

كل فرد وكل أمة ، وكل شعب على وجه الأرض إذا وفقوا إليه وأرادوه بمحض مشيئتهم ، فيقول بعد بيان المساواة المطلقة بينهم فى نبعة البشرية التى تفرعوا منها أمماً وشعوباً وقبائل «ياأيها الناس إنا خلقنا كم من ذكر وأنثى وجعلنا كم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم»[1] والتقوى فى أسلوب القرآن ومعارف الإسلام هى عمل كل أمر صالح يحجز الإنسان عن الوقوع فى مزالق الشر والفساد .

وذلك الدين القيم الذى يفسر رسوله الأمين ﷺ نصوص دستوره ويبين فى غير لبس ولا خفاء — على مسمع أحفل جمع رآه الإسلام فى حياته ﷺ فى خطبته يوم الجمع الأكبر - أن اختلاف الأجناس والألوان لا دخل له إطلاقاً فى التفاضل الإنسانى فيقول وهو بمنى وسط أيام التشريق: (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، ألا لافضل لعربى على عجمى ولا عجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى) .

وقد طبق النبى ﷺ هذه القاعدة فى التفاضل الإنسانى ، فوضع نخر الجاهلية بالأجناس والألوان والأنساب تحت قدميه ، فزوج الموالى من القرشيات وحرائر العرب ، وفتح باب الامتزاج بين الشعوب الإسلامية ، فتزوج العرب من الفرس والروم ، والقبط ، والصقالبة والبربر ، والصين والهنود وغيرهم ، وتزوج هؤلاء من العرب ، فكانت الشعوب الإسلامية أسرة واحدة لاتفرقها الأجناس والأوطان .

وقد قال النبى ﷺ فى حق سلمان الفارسى رضى الله عنه : (سلمان

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

منا أهل البيت) ، وقال عمر بن الخطاب فى حق بلال عتيق أبى بكر رضى الله عنه : (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا) .

هذه المبادئ التى تصورها لاتدخلها نزوات التعصب لشىء وغيرها من الحقائق والمبادئ بل هى لاتقبل التعصب لغيرها ، لأنها صورة تستطيع أن تقوم بها أية أمـــة من أمم الأرض تؤمن بدين الإسلام ، وتعمل على تنفيذ مبادئه وتطبيق أحكام شريعته تطبيقاً عادلا ، يريح على كل ذى حق حقه ويحمل كل مكلف فى ظله على القيام بواجبه ، ولاعليها بعد ذلك أن تكون من أى جنس بشرى أوأية أرومة إنسانية فى أى بقعة من بقاع الأرض ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

والإسلام دين الإنسانية كلها فلا يقيم وزناً فى حسبانه لحواجز الجنس أو اللون أو الوطن ، ولا تعرف مبادئه وأحكام شريعته الفوارق ، فكل مؤمن به مكلف بالتزاماته وتطبيق خصائصه على واقع الحياة .

وأسعد الناس حظاً به من ادخره الله من عباده لخلافته فى أرضه وفتح مغاليق قلبه لهدايته وبصره بعظمته ، وأعده لحمل لواء الدعوة إلى الله ، ليحكم بين الناس بالقسط وينشر بينهم المحبة والإخاء وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

هذه الصورة التى صور بها القرآن العظيم الأمة الإسلامية فى خطوطها التكوينية والتى طبقها عملياً فى واقع الحياة رعيلها الأول هى التى جعلت هذه الأمة أمينة على كلمة الله وعلى حمل لواء الدعوة لإعلائها .

وهى الصورة التى جعلت الأمة الإسلامية أهلا لحمل أعباء وحماية الحق الإلهى والدفاع عنه .

وهى الصورة التى ناطت تطهير العقيدة بإقامة دعائم التوحيد وإزالة معالم الشرك بالله تعالى ، وتهديم بناء الوثنية وتحطيم كيانها بجميع صورها ونماذجها التى عرفتها الأمم والشعوب .

وهى الصورة التى أقيمت بها هذه الأمة لتكون سنائد لمنائر العدل فى الحياة قوامة به على نفسها قبل أن تقيمه على غيرها ، لاتصدها عن موازينه عداوة شانئة ولا قرابة قريبة .

وهى الصورة التى أعدت بها لتكون خير أمة أخرجت للناس لتقود الإنسانية بكل مافيها من خصائص الإيمان الموحد لشعوبها بوشيجة الإخاء والتكافل ،والتعاون على البر والتقوى وبكل مافيها من عوامل العزة المستمدة من تعززها بعزة الله تعالى ، وبكل مافيها من طاقات القوى الدافعة المتوثبة، وبكل مافيها من حوافز القيادة الإنسانية لتحقيق موعود الله باستخلافها فى الأرض لنشر الهداية والعدالة والأمن والسلام .

وبهذه الصورة متكافلة فى إطار الوجود الإسلامى لاتزال هذه الأمة الإسلامية مكلفة القيام بمهمتها الأصيلة التى من أجلها وجدت فى خطوطها الإسلامية الأولى كما بينها دستورها وكتابها المبين .

هى فى سبيل تحقيق هذة المهمة القيادية مطالبة فى حاضرها أن تبدأ مرحلة جديدة فى حياتها ، تجدد بها ديباجتها ، وتعيد بها تكوين نفسها فى صورة تضيف إلى خطوطها التاريخية الأصيلة خطوطاً جديدة فى التفكير وتصحح بها ما انحرف من مفاهيم تاريخها ومفاهيم إسلامها على شرط أن تقوم هذه الخطوط الجديدة على دعائم إسلامية صحيحة لاتخرج عنها ، وتنطلق مع الزمن فى مشاركة الحياة مشاركة إيجابية فعالة .

والخط الأساسى فى هذه الخطوط الإضافية الجديدة هو خط الفكر الذى انقطع اتصاله بتاريخ الأمة الإسلامية بعد ما كان لها فيه من امتداد عريض ، وغور فى أعماق المعرفة والعلم .

فالأمة الإسلامية اليوم بعيدة كل البعد عن مجال العلم الذى كان لها فى تاريخها ، وهى أبعد فى حاضرها عن مجال العلم التجريبى — وكشف أسرار الطبيعة والإفادة من ظواهرها — من بعدها عن مجال العلم فى تاريخها ، فهى منهما فى جهالة مخدوعة ومعرفة خادعة ، وبلادة جاهلة .

وهذا العلم التجريبى — أو العلم الطبيعى — هو الذى يقود الإنسانية اليوم ، وهو الذى يدفعها دفعاً لاتدرى معه إلى أى نهاية تندفع إن لم تجد قيادة مستهدفة تقودها إلى هدف يرسى فلكها على مستقر من السلام والإخاء والمحبة الصادقة للإنسانية كل الإنسانية .

وتلك القيادة هى صمام الأمان فى مسيرة الحياة مع العلم التجريبى فى إثارته لمكنونات الطبيعة. هذا العلم المتوثب توثبات تفوق الطفرة فى سرعتها وغموضها لاتنضبط ولاتنتظر.

وذلك الهدف الذى جعله الله غاية لاستخلاف الأمة الإسلامية فى الأرض ، به مكن لها دينها وبه بدل خوفها أمناً ، وبه تعبد الله وحده ، وبه تقود الإنسانية إلى مدارج الخير والإصلاح .

ولا يمكن للأمة الإسلامية أن تنهض فى حاضرها لتكون على المستوى الذى يمكن أن تحقق به هدفها الإنسانى العظيم إلا إذا تعارفت شعوبها من جديد، وتدارست تاريخها من جديد ، وراجعت أصولها التخطيطية الأصيلة فى دستورها وقرآنها من جديد ، وأحيت حوافزها أمة موحدة من جديد ،

وجددت مارث من خصائصها الإيمانية ، وأيقظت فى داخل نفسها عوامل الكفاح والجد لنصرة الحق ، وحملت مرة أخرى لواء الدعوة إلى الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ، عاملة بكل طاقتها وقواها على نشر راية العدالة فى ربوع الحياة ، مستعيدة ما كان لها فى مجال القيادة الإنسانية من سلطان مرهوب الجانب ، مسموع الكلمة مستجاب الدعوة فى قلب الإنسانية وعقلها وروحها .

والإنسانية اليوم — على رغم مظاهر التشاؤم واليأس — منطلعة إلى قيادة تنقذها مما ارتطمت فيه من شرور الحضارة المادية الفاجرة، والقوميات المفرقة، والحروب المدمرة ، والأزمات النفسية الخانقة ، والضوائق المادية الجائحة ، ولكن هذه القيادة التى تتطلع إليها الإنسانية لا تريدها قيادة خطب وعظية ، ومقالات بلاغية إنشائية ، فى مؤتمرات ومحافل ، يردد صداها بالمكاء والتصدية ، بل تريدها قيادة عاملة ، تقوم على عمل دراسى يعتمد على العلم التجريبى ، بأوسع حقائقه ومعانيه .

والإسلام بدستوره العظيم وكتابه المبين أرحب النظم الإصلاحية صدراً للعلم عامة وللعلم التجريبى خاصة بل هو أقوى النظم الإصلاحية دفعاً إلى التعمق فى الإحاطة بأسرار الحياة ، ومكنونات الكون ، للكشف عن آيات الله ودلائله فى هذا الوجود المحجب، ليهتدى بها الإنسان ويفيد منها لأنها مسخرة له فى كتاب الإسلام .

والخطوة الأولى فى العمل الإيجابى أن تبدأ الشعوب الإسلامية فى تعارف دراسى ، يستكشف الحقائق فى مجتمعاتها ، ويضبطها مرتبة على حسب أهميتها فى إبرازها إلى واقع الحياة ولا يتيهها فى متاهات الجدل العقيم ، والنقاش

الأجوف ، والأغراض الدعائية ، والإثارات العاطفية ، والشهوات الشخصية ، والمنافسات القومية ، والمنازعات الوطنية ، والتعبد لسياسة الحكم والحاكمين .

وأهم هذه الحقائق — فيما نظن — هى معرفة مدى ما عند هذه الشعوب من معرفة بأصول الإسلام وأحكامه وشرائعه ، ومدى إيمانها بإمكان تطبيق هذه الأصول والشرائع فى حياتها ، ومدى ما يستطاع من التعاون الفعال بين جميع هذه الشعوب فى تدارك ما يكون لدى بعضها من جهالة بهذه الأصول والشرائع .

وإذا استطاعت هذه الشعوب الإسلامية بقيادات شعبية تنبثق منها ، وتكون قيادات واعية صبورة ،مخلصة لاتتعجل النتائج ، ولا تجعل من الدين معبراً إلى الدنيا ، فإنها تستطيع حينئذ أن تجد الوسيلة الطبيعية الهادئة للوصول إلى قيادات هذه الشعوب الحاكمة وسلطاتها التنفيذية لتتجاوب معها تجاوباً تنفيذياً ، يصدر عن إيمان وإخلاص ، ويقود الشعوب إلى آفاق العلم الذى تتطلبه حياة المسلمين وإلى مجالات العمل والبذل والتضحية فى طواعية راغبة وتعاون متكافل يصل بالأمة إلى مستقبل سعيد فى حياة حرة كريمة .

وهذا التجاوب بين الشعوب وقياداتها الحاكمة ، وسلطاتها المنفذة ضرورى فى توحيد القوى لاستقرار الأوضاع فى هذه الشعوب ، وهو ضرورى للخروج من السلبية التى تنادى بتشخيص الداء درن أن تستطيع التقدم نحو العلاج والاستشفاء .

وسيكون الإحساس الأول لهذا التجاوب هو الشعور بضرورة الحاجة

الملحة إلى استخدام طاقات الشعوب العاملة الناهضة فى مساعدة الشعوب المقصرة »، لتستكمل نواقصها لإعداد نفسها مع الشعوب القادرة لمواجهة معركة الحياة التى تتطلب من الأمة الإسلامية إعداد نفسها بكل طاقة علمية وكل طاقة مادية، وكل طاقة اجتماعية، وكل طاقة سياسية، وكل طاقة خلقية لتسيطيع أن تضع نفسها إذا استكملت وسائلها موضع القيادة الإنسانية التى أخرجها الله من ضمير غيبه لتأخذ بزمامها، هادية مهدية، راشدة مرشدة، خيرة وداعية إلى الخير حاملة لواء الدعوة إلى الحق الإلهى أداء لرسالتها فى الحياة.

جهاد القتال لحماية الحق الإلهى

ومن هنا تبدأ المرتبة الثالثة من مراتب « جهاد القتال » وهو جهاد لحماية الحق الإلهى بإعلاء كلمة الله، وكلمة الله هى كلمة الحق والخير، والعدل والإصلاح، وإذا علت كلمة الله، واستعلن بها الحق، فقد استقامت للإنسانية طريقها إلى حياة السلام والأمن والإخاء. وقد قامت هذه المرتبة من (جهاد القتال) على الأمر بنشر الدعوة إلى تطهير العقيدة من دنس الشرك، ورجس الوثنية، فهى دعوة موجهة إلى جميع من كفر بالله ممن أوتى كتاباً سماوياً فحرفه وبدله فوقع بهذا التحريف فى حمأة الشرك، وممن لم يؤت كتاباً سماوياً فكان مشركاً وثنياً، فهى إلى المشركين كافة أينما وجدوا من أرض الله لأن الشرك بجميع نماذجه وصوره إفساد فى الأرض وهو أصل أصول الباطل، وهو أخبث دعائم الشر والفساد، لأنه تحقير وإهانة للعقل الإنسانى الذى فضل به الإنسان على غيره من مخلوقات الله فى الأرض، وهو استهانة

واستهتار بالكرامة الإنسانية، ومحاربة الله تعالى وجحود لفضله وتكذيب لرسله وهو مصدر الفتن العقلية والاجتماعية ومنبع الظلم والطغيان ، فكان من موجبات الإصلاح فى الحياة القضاء عليه وتحطيم دعائمه وجهاد المدافعين عنه ، الصادين عن الحق والخير وكسر شوكتهم وزعزعة قوتهم ، وتبديد جموعهم .

والإسلام حين يأمر بهذا النوع من الجهاد يضع له نظاماً يحقق به هدفه فى جو من العدالة والرحمة .

أول دعائم هذا الجهاد

وأول دعائم هذا النظام الحكيم العادل الأمر بإعداد أقصى ما تستطيع الأمة الإسلامية من قوة بكل ماتملك من طاقات مادية وعلمية ، وفى هذا يقول ربنا تبارك وتعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »(١) .

وهذه الآية أول مراحل تشريع الجهاد لحماية الحق الإلهى لإعلاء كلمة الله ، وهى أصل فى توجيه الأمة الإسلامية إلى الأخذ بأسباب القوة العلمية بأوسع ما تحمل كلمة (العلم) من معنى يمكن الوصول إليه ، وإلى التعمق فى مفاهيمه وتجاربه ، وخوض لجته واستثمار نتائجه وآثاره والعمل على توطيد دعائمه فى الأمة الإسلامية بإنشاء معاهده ومدارسه

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠ .

وجاماته ومصانعه فكأنه قيل : أعدوا — أيها المسلون جميعاً ، أينما كنتم فى أرض الله ، لجميع أعداء الله ، وأعداء الحق من الطغاة الصادين عن دعوة الحق الإلهى — كل ما تملك طاقاتكم من علم وعمل ، ومال ، وجهد وبذل وإنفاق ، على معاهد العلم ومصانع العمل والاختراع ، ومن الرجال والجند ووسائل التدريب ومن الساسة الحكماء ، ومن العلماء فى كل فن وعلم ، ومن وراء ذلك أمة بجميع شعوبها تشرى الحياة الدنيا بالآخرة ، وتبيع نفسها لله تعالى فى سبيل حمايتها للدعوة إلى توحيده ، ودعوتها إلى تحرير الإنسانية من الظلم والطغيان ، ونشر راية العدالة بين ربوع الأرض .

ثم بعد أن استوفت الآية كل ما يدور بخلد الناظر فيها لتطبيقها ذكرت نوعاً من وسائل (القوة) كان له ضرورته فى الإعداد وقت نزول الآية وفى البيئة التى كانت مجالا للجهاد أول مشروعيته ولا تزال لهذا النوع أهميته وهو إعداد الخيل وتمرينها على الكر والفكر ، ورباطها فى ثغور المسلمين ومجالات المعارك ، فلم يكن من الحكمة إهدار وسيلة هى فى ذروة الإعداد للقوة عند المحاربين .

ثم بينت الآية أن إعداد القوة لم يؤمر به المسلمون لتكون تلك القوة قوة هجومية تفتك بالآمنين وتقتل الضعفة والعاجزين ، ومن لم ينصب قتالا للسلمين ، وإنما هو إعداد لقوة ترهب عدو الله وعدو المسلمين ، المتربصين بهم ، لحملهم راية الحق الإلهى،وترهب من يتخفى وراء الدسائس والمؤامرات من (ذؤبان الصداقة) أو غيرهم الذين يعاونون أعداء المسلمين المعلنين بالقوة العلمية والمادية والمكر والخديعة من الذين يعلمهم الله ، ويعلم مايدبرون من كيد ومكر ، وإمداد العدو الظاهر بما يستطيعون إمداده به من الرجال والسلاح تحت طيات الظلام .

يقول الإمام أبو جعفر الطبرى بعد ان روى تفسير النبي ﷺ (القوة) فى الآية بالرمى بقوله ﷺ على المنبر : (ألا إن القوة الرمى) ثلاث مرات: والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله أمر المؤمنين بإعداد الجهاد وآلة الحرب ، وما يتقوون به على جهاد عدوه من المشركين من السلاح والرمى وغير ذلك ، ورباط الخيل . ولا وجه لأن يقال : عنى بـ « القوة » معنى دون معنى من معانى « القوة » وقد عم الله الأمر بها .

وليس فى الخبر — أى المفسر للرمى بالقوة — ما يدل على أنه مراد بها الرمى خاصة ، دون سائر معانى القوة عليهم،فإن الرمى أحد معانى (القوة) لأنه إنما قيل فى الخبر : (ألا إن القوة الرمى) ولم يقل دون غيرها ، ومن القوة أيضاً السيف والرمح والحربة ، وكل ما كان معونة على قتال المشركين كمعونة الرمى وأبلغ من الرمى فيهم ، وفى النكاية منهم .

فقد قرطس أبو جعفر رحمه الله على المعنى المطلوب المحقق لهدف إعداد القوة ، وبين أن المسلمين مكلفون إعداد كل ما يستطيعون من ألوان القوة وأسلحتها التى يحققون بها إرهاب عدو الله وعدوهم ، إرهاباً يمنعه من حديث نفسه بالاعتداء عليهم ومهاجمتهم ، ويمنعه من التعرض للدعوة . إلى الله وإعلاء كلمته ، تعرضاً يعوقها ، ويقيم فى طريقها العقبات .

وقد فسر عكرمة مولى ابن عباس رضى الله عنهما (القوة) بالحصون ، وهو أيضاً معنى يدل على أن القوة فى الآية عامة شاملة لكل ما يحقق إرهاب العدو ، سواء أكان ذلك حصوناً وقلاعاً أم كان سلاحا أو آلة سلاح ، أو علماً تهتدى به آلات الحرب .

ونحن نشهد الآن فى عصرنا ألواناً من القـوة وآلات الحرب ووسائلها ، لم تـكن معروفة فى العصور الغابرة ، ولا كانت تمر بخاطر أحد ، وهى اليوم هى التى تحقق إرهاب عدو الله وعدو المسلمين ممن يعلن بعداوته ، أو يتخفى وراء المـكر والخداع . فإذا حانت له فرصة وثب وثبة الذئاب الجائعة .

وهذا الإرهاب هو المطلوب بالآية ، وهو هدفها التى صرحت به وقصدت إليه ، فلو كانت هذه الأنواع من نماذج القوة المستحدثة بالعلم التجريبى واستخدام ظواهر الطبيعة فى أيدى المسلمين يملكون إعدادها وصنعها ، ويقدرون على استعمالها والتصرف فيها لما كانوا فى هذا الضعف والهوان الذليل الذى جعل الأمم الوليدة فى مهد التاريخ ، والتى لم يكن لها فى هذا التاريخ رصيد من العزة مثل رصيدهم ، تطمع فيهم ، وتتداعى إلى تمزيقهم وتفريق وحدتهم حتى صاروا — كما أخبر عنهم رسول الله ﷺ — غثاء كغثاء السيل .

فالقرآن العظيم بهذه الآية الـكريمة يهيب بالأمة الإسلامية أن تفيق من خدر التسامح المزور لها والمزيف عليها — وتصحو من غيبوبة الذعر وخوف الاتهام بالتعصب الإسلامى ، وتبدأ الخطوة الأولى فى الجهاد لحماية الحق الإلهى الذى جعله الله أمانة فى عنق هذه الأمة التى استخلفها فى الأرض ، ويهيب بها أن تأخذ فى إعداد (القوة) التى أمرها بإعدادها لترهب عدو الله وعدوها ممن أعلن عداوته أو أخفى ذلك مكراً وخداعاً ، والله يعلم ما فى قلبه من الخبيث الحقد على الإسلام والمسلمين .

ولا شك فى أن هذه الأنواع المستحدثة من الأسلحة وآلات الحرب ، وما يجد منها مما تخرجه مصانع العلم الطبيعى ، وتقذف به تجارب العلماء هى التى ينطبق عليها المعنى المراد من (القوة) فى الآية — فى هذا العصر ، وهى التى يجب على المسلمين إعدادها ليردوا اعتداء المعتدين على بلاد الإسلام ومقدساته وتشريد المسلمين من أوطانهم وإخراجهم من ديارهم وأموالهم .

فالصواريخ حاملة الرءوس الذرية،والقنابل النووية بأنواعها والطائرات بأنواعها ، وحاملاتها من السفن العظام ، والدبابات والغواصات والبوارج الحربية والمصانع التى تنتج ذلك ، والعلماء الذين يقومون على إجراء التجارب، والجنود الخبراء وكل ما يمكن أن يستعمل فى قهر العدو وتحرير بلاد الإسلام من سطوته وإرهابه والنكاية به واجب على المسلمين وجوباً عينياً أن يعدوه إعداداً كاملا ، وأن يبذلوا فى سبيل إعداده والقدرة على استعماله ما يملكون من أسباب مادية وعلمية أفراداً وجماعات وأمماً وشعوباً ولو أتى على جميع ما فى أيديهم من مال أو متاع ، وإذا قصروا فى إعداد ذلك — وهم اليوم مقصرون — كانوا جميعاً آثمين ، معرضين لسخط الله وغضبه وقهره ، وتسليط الأمم عليهم لإذلالهم واستعبادهم كما هو حالهم وواقعهم اليوم فى كثير من دويلاتهم وأوطانهم .

والإسلام لا يأمر بإعداد هذه القوة الرادعة المرهبة للهجوم والتدمير والتخريب وسفك الدماء ونهب الأموال واستعباد الأحرار ، والاستئثار بخيرات البلاد وكنوزها ، وحرمان أهلها منها لتوريثهم الفقر والجهل والأسقام كما هو دأب أصحاب الحضارات المادية الشهوية الذين استخدموا العلم فى إفساد حياة الناس إشباعاً لشهواتهم وخبيث أغراضهم .

وإنما يأمر الإسلام بإعداد هذه القوة لتكون حماية للدعوة لنشر الحق الإلهى ، الذى كلفت الأمة الإسلامية القيام بها تحقيقاً لوعد الله باستخلافها فى الأرض وإعظاماً للعقل الإنسانى ؟عن التدهدى والتهاوى فى حمأة الوثنية الجامــدة ، البليدة والإلحاد الداعر ، وإنقاذاً للبشرية من الظلم والطغيان وإقامة لدعائم العدل والاستقامة بين أمم العالم وشعوبه .

فالجهاد فى هذه المرتبة هو الجهاد فى الله حق جهاده حتى يكون الدين كله لله وهو مرتبط أشد الارتباط بجهاد الحجة والبيان الذى ابتدأت به الدعوة الإسلامية ، وأمر الله به رسوله ﷺ فى قوله تعالى : « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً »[١].

فلا يجوز أن يقع من المسلمين قتال مع أحد فى هذه المرتبة إلا بعد بيان الدعوة إلى الله بياناً كافياً لفهمها وفهم دلائلها وحججها ، وبعد هذا البيان لا يجوز أن يقع منهم قتال إلا إذا وقف أعداء الدعوة إلى الله عقبة فى طريق سيرها ، فهذا الجهاد جهاد دفاع عن سير الدعوة وفتح الطريق أمامها ، وتأمين ظهرها من طعنات الغدر والخيانة وليس هو قتال إكراه على قبول الدعوة ، لأن الله تعالى يقول فى دستور الإسلام وكتابه المبين « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »[٢] وهذه آية مدنية ، نزلت بعد نزول آية الإذن فى القتال ، والأمر به ، والمفسرون يذكرون فى سبب نزولها روايات كلها تفيد أنها نزلت فى الإخبار من الله بأنه لا يجوز أن يقع إكراه ، بمعنى حمل الناس بالقوة القاهرة على قبول الدعوة إلى الله والدخول فى دينه ، دين الإسلام واعتناقه بالقسر والإكراه .

---

(١) سورة الفرقان آية ٥٢ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

قال ابن كثير فى تفسيرها : يقول الله تعالى : (لا إكراه فى الدين) أى لاتكرهوا أحداً على الدخول فى دين الإسلام ، فإنه بين واضح ، جلى دلائله وبراهينه ، لايحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله تعالى للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته ، دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لايفيده الدخول فى الدين مكرهاً مقسوراً .

وقال الإمام القفال — كما نقله الرازى — : معنى الآية أنه تعالى مابنى أمر الايمان على الإجبار والقسر ، وإنما بناه على التمكين والاختيار ، ثم احتج القفال على أن هذا هو المراد بأنه تعالى لما بين دلائل التوحيد بياناً شافياً قاطعاً للعذر قال بعد ذلك : إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر عذر فى الإقامة على الكفر إلا أن يقسر على الإيمان ويجبر عليه ، وذلك مما لايجوز فى دار الدنيا التى هى دار ابتلاء ، إذ فى القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان .

ثم قال الرازى بعد نقله كلام القفال : ومما يؤكد هذا القول أنه تعالى قال بعد هذه الآية :

(قد تبين الرشد من الغى) يعنى ظهرت الدلائل ووضحت البيانات ولم يبق بعدها إلا طريق القسر والإلجاء والإكراه وذلك غير جائز لأنه ينافى التكليف .

وروى الطبرى فى سبب نزول الآية روايات كثيرة كلها تؤيد هذا المعنى أشهرها وأمثلها روايتان ، إحداهما تخبر عن شأن كان من شئون الأنصار ، والثانية تختص برجل منهم .

الرواية الأولى: رواها أبو داود عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: نزل هذا فى الأنصار كانت تكون المرأة مقلاة — وهى التى لا يعيش لها ولد — فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده فلما أجليت بنو النضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار فقالوا: لاندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى: (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى).

زاد القرطبى: إن الأنصار قالوا: إنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه، وأما إذا جاء الله بالإسلام فنكرههم عليه فنزلت: (لا إكراه فى الدين) من شاء التحق بهم ومن شاء دخل فى الإسلام.

وعن سعيد بن جبير فى هذه الرواية أنه قال: كانت المرأة فى الجاهلية تنذر إن ولدت ولداً أن تجعله فى اليهود وتلتمس بذلك طول بقائه، فجاء الإسلام وفيهم منهم، فلما أجليت النضير قالوا: يا رسول الله: أبناؤنا وإخواننا فيهم فسكت عنهم رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ذكره: (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى).

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قد خير أصحابكم فإن اختاروكم فهم منكم وإن اختاروهم فهم منهم).

والرواية الثانية: أن الآية نزلت فى رجل من الأنصار يقال له: أبو الحصين، كان له ابنان فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما باعوا وأرادوا أن يرجعوا أتاهم ابنا أبى الحصين، فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا فرجعا إلى الشام معهم، فأتى أبوهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن ابنى تنصرا وخرجا أفأطلبهما؟ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: (لا إكراه فى الدين).

وذكر القرطبي عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمى أيتها العجوز تسلمى ، إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق قالت أنا عجوز كبيرة ، والموت إلى قريب ؟ فقال عمر: اللهم أشهد ، وتلا : (لا إكراه فى الدين) ، وقد سبق أن قدمنا شيئاً من هذا فى مناسبة سابقة .

وبهذا يتبين أن منهج القران العظيم وطريقته فى الدعوة إلى الله تعالى يقوم على أساس تبليغ الدعوة وبيانها بياناً واضحاً وإقامة الدلائل ، وإزالة الشبهات وينهى عن الإكراه والقسر بالقوة المادية القاهرة لإدخال الناس فى الإسلام دين الله تعالى الذى ارتضاه لعباده ديناً .

وأوضح دليل على ذلك بعد نص الآية : (لا إكراه فى الدين) ان جميع الآيات التى تتحدث عن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم تقصر هذه المهمة العظيمة على تبليغ رسالة ربه . وتنفى عنه أن يكون حفيظاً على الناس ، أو وكيلا عليهم ، أو رقيباً ، أو قيماً على قلوبهم ، أو مسيطراً على أنفسهم ، أو مسلطاً ، أو جباراً يجبرهم على قبول الحق الذى جاءهم به من عند الله ، وأوضحه بأجلى البراهين وأوضح الحجج .

وقد جاء هذا المعنى فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، وفى سور متعددة بأساليب وعبارات متنوعة ، وكما جاء هذا المعنى فى سور مكية قبل الإذن بالقتال ، والأمر به لدفع الاعتداء ، فقد جاء فى سور مدنية بعد الأمر بالقتال لحماية الدعوة إلى الله ودفع الظلم عن القائمين بها ، وها هى ذى بعض المواضع .

١ — ففى سورة آل عمران — وهى سورة مدنية — يقول الله تعالى

لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أءسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد(١) » .

فهذه الآية الكريمة — وهى من سورة مدنية ، نزلت بعد الإذن للمسلمين بقتال من يعتدى عليهم وأمرهم بقتال من يقاتلهم ، وفيها حجاج مع المشركين وأهل الكتاب ، وفيها ذكر لموقعة (أحد) وهى من أشهر المواقع الإسلامية التى تمثل لوناً من جهاد القتال لرد الاعتداء وتحمل نتائجه بما فيها من أشد الابتلاء والمحنة ، تمحيصاً للمسلمين حتى يميز الله الخبيث من الطيب — توجيه للنبى صلى الله عليه وسلم فى أداء رسالته وفى موقفه من أصناف الناس ودعوتهم إلى الله فهى مخاطبة مع جميع الذين لم يؤمنوا بهذه الدعوة : من المشركين الوثنيين الذين لم يؤتوا كتاباً سماوياً ولم يكن عندهم أثارة من علم الدين والحق ، أو من الذين أوتوا الكتاب من قبل فحرفوه وبدلوا آياته كفراً وحسداً من عند أنفسهم .

فهى ترسم طريق الدعوة مع المجادلين بالباطل طغياناً وكفراً ، بعد ما ثبت بالحجة أن ما يدعوهم إليه الرسول ﷺ هو الحق من عند ربهم فلم يبق لهم إلا العناد أو الإقرار بالحق ، فإن أقروا بالحق وهدوا إلى صراطه فهم مسلمون مهتدون ، وإن أعرضوا وتولوا عنه مدبرين وأصروا على التمسك بالباطل فليتركوا وما اختاروا لأنفسهم من الضلال ، والله تعالى يسلى رسوله ﷺ عن إعراضهم ، وكان ﷺ شديد الحرص على قبولهم دعوته والإيمان

(١) سورة آل عمران آية ٢٠ .

بها، ويبين له أنك قد قمت واجبك أكمل قيام: لأن واجبك تبليغ رسالتك، وقد بلغتها إياهم بالبيان الواضح والحجة النيرة . فلا تبتئس بإعراضهم، ولا تحزن عليهم، ولا تحاول إكراههم وقسرهم على قبول دعوتك، لأن هذا ليس مما يدخل فى حيز واجبات رسالتك والله تعالى بصير بك فى بيانك الحق، وتبليغك ما أرسلت به إليهم، وهو سبحانه بصير بهم فى عنادهم وعتوهم، وجدالهم فى الله بغير الحق، وسيجازى كل عامل على عمله، فيحالك أنت ومن آمن معك واتبعك على الهدى، دار الكرامة والنعيم المقيم، ويحل أعداءك أعداء الحق المجادلين بالباطل المعرضين عن الحق عناداً دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار .

وليس فى الآية أية إشارة من بعيد أو من قريب لأخذ هؤلاء المعاندين للحق بعد ما عرفوه من المشركين الوثنيين ومن الذين كفروا من أهل الكتاب بالإكراه وحملهم بالقوة المادية القاهرة على الدخول فى الدين، وقبول الدعوة إلى الله لمجرد أنهم تولوا وأعرضوا دون أن يقاتلوا أو يعتدوا على المسلمين أو يقفوا معوقين للدعوة واضعين للعقبات فى طريقها .

وهذا يدل على أن جهاد القتال لحماية الحق الإلهى وإعلاء كلمة الله إنما شرع لدفع العدوان على الدعوة إلى الله، وحماية الحق الإلهى ممن يتعرض له بظلم أو عدوان .

٢ — وفى سورة المائدة — وهى سورة مدنية من آخر ما نزل من سور القرآن وجميع أحكامها محكمة يقول الله تبارك وتعالى : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين »(١) .

---

(١) سورة المائدة آية ٩٢ .

وفى هذه السورة نفسها يقول عز شأنه : « ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون »[1] .

ففى الآية الأولى يأمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ ، ويحذر من مخالفة أمره ومعصية رسوله ﷺ ، وعدم قبول دعوته إلى الحق وطاعة الله تعالى وإخلاص العبادة له وحده ، ثم يخبرهم بأنكم إن أعرضتم عن الاستجابة إلى ما دعيتم إليه من الحق والهدى فاعلموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أدى ما عليه من إبلاغكم رسالة ربكم وتحذيركم من عقابه ، ولم يبق إلا أن يكل محاسبتكم على توليكم عن الحق وإعراضكم عن الهدى إلى الله تعالى الذى يعلم ما تعلنون من العناد ، وما تخفون من الجحود ، فيأخذكم بما يعلم منكم من سوء العمل وخبيث الكفر ، والإعراض عن قبول الحق والتولى عن طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وليس للرسول ولا عليه إكراهكم وقسركم على قبول الحق والدخول فى دين الله وطاعته .

قال أبو جعفر الطبرى فى بيان قوله تعالى : « فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » ، يقول الله : فإن أنتم لم تعملوا بما أمرناكم به وتنتهوا عما نهيناكم عنه ورجعتم مدبرين عما أنتم عليه من الإيمان والتصديق بالله وبرسوله واتباع ما جاء به نبيكم فاعلموا أنه ليس على من أرسلناه إليكم بالنذارة غير إبلاغكم الرسالة التى أرسل بها إليكم ، مبينة لكم بياناً يوضح لكم سبل الحق والطريق الذى أمرتم أن تسلكوه .

وقال الرازى فى بيانها : وهذا تهديد ووعيد شديد ، وبيانه أنكم إن توليتم فالحجة قد قامت عليكم والرسول قد خرج من عهدة التبليغ والإعذار

---

(١) سورة المائدة آية ٩٩ .

والإنذار فأما ما وراء ذلك من عقاب من خالف هذا التكليف وأعرض عنه فذاك إلى الله تعالى .

وفى الآية الثانية : يقرر القرآن الحكيم أن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هى البلاغ الواضح المبين لما جاء به من رسالة ربه وليس له ، ولا عليه هداية أحد وحمله بالإكراه على قبول الحق والإيمان به والدخول فى دين الله بالقوة المادية القاهرة ، وقد قام بمهمة التبليغ وخرج من عهدة التكليف وبقى الأمر من جانب المعاندين ، وقد تهددهم الله تهديداً شديداً وتوعدهم أشد الوعيد ، فأخبرهم أنه تعالى عالم بما تظهرون من العناد والعتو ، وما تكتمون من النفاق وخبيث الكفر وسيىء الكيد والمكر ، فإن استجبتم وآمنتم فالله غفور لما سلف منكم من الكفر وقبيح الأفعال ، لا يؤخذكم بها وإن تعرضوا عن الحق بعد بيانه بالحجة والبرهان فالله شديد العقاب لا تعجزونه إذا أراد أخذكم بذنوبكم إن أخذه أليم شديد .

٣ — وفى سورة الرعد — وهى سورة مدنية نزلت بعد سورة القتال — يقول جل وجهه : « وإن ما نرينك بعض الذى ونعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب »(١) ومعنى ذلك أن الله تعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : إن أمرك مع أعداء الله ، وأعدائك أعداء الحق والخير دائر بين أمرين :

احدهما أن نقر عينك فيهم فنريك ما وعدناهم من العذاب والنكال بإرسال الصواعق عليهم وإنزال الكوارث بهم بما نحله بساحتهم ونأخذهم به فى الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأنكى .

---

(١) سورة الرعد آية ٤٠ .

وثانيهما : أن نتوفينك فننقلك إلى الرفيق الأعلى وليس عليك هدايتهم، ولا لك حق إكراههم على قبول الحق وإنما الواجب عليك تبليغ رسالة ربك بلاغاً مبيناً واضحاً يقتلع جذور شبهاتهم وعلينا حسابهم ومجازاتهم على كفرهم وضلالهم بعد ما تبين لهم الحق .

وهذا كما يقول ابن كثير — فى معنى قوله تعالى : « فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر . إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر . إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم »[1] .

٤ — وفى سورة النحل يقول عز اسمه : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين »[2] .

وهذه الآية تحكى شبهة باطلة من شبهات المشركين وأباطيلهم وتردها عليهم . فالمشركون قد قالوا : لو شاء الله عدم وقوعنا فى الإشراك به ما وقعنا فيه ولا أشركنا ، ولو شاء عدم تحريمنا وتحليلنا من عند أنفسنا ما حرمنا ، ولا حللنا ، فهم يحتجون بالقدر وسابق المشيئة الإلهية على خبيث كفرهم وسوء اقتحامهم قداسة التحريم والتحليل فحرموا من عند أنفسهم ما لم ينزل الله به سلطاناً وحللوا من قبل أهوائهم افتراء على الله وقالوا : لو كان الله كارهاً لكفرنا وإشراكنا وتحريمنا وتحليلنا غير مريد لها لآخذنا بها وعاقبنا عليها ومنعنا منها وأنكرها علينا .

فرد الله عليهم بأن قولهم هذا — واحتجاجهم بالقدر وهو أمر غيبى لا يعلمون منه شيئاً ولم يتعلق به التكليف ، وإنما ارتبط التكليف بالأمر والنهى

---

(١) آخر سورة الغاشية .

(٢) سورة النحل آية ٣٥ .

وقد أمروا بالإيمان وهو أمر مقدور لهم ونهوا عن الكفر، وتركه مقدور لهم — محض تقليد لمن سبقهم بالكفر والضلال والاحتجاج بما لا يعملون من قدر الله وإن زعمهم بأن الله لم ينكر عليهم زعم باطل، لأن الله تعالى قد أنكر عليهم الكفر والضلال أشد الإنكار ونهاهم عنه على ألسنة رسله أشد النهي وأبلغه، وبعث إليهم رسله بالإيمان والهدى والحق فبلغوهم رسالات ربهم أكمل تبليغ وبينوا لهم الحق أبين بيان، ولم يكلف الله رسله أكثر من ذلك ولم يأمرهم إكراه الجاحدين المعاندين على قبول الهداية والدخول في دين الله قسراً بالقوة القاهرة.

وقد أبرزت الآية مهمة الرسل عليهم السلام بأسلوب القسر لبيان أن لامهمة لهم وراء تبليغ الرسالة بالبيان الواضح والحجة المقنعة، وليس من مهمتهم الإكراه والقسر بالقوة حتى لا تتعطل العقول والحواس عن خصائصها التي نيط بها الاختيار ومسئوليته في جانبي الثواب والعقاب بمقتضى موجب الأمر والنهي.

وأبرزت الآية أسلوب القصر في صورة الاستفهام لبيان أن أمر مهمة الرسل عليهم السلام بين مسلم، وأنه إذا وقع — وقد وقع — فلا شيء عليهم وراءه ولم يبق إلا عناد الجاحدين.

٥ — وفي سورة النحل أيضاً يقول الله تعالى: « فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين »(١).

وهذه الآية تقرر المعنى الذي انتهت إلى تقريره الآية السابقة في بيان مهمة الرسل عليهم السلام ببيان أكمل نماذجها، وهي الرسالة الخاتمة التي

---

(١) النحل آية ٨٢.

جاء بها محمد خاتم النبيين ﷺ ، فتقول له ﷺ : فإن أعرض أعداء الحق عن النظر فى الدلائل الكونية التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة ، وتولوا عن النظر فى الحجج القرآنية والبراهين العقلية ، وعاندوا ولم يؤمنوا ، فلا تبتئس لهم ولا تحزن عليهم فإنك أديت مهمتك بتبليغ رسالة ربك ، وليس عليك هداهم ولا أنت مكلف بإكراههم بالقوة على قبول الحق والإيمان به لأن مهمتك — كسائر المرسلين — أن تبلغ الرسالة بلاغاً بيناً وليس وراء ذلك إلا العناد والجحود من قبل هؤلاء الضالين .

٦ — وفى سورة العنكبوت يقول عز شأنه : « وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين »(١) .

وقد جاءت هذه الآية فى البين من حكاية حال الأنبياء مع أممهم . وما أخذ الله به المكذبين من النكال والعذاب لتبين أن تكذيب الرسل سنة معهودة فى الأمم قبل أمة محمد ﷺ ليكون فى ذلك تعزية له ﷺ وتسلية لما يلاقيه من إعراض ، وتلطف به فى التخفيف من شدة حرصه على هداية الناس وإنذار ووعيد للمعاندين .

فكأنه قيل له — وهو يحكى لهم سنن الله فى الغابرين وما حل بهم من النكال والعذاب لتكذيبهم الرسل — قل لهم : إن تكذبوا فقد سبقكم بالتكذيب أمم خلت من قبلكم ، كذبوا رسل الله فأنزل الله بهم عقابه ، ولم يكن على الرسل هداية الناس وإنما عليهم تبليغ رسالات ربهم ، والله هو الذى يهدى من يشاء من عباده ويضل من يشاء ، وما على إلا أن أبلغكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تعرضوا فما أنا بالذى أملك هدايتكم ، ولا أنا

---

(١) سورة العنكبوت آية ١٨ .

بالذى كلفت إكراهكم على الإيمان وقبول الحق ، والله تعالى الذى أنزل بالغابرين عقابه ونكاله هو الذى يتولى حسابكم وعقابكم .

٧ — وفى سورة الشورى يقول الله تبارك وتعالى : « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ »(٢) .

هذه الآية تتضمن أمرين هما قطب دائرة الرسالات الإلهية وعليهما تدور مهمة الرسل فى رسالاتهم .

الأمر الأول : أن الله تعالى لم يجعل الرسل حفظاء على أممهم ، يحصون عليهم أعمالهم ويحاسبونهم عليها ، فالرسول لم يرسل ليكون رقيباً على قلوب العباد يلجؤها إلى الهداية والإيمان . وإنما الرقيب الذى يحفظ على الخلق أعمالهم ، ويحصيها عليهم ليحاسبهم ويجازيهم بها هو الله تعالى الذى خلقهم كما شاء وسوى قلوبهم وعقولهم كما شاء فجعل منها منازل للإيمان والهداية وقبول الحق ، وجعل منها مثوى للكفر والضلال . ورد الحق ، والتشبث بالباطل فإنه يضل من يشاء بخذلانه ، ويهدى من يشاء بتوفيقه ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وهذا تصوير وبيان لمهمة الرسول فى جانب السلب والتخلية من قبيل قوله تعالى : (لست عليهم بمسيطر) فكأنه قيل : إن دلائل الحق منشورة على صفحات الكون يقرؤها كل من نظر فيها بعين عقله وكل من قرأها متعمقاً فيها بتدبر اهتدى بها ، وكل من عمى عنها ، ولم ينظر فيها معرضاً عن دلالتها التى نصبها الله لتوصل إليها فلا ينفعه البيان ولا يفيده الحجاج ، ولا يحوله عن ضلاله حرص الرسول على هدايته وإيمانه فليس الرسول بمسيطر على القلوب ، ولا هو مكلف إحلال الهداية بها .

---

(١) سورة الشورى آية ٤٨ .

الأمر الثانى : أن مهمة الرسول هى تبليغ رسالة ربه إلى من أرسل إليهم، فواجبه الذى كلفه الله إياه وألزمه به هو البلاغ المبين الذى يكشف عن حقيقة ما يدعو إليه الرسول ويزيل الشبهة من قلوب المدعوين وعقولهم .

وهذا تصوير وبيان لمهمة الرسول فى جانب الفعل الإيجابى الذى يجب عليه أن يقوم به ، فمهمته فى هذا الجانب مقصورة على بلاغ الرسالة بلاغاً بيناً شافياً لأمراض العقول السليمة من مرض العناد والقلوب الفاقهة لدلائل الإيمان ، قال القرطبي فى تأويل الآية : أى ليس عليك إكراههم على الإيمان .

٨ — وفى سورة التغابن يقول ربنا تبارك وتعالى : «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين»(١) .

هذا أمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ، فهو تكليف بتحصيل الإيمان وسائر شعبه من الطاعات والتكليف لا يقع إلا بما يدخل فى نطاق اختيار المكلف وفعله ، وكل ما يقتضيه اختيار المكلف لتحصيل ما كلفه هو البيان والحجة وهو مهمة الرسول التى أرسل بها ، فإذا وقع البيان وتمت الحجة ، ثم أعرض المعاندون بعد ذلك . وتولوا مدبرين عن قبول الحق والإيمان به والنظر فى الدلائل الدالة على صدق الرسول فيما يبلغه من رسالة ربه فليس عليه وراء ذلك شىء وبرئت عهدته التكليفية ، وليس فى استطاعته أن يلجئهم إلى الإيمان إلجاء يخلق فى قلوبهم الهداية وليس عليه ولا له إكراههم بالقوة على الإيمان والطاعة .

روى ابن كثير فى تفسيره الآية عن الزهرى أنه قال : من الله الرسالة ومن الرسول البلاغ وعلينا التسليم ، ومعنى هذا الكلام أن الله تعالى يرسل

---

(١) سورة التغابن آية ١٢ .

رسوله بشريعته بياناً للهدى والحق وقطعاً لأعذار الخلق ، وعلى الرسول تبليغ رسالة الله إلى خلقه تبليغاً واضحاً مبيناً يزيل الشبهات ويقلع جذور الباطل ، وعلى الناس التسليم لأمر الله تعالى والقبول من رسله والإيمان بما أرسلوا به من الخير والهدى فمن تولى بعد ذلك وأعرض فحسابه على الله ، وهو الذى يتولى مجازاته ، وليس على الرسل ولا لهم قسر أحد وإكراهه بالقوة على قبول الإيمان ، لأن الإكراه ينافى التكليف الذى يستلزم الاختيار لتحمل المسئولية وترتب الثواب والعقاب تبعاً للأمر والنهى اللذين بهما جاءت رسالة الله فى شريعته . .

٩ — وفى سورة النساء يقول الله تعالى : «من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً »(١) .

يبين الله تعالى فى هذه الآية أنه لم يجعل رسوله حفيظاً على الناس ، مسلطاً على قلوبهم وعقولهم وعواطفهم ووجدانهم ، وأن مهمة الرسول لم تكن قائمة على حبس العقول عن حرية التفكير ولا كف الإرادات الإنسانية وتقييد اختيارها التكليفى بغير الحجة والبرهان .

وهذا تصوير للجانب السلبى فى مهمة الرسول وقد يذكر معه الجانب الإيجابى فى هذه المهمة كما جاء فى آية : الشورى التى جمعت النص على الجانبين فى مهمة الرسول : « فإن أعرضوا فما أرسلنـــاك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ » .

وقد ارتبط الجانب السلبى فى مهمة الرسول هنا بقضية تضمنت منتهى التشريف ، والتعظيم للرسول ﷺ ولرسالته ، وذلك أن الله تعالى قبل أن يذكر مهمة الرسول فى رسالته ذكر أن طاعة رسوله ﷺ هى طاعته تعالى ،

---

(١) سورة النساء آية ٨٠ .

فكان هذا أبلغ عزاء وتسلية للرسول ﷺ عما يلقاه من أعدائه المشركين مما كان يحزنه أشد الحزن لتعاظم رغبته فى إيمانهم وإنقاذهم من الكفر وإدخالهم فى ساحة الإيمان وحظيرة الحق والهدى.

فالآية — كما يقول الطبرى — إعذار من الله تعالى إلى خلقه فى نبيه محمد ﷺ فيقول لهم: من يطع الرسول منكم أيها الناس فقد أطاعنى بطاعته إياه، فاسمعوا قوله، وأطيعوا أمره فإنه مهما يأمركم به من شىء فمن أمرى يأمركم وما نهاكم عنه من شىء فمن نهيى.

ثم خاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم فقال له: فمن تولى عن طاعتك وأعرض عنك بعد أن عرفته أن طاعتك طاعتى، فلا تحفل به ولا تذهب نفسك عليه حسرات، فإنا لم نكلفك هدايتهم ولم نرسلك عليهم حفيظاً لما يعملون، محاسب لهم على ما يأتون ويذرون، ولا جعلناك قيماً على قلوبهم تحل فيها الهداية وهم لها كارهون، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً، تبين للناس ما نزل إليهم، ثم حسبك أنا حافظون لأعمالهم، وأنا محاسبوهم عليها. فلا تحزن عليهم فإنك أديت ما عليك من تبليغ الرسالة وقمت بالبيان وقطعت حجة كل معاند جحود.

١٠ — وفى سورة الأنعام يقول ربنا عز شأنه: «وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل»(١).

يخبر الله تعالى نبيه بما يعلمه من تكذيب قومه بالقرآن العظيم الذى أنزل عليه دستوراً لدينه، ومعجزة لرسالته وهو الحق الذى لا مرية فيه ليهيجه على الإمعان فى أداء رسالته فلا يعبأ بتكذيبهم، لأن الله معه محيط بهم، ثم قال له: أخبرهم أنك لست عليهم قيماً تملك هدايتهم ولا حفيظاً على أعمالهم تملك محاسبتهم فتجازيهم على تكذيبهم للكتاب الذى أنزله عليك ربك هدى للناس وبينات من

---

(١) سورة الأنعام آية ٦٦.

الحق، وإنما أنت منذر مبلغ رسالة ربك، وقد أديت ما وجب عليك وخرجت من عهدة تكليفك فأنذرت وبلغت ، فدعهم إلى حساب الله تعالى العليم بحالهم ، ولاتبخع نفسك عليهم أسفاً ألا يكونوا برسالتك مؤمنين ، ولهدايتك متبعين .

١١ — وفى سورة الأنعام أيضاً — يقول جل جلاله : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ . وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون . اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين . ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل »(١) .

يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل لهؤلاء المشركين الجاحدين الذين نبهتهم إلى آيات الله وحججه ودلائله فى الآفاق وفى أنفسهم العادلين بربهم غيره من الأنداد والشركاء والأوثان قد جاءكم من الله دلائل باصرة مبصرة بينة مبينة : من تأمل فيها بعين عقله ، وتفقه فيها ببصيرته ، اهتدى بها ، وأبصر الحق وعانق الإيمان بقلبه وعاد فضل ذلك ونفعه على نفسه ومن أعرض عن هذه البصائر ولم يهتد بها وسد على نفسه منافذ الهداية ، وعمى عن الخير الذى جئتهم به فى رسالتك ، والحق الذى أرشدتهم إليه ، فإنما ضلاله على نفسه وضره لاحق به ، فلا يضر غيره ، وإنما نفسه ضر وأهلك وأوبق .

قال الإمام أبو جعفر الطبرى : فمن تبين حجج الله وعرفها وأقربها ، وآمن بما دلته عليه من توحيد الله وتصديق رسوله ، وما جاء به فإنما

---

(١) سورة الأنعام آيات ١٠٤ — ١٠٧ .

أصاب حظ نفسه ، ولنفسه عمل وإياها بغا الخير ومن عمى ولم يستدل بحجج الله ولم يصدق بما دلت عليه من الإيمان بالله ورسوله وتنزيله ولكنه عمى عن دلالتها التى تدل عليها ، فنفسه ضر وإليها أساء لا إلى غيرها .

ثم بين الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه ما جعله رقيباً يحصى عليهم أعمالهم ويحاسبهم عليها وإنما هو رسول الله يبلغهم ما أرسل به إليهم ، والله وحده هو الحفيظ عليهم الذى لا يخفى عليه شىء من أعمالهم وسيجازيهم عليها .

ثم بين الله تعالى لهم أنه كما صرف لهم الآيات والدلائل على توحيده وتصديق رسوله وكتابه ، فكذلك نبين حججنا وآياتنا فى جميع ما جهلتموه من أمرنا ونهينا حتى لا تقولوا لرسولنا إن ماتأتينا به إنما هو مما درست وتعلمت من كتب ممن سبقك ، لأن فى تصريفنا الآيات والدلائل والحجج بما جاء فى كتابنا خاتم كتب السماء مما لم يكن فى الكتب السابقة أو كان بعضه فيها ، ولكنه لم يكن على طريقة القرآن من التنبيه على الآيات الكونية ، وإيقاظ العقل للنظر فيها والاستدلال بها على توحيدنا وتصديق رسولنا بياناً قاطعاً أن هذه الآيات والحجج من عندنا أوحينا بها إلى رسولنا ليبلغكم إياها لعلكم تعلمون الحق وتقبلون عليه .

ثم قال الله تعالى لنبيه اتبع ما أوحى إليك من ربك الذى رباك برعايته لتكون خاتم رسله إلى الناس جميعاً ، مبشراً ونذيراً ولا تلتفت إلى هؤلاء المشركين العادلين بربهم الأوثان والأصنام الجاعلين له الأنداد والشركاء ولا توافقهم فى مواقفهم الجاحدة ، لأن الله طمس على بصائرهم فلن يهتدوا إذاً أبداً ، والله تعالى مالك نواصى العباد بيده هدايتهم وضلالهم ، ولو شاء

الله ألا يشركوا ما أشركوا ، بل كان سبحانه يلطف بهم ويوفقهم للإيمان والهداية ، يفتح لها مغاليق قلوبهم ولكنه يفعل ما يشاء ويختار ما يريد .

ثم بين الله تعالى لرسوله مهمته فى رسالته فقال له : إنما بعثناك رسولا مبلغاً عنا رسالتنا إلى عبادنا ، ولم نرسلك إليهم حفيظاً عليهم ، ولا كلفناك أن تكون رقيباً عليهم ولا قيماً على قلوبهم تدخل فيها الإيمان والهداية ، فليس ذلك إليك ، ولكنه شأننا وفضلنا نؤتيه من نشاء وقد جمع الله بين أمرين كل واحد منهما يؤكد صاحبه توطيداً لبراءة الرسول أن يكون له فى رسالته شىء أكثر من تبليغها بلاغاً مبيناً واضحاً ، تكنفه من حفافيه البراهين والدلائل .

١٢ — ويقول جل ثناؤه فى سورة يونس : «ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون »(١) .

يبين الله تعالى فى هاتين الآيتين بياناً لاخفاء فيه أن الهداية والضلال بإذنه ومشيئته وهو سبحانه يفعل ما يفعل بحكمته، ويرسل رسله بأمره ونهيه، فمن استجاب لهم فهو المهتدى ، ومن تنكب عن طريق الحق وسلك بنيات الطريق وابتغى عوجها فهو الضال فلو شاء الله إيمان جميع من فى الأرض من البشر لآمنوا بقهره وإلجائه ، وخلق الإيمان فى قلوبهم دون احتياج إلى الرسالات والآيات والدلائل ، ولكن حكمة الله وعدله اقتضيا التكليف وإرسال الرسل به ليهلك من هلك من الخلق عن بينة ويحيا من حى منهم عن

---

(١) سورة يونس آيتا ٩٩ ، ١٠٠ .

بينة : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً »[١] .

ثم يقول الله تعالى لنبيه ﷺ بأسلوب الاستفهام الإنكارى لما كان يبذله ﷺ فى الدعوة إلى الله من الجهد والنصب ، وما كان يلاقيه من العنت وسوء الرد من المشركين : خفف عنك شدة حرصك على إيمانهم فأنت لا تستطيع أن تلزمهم الإيمان وتخلقه فى قلوبهم ، ولا كلفناك إكراههم على قبول الهداية والإيمان ، لأن ذلك يرفع محنة التكليف فليس إلزام الناس وإلجاؤهم إلى الإيمان مما جعلناه إليك ، ولا هو مما يدخل فى مهمتك وعملك، وإنما هو شأن الله تعالى : «يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون»[٢] .

وهذا من قبيل التلطف بالنبى ﷺ ، وتسليته ، كقوله تعالى : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين»[٣] وقوله جل شأنه :«فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً»[٤] . وقوله عز اسمه : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء»[٥] وقوله جل وجهه:«إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء»[٦]

وهذا كثير جداً فى القرآن الكريم، بل هو لباب الإسلام وجوهر

(١) سورة النساء آية ١٦٥.
(٢) سورة فاطر آية ٨.
(٣) سورة الشعراء آية ٣.
(٤) سورة الكهف آية ٦.
(٥) سورة البقرة آية ٢٧٢.
(٦) سورة القصص آية ٥٦.

عقيدته التى ترد الأمور بداية ونهاية إلى الله تعالى، وأن العباد مكلفون بمقتضى الأمر والنهى ، لا بما خفى من متعلق علمه ومشيئته ، والرسل عليهم السلام مخبرون عن الله تعالى فى تفرده بتدبير خلقه بحكمته وإرادته ، وليس عليهم إلا تبليغ رسالات ربهم ، لا يكرهون أحداً على الهداية ، وإنما يدعون إلى الله لإعلاء كلمته ببيان آياته وحججه التى نصبها للعباد واضحة جلية : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(١) ويقول تعالى لرسوله ﷺ : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ولهم عذاب عظيم »(٢).

١٣ — وفى سورة يونس أيضاً يقول الله تبارك اسمه : « قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل »(٣) .

هذه الآية يأمر الله فيها نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الناس كافة بلاغاً عاماً أن الله أرسل إليهم رسوله بالحق، وجعله بآياته ودلائله فى متناول كل قلب وكل عقل وكل حس ووجدان ، فلم يبق عذر لأحد تبلغه رسالة الله على ألسنة أنبيائه ورسله ، فمن نظر واهتدى فلنفسه بغا الخير . ومن عمى وضل الطريق فعلى نفسه جنى ، ولها ضر وأوبق ، وليس على الرسول سوى تبليغ رسالة ربه ، بل عليه أن يبلغكم أنه لا يملك من أمر هدايتكم أو ضلالكم شيئاً ولا هو وكيل عليكم ولا قيم على قلوبكم ، فاختاروا لأنفسكم .

---

(١) سورة الكهف آية ٢٩.

(٢) سورة آل عمران آية ١٧٦.

(٣) سورة يونس آية ١٠٨ .

١٤ — وفى سورة هود يقول الله تعالى : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل »(١) .

كان المشركون يتعنتون رسول الله ﷺ ، ويبالغون فى الإعراض عنه ويؤذونه مستهزئين به مستسخرين ، يقولون : إنه فقير ، وإنما يتبعه الفقراء ، ويرون أن الرسول لا يكون فقيراً فلو كان محمد رسولا من عند الله لأنزل عليه كنزاً يغنيه ، ويغنى أتباعه عن السعى والكد والعناء فى سبيل تحصيل أرزاقهم ، كما حكى ذلك الله عنهم فى قوله : « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها »(٢) .

وفى قوله : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا »(٣) .

كما كان هؤلاء المشركون يرون أن الرسول لا يكون من البشر تقليداً لجهلاء من سبقهم من إخوانهم فى الشرك والوثنية ، فإن كان لا بد أن يكون

---

(١) سورة هود آية ١٢ .
(٢) سورة الفرقان آيتا ٧، ٨ .
(٣) سورة الإسراء آيتا ٩٠ – ٩٣ .

رسول من البشر فلا أقل من أن يرسل الله معه ملكا من السماء يشهد بنبوته ويصدقه فى قوله ، ويعينه على تحصيل مقصوده ، فأنزل الله تعالى الآية تسلية لرسوله محمد ﷺ ليبين له أن هذا دأب الكافرين من قبل قومه مع الرسل قبله ، فلا يضق صدرك حرجاً بما يقولون ، ولا يصدنك تعنتهم وجهالتهم بسنن الله فى خلقه ورسالاته عن الدأب فى دعائهم إلى الله ، وتبليغهم رسالات ربهم بكل ما فيها تسفيهاً لأحلامهم وبياناً لسقوط هممتهم فى عبادتهم أحجاراً لا تسمع ولا تبصر ، ولا تنفع ولا تضر ، فإنما أنت نذير ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك فإنهم سمعوا من أقوامهم ماتسمع من قومك وأوذوا منهم كما تؤذى منهم .

فالآية كما يقول — الرازى — تهييج من الله لرسوله ﷺ على أداء رسالته وعدم المبالاة بما يقوله المشركون من كلماتهم الفاسدة ، وسخريتهم واستهزائهم منه وتقوية لجنانه فى الاستمرار على تبليغ رسالة ربه بكل مافيها من حجاج وبيان لضلالاتهم .

ثم بين الله تعالى لرسوله ﷺ مهمته فى رسالته حتى يتخفف من شدة حرصه على إيمان هؤلاء المعاندين ، ويلطف بنفسه ، فقال له : (إنما أنت نذير) فالذى عليك أن تقرع أبواب قلوبهم وعقولهم مخوفاً عذاب الله ونقماته أن تحل بهم إن لم يستجيبوا لله ولرسوله ويدخلوا فى ساحة الإيمان ولست عليهم بقيم ولا حفيظ وإنما الحفيظ عليهم القيوم بشئونهم هو الله تعالى الوكيل على كل شىء خلقه ، يدبر خلقه ، ويدبر ملكه ويصرف ملكوته بحكمته ومشيئته .

١٥ — وفى سورة الإسراء يقول الله تبارك وتعالى : «ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا » .

يقول الله تعالى للمشركين : ربكم الذى خلقكم ورباكم على موائد فضله أعلم بكم وبأحوالكم وله فيكم مشيئته النافذة التى غيبها عنكم ، ولم يكلفكم العمل على مقتضاها ، وإنما كلفكم بمقتضى الأمر والنهى ، فمن امتثل الأمر بالفعل والنهى بالترك فذلك هو المطيع، ومن خالف ذلك فهو الآثم العاصى ، والله تعالى بمشيئته يفعل ما يريد ويختار ، فإن يشأ رحمتكم وفقكم للإيمان والهدى رحمة منه بكم، وإن يشأ عذابكم خذلكم وأماتكم على الضلالة والكفر فيعذبكم بأعمالكم وما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم ، فقد أمركم بالإيمان والطاعة ونهاكم عن الكفر والضلال فاخترتم لأنفسكم ما تستحقون به العذاب ، ومشيئة الله غيب عنكم فلا حجة لكم فيها ، وأنتم مكلفون بالنظر فيما يبلغكم رسول الله من رسالة ربه ، ويبين لكم آيات الله وحججه وهذه مهمته فى رسالته ولم نرسله إليكم قيما على قلوبكم وأعمالكم . وإنما أرسلناه بشيراً ونذيراً .

١٦ — ويقول جل شأنه فى سورة الفرقان : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا»[1] .

يبين الله تعالى فى هذه الآية سوء طريقة المشركين فى ضلالهم وأنهم أتوا من إهدار عقولهم التى جعلها الله لهم ليميزوا بها الحق من الباطل، والخير من الشر ، والهدى من الضلال ، لكنهم عدلوا عن هداية عقولهم إلى تقليد أسلافهم من الكفرة والمشركين، على رغم القوارع التى نزلت بهم والزواجر

---

(١) سورة الفرقان آية ٤٣ .

التى أرسلها إليهم فلم يتعظوا ولم يزدجروا ، وانحطوا فى عقائدهم فاتخذوا هواهم وشهواتهم وميولهم الخبيثة آلهة يعبدونها من دون الله ونزلوا بعقولهم وإنسانيتهم إلى دركات الهوان .

ثم بين الله تعالى لرسوله ﷺ أن هؤلاء المشركين لا يستحقون منك ما تبذله فى سبيل إنقاذهم ، مما ارتطموا فيه من وهدة المهانة العقلية ، فى سوء عقائدهم وسخف ضلالهم ليصرفه عن معاناتهم ويقصره على تبليغهم رسالة ربه التى أرسله بها إليهم .

وأبرزت الآية ذلك فى صورة الاستفهام الإنكارى (أفأنت تكون عليهم وكيلا) ليكون ذلك أبلغ فى صرفه عن معاناتهم ومكابدة الحرص عليهم ، وأنه لا يملك أن يخرجهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من الفساد والضلال ، لأنه ﷺ لم يكن وكيلا عليهم ولا مسيطراً على قلوبهم وإنما هو نذير بلغهم رسالات ربهم التى أرسل بها إليهم وليس عليه ولا له إكراه أحد وقسره بالقوة على الإيمان والهدى وقبول الحق .

١٧ — وفى سورة الزمر يقول الله تعالى : « إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل »(١) .

هذه الآية تقرر أن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ القرآن ليكون دستوراً للناس يقيمون على أساس شرائعه وأحكامه بناء حياتهم فى عقائدهم

(١) سورة الزمر آية ٤١ .

وعباداتهم ومعاملاتهم وسلوكهم ، ويحكمونه فى كل ما يأتون ويذرون ، وقد أوضح لهم فيه جميع مايحتاجون إليه من أحكام أصولية وفرعية ونبه فى آياته إلى ضرورة إيقاظ العقل وتحرره ليستنبط ويستخرج من أصوله ما لم يبين فى فروعه ويبين لهم أن هذا القرآن يهدى للطريقة التى هى أقوم الطرق فى إصلاح الحياة وأسدها وأصوبها ، فمن اعتصم به فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ومن استمسك بحبله فقد استمسك بالعروة الوثقى التى لايزيغ من استمسك بها ، ومن زاغ عنه فنفسه أوبق ، فللمهتدى هدايته ونفعها عائد عليه وللضال ضلاله وضرره لاحق به ، وما على الرسول إلا البلاغ وتبيين الحق وليس هو بوكيل عليهم ولاقيم على قلوبهم وأعمالهم ، فذلك إلى الله ولم يجعله إلى الرسول ولم يكلفه إكراههم على قبول الحق والإيمان به .

١٨ — وفى سورة الشورى يقول الله جل شأنه . « والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل »[١] .

هذه الآية فى معنى الآية السابقة ، بيد أن هذه سيقت إخباراً صريحاً عن سوء حال هؤلاء المشركين الذى اتخذوا من دون الله أولياء وأنصاراً ، وجعلوهم أنداداً لله وشركاء فعبدوهم من دونه ، والآية السابقة ساقت القضية نفسها فى تصوير سوء صنيعهم وشركهم بأسلوب الاستفهام التعجبى المتضمن تعجيب النبى ﷺ من حالهم الذى أهدروا فيه إنسانيتهم واستهانوا بعقولهم ، ونزلوا بأنفسهم إلى حضيض الجهالة التى تنزل بهم عن مستوى الأنعام .

---

(١) سورة الشورى آية ٦ .

والآيتان فيما بعد ذلك تؤديان غرضاً واحداً هو أن الله تعالى هو الحفيظ القيوم على عباده المحصى لأعمالهم المسيطر على قلوبهم الذى يملك هدايتهم وضلالهم ويملك مجازاتهم على مخالفة أوامره ، وما على الرسول إلا تبيين ما أرسل به وتبليغه ، وليس عليه هداية أحد ولا له إكراه أحد وقسره على الإيمان والهدى .

١٩ — ويقول جل شأنه فى سورة ق : « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »(١) .

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ — ليثبته ويقويه على تحمل أذى المشركين وما يقولونه فى شأنه وشأن رسالته من التكذيب وسفه الكلم والاستهزاء به والسخر منه — نحن محيطون علماً بالذى يقولون لك ولأصحابك من بذىء القول وسفه الحديث فاصبر عليهم ولا تضيقن صدراً بهم ، واستعن على تحمل مرارة الأذى بذكر ربك وتسبيحه وتحميده آناء الليل والنهار ، فما أنت عليهم بمسلط تقهرهم على الإيمان ، ولا بجبار تجبرهم على اتباع الهدى ، ولا ملجىء تلجؤهم إلى الإقرار بدعوتك بغير اختيار لها منهم ، وإنما أنت منذر تنذرهم بأس الله وبطشه بالمعاندين ، وتذكرهم وعيده بالعذاب والنكال للجاحدين ، وتخوفهم غضب الله وسخطه أن ينزل بهم نقمته بغتة وهم لا يشعرون ، كما أنزلها فى أمثالهم من الطغاة المعاندين الذين آذوا رسل ربهم من قبلك وسخروا منهم ، واستهزئوا فحاق بالذين سخروا منهم واستهزءوا ما كانوا به يستهزءون فاشتغل بما أنت مكلفه من الإنذار والتذكير بأيام الله وعذابه وسطواته ونكاله الذى أنزله وينزله بمن عاند عتواً وطغياناً وكفراً ، ومعك كتابك القرآن العظيم فيه من التذكير والتخويف والعظات والعبر

(١) آخر سورة ق .

وقصص الغابرين ما يقرع العقول الجامحة بقوارعه ، ويزجر القلوب القاسية بزواجره ويعظ النفوس الغافلة بمواعظه ، كتاباً متشابهاً يشبه بعضه بعضاً فى حكمه وغاياته ومقاصده مثانى من الوعد الوعيد والترهيب والترغيب تقشعر منه عند سماعه جلود الذين يخشون ربهم فذكر به واتلوه على الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، الذين يخافون وعيد الله ويخشون عذابه ولا تعنى نفسك إمعاناً فى الحرص على إيمانهم وهدايتهم ولا يضق صدرك بقولهم ولا يزدد حزنك أسفاً عليهم ألا يؤمنوا بما جئتهم به من الحق والهدى « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون. فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »(١) .

فحسبك أنك رسول الله تبلغ رسالة ربك ، وقد بلغت وأبلغت فى البلاغ وأبنت وأوسعت فى البيـان ، وأوضحت الدلائل ، وأقمت الحجة ، فإنا لم نكلفك خلق الهداية فى قلوب من تدعوهم ، ولا طلبنا منك إكراههم على الإيمان بالقسر والقوة ، ولا ولّيناك عليهم جباراً تجبرهم بالقوة على اتباعك ، ولا بعثناك مسلطاً على دواعيهم وقدرهم .

فالآية تسلية للنبى ﷺ ، وإرشاد له ، وبيان لمهمته فى رسالته ، وتهديد للمعاندين .

٢٠ — ويقول جل ذكره فى سورة الغاشية : « فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمصيطر »(٢) .

جاءت هاتان الآيتان تفريعاً على ما سبقهما من آيات الدلائل والحجج على توحيد الله تعالى وعظيم اقتداره على الخلق والأبداع، والمعنى فيهما أن

---

(١) آخر سورة الحجر .

(٢) الغاشية آيتا ٢١ ، ٢٢ .

الله جل ذكره يقول لنبيه محمد ﷺ : لقد بينا لك فى كتابنا الذى أنزلناه عليك لتدعو الناس إليه ، دلائل توحيدنا وقدرتنا وسائر كمالات ألوهيتنا ، بما أقمناه من الآيات الكونية ، وبما نصبناه من منائر الهداية للعقل السليم ، ونبهنا إليه للتأمل فيه ، والنظر فى دلالته على تفردنا بتدبير ملكنا وملكوتنا بما يوجب لدى العقول المفكرة إفرادنا بالربوبية وإخلاص العبادة لنا وحدنا.

* * *

فمن نظر فى هذه الآيات والدلائل وهى بين يدى كل ما يريد النظر والتأمل وأداه نظره إلى طريق الحق فاهتدى بها ، فهو من ذوى الوجوه الناعمة لسعيها راضية ، تأوى إلى جنة عالية أعددنا فيها من النعيم المقيم ما جعلناه قرة عين المقربين من عبادنا الذين حرروا عقولهم من ربقة التقليد فانتفعوا بها وأخرجتهم من حظائر الشرك إلى ساحة الإيمان .

ومن عمى ولم ينظر فى آياتنا ودلائلنا ، وضل طريق الحق والهداية ، وأبلس فى حيرة الشرك والضلال فهو من ذوى الوجوه الخاشعة الذليلة المقفرة من نور الإيمان الذين يصلون ناراً حامية أعددناها للجاحدين المعاندين الذين يلقون فيها عذابنا ونكالنا جزاء إعراضهم عن النظر فى آياتنا ودلائلنا ، وقد مكناهم من النظر وأزحنا العوائق عنهم ولكنهم أبوا إلا جحوداً واستكباراً فى الأرض فكانوا من الخاسرين أعمالا : « الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزواً »(١) .

---

(١) سورة الكهف آيات ١٠٤ — ١٠٦ .

روى ابن كثير أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بدير راهب فناداه يا راهب ، فأشرف فجعل عمر ينظر إليه ويبكى فقيل له : يا أمير المؤمنين : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت قول الله عز وجل فى كتابه : «عاملة ناصبة . تصلى ناراً حامية»(١) فذاك الذى أبكانى .

وإقامة دلائل التوحيد والتنبيه إلى النظر فيها للتوصل بها إلى الإيمان بوحدانية الله وكمال اقتداره على الخلق والإبداع هو المقصود الأعظم من الرسالات الإلهية التى ختمت برسالة الإسلام إلى محمد خاتم الأنبياء ﷺ ، فكانت أعظمها تشريعاً وأعمها دعوة وأخلدها وفاء بمطالب الحياة لقيامها على دعامتى العدل والرحمة اللتين يجب أن يعتمد عليهما بناء الإنسانية الفاضلة المهذبة .

لذلك أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ أن يشمر عن ساعد الجد مدرعاً الصبر على احتمال عبء رسالة ربه ، قواماً بها داعياً إليها ، ذكراً بآيات الله ودلائل وحدانيته التى أقامها فى آفاق الكون وأنزلها فى كتابه القرآن العظيم تبصرة وذكرى لقوم يؤمنون .

ثم بين الله لخاتم أنبيائه محمد ﷺ أن التذكير بآيات الله والتنبيه إلى النظر فيها بعين العقل السليم هو جماع مهمتك فى رسالتك الخاتمة الخالدة فإنما أنت رسول مبلغ رسالة ربك ، فذكر بنعمته ورحمته ، منذر نقمه وبطشه ، مخوف عذابه ونكاله ، مرغب فى ثوابه وإحسانه ولست بمسيطر على القلوب ولا بمسلط على النفوس ولا بجبار على العباد تسوقهم بعصى الإلجاء إلى ساحة الإيمان ، وتكرههم على قبول الحق إكراهاً وتقسرهم على الهداية قسراً بالقوة القاهرة ، فذلك مالم نجعله إليك ولا لأحد قبلك ولا يكون لأحد بعدك فقد جعلنا للناس عقولا نيط

---

(١) سورة الغاشية آية ٣ ، ٤ .

بها تكليفهم ، وجعلنا لهم اختيارهم وحريتهم فيما يعملون وما يذرون ليتحملوا مسئولية التكليف بها كاملة ، وعلى أساس هذه المسئولية يكون ثوابنا وعقابنا عدلا منا وحكمة من أمرنا .

روى ابن كثير عن ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وغيرهما فى قوله تعالى : (لست عليهم بمصيطر) .

قال : لست عليهم بجبار ، أى لست تخلق الإيمان فى قلوبهم ، وقال ابن زيد : لست بالذى تكرههم على الإيمان .

وقال الرازى : والمعنى أنك ما أمرت إلا بالتذكير ، فإما أن تكون مسلطاً عليهم حتى تقتلهم أو تكرههم على الإيمان فلا .

وهذا صريح فى أن معنى قوله تعالى : (لست عليهم بمصيطر) ، وقوله : (وما أنت عليهم بجبار) ، مساو لمعنى قوله تعالى : (لا إكراه فى الدين) ، وقوله جل شأنه : (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، من إفادة أنه ليس فى دين الإسلام وشريعته إكراه أحد بالقوة القاهرة على الدخول فيه واعتناقه والإيمان به وقبول الحق الذى دعا إليه .

* * *

هذه عشرون موضعاً اخترناها من القرآن العظيم جاءت آياتها صريحة واضحة فى مهمة الرسول وتحديد علاقاته بالمجتمع المرسل إليه ، وهى كلها تقرر أن الرسول ليس بمسيطر على أحد ولا بجبار يجبر الناس على قبول دعوته ، ولا بمسلط على عقولهم يلزمها قبول قوله ، ولا مكره لهم على

قبول الحق الذى جاء به إليهم ، ولا قاسر لهم بالقوة القاهرة على الإيمان برسالته ، ولا حفيظ على أعمالهم يحصيها عليهم ويحاسبهم بها ، ولاقيم على قلوبهم ، ولا وكيل يراقب أعمالهم وتصرفاتهم . ليؤاخذهم بها فيثيب ويعاقب ويعذب ويغفر .

وإنما هو رسول من عند الله مبلغ للناس رسالة ربه فى بيان مقرون بالحجة الواضحة والبرهان السديد ، ومنذر ينذرهم بطش الله ونقمه، ويخوفهم عذابه الذى أنزله وينزله بالمعاندين المكابرين ونكاله وخزيه الذى أوقعه ويوقعه على الفجرة الجاحدين ، ومذكر يذكرهم بأيام الله وما أنزله فيها من مساخطه على الأمم الغابرة لعتوهم وتكذيبهم رسله وأنبياءه ، ومبين لآيات الله ودلائله وحججه وبيناته ، ومنبه ينبههم إلى النظر فيها والتأمل فى دلالتها على وحدانيته واقتداره على الخلق والإبداع ، وتفرده بتدبيره ملكه وملكوته وسائر كمال نعوت جلاله ، ويذكرهم بنعم الله عليهم وحق هذه النعم عليهم من الشكر والحمد ليدبروا آياته ، وليتذكروا ويثوبوا إلى عقولهم فيدخلوا فى ساحة الإيمان بالله جل ذكره ، ويقبلوا ما أنزل إليهم من الهدى والحق .

وقد تركنا كثيراً من أمثال هذه الآيات سيقت بمعناها فى ثنايا عموم بيان شأن الله وعظيم سلطانه وتفرده بالقيومية على خلقه ، وأنه ليس لأحد سلطان مع سلطانه وأن مشيئته فوق كل إرادة ومشيئة .

ولم نقصد إلى الاستقصاء والاستيعاب لجميع ما جاء من الآيات والنصوص فى هذا المعنى ، لأننا لو أردنا استيفاء كل ما جاء منها فى ذلك ، وأرخينا العنان للقلم ليسبح فى خضم الآيات القرآنية ليجمع جواهرها لطال الأمر

جداً على الباحث ، وهى نصوص متشابهة أقرب التشابه تقرر كلها معنى واحداً وتستهدف هدفاً واحداً تؤكده تأكيداً بليغاً ، وتلح فى إيراده إلحاحاً يثبته فى العقول والقلوب حتى تمتلىء النفوس باليقين .

وقد يلمح ذلك الناظر فى هذا البحث على ضوء تحليلنا معنى الآيات التى سقناها مبينين معانيها ولم يصدنا ذلك عن إعطاء كل آية حقها من التفسير والبيان .

وهذه الآيات كلها ومثيلاتها وأخواتها فى معانيها وأهدافها تقرر وتفسر آية : (لا إكراه فى الدين) ، وهى الأصل الأول فى بيان أن مشروعية (جهاد القتال) إنما كانت لحماية الحق الإلهى ونشر الدعوة إلى الله ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وللدفاع عن هـذا الحق الإلهى الذى يجب فى حكم العقول السليمة من مرض العناد والعصبية — أن يشترك فى الدفاع عنه ، والذود عن حياضه كل إنسان يحترم إنسانيته وعقله وتفكيره ، ويدين بهذا الحق ويعتقده لأنه فى واقع الحياة حق إنسانى لا تختص به أمة عن أمة ، ولا يمتاز به شعب عن شعب ، وإنما هو حق مشاع للإنسانية كلها يملكه كل من يؤمن به ويعتنقه ويعتز بعزته .

* * *

فلم يشرع الإسلام (جهاد القتال) حرباً هجومية يستهدف بها سفك الدماء ، وقتل الأبرياء وترميل النساء ، وتيتيم الأطفال، واستعباد الضعفاء واستغلال البلاد ، وتسخير العباد لإشباع الشهوات والأهواء ، والاعتباد للغرائز المادية والحيوانية ، وحب السيطرة وغرور الكبرياء ، ونهب

الأرزاق والأقوات من أفواه الجوعى والحفاة العراة ، والتسلط على الأمم والشعوب بقوة الدمار والخراب .

وإنما شرع (جهاد القتال) لدفع العدوان ، ورد الاعتداء ومقاومة الظلم والطغيان ، وفتح الطريق أمام مسيرة الحق إنقاذاً للإنسانية من رق الوثنية وتطهيرها من رجس الشرك . واسترقاق العقول ، وإخراجها من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والمعرفة ، وتوجيهها فى استخدام تراث الأفكار ، وحصائل العلم الكونى فى سبيل تحقيق الخير والإصلاح للحياة والناس والأشياء وبناء الحضارة الإنسانية على دعائم معرفة الله وإخلاص العبادة له وحده ، وإقامة منائر الفضائل الخلقية والقيم الروحية ، وتحقيق الإخاء الإنسانى ، ونشر راية العدل بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وتوفير العيش الكريم لجميع الناس فى أقطار الأرض وإقامة العلاقات بينهم على روح التعاون والتراحم ، فيهم إخوة فى نسب الإنسانية ودمها ، وهم إخوة فى عبوديتهم لله وحده والتحرر من عبودية أحد سواه .

وإذا أضفنا إلى هذه الآيات البينة والنصوص القرآنية الصريحة آيات ونصوص الصفح — والعفو عن جهالة الجاهلين ، وسفه السفهاء من أعداء الحق ، والترغيب فى الصبر الجميل على أذاهم وظلمهم وطغيانهم وعدوانهم ، ومقابلة إساءتهم بالإحسان تألفاً لقلوبهم وهى آيات لا تقل عدداً عن أعداد هذه الآيات فى كثرتها ، ومنها آيات مدنية من سور نزلت بعد الهجرة وبعد مشروعية (جهاد القتال) إذناً إباحياً ، وأمراً دفاعياً ، ومنها آيات فى سور كانت من آخر ما نزل من القرآن — وجدنا كثرة هائلة من النصوص الصريحة والآيات الواضحة فى بيان أن الإسلام دين يقوم على البيان والحجة وأنه لا يكره أحداً على اعتناقه

ولا يقسر أحداً بالقوة القاهرة عن الدخول فيه والإيمان به ، ولا يرى جبر أحد بأية صورة من صور الجبر والإلزام على الإيمان بالحق وقبول الهدى وأنه لم يشرع القتال لإدخال الناس فى ساحته ، وإنما شرعه دفاعاً ورداً للاعتداء .

والإسلام بهذا يأخذ بآفاق السماء وأقطار الأرض فهو دين إلهى فى منبعه ومبتداه ودين إنسانى فى غايته ومنتهاه نزل لتحقيق العدل والرحمة بين الناس ، والإخاء والمحبة . لتعايش الناس فى أمن وسلام .

النسخ والسيف

وقد رأينا ونحن نكتب هذا الموضع من البحث عجباً من العجب ، رأينا من المفسرين من يأتى على كل آية من آيات تحديد مهمة الرسول فى تبليغ رسالته بالبيان الواضح والحجة المبينة ، وبيان أنه ليس بمسيطر ، ولا مسلط ، ولا جبار ، ولا مكره لأحد من الناس يلزمه الإيمان والهداية بالقوة القاهرة .

ويأتى على كل آية من آيات الأمر بالعفو والصفح عن جهالة الجاهلين وسفاهة سفهاء المشركين ، وترغيب رسول الله ﷺ وأصحابه فى الصبر الجميل ، وأمرهم به واحتمالهم المكاره ومقابلة الإساءة بالإحسان ، فيقول : هذا منسوخ بآية السيف ، هكذا دون بحث أو بيان لوجه التعارض الذى يقتضى النسخ فى المتقدم من النصين .

ولكن الله تعالى لم يترك دينه الذى ارتضاه لعباده ديناً خالداً عاماً ، وكتابه الذى أنزله نوراً وهدى على رسوله الذى أرسله رحمة للعالمين لطائفة من المفسرين أداهم اجتهادهم فى فهم آيات القرآن إلى هذا القول ، الذى يجعل القرآن العظيم ودينه القويم عرضة — فى آياته ونصوصه التى تبلغ من الكثرة حداً يصعب معه التسليم بهذا الاتجاه فى فهم مقاصد القرآن ، وروح الشريعة وغاياتها ، وأهدافها — لتعطيل كثير من الأحكام والبعد عن مقاصد الإسلام .

فقد وفق قوماً من حذاق العلماء والأئمة الأعلام ، فقهوا دين الله ، وتعمقوا دراسة القرآن ، وفهموا أسراره ، وأدركوا مقاصده ، فأبوا أن يسلطوا عليه سيف النسخ فى آياته ونصوصه ولم يتقبلوا القول به إلا فى أضيق الحدود حيث لايجدون مخرجاً لمعنى الآية سواه وحيث تظهر حكمته ، بظهور التعارض بين النصين اللذين نسخ ثانيهما أولهما نزولا ، ولا عبرة فى ذلك بترتيب التلاوة .

وفى طليعة هؤلاء الراسخين من أئمة الإسلام شيخ المفسرين وإمامهم أبو جعفر الطبرى رحمه الله تعالى ، فإن هـذا الإمام يقرر فى مواضع كثيرة من تفسيره العظيم : أن النسخ لا يكون حكماً من أحكام آيات القرآن إلا إذا كان النص الذى قيل إنه الناسخ بحيث لا يمكن أن يكون متوافقاً بوجه من وجوه التوافق مع النص الذى قيل إنه منسوخ .

وهذا كما يقول أبو جعفر فى قوله تعالى من سورة المائدة : « يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولاالقلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً »(١) : وأولى الأقوال فى ذلك بالصحة قول من قال : نسخ الله من هذه الآية قوله (ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا أمين البيت الحرام) لإجماع الجميع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك فى الأشهر الحرام وغيرها من شهور السنة كلها ، وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه أو ذراعيه لحاء جميع أشجار الحرم لم يكن ذلك له أماناً من القتل ، إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان،وأما قوله :(ولا آمين البيت الحرام) فإنه محتمل ظاهره.

---

(١) سورة المائدة آية ٢ .

ولا تحلوا حرمة آمين البيت الحرام من هل الشرك والإسلام ، لعمومه جميع من أم البيت ، وإذا احتمل ذلك ، فكان أهل الشرك داخلين فى جملتهم ، فلا شك أن قوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » ناسخ له ، لأنه غير جائز اجتماع الأمر بقتلهم وترك قتلهم فى حال واحدة ، ووقت واحد ، وفى إجماع الجميع على أن حكم الله فى أهل الحرب من المشركين قتلهم أموا البيت الحرام أو بيت المقدس فى أشهر الحرم وغيرها — ما يعلم أن المنع من قتلهم إذا أموا البيت الحرام منسوخ ، ومحتمل أيضاً ولا آمين البيت الحرام من أهل الشرك .

فأبو جعفر رحمه الله قد رجح القول بالنسخ فى بعض آية المائدة بآية التوبة ، وعلل ذلك بعدم إمكان الجمع بين معنى الآيتين فى حال واحدة وهذا من دقة فهمه مقاصد القرآن وتعمقه فى فهم أسراره ومراميه .

والتوافق الذى لا يتحتم معه القول بالنسخ قد يأتى من باب العموم والخصوص فيكون أحد النصين عاماً ، ويكون النص الآخر خاصاً ، وهما متواردان على معنى واحد وحكم واحد يشمله العام فى إطار عمومه مع غيره ، ويأتى النص الخاص مفيداً لمعنى جديد ، وحكم جديد لا يشمله عموم أفراد العام ، وإنما يخص بعض أفراد العام ، فيخرجه عن إطار العام بمعناه وحكمه الخاص به فالخاص إذا أخرج بعض أفراد العام من حكمه أعطاها حكماً جديداً توهم أنه نسخ، فسموه به توسعاً ، وهو ليس منه ، لأن النسخ إزالة حكم المنسوخ بالكلية والخاص لم يزل حكم العام فلا يكون نسخاً .

قال القرطبى : التخصيص من العموم يوهم النسخ ، وليس لأن المخصص لم يتناوله العموم قط ، ولو ثبت تناول العموم لشىء ما ، ثم أخرج ذلك الشىء من العموم لكان نسخاً لا تخصيصاً والمتقدمون يطلقون على التخصيص نسخاً توسعاً ومجازاً .

وقد نبه الإمام ابن القيم فى كتابه القيم (أعلام الموقعين) إلى أن عبارات المتقدمين تتوسع فى النسخ ، وتسمى التخصيص بعد التعميم نسخاً ، فجاء المتأخرون وأولعوا بالتفريع وتكثير الصور وأخذوا توسع المتقدمين فجعلوه اصطلاحاً فأكثروا من قولهم : هذا منسوخ ، وقد يكون من باب التخصيص لا من باب النسخ ، بمعنى إزالة حكم وتشريع آخر أو رفع الحكم إطلاقاً ، وهذا المعنى فى تفسير النسخ فى صورتيه هو موضع الخلاف فى وقوع النسخ فى القرآن أو عدم وقوعه .

والنسخ بهذا المعنى واقع فيما يتعلق بشرائع الله وأديانه ورسالاته المتتابعة فيما عدا الأصول الاعتقادية التى لا يدخلها النسخ بحال من الأحوال باتفاق أهل الملل والأديان السماوية ، ومن هنا أجمع المسلمون على أن شريعة الإسلام ناسخة لجميع الأحكام الفرعية فى الشرائع قبلها ، وأن ما جاء فيها موافقاً لبعض أحكام الشرائع السابقة ، فإنما جاء بوحي محمد من الله تعالى ، ومعنى قول بعض الأصوليين : شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يثبت الناسخ أن الحكم المتوافق مع الشرائع السابقة على شريعة الإسلام شرع لنا بوحى محمد ، وليس بمجرد متابعة شريعة من قبلنا .

أما النسخ فى جزئيات الأحكام التشريعية فى دين الإسلام فقد تغالى قوم وأنكروا جوازه ووقوعه . وهذا يشبه أن يكون مذهب أبى مسلم الأصفهانى أخذاً مما ينقله عنه الرازى فى تفسيره ، وأخذاً من تعسفه فى تأويل الآيات المتعارضة ، ليجعلها متوافقة من بعض الوجوه .

وتساهل قوم ، فأكثروا من القول بالنسخ فى كل موضع يحتمله فى أول النظر ، ولكن يمكن عند التأمل التوافق بين الآيات والنصوص ، فتقع كلها على معنى متوافق لا تعارض فيه فلا يلزمها النسخ ويجرى كل آية فى مجراها ويعمل كل نص فى محله ، دون تعارض يلزم القول بالنسخ .

قال الطبرى فى قوله تعالى : «فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين»(١) وهذا أمر من الله عز ذكره نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالعفو عن هؤلاء القوم الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليه من اليهود ، يقول الله جل وعز : اعف يا محمد عن هؤلاء اليهود الذين هموا بما هو به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل ، واصفح لهم عن جرمهم بترك التعرض لمكروههم ، فإنى أحب من أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه .

ثم قال أبو جعفر : وكان قتادة يقول : هذه منسوخة ، ويقول نسختها آية براءة .

«قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله»(٢) .

قال أبو جعفر : والذى قاله قتادة غير مدفوع إمكانه ، غير أن الناسخ الذى لا شك فيه من الأمر هو ما كان نافياً كل معانى خلافه الذى كان قبله ، فأما ما كان غير ناف جميعه فلا سبيل إلى العلم بأنه ناسخ إلا بخبر من الله جل وعز ، أو من رسوله صلى الله عليه ، وليس فى قوله : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) الآية دلالة على الأمر بنفى معانى الصفح والعفو عن اليهود .

وإذا كان ذلك كذلك ، وكان جائزاً مع إقرارهم بالصغار وأدائهم الجزية بعد القتال الأمر بالعفو عنهم فى غدرة هموا بها أو نكثة عزموا

---

(١) سورة المائدة آية ١٣ .

(٢) سورة التوبة آية ٢٩ .

عليها ، ما لم ينصبوا حرباً دون أداء الجزية ، ويمتنعوا من الأحكام اللازمة لهم لم يكن واجباً أن يحكم لقوله : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) ، الآية بأنه ناسخ قوله : (فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين) .

فالطبرى هنا يختار القول بعدم النسخ بين الآيتين اللتين ذهب فيهما قتادة إلى القول بالنسخ ، وصرح أبو جعفر بأن قول قتادة بالنسخ ، غير مدفوع إمكانه ؛ ولكنه ليس بحتم الذهاب إليه ، بل هو احتمال ويمكن أن تجرى الآيتان على معنيهما دون نسخ لعدم التنافى فى حكمى الآيتين ، وهذا أولى وأسد .

ومهما أمكن القول بعدم النسخ كان حمل الكلام عليه وأرشد وأصوب ، ويؤيد الرأى بعدم النسخ فى آية العفو والصفح ما رواه الطبرى نفسه عن الشعبي قال : لم ينسخ من المائدة إلا هذه الآية : (يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) .

وبناء على الأساس الذى أقامه الإمام أبو جعفر الطبرى رحمه الله — وهو أساس عام لا يخص آية بعينها — لا يوجد تناف ولا تعارض بين آيات تحديد مهمة الرسول بقصره على البلاغ والتذكير والإنذار ، ونفى السيطرة على النفوس والتسلط بالجبرية عليها وبين آيات (جهاد القتال) — لحماية الحق الإلهى ، لتكون كلمة الله هى العليا التى يطلق عليها المفسرون آيات (السيف) وهذا التعبير — أى آيات السيف — وإن كانت غير مدفوعة صحته فهو بعيد عن سماحة الإسلام وهدى القرآن، وكان التعبير عن هذه الآيات بآيات الجهاد للدفاع عن الحق أحق بها وأرشد .

ورأى الطبرى فى فهم آية العفو والصفح عن هؤلاء اليهود الذين أجرموا بالغدر والخيانة فى حق رسول الله ﷺ ، وحق أصحابه رضى الله عنهم ، وأن هذه الآية محكمة لم يلحقها نسخ ، وأن إحكامها باق مستمر ، وأنها من مكارم الأخلاق الإسلامية وأن النبى ﷺ عاملهم بها ، وطبقها عليهم وعلى غيرهم من إخوانهم المشركين أعداء الإسلام والمسلمين يصور روح الإسلام وسماحته فى معاملة غير المسلمين باعتباره مبدأ من مبادئ هذا الدين الحنيف وأصلا من أصوله السمحة الرحيمة .

لأن هذه الآية : (فاعف عنهم واصفح) مدنية نزلت بعد نزول الإذن بالقتال وبعد الأمر به دفاعاً عن النفس ورداً للاعتداء .

واليهود الذين نزلت فيهم آية العفو والصفح عن جرائمهم الغادرة ، والتى أمر الله فيها رسوله ﷺ بالعفو عنهم والصفح عن جرائمهم هم أخبث أعداء الإسلام ، وأشدهم ضراوة فى عداوة المسلمين ، وأقساهم قلوباً فى معاملتهم وأغلظهم أكباداً فى معاشرتهم ، يكيدون لهم ويمكرون بهم ويأتمرون عليهم وهم قد ارتكبوا معهم اقبح خيانة غادرة وأفظع غدرة خائنة ، إذ أرادوا الفتك بالنبى صلى الله عليه وسلم واغتياله وهو فى محلتهم ودارهم ، وظاهروا عليه أعداءه وألبوهم عليه ، وأغروهم بقتاله متحزبين معهم، وهم معاهدوه على أن لا يقاتلوه ، ولا يظاهروا عليه عدواً من غيرهم، فنقضوا عهده بأقبح ما ينقض به عهد ، وخفروا ذمته بأشنع ما تخفر به ذمة ، وخاسوا بمواثيقهم معه بأبشع مايخيس غادر بميثاق ، فجروا فجوراً ليس بعده فجور .

والله عزشأنه يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن هذا دأب اليهود وهجيراهم فى حياتهم ، مركوز فى جبلتهم الخبيثة ، لا يتركونه ولا يتحولون عنه ،

ولا يرجى أن يتوبوا منه ، وهم عليه مقيمون وعن التخلق به لا يريمون ، لا يطمع فى خير يأتى من جهتهم ، فكان ذلك تيئيساً من صلاحهم وإصلاحهم ، حتى يكون عفو رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفحه عن جرائمهم محض تفضل وتخلق بمكارم الأخلاق ، ومظهر من مظاهر سماحة الإسلام الذى أرسل به نوراً وهدى للناس ورحمة للعالمين فقال له عز اسمه: (ولا تزال تطلع على خائنة منهم) ، ما داموا على خبيث كفرهم الحسود الحقود وقليل منهم من يهد الله قلبه ، فيؤمن بالحق ، ويتقبل هدى الله متطهراً من أدران الغدر والخيانة .

ومع ذلك كله فالله تعالى يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالعفو عنهم ، والصفح عن سوء مكرهم به وكيدهم له ، ولأصحابه ودينه ودعوته ، لأن العفو عن المسىء عند القدرة عليه والتمكن من مجازاته على إساءته إحسان ورسول الله ﷺ أهل الإحسان وأحق به ، والله تعالى يحب المحسنين إلى من أساءوا إليهم ، ومحمد ﷺ سيدهم وقدوتهم ، فهو أحبهم إلى الله وأرفعهم فى منازل القرب ودرجات الكمال البشرى .

وهذا الفهم لآية العفو والصفح من سورة المائدة يجب أن يعم جميع آيات العفو والصفح فى غيرها من جميع سور القرآن ، فهى كلها محكمة لم يلحقها نسخ إطلاقاً ، والتوجيه الذى قيل فى آية المائدة هو عينه الذى ينبغى أن تفهم على أساسه كل آية أخرى فى العفو والصفح ، وليس هناك فرق يمكن أن يكون أساساً فى التفريق بين آيات وردت على طريق ومنهج واحد بأسلوب واحد فى معنى واحد لهدف واحد .

فقول الله تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد

إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره »(١) مثل آية المائدة من وجهين :

الأول : أنها مدنية من سورة مدنية باتفاق الأمة ، نزلت بعد الأمر بالقتال دفاعاً عن الحق ورداً لاعتداء المعتدين .

الثانى : أنها واردة فى شأن اليهود ، تبين خبثهم فى كفرهم ، وكيدهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ، وتربصهم بهم دوائر السوء حسداً لهم على ما آتاهم الله من فضله من بعد ماتبين لهم الحق فى صدق رسول الله ﷺ فى دعوته إلى دين الحق ، بما شاهدوه من آيات نبوته ودلائل رسالته ومعجزاته، وبما أنزله الله على أنبيائهم فى كتبهم التى كانت بين أيديهم من وصفه وخصائصه .

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين بالعفو والصفح عن هؤلاء الحسدة الفجرة حتى يأتى الله بأمره فيظهر دينه الحق على الدين كله تحقيقاً لوعده ونصراً لعبده .

وقول الله تعالى : « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور »(١) يجرى فى وادى آيتى المائدة والبقرة ميمماً شطر العفو والصفح عن أخابث اليهود . جرثومة الفجور والغدر بأسلوب يصور قسوة فجورهم وافترائهم على الله وعلى أنبيائه ورسله الكذب ، وأنه

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٩.

(١) سورة آل عمران آية ١٨٦ .

بلغ من السوء مبلغاً لاتستطيع النفوس البشرية نسيانه،ولا محوه من صفحات ذاكرتها ، وسجلات قلوبها ، ولكن مكارم الأخلاق الإسلامية وسماحة الإسلام يجب أن تتسع لاحتماله ، فتصبر عليه ، ولاتقابله بالمجازاة وإن كان الصبر عليه لبشاعته يحتاج إلى عزائم لايطيقها إلا الخواص من المجاهدين لنفوسهم على احتمال المكاره فى سبيل الحق والخير ، ولذلك ختم الله الآية بقوله : (وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) .

قال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره : أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالمصابرة على الابتلاء فى النفس والمال والمصابرة على تحمل الأذى وترك المعارضة والمقابلة .

وإنما أوجب الله تعالى ذلك لأنه أقرب إلى دخول المخالف فى الدين ، ثم ساق الرازى آيات واردة فى ملاطفة الأعداء تألفاً لهم ، ومصابرة على أذاهم ، ثم نقل عن الواحدى رحمه الله قوله :

كان هذا قبل نزول آية السيف ، ثم قال الرازى : قال القفال : الذى عندى أن هذا ليس بمنسوخ ، والظاهر أنها نزلت عقيب قصة أحد ، والمعنى أنهم أمروا بالصبر على ما يؤذون به الرسول ﷺ على طريق الأقوال الجارية فيما بينهم واستعمال مداراتهم فى كثير من الأحوال ، والأمر بالقتال لاينافى الأمر بالمصابرة على هذا الوجه .

وقد عقب الرازى على ذلك فقال : أعلم أن قول الواحدى ضعيف والقول ، ما قال القفال ، وهكذا يتضح أنه لامنافاة إطلاقاً بين جميع آيات العفو والصفح والمصابرة على تحمل الأذى ، وبين آيات مشروعية القتال

دفاعاً عن النفس ، وعن الحق ، وحماية للدعوة إلى الله ، حتى يكون الدين كله لله .

وإذا ارتفعت المنافاة وصح التوفيق بين معانى الآيات وأجريت كل آية فى موضوعها على معناها المحكم الذى سيقت له لم يبق مجال للقول بالنسخ فيها كما هو مذهب حذاق العلماء ، من الراسخين فى فهم دراسة القرآن وإدراك مراميه ومقاصده التى تقوم على دعائمها سماحة الإسلام .

جهادُ القِتَالِ في الاسلام دفاعيّ

شرع الإسلام (جهاد القتال) وأمر به بعد مرتبة الإذن فيه وإباحته فى مرتبتين، هو فيهما دفاعى لا هجومى ، ولكنه فى المرتبة الأولى منهما كان دفاعاً عن حق اجتماعى يملكه الإنسان بحق إنسانيته ، وبحقه فى الحياة الحرة الكريمة ، ولذلك شرط فيه أن يكون رداً على اعتداء واقع وقتال ناشب من جهة الأعدا. فهو قتال لمن قاتل المسلمين ونصب لهم الحرب ، لا لمن كف يده بعهد أو أمان أو اعتزال ، وعمدته — كما أوضحنا — قوله تعالى : «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا» .

وهذا القتال الدفاعى يعتبره الإسلام جهاداً فى سبيل الله كما هو نص الآية لأن الدفاع عن الحق أى حق، هو سبيل من سبل الله التى يجب الدفاع عنها وتأمينها ، وجعل الإسلام الإطار العام لهذا الجهاد هو العدل ، وعدم الاعتداء بتجاوز حدود الله فى رد اعتداء المعتدين .

أما فى المرتبة الثانية من مرتبتى الأمر بالقتال فهو دفاع عن الحق الإلهى لتكون كلمة الله هى العليا ، ويكون الدين كله لله وحده .

وقد نيط الدفاع عن الحق الإلهى بالأمة الإسلامية وكلفت القيام به ، لأنها كلفت القيام بنشر الحق وحمايته والدفاع عنه ، وتأمين سيره إلى القلوب والعقول لما خصها الله تعالى به من عوامل القيادة الإنسانية ودوافعها ، وفى تكوينها الأصيل ، حسب نصوص دستورها ، وما وضعه لها من نظم شاملة لحياتها .

وقد وضع الإسلام لجهاد القتال فى هذه المرتبة نظاماً يكفل له تحقيق العدل بين الناس ، فهو جهاد يبدأ بعد إعداد القوة الرادعة التى تستطيع حماية الدعوة ، وترهب عدو الله وعدو المسلمين الظاهرين بالعداوة والمستترين خلف الأعداء الظاهرين ، والإسلام لا يرضى لأمته أن تتحرك حركة عامة للدعوة إلى الحق الإلهى إلا إذا كانوا قد أعدوا لأعدائهم قوة متكافئة — على الأقل — مع قوة العدو ، ليستطيعوا رد عدوانه ، بما يناسبه من السلاح والجند ، كما فعل رسول الله ﷺ وأصحابه ، فإنه ﷺ ظل ثلاثة عشر عاماً بمكة يدعو إلى الله بالبيان والحجة ، بما ينزل عليه من آيات ودلائل ، وبما كان يحاج به المشركين من براهين العقل على توحيد الله وبطلان الشرك ومعالمه ، وإزالة مظاهر الوثنية ، ولم يتحرك حركة عامة بالكتائب والسرايا والجيوش لحماية الحق الإلهى وتأمين الدعوة ورد الاعتداء عمن يعتدى عليها ، وعلى حاملى رايتها إلا بعد أن قويت شوكته بكتائب الإسلام وأنصار الله وأعد لأعداء الله وأعداء المسلمين القوة المناسبة لردعهم وإرهابهم حتى لا يتعرضوا للدعوة يصدون عنها من يبغونها ويعوقون سيرها فى طريقها هادية مرشدة .

والتهاون فى إعداد القوة الرادعة المرهبة ، والإهمال فى تكاملها ، والتدريب على إحسان استعمالها من أكبر كبائر الذنوب والآثام الموبقة ، وأعظم من ذلك جرماً تعويق استعمال القوة عن مواجهة العدو عند الحاجة إليها بتثبيط الهمم وتخذيل القوات العاملة بالقول الخادع والكلمات المجبنة ولو لبست ثوباً سياسياً ، لأن ذلك من أعظم الخيانات فى الإسلام .

والأمة كلها فى جميع أوطانها وبجميع شعوبها مأخوذة بهذا التقصير والإهمال والتعويق بما يصيبها الله به من النكال والإذلال بتسليط أعدائها

عليها وتمكينهم من رقابها وتحكيمهم فى شئونها واحتلالهم أوطانهم واغتصابهم أرضها، واستعبادهم أبناءها.

وقد بينا فى وضوح أن إعداد القوة الرادعة إعداداً كاملا هو الخطوة الأولى فى مرتبة (جهاد القتال) للدفاع عن الدعوة إلى الله لتكون كلمة الله هى العليا.

والأمة الإسلامية وحدة متكافلة، وهى بمقتضى هذه الوحدة، وبما آتاها الله من خصائص استخلافها فى الأرض مكلفة القيام بالدعوة إلى نشر الحق الإلهى بين العباد، تطهيراً للعقيدة من رجس الوثنيات، والشرك بالله تعالى، وتحريراً للعقول من ربقة الاستعباد الفكرى وإنقاذاً للمستضعفين فى الأرض من وطأة الظلم وطغيان الظالمين وإقراراً للعدل والسلام فى الحياة.

فعلى هذه الأمة الإسلامية أن تحمل راية الدعوة إلى الله بالحكمة والبيان الواضح والحجة البالغة والبرهان المنير والموعظة الحسنة، وهذا واجب علمائها وذوى القدرة عليه من المصلحين.

وليس معنى ذلك — بداهة — أن تتكتل الأمة كلها للسير بالدعوة فى البلاد والعباد فذلك مالا يمكن تصور وقوعه، ويستحيل أن يطلبه الإسلام من أمته، لأن فيه إهداراً لمصالح الأمة وتعطيلا لوظائف الحياة فيها، وإضعافاً لقوتها، وقطعاً لمدد الدعوة بما تحتاج إليه من عوامل القوة، يقول الله تعالى: «وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذ رجعوا إليهم لعلهم يحذرون»(١).

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٢.

فهذا نص صريح في توجيه الأمة إلى أنه يجب عليها أن تستوفي وظائف الحياة في جميع مرافقها الفكرية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية والعسكرية ، والصناعية ، في السلم والحرب ، فلا يجوز لها أن تترك مرفقاً في حياتها ، يطغى على مرفق آخر ، يتحيفه ويجور عليه ، فيقلل إنتاجه أو يبطل عمله ، ثم هي من وراء ذلك يجب أن تكون كتلة واحدة تقف وراء كل عامل في تخصصه تؤيده وتبذل له من دمها وروحها ومالها وجهدها وعرقها ما يبلغ به ذروة أهدافها ، ولا سيما أعمال الدعوة إلى الله تعالى .

والذي يدل على أن الأمة لابد لها من قوة مستوفية وسائل الدفاع الرادع المرهب ، تقف دائماً على قدم الاستعداد ، في مواجهة أعدائها ، لرد عدوانهم وكبح جماحهم قول الله تعالى : « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » (١).

فهذه الآية نص في أن الأمة لا تطالب جميعها بالانتظام في سلك المجاهدين الواقفين في جبهة الميدان وإنما يؤدي عنها هذا الواجب في الجهاد القتالي من أعدتهم له بوسائل القوة ومقوماتها من الرجال والسلاح ، والعلم والتدريب ، ليقوم سائرها من وراء أولئك المجاهدين بالوظائف التي تتطلبها حياة الأمة .

والقاعدون الموعودون بالحسنى المذكورون في مقابلة المجاهدين ليسوا

---

(١) سورة النساء آية ٩٥ .

هم الكسالى المتعطلون عن العمل الذين يعيشون عبأ ثقيلا على الأمة تحملهم وزراً على كاهلها ، وإنما المراد بهم الذين قعدوا وراء الجيش يعملون له وللأمة ويقومون بما يسد حاجته وحاجتها من المؤن والتجهيزات وهؤلاء يدخلون فى قول رسول الله ﷺ : (من جهز غازياً فقد غزى) ، وإنما فضل عليهم المجاهدون الواقفون فى بنحر العدو لما يعتريهم من شدائد توقع ملاقاة العدو .

وفى وعد الله القاعدين وراء الجيش بالحسنى وفى الترغيب فى بقاء طائفة بعد النفير للتفقه فى الدين ، والإنذار به دليل على أن الجهاد — كما يقول الفقهاء — فرض كفائى تخاطب بوجوبه الأمة كلها متكافلة، ويكفى فى أداء واجبه للخروج من العهدة التكليفية والمسئولية الشرعية أن تقوم به طائفة من الأمة فى أى مكان من العالم ، ومن أى وطن من أوطان الإسلام وهذا مشروط — بإجماع المسلمين — بما إذا لم يهاجم العدو وطناً إسلامياً ويعجز أهله عن الدفاع عنه ، ويتطلب الأمر يد غيرهم معهم ، فعندئذ يجب الجهاد وجوباً عينياً على كل مسلم قادر بحسب طاقته فى نفسه وماله .

والقرآن صريح فى أن المسلمين يجب أن يأخذوا بمبدأ التخصص فى العلوم والمعارف ، والصناعات والحرف وسائر الأعمال ، وعلى أساس هذا التخصص تستطيع الأمة الإسلامية أن تقوم بمهام الحياة ، وتستطيع أن تملك حريتها الفكرية والاقتصادية والاجتماعية ،وتستطيع أن توفر لنفسها اكتفاء ذاتياً . يقيها شر الحاجة إلى الأمم الأخرى ،استجداء مثلا ، وتستطيع أن تتعاون مع غيرها فى تبادل الأفكار والمصالح تبادلا متكافئاً على قدم المساواة .

الهداية هدف دعوة الإسلام

وقد رسم الإسلام لنشر الدعوة إلى الله طريقها ، وبين فى هذا الطريق أن هدفها الذى لا هدف لها سواه ، إنما هو هداية الخلق ، وإقامة منار العدل بينهم وإخراجهم من ظلمات الوثنية والشرك إلى نور التوحيد ، وتحريرهم من عبودية المخلوقين إلى عبودية الخالق .

وقد جاء هذا البيان فيما أثر صحيحاً عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله وفعله ، وفيما تأسى به عنه خلفاؤه الراشدون وأمراؤه المهديون ، وولاة العدل من بعدهم فى بلاد الإسلام والمسلمين .

وهذا الطريق الذى رسم لنشر الدعوة . يجعل الدعوة إلى الإسلام وبيان ما يلزم المدعوين من أصوله العقائدية أساساً أولياً ، ودعامة يقوم عليها بناء الدعوة إلى الحق الإلهى الذى شرع (جهاد القتال) لحمايته والدفاع عنه .

وهذه نماذج من أحداث واقعية ووقائع سجلها التاريخ تبين حرص الإسلام فى دعوته على هداية الناس وتألف قلوبهم ، وإيثار دخول فرد واحد من أبناء الإنسانية فى الإسلام وقبوله الحق على أعز شىء فى الدنيا .

منهج الدعوة فى نماذج وصور

من واقع التاريخ

الأنموذج الأول :

روى الأئمة : أحمد ومسلم ، والترمذى ، وابن ماجه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال :(اغزوا باسم الله فى سبيل الله وقاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدة ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال،فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم ،وكف عنهم: أدعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم،وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين،واخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجرى عليهم الذى يجرى على المسلمين ، ولا يكون لهم فى الفىء والغنيمة شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فسلهم الجزية ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ، وإن أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم) .

نظرة تحليلية

وفى هذا الحديث من فقه الدعوة إلى الله وسماحة الإسلام أمور ننبه إلى غررها :

أولا : تصوير الدعوة إلى الله ، وهى الدعوة إلى الحق الإلهى ، لتكون كلمة الله هى العليا ، ويكون الدين كله لله بأنها باسم الله ، وأنها فى سبيل الله

فهى ليست باسم مخلوق ، ملك أو أمير أو حاكم ، أو زعيم ، أو طائفة ، أو أمة ، أو شعب ، وهى فى سبيل الله ، لا فى سبيل مال يجمع ولا بلاد تستغل أو أمة تستعبد ، وأنها قتال — إذا لم يكن منه بد — لمن كفر بالله وأشرك به سواه ودان بالوثنية فى أية صورة من صورها ، وشكل من أشكالها التى تفسد الفطرة وتصدئ مرآة العقل .

ثانياً : بيان ما خصه النبى ﷺ بالذكر من الخصال فى وصيته قائد جيشه ومن أمره عليه .

فقد ذكر النبى ﷺ أربعة أمور، خصها بالنهى عنها على تقدير أن يقع قتال ، لأنها من آثاره ، فقال صلى الله عليه وسلم : (لا تغلوا) ، والغلول خيانة ودناءة ، (ولا تغدروا) ، والغدر إثم وفجور (ولا تمثلوا) ، والتمثيل بالإنسان بعد موته فظاعة وجريرة (ولا تقتلوا وليدة) وقتل الولائد والأطفال جبانة ونزالة .

وهذه أمور من رذائل الخلائق أراد النبى ﷺ تطهير الدعاة إلى الله من وضرها ورجسها ، لتخلص دعوتهم إلى الحق الإلهى ، بعيدة عن الشوائب والرذائل ودناءات النفوس وشهوات الغضب والأنانية .

وثالثاً : بيان كيفية الدعوة إلى الله (فإذا لقيت عدوك من المشركين) وهذا نص يفيد قيام العداوة وظهور معالمها ، فمن لم ينصب للعداوة نصباً ، ولا أشعل لها ناراً ، أو كف يده واعتزل قتال المسلمين فإنه لا يهاج ولا يقاتل .

وهذا العدو لا يجوز الهجوم عليه على غرة منه بطريق المفاجأة ، ولكنه يدعى إلى خصال يكون له فيها الاختيار والحرية ، فأية هذه الخصال اختار أجيب إليها .

وفى دعوة العدو إلى هـذه الخصال ليختار منها ما يراه لنفسه فرصة للتروى والاستعداد حتى إذا اختار أبغضها إلى الإسلام وهى الحرب لم يكن مخدوعاً ولا مفاجأ بها ، وهذا منتهى ما يمكن أن يعطى عدو من الحرية والاختيار لنفسه ، ومنتهى ما يصور سماحة الإسلام ورغبته فى هداية الخلق وتجنب القتال .

وهـذه الخصال التى يجب أن يستهدفها الداعى إلى الله من دعوته هى الدعوة إلى الإسلام دين الله الذى ارتضاه لعباده ديناً ، وأنزله نعمة من عنده يطهر بها عقائدهم ويزكيهم بها ، ولذلك كانت أول ما يوجه بعد اللقاء (فادعهم إلى الإسلام) فإن أجابوا إلى هذه الخصلة التى لا يريد الإسلام غيرها ، فهم إخوة المسلمين وإخوة الدعاة إلى الله يؤاخونهم فى الإيمان ، ويساوونهم فى الحقوق والواجبات فيصبح لهم من الحقوق مثل ما لسائر المسلمين وعليهم من الواجبات مثل ما على سائر المسلمين ، دون امتياز فى شىء سوى وحدة الروح الاجتماعية مع المجتمع الإسلامى الأصيل بامتزاجه معه فى إيمانه وأعماله ، وأخلاقه وسلوكه .

والطريق إلى هـذا الامتزاج مفتوح أمام كل من يريده راغباً فيه ، فليدعوا إليـه بعد ما أجابوا إلى الإسلام بالتحول عن دارهم دار الشرك والوثنية التى كانوا عليها ، وفارقوها إلى دين الله الحق إلى الإسلام ، والسلام ولينتقلوا إذا شاءوا من البداوة وجفاء الإعرابية إلى دار الهجرة والحضارة إلى عاصمة الإسلام، ليروا معالم الإسلام ومظاهر الإيمان، ويمتزجوا بإخوانهم المهاجرين ، ويشربوا روحهم ، وينالوا شرف الهجرة إلى دارها ويشرفوا بحقوقها وواجباتها ، فإن لم يرغبوا فى التحول عن دارهم وأرادوا الإقامة فيها فلهم ما أرادوا وما ذلك بمخرجهم عن دار الإسلام العامة يجرى عليهم فيها ما يجرى على

عامة المسلمين من الشرائع والأحكام ، ولا يكون لهم نصيب فى خيرات الجهاد وشرفه إلا إذا شاركوا فيه مشاركة فعلية ، وباشروه مع المجاهدين الذين يدعون إلى الله لتكون كلمته هى العليا .

فإن أبوا الإسلام ولم يجيبوا إليه فلا تجوز مقاتلتهم ولكن يعرض عليهم الصلح والذمة إذا شاءوا فليسألوا الجزية ، وهى تأمين لصيانة العهد ، وعنوان على التمسك به ، ومشاركة فى الدفاع عنهم إذا أرادهم عدو لهم بسوء ، فإن لم يستطع المسلمون دفع عدوهم عنهم ردوا عليهم ما أخذوا منهم فهى فى الحقيقة خير يعود عليهم نفعه ، وهى أشبه بالضرائب العامة التى تنفق فى المنفعة العامة .

فإن أجابوا إليها فلا يهاجوا ولا سبيل إلى إزعاجهم ، فإن أبوها وأقاموا على عداوتهم فلا يتركوا شوكة فى ظهر الدعاة إلى الله ، بل يجب تأمين الدعوة من توقع غدرهم فليقاتلوا وليستعن بالله وقوته وقهره على قتالهم ، فهم إنما يحادون الله ، وقتالهم فى سبيله ، وهذا إرشاد للمسلمين إلى أن هذا القتال الذى ألجئوا إلجاء إليه يجب أن يكون دعامته الأولى هى الإيمان بالله وصدق التوكل عليه ونصرة دينه : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز »(١) .

ومحور فقه الحديث هو إبرازه سماحة الإسلام فى معاملة غير المسلمين الذين خالفوهم فى عقيدة التوحيد ، لأنه نص فى تألف الناس واستمالة قلوبهم إلى الهداية والإيمان ، فلم يسمح بالهجوم المفاجىء بالقوة القاهرة . لإكراه الناس على الدخول فى الإسلام .

---

(١) سورة الحج آية ٤٠ .

فهو بيان لمنهج الدعوة فى نظامها المرسوم ، لا ينتقل من مرتبة إلى أخرى إلا إذا أبى العدو أن ينزل فى هذه المرتبة ، فأول مواجهة للعدو أن يدعى إلى الإسلام (فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم — وهم أحرار ممكنون من الاختيار — إلى واحدة من ثلاث خصال مرتبة) :

أولهما : — أى خصال منهج الدعوة إلى الله .

(ادعهم إلى الإسلام) وهى خصلة تذيب صدأ الضغائن من الصدور ، وتذيب الفوارق بين الناس ، مهما اتسعت دائرتها ، وامتدت أطرافها ، وتباعدت غاياتها بهمس أشبه بالسحر .

وماذا فى الإسلام أكثر من كلمة؟ وكلمة يلقاها العقل تفقهاً ويقيناً ، فيرسلها إلى القلب والروح نوراً وإشراقاً ، فيزجيانها إلى اللسان بياناً ، وإلى الجوارح عملا ، وإذا بقائلها قد خلق خلقاً جديداً غير خلقه الأول الذى كان عليه ، قبل أن يلقاها ويؤمن بها ، لأنه تحول بها من إنسان أهدر كرامة عقـله فعبد نفسه للحجر والمدر ، إلى إنسان عرف حق إنسانيته ، فسما بها إلى آفاق الحياة الكريمة حراً ، يعرف لعقله حقه ولوجوده كرامته ، لايعبد مخلوقاً مهما كان شأنه وأمره ، وإنما يعبد الله الذى خلقه وسواه فى أحسن تقويم ، ثم نفخ فيه من روحه وجعله أكرم المخلوقين .

(الإسلام) كلمة تجعل العدو ولياً حميماً ، والبعيد قريباً ، والمجانب أخاً وصديقاً والبغيض خليلا وحبيباً ، فهذه الخصلة وشيجة تربط الناس فى وحدة إنسانية يظلها العدل والرحمة .

وثانيتها : — أى خصال منهج الدعوة إلى الله .

(الجزية) وأقل درجاتها فى تصوير السماحة الإسلامية أنها فى التقدير الاجتماعى والوزن السياسى أوسع فرصة للنظر والتأمل لمعرفة الحق ، ومعرفة أين هو ، فإذا عرفه المدعو بدعوة الإسلام ، وعرف مكانه مشى إليه أماً راغباً ، وعانقه معتنقاً ، ودخل فى زمرة أهله مصدقاً ، وأصبح يملك حق التحدث عنه والدعوة إليه ، يقول للناس ما قيل له من قبل ويضرب لهم المثل بنفسه فيقول كما قال المؤمنون من قبله ، قد كنا ضلالا فهدانا الله ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

* * *

وتاريخ الدعوة الإسلامية حافل بما يصدق ذلك ويحققه ، فما من أمة أو شعب أو طائفة أو قبيلة صولحت على الجزية إلا وقد أنجحت معها فرصتها ، وأفلحت غايتها ، فكلها عرف الحق وراجعه ، ودخل فى دين الإسلام ، وقبل دعوته ، طواعية واختياراً ، حتى شكى بعض الولاة فى خلافة عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه من كثرة الداخلين فى الإسلام من أهل الجزية وسقطت عنهم جزاهم وتخوف الولاة على بيت المال ، فقال عمر رضى الله عنه للشاكين كلمته المعبرة : (إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً) .

ومعنى ذلك أن الجزية إذا حققت هدفها فى سياسة الدعوة فلتذهب إلى غير رجعة ، لأن جباية المال لم تكن هدفاً لبعثة محمد خاتم النبيين ﷺ ، وإنما هدفها الذى لا هدف لها غيره هو الهداية للناس أجمعين .

٢ — الأنموذج الثانى :

ومن أبلغ الدلائل على أن الهداية هى مقصود الدعوة الإسلامية حديث على كرم الله وجهه فى فتح خيبر ، روى البخارى عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر :(لأعطين الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله) ، فبات الناس يدوكون — أى يختلطون بالحديث والتساؤل والتمنيات — ليلتهم ، أيهم يعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجوا أن يعطاها — حتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ — فقال النبى ﷺ : (أين على بن أبى طالب ؟) .

فقيل : هو يا رسول الله يشتكى عينيه قال : (فأرسلوا إليه) فأوتى به فبصق(١) رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرأ مكانه حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال على : يا رسول الله : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ — أى حتى يدخلوا فى الإسلام ، ويصيروا مثلنا مسلمين — فقال عليه الصلاة والسلام : (أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لئن يهدى الله بك رجلا واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم) .

---

(١) قد ينفر ذوق بعض المترفين ممن يتعالون بتصنع التأفف من هذا التعبير، ونحن لا نرد عليهم تأففهم ونفارهم إلا بأن نلفت حسهم بأن يلتفتوا بخيالهم وعقولهم إلى ما فى عادات الناس وطوائفهم من أمور يختلف فيها الذوق ، على أن هذا التعبير ليس من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمقصود منه أن النبى صلى الله عليه وسلم مسح بريقه الطاهر الشريف على عين على فبرىء من مرضه معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والحديث واضح الدلالة فى أن هدف الدعوة إلى الإسلام هو هداية الناس، لاقتالهم والظفر بهم وكراهم على الإسلام بالقتال والقوة القاهرة، وهذا ظاهر من رد رسول الله ﷺ على سؤال على رضى الله عنه، هل يقاتلهم حتى يدخلوا فى الإسلام فكأنه كرم الله وجهه أراد أن يكشف للناس حكمة مشروعية (جهاد القتال) فى الإسلام بسؤاله ليتبين لهم أن الدعوة إلى الله إنما تستهدف هداية الخلق، وأن هذه الهداية أعز ما يكسبه المؤمن فى حياته من الخير، وأن تألف الناس إلى الهداية هو الذى يجب أن يجعله المجاهدون نصب أعينهم، وهو الذى يجب أن يقصدوه بدعوتهم إلى الله، قال ابن حجر فى الفتح : ويؤخذ من هذا الحديث أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله.

ثالثتها — أى خصال منهج الدعوة إلى الله — هى التى لا شوى لها، ولا محيص عنها، هى الحرب المبيرة، والإسلام فى هذه الحرب التى يلجأ إليها إلجاء، يقف موقفاً نبيلا كريماً، فهو يوصى أهله — قبل أن ينشب القتال — بمجرد توقعه — أن يكونوا مع أعدائهم ومع أنفسهم نبلاء كرماء، أعلياء الهمم، قتالهم لله، وفى سبيل الله، والله لا يرضى لعباده الذين يجاهدون فى سبيله أن يجعلوا من جهادهم ذريعة إلى دنايا الأخلاق، فلا غلول، ولا غدر، ولا اعتداء فى القتال، فلا يقتل إلا من كان أهلا للقتال وباشر القتال من الأعداء، فلا تقتل النساء والولدان، ولا الشيوخ الهرمى، ولا العجزة الزمنى، ولا الرهبان الذين اعتزلوا الحياة وحبسوا أنفسهم فى الصوامع يزعمون أنهم يعبدون تبتلا.

فهذا الحديث أصل فى إفادة أن الدعوة إلى الله، وإلى كلمة الحق وهداية الناس إليها هى الأساس فى منهج (جهاد القتال) الذى شرعه الإسلام لحماية

هذه الدعوة ورد الاعتداء عليها فهو أهم النصوص المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم فى بيان طريق الدعوة إلى الله يرويه الثقاة الأثبات فكان تفسيراً لمنهج القرآن الكريم.

٣ الأنموذج الثالث :

كتاب إلى رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد

بهذا المنهج فى الدعوة إلى الله أرسل رسول الله ﷺ رسله إلى الجهات النائية عنه ، وإلى القبائل التى أراد أن يبلغها دعوته ، ويدعوها إلى دينه الذى أمره الله أن يبلغه إلى الناس كافة ، وكان ممن أرسل من الأمراء (خالد بن الوليد) رضى الله عنه أرسله إلى بنى الحارث بن كعب فأدى خالد رسالة رسول الله ﷺ كما أمره وكتب لى رسول الله ﷺ يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد النبى رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد ، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد : يا رسول الله صلى الله عليك ، فإنك بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب وأمرتنى إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام ، وكتاب الله وسنة نبيه . وإن لم يسلموا قاتلتهم وإنى قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام . كما أمرنى رسول الله ﷺ ، وبعثت فيهم ركباناً . فقالوا : يا بنى الحارث أسلموا تسلموا فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم آمرهم بما أمرهم الله به ، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبى ﷺ حتى يكتب إلى رسول الله ﷺ والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته .

٤ــ الأنموذج الرابع:

كتاب رسول الله ﷺ إلى خالد بن الوليد

وقد رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على كتاب خالد رضى الله عنه ، فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن الوليد ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن كتابك جاءنى مع رسولك يخبر أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن قد هداهم الله بهداه فبشرهم وأنذرهم وأقبل وليقبل معك وفدهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فهذا رسول الله ﷺ يأمر قائده ورسوله إلى بنى الحارث بن كعب أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام ، وأمره ألا يهيجهم فى أيام الدعوة الثلاثة ، وأن لا يهاجمهم بقتال فيها ، فيصدع رسوله بأمره ويقبل على من أرسل إليهم يدعوهم إلى الله وإلى دينه القويم ، ويرسل الركبان صاعدين نازلين بين بيوت بنى الحارث وأنديتهم ، وساحات محافلهم ومجتمعاتهم ، ينادونهم بنداء الله يا بني الحارث أسلموا تسلموا ، فيسلموا بأجمعهم ، ويقيم فيهم رسول رسول الله ﷺ . يعلمهم معالم الإسلام ، ويقرئهم كتاب الله ، ويبلغهم ما يعلم من سنة نبيه ﷺ . حتى إذا استقر أمره وأمرهم بالهدى والإيمان ، كتب إلى رسول الله ﷺ يبلغه ذلك ، فيكتب إليه رسول الله ﷺ يقره ويثبته ، ليثبت الذين آمنوا معه ويزيدهم تثبيتاً لإيمانهم فيأمره أن يبشرهم برحمة الله ورضوانه وينذرهم تخوفاً بطش الله وعقابه ، ويدعوه ليقبل عليه ، وليقبل معه وفد بنى الحارث ليكونوا رسل قومهم فى لقاء رسول الله ﷺ .

وهكذا يرسم رسول الله ﷺ طريق الدعوة إلى الله تعالى ، مبيناً أن هداية الخلق هى المقصود الأعظم من رسالة الإسلام ، وأن الوصول إلى هذا المقصود لا يكون بالإكراه والقسر ، وإنما يكون ببيان الحق بياناً واضحاً يتيح للناس فرصة فهمه وإدراكه ، حتى يكونوا فى قبوله أو رده على بينة من أمرهم .

٥ ــ الأنموذج الخامس :

رد من أسر قبل أن يدعى إلى الإسلام إلى مأمنه

وأخرج البيهقى عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال : أتى النبى ﷺ بأسارى فقال رسول الله ﷺ : (هل دعوتموهم إلى الإسلام ؟) فقالوا : لا ، فقال لهم: (هل دعوكم إلى الإسلام ؟) فقالوا : لا ، قال : (خلوا سبيلهم حتى يبلغوا مأمنهم) ثم قرأ رسول الله ﷺ هاتين الآيتين : « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً »(١) ، « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أءنكم لتشهدون أن مع الله آلهـة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون »(٢) .

هذا الحديث يبطل عملا قام به بعض المسلمين ويرده لا بتنائه على خطأ يخالف منهج الدعوة إلى الله ، ومنهج هذه الدعوة يقضى بدعوة الناس ــ أولا ــ إلى الإسلام ، دعوة واضحة بينة ، فإذا اقتحم أحد هذا المنهج ، وجاء بنصر حربى ظفر فيه بأسرى قبل أن يدعوهم إلى الإسلام ، فعمله باطل

(١) سورة الأحزاب آيتا ٤٥، ٤٦ . (٢) سورة الأنعام آية ١٩ .

لا يقره الإسلام ، ولا يرضى به رسول الله ﷺ الذى رسم للناس طريق الدعوة إلى الله .

فهؤلاء الأسرى لم يدعوا إلى الإسلام قبل أسرهم بإقرارهم وإقرار آسريهم ، فأسرهم باطل لا يقبله الإسلام فليردوا إلى مكان أمنهم ، ثم هم بعد ذلك أحرار ، وهم كغيرهم أمام منهج الدعوة يجب أن يدعوا إلى الإسلام — أولا — دعوة بينة فى مهلة تتيح لهم الاختيار ، وهم أحرار ممكنون من الرد أو القبول ، وقد رد رسول الله ﷺ هؤلاء الأسرى إلى مأمنهم وأبطل أسرهم ، لأن الله تعالى أنزل عليه فى كتابه أنه أرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ينير للناس طريق الهداية ، وأنه تعالى أوحى إليه فى كتابه أن ينذر بالقرآن من شهده وحضر إنزاله وتنزله ، وسمعه من رسول الله ﷺ ، وينذر به من يبلغه الإنذار به بلاغاً صحيحاً مبيناً ، وهؤلاء الأسرى لم يدعوا إلى الإسلام ولم ينذروا بالقرآن ولم يشهدوا نزوله ولم يسمعوه من رسول الله ﷺ .

وهذا هو عدل الإسلام وهديه ، وهذه هى سماحته ورحمته .

٦ — الأنموذج السادس :

روى ابن عساكر عن سعيد بن المسيب أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه لما بعث الجنود نحو الشام أمر يزيد بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، فقال لهم : أوصيكم بتقوى الله ، اغزوا فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، فإن الله ناصر دينه ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا : ولا تجبنوا ولا تفسدوا فى الأرض ، ولا تعصوا ما تؤمرون ، فإن لقيتم العدو من المشركين — إن شاء الله — فادعوهم إلى ثلاث ، فإن هم

أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ، ادعوهم إلى الإسلام فان هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ، ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم الى دار المهاجرين فإن فعلوافأخبروهم أن لهم مثل ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، وإن هم دخلوا فى الإسلام واختاروا دارهم على دار المهاجرين فأخبروهم بأنهم كأعراب المسلمين ، يجرى عليهم حكم الله لذى فرض على المؤمنين ، وليس لهم فى الفىء والغنائم شىء ، حتى يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا أن يدخلوا فى الإسلام فادعوهم إلى الجزية ، فان هم فعلوا فاقبلو منهم وكفوا عنهم ، وإن هم أبوا فاستعينوا بالله عليهم فقاتلوهم إن شاء الله ، ولا تحرقن نخلا ولا تعقروا بهيمة ، ولا شجرة ثمر ، ولا تهدمو بيعة ، ولاتقتلوا الولدان ، ولا الشيوخ ، ولا النساء ، وستجدون قوماً حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له : وروى هذا الحديث مالك فى الموطأ وفى روايته اختصار ، وكذلك رواه وافياً البيهقى .

وهو صورة من منهج رسول الله ﷺ الذى رسمه لطريق الدعوة فى الحديث الذى رواه البخارى وتقدم تعليقنا عليه

٧ — الأنموذج السابع :

روى الطبرى عن سليمان ابن بريدة أن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه كان إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان أمر عليهم رجلا من أهل العلم والفقه ، فاجتمع إليه جيش فبعث عليهم سلامة بن قيس الأشجعى رضى الله عنه ، فقال : سر باسم الله ، قاتل فى سبيل الله من كفر بالله ، فإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى ثلاث خصال : ادعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا فاختاروا دارهم، فعليهم فى أموالهم الزكاة وليس لهم فى فىء المسلمين نصيب وان اختاروا أن يكونوا معكم فلهم مثل الذى لكم وعليهم مثل الذى عليكم ، فإن أبوا فادعوهم إلى الخراج فإن أقروا بالخراج فقاتلوا عدوهم

من ورائهم ، وفرغوهم لخراجهم ، ولا تكلفوهم فوق طاقتهم فإن أبوا فقاتلوهم فإن الله ناصركم عليهم، وإن قاتلوكم فلا تغلوا ،ولا تغدروا ،ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً . وليتأمل فى قول عمر رضى الله عنه : (فإن أقروا بالخراج فقاتلوا عدوهم من ورائهم إلخ) فإنه بيان لحكمة الجزية وتصوير لسماحة الإسلام أروع تصوير، وقد جرى عليه أمراء الإسلام وولاته فى فتوحهم، كما بيناه فيما سبق .

قال سلامة : فسرنا حتى لقينا عدونا من المشركين، فدعوناهم إلى ما أمر به أمير المؤمنين فأبوا أن يسلموا ، فدعوناهم إلى الخراج فأبوا أن يقروا ، فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم .

٨ — الأنموذج الثامن:

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام عن يزيد بن حبيب أن عمر ابن الخطاب كتب إلى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : إنى كنت قد كتبت إليك : أن تدعو الناس إلى الإسلام ثلاثة أيام ، فمن استجاب لك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما للمسلمين وله سهم فى الإسلام .

ومن استجاب لك بعد القتال أو بعد الهزيمة فما له فىء المسلمين لأنهم كانوا قد أحرزوه قبل إسلامه فهذا أمرى وكتابى إليك .

٩ — الأنموذج التاسع :

وذكر الطبرى أن خالد بن الوليد رضى الله عنه لما نزل الحيرة خرج إليه أشرافها مع أميرهم قبيصة بن إياس الطائى ، فقال لهم خالد : أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام ، فإن أجبتم فأنتم من المسلمين ، لكم ما لهم وعليكم

ما عليهم ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة ، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم .

فقال قبيصة : مالنا بحربك من حاجة ، بل نقيم على ديننا ، ونعطيكم الجزية ، فصالحهم خالد على جزيتهم .

١٠ — الأنموذج العاشر :

وأخرج الترمذى أن جيشاً من جيوش المسلمين كان أميرهم سلمان الفارسى حاصروا قصراً من قصور فارس ، فقال المسلمون لقائدهم : يا أبا عبد الله ألا ننهد إليهم ؟ قال سلمان دعونى أدعهم كما سمعت رسول الله ﷺ يدعوهم ، فأتاهم سلمان ، فقال لهم : إنما أنا رجل منكم فارسى ، ترون العرب يطيعوننى ، فإن أسلمتم فلكم مثل الذى لنا ، وعليكم مثل الذى علينا ، وإن أبيتم إلا دينكم تركناكم وأعطونا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، ثم رطن إليهم بالفارسية ، وأنتم غير محمودين ـ أى فسرلهم بلغتهم معنى (وأنتم صاغرون) وإن أبيتم نابذناكم على سواء ، قالوا : مانحن بالذى نؤمن ، ومانحن بالذى نعطى الجزية ، ولكنا نقاتلكم ، فقال المسلمون لقائدهم : يا أبا عبدالله : ألا ننهد إليهم ؟ قال : لا فدعاهم ثلاثة أيام إلى مثل هذا ! ثم قال لأصحابه : انهدوا إليهم ، فنهدنا ففتحنا ذلك القصر .

١١ — الأنموذج الحادى عشر :

روى الطبرى أن جيش المسلمين لما واجه جيش الفرس بعث رستم إلى سعد بن أبى وقاص أن ابعث إلى برجل عاقل ، عالم بما أسأله عنه ، فبعث إليه المغيرة بن شعبة ، فلما قدم إليه ، جعل رستم يقول له : إنكم جيراننا ، وكنا نحسن إليكم ، ونكف الأذى عنكم ، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا .

فقال له المغيرة : إنا لسنا طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة ،وقد بعث الله إلينا رسولا قال له : إنى سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني، فأنا منتقم منهم بهم ، وأجعل لهم الغلبة ماداموا مقرين به ، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذل ، ولا يعتصم به أحد إلا عز .

فقال له رستم : ما هو هذا الدين ؟

فقال المغيرة : أما عموده الذى لا يصلح شىء منه الا به، فشهادة إن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله والإقرار بما جاء به من عند الله .

فقال رستم : ما أحسن هذا : وأى شىء أيضاً ؟

فقال المغيرة : واخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله .

فقال رستم : وحسن هذا أيضاً ، وأى شىء أيضاً ؟

فقال المغيرة : والناس بنو آدم ، فهم إخوة لأب وأم .

قال رستم : وحسن هذا أيضاً : أرأيتم إن دخلنا فى دينكم أترجعون عن بلادنا ؟

قال المغيرة : أى والله لا نقرب بلادكم إلا فى تجارة أو حاجة .

ثم ذاكر رستم قومه فى الإسلام فغلبت عليهم شقاوتهم ، وأنفوا أن يجيبوا إليه ، فأرسل رستم إلى سعد يطلب رسولا آخر ، فأرسل إليه سعد ربعى ابن عامر ، وذهب ربعى إلى رستم فى بزة عربية ، وهيئة بدوية ، متقشفة ، لا تقيم لزينة الدنيا ومظاهرها وزناً ، حتى وطىء بساط رستم بفرسه ، ودخل عليه بسلاحه ، بينما رستم قد اتخذ مجلساً ملوكياً مترفاً أكثر فيه من مظاهر الزينة والزخرف وتحلى بالجواهر واللآلىء فلما بلغ إليه ربعى قال له رستم : ما جاء بكم ؟

قال ربعى : الله بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه ، لندعوهم إليه فمن قبل ذلك قبلنا منه ، ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضى إلى موعود الله .

قال رستم : وما موعود الله ؟

قال ربعى : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى .

قال رستم : قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا الأمر حتى ننظر وتنظروا ؟ .

قال ربعى : نعم ، كم أحب إليكم ؟ يوما أو يومين ؟؟

قال رستم : لا ، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا .

قال ربعى : ماسن رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث فانظر فى أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل .

فقال رستم : أسيدهم أنت ؟! .

قال ربعى : لا ، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم .

ثم اجتمع رستم برؤساء قومه ، فقال لهم : هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل قالوا : معاذ الله أن تميل إلى شىء من هذا ، وتدع دينك ، ألم تر إلى ثيابه ؟ فقال رستم ويلكم ؟ لا تنظروا إلى الثياب ، وانظروا إلى الرأى والكلام والسيرة .

١٢ ـ الأنموذج الثانى عشر :

ذكر ابن كثير فى البـداية أن سعد بن أبى وقاص ـ وكان جيشه لا يزيد على سبعة آلاف والمشركون أضعاف أضعافهم ـ لما نزل القادسية أرسل طائفة من أصحابه إلى كسرى (يزدجرد) يدعونه إلى الله قبل التحام القتال ، فاستأذنوا على كسرى ، فأذن لهم ، وخرج أهل البلد ينظرون إلى أشكالهم ، وأرديتهم على عواتقهم ، وسياطهم بأيديهم ، ونعالهم فى أرجلهم ، وهم على ظهور خيولهم الضعيفة ، وجعلوا يتعجبون منهم غاية العجب كيف يقهر هؤلاء جحافل جيوشهم ؟

ولما دخلوا على كسرى جعل يسألهم ـ استخفافاً ـ عن ملابسهم وأسمائها ، ثم قال لهم ما الذى أقدمكم هذه البلاد ؟ أظننتم أنا لما تشاغلنا عنكم بأنفسنا اجترأتم علينا ؟ فقال النعمان بن مقرن أحد أبطال الإسلام وقواده :

إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ، ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين ، فرقة تقاربه ، وفرقة تباعده ، ولا يدخل معه فى دينه إلا الخواص ، فمكث ذلك ماشاء الله أن يمكث ثم أمر أن ينهد إلى من خالفه من العرب ، ويبدأ بهم ، ففعل ، فدخلوا معه جميعاً على وجهين . مكروه عليه فاغتبط وطائع إياه فازداد ، فعرفنا جميعاً فضل ماجاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ، وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين الإسلام حسن الحسن وقبح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شرمنه ،

الجزاء فإن أبيتم فالمناجزة وإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وإن أتيتمونا بالجزى قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم .

فتكلم يزدجرد فقال : إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم وقد كنا نوكل بكم قرى الضواحى ليكفوناكم لاتغزوكم فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فإن كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا ،وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم ،وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم ، فأسكت القوم .

فقام المغيرة بن شعبه فقال : أيها الملك إن هؤلاء رءوس العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشراف الأشراف ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ، وليس كل ما أرسلوا له جمعوه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه ، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك، فجاوبنى فأكون أنا الذى أبلغك ويشهدون على ذلك .

إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً ، فأما ماذكرت من سوء الحال ، فما كان أحد أسوأ حالا منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ونرى ذلك طعامنا .

وأما المنازل فإنما هى ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ماغزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ، وأن يبغى بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل منه طعامه .

وكانت حالنا قبل اليوم على ماذكرت لك ، فبعث الله إلينا رجلا معروفاً، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير

أحسابنا ، وبيته خير بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو نفسه كان خيرنا فى الحال التى كان فيها ، أصدقنا وأحلمنا ، فدعانا إلى أمر لم يجبه أحد أول ترب كان له الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئاً إلا كان . فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه ،فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا : إن ربكم يقول : أنا والله وحدى لاشريك لى ، كنت إذ لم يمكن شئ وكل شئ هالك إلا وجهى ، وأنا خلقت كل شئ ، وإلى يصير كل شئ وإن رحمتى أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل ، لأدلكم على السبيل التى أنجيكم بها بعد الموت من عذابى ، ولأحلكم دارى دار السلام،فتشهدعليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال : من تابعكم على هذا فله ما لكم ، وعليه ما عليكم ، ومن أبى فأعرضوا عليه الجزية ، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ،ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم ، فمن قتل منكم أدخلته جنتى ، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه ، فاختر إن شئت الجزية وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجى نفسك .

فقال يزدجرد : أتستقبلنى بمثل هذا ؟

قال المغيرة : ما استقبلت إلا من كلمنى ، ولو كلمنى غيرك لم أستقبلك به .

قال يزدجرد : لولا أن الرسل لاتقتل لقتلتكم ، ولاشىء لكم عندى ،ثم قال : ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنى مرسل إليه رستم حتى يدفنه وجنده فى خندق القادسية ، وينكل به وبكم من بعده ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم فى أنفسكم .

١٣ ـ الأنموذج الثالث عشر :

وروى البخارى عن جبير بن حية قال : بعث عمر الناس فى أفناء الأمصار يقاتلون المشركين فأسلم الهرمزان فقال : إنى مستشيرك فى مغازى هذه ، قال : نعم ، مثلها ومثل من فيها من الناس من عدو المسلمين مثل طائر له رأس ، وله جناحان وله رجلان ، فإن كسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح والرأس ، وإن كسر الجناح الاخر نهضت الرجلان والرأس ، وإن شدخت الرأس ذهبت الرجلان والجناحان والرأس ، فالرأس كسرى .... فمر المسلمين فلينفروا إلى كسرى فندبنا عمر واستعمل علينا النعمان بن مقرن .

حتى إذا كنا بأرض العدو ، خرج علينا عامل كسرى — بندار ، أو ذو الجناحين — فى أربعين ألفاً ، فأرسل إلينا : أن ارسلوا إلينا رجلا نكلمه ، فأرسلنا إليه المغيرة بن شعبة ، وقعد ذو الجناحين على سريره فى أبهة الملوك ، ووضع التاج على رأسه ، وقام أبناء الملوك حوله سماطين عليهم أساور الذهب والقرطة والديباج ، فأذن للمغيرة ، فأخذ بضبعيه رجلان ، ومعه رمحه وسيفه فجعل يطعن برمحه فى بسطهم ، حتى انتهى إلى ذى الجناحين ، فقام ترجمان ، وكان أول ما كلم به ذو الجناحين المغيرة ما أنتم ؟ قال : نحن ناس من العرب ، كنا فى شقاء كبير شديد نمص الجلد والنوى من الجوع ونلبس الوبر والشعر ، ونعبد الشجر والحجر ، فبينا نحن كذلك إذ بعث رب السموات ورب الأرضين تعالى ذكره وجلت عظمته نبياً من أنفسنا ، نعرف أباه وأمه ، فأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده ، أو تؤدوا الجزية ، وأخبرنا نبينا ﷺ

عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة فى نعيم لم ير مثلها قط ، ومن بقى منا ملك رقابكم .

* * *

سبحان الله الواحد الأحد مالك الملك الذى أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء » .

لقد فتحت فارس ، فتحها الإيمان ، والعدل ، والحق ، وهداية الإسلام ، وذهبت الكسروية إلى غير رجعة ، وذهبت بذهابها عبادة العباد ، وعبد الله وحده ، وأصبحت الأمة الفارسية العقل المفكر للإسلام والمسلمين .

١٤ ــ الأنموذج الرابع عشر :

وروى الطبرى : أن عمرو بن العاص لما خرج إلى مصر استقبله اهلها فعاجلوه القتال فأرسل إليهم ، لا تعجلونا لنعذر إليكم ، وتروا رأيكم بعد ، فكفوا ، وأرسل إليهم عمرو : إنى بارز فليبرز إلى أبو مريم ، وأبومريام ، فأجابوه إلى ذلك ، وأمن بعضهم بعضاً ، فقال لهما عمرو ، أنتما راهبا هذه البلدةفاسمعا : إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأمر به ، وأمرنا محمد ﷺ وأدى إلينا كل الذى أمره به ، ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته ، وقد قضى الذى عليه ، وتركنا على الواضحة ، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس ، فنحن ندعوكم إلى الإسلام ، فمن أجابنا إليه فمثلنا ، ومن لم يجب عرضنا عليه الجزية ، وبذلنا له المنعة ، وقدأعلمنا أنا مفتتحوكم ، وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا فيكم ، وإن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمة وذمة ،

وبما عهد إلينا أميرنا استوصوا بالقبطيين خيراً، فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيراً لأن لهم رحماً وذمة .

١٥ — الأنموذج الخامس عشر:

وأخرج الطبراني في الوسيط عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى قوم يقاتلهم ، ثم بعث إليه رجلا فقال : (لا تدعه من خلفه وقل له : لا تقاتلهم حتى تدعوهم) .

وروى عبد الرزاق عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له : (لا تقاتل قوماً حتى تدعوهم) .

١٦ — الأنموذج السادس عشر :

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (ما قاتل رسول الله ﷺ قوماً حتى دعاهم) .

١٧ — الأنموذج السابع عشر:

وأخرج بن منده عن عبد الرحمن بن عائذ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث بعثاً قال لهم : (تألفوا الناس ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم ، فما على الأرض من أهل بيت مدر ولا وبر إلا تأتوني بهم مسلمين أحب إلى من أن تأتوني بنسائهم وأولادهم وتقتلوا رجالهم) .

١٨ — الأنموذج الثامن عشر :

روى الطبري عن زياد بن جزء الزبيدي قال : لما افتتحنا الإسكندرية في خلافة عمر رضي الله عنه أقمنا ننتظر كتابه حتى جاءنا ، فقرأه علينا

عمرو بن العاص فقال : أما بعد فإنه جاءنى كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن ترد عليه ما أصيب من سبايا أرضه ، ولعمرى : لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إلى من فىء يقسم ، ثم كأنه لم يكن ، فأعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية ، على أن تخيروا من فى أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومهم ، فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين ، وله ما لهم ، وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه ، وأما من تفرق فى سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإنا لا نقدر على ردهم ولا نحب أن نصالحه على أمر لا نفى له به .

فبعث عمرو بن العاص إلى صاحب الإسكندرية يعلمه الذى كتب به أمير المؤمنين ، فقال صاحب الإسكندرية : قد فعلت ، فجمعنا السبى ، واجتمعت النصارى فجعلنا نأتى بالرجل ممن فى أيدينا ثم نخيره بين الإسلام وبين النصرانية ، فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هى أشد من تكبيرنا حين نفتح القرية ثم نحوزه إلينا ، وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه إليهم ، ووضعنا عليه الجزية ، وجزعنا جزعاً شديداً من ذلك ، حتى كأنه رجل خرج منا إليهم فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم .

وقد أتى — فيمن أتينا بهم — بأبى مريم عبد الله بن عبد الرحمن نوقفناه فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية ، وأبوه وأمه وإخوته فى النصارى ، فاختار الإسلام فحزناه إلينا ووثب عليه أبوه وأمه واخوته

يجاذبوننا حتى شققوا ثيابه ، ثم هو اليوم قد أصبح عريفا وكان على بنى زبيد .

وهذه القصة تصور لوناً من ألوان سماحة الإسلام فى معاملة غير المسلمين فى وقت إعلان العداوة وأهمية القتال ، فقائد الفتح الإسلامى يماجله أعداؤه فيعذر إليهم ليبلغهم دعوة الإسلام ، ومنهج الإسلام فى عرضها وطريقة نشرها بين الناس ويريهم من رحمة الإسلام بهم خاصة — لما بينهم وبين المسلمين من رحم وذمة لم يبلها تقادم الأحقاب — ما يجعلهم يقدرون ذلك تقديراً يأخذ بهم إلى طلب المصالحة والمسالمة .

وتقف الإسكندرية موقفاً يقتضى نشوب قتال يقع فيه أسرى تحت يد المسلمين ويعرض صاحب الإسكندرية على قائد الفتح الإسلامى أنه يرغب فى رد أساراهم على أن يدفعوا عنهم الجزية ، وكان من حق قائد الفتح أن يقول له : لا ، لأن هؤلاء الأسرى كانوا نتيجة قتال كان الأعداء هم الذين أنشبوه، وكانوا بادئيه ، وعنهم انجلى هذا القتال الظالم الذى وقف منه المسلمون موقف الدفاع ، ولكن سماحة الإسلام ورحمته وروحه الإنسانى ، وشدة رغبته فى هداية الناس أبت عليه أن يقفل الباب فى وجه رغبة عاطفية لها تقديرها فى قلوب النبلاء الحنفاء من رجالات الإسلام ، فكتب قائد الفتح الإسلامى إلى أمير المؤمنين يستأمره فى أمر هؤلاء الأسرى ويعرض عليه رغبة صاحبهم فى مفاداتهم بالجزية ، وسرعان ما أجاب الخليفة رغبة صاحب الإسكندرية وكتب إلى قائد جيوش الإسلام بالموافقة على إجابة هذه الرغبة، ولكن بشرط أن يخير كل أسير — وهو فى كامل حريته و اختياره بين

الإسلام ، وبين النصرانية ، وبين قومه ما عدا الأسرى الذين ذهبت بهم الأيام فباعدت بينهم وبين إمكان ردهم ، وهم الذين تفرقوا فى بلاد الإسلام ، ويتعذر ردهم ، ويصور أمير المؤمنين هذا الموقف تصويراً يعبر عن نبل الإسلام وشدة حرصه على الوفاء بالعهد فيقول : إننا لا نحب أن نصالح على أمر لا نستطيع الوفاء به .

ويجرى تنفيذ الخطة المتفق عليها فى حفل حاشد ، يحشر فيه النصارى جماهيرهم من جانب ويجتمع له المسلمون من جانب آخر ، ويجرى التخيير بين الإسلام والنصرانية فيؤتى بالرجل من الأسرى ويعرض عليه الإسلام ليختار بينه وبين دين قومه .

وهنا تلتقط الحياة صورة رائعة لمقدار شدة حرص الإسلام والمسلمين على هداية الناس إلى الحق والهدى بدخولهم فى دين الإسلام ، مهما كان الثمن المقابل لذلك باهظاً فى قيمته المادية الدنيوية ، فإذا اختار الأسير الإسلام كبر المسلمون فرحاً وابتهاجاً تكبيرة تعبر عن إيمانهم بحب دينهم الحق ، وحبهم أن يكون هذا الدين ديناً للناس كلهم ، فدخول إنسان واحد فى الإسلام أغلى وأعظم عند المسلمين وأرجح ميزاناً من فتحهم بلداً عنوة يحوزونه بما فيه من غنائم ومتاع ودنيا .

وإذا اختار الأسير دين قومه وخرج من يد المسلمين إلى قومه فحازوه إليهم جزع المسلمون لذلك جزعاً شديداً ، حتى كأنه مسلم ارتد عن الإسلام ، وهذا أوجع شىء لقلب المسلم ، ولكن الوفاء وحرية العقيدة هما اللذان جعلا المسلمين يتحملون مرارة هذا الموقف بالصبر الجميل ، فهم لم يحاولوا إكراه أحد إلى حوزتهم ولا تجاذبوا أسيراً من الأسرى كما فعلت أسرة أبى مريم

حين اختار الإسلام ، وهو رجل له مكانته بين قومه لأنه راهب النصرانية فى بلدهم فقد تجاذبوه حتى شققوا ثيابه .

وذا هو أبو مريم ينهض به الإسلام فيفتح له طريق النهوض إلى آفاق التقدم الإنسانى بما فيه من مبدأ المساواة بين أهله فى الحقوق والواجبات ويصبح أبو مريم عريفاً لإحدى كبريات القبائل العربية التى شرفت بالفتح الإسلامى قبيلة زبيد ، والعرافة عند العرب وفى الإسلام منصب قيادى لا يناله إلا من كان أهلا له بعمله وسلوكه وأخلاقه .

١٩ — الأنموذج التاسع عشر :

وروى الطبرانى عن المسور بن مخرمة قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقال : (إن الله بعثنى رحمة للناس كافة ، فأدوا عنى — رحمكم الله — ولا تختلفوا على كما اختلف الحواريون على عيسى عليه السلام) .

٢٠ — الأنموذج المكمل للعشرين :

وروى الدارقطنى عن ابن عمر رضى الله عنه قال : دعا النبى ﷺ عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فقال له : (تجهز فإنى باعثك فى سرية) فخرج عبد الرحمن حتى لحق بأصحابه فسار حتى قدم دومة الجندل فدعاهم إلى الإسلام ثلاثة أيام ، فلما كان فى اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبى وكان نصرانياً وكان رأسهم ، فكتب عبد الرحمن إلى النبى ﷺ يخبره ، فكتب إليه النبى ﷺ : (أن تزوج بنت الأصبغ) فتزوجها عبد الرحمن ، وهى تماضر التى ولدت له بعد ذلك أبا سلمة بن عبد الرحمن ، أحد فقهاء الإسلام فى الصدر الأول .

٢١ - الأنموذج الحادى والعشرون :

وأخرج الطبرانى عن خالد بن سعيد قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال : (من لقيت من العرب فسمعت فيهم الأذان فلا تعرض لهم ومن لم تسمع فيهم الأذان فادعهم إلى الإسلام) .

* * *

فى هذا الإطار وضع الإسلام صورة (الجهاد) فى تشريعه وهى صورة تحمل فى خطوطها عنوان السماحة الإسلامية ولا سيما فى معاملة غير المسلمين، سواء منهم من عالن المسلمين بالعداوة ، وأعدوا أنفسهم لقتالهم ، وصد الدعوة إلى الله عن طريقها ، تمضى فيه إلى العقول والقلوب ووضع العقبات أمام نشرها ، أم الذين اعتزلوا المسلمين وكفوا أيديهم عن قتالهم ولم يظاهروا عليهم عدواً ، ووقفوا موقف السلم والمسالمة ، مع مخالفتهم لهم فى العقيدة لأن الإسلام لا يرى الإكراه فى الدين مذهباً لدعوته ، فهو لا يقسر أحداً على الإيمان به بالقوة المادية القاهرة ، ولا يجبر أحداً على اعتناقه بغير إقناع الحجة والبرهان ، ويترك للناس حرية الإرادة والاختيار .

بيد أن الإسلام لا يرضى إلا أن تفتح أمامه الطريق لبيان حقائقه ومعالمه وأصوله ودلائله ويعطى حقه فى الحرية كما أعطى غيره هذا الحق (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيى عن بينة) .

وعلى أساس هذا المنهج الذى رسمه النبى ﷺ - لتبليغ الدعوة إلى دين الإسلام ، وهو الدين الذى ختم الله به أديانه السماوية ، وارتضاه لعباده ديناً تصلح عليه حياتهم فى معاشهم ومعادهم - سار خلفاؤه الراشدون ، وأمراء

جيوشه وكتائبه وسرياه ، وولاة العدل من بعده ، وعلماء الأمة ، وجماهير المسلمين فى تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس كافة ، فآمن منهم من آمن ، وصولح من صولح ، وعوهد من عوهد فى ظل من الوفاء بالعهد ، وحفاظ على الذمة، كان المسلمون فيه وحدة إيمانية ، يجير أدناهم على أعلاهم ، وهم يد على من سواهم ، فى تكافل يقوم على المشاركة فى الإحساس والشعور والعواطف والتفكير والتعاون فى العمل .

وقاتل المسلمون من ناصبهم العداوة ، وأعد لقتالهم وقاتلهم ، وكان قتال المسلمين لأعدائهم عدلا ، يرد الاعتداء ، ويدفع الظلم والعدوان ، ويحمى سير الدعوة إلى الله ، فهم مأمورون أمراً جازماً بأن لا يتجاوزوا فى قتالهم حدود الدفاع عن أنفسهم وعن دعوتهم إلى الحق ، فلا يجوز لهم قتل من لم يكن أهلا للقتال من أعدائهم ، كالنساء والذرية والأجراء والرهبان والشيوخ الفانين ، والزمنى والضعفاء ، ونهوا عن الإفساد والعبث بأموال الأعداء .

ولقد كان هذا التطبيق العملى لمنهج (الجهاد) فى سير الدعوة على أيدى القائمين بأمر المسلمين فى مراحل التاريخ تفسيراً واضحاً وبياناً صادقاً لحكمة مشروعية (الجهاد) فى الإسلام باعتباره ديناً كلف المؤمنين به حمل راية الدعوة إلى الله ، لتكون كلمة الله هى العليا ويكون الدين كله لله ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويحررهم من عبودية المخلوقين إلى عبودية الخالق وحده ، ويطلق العقل الإنسانى من أغلال الجمود الوثنى بجميع أشكاله وصوره ليهتدى إلى التفكير الحر مستضيئاً بنور المعرفة ، متكشفاً حقائق الكون ، متعرفاً على ظواهر الطبيعة فى آيات الله التى أقامها دلائل على وحدانيته .

فاذا انحرف جاهل أو مغرور أو متعصب عن هذا المنهج القويم كائناً من كان ذلك المنحرف ملكاً ، أو أميراً ، أو حاكماً ، أو عالماً ، أو فرداً ، أو جماعة ، أمة وشعباً ، أو دولة وحكومة ، لم يكن انحرافه حجة على الإسلام فى تشريعه ، ويظلم به وينسب إليه ماهو برىء منه .

فلا يؤاخذ ولا يؤخذ إلا بتشريعه الذى ثبت فى أصوله الأصيلة وطبقه الراسخون فى فهمه وإدراك أهدافه ومقاصده .

وتشريع الإسلام بين متعالم ، لم يستخف فى متاهات الغموض والإبهام ، ولم يتستر فى ظلمات الجهالة ، ولكنه استعلن منذ وجد ، وأعلن عن نفسه فى نصوص أصوله الأصيلة فلم يشتبه فيه الحرام بالحلال ، ولا الطيب بالخبيث ، ولكنه أشرق بنور الحق ، فتبين فيه الرشد من الغى ، وطبق فى عدالة ورحمة ، أسرعت بالأمم والشعوب التى بلغتها دعوته إلى الانضواء تحت لوائه ، واعتنقته مؤمنة به وبمبادئه ، مما لم يعرف مثله لدين أو نظام تشريعى غيره فى تاريخ المجتمع البشرى .

فنى أقل من قرن من الزمان كان الإسلام ديناً لأكثر من مائتى مليون يدينون به ، تمتد أوطانهم من الشرق إلى الغرب فى أرجاء القارات الثلاث المعروفة على الأرض يومئذ ، آسيا ، وأفريقيا ، وأوربا ، وهذا بلا ريب إعجاز فى عمل الإيمان وأثره فى النفوس والعقول يرجع إلى مافى هذا الدين من سماحة ورحمة وإخاء ، ومساواة ، وعدالة ، حررت الإنسانية من ربقة الوثنية ، والجهالة والخوف ، والذل ، وأشعرت الإنسان بقيمة وجوده فى الحياة ، وحقه فى العيش الكريم ، فى عزة تدفعه إلى المشاركة الفعلية فى دفع عجلة الحياة إلى التقدم الفكرى والاجتماعى ، بأقصى

ما تستطيع الإنسانية بلوغه من الكمال البشرى المقدور لها فى هذه الحياة .

والإسلام لايقف فى دفع البشرية إلى هذا التقدم المادى والفكرى عند حد تعجز البشرية أن تتخطاه ، ولكنه يرى أن هذا التقدم وسيلة إلى تقدم آخر أجل وأعظم منه بما لايمكن أن يوضع معه فى ميزان أقصى ماتبلغه هذه البشرية من رقى حضارى وتقدم فكرى .

ذلك أن هذا الدين القيم يستهدف من دفع البشرية إلى التقدم الفكرى والرقى، فى السلوك العملى أن تتخذ منه معراجاً ، تعرج فى مدارجه إلى آفاق فسيحة المدى من الإشراق الروحى الذى لا يتناهى إلى غاية ، تعبر البشرية على سفائنه محيط هذه الحياة إلى حياة أخرى ، لاتعد معها هذه الحياة بكل مافيها من قوى مادية وفكرية إلا لوناً من عبث الطفولة اللاهية بلعبها : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » (١) .

ونحن لانقصد بهذا الحديث المعانى الخاصة التى تعارفها السادة الصوفية فى موازينهم للحياة الدنيا ، ومجاهداتهم العبادية فيها ، وظلفهم أنفسهم عن مقارفتها ،والازدحام على أبوابها والتنافس على نفائسها ؛ وإنما نقصد إلى المعنى العام الذى وجه إليه الإسلام البشرية كلها ؛ رجاء أن تستظل بظل الهداية لتصح وسيلتها إلى الغاية الكبرى التى خلقت لها ، وتستطيع بهذا التصحيح أن تصل إلى هدفها ، ولن تصح وسيلتها إلا إذا قامت اعمالها فى هذه الحياة على دعائم الهداية التى تصلها بمصدر الإبداع ، الله رب الملك والملكوت.

وهذا هو المقصد الأعظم من رسالة الإسلام .

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٤ .

بيان يكشف عن معنى آيات الأمر المطلق بالقتال

بيد أنه قد يتساءل متسائل : كيف تستقيم دعوى أن الإسلام دين عدالة بله دين سماحة ، ورحمة وإخاء ، ودستوره القرآن العظيم يقول : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد»(١)، ويقول : «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة»(٢) ويقول: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »(٣) .

فأين فى هذه الآيات اعتداء يدفع أو عدوان يرد ؟ وهى أوامر مطلقة بالقتال الهجومى ، ففى الآية الأولى تحريض شديد للمسلمين على الإيقاع بالمشركين ، وقتلهم ، وأخذهم أسرى إذا تمكنوا منهم ، وحصرهم بالحبس والتضييق عليهم فى حصونهم وقلاعهم ومعسكراتهم ، وإذا لجأوا إليها وتحصنوا بها وسد السبل فى وجوههم ، والترصد لهم ومراقبتهم لمعرفة أحوالهم وأخبارهم والقعود لهم بكل منفذ ومخرج حتى يدخلوا فى الإسلام ، أو يموت منهم من يموت ويؤسر منهم من يؤسر .

وفى الآية الثانية أمر عام لجميع المسلمين بقتال جميع المشركين لا يستثنى حالة أو جماعة ، وهذا إغراء للمسلمين بالتكتل لهذا القتال الذى ينصب لكافة

---

(١) سورة التوبة آية ٥ .

(٢) سورة التوبة آية ٣٦.

(٣) سورة التوبة آية ٢٩ .

أمم الأرض وشعوبها المخالفة للمسلمين فى عقيدة التوحيد ، وهو بعيد عن العدالة ، بله السماحة والرحمة والإخاء ؟

ومما يقوى الشبهة فى هاتين الآيتين أن النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى الحديث المتفق على ثبوته وصحته ، بل قيل بتواتره : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) .

فهل هذا إلا إكراه للناس بالقوة القاهرة على الدخول فى دين الإسلام والإيمان . بدعوته واعتناقه ؟ وهل هو إلا سلب للحرية الدينية وقضاء على حق الإنسان فى الاختيار ؟

وفى الآية الثالثة : أمر بقتال أهل الكتاب من اليهود والنصارى لأنهم لايؤمنون بالله ولايؤمنون باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق .

وقد جعلت هذه الآية لهذا القتال غاية تنتهى عندها ، تلك الغاية هى إعطاء الجزية عن يد فى صغار وذلة ؟

هذ التساؤل — وقد صورناه بأبلغ ما يمكن أن يصوره به أعداء الإسلام أو جاهلوه — فى وزن التفكير المستقيم غلط أومغالطة وكيفما يكن الأمر فإن إلقاء شىء من الضوء على معنى الآيات والحديث كفيل ببيان الحقيقة بياناً يكشف عن وجه الحق الغطاء فيصحح الغلط ويبدد المغالطة ، ويذهب بالجهالة .

ومرد الغلط أو المغالطة — وهذا يقع كثيراً فى فهم كثير من آيات القرآن لكثير ممن يتعرض لتفسير القرآن بغير علم بمهيع هذا الكتاب الحكيم فى طريقته وأسلوبه المعجز لأداء المعانى والحقائق إلى مدارك الناس وقلوبهم

أخذ الآيات أو بعضها مبتسراً من سياقها وجوها ومناسبتها وتقطيع الآية الواحدة إلى جمل يؤخذ منها بعضها مقطوعاً عن سابقه ولاحقه ، ولا شك أن هذا بعيد كل البعد عن التفكير المستقيم فى فهم آيات القرآن ، لأن معنى الآية أو الآيات الواردة فى حكم واحد . أو حادث واحد يجب أن يكون موصولا متماسك الأجزاء ، يأخذ لاحقه بحجز سابقه ويمهد أوله لآخره ، ويربط وسطه بين مباديه ونهايته ، فالآية وحدة فى المعنى مترابطة الجمل والأجزاء أكمل ترابط ، فأخذ بعضها فى جملة أو جمل ، والاستغناء بما تفيده هذه الجمل من معنى ، وجعلها حجة لهذا المعنى وحدة تفكيك لترابط معنى الآية أو الآيات ، وتمزيق للوحدة المعنوية التى هى أساس الاستدلال على المقصود منها .

فقول الله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد » .

هو بعض آية اقتطع من سابقه ولاحقه .

ونص الآية كما قال تبارك وتعالى : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) .

فقوله عز شأنه : (فاقتلوا المشركين) مبدوءاً بحرف (الفاء) وارد بعد جملة شرطية هو جوابها ، وارتباط الشرط بالجواب ، والجواب بالشرط فى المعنى بدهى التسليم ، لا يجادل فيه إلا غالط أو مغالط ، فقطع الجواب عن شرطه تفتيت للمعنى المقصود من الكلام ، بل هو

إبطال له وتضييع ، فلا بد إذاً من إبقاء الربط بين الجواب وشرطه ليتم فهم المعنى المقصود من الآية ، وهذا الربط ترتبى ، على معنى أن وقوع معنى جملة الجواب فى الخارج مترتب ترتباً توقيفياً على وقوع معنى جملة الشرط ، فلا بد لأجل فهم المعنى المقصود من الآية من إبقاء الجواب مرتبطاً بشرطه فى ترتبه الوقوعى عليه ، على معنى أن حصول مضمون الجواب ووقوعه فى الخارج مترتب على حصول ووقوع مضمون الشرط .

وهذا معنى قول أهل المعانى : إن حصول مضمون الجواب متوقف على حصول مضمون الشرط ، والشرط هنا هو انسلاخ الأشهر الحرم وتقضيها وانتهاؤها ، والجواب هو الأمر بقتل المشركين وأخذهم وحصرهم وإرصادهم ، وبمقتضى الربط الترتبى فى الوقوع بين الشرط والجواب لا يتوجه الأمر إلى المخاطبين بالآية — وهم المسلمون — بقتل المشركين وأخذهم وحصرهم والقعود لهم بكل مرقب إلا إذا انقضت الأشهر الحرم الذى هو مضمون الشرط وهذه الأشهر الحرم هى المذكورة فى قول الله تعالى: « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين »[1].

وهى مدة قصد بها إعطاء فرصة لأعداء الإسلام من المشركين الذين عاهدهم المسلمون فنقضوا العهد مراراً وخانوا الله ورسوله ، وقد بين القرآن أن هذه الخيانة دأبهم وأن نقض العهد والغدر ديدنهم فقال تعالى : « كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون »[2] .

---

(١) آيتان من أول سورة التوبة . (٢) سورة التوبة آية ٨ .

فهذا تعجيب من خبيث ما استبطنوه من فجور الغدر بالعهود والمواثيق ، وتيئيس من رجاوة الخير فيهم ، وأنهم قوم لا أمان لهم ، لو ظفروا بالمؤمنين لم يرعوا لهم عهداً ولا ذمة يقولون بألسنتهم — من معسول القول ليرضوا المؤمنين ويخدعوهم عن مكرهم — ما ترفضه عقولهم وأفئدتهم ، وتأباه قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون عن جواد الفضائل الخلقية خارجون على قوانين الرعاية والتذمم .

فهم فى حقيقتهم الخاصة مسخ لطبيعة الإنسانية العامة ، وجودهم سبة للعقل الإنسانى ، وحياتهم سرطان يفتك بكل إصلاح تتطلع إليه الإنسانية فى تهديها إلى الله إيماناً بوحدانيته ، فكان لا بد من استئصال شأفتهم حتى تتطهر الحياة من رجسهم ، فأمر الله عباده المؤمنين الذين استخلفهم فى الأرض لقيادة البشرية إلى كمالها المقدور أن يقوموا بقطع دابر هؤلاء المشركين الخائنين قياماً بحق حماية الدعوة إلى الله — لتكون كلمته هى العليا — من فجور العدوان الغادر ، وتأميناً لسيرها من غوائل المكر والخيانة فقال تعالى : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » الآية .

والعهود التى كانت بين المسلمين وأعدائهم من المشركين إما عهود مطلقة دون تحديد مدة معينة ، وإما عهود مؤقتة بوقت معين وأجل محدود ، والعهود المؤقتة إما مؤقتة بما دون الأشهر الأربعة أو بما هو أكثر منها ، فأصحاب العهود المطلقة عن تحديد مدة ، وأصحاب العهود المؤقتة بما دون أربعة أشهر أعطوا فرصة تفضل بها عليهم المسلمون لمدة أربعة أشهر يسيحون فيها أحراراً يتقلبون فى البلاد لمصالحهم وتجاراتهم ويتفكرون فى أمرهم ويأتمرون فيما بينهم ، ويتدارسون وهم بكامل حريتهم موقفهم من الإسلام ، وموقف الإسلام منهم .

وقد سمى الله تعالى هذه الأشهر ، التى مادهم بها المسلمون وفاءلهم مع غدرهم ، وجعلت حداً فاصلا لانقضاء أجل عهودهم — الأشهر الحرم ، أى التى حرم الله فيها على المسلمين التعرض لأعدائهم بقتال ، أو تعطيل مصلحة لهم ، أو أخذ شىء من أموالهم بغير حق ، أو منعهم من التجمع للتشاور فيما بينهم وتدبير أمرهم ، وهم فى هذه الأشهر الأربعة أحرار فيما يختارون لأنفسهم ، فهم إما أن يقبلوا الإسلام ويدخلوا فيه مؤمنين بدعوته وإما أن يستعدوا للمقاومة والصدام إذا لم يقبلوا دعوة الإسلام ؛ وأصروا على شركهم وعدائهم للمسلمين.

وهذا موقف من أنبل المواقف الإسلامية يصور سماحة الإسلام فى معاملة أعدائه تصويراً رائعاً فهو يعطى لأعدائه أعظم فرصة للنظر والتأمل والاستعداد، لايبالى أن يستعدوا لقتاله إذا لم يؤمنوا به فهو لا يأخذهم على غرة ولا يفاجئهم بالقوة ، بل ولا يعاملهم بمجرد العدل جزاء معاملتهم للمسلمين يوم أن كانت القوة والصولة بأيديهم وكانوا يسومون المسلمين سوء العذاب، يفتنونهم عن دينهم وينكلون بهم ليردوهم بعد إيمانهم كافرين .

وأما أصحاب العقود المؤقتة بمدة أكثر من الأشهر الأربعة فعهودهم قائمة إلى مدتهم يجب لهم الوفاء بها ، مهما تكن تلك المدة ، مالم يكونوا هم الناقضين للعهد بخرق شرط من شروطه أو بمظاهرة عدو للمسلمين وإعانته عليهم أو على حليف لهم ، كما أعانت قريش حلفاءها من بكر على حلفاء رسول الله ﷺ من خزاعة ، فنقضوا بذلك عهد الحديبية مما حمل رسول الله ﷺ على الاستعداد لقتالهم استجابة لمناشدة حلفائه وطلب نصره ، فتجهز لغزوهم ، وتم له فتح مكة بسبب هذا الغدر الذى تبطنه

أعداؤه ، وهذا كما قال تعالى : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم أن الله يحب المتقين »(١).

فإذا انتهت مدة العهد بانتهاء الأجل المضروب لها ، أو بانتهاء الأشهر الأربعة التى أطلق فيها المسلمون الحرية لأعدائهم ، وحرم الله عليهم فيها التعرض لهم لتكون لديهم الفرصة الوافية للتفكر والتدبر وتقليب الرأى ، وأصروا على شركهم ، وأقاموا على عداوتهم ، ولم يقبلوا دعوة الإسلام ، ولم يؤمنوا به تائبين من جريمة الشرك وإثمه ، لم يبق إلا القتال لأن هؤلاء الأعداء يكونون حينئذ مصرين على عدائهم ، مستعدين لخوض الحرب ضد الإسلام والمسلمين فكان عدلا مقسطاً أن يقاتلهم المسلمون ، وكان حقاً منصفاً أن يأخذوا عليهم أنفاسهم، ويسدوا عليهم منافذ الحياة ، وأن يتخذوا لكسب المعركة كل ما يمكن أن يؤدى إلى النصر والظفر بالأعداء ، مما ذكر الله من نماذج الوسائل التى تؤدى إلى الانتصار كالقتل والأسر والحصر والإرصاد لما لهذه الأمور من أثر قوى فى إضعاف شوكة الأعداء وتوهين قوتهم .

فالآية خاصة بمشركى العرب الذين كانت لهم مع المسلمين عهود فى حياة رسول الله ﷺ . ومنحوا مدة الشهور الأربعة لإنهاء عهودهم ونبذها لهم على سواء ، جاءت مبينة للمسلمين واجبهم إزاء أعداء خونة غدرة ، لا يرعون فى المؤمنين عهداً ولا ذمة ، بعد أن ألجئوا إلى القتال إلجاء .

وسوابق المشركين مع المسلمين فى نقض العهود والخيانة والغدر لا تدع

---

(١) سورة التوبة آية ٤ .

مجالا للإبقاء على هؤلاء الأعداء ، بعد أن أيأس الله من رجاء الخير فيهم فيجب استئصالهم حتى يطهر منهم مهد الإسلام ، ويكون الدين كله لله .

فالموقف موقف تصفية لعهود ومعاهدات ، تلاعب بها هؤلاء المشركون الفجرة ، فكان حتما من الأمر حسم هـــذا الموقف بما يصل به إلى نهاية عادلة .

فليس الأمر فى الآية أمراً مطلقاً بقتال مشركى الدنيا فى أرجاء الأرض لإكراههم على الإيمان بدعوة الإسلام واعتناق الإسلام ديناً يؤمنون به ، وإنما هو فى حقيقته أمر بقتال بقية مشركى العرب بعد فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجاً .

وظاهر من بيـان معنى الآية وتحليل الموقف — ورده إلى عناصره الأصيلة وتوضيح أسبابه الموجبة للأمر بالقتال فى الآية وربطها بسياقها وجوها الذى نزلت فيه — أن هذا القتال إنما كان دفاعاً عن النفس ورداً للاعتداء ، وحماية لقداسة العهود والمواثيق من العبث الغادر والخيانة العابثة ، وأن الآية نزلت فى قوم مخصوصين كانت معهم العهود فنقضوها وخاسوا بمواثيقها ، وفيها إنذار للمتربصين خلف هؤلاء المشركين الخائنين ، لإنهـاء حالة الحرب فى الجزيرة العربية ، ليتفرغ المسلمون ، وهم معتصمون بوحدة الدين والدم واللسان للقيام بالدعوة إلى الله ، وإقامة معالم الهـداية ونصب منائر العدل والرحمة والإخاء بين جميع الشعوب .

فإطلاق القول من بعض المفسرين بأن هذه الآية آية (السيف) توسع فى التعبير لم ينظر فيه إلى سياق الآية وجوها الذى نزلت فيـه وسـببها الذى يجب أن تقف عنده بمقتضى أداة العهد فى لفظ المشركين ، ولعل مقصودهم بآية السيف أنها لهؤلاء الغادرين الناقضين للعهود والمواثيق .

فالمشركون الذين أمر الله تعالى المؤمنين بقتلهم فى قوله عز شأنه : (فاقتلوا المشركين) هم المشركون المذكورون فى أول آية من سورة التوبة إذ يقول الله تعالى : (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) فهم الذين عاهدهم المسلمون فنقضوا العهد ، وخانوه وغدروا بذمتهم فكان الأمر بقتلهم ضرورة دفاعية ودرءاً للخيانة والغدر .

وإذا كان سباق الآية قد بين موردها ، وسياقها قد حدد المقصود منها ، فإنها لم تقف عند بيان الموقف فى حال العداوة ، ونشوب القتال لرد الاعتداء ، ولكنها ترغيباً فى السلام والمسالمة وحباً فى الهداية ، وبياناً لسماحة الإسلام ، تفتح باب المقاربة والمحاسنة والتآخى أمام أعداء الإسلام والمسلمين بالأمس ، رجاء أن يفيئوا إلى ظل الإيمان ، فيصبحوا أخوة المسلمين وأبناء الإسلام فى الغد ، مترابطين برباط الوحدة الإيمانية ، فتبين أن الإسلام لا يستهدف بقاء العداوة معهم ولكنه يريدهم له ولدعوته إخوة فى ظله لكافة المسلمين .

فما الأمر فى تحقيق هذه المؤاخاة إلا أن يتوبوا إلى بارئهم ويقلعوا عن شركهم ويؤمنوا بوحدانية خالقهم ، ويقيموا عمود هذا التوحيد ، ويعلنوا عنوانه التعبدى ، بإقامة الصلاة وعنوانه الاجتماعى فى التكافل الأخوى بأداء الزكاة ، وحينئذ يكونون إخوة للمسلمين ، لهم ما لهم من الحقوق وعليهم ما عليهم من الواجبات ، ويجب أن تفتح أمامهم سبل الخير والحرية الكاملة فى حياتهم الخاصة والعامة ويغفر لهم ما سلف من نزغات الشيطان بينهم وبين إخوتهم الذين سبقوهم بالإيمان ، والإسلام يجب ما قبله ، والغفران والرحمة من صفات الله تعالى ، والله يحب من عباده أن يتخلقوا بأخلاقه ولهذا ختمت الآية بعد تصفية الموقف بما يبعث فى النفوس روح

السماحة ودوافع الغفران والرحمة : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) .

وأما الآية الثانية : وهى قوله تعالى : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين) فسبيلها فى المعنى والغاية هو سبيل الآية الأولى من الآيات الثلاث (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) .

وإطلاق اسم آية على جملة من الآية : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) . فيه مسامحة فى التعبير ، لأن هذه الجملة بعض آية ، اقتطعت عن سابقها ولاحقها منها ، ونص الآية تامة هو قول الله تبارك وتعالى : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين » (١) .

فقول الله تعالى : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) كلام معطوف على قوله تعالى : (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) ، ولا يصح أن يكون مستأنفاً لأن الاستئناف يقطعه فى اللفظ والمعنى عن سابقه ، وإذا قطع عن سابقه لم تظهر له فائدة لمجيئه فى أفصح الكلام جزءاً من آية ، والآية القرآنية يجب أن يتوافر لجملها — إذا كانت عبارتها ذات جمل — نوع من التناسق البيانى والانسجام المعنوى ، يجعلها مترابطة فى وحدة بيانية ، يأخذ بعضها بحجز بعض ، بحيث يستدعى سابقها لاحقها ، فلا تشتت معانيها ولا تمزق وحدتها .

---

(١) سورة التوبة آية ٣٦ .

وقوله تعالى : (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) ، الذى عطف عليه قوله : (وقاتلوا المشركين كافة ،) مفرع بـ (الفاء) على قوله : (منها أربعة حرم ذلك الدين القيم) والتفريع يقتضى ترتباً تسببياً بين المفرع والمفرع عليه ، وهذا الترتب التسببى أعمق أثراً فى المعنى وأوثق ربطاً بين المفرع والمفرع عليه من مجرد الترتب الرتبى الذى يفيده العطف بالفاء لأن ترتب التفريع يفيد أن المفرع عليه منشأ للمفرع الذى يترتب عليه ترتب الناشىء وهذا يلمح إلى التسبب والعلية فى ربط المفرع بالمفرع عليه .

فنهى المؤمنين عن ظلم أنفسهم فى هذه الأشهر الحرم إنما جاء فى الآية لمكان المنة فيها عليهم ببيان أن الأشهر الحرم من عدة الشهور الحقيقية المكتوبة عند الله فى قضائه وحكمه الأزلى بعد أن عادت إلى مكانها الذى خصها الله به يوم خلق السموات والأرض ، ولم تبق من العدة المزورة على الناس التى زيفها ضلال الشرك ، وجهالة الجاهلية ، وبلادة الوثنية ، وظلم المشركين وافتراؤهم على الله الكذب فى التحليل والتحريم .

وقد ميز الله هـــذه الأشهر الأربعة على سائر شهور العدة الإلهية بوصفها الخاص الذى اصطفاها له بحكمته فجعلها أشهراً حرماً ، حرم فيها تحريماً خاصاً الخروج على طاعته واقتحام حرماته ومعاصيه تعظيما لهـا وتشريفاً لقدرها ، وجعل هذا التحريم الخاص دينه القيم الذى لا عوج فيه ولا التواء .

فلو لم يكن لهذه الأشهر الحرم هذا الامتياز الذى جعلها به الدين المستقيم لم يكن لتخصيصها بتفريع النهى عن ظلم النفس فائدة ، لكنها بهذا الامتياز صح تفريع النهى عن ظلم النفس فيهن عليها ، لتكون بعد التفريع

صالحة لعطف الأمر بقتال هؤلاء المشركين الذين أضلهم شيطان شركهم فحملهم على العبث بالأوضاع الإلهية بتغيير الشهور وأوصافها ، فكأنها ببيان مكانها الصحيح من العدة الإلهية للشهور وبوصفها الخاص سبب نهى المؤمنين عن ظلم أنفسهم فيهن كما يفعل المشركون بانتهاك حرمتها ، ذلك النهى الذى عطف عليه الأمر بقتال هؤلاء المفسدين فى الأرض بقوله :(وقاتلوا المشركين كافة) فكان بمقتضى العطف شريكا له فى السببية التى اقتضاها ترتب التفريع ، مما يجعل مجموع المعطوف والمعطوف عليه مسبباً على بيان مكان الشهور الحرم من العدة الإلهية ، ووصفها الخاص الذى جعلها الدين القيم عند الله فمن انتهك حرمتها بعد هذا البيان كان معتدياً على دين الله فيجب قتاله حتى يفىء إلى أمر الله .

وفى هذا التفريع والعطف زيادة معنى آخر بما فيه من التعريض بجهالة المشركين وضلالهم وافترائهم على الله الكذب بقبيح ما كانوا يفعلونه من التحليل والتحريم ، فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله زيادة فى الكفر والضلال وفجور الطغيان كما قال تعالى : « إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين »(١) .

وقد جاءت الآية كلها لبيان بعض أحوال المشركين من الضلال الاجتماعى فوق ضلال الكفر والشرك لتضع ذلك فى إزاء ما ذكر عن أهل الكتاب فى بعض ما ضاهئوا به المشركين الوثنيين من الضلال والفجور مما ذكر فى وصفهم من أنهم فوق كفرهم بالله واليوم الآخر

---

(١) سورة التوبة آية ٣٧ .

لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دينه الحق الذى جاءتهم به رسله، وأنهم يفتاتون على الله بالتحليل والتحريم كما يفعل إخوانهم المشركون الوثنيون .

وكان ذلك استطراداً فى وسط الحديث عن المشركين الذين بدأت به سورة التوبة ليشير إلى وشائج الضلال والفجور التى تجمع بينهم وتربطهم زيادة على وشيجة الكفر التى تؤاخى بينهم .

فالحديث من أول سورة التوبة عن المشركين وبيان سوء حالهم وخبيث كفرهم وطغيان فجورهم وديدنهم فى نقض العهود والمواثيق بالغدر والخيانة، وزج معهم أهل الكتاب فى وسط الحديث لتوافقهم وإياهم فى الكفر والغدر والخيانة وضلال التحليل والتحريم .

ثم رجع الحديث إلى أوله فى بيان سوء تصرفات هؤلاء المشركين الذين تكرر منهم نقض العهد ، والذين خانوا الله ورسوله مراراً ، والذين انطووا على عداوة الإسلام والمسلمين ، وأنهم لا يرقبون فيهم عهداً ولا ذمة ، وأنهم مع اليهود والمنافقين إلب على المسلمين ، يتقاتلونهم مجتمعين متآلفين ، لا يختلفون ولا يختلف منهم أحد ، فأمر المسلمون أن يقفوا منهم موقفاً مماثلا عادلا يقاتلونهم مجتمعين متآلفين ، لا يختلفون ولا يتقاعسون ، ولكنهم جرياً على سنة الإسلام فى إقامة موازين العدل مع أعدى الأعداء وجرياً مع التربية القرآنية لم يتركهم فى الله تعالى لمجرد التكافؤ فى القتال مجتمعين لهم ، بل نبههم إلى معتصم النصر ، وهو التقوى وعدم الاعتداء فقال لهم : (واعلموا أن الله مع المتقين) .

فالمشركون الذين أمر الله المسلمين بقتالهم مجتمعين فى هذه الآية هم

المشركون الذين تألبوا واجتمعوا لقتال المسلمين ، وهم الذين نقضوا عهودهم وغدروا بها وخانوا مواثيقهم ، وهم المشركون الذين كانوا يعتدون على حرمات الله ، ويغيرون أوضاعه الإلهية فى أوصاف الشهور ، فينقلون حرمة شهر إلى شهر آخر حلال ، ليقترفوا فيما أحلوه من الأشهر الحرم بأهوائهم الإثم والفجور وسفك الدماء ، ونهب الأموال ، وسلب الأعراض وانتهاك الحرمات .

فليست الآية عامة فى قتال جميع مشركى الأرض لمجرد شركهم ، وإنمـــا هو أمر بقتال المشركين الذين ثبتت عداوتهم للمسلمين ، وأنهم يتربصون بهم الدوائر ويؤلبون الأعداء لقتالهم ، فهو قتال دفاع ورد للاعتداء الواقع أو المتوقع ، ومقاومة للعدوان والظلم والعبث بمعالم الإسلام .

فـآية : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونـكم كافة) تتسق تمام الاتساق فى انسجام بيانى ومعنوى مع آية : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) .

والآيتان تصفية لموقف الإسلام فى جزيرة العرب من بقايا المشركين مع شراذم الأعراب الوثنيين الذين لا يعقلون معنى الإيمان بالله ورسوله والذين لم تـكن لهم عقيدة محترمة فى شرعة العقل السليم ، والذين كانوا يمثلون بوجودهم فى جزيرة العرب بقايا جيوب الأعداء المتربصين كما أخبر الله عنهم بقوله تعالى : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم»[1].

---

(١) سورة التوبة آية ٩٧ .

وهذا معناه أن هؤلاء الأعراب ، وهم بقـــايا الوثنية البليدة ، بلغوا من بلادة الذهن ، وجمود العقل ، وجفوة الطبع ، وصدأ الفطرة مبلغاً جعلهم بعيدين أشد البعد عن التفطن لمواقع الحجة والبرهان ، وأنهم بما فيهم من جفوة الجبلة فقدوا الشعور والإحساس الوجدانى الذى يحرك العواطف الإنسانية نحو فهم الحق وقبوله والإيمان به .

فليست لهم قلوب يفقهون بها حكمة الله فى بدائع صنعه ، وليست لهم عقول يدركون بها معالم الهداية ، وليست لهم بصائر تكشف لهم نور الإيمان ، وسواء عليهم أنذروا أم لم ينذروا ، وعظوا أم أهملوا أنهم لا يؤمنون لأنهم لا يفرقون بين الرشد والغى ، والهدى والضلال يعيشون لبطونهم وشهواتهم فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

فلا رجاء لفائدة من دعوتهم بالحجة والبرهان ولا أمل فى بارقة من خير ينتظر منهم فبقاؤهم فى حضيض الوثنية المهينة سبة لشرف الإنسانية وإهانة لكرامتها فلا بد من إخراجهم من ظلمات الجهل البليد ، ولا بد من إنقاذهم من حمأة الشرك المجهول وتطهيرهم من دنس الوثنية الضالة بحملهم على العلم والمعرفة حملا ، ونقلهم مما هم فيه من المهانة إلى ساحة المجتمع المستبصر الذى يأخذون عنه مسالك الإيمان والهداية .

ولا سيما أنهم كانوا يتربصون بالمؤمنين الدوائر ويتحينون الفرص للوثوب عليهم إذا تمكنوا من ذلك بأنفسهم أو بمظاهرة أعداء الإسلام على قتال المسلمين كما وصفهم الله تعالى بقوله : « ومن

الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم »(١) .

وهذا كله بعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وعم الإسلام أرجاء الجزيرة العربية وعلا صوته وقويت شوكته ، وانتشرت دعوته ، وعظمت قوته ، فلم يبق محروماً من هدايته فى بلاد العرب كلها إلا طوائف من أجلاف المبعثرين هنا وهناك ، فى سفوح الجبال ، وبطون الأودية ، ممن لم يفقه الإيمان ، ولم يكونوا مستعدين لا بعقولهم ولا بفطرهم أن يدركوا حدود ما أنزل الله على رسوله من شرائعه وأحكامه ، فهم كالأورام الخبيثة فى جسم الأمة يجب استئصالها ليصح الجسم وينهض بواجباته وتستقيم حركاته فى سبيل الدعوة إلى الله .

أما قول النبى ﷺ فى الحديث المتفق على صحته : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله) فهو من قبيل العام المخصوص من وجهين :

الوجه الأول : أن القتال لايقع على سبيل الجهاد المشروع إلا بعد الدعوة إلى الإسلام وبيان معالمه وأصول واجباته ، فإذا لم يجب المدعو إلى الإسلام بعد الإعذار إليه فى مرات فى أيام ثلاثة عرضت عليه الجزية فإذا لم يجب إلى الجزية نوبذ بالقتال، فالقتال لايكون فى منهج الدعوة إلى الله إلا فى المرتبة الثالثة من مراتب (جهاد القتال) ، فالتخصيص من هذا الوجه يجىء من جهتين ، الجزية وهذا أمر مجمع عليه ، ومنهج الدعوة قبل بدء القتال فليس فى الإسلام قتال هجومى مطلق .

---

(١) سورة التوبة آية ٩٨ .

والوجه الثانى : أن لفظ (الناس) فى الحديث عام أريد به خصوص ، إذ لايعقل أن يبقى على عمومه ، لأن النبى ﷺ لم يقاتل غير العرب الذين قاتلوه واليهود الذين خانوا عهوده ، ولما خرج إلى غزوة تبوك لم يشتبك مع الروم وصالح قوماً من العرب من أتباع الروم الذين كانوا على تخوم الشام، وكذلك صالح نصارى نجران على قبول الجزية منهم ، كما قبلها من أهل البحرين فلفظ (الناس) فى الحديث كلفظه فى قوله تعالى : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل »(1) قال المفسرون : إن القائل هو نعيم بن مسعود الأشجعى وقيل إن القائل قوم من الأعراب كانوا يقصدون المدينة المنورة للتجارة فلقيهم أبو سفيان بن حرب فطلب منهم أن يبلغوا رسول الله ﷺ وأصحابه أن أباسفيان قد جمع له ولأصحابه جموعاً لاقبل لهم بها، فلما أبلغوا رسول الله ﷺ ذلك وأصحابه فى جراحهم قالوا معتمدين على الله : (حسبنا الله ونعم الوكيل) وكذلك دخل التخصيص لفظ الناس فى قوله : (إن الناس قد جمعوا لكم) فإن الذين جمعوا للمؤمنين هم أبو سفيان وأصحابه ولاشك أن هؤلاء ليسوا عامة الناس .

وكيفما كانت الرواية فالتخصيص لازم فى لفظ الناس فى موضعيها من الآية ولاسبيل إلى بقائه على عمومه وكما فى قوله تعالى : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) أجمع المفسرون على تخصيص لفظ (الناس) فى هذه الآية ، قالوا : إن المراد به النبى ﷺ حسده اليهود على نبوته ،وحسدوا أصحابه على الإيمان به أو المراد به العرب ، حسدهم اليهود على نبوة محمد ﷺ ، فهو لفظ عام ، ولا بد من تخصيصه ومحال بقاؤه على العموم .

---

(1) سورة آل عمران آية ١٧٣ .

فكذلك لفظ (الناس) فى الحديث عام مخصوص ، والمخصوص بالأمر بقتاله حتى يدخل فى الإسلام هم مشركو العرب الذين قال كثير من أئمة الإسلام : إنهم خصوا بعدم قبول الجزية منهم لأنهم عقلوا الإسلام وتردد البيان والحجة عليهم فى صور كثيرة فلم يبق لهم عذر وقد أقبلوا عليه بعد جولاته معهم مؤمنين به ولم يبق بعيداً منهم عنه إلا شراذم الأعراب الذين قصدوا بالأمر فى آيتى التوبة بقتالهم ،فالحديث فى معنى الآيتين وسبيله سبيلهما .

* * *

وأما الآية الثالثة . وهى قوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) فهى آية وحيدة فى القرآن كله أفردت أهل الكتاب — اليهود والنصارى — بأمر المسلمين بقتالهم لأسباب معينة إلى غاية معينة ، وهى الآية الوحيدة فى القرآن كله التى ذكرت (الجزية) وهى من آخر آيات القرآن نزولا تبعاً لسورتها التى جاءت فيها وهى سورة التوبة فإنها آخر سورة نزلت كما يرويه البخارى فى صحيحه عن البراء بن مالك رضى الله عنه ، وقد نزلت بعد فتح مكة فى السنة التاسعة التى حج فيها بالناس أبو بكر الصديق رضى الله عنه وأرسل بها على بن أبى طالب مبلغاً عن رسول الله ﷺ ما فيها من أحكام العهود والمواثيق وتطهيراً للبيت الحرام من قبيح عادات الجاهلية استعداداً لحجة رسول الله ﷺ من العام القابل .

وقد كان لطائفتى أهل الكتاب — اليهود والنصارى — مواقف فى وجه الإسلام ودعوته منذ واجههم برسالته وكانت لهم مواقف مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين سجل القرآن العظيم كثيراً منها فى سورتى آل عمران والمائدة وغيرهما ، وفى تلك المواقف كشف القرآن عن طبيعة هؤلاء وهؤلاء .

فأما اليهود فقد صورهم القرآن الكريم تصويراً كشف عن مداخل نفوسهم وبخيث جبلتهم بما لم يعرف مثله لكتاب تعمق أغوار النفس البشرية فى أخبث نماذجها ، فصورها بمناقضاتها من الخير والشر ، ووضعها فى إطارها البشرى الخبيث شاهداً ومثلا مضروبا على المدى الذى تهبط إليه البشرية من حضيض الفجور النفسى .

فهم أخبث جرثومة البشرية وأفجرها غدراً وأغدرها خيانة ، وأكفرها كفراً ، عاهدهم رسول الله ﷺ أول ما نزل بالمدينة وكتب بينهم وبين المسلمين معاهدة على أن يكونوا معهم يداً واحدة على المشركين ، ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وأنهم أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، وأن بين المؤمنين واليهود النصر على من حاربهم ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم فخاسوا بعهدهم ونقضوا مواثيقهم ، وغدروا بذمة الله وذمة رسوله ، وفجروا فى غدرهم وخانوا الله ورسوله والمؤمنين فائتمروا برسول الله ﷺ إئتمارا دنيئاً ليغتالوه وهو فى محلتهم ودارهم ، وقد نزل بهم آمنا يثق فى عهدهم وذمتهم ، فكانوا أفجر لئام قوم وألأم فجار قوم ، ولما نجى الله رسوله ﷺ من كيدهم ، ولم يتح لهم أن ينالوا منه شيئاً ، ورد الله مكرهم فى نحورهم ، وعصم نبيه ﷺ ، وحفظه من شرهم وكيدهم وخيانتهم ، لجأوا إلى أخبث تدبير وراحـــوا يؤلبون عليه وعلى المؤمنين ، ويحزبون الأحزاب لقتاله وحربه ، ورضوا لأنفسهم بمظاهرة أهل الشرك والوثنية على عداوة أهل الإيمان والهداية ، ففضحهم الله وكشف عوارهم ، وسلط عليهم رسول الله ﷺ حتى جدع أنف الغرور منهم ، فأذلهم ونكل بهم ، وأوطأهم سنابك خيل الله وبدد شملهم ونكس رايتهم فأقاموا بشر مقام يبطنون عداوة وحقداً ، ويظهرون استسلاما ، واستكانة يطوون صدورهم

على الحسد الأسود ، والضغينة المتعطشة للدماء، يتربصون بالإسلام والمسلمين، ويمكرون والله خير الماكرين .

عبثوا بشرائع الله وبدلوا نعمة عليهم كفراً وأحلوا أنفسهم دار البوار، يحرفون الكلم من كتب الله عن مواضعه ، ويزيدون فيها وينقصون حسبما يمليه عليهم الحقد والحسد لرسول الله ولدينه ، فأنزل الله تعالى فى شأنهم وشأن إخوانهم المنافقين قوله تعالى : « يا أيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »(١).

وفى هذه الآية الكريمة تقوية لعزيمة رسول الله ﷺ ، حتى يمضى فى دعوته قدماً غير مبال بهؤلاء اليهود وتلاميذهم من أهل النفاق ، ولا يشغل نفسه بالتفكر فى تدبيرهم وكيدهم ، فإن مغبة ذلك إليهم ووباله عليهم ، وهم المكيدون .

وفيها تعزية لرسول الله ﷺ على ما يناله من الحزن بتكذيبهم إياه وهم يعلمون صدقه لأنهم قوم فجروا على ربهم ، فاستحلوا محارمه وأكلوا الرشى والسحت وهم أهل إفك وكذب ، وزور وبهتان يكذبون على الله ، ويحرفون كلمة من بعد أن وضعها مواضعها ويغيرون حدود الله وأحكامه ، ويبدلون أخباره وأوامره ، فلا أمل فيهم ولا رجاء فى إيمانهم ، وقد

(١) سورة المائدة آية ٤١ .

توعدوا أن يحل الله بهم خزيه ونكاله فى الدنيا وينزل بهم عقابه فى الآخرة .

وقد حذر الله المؤمنين من الركون إلى هؤلاء الأخابث من اليهود ، ونهاهم أشد النهى أن يتخذوا منهم بطانة وأعواناً على أعمالهم ، لأنهم لا يتركون فرصة للكيد لهم إلا ويسارعون إليها ، يجتهدون أشد الاجتهاد فى إيقاع المسلمين مواقع السوء والفتنة والاضطراب، ويحبون عنتهم ومشقتهم، أفعمت قلوبهم بالبغضة لهم حتى لم يستطيعوا إخفاءها والمسارة بها ، بل غلبت عليهم شدة حنقهم وحقدهم ، فنمت بها عليهم أفواههم ، والذى تخفى صدورهم من ذلك أكبر ، قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط »(١) .

ثم أعلن الله للمسلمين حال هؤلاء الأعداء الأخابث الذى لا ينفكون عنه ، ولا يريمون ليكون المؤمنون فى موقفهم معهم فى مدى الأزمان والأحوال على بصيرة من أمرهم فلا ينخدعوا بهم فقال تعالى مخاطباً رسول الله ﷺ : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين

---

(١) سورة آل عمران آيات ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠

أشركوا »(١) فسلكهم مع عبدة الأوثان فى سلك عداوتهم لأهل الإيمان ، وقدم ذكرهم فى اللفظ عليهم لبيان أنهم أخبث عداوة فهم ألد عداوة للمؤمنين من المشركين .

وأما النصارى فقد كفروا جهالة بالله عز شأنه وضلالة عن صراطه المستقيم ، أغلقوا منافذ عقولهم أن تدرك أن الله تعالى يخلق عبداً من عباده من أم بغير أب له كما خلق عبده ورسوله عيسى بن مريم كلمة الله وروحه، ألقاها بخلقه وإبداعه إلى الصديقة البتول مريم ابنة عمران عليهما السلام ، فضلوا وقالوا مرة : المسيح ابن الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً وقالوا مرة : هو الله أو ثالث ثلاثة ، وقد رد الله عليهم افتراءهم عليه ، وسجل عليهم الكفر به فقال : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم »(٢) ، وقال تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم »(٣) .

ولم يترك الله شبهتهم التى غامت على عقولهم ، فلم يهتدوا إلى الحق ، بل حاججهم حتى استأصلها من عقول من يتدبر فقال : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »(٤) وهم معترفون بأن آدم خلق من غير أب ولا أم ومعترفون بأن الله تعالى جعله أبا للبشر كلهم،

---

(١) سورة المائدة آية ٨٢ .

(٢) سورة المائدة آية ٧٢ .

(٣) سورة المائدة آية ٧٣ .

(٤) سورة آل عمران آية ٥٩ .

فخلق عبد من أم دون أب ليس بأعجب من خلق عبد من غير أب ولا أم بل هذا أعجب وأغرب .

ولما لم يسمحوا لعقولهم بالتفكير السليم فى هذا المنطق البين الذى حاجهم به القرآن أمر الله رسوله ﷺ أن يدعوهم إلى المباهلة ، فليحشروا أحب أحبائهم معهم ، وليأتوا مستعدين للتضرع إلى الله حتى ينصر أهل الحق ، ويكبت أهل الباطل ، ويطردهم بلعنته وغضبه من رحمته فقال تعالى: « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين »(١) وهذا منتهى النصفة والعدل لا يحجم عنه إلا من تولى معرضاً عن الحق ، ورضى بالكفر وعاند واستكبر عن قبول الحق ورضى بالجهل والضلال .

فلما أبوا ذلك — من منازل النصفة والمعدلة وكان إباؤهم اعترافاً منهم بأنهم لا يملكون العقل السليم الذى يفكر تفكيراً صحيحاً أو يملكونه ، ولكنهم عاجزون عن الاستجابة لتفكيره ولا يملكون القدرة على قبول الحق والجهر به — أمر الله رسوله ﷺ أن يدعوهم إلى لون آخر من المعدلة والنصف ينتهى بهم إلى أن يحاولوا التفكير فيما يعرض عليهم ليعرفوا ما ينفعهم ولا يضرهم ويروا فيه أنهم مدعوون إلى أمر يكونون فيه مع المسلمين الداعين لهم سواسية وهو أيسر عليهم من المباهلة التى تعرضهم إلى سخط الله ولعنته وطردهم من ساحة رحمته ، فقال لنبيه ﷺ : « قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به

---

(١) سورة آل عمران آية ٦١ .

شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»(١) .

فهذه دعوة إلى توحيد الله تعالى ، وإخلاص العبادة له وحده ، ونبذ الشرك بجميع صوره وأشكاله ، وهى دعوة إلى التحرر من الاستسلام المهين للرؤساء والملوك الأباطرة من قياصرة وأكاسرة واتخاذهم أرباباً من دون الله ، وهى دعوة إلى التحرر من متابعة الرهبان والأحبار والعلماء المضلين فى التحليل والتحريم دون سند من كتاب سماوى أو شريعة إلهية ، فلا يتلقى التحليل والتحريم وسائر الأحكام إلا من قبل الله تعالى ، فهو وحده الذى له حق التحريم والتحليل فإن تولوا بعد هذه الدعوة المنصفة وأعرضوا عن قبولها ، فلا تجادلوهم ، لأن جدلهم حينئذ يكون من جهتهم محض مراء ومكابرة ، بل سجلوا عليهم توليهم وإعراضهم ، وأشهدوهم على أنفسهم بالإعراض عن الحق ، وأشهدوهم لكم وعليكم بأنكم معتصمون بالإيمان ، متمسكون بالحق ، مقرون بوحدانية الله ، وأنه وحده الذى يعبد لا إله غيره وبذلك تسلمون وجوهكم لله رب العالمين .

وقد بين الله لهم بعد هذا الإعذار البالغ بأسلوب بالغ عسى أن يوقظ عقولهم من غفوة العناد الجاحد أنهم يكفرون بآيات الله ودلائله وحججه التى أقامها على صدق رسوله محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، وهم يعلمون صدقه بما ثبت عندهم فى كتبهم وشرائع أنبيائهم ، وبما يجدونه مكتوباً فيها من نعمته وخواص أوصافه ، وخصائص نبوته التى صدق بها أهل التقوى منهم ، فكتب الله لهم رحمته وأثنى عليهم بأنهم : « الذين يتبعون الرسول

---

(١) سورة آل عمران آية ٦٤ .

النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون »(١).

كما بين الله بالأسلوب نفسه ان الطائفتين من أهل الكتاب اليهود والنصارى يناصبون دين الله دين الإسلام — وهو سبيل الله إلى هداية خلقه — العداوة الحاقدة يفتنون من آمن به ليردوهم كافرين ويصدون الناس عن سبيله ويحولون بينهم وبين الإيمان به بإقامة العقبات وافتراء الكذب وقول الزور والبهتان ، يبغونه عوجاً وهم شهداء على أنفسهم بالكذب على رسلهم وكتبهم وشهداء على الله بصدق نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم فى دعوته إلى الله ، والله تعالى عليم بكفرهم وعليم بسوء أعمالهم وصدهم عن دين الله وعداوتهم الحاقدة لخاتم أنبيائه محمد ﷺ ، وأنه تعالى سيجازيهم فى الدنيا بتسليط المؤمنين عليهم وفى الآخرة بعقابه ونكاله ، قال تعالى : « قل يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل يأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون »(٢) .

وقد كرر الله هذا البيان بهذا الأسلوب التقريعى استقصاء لمواقف العداوة الحاقدة عند هؤلاء المعاندين الجاحدين ، وقد زاد البيان هنا أن

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٧ .

(٢) سورة آل عمران آيتا ٩٨ ، ٩٩ .

هؤلاء الجاحدين يودون لو يردون المؤمنين عن الهداية بالإسلام إلى الضلالة بالكفر ، وأنهم لخبثهم يخلطون الحق والإيمان بالباطل والكفر ليوقعوا المؤمنين فى الفتنة والاضطراب ، فهم يظهرون التصديق بنبوة محمد ﷺ ويضمرون الكفر تنفيذاً لمؤامرة غادرة حكاها الله عنهم وفضحهم بها فقال تعالى : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون . يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون . يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون . وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون »(١) .

وبعد هذا الإخبار عنهم بما اشتركوا فيه من عداوتهم للإسلام والمسلمين ، والكفر به والصد عن سبيله والعمل على فتنة أهله فرق الإسلام بين الطائفتين فجعل اليهود لخبثهم ، وسوء سلوكهم ، وفساد أخلاقهم ، واستحلالهم أكل أموال الناس بالباطل ، أعدى أعداء المؤمنين ، وجعل النصارى لما عندهم من عواطف المحاسنة فى السلوك الاجتماعى ، وعدم الغرور والاستكبار ، أقرب مودة إلى المؤمنين فقال تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون »(٢) .

وقد حاول الإسلام — على رغم هذه العداوة الحاقدة — مقاربة

---

(١) سورة آل عمران آيات ٦٩ — ٧٢ . (٢) سورة المائدة آية ٨٢ .

الطائفتين من أهل الكتاب اليهود والنصارى رجاء أن يفيئوا إلى معرفة الحق ، ويذعنوا لما عرفوا منه ، لجعل بينهم وبين أهله ضرباً من المعاشرة والخلطة الاجتماعية لم يجعله مع المشركين وسائر الوثنيين ، فهو إذ ينهى المسلمين عن مخالطة المشركين ، ويمنعهم من مناكحتهم وأكل ذبائحهم وغير ذلك من الأحكام ، يفتح باب المعاشرة مع أهل الكتاب من الطائفتين اليهود والنصارى ، فيبيح مخالطتهم اجتماعياً ويبيح أطعمتهم وذبائحهم وزواج نسائهم من المسلمين ، ويعطيهن من الحقوق الزوجية مثل حقوق المسلمات على سواء يقول الله جل شأنه : « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حـــل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين »(1) .

وهذا ضرب من سماحة الإسلام فى معاملة اهل الكتاب من اليهود والنصارى امتيازاً لهم على المشركين وعباد الأوثان ، واحتراماً لما بقى فى أيديهم من الكتب السماوية التى أنزلت إليهم على رسلهم ، فلم يفصم الإسلام الروابط بينهم وبين المسلمين ، ولكنه زادها قوة وصعدها حتى جعلها خلطة فى الدم والنسب والعواطف والنسل والذرية والمآكلة والمشاربة وسائر أمور المعاشرة الاجتماعية .

ولكن أهل الكتاب من الطائفتين لم يعرفوا لهذا الامتياز حقه عليهم ولم يقدروه قدره ، بل سلكوا مع المسلمين مسلك المشركين وعبدة الوثنية

---

(١) سورة المائدة آية ٥ .

فعادوهم معاداة حاقدة يتربصون بهم دوائر السوء ويتحينون للغدر بهم وخياناتهم كل فرصة تواتيهم .

وقد أخبر الله رسوله ﷺ بما طووا عليه جوانحهم من مستكنات الخيانة والغدر فقال يحذره من غوائل كيد اليهود ومكرهم ويبين له سوء ، أضمروا من نقضهم المواثيق وتحريفهم كلمات الله فى كتبه عن مواضعها الإلهية ، وتركهم ما ذكروا به مما أنزل عليهم فى التوراة : « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين »(١) .

كما حذر الله رسوله والمؤمنين من الذين قالوا إنا نصارى فلم يحافظوا على مضمون هذا القول ولكنهم كانوا كإخوانهم اليهود فى نقض العهود والمواثيق ، وتركهم حظاً عظيماً مما ذكرهم الله به فى إنجيلهم والتوراة قبله من البشارة بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم رسولا من عند الله إلى الناس كافة فقال جل ذكره : « ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون »(٢) .

وقد أنهى الله تعالى موقف الإسلام من المشركين وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقتال من يقاتله منهم ، أو من يتعرض لدعوته يصدها عن سيرها ، أو يعوقها بوضع العقبات فى طريقها من بعد أو قرب ، ثم خص مشركى العرب الذين كانت لهم عهود ومواثيق مع رسول الله

---

(١) سورة المائدة آية ١٣ .   (٢) سورة المائدة آية ١٤ .

صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، فنقضوها بإعطائهم فرصة للنظر لأنفسهم فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم وإن لجوا فى العناد والكفر بعد انقضاء مدتهم فلا بد من حسم الموقف معهم : (فاقتلوهم حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) .

وكان لا بد من إنهاء موقف الإسلام مع أهل الكتاب بعد كل ماقدمه إليهم من الرعاية والامتياز وكل ماقدموه له من الخيانة والغدر ، وما أقاموا عليه من العداوة والبغى ، ومامنحهم الرسول ﷺ من العفو عن جرائمهم ، والصفح عن خياناتهم ، فلم يبق إلا حسم الموقف معهم حسما يرفع عن كاهل الإسلام عبء مهادنتهم ، فأمر الله المؤمنين بقتالهم لأسباب بعضها يسلكهم مع عامة أهل الكفر مشركين ووثنيين ، وبعضها يزيدون به على المشركين ، فهم كما أخبر الله عنهم لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر إلا إيماناً زائفاً مزوراً على شرائع الله تعالى. وهم لايحرمون ماحرم الله ورسوله ، ولكنهم شتلاعبون بأهوائهم فى التحليل والتحريم ، وقد كانوا أحرياء إذ كانوا أهل يرائع سماوية وأحكام إلهية أن لا يفتاتوا على الله فى التحريم والتحليل ، وأن يدينوا دين الحق الذى جاءهم به رسلهم من عند الله ، وفيه وجوب الإقرار برسالة خاتم النبيين محمد ﷺ واتباعه ، وطاعة الله بطاعته فيما جاء به من الشرائع والأحكام، بمقتضى ماقامت به عليهم الحجة فقال تعالى:(قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) إلى آخر الآية ، وقد وصفهم بأربع صفات سلبية هى أساس عداوتهم المستأصلة فى نفوسهم الإسلام والمسلمين، وهى أساس وجوب معاملتهم بإخضاعهم لأحكام الإسلام فى داره وسلطانه لأن تركهم غير خاضعين لحكمه وسلطانه يفضى إلى تمكينهم من الغدر والخيانة .

وهما مغروستان فى جبلتهم، لا يستطيعون التخلى عنهما، ولا يريدون التخلى عنهما، وفى ذلك تمكين لهم من طعن المسلمين فى ظهورهم ، وهم مشغولون بمواجهة أعدائهم، ونشر دعوتهم إلى الله وإن لم يقدروا على إعـــلان الحرب عليهم.

ولقد حذر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ من خبث اليهود وطبيعتهم الخائنة الغادرة ، فأخبره أنه لايزال يرى منهم أفعال الخيانة والغدر على رغم إحسان معاملته إياهم وعفوه عنهم وصفحه عن جرائمهم.

وإن قدر أهل الكتاب على معالنة المسلمين بالحرب، وكان المسلمون قد تركوهم دون أن يخضعوهم لسلطان الإسلام وأحكامه، فقد مكنوهم من الاستعداد للحرب والقتال فيعود المسلمون إلى الاشتغال بهم ويقف سير الدعوة أو يضطر المسلمون إلى الحرب فى جبهات متعددة ولا شك أن ذلك يضعف الشوكة الإسلامية ويعطل سير الدعوة إلى الله .

وقد أرى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم هـــذا الموقف وتمثله صلى الله عليه وسلم بعد أن فرغ من جمع كلمة العرب على الإسلام، فنهد له صلى الله عليه وسلم فى أعظم جيش رآه الإسلام فى حياته ﷺ عدداً وقوة إيمان وإخلاص جهاد.

ذكر ابن سعد فى الطبقات : أن رسول الله ﷺ بلغه أن الروم جمعوا له واستعدوا لحربه، وانضم إليهم من عرب التخوم وأجلبوا معهم لحرب المسلمين لخم، وجذام وعاملة، وغسان وكان فى غسان ملك الشام ومنها ملوكهم، وكانوا حرباً على رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ بعث إليهم فيمن بعث يدعوهم إلى الإسلام، وكتب بذلك إلى ملكهم

الحارث بن أبى شمر ، وأرسل إليه بالكتاب مع شجاع بن وهب الأسدى قال : فانتهيت إليه وهو فى غوطة دمشق ، مشغولا بتهيئة النزل والإلطاف لقيصر وهو قادم من حمص إلى إيلياء ، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة وقلت لحاجبه : إنى رسول رسول الله ﷺ إليه . فقال : لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا ، وجعل حاجبه — وكان روميا — يسألنى عن رسول الله ﷺ وما يدعو إليه ، فيرق حتى يغلب عليه البكاء ، ويقول : إنى قرأت الإنجيل فأجد صفة هذا النبى بعينه ، فأنا أومن به وأصدقه ، وأخاف من الحارث أن يقتلنى ، قال شجاع : وكان هـــذا الحاجب يكرمنى ويحسن ضيافتى .

وخرج الحارث يوماً فجلس ووضع التاج على رأسه ، وأذن لى ، فدفعت إليه كتاب النبى ﷺ ، فقرأه ورمى به ، وقال من ينزع منى ملكى ؟ وقال : أنا سائر إليه على بالناس وأمر بالخيول أن تنعل ، ثم قال : أخبر صاحبك بما ترى ، وكتب إلى قيصر يخبره خبرى وما عزم عليه ، فكتب إليه قيصر : لا تسر إليه واله عنه ووافنى بإيلياء ، فلما جاءه جواب قيصر دعانى وقال : متى تريد الخروج ؟ فقلت غداً : فأمر لى بمائة مثقال ذهباً ، ووصلنى حاجبه بنفقة وكسوة وقال : اقرأ على رسول الله ﷺ منى السلام ، فقدمت على رسول الله ﷺ فأخبرته بخبر الحارث فقال : (باد ملكه) وأقرأته من حاجبه السلام وأخبرته بما قال . فقال رسول الله ﷺ : (صدق) .

وكان ذلك قبل فتح مكة فلما أتم الله نعمته على رسوله ﷺ بفتح البلد الحرام ، ونصره نصراً مؤزراً فى حنين وكان لقاؤه فيها مع غمرة من بقى

من العرب بعيداً عن حظيرة الإسلام ، كما نصره على أهل الطائف ، وترامت أخبارا نتصاراته إلى عرب التخوم ومن وراءهم من الروم تذامروا على حربه وجاءت الأخبار إلى رسول الله ﷺ بأن هرقل يستعد لحربه ، وأنه جهز جيشاً كثيفاً ، ومنح جنده رزق سنة ليتقووا على خوض حرب شاملة مع المسلمين ، وتحركت عساكر هرقل إلى البلقاء ، فعسكروا بها ، فندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج لهـذا الوجه وأعلمهم المكان الذى يريد — على غير عادته من قبل — ليتأهبوا ويستعدوا ، واستنفر أهل مكة وسائر قبائل العرب الذين أسلموا بعد الفتح ، وأمر الناس بالإنفاق والبذل فى سبيل الله ورغبهم فى الصدقة ، فسخت نفوسهم وجادوا وبذلوا من أموالهم ما لم يبذلوه من قبل ، وكان لأهل الغنى والثراء من وجوه المسلمين نفقات عظيمة احتسبوها لم ينفقوا مثلها قبل هـذا اليوم ، وكان عثمان بن عفان أعظمهم نفقة وحملانا ، فقد جاء بثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وعدتها ، وألف دينار ذهباً . ففرح النبى ﷺ فرحاً شديداً وقال لعثمان : (غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت ، وما أخفيت وما أبديت) ثم قال : ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم) .

وقد كانت هذه الغزوة فى أشد أوقات الضيق والشدة على المسلمين مما جعل الإنفاق فيها أعظم وأجل قدراً من الإنفاق فى غيرها .

يقول كعب بن مالك رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ قل ما كان يريد غزوة إلا ورى عنها بغيرها ، حتى كانت غزوة تبوك فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد استقبل فيها سفراً بعيداً وغزو عدو كثير فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم وأخبرهم بوجهه الذى يريده .

وبلغ من شدة حال المسلمين فى هذه الغزوة أن الله تعالى سماها (ساعة العسرة) يقول عبدالله بن محمد بن عقيل بن أبى طالب فى قوله تعالى . (الذين اتبعوه فى ساعة العسرة): خرجوا فى غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير واحد يعتقبونه بينهم ، وخرجوا فى حر شديد فأصابهم يوماً عطش شديد حتى جعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أفراثها ويشربون ماءها ، فكان ذلك عسر من الماء ، وعسرة من الظهر وعسرة من النفقة .

ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ وقد سئل عن ساعة العسرة ـ : خرجنا فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا به عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع من العطش ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله إن الله قد عودك فى الدعاء خيراً ، فادع لنا ، قال النبى ﷺ :(أتحب ذلك؟) قال أبو بكر : نعم ، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أظلت السماء ، ثم سكبت فملئوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازت العسكر .

ويقول الحسن البصرى : كان زادهم — فى هذه الغزوة — التمر المسوس ، والشعير المتغير ، والإهالة المنتنة ، وكان النفر يخرجون ما معهم : التمرات بينهم ، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب جرعة من ماء كذلك حتى تأتى على آخرهم فلا يبقى على التمرة إلا النواة ، فمضوا مع النبى ﷺ على صدقهم ويقينهم رضى الله عنهم .

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه وأبى سعيد رضى الله عنه قالا : كنا مع النبى ﷺ فى غزوة تبوك فأصاب الناس مجاعة

شديدة ، وقالوا . يا رسول الله لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادهنا ، فقال : (افعلوا) . فجاء عمر وقال : يا رسول الله إن فعلوا قل الظهر ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم فادع الله عليها بالبركة لعل الله أن يجعل فى ذلك ، قال : (نعم). ثم دعا بنطع فبسط ، ثم دعا بفضل الأزواد فجعل الرجل يجىء بكف ذرة ويجىء الآخر بكف تمر ، ويجىء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شىء يسير .

قال أبو هريرة : فحزرته فإذا هو قدر ربضة العنز ، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ثم قال : « خذوا فى أوعيتكم » فأخذوا فى أوعيتهم حتى والذى لا إله إلا هو ما بقى فى العسكر وعاء إلا ملأوه ، وأكل القوم حتى شبعوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة » .

وخرج رسول الله ﷺ إلى هذه الغزوة فى رجب سنة تسع ، وأقام بتبوك شعبان وأياماً من رمضان — كما يقول القرطبى — والمشهور أنه أقام بها عشرين يوماً يقصر فيها الصلاة وبث سراياه ، وصالح أقواماً على الجزية ، وكان فيمن صالح أهل إيلياء ، وجرباء وأذرح ، وكتب لهم بصلحهم كتاباً وكتب لصاحب إيلياء : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن روبة ، وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقاً يردونه من بحر أو بر » .

وقد كشف الله تعالى فى هذه الغزوة عن خبء المنافقين وفضح أسرارهم ، وأظهر خور نفوسهم ومهاناتهم ، فقد روى أن رهطاً منهم قد اجتمعوا فقال بعضهم لبعض إرجافاً وترهيباً للمؤمنين وتثبيطاً لعزائمهم ، وتوهيناً لقوتهم النفسية : أتحسبون أن قتال بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم لبعض ، والله لكأنا بكم غداً مقرنين فى الحبال ، فأخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بما قالوا ، فأرسل إليهم عمار بن ياسر ، وقال له : « أدرك القوم فإنهم احترقوا » فلما أتاهم عمار وأخبرهم بما تحدثوا به جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون . وقالوا كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم قوله تعالى : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب »(١) .

هذه الغزوة كانت توجيهاً عملياً من النبى صلى الله عليه وسلم لأمته لتبليغ دعوة الإسلام إلى الناس كافة قياماً بحق استخلاف هذه الأمة فى الأرض ، لتقيم عليها موازين العدل وتحرر العقول من الأغلال والجمود ، وتطلق النفوس من بلادة الوثنية أداء لحق خصيصتها فى قيادة البشرية إلى معارج الكمال المقدور لها باعتبارها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتبذل نفسها وما تملك يدها من عدة وعتاد فى سبيل إنقاذ البشرية من ضلال الجهل وظلماته إلى نور العلم وهداية الإيمان .

كما كانت هذه الغزوة العظمى إرهاصاً لفتح الشام وتحريرها من نير الروم وفساد عقائدهم ونشر راية التوحيد وهدايته ، وإرشاداً إلى

(١) سورة التوبة آية ٦٥ .

مراتب الجهاد السياسية ومراحل الدعوة إلى الحق الإلهى لتكون كلمة الله هى العليا استجابة لقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين »[١] .

والأمر فى هذه الآية مرتبط بالأوامر السابقة التى وردت بقتال من يعتدى على الدعوة إلى الإسلام ويصد الناس عنها ، فهو أمر لحماية الدعوة ، وتأمينها والدفاع عنها ، ورد الاعتداء على أهلها .

وفى هذا الأمر إرشاد خطة سياسية حكيمة فى توجيه الدعوة إلى طريقها حتى لا ينتشر أمر معارضتها ، وتتعدد جهات المقاومة لها بما يؤدى إلى تفرق جموع القوى الإسلامية فأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يحصروا مجال الدعوة ويوجهوها إلى الأدنى داراً إلى دار الإسلام والأقرب موطناً للمسلمين ، لتكون قوة المسلمين ، أقدر على الدفاع والانتصاف من أعدائهم وأعداء دعوتهم .

وقد اقتضى هذا الترتيب لمراحل الجهاد تبعاً للخطة السياسية التى أرشد الله إليها فى هذه الآية أن توجه الدعوة أول ما توجه إلى العرب لجمع كلمتهم وإعدادهم ليكونوا كتيبة الإسلام الحاملة لعبء الدعوة إلى الناس كافة .

كما اقتضت هذه الخطة أن تكون دعوة العرب إلى الإسلام متسقة مع روح الخطة وأهدافها فأمر الله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو أول ما يدعو أهل البلد الذى أشرقت من أفقه شمس الهداية الإسلامية ،

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٣ .

وأن يخصهم بالإنذار فقال تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها »(١) .

ثم تدرجت خطة الدعوة إلى تخصيص أقرب أهل هذا البلد نسباً إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة والإنذار ، ليكونوا عضداً له يشدون أزره ؛ ويدافعون عنه وعن دعوته فقال الله له : « وأنذر عشيرتك الأقربين » .

ثم وجه الله تعالى عزيمة نبيه صلى الله عليه وسلم إلى إنذار كافة العرب ودعوتهم إلى الإسلام بما أنزله من الآيات الآمرة بقتال كافة المشركين الذين يقاتلون المسلمين ويصدون الناس عن سبيل الدعوة إلى الله ، ويقفون فى طريقها ويعتدون على أهلها لينهى موقفهم من الإسلام ويحسم موقف الإسلام منهم ؛ وقد تم ذلك فى جولات انتهت إلى غايتها التى استهدفها الإسلام فى خطته السياسية البارعة ؛ وتدرجه بالدعوة من الأدنى إلى الأقصى ، ومن الأقرب إلى الأبعد ، لتمكين الداعين إلى الله من القيام بحق الدفاع عن الدعوة وحمايتها وتأمينها إذا عرض لها من يحاول تعويق سيرها .

ثم خص الله تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين خانوا الله ورسوله ، وأرادوا الغدر برسول الله ﷺ ، ونقضوا عهوده ومواثيقه التى واثقهم بها على المسالمة بعد أن بين له أنهم دائبون على ذلك لا يريمون عنه ولا يتحولون ، فأمره الله والمؤمنين بقتالهم رداً لعدوانهم وكفاً لاعتدائهم ، وقطعاً لدابر غدرهم وخياناتهم ، وتأميناً للدعوة وحماية لها من دسائسهم ومكرهم .

---

(١) سورة الأنعام آية ٩٢ .

ولم يرد الأمر بقتال أهل الكتاب إلا بعد أن استنفدت جميع أسباب المسالمة معهم فقد هادنهم النبي ﷺ، وعقد مع اليهود معاهدة سلام وتحالف أول قدومه المدينة المنورة ، وأبرم مع نصارى نجران عهد صلح نخان اليهود عهودهم و نقضوا مواثيقهم وحاولوا الغدر به وبأصحابه ، وظاهروا أعداءه من المشركين الوثنيين عليه ، وألبوا جموعهم ضـــده . وحزبوا الأحزاب وجيش نصارى الروم الجيوش لقتاله وترصدوا لدعوته ، فعفى عن هؤلاء وهؤلاء ، وصفح عن جرائمهم وصبر صبراً جميلا على أذيتهم ، وأساءوا إليه فأحسن إليهم ، ولاينهم متلطفاً وأصهر إليهم ، وأوصى بهم ، وجعل لهم ذمة لا تخفر إلا من قبلهم ، وتوعد بأشد العذاب من يظلمهم أو يسيء معاملتهم .

فتشريع قتالهم إنما جاء بعد مطاولتهم ومنحهم أكثر من فرصة ، ولم يجيء إلا فى آخر سورة من سور القرآن نزولا ، وقد مد لهم فى حبل الرجاء عسى أن يثوبوا إلى ما عرفوا من الحق فأبوا إلا عنـادا وكفراً حسداً من عند أنفسهم وبغياً على الله ورسله وكتبه ، فكان لا بد — جرياً على سنة الإسلام فى تشريع (جهاد القتال) من الأمر بقتالهم دفاعاً عن الحق الإلهى الذى غيروا معـــالمه فيما نزل عليهم ، وبدلوا نصوصه وحرفوا كلمه عن مواضعها ، ورداً لعدوانهم وتأميناً للدعوة إلى الله من طغيانهم وفتحاً لطريق سيرها وإزالة للعقبات التى يعوقونها بها وحماية لأهلها .

وقد كرم الإسلام أهل الكتاب ، وميزهم على جميع أهل الملل والعقائد المخالفة لعقيدة التوحيد التى هى محور دين (الإسلام) وهو دين جميع الأنبياء والمرسلين فخصهم بالنص فى آية الأمر بقتالهم على غاية سلبية ينتهى إليها هذا الأمر إذا لم يقبلوا دعوة الإسلام طائعين ، وأرادوا المسالمة فى ظل

البقاء على دينهم وعقائدهم فقال تعالى : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

وقد أخذ بظاهر هذا التخصيص كثير من أئمة الإسلام وقالوا : لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب : اليهود والنصارى تمييزاً لهم بما أوتوا من شرائع إلهية .

ولكن السنة الصحيحة دلت فعلا وقولا أن الجزية سنة إسلامية عامة لجميع أهل الملل والعقائد المخالفة لعقيدة الإسلام تحقيقاً لروح السماحة العامة فى تشريع الإسلام ، فقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من أهل البحرين وهم مشركون وثنيون كما قبلها صلى الله عليه وسلم من المجوس والصابئة وهم ليسوا أهل الكتاب .

والتعميم فى قبول الجزية إحلالا للسلام والمسالمة محل الحرب والمقاتلة من جميع أهل الملل المخالفة لملة الإسلام ، مذهب جمهور فقهاء الإسلام وأئمته استناداً إلى السنة العملية وهى أقوى دلالة ، وقد عضدتها السنة القولية بالنسبة للمجوس فى قوله صلى الله عليه وسلم : (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) قال علماؤنا : معناه أن المجوس يعاملون فى قبول الجزية معاملة أهل الكتاب ، وهذا يتضمن أنهم ليسوا أهل كتاب .

وعلى هذا العموم فإن خصيصة أهل الكتاب وميزتهم تبقى فى التنصيص على أن الأمر بقتالهم ينتهى بقبول الجزية منهم ، وأن غيرهم إنما قبلت الجزية منهم بنصوص السنة أو الحمل عليهم لاستوائهم وإياهم فى علة تشريع الجزية لهم .

وهذا ضرب من سماحة الإسلام فى أساس معاملة أهل الكتاب لم يجدوه فى شريعة من الشرائع أو عند أمة من الأمم التى خضعوا لسلطانها قبل الإسلام

كالبابليين بالنسبة لليهود ، فقد روى التاريخ فظائع الوقائع التى أوقعوها بهم على عهد جبارهم الطاغية (بختنصر) الذى خرب الديار اليهودية ، ونكل باليهود تنكيلا لم يشهد التاريخ له مثيلا ، والفراعنة الذين استعبدوا اليهود وساموهم الذل والهوان حتى استنقذهم الله منهم ببعثه موسى عليه السلام .

وكاليهود أنفسهم مع النصارى ، فقد اضطهدوهم اضطهاداً شنيعاً مذلا لم ينقذهم منه إلا الرومان بعد أن اعتنقوا النصرانية — فنكلوا باليهود وأذاقوهم العذاب الأليم .

وهكذا . وهكذا — يروى التاريخ فظائع القسوة التى عومل بها أهل الكتاب من اليهود والنصارى قبل الإسلام من سائر الأمم والشعوب التى خالطوها وخضعوا لسلطانها حتى جاء الإسلام فأنقذهم منها ، ودعاهم إلى كلمة سواء يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أربابا من دون الله ، فتولوا عنه وأعرضوا عن دعوته وأصروا واستكبروا استكباراً ، وبغوا أهل الفتنة وخانوا الله ورسوله ، ونقضوا العهود والمواثيق ، وعاشوا معه يكيدون له ويمكرون به فأمر بقتالهم بعد أن يئس من هدايتهم وخشى أن يطعنوه فى ظهره وهو مشغول بتبليغ دعوته ولكنه لم يسد فى وجوههم أبواب الرجوع إلى الهداية لقبول دعوته والإيمان برسالته التى هى رسالة أنبيائهم ورسلهم ، وسائر أنبياء الله ورسله فشرع لهم الجزية فى ميزان قتالهم وجعلها عدلا له ينتهى بقبولها أمره بقتالهم لتكون فرصة عملية لجو السلام والمسالمة والنظر الهادىء الرشيد .

الجزية في الإسلام
حقيقتها ـ وحكمتها

يحاول بعض من لم يتفقه فى الإسلام ، ولم يتعمق أهدافه ومقاصده أن يشوه حكمة مشروعية (الجزية) ويخرجها عن مهيع السماحة الإسلامية فى معاملة غـــير المسلمين وهى فى حقيقتها وحكمة مشروعيتها عنوان فى إطار (جهاد القتـال) على سماحة الإسلام ورفقه ، فهى نوع من الخراج شرعه الإسلام فى المرتبة الوسطى من مراتب الدعوة إلى الله .

فالمرتبة الأولى الدعوة إلى الدخول فى الإسلام ببيـان أصوله العقيدية والاجتماعية بياناً واضحاً يكشف عن وجه الحق فيه فى غير تعنت ولا تفاسف ، فإذا قبل المدعو ذلك كان له ما للمسلمين من حقوق فى الإسلام ، وعليه ما على المسلمين من الواجبات فى الإسلام ، وأصبح بدخوله فى الإسلام أخاً لجميع المسلمين يربطهم الإخاء الإيمانى الذى عقد الله أواصره ووثق عراه بين جميع أفراد وجماعات وأمم وشعوب المسلمين فى قوله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) فالمسلم أينما كان من أرض الله ، ومن أى جنس من أجناس البشرية ، وعلى أى لون خلقه الله تعالى ، وبأى لغة ينطق لسانه هو أخو المسلم أينما كان وكيفما كان فى ظل العقيدة الإسلامية .

وإذا لم يقبل المدعو إلى دعوة الإسلام الدخول فى هذا الدين عرضت عليه (الجزية) وهى جزء قليل من المال يفرض على الأشخاص الذين هم أهل القتـال من الرجال الأحرار البالغين القادرين ، وهى المرتبة الثانيـة من

مراتب (جهاد القتال) فإن أبى المدعو قبول (الجزية) بعد إبائه الدخول فى الإسلام أوذن بالقتال ليكون على بصيرة من أمره .

فالجزية خراج يقبل من جميع من عبد غير الله ، أو جحد دين الله ، أو كذب بآيات الله ، وفى مقابلها تصان لدافعها حريته الدينية والاجتماعية .

ومقدار (الجزية) ما جاء فى حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه أن النبى ﷺ بعثه إلى اليمن وأمره أن يأخذ من كل حالم — أى بالغ مبلغ الرجال — ديناراً لسنة كاملة ، وإن صولحوا على شىء معين قبل منهم ما صولحوا عليه قل أو كثر ويخفف عن ضعفائهم ويؤخذ من فقرائهم ما يحتملون ولو درهماً .

قال القرطبى : قال علماؤنا : والذى دل عليه القرآن أن الجزية تؤخذ من الرجال المقاتلين وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين وهم الذين يقاتلون دون النساء والذرية والعبيد والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيخ الفانى والرهبان . وإذا أعطى أهل الجزية الجزية لم يؤخذ منهم شىء من ثمارهم ولا تجارتهم ولا زروعهم ، إلا أن يتجروا فى غير بلادهم التى صولحوا عليها ، فإن خرجوا إلى غيرها أخذ منهم العشر مرة واحدة فى السنة ولو تعدد خروجهم وكثر ربحهم .

وإذا أدى أهل الجزية جزيتهم خلى بينهم وبين أموالهم كلها وبين كرومهم وعصرها خمراً دون أن يعلنوها على المسلمين ، وإن أراق مسلم خمرهم دون إعلان لها منهم معتدياً ووجب عليه ضمان ما أتلف ولو غصبها منهم ووجب عليه ردها .

ولا يعترض لهم فى أحكامهم ولا متاجراتهم فيما بينهم بالربا ويؤخذ

من قويهم لضعيفهم لأنه من باب الدفع عنهم ، وعلى الإمام أن تقاتل عنهم عدوهم ويستعين بهم فى قتالهم وإن خرجوا متظلمين نظر فى أمرهم وردوا إلى الذمة ، وأنصفوا من ظالمهم (اهـ).

هذا كلام جامع فى بيان الآثار الحميدة التى تعود بالخير على من صولح على أداء (الجزية) يحتاج من الناظر فى هذا البحث أن يردد النظر فيه مرات ومرات ، ليقف على مقدار ما فى تشريع الجزية من عدالة ونصفة ، بل ما فيه من سماحة ورحمة .

فالإسلام يترك لأهل الجزية إذا أعطوا الجزية عن طواعية واختيار أوسع وأكمل ما يتصور من الحرية فى الحياة الدينية والاجتماعية ، فلا يرضى لمسلم أن يتعرض لهم فيما يرونه من أموالهم ولو كان هذا المال محرماً فى الإسلام ، بل إن الإسلام يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيضمن من أتلف شيئاً من أموالهم ما أتلفه ولو لم يكن ذلك المتلف متمولا فى نظر الإسلام كالخمر فقد أباح لهم عصرها وتداولها فيما بينهم غير معلنة على المسلمين ، فلو أراقها مسلم اعتبر معتدياً عليهم ووجب عليه ضمان ما أتلفه،ولو غصب مسلم من مالهم شيئاً وجب عليه رده ، ولو كان ذلك المغصوب غير معتبرة ماليته فى نظر الإسلام .

كما ترك لهم الإسلام فى ظل الجزية منتهى الحرية فى متاجراتهم مع بعضهم ولو بما حرمه الإسلام كالربا ، وأوجب الإسلام على المسلمين أن يدافعوا عن أهل الجزية ماوفوا بذمتهم إذا اعتدى عليهم عدو لهم، ويستعين بهم فى قتال عدوهم ، ويجب على إمام المسلمين أن ينصفهم ممن يظلمهم وفاء لهم بذمتهم .

وهذا كله وغيره من الأحكام والمعانى منطو تحت ظلال حكمة مشروعية (الجزية) فقد أورد المفسرون وأئمة السنة النبوية والفقهاء فى حكمة التشريع لمشروعيتها أموراً ، ذهب إلى كل أمر منها ذاهب منهم ، فقال فريق : إن الجزية شرعت لحقن دم المصالح عليها وإقراره فى سكنى دار الإسلام .

وقال فريق آخر : إن الجزية شرعت جزاء لحماية المصالحين عليها والدفاع عنهم دون أن يكلفوا التجنيد لقتال أعداء الإسلام مع المسلمين .

وقال غير هؤلاء وهؤلاء : إنها شرعت جزاء إعطائهم حقوق المسلمين ومساواتهم بأنفسهم فى حرية النفس والمال والعرض والدين .

وهذه الأمور كلها فى حقيقتها ترجع مجتمعة إلى أمر واحد مؤلف من عناصر مؤتلفة تكون حكمة مشروعية (الجزية) فى الإسلام ولا مقتضى للاقتصار على بعضها لأنه لا تنافى بينها وكلها يقصدها الإسلام فى حكمة تشريعه ، بل إن القول ببعض هذه الأمور يقتضى ضرورة حصول الأمور الأخرى بحصوله .

فحكمة مشروعية (الجزية) الجامعة التى تحقق سماحة الإسلام ومقاصد دعوته هى تأمين أهل الجزية على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وحريتهم فى أداء شعائر دينهم والدفاع عنهم إذا اعتدى عليهم عدو لهم ، وهذا يقتضى حقن دمائهم وإقرارهم على سكنى دار الإسلام أحراراً فى حدود ما صولحوا عليه .

وقد ذكرنا فيما سبق أن عقد الجزية فرصة سياسية أتاحها الإسلام لأهل الجزية للنظر والتدبر ليعرفوا من المسلمين وهم يخالطونهم فى دار الإسلام آداب الإسلام السلوكية وأخلاقه العملية وسماحته فى مبادئه وتشريعاته

وعدالة أحكامه وتراحم أهله وتعاونهم على البر والتقوى ، إذا كان المسلمون على بينة من فهم الإسلام روحاً ونصاً ، وكانوا قائمين بتطبيقه فى حياتهم.

وبينا وفاء المسلمين وأمرائهم لأهل الذمة وأهل صلح الجزية بذمتهم وعهود صلحهم ، وأن أمراء الأجناد وقادة الجيوش الإسلامية قد نصوا فى عهودهم على وجوب الدفاع عن المصالحين على الجزية ورد الاعتداء عنهم ، فإذا عجز المسلمون عن الوفاء لهم بذلك ردوا عليهم ما كانوا أخذوه منهم ، وقد نفذوا لهم التزامهم وردوا عليهم ما أخذوه منهم من الجزى حينما حشد الروم لقتال المسلمين أضخم قوة حربية شغلت المسلمين عن الوفاء بشرطهم وقالوا لهم : نحن على شرطنا لكم إن نصرنا الله ورجعنا إليكم .

وقد كان هذا الوفاء باعثاً على دخول كثير من المعاهدين على الجزية فى الإسلام ودافعاً للذين لم يسلموا على مساعدة المسلمين فى حرب أعدائهم مع أنهم كانوا على دينهم ، ولكن عدل المسلمين ووفاءهم وحسن سيرتهم فى معاملتهم ملأ قلوب المعاهدين حباً لهم ورضاً بحكمهم .

يقول الإمام مكحول : إن أهل الذمة لما رأوا وفاء المسلمين لهم وحسن سيرتهم فيهم صاروا أشداء على أعداء المسلمين ، وعيوناً للمسلمين على أعدائهم .

ويروى البلاذرى عن سعيد بن عبد العزيز قال : بلغنى أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا لهم : لقد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم

أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم .

بل إن تاريخ الجهاد فى الإسلام يروى ما هو أعمق وأدخل فى سماحة الإسلام فى معاملة أهل الذمة وأهل الصلح من المعاهدين على الجزية ، فقد ذكر المؤرخون فى تسجيل حوادث الفتوحات الإسلامية أن أمراء المسلمين استعانوا بأهل الذمة وأهل الجزية فى قتال أعدائهم وجعلوهم جنداً فى جيوشهم ومنحوهم ثقتهم فى أخطر المواقف .

روى الطبرى : أن سويد بن مقرن ـ أحد قواد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ كتب لعهد لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان كتاباً جاء فيه : إن لكم الذمة وعلينا المنعة ، على أن عليكم من الجزاء فى كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم ، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه فى معونته عوضاً عن جزائه ، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ، ولا يغير شىء من ذلك هو إليهم ما أدوا وأرشدوا ابن السبيل ونصحوا ولم يبد منهم سل ولا غل . من أقام منهم فله مثل مالهم، ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه .

وروى الطبرى ـ أيضاً ـ أن عقبة بن فرقد عامل عمر رضى الله عنه كتب لأهل أذربيجان كتابا جاء فيه : إن لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ليس على صبى ، ولا امرأة ولا زمن ليس فى يده من الدنيا شىء ، لهم ذلك ولمن سكن معهم ، ومن حشر منهم ـ أى جند فى جيش المسلمين ـ فى سنة وضع عنه جزاء تلك السنة ومن

أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك ، ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه .

وروى الطبرى - أيضاً - أن سراقة بن عمرو رضى الله عنه عامل عمر كتب لسكان أرمينية والأرمن كتاباً جاء فيه : إنه أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وملتهم أن لا يضاروا ولا ينتقضوا ، وعلى أهل أرمينية والأبواب الطراء والتناء - أى الطارئين والمقيمين - ومن حولهم ودخل معهم أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحا على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلى الحشر ، والحشر عوض من جزائهم ومن استغنى عنه منهم ، وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء فإن حشروا وضع ذلك عنهم ، وإن تركوا أخذوا به .

وذكر الطبرى أن الأحنف بن قيس كتب إلى مرزبان مروالروذ كتابا جاء فيه: قد عرضت أمرك على من معى من المسلمين وأنا وهم فيما عليك سواء ، وإن عليك نصرة المسلمين وقتال عدوهم بمن معك من الأساورة إن أحب المسلمون ذلك وأرادوه وإن لك على ذلك نصرة المسلمين على من يقاتل من ورائك من أهل ملتك وإن أنت أسلمت واتبعت الرسول كان لك من المسلمين العطاء والمنزلة والرزق وأنت أخوهم .

وقد يتساءل متسائل : إذا كانت الجزية فى وضعها من التشريع الإسلامى بهذه الصورة الكريمة التى تصور سماحة الإسلام فى معاملة من يصالحون عليها إلى درجة أنهم يشاركون المسلمين فى قتال أعدائهم فتسقط عنهم الجزية بهذه المشاركة التى تقوم على الثقة المتبادلة وتبقى لهم بعد ذلك سائر امتيازاتهم فكيف جاءت آيتها المشرعة لها فى القرآن الكريم بهذا الأسلوب المحفوف بالإذلال

وسلب الحرية كما فهمها بعض الفقهاء ، وبنوا على فهمهم كثير من الصور والتفاريع فى أحكام معاملة أهل الجزية ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل كان يكفى أن نحيل على ما سقناه من بيان تشريعى تاريخى وضع الجزية فى موضعها من إطار التشريع الإسلامى وهو موضع أضفى عليها ظلال السماحة الكريمة والعدالة الرحيمة .

ولكن يظهر أن بعض الباحثين من ذوى الأهواء حاول أن يستغل بعض الانحراف الذى طرأ على المبادئ الإسلامية السمحة فى التطبيق العملى على أيدى بعض الولاة الذين لم يفقهوا سماحة الإسلام فى عصور الركود الفكرى الذى استولى على المجتمع الإسلامى ، حتى ألقى عليه فى حياته الاجتماعية وفى تطبيقه لمبادئ الإسلام ظلالا سوداء سادها الجهل بحقيقة الإسلام العليا وأهدافه العظمى ، مما حمل مفسرى هذه العصور الراكدة على التشبث بحرفية الألفاظ ، والتعلق ببعض مدلولاتها اللغوية فى فهم آية الجزية ، ولو كان ذلك المدلول بعيداً عن روح الإسلام فى بيان دستوره وأسلوبه وأهدافه التى يقصد إليها قبل كل شىء وهى الهداية التى يجب أن تسود حياة الناس وتدخل إلى قلوبهم وتؤمن بها عقولهم .

وعلى هذا الأساس يتبين أن ما جاء خاصاً بالجزية فى الآية الكريمة متسق أتم اتساق مع البيان الذى أوضحنا به حكمة تشريعها .

فقول الله تعالى : (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) بين فى أن الجزية لا يطالب بها إلا من كان قادراً على أدائها ، فلا تؤخذ من فقير لا يملك أو ضعيف لا يقدر ، ولا تؤخذ ممن ليس أهلا لأن يقاتل ، وإنما تؤخذ من كل ذى قدرة على أدائها طيبة بها نفسه طائعاً مختاراً ، يستطيع أن يقول : لا أو نعم فلا يعقد عقدها بكره وجبرية ، وإنما أساسها الاختيار والحرية .

أما الضعفاء والعاجزون عنها فالإسلام قد عفى عنهم ولم يفرضها عليهم مع تمتعهم بامتيازات الصلح مع قومهم إمعاناً فى السماحة والرحمة ، بل لو افتقر أحد المعاهدين على الجزية بعد غنى وعجز بعد قدرة أسقطت عنه وعيل وعياله من بيت مال المسلمين .

فاليد فى الآية معناها المقصود هو القدرة على الأداء والتمكن منه،والصغار فى الآية معناه المقصود هو الرضا بحكم الإسلام والدخول تحته والتسليم له حتى يأمن المسلمون غائلة الطعن فى ظهورهم ، إذا شغلوا بقتال أعدائهم .

وتفسير (اليد) بالقدرة والتمكن تفسير لغوى وشرعى ، فقد نقل الإمام ابن حجر فى شرحه لصحيح البخارى عن أبى عبيدة — وهو من أئمة اللغة — قوله فى كتاب المجاز وقوله : عن يد : أى طيب نفس ، وكل من أطاع لقاهر عن طيب نفس من يده فقد أعطاه عن يد .

وقوله تعالى : (وهم صاغرون) بين فى أن الجزية لاتقبل إلا ممن قبل حكم الإسلام راضياً وترك عداوته راغماً ، وألقى إلى المسلمين السلم ظاهراً وباطناً ، ورضى بالمصالحة حراً مختاراً ، وأذعن عن رضى بالإقرار فى دار الإسلام مسالماً ، ولهذا قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : المراد بالصغار الرضا بحكم الإسلام ، قال الماوردى فى الأحكام السلطانية ، فى تأويل قوله: (وهم صاغرون) أن يجرى عليهم أحكام الإسلام »

فمعنى الآية الذى تمليه سماحة الإسلام وهدايته أن الله تعالى يأمر عباده المؤمنين بقتال هؤلاء الذى استوجبوا القتال بأعمالهم وأوصافهم حتى يعطى رجالهم القادرون الجزية عن سعة وقدرة على آدائها ، وطيب نفس بعقدها، وإعطائها ، وحتى يقبل جميعهم التزام حكم الإسلام فى معالمه وواجباته

وسائر شرائعه وآدابه ، قال الماوردى فيجب : على كل ولى أمر أن يضع الجزية على رقاب من دخل فى الذمة من أهل الكتاب ليقروا بها فى دار الإسلام ، ويلتزم لهم ببذلها بحقين : أحدهما الكف عنهم ، والثانى الحماية لهم ، ليكونوا بالكف عنهم آمنين ، وبالحماية محروسين . تحقيقاً لقول النبى ﷺ فى حديث ابن عمر قال : كان آخر ما تكلم به النبى ﷺ أن قال : (احفظونى فى ذمتى) .

إجمال تصويرى لإطار الجهاد فى الإسلام

هذه هى صورة (الجهاد) فى حقيقته الإسلامية ، ومراحله التاريخية الصحيحة ومراتبه التى شرعها الإسلام، لتدعيم دعوته بالبيان الواضح، والحجة البالغة ، وللدفاع عنها إذا غلقت نوافذ القلوب والعقول دون نفاذ هذا البيان إليها ووضع أعداؤها العقبات والحواجز الظالمة فى طريقها ، ولمقاومة الظلم ، ورد الاعتداء ، وتقليم أظافر الطغيان الوثنى ، وعنجهية الاستبداد وكسر قناة الشرك ، وتوطيد دعائم التوحيد ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور وتحريرهم من عبودية المخلوقين إلى عبادة الخالق وحده . وهو الحق الإلهى الذى كلفت الأمة الإسلامية القيام بالدعوة إليه .

(فجهاد القتال) إنما شرع فى الإسلام — بعد بذل الجهد فى البيان الواضح وبسط الحجة البالغة مع الصبر الجميل والمصابرة لأعداء الإسلام ، والعفو عن إساءاتهم ، والإحسان إليهم ، والصفح عن أذاهم وسفاهتهم ، وغفران جهالتهم — دفاعاً عن الحق ، وحماية للدعوة إلى الله ، ورداً للاعتداء ومقاومة للظلم والاستبداد ومناصرة للضعفاء .

فالمسلمون لا يقاتلون — فى حق دينهم — إلا عدواً تمالت لهم عداوته ، وعالنهم بها ، وقاتلهم وشمر لقتالهم واستعد لحربهم ، فهم مضطرون إلى أن

يقاتلوا لأن أعداءهم لم يتركوا لهم فرصة للمهادنة والمسالمة ، وفرضوا عليهم القتال فرضاً ، وألجئوهم إليه إلجاء ، وحملوهم عليه باعتدائهم حملا ، ولا يوجد فى شريعة إلهية أو قانون من القوانين الوضعية التى وضعها الإنسان فى مجارى التاريخ لتنظيم علائق المجتمع البشرى أفراداً وجماعات وأمماً وشعوباً ما يمنع المعتدى عليه من رد العدوان ومقاومة الاعتداء والدفاع عن النفس ، ولا ما يمنع المظلوم من الوقوف فى وجه الظالم يرد عليه ظلمه وينتصر لنفسه ولا ما يمنع صاحب دعوة حق — تبين للعقول رشدها وصلاحها للناس كافة — أن ينشرها ويدعو إليها ، ويقف للدفاع عنها بما يملك من حجة وقوة ، فكان لا مناص للإسلام من تشريع (جهاد القتال) وهو إذ يشرعه لا يتركه هملا تسوده فوضى الغالبية والمغلوبية ولكنه وضع له سياجاً من القواعد والأصول تنظمه وتقيمه على دعائم الحق والعدل .

وإذا لم يكن مناص من القتال فلا بد من الإعداد له إعداداً كاملا بقوة رهيبة ، والإسلام يأمر بأقصى ما يمكن من الإعداد لخوض ما يضطر إليه من القتال ، عسى أن يكون فى هذا الإعداد للقوة ما يحول دون نشوب القتال ويكف الله بها بأس الظالمين .

فإعداد القوة لا يستهدف — فى نظر الإسلام — حتمية القتال ، ولكنه يقصد بهذا الإعداد للقوة أول ما يقصد إلى حماية السلام ، ولهذا جاء تعليل الأمر بإعداد القوة بإرهاب أعداء الإسلام أعداء الله وأعداء المسلمين ، وإرهاب من يظاهرونهم ويناصرونهم من وراء ستار الخداع بإظهار الحيدة الزائفة ، والمسالمة الماكرة ، من الذين لا يعلمهم المسلمون لأنهم لم يعالنوهم بالعداوة ، ولكن الله تعالى هو الذى يعلمهم لاطلاعه على خبيث بواطنهم

وسوء مكرهم وسيء تدبيرهم وإمدادهم أعداء الإسلام بألوان المساعدات الخفية من السلاح والمال والرجال وأدوات العلم العسكرى والفن الحربى من كل ما يحاولون به شد أزر أعداء المسلمين وتوهين قوة الإسلام ، وهؤلاء الأعداء المستورون بالمكر موجودون فى كل زمان قال تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) .

ولما كان هذا الإعداد للقوة التى ترهب عدو الإسلام تتطلب من جميع الأمة الإسلامية بذلا سخياً ينمى هذه القوة ويصونها لحماية الأمة وحماية دعوتها إلى الحق ، ختمت آية إعداد القوة بالترغيب فى الإنفاق فى سبيل الله بأسلوب يبعث على البذل والإيثار فقال تعالى : (وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) .

ففى تنكير ما ينفق والتعبير عنه مع هذا التنكير بأعم الألفاظ شمولا إيذان بأن أى قدر وأى نوع من المال ينفق فى سبيل الله هو عند الله عظيم لا يضيع أجر منفقه مهما كان صغيراً أو قليلا أو ضئيلا ، ليستطيع كل مسلم مهما كانت حالته أن يسهم فى إعداد القوة الرادعة لصون السلام الحقيق وفتح الطريق أمام الدعوة إلى الله لتحرير العقول والقلوب من أغلال العبودية لغير الله تعالى ، وقد بين النبى ﷺ منزلة الإنفاق والبذل فى وجوه الخير العام ليشجع المملقين على المشاركة بالقليل المبارك تحقيقاً للتكافل الإجتماعى بين أفراد الأمة وجماعاتها ، إذ يقول فى الحديث الذى يرويه مسلم فى صحيحه : (لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل) . وفى حديث الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

(إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد).

وإذا كان ذلك هو منزلة الصدقة العامة والإنفاق فى سائر وجوه الخير والبر فإن الإنفاق فى سبيل الله لإعداد قوة الجهاد لتكون كلمة الله هى العليا أجل وأعظم، روى ابن ماجه عن جمع من الصحابة أن رسول ﷺ قال: (من أرسل بنفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم، ومن غزا بنفسه فى سبيل الله وأنفق فى وجهه فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم - ثم تلا -: «والله يضاعف لمن يشاء»).

ولذلك ذم الله المنافقين الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات الذين لا يجدون إلا جهدهم مما يملكون فيقدمونه فى سبيل الله، فكان أحدهم يأتى بكف من طعام، ويأتى آخر بصاع من تمر فيتغامز بهم المنافقون بعيونهم ويسخرون منهم، فرد الله عليهم سخريتهم وأخبر أنه تعالى سخر منهم فقال عز شأنه: «الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم» (١).

وإعداد القوة لحماية السلام شريعة إنسانية قديمة قدم الحق والعدل، لأن السلام الذى لا تحميه قوة رادعة ترعب أعداءه وترهب تجار الحروب ومصاصى دماء الأمم والشعوب هو سلام زائف لا يحمل لفظه معناه، هو سلام أجوف مزور على الحياة وهو فى حقيقته استسلام لقوة الظلم وغشم الظالمين وذلة أمام سلطان المستبدين.

---

(١) سورة التوبة آية ٧٩.

السلام المسلح والضربة الحاسمة

والسلام المسلح هو الذى يستطيع أن يفرض نفسه على الأمم المغرورة بقوتها الباطشة وهو الذى يستطيع أن يقف فى وجه الدول المسعورة لسفك الدماء التى تحكمها حكومات مستبدة طاغية .

والفرق بين السلام الذى يقصد إليه الإسلام ويريد تحقيقه فى ظل قوة رهيبة تحميه من عبث السياسة الفاجرة وبين السلام الذى يدعيه تجار الحروب ، ومستغلو طاقات الأمم فى كفاحها لشهواتهم — أن سلام الإسلام يقوم على العدالة والحق والمساواة فى الحقوق والواجبات بين الأمم والأفراد والشعوب والدول والحكومات ، سلام يقوم على تحرير العقول والأفكار والعقائد ، وتحرير الحياة الإجتماعية من الظلم والتحكم والاستبداد ، وأن سلام الآخرين يقوم على الفجور والطغيان المدعم بالقوة الطاغية التى تفتك بالأبرياء ، والتى تأخذ كل شىء ولا تعطى شيئاً وتملك من الناس كل شىء ولا يملكها إلا أيد ملوثة بدماء المغلوبين على أمرهم المستضعفين لفجور القوة الذين يكدحون ليملئوا بطون المستغلين وتتقوس ظهورهم ليرضوا شهوات ظالميهم من عصارة عرقهم ودمائهم .

ولهذا عقب القرآن الكريم آية إعداد القوة لإرهاب أعداء الإسلام الظاهرين والمتسترين بأمر نبيه محمد ﷺ أن يستجيب لدواعى السلم إذا لاحت أماراتها فى آفاق ما بينه وبين أعدائه فقال تعالى : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) .

وقد ربط الله على قلب رسوله ﷺ ليسالم أعداءه متثبتاً مطمئناً واثقاً

من تأييد الله له ورعايته ، إذا حدث أعداؤه أنفسهم بخيانته فى ظل سلم خادع فقال تعالى : (وتوكل على الله) فى ميلك إلى السلم إذا مال إليه أعداؤك ولا يخيفنك ماقد يخادعونك به ليستعدوا لحربك فى غفلة المسالمة ، بل امض فى طريقك مسالماً وفوض أمرك إلى الله تعالى فإنه سبحانه سميع لما يتشاور به أعداؤك فى شأنك وشأن رسالتك ودعوتك إلى الحق عليم بما يبيتون من مكر وكيد فلا تماكرهم ولا تكايدهم فى ظل السلم والله قادر على أن يرد كيدهم فى نحورهم وينصرك عليهم فإذا أرادوا بهذا السلم خداعك فلا تبالهم بل أعطهم وفاء بعهدهم ، والله تعالى حسبك وهو الذى أيدك بنصره وهيأ قلوب المؤمنين لنصرتك .

فالإسلام دين سلام ، لا استسلام يأمر بإعداد أقصى ما يستطاع من القوة الرادعة ويسارع إلى السلام إذا بدت بوادره فى أفق الحياة .

وهو بهذا التوجيه لا يقبل الاستسلام المذل ولا يرضى لأهله بالضعف والاستضعاف ولا يقبل مهانة أنصاف الحلول فى مشاكل الدعوة إلى الله ، وموقفه فى هذا صريح واضح لا يداور ولا يداهن فإما دخول فى ساحته وقبول لدعوته ، واهتداء بهدايته ، وإما رضاء بحكمه فى عهد مصالحة على (الجزية) ليدافع عن أهلها ويتحمل عبء حمايتهم فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وشرائعهم ، ويكون لهم من الحقوق الإنسانية مثل ما لسائر المسلمين ، وإما إيذان بحرب لا هوادة فيها الموت فى ميادينها استشهاداً أحب إلى المسلم من الحياة وزخارفها ، يقول النبى ﷺ فيما يرويه الصحيحان : (والذى نفسى بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله والذى نفسى بيده لوددت أن أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل).

ويقول النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري : (لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها) ، ويقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم : (ومن مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق) .

وإذا تم للمسلمين إعداد القوة الرادعة إعداداً متناسباً مع قوى الأعداء كماً وكيفاً مادة ونوعاً ، ولم يقبل أعداء الإسلام الدخول في هدايته ولا مسالمته بعهد الجزية، وركبوا رؤوسهم في استفزازه وإلجاء المسلمين إلى الحرب إلجاء ، واضطرارهم إلى خوضها اضطراراً وحملوهم على القتال حملا لا مناص منه ، وجب على المسلمين كافة أن يخوضوا لجج القتال النارية مع أعدائهم بأوفى وأعظم ما يمكن توافره من ضمانات النصر لجند الإسلام وهزيمة أعدائه بضربات حاسمة توجه إلى صدور الأعداء ، وترعبل جموعهم وتشرد من خلفهم من قوى الأعداء المستترين وراء ستار الحيدة الكاذبة ، وهم يتربصون بالإسلام وأهله ، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : (فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون) .

فهذه الآية الكريمة توجه النبي ﷺ — وهو القائد الأعظم — لقتال الجهاد في سبيل الله إلى عدم إطالة الحرب ، لما في ذلك من الإضرار بالأبرياء وتعطيل مرافق الحياة ولما فيه من إنهاك قوى المسلمين وتفتير عزائمهم .

والآية الكريمة توجهه صلى الله عليه وسلم إلى أنه إذا اضطر للحرب مع أعدائه اضطراراً ووجدهم في عدة الحرب وميادينها فعليه أن يوجه إليهم الضربة الحاسمة في معسكراتهم في ميادين القتال لا بتخريب المدن وقتل الأبرياء من المدنيين كما يرشد إلى ذلك قول الله تعالى : (فإما تثقفنهم في الحرب) وتوجيه إلى أن تكون هذه الضربة الحاسمة مستوفية ثقلها الكامل

حتى إذ أتت على غمرة قوى الأعداء فى ميادين القتال كانت بقوة آثارها المادية والنفسية جولة من الحرب النفسية التى تملأ قلوب المقسترين بعداوة الإسلام بالخور والفزع والرعب — والرعب قوة خفية نصر بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم — فلا تحملهم أقدامهم على الوقوف أمام قوى الإسلام وجنده وتميد بهم الأرض وتضيق بهم آفاقها فلا يجدون إلا التسليم والمسالمة، وتحسم الحرب ويفىء الناس إلى ظل الأمن والاستقرار .

وهذا الأسلوب كان هو أسلوب قواد الإسلام فى فتوحاته كذلك صنع خالد ابن الوليد ، وسعد بن أبى وقاص ، والمثنى بن حارثة ، وعقبة بن عامر ، والنعمان بن مقرن ، وابن أبى سرح وأقرانهم من الأبطال الذين فهموا أهداف الإسلام ومقاصده من الجهاد فى سبيل الله .

ويقول الله تعالى : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) وهذه الآية الكريمة تأبى للنبى ﷺ أن ينهى الحرب إذا دخلها مضطراً من قبل أعدائه إلا إذا قضى على عنفوان قوى أعدائه وأوهن عزائمهم وأضعف شوكة كتائبهم بالضربات الحاسمة القوية التى تفتك بغرورهم وتفتح أعينهم إلى عزائم أهل الإسلام الذين يحبون الموت استشهاداً فى سبيل الله أشد مما يحب أعداؤهم الحياة فلا يصح له أن يقف الحرب عند أول جولة انهزم فيها أعداؤه واستسلموا للأسر لأن الأمر ليس هدفاً من أهداف الإسلام ولا هو بالأمر الذى يضعف شوكة الأعداء بل ربما كان سبباً لتجمعهم وتكالبهم على إشعال نيران الحرب .

فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ إن سنة الأنبياء والرسل ألا يتعجلوا وضع أوزار الحرب إذا حملوا على خوضها من أعدائهم وما كان ينبغى — فى شرعة

الإسلام وهو دين الله الذى أوحاه إلى جميع الأنبياء والمرسلين لنبي من الأنبياء — وأنت إمامهم وسيدهم — أن يرضى بإنهاء حرب شنها عليه أعداؤه ظالمين طاغين باغين بمجرد انهزامهم أمام جند الله فى أول جولة وقواهم لا تزال لم تكسر قناتها ولم تخضد شوكتها ، وإنما كان عليه أن يمعن فى قهر أعدائه ويستمر فى قتالهم حتى يثخن فى الأرض غلبة وقهراً لتفتح الطريق أمام الهداية الإسلامية تسعى إلى الناس آمنة مطمئنة ، ويقبل عليها الناس بعقولهم وقلوبهم آمنين مطمئنين ويقول الله تعالى : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم »(١) .

وهذه الآية الكريمة تأمر المؤمنين بقتال المشركين الذين نقضوا عهودهم وأشعلوا نار الحرب غدراً بالمؤمنين وتعدهم وتبشرهم بخمسة أمور تتحقق بهذا القتال فتكون ثماراً له .

الأمر الأول : أن الله تعالى يعذب بهذا القتال أعداء الإسلام بأيدى المسلمين قتلا وإذلالا وتشريداً وأسراً ورعباً يدخل فى مداخلهم فلا تستقر لهم حال ولا يطمئنون فى سبيل .

الأمر الثانى : أن الله تعالى يخزى بهذا القتال أعداء الإسلام خزياً يكبح جماحهم ويذل طغيانهم ويكسر شرة غرورهم ، ويردهم الى هوان القهر والغلبة .

الأمر الثالث : أن الله تعالى وعد المؤمنين بالنصر فى هذا التقال نصراً

---

(١) سورة التوبة آيتا ١٤ ، ١٥ .

مؤزراً تدوى أصداؤه فى آفاق الأرض بما يزلزل أقدام الأعداء ، ويفرق جمعهم ، ويمزق شملهم ، فلا يجتمعون لقتال المسلمين .

الأمر الرابع : أن الله تعالى يشفى بهذا القتال وعواقبه الحميدة صدور قوم مؤمنين مما فيها من الموجدة والآلام بسبب ما كانوا يلقونه من الإيذاء والتعذيب وفجور الظلم والطغيان .

الأمر الخامس : أن الله تعالى يذهب بهذا القتال وثمرات النصر فيه ما كان فى قلوب بعض المؤمنين من الغيظ على أعدائهم الذين بغوا فى الأرض وعتوا على الله وعلى رسوله وعباده المؤمنين عتواً كبيراً ، بما كانوا ينزلونه من البلاء لفتنة المؤمنين عن دينهم حتى يردوهم عنه إلى حمأة الوثنية وضلال الشرك لولا أن الله تعالى حفظ عباده المؤمنين وربط على قلوبهم وثبت أقدامهم بثوابت اليقين .

وهكذا جاء الترغيب فى (جهاد القتال) بأساليب شتى وصور مختلفة يقول النبى ﷺ فيما يرويه أبو داود : (إذا تركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لاينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم) .

وقد كثرت كثرة بالغة آيات الحث والترغيب فى الإنفاق فى سبيل الله لإعداد قوة الجهاد وتوفير وسائل النصر لجيوش الإسلام والمسلمين ، وهى مبثوثة فى أكثر سور القرآن العظيم بصورة لاتدع مجالا لمسلم فى أى أرض من وطن الإسلام يملك أن يسهم فى إعداد القوة للمسلمين ثم يتقاعس ويقبض يده عن البذل والإنفاق وهو يرى ويسمع قوة الأعداء تزمجر وتطغى .

يقول الله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون[١] » .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٥ .

فهذه الآية الكريمة بأسلوبها البلاغى تجعل الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس شرطاً لتمام الإيمان بالله ورسوله إيماناً يصافح يقين القلب، لايخالطه تردد ولايعتريه توقف فى شأن من شئون الإسلام لله رب العالمين.

فإذا تحقق الإيمان بالله ورسوله فى قلب ونزع منه الشك والارتياب، وقام الجهاد بالمال والنفس عنواناً على صفاء الإيمان وخلوصه من شوائب الإرتياب، كان أصحاب ذلك الإيمان هم الصادقين فى إيمانهم لا الذين قالوا آمنا، فإذا قيل لهم جاهدوا قالوا: ذرنا نكن مع القاعدين وهذا أسلوب فى وضع الجهاد موضعه من الترغيب فيه لايعد له أسلوب.

ويقول الله تبارك وتعالى: «يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذالكم خير لكم إن كنتم تعلمون»(١).

وهذه الآية الكريمة كسابقتها فى اعتبار الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس شرطاً لتمام الإيمان بالله ووسوله، لأن الله تعالى جعل الجهاد بالمال والنفس فيها قرين الإيمان بالله ورسوله فى تحقق التجارة المربحة ربحاً لايعدله ربح من مكاسب الدنيا، لأنه ربح ينجى المؤمن من عذاب أليم، ويضمن له غفران الذنوب ويدخله الله به جنات تجرى من تحتها الأنهار ويحله فيها فردوسه الأعلى فى مساكن طيبة بما فيها من قرة العين ومتعة النفس ورضوان الله تعالى وذلك هو الفوز العظيم.

ويقول الله عز شأنه: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى

---

(١) سورة الصف آيتا ١٠، ١١.

التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »(١) .

وهذه الآية من قبيل الآيات السابقة فى المعنى وهى من أعظم آيات الترغيب فى الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس ، لأن الله تعالى مالك الملك وخالق الخلق ورازقهم ومحييهم ومميتهم ومالك نواصيهم ومدبر أمرهم يتاجر عباده المؤمنين فيشترى منهم ما يملكه ملكا مطلقاً أنفسهم التى خلقها بيده ، وأبدعها بقدرته ، وأموالهم التى رزقهم إياها من خزائن ملكوته بمحض فضله وجوده ، ويعوضهم عنها الجنة ويسجل ذلك فى أعظم كتبه التوراة والإنجيل والقرآن على يد أكرم رسله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ ثم يخبرهم بأنه لا أحد أوفى بعهده من الله ليؤكد لهم صفقتهم ويزيد من فرحتهم بها وأمرهم بأن يستبشروا استبشار بهجة ببيعهم الذى بايعوا به ربهم الأكرم وذلك هو الفوز العظيم .

والقرآن الكريم يرغب فى الإنفاق للجهاد فى سبيل الله ترغيباً يبعث على البذل بطيب نفس فهو يضرب للمنفقين فى سبيل الله المثل بالحبة المباركة التى بذرت فى أرض خصبة توافرت لها جميع عوامل الإنبات الجيد . فأنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، ولكن فضل الله لا يقف بمن أنفق فى سبيله عند هذا الحد من الجزاء ، بل إن فيضه من الإحسان والجود على المنفق فى سبيله يتعدى الحصر والعد ، فيضاعف لمن يشاء بما لا يدخل فى حساب يقول الله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم »(٢) .

---

(١) سورة التوبة آية ١١١ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٦١ .

وأسلوب ضرب المثل أبعث إلى الامتثال من أسلوب بجرد الطلب وبجرد الإخبار ، لأن أسلوب المثل يصور المعانى الغائبة فى صورة الأمر المحسوس الذى يشاهد رأى العين فتراه النفوس وتشهده مشاهدة تجعله كأنما هو فى يدها تملكه وتتصرف فيه .

والجهاد بالمال قرين الجهاد بالنفس فى نصوص الإسلام وآيات القرآن الكريم ، بل إن الجهاد بالمال مقدم فى الآيات على الجهاد بالنفس .

كانت كثرة الجند وحشد الجحافل الجرارة هى العامل الأول لكسب المعارك فى العصور الماضية ، ولكن العلم الطبيعى قلب الأوضاع فى الحروب وجعل كثافة الجند فى المرتبة الثانية ، وانفردت الآلات العلمية الحديثة بمرتبة الصدارة فى توجيه الحروب وجه النصر وكسب المعارك .

وهذه الآلات العلمية الحديثة التى أصبحت تتحكم فى مصير الحياة حرباً وسلماً لا تتوافر صنعاً وإنتاجاً إلا إذا توافر لها المال الذى يقوم بتصنيعها وإنتاجها فى الدول التى تقدمت علمياً وكانت لهـــا الصدارة فى إنتاج هذه الآلات العلمية .

كما أن هذه الآلات لا تتوافر شراء فى الدول التى لم يكن لها نصيب فى العلم المنتج لهذه الآلات ، إلا إذا توافر لها المال الذى تستطيع أن تدفع به الثمن الباهظ لما تحتاج إليه من هذه الأدوات العلمية فى حربها وسلمها .

فالمال هو العنصر الفعال ، والعامل الأول فى توجيه قوى الدول إلى كسب المعارك الحربية ، وهو العنصر الفعال والعامل الأول فى توازن القوى لحفظ السلام المسلح بين الدول الكبرى المنتجة لهذه الأدوات العلمية .

فتقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس فى آيات القرآن العظيم إعجاز لهذا الكتاب الكريم ، كشف عنه العلم العسكرى الحديث ، والعلم الطبيعى

الجديد ، لأن توافر المال هو العماد فى إعداد القوة الرادعة — كما أمر الله بها، لإرهاب عدو الله وعدو المسلمين — بأساليب الفن العسكرى الحديث ، وأساليب العلم الطبيعى الجديد ، الذى يعتمد على إقامة المصانع والمعامل والمخابر ، إذا توافر للدول الإسلامية العلماء الطبيعيون ، والمفكرون ، والصناع الخبيرون ، والخبراء المجربون والعمال الماهرون ، ويجب على الدول الإسلامية جمعاء أن تسعى جاهدة إلى توافر ما تدعو إليه حاجتها فى هذا العصر العلمى ، من العلماء المفكرين ، الذين يستطيعون أن يقوموا بمطالبها العلمية الفكرية ، لتعد قوتها إعداداً علمياً ، والأمة كلها تأثم إثماً كبيراً إذا لم تبادر كل دولة إسلامية بوضع برنامج مخطط لهذا الإعداد .

وتستطيع الدول الإسلامية أن تتعاون علمياً وإنتاجياً فيما بينها فى نظام مخطط لهذا التعاون ويسند فيه إلى كل دولة منها أن تقوم وحدها أو مع مجموعة متقاربة بتصنيع وإنتاج ما يتناسب مع إمكانياتها المادية والفكرية ، فى ظل وحدة إسلامية لا تتدخل فى النظام السياسى والاجتماعى الذى تختاره وترضاه لنفسها كل دولة ضماناً لتوثيق العرى بينها ، ولعل الاتحاد الثلاثى بين مصر وسوريا وليبيا يكون نموذجاً عملياً لما يمكن أن يتحقق بين الدول الإسلامية .

وإذا كان توافر المال هو العماد فى إعداد القوة الرادعة التى أمر الله تعالى كافة المسلمين بإعدادها لإرهاب عدو الله وعدوهم بأساليب الفن العسكرى الحديث تصنيعاً وإنتاجاً فإنه العماد الأول فى إعداد هذه القوة شراء من الدول المنتجة للأدوات الحديثة العلمية لتستطيع أن تحمى نفسها ، وتحافظ على استقلالها وكرامة أوطانها ، وتضمن لنفسها حرية الانطلاق الفكرى والتصنيعى .

وقد ضمن الله النصر للمؤمنين ما داموا قائمين على الحق فى جهادهم لأعداء الله ، لا يقصرون فى إعداد ما أمر الله تعالى بإعداده من القوة الرادعة المرهبة ، دون تعد لحدود الله فى نصرة دينه والشفقة على خلقه .

يقول الله جل ذكره : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصرون . وإن جندنا لهم الغالبون »[١] ويقول عز شأنه : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد »[٢] والاقتصار فى هذه الآية على مجرد الإيمان ، دون اشتراط العمل من أعظم ما يفسح للمؤمنين فى ساحة الرجاء والأمل فى نصر الله للمعتصمين بحبل الإيمان ، وهذا فى مقابلة قوله تعالى : (وإن جندنا لهم الغالبون) وجند الله هم كتائب الإيمان .

ويقول تبارك وتعالى : « يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »[٣] ونصر المؤمنين لله تعالى منصر الحق الذى أنزله على رسله ، ومحاربة أهل الظلم والطغيان ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا كان المؤمنون على أهبة الاستعداد بأعظم وسائل القوة التى ترهب عدو الله وعدوهم .

ويقول تعالى شأنه مبشراً للمؤمنين الذين وفوا بعهد الله فى إعداد القوة لنصرة الحق : « ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لايجدون ولياً ولا نصيراً »[٤] .

---

(١) سورة الصفات آيات ١٧١، ١٧٢، ١٧٣ .
(٢) سورة غافر آية ٥١ .
(٣) سورة محمد آية ٧ .
(٤) سورة الفتح آية ٢٢ .

ويقول عز وجل : « لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون »[١] ،

وقد بين الله تعالى السبيل إلى هذا النصر حتى لا يسبح الفارغون فى خيال الأمانى الكاذبة فقال عز شأنه : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »[٢] وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين »[٣] وقال : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »[٤].

وهكذا الإسلام واضح صريح لا يخادع أحداً ، ولا يرضى أن يخادعه أحد ، وهو فى ظل مبادئه وشرائعة الإلهية القويمة قوى سيار لا يضعف ولا يقف ، ضمن الله حفظ كتابه ودستوره القرآن العظيم ، وأخبر رسوله الكريم وهو الصادق المصدوق ﷺ . إن الله تعالى يبعث للأمة الإسلامية من يجدد لها أمر دينها ، فتعود قوية كما بدأت ويعود إسلامها عنواناً للحق غريباً كما بدأ قوياً ناهضاً ، فطوبى لمن يدركهم بجد التجديد من الغرباء .

---

(١) سورة آل عمران آية ١١١ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٣٩.

(٣) سورة الأنفال آيتا ٤٥ — ٤٦.

(٤) سورة الحج آيتا ٤٠ — ٤١.

الرق في نظر الإسلام

الرق شر لا بد منه :

إذا كان الإسلام قد شرع (جهاد القتال) لرد العدوان ، ودفع الاعتداء ، ومقاومة الظلم والاضطهاد ، والدفاع عن النفس ، وحماية الدعوة إلى الله ، وتأمينها فما موقفه من (الرق) ؟

والرق سلب لأخص خصائص الإنسانية ، وامتهان لكرامتها ، وإهدار لحريتها الشخصية ، التي يعيش بها الإنسان إنساناً ، له حقوقه الإنسانية ، وعليه واجباته الاجتماعية .

فالرق وصمة إنسانية ، ونقيصة اجتماعية ، يتناقض وجوده في الحياة مع الحديث عن وحدة الإنسانية في منبعها الأصيل ، وحقوقها وواجباتها ، على أساس مساواة أفرادها في حقيقة وشيجتها بذلك المنبع .

ويتناقض وجوده مع الحديث عن مكانة الإنسانية وسموها ، وأنها خلاصة الوجود الكوني التي رفع الله شأنها ، وعظم قدرها ، وفضلها على كثير من خلقه ، وسخر لها ما في السموات وما في الأرض من عوالم الطبيعة والحياة ، وشرفها بخصيصة العلم مركوزة في فطرتها .

والعلم أشرف خصائص الأحياء من الموجودات ، وأسجد لها — ممثلة في أنموذجها الأعلى — ملائكته المكرمين ، وناط بها منصب

خلافته فى الأرض لتقيم عليها موازين العدالة ، ومنائر الهداية ، ودعائم الحق والنور ، وأسس الإخاء والمساواة بين جميع الأفراد والجماعات والأمم والشعوب .

فالإسلام الذى أعز الإنسانية وكرمها ، ورفع مكانتها بما أفاض عليها من فضل جعلها سيدة الحياة ، تقودها بزمام العقل ، وتوجهها بهداية التفكير ، لا يمكن أن ينزل بها إلى دركات هذا الشذوذ الآدمى ، الذى يفقد الإنسان آدميته وبشريته ، ولا يمكن أن يضعها هذا الموضع من المهانة الاجتماعية التى تجعل من الإخوة فى الآدمية سادة وعبيداً ، بل راعياً ، وسائمة ، بل وحشاً مزمجراً وطائراً ذبيحاً .

والإسلام فى إجابته عن هذا التساؤل — الذى لم يكن موضوعه من صنعه — يقف موقف الصراحة التى لاتهاب المسئولية ، ولا تتهرب من حملها ، بل تواجه الحقائق على مرارتها وقسوة وطئها ، ويضعها فى موضعها من الحياة لتظهر كل حقيقة منها إذا استقرت فى مكانها من الإطار العام خطاً من الخطوط التى لا غنى عنها للصورة فى تكامل وجودها .

ذلك أن الإسلام لاينظر إلى الحياة أشلاء مبعثرة هنا وهناك ، أو تفاريق من ركام سائب لايحتزم ، وإنما ينظر إليها كائناً موحد الأجزاء ، مترابط الأوصال ، يعيش بجميعه لا ببعضه ويحيا بروح واحدة تسرى فى جميع أجزائه ، فتحركها إلى هدفها حركة موحدة ، يستجيب لها كل كائن فى إطارها فيتحرك معها فى الاتجاه الذى تريده له .

على هذا الأساس نظر الإسلام إلى (الرق) فى أضيق دائرة ، نظره إلى شر لابد منه فى الحياة حتى تتهذب طبائع البشر ، وتتخلص من سيطرة الغرائز ، وتهتدى الإنسانية إلى معرفة حقيقتها السامية ، ومكانتها الرفيعة بين حقائق الأحياء فى هذا الوجود .

عندئذ ستجد الإنسانية نفسها فى وضع يسوقها إلى تحقيق المساواة الحقيقية فى الحقوق والواجبات ، فلا يكون فى سلوكها سادة ولا عبيد ، ولا بيض ولا سود ، ولكنها إنسانية واحدة متكافلة متعاونة .

الإسلام واجه الرق مضطراً وعالجه حاسما

بيد أن الإسلام لم يقف أمام هذا الشذوذ الإنسانى فى (الرق) باعتباره شراً لا بد منه موقفاً سلبياً ، ينتظر ما عسى ألا يكون أبداً من تهذيب الطبائع البشرية تهذيباً يغير غرائزها المسيطرة على تصرفاتها واتجاهاتها فى الحياة .

ولكنه واجه هذا الموقف الذى اصطدم به فى مطلع حركته الإيجابية بموقف عملى عالج به هذا الشذوذ الإنسانى ، وبدأه .

أولا : بالقضاء نظرياً وتشريعياً على (الرق) قضاء مبرماً ، وإلغائه إلغاء تاماً وإبطاله إبطالا كاملا ، فى منابعه الباغية ومصادره الظالمة ، فحرمه تحريماً قاطعاً ، وشدد فى الزجر عنه ، والوعيد عليه بما لم يشدد بمثله فى جريمة من الجرائم الإنسانية الأخرى .

وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى عهداً ثم غدر ، ورجل استأجر أجيراً استوفى عمله ، وظلمه أجره ، ورجل باع حراً فاسترق الحر فأكل ثمنه) .

ولا ريب أن جميع منابع الرق التى كانت معروفة فى العالم هى استرقاق الأحرار ، واعتباد لهم وسلب لحريتهم ، وامتهان لكرامتهم ،

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم نفسه كفيلا للحرية الإنسانية يدافع عنها ، ويخاصم خصومها وظالميها ، يوم يضع الله للناس موازين القسط فلا تظلم نفس شيئاً ، فيخصمهم وتفلح حجته على حجتهم ، لأنه يقوم مقاماً محموداً ينصر فيه آدمية الإنسان ويدافع عن كرامتها .

فهذا الحديث الشريف لم يترك منبعاً للرق من منابع الظلم والطغيان ولا مصدراً من مصادر البغى والفجور التى يوجد من طريقها استرقاق الإنسان لأخيه الإنسان واستعباده إلا سده سداً محكماً ، ولا باباً من أبوابه إلا أقفله إقفالا لم يترك وراءه منفذاً لهذا الشذوذ الإنسانى فى جميع صوره وأشكاله .

ثانياً : رأى الإسلام بعد هـذا الحكم القاطع الذى أنهى به نظام الاسترقاق تشريعياً أن ينظر نظراً عملياً واقعياً يحدد به موقفه إزاء تحديد مدى الحرية الإنسانية فى بعض حالات يضطر فيها اضطراراً إلى هذا التحديد فعمد إلى الموازنة بين شر وشر .

الأول : شر الشذوذ الإنسانى فى (الرق) الذى تحد به الحرية الإنسانية فى دائرة يحصر فيها هذا الشذوذ فى أضيق الحدود والأبعاد ، مع الإكثار جداً فى هذا الدائرة من النوافذ التى يدخل منها نسيم الأمل فى الحرية على الذين أوقعهم سوء حظهم الاجتماعى تحت نير هذا الشذوذ إلى أن يتم الخلاص منه نهائياً باستقامة الإنسانية على جدد طريق العدل والإخاء والمساواة وهذا ما يستهدفه الإسلام من كثرة منافذ الحرية، وشدة الترغيب فى العتق ، ويرشد إلى ذلك ما ذكره أبو الليث السمرقندى فى تفسيره ، وحكاه عنه القرطبي من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال :

(مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه ، ومازال يوصينى بالنساء حتى ظننت أنه سيحرم طلاقهن ، ومازال يوصينى بالمماليك حتى ظننت أنه سيجعل لهم مدة إذا انتهوا إليها عتقوا) .

فهذا الحديث صورة تمثل روح الإسلام وهدايته فى موقفه من (الرق) وأنه موقف ينتهى بتضييق دائرة الحد من الحرية الإنسانية ، بكثرة ما رغب فى العتق ، وبكثرة ما فتح من نوافذ الحرية إلى الخلاص من هذا الشذوذ الإنسانى ، إذا استقامت الإنسانية فى الحفاظ على قوة وشائجها الرحمية وروابطها الأخوية .

وهذه الاستقامة هى الحد الفاصل الذى ينتهى عنده الحد من حرية أى إنسان فى وجوده الإنسانى وهى التى يشير إليها الحديث بقوله : (حتى ظننت أنه سيجعل لهم مدة إذا انتهوا إليها عتقوا) ، وفى هذا التعبير تلميح إلى ماينتظر الإنسانية — إن قريباً أو بعيداً — من مستقبل مشرق تسودها فيه الإستقامة على منهج العدالة والمحبة والإخاء والمساواة .

الثانى : شر الضراوة الطاغية فى شن الحروب الظالمة المدمرة ، والاعتداء على المستضعفين واضطهاد المظلومين ، وإخافة الآمنين ، وتعويق الدعوة إلى الله وإلى توحيده ، وإقامة العقبات أمام مسيرة الحق والعدل ، لتحرير الإنسانية من عبودية الأثرة ، وعبودية الوثنية بجميع صورها وأشكالها ، وما تخلفه حتماً هذه الحروب — التى يساق إليها الإسلام ملجأ ، ويضطر إلى خوضها اضطراراً لا مجال له معه من الاختيار ، وتفادى الحرب ، فهو مجبر على الدخول فيها لدفع العدوان ، ورد الاعتداء — من أسرى استنقذوا من الموت ولا بدلهم أن يعيشوا فى جو من الحياة يأمنون فيه على أنفسهم ،

ويأمن مستأسروهم من شر انقلابهم عليهم مع أعدائهم .

وكانت نتيجة هذه الموازنة بين الشرين الاضطرار إلى الإبقاء على شر الشذوذ الآدمى فى أضيق الحدود والأبعاد ، اتقاء لشر الضراوة فى سفك الدماء وإشاعة الخراب والدمار، هذه الضراوة التى تتلظى بها نيران الحروب، فتعكس أضرارها العارمة على الإيغال فى شر الشذوذ بالرق ، وتزيد من أبعاد الخلاص منه .

لأن ترك الأسرى أحراراً ، ينقلبون إلى أقوامهم أعداء الإسلام والمسلمين قبل أن تضع الحرب أوزارها نهائياً ، يجعل منهم قوة ترجح بها كفة العدو فى ميادين القتال ، وتزيد من تصعيد الحرب واتساع دائرتها، فكان من الخير لهم ولآسريهم إمساكهم تحت سلطان آسريهم،وهذا الإمساك الجماعى يتطلب قوة اقتصادية للإنفاق منها عليهم، ويتطلب قوة أمن للمحافظة عليهم ، وتأمين الحياة من غائلانهم باعتبارهم أعداء، ويتطلب إعدادمعتقلات تتسع لأعدادهم وتتوافر فيها الراحة لهم ومراقبتهم ، وكل ذلك لم يكن متوافر لدى المسلمين فى مطلع حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، فلم يكن لهم بد ولا محيص — بعد نظر الإمام — من تفريق الأسرى على الافراد ليمكن الانتفاع بهم .والإنفاق عليهم، والمحافظة عليهم،وصيانة الأمن من احتمال غدرهم .

فنظر الإسلام إلى (الرق) أنه شر لابد منه . يتقى به شر أعظم خطراً منه ، وهو بهذه النظرة حقيقة موجودة فى واقع الحياة الإسلامية ، لاسبيل إلى إنكارها ولامحيص من الاعتراف بها ، كما يعترف بالحقائق الكريهة البغيضة التى تقتضى الضرورة الاعتراف بها وإقرارها ، وتقبلها كما يتقبل العليل مر الدواء رجاء الشفاء .

فالرق فى الإسلام من الحلال البغيض إلى الله وهو شذوذ ألجأ إليه سوء الحياة فى المجتمع البشرى الذى انحرف بإنسانيته عن مهيع الحق والهدى .

فما عسى كان يستطيع الإسلام أن يفعل وقد جاء بهدايته فوجد الإنسانية تعيش محكومة بغرائزها المادية كما تعيش الوحوش مع سوائم الأنعام ، يفتك قويها بضعيفها وأهدرت ما أودع الله فيها من قوى روحية ، وقوى مفكرة ، وقوى وجدانية عاطفية ، كانت تستطيع أن ترتفع بهذه القوى إلى مستواها الإنسانى الكريم .

ولقد كان انحراف الإنسانية فى جميع عصورها هو اللعنة التى لازمتها منذ عدا قابيل على أخيه هابيل فقتله إشباعاً لغريزة الأثرة الطاغية ، فكانا نموذجين لقوة البغى المستأثر بما تمليه عليه الشهوات الجامحة ، وقوة الحق العادلة التى لا تميل مع الهوى .

ولا تزال الإنسانية تعيش فى ظل هذه اللعنة ملطخة بأقذار العار الإنسانى ورجس العنصرية الفاجرة فى أمم تدعى أنها ألغت خسيسة (الرق) وقضت عليها قضاء مبرماً ، وتزعم لنفسها أنها سيدة الحضارة وسيدة الفكر والعلم وسيدة النظم الاجتماعية ، وسيدة الحريات ، بينما يقتل بيضها سودها ظلماً وعلواً ، وتحرم نظمها الاجتماعية على هؤلاء السود أن يعيشوا فى أوطانهم عيشة أدنى مستويات الإنسان ، بل لا يمكنون من معيشة أحط الحيوان ، يطاردهم إخوانهم البيض فى كل مكان وهم إخوتهم فى الوطن والدين واللغة والعادات ، بل لا يرضون لهم أن يكونوا خفافيش ، يحيون فى جحور الجهل والفقر ، وفتك الأمراض والعلل ، لا يكادون يخرجون إلى ضوء الحياة حتى يردوا إلى ظلام التحقير والاضطهاد ، والويل

لمن يطل برأسه من جحره فالموت على أشنع صورة ينتظره ، ولا يمكن العثور على قاتله ولو كان واقفاً بخنجره على جثته ، أليس هذا أبشع صور (الرق) بلى ! ، ولكنه (رق) متحضر يجرى تحت سمع وبصر العلم والحضارة .

والغريب العجيب فى أمر هذه الأمم — التى بلغت من الحضارة المادية وفنون العلم الطبيعى شأواً أبى لها أن تقنع بالحياة على هذه الأرض، فتطلعت إلى الشموس والأقمار والكواكب التى تتراءى فى أجواز الفضاء لتستعمرها — أنها سخرت قوى الفكر والعلم لتكون تحت سيطرة فجور الغرائز المسعورة تسوس بها الناس والأشياء وتسوس بها نفسها، فقلبت الأوضاع — وجعلت من العلم الذى هو محط آمال الإنسانية فى تخليصها من ظلم الشذوذ الإنسانى، ومن أغلال العبودية — السيف المصلت على أعناق المظلومين ليمنعهم من التوجع والأنين .

والعلم — إذا لم يعتمد على الإيمان بالله ورسوله — ضراوة عارمة وأشد وأطغى من ضراوة أخبث الأفاعى ، وإنه ليوشك أن ينفلت زمامه من أيدى عالميه فيدمر كل شىء .

فهل للمخمورين بنشوة العلم المادى أن يفيقوا من سكرتهم قبل فوات الفرصة، ساعة لا يجدون منفذاً حتى لتأوهات الندم ، وأنى لهم الذكرى وقد دفنوا رؤوسهم فى رمال الغرور والأحلام ؟ .

منهج الإسلام ونظم الأمم فى موقفها من الرق

جاء الإسلام فوجد شر (الرق) مستطيراً ووجده متفشياً فى أمم الأرض

لايضبطه نظام — إن صح أن يكون للشر ضابط ونظام — إلا سلطان القوة الفاجرة والظلم الغاشم والطغيان المتجبر .

فهل كان من المستطاع اجتماعياً تخليص المجتمع البشرى عملياً من هذا الشذوذ الإنسانى فى قرار واحد، ينادى فيه بالكلمة الفاصلة التى يتبعها القضاء نهائياً على (الرق) فلا يبقى فى الأرض سادة وعبيد ؟

وهل كان من من المستطاع عملياً أن تردهذه الكلمة الفاصلة إلى الإنسانية عقلها ؟ وتريها مكانها من العزة والكرامة فى ذروة الحرية أفراداً وجماعات وأمما وشعوبا ؟ هذه الحرية التى خلقها الله عليها ، وفى مهادها ولدت ، وفى أحضانها شبت قبل أن تنحرف مدفوعة بغرائزها عن غايتها الكريمة النبيلة .

فى سبيل المحاولة لبيان موقف الإسلام عملياً من (الرق) يلجأ كثير من الباحثين إلى أسلوب الموازنة بين وضع هذا الشذوذ الإنسانى الذى ارتضاه الإسلام مضطراً كارهاً ، وبين نظام (الرق) الذى كان يســـود حياة الأمم والشعوب قبل مجىء الإسلام .

وهؤلاء الباحثون يعتمدون فى موازناتهم :

أولا : على بيان منابع الرق ومصادره المتكاثرة المتعددة ، عند كافة الأمم والشعوب، وهى منابع تعتمد على مجرد القوة الباغية والقهر المتجبر، فالحروب العدوانية وغارات السلب والنهب التى يشنها الأقوياء على الضعفاء منبع من منابع الرق عند تلك الأمم ، وخطف الأحرار الآمنين من مأمنهم واعتبارهم مصدراً من مصادر الرق عندهم ، وثورة الغريزة وجموح الشهوة منبع من منابع (الرق) المشروع فيهم .

والعجز عن الوفاء بالدين فى موعده ، ولو كان هذا الدين ظلوماً قام على الربا الفاحش والمقامرة منبع سائغ من منابع (الرق) بينهم .

وإتاحة كافة الفرص لفجور الرقيق لكثرة التوالد مصدر من مصادر (الرق) تقره الأنظمة الاجتماعية والقانونية عند تلك الأمم .

كل ذلك وغيره فى مقابل ما جاء به الإسلام من القضاء نهائياً على جميع هذه المنابع الآثمة الباغية ، وتضييق الدائرة وقصرها على منبع واحد ، يعتمد على الضرورة الملجئة اضطراراً فى حرب عادلة لرد العدوان ودفع الاعتداء ، وتحريم ما سواه تحريماً قاطعاً مقروناً بالوعيد الشديد والتهديد المرعب والزجر المخيف .

ثانياً : على بيان سوء المعاملة التى يلقاها الرقيق ، وألوان القسوة الطاغية التى تقرها بل تأمر بها قوانين وأنظمة تلك الأمم والشعوب ، فالرقيق عندهم شىء من الأشياء ، لا شخص من الأشخاص الحية فهو فى نظر تلك القوانين آلة ليس لها روح يحركها بإرادتها ، وإنما تتحرك بقهر السادة وفجور الطغيان فإذا توقف عن الحركة الآلية ليتنفس أدركته سياط العذاب لتقطع عليه أنفاسه وتدفعه إلى حيث لا يدرى ولا يريد .

هذا فى مقابل ما جاء به الإسلام من اعتبار إنسانية من قدر عليه هذا الوضع الشاذ والاعتراف بحقوقه ، ووجوب أدائها له ، واعتبارهم إخوة لمن كانوا تحت أيديهم من المسلمين ، يجب عليهم أن يحسنوا فى معاملتهم ، وأن يواسوهم فى مطعمهم ومشربهم وملبسهم ، وأن يعينوهم على القيام بما يكلفون من عمل .

ثالثاً : على بيان العقوبات البشعة التى تفرضها قوانين وأنظمة تلك الأمم

والشعوب على الرقيق إذا أوقعه سوء الحظ تحت طائلة العقاب لمجرد خطأ يقع فيه ، فللسيد أن يقتل من رقيقه ما شاء عدداً ، ومن شاء شخصاً بما شاء من ألوان القتلات دون أن يسأل لماذا فعل ذلك ؟؟ وله أن يحرقه بالنار حياً ، وله أن يذيقه من ألوان العذاب التى لا يطيقها حيوان ، وله أن يلقى به من حالق ليتسلى بمنظره وهو يهوى أشلاء ممزقة فى قاع الفناء .

هذا فى مقابل ما جاء به الإسلام من عدالة فى إقامة حدوده وزواجره على ما يقع من جرائم أو جنايات ، فالإسلام لا يعاقب على الخطأ ، ولا يعاقب إلا بعد محاكمة عادلة تثبت وقوع الجريمة التى يعاقب عليها الجارم ، يستوى فى ذلك جميع الناس .

والإسلام حتى بالرقيق ، يوصى بالرحمة فى عقوبته إذا وقع منه ما يستحق العقاب ، ويقيم له من شذوذ وضعه عذراً يخفف عليه العقوبة ، فالسيد فى شرعة الإسلام يؤدب فتيانه وفتياته من الرقيق بما يؤدب به ولده من البنات والبنين ، فإذا اشتط فى العقوبة ظالماً زجر وأدب وقد يعتق عليه فتاه أو فتاته وهو راغم لا يحسب لرضاه حساب ، بل إن الإسلام جعل (الرق) سبباً لتخفيف العقوبة فى بعض الحدود الشرعية .

رابعاً : على بيان ما تقتضى به أنظمة الأمم والشعوب قبل الإسلام من تأبيد (الرق) وبقاء الرقيق فى أغلال العبودية بقاء سرمديا ، يباع ويشترى ، ويورث مع الأرض التى يعيش للعمل فيها ، لا يفتح له منفذ إلى الحرية ، ولا يجد إليها سبيلا .

هذا فى مقابل ما جاء به الإسلام من فتح نوافذ الحرية بأوسع وأكثر ما يتصور ، مما يكاد لا يبقى على (الرق) فى نظام الإسلام إلا ريثما يأمن

المسلمون غائلة أعدائهم ، إلى جانب ما جاء به الإسلام من فتح أبواب العلم والمعرفة لكل من يظله لواء الإسلام فى أوطانه مما جعل بعض الرقيق يبلغ وهو فى مكانه الاجتماعى من المكانة والمنزلة فى العلوم الإسلامية والمعارف الدينية منصب الإمامة فى تلقى الأحكام عنه .

وفى هذه الموازنات كلها كانت كفة الإسلام هى الراجحة، وكان الإسلام يبدو فيها ديناً إنسانياً فى نظامه الاجتماعى بما اشتمل عليه من الخير والبر والرحمة بالرقيق ، بل بما اشتمل عليـــه من انطلاق الفكر فى آفاق العلم والمعرفة انطلاقاً جعل من كثير من أفراد الرقيق سادة فى قيادة النهضة العلمية التى قامت عليها حضارة الإسلام الفكرية والاجتماعية .

* * *

ولكن هذه الموازنات لا تضع قضية (الرق) فى وضعها الذى ارتضاه الإسلام كارهاً مضطراً من وجهة نظره الخاصة دون نظر إلى أن (الرق) كان موجوداً على آية صورة أو كان غير موجود أصلا، لأن وجود (الرق) فى العالم أو عدم وجوده لا مدخل له فى تشريع الإسلام والإسلام لم يشرع لتنظيم شر موجود ليبقى عليه ، ويخفف من ضراوته وقسوته وإنما ارتضى الإسلام نوعاً من تقييد حرية بعض الأفراد فى أضيق دائرة مضطراً لذلك اضطراراً لا مفر له منه ، وقضى تشريعياً على كل ما كان معروفاً من أوضاع اجتماعية للرق ، وانفرد بوضع خاص فرضته عليه شئون حياته الاقتصادية والسياسية فى مطلع دعوته ، وعمل جاهداً على التخلص من هذا الشذوذ الإنسانى ، أو التقليل منه تقليلا يفقده وجوده الاجتماعى ، ويقضى عليه تديناً وتشريعاً . فوضع قضية (الرق) فى وضعها الذى ارتضاه الإسلام كارهاً

مضطراً هو الذى يبين حقيقة موقف الإسلام ونظره إلى هـــذا الشذوذ الإنسانى ، وكيف ارتضاه مع تساميه بالحرية الإنسانية وتحليل هذا الموقف فى جميع مراحله ببيان سبب اضطرار الإسلام إلى ارتضاء (الرق) مع بغضه وكراهيته لوجوده ثم ببيان مصدره الوحيد فى تشريع الإسلام ، وأنه مصدر بعيد جداً عن جميع مصادر (الرق) الظالمة ، ومنابعه الباغية التى كانت معروفة عند الأمم والشعوب التى كانت تتخذ من (الرق) دعامة اقتصادية واجتماعية فى حياتها .

ثم ببيان ما أضفاه الإســـلام من البر والرعاية للرقيق ، والتشديد فى إحسان معاملته وأن هذا الإحسان فى المعاملة حق واجب من حقوق الإنسان التى يوجبها له باعتبار كونه إنساناً .

ثم ببيان النوافذ والأبواب التى فتحها الإسلام لتحرير (الرق) والترغيب فى العتق .

ثم ببيان أن الإسلام لا يؤخذ بانحراف المنحرفين عن منهجه ـــ الذى يكشف عن حكمة وجود (الرق) فى تشريع الإسلام ، ويكشف بعد ذلك عن النظرة الإنسانية فى هذا التشريع ، وأنها نظرة تتفق مع سماحته وعدله ورحمته ، وتساميه بالإنسانية أينما وجدت وكيفما وجدت .

فلا يكفى فى بيان فضل الإسلام وشرفه وإنسانيته وسماحته وعدله ورحمته أن يكون أحسن المسيئين وخير الشريرين ، ولا يشرفه أن ترجح كفته فى موازنة لا تكافؤ فيها ولا تماثل ، لأن الأمم التى تدين بالرق ، ويشيع فيها نظام السادة والعبيد ، لم تكن تعترف للإنسانية بشىء من المكانة الرفيعة فى الحياة باعتبار توافر المعنى الإنسانى الأصيل الذى تميز به الإنسان بمقتضى إنسانيته عن سائر المخلوقات والذى كرمه الله به وفضله .

وهذا المعنى الإنسانى حقيقة إنسانية واحدة فى كل إنسان ، يجب أن يعترف بها لكل فرد من أبناء الإنسانية ، أينما كان وكيفما كان ، فهم جميعاً فى هذا المعنى الإنسانى سواسية لا يتفاوتون فى أصل وجوده فيهم ، وإنما يتفاوتون فيما يطرأ على هذا المعنى من عوارض اجتماعية تحول بين بعض الأفراد وبين بلوغهم مدى طبيعتهم .

وهذا النقص العارض لحقيقة المعنى الإنسانى عند بعض الأفراد ليس ضربة لازب — فى نظر الإسلام — ولكنه قد يزول إذا سنحت الفرصة الاجتماعية والفكرية لزواله ، ويعود صاحبه بعد زواله بتأثير البيئة الجديدة إلى حقيقة إنسانيته المستعدة بفطرتها إلى التكمل بالعلم والمعرفة .

وقد حفل تاريخ المجتمع البشرى بكثير من الشواهد والمثل على هذا التحول الذى أثبت أن الإنسان هو الإنسان فى طبيعته وحقيقة إنسانيته .

وإنصافاً لأولئك الذين يفرقون بين إنسان وإنسان ، فيعتبرون أحدهما إنساناً سيداً والآخر عبداً أو شيئاً لا شخصاً ، فهم منطقيون مع أنفسهم ، لأنهم لم يدعوا لأنفسهم شرف الاعتراف بمكانة الإنسانية الرفيعة ، ولم يزعموا أنهم يؤمنون بالمساواة بين جميع أفراد الإنسان فى المعنى الإنسانى الأصيل ، بل أرقى هذه الأمم فكراً وفلسفة ، وأوسعها علما ومعرفة ، وأظهرها حضارة كانت تقيم أنظمتها الاجتماعية السياسية على أساس التفرقة بين أبناء الأمة الواحدة ، فتجعلهم طبقات بعضهم فوق بعض ، وتجعل من هذه الطبقات عبيداً ، بخلقتهم ، وسادة بولادتهم ، أولئك

خلقوا للتخلف الإنسانى والوضاعة البشرية ، فلا يصلحون إلا للعبودية وخدمة السادة وهؤلاء خلقوا للتقدم الفكرى والسيادة فهم سادة بولادتهم ووراثتهم .

وهل أعجب من أن يسجل تاريخ الحضارة الفلسفية لمعلم الفلسفة الأول أرسطو ، وأستاذه أفلاطون أنهما قررا فى فلسفتهما الاجتماعية والسياسية أن الناس متفاوتون فى أصل الجبلة وطينة الخلقة ، فبعضهم خلق للسيادة لأن طينته التى خلق منها عجنت بالذهب ، وبعضهم خلق للعبودية وخدمة السادة لأن طينته التى خلق منها عجنت بالحديد ، بل إن بعض الأمم تجعل من بعض أبناء الإنسانية أشباحا وآلات وأشياء ، ولا ترضى أن تسميهم أناسى ، فإذا تحركوا فإنما تحركهم سياط السادة يلهبون بها ظهورهم ليدوروا فى طواحين الحياة ورحياتها .

أما الإسلام فقد أبان عن نفسه أفصح إبانة ، بأبلغ بيان بأنه عرف للإنسانية حقها فى مكانتها السامية التى احتلتها فى الوجود بتكريم الله لها وتفضيله عز شأنه للإنسان على كثير من خلقه ، وأن دستوره القرآن العظيم نادى بالمساواة بين أبناء الإنسانية أفراداً وجماعات وأمماً وشعوباً فى الحقوق والواجبات ، ولكنه لم يغفل شأن التفاوت الذى تظهر آثاره فى أعمال وتفكير بعض الأفراد ، أو بعض الأمم فى التقدم أو التخلف ، وهو تفاوت طارىء على الطبيعة الإنسانية يعرض لها بتأثير البيئة أو غيرها من الدوافع أو المعوقات التى لاتلبث أن تزول إذا عولجت اجتماعياً وفتح أمامها طريق التقدم .

اضطرار الإسلام إلى أن يحد من حرية بعض الافراد

جاء الإسلام والعالم فى مشرق الشمس ومغربها يموج فى لجة من الشرك والوثنية فى صور وأشكال كثيرة ، وكانت تسود العالم نتيجة لذلك حالة من الفوضى الاجتماعية تتحكم فى توجيهها القوة الغاشمة والظلم الفادح، والبغى الفاجر ، يفتك فيها القوى بالضعيف ، ويذل القادر العاجز ويسخر الغنى الفقير ، فى ظل من القوانين الجائرة ، والنظم الطاغية التى تحمى الظلم والاستبداد وتناصر البغى والفساد .

عالم طمست فيه معالم الهداية ، وانتشرت فى لجاجة دعائم الضلالة ، تتحكم فيه مجوسية وثنية بإباحيتها الاجتماعية وفجورها الخلقى ، إلى جانب مسخ من الشرك الأصم والوثنية العمياء، تعبد المال وتكره العدل، لا تعرف قانوناً ولا تقر بنظام، وإنما تعيش فى جاهلية جهلاء ترتكب فى ظلها الشرور والموبقات، وتحكمها سطوة الغرائز فى فلسفة إلحادية تسخر من العقول لتحمى الفجور باسم العلم والفلسفة .

فى هذا الجو الخانق ظهر الإسلام ، ومن أعطاف هذه الظلمات أشرق نوره فى أفق الجزيرة العربية وبعث الله خاتم النبيين محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق .

ليهدم الشرك بجميع أنواعه وأشكاله .

ويقضى على الوثنية فى جميع صورها وألوانها ..

ويقيم على الأرض منائر التوحيد .

ويخرج الناس من الظلمات إلى النور .

ويحرر العقل الإنسانى من ربقة الجمود والتقليد وبلاهة التفكير البليد .

ويقضى على الظلم الاجتماعى .

ويقيم معالم العدل والمساواة .

وينقذ المستضعفين فى الأرض من نير الإذلال والمهانة .

وينشر بين الناس راية الإخاء والمحبة .

ويرسى دعائم القيم الخلقية والفضائل الإنسانية لتكون أساساً لبناء الحياة استجابة لأمر الله فى إخباره بقوله : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) .

على هذا الأساس قامت دعوة الإسلام ، وفى هذا الجو الخريفى الذى تساقطت فيه جميع أوراق الفضائل من أشجار الحياة ظهرت هذه الدعوة ، فكان من الطبيعى أن تجد الأرض تحت أقدامها مليئة بالأشواك والطرق أمامها مفعمة بالسدود والعقبات ، وكان من الطبيعى أيضاً أن تناهض وتقاوم بكل قوة وبكل سلاح ، وأن تحارب فى كل اتجاه ، وأن يسام أهلها سوء العذاب حتى لا تنتشر فتقضى على الفساد وتبدد بنورها الظلمات ويسود الحياة النظام والعدل . وتحرر العقول ، ويعرف كل ذى حق حقه فى الحياة الحرة الكريمة .

وقد نهض رسول الله ﷺ للقيام بأمر ربه فى عزيمة ماضية وإرادة مصممة فصبر على أشد الأذى محتسباً ، وصابر الجهالة والسفه محتملا ، مكث بمكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله بالبيان والحجة ، ويبلغ رسالة ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، يعتدى عليه وعلى أصحابه فلا يرد الاعتداء ،

ويظلم فلا ينتصف لنفسه من ظالميه ، ويساء إليه فيقابل الإساءة بالإحسان، يعفو ويصفح ويأمر أصحابه بالصبر الجميل، والتجاوز عن المسيئين والإعراض عن الجاهلين .

يعرض نفسه على الناس فى المواسم والمحافل ، يدعوهم إلى الله ويبلغهم رسالة ربه ، فكان منهم من يحسن الاستماع إليه والفهم عنه ، ولكنه يستأنى فلا يجيب إلى الإيمـــان ، ومنهم من يسيء رده مستهزأ مبالغاً فى الإيذاء ، فلا يجدون منه إلا حلماً وصبراً جميلا ، وبراً ورحمة أقصى ما ينفس به عن نفسه أن يتضرع إلى الله فيقول : (اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون) .

وقد آمن بدعوته صلى الله عليه وسلم فى هذه الفترة المكية — وهى أطول فترتى بعثته صلى الله عليه وسلم — قلة كان أكثرهم من المستضعفين والمستعبدين الذين لا يملكون قوة يدفعون بها عن أنفسهم، وكانوا يصبحون فى سعير العذاب ، ويمسون فى أشد البلاء ، يجأرون بالشكوى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يزيدهم على قوله : (اصبروا فإن الله جاعل لكم فرجاً) .

ولما ضاقت بهم الآفاق فى الحياة وسدت أمامهم مسالك الاحتمال أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة فهاجر إليها منهم من قوى على الهجرة يقاسون آلام الاغتراب ويحتملون شدائد البلاء والمحن وهم صابرون مصابرون .

ثم هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن بايعه طلائع الإيمان من أهلها على أن ينصروه بما ينصرون به أنفسهم ، ويمنعونه مما يمنعون منه أهليهم

وذراريهم ، وتتابع على أثره سائر أصحابه مهاجرين إليـــه ، وأصبحت المدينة قلعة الإسلام وحصنه وعاصمة دولته الناشئة ، منهـا يخرج معلموه والدعاة إليه ، ومنها تجهز كتائبه وتبعث سراياه .

وقد كانت الهجرة إلى المدينـة مفتـاح الصراع بين قوى الحق ، وبين أحزاب الباطل ، وزاد فى لهب هذا الصراع أن الحسد والبغى دفعا اليهود إلى أن يغدروا بعهدهم مع الله تعالى ، ويضعوا أيديهم فى أيدى المشركين من الوثنيين ليكونوا إلباً على حرب المسلمين بعد أن كانوا يستفتحون بالإسلام ونبيه على المشركين ويتوعدونهم ببعثه : (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به) وغدروا بما عاهدوا عليه النبى ﷺ من المسالمة والسلام والأمن ، وراحوا يحرضون القبائل ويجمعون أعداء الإسلام ، ويحزبون الأحزاب ، ويغرون المنافقين يعدونهم ويمنونهم ، ومايعدونهم إلا غروراً ، ولقى هذا كله هوى من طغاة الشرك ، وبدأت المعارك الحربية واتسع مدارها ، وتعددت ميادينها حتى شملت الجزيرة العربيـة كلها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، والمسلمون لايكادون يخرجون من معركة حتى يجدوا أنفسهم أمام معركة أخرى أشد وأقسى إلى أن تجاوز النضال الحربى الجزيرة العربية .

فدخل فيه الفرس بثقل قوتهم العسكرية يواجهون بها الإسلام والمسلمين فى كبرياء جوفاء وغرور أخرق ، ودخـل فيـه الروم بجحافلهم وجيوشهم المجهزة بالعدة والعتاد .

وقد كان الفرس يحتلون يمن الجزيرة العربية ويحمون عراقها ، وكان الروم يحتلون شـــام الجزيرة العربية ويحمون تخومها ، فلما بلغ الدولتين العملاقتين صدى انتصارات الإسلام وماحل بأتباعهم من مستعربة اليمن

والعراق وتخوم الشام من الهزائم المنكرة تحركت فيهما دوافع الانتقام ، فعبئوا قواتهم وتجهزوا لحرب المسلمين ويريدون استئصالهم ، وبلغت أنباء استعدادهم لمهاجمة المسلمين رسول الله ﷺ ورأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يبدأ بالروم لأنهم أقرب أعداء الإسلام إلى عاصمته تخشى غائلتهم ويتوقع هجومهم فتجهز إليهم في جيش كثيف لم يسبق للمسلمين عهد بمثل كثرته ، وسار إليهم النبي ﷺ يقود ذلك الجيش بنفسه حتى وصل إلى تبوك على مشارف الشام ، حيث تتراأى القوتان المتصارعتان ، وأقام النبي ﷺ على مرأى منهم أكثر من عشرين ليلة لم يلق فيها كيداً ، ولم يشتبك بعدو ، وصالحه على الجزية كثير من أهل البلاد التي مر بها في طريقه إليهم ، ثم عاد إلى المدينة موفور النعمة من الله ، متوجاً بالنصر ، مرهوب الجانب قوى العزيمة ، ماضى الإرادة ، يحذر الغدر والغرة ، ويتيقظ للمفاجأة ، ويعد لأعداء الله أقصى مايستطيع من قوة يرهب بها عدو الله وعدو المسلمين حتى يستطيع الحق الإلهي أن يعيش آمناً في ظل قوته المادية والروحية .

وكان هذا المسير في هذه الغزوة أول عمل في تنفيذ خطة تبليغ الدعوة الإسلامية ونشرها خارج الجزيرة العربية ، وضع أساسه النبي ﷺ تحقيقاً لعموم الرسالة ووجوب تبليغها إلى الناس كافة .

وقد كف النبي ﷺ يده مع استعداده — عن قتال أعدائه والدخول معهم في حرب واكتفى بصلح من صالحه في طريقه ، لأنه ﷺ لم يكن يقصد إلى القتال ، وإنما قصد إلى تبليغ دعوته وإظهار قوة الإسلام أمام أعدائه المتربصين به والمتحفزين للوثوب عليه ، كما قصد إلى تجرىء المسلمين على أعدائهم . ودفعهم إلى تبليغ دعوة الإسلام في شجاعة وقوة لاترهب

هذه الجموع الحافلةمن قوى الأعداء التى لاتحمل إلا قلوباً جوفاء خاوية من دوافع الإيمان .

فلما كف أعداء الإسلام أيديهم عن قتال المسلمين وعن التعرض لدعوة الإسلام لم ير النبى ﷺ أن ينشب معهم قتـالا ، ولم ير أن يخوض معهم حرباً ، ولـكنه كان حريصاً على توجيه أنظار المسلمين إلى الخروج بالدعوة إلى آفاقها العالمية ، فإنه ﷺ لم يكد يصل بجيش تبوك عائداً إلى المدينةحتى أخذ فى إعداد وتجهيز جيش أسامة بن زيد للمسير إلى مواجهـة الروم لرد عدوانهم إذا حـدثوا أنفسهم بمهاجمـة المسلمين حتى يشعر المسلمون بحقيقة واجبهم نحو الدعوة إلى الله وتبليـغ دعوة الإسلام ، وحتى يشعر أعـداء الإسلام أنهم أمام قوة تستهدف المضى إلى غايتها ، ولاتبالى ألقيت فى طريقها الموت والبلاء أم الحياة والسراء .

وقد كان من حكمة الله تعالى وتدبيره لسياسة هذه الأمة الإسلامية أن جيش أسامة لم يخرج إلى وجهه فى حياة رسول الله ﷺ ، بل خرج إلى ذلك الوجه بعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وبعد أن تسلم المسلمون زمام دولتهم يسوسونها بدوافع إيمانهم وقوةعزائمهم على أقوى دعائم الشورى.

وقد كان جيش أسامة هـو القوة المجاهـدة من كتائب الإسلام التى استوعبت المهاجرين والأنصار ، ونزل بالمسلمين — وهو على أهبة المسير إلى وجهه — ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها .

فقد انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وترك المسلمين كالشياه المطيرة فى الليلة الشاتية ، وارتد عامة العرب وانتفخ سحر الشيطان واشرأب المنافقون وأظهرت اليهودية خبيث أحقادها ، وزلزلت أقدام الراسخين ، وطمع فى المسلمين من لايدفع عن نفسه ، واندفع الأعراب

لغزو المدينة وتلاحقت الأحداث مسرعة تقطع على الناس أنفاسهم وفى لحظة من نفحات الغيب تمت بيعة الصديق أبى بكر رضى الله عنه خليفة لرسول الله ﷺ فكانت بيعته بلسماً لجراح الفرقة التى كادت تودى بالأمة وتوردها موارد الهلكة لولا لطف الله وواسع فضله ، فرأب الله به الصدع ، ولم به الشعث ، وجمع به الكلمة ، ووحد به الأمة ، وقوى بعزيمته العزائم ، وانتهض إلى الأمر بعزيمة دونها صوارم العزائم ، ومشى إليه بإرادة دونها قواطع الصوارم فرعبل المرتدين وفرق جموعهم ، وبدد شملهم ، وفل حدهم وخضد شوكتهم ونكس رايتهم ، وأعادهم إلى حظيرة الإسلام طائعين ومكرهين ورد رسن الإسلام إلى غربه ، وجدد قوته وأقام أساس دولته ، وجعل من الأمة العربية قوة موحدة تقوم بالدعوة إلى الله ، وتبليغ رسالة الإسلام إلى الأحمر والأسود ، وتواجه بقوة إيمانها غرور الدولتين القويتين فى العالم .

وفى غمرة هذه القواصم وعنفوان شدتها وفورة ثورتها أمضى الصديق جيش أسامة إلى وجهه الذى كان أراده رسول الله ﷺ رغم معارضة الأكابر عمر بن الخطاب فمن دونه من المهاجرين والأنصار .

عارضوا — أولا — فى تسييره لوجهه ، وفيه قوة المسلمين المجاهدة فلما رأوا عزيمة الصديق لاتنثنى تراجعت عزائمهم أمام عزيمته ، وتوحدت كلمتهم مع كلمته . ثانياً فى قيادته وطلبوا إلى الصديق أن يقود هذا الجيش قائد أسن من أسامة فأبى عليهم أبو بكر رضى الله عنه الثانية كما أبى عليهم الأولى ، فى عزيمة لاتتبدل ولاتتغير ولاتهن ولاتتردد ، وقال فى ذلك كلمات وضعت الإيمان فى كفة ، والدنيا بحذافيرها فى كفة ، فرجحت كفة الإيمان ، ومضى

جيش أسامة إلى وجهه ، ومضى الصديق فى سياسته وتدبيره ، وعاد جيش أسامة بعد أن حقق هدفه كما عاد جيش تبوك موفور النعمة مؤيداً بنصر الله متوجاً بعزه .

وكان الصديق رضى الله عنه قد عقد الألوية لحرب المرتدين ، وسير المجاهدين إلى مواطن الفتنة فبخعها بهم ، وكتم أنفاسها ، وقضى على مشعلى نيرانها ، وحزم العرب بوحدة الإيمان ، ولم يتركهم حتى يضمدوا جراحهم، بل سيرهم وهذه الجراح تثعب دما ، يتحاملون على أنفسهم من شدة آلامهم إلى المتربصين بالدعوة الإسلامية من أعدائها الخارجين ، الفرس والروم .

بيد أن الصديق رضى الله عنه رأى أن يبدأ بالفرس - بعد جولة جيش أسامة فى مواجهة الروم — لأن حرب المرتدين كانت قد وصلت إلى قريب من الفرس وعرفوا أخبارها ، وظاهروا بعض المرتدين على خوضها ، وأمر قائده خالد بن الوليد بعد أن فرغ منتصراً من حرب اليمامة وهى آخر وأقسى وقائع المرتدين — بالسير بمن معه من المجاهدين إلى العراق لأنها باب فارس ، فصدع خالد بأمر الخليفة ، وتم له فتح العـــراق حتى وقف بجيوشه على مشارف فارس .

ولم يكن بدء الصديق بالفرس ليشغله عن الروم بالشام لتخليصها من نير استعبادهم بل سير إليهم كتائب المجاهدين تحت إمرة أبطال الإسلام ولكن قوة الروم فى الشام كانت أكثر عدداً وعدة من قوة الفرس فى العراق ، فلم تتمكن جيوش المسلمين بالشام مما تمكنت منه جيوشهم فى العراق ، وكتب قواد المسلمين بالشام إلى الخليفة يطلبون إليه أن يمدهم بمزيد من القوة واصفين له كثرة جيوش الروم ، فكتب الصديق رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد يأمره بالسير إلى الشام ليقود جيوش المسلمين فيها

إلى النصر كما قاد جيوشهم فى العراق : فسار خالد رضى الله عنه [بغمرة جيوشه يعتسف الطريق اعتسافاً حتى خرج بجحفله من وراء جيوش الروم وباغتهم بقوته ووضع مع إخوانه القواد خطة المواجهة للأعداء ، وبدأت المعارك قاسية مريرة ، يحيل النصر فيها قساوتها إلى قوة احتمال ومرارتها إلى حلاوة النضال .

وبينما النضال على أشده وأوار الحرب تتلظى نيرانه توفى أبو بكر الصديق رضى الله عنه وتولى الخلافة بعده الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وتم فى عهد عمر هداية فارس ودخولها إلى ساحة الإسلام كما تم فى عهده تحرير الشام ومصر من نير الروم .

ثم تواثبت جيوش الإسلام فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى شمال أفريقية ، تدعو إلى الله وتبلغ دعوة الإسلام وتدفع من يعترض طريقها معتدياً أو صاداً عن سبيل الله ومخرت أساطيلها ثبج البحر الأبيض تجوس خلال جزره وسواحله الأوربية ، حتى فتحت الأندلس فى عهد الوليد بن عبدالملك ، وتتابعت الوقائع لم يفصل بينها إلافترات الفتن الداخلية بين المسلمين ، أو فترات فتور الترف والترهل الشهوانى اللذين احتنكا أغوار الملوك والأمراء والولاة من الشباب المترف الذين ابتلى بهم الإسلام فى فترات الانحلال ، فأنساهم واجب الجهاد وتبليغ دعوة الإسلام وانحرف بهم انحرافاً ألقى على الإسلام ظلاقاتماً من الانحلال ، ومزق الدولة الإسلامية إلى دويلات هزيلة متباغضة قامت فيها أسواق النخاسة والرق الفاجر الذى أساء إلى الإسلام والمسلمين ، وأعاد إلى الجو الإسلامى رائحة التعفن الجاهلى فى (الرق) والإسلام يبرأ من ذلك ويستجير .

وقد سلط الله على المسلمين جزاء انحرافهم عن شرائع دينهم — ولاسيما فيما شاع وملأ أرض الإسلام من فجور (الرق) وأسواق النخاسة الداعرة التى قامت فى الدويلات المترفة وفى قصور الملوك والأمراء والولاة المتحللين من فضائل الأخلاق الإسلامية — من نكل بهم أشد تنكيل ، وسامهم سوء العذاب وأحل الله بهم نقمته بغارات التتار الوحشية التى أغرقت الوطن الاسلامى فى دماء أهله وخربت البلاد وفتكت بالعباد .

ثم بما أصابهم من سلب ملك الأندلس من أيديهم نتيجة للإفراط فى الترف الماجن الذى كان أساسه (الرق) بعد ما نزل فيها بهم من عظائم الكوارث تحقيقاً لسنة الله فى عباده فى قوله تعالى : « وماظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (١) ، وكما قال تعالى : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » (٢) « وقال تعالى : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (٣) . وقال تعالى : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (٤) .

وكانت ثمة وقائع الجهاد فى سبيل الله — بعد شدائد المحن وكوارث الفتن — وقائع رد الاعتداء الصليبي الذى تألبت فيه أوربا كلها — ومن ورائها كل حاقد على الإسلام والمسلمين فهزمهم الله شر هزيمة على يدى بطل الإسلام وابنه البار الملك الصالح المصلح المجاهد صلاح الدين الأيوبى .

ولكن الأحقاد الدينية التى ملأت قلوب أعداء الإسلام والترف الشهوانى

---

(١) سورة النحل آية ٣٣. (٢) سورة هود آية ١٠٢ .
(٣) سورة هود آية ١١٧. (٤) سورة الأنفال آية ٥٣ .

الذى ملك على من جاء بعد صلاح الدين من الملوك والأمراء والولاة مشاعرهم وأحاسيسهم ، تعاوناً على قتل روح المقاومة فى الأمة الإسلامية ، فاستسلمت مكرهة وسلم ملوكها وأمراؤها زمامها إلى جلاديها الحاقدين عليها من ذؤبان أوربة الجائعة فقبضوا على ناصيتها وتحكموا فى مصيرها حتى صار المسلمون إلى واقعهم الذليل فى حياتهم اليوم .

هذه صورة مجملة أشد الإجمال مضغوطة أشد الضغط موجزة أوجز الإيجاز تصور موقف الإسلام فى جهاده وموقف أعدائه من هذا الجهاد ، وهو جهاد أبنا عن مشروعيته أوضح إبانة ، فهل كان فى خطوط هذه الصورة فراغ يمكن الا يكون فيه جهاد ؟ وحينما كان الجهاد لرد الاعتداء ودفع العدوان ، فهل كان يمكن ألا يكون هناك أسرى نتيجة لهذه الوقائع المتتابعة ؟ وحيث كان هناك أسرى ، فما هو الموقف الإنسانى الذى كان يجب أن يكون فى التصرف معهم ؟ أيقتلون قتلا جماعياً ليتخلص منهم ومن مسئولياتهم ؟ أم يطلقون ليعودوا إلى أقوامهم من أعداء الإسلام ليكونوا حرباً على المسلمين ورداً لقومهم عليهم دون مقابل يحفظ خط الرجعة لجيوش المسلمين ؟

أم يبقون تحت سلطان الحكم الإسلامى مضمونة لهم حقوقهم الإنسانية فى حياتهم ، وحرية تفكيرهم وانطلاقهم الذى لا يحد فى سبيل العلم والمعرفة ؟

وإذا كان بقاؤهم تحت سلطان الحكم الإسلامى خيراً لهم وللحياة فهل كان يمكن بقاؤهم عاطلين عن حلية عمل يعملونه فى حياتهم الجديدة ؟ وفيهم الرجال الأشداء ، والنساء ، والولدان ؟

هذه صورة (الرق) فى نظر الإسلام فى أبسط خطوطها بعيدة عن التعقيد ، وزيف السياسة الجوفاء التى ترسم على الورق صور معاهدات وقرارات وقوانين ونظم للحرية الكلامية التى لا تجد سبيلا إلى التطبيق العملى .

روح الإسلام تقضى على الرق

والإسلام لم يقنن لشرعية (الرق) ابتداء وليس فى نصوصه مطلقاً نص يأمر بالرق أو يرغب فيه ، وكل ما جاء فيـــه أحكام فرعية تنظم واجبات الأسرى وحقوقهم فى حدود الضرورة التى يمكن أن تكون فى دائرة الإمكان الإسلامى ، وأحكام ترغب فى العتق وتحرير من انتهى بهم أمر الأمر إلى (الرق) فى حدود الضرورة باعتباره شراً لا بد منه .

بل إن بعض نصوص الإسلام يوشك أن يكون نهياً عن المصدر الوحيد للرق فى نظر الإسلام ، وهو الأسر فى حرب مشروعة للدفاع عن النفس ورد العدوان على الدعوة إلى إعلاء كلمة الله ، إلا إذا ألجأت إليه الضرورة التى لامحيص عنها، فالله تعالى يقول معاتباً للمؤمنين الذين استعجلوا نهاية المعركة فرحا بالغنيمة والأسرى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم »(١) .

فهذه الآية تحريض على الوصول بالمعارك التى يضطر الإسلام إلى

(١) سورة الأنفال آية ٦٧ .

خوضها دفاعاً عن دعوته وحماية لأمنة — سيق مساق العتاب ليكون أنفذ إلى مجامع القلوب ، وبيان أنه ما كان ينبغى — وقد مكن الله أهل الإيمان من رقاب طواغيت الشرك وأصنام الوثنية فى أول وقائع المواجهة الحربية بين جند لله أنصار الحق، وبين قوى الشر والطغيان — أن يسارع أنصار الله إلى إنهاء المعركة قبل أن يبلغوا من قوى الشر مبلغاً يردها إلى ذلة الهوان وضعف المقاومة ، بل كان عليهم أن يضربوا الضربات الحاسمة التى تبدد قوة الأعداء ، حتى يتطاير صداها فى الآفاق فترعب المتربصين من خلفهم استجابة لقول الله تعالى : « فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون »(١) .

وإذا عوتب المؤمنون هذا العتاب الشديد بتهديده البالغ فى وعيده ، لمجرد أنهم رغبوا فى أن يكون لهم أسرى وغنائم قبل أن يصلوا بالمعركة إلى نهايتها الفاصلة فى توهين شوكة الأعداء كان ذلك دليلا واضحاً على أن الإسـلام إذا اضطر إلى خوض الحرب وجب أن يخوضها قوياً قاهراً . لا يمهل أعداءه ولا يرضى بغير النصر الحاسم فى ميدان المعركة ، وكان دليلا على أنه يكره مبدأ الاحتفاظ بمن عسى أن يؤول أمرهم إلى الاسترقاق ، لأن هدف الإسلام من تشريعه (جهاد القتال) هو إعلاء كلمة الله وتأمين الدعوة إلى الله ، ولا يتحقق ذلك إلا بالضربات الحاسمة تنصب على أعناق الطغاة ، فليس الأسر ونتائجه غرضاً من أغراض الجهاد فى الإسلام ، ولا هدفاً من أهداف الدعوة إلى الله التى شرع هذا الجهاد لحمايتها وتأمين سيرها دون أن تجد فى طريقها عقبات تعوق سيرها وتصد عنها الراغبين فيها .

(١) سورة الأنفال آية ٥٧ .

وقد وجه الخطاب فى صدر الآية المعاتبة إلى النبى ﷺ لقوة احتماله فى جلال مكانه من رسالة ربه باعتباره القائد الأعظم الذى يتلقى الأحكام والأوامر الإلهية ثم يبلغها إلى الأمة معلماً ومؤدباً ومرشداً ، ولذلك جاء تعليل العتاب وهو موضع المؤاخذة وكان النبى ﷺ بريئاً منه طاهراً مطهراً موجهاً إلى الذين كان منهم الميل إلى عرض الدنيا وهم قوم فى غمرة المؤمنين لم يعينهم الله بذكر أسمائهم ولا بذكر خصائص تميزهم شفقة عليهم وستراً لموقفهم حتى لا تبخع نفوسهم حياء من الله ورسوله وعامة المؤمنين .

والنص الوحيد الذى جاء فى إمساك الأسرى لم يذكر فيه الاسترقاق تصريحاً ولا تلميحاً ، بل إن هذا النص فتح للأسرى باب الحرية على مصراعيه فجعل مآلهم بعد الإثخان فى المعركة إما أن يمن عليهم فيطلقوا بغير فداء ، وإما أن يفادوا أنفسهم بما يرضاه إمام المسلمين فداء لهم من مال أو تعليم أو تبادل أسرى أو أية منفعة تعود على المسلمين بفائدة لها قدرها فى مصالح المسلمين .

وهو نص يصور موقف الإسلام من (الرق) وأنه أمر لا يدخل فى أصالة التشريع الإسلامى وإنما هو من قبيل الظواهر التشريعية التى تفرض طارئة فيقرر لها حكمها ليكون الناس على بينة من أمرهم فيما يطرأ عليهم من أحداث تستدعى أحكاماً شرعية تجرى فى نطاقها قال تعالى : «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها»(١)

---

(١) سورة محمد آية ٤ .

ومعنى الآية أن الله تعالى يقول للمسلمين: ياأيها الذين آمنوا بالله ورسوله إذا لقيتم الذين كفروا بالله وبرسوله من سائر الملل والأجناس محاربين لكم فشدوا وطأتكم عليهم ولا تتخاذلوا فى لقائهم، وكونوا أقوياء جرءاء عليهم، واضربوا ضربات حاسمة تفض جموعهم وتقضى على قوتهم حتى إذا أثخنتموهم وأكثرتم فيهم من قتل طواغيتهم، وأوهنتم عزائمهم، وتمكنتم من أخذ بقايا فلهم فخذوهم وشدوا وثاقهم حتى لا ينفلت منهم أحد من قبضتكم، ثم انظروا مؤتمرين متشاورين فى أمرهم وأنتم فيهم بين أمرين تأخذون بأيهما رأيتم فيه مصلحتكم، ومصلحة دينكم، فإما أن تمنوا عليهم متفضلين بإطلاقهم إذا رأيتم أن ثقل المنة فى أعناقهم يصلح من حالهم ويفتح أمامهم باب النظر فى دلائل الهداية وأنتم آمنون من غائلة غدرهم، وإما أن تفادوهم بأسراكم عندهم أو تفادوهم بما ترون من مال أو غيره، مما يكون لكم قوة على أعدائكم تصلحون به أمركم فى تجهيزكم وإعداد ذخيرتكم وأسلحتكم وتعليم جندكم وتدريبهم على فنون القتال، لتكون قوتكم مرهبة لأعداء الله وأعدائكم، ومرهبة لمن وراءهم ممن يظاهرون عليكم أعداءكم خفية بالسلاح والمال أو العلم والتدبير.

فإن كان المن على الأسرى مما لا يصلح لهم ولا للمسلمين، ويخافون أن يعودوا حرباً عليهم وعجز الأسرى عن الفداء أو لم يقبلوه فلم يبق إلا أن يكون هؤلاء الأسرى تحت أيدى المسلمين محكومين بسلطان الغلبة عليهم، يؤدون واجباتهم فيما يكلفون من عمل، ويؤدى لهم آسروهم من المسلمين حقوقهم كإخوة فى الإنسانية جعلهم الله تحت أيديهم.

وهذه الصورة الأخيرة التى تنتهى بعدم صلاحية المن للمسلمين وعدم

إمكان الفداء هى التى تؤول إلى الاسترقاق ، تيسيراً لمهمة الإعاشة الكريمة للأسرى ، فى الجو الذى كان يعيشه الإسلام اقتصادياً ، واجتماعياً ، وهى كالاستثناء من عموم الحكم لعدم إمكان تطبيقه بصورتيه الأصليتين : المن والفداء .

وقد من رسول الله ﷺ ، وفادى بالمال والعلم ، من على ثمامة من أثال ، ومن على سبى هوزان ، ومن على قوم من أهل مكة أرادوا الغدر به وبأصحابه وهم نازلون بالحديبية فأخذهم أصحابه فأطلقهم ومن عليهم ، وفادى بعض الأسرى بعض أسرى المسلمين وفادى بعض أسرى بدر بالمال وبعضهم بالعلم والتعليم للمسلمين .

أما قتله ﷺ لعقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحارث بعد أسرهما فى معركة بدر ، فلأنهما كانا خبيثين يسيئان إلى النبى ﷺ وأصحابه وإلى الدعوة إلى الله إساءة توجب الخلاص منهما تطهيراً للحياة من رجسهما ، ولم يكن هذا القتل تشريعاً لجواز قتل الأسير لمجرد الأسر ، فإن هذا مما لا يدخل فى حكم الآية التى حصرت معاملة الأسرى فى أمرين استتبعا عند الضرورة أمراً ثالثاً .

ومن ثم أنكر بعض الأئمة جواز قتل الأسير ، كحكم من أحكام التصرف فى الأسرى ، روى ذلك عن عطاء والحسن ، ونقل عن ابن عمر رضى الله عنهما وهو قول مالك والشافعى والثورى والأوزاعى وأبى عبيد وغيرهم من الأئمة أهل الاجتهاد وفقهاء الأمصار .

وهذه الآية (إذا لقيتم الذين كفروا) مدنية محكمة وهى من آخر ما نزل فى الجهاد وحكم الأسرى ، وفى ظلها استقر الأمر ، وبهذا

يظهر أن ما جرى عليه العمل فى صدر الإسلام من توزيع الأسرى فى ضمن الغنائم على المجاهدين كان ضرورة اجتماعية ألجأ إليها الوضع الاقتصادى يومئذ وقد شرع لها الإسلام ما يناسبها حتى انتهى الأمر عند هذه الآية المحكمة .

وليس بعد نص القرآن الكريم اجتهاد لأحد ، ولا مع بيان النبى صلى الله عليه وسلم — وجمهور أصحابه يحفون به ، يتلقون عنه أحكام الله ، وتلاميذهم من حولهم يأخذون عنهم سنة نبيهم — بيان لأحد ، ولا مع تصرفه صلى الله عليه وسلم بياناً لكتاب الله تعالى تصرف لأحد ، فإذا ذهب بعض أهل الاجتهاد والفتوى من أئمة الإسلام إلى غير ما دل عليه ظاهر القرآن ، وإلى غير ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجه اجتهادى فهو مأجور مثاب على اجتهاده غير متابع فى هذا الاجتهاد للإجماع على أن اجتهاد المجتهد فيما وراء النص غير ملزم باتباعه .

وإذا انحرف عن طريق الحق بعض الظلمة من الولاة والأمراء المتحللين الذين لم يسوسوا الأمة بكتاب ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم، وإنما ساسوها بأهوائهم وغرائزهم الشهوية بعيداً عن سماحة الإسلام وهدايته — فانحرافهم على أنفسهم فلا يكون حجة على الإسلام وتشريعه، فالنخاسة التى كانت تملأ قصور المترفين فى عصور التحلل والانحلال لا يعرفها الإسلام ولا تعرفه ، وكانت هى اللعنة التى هدمت بناء الوحدة الإسلامية على أيدى هؤلاء المماليك الذين ملئت بهم قصور الحكم ، وتحكموا فى شئون الدولة من وراء ستائر الدمقس والحرير ، واشتعلت

بينهم نيران التنافس ، فقتلوا (الخلفاء) والحكام ، وقتل بعضهم بعضاً جزاء وفاقا .

وقد بينا أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لم يرد فيهما نص يأمر أو يرغب فى الاسترقاق وآية الأسرى الوحيدة ليس فيها إشارة من قريب ولا من بعيد إلى الاسترقاق وقد فهمها حذاق الأئمة على ظاهرها ومرحلة الاسترقاق فى آية فرضية على طريقة الاستثناء من الوضع الأصيل للأسرى فيها .

فالرق فى نظر الإسلام شر لا بد منه فيجب إذ كان كذلك أن يكون فى أضيق الحدود وهو من الحلال البغيض إلى الله ، فإذا بقى فليبق فى أضيق دائرة ، وقد فتح الإسلام أبواب الخلاص منه إذا استطاعت الإنسانية أن تعرف لنفسها مكانتها فى الوجود ، وإذا استطاعت أن تهذب غرائزها الجامحة فتحيا حياة إنسانية تعرف الحق لأهله وتخلى الطريق أمام الدعوة إلى الله والدعوة إلى الحق والعدل ، وإلى الإخاء والمساواة فى الحقوق والواجبات التى تقتضيها إنسانية كل فرد من أفراد الإنسان فى الحياة .

* * *

صور إنسانية إسلامية نبيلة في معاملة الأسرى والأرقاء

بينا أن الإسلام ينظر إلى (الرق) نظره إلى شذوذ إنسانى ، باعد بين طائفة من أبناء الإنسانية وبين كرامة الآدمية ، التى سربلها الله بنى آدم نعمة من أجل نعمه التى امتن بها عليهم فى قوله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[1] ، وفى قوله تعالى : ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين »[2] .

وقد أوضحنا منهج الإسلام ودوافعه الملجئة إلى قبول هذا الشذوذ الذى قضت به ضرورة الحيـــاة الاجتماعية والاقتصادية ، وموقفه من الدفاع عن دعوته إلى إعلاء كلمة الله ، ورد الاعتداء الظالم عليهـا .

بيد أن الإسلام ــ لكى يكون منطقياً منصفاً مع نظره إلى شذوذ (الرق) تسامياً بالآدمية عن وضاعته ومع منهجه فى قبوله فى أضيق الحدود مضطراً رأى أن يعوض الذين أوقعهم سوء الحياة العقيدية والاجتماعية تحت نير هذه الشذوذ ما فقدوه من الكرامة الآدمية فى ظل (الرق) وأن

---

(١) سورة الإسراء آية ٧٠ . (٢) سورة الأعراف آية ١١ .

يرده عليهم فى معاملة إنسانية نبيلة ، تشعرهم بأنهم لا يزالون — فى نظر الإسلام يتمتعون بالكرامة الإنسانية والتكريم الآدمى ، وأنهم لم يفقدوا منها إلا لوناً محدوداً لعرض طارىء، يزول بزواله فهم قد فقدوا — فقط — بعض حرية الانطلاق الاجتماعى مما أوجبه الوضع القائم بين الإسلام وأعدائه أخذاً بمبدأ الحذر والاحتياط .

ولقد كان لهذه المعاملة الإنسانية النبيلة مظاهرها وصورها ، التى جعلت منها مبادىء توحى بحرص الإسلام على وحدة الإنسانية وكرامتها ، فى إطارها الأصيل الذى يجعل من أبنائها إخوة سواسية لا يفقدون من إنسانيتهم خصائصها الروحية والفكرية والاجتماعية .

وتتجلى هذه المظاهر فى صور من الواقع الإسلامى لا يتسع البحث لاستقصائها ، ولكنا نسجل منها نماذج لتكون مثلا شاهدة على الواقع الإنسانى النبيل فى سماحة هذا الدين الكريم .

(أ) كان (الرق) فى جزيره العرب منتشراً على الصورة الظالمة الباغية التى كان موجوداً بها قبل الإسلام فى أرجاء العالم عند جميع الأمم والشعوب ، يقوم فى أساسه ومنابعه على الاغتصاب والقوة الغاشمة بخطف الأفراد من مأمنهم ، وقهر الجماعات فى مستوطنهم ، وسوقهم إلى أسواق النخاسة حيوانات فى صور آدمية .

وكان ممن وقع عليه هذا (الرق) الظالم الباغى قبل نبوة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم فتى الفتيان (زيد بن حارثة) اختطف فى غفلة من قومه وهو يزور أخواله بالشام ، خطفته خيل من تهامة ، وسيق كما يساق غيره إلى سوق النخاسة فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد ابن

أخى خديجة بنت خويلد زوج محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، فوهبه حكيم لعمته خديجة ووهبته خديجة لزوجها محمد صلى الله عليه وسلم .

ولما افتقده أبوه وأعمامه وإخوته نهضوا يبحثون عنه فى قبائل العرب ، ويسألون فى المواسم حتى قدم عمه مكة فى شغل له فلقيه فى طرقاتها فعرفه ، وأراد أن يستوثق من معرفته فقال له : ما اسمك يا غلام ؟ قال : زيد ، قال : ابن من ؟ قال : ابن حارثة ؟ قال : ابن من ؟ قال : ابن شراحيل الكلبى ، قال : فما اسم أمك ؟ قال : سعدى ، وكنت فى أخوالى طيء فضمه عمه إلى صدره ، وأرسل إلى أبيه وقومه فحضروا ، وأرادوا من زيد أن يكون معهم ، فقالوا له : لمن أنت ؟ قال : لمحمد بن عبد الله ، فأتوه فقالوا : هذا ابننا فرده علينا ، قال : أعرض عليه فإن اختاركم فخذوا بيده ، فبعث إلى زيد ، وقال له : أتعرف هؤلاء ؟ قال : نعم ، هذا أبى ، وهـذا أخى ، وهذا عمى ، فقال له محمد ﷺ : فأى صاحب كنت لك ؟ فبكى زيد ، وقال : لم سألتنى عن ذلك ؟ قال : أخيرك ، فإن أردت أن تلحق بهم فالحق وإن أردت أن تقيم فأنا من قد عرفت ؟ فقال زيد : لا أختار عليك أحداً. فجذبه عمه . وقال له : يا زيد اخترت العبودية على أبيك وعمك ؟ فقال : أى والله ؟ العبودية عند محمد أحب إلى من أن أكون عندكم .

وعندئذ قال محمد ﷺ : يا معشر قريش : اشهدوا أنه ابنى يرثنى وأرثه وتبناه فصار ابناً عرفياً له . وكان التبنى سائغاً قبل الإسلام معمولا به ، يكسب به المتبنى جميع الحقوق والمعانى التى تكون عندهم لولد الصلب . ويعامل الأدعياء المتبنون معاملة الأبناء الحقيقيين من كل وجه حتى فى الخلوة

بالمحارم . وفى التحريم على المتبنى للدعى من زواجـــه بزوجته بعد طلاقها وفى الميراث وغير ذلك . ويدعى الدعى منسوبا إلى أبيه بالتبنى ويأخذ اسمه .

فلما جاء الإسلام وبدأ التشريع يقرر الأحكام الفرعية كان من أول ما قرره تصحيح هذا الوضع الباطل الذى يدخل فى الأسرة من ليس منها ، ويكسبه حقوقا قد تؤدى إلى أعظم الأضرار الأدبية والاجتماعية ، فنزل القرآن الكريم برد الأمور إلى حقيقتها ظاهراً وباطناً فأمر بنسبة الأدعياء إلى آبائهم الحقيقيين ، وبين أنهم ليسوا أبناء بالتبنى ، وأن هـــذا التبنى لايخرج عن كونه تلاعباً بالحقائق وأقوالا ترددها الأفواه دون أن يكون لهـا من الواقع نصيب ونزل قول الله تعالى : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عنــــد الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » (١) .

وروى البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) .

وحرمت على الأدعياء الخلوة بمن كن من النساء محارم فى زعم الأدعياء وهن لسن كذلك فى واقع الأمر ، ولذلك قالت سهلة بنت سهيل إمرأة أبى حذيفة رضى الله عنها: يارسول الله كنا ندعو سالما ابنا وإن الله قد أنزل ما أنزل ، وإنه كان يدخل على وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئاً ،

---

(١) سورة الأحزاب آيتا ٤ و ٥ .

فقال ﷺ ليرفع عنها الحرج ، ويذهب مايجده زوجها فى صدرها (أرضعيه يحرم عليك) لأن الرضاع فى التحريم بمنزلة النسب لقوله ﷺ فى الصحيحين : (يحرم من الرضاعة مايحرم النسب) .

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة رضى الله عنه ليستأصل من النفوس عقيدة باطلة كانت راسخة عند الجاهليين ، وبقيت إلى أول الإسلام ، تلك هى تحريم زواج من كان يدعى أبا لدعى زوجة دعيه بعد طلاقها منه . وأنزل الله فى ذلك قوله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا » (١) .

وقد أعاض الله تعالى زيداً عن منزلة التبنى — التى كانت تنزله من رسول الله ﷺ منزلة رفيعة — مكانة أرفع منها فناطه بحبه حتى كان يدعى بين الناس حب رسول الله ﷺ لمكانه فى قلبه ومحبته له ، وجعله أخا له ولسائر أهل بيت النبى ﷺ فقال له : (أنت أخونا ومولانا) ، ولهذا كان زيد يذكر فى عداد بنى هاشم وكان رسول الله ﷺ يعزه ويقدمه فى المواقف العظيمة ، روى الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : مابعث رسول الله ﷺ زيداً فى سرية إلا أمره عليهم ولو عاش بعده لاستخلفه .

ولمكانته عند النبى ﷺ زوجه زينب بنت جحش بنت عمته الأسدية أباً القرشية أماً ، وهى التى اصطفاها الله تعالى بعد طلاق زيد لها زوجاً لنبيه ﷺ ، فكانت فى عداد أمهات المؤمنين ، وكانت بمكانها منه تسامى عائشة رضى الله عنها .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

وأمره ﷺ فى غزوة مؤته على الجيش وفيه أشراف قريش ووجهاء المسلمين ، فكان فيهم ابن عم النبى ﷺ جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه .

وفى حديث زيد من غرر المعانى الإنسانية النبيلة أمور ننبه إلى بعضها إظهاراً لما تصوره من سماحة الإسلام ومكارم الأخلاق المحمدية .

١ — وهبت خديجة مولاها زيد بن حارثة إلى زوجها محمد ﷺ قبل نبوته ﷺ ، فجعله أخاً له وصاحباً ، ولم يتخذه عبداً رقيقاً فى معاملته وعشرته ، ولذلك حينما خيره بين أن يلحق بقومه ويذهب مع أبيه وعمه وبين أن يبقى معه قال له : (فأى صاحب كنت لك ؟) ولم يقل أى رب أو سيد كنت لك .

٢ — لما اختار زيد البقاء مع رسول الله ﷺ — ورد على أبيه وعمه إذ قالا له : يازيد اخترت العبودية على أبيك وعمك ؟ فقال لهما : أى والله العبودية مع محمد أحب إلى من أن أكون عندكم — سارع النبى ﷺ إلى تبنيه وأشهد ملأ قريش على ذلك إظهاراً لمكانته من نفسه ، وتقديراً لموقفه وحبه لرسول الله ﷺ وتطيباً لنفس أبيه وعمه وقومه .

٣ — تشرف زيد بهذا التبنى فكان يدعى زيد بن محمد ، ولم يسمع أنه قيل له فتى أو غلام محمد ، بله عبده .

٤ — لما نهى الله تعالى عن التبنى وقطع علائقه الباطلة ورده إلى حقيقته وارتفع عن زيد اسم التبنى ونسبته أعاضه الله تعالى ورسوله ﷺ عن ذلك منزلة الحب ، وصار يدعى حب رسول الله ﷺ بعد أن كان يدعى زيد بن محمد ، ولا يقاس ما بين المنزلتين .

٥ — كان رسول الله ﷺ حفياً بزيد يعزه ويقربه ، ويقدمه حتى أن

عائشة أم المؤمنين وهى أعرف بمدخل رسول الله ﷺ ومخرجه وسائر أحواله تقول: إن النبي ﷺ لم يبعث زيداً فى سرية إلا جعله عليها أميراً عليهم وقد عرفت السيرة النبوية أن سرايا زيد التى امر عليها كانت أكثر عدداً من سرايا أى فرد من القواد، فقد بعث فى سبع سرايا، وكانت كلها من أهم السرايا وفيها جميعا كان زيد يعود مكللا بتاج النصر يلمع على مفرقه، وهذ السرايا السبع ختمت بالغزوة العظيمة التى واجه زيد فيها جموع الروم على تخوم البلقاء بجيش لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل، وكانت جموع الروم تزيد على مائتى ألف مقاتل، وفيها استشهد زيد، وهو أول قائد عينه رسول الله ﷺ وتبعه أخواه جعفر بن أبى طالب وابن رواحة، ثم أخذ الراية بطل الإسلام خالد بن الوليد وانحاز بجيش المسلمين موفور الكرامة، ورجع بهم حتى عد النبي ﷺ فيما رواه البخارى ذلك نصراً .

٦ — خلطه النبي ﷺ بدمه ونسبه فزوجه بنت عمته زينب بنت جحش وكانت من سروات قومها تشرئب إليها أعناق الأعاظم، فلما قضى الله ما قضى فى حكمته وتشريعه ليقطع دابر الجاهلية فى زوجة المتبنى على متبنيه، وطلق زيد زينب خلفه عليها رسول الله ﷺ، وهذه منزلة لم تكن قط لأحد غير زيد فى الحب والحفاوة والرعاية والإعظام واستخلفه النبي ﷺ على المدينة فى غزوة بنى المصطلق .

وقد ورث عنه ذلك ابنه أسامة بن زيد وهو أيضاً مولى رسول الله ﷺ كان يدعى : الحب ابن الحب، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا أرادوا أمراً هاما من رسول الله ﷺ قالوا : ومن يجرأ يكلم رسول الله ﷺ فيه غير أسامة بن زيد الحب ابن الحب، وحسب أسامة فى عظمة الوراثة

من مكانة أبيه فى قلب النبى ﷺ ومحبته له وتقديمه إمارته على أعظم جيش جهزه رسول الله ﷺ قبيل وفاته وأوعب فيه المهاجرين والأنصار وفيهم الشيخان أبو بكر وعمر ، ومن يدنو من منزلتهما من الأكابر وأشراف الإسلام وقد استأذنه أبو بكر بعد استخلافه أن يعينه بعمر يوازره على أمر المسلمين والإسلام ، ومشى معه الصديق وأسامة راكب يودعه ويوصيه ، فطلب إليه أن يركب أو ينزل هو فأبى الصديق إجلالا لمنصب قدمه إليه رسول الله ﷺ وطلباً لثواب الله تعالى .

فهل رؤى فى التاريخ البشرى نبلا إنسانياً فى معاملة من أوقعه سوء الحياة الاجتماعية فى الرق أنبل من هذا وأفضل ؟ .

(ب) بلغ النبى ﷺ أن بنى المصطلق يجمعون له وقائدهم زعيمهم الحارث بن أبى ضرار فبعث إليهم بريدة بن الخصيب الأسلمى ، يعلم له ذلك ، فأتاهم بريدة ولقى الحارث قائدهم وكلمه وعرف منه ماعزموا عليه وبيتوه واستعدوا له ، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهم ، فاستنفر رسول الله ﷺ الناس وخرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له (المريسيع) وتسمى هذه الغزوة باسمه فى بعض الروايات .

وتزاحف الناس واقتتلوا قتالا شديداً ، فهزم الله بنى المصطلق وقتل منهم من قتل وأسر سائرهم من الرجال والنساء والذرارى عدا من فر منهم وكان من بين الأسرى جويرة بنت الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق وقائدهم واستأنى بهم رسول الله ﷺ رجاء أن يفيئوا إلى الإسلام فلما لم يفيئوا قسم الغنائم بين المجاهدين ،

ووزع الأسرى عليهم فوقعت جويرة بنت الحارث فى سهم ثابت ابن قيس بن شماس الأنصارى ، فكاتبها ثابت فجاءت إلى النبي ﷺ تطلب إليه أن يعينها على كتابتها لتؤدى مانجم عليها وتعتق نفسها فقالت له : يا رسول الله أنا جويرة بنت الحارث ، وكان من أمرى ما لايخفى عليك ، وقد كاتبت نفسى ، وجئت أسألك فى كتابتى ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فهل لك إلى ماهوخير ؟) فقالت : وما هو يارسول الله ؟ قال : (أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك) فقالت : قد فعلت . وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصارت إحدى أمهات المؤمنين ، فتسامع الناس وقالوا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج جويرية ، فأرسلوا ما بأيديهم من السبي فأعتقوهم جميعاً وقالوا : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى أبو داود فى سننه عن عائشة رضى الله عنها قالت : مارأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جويرية ، أعتق فى سبيلها مائة أهل بيت من بنى المصطلق .

وقد كانت هذه المصاهرة الكريمة سبباً فى إسلام أبيها وسائر قومها بعد ذلك .

وفى قصة جويرية من المعانى الإنسانية النبيلة :

أنها أخذت أسيرة ووقعت فى سهم رجل من المسلمين ففاداها على حريتها كتابة تؤدى له قدراً من المال منجماً ، فلم تجد جويرية أكرم ولا أبر من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذى حارب قومها وقتل منهم من قتل وهزمهم ، وغنم أموالهم وسبا ذراريهم وكانت هى إحدى هذه السبايا فجاءته وعرضت عليه قصتها فى نبل وأدب واستعطاف .

ولما علم رسول الله ﷺ مكانتها فى قومها ، وماتعرضت له من الأسر ومهانة السبي والسؤال فى كتابتها عز عليه موقفها وهو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين فقال لها متلطفاً ماسحاً جراح قلبها الكسير (هل لك إلى ماهو خير) من الكتابة ومعاونتك عليها وبقائك تحت نير (الرق) حتى تؤدى آخر نجم من نجوم كتابتك لمن كاتبك ؟ قالت متلهفة ،ولم يكن يدور بخلدها أنها ستصعد طائرة إلى سماء المجد والعز المؤثل ، وأقصى مايمكن أن يتصور أنه دار بخلدها أن النبي ﷺ يتفضل عليها ويؤدى عنها نجوم كتابتها ويتركها حرة تلحق بقومها إذا شاءت وهذا كان منتهى الرحمة والبر بها .

لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان معها الكريم العظيم ، شعر بموقفها وهى العزيزة فى قومها فأعزها عزاً فوق عز قومها ، وأحلها منزلة أحاطت أعناق المؤمنين جميعهم بحقها عليهم تزوجها وجعلها أماً للمؤمنين ، ياللفرحة والسؤدد ، يالمجد بنى المصطلق بجويرية ، فلم تلبث إلا ريثما سمعت صوت الحنان والعطف النبوى يناغى قلبها الكسير حتى أجابت : فقد فعلت وحتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حقق لها قصى الآمال وأغلى الأمانى .

وتسامع المسلمون بأن جويرية المصطلقية أصبحت أماً لهم ، وصار جميع من فى أيديهم مائة أهل بيت من بنى المصطلق أصهاراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهل فى أدب المروءة الإسلامية وإعظام رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبقى أصهاره أرقاء ؟ لا إنه صلى الله عليه وسلم أعز عليهم وأعظم مقاماً فى أنفسهم من الدنيا بحذافيرها فما قيمة مائه أهل بيت إذا انطلقوا من أيديهم أحراراً إكراما لمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ إنه لأمر هين إلى مايجب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أعناقهم من إكرام

وتعظيم ، وماله من حب فى قلوبهم يفوق حبهم لأنفسهم، فأرسلوا جميعاً من فى أيديهم وقالوا أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن يكونوا أحراراً ، وقد صدقت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فى قولها : فما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جويرية المصطلقية .

ولقد أحدث تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم هزة فى قلب الحارث بن أبى ضرار ، والد جويرية وفى قلوب قومه فتحركت طائرة من حمأة الوثنية إلى آفاق الإسلام مستجيبة إلى دعوته لأنه الدين الكريم الذى يعز الكرماء ، فأسلموا جميعهم .

فهل سمع الناس بنبأ يحمل من المعانى الإنسانية النبيلة ماحمله نبأ تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جويرية بنت الحارث ، ولكنها سماحة الإسلام ومكارم الأخلاق المحمدية .

(ج) ولما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم خيبر إنجازاً لوعده، وكانت كثيرة الآطام منيعة الحصون ، والقلاع ، عظيمة الثراء ، يستوطنها أخابث اليهود ، وأشدهم عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين — كان فيمن أخذ فى سبيها صفية بنت حيي بن أخطب الهارونية من سبط هارون نبى الله ورسوله ، أخى موسى رسول الله وكليمه عليهما السلام .

ولما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقضاء الله فى هؤلاء الأخابث وجمع السبى جاء دحية بن خليفة الكلبى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل قسم الغنائم وتفريق السبى فقال له يارسول الله: أعطنى جارية من السبى ، فقال : (اذهب فخذ جارية) فأخذ دحية صفية بنت حيي ، فجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له يارسول الله : أعطيت دحية

صفية ؟ إنها سيدة قريظة والنضير إنها لاتصلح إلا لك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (فادعوه بها) فجاء بها فقال له : (خـذ جارية من السبي غيرها) .

ولما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج من خيبر قال الناس الآن نعلم أمرية صفية أم زوجة ؟ فإن كانت زوجة فسيحجبها ، فلما خرج أمر بستر فستر دونها ، فعرف الناس أنها زوجة فلما أرادت أن تركب أدنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذه منها لتركب عليها ، فأبت ووضعت ركبتها على فخذه ثم حملها فلما كان الليل نزل فدخل الفسطاط ودخلت معه ، وجاء أبو أيوب فبات عند الفسطاط واضعاً رأسه على الفسطاط ، فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع الحركة فقال : (من هذا ؟) فقال : أنا أبو أيوب ، فقال : (ما شأنك ؟) فقال يا رسول الله : جارية شابة حديثة عهد بعرس ، وقد صنعت بزوجها ما صنعت فلم آمنها ، فقلت : إن تحركت كنت قريباً منك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (رحمك الله يا أبا أيوب) .

وكانت صفية رضى الله عنها حليمة عاقلة تكرم قومها من يهود ، وتصل رحمها منهم قال أبو عمر بن عبد البر : إن جارية لها أتت عمر بن الخطاب فقالت : إن صفية تحب السبت وتصل اليهود فبعث إليها عمر فسألها ، فقالت : أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به يوم الجمعة ، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً فأنا أصلها ، ثم قالت للجارية : ما حملك على ما صنعت؟ قالت الشيطان، فقالت : اذهبي فأنت حرة .

وكان بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ينلن منها افتخاراً عليها ،

فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى تبكى فقال لها : (ما يبكيك) قالت : بلغنى أن عائشة وحفصة تنالان منى ويقولان ، نحن خير من صفية نحن بنات عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أفلا قلت لهن : كيف تكن خيراً منى : وأبى هارون، وعمى موسى ، وزوجى محمد صلى الله عليه وسلم) .

وفى حديث جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ أتى بصفية فخيرها بين أن يعتقها فترجع إلى من بقى إليها من أهلها أو تسلم فيتزوجها ، فقالت : أختار الله ورسوله .

وفى حديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : (هل لك فى) قالت : يارسول الله لقد كنت أتمنى ذلك فى الشرك فكيف إذا أمكننى الله منه بالإسلام .

وفى قصة صفية من المعانى الإنسانية النبيلة أنها كانت فى سبايا قومها يجوز أن يجرى عليها ما يجرى على غيرها ، وأعظم ما يدور فى خلدها من الأمانى وأحلام الآمال، أن تكون جارية عند رسول الله ﷺ، وهى تعلم ما صنع قومها مع رسول الله ﷺ ومع المؤمنين ، وما صنع رسول الله ﷺ بقومها ومنهم أبوها وزوجها وأبناء عمومتها من وجوه يهود .

فلما أخذها دحية قيل لرسول الله ﷺ : إنها سيدة هذين الحيين من اليهود النضير وقريظة ، فلا تصلح إلا لك، فاستردها من دحية وعوضه عنها غيرها من سائر السبى ، وإلى هنا كان تصرف النبى ﷺ تصرفاً إنسانياً متفضلا ، أعز به عزيزاً واستنقذ به نفساً كريمة بنشأتها فى سيادة قومها ، ولا شك أن ذلك قد أقنع صفية أنها صارت إلى بيت سيادة لم تكن سيادة

قومها لتوضع معها فى ميزان ، لأن هذه هى سيادة المستقبل الخالد التى قضت على سيادة قومها ، وتهامس الناس أهى جارية عند رسول الله ، وهذا حقه وفضله ، أم زوجة فتكون إحدى أمهات المؤمنين ، وهذا تساميه ونبله ، ولننظر لنعلم علم اليقين فأمهات المؤمنين قد أنزل فيهن وفى سائر الحرائر آيات الحجاب فإن كانت منهن فسيحجبها ، وإن كانت سرية فشأنها شأن مثيلاتها ، ويبقى لها مزية عليهن أنها لرسول الله ﷺ ، فلها من التوقير ما ليس لغيرها فى حدود وضعها الاجتماعى .

فلما أزمع رسول الله ﷺ الرحيل عن خيبر بعد تصفية الموقف أمر بستر على رحله فستر به دون صفية ، فعرف الناس أنها زوجة وأنها إحدى أمهات المؤمنين .

وهنا يظهر فضل الأدب فى نشأة البيوتات ، ويظهر تلطف الزوج وكرم تعطفه ومودته ورحمته وتساميه فى نبل إنسانيته ، فصفية أصبحت زوجاً لرسول الله ﷺ وبين الزوجين من الود واللطف والتحبب والتبعل ما لا يكون مثله بين اثنين غيرهما ، وأراد النبى ﷺ أن تصعد زوجه حديثة العهد به وبعشرته إلى مكانها من الرحل فأدنى لها فخذه الشريفة منها وقربها إليها لتجعل منها مصعداً إلى الرحل وهنا يأبى على صفية أدبها أن تضع قدميها على فخذ رسول الله ﷺ ، إجلالا له وعرفاناً لقدره على رغم ما يكون بين الزوج وزوجه من أمور هى أدخل فى اللطف وإزالة التكلف ، فتثنى ساقها وتضع ركبتها على فخذه الشريفة فيتقبل منها رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأدب الرفيع ويزيد فى حفاوته بها فيحملها إلى الرحل بيديه الشريفتين .

فلما أسدل الليل على الحياة ثوبه نزل رسول الله ﷺ إلى فسطاطه وبنى بأهله وهو مطمئن الرضا ، لكن المسلمين كيف يطمئنون على نبيهم ﷺ ، وهو أحب إليهم من أنفسهم أن يتركوه فى موقفه هذا دون حراسة فهذه التى بنى بها رسول الله ﷺ شابة حديثة عهد بعرس ، قتل رسول الله ﷺ زوجها وأباها وأشراف قومها ، فلا بد فى نظر مألوف الناس أن تكون موتورة ، يغلى فى صدرها مرجل الحنق والغيظ ، ولا بد أن تحاول شيئاً وقد أمكنتها الفرصة، فهى لم تخرج عن كونها امرأة من بنات حواء لها نوازع النساء وفورة شعورهن وكيدهن، واشتمل أبو أيوب الأنصارى على سيفه وأقام على باب الفسطاط مستعداً للقضاء على أية حركة مريبة فلما أصبح رسول الله ﷺ سمع حركة أبى أيوب قريباً من الفسطاط ، فقال: (من هذا ؟) فأجابه أبو أيوب ، وسأله رسول الله ﷺ عن شأنه فى هذا المكان الذى تقضى الآداب العامة أن يكون أبعد عن الأنظار والأسماع ، ولكن الأمر أمر سيد الوجود ، وحمايته من أن تحوم حوله أدنى خشية على حياته، فالأدب كل الأدب بل الإيمان كل الإيمان هو الحذر والاحتياط، ولو كان فى ذلك خرق لسياج بعض الآداب العامة من رجل كريم آثر حراسة رسول الله ﷺ ، وهو أحفظ لسره وسر أهله معه ولهذا تقبل منه رسول الله ﷺ ذلك بالرضا والدعاء له .

(د) لما فتح رسول الله ﷺ قريظة كان بين سبيها ريحانة بنت عمر النضيرية القريظية ، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، وخيرها بين الإسلام ودينها فاختارت الإسلام ، فأعتقها وتزوجها وأعرس بها ، وضرب عليها الحجاب فغارت عليه غيرة شديدة فطلقها طلقة واحدة ، فكانت لا ترقأ لها

عين من البكاء محبة لرسول الله ﷺ فدخل عليها يوماً وهى تنتحب من البكاء فرحمها وراجعها .

وقد توفيت فى حياته صلى الله عليه وسلم مرجعه من حجة الوداع .

والمعانى الإنسانية النبيلة فى قصة هذه السيدة العظيمة أم المؤمنين ريحانة رضى الله عنها أنها سبيت كغيرها من سبايا قومها ، فاصطفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين السبى لنفسه لمكانتها فى قومها ، وخيرها بين الدخول فى الإسلام وبين بقائها على دين قومها وكانت هذه أول خطوة فى بناء حياتها الجديدة ، وهذا التخيير إلى جانب أنه تحقيق لمنهج الإسلام فى عدم إكراه أحد على قبوله والإيمان به ، فإنه يمثل جانباً إنسانياً ونبلا خلقياً . لأن هذا التخيير لم يكن له مدخل فى إبقاء الأسرى والسبى تحت سلطان المسلمين ، فالكفر — وهو أساس السبى والأسر - غير مانع من بقاء الأسرى والسبايا على حالهم ، فتخصيصها بالتخيير حفاوة بها وتلطف بحياتها الجديدة لأنه لا ضرورة تقتضيه سوى العطف الإنسانى ، وقد قبلت الإسلام فأسلمت فازداد النبى صلى الله عليه وسلم فى الإفضال عليها والاحتفاء بها فأعتقها وإلى هنا تتحقق صورة من النبل الإنسانى فى معاملة النبى صلى الله عليه وسلم لها ولكن النبى صلى الله عليه وسلم تدعوه مكارم أخلاقه ونبل إنسانيته وسماحة دينه إلى أن يزيد فى التعطف عليها والتلطف بها فيخلطها بنفسه زوجة يرفعها إلى مراتب أمهات المؤمنين فتزوجها وبنى بها فأحبته حباً شديداً وعذبتها الغيرة عليه وسيطر على شعورها ضعف الأنثى وكأنها أرادت أن تستأثر به ، وكيف وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وله من مشاغل رسالته فى كل لحظة من لحظات وجوده الكريم ما يجعل أوقاته ملكاً لهذه الرسالة العظمى ،

وإرضاء الغيرة قد يجافى العدل ولا ينبغى أن يكون له ظل فى سلوك سيد المرسلين .

وقد رأى صلى الله عليه وسلم أن يكفكف من غلواء هذه الغيرة فطلقها تطليقة واحدة لعلها تشعر بأن بقاءها فى عز هذه الزوجية مع المشاركة ، خير من حرمانها ، فتخف فى قلبها سورة الغيرة ، فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها تديم البكاء حزناً على فراقه رق لها ورثى لحالها فدخل عليها وراجعها .

وهذه المعاملة تصور أرفع صور النبل الإنسانى وأرق شعور اللطف والعطف وقد أكرمها الله تعالى فكانت الزوجة الحبيبة التى توفيت فى حياته صلى الله عليه وسلم بعد أم المؤمنين الكبرى السيدة خديجة رضى الله عنها .

* * *

(ه) روى البخارى فى صحيحه عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها وأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران) .

وموضع النبل الإنسانى فى هذا الحديث أنه نداء إلى عامة المؤمنين أينما كانوا بالترغيب فى تحقيق الإخاء الإنسانى على أروع صورة ، وأن الخروج بإنسانة من شذوذ الآدمية إلى ساحة الكرامة الإنسانية أمر يقدره الإسلام تقديراً يرفع من شأن من يقوم به أو يشارك فيه إلى درجة عظيمة يتطلع إليها كل مؤمن .

والإسلام يبرز هذه الصورة النبيلة فى منهج سلوكى من أرفع ما يمكن

أن تتطلع إليه امرأة أوثقها الشذوذ الآدمى بوثاقه ، ثم هى تجد نفسها فى أبلغ رعاية ممن فى يده وثاقها يعلمها ويحسن تعليمها وهـذا مجال فسيح جداً لا يفسره إلا تطور الحياة الفكرية والاجتماعية ، لأن لكل عصر منهجه فى التعليم وطريقته فى إحسانه .

والإسلام فى هـذا المجال لا يقف عند العلم والتعليم مع دقته فى التقييد بالإحسان ، ولكنه يتخطى حواجز العلم والتعليم إلى مداخل النفس والأخلاق والتربية السلوكية لأن العلم وحده مهما أحسن تعليمه قد يكون وسيلة من وسائل الجموح ، ولا يكبح جماح العلم إلا الأدب النفسى ، والسلوك التربوى على أساس غرس الفضائل النفسية ، والمكارم الخلقية ، والتهذيب الوجدانى وبث الشعور العاطفى فى أرجاء القلب ليمـــلأه بالرحمة والتحبب .

ولهذا جاء الحديث جامعاً بين التعلم وإحسانه والأدب وإحسانه ، وإذا اجتمعا كان اجتماعهما الغاية القصوى فى تحقيق السعادة لمن يظل هـذه الإنسانة الكريمة المهذبة معه تحت سقف بيت الزوجية ، وجاءت هذه النتيجة ثمرة جنيه تحمل عطر السعادة الدنيوية وحلاوة النعيم الأخروى فى أجرين ينالهما من قام بهذا المنهج من تصحيح الشذوذ الآدمى ورد إلى الإنسانية اعتبارها فى أعلى درجاتها .

(و) روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن المعرور بن سويد قال : مررنا بأبى ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة ، فسألته عن ذلك ؟ فقال : سابيت رجلا فعيرته بأمه فقال لى النبى ﷺ : (يا أباذر : أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية) .

وفى رواية أخرى أن النبى ﷺ قال لأبى ذر : (أسابيت فلاناً ؟)

قلت : نعم . قال : (أفنلت من أمه ؟) قلت : نعم . قال:(إنك امرؤ فيك جاهلية) قلت : على ساعتى هذه من كبر السن ؟ قال : (نعم ، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه) .

وفى غير الصحيحين أن أبا ذر لما سمع كلام النبي ﷺ ورأى غضبه من تصرفه الذى ينافر سماحة الإسلام ، ويباعد الإنسانية عن مكانتها الرفيعة وضع خده على الأرض وعزم على أخيه — الذى نال من أمه بكلمة عابرة ، فقال له يا ابن السوداء — أن يطأ بقدمه على خده تأديباً لنفسه وتطهيراً لها عما بقى فى حناياها من عبية الجاهلية .

وعند الإمام أحمد فى مسنده أن النبى ﷺ قال لأبى ذر : (انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله) .

وفى قصة أبى ذر برواياتها من المعانى الإنسانية النبيلة صور للتربية الإسلامية فى توجيه السلوك الاجتماعى للمجتمع الإسلامى الذى يمثل المجتمع البشرى بجميع أجناسه وألوانه ، ففيها جهارة الصدق فى خلق أبى ذر ، هذا الصحابى الجليل الذى أدبه الإسلام هذا الأدب الكريم ، وهذا أمر متعالم فى صفات أبى ذر اشتهر به وشهد له به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : (ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من ذى لهجة أصدق من أبى ذر) .

وصدق أبى ذر ليس تكلفاً ، ولكنه تخلق بأدب الإسلام ، فهو لا يبالى أن يجهر به ولو كانت مغبته عليه ، فالنبى ﷺ يسأله : أسابيت فلاناً ؟ أفنلت

من أمه فيقول فى سلامة قلب : نعم سابتـه ونلت من أمه ، فقلت له يا ابن السوداء ، فبلغت النبي ﷺ فلفت نظره إلى أن هـذا السلوك لا يعرفه الإسلام ، بل ينكره ويبرأ منه ، لأنه سلوك جاهلى جاء الإسلام ليهدمه هدماً ، وقد هدمه وقضىَ عليه ، فكيف يبقى أثره فى نفس مؤمنة كانت من طلائع الرواد فى الإسلام ؟ فيعجب أبو ذر من أمر نفسه التى اختزنت فى طواياهاهذه البقية من نعرة الجاهلية فيقول : أفى جاهلية وأنا فى ساعتى هذه من كبر السن وعلوها فى الإسلام ، فيرشده النبي ﷺ إلى أن هؤلاء الذى أوثقهم الشذوذ الآدمى بوثاقه هم إخوانكم نسباً ودماً ورحماً ، ولكن الله جلت حكمتـه قد قضى عليهم بقضائه فوضعهم تحت سلطانكم وفى أيديكم لعوامل طارئة لا تغير من حقيقة إنسانيتهم التى هى عين إنسانيتكم ، وإذا تساويتم فى الإنسانية فما قيمة الألوان التى خلقكم وخلقهم الله عليها ؟ فإن كان هناك تفاضل بين أبناء آدم فإنما هو تفاضل بما يبذلون فى حياتهم من خير وبر وعمل صالح يعتمد على دعامة التقوى ، والتقوى خلق وقائى يحجز الإنسان عن الانزلاق إلى مهاوى الانحراف المدمر للفضائل ، ويتسامى رسول الله ﷺ فى منهجه التربوى إلى ذروة الإرشاد السلوكى فى معاملة هؤلاء الإخوة ، فيقول فى توجيه عام لكافة المؤمنين (هم إخوانكم) قاعدة للبناء الاجتماعى المسلم فلا امتياز بعوارض الحياة من الألوان والسمات ، وليس وضعهم الشاذ عن سمو الإنسانية فى أيديكم من صنعهم لو ملكو ا أن يصنعوا لأنفسهم شيئاً ، إنما هو من صنع الله الذى خلقهم وخلقكم من نفس واحدة ، ومكارم الأخلاق الإسلامية تقتضى - تسامياً بالإنسانية — أن يعامل الأخ أخاه مهما اختلفت بهما العوارض الطارئة على أساس المساواة فى الحقيقة الإنسانية ، فمن جعل الله أخاه تحت يده ، فلا يحقره ولا ينقصه حق إنسانيته فيما هو ضرورى لمظاهر الحياة وليواسه فى طعامه ولباسه

وعمله ، فيشاركه مشاركة مواساة ويطعمه من طعام نفسه ، ويلبسه من جنس لباس نفسه ، وإذا كلفه عملا لا تطيقه قوته فيشق عليه ويغلبه فليعنه عليه .

فالأمر فى الإسلام إخاء ومساواة ومواساة وتعاون .

وقد كان لهذا التوجيه النبوى الكريم أعظم الأثر فى نفس كل مسلم وكان أثره فى نفس أبى ذر أعظم وأجل ، فهو لم يقنع بالمواساة ، ولكنه أبى إلا أن يجعلها إخاء ومساواة عادلة فألبس غلامه حلة ولبس هو حلة مثلها ، بل إن أبا ذر تسامى فى الامتثال لأدب التوجيه النبوى إلى آفاق فوق مستوى المساواة تأديباً لنفسه التى خبأت فى مدخلاتها بقية العنجهية الجاهلية ، فوضع خده على الأرض إذلالا لنفسه لعزة الإيمان وتطهيراً لها ، حتى يبلغ من نفس أخيه منزلة الرضا وإخاء الإيمان .

(ز) وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه ركب بغلة ذات يوم فأردف غلامه خلفه فقال له قائل : لو أنزلته يسعى خلف دابتك ؟ فقال له أبو هريرة : لأن يسعى معى ضغثان من نار يحرقان منى ما أحرقا أحب إلى من أن يسعى غلامى خلفى .

والمعنى الإنسانى النبيل فى هذا الحديث هو مظهر المساواة ، والنفور الشديد من مظهر الامتياز ، وتصوير ذلك بهذا الأسلوب المخيف ، ولا شك فى أن هذا الصحابى الجليل الذى خصه رسول الله ﷺ بعلم لم يعطه غيره ، قد تأثر بالتوجيه النبوي الذي تأثر به أخوه أبو ذر رضي عنهما في أدب الإخاء الإنسانى والمساواة فى الحقوق والواجبات ، بل فيما هو فضيلة من فضائل الأخلاق الاجتماعية .

(ح) وفى الحديث المشهور أن النبى ﷺ قال : (لا يقل أحدكم عبدى وأمتى بل ليقل فتاى وفتاتى) وهذا أدب إنسانى عاطفى ، يقصد منه تحقيق مبدأ المساواة الإنسانية ويقصد منه عدم مس الشعور الإنسانى فى هذا الإنسان بتذكيره بوثاق الشذوذ الآدمى ، ويقصد منه التسامى بالمؤمنين فى إخلاص العبودية لله وحده، لأن الخلق كلهم عبيد الله والناس سواسية فى هذه العبودية .

قال الإمام القرطبي تعليقاً على هذا الحديث الشريف : فندب صلى الله عليه وسلم إلى مكارم الأخلاق وحض المؤمنين عليها ، وأرشدهم إلى الإحسان وإلى سلوك التواضع حتى لا يروا لأنفسهم مزية على عبدهم إذ الكل عبيد الله والمال مال الله ، ولكن سخر بعضهم لبعض وملك بعضهم بعضاً إتماماً للنعمة وتنفيذاً للحكمة .

رفق ورحمة

لقد كان الإسلام أرفق بالمماليك وأرحم بهم بما لا يقاس بأى نظام أو وضع اجتماعى لهذا الشذوذ الإنسانى ، فقد ارتفع الإسلام بالمماليك فى مسلك التكافل الاجتماعى الذى جمع به القرآن شمل الأمة على التواصى والتعاون الأخوى ، الذى ينبع من العقيدة الإسلامية ، وجعل الإحسان إليهم صورة حية فى إطار هذا التكافل الذى بدأه الله تعالى بطلب توحيده وإخلاص العبودية له وحده ، وجعل أول لبنة فى بنائه الإحسان إلى الوالدين ، ثم تدرج فى مراتب الإحسان المطلوب من كل فرد فى المجتمع المسلم ، فذكر أصناف هذا المجتمع بأوصافهم الجامعة لجميع أفراد وطوائف الأمة ، فلم يترك نوعاً ولا فرداً إلا وأدخله فى سلك هذا التكافل ، حتى ختم عقده بالإحسان إلى المماليك إحساناً ينظمهم فى إطار الإنسانية المتكافلة المتعاونة على أسس المساواة فى الحقوق والواجبات الإنسانية ، قال الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً »[1] .

وفى ختم هذه الآية الكريمة بنيان أن الله تعالى لا يحب أهل الفخر

---

(١) سورة النساء آية ٣٦ .

والخيلاء والمستكبرين إرشاد إلى طريق التواضع والمساواة فى دائرة الإحسان، حتى يشعر كل فرد وكل جماعة فى الأمة بروح التكافل الأخوى يظلهم بظله ، وهذا يلائم تعقيبه للإحسان إلى المماليك ، لأنهم هم الذين يتوهم أنهم موضع التعالى عليهم لوضعهم الاجتماعى .

وقد جاءت السنة النبوية المطهرة مبينة للقرآن الكريم حتى كانت عامة وصية رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه قوله : (الصلاة وما ملكت أيمانكم) .

وفى صحيح مسلم ومسند أحمد أن النبى ﷺ قال : (للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف ما لا يطيق) وأخرج أبو داود فى سننه قول النبى ﷺ : (من لا يمكم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون ، واكسوه مما تكتسون ولا تعذبوا خلق الله) .

وفى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : (لا يدخل الجنة سيء الملكة) وسيء الملكة هو الذى يسيء صحبة المماليك ، وفى حديث آخر : (حسن الملكة نماء) ومعناه أن الإحسان فى صحبة المماليك وإكرامهم والتلطف فى معاملتهم يزيد فى البركة وينمى الخير .

وفى حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم أنه قال لخازنه : هل أعطيت الرقيق طعامهم ؟ قال : لا ، قال : فانطلق فأعطهم ، فإن رسول الله ﷺ قال: (كفى المرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته) .

وروى ابن سعد فى الطبقات عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع : (أرقاءكم، أرقاءكم ، أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون. وإن جاءوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم) .

ويروى أبو عبيد فى كتاب الأموال : قول النبى ﷺ : (أطعموا الجائع وعودوا المريض وفكوا العانى) أى الأسير . ويعلق أبو عبيد على الحديث فيقول : وكذلك أهل الذمة يجاهد من دونهم ويفتك عناتهم ، فإذا استنقذوا رجعوا إلى ذمتهم وعهدهم أحراراً .

وظاهر كلام أبى عبيد أنه حمل فك العانى فى الحديث على أسير المسلمين، وهذا الحكم واجب ولو أتى على جميع أموال المسلمين ، فلا يكفى فيه بجرد الترغيب والتفضل ، والحديث سيق مساق الإحسان والتفضل ، ومكارم الأخلاق ، بدليل قرنه بإطعام الجائع وعيادة المريض، فهو فى الأسير تحت يد المسلمين أظهر ، والأرجح إبقاء الحديث على عمومه ليشمل الأسرى الذين تحت يد المسلمين وهذا صريح القرآن الكريم فى قوله تعالى : (فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة . فك رقبة) فقد ذكرت الرقبة مطلقة ويفسرها بالإطلاق حديث المسند عن البراء بن عازب قال : جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله علمنى عملا يدخلنى الجنة، فقال له رسول الله ﷺ : (لئن كنت أقصرت الخطبة فقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة وفك الرقبة) فقال : يا رسول الله: أوليستا بواحد ؟ قال : (لا، إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين فى عتقها) .

ومما يؤيد العموم قول ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) كان أسراهم يومئذ مشركين ، قال ابن كثير ويشهد لإرادة الأسير المشرك فى الآية أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء .

ومن أروع صور الرفق والرحمة بالأسرى ما ثبت فى حديث أبى أيوب

الذى أخرجه الترمذى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من فرق بين والدة وولدها — اى فى السبي — فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة) . قال الترمذى: والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم، كرهوا التفريق بين السبي ، بين الوالدة وولدها ، وبين الولد والوالد وبين الإخوة .

وفى حديث عبد الله بن عمر قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : كم أعفو عن الخادم ؟ فصمت رسول الله ﷺ ، ثم قال الرجل: يا رسول الله كم أعفو عن الخادم ؟ فقال رسول الله ﷺ : (كل يوم سبعين مرة) .

وفى حديث أبي سعيد الخدرى فيما رواه الترمذى قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا ضرب أحدكم خادمه فذكر الله فارفعوا أيديكم) والمعنى إذا استغاث الخادم بالله وجب العفو عنه .

منهج الإسلام في القضاء على الرق
فتح نوافذ الحرية

بعد أن رسم الإسلام فى إطار تشريعه وآدابه ومكارم أخلاقه ، وكريم فضائله وتطبيقه الواقعى فى حياة مجتمعه ــ هذه الصور الإنسانية النبيلة فى التلطف بالرقيق ، وبعد أن أوصى بالرفق بهم والرحمة والإحسان إليهم والمواساة فى معاملتهم ، فتح أمامهم نوافذ للحرية تكاد لا تبقى على أثر لهذا الشذوذ الإنسانى فى ظل الإسلام .

فالقرآن الكريم ــ وهو دستور الإسلام ــ يرغب فى العتق وتخليص الرقاب من أغلال هذا الشذوذ الآدمى ترغيباً يرتفع به فيجعله من صور البر الذى يستحق أن تولى إليه وجوه المؤمنين فقال تعالى : «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب »(1) وهذا تسام بالحرية ينظمها فى سلك منضود من جواهر الفضائل ودرته اليتيمة الإيمان بالله ، وواسطته هذه الرعاية التى تعيد إلى الإنسانية كرامتها فى أشخاص المتحررين من الأرقاء .

وأرفع من ذلك فى درجات الرعاية الإسلامية لتطهير المجتمع من

---

(٣) سورة البقرة آية ١٧٧ .

هذا الشذوذ أن الله تعالى فرض لتحقيق الحرية بعتق الرقاب وتخليصها من نير (الرق) نصيباً مفروضاً من زكاة أموال المسلمين في جميع أنواع الأموال التي تجب فيها الزكاة .

وذلك أن الله عز شأنه لما ذكر مصارف الزكاة المفروضة في قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم »(١) . ذكر ثمانية أصناف من الناس وغيرهم بطريق الحصر المفيد اختصاص الأصناف المذكورة بحصيلة هذه الفريضة المالية، لا يشاركهم فيها صنف آخر غيرهم .

وقد أجمع المسلمون سلفاً وخلفاً على أن حق تحقيق الحرية وعتق الرقاب من التشريع المحكم الذي لم يطرأ عليه نسخ ولا تغيير ، ولا يجوز أن يطرأ عليه تغيير ولا تبديل ، على خلاف حق الأصناف الأخرى فإنه قد طرأ عليها ، وقد يطرأ عليها ما يغير حكمها أو يرفعه إطلاقاً ، فحق المؤلفة قلوبهم قد رفع وزال حكمه عند كثير من الصحابة والتابعين وفقهاء الاجتهاد من أمصار الإسلام ، بعد أن قويت شوكة الإسلام وانتشرت دعوته في الأرض ورجع نصيبهم إلى سائر الأصناف الأخرى صاحبة الحق الثابت .

ومثل المؤلفة قلوبهم في إسقاط حقهم وتغيير مصرفه ورده إلى الأصناف الأخرى صنف العاملين على جمع الزكاة القائمين على حفظها وخدمتها الضابطين لها حتى تصل إلى مصارفها ، فإن حق

---

(١) سورة التوبة آية ٦٠ .

هذا الصنف يسقط إذا تولى صاحب المال إخراج زكاته ، ولم يولها الإمام أو نائبه .

وذهب كثير من فقهاء الاجتهاد إلى أن العاملين على الزكاة يأخذون أجر عملهم من بيت المال وهذا حكم بإزالة حقهم فى مصرف الزكاة ، وهذا معقول بعد أن استقرت الأنظمة المالية فى دولة الإسلام .

وكل صنف من أصناف مصارف الزكاة سقط حقه وزال نصيبه فيها رجع هذا الحق إلى سائر الأصناف الأخرى الثابتة المحكمة .

وظاهر القرآن الكريم أن المصارف الثابتة المحكمة ثبت لها الحق تمليكا بمقتضى استعمال (اللام) الدالة على الاستحقاق والتمليك فى قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء) ويدل عليه ما رواه أبو داود والدارقطنى عن زيد بن الحارث الصدائى قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم يسأله عن الصدقات ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله لم يرض فى الصدقات بحكم نبى ولا غيره حتى جزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من أهل تلك الأجزاء أعطيتك) .

ومن هنا ذهب الجم الغفير من أهل النظر والاجتهاد منهم الشافعى وأصحابه ، إلى وجوب تعميم الأصناف التى لم يسقط حقها لسبب شرعى ، فلا يجوز أن تصرف حصيلة هذه الفريضة فى بعض الأصناف المذكورة فى الآية دون بعضها الآخر عند هؤلاء .

وقد روى عن الإمام على بن الحسين زين العابدين أنه قال : إن الله تعالى علم قدر ما يدفع من الزكاة ، وما تقع به الكفاية لهذه الأصناف ، وجعله حقاً لجميعهم ، فمن منعهم ذلك فهو الظالم لهم رزقهم .

وعدالة هذا التعميم تقتضى أن يكون لكل صنف ـ فى أصل الإخراج ـ ثمن الحصيلة كلها ثم يكون له نصيبه بنسبته فى نصيب من زال حقه وأسقط من هذه الأصناف .

وفى عملية حسابية سهلة نجد أن للقرآن الكريم ـ وهو دستور الإسلام ـ رصد فى ميزانية الدولة الإسلامية ⅛ حصيلة فريضة الزكاة فى جميع أصناف المال التى تجب فيها الزكاة ، ويضاف إلى هذا الثمن ما يزيد على ذلك من أنصباء من زال حقهم من بقية الأصناف الأخرى .

ولينظر الباحث كم تكون حصيلة هذه الفريضة من مئات الألوف فى كل عام فى الأموال الناضة فى الخزائن والمصارف (البنوك) أو أموال عروض التجارة أو الحرث والزروع والثمار والحيوان من كل ما تجب فيه الزكاة ؟

ثم لينظر الباحث نظرة أفسح مجالا إلى الأوطان الإسلامية ، وإلى عدد المسلمين الذين تجب عليهم الزكاة فى أموالهم فى أرجاء الأرض ، ولينظر إلى ازدياد نماء الأموال وأنواعها نماء يرفع حصيلة هذه الفريضة — إذا أحسن تحصيلها ، وصينت عن العبث والتبديد ، والاختلاس ، وإذا صدق إيمان الناس فى أدائها ، وإذا توافرت لدى ولاة أمور المسلمين عزيمة صديقية تأخذ هذه الفريضة أخذاً بالقوة القانونية الشرعية التى أخذها بها أبو بكر الصديق رضى الله عنه وتضعها فى مواضعها التى ذكرها الله تعالى .

وفى عملية حسابية أخرى يفرض فيها اجتماع نصيب تحقيق الحرية فى حصيلة هذه الفريضة على أساس النظرة الشاملة إلى أموال المسلمين ، ويوجه هذا النصيب إلى عتق الرقاب وفكها من أغلال الشذوذ الإنسانى

الذى ألجىء إليه الإسلام إلجاء فكم يكون عدد الذين ينالهم هذا التشريع ويخلصهم من نير (الرق) إلى آفاق الحرية فى كل عام ؟ .

فإذا طبقت نظرية الإسلام فى قداسة الحرية والحرص على تحقيقها لكل إنسان بهذه الصورة الفياضة بالنبل فهل يبقى عند أحد أثارة من ظن أو وهم فى بقاء أثر لهذا الشذوذ الإنسانى فى ظل الإسلام وتشريعه ؟

أفيكون انحراف المنحرفين من المسلمين (الجغرافيين) عن منهج الإسلام حجة على التشريع الإسلامى وأصوله ومعالمه وأحكامه ؟

إنه من التجنى بالباطل على الإسلام أن يزعم عليه أن يتمسك بالرق ويرضى بوجوده ويشرع اختياراً له بله أن يأمر به أو يرغب فيه .

ولم يقف الإسلام ودستوره العظيم فى منهجه على القضاء على هذا الشذوذ الإنسانى عند هذه الخطوة الحاسمة فى تقديس الحرية ولكنه تابع العمل لإطلاقها من الأغلال فى صور فردية ولكنها لكثرتها كانت غامرة فياضة .

فقد جعل الإسلام عتق الرقاب كفارة لكل ذنب أو أعمل يوجب التكفير عنه ، فهو كفارة للظهار وكفارة للقتل ، وكفارة للفطر العمد فى صيام واجب ، وكفارة للحنث فى اليمين ، وكفارة للنذر فى بعض صوره وكفارة لغير ذلك مما هو مفصل فى الفقه الإسلامى .

بل إن الإسلام جعل العتق قربة إلى الله تعالى عند وقوع الأحداث الكونية ، فقد روى البخارى عن أسماء بنت بى بكر الصديق رضى الله

عنهما قالت : أمرنى النبى ﷺ بالعتاقة فى كسوف الشمس ، وفى رواية أخرى ، أنها قالت ،كنا نؤمر عند الخسوف بالعتاقة ، وذلك لأن هذه الأحداث آيات من آيات الله ، تقع على خلاف ما يألفه الناس فتحدث لدى العامة رهبة وقلقاً نفسياً ، يتوقعون فيه خوف التلف والهلاك ، فأراد الإسلام أن يوجه النفوس المؤمنة إلى مايذهب عنها الجزع ويبدلها منه السكينة والطمأنينة ،فقيل لهم إذا ذقتم آلام الأغلال النفسية فأطلقوا الرقاب من أغلالها لتشعر بثلج الحرية وتذوق حلاوة الأمن والاطمئنان .

ومن أروع صور المنهج الإسلامى فى تقديس الحرية والعمل على القضاء على الشذوذ الإنسانى أنه أوجب على السادة قبول طلب المماليك مكاتبتهم على مال معين يؤدونه إليهم منجماً ، ليعتقوا أنفسهم ويتحرروا من أغلال (الرق) وألزمهم بإجابتهم إلى ماطلبوا ، وأروع من ذلك أن الإسلام أوجب على السادة معاونة المكاتبين على أداء ماكاتبوهم عليه ، ثم ندب عامة المسلمين إلى الإسهام فى هذه المعاونة وألزم الدولة بالمشاركة فيها من بيت مال المسلمين فقال تعالى : (والذين يبتغون الكتاب — أى المكاتبة — مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم.

وظاهر الآية أن المملوك إذا طلب من سيده مكاتبته على مال يؤديه إليه نجوماً فى زمن معين وجب على السيد أن يجيب مملوكه إلى طلبه لتشوف الشارع إلى الحرية — كما يعبر بهذا فقهاء الإسلام وهو تعبير مصور لأدق معانى التطلع إلى الحرية والرغبة فى تحقيقها .

ولو امتنع السيد فلم يجب المملوك إلى طلب مكاتبته قضى عليه بها ،وألزمه الإمام أو نوابه فى تنفيذ قانون الشريعة بإجابته إلى طلبه ، ولومات السيد

نفذ ذلك من تركته وألزم به الورثة ، أخـذاً بظاهر صيغة الأمر فى قوله تعالى : (فـكاتبوهم) وصيغة الأمر عند الإطلاق تفيد الوجوب ، وأخذاً بما ثبت عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه ألزم أنس بن مالك رضى‌الله عنه مكاتبة مولاه سيرين والد الإمام محمد بن سيرين أحد سادة التابعين ، وأئمة الإسلام ، فقد طلب سيرين من سيده أنس رضى الله عنه مكاتبته فأبى عليه فرفع أمره إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأمر عمر أنساً بمكاتبته وألزمه بها وقال له : لتـكاتبنه ورفع عليه درته مهدداً وضربه بهـا وتلا عليه قول الله تعالى : (فـكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) فـكاتب أنس مولاه سيرين وأدى سيرين كتابته وعتق بذلك .

قال الإمام داود بن على الظاهرى فى بيان وجه الاستدلال من هذا الحديث على وجوب إجابة السادة طلب مملوكيهم إذا طلبوا مكاتبتهم : ما كان لعمر رضى الله عنه أن يهدد أنساً ويرفع عليه الدرة ويضربه بها فى أمر مباح له ألا يفعله ، ولم يجب عليه فعله .

وقريب من هذا ماروى عن على كرم الله وجهه أن مؤذنه ابن التياح لما كوتب على نفسه ليعتق ويتحرر قال له : أكاتب وليس لى مال ؟ قال : نعم : ثم حض الناس على الصدقة عليه فأعطاه الناس ما أدى به كتابته ، وبقيت عنده فضلة من المال ، فقال له على رضى الله عنه اجعل هذه الفضلة من المال فى الرقاب .

ومعنى ذلك أن علياً رضى الله عنه لما رأى أن ابن التياح قد عتق وتحرر وتخلص من الرق بما أعطاه الناس وبما أعانوه ، وفضل فى يده فضلة من ذلك رشده إلى أن يعين على عتق الرقاب وتحريرها كما أعين وتحرر ، فليشتر رقابا ويعتقها إذا اتسع ما بيده إلى ذلك وليسهم فى فكهـا إذا ضاق ما بيده عن

الاستقلال بالعتق ، وكل ذلك تصوير لتشوف الإسلام وتطلعه إلى الحرية يضفيها على الناس ليعيشوا كراماً كما خلقهم الله تعالى أحراراً كراماً .

وكما قيل بوجوب إجابة طلب المماليك على السادة إذا طلبوا إليهم أن يكاتبوهم قيل بوجوب إعانتهم فى مال الكتابة ، وذلك بأن يعطوهم شيئاً من مالهم الخاص يستعينون به على أداء ما وجب عليهم لتحريرهم ، أو بأن يحطوا عنهم شيئاً مما كاتبوهم عليه قال بعض السلف : يحط عن المكاتب ثلث ما كوتب عليه ، وهو قول ابن مسعود رضى الله عنه ، وقال بعضهم : يحط عنه ربع ما كوتب عليه وهو مذهب على بن أبى طالب كرم الله وجهه، فقد روى عنه من طريق صحيح أنه كاتب غلاماً له على أربعة آلاف ،فوضع ربعها وقيل: يوضع عنه جزء من غير تحديد ، قل أو كثر ، ومال إلى هذا الإمام الشافعى ، فقال : والشىء أقل شىء يقع عليه اسم شىء وعنده وعند أصحابه أن السيد يجبر على هذه الوضيعة ويحكم بها على الورثة إن مات السيد قبل نفاذها .

والإجماع قائم على أن معاونة السادة للمكاتبين مطلوبة للشارع طلباً مؤكداً وأقل درجاته الندب ويدل له حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد روى الأئمة أنه كاتب غلامه فقال له عمر كم تعرض ؟ فقال الغلام :مائتى أوقية ، قال : فكاتبنى عليها ولم يستزدنى ، وأراد أن يعجل لى من ماله طائفة فأرسل إلى حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها : إنى كاتبت غلامى فأردت أن أعجل له طائفة من مالى فأرسلى إلى بمائتى درهم إلى أن يأتينا بشىء فأرسلت بها إليه وأخذها عمر بيمينه وقرأ هذه الآية : (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى

آتاكم) فخذها فبارك الله لك فيها ، قال غلام عمر : فبارك الله لى فيها، عتقت منها وأصبت خيراً كثيراً .

وأرفع درجات هذه المعاونة للمكاتب من السادة أنها واجبة — كما ذهب إليه الإمام الشافعى وأصحابه ـ والوجوب ظاهر القرآن بمقتضى مطلق الأمر فى قوله تعالى : (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) .

ولشدة تشوف الإسلام إلى الحرية لم يكتف بمطالبة السادة بمعاونة المكاتبين بل ندب عامة المؤمنين إلى هذه المعاونة أخذاً من عموم الخطاب فى قوله تعالى : (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) ، فهو بالنسبة للسادة واجب ، وبالنسبة إلى عامة المؤمنين مندوب إليه مرغب فيه ، ويدل لهذا الندب حديث على فى مؤذنه ، فقد حض الناس أن يتصدقوا عليه فتصدقوا، وأظهر منه فى الدلالة وأقوى حديث بريرة المشهور ، فقد روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن بريرة جاءت فقالت : إنى كاتبت أهلى على تسع أواق كل عام أوقية ، فأعينينى ، فقالت عائشة رضى الله عنها : إن أحب أهلك أن أقضى كتابتك ويكون لى ولاؤك فعلت ، فذكرت ذلك بريرة لأهلها فأبوا ، وقالوا : إن شاءت أن تحتسب عليك فلتفعل ، ويكون ولاؤك لنا ، فذكرت ذلك عائشة لرسول الله ﷺ فقال لها رسول الله ﷺ : (ابتاعى فأعتقى فإنما الولاء لمن أعتق) .

ثم قام رسول الله ﷺ فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :(أما بعد: ما بال رجال يشترطون شروطاً ليست فى كتاب الله ، فأيما شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل ولو كان مائة شرط) .

ومثل حديث بريرة حديث عتق سلمان الفارسى ، فقد قال له النبى ﷺ: (كاتب) فكاتب وأعانه النبى ﷺ ، ومن هذا الباب حديث جويرية أم المؤمنين فى مكاتبتها واستعانتها بالنبى ﷺ فأدى عنها وأعتقها ثم تزوجها وقد تقدم هذا الحديث .

وذهب بعض الأئمة إلى أن معاونة المكاتبين على آداء ما كوتبوا عليه واجبة فى بيت مال المسلمين أخذاً من ظاهر قوله تعالى : (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) ، فالخطاب على هذا الرأى موجه إلى ولاة الأمر بقرينة قوله : (مال الله) ، فالمال كله وإن كان يطلق عليه فى أى يد كان مال الله لكن العرف خصص هذا الإطلاق بالمال العام ، ومهما يكن من شىء فالآية صريحة فى بيان تشوف الإسلام وتطلعه إلى الحرية وتحقيقها بما يمكن من الوسائل والسبل .

ومن لطيف هذا التشريع الرحيم تشريع العتق بالكتابة أن بعض أئمة السلف ذهب إلى أن المكاتب يعتق ويكون حراً بمجرد عقد الكتابة ولولم يؤدشيئاً من نجومها ولا يرجع إلى (الرق) أبداً ولو عجز عن الأداء وتكون نجوم الكتابة ديناً عليه ، ويكون بها غريما ، يثبت له بذلك حق فى نصيب الغارمين فى مصارف الزكاة .

وذهب بعض السلف إلى أن المكاتب يعتق ويتحرر بأداء أول نجم عليه قل ذلك أوكثر ويكون بالباقى غريماً ، وهذا مروى عن على كرم الله وجهه.

وكل هذه الأنظار تصور مقدار حرص الإسلام والمسلمين الذين فهموا روح التشريع على تحقيق الحرية للذين حرموا منها لأسباب لا مدخل لأصل التشريع فيها .

* * *

ومن أوسع نوافذ الحرية فى منهج الإسلام للقضاء على شذوذ (الرق) ماورد فى الحث على العتق والترغيب فيه باعتباره من أعظم القربات إلى الله تعالى ، وما ورد فى النصوص من ربطه بأجزل الثواب وأوفى الجزاء .

ومن أجمل وأحسن صور هذا الترغيب أن الإسلام يرى أن عتق الرقبة أى رقبة ، مؤمنة ، أو غير مؤمنة ، عمل من أفضل الطاعات ، بل إن الإسلام يرى أن أفضل الرقاب فى العتق أعلاها ثمناً وأغلاها قيمة ، وأعزها على

أهلها ، وأنفسها لديهم ،ولوكانت غير مؤمنة ،لأن الإسلام ينظر فى هذا المقام إلى تحقيق الحرية الإنسانية، روى البخارى عن أبى ذر رضى الله عنه قال : سألت النبى ﷺ أى العمل أفضل ؟ قال : (إيمان بالله ، وجهاد فى سبيله) قلت : فأى الرقاب أفضل ؟ قال : (أعلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها) .

ومن أجل هذه النوافذ أثراً فى الترغيب فى العتق والحرص على الحرية ما ورد من عظيم الثواب لمن أعتق رقبة مخلصاً لوجه الله تعالى،روى الطبرى عن أبى نجيح قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أيما مسلم أعتق رجلا مسلماً فإن الله جاعل وفاء كل عظم من عظامه عظماً من عظام محرره من النار، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة فإن الله جاعل وفاء كل عظم من عظامها عظماً من عظامها من النار) .

وفى الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار حتى فرجه بفرجه) أخرج الترمذى فى صحيحة عن أبى أمامة أن النبى ﷺ قال : (أيما امرىء مسلم أعتق امرأ مسلماً كان فكاكه من النار يجزى كل عضو منه عضواً منه،وأيما امرىء مسلم أعتق امرأتين مسلمتين كانتا فكاكه من النار يجزى كل عضو منهما عضواً منه ، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة كانت فكاكها من النار يجزى بكل عضو من أعضائها عضواً من أعضائها) .

وفى حديث عمرو بن عبسة رضى الله عنه أن النبى ﷺ وسلم قال : (من أعتق نفساً مسلمة كانت فديته من النار) .

وفى حديث واثلة بين الأسقع عند أبى داود والنسائى قال : أتينا رسول الله ﷺ فى صاحب لنا قد أوجب بالقتل ـ أى استحق دخول النار لارتكابه جريمة قتل ـ فقال ﷺ (اعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار) .

وقد كان لهذه النصوص المرغبة أثرها التربوى التهذيبى فى نفوس المسلمين فأسرعوا إلى تطبيقها راضية نفوسهم راغبة فيما عند الله من جزاء وثواب .

روى البخارى عن سعيد بن مرجانة صاحب على بن حسين زين العابدين قال : قال لى أبو هريرة رضى الله عنه قال النبى ﷺ : (أيما رجل أعتق امرأ مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً منه من النار) قال سعيد بن مرجانة : فانطلقت حين سمعت الحديث من أبى هريرة إلى على بن حسين فحدثته به فقال: أنت سمعت هذا من أبى هريرة ؟ قلت نعم ، فعمد على بن حسين رضى الله عنهما إلى غلام له يدعى مطرفا كان قد أعطاه فيه عبد الله بن جعفر عشرة آلاف درهم ، أو ألف دينار ، فأعتقه وقال له : اذهب فأنت حر لوجه الله .

ومن نوافذ الحرية فى الإسلام عتق المستولدات ، بمجرد ولادتهن من سادتهن ، فيصرن حرائر بالولادة ، ومن نوافذها عتق أى مملوك كان شركة بين اثنين أو أكثر ، وحرر أحد الشركاء نصيبه فإن المملوك يعتق كله ويصير حراً ، ويقوم على من أعتق نصيبه منه قيمة عدل ويدفع لشركائه قيمة أنصبائهم.وروى الأئمة عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال:(من أعتق شركاً له فى عبد وكان له مال يبلغ ثمن العبد قوم عليه قيمة عدل ، فأعطى شركاءه حصصهم وعتق عليه العبد وإلا فقد عتق عليه ما عتق) .

وروى الإمام أحمد أن رجلا أعتق شقصاً له من مملوك فرفع ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فجعل خلاصه عليه فى ماله وقال : (هو حر كله ليس لله شريك) .

ومن نوافذ الحرية أن السيد إذا ضرب عبده ضرباً مبرحاً أو مثل به أو لطمه على وجهه عتق عليه وكان ولاؤه للمسلمين ، وكانت نصرته واجبة على كل مسلم ، روى الإمام ابن ماجه وأبو دواود أن رجلا جاء إلى النبى صارخاً ، فقال له : (مالك ؟) قال : رآنى سيدى أقبل جارية له فجبنى ،

فقال النبي صلى الله علية وسلم : (على بالرجل) فطلب فلم يقدر عليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اذهب فأنت حر) . قال الرجل : على من نصرتى يارسول الله ! قال : (تقول : أرأيت إن استرقنى مولاى ؟) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (على كل مؤمن أو مسلم) وفى الحديث الذى أخرجه مسلم عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه قال : (من ضرب عبده أو لطمه فكفارته أن يعتقه) .

وروى الترمذى عن أبى مسعود الأنصارى قال : كنت أضرب غلاماً لى فسمعت قائلا من خلفى يقول : (اعلم أبامسعود ، اعلم أبامسعود) فالتفت فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (لله أقدر عليك منك عليه) قلت : يارسول الله هو حر لوجه الله فقال : (لو لم تفعل للفحتك النار) .

وتتجلى رعاية الإسلام لمكانة الإنسانية ممثلة فى أبنائها كيفما كانوا فى حفاوته وتلطفه وترحمه بالأسرى والسبايا الذين يضطر إلى حيازتهم فى ظل سلطانه احتياطاً لنفسه وحذراً من غدر أعدائه فهو يحرم تحريماً قاطعاً فى أسلوب زاجر مرعب ، التفريق بين ذوى القرابة القريبة ويوجب اجتماعهم فى رعاية واحدة وكفالة واحدة . روى الترمذى عن أبى أيوب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة) . قال الترمذى : والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وغيرهم كرهوا التفريق بين السبى ، بين الوالدة وولدها وبين الولد والوالد ، وبين الإخوة ، كما قدمنا ذلك .

ولقد كان لهذه الرعاية الإنسانية مظهر إسلامى آخر هو أعجب من العجب جعل بعض الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمنون أن يكونوا مماليك ، يموتون على ذلك لأنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه

وسلم يرفع منزلة المملوك الصالح المطيع لله تعالى الناصح لمولاه فوق منزلة الحر الصالح المطيع لله تعالى .

روى البخارى عن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عند البخارى ومسلم — واللفظ لمسلم — قال : قال رسول الله ﷺ : (للعبد المملوك المصلح أجران) والذى نفس أبى هريرة بيده لولا الجهاد فى سبيل الله والحج ، وبر أمى ، لأحببت أن أموت وأنا مملوك .

قال الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر فى بيان حكمة هذه المنزلة التى رفع الله إليها المملوك فجعله بها فوق منزلة الحر : معنى هذا الحديث عندى : أن العبد لما اجتمع عليه أمران واجبان طاعة ربه فى العبادات وطاعة سيده فى المعروف ، فقام بهما جميعاً كان له ضعف أجر الحر المطيع لطاعته لأنه قد ساواه فى طاعة الله ، وفضل عليه بطاعة من أمر الله بطاعته .

وأدق من ذلك وألطف ما ذهب إليه الإمام ابن حجر العسقلانى إذ يقول : والذى يظهر أن مزيد الفضل للعبد الموصوف بالصفة المذكورة لما يدخل عليه من مشقة الرق .

وإنما كان ذلك أدق وألطف — فى نظرنا — لأنه فى معناه أدخل فى ملايمة الفضل لطبيعة الصفة التى هى خصيصة المملوك ، ومنها ثبت له امتيازه فكان له بها زيادة الفضل على الحر الذى ساواه فى طاعة الله تعالى لأن مشقة الرق لا تعدلها مشقة فإذا احتملت بالصبر الجميل والقيام فيها بحقها إلى جانب القيام بحق الله تعالى فى عبادته والإخلاص له كانت حرية أن ترفع منزلة صاحبها إلى أعلى منازل المقربين .

وهذا — عندنا — من باب : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فالمملوك الصالح الذى نصح لسيده وأدى طاعة ربه أتقى لله تعالى من الحر الذى أدى طاعة ربه فهو أكرم عند الله منه بما أثبت له النبى ﷺ من مضاعفة أجره مرتين .

* * *

هذا والحقيقة التى لامرية فيها أن الإسلام فتح أمام أبناء الإنسانية — كيفما كانوا — أبواب الحياة الفكرية على أوسع مدارجها فولج إلى ساحتها الأحرار والمماليك على قدم المساواة فكان حظ المماليك فيها أوفر وأعظم ، لأنهم بحكم صفتهم غير مفرغين لها وعندهم ما يشغلهم من أمور الحياة أكثر مما يشغل الأحرار من الواجبات ولكن حب التطلع إلى تعويض مافاتهم جعلهم سرعان ماتواثبوا إلى دور المجد العلمى ، فكانوا قادة الفكر الإسلامى وموجهى نهضة العلوم والمعارف فى مجتمع الإسلام ، وأصبحت لهم السيادة العقلية والروحية ، لاتصدر الأمة أمورها إلا عن رأيهم واجتهادهم ، وقد عرفت ذلك لهم أمتهم الإسلامية فقدرته حق قدره وأعزتهم به وأكرمتهم وأعلت منازلهم ومنحتهم ثقتها فأخذت دينها وتشريعها عنهم . ولو لم يكن لهم من الفضل إلا أنهم كانوا — فى أكثر الأمر — هم الناقلين لعلم الصحابة إلى من بعدهم لكفاهم فى دنيا الفخر عن كل فخار .

وبعد فهذه هى نظرة الإسلام إلى (الرق) لم يأمر به ولايرغب فيه ، ولكنه قبله مضطراً إليه اضطراراً ، ووضع له من النظم فى منبعه الذى وحده فى أعدل صورة ، وفى حياته التى رسم خطوطها وفى إحسان معاملته ، فى التلطف به ورعايته ، ما بلغ به أعلى منازل الكرامة حتى فضل المماليك على سائر الأحرار ، وفتح لهم نوافذ الحرية حتى

كادت لاتبقى للرق أثراً وفتح لهم باب الحياة الفكرية حتى أصبحوا سادة المجتمع الإسلامى فى علومه ومعارفه وتشريعه .

والإسلام لايتملق أحداً ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز »(١) .

* * *

(١) سورة المجادلة آية ٢١ .

أشعة الحق لا يحجبها الضباب
صور ومشاهد

هذا فصل نختم به هذا الكتاب لم نرد إلى أن يكون من صميم بحوثه ، ولكننا أردناه تابعاً ملحقاً به إلحاقاً ، يأنس به من لم يتعمق الإيمان بحقائق الإسلام ولم يسبر أحداثه ويتعرف أسراره التشريعية ، ولم تسترعه تطبيقاتا السلوكية فى مدارج الحياة الإسلامية ، وتتأثر به عواطف الذين يغلبهم على عقولهم تقليد الغالبين من ذوى السلطان المادى فى هذه العصور .

وهى صور ومشاهد من حقائق التاريخ سجلتها أقلام متحررة من أغلال العصبية الجهلاء ، تصف أحداثاً ووقائع معبرة أصدق تعبير ، لم نوردها لحاجة الكتاب إليها فى موضوعه ، ولا لحاجته إلى شهادتها فى بحوثه وقضاياه ، لأن هذا الكتاب أردناه تصويراً لحقيقة الإسلام التشريعية ، وتطبيقاته السلوكية ، وهذه الحقيقة مسطورة فى سجل الحياة لم تستطع عوامل الجهالة والعصبية طمس معالمها ، فلا حاجة بها إلى شهادة من خارج طبيعتها ، ولكنها تحتاج إلى إضاءة أنوار البحث الجاد من حولها لتظهر مشرقة كما أرسلت أشعتها إلى الإنسانية شمس الهداية من سماء النبوة الخاتمة والرسالة الإسلامية الخالدة .

والذى حرضنا على إثبات هذه الصور والمشاهد — فوق مالها من قدر فى جذب بعض الأذهان إلى النظر فى حقائق الإسلام — أنها كتبت بأقلام لا تعتنق (الإسلام) فلا تتهم بالتعصب له ، وأنها كتبت فى أشد عصور الضعف

المادى والفكرى والاجتماعى والسياسى للأمة الإسلامية ، فلا يتهم أصحابها بقصد تملق المسلمين .

وأكثر الذين سجلوا هذه الصور والمشاهد كانوا من أمم ودول تملك فى يدها صولجان الحكم والتحكم فى شعوب الإسلام ، وتملك القوة المادية القاهرة لحماية هذا التحكم الظالم فى شعوب الإسلام ، فلا يتهمون بخوف من قوة إسلامية حاكمة تقهرهم على تسجيل كلمة لا يؤمنون بصدقها عند أنفسهم .

ونحن لا نلتزم فى ذكر هذه الصور والمشاهد ترتيباً زمنياً ولا ترتيباً موضوعياً وإنما نذكرها لتكون أمام من يريدها صوراً فى إطار الأحداث التى مرت على الإسلام والمسلمين ، وهذه الأحداث وإن نالت من المسلمين وأثرت مع مئات الصور مثيلاتها أعمق الأثر فى حياتهم ، لكنها لم تنل من الإسلام فى طبيعته الدينية وحقيقته التشريعية ومناهجه الفكرية شيئاً من نيل ، ولا أثرت فيه شيئاً من أثر سوى إظهار سماحته وقوة بنائه .

والإسلام شىء والمسلمون بحالهم التى هم عليها شىء آخر وهم يستطيعون أن يعودوا إليه نقياً طاهراً ، يقودهم إلى العزة لو أرادوه قائداً ، وأرادوا أن يكونوا بسلوكهم صورة حية لحقائقه وأحكامه .

سماحة ونبل

١ — جاء فى كتاب (قصة الحضارة) تأليف « ول ديورانت » ج ٢ عصر الإيمان ص ١٣٠ وما بعدها ملخصاً : (ولقد كان أهل الذمة المسيحيون ، والزردشتيون ، واليهود والصابئون يستمتعون فى عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً فى البلاد المسيحية فى هذه الأيام ، فلقد كانوا أحراراً فى ممارسة شعائرهم الدينية واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم ، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زى ذى لون خاص ، وأداء فرضة عن كل شخص ، تختلف باختلاف دخله ، بين دينار وأربعة دنانير ، ولم تكن

هذه الضريبة تفرض إلا على القادرين على حمل السلاح ويعفى منها الرهبان والنساء ، والصبيــان ، والأرقاء ، والشيوخ ، والعجزة ، والعمى ، والشديدو والفقر .

وكان الذميون يعفون نظيرهذه الضريبة من الخدمة العسكرية ، ولا تفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها اثنين ونصف فى المائة ، وكان لهم على الحكومة أن تحميهم .

وكان اليهود فى بلاد الشرق الأدنى يرحبون بالعرب الذين حرروهم من ظلم حكامهم السابقين .

وكانوا يعاملون على قدم المساواة مع المسيحيين ، وأصبحوا مرة أخرى يتمتعون بكامل الحرية فى حياتهم ، وفى ممارسة شعائر دينهم فى بيت المقدس ، وأثروا كثيراً فى ظل الإسلام فى آسيا ، ومصر ، وأسبانيا ، كما لم يثروا من قبل تحت حكم المسيحيين .

وكان المسيحيون فى بلاد آسيا الغربية يمارسون شعائر دينهم بكامل حريتهم ، وبقيت الكثرة الغالبة من أهل بلاد الشام مسيحية حتى القرن الثالث الهجرى ، ويحدثنا المؤرخون أنه كان فى بلاد الإسلام فى عصر المأمون أحد عشر ألف كنيسة ، كما كان فيها عدد من هياكل اليهود ، ومعابد النار ، وكان المسيحيون أحراراً فى الاحتفال بأعيادهم علناً ، والحجاج المسيحيون يأتون أفواجاً آمنين لزيارة الأضرحة فى فلسطين .

وأصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية والذى كانوا يلقون صوراً من الإضطهاد عــلى يد بطارقة القسطنطينية وأورشليم ، والإسكندرية وأنطاكية أصبح هؤلاء أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين .

ولقد ذهب المسلمون فى حماية المسيحيين إلى أبعد من هذا ، إذ عين والى أنطاكية فى القرن التاسع الميلادى حرساً خاصاً ليمنع الطوائف المسيحية المختلفة من أن يقتل بعضها بعضاً فى الكنائس .

وبلغت العلاقة بين الدينين ـ الإسلام والمسيحية ـ فى وقت من الأوقات درجة من المودة تبيح للمسيحيين الذين يضعون الصلبان على صدورهم أن يؤموا المساجد ويتحدثوا فيها مع أصدقائهم المسلمين .

وكانت طوائف الموظفين الرسميين فى البلاد الإسلامية تضم مئات من المسيحيين وقد بلغ عدد الذين رقوا منهم إلى المناصب العليا فى الدولة من الكثرة درجة أثارت شكوى المسلمين فى بعض العهود ، فقد كان سرجيوس والد القديس يوحنا الدمشقى خازن بيت المال فى عهد عبد الملك ابن مروان.

وعلى الرغم من خطة التسامح الدينى التى كان ينتهجها المسلمون الأولون ، أو بسبب هذه الخطة اعتنق الدين الجديد « الإسلام » معظم المسيحيين ، وجميع الزردشتيين والوثنيين ، وكثيرون من اليهود فى آسيا ومصر وشمالى إفريقية .

وفى البلاد التى نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمى فى هذه الأقاليم كلها انتشرت العقائد والعبادات الإسلامية وآمن السكان بالدين الجديد ، وأخلصوا له ، واستمسكوا بأصوله إخلاصاً واستمساكا أنسياهم بعد وقت قصير آلهتهم القديمة ، واستحوذ الدين الإسلامى على قلوب مئات الشعوب فى البلاد الممتدة من الصين وأندونيسيا والهند إلى فارس والشام وجزيرة العرب ومصر ، وإلى مراكش والأندلس ، وتملك خيالهم ، وسيطر على أخلاقهم ، وصاغ حياتهم ، وبعث فيهم آمالا خففت بؤس الحياة ومتاعبها ؛ وأوحى إليهم العزة والأنفة ؛ حتى بلغ عدد من يعتنقونه ويعتزون به فى هذه الأيام نحو ثلثمائة وخمسين مليوناً من الأنفس ؛ يوحد هذا الدين بينهم ويؤلف بين قلوبهم ؛ مهما يكن من الاختلافات والفروق السياسية) .

وفى ص ١٤٣ من الكتاب نفسه : (وأكبر الظن أن مايحدثنا عنه المؤرخون من ضروب القسوة التى كان يرتكبها الملوك المسيحيون والبيزنطيون والمورفنجيون وأهل الشمال من الأعمال الوحشية كانت من الأعمال الشاذة ، ولكن المألوف أن المسلم كان مثال الرقة والإنسانية والتسامح) .

وفى ص ١٥١ من الكتاب عينه : (ولكن الخلفاء قد أمنوا الناس إلى حد كبير على حياتهم وثمار جهودهم ؛ وهيئوا الفرص لذوى المواهب ونشروا الرخاء مدى ستة قرون فى أصقاع لم ترقط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم ؛ وبفضل تشجيعهم ومعونتهم انتشر التعليم ؛ وازدهرت العلوم والآداب والفلسفة والفنون ازدهاراً جعل آسية الغربية مدى خمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة) .

وفى ص ٢٨٠ من الكتاب ذاته : (ولما أن فتح أهل الشمال « النورمان » صقلية ١٠٦٠ م - ١٠٩١ م أعانوا بفتحهم الزمان على محو آثار المسلمين فى صقلية ، وهاهو ذا الكونت روجر يفخر بأنه قد سوى بالأرض المدائن والقلاع والقصور العربية التى بذل المسلمون فى إقامتها أعظم الفنون وأعجبها) .

ومنه فى ص ٢٨٢ : (عامل الفاتحون - من المسلمين - أهل البلاد من الأسبان معاملة طيبة لينة . . . وأطلقوا لهم من الحرية الدينية مالم تتمتع به أسبانيا إلا فى أوقات قليلة) وفى ص ٢٨٥ (ودعا عبد الرحمن الثالث إلى بلاطه رجالا من مختلف الأديان كان يستشيرهم فى شئون الحكم) .

وفى ص ٢٨٥ أيضاً : (كان الخليفة الحكم - وهو عالم خلفاء الأندلس - يترك تصريف شئون الحكم وتوجيه السياسة القومية نفسها إلى وزيره اليهودى القدير « حسداى بن شيروط »).

وفى ص ٢٩٦ : (لكن الحكام المسلمون قدأطلقوا لغير المسلمين جميعهم على اختلاف أديانهم حرية العبادة ، وإذا كان اليهود الذين اضطهدهم القوط الغربيون أشد الاضطهاد قد ساعدوا المسلمين فى فتوحهم فقد ظلوا يعيشون من ذلك الوقت إلى القرن الثانى عشر مع المسلمين الفاتحين فى أمن ووئام وأثروا وبرعوا فى العلوم والمعارف، وارتقوا فى بعض الأحيان إلى مناصب عالية فى الحكومة) .

(وكان المسلمون والمسيحيون يتزاوجون فيما بينهم بكامل الحرية ويشتركون من حين إلى حين فى الاحتفال بأحد الأعياد المسيحية أو الإسلامية المقدسة . . . وكان المسيحيون من رجال الدين وغير رجال الدين يفدون بكامل حريتهم وهم آمنون من جميع أنحاء أوربا المسيحية إلى قرطبة وطليطلة وأشبيلية طلباً للعلم أو زائرين أو مسافرين) .

(وقد شكا أحد المسيحيين من نتيجة هذا التسامح بعبارات تذكرنا بشكاية العبرانيين القدماء من اصطباغ اليهود بالصبغة اليونانية فيقول : « إن إخوانى المسيحيين يعجبون بقصائد العرب وقصصهم ، وهم لا يدرسون مؤلفات الفقهاء المسلمين وفلاسفتهم ليردوا عليها ويكذبوها بل ليتعلموا الأساليب العربية الصحيحة الأنيقة ... واحسرتاه » ، إن الشبان المسيحيين الذين اشتهروا بمواهبهم العقلية لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة ، غير علوم العرب وآدابهم ولغتهم ، فهم يقبلون فى فهم على دراسة كتب العرب يملئون بها مكتباتهم ، وينفقون فى سبيل جمعها أموالا طائلة ، وهم أينما كانوا يتغنون بمدح علوم العرب) .

(وفى وسعنا أن نحكم على ما كان للدين الإسلامى من جاذبية للمسيحيين من رسالة كتبت فى عام ١٣١١ م فقد قدر عدد سكان غرناطة المسلمين فى ذلك الوقت بمائتى ألف كلهم ما عدا (٥٠٠) منهم من أبناء المسيحيين الذين

اعتنقوا الإسلام ، وكثيراً ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على المسيحيين) .

وقد أثبت المؤرخون أن هذا التسامح الذى جذب كثيراً من المسيحيين إلى اعتناق الإسلام أدى إلى نشوء حركة تعصب بشعة قادها رجال الكنيسة المتعصبون الذين كانوا يتهافتون على بطولة المحاكمات أمام القضاء الإسلامى، ليثيروا الحفائظ فى نفوس المسلمين بما يظهرونه من النيل من الإسلام ونبى الإسلام صلى الله عليه وسلم ، وليثيروا الحماسة الحمقاء فى أنفس العامة من المسيحيين .

وفى هذا يقول صاحب كتاب (قصة الحضارة) : (ولكن كثيرين من المسيحيين من رجال الدين وغير رجال الدين لم يرضوا عن هذا التسابق للموت فى المحاكمات وقالوا لتلك الفئة المتعصبة المتحمسة « إن السلطان يسمح لنا بأن نمارس شعائر ديننا ولا يضطهدنا فما الداعى إلى هذا التعصب الشديد) .

حق وانصاف

شهادة صدق ممن لايتهم بتعصب للإسلام

إذا جاءت كلمة الحق من غير مدفوع بتهمة التعصب للإسلام ، فهى شهادة صدق يفرح بها المؤمنون ، ويغص بصدقها المعاندون .

يقول صاحب كتاب (قصة الحضارة) «ول ديورانت» ص ٦٤٩ ترجمة الأستاذ محمد بدران طبعة الإدارة الثقافية فى الجامعة العربية (فإن الإسلام ساد لأنه كان خير نظام اجتماعى وسياسى استطاعت الأيام تقديمه . . . وكان يهب بنى الإنسان نظاماً أفضل من أى نظام آخر) .

فهل يفهم المتعصبون ، وهل يفقه الذائبون فى بوتقة فتنة التقليد والتقديس من المسلمين (الجغرافيين) ؟

ويقول «ول ديورانت» فى ص (٧٠٩) من الكتاب مصوراً توحش التعصب الأعمى فى الحروب الصليبية : (وسارت قوة تحت قيادة «جود فرى البيونى» البلجيكى إلى بيت المقدس ، وبعد حصار دام أكثر قليلا من شهر ، استولوا على المدينة نهائياً فى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ .

كانت المذبحة رهيبة ، وكان دم المقهورين يجرى فى الشوارع ، حتى لقد كان الرجال — من الصليبيين — يصيبهم رشاش الدم وهم ركوب .

وعندما أسدل الليل سدوله جاء الصليبيون — وهم يبكون من شدة الفرح — إلى الناووس بعد خوضهم فيما أريق من دم سال كالخمر من معصرة العنب ، ورفعوا أيديهم المضرجة بالدماء يصلون شكراً لله) .

أسمعتم أيها المسلمون (الجغرافيون) ؟ أفيقوا وأسلموا إسلاماً صحيحاً يفتح عيون قلوبكم وعيون عقولكم إلى شيء من الموازنة بين الأحداث والوقائع ، أحداثنا في التاريخ ، وسماحتنا تديناً يوم أن كنا وكانوا ، ووقائعهم التي يصورها المنصفون من كتابهم بأقلام برئت من العصبية العمياء ، فصورت أعداء الإسلام وحوشاً تلغ في الدماء وهي تقهقه ملء أشداقها .

الإسلام ملئ بروح الرفق والسماحة

٢ — يقول « هـ . ج . ولز » صاحب كتاب (معالم تاريخ الإنسانية) ترجمة « عبد العزيز توفيق جاويد » مراجعة « محمد مأمون نجا ، عبد الحميد يونس » ج ٣ ص ٦٤٢ تعليقاً على خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع : (فهذا الإلحاح على الرفق والرعاية في الحياة اليومية إنما هو واحد من فضائل الإسلام الكبرى ، بيد أنه ليس الفضيلة الوحيدة فيه ، ويعادل هذه في الأهمية التوحيد الذي لا هوادة فيه ، والذي يتجرد من كل اعتزال يهودي وهو توحيد يدعمه القرآن الكريم ، وكان الإسلام منذ البداية قوي المقاومة إلى حد بعيد لعمليات الصقل اللاهوتية التي أربكت المسيحية وفرقت كلمتها ، وقضت على روح عيسى « عليه السلام » .

كان الإسلام مليئاً بروح الرفق والمسامحة والأخوة ، وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم ، وكان غريزة مجسمة تحوي عواطف الفروسية في الصحراء ، وكان يستهوي مباشرة الغرائز الغالبة في تركيب الرجال العاديين ، وقد وقفت اليهودية ضده ، وهي التي اتخذت من الرب كنزاً تكتنزه لجنسها ، ثم المسيحية وهي تتكلم وتبشر آنذاك وبلا نهاية بالتثليث والمبادئ والهرطقات التي لم يكن يستطيع أي رجل عادي أن يميز فيها الرأس من الذنب .

ومرة أخرى أسمعتم أيها الإمعاة (الجغرافيون)فى حساب الإسلام؟ أفلا تعلقون ؟ اقرءوا الإسلام وافهموه كما أنزله الله تعالى على محمد خاتم النبيين ﷺ ، وكما فهمه منه أصحابه وتلاميذهم الذين فتح الله بهم قلوباً غلفاً وأعيناً عمياً وآذاناً صماً ، فكانوا كما قال الله تعالى :(خير أمة أخرجت للناس) هداة مهديين .

فظائع تخجل منها الوحوش

(٣) يقول الأستاذ (يوسف البستانى) فى كتابه (تاريخ حرب البلقان الأولى) :

(جاء فى منشورات رسمية من ملوك البلغار والصرب واليونان تلقيب الحرب البلقانية بالصليبية ، وفيها تهييج للعواطف .

ثم ظهر منشور من جلالة السلطان يذكر فيه الجنود العثمانية بمجد آبائها وأجدادها وبشجاعتهم التاريخية ، ويحضهم على احترام النساء والأطفال وسائر الذين لايدخلون معمعان الحرب) .

وفى ص ١٧٨ : (قالت جريدة فريستش : إن مئتين من النساء والأطفال لجأوا إلى جامع فى دده أغاج فوضع البلغاريون تحته ديناميتاً ونسفوه بمن كان فيه فلم ينج أحد وإن بلدة « غور » حصار أصبحت مهداً للظلم والأعمال الوحشية فقد أحرق فيها المسلمون وهم أحياء وكاف عدد منهم أن يدينوا بالمسيحية وإلا أحرقوا بالنار ورمى جماعة من كوملنجه فى النهر وهم مكتوفوا الأيدى والجروح تقطر دماً من أبدانهم ورءوسهم).

نشر مراسل « الألوستراسيون » مقالا قال فيه: (إن حى المسلمين الذى كان عدد أهله نحو ٣٠٠٠ نسمة خرب كله وأحرقت منازله ومامن شىء يبرر هذا التوحش المنكر) .

وقال مراسل الديلى تلغراف فى كليبولى :(إنى لاأستطيع وصف البؤس الذى حل بهؤلاء المساكين فإن معظم النساء فقدن رجالهن بغدر الوحوش واللصوص من رجال العصابات أو من مواطنيهم اليونانيين والبلغاريين « وكانوا يقتلون النساء والأطفال).

وقال المسيو ستفان لوزان رئيس تحرير الماتين : (إن اليونان والبلغار يسلكون مسلكاً دنيئاً فى مقدونيا ، والنصارى الساكنون فى القرى يذبحون المسلمين وينزعون الحلى من آذان النساء ويعتدون عليهن ، وحدث أن النساء والفتيات لجأن إلى الأديرة بعد قتل الرجال ولكن الأهالى المسيحيين هجموا عليهن وقتلوهن) ثم قال رئيس تحرير الماتين :(ومما يزيد تلك الفظائع هولا أن رجال الدين المسيحى هم الذين يشهدون بها).

وكتب أحد مراسلى جريدة كيلوزيتوغ : (إن جماعة من القسوس فى مقدونيا نشروا رسالة قالوا فيها : إن الواجب المفروض على كل مسيحى أن يقدم روحاً إسلامياً على هيكل الكنيسة فأخذ الأهالى يعملون بوصيتهم فى حالة جنونية ووحشية فظيعة) .

وقد امتد الاعتداء إلى المساجد فنكست المنابر وألقيت خزائن الكتب ، فأثر فى نفسى هذا العمل تأثيراً شديداً ، ولعنت تلك المدنية الحمراء) .

وكتب مراسل الماجيرو الإيطالية : (إن الصربيين أفرغوا كل جهدهم فى قتل المسلمين وذبحوا كثيراً بينهم عدد كبير من النساء) .

ونشرت جريدة كونيش زيتونغ كتاباً فى الفظائع التى ارتكبها البلغاريون فى (قولة) جاء فيه : (فى اليوم الثانى من وصول آلاى بلغارى للمدينة شرع أهل المدينة يقودهم مطرانها فى ارتكاب أعمال وحشية فى معاملة أناس لا ذنب لهم إلا كونهم مسلمين ، ثم اعتدوا على أعراض النساء

والفتيات ، وأخرجوا المسجونين ، وقتلوهم فى فظاعة بعد أن جردوهم حتى مما يستروا به عوراتهم ، وكانوا يطعنونهم بالحراب فى أدق المواضع شعوراً من أجسامهم حتى يخرجوا أرواحهم .

ومما فعله أولئك الوحوش أنهم حبسوا النساء والبنات فى إحدى القهوات وأحرقوها بهن ، وكذلك ارتكبوا مثل هذا الجرم فى أحد المساجد وأحرقت العصابات ٣٨ قرية فى قضاء كاوردار ، وذبحت جميع الأهالى فى « درينوفو » ، وحفرت بين هذه القرية وباليكور عدة قبور دفنت فيها الذين عذبتهم وهم على قيد الحياة أو على وشك الموت ، فكان عابر السبيل يبصر رءوس تلك الضحايا نابتة من الأرض على شكل فظيع) .

وقال مراسل الديلى تلغراف : (إن جنود الجنرال يانكوفتش أعادوا فى القرن العشرين جميع ضروب الاضطهاد القاسى الفظيع التى رواها التاريخ فإنهم لم يكتفوا أيام زحفهم بذبح الجنود المسلحين غيلة وخداعاً . بل دفعهم التوحش إلى قتل أناس عزل من السلاح والفتك بالشيوخ والنساء والأولاد والأطفال الرضع . وكان الضباط يقولون لجنودهم : إن خير وسيلة للراحة إنما هى إبادة المسلمين . وأسرع الجنود إلى تنفيذ ذلك فقتلوا ، وأحرقوا ، وفتكوا بمن أبقته المصادفة حياً ، وقد اخترع الجنود لمزيد شوقهم إلى الدم أساليب غاية فى التوحش والفظاعة . فكانت تحيط بالمنازل وتشعل فيها النيران على من فيها ، وكانوا يعمدون إلى قتل الرجال أمام النساء والأولاد ويضطرون الوالدات البائسات إلى حضور مشهد الفتك بأبنائهن وتقطيعهن إرباً أمام أعينهن . وكان الإعدام اليومى سلوان الجنود) .

وأرسل المستر مرمدوك بكثول كتاباً إلى جريدة التيمس جاء فيه : (إن شهرة التيمس باستقلال الرأى تحملنى على الرجاء منكم أن تسمحوا لى

بتوجيه الخواطر على صفحات جريدتكم إلى حالة مسلمى مقدونيا . فقد دلت الأخبار التى جاءتنى وجاءت غيرى أن هناك مكيدة مدبرة لذبح غير المقاتلة من الرجال والنساء والأولاد ، وقد بدأت المذابح منذ أسبوع ولا تزال قائمة حتى الآن وليس لهم غاية إلا إبادتهم عن آخرهم ، وقد زاد عـــدد الضحايا حتى الآن على نصف مليون نسمة . . . أفظع المذابح فى العصور الحديثة تجرى باسم المسيحية) .

(٤) جاء فى كتاب (عبد الحميد ظل الله على الأرض) تأليف الدكتورة (آلما وتلن) ترجمة راسم رشدى ص ٩٣ : (لقد أعلن الروس أنفسهم حماة للنصارى واتخذوا من المذابح البلغارية مبرراً لإعلان الحرب إلا أن المجازر البشرية الرهيبة التى كانت تجرى الآن فى البلقان فاقت فى فظاعتها وشرورها جميع حوادث الإرهاب السابقة) .

(لقد كانت معاملة الروس للمسلمين من القسوة بحيث دمرت قرى بأكملها ، وسمح للسولاف المسيحيين المتمتعين بحماية الروس أن يذبحوا سكانها جملة ، كانت النسوة استدراراً للعطف والرحمة يتقدمن الجماعات الهاربة وخلفهن الأطفال والعجزة وفى مؤخرتهم الشبان إلا أن الروس أبوا على أولئك التعساء كل رحمة ، وإن قصة نهر ماريتزا الذى قيل إنه غير اتجاهه لأن جثث ألفى طفل كانت تسد طريقه — ما هى إلا تعبير عن الحقيقة التى فاقت كل خيال . وما قصة آلاف الأطفال الذين قذفت بهم أمهاتهم إلى النهر لإنقاذهم من مصير أشد وأفظع وحشية وهولا سوى عمل يصور بعض القليل من الحقيقة المؤلمة) .

(لقد بلغ من فظاعة الوحشية المستهترة بالأرواح والدماء أن هؤلاء المتوحشين كانوا يشقون بطون الحبالى ويراهنون فيما بينهم عما إذا كان الجنين الذى لم يولد ذكراً أم أنثى) ؟.

وتقول المؤلفة فى ص ١٠٢ : (وفى هذه الأثناء بينما كان مؤتمر برلين الذى انعقد لوضع معاهدة الصلح بين روسيا وتركيا يتخذ قراراته ويتحدث عن الإنسانية والرق كانت تجرى فى البلقان حوادث فاقت فى فظاعتها كل ماسبقها من الحوادث).

وتقول فى ص ١٠٣ : (وفى تلك القطعة من الماضى البعيد كانت لجنة أوربية عزمت على شفاء الآلام ، ومع أن البلقان كان لايبعد أكثر من بضعة أيام عن أوربا الغربية إلا أن الضباط والصحفيين والأطباء الذين كانوا يشكلون اللجنة شعروا بأنهم نقلوا إلى عصر آخر يبعد عن زمانهم آلاف السنين وكانت الجثث والهياكل العظمية مازالت ملقاة على جانبى الطريق التى عبروها ووجدوا أنفسهم وسط مخلوقات نصف ميتة ، لم يترك فيهم الجوع والفزع والمرض سوى شعلة ضئيلة من الحياة ...)

(فما إن شعر البلغار بأنهم فى حماية الروس حتى انطلقوا خلف المسلمين الذين كانوا يعيشون بينهم يقتنصونهم كالوحوش البرية كانوا يقبضون على جميع الذكور فيربطونهم بالحبال ويطلقون عليهم الرصاص جملة .. وأما النساء اللواتى عشن بعد هذه المآسى فإنهن كن يستعطين من أعضاء اللجنة السم .. وخصصت اللجنة أياماً للأطفال المغتصبين والفتيات المخطوبات .. لقد تركت المعاملة الوحشية فى هؤلاء الفتيات أثرها الفظيع كانت كل واحدة منهن تروى لأعضاء اللجنة كيف كان الروس والبلغار يكوون الرؤوس بالأوانى المحماة « نقاب العرس للعرائس المسلمات » ويعلقون حول أعناقهن الركائز المحماة إلى درجة الاحمرار حلية للعروس).

ومع أن اللجنة كانت تقوم بعملها فى ظروف غاية فى الشدة وكان أعضاؤها كثيراً مايضطرون للاستغناء عن ماء الغسيل بسبب تسمم مياه

الآبار كلها إلا أنه مضى وقت طويل قبل أن يعترفوا بفشل الجهود إذ إن الألم والوحشية فى البلقان كانا أعظم من أن يعالجهما ما أى إسعاف سريع) .

لقد أصيبت أوربا بهزة عنيفة عند سماعها هذه الأنباء ، وقد أجمل اللورد سالزبورى نتائج تحقيق اللجنة بقوله إنه منذ أيام القوط والهون والفاندال لم يقع فى العالم المسيحى مثل تلك الفظائع التى ارتكبتها الجيوش الروسية) .

* * *

(٥) وجاء فى كتاب (نهاية الأندلس) لمؤلفه محمد عبد الله عنان ص ٢٢٩ وفى سنة ١٤٩٩ م ٩٠٥ هـ ذهب الكردينال كمنيس إلى غرناطة وحث مطرانها الدون تالافيرا على اتخاذ وسائل فعالة لتنصير المسلمين . . واستعمل الوعد والوعيد والبذل والإرغام ... وزاد كمنيس على ذلك فأمر بجمع كل مايستطاع جمعه من الكتب العربية ونظمت أكداساً فى أكبر ساحات المدينة وكان فيها عدد من المصاحف المزخرفة ، وكثير من كتب الآداب والعلوم — قدرت بأكثر من مليون كتاب وأضرمت فيها النار جميعاً .وذهب ضحية هذا الإجراء الشائن عشرات الألوف من الكتب العربية.

وفى ص ٢٤٤ (وكانت معظم أنواع التعذيب المعروفة فى العصور الوسطى تستعمل فى محاكم التحقيق ومنها تعذيب الماء وهو عبارة عن إيثاق المتهم فوق أداة تشبه السلم وربط ساقيه وذراعيه إليها مع خفض رأسه إلى أسفل ثم توضع فى فمه جرعات كبيرة من إناء وهو يكاد يختنق) .

(ومنها تعذيب « الجاروكا » وهو عبارة عن ربط يدى المتهم وراء ظهره وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ورفعه وخفضه معلقة سواء بمفرده أومع أثقال تربط معه) .

ومنها تعذيب الأسياخ المحماة للقدم . والقوالب المحماة للبطن والعجز وسحق العظام بالآلات الضاغطة ، وتمزيق الأرجل ، وفسخ الفك ، وغير

ذلك من الوسائل البربرية الفظيعة ، وبعد هذا التعذيب الوحشى يحمل المتهم ممزقاً دامياً إلى قاعة الجلسة ليجيب عن التهم التى توجه إليه لأول مرة) .

وفى ص ٢٥٠ (وقد اضطلع ديوان التحقيق الأسبانى بأعظم قسط من هذه الإجراءات الهمجية التى أريد بها تنفيذ حكم الإعدام فى أمة بأسرها) .

وفى ٢٥١ (وقد نقل إلينا الدون لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق الأسبانى وثيقة من أغرب الوثائق القضائيـة تضمنت طائفة من القواعد والأصول التى رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها العرب المتنصرين فى تهمة الكفر والمروق . ومما جاء فيهـا « يعتبر الموريسكى أو العربى المتنصر قـد عاد إلى الإسلام إذا امتدح دين محمد ﷺ أو قال إن يسوع المسيح عليه السلام ليس إلهـاً ، وليس إلا رسولا ويجب على كل نصرانى أن يبلغ عن ذالك ، ويجب عليه أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أوسمع بأن أحداً من الموريسكيين — العرب المتنصرين يباشر بعض العادات الإسـلامية ، ومنها أن يحتفل بيوم الجمعة ، بأن يرتدى ثياباً أنظف من ثيابه العادية ، ويستقبل المشرق قائلا باسم الله . . . أو يرفض أ كل لحم الخنزير ، وشرب الخمر . . . أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية ، وينشر الأغانى العربية أو أن يستعمل النساء الخضاب فى أيديهن وشعورهن ، أويملس بيده على رؤوس أولاده ، أو يغسل الموتى أو يكفنهم فى أثواب جديدة ... إلخ) .

كانت هذه الشبه وأمثالها تتخذ ذريعة للتنكيل بالموريسكيين بالرغم من تنصرهم وانتمائهم إلى دين سادتهم الجدد . ومن الطبيعى أن يـكون موقف المسلمين الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم أدق وأخطر ، وقد كانت بقيت منهم جماعات كبيرة فى غرناطة وبلنسية وغيرهما يعيشون فى غمرة من الجزع الدائم وكانت محارق ديوان التحقيق تلتهم الكثير من هؤلاء وهؤلاء لأقل الشبه والوشايات .

وفى ص ٢٨٩ (ورأى بعض أكابر الأحبار أن خطر العرب المتنصرين لا يزول إلا بانقضاء عليهم وكان مما اقترحه المطران «ربيرا» أن يقضى عليهم بالرق ، وأن يؤخذ منهم كل عام بضعة آلاف للعمل بالسفن والمناجم بالهند حتى يتم إفناؤهم بهذه الطريقة) .

وذهب بعضهم إلى وجوب قتل الموريسكيين دفعة واحدة أو قتل البالغين منهم واسترقاق الباقين وبيعهم عبيداً) .

(وكان مما اقترحه بعض وزراء فيليب الثانى « أن يجمع الموريسكيون فى السفن ثم يغرقوا فى عرض البحر » .

(وقد وضع الدوق « دى ليرما وزير فيليب الثالث مشروعاً لتنفيذ فكرة القضاء على الموريسكيين خلاصته : أن هؤلاء الموريسكيين إنما هم عرب ، ويجب أن يعدم الشبان والكهول منهم ما بين الخامسة عشرة والستين أو أن يسترقوا أو يرسلوا للعمل فى السفن وتنتزع أملاكهم) .

أما الرجال والنساء الذين جاوزا الستين فينفوا إلى المغرب وأما الأطفال فيؤخذوا ويربوا فى المعاهد الدينية المسيحية ، وأخيراً استقر الرأى على النفى الإجماعى لجميع الموريسكيين إلى المغرب مع مصادرة أموالهم ، ونفذ قرار النفى فى كل مكان بصرامة ووحشية واستمرت السفن شهورا بل أعواماً تحمل أكداساً من تلك الكتل البشرية المعذبة فتلقى بها هنا وهناك فى مختلف الثغور الأفريقية فى غمرة من المناظر المروعة المفجعة) .

* * *

(٦) جاء فى كتاب (الدعوة إلى الإسلام — أو تاريخ نشر العقيدة الإسلامية) تأليف « سير . ت. و . « أرنولد » ترجمة : حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوى . ص ٥٤ .

(أما ولايات الدولة البيزنطية التى سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طول القرون

الكثيرة بسبب ما شاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية ، فقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد . . . ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح الذى يلفت النظر فى تاريخ القرن السابع من هذه العهود التى أعطاها المسلمون لأهالى المدن التى استولوا عليها وتعهدوا لهم فيها بحماية أرواحهم وممتلكاتهم وإطلاق الحرية الدينية لهم .

وفى ص٦٠ (ولما كان المسيحيون يعيشون فى مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذى منحهم حرية التفكير الدينى ، فقد تمتعوا وبخاصة فى المدن بحالة من الرفاهية والرخاء فى الأيام الأولى من الخلافة . . وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية فى بلاط الخليفة فى الدولة الأموية والدولة العباسية ، فاختار عبد الملك بن مروان القديس يوحنا ، وأباه ليكونا مستشارين له ، واختار عالماً مسيحياً من مدينة الرها يدعى « اثناس » مؤدباً لأخيه عبد العزيز . وكان « اثناس » مع تلميذه فى ولاية مصر وأثرى ثراءاً واسعاً ، وكان فى خدمة الخليفة المعتصم أخوان مسيحيان ، سلموية ، وإبراهيم وبلغا عنده منزلة فوق منزلة الوزراء) .

وفى ص٦٥ : (ولكن مبادئ التسامح الإسلامى حرمت مثل هذه الأعمال — اضطهاد الفرس للمسيحيين — التى تنطوى على الظلم ، بل كان المسلمون على خلاف غيرهم ، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً فى أن يعاملوا كل رعاياهم المسيحيين بالعدل والقسطاس ، وإذا نظرنا إلى التسامح الذى امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين فى صدر الحكم الإسلامى ظهر أن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة التصديق) .

وفى ص ٧١ (ويمكن أن نرجع كثيراً من اضطهادات المسيحيين فى البلاد الإسلامية إما إلى الشك فى ولائهم الذى كانت تثيره دسائس المسيحيين

الغرباء وأعداء الإسلام ، وتدخلهم فى شئونهم أو إلى ذلك الشعور السيء الذى أثاره ذلك المسلك القائم على الخيانة والغدر والقسوة الذى ظهر به هؤلاء الأجانب نحو المسلمين) .

وفى ص ٧٥ :(وشهدت هـــذه الفترة ذاتها تحول جماعة كبيرة من نصارى خراسان إلى الإسلام كما نقف على ذلك من رسالة لأحد رجال الكنيسة المعاصرين وهو البطريق النسطورى « يشوع ياق الثالث » وكان قد بعث بهذه الرسالة إلى سمعان مطران ريفاردشير ورئيس أساقفة فارس . .

وقد جاء فى هذه الرسالة : « وإن العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا يشاهدون ما أنتم عليه ، وهم بينكم كما تعلمون ذلك حق العلم ، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية ، بل على العكس يعطفون على ديننا ويكرمون قسسنا وقديسى الرب ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار ، فلماذا إذاً هجر شعبك من أهل مرو عقيدتهم ؟ ولماذا حدث ذلك فى وقت لم يرغمهم فيه العرب كما يصرح بذلك أهل مرو أنفسهم — على ترك دينهم ، بل تعهدوا أن يبقوا عليه آمناً مصوناً إذا اقتصروا على آداء جزء من تجارتهم إليهم) .

وفى ص ٧٨ : (كان المأمون نفسه شديد التحمس فيما قام به من جهود فى نشر الإسلام . . .ولم يسىء استعمال سلطته الملكية بمحاولة فرض عقيدته على غيره) .

(ذلك لما قدم شخص يدعى « يزدانيخت » زعيم المانوية فى زيارة بغداد وعقد مناظرة مع المتكلمين المسلمين، وأفحمه المتكلمون منهم حاول الخليفة أن يقنعه باعتناق الإسلام ولكنه أبى وقال : نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة ، وقولك مقبول ، ولكنك من لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم .

فلم يبد الخليفة شيئاً من الاستياء لإخفاق محاولته ووكل به حفظة خوفاً عليه من تعصب الغوغاء) .

وفى ٨١ :(ويمثل لنا تاريخ الحروب الصليبية الثانية حادثة على جانب عظيم من الأهمية . . . والقصة ذكرها « أودوالدويلى» أحد رهبان القديس دينيس الذى كان يشغل وظيفة قديس خاص للويس السابع ، وصحبه فى هذه الحروب ، ومما جاء فى وصف القصة (بينما كان الصليبيون يحاولون شق طريقهم براً عن طريق آسيا الصغرى إلى بيت المقدس منوا بهزيمة فادحة على يد الترك فى ممرات فريجيا الجبلية . . . وخلفوا وراءهم المرضى والجرحى وعامة الحجاج تحت رحمة الخونة من حلفائهم الإغريق وحاولت جماعة تبلغ ثلاثة أو أربعة آلاف أن تلوذ بالفرار) .

... ولكن الترك تابعوا انتصاراتهم ... وكاد يكون موقف من نجا من الموت من أولئك قد بلغ حد اليأس لو أن منظر شقائهم لم يذب قلوب المسلمين ، ويستدر شفقتهم فواسوا المرضى وأغاثوا الفقير والجائع الذى أشرف على الهلاك ، وبذلوا لهم العطاء فى كرم وسخاء بل لقد اشترى بعضهم النقود الفرنسية التى ابتزها الإغريق من الحجاج بالقوة والخداع ووزعوها بسخاء بين المعوزين منهم ، فكان البون شاسعاً بين المعاملة الرحيمة التى لقيها الحجاج من المسلمين وبين ما عانوه من قسوة إخوانهم المسيحيين من الإغريق الذين فرضوا عليهم السخرة وضربوهم وابتزوا منهم ماترك لهم من متاع قليل حتى إن كثيراً منهم دخلوا فى دين منقذيهم بمحض إرادتهم وكما يقول المؤرخ القديم : لقد جفوا إخوانهم فى الدين الذين كانوا قساة عليهم ، ووجدوا الأمان بين المسلمين الذين كانوا رحماء عليهم) .

ولقد بلغنا أن ما يربوا على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقهقروا إلى صفوف الأتراك آه ! إنها لرحمة أقسى من الغدر ، لقد منحوهم الخبز وسلبوهم عقيدتهم ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحداً من بينهم على نبذ دينه وإنما اكتفوا بما قدموا لهم من خدمات .

وفى ص ٩٢ : (وقد جلب الفتح الإسلامى إلى هؤلاء القبط — ذلك اللفظ الذى يطلق على المسيحيين من اليعاقبة فى مصر — حياة تقوم على الحرية الدينية التى لم ينعموا بها قبل ذلك وقد تركهم عمرو أحراراً على أن يدفعوا الجزية ، وكفل لهم الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية وخلصهم من ذلك التدخل المستمر الذى أنوا من عبئه الثقيل فى ظل الحكم الرومانى ولم يضع عمرو يده على شىء من ممتلكات الكنائس ولم يرتكب عملا من أعمال السلب والنهب) .

وليس هنالك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم فى الإسلام على نطاق واسع — كان راجعاً إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين ، بل لقد تحول كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح حين كانت الإسكندرية حاضرة مصر وقتئذ لاتزال تقاوم الفاتحين .

وقد بلغ خراج مصر فى عهد عثمان بن عفان اثنى عشر مليوناً من الدنانير ثم نقص إلى خمسة ملايين فى عهد معاوية ، وذلك بسبب دخول عدد كبير فى الدين الإسلامى ، ثم أخذ الخراج فى النقصان فى عهد عمر ابن عبد العزيز حتى إن والى مصر اقترح ألا يعفى من يدخلون فى الإسلام بعد ذلك من أداء الجزية ولكن الخليفة التقى أبى أن يجيب هذا الوالى إلى طلبه قائلا : (إن الله بعث محمداً ﷺ داعياً ولم يبعثه جابياً) .

وفى ص ٩٦ : (وفى عهد صلاح الدين الأيوبى فى مصر تمتع

المسيحيون بالسعادة إلى حد كبير فى ظل ذلك الحاكم الذى عرف بالتسامح الدينى ، فقد خفف الضرائب التى كانت فرضت عليهم وأزال بعضها جملة وملئوا الوظائف العامة كوزراء وكتاب وصيارفة) .

وفى عهد خلفاء صلاح الدين نعموا بمثل هـــذا التسامح والرعاية قرابة قرن من الزمان ولم يكن هناك ما يشكون منه إلا ما اتصف به كهنتهم أنفسهم من الفساد والانحطاط فقد فشــت السيمونية بينهم فبيعت مناصب القسيسين الذين اتصفوا بالجهل والرزيلة) .

وفى ٩٧ : (ومما يدل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام لم يكن راجعاً إلى الاضطهاد ما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصلية ، وهو أنه فى الوقت الذى شغر فيه كرسى البطرقية تمتع المسيحيون بالحرية التامة فى إقامة شعائرهم ، وسمح لهم بإعادة بنــــاء كنائسهم بل ببناء كنائس جديدة) .

وفى ص ١١٩ : (وفى الحق أن سياسة التسامح الدينى التى أظهرها الفاتحون — للأندلس — المسلمون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر فى تسهيل استيلائهم على هذه البلاد . وفى الأحوال التى كان يعتدى فيها المسيحيون على الدين الإسلامى كانوا يحاكمون أمام قضائهم وفقاً للقوانين المعمول بها فى بلادهم ، ولم يتعرض المسلمون لهم فى إقامة شعائرهم الدينية) .

وفى ص ١٢١ : (وإن سياسة التسامح الدينى التى سارت عليها الحكومة الإسلامية فى أسبانيا وحرية الاختلاط بين المتدينين بالديانتين قد أدت إلى شىء من التجانس والتماثل بين الجماعتين وقد كثر التصاهر بينهم) .

وفى ص ١٢٤ : (فقد ذكر المؤرخون أن المسيحيين الذين دخلوا فى الإسلام وجدوا فى مدينة « ملقة » التى استولى عليها جيش فردينا ندوا

وإزابلا ، وأنهم قد عذبوا عذاباً أفضى بهم إلى الموت وذلك بوضع الغاب الحاد المدبب فى أجسامهم) .

رسالة بقلم مسلم اندلسى

وفى ١٢٧ : (ذلك أن أحد مسلمى أسبانيا الذى طرد من بلاده حين أقصى العرب لآخر مرة سنة ١٦١٠ م بينما نراه يحتج على اضطهادات محاكم التفتيش يثبت بالأدلة القاطعة مدى التسامح الدينى الذى سار عليه إخوانه فى الدين فى هذه الكلمات (هل حاول أسلافنا المنتصرون ولو مرة واحدة أن يستأصلوا المسيحية من أسبانيا حين كان فى مقدورهم أن يفعلوا ؟ ألم يسمحوا لآبائكم بأن يتمتعوا بحرية استعمالهم رسومهم الدينية فى نفس الوقت الذى لبسوا فيه طيالسهم ؟ ؟ ألم يوص نبينا ﷺ بأن نترك الحرية الدينية لأهالى البلاد التى يفتحها العرب بحد السيف مهما بلغت آراؤهم الدينية من حمق وخرق ؟ بل ألم يسمح لهم بالتدين بأى دين آخر يؤثرونه على دينهم إذا دفعوا مقداراً معتدلا من الجزية فى كل سنة ؟ ؟

وإذا كان ثمت أمثلة قد يأتى بها بعضهم للدلالة على إرغام الأهلين على اعتناق الإسلام فإن هذه الأمثلة قد بلغت من الندرة بحيث لا تستحق أن تذكر هنا ، وإنما حاولها أناس لا يخشون الله ونبيه — ﷺ — بل قاموا بهذا العمل من تلقاء أنفسهم مع مخالفته لتعاليم الدين الإسلامى وسنة نبيه ﷺ تلك التعاليم التى لا يمكن أن يدنسها أو ينتهك حرمتها إلا كل شخص لا يتحلى بصفات المسلم الحقيق .

وأنتم لا تستطيعون أن تظهروا لنا شيئاً ما عن أية حادثة خاصة بسفك الدماء أو تقدم للمحاكمة بسبب الطرق المختلفة التى اتبعت فى إقناع الناس وتلقينهم تعاليم تشبه على نحو ما محاكم التفتيش الممقوتة ، وإن يدنا مبسوطة دائماً لتلقى كل من وهب الله له نعمة الدين بديننا ولكن كتابنا المقدس ،

وهو القرآن الكريم لا يجيز لنا أن نتحكم فى ضمائر الناس ، وإن الذين استجابوا إلى ديننا قد نعموا بكل ما يمكن أن يتصوره العقل من تشجيع ومعاضدة حتى إذا اعترفوا بوحدانية الله ورسالة نبيه - ﷺ - صاروا كواحد منا من غير تمييز ولا استثناء فتزوجوا بناتنا وشغلوا المناصب التى يكون أصحابها محل ثقة ويحاطون بمظاهر الشرف وينعمون بالثراء ، وكان أقصى مارضيناه لأنفسنا من هؤلاء أن طلبنا إليهم فى رقة أن يلبسوا لباسنا ، وأن يظهروا بمظهر المخلصين الحقيقيين للدين فى كل ما يظهرون به أمام الناس دون أن يعرضوا ضمائرهم للامتحان بشرط أن لا يغضوا من شأن ديننا أو يدنسوه ، فإذا فعلوا ذلك أنزلنا بهم ما يستحقون من العقاب بلا مراء ، إذ كان تحولهم إلى هذا الدين عن طواعية واختيار لاعن إرغام وإكراه) .

رسالة بقلم مقاريوس بطريق أنطاكية

فى القرن السابع عشر

وفى ص ١٣٨ : (هذه الرسالة التى تثبت فى وضوح الفرق الشاسع بين سماحة الإسلام ورحمته وبين قسوة الوحشية التى كان يعامل بها بعض طوائف المسيحيين إخوانهم من الطوائف التى تخالفهم مذهبياً حتى تمنى هذا البطريق داعياً دوام الحكم الإسلامى فى ظل دولة الخلافة يومئذ ، قال البطريق : (إننا جميعا ذرفنا الدمع غزيراً على آلاف الشهداء الذين قتلوا فى هذه الأعوام الأربعين أو الخمسين على يد أولئك الأشقياء الزنادقة أعداء الدين وربما كان عدد القتلى سبعين أو ثمانين ألفاً .

فيا أيها الخونة يا مردة الرجس ، يا أيتها القلوب المتحجرة ماذا صنع الراهبات والنساء ؟ وما ذنب هؤلاء الفتيات والصبية والأطفال الصغار حتى تقتلوهم ؟ ولماذا أسميهم البولنديين الملعونين ؟ لأنهم أظهروا أنفسهم أشد شراسة وأكثر انحطاطاً من عباد الأصنام المفسدين وذلك أنهم بما أظهروه من قسوة فى معاملة المسيحيين وهم يظنون بذلك أنهم يمحون اسم الأرثوذكس

أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد ، فهم يأخذون مافرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين يهوداً أم سامرة .

أما هؤلاء البولنديون الملاعين فلم يقنعوا بأخذ الضرائب والعشور من إخوان المسيح بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر ، بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس ولا بأن يتركوا لهم قسساً يعرفون أسرار دينهم) .

وفى ص ٢٩٩ : (ومن المهم أن نلاحظ أن لون الزنجى وجنسه لم يحملا بأية حال إخوانه الجدد المسلمين فى الدين على أن يتعصبوا عليه ، ولا شك أن نجاح الإسلام قد تقدم تقدماً جوهرياً بسبب عدم الإحساس باحتكار الأسود ، وفى الحق يظهر أن الإسلام لم يعامل الأسود قط على أنه من طبقة منحطة كما كانت الحال لسوء الحـــظ فى كثير من الأحيان فى العالم المسيحى) .

وفى ص ٣٠٠ (وليست هناك هوة بين الداعى إلى الإسلام والمتحول إليه فكلاهما متساو أحدهما مع الآخر ، لا نظرياً ، بل عملياً أمام الله ... وينفذ مبدأ التآخى الإنسانى تنفيذاً عملياً ... ويمنح الإسلام هؤلاء الذين يعتنقونه منزلة أرقى وفكرة أسمى عن مكانة الإنسان من العالم المحيط به ويحرر من ربق ما ألف من الأوهام والخرافات) .

وفى ص ٣٤٥ (ولا يستطيع أحد أن يوضح الطابع العقلى للعقيدة سلامية وما جنته من الفائدة من هذا الطابع فى جهودها فى نشر الدعوة توضيحاً يبعث على الإعجاب بأكثر مما وضعه البروفسور (مونتيه) فى العبارات التالية (الإسلام فى جوهره دين عقلى بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية ، وإن تعريف الأسلوب العقلى بأنه

طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادىء المستمدة من العقل والمنطق ينطبق عليها تمام الانطباق) .

(وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة فى الدين وفى نشاط الدعوة إلى الإسلام) .

(ولكن على الرغم من التطور الخصيب بكل ما فى هذه الكلمة من معنى لتعاليم النبى ﷺ حفظ القرآن الكريم منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل باعتباره النقطة الأساسية التى بدأت منها تعاليم هذه العقيدة) .

(وقد جهر القرآن دائماً بمبـــدأ الوحدانية فى عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول ، ومن العسير أن نجد فى غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا وأن هذا الإخلاص كمبدأ الدين الأساسى والبساطة الجوهرية فى الصورة التى يصاغ بها هذا الدين، والدليل الذى كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعاً يلتهب حماسة وغيرة ،إن هـذا كله يكون الأسباب الكثيرة التى تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين .

وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد خالية من جميع التعقيدات الفلسفية ، ثم هى تبعاً لذلك فى متناول إدراك الشخص العادى أن تمتلك فعلا قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس) .

وفى ص ٣٨٢ (لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام (٧٠٠) إلى عام (١٢٠٠) م . يتزعم العالم كله فى القوة والنظام وبسطة الملك وجميل الطباع والأخلاق وارتفاع مستوى الحياة وفى التشريع الإنسانى الرحيم ،والتسامح الدينى ، والآداب والبحث العلمى والعلوم والطب والفلسفة) .

* * *

إلى هنا نرى أن نغض من عنان القلم ونكف من سبحه فى أودية الصور والمشاهد التى كتبها كثير من الباحثين المنصفين فى لحظات تحررت فيها عقولهم

وأقلامهم وضمائرهم من أغلال العصبيات الدينية والتحزبات فكتبوا ماعلموا . سجلوا ماشاهدوا من حقائق الأحداث ووقائع التاريخ هنا وهناك .

وحسب الحق فى هذا العصر المقفر من أنداء الروحانية أن يجد من بين أسداف الظلام المتكاثفة منطلقاً لأشعته رغم حجب الضباب التى صنعها العلم المادى المترنح من نشوة الدمار .

وحسب الحق فى هـــذا العصر ـ الذى فقدت فيه الإنسانية (المتحضرة) الضمير الإنسانى ـ أنه يعيش مع هـذا (الضمير) فى أعماق إيمان الذين يحيون بفطرة الإنسان التى فطره الله عليها .

كلمة حق لمن شاء أن يؤمن بالحق

يدور كثير من الباحثين فى تاريخ الإسلام حول أمور توهموها عوامل لنشر الإسلام ، وكثير من هـذه الأمور لا يستقيم مع طبيعة الأشياء ، ولا يتفق مع الواقع ، وإنما يندفع هؤلاء الباحثون إلى ذلك لأنهم يأبون أن يفهموا حقيقة الإسلام ، ووشائجه بالقوى الكامنة فى ضمير الإنسانية .

هذا الضمير الذى يعتمد عليه الإسلام فى إثارة المشاعر والأحاسيس الإنسانية لترتفع عن حضيض شهوة الجسم إلى آفاق فسيحة غير محدودة فى أرجاء هذا الكون العظيم الذى سخره الله تعالى للإنسان وامتن عليه بذلك فى كتابه الكريم ـ القرآن العظيم ـ

فقال تعالى : « وسخر لكم الليـــل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »[١] وقال عز شأنه :

---

(١) سورة النحل آية ١٢ .

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة »[١] وقال جل ذكره : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[٢] .

فالكون بعوالمه كلها ـ فى شرعة القرآن الكريم ـ مخلوق لأجل منفعة الإنسان مسخر له ، وأنه شركة بين جميع الناس فلا سلطان لأحد ، فرد ، أو جماعة ، أو جيل ، أو شعب ، أو أمة ، أو دولة على شئ منه إلا بمقدار ما فى أيديهم من مفاتيح خزائن السموات والأرض .

هذا الفهم لحقيقة الإسلام هو الذى كانت تقوم عليه طلائعه الإيمانية فى سلوكها وتطبيقها العملى فى واقع الحياة ، وهذا الفهم هو الذى حرر العقول ودفعها إلى تحطيم أغلال الجهالة البليدة والجمود المتحجر ، فأقبلت عليه تنظر فيه ، وتتمعن أسراره إقبال الظمآن فى هجير الصحراء على نمير الماء .

وفى الحق أن شأن سرعة انتشار الدعوة الإسلامية معجزة من معجزات هذا الدين القيم لأن عوامل هذه السرعة نبعت من صميم النظام الإسلامى فى بساطة عقيدته ومرونة تشريعه الذى يجعل من هذا النظام ديناً وشريعة ودولة ، يحكم بجانبه الدينى القلوب والضمائر ، ويوجه الأرواح إلى مطالع الإشراق .

وبجانبه التشريعى يحكم ويوجه الأفراد والجماعات ، وبجانبه الدولى من هذا التشريع يوجه الأمة الإسلامية إلى أن تأخذ مكانها فى المجال الدولى ، أمة رائدة للإنسانية ، وفى هذا الإطار يحدد علاقاتها بالأمم والشعوب .

وقد وقعت هذه المعجزة على أيدى الدعاة السابقين الأولين لهذا الدين ، وعنها انفرجت طبيعة الإسلام فى نماذجهم الحية التى نقلت إلى الحياة آدابه وأخلاقه وفضائله بسلوكهم العملى ، وهو نقى مصفى ، قبل أن تشوهه تلك

---

(١) سورة لقمان آية ٢٠ .

(٨) سورة الجاثية آية ١٣ .

الفلسفات الكافرة بالقيم الروحية ، وقبل أن تفسد نظم حكمه نظم الحكم الفاسقة من جادته وشريعته .

ليت قادة العالم وزعماء شعوبه وحكام دوله الكبرى يقرءون دستور الإسلام فى كتابه القرآن العظيم ، وفى سيرة رسوله الأمين محمد خاتم النبيين ﷺ وفى تاريخ رجالاته الأولين ليعلموا — إن كانوا صادقين فى تباكيهم على ما تردى فيه الإنسانية من وهاد المفاسد الاجتماعية — على أى أساس يجب أن يقوم العدل الاجتماعى بين الناس ؟ وعلى أى أساس يتحقق الإخاء الإنسانى بين الأمم والشعوب ؟

ومن يدرى فقد يكون سيد اليوم بعلمه المادى المدمر طريد الغد بفقره الروحى ، وقد يكون مستعبد اليوم بفقره المادى سيد الغد بإيمانه وقوة روحانيته ، ولقد صدق رب العزة إذ يقول : « وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » وإذ يقول : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » .

اللهم إنى أستمطر سحائب جودك بغيث حمدك بجميع محامدك ، وأستهتن صيب شكرك بنور توفيقك ، وأستنزل مطالع رضاك ببذل التعبد لك ، وأستمنحك رحمتك بواسع فضلك .

سبحانك لا يحصى جميع من خلقت فى ملكك الثناء عليك ، ولا يعلم قدرك غيرك . تفضلت فهديت ، وأنعمت فأسبغت ، فلك الرضا ، وبك الرضا ومنك الرضا ، يا حى يا قيوم ، يا حليم يا كريم ، يا رحمن يا رحيم ، يا غفور يا ودود .

اللهم فاجعل أزكى صلواتك وتسليماتك على أزكى أنبيائك سيدنا محمد الذى أرسلته رحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه شموس الهداية ، ومصابيح الحياة . والسلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

مراجـــع الـكـتاب

لست ممن يحب إفراد المراجع ببيان خاص، إلا بأسماء المؤلفات والـكتب التى قد تـكون لها ملايمة ببعض موضوعات البحث ، لأن ذلك لا يعطى صورة صادقة لما أخذ عن هذه المؤلفات والـكتب ، ولا يعطى القارىء صورة صادقة عن الجهد الذى بذله المؤلف فى اطلاعه عـلى هذه المؤلفات والـكتب ، ليستخرج منها ما يريده استشهاداً أو تأييداً ، أو عرضاً لفـكرة .

ومنهجنا الذى ارتضيناه فى البحث ، وأخذنا به فى سائر مؤلفاتنا أن نثبت مراجعنا بذكرها صراحة عند مناسباتها فى النقل عنها ، والاستشهاد ببعض آراء مؤلفيها ، أو عرض فـكرة أوردتها .

ومن هنا يستطيع قارىء هذا الـكتاب أن يجد فى ثناياه جميع مراجعه ويستطيع — إذا أراد — أن يحصيها إن كان لهذا الإحصاء قيمة علمية .

وذكر المراجع عند مناسباتها بإيراد عباراتها فى الاستشهاد أو التأييد أو عرض الفـكرة أوثق منهجاً من ذكرها فى بيان يجمعها هكذا . . . وأفيد للقارىء وأعون له على الرجوع إليها إذا أراد ذلك .

وهذه هى طريقة أسلافنا من العلماء والباحثين ، وهى أرجح فى ميزان المنهج العلمى من زخرفة التقليد لمن لا يحسنون التجديد .

والله تعالى ولى التوفيق : وإنما الأعمال بالنيات وإنما لـكل امرىء ما نوى .

فهرس موضوعات
الموسوعة في سماحة الإسلام

الموضوع	الصفحة
فكرة البحث وبواعثها	٣
منهج البحث	١٣
المصادر الأصيلة للتشريع فى الإســـلام	٢٩
المصدر الأول — القرآن الحكيم	٣١
المصدر الثانى — السنة النبوية	٤٣
الوجه الأول : طاعة الرسول طاعة الله	٤٦
الوجه الثانى : معصية الرسول معصية الله	٦٨
الوجة الثالث : لايتم الإيمان بالله إلا بالإيمان بالرسول ، وحكم الرسول حكم الله	٨١
المصدر الثالث : العمل التطبيقى لنصوص الكتاب والسنة	١٠٧
الأصول العامة للتشريع فى الإسلام	١٣٧
الأصل الأول — وحدة الإنسانية	١٣٩
فكرة الإسلام عن الوحدة الإنسانية	١٤١
فكرة التوراة عن الوحدة الإنسانية	١٤٣
فكرة الديانة الهندية عن الوحدة الإنسانية	١٤٧
فكرة قدماء الفرس عن الوحدة الإنسانية	١٤٩
لتسامى الإسلام بفكرة الوحدة الإنسانية	١٥١

الموضوع	الصفحة

خصائص الوحدة الإنسانية فى القرآن الحكيم	١٥٤
خلافة الإنسان فى الأرض	١٥٥
القصة قطعية الوقوع	١٥٧
معنى خلافة الإنسان فى الأرض وحكمة اختياره لها	١٥٨
العلم أشرف خصائص الإنسانية	١٦٢
شرف النوع الإنسانى	١٦٨
قصة الحسد والكبر فى موقف إبليس	١٦٩
إطار القصة فى القرآن الكريم	١٧٢
الإسلام يشجع خصائص الإنسانية العليا فى الأفراد والجماعات	١٧٤
عناية القرآن بإبراز مبدأ المساواة بين أبناء الإنسانية عامة	١٧٥
من لطائف النظم البيانى فى القرآن العظيم	١٧٧
المساواة الإنسانية فى نعم الله	١٧٩
وشيجة الإخاء الإنسانى وربطها بمنبع الإنسانية الموحد	١٨٣
نظرة فى الترتيب المعنوى للآيات الثلاث	١٩٠
القيم الأعلى للتشريع الإسلامى وحظ الإنسانية منه	١٩٢
عموم الخطاب بإثبات دار الجزاء	١٩٨
ميزان التفاضل بين أبناء الإنسانية فى نظر الإسلام	٢٠٢
التطبيق العملى لمبدأ المساواة الإنسانية	٢٠٦
الأصل الثانى — وحدة الدين وأثرها فى التشريع الإسلامى العام	
الإسلام دين جميع الأنبياء والرسل	٢١٣
المقصود الأعظم من الدين	٢١٦
عناية الإسلام الفائقة بالوحدة الدينية	٢٢٦
التطبيق العملى لمبدأ الوحدة الدينية فى الإسلام	٢٣٨

الموضوع	الصفحة
أثر الوحدة الدينية فى نشر دعوة الإسلام	٢٤١
هجرة المسلمين إلى الحبشة	٢٤٢
كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى	٢٤٣
إيمان النجاشى ورده على كتاب النبي صلى الله عليه وسلم	٢٤٥
القرآن يسجل هذا الموقف الكريم	٢٥١
من النجاشى إلى قيصر والمقوقس وموقفهما من كتابى النبي صلى الله عليه وسلم لهما	٢٥٧
نظرة وعبرة	٢٥٩
الأصل الثالث — العدل فى الإسلام وأثره فى التشريع العام	٢٦٥
العدل فى نظر المفكرين	٢٦٥
العدل فى نظام الكون	٢٦٧
العدل الاجتماعى فى الإسلام	٢٦٩
شناعة الظلم فى نظر الإسلام	٢٩٢
الأصل الرابع — الوفاء بالعهد وأثره فى توجيه التشريع الإسلامى	٣٣١
الوفاء بالعهد أرفع صورة من صور العدل	٣٣١
الوفاء بالعهد فريضة الله فى جميع شرائعه	٣٣٢
الوفاء بالعهد فضيلة إنسانية	٣٣٦
الوفاء بالعهد أساس من أسس التشريع فى الإسلام	٣٣٩
الوفاء بالعهد أعظم صور العدل الاجتماعى	٣٤٤
مكانة الوفاء بالعهد من الفضائل فى تصوير القرآن والسنة	٣٤٦
اليهود أخبث نماذج الرذائل الإنسانية	٣٥٢
المنافقون وباب اليهود فى الخيانة والغدر	٣٥٨

الموضوع	صفحة

شدة حرص الإسلام على فضيلة الوفاء بالعهد	٣٦٦
عهد الحديبية من أعظم شواهد الوفاء بالعهد فى الإسلام	٣٦٩
تحليل يكشف عن لوامع هذه المعاهدة	٣٨٧
الأمر الأول	٣٧٨
الأمر الثانى	٣٧٩
الأمر الثالث	٣٨٥
الأمر الرابع	٣٨٧
الأمر الخامس	٣٨٨
الأمر السادس	٣٩١
الأمر السابع	٣٩٢
مواقف مشرفة لأئمة الإسلام	٤١٠
علماء الإسلام فى حماية عهود أهل الذمة	٤١٠
رأى الأوزاعى	٤١١
١ — رأى الإمام الليث بن سعد	٤١٣
٢ — رأى الإمام سفيان بن عيينة	٤١٤
٣ — رأى الإمام مالك بن أنس	٤١٥
٤ — رأى الإمام موسى بن أعين	٤١٦
٥ — رأى الإمام إسماعيل بن عياش	٤١٦
٦ — رأى الإمام يحي بن حمزة	٤١٧
رأى الإمامين : أبى إسحاق الفزارى ، ومخلد بن حسين	٤١٨
رأى الإمام أبى عبيد القاسم بن سلام	٤١٩
اختيار الإمام ابن القيم	٤٢٠
سماحة المعاملة فى تصرفات القادة والأمراء فى فتوح الشام	٤٢٥

الموضوع	الصفحة
كتاب خالد بن الوليد فى مصالحة أهل الحيرة	٤٢٧
تطبيق سماحة الإسلام أعظم أسباب سرعة انتشاره	٤٣٣
سماحة المعاملة فى فتوح العراق	٤٤٢
الأصل الخامس — نظام الحكم فى الإسلام وأثره فى تطبيق سماحة التشريع	٤٥١
الأمل ينهض بالأمة فلا تستسلم للعواصف	٤٥٣
العلم والدين بين الشرق الإسلامى والغرب	٤٦٣
نظام الحكم فى العالم الإسلامى	٤٦٩
أسطورة الديمقراطية	٤٧٤
الحضارة المنقذة	٤٨٠
الإسلام دين ودولة	٤٨٣
نماذج فاضلة للتربية الإسلامية : أبو حازم وسليمان بن عبدالملك	٤٩١
شريك بن عبدالله والأمير موسى بن عيسى	٤٩٥
عمرو بن عبيد والمنصور	٤٩٩
عمرو بن حبيب والرشيد	٥٠٠
عبد الله بن طاوس والمنصور	٥٠١
عاقبة بن يزيد والمهدى	٥٠٢
الأساس العام فى نظام الدولة الإسلامية	٥٠٥
بأى دستور تحكم الأمة الإسلامية ؟	٥١٥
الديمقراطية الخادعة	٥٣١
الحكم الإسلامى أفضل أنظمة الحكم	٥٣٢
أهم دعائم الحكم فى الإسلام : الشورى	٥٣٣

المجـــلد الثانى

الموضوع	صفحة
الحاكم فى نظام الحـكم الإسلامى يحكم ولا يملك	٥٤٧
أول حاكم فى الإسلام	٥٥٣
وفاء الدستور الإسلامى بالأحكام الأساسية للدولة	٥٥٦
إقامة الحاكم العام على رأس الدولة ضرورة اجتماعية ودينية	٥٥٨
تطبيق مبدأ الشورى	٥٦٢
بيعة أبى بـكر دستور عملى فى نظام الحـكم الإسلامى	٥٦٩
عهد الحاكم الأعلى إلى الأمة وطريقة أبى بـكر فى تنفيذ الشورى	٥٧١
ولاية العهد فى الإسلام ومبدأ الشورى	٥٨١
الشورى فى عهد عمر بن الخطاب	٥٨٨
طريقة عمر فى تطبيق الشورى لاختيار رأس الدولة	٥٩٠
نظرة وعبرة	٦٠٥
نـكسة فاجعة	٦١١
عوامل حيوية الأمة الإسلامية برغم عواصف الفتن	٦١٧
سماحة العقيدة فى الإسلام	٦٢٤
البعث والنشور فى أسلوب القرآن	٦٦٨
البعث فى أسلوب المتـكلمين والفلاسفة	٦٧٦
سماحة التعبير فى الإسلام	٦٨٦
نموذج من سماحة الترابط الاجتماعى فى الإسلام	٧٠٠
سماحة النصيحة فى الإسلام	٧١٣
عبرة وعظة	٧١٦

الموضوع	الصفحة
الجهاد فى الإسلام :	
حقيقته — حكمته — أنواعه — مراتبه إذاً لماذا شرع	
الجهاد فى الإسلام	٧١٩
مراحل الدعوة الإسلامية	٧٣٧
المرحلة الأولى	٧٣٩
صبر رسول الله وأصحابه على أذى المشركين	٧٥٠
صبر طلائع الإيمان من السابقين	٧٥٦
أبوبكر الصديق	٧٥٧
من الرعيل الأول	٧٦٠
عثمان بن عفان — الزبير بن العوام — عمر بن الخطاب	٧٦١
بلال — آل ياسر	٧٦٢
خباب بن الأرت	٧٦٣
أبوذر الغفارى	٧٦٤
عثمان بن مظعون	٧٦٥
مصعب بن عمير	٧٦٧
هكذا كان حال المسلمين	٧٧٢
المرحلة الثانية — جهاد القتال — الإذن بالقتال لدفع العدوان	٧٨١
أول أمر بالقتال	٧٨٢
مراتب جهاد القتال :	
المرتبة الأولى — إباحة القتال دفاعا عن النفس	٧٨٦
المرتبة الثانية — الأمر بالقتال لرد الاعتداء	٨٠٠
شرط القرآن لهذا القتال شرطين	٨٠٥

الموضوع	الصفحة
المرتبة الثالثة — لتكون كلمة الله هى العليا — الأمة الإسلامية في حاضرها وماضيها	٨٣٦
جهاد القتال لحماية الحق الإلهى	٨٨١
أول دعائم هذا الجهاد	٨٨٢
النسخ والسيف	٩٢١
جهاد القتال فى الإسلام دفاعى	٩٣٣
الهداية هدف دعوة الإسلام	٩٣٨
منهج الدعوة — نماذج وصور	٩٣٩
بيان يكشف عن معنى آيات الأمر المطلق بالقتال	٩٧٠
الجزية فى الإسلام — حقيقتها وحكمتها	١٠١١
إجمال تصويرى لإطار الجهاد فى الإسلام	١٠٢٠
السلام المسلح والضربة الحاسمة	١٠٢٤
الرق فى نظر الإسلام	١٠٣٧
الإسلام واجه الرق مضطراً وعالجه حاسماً	١٠٣٩
اضطرار الإسلام إلى أن يحد من مرتبة بعض الأفراد	١٠٥٢
روح الإسلام تقضى على الرق	١٠٦٣
صور إنسانية إسلامية نبيلة فى معاملة الأسرى والأرقاء	١٠٧١
رفق ورحمة	١٠٩٣
منهج الإسلام فى القضاء على الرق	١٠٩٧
أشعة الحق لايحجبها الضباب	١١١٣
حق وإنصاف — شهادة صدق ممن لايتهم بتعصب للاسلام	١١٢٠